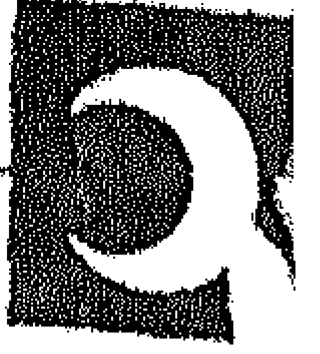


كتاب الهلال



سلسلة ثقافية شهرية

أحمد عرابى

الزعيم المفترى عليه

محمود الخفيف

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الادارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : الدكتور على الراعى

العدد ٢٤٦ جمادى الاولى ١٣٩١ - يولية ١٩٧١

No. 246 — Juillet 1971

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ - فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات أمريكية أو ٢ جك - والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج.ع.م.) - والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشــــــــة
الفنان حلمى التــــونى

محمود الخفيف

أحمد عرابى

الزعيم المفترى عليه

الجزء الثانى

دار الهلال

العدوان الفاجر

هذا هو العدوان الذى لا نجد فى تاريخ الحروب أقبح منه او أشد منه فجورا ، والذى سوف تنطوى العصور ويظل فى تاريخ الانسانية من أبلغ الامثلة على ما يفعل الاقوياء بالضعفاء ، وفى تاريخ الاستعمار المثل الرائع على ركوب اية وسيلة الى الغاية فى غير مبالاة بما يسمى الشرف أو الحق أو العدالة ...

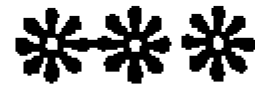
هذا العدوان الغادر الشنيع هو اطلاق المدافع من الاسطول الانجليزى على مدينة الاسكندرية فى اليوم الحادى عشر من شهر يوليو سنة ١٨٨٢

وانه لتاريخ خليق بأبناء هذا الوادى وبنى الشرق جميعا أن يذكروه ، كلما تحدث متحدث عن الضمير والشرف البريطانى وعن الحضارة الاوربية بوجه عام فى هذا الشرق المسكين ...

وانه لعدوان خليق بأن يخجل منه ساسة الانجليز اذا نسوا اطماعهم فترة ، وفكروا فيما ينطوى عليه من غدر وقحة ...

وانه لثأر جدير بكل أب وبكل أم فى هذا الوادى أن يتحدثوا به الى أبنائهم وبناتهم ، اذا أرادوا أن يغرسوا فى نفوسهم الغضب لكرامة وطنهم ، والاشمئزاز والنفور من الغاصب الدخيل ...

وما ندري بأية وسيلة نعبر عما نحس به ازاء هـذا العدوان الغادر وليس فى مقدورنا أن نعبر بالكلام عما يختلج فى ثنايا الصدور ...



قبل الخديو المذكرة المشتركة كما أسلفنا ، واستقالت وزارة البارودي فى اليوم السادس والعشرين من شهر مايو ، وظن المتربصون بمصر أن الحزب الوطنى وأن الحركة القومية قد انتهى أمرهما بسـقوط الوزارة ، ولكنهم ما لبثوا كما بينا أن تبينوا أن الامر أكبر مما يظنون ، واضطر الخديو الى اعادة عرابى بعـد يومين وزيرا للجهادية لحفظ الامن والنظام ...

ولكن مالت بدل أن يكف عن دسائسه أمعن فيها ، وبات همه الشاغل استعجال الحوادث التى تفضى الى احتلال مصر ، وكان جرانفل بالضرورة واياه على اتفاق ، وكان من ورائهما جلادستون أحد دعاة الحرية والمشتهرين بنصرتها !

وكانت السياسة الانجليزية قد حـددت سياستها نحو مصر ، وتتلخص هذه السياسة فى الانفراد باحتلال مصر وتحين الفرصة لذلك ، وهى فى الواقع سـياسة قديمة ترجع الى حملة نابليون على هذه البلاد ، وقد نشطت نشاطا عظيما منذ فتحت قناة السويس ...

وكان أمام انجلترا فى الخارج عقبتان : موقف فرنسا من المسألة المصرية ، وحق تركيا صاحبة هذه البلاد ، وفى الداخـل عقبة كؤود هى الحركة القوميـة بزعامة عرابى ، وكان سبيلها فى الخارج المراوغة والتربص وسوف يكون سبيلها فى الداخل البغى والعدوان ...

ولتمض انجلترا اذن فى مراوغتها بعد المذكرة المشتركة ولتحرص أشد الحرص كما حرصت من قبل على أن

تظهر لفرنسا والدول جميعا أنها لا تنوى العمل بمفردها ولتدع تركيا الى التدخل ، ولتطع فرنسا فى كل ماتدعو اليه ، لتفعل انجلترا ذلك كله فليس يضيرها شيء منه ، بل انه لستار تختفى وراءه الى حين ، ولن تعدم ذريعة لانفرادها بالتدخل حين تحين الفرصة ، وانها لتفيد من تردد تركيا وتراخيها اذ يهيىء لها ذلك أن تقول انها اضطرت آخر الامر أن تضطلع بحماية الاجانب ومصالحهم وأموالهم فى مصر ...

وكانت انجلترا منذ ارسال المذكرة المشتركة الثانية الى وزارة البارودى تزعم دائما فى صلتها بالدول وخاصة فرنسا خطورة الحال فى مصر وتبالغ فى الانذار والتخويف

وبعد سقوط وزارة البارودى بأربعة أيام أرسل دى فرسنيه الى السفير الفرنسي بلندن يقول : « لم يعد من أمل فى حل سلمى بالضغط الادبى القائم على وجود الاسطولين الفرنسي والانجليزى وعلى المساعى الطيبة التى يبذلها عمال الدولتين فى القاهرة »

واقترح فرسنيه أن يعقد مؤتمر دولى لحل المسألة المصرية ، وكان غرضه من هذا كما فعل حين اقترح مجيء السفن الى الاسكندرية أن يحول بين انجلترا وبين الانفراد بالعمل فقد بات يتوجس خيفة من سياستها..

وقبلت انجلترا الاقتراح واخذت تعمل فى نشاط لتنفيذ الفكرة مدعية أن الاحوال الداخلية فى مصر تتطلب عملا عاجلا حاسما . ولن تخيب انجلترا فى أن تجعل من المؤتمر أداة تنتفع بها فى تحقيق ما تبيته ..

ومما يدل على حيرة السياسة الفرنسية أن فرسنيه كما أسلفنا كان يرى أبان أزمة وزارة البارودى الا داعى الى التدخل فى شئون مصر ، وأرسل رأيه هذا الى جرانفل على لسان سفيره فى لندن ...

على أنه ما لبث ان راى جرانفل يخطو خطوة صوب الانفراد بالعمل ، وذلك انه كتب الى اللورد دوفرين فى الثامن والعشرين من مايو أن ينصح للسلطان بمؤازرة توفيق وأن يرسل فى طلب عرابى وزميليه والبارودى الى القسطنطينية ، وكتب فى نفس الوقت الى مالت كى يشير على الخديو بطلب مندوب عثمانى يحافظ على حياته ... ثم انه بعد ذلك أخبر فرسنيه بما فعل (١)

وصرح السير ادوار مالت قبل ذلك بيوم أنه لا يعد نفسه مقيدا باتباع الوسائل المنطوية على اللين والاعتدال والتى تضمنتها المذكرة المشتركة الثانية (٢)

وبعث أدميرال الاسطول الانجليزى الى حكومته بعد ذلك بيوم يخبرها أن مصر تنشىء طابية جديدة تجاه احدى سفن الاسطول ويطلب اليها زيادة السفن ، وقد أجابته حكومته الى طلبه دون أن تستشير فرنسا ...

من أجل ذلك اقترح فرسنيه عقد المؤتمر ظنا منه أن فى ذلك عرقلة لسياسة جرانفل ، ولم يشأ جرانفل أن يرفض المقترح فيكشف سياسته ولذلك رحب به ، بل وعمل على تنفيذه ...

وحرص جرانفل على أن يظهر بمظهر من لا غرض له الا المصلحة الدولية العامة ، كما فعل حين كتب الى الدول غداة وصول السفن الى الاسكندرية يؤكد لها الا غرض لانجلترا من وراء ذلك الا اقرار السلام فى مصر وأنه ليس لها من مطمع ولا هى ترمى الى الانفراد بالعمل و « أن الحكومة البريطانية لم تفكر قط فى أن تنزل الى البر جنودا ولا أن تحتل البلاد احتلالا عسكريا . وفى عزم حكومة جلالة الملكة ، متى أعيدت السكينة الى مصر

(١) الكتاب الازرق مصر رقم ٨ سنة ١٨٨٢ ص ٤٢ .
(٢) الكتاب الاصفر سنة ١٨٨٢ . رسالة رقم ١٤٥ .

وزال الخوف على مستقبلهـا ان تترك مصر وشـأنها وتسحب سفنها الحربية ، فاذا وقع عكس ما نرجو بأن تعذر حل المسألة حلا سلميا فانها تتفق مع الدول ومع تركيا على ما تكون قد رأته هى والحكومة الفرنسية أنجع الوسائل (۱)

وكان مظهر حرص انجلترا على التجرد من الفرض حين قبلت اقتراح فرنسا لعقد مؤتمر أن ابدت رغبتها فى ان تشترك تركيا فى المؤتمر ، ثم انها ارادت بهـذه الرغبة أن تعرقل مساعى فرنسا لعقد المؤتمر اذ كانت تعلم أن تركيا لا تميل الى هذا الاتجاه ...

وكانت سياسة تركيا تجاه الدولتين فى مصر تدعو الى الدهشة والاسف ، ومردها فيما نرى الى أنها كانت فى حيرة بين توفيق وبين عرابى ، فهى أن آزرت توفيق فكأنما توافق على انحيازه الى الدولتين وهو فى الواقع منحاز اليهما منذ أن خلع أبوه ، وهى ان آزرت عرابى وافقت على النزعة الدستورية الحرة فى مصر وقوت شوكة الفلاحين ضد الاتراك والشراكسة ، وقد كانت هذه اليقظة القومية التى تعد فى جوهرها موجهة ضـد السيادة التركية تتمثل فى عرابى زعيم مصر الفلاح ...

والواقع ان اضطراب سياسة تركيا نحو مصر يرجع كذلك الى غفلتها عن كثير من دسـائس الانجليز وعن السياسة الدولية بوجه عام ، ثم الى فسـاد رجالها وايثارهم مصالحهم الشخصية على مصـالح الدولة ، وامكان توجيههم بالرشوة الوجهة المطلوبة ولو كان فى ذلك ضياع دولتهم ...

ورفض السلطان أن يشارك فى المؤتمر ، ولكن ذلك زاد فى حرج موقفه ، اذ كيف يرفض ارسال مندوب الى

(۱) المسألة المصرية لروثستين .

المؤتمر وفى الوقت نفسه لايعمل عملا ما تجاه سياسة الدولتين فى مصر ؟ لذلك أوفد بعثة درويش ورأى فى ذلك سببا عمليا يحتج به على رفضه فكرة المؤتمر ...

وجاءت بعثة درويش وقد رأينا ما كان من سياستها المزدوجة كما رأينا عجز درويش ازاء الرأى الوطنى العام وتأثره بهدايا الخديو ، وتذبذبه بسبب ذلك بين حاكم مصر وبين زعيم مصر ...

ورأينا انعام السلطان على عرابى بالوسام المجيدى الاكبر ، وفى ذلك فضلا عما بيناه من معان ، معنى آخر هو أن عرابى لم يكن بالمتمرد ولا بالمتسلط ، بل انه الرجل الذى لاذ به الجميع لحفظ النظام ، وبذلك فلا وجه لما يذيعه الانجليز عن خطر الحزب العسكرى فى مصر ، ومن ثم فلا حاجة الى مؤتمر ، ولا الى تدخل من اى نوع كان ...

ولكن أين هذا الاسلوب من دهاء السياسة الانجليزية وخبثها وطول مرانها على اللؤم والمكر السيىء ؟ لقد دبر الانجليز وشركاؤهم مأساة الاسكندرية لتكون حجة لهم على صحة ما يقولون ... ومن هنا يتبين لنا خطر هذا الحادث المشئوم ...

ولذلك نعود بأشد اللوم على عرابى لانه أذعن لتوفيق حين جعل عمر لطفى رئيسا للجنة التحقيق ، ولانه تراخى بعدما كان من اقدامه أول الامر على اثر انسحاب الانجليز من اللجنة ، وكان عليه أن يتعقب الجناة مهما كان شأنهم وان يواجههم بالادلة ثم يضرب على أيديهم ، ولو انه فعل ذلك للعب لعبة بعيدة الاثر فى مجرى الاحداث اذ كان يفضح أعداءه ويحبط كيدهم ويردهم خاسرين ...

ولن يشفع لعرابى انه آثر الحرص على مودة الخديو ،

ولا انه خشى أن يفسر عمله بالتحدى لسلطته فيهيىء لاعدائه دليلا على صحة ما يزعمون من تدخله وتسلطه

لن يشفع له شيء من هذا فقد اضطلع بحفظ الامن وتعهد بذلك وكان بعد استقالة البارودى الحاكم الفعلي بل الحاكم الوحيد ، وقد أعيد الى منصبــه فى الوزارة لهذا الفرض بالذات ... الا انه لخطأ من أكبر أخطائه السياسية سوف يعود عليه وعلى مصر بأوخم العواقب

***

ولندع الآن موقف تركيا من المؤتمر لنعود الى ما كان بين فرسنيه وجرانفل ...

فى أول شهر يونية أى فى اليوم التالي لاقتراح فرسنيه ، أرسل اليه اللورد جرانفل يقترح مرة أخرى رجاء الدول العظمى أن ترسل الى السلطان تطلب اليه ارسال جنود تركيــة الى مصر ، ورد فرسنيــه ان الاولى أن تنظر الحكومتان هل توافق الدول على عقد المؤتمر أم لا ، وأجاب جرانفل بأن سؤال السلطان ارسال جنود الى مصر ينبغي أن يكون مما يشار به على اللورد دوفرين فيما يتصل ببرنامج المؤتمر . وأظهر فرسنيه تململه من هذا الرد ، لأن أجوبة الدول على الدعوة الى المؤتمر لم ترد بعد ...

وكان جرانفل فى الواقع يماطل ويسوف عله يستطيع أن يتخلص من عقد المؤتمر وان تظاهر أمام فرنسا أنه يرحب به ...

ولمــا وقعت مأساة الاسكندرية عادت انجلترا الى تخويفها العالم من سوء الحال فى مصر علها تجد فى ذلك ذريعتها للتدخل قبل هذا المؤتمر الذى تشير به فرنسا

أرسل مالت الى جرانفل بعد المذبحة بيومين أى فى اليوم الثالث عشر من يونية يقول : ان بعثة درويش قد

فشلت فشلا تاما فى مهمتها ، وان مندوب السلطان اضطر الى الخضوع لسلطة عرابى وانه ادلى الى ممثلى الدول بقوله انه تحت ضغط الظروف الملحة يشارك عرابى باشا فى تنفيذ أوامر الخديو ، وانه وزع الاوسمة على العرابيين وعلى الخديويين ، وان تأثيره قد ذهب

وأراد فرسنيه ان يأخذ الطريق على السياسة البريطانية بفكرة اخرى فأعلن انه بعد سيطرة عرابى على الموقف « قد تهيأ كل ما يمكن من تسوية المسألة المصرية بالاتفاق مع عرابى »

وردت الحكومة البريطانية على ذلك ردا حاسما صريحا قائلة : « انه لايمكن وضع تسوية ثابتة مقبولة الا بالقضاء على عرابى باشا والحزب العسكرى فى مصر » (١)

واهتم الانجليز فى مصر ، أكثر من قبل ، باذاعة الانباء عما يزعمونه من سوء الحال وذلك كى يردوا على قول درويش وقول السلطان من ان الحال هادىء لايستدعى شيئا من القلق ...

وأراد جرانفل أن يستغل حادث الاسكندرية قبل أن تظهر حقيقته فكتب فى اليوم الثالث عشر من يونية دون الرجوع الى فرسنيه ، الى القناصل الانجليز فى الدول المختلفة بأن يعرضوا على هذه الدول اقتراحا مؤداه أن يطلب الى السلطان ارسال جنود الى مصر بشروط معينة أهمها عدم الاعتداء على الفرمانات المقررة ...

ورأى فرسنيه الا يدع انجلترا تتصرف وحدها فوافقها مرغما مشترطا ان يكون هؤلاء الجنود خاضعين لاوامر الخديو العليا ، وقبل جرانفل هذا الشرط ، وانه ليجعل من هذا كله ستارا لنياته ... ثم كتب فرسنيه

---

(1) Comer P. 228.

الى قناصله لتفعل كما فعل القناصل الانجليز ...

واتفقت الدولتـان على عقد المؤتمر عاجلا بمشاركة انجلترا أو بغير مشاركتها ، اذ أن السلطان كان لايزال على رفضه بحجة أن درويش قد نجح فى مهمته ، وان وزارة شكلت فى مصر وعادت الامور الى مجراها العادى

وبعد شيء من الاخذ والرد اجتمع المؤتمر فى الآستانة فى اليوم الثانى والعشرين من شهر يونية دون أن يحضر فيه أحد من قبل السلطان

ولندع المؤتمر ريثما ننظر نظرة فى الحال الداخلية فى مصر ...

فى اليوم الثانى عشر من يونية وهو اليوم التالى ليوم الفتنة ذهب قناصل الدول الى الخديو وطلبوا منه تامين أرواح رعاياهم بمصر وأموالهم ، وكان ذلك بحضـور درويش باشا ، فأرسل الخديو فى طلب عرابى وأخبره بذلك وطلب اليه « نشر التنبيهات والتأكيدات على كافة العساكر المصرية وضبـاطهم وأمرائهم الموجودين بمصر والاسـكندرية والاقاليم والبنـادر بزيادة الدقة والتحفظ » (١) .

وبناء على ذلك أرسل عرابى الى جميع قادة الجند يخبرهم بما طلب الخديو ويدعوهم الى اليقظة قائلا : « يحق لنا الامل فى هممكم التى علمت فيكم ونشاطكم الذى عرفتم به بحيث لايقع أمر من الامور صغيرا كان أو كبيرا فى أى نقطة من النقط التى انتم بها الا كنتم حصنا منيعا بينه وبين سكان ديارنا على اختلاف طبقاتهم ومعتقداتهم وتبعيتهم ، كما يجب على حضرتكم بـذل الهمة ودوام السعى فى تسكين كل اضـطراب ومنع ما يوجب قلقا أو تشويشا فى الافكار ، وفى كل هذا تتخذون

---

(١) مذكرات عرابى المخطوطة

حسن المعاملة مع جميع الاهالى والاجانب شعارا لوظائفكم مع التمسك بالآداب المدنية والحقوق الوطنية فى سائر الحركات والسكنات كما هو الواجب على كل وطنى محب لوطنه ساع فى حفظه ونجاح أهله ، وسأل الله تعالى أن يوفقنا لحفظ هذا النظام العائد ثمرته على الوطن العزيز » (٦) .

وكانت الشائعات تنتشر فى الاسكندرية ولم يمض على الفتنة يوم أن الاوربيين يستعدون لهجوم جديد فاجتمع رؤساء الجند وكتبوا الى القناصل ليطلبوا الى رعاياهم السكينة والنظام ، وأصدر القناصل نداء للاوربيين يحثونهم فيه على التزام السكينة ...

وغادر الخديو القاهرة فى اليوم الثالث عشر من يونية الى الاسكندرية بحجة الاصطياف حسب عادته كل عام وصحبه درويش باشا ، وقد ودعه عرابى فى المحطة ، وقبل تحرك القطار أوصى الخديو عرابى بالسهر على الامن وأخذ الحيطة لمنع وقوع أى حادث ...

وقد استراب الناس فى سفر الخديو فجأة عقب الفتنة ، وفسروا ذلك بأنه أراد أن يبتعد عن عرابى وحزبه ليكون فى حمى الاسطولين بالاسكندرية ، وأحسوا فى هذا السفر المفاجىء شيئا من الخوف وقالوا ان الخديو على علم بقرب وقوع الحرب ...

والواقع ان الخديو كان يريد السفر الى الاسكندرية منذ مجىء السفن الاجنبية .. تجد الدليل على ذلك فى برقية قنصل فرنسا الى فرسنيه فى اليوم الثامن عشر من مايو اذ يقول : « ان أهم مسألة مستعجلة فى الوقت الحاضر هى اقناع الخديو بعدم السفر الى الاسكندرية

(٦) الثورة العرابية للرافعى نقلا عن الكتاب الاصفر سنة ١٨٨٢ وثيقة رقم ١١١٥ .

لان هذا السفر يشبه أن يكون فرارا ، وتركه العاصمة فى الوقت الحاضر معناه العدول عن العودة اليها (١)

ونجد دليلا آخر فى برقية لمالت سلفت الاشارة اليها يصف فيها موقف الخديو فيقول عن الانجليز انهم هم الذين صرفوه عن السفر الى الاسكندرية ومعنى ذلك انه لولا مساعيهم لسافر اليها .

وقد علق فرسنيه على سفر الخديو بقوله : «كانت رغبة الخديو متجهة منذ وصول العمارة الانجليزية الفرنسية الى الالتجاء الى الاسكندرية ليكون قريبا من مدافعها ، وعبثا أريد اقناعه بأن مركزه يجب أن يكون على رأس حكومته قريبا من وزرائه ليتسنى له توجيه أفكارهم وعلى الاخص ملاحظتهم ، ولكن مذبحة الاسكندرية كانت له فرصة يحقق فيها رغبته ، وقد زعم أنه قصد اليها بحجة تدارك الخطر مع أن النظام كان قد عاد الى نصابه » (١) .

وفى الاسكندرية قوبل الخديو بفتور وقد أطلقت المدافع تحية له واصطف الجند على الجانبين حتى سراى رأس التين ، وقد وجل الناس عند سماع المدافع ولم يكونوا يعلمون بمجىء الخديو وظنوها مدافع الحرب ...

وزاره القناصل فى سراى رأس التين عـــدا قنصلى فرنسا وانجلترا اذ كانا بالقاهرة ، فأعرب لهم عن أسفه لما حدث يوم الفتنة ، ووعدهم بأن يوجه عنايتــه حتى لا يحدث شىء من هذا فى المستقبل ...

وسرعان ما ذاع فى الاسكندرية أن الخديو أسر الى كلفن انه لايأمن تجدد الفتن وان بعثة درويش قد أخفقت وانه لابد من مجىء جنود عثمانية ، وكان ذلك ردا على

---

(١) المصدر السابق نقلا عن كتاب فرسنيه « المسألة المصرية » .

ما أثنى به درويش على رجال الجهادية (١) .

ويورد عرابى فى مذكراته أن الخديو طلب جنودا انجليزية « لانه لا يصح ان يطلب جنودا عثمانية من عامل انجليزى مثل كلفن » .

ووقع ما أسر به الخديو الى كلفن وقعا مؤلما فى النفوس وعادت اليها عوامل الخوف ، وزادت هجرة المهاجرين من الاجانب فى حالة أشبه بالذعر كأنما تنتظر الحرب بين ساعة وساعة ، أو ترتقب فتنة أشد هولا من الفتنة السالفة ...

وتتابعت هجرة الاوربيين من الاسكندرية والقاهرة ومدن أخرى ، حتى ضاقت بهم عربات القطارات وازدحمت القوارب والسفن ، ورأى عرابى أن يدعو الناس الى الاطمئنان فأصدر بلاغا يقول فيه : « ناظر الجهادية أحمد باشا عرابى يعلن كل سكان القطر المصرى من المصريين والاوربيين رسميا أن الحضرة الخديوية الفخيمة كفلت الامن والراحة فى جميع جهات القطر المصرى أمام حضرات قناصل الدول المتحابة ، وتكفل ناظر الجهادية أيضا بصيانة الارواح والاموال وحفظ سكان البلاد على اختلاف طبقاتهم ومعتقداتهم وتابعيتهم وقد انتقل الجناب الخديو الى الاسكندرية بعائلته لدفع الاوهام من الافكار واطمئنان القلوب. وبقى ناظر الجهادية بمصر لمراقبة الاحوال وصيانة البلد ، وكتب لامراء العسكرية فى سائر الجهات ببث الراحة والسهر على حفظ الامن وصيانة النفوس . وعلى هذا فديوان الجهادية يعلن الجميع حفظا للافكار من الاراجيف والاشاعات الكاذبة » (٢) .

وظل عرابى فى القاهرة ، وكان بيته حسب المعتاد

---

(١) مصر للمصريين ، لسليم نقاش . (٢) مذكرات عرابى المخطوطة

يمتلىء كل يوم بالناس وفى مقدمتهم زعماء الحركة الوطنية ومن أبرزهم نديم ومحمد عبـده والهجرسي والشريعى والسيد حسن العقاد ، وكبار رجال الجيش مثل البارودى وعبد العال وعلى فهمى وكان حديث هؤلاء لاينقطع عن موقف توفيق من الاجانب وخاصـة منذ سـفره الى الاسكندرية ، وعن نيات درويش ، الذى كان يكرهه نديم أشد الكره ويوجس منه خيفة ، وطالما أعلن الى أصحابه انه لايأمن الاتراك بوجه عام ولا يدرى هل جاء درويش للقضاء على عرابى أم للقضاء على توفيق ...

وكان عرابى يغشى بيت البارودى كثيرا حيث يجتمع انصاره فيتحدثون أحاديثهم السياسية ، ويذكر صابونجى فى كتاب له أرسله الى بلنت : « ان الناس كانوا ينهضون وقوفا على جانبي الطريق اذا أبصروا عرابى فى عربتـه ويهتفون قائلين : « الله ينصرك يا عرابى » ...

ومما يذكره صابونجى كذلك انه بينما كان فى بيت الشريعى باشا حيث كان هو وعرابى وسـامى ونديم والهجرسي وعبد العال وعلى فهمى ضيوفا على صاحب الدار ، اذ دخل ضابط ومعه كتاب من سيدة أجنبية تطلب حماية عرابى وقد نصح الناس لها بالهجرة من القاهرة ، فطلب اليه عرابى أن يكتب لها مؤكدا حماية عرابى اياها كما يحمى نفسـه ...

ويقول صابونجى : « ان عرابى قد غدا بطلا عند كثير من الاوربيات وقد سمعتهن يثنين عليه لما يعلمن من اسـتعداده لحمـايتهن ، وانهن ليهرعن الى الشرفات والنوافذ اذا سارت به عربته فى الشارع » (١) .

وكان عرابى شديد الشك فى نيات توفيق ، فاذا تحدث عما تم بينهما من صلح قال انه من جانبه لا يخون عهدا

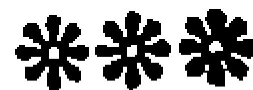
(1) S. H. Blunt, P, 341

ولكنه اذا وجد الخيانة من غيره نقض عهده واذا غشه الخديو « فسيدفع له من جنس عملته » .

وسأله صابونجي رأيه في حليم فقال : انه يفضله على توفيق ، ولكنه يرى انه لو تخلص توفيق من تأثير مالت فكل شيء يسير سيرا حسنا ، ولقد أضل كلفن صاحبه مالت ، ولقد سببا ضررا بليغا لدولتهما كما سببا ضررا بليغا لمصر وذلك بتشويههما الحقائق » .

وتحدث عرابى عما يتوقع من حرب فقال : « لن نكون نحن المعتدين ، ولكننا سنقاوم كل من يعتدى علينا نحن امة مخلصة نعترف بالجميل لمن يأخذ بأيدينا ويعيننا على اصلاح وطننا ونحن لا نبغى الا الاصلاح ، ولكن الذين يريدون أن يغشونا سوف يجدون منا كل غش »

ويصف صابونجي زيارته للشيخ الامبابى شيخ الجامع الازهر ذات يوم بصحبة عرابى ، فيقول : ان الشيخ كان جالسا على وسادة فنهض واقفا وتقدم خطوات يلقى عرابى محتفيا به ، وقد خلع عرابى نعليه عند دخول الحجرة أجلالا للشيخ وقبل يده ، وكان مع الشيخ نفر من العلماء فتقدموا وسلموا على عرابى وحفوا من حوله مرحبين ، وقد طلب عرابى من الشيخ ان يذيع فى الناس نداء يحثهم فيه على الهدوء والسكينة ويطلب اليهم وفق تعاليم الدين الاسلامى الا يعتدوا على أموال اليهود والنصارى ولا على أرواحهم ، ووعده الشيخ باذاعة هذا النداء ...



وكان يسر الانجليز ويهمهم أن تبقى البلاد بغير وزارة ففى ذلك ما ينتحلونه لاثبات مزاعمهم عن الفوضى الداخلية وتسلط عرابى وعجز الخديو وما الى ذلك من البهتان ...

وكان يرضى الخديو كذلك أن يشهد الدول على أنه طالما توجد السلطة فى يد عرابى فلا أمل فى تاليف وزارة ولا رجاء فى اصلاح الحال ...

وكذلك كان يرى توفيق ان تاليف وزارة معناه الرجوع الى حكم الدستور اذ لايمكن لوزارة ما ان تحكم البلاد حكما مطلقا ، وهو يتطلع الى اليوم الذى يقضى فيه على هذا الدستور الذى سلبه مشيئته والقى بها فى يد الامة ، وكان أكبر مايغيظ توفيقا أن يصل الحزب الوطنى أو حزب الفلاحين فى مصر كما كان يسميه الاتراك الى ما وصل اليه ، وبلغ به الحنق ان كان لا يطيق سماع اسم عرابى الذى تتمثل فيه زعامة الامة كما يتمثل مبدأ الحكم الدستورى ...

فلما وقعت الواقعة فى الاسكندريه أشفق قنصلا المانيا والنمسا ونصحا للخديو باسناد الوزارة الى رجل يرضى عنه العرابيون وقد فطنا الى لؤم السياسة الانجليزية وحيرة السياسة الفرنسية وعقم السياسة التركية ، وكانت دولتاهما غير مرتاحتين الى استئثار انجلترا وفرنسا بالمسألة المصرية ، وقد أظهر بسمارك شيئا من العطف على عرابى فى قوله : « ان عرابى قد غدا قوة يحسب لها حسابا » ولعله بهذا كان يرمى كذلك الى مناوأة الدولتين ..

ولم يكن ليقوى توفيق على تبعة بقاء مصر بلا وزارة ، فأقل ما يقال فى ذلك انه عاجز عن اقامة وزارة ، لذلك قبل على رغمه مشورة القنصلين الالمانى والنمسوى ، وعرض الوزارة على راغب باشا فقبلها فى اليوم السابع عشر من يونية وصدرت المراسيم بتاليفها فى اليوم العشرين منه ...

ولم يكن راغب باشا من الموالين للخديو ولذلك وافق

عرابى عليه ، فقد أرسل اليه الخديو ينبئه باسناد الوزارة اليه ويدعوه الى معاونته ، وجاء رد عرابى بالموافقة وبالثناء على راغب ، وظل عرابى فى وزارة راغب وزيرا للجهادية والبحرية ...

ولقد خاف جرانفل أشد الخوف من دخول المانيا فى النزاع ، فلم يكن بسمارك بالسياسى الذى يؤمن جانبه ، بل انه وحده بين ساسة أوربا الذى يلف لف الانجليز ويدور دورانهم ويمكر مكرهم أو اشد من مكرهم ...

لذلك أرسل جرانفل الى بسمارك يقول على لسان السفير البريطانى ببرلين : « ان حكومة جلالة الملكة لم يكن لها يد فى النظام الذى وضع بمصر حديثا (١) وانه اذا كانت الحكومة قد سلمت بضرورة هذا النظام لحفظ حياة الاوربيين وممتلكاتهم من الاعتداء فانها لا تعده حلا للمسألة السياسية بحال من الاحوال » ...

ولا يفوتنا ان نلاحظ مغزى أخبار توفيق عرابيا باسناد الوزارة الى راغب فكأنما يقول بذلك انه يستأذنه لانه هو المتسلط ثم انه يطلب معونته قال : « فليكن فى علمكم احالة مقام الرئاسة لعهدة الباشا المشار اليه ، وكونوا جميعا يدا واحدة فى المساعدة والمعاونة وصرف الاقتدار والامكان لما فيه انتظام الادارة وحسن السير فى الاعمال واستتباب الامن والراحة بأطراف واكناف البلاد » ..

وكان فى رد عرابى شىء من التحفظ يتضح فى قوله : « وحيث ان أوامر الحكومة انما تصدر لصالح البلاد ورفاهيتها وتمتعها بالراحة الكاملة ، فنحن مستعدون لتنفيذ تلك الاوامر ونؤدى واجباتنا فى ذلك بكل ما فى الوسع والطاقة ونسأل الله حسن التوفيق » (١)

ووضع راغب باشا فى كتابه الذى رفعه الى الخديو

(١) يقصد تأليف وزارة راغب باشا

منهاجا لوزارته يتضح منه انه كان ينوى أن يحكم البلاد حكما دستوريا قوميا ، يكفل للدستور الاستقرار والتقدم ، ويقطع الطريق على دسائس الانجليز ، فبعد أن أشار راغب باشا الى احترام الفرمانات المحددة مركز مصر واستقلالها ومراعاة الاتفاقات الدولية المتصلة بالديون واحترام مبدأ الدستور والسير وفق أحكامه قال : « فجميع هذه الاصول الثابتة التى روعيت قبل الآن بكمال الضبط ستراعى فى هيئة النظارة الجديدة بغاية الدقة بل ان هذه الهيئة ستأخذ بجميع الاسباب الموجبة لتثبيت هذه الاصول وتقوية جانبها فانها ترى فى ذلك توفيقا بين المصالح يعود على البلاد بأجل المنافع.

واما الاصول التى يجب بذل الجهد فى ترتيبها على قواعد أساسية موافقة للأصول الثابتة توضع باشتراك هيئة النظارة مع مجلس النواب وتصديق عظمتكم فهى الاصول الاساسية التى تعيد حقوق الحكام والمحكومين من كل صنف والقوانين الادارية والقضائية وتنظيم حالة الادارة والقضاء على وجه يلائم مصالح البلاد ويحفظ لها صورتها المدنية فهذه الاصول ستأتى بما فى الوسع لاصلاحها ومنها ما نخصه بالذكر لضرورة الاحداث التى طرأت على البلاد أخيرا ويبتدىء العمل به من أول يوم يستلم فيه النظار وظائفهم وهو :

أولا ــ أن يصدر عفو عام ويدرج فى الجرائد الرسمية باللغتين العربية والفرنسية عن كل من عليه مسئولية أو له اشتراك فى الاحداث الاخيرة ، وهذا عدا المشتركين والمسئولين فى حادثة الاسكندرية وفى المواد الحقوقية ، فلا يشملهم العفو ...

ثانيا ــ لا يعامل أحد بجزاء الا بعد محاكمته فى مجلس بمقتضى القانون وصدور الحكم عليه ...

ثالثا ـ لا تجرى مخابرات فى المصالح السياسية من مامورى الحكومة مع احد وكلاء الدول بالقطر المصرى الا من طرف ناظر خارجية حكومتكم فقط ، وعليه أن يستشير مجلس النظار فى الامور الهامة وان حصلت مخابرة من أحد المامورين فلا تعتبر ولا يعتد بها (١)...

رابعا ـ الاوامر التى تصدر بالاجراء والعمل يكون اصدارها على موجب الديكريتو العالى المؤرخ فى ٢٨ اغسطس سنة ١٨٧٨ (٢) ...

ومما نرى الاهتمام به واجبا علينا ايجاد الوسائل لتوسيع دائرة المعارف والصنائع وتحسين احوال الزراعة والتجارة وكل ما يعود على البلاد بالثروة ، فهذه يامولاى هى المبادىء التى يكون عليها العمل فى هيئة نظارتكم الجديدة .

ولاريب فى انها تكون كافلة لاهالى الديار المصرية باتم الفوائد ، وأن لى ثقة تامة بأن الدول العظيمة ستعد هذه الاصول ضامنة للراحة والهدوء الابديين ، وانها جميعها ستساعدنا كل المساعدة على القيام برعايتها خصوصا دولتنا العلية العثمانية التى لايسرها الا أن ترى أهالى أوطاننا فى رغد العيش ورفاهية البال. فان حسن لدى مولاى(٣) ما أوضحته فى هذا البيان فليحسن بالتصديق على التقرير وانى لعظمتكم الخاضع والخادم المتواضع ... »

من ذلك نرى أن وزارة راغب باشا كانت كفيلة ببرنامجها هذا أن تعيد السكينة والهدوء الى مصر، وأن

(١) يرمى بذلك الى منع تدخل القناصل

(٢) يرمى بذلك الى مبدأ مسئولية الوزارة لمنع تدخل الخديو فى شؤون الحكم

(٣) اراد أن يقيد الخديو فى هذه الوثيقة الرسمية

ترضى الوطنيين وتضمن حقوق الاجانب المالية ، ولقد وافق الخديو بكتاب رسمى الى راغب باشا على هــذا البرنامج الوطنى السليم . ولن يضيره أن يوافق فذلك كله فى نظره من الامور العابرة

وكان منهج هــذه الوزارة أبلغ رد على السياســة الانجليزية وادعاءاتها ، ولو أنها وجدت فى مصر حاكما غير توفيق لنجت البلاد من الـكارثة المحدقة ...

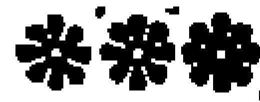
ولكن ماذا كان فى طوق راغب أن يفعل ، وقد خاصم توفيق الدستور والوطنيين خصــاما لن يجدى معــه تفاهم ، وآثر الانحياز الى الانجليــز حتى لقــد أحرق القوارب جميعا من ورائه كما يقولون ...

وهل كان الانجليز يدعون راغبا ينفذ برنامجه ؟ واذن ففيم كانت دسائسهم الماضيةجميعا ؟ وهل هم انصرفوا عن احتلال مصر حتى يدعوا هذه الوزارة وشأنها ؟ لقد قابلوها بأشد الجفاء من أول الامر واخذت ابواقهم تذيع ما كانت تذيعه عن البارودى ووزارته واشد منه ، وعادوا الى نغمتهم القديمة المرذولة وهى ان الوزارة فى يد الحزب العسكرى ، وســوف يدأبون كما نرى على اختلاق الاكاذيب ، ووضع العراقيــل فى سبيل هــذه الوزارة ، وخاصة ليؤثروا على المؤتمر الذى انعقد فى الآستانة بعد تأليف وزارة راغب بثلاثة أيام ...

وكانت أولى هذه العراقيل امتناع كارتريت بأمر من جرانفل عن تمثيل انجلترا فى لجنة التحقيق التى ألفتها الوزارة للبحث عن مدبرى حوادث الاسكندرية ، ولم يكتف كارتريت بذلك ، بل راح يثير الشكوك حول اللجنة متهما أعضاءها بممالاة العرابيين خوفا من نفوذ الحزب العسكرى ...

وكان توفيق لما علم بعزم الوزارة على تحقيق أسباب

هذه الفتنة وتأليف لجنة جديدة بدل اللجنة الاولى التى انحلت بانسحاب الانجليز منهــا ، قد كتب الى راغب يطلب اليه الاهتمــام بهـذا الامر ويســتنكر حــوادث الاسكندرية ، وغرضه من هذا أن يظهر بمظهر المحايد الذى يريد تحقيق العدالة ...



اجتمع المؤتمر بدارالسفارة الايطالية بالآستانة ورأسه الـكونت كورتى سفير ايطاليا بصفته أقدم السفراء .

وكانت الجلسة الاولى فى اليوم الثالث والعشرين من يونية كما أسلفنا القول وفيها قرر المؤتمر ارسال مذكرة الى حكومة السلطان ينبئها باجتماعه ويعبر عن أسفه لعدم انعقاده برئاسة وزير خارجية تركيا وعن أمله فى اشتراك تركيا فى الاجتماعات المقبلة .

وعقد المؤتمر جلسته الثانية فى الخامس والعشرين من يونية وفيها وضع ميثاق «البراءة من الفرض» وهذا نصه : « تتعهد الحكومات التى يمثلها الموقعون على هذا انها فى كل تسوية يقتضيها عملها المشترك لتنظيم شئون مصر لا تسعى الى امتلاك شىء من أراضيها ، ولا الى اى اذن بأى امتيــاز خاص ولا الى اى فائدة تجارية لرعاياها الا ماكان عاما يمكن أن تناله أية أمة أخرى» (١)

هذا هو الميثاق الذى وقعت عليه انجلترا على رؤوس الاشهاد ، والذى لم يمض عليه ســتة عشر يوما حتى ضربت انجلترا الاسكندرية بمدافعها الضخمة ، كذلك على رؤوس الاشهاد ، ولقد وقعت عليه انجلترا التى لا تسكت قط عن التغنى بشرف سياستها ، بعد أن أعدت كل ما استطاعت لاحتلال مصر !

يقول رولستين : « فالطريقة التى انفذت بها انجلترا

(١) العبارة من تعريب الاستاذين العبادى وبدران .

هذا الاتفاق تعد فى تاريخ القانون الدولى من اشنع المخازى . ولا عجب اذا عنى المؤرخون الذين ينتصرون لها بتحاشى ذكر ذلك الاتفاق القاطع لحججهم كلها »

والواقع ان انجلترا كانت قد فرغت منذ زمن طويل من تحديد ما تعمله فى المسألة المصرية ، يقول كرومر فى كتابه وقد جاء دور الكلام عن المؤتمر : « ليس من الضرورى أن نقف طويلا عند اجراءات المؤتمر المملة ، فقد كان من الامور الجلية كما قال اللورد سالسبرى فى مجلس اللوردات يوم ٢٤ يولية أن المجمع الاوربى ما هو الا وهم ، وفى أحد الجانبين كانت الحكومة البريطانية ويمثلها فى المؤتمر رجل من أقدر دبلوماسيى ذلك الوقت، وكان اللورد جرانفل واللورد دوفرين يفهمان تمام الفهم ماذا يريدان ، ولقد رغبا فى أن يوطدا النظام فى مصر ، وكانا يقظين الى تلك الحقيقة التى مؤداها أنه بغير استخدام القوة المادية فلن يوطد ذلك النظام » .

ومما يدعو الى الاسف والسخرية أن تركيا ظلت غافلة عما تبيت انجلترا حتى ذلك الوقت ، وظلت تأمل أن يفشل المؤتمر ، وكانت لا تفتأ تردد قولها على لسان سفيرها فى لندن ان وزارة الفت فى مصر وان الحال فى غاية الهدوء وان تقرير درويش باشا يدل على طاعة الجند وبعدهم عن أى غرض سيىء .

وكان من الممكن أن يكون لكلام تركيا قيمته وخطره لو أنها اشتركت فى المؤتمر واستطاعت أن تقنع به مندوبى الدول أو بعضهم فتأخذ الطريق على انجلترا .

على ان انجلترا لم تستهن بأقوال تركيا هذه ، فهى لا تأمن أن يلقيها فى المؤتمر مندوب دولة أخرى يكون لها غرض فى مناوأة انجلترا ، ولذلك حرصت كل الحرص أن تصور الحال فى مصر حسبما تريد هى من السوء ،

لا كما يشهد به الواقع .

ولقد وصل تقرير درويش الى الآستانة فى اليوم الذى اجتمع فيه المؤتمر ، وأنعم على عرابى بالوسام المجيدى الأكبر بعد ذلك بيومين ، وأبلغ موزروس باشا وزير خارجية تركيا جميع وكلاء تركيا لدى الدول الاجنبية مضمون ما جاء فى تقرير درويش باشا ، وطلب اليهم أن يبلغوا الدول باهتمام تركيا بشئون مصر بحيث لا يدعو الحال الى تدبير خاص ، وكان يقصد بذلك عقد المؤتمر الدولى .

وكانت ايطاليا قبل عقد المؤتمر قد اهتمت بكلام تركيا ، ولعل مرد ذلك الى أنها كانت تميل الى المانيا والنمسا ضد انجلترا وفرنسا فى السياسة الاوربية بوجه عام وقد كان بسمارك يعمل على ايقاع الخلاف بين انجلترا وفرنسا فتدخل فى المسألة المصرية تدخلا ظهر فى نصيحة قنصله وقنصل النمسا للخديو بتأليف وزارة فى مصر .

ويتبين اهتمام ايطاليا فيما أرسله باجت السفير البريطانى بروما الى جرانفل من أن مانشينى وزير خارجية ايطاليا أفضى اليه بأن الكونت كورتى السفير الإيطالى بالآستانة تلقى من وزير الخارجية العثمانى ما يفيد بهدوء الحال فى مصر بتأليف وزارة راغب باشا وانه لم يبق هناك من داع للمؤتمر الدولى ...

ويقول باجت انه ما زال بمانشينى حتى صرفه عن ميله الى الاعتبار فى كلام تركيا « وقبل أخيرا أن ينتظر ما تخابره به سائر الدول فى هذا الشأن ليقف على آرائها » (١) .

وكذلك اهتمت روسيا بمسألة مصر ، يقول روتستين

---

(١) مصر رقم ١٧ سنة ١٨٨٢ ص ٢٩

« ان مسيو ده جيير وزير خارجية هذه الدولة قد اهتم فى التعليمات التي أرسلها الى سفرائه بمناسبة انعقاد المؤتمر بوجوب بقاء المؤتمر حتى يفصل فى أمر مصر ، قائلا ان كل حل للمسألة يأتى من غير هذا الطريق حل غير مقبول ، وانه اذا لم يكف التأثير الادبى فى تذليل الصعاب فان المؤتمر بأجمعه يقرر ما يراه من الوسائل الاخرى . فاذا اقتضت الضرورة هذا الامر فتركيا أحق الدول باعادة المياه فى مصر الى مجاريها. فان أبت تركيا ذلك فقد يعهد الامر الى انجلترا وفرنسا على شرط أن يرافق جيوشهما مندوبون من طرف الدول الاخرى .

فاذا استقر النظام فى نصابه أعيد النظر فى جميع التزامات مصر الدولية بقصد الغاء المراقبة الثنائية ووضع نظام دولى يحول دون عبث معتمدى الدول ويجعل كل تعرض آخر لشئون مصر الداخلية أمرا مستحيلا » .

لذلك كانت لا تأمن انجلترا أن تعود ايطاليا أو غيرها الى مناوءتها ، فعمدت الى التهويل فى تصوير خطر الحال فى مصر وانها تنذر بأوخم العواقب .

فمن ذلك ما أذاعوه من أن أربعة عشر الفا من المسيحيين قد غادروا مصر ، وان ستة آلاف غيرهم ينتظرون فى لهفة وصول السفن التى تقلهم من البلاد ، ومن غريب أمر هؤلاء الانجليز ان هذه الهجرة تمت بتحريضهم وأذاعتهم أنباء السوء فى الوقت الذى كان فيه عرابى يؤمن الاجانب على أرواحهم وأموالهم المرة بعد المرة والذى هدأت فيه الحال بعد الفتنة التى كانت من صنع أيديهم الا وهى مأساة الاسكندرية النكراء !

ومن ذلك ما أنذروا به الدنيا بالهول الا وهو ادعاؤهم أن عشرة من اليونانيين وثلاثة من اليهود قتلوا فى بنها

بأيدى المتعصبين من الوطنيين ، وقد أرسل كارتريت هذا النبأ الى جرانفل ، ولم يخجـل من أن يقول انه سمعه من مصدر موثوق به (١) وهـذا كل ادلته على ما يزعم !

ومنـه ما أشيـع عن عرابى انه عرض على مجلس الوزراء أن تصادر أملاك كل مصرى يغادر مصر ، ومما يدعو الى الضحك قول كرومر معقبا على ذلك بأن عرابى يسلك فى ذلك مسلك اليعاقبة فى الثورة الفرنسية على غير وعى منه ، ثم يعود فيقول : « انه من الممكن ان يكون عرابى قد فعل ذلك بوعى منه ، فقد أخبرت من مصدر يوثق به انه كان فى ذلك الوقت يوجه اهتماما كبيرا الى دراسة تاريخ الثورة الفرنسية ، وهكذا يكون عرابى عالما يقرأ ويطلع اذا شاء كرومر أن يكون العلم وسيلة لاتهامه ، ويكون جاهلا طائشا اذا كان رميه بالجهل وسيلة لتشويه حركته القومية ، وليس وراء ذلك فجر أو لؤم ...

ومنه ما أرسله كارتريت الى جرانفل فى اليوم السادس والعشرين من يونية يقول : « نظرا لما يلوح من أن فكرة تسود الآن فى الآستانة مؤداها ان وزارة راغب باشـا تسير سيرا مرضيا ، وان نفوذ عرابى يتناقص ، وانه ليس ثمة ما يدعو الى تدابير لتهدئة الحال ، رأيت من الصواب أن أخبر سفير حكومة جلالة الملكة بالآستانة عما لا نزال نحسه هنا من عدم الاطمئنان الذى ترد كل أسبابه الى مسلك الحزب العسكرى .

وخير مايوضح لنا نفوذ عرابى الشـامل هو تسلط الجيش تسلطا لايتوقف وادعاءاته التى لا هوادة فيها وسـلوكه مسلك التهديد ، تلك الامور التى أدى الى ازديادها الاعتراف بعرابى فى الوزارة الجديدة » (٢) .

(١) مصر رقم ١٧ . ص ٣٧ (٢) مصر رقم ١٧ ص ٣٥ .

وأطلق كارتريت فى برقيته هذه العنان لمزاعمـــه عن لجنة التحقيق ومن ذلك قوله : « ان يعقوب باشا العضو العسكرى فى اللجنة والذى هو وكيل وزارة الحربية قد عارض معارضة شديدة وصمم على ألا يجرى تحقيق مرض ، الامر الذى أدى الى انسحاب العضو الانجليزى . وان بطرس باشا وكيل وزارة العدل والعضو المدنى فى اللجنة قد قرر أكثر من مرة بانه ما من شخص يجرؤ على تقديم أدلة لايرضاها الحزب العســكرى وانه هو نفسه مضطر الى تأييد يعقوب باشا ولو انه يخالفه فى آرائه كل المخالفة ... وانه لايزال فى السجن عدد من الاوربيين ، احتجزوا هناك منذ ١١ يونية ، ويرفض يعقوب باشا اطلاقهم لان ذلك يغضب الجنود وفى مثل تلك الحال لا يسأل عن حفظ النظام » .

وقال عن راغب : « انه لايستطيع أن يعمل عملا فيه اغضاب للجيش على أية صورة ، وأذكر تأكيدا لذلك ان لغة سعادته أصبحت مطابقة للغة عرابى » .

وقال عن عرابى : « ان انعام جلالة السلطان على عرابى باشا فى الوقت الذى كاد يكون فيه شخصه هو الوحيد الذى يبعث على القلق ، قد أدى الى زيادة ارتفاع مقامه زيادة عظيمة ، كما أدى الى ازدياد ثقة الجيش فى نفسه وسيادته ، وأينما ظهر عرابى باشا فى المجتمع أعدت المظاهرات لاستقباله وانه هو وحده بين الوزراء الذى يحيط به كوكبة من الفرسان كتلك التى تحيط بسمو الخديو » (١) .

ثم أخذ يبالغ فى وصف تسلط العسكريين فى جميع دواوين الحكومة وكيف يشــكو المــديرون فى الاقاليم وسائر الموظفين من تدخل الجند فى كل شىء .

(١) مصر رقم ١٧ ص ٣٦ .

وبعد ذلك بيومين أبرق كارتريت مرة ثانية الى جرانفل « يلقى راغب باشا صعوبة شديدة فى محاولته السيطرة على العنصر العسكرى فى وزارته ، وعلمت أن سعادته يشعر بالقنوط تلقاء ما يلقى من فشل ، ويجد الجند أكثر اشتغالا بمشروعاتهم الحربية وتدابيرهم من أن يوجهوا أى انتباه جدى الى الوسائل المؤدية الى الطمانينة أو الى الحاجة الى خطوات جديدة يقصد بها اقرار النظام » .

وعقد المؤتمر جلسته الثالثة فى اليوم السابع والعشرين من يونية ، وكانما عاودت ايطاليا الشكوك فى نية انجلترا فقد قدم العضو الايطالى اقتراحا هذا نصه : « ينبغى أن يكون معلوما انه ليس لاية دولة أن تقوم بعمل انفرادى فى مصر ما دام المؤتمر منعقدا » .

وأحس اللورد دوفرين أن ايطاليا وقد قبل المؤتمر هذا الاقتراح قد ضربت مطامع انجلترا فى مقتل ولكنه بدهائه تدارك الامر ، فما زال بالمؤتمر حتى اقنعه باضافة تحفظ الى هذا الاقتراح مؤداه استثناء ما تقتضيه الظروف القاهرة كضرورة محافظة كل دولة على أرواح رعيتها ، وقد استعان فى دفاعه عن وجوب قبول هذا التحفظ بما قدمه من أنباء عن سوء الحال فى مصر ، ومن أعجب العجب ان المندوب الفرنسي أيده فى هذا التحفظ بعد التشاور فيما بينهما !

وكتب دوفرين الى جرانفل ينبئه بهذا الانتصار قائلا : « ان الغرض من اضافة ذلك التحفظ اطلاق أيدينا فى العمل اذا طرأ طارىء ما ... واننا فى الحقيقة لم نعد اقتراح السفير الايطالى ذا شأن كبير بعد هذا التحفظ الذى نرجع اليه عند الحاجة » .

ولكن جرانفل لم يرض أن تكون الظروف القاهرة

مقصورة على محافظة كل دولة على أرواح رعاياها فذلك مجال ضيق ، وكتب الى دوفرين ليتدارك الامر وما كان دوفرين بالذى تعوزه حيلة اذا كان الامر أمر خداع .

وعقدت الجلسة الرابعة فى اليوم الثلاثين من يونية ، فتقدم دوفرين بسؤال : ماذا يكون الموقف اذا لم يعترف السلطان بالمؤتمر وارسل من تلقاء نفسه جنودا الى مصر؟ وقال قائل يمنع الاسطولان جنود السلطان من النزول ، واعترض مندوب فرنسا قائلا : انه ما دام المؤتمر منعقدا فليس للأسطولين ان يتدخلا بهذه الصورة . فقال دوفرين : « اذن نعد من الظروف القاهرة مثل هذا التدخل من السلطان ، كذلك لو هددت قناة السويس وطرأ فى الحال السياسية تغير فجائى أو مخيف يخشى منه على المصالح الخاصة (١) .

ومن غريب امر المندوبين أنهم قبلوا هذا من دوفرين، فألفوا بذلك المقترح الايطالى !

وفى الجلسة التالية للمؤتمر القى دوفرين خطبة عن الحالة فى مصر ، فملأها بالمطاعن على مصر وأهلها وحركتها القومية ، وكان مما ادعاه ، أن الفوضى قد شاعت فى مصر بسبب تمرد الجيش وخروجه على سلطة الخديو، وقد اختلت الادارة وارتبكت الحال بوجه عام ، وشلت حركة التجارة ، وعجزت الحكومة عن الوفاء بتعهداتها المالية ، وعجز الاهالى عن سداد الضرائب ...

وعقب على فتنة الاسكندرية واتهم الوطنيين بتدبيرها ، وبالغ فى الكلام عما يتعرض له الاوربيون من خطر واشار الى هجرتهم المتزايدة كل يوم من البلاد ، ونفى ماذكرته تركيا من ان الحالة هادئة وان وزارة راغب قد اعادت الامور الى مجراها العادى وسمى هذه الوزارة ، الوزارة

(١) مصر رقم ١٧ ص ٥٧ .

الهزلية قائلا انها اداة فى أيدى المتمردين ، وان الخديو سليب الارادة لا حول له ولا قوة ...

ثم قال : ان انجلترا وفرنسا لايسعهما السكوت على هذا الوضع فى مصر ، وكشف النقاب عن وجهه فصرح بوجوب التدخل المسلح فى مصر ، وأهاب بالدول أن تضرب على أيدى الثائرين وأن تأخذ الثورة بالشدة والا استفحل نفوذها واستعصى بعد ذلك قمعها ...

على انه يرى ان هذا التدخل يجب أن يكون من جانب السلطان، ثم قال انه علم من مصدر يوثق به أن درويش باشا اعترف باخفاقه فى مهمته ، وانه لايستطيع أن ينقذ الخديو من تسلط الجيش الا بقوة حربية لا تقل عن عشرين طابورا ، وان الوزارة المصرية الجديدة ماهى الا أداة فى يد عرابى وسيبقى الخديو سليبا من كل ارادة ما لم ينفذ اليه جيش يعيد اليه سلطانه ...

وكان يتلو دوفرين على المؤتمر البرقيات التى أرسلت الى جرانفل ويسوقها مساق الادلة ، ولن يكون عبث بالعقول أشد من هذا مدعاة الى السخرية والاشمئزاز! ألم تك تلك البرقيات من صنع الانجليز ؟ ولم تكون هى المصدقة وتكون أقوال تركيا المكذبة ، ولا فرق على الاقل بين هذه وتلك فى قابليتها للكذب أو للصدق ؟

كان أعضاء المؤتمر يصغون الى دوفرين ولديهم من الانباء ما يحملهم على عدم تصديقه فى كثير مما يقول ، وقد صرح بعضهم فعلا انهم لا يستطيعون قبول هذه الآراء ...

ولكن المؤتمر رأى ما تبيته انجلترا من نية الانفراد بالعمل فى مصر فمال الى تقييدها بآخر قيد بقى لديه وهو أن يكون التدخل على يد تركيا ، ولهذا قبل الاعضاء النظر فى اقتراح دوفرين وقرروا ابلاغ دولهم بشأنه على

أن ينظر فيما بعد فى تفاصيله ، الا العضو الفرنسى فانه صرح بما يشبه التحفظ على الاقتراح المذكور (١) .

وابرق دوفرين بزف نبأ انتصاره الجديد انىجرانفل فقال : «أبلغتك فى رسالتىالسابقة عما ينزع اليه المؤتمر فى سير أعماله ، وأبلغك ان ما أطلعته عليه من أنباء المذبحة فى بنها قد كان عظيم الوقع فى نفوس زملائى ، وكذلك أحدث مثل هذا الاثر فى نفوسهم ماسردته من الامثلة على طغيان الحزب العسكرى وعلىمظاهر الخراب المالى الذى جاء تفصيله فى برقية مستركارتريت بالامس وقد كان لزميلىالفرنسى اليوم الزعامة اذ أصر فىحماسة عظيمة على ضرورة اتخاذ علاج ناجع للفوضى المتزايدة فى مصر ، تلك الفوضى التى يخشى كما قال أن تؤدى فى وقت ما الى استحالة الاقاليم الافريقية على سكنى الاوربيين .

ولما رأيت من الاعضاء الآخرين ما يشعر بتسليمهم بخطورة الحال أكثر من زميلهم الفرنسى أو أقل ، بدا لى أن الوقت ملائم لاتقدم باقتراح صفته ، مؤداه دعوة السلطان لان يرسل تحت شروط معينة ومن أجلغرض خاص ، جنودا تركية الى مصر لها من القوة ما تسيطر به على الموقف وتقضى على استبداد العسكريين. ولاحظ زملائى واحدا بعد الآخر انهم لايستطيعون ابداء الرأى فى اقتراح هام كهذا دون الرجوع الى حكوماتهم ولكنهم فى الوقت نفسه أعلنوا استعدادهم لدراسته فى جميع احتمالاته ، وفى ظنى انه يحق لنا ان نرضى بالصورة التى قوبل بها مقترحنا . ولقد وافق كل شخص على انه لابد من عمل شىء ، ولم يجرؤ أحد على أن يقترح خلاف ذلك » (٢) .

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٥٦ .
(٢) مصر رقم ١٧ ص ٤٧ .

ظن المؤتمر كما ذكرنا ان خير وسيلة يقيد بها انجلترا هو اقراره مبدأ تدخل تركيا بقوة حربية، وكانت انجلترا على يقين من ان السلطان لن يفعل ذلك لتردده وارتباك شئونه المالية والسياسية ، وبعد ذلك يسهل عليها وهى لا تكف عن الانذار بالويل من سوء الحالة فى مصر ، أن تضطلع هى بعبء التدخل متظاهرة انها تفعل هذا لا على انه ضرب من القرصنة أو الخروج على قرار المؤتمر ، وانما على انه عمل توجبه الانسانية والشهامة لانه دفاع عن الرعايا الاجانب فى مصر ودفاع عن الاوربيين كافة ، وما أسهل عليها وهى التى دبرت بالامس مأساة الاسكندرية أن تخلق ما تدعى انه من «الظروف القاهرة»! الا ساء ما يفعل الاقوياء وما ارذل ما يتبجحون به من الشرف والحق فى هذا الشرق الذى لاندرى متى يفيق!

أخذ المؤتمر يدرس كيفية التدخل التركى ونظر فى ذلك ثلاث جلسات ، وكان دوفرين يستعجل المؤتمر ليموه عليه أن الحالة فى مصر لا يقبل معها إبطاء ، وانه يقظ الى كل ماعساه أن يحبط سعيه ، وانه ليوحى الى شياطين الاستعمار فى مصر أن يحرضوا على هجرة الاوربيين وأن ينشطوا فى نشر الرعب والانباء الكاذبة .

وفى آخر شهر يونية أرسل دوفرين الى حكومته يقول : « أن المؤتمر لم يفعل شيئا حتى ذلك الوقت ، وانه ما لم تتخذ خطوة عاجلة فان اطالة مدة وجوده تظهر أنه عديم الجدوى » ..

وفى اليوم الثانى من يولية قرر المؤتمر « انه اذا رفض السلطان الدعوة الموجهة اليه لارسال جنود الى مصر فان المؤتمر يحتفظ بحق التعبير عن رأيه فيما عسى أن يتخذ فى الفرصة المناسبة » .

وقد أبرق كارتريت الى جرانفل فى التاسع والعشرين

من يونية يقول : « ان هجرة الاوربيين واعدادهم العدة للهرب بعد أن خفت زمنا عادت الى الزيادة فى صـورة شديدة . وان الفنادق تغلق ابوابها وعمال السفن قد نقلوا مقرهم الى مقربة من الشاطىء ، وان ما بقى من المصارف يعد العدة لنقل الموظفين الى السفن ، ومن المستحيل تصور الانهيار والخراب ، الذى دهم البلد هكذا فجأة .. ان الوطنيين حتى شيوخ الدين منهم ، يرفعون أصواتهم اليوم ضد الحزب العسكرى ، ويغادر القطر عدد كبير من ذوى الاحترام من العرب كما يتزايد بصورة شديدة رحيل الاسر التركية » .

وابرق اليه أول شهر يولية يصف سوء الشعور فى القاهرة تجاه الاوربيين ويستأذن أن يسمح لهم بالهجرة

وأبرق اليه ثانى أيام الشهر يقول : « لى الشرف أن أبلغكم انه فى جلسة مجلس الوزراء بالامس ألح عرابى باشا وزير الحربية على زملائه ليقرروا اعلان التجنيد العام توقعا للأعمال العدائية ، وقدعارض بشدة محمود باشا الفلكى وزيرالاشغال وعبدالرحمن بك وزيرالمالية ، وعلى ذلك لم يتخذ المجلس هذا القرار وفى نفس الوقت يستدعى الاحتياطى وعساكر الرديف فى نشاط » .

وفى اليوم السادس من شهر يولية أصدر المؤتمر فى جلسته السابعة هذا القرار الخطير وذلك بعد أخذ ورد بين دوفرين ودى نواى العضـو الفرنسى « ان الدول الكبرى مقتنعةكل الاقتناع بانه اثناء وجود الجندالعثمانى بمصر سيحتفظ بحال البلاد المعتادة ولا يتعرض للأمور التى أعفيت منها مصر ، ولا لما خصت به من الامتيازات بموجب الفرمانات السابقة ، ولا لعمل الادارة المعتادة ، ولا للنظم والاتفاقات الداخلية المبنية عليه . وأن تكون مدة بقاء الجنود الشاهانية التى سيعمل ضباطها بالاتفاق

مع الخديو ثلاثة اشهر ما لم يسأل الخديو مد هذا الاجل، فاذا فعل ، حدد الاجل الجديد بالاتفاق مع تركيا والدول الكبرى ، وأن تتحمل مصر نفقات الاحتلال... وانه اذا وافق السلطان كما ترجو الدول على هذا النداء الصادر من الدول الكبرى فان انفاذ المواد والشروط الآنفة الذكر يكون موضوع اتفاق آخر بين الدول الست وبين تركيا»

وأرسل المندوبون هذا القرار الى حكوماتهم ولبثوا ينتظرون ما ترد به ...

وظنوا أنهم قيدوا انجلترا، وحالوا بينها وبين الانفراد بالتدخل فى مصر ، كما ظنوا أنهم حالوا بينها وبين الانفراد بتركيا والضغط عليها ، وفاتهم ان انجلترا قد أعدت عدتها لجميع الاحتمالات ...

كان على انجلترا أن تخلق هذا الظرف القاهر قبل أن تعتمد الدول هذا القرار المشترك وتقدمه الى الباب العالى وأن تضرب الاسكندرية فتضع المؤتمر أمام الامر الواقع ، وتذر قرار المؤتمر قصاصة من الورق لا قيمة لها ، فليتدبر فى ذلك الذين يسخطون ويتكلمون كما تتكلم الببغاوات كلما ذكر عرابى فيردون سبب الاحتلال اليه . ليتدبر هؤلاء فى مسلك انجلترا فها هى ذى على الرغم من كل شىء تصمم على احتلال مصر تنفيذا لسياستها المرسومة سواء وجد عرابى أم لم يوجد ، فلو لم يكن عرابى لكان أى رجل غيره من الناس أو أى حادث ذريعة لها ...

وكانت انجلترا قد فكرت فى الظرف القاهر فعلا قبل ذلك وأعدت له كثيرا من الصور فان لم تفلح هذه لجأت الى تلك ...

ولم يتوان الانجليز فى مصر عن اذاعة أنبائهم المختلفة ومن ذلك ما أبرق به كارتريت فى اليوم الخامس من يولية

قائلا : « فى مجلس الوزراء الذى عقد بالامس تكلم عرابى باشا كلاما عظيم العنف ضد السلطان ، وفوق ذلك فانه امر ضباط الجيش المصرى أن يقطعوا كل صله بدرويش باشا الذى يجب أن يفضى اليه بان بعثته فى مصر انتهت»

وبعدخمسة أيام فحسب من قرار المؤتمر اى فىاليوم الحادى عشر من شهر يولية ذلك التاريخ الاسود وقع من الانجليز عدوانهم الغادر على مصر ، رغم انف الدول جميعا ، والمؤتمر قائم فى الآستانة لايدرى ماذا يفعل ، وتركيا لم تبت فى الامر بعد ...

وستبلغ مهزلة المؤتمر تمامها حين يعقد جلسته بعد ضرب الاسكندرية بأربعة أيام لينظر فى الامر !

فكر المؤتمر طويلا فى التدخل المسلح فى مصر وقد اتخذ قراره كيف يكون هذا التدخل ، ولكنه ما نسى لحظة انه يتدخل لقتل حركة قومية صادقة فى مصر قوامها الحرية ، والحكم الدستورى ، واذا كانت انجلترا موطن الحكم النيابى والديموقراطية قد اذهلتها عن مبادئها أطماعها الاستعمارية فجعلتها كعادتها فى كل مواقف الاستعمار ، ذات سياستين : صراحتها ونزاهتها فى حكم نفسها ، ونفاقها وفجرها فى معاملة الامم وخاصة أهل الشرق ، واذا كانت روسيا والنمسا والمانيا قد انصرفت بحكم أوتوقراطيتها عن نداء الدستور والحرية فكيف غفلت عن ذلك فرنسا موطن الثورة الكبرى ومبعث الحرية والاخاء والمساواة ؟ وكيف ذهلت عنه ايطاليا المجاهدة ، بلد مازينى وجاريبالدى العظيمين ؟ ولكن الانسان هو الانسان مهما اهتدى اليه عقله من مبادىء ، ولن تزال الاثرة هى أساس كل تعامل بين أفراد هذا النوع من الحيوان مهما تبجح بعلمه وسموه ، ولن تزال هى الرابطة التى تقترنه على رغمه بدواب

الارض من العجماوات ...

كانت انجلترا قد أعدت بالفعل تدبير «الظرف القاهر» قبل أن يقترحه دوفرين فاقرأ خرافة الذئب والحمل فى صورة جديدة هى قصة النزاع بين بوارج الاسطول الانجليزى وقلاع الشواطىء بالاسكندرية .

فى اليوم التاسع والعشرين من مايو ، أى قبل تحفظ دوفرين بنحو شهر ، أبلغ السيربوشامب سيموررادميرال الاسطول البريطاني بالاسكندرية اللورد جرانفل ، كما سبق ذكره ، أن المصريين يقيمون تحصينات فى شواطىء الاسكندرية وان هـذا يعد عمـلا عدائيا موجهـا الى الاسطول ، وطلب زيادة السفن وقد اجابته حـكومته الى ما طلب دون استشارة فرنسا ...

وسألت انجلترا الباب العالى عما يراد بهذا الاجراء ، فردت تركيا بأنه لا تحصين هناك ولا استعداد وانما هو اصلاح فى بعض الحصون المتهدمة ، ومع ذلك فقد أمرت تركيا بوقفه ، واعربت تركيا عن أملها فى أن يتجنب قائدا الاسطولين ما عسى أن يثير أدنى نزاع ... ووقفت المسألة عند هذا الحد ...

ولكن الادميرال سيمور عاد فى أول يولية فأبرق الى سكرتيرية الادميرالية ان عرابى يستعد بجمع السـلاح والرجال وانه يعلن أن النبى يوحى اليه كل ليلة ، وانه سوف يضع الاسـطولين فى فخ وذلك بسـد البوغاز بالاحجار (١) .

وفى اليوم الثانى من يولية أبرق كارتريت الى جرانفل بأنه سـمع ان مجلس الوزراء المصرى قرر اسـتئذان السلطان فى العودة الى اعمال التحصين بشـواطىء

(١) مصر رقم ١٧ ص ٦٢ .

الاسكندرية ، وابرق جرانفل الى سيمور فى نفس اليوم يبلغه ذلك ويطلب اليه أن يأخذ حذره (١) ٠

وتلقى سيمور فى اليوم الثالث هذه البرقية الخطيرة « امنع كل محاولة لسد البوغاز الى الميناء ، واذا استؤنف العمل فى التحصينات أو اذا وضعت مدافع جديدة ، فبلغ القائد الحربى بأن لديك أوامر بمنع ذلك ، فاذا لم يوقف ذلك فورا فحطم التحصينات واسكت البطاريات اذا اطلقت نيرانها » (٢) ٠

وتلقى كارتريت فى الوقت نفسه نبأ ما أرسل الى سيمور ، مشفوعا بالتنبيه عليه انه فى حالة ما اذا أقدم سيمور على عمله فيجب أن يخطر الرعايا البريطانيون فى القاهرة وغيرها ليغادروا مصر قبل فوات الوقت »(٣)

وارسلت برقية أخرى الى سيمور هذا نصها : «قبل أن تاتى عملا عدائيا أدع الادميرال الفرنسى الى التعاون معك ولكن لا تؤجل العمل كما طلب اليك لان الفرنسى رفض الانضمام » (٤) ٠

وفى اليوم الرابع من يولية أبرق كارتريت الى جرانفل انه توجه وبصحبته القنصل الفرنسى الى راغب باشا ، فأجابهما اجابة شبيهة بما اعتاد أن يجيب بها فى مسائل أخرى مؤداها انه ليس ثمة ما يدعو الى الخوف وذكر كارتريت انه أنذر الرعايا البريطانيين ليكونوا على أهبة للسفر (٥) ٠

وفى اليوم الخامس أبرق كارتريت الى جرانفل : « انه رغبة فى أن يهيىء زمنا للرعايا البريطانيين كى ينسحبوا من القاهرة فقد اقترحت على الادميرال السير

---

(١) المصدر عينه ص ٦١
(٣،٢) مصر رقم ١٧ ص ٦٩ ٠
(٥،٤) ص ٧٤

بوشامب سيمور أن يؤجل الى يوم الخميس اتصاله بقائد حامية المدينة بشأن مسألة وضع البطاريات فى الحصون ، ذلك انى أخشى أن يؤدىالاتصال السريع الى تعجيل سير الحوادث وبذلك يجعل من الصعب انسحاب البريطانيين من القاهرة (١) .

وفى نفس اليوم ابرق كارتريت يقول : « لى الشرف أن أبلغكم ان وكيل وزارة البحرية قابل الادميرال السير بوشامب سيمورامس بعد الظهر وذكر له تاكيدات بشان عمل اصلاحات فى مدخل الاسكندرية وبعد ذلك بقليل تلقى الادميرال من قائد الحامية اجابة مكتوبة صيغت فى عبارة شبيهة بعبارات صاحبه ، وتلقى الخديو صباح اليوم برقية من السلطان ينبئه بانه سيعد هو ووزراوه مسئولين اذا لم توقف اعمال التحصينات ، لان هذه الاعمال اذا استمرت سوف تؤدى الى ضرب الاسكندرية بمدافع الاسطول البريطانى ، وسيجتمع مجلس الوزراء اليوم للنظر فيما جاء من السلطان » (٢) .

وفى اليوم السادس ، وهو اليوم الذى اتخذ المؤتمر فيه قراره النهائى أبرق كارتريت الى جرانفل يقول : « لى الشرف كذلك أن أبلغكم ان الادميرال (٣) السير بوشامت سيمور قد أرسل لتوه الى قائد الحامية يطلب اليه ايقاف التحصينات والمبانىالشاطئية ، وقد أرسلت تبعا لذلك تحذيرا رسميا أخيرا الى الرعايا البريطانيين ليغادروا القاهرة ، وسوف أبلغ فى الحال القناصل الاجانب بما اتخذ من الخطوات » (٤) .

وأرسل سيمور للمرة الثانية الى طلبه باشا قائد

---

(١) ص ٨٠ (٢) مصر رقم ١٧ ص ٨١
(٣) ص ٩٢ (٤) ص ٩٢

حامية الاسكندرية فى اليوم السادس من يولية يقول :
« البارجة انفنسبل فى ٦ يولية سنة ١٨٨٢ : سيدى ، لى الشرف أن أحيط سعادتكم علما بأنى علمت من مصدر رسمى ان مدفعين أو أكثر أضيفا بالامس الى خطوط الدفاع البحرية ، وان استعدادات حربية يجرى عملها فى الواجهة الشماليه للاسكندرية ضد الاسطول الذى تحت قيادتى ، وأرى لزاما على ، والحالة هذه ، أن أنبه سعادتكم الى انه اذا لم توقف هذه الاعمال ، أو اذا أوقفت ، ثم استؤنفت ، فان واجبى يقضى بأن أطلق مدافعى على الاعمال الجارى بناؤها » ...

ورد طلبه باشا بقوله : « عزيزى الادميرال الانجليزى لى الشرف أن أبلغكم انى تلقيت كتابكم المؤرخ ٦ يوليو ، الذى تخبروننى فيه انكم علمتم من مصدر رسمى وضع مدفعين وان أعمالا أخرى جارية على شاطىء البحر ، وردا على ذلك أؤكد لكم انه لا أساس من الصحة لهذه الاخبار ، وانها من قبيل خبر التهديد بسد مدخل البوغاز الذى أبلغتم به وتحققتم من كذبه ..

وانى لمعتمد على مشاعركم الانسانية الصادقة وأرجو أن تتقبلوا احتراماتى » (١) .

وأبرق جرانفل فى اليوم السابع الى سفير حكومته بفرنسا يقول : « أرسل الى لوردات الادميرالية صورة برقية وردت من السير بوشامب سيمور بتاريخ أمس يقرر فيها أن قائد الحامية أكد له انه لم توضع حديثا مدافع أو تجرى عمليات حربية ، وقد أكد هذا درويش باشا أيضا . وقد قرر الادميرال انه لم يلاحظ عمليات منذ يوم ٥ بعد الظهر ، ولكنه لن يتوانى عن العمل اذا استؤنفت العمليات ، وقد ألقى الى الادميرال الفرنسى

(١) ص ١٠٣

أن ينسحب فى حالة الاعتداء » (١) .

وقد جاء فى برقية سيمور الى الادميرالية قوله : ان وقف العمليات منذ التاريخ الذى أشار اليه ربما كان تنفيذا لامر السلطان (٢) وفى هذا دليل بل اعتراف من سيمور بأن العمليات أوقفت ...

وفى اليوم السابع كتب القناصل بالاسكندرية الى سيمور يسالونه عما اذا كان مقتنعا برد الحكومة المصرية بشأن أعمال التحصين ، ويبلغونه بانهم على استعداد لان يأتوا له بما يقنعه ، ويرجون منه أن يبلغهم ماذا بقي لديهم من وقت لحماية رعاياهم ، ثم يشيرون الى أن ضرب الاسكندرية على أية حال يفضى الى ضرر جسيم بالاجانب بالمدينة وبالوطنيين كذلك ، كما انه يحطم كثيرا من الممتلكات الاوربية ...

ورد الادميرال ردا رسميا حاسما قائلا : « انه اذا كان لهم من النفوذ ما يحمل قائد حامية الاسكندرية على الاخلاص فلا يستمر فى أعمال التحصين ، وانه مستعد لاجابة طلبهم ، أما التأكيدات الكتابية مهما كانت عبارتها فانها قليلة الجدوى لديه فيما هو بصدده ، وانه لا يقصد ضرب المدينة وان عمله اذا لزم الحال سيكون ضد الحصون ، وانه سوف يبلغ حكومته بكتاب القناصل ، علما بأنه ما يزال عند عزمه كما أبلغ قائد الحامية اذا لاحظ استئناف أدنى عمل دفاعى ، وعلى أية حال فسوف تكون هناك مهلة قدرها أربع وعشرون ساعة (٣)

وأبرق كارتريت الى جرانفل فى اليوم التاسع يقول : « لى الشرف أن أبلغكم بأن الادميرال السير بوشامب

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٩٧ (٢) ص ٩٨
(٣) ص ١٠٠

سيمور تلقى نبأ بأن مدفعين أضيفا الى قلعة السلسلة تجاه الميناء الجديد ، ولن يستطيع الادميرال أن يتغاضى عن هذا العمل العدائى ، ولذلك صمم على أن يفتح أفواه نيران مدافعه فى مطلع شمس الثلاثاء ١١ الحالى، وسأبلغ هذا المساء القنصل العام والخديو ودرويش باشا وسأعد ما يلزم لنزول جميع الرعايا البريطانيين الى السفن الليلة أو صباح الغد » .

وأبرق سيمور فى اليوم التاسع الى سكرتيرية الادميرالية البريطانية يقول : « ايماء الى برقيتى المؤرخة ٤ يولية سنة ١٨٨٤ ، أقول : انه ليس لدى أى شك فى حدوث الاستعدادات الحربية ، وقد وضعت مدافع جديدة فى حصن السلسلة ، وسأبلغ قناصل الدول الاجنبية صباح غد وأبدأ بالضرب بعد ٢٤ ساعة ما لم تسلم الى الحصون القائمة فى شبه جزيرة راس التين والحصون المشرفة على مدخل الميناء » (١) .

وجاء فى برقية الى سيمور من سكرتيرية الادميرالية طلب اليه فيها أن يستبدل بكلمة « تسلم » الواردة فى برقيته عبارة «تسلم مؤقتا بقصد تجريدها من السلاح»(٢)

وفى صباح اليوم العاشر من يولية تلقى طلبه باشا انذارا نهائيا هذا نصه : « لى الشرف أن أخطر سعادتكم انه لما كانت الاستعدادات العدائية الموجهة ضد الاسطول الذى أتولى قيادته آخذة فى الازدياد طول نهار أمس فى حصون صالح وقايتباى والسلسلة ، فقد عقدت العزم أن أنفذ غدا ١١ الحالى عند شروق الشمس ما أعربت لكم عنه من عمل فى كتابى المؤرخ يوم ٦ الحالى وذلك ان لم تسلموا الى فى الحال قبل هذه الساعة البطاريات

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ١٠٥
(٢) ١١٦ .

الموضوعة فى شبه جزيرة رأس التين وعلى شاطىء ميناء الاسكندرية الجنوبى بقصد تجريدها من السلاح » (١)٠

هذه هى قصة النزاع بين بوارج الاسطول الانجليزى وقلاع الشواطىء بالاسكندرية أو أقصوصة الذئب والحمل فى صورتها الجديدة .

وما ندرى بأى كلام نعقب عليها وأى عبارات اللغة تفى بوصف سماجة السير بوشامب سيمور ذنب هذه الاقصوصة ؟

لقد قرر دى فرسنيه رئيس الوزارة الفرنسية فى كتابه المسألة المصرية أن المعلومات التى لديه « لم تكن بالخطورة التى تبدو من رسائل الادميرال سيمور بحيث أن ضرب الاسكندرية فى الظروف التى وقع فيها انما كان عملا هجوميا لا دفاعيا وقرر كذلك أن « سد البوغاز لم يشرع فيه فى وقت من الاوقات » (٢) ٠

وقد أرسل الادميرال الفرنسى كونراد الى حكومته يصف تحرش سيمور ويذكر أنه لم يشاهد أى عملية فى الحصون (٣) ٠

ويقول نينيه وقد حضر ضرب الاسكندرية : « انى أؤكد بشرفى ما تحققته اذ كنت أزور الحصون يوميا بصحبة كبار الضباط ، أنه منذ يوم مجىء أوامر السلطان بالكف عن الترميمات لم يطرأ أى تغيير على أية بطارية من جهة الميناء أو على البحر ، ولم يحصل أى ترميم فى الحصون ولم ينصب فيها أى مدفع جديد » (٤) ٠

ولايستطيع المرء أن يتصور كيف يكون تحصين أمة

(١) مصر رقم ١٦ ص ٤ ٠
(٢) المسألة المصرية ص ٢٨١
(٣) الكتاب الاصفر سنة ١٨٨٠ وثيقة رقم ١٦٢
(٤) الرافعى : نقلا من كتاب جون نينيه ـ عرابى باشا ص ١٤١

شواطئها تلقاء سفن اجنبية تتهددها عملا عدائيا يسوغ الشر والاعتداء ؟ ! ان مثل ذلك كمثل لص أراد أن يقتحم دارا وسلاحه فى يده والشر فى معارف وجهه ، فاذا تناول صاحب الدار شيئا يدفع به عن نفسه هذا العدوان ، عد ذلك منه حقا للص يسوغ له أن يقتله ويأخذ متاعه وداره ، وليس فى تاريخ العدوان كما ذكرنا اقبح من هذا ولا اشد منه فجورا ...

وكيف يجوز فى عقل أن تكون قلاع الاسكندرية هى المعتدية على بوارج الاسطول والقلاع لم تنتقل اليها لتضربها وانما جاءت السفن تهدد المدينة والمؤتمر الدولى قائم فى الآستانة ينظر فى المسألة المصرية ؟ !

ان من حق كل دولة ، بل من واجبها أن تعد وسائل الدفاع عن كيانها فى كل وقت وفى غير مناسبة معينة ، وتكون أكثر التزاما بأداء هذا الواجب اذا هددها عدو ، ذلك ما لايستطيع أن يمارى فيه أحد .

ولكن الادميرال العظيم السير بوشامب سيمور – أو قل ولكن جلادستون زعيم الاحرار – وجرانفل السياسى القدير رأيا فى هذا الواجب الذى ثبت أن مصر لم تؤده فيما يتصل بحصون الشواطىء ، مسوغا لاطلاق نيران المدفعية على مدينة وادعة مسالمة كمدينة الاسكندرية . . الا ما أتعس هذا الشرق المسكين !

ويزيد فى سماجة هذا التحرش السخيف من جانب الادميرال العظيم انه اعترف بأن أعمال الترميم أوقفت ، والحق انه كان يظهر الهدوء ريثما ينقل الرعايا البريطانيون . فلما تم ذلك عاد الى انذاره ثم لم يكتف بما تقدم به أولى الامر حتى طلب تسليم بعض الحصون !

ولقد طلب تسليم بعض الحصون لانه من الممكن اقامة الدليل المادى على انه ليست هناك تحصينات وبذلك

تسقط حجته ان كانت هذه حجة ، وان ذنب الاقصوصة هذا ليعلم ان هذا التسليم لن يكون ، وبذلك تواتيه الذريعة السمجة المضحكة لضرب الاسكندرية ، ولقد ضربها سيمور وكوفىء على ذلك بأن أصبح اللورد السستر !

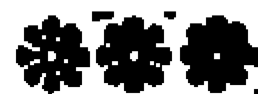
يقول روثستين فى كتابه المسألة المصرية يصف عمل انجلترا : « ان عملها هذا كان يخشى منه عليها ، ولكنه افلح كما يفلح كل عمل وقح تقوم به دولة شديدة البطش والسلطان » .

وقال أيضا : « والحق انه لا شيء احط قيمة ولا اصرح نفاقا من الحجة التى شرع بها الانجليز فى ضرب الاسكندرية » .

وقال : « وهذه حجة أجاد تسخيفها المستر ريشردز فى البرلمان اذ قال : أجد رجلا يحوم حول بيتى وعلامات الاجرام بادية عليه ، فأبادر الى احضار الاقفال والمتاريس وأحكم سد نوافذى فيقول ان هذا اهانة له وتهديد ، ويحطم على أبوابى ، ويعلن انه انما فعل ما فعل دفاعا عن نفسه ليس غير » .

ولقد خطر لنا هذا الذى يذكره المستر ريشردز قبل أن نقع عليه ، ولا ريب انه يخطر على بال كل من يقرأ قصة هذا العدوان الغادر ...

ومما يزيد الامر غرابة ويزيد موقف انجلترا سخفا انها تجعل مما ادعته من اعمال التحصين «ظرفا قاهرا» لتدخلها فى الوقت الذى كانت قد فرغت فيه من نقل رعاياها من البلاد !



بعد أن أرسل سيمور انذاره النهائى الى طلبه عصمت ، أرسل كارتريت الى رئيس الوزارة المصرية يقول :

« سيدى الوزير : بناء على البلاغ الذى أرسله الادميرال السير يوشامب سيمور صباح اليوم الى قائد حامية الاسكندرية ، أرانى مضطرا الى أن أخلى قنصلية صاحبة الجلالة ، وأن أقطع فى الوقت الحاضر العلاقات التى كانت بين سعادتكم وبين شخصى بصفتى وكيل القنصل العام عن جلالتها فى مصر » .

والواقع ان العلاقات تعد مقطوعة بين الانجليز ووزارة راغب باشا منذ قيامها ، فقد قابلوها كما ذكرنا بالجفاء الشديد ، يتبين ذلك من ردهم على اخطار الحكومة المصرية اياهم بقيام هذه الوزارة اذ لم يزيدوا على قولهم انهم علموا بما أخطروا به ، دون اى عبارة من عبارات المجاملة المعتادة ...

وقد غادر مالت القنصل العام الاسكندرية منذ اليوم السابع والعشرين من يونية وأناب عنه كارتريت وغادرها أيضا كوكسن ابليس مذبحة الاسكندرية وشيطان يوم عابدين ، وأوعزت الحكومة الانجليزية الى أوكلند كلفن الرقيب المالى الانجليزى بالامتناع عن حضور جلسات مجلس الوزراء ...

ويذكر بلنت فى كتابه أن رحيل مالت كان بمساعيه اذ كتب اليه صابونجى وكيله بالقاهرة يقول بضرورة اخراج مالت من مصر فكل الناس لاعنة وكلهم قاتله اذا بقى ، فذهب بلنت الى وزارة الخارجية والتمس نقل مالت الى احدى السفن وأجيب الى طلبه .

ومهما يكن من الامر فان الانجليز منذ مجىء سفنهم الى الاسكندرية كانوا يترقبون اليوم الذى يطلقون فيه مدافعهم على المدينة ...

اما الخديو فهو فى كنف الانجليز وحمايتهم منذ قبوله المذكرة المشتركة الثانية بتاريخ اليوم الخامس والعشرين

من شهر مايو ، وذلك فى ظل السفن الاجنبية ، بل انه فى كنفهم منذ يوم عابدين ، أو فى الواقع منذ عملوا على تعيينه بعد خلع أبيه ...

لهذاكان يجارى وزارة راغب انتظارا لتدخل الانجليز ، وكان فى الوقت نفسه يتعجل هذا التدخل وقد رأينا ما كان منه ومن عمر لطفى فى فتنة الاسكندرية ...

ولم يكن يضيره أى اتفاق مع راغب ، وهو يوقن أن العاقبة للانجليز ، بل لقد كانت مداراته راغبا سترا لنياته أمام درويش حتى ينفض يده من كل ذلك عما قريب ويركن الى الغالبين ...

ولسنا نرسل هذا الكلام الخطير على عواهنه ، ولسنا كذلك نكتفى بما سلف من مواقف الخديو وهى فى ذاتها براهين تثبت مانقول وخاصة قبوله المذكرتين المشتركتين واحدة بعد الاخرى ، وقد جاء فى أولاهما اشارة الحكومتين الى بقائه على العرش و « ان سموه سيستمد من هذا التأكيد ما يحتاج اليه من الثقة والقوة لتدبير شئون بلاده وشعبه » (١) ، وقد كانت الثانية تدخلا فعليا فى شئون البلاد الداخلية ، ولا نقتصر على الاشارة الى موقفه من الحركة القومية الدستورية بوجه عام وشدة كراهته لعرابى بوجه خاص ، لا نكتفى بذلك كله وانما نعرض على القارىء نص البرقيتين الآتيتين :

كانت البرقية الاولى من كاتريت الى جرانفل فى اليوم السابع من يولية وفيها يقول : « أتشرف بابلاغ فخامتكم ان الخديو استدعى السير أوكلند كلفن هذا الصباح ليدلى اليه بالطريق الذى يقترح سموه اتباعه فى مواقف معينة تتصل بحركاته الشخصية . ان سموه يعتزم البقاء فى مصر اذا وقع الضرب ، فانه لايستطيع كما ذكر

(١) راجع ص ١١٦ من هذا الكتاب

ان يعتزل الذين وقفوا باخلاص الى جانبه أثناء المحنة ، كما لايستطيع أن يغادر مصر اذ تهاجمها دولة اجنبية لمجرد - كما يصح ان يقال - انه يريد ان يضمن سلامته الشخصية ، واذا حاولت تركيا الغزو ولقيت جيوشها مقاومة فان سموه ودرويش باشا سوف يعلنان الجيش انهما كرجلين من رعايا السلطان الموالين يعدان نفسيهما مقصرين فى أداء واجبهما اذا أقرا المقاومة وعلى ذلك فانهما يأويان بأحسن وسيلة ممكنة الى يخت درويش باشا ، وفى حالة ضرب الاسكندرية بمدافع الاسطول البريطانى سيأوى سموه الى قصر ترعة المحمودية حيث يرافقه درويش باشا . وكلما كان الفراغ من الامر كله أسرع قل الخطر الذى يتعرض له شخصيا . وقد كانت لهجة سموه أثناء المقابلة كلها هادئة وكان يضبط نفسه واختتم حديثه بأن رجا من السير أوكلند كلفن ان يطلع فخامتكم على ما اعتزمه ...

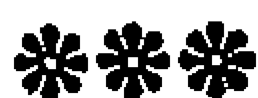
وانى أقترح فى حالة الضرب أن أبلغ درويش باشا قبل اقلاعى ان حكومة جلالة الملكة تلقى على عاتقه تبعة سلامة سموه الشخصية » (١) .

أما البرقية الثانية فهى من جرانفل الى كارتريت فى اليوم التالى وهذا نصها : « توافق حكومة جلالة الملكة على ما ذكرته فى برقيتك بالامس وهو انك ترى أن تبلغ درويش باشا فى حالة ما اذا أدت الضرورة الى ضرب الاسكندرية بأنك تلقى على عاتقه سلامة الخديو الشخصية » (٢) .

ولسنا بحاجة الى التعقيب بكلمة واحدة على كلام الخديو ، فما يأتى كلام أصرح من كلامه فى موقف كهذا

(١) مصر رقم ١٧ ص ٩٧
(٢) مصر رقم ١٧ ص ١٠٢

الموقف وخاصة قوله : « انه كلما كان الفراغ من الامر كله أسرع قل الخطر الذى يتعرض له شخصيا » .
ولسوف يزداد شأن توفيق وضوحا فيما يأتى من الحوادث ان كان شأنه يحتاج الى وضوح ...



لم يكن هذا التحرش السخيف من جانب سيمور ليطرأ على بال أحد ، وخاصة لانعقاد مؤتمر الآستانة واتخاذه قراره بدعوة السلطان الى ارسال جيش الى مصر ، لذلك لم تأخذ وزارة راغب باشا أهبتها لتقوية مدفعية الاسكندرية واعدادها للقتال كما زعم الانجليز من مزاعم اتخذوها ذريعة لعدوانهم ...
وأراد راغب باشا أن يتلافى الخطب بكل ما فى وسعه فاستعان عقب تلقى الانذار بقنصل ايطاليا العام ليدعو زملاءه القناصل ابتغاء السعى لدى سيمور عسى أن يرجعوه عن عزمه ، واجتمع القناصل ولكنهم لم يستطيعوا عمل شيء لانهم كانوا على يقين ان ضرب الاسكندرية غدا أمرا مقررا ...
وأشار القناصل على راغب أن يذهب بنفسه لمفاوضة الادميرال ، فتوجه بصحبة عبد الرحمن رشدى بك وزير المالية ونجران بك سكرتير مجلس الوزراء ، وقابلوا سيمور على ظهر البارجة انفنسبل فوجدوا منه اصراره على انذاره فأعلنوه انهم سيرسلون ردهم فى المساء ، وتوجه راغب باشا لمقابلة الخديو ...
وعقد الخديو مجلسا من الوزراء وكبار رجال الدولة شهده درويش باشا ، لينظروا ماذا يكون جواب الحكومة على انذار سيمور .
وبعد أن تداول المجلس طويلا انتهت اغلبيته الى رفض ما طلب الادميرال ، وكانت المداولة فى أمرين : هل

تقبل مطالب الانجليز تجنبا للعدوان ؛ أم هل ترفض ابقاء على الكرامة القومية وتفاديا للمذلة ؟

وكانت حجة القائلين باختيار الرأى الاول ان الحصون ضعيفة لا تجدى مقاومتها ، وان الحكومة اخذت على غرة فلم تأخذ للأمر أهبته ، وكان أصحاب الرأى الثانى يقولون ان العدوان واقع لا محالة سواء قبلت مطالب الانجليز أم لم تقبل ، فلن يعجز الانجليز عن تحرش من نوع آخر ...

ورجح رأى الفريق الثانى ، بيد أن الوزارة رأت أن تسلك سبيل الحكمة حتى آخر لحظة ، يقول عرابى فى مذكراته « تقرر بالمجلس المذكور بانه لايمكن اجابة طلب الاميرال المذكور لما فى ذلك من الخزى والعار الذى يلحق بالمصريين الى الابد حيث أن الاستحكامات والطوابى المذكورة ما انشئت الا لحفظ الثغور ، والعساكر ما وجدت الا للدفاع عن الوطن العزيز والدود عن حياضه ، فلا يجوز لهم أن يخربوا معاقلهم بأيديهم لمجرد طلب العدو الطامع فى بلادهم ، بل الواجب عليهم أن يدافعوا عن بلادهم ويقوموا بما تحتمه عليهم واجباتهم الحربية الى آخر رمق من حياتهم دفاعا عن شرف الوطن . ولكن قفلا لباب الشر وقطعا لاحتجاجات الاميرال سيمور رئيس الدونتمة الانجليزية رؤى أن يرسل له وفد مؤلف من عبد الرحمن بك رشدى ناظر المالية وقاسم باشا وكيل البحرية السابق ومحمد كامل باشا وكيل البحرية حينذاك وتجران بك باشكاتب مجلس النظار ويتلطفوا معه فى المقال ويوضحوا بأن المصريين ليسوا أعداء للانجليز وانه لايمكن سد البوغاز بالاحجار كما قيل وانه يمكن ضبط المراكب المشحونة بالاحجار عند شروعها فى العمل ان وجدت ... وأما انزال المدافع فهو امر لايمكن قبوله

لما فيه من مخالفة قوانين البحرية ولما يتبع ذلك من الاهانة والمذلة . وانما يمكن اجابة لطلبه وفضا للاشكال تنزيل ثلاثة مدافع من ثلاث طوابى أحداها طابية المكس والثانية طابية صالح والثالثة طابية برج السلسلة وأن يكتفى بذلك ردا لشرف الدونتمة كما يزعم ... فذهب الوفد وبلغ الرسالة ثم رجع وأبلغ بأن الاميرال المذكور لم يقبل ما عرضه عليه وصمم على وجوب انزال جميع المدافع ، كما طلب ، وانما تكرم بأن عافى عساكره البحرية من معاناة مشقة انزال المدافع وتخريب الطوابى وسمح للعساكر المصرية بأن يعانوا هذه الاعمال ويخربوا معاقلهم بأيديهم وزاد على ذلك انه يطلب من الحكومة أمرا صريحا باعطائه طابية المكس وما وراءها من الاراضى وطابية المجمى وطابية باب العرب لاتخاذها معسكرا للعساكر الانجليزية وانه اذا لم يجب الى طلباته المذكورة باشر القتال عند طلوع الشمس فى يوم غد » .

ويؤيد ما ذكره عرابى ما أورده اللورد تشرشل فى اتهامه من هذا الموقف فقد اثبت نص برقية لمراسل المانشستر جارديان يذكر فيها ان الخديو عقد مجلس الوزراء برئاسته فى اليوم العاشر من يولية ، وكان عرابى غائبا عن هذا المجلس وقد قرر المجلس أن يرسل رئيس الوزراء الى سيمور يعرض عليه انزال ثلاثة مدافع اما من حصن واحد واما من ثلاثة حصون ، وابقاء على علاقات المودة بين الحكومة المصرية والامبراطورية البريطانية ، وكلف الخديو رئيس الوزراء بأن يكتب بهذا الى الادميرال فاذا رفض وأصر على ضرب المدينة فان الحصون لن تجيب الا بعد الطلقة الخامسة من البوارج ، وبعد ذلك يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين »(١)

---

(١) مصر رقم ٤ سنة ١٨٨٢ ص ١٥

وأرسل الوزراء فى المساء الرد الآتى على الانذار النهائى : « لم تأت مصر شيئا يفضى بارسال هذه الاساطيل المتجمعة ، ولم تعمل السلطة المدنية ولا السلطة العسكرية أى عمل يسوغ مطالب الاميرال الا بعض اصلاحات اضطرارية فى أبنية قديمة ، والطوابى الآن على الحالة التى كانت عليها عند وصول الاساطيل ، ونحن هنا فى وطننا وبيتنا ، فمن حقنا ، بل من الواجب علينا أن نتخذ عدتنا ضد كل عدو مباغت يقدم على قطع أسباب الصلات السلمية التى تقول الحكومة الانجليزية أنها باقية بيننا ، ومصر الحريصة على حقوقها الساهرة على تلك الحقوق وعلى شرفها لا تستطيع أن تسلم أى مدفع ولا أية طابية دون أن تكره على ذلك بحكم السلاح، فهى لذلك تحتج على بلاغكم الذى وجهتموه اليوم وتلقى مسئوليات جميع النتائج المباشرة وغير المباشرة التى تنجم اما عن هجوم الاساطيل أو من اطلاق المدافع على الامة التى تقذف فى وسط السلام القنبلة الاولى على الاسكندرية المدينة الهادئة مخالفة بذلك لاحكام حقوق الانسان ولقوانين الحرب »

وتأهب الادميرال العظيم لضرب المدينة ، ويجدر بنا قبل أن نصف هذه المأساة الشنيعة أن ننظر ماذا كان موقف فرنسا وقد كان لها أسطول بالاسكندرية ، ثم ماذا كان موقف تركيا وكان لها الحق فى مصر ...

فى اليوم الرابع من شهر يولية ابلغ اللورد لايونز سفير انجلترا فى باريس المسيو دى فرسنيه نبأ التعليمات التى أرسلت الى سيمور قبل ذلك بيوم باستعمال القوة ضد قلاع الاسكندرية ، وسأل السفير المسيو فرسنيه عما اذا كانت فرنسا سترسل مثل هذه التعليمات الى الادميرال كونراد .

وكان كونراد قد أبلغ حكومته ما رأى وما علم ، وقد قرر ـ كما أسلفنا ـ انه لم يكن هناك اعمال فى الحصون كما ادعت انجلترا .

وعقـد فرسنيه مجلس الوزراء ، ولم تكن فرنسا رسمت لنفسها خطة بشأن هذا التحدى المفاجىء ، ولم يدر بخلد فرسنيه أن تجرؤ انجلترا على هذا العمـل مهما بلغ من تطلعها الى الانفراد بضرب مصر ، وذلك لان المؤتمر قائم فى الآستانة يدرس كيف يكون التدخل فى شئون مصر ، وكانت تظن فرنسا أنها بهذا المؤتمر الذى اقترحته قد أخذت السبيل على انجلترا فجعلت المسألة المصرية مسألة دولية .

وكذلك كانت فرنسا مطمئنة الى أن الظرف القاهر الذى أضافه دوفرين الى مقترح السـفير الايطالى لم يظهر بعد ، وليس فى شئون مصر ما يدعو الى القلق ، وقد كان فرسنيه يقظا الى ان الانجليز يبالغون فى تصوير ما يزعمون من سوء الحال فى مصر ...

وقرر مجلس الوزراء الفرنسى لسـوء حـظ مصر الامتناع عن مشاركة انجلترا فيما هى مقدمة عليه ، وذلك لان هذا العمل يعد خروجا على مؤتمر الآستانة ، وهو يجر الى اعتداء لاموجب له على مصر ولايمكن عده عملا دفاعيا ، هذا الى أن الحكومة لم تعرض الامر على مجلس النواب الفرنسى ، ولايمكنها أن تدخل فى حرب بدون اقرار هذا المجلس .

وكتب دى فرسنيه الى السفير الفرنسى بلندن ليبلغ الحكومة الانجليزية قرار مجلس الوزراء الفرنسى وانه أرسل التعليمات للأدميرال كنراد ، انه اذا أصر القـائد الانجليـزى على ضرب الاسـكندرية فعليه أن يغـادر الاسكندرية بالاسطول الفرنسى ويرسو قرب بورسعيد.

وهكذا تخلى فرنسا السبيل لانجلترا لتنفرد بضرب مصر ، وكم لحقت بمصر النكبات من جراء ضعف السياسة الفرنسية ، ولم تنس مصر أن فرنسا بعد أن شدت أزر محمد علي واغرته زمنا بالوقوف فى وجه انجلترا تخلت عنه أمام تهديد بالمرستون وتركته ينهار وحده ...

الحق أن فرنسا كانت تفطن الى أن انجلترا تريد أن تنفرد باحتلال مصر ، ولم تأنس فرنسا فى نفسها القوة لتناوىء انجلترا مناواة فعلية خشية أن يدب الخلاف بينهما وألمانيا التى ضربتها تلك الضربة القاصمة منذ اثنتى عشرة سنة فى حرب السبعين لم تزل لها بالمرصاد ولم يزل بسمارك يرمى الى اضعاف فرنسا حتى لا تنهض من كبوتها فتثأر لما لحقها من هوان .

لهذا تغافلت فرنسا على كره منها وأفسحت السبيل لانجلترا فأضاعت بذلك جهودها الدبلوماسية الماضية جميعا فى عرقلة السياسة الانجليزية ...

أما تركيا فقد تراخت وتهاونت فى الامر وأظهرت ضعفا وترددا وحيرة هى خليقة بدولة مثلها قامت على القوة والدسائس وعدمت الوسائل الدبلوماسية الصحيحة .

فى اليوم الثامن من يولية ابرق دوفرين الى جرانفل يقول : « أتشرف بابلاغكم أن وزير خارجية تركيا قد خرج لتوه من عندى ، وجاء يتوسل لاعتبارات انسانية أن تطلبوا الى الادميرال سيمور الا يفعل شيئا يعجل الازمة فى الاسكندرية ، وأجبته ان الامر كله بيد السلطات المصرية هناك ، وما عليهم الا أن يعملوا حسب ما طلب اليهم وبذلك فلن تطلق قذيفة واحدة ، ولاحظ سعادته انه ربما كان فيهم بعض ذوى النزق والحمق ،

فقلت : ولماذا لم يذهب السلطان بجنوده الى هنـاك ليجبرهم على النظام ؟ ثم ذكرت له انه اذا استطاع ان يدع لدى من الضمانات ما يؤكد لى أن السلطان سيفعل كما أردنا ، فان ما أدلى به الى فخامتكم بشأن مقترحاته سوف يلقى منكم الاعتبار الودى ، فى حين أن مجرد طلبه الذى أراد أن أبلغه اليكم لا يكون له الاثر المطلوب طالما انه لا يقوم على شيء ، فقال أنه لايملك أن يعطينى اى تأكيد فان المسألة تدرس الآن وأمله أن يستطيع يوم الاثنين أن يفضى الى بشيء ... ولم يقل أكثر من ذلك ولما الححت على سعادته قال : ان عرابى اتخذ سبيل العناد والواضح انه لا بد من عمل شيء ».(١) .

ومن هـذه البرقية يتبين لنا مبلغ ما فى السياسـة التركية من حيرة وتردد وما فيها من ضعف يتجلى فى هذا التوسل باسم الانسانية ، وترينا هذه البرقية الهامة كذلك مبلغ ما فى السياسة الانجليزية من لؤم وكذب ، فان استعداد الانجليز للرجوع عن ضرب الاسـكندرية اذا عمل السلطان كما يحبون فيه أبلغ دليـل على أن خوفهم من أعمال التحصينات المزعومة ومدهم ذلك ظرفا قاهرا للتدخل كان من أسخف الاكاذيب واحطها ، وأن ضرب الاسكندرية كان نية مفروغا منها ...

وفى اليوم العاشر من يولية أبلغ دوفرين حكومة تركيا ما يأتى : « تتشرف سفارة حكومة جلالة الملكة بأن تبلغ حكومة الباب العالى بأنه بنـاء على استمرار السلطات الحربية فى مصر فى تسليح الحصون بالاسكندرية ، فان الادميرال الانجليزى سوف يعلن هذا الصباح أنه ما لم تسلم الحصون مؤقتا بقصد تجريدها من السلاح فانه

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ١٠٤

سيطلق مدافعه بعد أربع وعشرين ساعة » (١) ٠

وأبرق فى نفس اليوم الى حكومته يقول : « أتشرف بأن أبلغكم انى ناشدت السلطان للمرة الاخيرة بكرة هذا الصباح ، وابلغته ان ما تلقت به حكومة جلالة الملكة تأكيداته من اقتناع قد قضي عليه قضاء تاما بسبب مسلكه بعد ذلك . وأجاب السلطان انه سوف يرسل الى فى الساعة الخامسة من صباح الغد اجابة مبوبة على رسالتى ، وفى نفس الوقت طلب أن يُؤجل ضرب الاسكندرية فأجبت جلالته ردا على ذلك انى سأبلغ فخامتكم رسالته ، ولكن اذا رفضت الشروط التىطلبها الادميرال سيمور ـ تلك الشروط التى بلفتها الوزير صباح اليوم بناء على توجيهكم ـ فانه لايبقى لدى أمل فى تعديل اتجاه ما اعتزم عمله » (١) .

وفى نفس اليوم العاشر أبرق جرانفل فى الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر الى سفرائه فى باريس وبرلين وفينا وروما وبطرسبرج والآستانة ، ليبلغ كل منهم الدولة التى يوجد بها أن « المسلك الذى سلكه أدميرالنا لم يكن الا عملا مشروعا لا أقل ولا أكثر للدفاع عن النفس ، وان عمله ، اذا أدى سوء الحظ الى العمل لن يكون رائده غير هذا دون أن يكون لنا أى مأربخفى، ولقد تبين من تقريره أنالسلطات فىالاسكندرية مستمرة فى تدبيراتها العدائية على الرغم من أوامر السلطان ومن رغبة الخديو ، ومما ذكروه لنا مرارا من تأكيدات » .

وأضيف الى هذه البرقية عبارة لدوفرين خاصة وهى : « واننا نعتقد أننا نعمل وفق مصالح السلطان

(١) ص ١٢١
(٢) ص١٢١

المفهومة حق الفهم ، وقد اغفلت سلطته فى مصر » (١) .

وللقارىء أن ينظر فيما فى هذه البرقية من حجة الدفاع عن النفس ومراعاة مصلحة السلطان ، واستمرار السلطات فى الاسكندرية فى تدبيراتها العدائية ، ليرى مثلا رائعا للسياسة الانجليزية كيف تلجأ الى الكذب الصريح فى سبيل تحقيق أطماعها الاستعمارية !..

وفى اليوم الحادى عشر ، وهو اليوم الذى حدث فيه الضرب ، ابرق دوفرين الى جرانفل فى الساعة الرابعة صباحا يقول : « حضر الى الآن سعيد باشا وزير الخارجية ليسلمني مذكرته المرسلة مع هذا... وليبلغنى انه فى المساء يستطيع ان يقترح على حلا معقولا للمسألة المصرية ، وقد طلبت اليه ايضاحا ، فقال : ان كل ما عنده الآن أن الحل سيكون معقولا ، فقلت : انه لا مجرد دخول عضو تركى فى المؤتمر ولا مجرد العودة الى دعوه عرابى باشا الى هنا يكون حلا معقولا ، فعاد يكرر قوله ان الحل سيكون معقولا ، ورجانى ان ارسل اليكم والى الادميرال سيمور ما سلف فى الحال ومشفوعا بتوصية بقصد تأجيل الانذار لكى يدع ذلك متسعا من الوقت يسمح بأن تصل رسالة أخرى من الباب العالى الى فخامتكم ، فقلت : انى لم أمنح سلطة التدخل فى عمل الادميرال سيمور ، وان عبارة الحل المعقول من الغموض بحيث لا تدع لى أكثر من ان اعبد لفخامتكم ما قال بنصه ، وأضفت الى ذلك قولى انى على اى حال سوف أرسل الى السير بوشامب سيمور صورة برقية لمذكرة الباب العالى ولما طلبه منى اخيرا ، مقترحا انه فى حالة ما اذا كانت التعليمات المرسلة الى الادميرال تسمح له بالتأجيل ، أن يؤجل سعادته الضرب ثلاث ساعات أو

---

(١) ص ١١٤

أربع ابتغاء افساح الوقت لتصل اليكم رسالة الحكومة العثمانية اذا كنتم ترغبون أن ترتبوا عليها عملا ما ... وقد جرؤت على أن أبين لسعيد باشا مبلغ ما كان فى التراخى الدبلوماسى من حمق وبين أيدينا مسائل عظيمة كهذه حتى أصبح من المستحيل ماديا أن نتدخل فى مجرى الحوادث » (١)

أما مذكرة الباب العالى فهذا نصها وكانت بتاريخ اليوم العاشر : « ردا على المذكرة الشفوية لسفارة صاحبة الجلالة البريطانية بتاريخ ١٠ الحالى والتى تلقاها الباب العالى بعد ظهر اليوم نفسه ، تتشرف وزارة الخارجية بابلاغ السفارة أنه وفقا لتلغراف أرسل اليوم من الخديو والماريشال درويش باشا ، قد أعلن سموه والحكومة المصرية ادميرال الاسطول البريطانى بالاسكندرية أن السلطات المحلية سوف لا تتعرض بمقاومة فى حالة ما اذا أقدم الادميرال على الضرب (٢)

ومن الجلى أن عملا كهذا اذا وقع يؤدى الى افتيات خطير على الحقوق الملكية لصاحب الجلالة الشاهانية السلطان وعلى مصالح الاقليم ، وان الحكومة الشاهانية لواثقة من أن مجلس وزراء سان جيمس اد ينظر الى ما ذكر نظرة الاعتبار الجدى يتخذ الخطوات التى تؤدى الى أن ينصرف الادميرال سيمور عن أى عمل من طبعه أن يفضى الى مثل هذا الوضع النهائى وأن يرسل اليه التعليمات بهذا المعنى ، وان الحكومة الشاهانية على أى حال سوف تتشرف باخبار سفارة صاحبة الجلالة البريطانية عن القرار الذى ربما وصلت اليه غدا الثلاثاء

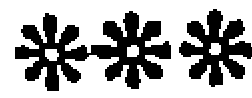
(١) مصر رقم ١٨ ص ١٣٢

(٢) يشير الى ان الرد على الانذار النهائى يكتفى بالقاء تبعة الضرب على الانجليز دون ان يذكر عليوانا بعدوان .

فى الليل بشأن رسالة السفارة السالف الاشارة اليها باعلى هذا ، وبشأن البرقية الواردة من الخديو والمارشال .

وان الباب العالى ليرجو من مجلس وزراء سان جيمس أن يتكرم بسرعة ارسال التعليمات بما طلبنا أعلاه الى الادميرال » (١)

هذا كل مافعلته تركيا ولا نجد فى المكاتبات الدبلوماسية أسوأ من هذه البرقيات التى تنطق بالحيرة والضعف والتسويف والارتباك ...



كانت مصر وحدها تتلقى ضربات الاحتلال الاولى ممثلة فى الاعتداء الآثم على الاسكندرية ، وسوف يبذل الوطنيون ما فى وسعهم تلقاء هذا الاعتداء وان كانوا ليوقنون أن قوتهم المادية أضعف كثيرا من قوة أعدائهم ، ولكن الحر اذا وجد نفسه فى موطن يوقن فيه أنه هالك لا محالة كان عليه أن يبذل ما فى وسعه من مقاومة انفة منه وحفاظا ...

ولكنا والاسف يملأ نفوسنا سنجد اول خطوة من خطى التخاذل فى مسلك الخديو توفيق منذ يبدأ الضرب وسوف يكون لمسلكه بعد هذا أبعد الاثر فى بث روح التردد والانقسام حتى يفضي الامر الى الهزيمة ، وعلى الذين يعنون بتاريخ مصر أن يذكروا أن وجود توفيق باشا على رأس حكومة مصر يومئذ كان العامل الجوهرى فى نجاح مدبرى الاحتلال ...

ثم انتقل الخديو فى عصر اليوم العاشر من يولية من سراى رأس التين فى موكبه الرسمى الى سراى الرمل ،

(١) رقم ١٧ ص ١١٢٣

وسيبقى بها حتى يقع الضرب ويتبين عاقبته ثم يعود الى راس التين حيث يتلقاه سيمور ويعد له ترجمانا يلازمه ويضع البوارج على مقربة من القصر لحمايته .

وكان كارتريت قد أشار عليه قبل ذلك الحديث الذى أفضى به الى كلفن ، بأن يأوى الى احدى سفن الاسطول ولكنه رأى ان الوقت لم يحن بعد لهذه الخطوه الجريئة ، كما انه كان فى شك من العاقبة ...

يقول الشيخ محمد عبده : « ١١ يولية ، أحد الميرالايات الذين فى معية الخديو قال له : ما مصير الاسكندرية لو ضربها الانجليز ؟

فأجاب الخديو : ستين سنة ... وهز كتفه .

فقال الضابط : لكن السكان سيحرقونها فارجو أن تتوسط لدى الاميرال ، والوقت لم يزل يسمح بذلك ، اطلب ذو الفقار وبلغه أن يحافظ على المدينة فعنده من الرجال الكفاية ...

فأجاب : فلتحرق المدينة جميعها ولا يبقى فيها طوبة على طوبة ، حرب بحرب ، كل ذلك يقع على رأس عرابى وعلى رؤوس الفلاحين ، وسيذوق الاوربيون عاقبة هروبهم مثل الارانب ...

ذهب الخديو من راس التين الى الرمل ، والمحافظ وموظفو المحافظة انسحبوا واختفوا (١) .

ويقول بلنت فى كتابه بعد أن ذكر ما أفضى به توفيق الى كلفن : « كان هذا هو البرنامج الذى سار على وفقه الخديو ولم يخرج عنه الا فى انه لم يذهب الى قصر المحمودية وانما ذهب الى سراى الرمل على بعد ثمانية أميال من الاسكندرية وهو مكان أكثر أمنا فى حالة اطلاق النار من مدافع سيمور .

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام للشيخ رشيد رضا ص ٢٥٢

وبعد الحرب بزمن قصير وقعت بطريقة غريبة على سبب تردد توفيق وذلك من مصدر له معرفته الوثيقة ، ولم يكن هذا المصدر غير اللورد شارلس برسفورد نفسه الذى قاد السفينة كندور من سفن المدفعية بالاسطول وقت الضرب والذى صار مارشال الاسكندرية بعد ذلك ، فقد ذكر لى أن الخديو فى لحظة من لحظات الصراحة غير عادية شرح له سبب بقائه فى المدينة أثناء الضرب . ولم يكن ذلك سوى انه كان فى حيرة شديدة أى المتحاربين سيصمد أكثر ازاء خصمه ؟ فقد كان الرأى السائد فى مصر ان السفن سوف تغرق ، ولقد ظل الخديو فى حالة من الشك الباعث على الخوف طول نهاره فى الرمل حتى لقد كان يهرول الى سطح القصر كل نصف ساعة ليرى ماذا كان من امرها ، ولما أن تبين فى المساء انها ظلت سليمة وان الحصون قد أسكتت ، عقد العزم عند ذلك فقط على أن يضع نفسه تحت حماية سيمور . . . وقد أدت تجارب برسفورد فى الاسابيع التى قضاها بالاسكندرية الى أن ينظر نظرة الاحتقار الى توفيق ، وأن يشعر بشيء من العطف على عرابى والفلاحين الذين نهضوا بأعباء الحرب على الرغم من انشقاق أميرهم » (١) .

فى الساعة السابعة من صباح اليوم المشئوم ، الحادى عشر من شهر يولية سنة ١٨٨٢ ، أطلق الادميرال العظيم السير بوشامب سيمور أولى قذائفه على مدينة الاسكندرية ، باسم الدفاع العادل المشروع عن النفس ، والدنيا كلها تشهد هذا البغى الاكبر ، وليس فيها دولة يتيقظ ضميرها لما تصبه انجلترا على الحركة القومية القائمة على السلام والدستور فى مصر !

---

(١) S,H' Blunt P,380;

كانت حصون الشاطىء تمتد من ناحية العجمى فى الغرب الى أبى قير فى الشرق وكان عددها نحو عشرين حصنا أو طابية كما كانت تسمى ويدخل فى ذلك اثنان فى داخل المدينة هما كوم الناضورة ، وكوم الدكة ...

واذا استثنينا الحصنين الاخيرين وهما من منشآت نابليون ، وقلعة قايتباى وهى ترجع الى القرن الخامس عشر كانت بقية الحصون من منشآت محمد على ، وقد ظلت على حالها منذ ذلك الوقت الا بعض اصلاحات أدخلها عليها اسماعيل ، وكانت مدافعها وتبلغ تسعة وعشرين ومائتين، قديمة الطراز ضعيفة ، قريبة المرمى، ولولا ان اسماعيل وضع فيها تسعة وأربعين مدفعا من المدافع القوية من طراز ارمسترنج ما صلح فيها للدفاع من شيء ...

وكان الاسطول البريطاني مكونا من ثماني مدرعات كبيرة وخمس مدفعيات وسفينة للطوربيد وأخرى لاعمال الكشف ، وكانت مدافع الاسطول ويبلغ عددها سبعا وسبعين من النوع الضخم القوى من طراز أرمسترنج .

والمعروف فى الحرب البحرية ان من أكبر الاخطار تعرض السفن للقلاع ذات المدافع القوية ، فشتان بين ما يستند الى الماء وبين ما يستند الى الصخر ، هذا الى ارتفاع القلاع وتمكنها وصلتها بما تطلب من العتاد والرجال ...

ولكن للسفن ميزة عظيمة على القلاع الضعيفة المدافع، فان السفن تستطيع أن تتجمع فتدك قلعة بعد قلعة ، فى حين أن القلاع لا تستطيع أن يدفع بعضها عن بعض... وكذلك كان الحال مع شديد الاسف فى قلاع الاسكندرية

وكان آلاى طوبجية السواحل يتألف حسب الاحصاء الرسمى من اثنين وستين وسبعمائة ألف رجل ما بين

ضابط وصف ضابط وجندى ، وكان يقودهم الاميرالاى اسماعيل بك صبرى... ولكنهم يوم الضرب كانوا دون ذلك كثيرا فقد ذكر عرابى فى مذكراته انهم كانوا لايزيدون عن سبعمائة .

وكان بالمدينة من قوات الجيش أربعة آلايات ، يكون اثنان منهما اللواء الثالث ويرأسه خورشيد باشا طاهر تحت قيادة الفريق اسماعيل باشا كامل ، ويكون الباقيان اللواء الثانى بقيادة طلبه باشا عصمت قائد حامية الاسكندرية ، وكان مجموع هذه الآلايات اثنى عشر ألفا من المشاة ...

أصدر عرابى باشا تعليمات الى صبرى فى الليلة السابقة للصباح المشئوم وابلغه ان مجلس النظار قرر الا تجيب الحصون الا بعد الضربة الخامسة من الاسطول ، ووزع صبرى ضباطه على الحصون استعدادا للمعركة ، وكان يعاونه وكيله محمد بك نسيم الذى وكل اليه صبرى الدفاع عن الحصون الغربية ...

وكان عرابى ليلتئذ بالترسانة يصحبه محمود فهمى باشا وطلبه عصمت باشا ومحمد كامل باشا وكيل نظارة البحرية ...

ووزع عرابى حامية المدينة وراء الحصون من قلعة العجمى الى برج السلسلة وعهد الى اورطتين من الفرسان بالمراسلة بين الحصون ...

أجابت الحصون بعد خمس دقائق من ابتداء الضرب ، واستمر آلاى السواحل فى الدفاع وأبدى همة ونشاطا وحماسة وطنية شهد بها كثير من الاجانب ، وذلك على الرغم من عنف المدافع الانجليزية وشدة فتكها وعظم تدميرها ، ومهارة السفن الانجليزية فى الابتعاد والاقتراب والاعتصام بدخان كثيف يغطيها أثناء الضرب ، وشباك

قوية من الفولاذ كانت ترد عنها قذائف الحصون ...

واستمر الضرب من الجانبين حتى الساعة الحادية عشرة ، وكانت قذائف الانجليز تلقى النار والدمار على المدينة فى شدة مروعة ، وسكتت السفن قليلا ثم استأنفت الضرب وجاوبتها الحصون حتى الساعة الثانية بعد الظهر ...

قال صابونجى فى رسالة الى بلنت يصف هذا الضرب وقد كان فى سفينة على مقربة من الاسطول « فى صباح اليوم الثلاثاء عند الساعة السابعة تماما انبعثت أول طلقة على الحصون ، وقد كنت على ظهر السفينة سعيد على مقربة من الاسطول الانجليزى ... غادر درويش الاسكندرية بمجرد أن بدأ الضرب وأبحر الى حيث لايدرى أحد مكانه ، ومن بين ١١٧٠ شخصا كانوا معى هذا الصباح وشهدوا الضرب كنت أنا وحدى الذى رجوت حسن الحظ والنجاح لعرابى وأنصاره. وعندما انبعثت أول طلقة تموجت فى الهواء القبعات والمناديل والايدى ، مشفوعة بالهتاف وعلامات الرضاء ، وكان الرجال والنساء وفيهم القساوسة على اختلاف درجاتهم متهللين جذلين يتنبأون بسقوط الحصون فى ساعتين ، ولكن شعورهم بالخيبة ما لبث أن ظهر . الساعة الآن الواحدة والنصف بعد الظهر ولم تنقطع النيران من الجانبين ، وان الدفاع يعد حتى الآن فائقا ، ولا يمكن لاحد أن يقول الآن ما عسى أن تكون النتيجة... أكتب اليك من ظهر السفينة وأنا أشاهد الضرب واثبت كل ما أستطيع أن أراه ، ولكن ماذا عسى ان يرى المرء خلال سحب كثيفة من الدخان الا الرعد والبرق من المدافع.. لم يكن أصدقاؤنا وكذلك لم يكن حتى القناصل واثقين من عزم انجلترا على الحرب ، ولم أكن انا واثقا من

ذلك » (١) .

واستأنف الاسطول الضرب بعد الساعة الثانية واستمر يرسل قذائفه الهائلة فى شدة حتى منتصف الساعة السادسة ، اى قبل غروب الشمس بنحو ساعة ، ثم نزل الليل وقد سكتت الحصون فلن تجيب بعد ، اذ قد دمرتها مدافع الاسطول تدميرا ... وتهدمت فى المدينة أبنية كثيرة ومساكن واحترق بعضها ، وقد هجرها كثير من أهلها منذ بدأ الضرب فى هرولة ورعب

وهكذا وقف المصريون وأن حاقت بهم الهزيمة موقف الدفاع والكرامة ، وليس يمارى أحد فى انهم فعلوا فعل القلة تحارب من تكاثروا عليها حتى تهلك او ينثلم سلاحها ...

وانه لما يذكر فى مواطن الفخر ما أظهره نفر من أهالى المدينة من الحمية والبسالة وخاصة النساء ، أشار الى ذلك عرابى باشا فى مذكراته فقال : « وفى أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء فى خدمة المجاهدين ومساعدتهم فى تقديم الذخائر الحربية واعطائهم الماء وحمل الجرحى وتضميد جروحهم ونقلهم الى المستشفيات »

وقال الشيخ محمد عبده : « تحت مطر الكلل ونيران المدافع كان الرجال والنساء من أهالى الاسكندرية هم الذين ينقلون الذخائر ويقدمونها الى بعض بقايا الطوبجية الذين كانوا يضربونها وكانوا يغنون بلعن الاميرال ومن أرسله » (٢) .

وقال محمود فهمى باشا : « ورايت فى ذلك الوقت بعيني ما حدث من غيرة الاهالى بجهة راس التين وام كبيبة وطوابى باب العرب ، وهمتهم فى مساعدة عساكر

(١) Blunt, p. 556

(٢) تاريخ الاستاذ الامام ص ٢٥٠

الطوبجية من جلبهم المهمات والذخائر وخراطيش البارود والقذائف هم ونساؤهم واولادهم وبناتهم والبعض من الاهالى صار يعمر المدافع ويضربها على الاسطول » (١)

وقد وصف عرابى المعركة فى مذكراته فقال : «اطلقت الكسندرة مدفعها الاول فى الساعة السابعة والدقيقة أربعة وكان مركزها فى الطرف الشرقى من خط القتال موجهة نحو استحكامات رأس التين ...

وبعد ذلك بخمس دقائق بدت من جانب الانفنسبل علامة الحمل العام على استحكامات الاسكندرية فأخذت السفن مونارك وبينلوب والكسندرة وسلطان وسوبرب تطلق مدافعها على بطاريات راس التين وطابية الفنار ، فأجابتها القلاع بنارشديدةحامية ، وقد أصاب السفينة مونارك من أسباب الانقطاع عن اطلاق النار أكثر مما أصاب غيرها ...

وكانت السفن الثلاث الكسندرة وسلطان وسوبرب تنتقل على التعاقب من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى وتطلق مدافعها على الاستحكامات اطلاقا متواليا وتقدمت المدفعية سينت الى جهة رأس التين وأخذت ترميها بالنار .

وكانت السفينة انفلكسيبل تطلق مدافع أحد برجيها على رأس التين والآخر على حصن المكس وحذت حذوها المدرعة بينلوب وكذلك المدرعة تمرير .

ولقد أصاب طابية المكس نارا لا تبقى ولا تذر فتعطلت مدافعها ماعدا أربعة منها من العيار الاعظم فقد ثابرت على رمى سفينة الاميرال « انفنسيبل » وقد أحكمت مقذوفاتها الى هذه السفينة جيدا . وفى الساعة العاشرة

---

(١) البحر الزاخر فى تاريخ الاوائل والاواخر ص ٢٢٠

والنصف وقعت قنبلة على مخزن البارود الكائن فى طابية المكس فأشعلته وكان لدوى التهابه صوت هائل .

ولما بلغت حالة القتال الى هذه الدرجة عمد حصن مارابوت (١) الى الاشتراك فى الدفاع فوجه ناره على السفن الثلاث التى كانت مستقرة فيما داخل المضايق فانسلخت المدفعية كوندور عن المدرعة تمرير لعدم احتياجها اليها واندفعت نحو ذلك الحصن ترميه بنارها فاشتبك بينهما القتال شديدا ، وفى الساعة العاشرة والنصف قدم لنجدتها السفن بيترن وبيكن ودكوى وسينت واستمرت على القتال حتى تعطلت مدافع الحصن المذكور ولم يبق منها غير مدفع واحد صالح للعمل ...

ثم اتجهت السفن الاربع المذكورة الى ناحية الحصن واشتركت مع المدرعات فى تدميره فتركته أثرا بعد عين، وكذلك تقدمت السفن الكسندرة وسلطان وسوبرب على مسافة ٧٠٠ متر من حصن فاروس وطابية أطه واخذت فى اطلاق مدافعها عليها غير غافلة عن رمى بطاريات راس التين ببعض القنابل ...

وكان اسماعيل بك صبرى فى الطابية أطه يدير حركة القتال فى الحصنين المذكورين فصب على السفن السابق ذكرها من لهيب ناره ما اضطرها الى طلب النجدة من المدرعتين انفلكسيبل وتمرير وأبلى فى قتالها بلاء حسنا

وفى نحو الساعة الثانية بعد الظهر اندفعت قنبلة من السفينة انفلكسيبل نسفت مخزن البارود الكائن فى حصن طابية أطه . وعند الساعة الرابعة خمدت نار الحصنين المذكورين اثر تخريبهما وتعطيل أسلحتهما واستشهاد رجالهما .

---

(١) هو اسم آخر لقلعة العجمى

وفى الساعة الخامسة استأنفت المدرعتان مونارك وبينلوب اطلاق المدافع على حصن نابليون والاستحكامات الواقعة فى داخل الميناء . وفى الساعة الخامسة والنصف انقطعت النار عن خط لقتال بناء على أمر الاميرال » . . .

وقال يصف المدافع المصرية : «ومن الاسف أن قاذفات المدافع القديمة كانت لا تصل الى السفن الانجليزية ومدافع الارمسترنج لم تكن لها المساطر التى بها تعرف المسافات وتحكم الاصابة بواسطتها اللهم الا مسطرة واحدة كانت فى محل التعليم بالعباسية «بالبوليجون» استحضرت ليلا وسلمت الى الشهم المقدام سيف النصر بك قومندان طابية الفنار فكان يطلق المدافع بنفسه وينتقل من محل الى آخر ويحكم الاصابة بواسطة المسطرة المذكورة ، فكانت معظم المدرعات التى تعطلت ، من جراء المقذوفات التى أحكم اطلاقها ، ولو كانت مدافع الارمسترنج كلها ذات مساطر لامكنها تعطيل المدرعات الانجليزية بما تقذفه من القاذفات الصائبة » .

ووصف جون نينيه ما فعله الادميرال العظيم فى قوله : « وكان رجال المدفعية المصرية يطلقون قذائفها فى احكام وحماسة أدهشت خصومهم الذين ظل عملهم الجهنمى متواصلا عشر ساعات ونصف الساعة، دون أن يستطيعوا المباهاة بالنصر الحاسم ، وكانت تغطى المدبسة أثناء الضرب طبقات من الغبار والدخان وكان قصف المدافع يصم الآذان . . . وكنا حين تبدد الرياح سحب الدخان نشاهد قذائف المدافع المصرية تسقط فى البحر فى منتصف المسافة بينها وبين سفن الاسطول ، وقد أدى رماة مدافع أرمسترنج عملهم على خير مايرجى وذلك على الرغم من ان مدافعهم كانت أقل عياراً من مثيلاتها من المدافع الانجليزية وقد اصابوا سبع مدرعات اصابات بعضها

خطير وبعضها ضئيل ...

وكانت سفن الاسطول تجرى ها هنا وهنا ترمى قذائفها وهى على مسافة بعيدة فتصيب الشاطىء ولا تستهدف للخطر ، وكانت كل قذيفة تزيد على المتر طولا وتزن ٤٨٠ رطلا وتحتوى على ٣٧٠ رطلا من البارود ، وكان ثمن كل واحدة منها ٧٠ جنيها ، وسقطت أولى هذه القذائف الضخمة فى قلعة رأس التين دون أن تنفجر فنظر اليها الجند والضباط ، وقال أحد الضباط مشيرا اليها : هلم أيها الاخوان لتشهدوا مثلا من انسانية انجلترا ، وقد أدى عبارته بلهجة تنم عن الذكاء والسخرية وضحك اخوانه جميعا ، وواجهوا ما يلقى عليهم باسمين

وكانت السفن الانجليزية تسير مثنى مثنى فى تؤدة وروعة تجاه كل طابية وتطلق عليها قذائفها حتى تدكها دكا ، وبعد ذلك تقترب منها شيئا فشيئا ، وتنسف ثم تفتك بالرجال فتكا ذريعا بنار المترليوزات المركبة فى ساريات البوارج ...

ولايسعنا الا ان نعترف بانها كانت مجزرة وحشية لا موجب لها ولا مسوغ ولم يكن الباعث عليها الا الشهوة الوحشية المتعطشة الى الدماء . وكنت أتوق الى ان أسأل أولئك الذين كانوا يضربون ويطلقون مترليوزاتهم هل يستطيعون حين يعودون الى بلادهم ويتحلقون حول موائد الشاى فى بيوتهم أن يتحدثوا الى ذويهم عما فعلته تلك المجازر البشرية من الفتك والتخريب ؟ انى لفى شك من هذا ، فأية اهانة لحقت الامة البريطانيه حتى تثأر من مصر على هذه الصورة الفظيعة ؟

ومع هذا فما كان أروع منظر الرماة المصريين الذين كانوا خلف مدافعهم المكشوفة ، كأنما هم فى استعراض حربى لايخافون الموت الذى يحيط بهم ، وكانت معظم

الحصون بلا حواجز تقيها ولا متاريس ، ومع هذا فقد كنا نلمح هؤلاء البواسل من ابناء النيـل خلال الدخان الكثيف ، كأنهم أرواح الابطال الذين سقطوا فى حومة الموت ، قد بعثوا ليناضلوا العدو ويواجهوا نيران مدافعه وكان القـادة يزورون الحصون ويستحثون الرجال ، ولقد أدى الجميع واجبهم رجالا ونساء كبارا وصغارا ،

ولم تكن ثمة أوسمة أو مكافآت تستحث أولئك الفلاحين على أداء واجبهم ، وانما كانت تثير الحماسة فى نفوسهم عاطفة الوطنية والثورة على ما استهدفوا له من فظائع ، وهم فى مواقفهم البواسل المجهولون الذين لم يفكر أحد فيما تحملوا من آلام ...

وقد بدأ نقل جثث القتلى منذ الساعة العاشرة صباحا ، وظلت عربات النقل حتى هبط الليل تحمل الجثث من الحصون وتخترق المدينة الى شارع محطة الرمل حيث المستشفى المسكرى ، وهناك كانت تدفن بعد المعاينة بغير احتفال فى المقابر المجاورة للمستشفى ...

وكان الجرحى ينقلون الى المستشفى على عربات النقل وكان مما يؤلم النفوس حقـا منظر تلك العربات تقل الواحدة عشرين أو ثلاثين قتيلا من الاهالى أو الجند وقد شدوا بالحبال على ألواح من الخشب فوق العربات ، والدماء تقطر من أجسامهم ...

وكانت بعض الامهات يحتضن أبناءهن وهم يلفظون أنفاسهم وكانت النسـوة يجرين جموعا خلف العربات نادبات صائحات ، يلعن من كانوا سبب هذه المجازر ...

وكنت واقفا عند منعطف « الاجبسيان بار » فمرت أمامى عربتان تحملان جثث القتلى ، ولمحنى النسوة هناك فصحن مولولات واستنزلن على اللعنات ، اذ كن يلعن

كل انجليزى وكل اوربى ، وصرخن فى وجهى قائلات : اتقتلون ابناءنا وتتفرجون على جثثهم لا اقتلوا هذا ، اقتلوه » وكاد يحاط بى لولا ان رآنى أحد رجال الامن فانقذنى وعاد بى الى دارى ، وقد قل رجال الحفظ ولم أعد ارى أوربيا واحدا فى الشـوارع والحارات . فقد خيم السكون الرهيب على هذه الشوارع التى كانت عامرة من قبل بالناس زاخرة بالحيـاة حتى غدت كانما هى شوارع مدينة أودى بأهلها الوباء ...

وكانت الدكاكين والنوافذ والابواب مغلقة فى المدينة كلها ، وخيل الى اننى فى بلدة محاها الخراب الابدى ، وكانت قذائف الاسطول الضخمة تنصب على المدينـة وتخترق أحياءها فى كل جهة ، وكانت تدور فوق رؤوسنا وهى تدوى فى صورة مفزعة ، وكانت تدمر المنازل هنا ، وتشعل النار هناك وترسل الموت الى كل مكان ...

وقد مرت من فوق سطح المنزل الذى كنت اقيم به تجاه حمامات كارتونى بالقرب من محطة الرمل خمس قذائف من رسائل « الانسانية الغربية » على حد تعبير أحد الضباط ، واصابت احداها مدرسـة فدمرتها ، وأصابت ثلاث بعض قصور الاغنياء على مقربة من شارع باب شرقى فهدمتها ، وقتلت الخامسة ١١ شـخصا وجوادين بأول شارع محرم بك ، ولم يقابل هذه القذائف الفتاكة شيء من جانب المصريين ، فقد راى عرابى منعا للخراب الا تشترك قلعتا كوم الناضورة وكوم الدكة فى الضرب لوجودهما وسط المدينة ...

وكنت ارى بمنظارى المقرب على بعد ١٨٠٠ متر على الاكثر طابية قايتباى أو ما تسمى قلعة فاروس ، قائمة بالمينا الشرقى فى اقصى حاجز الامواج الابيض ، وكانت هذه القلعة رائعة المنظر ببنـائها الضخم وبروزها على

صخرة تحيط بها أمواج البحر ومخاطره فى ذلك البساط الازرق من مياه البحر الابيض المتوسط على صورة تنجذب اليها المشاعر... وكان يزينها مسجد بنى منذ سنة ١٤٥٠ للميلاد ، تعلوه مناره تعد من بدائع الفن العربى ومن تحفه ، مزدانة بالنقوش العربية الجميلة التى يقدرها أصحاب الفنون ... وكانت هذه القلعة هدفا لضرب شديد استمر منذ شروق الشمس حتى تخربت بين الساعة ١١ ووقت الظهر ... وكم كانت دهشتى اذ رأيت فى نحو الساعة الرابعة مساء سفينتين شامختين من سفن الانجليز ترابط غربى القلعة وتقذف نيرانها من جديد على هذا البناء الذى هوت معظم مدافعه وانقلبت على الارض ...

ولكن الانجليز الذين ضربوا قلعة برج السلسلة وقلعة كوم الدكة ولم تشتركا فى الدفاع ، قد أرادوا كما يبدو لى هدم هذا المسجد الجميل .

ولم يسكت المصريون تلقاء هذه الوحشية فأطلقوا بعض القذائف من مدفعين كانا لايزالان قائمين فى الجهة الغربية الشمالية من القلعة... ولكن قذائفهم لم تجدهم شيئا اذ قد انصبت عليهم القذائف الهائلة من السفن ، وقد أحصيت بنفسى اثنتين وثلاثين من هذه القذائف تصوب الى هذا البناء الاعزل الجميل وقد طاش نصفها فلم يصب الهدف تماما ، وكانت معظم القذائف تصيب الصخور فتنسفها وتذريها فى الهواء ، ثم اذا بها تنصب فى الماء وتنبعث ثانية فى دوى هائل فتبعث فى الهواء عمودا من الماء كأنه اعصار بحرى لا يقل ارتفاعه عن ٦٠ قدما ألا ما أشد روعة هذا المنظر ...

وهوى المسجد الصغير المسكين فى منتصف الساعة ٦ مساء وقد تهدم كله ووقعت أنقاضه على ١٢ جريحا

كانوا ياوون اليه فدفنوا تحت انقاضه ...

ولقد شاهدت بمنظارى أولئك الجرحى التعساء وهم يأوون الى المسجد حيث ماتوا ، ولم يكن فى الامكان نقلهم الى المستشفى العسكرى تجاه برج السلسلة اذ كانت قذائف المتراليوزات المعدة للاجهاز على الجرحى تنصب منذ الصباح متصلة كالمطر فتمنع الصلة بين القلعة والارض اليابسة على الرصيف الضيق الذى يصلها بالمدينة ...

وانفجر مخزن البارود فى قلعة الأطه بعد الظهر بوقت قصير فسكتت مدافع هذه القلعة التى امتازت بقوتها فى الدفاع ...

ووقف الضرب من جانب الاسطول فى نحو الساعة السادسة مساء ، وقد بث الادميرال سيمور الموت والدمار فى أنحاء المدينة وهو الذى تعهد الا يضرب الا القلاع ، ورأيت النيران تندلع ألسنتها فى جهات كثيرة دون أن يقوى أحد على اخمادها »

هذا ما ذكره جون نينيه السويسرى المحايد الذى شهد الحوادث بنفسه ، وأهم ما جاء فى كلامه شهادته ببسالة المدافعين وقوة روحهم المعنوية على الرغم من تفوق عدوهم عليهم فى عتاده ، ثم تقريره أن القذائف كانت تنصب على المدينة ذاتها وأنها أحدثت بعض الحرائق ، ولهذا القول أهميته ، لان الانجليز الذين دبروا من قبل مذبحة الاسكندرية والصقوها بعرابى وحزبه قد أحرقت قذائفهم المدينة اليوم فعادوا يتهمون بالحريق كذلك عرابى ورجاله !

***

اشتد ذعر الناس حين سمعوا المدافع ترعد وترسل صواعقها المدمرة على المدينة ولم يكن لهم عهد بمثل ذلك

من قبل وتعاظم الفزع حين سرت الشائعات بين الناس بما حدث من دمار وفتك وحين راوا العربات تحمل جثث القتلى والجرحى ، وراوا سحب الدخان من المنازل والابنية المحترقه تدفعها الرياح فى سماء المدينه . وزاد الامر هولا ما يصحب الانباء من مبالغات فى مثل تلك الاحوال ، على ان الهول فى ذاته كان يغنى عن التهويل، فحسب الناس أن تتساقط القذائف عليهم من السماء فتدمر بيوتهم تدميرا ...

لذلك لاذ الناس بالهجرة فهرولوا جموعا الى المحطة وتزاحموا على القطارات التى أعدت لنقلهم بالمجان ، ولم يتحمل كثيرون منهم التزاحم على القطارات فخرجوا من أبواب المدينة الى حيث يبتعدون عنها فحسب لايدرون أين يذهبون ولا يقعد بهم التعب من المشى عن طلب النجاة من الهول حتى نزلوا بالقرى والبنادر ، وبلغت أفواج منهم القاهرة فى حالة تبعث على الرثاء وتطلق عصى الدمع

وقد وصف الشيخ محمد عبده هذه الهجرة وكان مع عرابى بالمدينة يوم الضرب فقال : « نحو مائه وخمسين الفا من السكان مجردين من كل شىء اخذوا فى الحركة لغير قصد ولا لماوى ، الموت والفزع ملء نفوسهم على شواطىء المحمودية الي دمنهور وجسر السكة الحديد من دمنهور الى القاهرة .

كانت المهاجرة تكون خطوطا سوداء تارة عريضة واخرى رقيقة ، متحركة فى كل جهة ، اشبه بسلسلة انسانية طويلة ، هنا ينزلون ، هناك يمشون ببطء ، لا وقاية ولا رعاية .. على طرفى تضاد مع سماء صافية وأرض خضرة نضرة .

أما الهاربون فكانوا كالاعاصير أو كالماء انكسر سده فاندلق ، يتصل بعضهم ببعض مزدحمين متراكمين ، فى

حالة عقلية أشبه بالجنون سائقين أمامهم او حاملين على ظهورهم ما خف حمله من أمتعتهم : حيوان ، أثاث ضئيل، ثياب رثة ، حتى بعض المفروشات التى لا قيمة لها

فى هذه الحالة حالة شعب طرد من بيته ، كان الحر شديدا ، وغيم من الغبار سد الافق ، وأظلم الجو ، نساء يبحثن عن أولادهن ، يتشاجرن بعضهن مع بعض، يتضاربن فى أخلاط لا يمكن التعبير عنه ، عربات بلا عجل استعملت مساكن ، عربات من كل نوع ، بعضها ساقط فى المحمودية ، بعضها مقلوب ، بعضها بالخيل وبعضها بغير خيل ، رائحة شواء اللحم ، صياح على المارة . الخبز ! الخبز ! » (١)

على أن بنى مصر قد أحسنوا ايواء المهاجرين وجادوا بالتبرعات أينما نزل فريق منهم ، وظهرت فى أجمل مظهر عواطف الوطنية المصرية فى القاهرة وفى القرى ، وعنيت الحكومة بأمر المهاجرين فاسكنتهم فى القاهرة مدرسة المبتديان بالناصرية وأمدتهم بما يحتاجون اليه من مأكل وملبس ...



فى اليوم التالى عاودت الادميرال العظيم رغبة فى الضرب ، وقد أسكرته لذة النصر على تلك الحصون البالية كأنما هدمت مدافعه قلاعا اشتد خطرها عليه فأحس ما يحسه الابطال من نشوة بعد خوض الشدائد

وعادت مدافعه تضرب المدينة فى الساعة العاشرة وارسلت قذائفها على طابية قايتباى وطابية الاسبتالية

وكان مجلس الوزراء قد اجتمع فى اليوم السابق للنظر فى الامر برئاسة الخديو وحضره عرابى باشا ، وبعد أن تداول الوزراء والخديو قرر المجلس الاتصال بالادميرال

(١) تاريخ الاستاذ الامام للشيخ رشيد رضا ص ٢٥٢

وابلاغه ان ما كان يطلبه قد تحقق له بضرب الحصون فلا داعى بعد ذلك للضرب وانفض المجلس على أن ترفع فى الغد الراية البيضاء وهى راية طلب الهدنة للمفاوضة

ورفعت الراية البيضاء على بعض الحصون وعلى وزارة البحرية ، فتوقف الضرب وذهب طلبه باشا يصحبه ترجمان فصعد الى ظهر اليخت الخديوى «المحروسة» وهناك التقى بمندوب من قبل سيمور ... فسأله هذا عما يريد من رفع الراية البيضاء ، فأبلغه طلبه قرار مجلس الوزراء ، فأجاب المندوب فى صلف وسماجة بأن الادميرال يطلب الترخيص له بانزال جند من بحارة السفن لاحتلال ثلاث قلاع هى : العجمى ، والدخيلة ، والمكس ، فان لم يأته الرد فى الساعة الثانية بعد الظهر استأنف الضرب ...

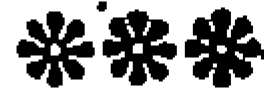
وهكذا يأبى الادميرال العظيم أن يتكلم الا بلسان مدافعه ، فليس الامر امر تفاهم وانما هو أمر قوى يملى ارادته على ضعيف لا يملك له دفعا ...

وطلب عصمت باشا ان يطيل الادميرال ما تفضل به من مهلة ليستطيع أن يبلغ الخديو رده ويعود اليه ... ولكن سيمور رفض هذا الطلب ...

وذهب طلبه باشا فعرض الامر على الخديو، واجتمع لدى الخديو مجلس ضم الوزراء والكبراء ممن تصادف حضورهم واتفق رأى الحاضرين على انه لايجوز لمصر أن تسمح بنزول جنود أجنبية الى البر ، وذهب وفد برئاسة طلبه باشا يبلغ سيمور هذا القرار ...

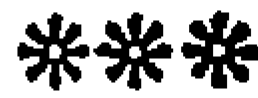
ولكن الوفد لم يجد احدا يتصل به ، اذ عاد مندوب سيمور الى السفن، وامر سيمور فى نحو الساعة الرابعة باستئناف الضرب فأرسلت انفنسبل قذيفة واحدة على قلعة المكس، فلم تجاوب القلعة ، ثم رفعت الراية البيضاء

ثانية على بعض الطوابى ، فوقف الضرب ، وظلت السفن فى موقف القتال حتى الساعة السادسة مساء وأرسل سيمور سفينة الى الميناء وبها مندوب من قبله فلم يجد المندوب أحدا يتفاوض معه ، فعاد ينبىء الادميرال بأن المدينة تبدو وكأن ليس بها أحد ...



بلغ عدد الضحايا من المصريين فى الاسكندرية نحو الفين غير من جرحوا ، أما الانجليز فلم يزد قتلاهم عن خمسة وجرحاهم عن تسعة عشر ، وقد ذكر عرابى أنه استشهد من رجال الطوابى وحدهم مائة رجل ، وقتل هناك امرأتان من المتطوعات كانتا تعنيان بالجرحى...

أما السفن الانجليزية ، فقد أصيبت انفنسبل ثلاث عشرة اصابة عطلت ست الاجزاء غير المدرعة منها وجرحت واحدة ست رجال ، وأصيبت سلطان بثلاث وعشرين ضربة واتلفت سواريها ومدخنتها ، واخترقت قذيفتان جدرانها غير المدرعة وتعطلت الزوارق الملحقة بانفلكسبل، واخترقت قذيفتان درع سوبرب ومدخنتها وقد أصيبت عشر مرات وعطل فى بنلوب أحد مدافعها ، ولحق ضرر خفيف بالكسندرة على الرغم من أنها أصيبت ثلاثين مرة وعطل مدفعان من مدافعها ...



وأما المدينة التى كانت تراوحها نسائم السحر الندية وتفاديها فقد اندلعت فيها ألسنة النيران فى صورة مروعة كأن الجحيم تزفر عليها بنارها ، وقد لبثت النار بها بضعة أيام ، وظلت سحب الدخان تتراكم وتنعقد فوق شوارعها الموحشة المتهدمة وخيمت الكآبة على الثغر الذى ماتت بسمته أياما طويلة نتيجة لعدوان سيمور..

ولقد ذهبت الآراء عدة مذاهب بشأن هذا الحريق ،

وقد حاول الانجليز أن يعزوه الى عرابى كما عزوا اليه من قبل مذبحة الاسكندرية التى اقترفوها ، على أن التحقيق فيما بعد قد برأه منهــا كما برأه من مذبحة الاسكندرية كما سيأتى بيانه فى موضعه ...

وذهب جون‌نينيه الى أن النيران‌كانت من فعل‌قذائف الاسطول ، قال عن‌اليوم الاول : « رايت فى ذلك‌الصباح عددا كبيرا من القذائف يمر فوق دارى ، وسقطت بعض القذائف من ذات الحجم الاكبرتحمل‌اسم «الاسكندرية» فى الدار المجاورة لدارى ، وقد قتلت القذيفة الثالثة من القذائف التى مرت فوق دارى أحد عشر رجلا وجوادين عند باب محرم بك ، وهدمت وحرقت بيــوت كثيرة ومبان فى كل ناحية بفعل قذائف السفن » .

وقال عن اليوم الثانى : « كان عدد من قبيلة أولاد على ينهبون دكاكين المدينة وقد دخلوا اليها من ناحية القبارى أو باب عمود بمبى ، وقد رأيت كثيرين منهم قد قبض عليهم وصودر ما يحملون بأمر من سليمان بك سامى أثناء محاولتهم الهرب من المدينــة بمنهوباتهم ، وكان عرابى باشا قد أمر قبل مفادرته المدينة باغلاق هذا الباب لحراسة الشوارع الرئيسية وحفظ النظام فيها كما انه ترك فرقتين من الاحتياطى ...

وكان طلبة باشا فى الرمل بعد الظهر يفاوض الخديو، وكنت طوال ذلك الوقت فى حجرة ميس الضباط قرب باب رشيد ! وكان هناك‌كثير من‌الباشوات ، منهم محمود سامى البارودى ، ومحمود فهمى باشا ، وقد غادرت‌المدينة معهم وعدد من الاطباء والضباط عند الساعة السادسة لالحق بالجيش ... وبعد أن غادرت المدينة حملت الريح الدخان الى حيث كنا وكانت المدينــة تحترق فى عدة جهات ، ولم يكن فى المدينة نار حين‌غادرناها ، ولم يشعل

الجند نارا بالمدينة ، بل لقد بذلوا كل ما فى وسعهم لمنع امتداد النيران التى سببها الضرب ... ومن الممكن أن يكون بعض جنود الفرقتين اللتين تركتا بالمدينة قد شاركوا البدو فى النهب ، وكان هذا مخالفا بالضرورة

لاوامر عرابى باشا والضباط ... واستطيع أن أؤكد انه لم يخطر ببال عرابى باشا او احد من الضباط بأى حال أن مدينة الاسكندرية ستحرق بأيدى البدو أو غيرهم ، وانى أعلم أن عرابى ومن كان معه من الضباط أظهروا أسفهم ودهشتهم عند رؤية المدينة تحترق عقب مغادرتهم اياها وعبروا عن املهم فى أن يبذل ذو الفقار باشا محافظ المدينة ومن اكبر أصدقاء الخديو ما فى وسعه لاخماد النار واعادة النظام » (١) .

ويقول نينيه فى موطن آخر من كتابه : «عرابى باشا» ان عدة عناصر اشتركت فى هذا الحريق ، منها بعض الاوربيين الذين بقوا فى المدينة بقصد النهب ، ومنها بعض الأروام والمالطيين من أصحاب الدكاكين كى يطلبوا بعد ذلك تعويضا كبيرا ومنها بعض البدو من قبيلة أولاد على وبعض عساكر الرديف ، وبعض الاشقياء الذين اخرجوا من سجن الترسانة ...

ويقول الشيخ محمد عبده : «بين من حرقوا الاسكندرية أروام بلباس عرب رؤيت جثثهم بتلك الثياب أثناء الحريق ، ومنهم عربان من أولاد على ممن كانوا على صلة بالخديو ، ومنهم من أهالى الاسكندرية ، ومنهم أوربيون بقصد المبالغة فى التعويضات وذلك بعد ما أخليت الاسكندرية ممن يخشى عليهم » (٢)

وهناك من يذهب الى أن سليمان سامى داود قائد

(١) S.H. Blunt p. 557.

(٢) تاريخ الاستاذ الامام ص٢٥٢

الالاى السادس هو الذى أمر جنوده باضرام النـــار فى المدينة كعمل يقتضيه الدفاع اذ أراد به أن يعرقل نزول الانجليز الى المدينة ، أو لعله فعل ذلك بدافع الحمق والغيظ من عزم الانجليز على دخول المدينة . ولقد شهد عليه كثيرون أثناء المحاكمة ، وكانت أقواله هو دليلا عليه ففيها ما يشبه الاعتراف وخاصة اتهامه لعرابى بأنه هو الآمر بحرق المدينة ليتنصـــل هو من التبعة يتبين ذلك فى مثل قوله :

س : هل كان عرابى أعطاك أمرا بالكتابة بحرق المدينة

ج . أمرنى شفويا ...

س : هل يجوز فى قانون الجهادية حرق مدينة بنـاء على أمر شفوى ؟

ج : لا يجوز .. وأنا لم أفعل سوى ابلاغ ما نبه به « ثم قال أنه ليس متحققا ان كان القانون يجيز ذلك أم لا » (١) .

على أن عرابى فى مذكراته يعقب على أقوال ســـليمان سامى فى التحقيق بقوله : « الحقيقة أن سليمان بك سامى لما شاهد هول تأثير مقذوفات ســـفن الانجليز حدث له هلع وطيش اثر على مخيلتـــه فصـــار يتحفز ويميل لعمل غير العقلاء فبدرت منه كلمـــات تدل على جنونه كقوله : احرق واضرب يا ولد فى حالة هياجه . وقوله : انى أمرته بكل ما يتخيله فى مخيلته . ولـكن اجمعت الشهود على أنه لم يفعل من ذلك شـــيئا وأنه خرج بالايه من المدينة قبل الغروب وانه ترك المنشية وخرج الى باب شرقى الساعة ١١ عربى ولم يعد اليهـــا وأن الحريق لم يبتدىء الا بعد الغروب وبعـــد خروج العساكر من المدينة كشهادة سعد بك أبو جبل وعلى بك

---

(١) محضر استجواب سليمان سامى

داود وغيرهم وان الحريق لم يكن الا من أوباش الخدم والبدو وغيرهم من الاوربيين والفقراء الذين تخلفوا فى مدينة الاسكندرية ليحصلوا على شىء من الصيد والغنيمة ولذلك لم يقل أحد بانه راى سليمان سامى يفعل الحريق بنفسه ولا بغيره ، وعلى ذلك يكون سليمان سامى ذهب شهيد نشه وغضبه والحساب على الله

وثمة راى على أعظم جانب من الخطورة ، وذلك أن سليمان سامى كان متواطئا وانه احرق المدينة بأمره ، وقد صرح بهذا الرأى فى مجلس العموم الانجليزى اللورد تشرشل فى حملته على وزارة جلادستون سنة ١٨٨٣ بعد اعدام سليمان سامى . قال صابونجى فيما أورده من كلام تشرشل ان هذا ذكر فى المجلس قوله : « ان الخديو الذى كان يرغب فى الذهاب الى الاسكندرية يوم الاحد ما استساغ الدخول اليها قبل موت سليمان سامى لا لكى يرى بعينيه شنق الرجل الذى أحرق الاسكندرية بأمره وطاعته » فلما قال اللورد تشرشل هذا الكلام قامت فى البرلمان ضجة أعقبتها دهشة » ثم قال لورد تشرشل : « ان الامر الصادر بحرق الاسكندرية كان مختوما عليه من الخديو نفسه وانا أطلب للميدان كل وزراء الحكومة الغلادستونية اذا كان فيهم من يتجرأ على أن ينكر هذه الحقيقة ، وانى أقول علنا ان مستر غلادستون ووزراءه وأحزابه قد ارتكبوا جناية من أقبح الجنايات فى قتل سليمان داود ، وان دم هذا الرجل على رأس مستر غلادستون وشركائه الى الابد وهم المطالبون به » (١) .

---

(١) مذكرات عرابى المخطوطة وقد أورد عرابى كلام صابونجى تحت عنوان : الفصل السادس فى أعمال البرلمان الانجليزى فى المسألة المصرية بقلم اقس لويس صابونجى .

ومما ذكره تشرشل فيما أورده صابونجي أن الحكومة الانجليزية عجلت بشنق سليمان سامي قبل أن يبوح بأسرار خطيرة تدين الخديو ، وذلك لان محاميه طلب بدء التحقيق من جديد ومواجهته بمن شهدوا عليه ...

ومهما يكن من الامر ، فمن الخطأ أن يرد الحريق الى سبب واحد من الاسباب التى ذكرت ، والمعقول أن تسببه هذه العناصر جميعا ، وخاصة قذائف الاسطول وطيش سليمان سامي .

غادر عرابى الاسكندرية على رأس حاميتها ، فلندعه الآن ولننظر ماذا كان من أمر توفيق منذ أن أوى الى قصر الرمل ...

كان مما تحرص عليه الحكومة الانجليزية أن يظل الخديو منحازا اليها لتمشي عند الحرب بالتفرقة بين الامة ، لان من أكبر المخاطر عليها أن تكون الامة صفا واحدا حتى ولو غلبت على أمرها ، لان انجلترا فى مثل ذلك الوضع لا تستطيع أن تضرب فريقا بفريق كما تفعل فى الامم التى تستطيع أن تجعل منها معسكرين أو أكثر

ويدلنا على اهتمام الانجليز بهذا الامر هذه البرقية التى وصلت من جرانفل الى كارتريت فى اليوم الثانى عشر من يوليو ، أى فى اليوم الثانى للاعتداء ، قال جرانفل : « رأيت أن أرسل اليك هذا لتعمل مع الادميرال السير ب. سيمور على بذل ما يمكن من المحاولات لاستحضار أنباء بشأن الخديو فان حكومة جلالة الملكة تحس كثيرا من القلق من جراء الاهتمام بسلامته ويشاركها أهل هذه البلاد » ...

وكان الخديو كما ذكر نينيه يهرول الى سطح القصر بين حين وحين فى اليوم الاول يستطلع أنباء القتال ، وكان يخشى جانب الجيش أشد الخوف لما يعرف منه

بينهم من أنه فى جانب الانجليز ، وقد نمى الى علمه أن عدداً من عرب البحيرة بلغ نحو خمسمائة جاءوا فى اليوم الثانى للضرب الى مكان قريب من قصره ، فلما سئلوا عن سبب مجيئهم قالوا انهم جاءوا لنجدة الخديو فهم عبيده وخدمه ، ثم لم يقف لهم أحد على اثر بعد ذلك

على ان هناك رواية مؤداها ان سليمان سامى قد ارسل الى القصر فى نفس اليوم نحو اربعمائة من الفرسان بقيادة البكباشى محمود منيب وكتيبة من المشاة وأحاط هؤلاء بالسراى ، فأوجس الخديو خيفة وأرسل يسأل القائد عن سبب وجود هؤلاء الجنود ، فأجاب بأنهم جاءوا لحماية الخديو والمحافظة على السراى .

وذهب بعض رجال السراى يذيعون فى انحائها انهم سمعوا من البكباشى منيب أن هؤلاء الجند جاءوا للقبض على الخديو وارساله الى القاهرة .

وذكر طلبة باشا فى محضر استجوابه أثناء المحاكمة أن وفدا جاء من قبل الخديو لمقابلة عرابى ، وأخبرهم عرابى أنه لا يعلم بما حدث وأرسل طلبه باشا لرفع هذا الحصار فرفعه ، ويقول طلبه انه قابل الخديو فقال له « لماذا احضرتم هؤلاء العساكر وحاصرتم السراى بهم هل انتم خائفون أن أهرب ؟ »

ويقول انه بعد عودته من السراى قابل عرابى وسأله عمن أمر بهذا العمل فأجابه بأن سليمان سامى هو الذى أصدر هذا الامر (١) ...

ويقول عرابى فى مذكراته : « وفى صباح يوم ١٢ يوليو جاءنا رسول من قبل الخديو يدعونا اليه فتوجهنا مع راغب باشا تلبية لدعوة الخديو وكان فى الرمل فأبلغنا بأنه قد حضر نفر من العسكر الى السراى وسألنى عن

(١) محضر استجواب طلبة باشا : مذكرات عرابى المخطوطة

سبب حضورهم فأجبتــه بأن لا علم لى بذلك ولعلهم حضروا لتقوية الحرس ، فقال : لا لزوم لذلك فان فرقه الفرسان الموجودة هنا كافية فأصدر امرا برجوعهم الى مكانهم . فتوجهت الى القشلاق ووجدت اربع بلوكات من آلاى سليمان بك سامى ومعهم الصاغ على افندى ابو غنيمة ــ أو هشيمة ــ فسألته عن سبب حضوره مع العساكر الى سراى الخديو ؟ فقال : ان حكمدار الآلاى سليمان بك سامى امره بذلك فحضر لتقوية الحرس الخديوى فأمرته بالعودة الى آلايه مع عساكره لعدم لزوم تلك القوة » .

وسواء كانت رواية طلبة أو رواية عرابى هى الصحيحة وقد تكونا صحيحتين معا ، فان ما يستخلص منهما ان سليمان هو الذى فعل هذا ، ولقد كان سليمان من أكبر المتحمسين الساخطين على الخديو وعلى الانجليز ...

وفى اليوم الثالث عشر شاور الخديو من كان معه من الامراء والكبراء ماذا يعمل ازاء احتلال الانجليز مدينة الاسكندرية ، فلم يرض احد أن يبقى بها وأشار عليه درويش بالسفر الى بنها ثم الى السويس ، وأشار غيره بالذهاب الى العاصمة فما يليق بحاكم البلاد أن يظل مقيما فى بلد وقعت فى يد أعدائه .

ولكن هؤلاء كانوا يشيرون بذلك ، على أســاس ان الخديو لا ينتوى شيئا ...

ولكن الخديو فاجأهم بقوله : « ان أهم الامور ان نجعل الاميرال سيمور على علم بأمرنا اذا أمكن لنا ذلك(١)

ويبدو أن الخديو ذهب بنفسه الى الميناء على ظهر يخت درويش باشا فى اليوم الثالث عشر من يوليو فقد أرسل سيمور فى هذا التاريخ برقية قصيرة نصها :

(١) مصر رقم ١٧ ص ٣٢٦

« علمت ان الخديو ودرويش باشـــا سالمان على ظهر سفينة فى الميناء » (١)

والذى نلاحظه ان الكتاب الازرق حريص كل الحرص على أن يقتصد ما أمكن فى ذكر حركات الخديو وخاصة ما يظهر نياته الحقيقية نحو الاحتلال ...

وفى اليوم الرابع عشر أبرق سيمور برقية جاء فيها : « لقد احتلت راس التين ووضعنا فيها بحارة ومدفعية كما وضعنا ست بطاريات تواجهها ، لاتزال الاسكندرية تحترق ، ولكنى أرفع الانقاض من الشوارع ، والخديو سالم فى قصره يحرسه ٧٠٠ من البحارة » (٢)

والواقع ان الخديو آثر أن يخطو الخطوة الاخيرة ، وقد اطمأن الى قوة الانجليز فانضم اليهم صراحة ، ونأى بجانبه عن السلطان ومندوب السلطان ، أما المصريون وقادة الحركة الوطنية فما كان يعترف بهم فى يوم ما

أرســـل الخديو الى سيمور رسولا يخبره انه اعتزم الحضور الى سراى راس التين ومعنى ذلك انه اعتزم أن يكون فى رعاية الانجليز وحمايتهم وانه اختار لنفسه ما يحلو له ...

قال بلنت يتحدث عن حصار قصر الرمل : « كان ذلك فى الواقع لكى يبقى توفيق تحت المراقبة وبقصـــد أن يرسل اليه عرابى انه نظرا لان سيمور يهدد باعادة الضرب فانه يرى أن يسحب الحامية ، ويدعو الخديو الى أن يبتعد معهم عن مرمى مدافع الانجليز ومن ثم يذهب الى القاهرة... وكان يجب على عرابى بغيرشك أن يذهب بنفسه مرة ثانية ليرى أن هذه الدعوة لم تهمل لاى عذر من الاعذار ، وأن يحمـــل معه توفيق بالقوة أسيرا اذا لزم الامر ، فان مثل باى تونس كان أمامه ،

(١،٢) مصر رقم ١٧ ص ١٤١ ، ١٤٢

وكان لديه مما جربه بنفسه من أساليب الخديو مايكفى لان يجعل من المستحيل أن يكل شيئا الى شرفه ... ولقد كان اهمال عرابى هذا الامر من الاخطاء الجسيمة.

على ان عرابى كان مشغولا فى الصباح بحركة اخلاء المدينة من الجند ، بحيث لم يكن لديه وقت ليذهب ثانية الى الرمل ، وتمكن الخديو بعد الظهر بما بذل من «بقشيش» ـ كما أخبر بذلك أصدقاءه الانجليز ـ أن يفلت من حرسه الى الاسكندرية فى نفس القطار الذى أرسل ليحمله الى القاهرة وهناك وضع نفسه صراحة تحت حماية سيمور ! وقد أخذ معه جميع من كانوا فى القطار بما فى ذلك درويش والوزراء ، وبذلك إظهرهم الى حد ما شركاء له فى خيانته » .

ويؤيد كلام بلنت برقية من كارتريت فى اليوم الثالث عشر من يوليو جاء فيها : « عاد الخديو من الرمل الى الاسكندرية فى الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم بعد أن ضمن ولاء الحرس والجند والفرسان الذين تركهم عرابى لمراقبته » (١)

وأرى ان اشارة بلنت الى « البقشيش » واشارة كارتريت الى ضمان ولاء الحرس تلقى ضوءا على الرواية القائلة بأن البكباشى منيب انشق ومعه نحو ٢٥٠ من الجند الذين أرسلهم سليمان سامى ، وأعلن ولاءه للخديو وأقسم انه وجنوده يموتون بين يديه اذا دعت الضرورة (٢) ولئن صحت هذه الرواية ، رأينا فى هذا العمل أولى بوادر الانقسام وأولى خطوات الهزيمة فى الجيش المصرى .

وبلغ الخديو السراى فى الساعة الرابعة بعد ظهر يوم ١٣ يوليو فاذا الحرس ببابها من جنود البحرية

(١) مصر رقم ٤ سنة ١٨٨٢ ص ١٥ (٢) مصر رقم ١٧ ص ٣٢٦

البريطانيين واذا بالادميرال سيمور يتلقاه فى ساحتها يحيط به عدد من كبار رجاله ، ولقد هنأوا الخديو بسلامته ، ودخل توفيق القصر ومن هناك سوف يعود الى عاصمة بلاده فى حماية جيش الاحتلال ، فيتلقاه فى قصره الثانى قواد الاحتلال مهنئين بسلامة الوصول كما استقبله فى الاسكندرية سيمور ...

وهكذا نرى الامة من أول الامر فريقين : أولياء الاحتلال وعلى راسهم الخديو ونفر ضئيل من المصريين، والمجاهدين الاحرار يقودهم عرابى ومن ورائهم الامة المصرية كبراؤها وعلماؤها وفلاحوها ... ونعود فنكرر القول ان موقف الخديو هذا سوف يكون أقوى عامل فى نجاح الانجليز ...

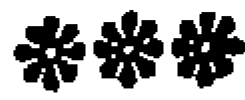
وبعد فهذه قصة العدوان الغادر على مصر ، قصة البغى الاكبر على بلاد كل ذنبها انها تطالب بالحرية ، والحكم الدستورى اسوة باوربا المتمدنة ، ومن أعظم الامور اثارة للنفوس وادعاها الى الكفر بمدنية الغرب ومبادئه أن يأتى هذا العدوان على يد رجل مثل جلادستون... بيد أن المطامع الاستعمارية واقامة صرح الامبراطورية شىء ، ومبادىء القومية والحرية شىء آخرا ولكن متى يفهم ذلك المفترون بضلال أوربا ؟

على ان الحرية لا تعدم انصارا حتى فى احلك الساعات وان لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا، فقد استقال مستنكرا الضرب المستر جون برايت احد اعضاء وزارة جلادستون لان ضميره وذمته لم يتسعا لهذا العدوان الذى وصفه بانه « انتهاك صارخ للقانون الدولى ومبادىء الاخلاق»

ولقد احتج احد نواب الاحرار على العدوان فى الثانى عشر من يوليو بمجلس العموم قائلا : « انه شناعة دولية وعمل ينطوى على القسوة والجبن والاجرام »

ويقول روثستين فى كتابه المسألة المصرية : « يا له من تدهور فى عالم الشهرة والمبدأ مؤلم للنفس وقد يكون أشد مما شاهدناه فى ايامنا مدة حرب البوير »

وقال كذلك : « ان انجلترا قد خرقت حرمة القانون الدولى واتت امرا همجيا لم يسبق له مثيل ، أمرا لو صدر من دولة اضعف منها لحوسبت عليه حسابا عسيرا » ...



وانه ليحلو لبعض الكتاب والمؤرخين أن يعيبوا على عرابى وانصاره انهم تركوا حصون الاسكندرية ضعيفة فلم تستطع مقاومة السفن الانجليزية بسبب ذلك ، ولا ندرى كيف يلقون هذا القول ولا يتذكرون انه طالما كان الخديو فى صف الانجليز والفرنسيين منذ حضرت سفن الدولتين ، لم يكن فى وسع الوطنيين عمل شىء ، ولقد قبل الخديو المذكرة المشتركة وقبل استقالة الوزارة الوطنية بمجرد أن واتاه شىء من القوة ...

الا فليعلم هؤلاء العائبون أن الخلاف الداخلى الذى فصلنا قضيته كان سبب كل ضعف ، وماذا عسى أن يصنع حزب وطنى فى البلاد يخاصمه الخديو من أجل تمسكه بالحكم المطلق ورغبته فى القضاء على الدستور؟

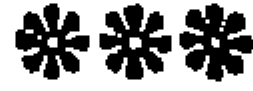
هل كانت تستطيع وزارة البارودى أن تعد العدة لمحاربة انجلترا والخديو الذى يملك حق ابعادها عن كراسيها فى صف الانجليز ؟

على ان عرابى قد بذل فى وزارته جهدا محمودا فى اصلاح الحصون ولولا اسقاط وزارة البارودى لكان يرجى أن يسير فى هذه السبيل حتى يتم ما بدأه (١)

لقد قامت القيامة وأنذر الانجليز الدنيا بالويل لنبأ

(١) راجع ص ١٣٤ من هذا الكتاب .

من مفترياتهم هم ، الا وهو ما زعموه من تحصين فى قلاع الاسكندرية واتخذوا من ذلك وسيلة لانذارهم مصر ثم الاعتداء عليها ، فكيف يجوز فى عقل عاقل أن يقال أن الوزارة ملومة لانها لم تقو الحصون ؟



فاذا أضفنا الى ذلك ان عمل انجلترا كان مفاجئا لا لمصر وحدها ولكن للمؤتمر الدولى القائم فى الآستانة تبين لنا مبلغ ما فى هذا اللوم من ضعف وسخف ...

على ان الوطنيين قد جاهدوا فى الوطن حق جهاده وأبوا أن يسلموا بما طلبت انجلترا الا مكرهين ، ولم يفروا أو يتخاذلوا من ضعف أو مباغتة ...

والآن بعد أن اقدمت انجلترا على عملها الاجرامى المعدوم النظير ، وبعد أن القى الخديو بنفسه فى أحضانهم ستجاهد الامة المصرية أصدق الجهاد ، وستعد ما استطاعت من قوة ومن رباط الخيل ، وستبدو وطنيتها وحميتها قوية رائعة على الرغم من قعود نفر من بنيها من الامعات والمستضعفين والطامعين ...

عرابى بطل الجهاد

رأى عرابى نية الخديو قبل عودته الى رأس التين ، وانه ليعلم ما يكنه توفيق فى نفسه للحركة القومية منذ يوم عابدين ...

لذلك أيقن عرابى وأصحابه أن الحرب غدت أمرا محتما بين الامة المصرية وبين انجلترا ، ورأوا أن الاسكندرية لا تصلح ميدانا للقتال ، وان الدفاع عنها بعد تحطيم حصون الشواطىء مستحيل ، وهو أكثر استحالة بعد انضمام توفيق الى الانجليز ...

وكان الخديو يأمل أن يدافع عرابى زمنا عن قلعة العجمى ، وبذلك يستطيع الانجليز أن ينزلوا جندا يقطعون عليه الطريق ويأسرونه فى الاسكندرية ، يقول بلنت فى ذلك : « لقد كان جيشه جيشا مكسورا ، ولو انه لم يفقد روحه المعنوية الا انه كان من السهل ان يصل الى ذلك لو أن قوة صغيرة نزلت من السفن واستولت على السكة الحديد وقطعت طريق ارتداده ، ولقد كان من المؤكد فى خطة الانجليز أنهم كانوا يريدون تطويق عرابى اذا أمكن ، وربما كانت تلك الحمية التى بدت فى الدفاع على غير ماكان منتظرا ، أو كانت خدعة الراية البيضاء هى التى حالت بين سيمور وبين انزال جنده » (١) .

---

(١) S.H. Blunt p. 390.

ولذلك حنق توفيق على عرابى لانسحابه ، ولم يكن مبعث حنقه انه ترك المدينة بغير دفاع كما سيزعم عند الضرورة . قال عرابى فى تقريره الذى كتبه الى محاميه المستر برودلى فى السجن : « اصدر الخديو امره فى مجلس الوزراء الىجنودنا ليحتلوا قلعة العجمى ويمنعوا نزول الجنود البريطانية ، فافهمت سموه ان المشاة لايستطيعون ذلك لانهم يتعرضون بذلك لنيران مدفعية السفن كثيرا ويكونونعرضةكذلك لان يقطععليهم الطريق الى الاسكندرية ، فظهر على الخديو الغضب وقال : « لماذا تسمون انفسكم جنودا اذا كنتم لا تستطيعون ان تمنعوا عدوا من أن ينزل جنوده فى بلادنا ! » (١)

لذلك انسحبت الحامية لتتخذ مكانا حصينا يصلح لاقامة خطوط الدفاع عن داخل البلاد ، وقد اتخذت جهة كفر الدوار موقعا لهذا الدفاع .

وهكذا ينتقل تاريخ الثورة القومية الى فصل جديد هو الحرب بين مصر الناهضة بالامس القريب مما رزحت تحته زمنا طويلا من الحكم الفردى المطلق ، والتى لم تستوف أسباب القوة المادية بعد أن حطمت الدول قوى محمد على ، وبين انجلترا ذات الامبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس !

ولم يكن امام مصر الا ان تختار احدى سبيلين : التسليم بالاحتلال وما يقضى به على نهضتها القومية الحرة وقبول هذه المذلة طائعة مختارة ، أو الحرب التى تبذل فيها الاموال والانفس والتى تنتهى اما الى نصر يتحقق به كل شىء ، واما الى هزيمة تذهب بكل شىء الا الشرف والكرامة ...

واختارت مصر السبيل الثانية تحت راية عرابى ،

(1) How We Defended Orabi p. 127

وتركت للخديو ومن شايعه السبيل الاولى ، وما كان لعرابى وأصحابه أن يفعلوا غير ما فعلوا والا كانت حركتهم القومية ونهضتهم الاصلاحية هزرا ولعبا من أول الأمر ، وماكانت لعمر الحق الا الجد كأعظم وأجمل مايكون الجد

يقول بلنت فى هذا الصدد : « ان خير صفات عرابى كما اعتقد هى اصراره على الا ينصرف عن وضع كان هو الاصل فى اعلانه وذلك انه وان كان على استعداد لان يسالم الدنيا كلها ، الا انه كان يرى من واجبه أن يدفع عن وطنه كل عدو مغير .. وبهذا قد ادى لبنى وطنه فى تلك الاسابيع خدمة لا تقدر ، خدمة ارى ان من الحق ان يذكر بها ، فليس هناك شىء أكثر يقينا من أنه لو كان عرابى أقل عنادا مما كان فى رفضه التهديد أو الرشوة (١) عندما طلب اليه مغادرة مصر ولم تنشب الحرب تبعا لذلك ، لبقى الفلاحون كما كانوا سنة ١٨٨٠ عبيدا لسادتها الاتراك وعبيدا للأوربيين ، وماذا يرى أى وطنى ما كان يمكن أن ينتج من اذعان عرابى ؟ أهو حرية من أى نوع ؟ أهو استمرار لحكم الشعب نفسه ؟ أهو حكم أجنبى أخف وطأة مما هو عليه الآن ؟ (٢) لاشىء من ذلك يقينا . ان ما كان ينتج يتضح فى النظام الذى أقيم فى القاهرة عقب الحرب ، أنه كان لايخرج عن نوع من استبداد الشرطة والغدر والعقوبات الخفية ، دون أن يخفف من ذلك أى اهتمام بعد بالقومية المصرية كما ينظر اليها بالمعنى المفهوم فى أوربا ، ومن الممكن من الوجهة الشكلية انه كان يسمح لمجلس من الاعيان أن يظل يعقد بعض جلسات ، من قبيل ما يسمى هيئة استشارية ،

---

(١) قيل ان بيت روتشلد تعهد أن يدفع له معاشا ضخما اذا هو غادر مصر حسب المذكرة المشتركة .

(٢) يقصد الحكم الاجنبى بعد الاحتلال فقد صدر كتابه سنة ١٩٠٧

ولكنه لن يكون ذا قوة كما انه لن تكون اله قط روح وطنية . وكان يعاد الحكم الشركسي اشد مما كان ، وكانت تحرص الرقابة المالية ـ وقد قويت شوكتها بسلطة سياسية جديدة ، واهتمت بأمور مالية ومصالح أوربية بحتة ـ على ألا تحرر الفلاحين من سادتهم الاتراك وقد غدا هؤلاء الاتراك عبيدا لاوربا ، وكانت تذهب اسطورة الحركة القومية للفلاحين هباء فى صورة مشينة لان الشعب الذى لم يجرؤ قط على الدفاع عن وجوده جدير بالاحتقار ... وكانت المطبوعات القومية تهوى الى مثل ما هوت اليه فى تونس ، وكان لا يجد المرء اثرا للحرية المدنية ولا للحرية الشخصية ولا لاى اعتبار للحقوق القومية ، وكانت مصر فى الواقع ترى كما رؤيت سنة ١٨٨٣ أرضا لايستطيع المرء فيها أن يزيد على الهمس ولا يأمن جاره أن يشي به ...

وقد خلص عرابى بنى وطنه على أقل تقدير من هذا كله ... ولئن لم يتفق لهم أن يروا فيه جنديا كما رأوا فيه وطنيا ، فانه أنقذهم من وصمة شنيعة ، وتلك انهم لم يحاربوا قط فى المرة الوحيدة التى اتيحت لهم فى مدى تاريخهم حين واتتهم الفرصة ليدافعوا عن حريتهم » (١) .

وان عبارة بلنت هذه لتلخص القضيةكلها أبلغ تلخيص وأجمله وما نجد خيرا منها نسوقه للذين ينعون على عرابى انه حارب ، ويقولون فى سذاجة مثيرة انه حارب فجلب البلاء على مصر ، كانما كانت هذه الحرب لعبة طرات على خياله فلعبها ... أو هكذا يفكر هؤلاء كما يفكر الصبيان ...

وقفت مصر اذن تدافع عن حريتها وعن شرفها ،

S. H. Blunt p. 283-84 (١)

وتخوض حربا لاول مرة فى تاريخها تحت قيادة فلاح من أبنائها يعاونه فى القيادة فلاحون مثله ، فاما الى النصر واما الى القبر ... وهى فى أقل ما توصف به مظاهرة للشرف والـكرامة ...



أعلنت الاحكام العرفية فىمصر ابتداء من اليوم الحادى عشر من يوليو فقد أرسل راغب باشا الىجميع المديرين برقية هذا نصها : « حيث ابتدأت الحرب بيننا وبين الانجليز فبمقتضى القـانون تكون الادارة تحت أحكام العسكرية ، والخيولوالبغال الموجودةجميعها بالمديريات والمحافظات ترسل لديوان الجهادية بأثمان موافقة على الجهادية فليسرع بالمبادرة بارسالها » (٢) .

وهذه البرقية صريحة فى ان الحرب ابتدأت بين مصر وبين الانجليز ، وصدورها من رئيس مجلس الوزراء لن يكون الا باذن من الخديو ...

ومنذ أن قرر الخديو ومجلس وزرائه رفض الانذار النهائى تعتبر البلاد فى حالة حرب مع انجلترا ، وقد أصدر الخديو أمره الى عرابى باشا بدعوة ٢٥٠٠٠ من الاحتياطى بالاقاليم ، هـذا وان القرار الذى اتخذه مجلس الوزراء فى اليوم العاشر من يوليو ، ذلك المجلس الذى كان عرابى غائبا عنه ، والذى أشار اليه اللورد راندلف تشرشل فى مجلس العموم متعجبا من أنالكتاب الازرق أغفل نشره ومبينا أن مرد ذلك الى أنه صريح فى أن توفيق أعلن الحرب على انجلترا ، نقول ان ذلك القرار كان ينص نصا صريحا على أن الحصون سترد على ضرب الادميرال بعد القـذيفة الخامسة من جانب

(٢) الوقائع المصرية عدد ١٢ يوليو سنة ١٨٨٢

السفن (١) ...

ولينظر القارىء بعد هذا فيما كان من راغب وتوفيق فى هذا الجهاد القومى الذى لم يكن لعبة لاعب وانما كان حياة أو موتا لامة ...

أرسل راغب باشا فى اليوم الخامس عشر من يوليو الى وكيل وزارة الجهادية بالقاهرة يطلب اليه أعادة المهاجرين الى الاسكندرية لان الحالة قد تحسنت وأن « جميع منخرجوا من البلد جار رجوعهم اليها وان أبوا العودة أرسلوهم ولو جبرا » (٢) .

وكان راغب باشا يريد ان يقول ان البلاد ليست فى حرب مع الانجليز مع أن الانجليز قد احتلوا الاسكندرية فعلا منذ غادرتها الحامية واتخذوها قاعدة يزحفون منها الى داخل البلاد ...

وهكذا ينقلب راغب فاذا هو من الامعات ، واذا هذا الشيخ الذى نيف على السبعين يختار أن يختم حياته اسوأ خاتمة ...

ولم يقف راغب عند هذا ، بل كتب فى اليوم السابع عشر من يوليـــو الى الادميرال سيمور يقول ، وما اسخف واشنع ما قال ، لى حـظ الشرف أن اعلـن لحضرتكم ان عرابى يشتغل الآن باعداد وسائل للدفاع، وذلك مخالفة لاوامر الجناب الخديو ، وقد صدر له الامر بالكف عن هذه التجهيزات ، فكونوا اذن على علم بأن الجناب الخديوى عزم على عزله من وظيفته ، فهو لذلك وحده المسئول عما يحدث ، فأرجوكم أن تعلنوا

---

(١) اورد برودلى كذلك هذا القرار فى ذيل ص ١٢٤ فى كتابه كيف دافعنا عن عرابى

(٢) الوقائع المصرية ١٥ يوليو سنة ١٨٨٢

مآل هذه الرسالة الى حكومة جلالة الملكة » (١) .

وان المرء ليتملكه العجب والاسف معا . بل الحزن العميق ، ان يرسل رئيس وزارة مسئول كلاما كهذا الى أدميرال دولة اجنبية معتدية لاتزال أرض الوطن مخضبه بدماء من فتكت بهم قذائفها فى غير مسوغ !

وهل غدا سيمور حاكم البلاد الشرعى حتى يكتب له راغب هذا الكلام ؟ كلا فلن يزال توفيق حاكمها الشرعى من قبل السلطان الذى عينه ، ولكن سيمور قد غدا صاحب النفوذ الفعلى فى الاسكندرية على الخديو الذى لاذ به وعلى الوزراء الذين أصبحوا منذ أن صحبوا توفيق الى رأس التين اشبه بسجناء فى المدينة ...

وليس أدل على ما بات لسيمور من سلطه من ذلك المنشور الذى أصدره باسم الخديو فى اليوم السابع عشر من يوليو يحث فيه الناس على الهدوء والنظام ويعلن اليهم انه مكلف بذلك من جانب الخديو ...

وهكذا أخذ الانجليز يخطون خطواتهم نحو احتلال البلاد والسيطرة عليها باسم الخديو والدفاع عن الخديو الحاكم الشرعى أمام العصاة الثائرين من بنى شعبه ، تلك الدعوى التى ادعوها منذ حضور سفنهم ، والتى ألقوها فى روع الخديو منذ يوم عابدين ...

ولن يفسر عمل راغب الا بأنه تم بعد اتفاق بينه وبين سيمور وتوفيق ، وهذه بديهية لا تحتاج الى دليل...

وأدهى وامر من فعلة راغب وادعى الى الاسف والالم والدهشة جميعا برقية الخديو الآتي نصها والمرسلة فى اليوم السابع عشر من يوليو الى عرابى بكفر الدوارحيث أخذ يبنى خطوط الدفاع عن الوطن فى نشاط وبسالة ،

---

(١) مصر للمصريين ج ٥ ص ١٢٧ . وقد اشار كارتريت الى هذا الكتاب كذلك فى مصر رقم ١٧ ص ١٦٨

قال توفيق ، وما اعظم ما تحس النفس من الم وثورة تلقاء ما قال : « اعلموا أن ماحصل من ضرب المدافع من الدوننمة الانجليزية على طوابى الاسكندريه وتخريبها ، انما كان السبب فيه استمرار الاعمال التى كانت جارية بالطوابى وتركيب المدافع التى كلما يصير الاستفهام عنها كان يصير اخفاؤها وانكارها ، والآن وقد حصلت المكالمة مع الاميرال ، فأفاد أنه ليس للدولة الانجليزية مع الحكومة الخديوية أدنى خصومة ولا عداوة ، وأن ماحصل انما هو فى مقابلة ما كان من التهديد والتحقير للدوننمة ، وانه اذا كان بيد الحكومة الخديوية جيش منظم وممتثل ومؤتمن فهو مستعد لتسليم مدينة الاسكندرية اليها ، ولذلك اذا حضرت عساكر شاهانية فالحكومة الانجليزية تحترمهم وتسلم اليهم المدينة ، فقد تحقق من هذا أن الدولة الانجليزية ليست محاربة مع الحكومة الخديوية وانه تقرر من كافة الدول المعظمة بالقونفرانس (١) بأنه لايصير مس امتيازات الحكومة المصرية ولا حريتها ، ولا مس حقوق الدولة العلية ، بل هى تبقى ثابتة لها كما كانت ، وأن يصير ارسال عساكر شاهانية لاجل استتباب الراحة بمصر ، فلذلك يلزم أن تصرفوا النظر عن جمع العساكر وعن كافة التجهيزات الحربية التى تجرونها بوصول أمرنا هذا ، وتحضروا حالا الى سراى رأس التين لاجل اعطاء التنبيهات المقتضية الشفاهية على حسب أمرنا هذا وما استقر عليه رأى مجلس النظار » (٢)

وفى هذه البرقية العجيبة الذى لاينتهي عجبنا منها يحمل توفيق عرابيا تبعة ضرب الاسكندرية ويعلن حسن مقاصد الانجليز وأنهم لايبتغون الا الخير لمصر ! ويقول :

(١) المؤتمر
(٢) الوقائع المصرية ١٨ يوليو سنة ١٨٨٢

« أن سبب الضرب يرجع الى الاعمال التى كانت جارية بالطوابى وتركيب المدافع التى كلما يصير الاستفهام عنها كان يصير اخفاؤها وانكارها » .

وتناسى الخديو أنه أرسل برقية الى السلطان فى اليوم السابع من يوليو ينفى فيها حدوث هـذه الاعمال التى يشير اليهـا ، ويقول : « ان التـأكيدات ارسـلت الى الادميرال بنفيها » (١)

وكانت دعوة عرابى الى الاسكندرية خدعة مكشوفة لا تجوز على أبسط الناس عقلا ، بغية القبض عليه بحجة انه ثائر متمرد خارج على ارادة الخديو داع الى الفوضى ، ولسنا بحاجة الى تلمس الدليل على صحه ما نقول ، فحسبنا أن نورد نص البرقية الآتية التى ارسلها كارتريت الى جرانفل فى اليوم الخامس عشر من يوليو ، قال : « قلت النار قلة محسوسة ، بعود الاوربيون الى المدينة انشىء شرطة من الوطنيين ليعملوا مع البحارة الامريكان أبرق عرابى باشا هذا الصباح من كفر الدوار الى الخديو يقول انه سوف يسر سموه أن يعلم أن الرديف قادمون ليساعدوه فى محاربة الانجليز وأجاب الخديو بدعوته الى هنا ، اذا حضر فسيقبض عليه ، واذا رفض فسيعلن عصيانه وخروجه على القـانون ، القـاهرة هادئة كما نعتقد ، الشعور القومى الى أقصى ما نستطيع أن نراه فى جانب الخديو ، مع عرابى نحو ٤٠٠ جندى ، (٢) .

والواقع أن الخديو كان قد فرغ من عرابى وقضى فيه قضاءه بعزله من وزارة الجهادية قبل أن يستدعيه الى الاسكندرية بيوم ، تجد ذلك صريحا فى برقية لكارتريت بتاريخ اليوم السادس عشر من يوليو جاء فيها : «أتشرف

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٠١
(٢) مصر رقم ١٧ ص ١٤٧

بان اخبركم أن الخديو عزل عرابى باشا من منصب وزير الجهاديه، وأصدر امره بمنع جميع المصريين من مساعدته وسيذاع هذا الامر بكافة الوسائل التى فى متناول سموه وبناء على اقتراح الخديو انفذ الادميرال السير بوشامت سيمور سفينتين من سفن جلالتها الى أبى قير مخافة أن يقطع عرابى الساحل ويدع ماء البحر يطغى » (١) ٠

وهكذا يعزل توفيق عرابيا قبل ان يستدعيه ، ولم يعلن قرار العزل رسميا الا فى اليوم الثانى والعشرين من يوليو

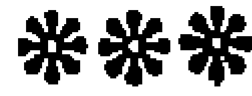
ولنـدع لعرابى الرد على توفيق فقد ابرق اليه ردا على برقيته يقول : « مولاى ٠٠ فى شريف علم مولاى المعظم أن الحرب التى وقعت بيننا وبين الانجليز وبلغت مسامع عظمتكم وعرضت على مجلس نظاركم المنعقد تحت رئاسة سموكم بحضور كثير من اعيان البلاد المنتخبين ودولتلو درويش باشا نائب الحضرة السلطانية ولما تحقق عند جميعهم ان هذه الطلبات مضرة بالحكومة الخديوية ومخلة بشأن البلاد استقر رأيهم على معارضة طلب الاميرال ولو أدى ذلك الى الحرب ، وبناء على ذلك قرر المجلس لزوم زيادة ٢٥٠٠٠ عسكرى وصدرت الاوامر الى المديريات بطلبهم ، وقرر المجلس ايضا انه لا تطلق المدافع من جهتنا الا بعد اطلاق خمسة مدافع من السفن الانجليزية ، ولما ابتدأت السفن بضرب النيران على مدينة الاسكندرية لم نقابلها الا بعد عشرين طلقة ؛ ولم يكن عندنا قبل وقت الضرب أدنى استعداد ، لاستمرار الاوامر بعدم الاستعداد ، ثم بعد ذلك أعلن حضرة رئيس مجلس النظار وناظر خارجية حكومتكم الى جميع جهات الادارة بصيرورة البلاد حربا مع الانجليز وانها صارت تحت الاحكام العسكرية كما هو حكم القانون زمن الحرب

---

(١) ص ١٤٧

... فلهذه الاسباب يا مولاى تكون حكومتكم الخديوية المصرية محاربة لدولة الانجليز بوجه الحق والشرع، ولم يحصل من الحكومة ولا من عساكرها أدنى تحقير ولا ازدراء بالدونتمة كما هو معلوم لدى عظمتكم، وانما كانت الحرب عدوانا من الانجليز على الحكومة التى لم يبد منها أى شىء يستوجب الحرب ، فان كان الاميرال فى مخابرته مع سموكم أظهر انه عدل عن الحرب الى السلام فذلك بعد وقوع الحرب يعد طلبا للصلح وسعيا فى تجديد العلاقات ، ولا يجوز أن يكون انكارا للحرب بالمرة وتبرأ من العدوان بعد وقوعهما ، ولا شك فى انى أطابق أفكار سموكم فى الميل الى الصلح مع حفظ شرف البلاد والحكومة ، وان كان الاميرال يريد تسليم المدينة لجيش حكومتكم المنظم بعد أن تخربت بمدافع السفن الانجليزية هدما وحرقا فها هو جيشها المنظم الذى لم يقع منه أدنى أمر يخل بنظامه، مستعد لان يستلمها بعد سحب السفن عن مياه الاسكندرية ، وللمحافظة على شرف حكومتكم الوطنية ينبغى الاستمرار على الاستعداد العسكرى كما وافق راى سموكم أولا حتى تنسحب السفن من السواحل المصرية خوفا مما عسى أن يحدث من قبيل ماسبق، فقد صارت الحادثة الماضية برهانا جليا على أن الوعد بالسلام من الانجليز لايمكن الثقة به ، وانما هو لاجل شغلنا عن الاستعداد واقتراح مطالب مضرة بمصالح البلاد ، واننى كنت أتمنى أن أتمثل بين يدى عظمتكم لابداء هذه الملاحظات، لكن من الاسف انه تحقق عندى من الاكتشافات الحقيقية أن مدينة الاسكندرية مشغولة الآن بعساكر الانجليز ، فمن المعلوم عند مولاى أنه لايمكننى الحضور بتلك المدينة لهذا السبب ، فاذا حسن لدى مولاى ، فليصدر أمره السامى بحضور حضرات النظار أو سعادة

رئيس مجلس النظار الى مركز الجيش للمداولة فى هذا الامر لنكون على بينة من الحقيقة حتى يمكننا بعد ذلك صرف العساكر وترك التجهيزات الحربيــة والحضور الى المدينة ، والامر لمن له الامر » (١) .



ووقف عرابى فى خطوط دفاعه ، لا لينتظر شيئا من الخديو بعد ذلك ، ولكن لينتظر كلمة الامة المصرية تحكم بها بينه وبين الخديو وأعوانه من الانجليز والخوارج من المصريين ، وعما قليل ستاتيه الانباء من اعماق مصر بان الامة التى مجدته بالامس زعيما قوميا مناضلا فى سبيل حريتها ودستورها ، ستنطوى اليوم تحت لوائه قائدا مجاهدا مدافعا عن الحرية التى استخلصها لها ، وعن الدستور الذى حرس مهده ، وعن شرفها الذى يمتحنه ببغيه الاحتلال ...

وحسبه مجدا وفخرا وجزاء بما جاهد وصابر ان ترى فيه أمته رمز الخلاص وبطل الجهاد ...

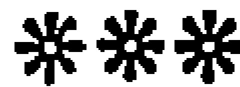
---

(١) الوقائع المصرية ١٨ يوليو سنة ١٨٨٢

نصرك الله يا عرابي

ما ذاعت فى القاهرة والاقاليم أنباء ما فعل الانجليز فى الاسكندرية وما كان من موقف الخديو بعد ذلك ، وما ذاع رد عرابى على استدعاء توفيق اياه حتى امتلأت القلوب عطفا على عرابى واجلالا له ، وازدادت محبة الناس له أضعافا مضاعفة ، وصار من الكلمات الشعبية التى يسمعها المرء فى المدن أينما سار فى شوارعها ودروبها وأينما حل فى مقاهيها ومنتزهاتها ، وفى القرى أينما وجدت شمالا أو جنوبا تلك الكلمة التى غدت شعار الشعب وهى : « الله ينصرك يا عرابى » (١) ...

ولم تقتصر الامة على الهتاف والدعاء ، فلسوف نرى انها بذلت من أبنائها ومن أقواتها وأموالها ما هو خليق أن يسجل لها فى تاريخ الحركات القومية مثلما يسجل للأمم الأبية الكريمة من دواعى الفخر ...



فطن عرابى منذ أن جاءته برقية الخديو الى أن الانجليز من أول الامر سيتخذون من الخديو أداة لتحقيق أغراضهم ، وكان أول اتجاه نحو هذا أن يصدر قرارات

---

(١) اثبت محاميه مستر برودلى هذه الكلمة بالعربية مذهبة على غلاف كتابه الانجليزى « كيف دافعنا عن عرابى » واثبتها فى الصفحة الاولى منه بالعربية كذلك وكتب تحتها « هتاف الشعب فى القاهرة يوليو سنة ١٨٨٢ » .

ضد عرابى تذيع الانقسام فى البلاد ...

لذلك راى ان الظروف تحتم عليه أن يقضى على هذا السلاح ، فبادر بارسال برقيـة الى جميـع المديريات والمحافظات يعلن فيها للناس انضمام الخديو الى الانجليز ويحذرهم من اتبـاع أوامره ويدعوهم الى الاسـتعداد وجمع ما يلزم للقتال (١) ...

وأرسل عرابى برقية أخرى يعلن فيها للمديرين ان الوزراء أسرى عند الخديو وانه يريد ان يتخذ منهم أداة لتنفيذ اغراضه فى شل حركة الدفاع عن الوطن وعلى ذلك فليعلم الحكام والمـديرون أن ما يأتى من رئيس الوزراء من البرقيات بطلب الكف عن الاستعداد انما هو مجبر عليه فلا طاعة له ، وان الذين يخونون وطنهم لا يكون جزاؤهم العقاب وفق قوانين الحرب فحسب ، بل سيلعنون فى الآخرة (٢) ...

وأرسل كتابا خطيرا فى اليوم السابع عشر من يوليو الى يعقوب سامى باشا وكيل وزارة الجهادية بالقاهرة يعلن اليه فيه خيانة الخديو للبلاد وانه سبب ما نزل بها من الكوارث ويدعوه الى عقد جمعية من الـكبراء ، والعلماء للنظر فى الامر واصدار قرار بشأن الخديو ، وفيما يجب عمله لصالح الامة وتقرير مدى « صـلاحية هذا الوالى عليها » (٣)

وقد اهتم الانجليز بأنباء هذه الاتصالات وغاظهم أن يسبقهم عرابى الى السلاح الذى ارادوا أن يحاربوه به ، وأبرق كارتريت الى جرانفل فى اليوم الحادى والعشرين

---

(١) الوقائع المصرية ١٧ يوليو سنة ١٨٨٢ ومصر رقم ١٧ ص ١٨٤

(٢) مصر رقم ١٧ ص ١٨٤ (٣) الوقائع المصرية عدد ١٨ يوليو سنة ١٨٨٢ وقد أورد ترجمة كلام عرابى فى مصر رقم ١٧ سنة ١٨٨٢ ص ٢٧٥

من يوليو يقص عليه امرها ، فرد عليه جرانفل ببرقية فى نفس اليوم هذا نصها : « بالنظر الى لهجة عرابى باشا فى بلاغاته التى ذكرتها لى فى برقيتك اليوم ، رأيت أن أوجهك بشدة الى أن تؤثر على الخديو بضرورة اصدار بلاغات مضادة من جانبه الى الشعب المصرى ، وان تخبر سموه بأن حكومة جلالة الملكة تعد العدة لارسال قوة كبيرة الى البحر الابيض المتوسط »

ومعنى ذلك أن انجلترا كانت تعد حملتها لاحتلال مصر وانها خشيت من نشاط عرابى وقطعه الطريق على أساليبها ...

وكان الخديو قد أعلن أمره فعلا بعزل عرابى فى اليوم الثانى والعشرين من يوليو وبنى قرار العزل على أمور نسبها اليه سوف نذكرها ، ولكن الانجليز لم يكتفوا بذلك وارادوا أن يستمر الخديو فى اصدار القرارات ضد عرابى ...

وكان يعقوب سامى باشا من المخلصين للثورة الوطنية وكان يكره أشد الكره من الخديو انضمامه الى الانجليز، ويرى أن ذلك خيانة منه للبلاد ، وكان يعقوب باشا كذلك من أكبر أنصار عرابى المتحمسين له ...

فلما جاءته برقية عرابى اجتمع فى نفس اليوم فى مقر وزارة الحربية بقصر النيل مع عدد من صفوة أنصاره وتشاوروا فى الامر ، واستقر رأيهم على دعوة مجلس من وكلاء الوزارات وبعض كبار الضباط وكبار الموظفين ، وقد انعقد هذا المجلس وعرف باسم المجلس العرفى ، وسيبقى يدير شئون الحرب والادارة طول مدة القتال.

وقرر المجلس العرفى فى نفس اليوم دعوة جمعية عامة تضم رؤساء الاديان والعلماء ووجوه الامة ممن يوجدون بالقاهرة وكبار موظفى الدولة ، للنظر فى هذه الامور

الخطيرة واتخاذ القرارات التى يراها صالحة للبلاد...

وانعقدت الجمعية العامة أومجلس العموم كما سميت فى مساء الاثنين فى السابع عشر من يوليو سنة ١٨٨٢ الموافق غرة رمضان سنة ١٢٩٩ فى وزارة الداخلية ، وشهد هذا الاجتماع الخطير نحو ٤٠٠ عضو ، كان بينهم الامراء الموجودون بالعاصمة ورؤساء الاديان وفى مقدمتهم الشيخ الامبابى شيخ الاسلام ، ثم كبار العلماء وقاضى قضاة مصر ومفتى الديار المصرية والنواب ووكلاء الوزارات والقضاة وكبار الاعيان والتجار ...

وعرضت على أعضاء الجمعية البرقيتان المتبادلتان بين الخديو وعرابى ، والبرقية التى ارسلها عرابى الى يعقوب سامى . وبعد أن تشاوروا طويلا فى الامر ، اتخذوا قرارا خطيرا يدل على قوة روح الامة ومناصرتها المجاهدين من ابنائها ، وذلك أن الجمعية رات الاستمرار فى اعداد العدة للقتال ما دامت سفن الانجليز فى الشواطىء المصرية وجنودهم فى الاسكندرية ، كما رات استدعاء الوزراء من الاسكندرية لسؤالهم عن حقيقة الامر ، واوفدت لجنة من ستة مندوبين من أعضائها للسفر الى الاسكندرية لابلاغ الوزراء قرار الجمعية ...

***

وكان الخديو فى قصر رأس التين بالاسكندرية يحيط به أعوانه من الانجليز ويختلط بحرسه بحارة الاسطول البريطانى وانه لينتظر بصبر فارغ ذلك اليوم الذى يؤتى اليه فيه برأس عرابى حيا أو ميتا ...

أبرق كارتريت فى التاسع عشر من يوليو يقول : « أرسل الخديو فى طلب السير أوكلند كلفن صباح اليوم وطلب اليه أن يستحث حكومة جلالة الملكة لتخطو خطوة جديدة بلا ابطاء . ويقول سموه انه من ناحيته يرى أن

هذا العمل ضرورى جدا ، وانه يسر سموه اذا احيط علما بالخطوات التى ينظر فيها ، وقد وصف سموه قوة عرابى باشا بأنها الآن بلغت من العظمة حدا ينشر الرعب ويبثه فى عقول الوطنيين جميعا ، وان سيطرنه على البلاد وخاصة القاهرة يجعل عائلات جميع الموالين للخديو وأملاكهم تحت رحمته ، او الذين يستراب فى أمرهم انهم موالون ، ومن ناحية أخرى فان هناك اشاعة مستفيضة بأن انجلترا سوف يحال بينها وبين خططها بسبب الخلاف بينها وبين الدول . وستكون عاقبة هذين الاعتبارين أن يصبح من الصعب على سموه أن يحتفظ بمن يشايعونه متحدين » (١)

وهذه البرقية صريحة فى أن الخديو لاينضم الى الانجليز فحسب ، بل انه يستعديهم على مصر ويستحثهم فى صورة من القول لا تحتاج الى تعقيب ...

وجاء الى الاسكندرية من بورسعيد عمر باشا لطفى بطل مأساتها ، يقص على الخديو والانجليز مزيجا مهوشا من الاباطيل ليس فيه من الحق الا ما كان من صالح الخديو اعلانه ، وحتى هذا القدر من الانباء قد جاء به على صورة ممسوخة أملتها ضغائنه ومن ذلك ما ذكره عن حوادث اغتيال بعض الاوربيين داخل البلاد ...

ومن ذلك وصفه المجلس العرفى بأنه مجلس عدائى حضره نحو مائة من العلماء والباشوات والتجار، ومنه ما ذكره عن الشيخ حسن العدوى انه قال : انه بأمر الله ورسوله لن تطاع أوامر الخديو بعد اليوم وان الوقت قد حان لنشوب حرب مقدسة وقد وافقه الشيخ عليش على ذلك ، ومنه أن أحد الباشوات اعترض على الشيخين وتشكك فى صحة ما ارسله عرابى من الانباء وطالب

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ١٦٥

بالدليل عليها فوثب اليه بعض الضباط وارادوا قتله ، ولما أعيد النظام ابدى بعض الحاضرين أنه اذا كان للأمة أن تشكو شيئا من الخديو فان السلطان هو الذى ينظر فى شكواها وليس للمجلس هـذا الحق ، وقال بطريق الاقباط : اننا سمعنا من جانب واحد هو جانب عرابى ولم نسمع شيئا من الخديو ... الى آخر هذا الخلط المرذول ...

ومما أورده بطل مذبحة الاسكندرية كذلك مشـوها ممسوخا قوله : انه شاهد من القطار وهو مسافر الى القاهرة عقب ضرب الاسكندرية جثث كثير من الاوربيين ملقاة على الطريق وقد اغتالهم الجند وقطاع الطرق ، وانه شاهد فى محطة طوخ مقتل ألمانى وزوجته ، وان طنطا ودمنهور والمحلة نهبت نهبا تاما وقتل جميع من كانوا فيها من الاوربيين .

وانه بأمر عرابى باشـا قد سـجن من كبار الموظفين ابراهيم باشـا ادهم مدير الغربيـة وحسن بك مدير المنوفية وكمال بك مدير القليوبية .

وان الضباط يعقدون اجتماعات كثيرة برئاسة محمود سامى باشا فى قصر النيل ، وان عرابى باشا قد طلب الى المديريات ارسال سدسى عدد الذكور فى كل منها الى كفر الدوار مسلحين بالنبابيت ، كما انه طلب للخدمة جميع الجنود القدامى من كل سن ومنهم من بلغ أرذل العمر حيث كانوا فى جيش محمد على نفسه .

وان الخيل والاقوات تجلب قسرا من داخل المديريات ، وان المديريات جميعا فى حال عامة من الفوضى التامة ، ويسود القاهرة ذعر عظيم وان لم يقع فيها حتى الآن ما يخل بالنظام ... (١)

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ١٨٦

وقد ابرق كارتريت بأقوال عمر لطفي هذه الى حكومته لتنتفع بها فى الحملة على عرابى فى كل فرصة دولية تسنح لها ...

وليس أدل على تشويه عمر لطفى الحقائق ، وبعده بعدا كبيرا عن الامانة من ايراده نبأ حبس الموظفين فى صورة تشعر المرء بطغيان عرابى ، مع أنه حبس هؤلاء الموظفين رهن المحاكمة لانهم تهاونوا فوقعت حوادث اغتيال فى أقاليمهم استاء لها عرابى أعظم الاستياء ، وكان فى مقدمة المتهاونين ابراهيم ادهم باشا مدير الغربية ، فقد تمارض وترك الفوغاء يعيثون فى الارض فسادا حتى لقد شاركهم بعض خفراء المديرية ، وكان من جراء ذلك أن قتل فى طنطا نحو ثمانين من الاجانب وفى المحلة نحو تسعة منهم ..

وقد أرسل عرابى فرقا من الجيش على الفور الى طنطا والمحلة وشبين الكوم ، وارسل قطارات تنقل من يرغب فى السفر من الاجانب بالمجان الى الاسماعيلية ، وبورسعيد ...

وممن كان لهم همة مشكورة فى اخماد هذه الفتنة ، احمد باشا المنشاوى فقد آوى فى بيته نحو ٣٠٠ من الاوربيين والمسيحيين وظلوا فى حمايته ورعايته حتى انتهت الحرب ...

وما أن بلغ الخديو قرار الجمعية العامة حتى أعلن قراره فى اليوم الثاني والعشرين من يوليو بعزل عرابى من نظارة الجهادية والبحرية ، ذلك القرار الذى صدر منذ اليوم السادس عشر كما جاء فى برقية كارتريت الى جرانفل ، وكان الخديو فى هذه الايام الستة بين اصدار القرار واعلانه يحاول استدراج عرابى الى الاسكندرية كما بينا ، للقبض عليه غدرا وعدوانا ...

وقد أعلن الخديو أن هذا الامر بالعزل كان بناء على قرار من مجلس الوزراء وعين الخديو عمر باشا لطفى مكان عرابى ناظرا للجهادية .

أما قرار العزل فهذا نصه : « ان ذهابكم الى كفر الدوار مستصحبا العساكر واخلاء ثغر الاسكندرية من غير أن يصدر لكم أمر بذلك ، وتوقيف حركة السكة الحديد وقطع جميع المخابرات التلغرافية عنا ومنع ورود البوستة الينا ومنع حضور المهاجرين الى وطنهم بالاسكندرية واستمراركم فى التجهيزات الحربية ... وارتكابكم عدم الحضور طرفنا بعد صدور أمرنا بطلبكم ، كل ذلك يوجب عزلكم ، فقد عزلناكم من نظارة الجهادية وأصدرنا أمرنا هذا لكم بما ذكر ليكون معلوما » (١) .

وأذاع الخديو عملا بنصيحة كارتريت وتنفيذا لتعليمات جرانفل منشورا علق على الجدران بشوارع الاسكندرية فى اليوم الثانى والعشرين من يوليو وفيه يبرر الخديو عزله عرابى ، ومما احتواه هذا المنشور ، قول الخديو : « ليعلم كل من يقرأ هذا الامر سبب عزل أحمد عرابى باشا ، ذلك أنه بعد عشر ساعات من ضرب الشواطىء حطمت قلاعنا وحطم ٤٠٠ مدفع من مدافعنا وقتل القسم الاكبر من رجال مدفعيتنا أو عطلوا ؛ بينما لم يفقد الاسطول الانجليزى الا خمسة رجال ولم تصب سفنه أصابات ذات بال ، وجاءنا حينذاك أحمدعرابى باشا يعلن الينا النبأ المؤلم عن تحطيم حصوننا ، وقد طلب الادميرال الانجليزى منا اخلاء قلاع العجمى والدخيلة والمكس لتحتلها جنوده ، ولما كان مجلس الوزراء منعقدا بحضور درويش باشا فقد تقرر أنه لايمكن اخلاء القلاع الا بأمر من صاحب الجلالة الشاهانية السلطان ، وأنه

(١) الوقائع المصرية ٢١ سبتمبر سنة ١٨٨٢ .

على عكس ذلك صار من الضرورى العمل على تدبير وسائل الدفاع عنها وذلك بوضع حاميات جديدة تمنع نزول الجنود الاجنبية ، وفى نفس الوقت أرسلنا برقية بذلك الى الباب العالى ، ولكن عرابى باشا توجه الى جهة باب رشيد بالاسكندرية دون أن يتخذ اى اجراء حربى ، فأرسلت اليه أحد ياورى ليذكره بأنه يجب عليه ارسال امدادات الى القلاع المذكورة ، فأجاب بأنه لايستطيع أن يرسل جنديا واحدا ، وأمر الجند ، بأن ينسحبوا معه وعسكر فى كفر الدوار تاركا المدينة بغير دفاع» (١)

وان المرء ليعجب حتى ما يفرغ عجبه من هذا الكلام! ويتساءل بحق : هل كان الخديو يقرأ هذا قبل اذاعته ؟ اذ كيف يجمع الخديو بين هذا القول وبين ما جاء فى برقيته الى عرابى بكفرالدوار اذ حمله تبعة الضرب نظرا « لاستمرار الاعمال التى كانت جارية بالطوابى وتركيب المدافع التى كلما يصير الاستفهام عنها كان يصير اخفاؤها وانكارها » واذ دعاه الى أن « يصرف النظر عن جمع العساكر وعن كافة التجهيزات الحربية » !

ومن المضحك المؤلم معا أن يقول توفيق فى نفس الوقت : «ولولم يتحقق لدينا أن نية الانجليز والفرنسيين ليست نية استيلاء ، بل نية اصلاح أو كان عندنا أدنى شبهة فى ذلك لكنا أول من يقوم بالمدافعة بأرواحنا وأموالنا الى أن يقضى الله أمرا مفعولا » (٢) .

ولكن ماذا عسى أن يقول توفيق غير هذا وهو لايستطيع أن يجعل من الباطل حقا ، ولايستطيع فى الوقت نفسه أن يسكت ومن ورائه كارتريت وفى دخيلة نفسه شديد مقته لعرابى وعظيم سخطه على الثورة ؟

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٧٢
(٢) الوقائع المصرية ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٨١

وارسل كارتريت فى اليوم الثانى والعشرين كتابا الى جرانفل يقول : « ايماء الى رسالتى بتاريخ الامس بشأن ماحدث فى قصر الرمل اثناء الضرب وبعده ، أفيدكم انى تلقيت من المصدر نفسه زيادة على ما سلف أن عرابى باشا حينما سأله الخديو ماذا ينوى عمله فى المستقبل أجاب بأنه سوف يلجأ الى تدبيرات غير نظامية حيث أنه لا قبل له بمقاومة الانجليز . وكأن عرابى بهذا يمهد لما كان من احراق المدينة وتخريبها وحبس الماء عنها (١) ، ولقد لمح عرابى باشا قبل ذلك فى حديث له مع رجل انجليزى الى ما سوف يتبعه من وسائل المقاومة .

ومن الجلى أن قوة عرابى الرئيسية كائنة فى وسائله البربرية التى لا وازع يصرفه عنها ، وانه ليسود بين موظفى القصر الآن خوف شديد مما عسى أن يصنعه عرابى بأملاكهم فى القاهرة وفى غيرها ، حتى ان ذلك ليشل عمل الخديو ، وان سموه ليحجم عن اعلان عصيان عرابى بسبب ما يفضى اليه ذلك من مكايلته بكيله ...

وفى مقابلة لى مع سمو الخديو بالامس حاولت أن اصور له ما يحدثه مثل هذا الاعلان من اثر أدبى ، وما يبثه من الشجاعة فى قلوب من لايزالون موالين لسموه فى القاهرة وغيرها ، فأجاب الخديو بأنه ليس هناك مايدعو فى الاسكندرية الى القول بأن قوة عرابى قد ذهبت ، أما عن القاهرة فانه أبرق اليها الآن بعزل عرابى من بورسعيد ، وليس لديه وسيلة لاذاعة بلاغ ضده هناك . وأضاف سموه أن المديرين فى الاقاليم لا يجرؤن فى الظروف الحالية اطاعة أوامره ، ولكنه يتخذ الخطوات لاذاعة منشور فيهم بأيدى بعض البدو ...

---

(١) يقصد ما ذكره فى برقية سالفة من آن عرابيا اخذ يسد ترعة المحمودية

وانه ليؤسفني أن أقرر ، أنه على نقيض ما يذكر الخديو بشأن الاسكندرية ، لايزال يغادرها كثير من العرب لينضموا الى عرابى ، وربما كان مرد ذلك الى خوفهم مما تهدد به من عقاب فى بلاغاته الاخيرة وان كان يمكن القول الى حد ما بأن ذلك يرد الى الذعر الذى استولى عليهم من نقصان الماء نقصانا واضحا » (١) .

ومن عجيب مايذكر فى هذا الصدد ، أن كارتريت قد اقترح على حكومته الاعتراف بوزارة راغب باشا بعد طرد عرابى منها وتجديد العلاقات معها على أساس المودة ، مع أن راغب يعد مسئولا عن كل شيء يسأل عنه عرابى ، بل هو بحكم كونه رئيس مجلس الوزراء أكثر مسئولية منه اذا سلمنا جدلا بأن فى الامر مسئولية ، ومما يزيد الامر غرابة أن عرابى كان نائبا عن المجلس الذى انعقد فى اليوم العاشر من يوليو بقصر راس التين برئاسة الخديو ، ذلك المجلس الذى قرر أن الحصون سترد على الاسطول بعد القذيفة الخامسة ... فكيف تجدد الحكومة الانجليزية علاقتها بوزارة راغب التى أصدرت هذا القرار وتمعن فى معاداتها عرابى الذى لم يشهد هذا المجلس ؟

وللقارىء أن يمعن النظر فى هذه البرقية التىأرسلها كارتريت الىجرانفل فى اليوم الثانى والعشرينمن يوليو قال : « بما أن الوزراء قد تجنبوا الآن كل فكرة عدائية وبما انهم يظهرون صراحة ولاءهم للخديو ، فقد طلب الى سير ا.كلفن أن أعرض على فخامتكم مايذهب اليه من انه مما ينصح به تجديد العلاقات الدبلوماسية معهم مع استثناء عرابى باشا بالضرورة من بينهم ، وان مثل هذه الخطوة كفيلة بأنتساعد الوزارة المصريةفى محاولتها

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٧١

كسب الشعب ثانية الى جانب توفيق باشا كما أنها تبث الثقة فى نفوسهم بشأن ما تنويه الحكومة الانجليزية ، وقد شرح السير أوكلند كلفن فى مقابلة شخصية بينه وبين وزير المالية سبب المعارضة التى كانت توجهها المراقبة الى الوزارتين اللتين اشترك فيهما عرابى، فذكر أن ذلك يرجع الى أن هاتين الوزارتين كان قيامهما خطرا على قانون التصفية ، ولم يكن فى الامر أى اعتبارات سياسية أو دولية ، ولما كان الخديو قد أسقط عرابى باشا، فقد أصبح من الامور الهامة أن نستعيد ثقة البلاد، وان نثبت للملأ أن المعارضة التى كان يوجهها من قبل ممثلو حكومة جلالة الملكة لم يقصد بها الا العصابة العسكرية الذين كانوا يؤدون بسياستهم الى القضاء على الوضع المقرر والاخلال بمالية الدولة ! ولا يمكن أن تقصد بها وزارة تؤيد بولائها الخديو، وتجلس فى كراسيها بارادته ! ويقول السير أوكلند كلفن ان شرحه هذا قد صادف نجاحا كبيرا ، ويرى انه اذا لقيت الوزارة الحالية اعترافا من حكومة جلالة الملكة (دون أن يؤثر ذلك بالضرورة فى حرية الخديو فى العمل بشأن استمرارها أو تغييرها فى المستقبل) أدى ذلك الى تأثير حسن بوجه عام ، وفى حالة ما اذا صادف هذا الرأى قبولا لديكم فانه يقترح أن يسمح للرقيبين ثانية بحضور اجتماعات مجلس الوزراء» (١)

وفى هذه البرقية الخبيثة أبلغ الادلة على أن الحكومة الانجليزية لم ترم الا الى القضاء على الحركة الوطنية القومية التى يمثلها عرابى ، ان كان الامر لايزال يحتاج الى دليل ...

لم تحفل الامة بأمر الخديو القاضى بعزل عرابى ، بل لقد زادها ذلك تمسكا به والتفافا حوله ، وكان الناس

---

(١) ١٢٣

يتجهون بوجوههم الى السماء ويرفعون أكفهم كلما ذكر عرابى قائلين : « الله ينصرك يا عرابى »

وكره الناس انضمام الخديو الى الانجليز أعظم الكره ، ونظروا الى عرابى نظرهم الى المدافع عن كيان البلاد فى وجه الغاصب المعتدى الذى لم يرع حرمة القانون والذى اطلق مدافعه على الاسكندرية فى غير وازع من ضمير أو شرف ...

ولذلك أضاف الناس الى القاب عرابى رئيس الحزب الوطنى وقائد الجيش الوطنى ، لقبا جديدا هو «حامى حمى الديار المصرية » . وهذا ماخاطبته به الجمعية العامة ...

وفى هذا الذى فعلته الامة المصرية دليل على أن الثورة القومية قد تغلغلت الى أعماقها لا كما يقول بعض المؤرخين عن جهل مشايعين فى ذلك كتاب الاحتلال ...

وأما عرابى فلم يعبأ بقرار عزله وقد وطد نفسه على الدفاع عن مصر ووقف فى خطوط كفر الدوار معتمدا على تأييد الامة وعلى عدالة قضيته وشرف جهاده فى سبيل الحق والحرية ...

وأرسل عرابى الى يعقوب سامى باشا ليدعو الجمعية العامة ثانية للنظر فى الامر واجتمع المجلس العرفى وقرر دعوة الجمعية الى الانعقاد .

وفى يوم السبت الموافق الثانى والعشرين من يوليو اجتمعت الجمعية بوزارة الداخلية، وكان اجتماعا قوميا خطيرا أعظم وأشمل من الاجتماع السابق ، فهو مؤتمر وطنى عام شهده نحو خمسمائة من وجهاء الامة المصرية وفى مقدمتهم ثلاثة من الامراء هم : الامير ابراهيم باشا ابن الامير أحمد باشا ، والامير كامل باشا فاضل ابن الامير مصطفى فاضل وهو ابن عم الخديو توفيق ،

والامير أحمد باشا كمال ابن الامير أحمد باشا ...

وشهده كبار علماء الازهر وفى مقدمتهم شيخ الاسلام الامبابى وقاضى قضاة مصر والمفتى ونقيب الاشراف ، وكان من أبرز الحاضرين من العلماء الشيخ محمد عبده والشيخ حسن العدوى والشيخ محمد عليش والشيخ محمد أبو العلا الخلفاوى ...

وشهده كذلك بطريرك الاقباط ووكلاء البطريكخانات وحاخام اليهود ...

وشـــهده وكلاء الوزارات والنواب وعـــدد كبير من الباشوات وكبار الضباط وكبار موظفى الدولة الاداريين والقضاة ومديرو الاقاليم ...

ومن الاهالى شـــهده كبار التجار والاعيان ورؤســـاء العشائر من الاقاليم ...

ومن أهم ما امتاز به هذا الاجتماع التاريخى العظيم هو تمثيل الاسر المصرية الكبرى فيه من معظم مديريات مصر صعيدها وريفها (١)

فقد شهده من كل اقليم عدد من كبار العمد كانوا هم فى الوقت نفسه عمداء أسرهم وكبراء الجهات التى ينتمون اليها ، وبذلك كانت مصر كلها ممثلة فى هـــذا المؤتمر الوطنى العظيم ...

وفى ذلك أبلغ رد على الذين يزعمون أن الحركة القومية فى مصر كانت فتنة عسكرية لم تؤيدها الامة المصرية فها هى ذى الامة المصرية بجميع طوائفها تقول قولها الفصل فى موقف من أعظم مواقف الثورة ، موقف الجهاد والذود عن كيان البلاد تحت راية زعيم الثورة أحمد عرابى باشا

وكان الاجتماع برئاسة حسين باشا الدرمللى وكيل

(١) لم يتخلف الا جرجا وقنا وأسوان لبعدها ولصعوبة المواصلات بعد أسيوط .

الداخلية ، وتولى قراءة المكاتبات الشيخ محمد عبده ، وقد تليت فى الاجتماع فتوى شرعية من المشايخ حسن العدوى ومحمد عليش ومحمد ابو العلا الخلفاوى مؤداها أن الخديو بانحيازه الى العدو المحارب لبلاده يعد مارقا عن الدين ..

ثم تداول المجتمعون فى الموقف الحربى وانتهوا الى قرار خطير اجمعوا عليه وذلك هو عدم الاعتراف بقرار الخديو الصادر بعزل عرابى باشا من نظارة الجهادية والبحرية ... وهكذا تأكدت لعرابى زعامة الامة ..

وهذا القرار الخطير فى الواقع مضافا الى فتوى مروق الخديو من الدين هو بمثابة خلع توفيق من منصبه ...

وسأل يعقوب سامى باشا أعضاء المجلس قائلا : « حيث قرر هذا المجلس المحترم عدم عزل عرابى باشا من نظارة الجهادية والبحرية ورأى لزوم بقائه فى الوظيفة فأرجو من المجلس أن يرى رأيه فى أوامر الخديو التى تصدر لى من جنابه ، وكذلك ما يصدر من حضرات نظاره المقيمين معه هل يلزمنى قبولها وتنفيذها أم لا ؟ »

وتداولت الجمعية فى هذا وأصدرت القرار الآتى : « بعد تلاوة الاوامر الصادرة من الخديو أولا وآخرا ، وفيها الامر الصادر بعزل أحمد عرابى باشا ... وتلاوة منشورات عرابى باشا ، وبعد سماعنا ما عرضه وكيل الجهادية (بصفة هذه الوظيفة وكونه رئيس المجلس المشكل لادارة اشغال الحكومة) على المجلس وهو هل وجود الخديو فى الاسكندرية هو ونظاره تحت محافظة عساكر الانجليز يقتضي عدم تنفيذ أوامره أم لا ، واذا صدرت له اوامر من الخديو هل يعمل بها أم لا ، رأينا أن وجود العساكر فى الاسكندرية والسفن الانجليزية فى السواحل المصرية ، ووقوف عرابى باشا بمدافعة العدو يقتضى

وجوب بقاء الباشا المشار اليه فى نظارة الجهادية والبحرية مداوما على قيادة العساكر ومتبعا فى أوامره المتعلقة بالعسكرية وعدم انفصاله من تلك الوظيفة، ورأينا وجوب توقيف أوامر الخديو وما يصدر من نظاره الموجودين معه كائنة ما كانت لاى جهة من الجهات وعدم تنفيذها حيث أن الخديو خرج عن قواعد الشرع الشريف والقانون المنيف ، ويلزم عرض قرارنا هذا على الاعتاب العالية الشاهانية بواسطة وكلاء النظارات » (١)

أما المجلس العرفى برئاسة يعقوب سامى باشا فكان هو الذى يتولى شئون الادارة العامة فى البلاد وكان أشبه بمجلس الوزراء وقد أدى المجلس واجبه على خير مايرجى من الهمة والوطنية ، ومن أهم قراراته ، وضع الرقابة على الصحف والتلغراف ، ومنع السفر الى الخارج ما دامت الحرب قائمة ...

وكان الفيضان عاليا فى تلك السنة فبذل المجلس همة عالية فى حراسة ضفاف النيل حتى لا يدهم البلاد خطر الغرق فى وقت الحرب ...

هذا الى ما أمد به الجيش فى خطوط الدفاع بالذخيرة والرجال والعتاد فى نشاط وحمية واخلاص ، وما اظهره من كفاءة فى حفظ الامن والنظام داخل البلاد ...

***

وكان نفوذ الخديو لا يعدو الاسكندرية ، بل انه فى الواقع لم يكن له شىء من النفوذ هناك ، فقد كان الامر كله للانجليز ، ولم يعد الخديو الا اسما يستترون خلفه ويصدرون قراراتهم وأوامرهم منسوبة اليه ...

ونشط السير بوشامب سيمور كما زعم فى المحافظة على النظام والقضاء على الفوضى حتى لقد عاقب ثلاثة

(١) الوقائع المصرية ٣١ يوليو سنة ١٨٨٢

من الوطنيين وواحدا من اليونانيين بالقتل رميا بالرصاص بتهمة اثارة الفوضى، ولكن فاته أن يؤدب جنوده الانجليز الذين يستعين بهم على اقرار النظام والذين جاءوا مصر للقضاء على عرابى واصحابه من العصـاه ، فقد سرق هؤلاء الانجليز قصر الخديو بالرمل وانطبق عليهم بذلك المثل القائل : « حاميها حراميها »

أبرق كارتريت الى جرانفل فى السادس والعشرين من يوليو يقول : « تلقى الخديو كتابا من الرمل بالامس فيه أن جندا بريطانيين اقتحموا قصر سموه وعاثوا فى أنحائه للسرقة ، وقد توجه الى هناك فورا الميجورجنرال سير ا. اليسون الذى أخبر بهذا الحادث لتحقيق المسألة... وقد أخبرنى صـباح اليوم الميجور اردغ الذى رافق الجنرال أنه يعتقد أن القصة لا أساس لها ، وظهر أن مدخلا فتح خلال شباك فى الطابق الاسفل وقد أفرغت محتويات الصناديق والصواوين جميعا ، ولـكن ليس هناك من ريب فى أن هذا عمل بضع ساعات وأنه وقع قبل وصول فرقنا » (١)

وانظر الى هؤلاء الانجليـز كيف يهونون الامر هنـا وينفونه عن جنودهم بنفس الاسلوب الذى يتبعونه حين يهولون ويسرفون فى محاولة الصاق تهمة لا دليل عليها بالمصريين ، وبعرابى بوجه خاص ...

وتولى رئاسة البوليس فى الاسكندرية شارلز برسفورد، وقد أذن للتجار فتح دكاكينهم ليلا ، كما حتم على كل شخص يسير بالليل أن يحمل مصباحا والا قبض عليه ، وذلك ريثما تعود شركة الغاز الى عملها ...

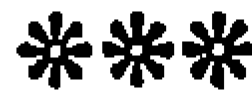
واخذت الحياة تعود الى المدينة شيئا فشيئا ، وبذل البوليس جهدا كبيرا فى ازالة الانقاض ودفن جثث القتلى،

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٢١

ولم ينته شهر يوليو حتى اضيئت المدينـة بالغاز كما كانت وفتحت القنصليات أبوابها ...

على ان أشد ما خوف الانجليز والاجانب عموما هو تناقص الماء الآتى من ترعة المحمودية ، فقد سدها الجيش بالقرب من جهة كنج عثمان ، ولذلك أصـدر البوليس بطاقات لتوزيع الماء من الصهـاريج حسب الحاجة ، ويتبين مبلغ خوف الانجليز من سد الترعة فى برقيـة ارسلها كارتريت بهذا الشـأن فى العشرين من يوليو ، يقول فيها : ان ذلك سوف يؤدى الى هجرة الوطنيين الى داخل البلاد والى التجاء الاوربيين للسفن ليشربوا من ماء الاسطول ... وكذلك ابرقسيمور يبدى تخوفه من هذا العمل ، ولعلهما بذلك كانا يستحثان حكومتهما لاعداد الحملة على مصر ...



واما تركيا فقد ظلت على حالها من التلكؤ والتردد ، ولم تصدر شيئا بشأن توفيق ولا بشأن عرابى ، على أن درويش باشا الذى غادر مصر خفية فى اليوم التاسع عشر من يوليو ، قد أعرب عن استيائه من موقف الخديو حتى من قبل أن ينضم صراحة الى الانجليز ، وذلك فيما أرسله الى كارتريت فى اليوم العاشر من يوليو ردا على تحميله تبعة سلامة الخديو فقد قال درويش بعد أن استعرض قضية الضرب كلها فى صراحـة وقوة واظهر تعسف الانجليز وتنكبهم طريق الصواب « أما عن دعوتك اياى أن أعمل بكل ما فى قوتى على ضمان سلامة سمو الخديو فيجب على أن الاحظ أنه ليس من سلامة المنطق أن يفرق بين الذات الفخمة ، ذات سمو توفيق باشا ، وبين حكومته ، وانه من الامور الطبيعية أن يشغل الخديو

نفسه بضمان أمن البلاد التى يحكمها وسلامتها اكثر مما يشتغل بما يهم شخصه » (١) .

***

وقبل أن نختم هذا الفصل نشير الى خدعة ثانية أراد بها الخديو أن يتصيد بها عرابيا أو يبث فى صفوفه التردد والانقسام ، وذلك أنه أرسل اليه على لسان على مبارك باشا أحد أعضاء الوفد الذى أرسلته الجمعية العمومية الى الاسكندرية عقب اجتماعها الاول يقترح تأليف لجنة للصلح ممن ينتدبهم عرابى من رؤساء الجند لتنضم اليهم لجنة أخرى من الاعيان ...

وكانت خطوة على مبارك باشا خدعة لاريب فيها ، وان ذهب بعض المؤرخين الى أنها كانت رغبة منه فى اصلاح ذات البين ، بل انا لنقول فى غير اسراف أن عمله بالنسبة الى عرابى وأصحابه من قادة الثورة القومية يعد ضربا من الخيانة ، وانا لنشعر بعظيم الاسف اذ نثبت هذا عن رجل له جلائل أعماله وله مكانته فى نهضة مصر الحديثة ، ولكن الحق فوق كل اعتبار ، وحسبنا أن نورد ما يأتى من الادلة على سوء ما فعل ...

أبرق كارتريت الى جرانفل فى الرابع والعشرين من يوليو يقول : « أتشرف بابلاغكم أن على مبارك باشا وزير الاشغال السابق فى وزارة رياض نجح فى الوصول الى الاسكندرية من القاهرة ، كان يسود الهدوء فى القاهرة وقت مغادرته اياها ، ولكن هناك قدرا من القلق بين الناس . وعند كفر الدوار رأى عرابيا باشا وهو يصف وصفا حيا ما رأى هناك من الامور . أعلنت الحرب المقدسة ، بتأثير الشيوخ . ويأتى اليه اعداد كبيرة من

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ١٧٥

المتطوعين القرويين ، ويوزع السلاح على القادمين ويبلغ المجموع الكلى للقوات الآن ٣٠٫٠٠٠ رجل ، وتتوفر لديه الاقوات والخيل ، ويقول ضباط عرابى : ان رغبـــة انجلترا هي طرد عرابى باشا نفسه وتسريح الجيش ، وتكوين فرق أجنبية أو تركية تحل محله ولكن هذا لن يكون ... ويقول على باشـــا مبارك : ان العلاقات بين عرابى والبدو ليست متينة ، وقد علمت من مصـــدر آخر أن البدو اعتزلوا معسكره كلية » .

وأبرق كارتريت بعد ذلك بيوم يقول : « ايماء الى رسالتي بالامس بشأن التقارير التى تلقيناها من القاهرة وكفر الدوار ، أبلغكم أن على مبارك باشا الذى جاء بها زار سير ا.كلفن صباح اليوم ، وأفهمه أن عرابى باشا وطلبة باشا يترددان فى الواقع فى السير فى الطريق التى يسلكانها الآن ... بل لقد استحثاه بصفة شخصية أن يجس نبض الانجليز بشأن شروط للصلح . وقد أجاب سير ا.كلفن بأنه لايملك عمل شيء ، وأنه يصح أن يذهب على باشا مبارك الى الادميرال السير بوشامب سيمور ، ولكن الامر على كل حال بيد المؤتمر ولايستطيع الادميرال أن يعمل الا عمل الوسيط ، وبعد سماع هذه التحفظات استمر على باشا مبارك فى كلامه فقرر ما يأتى : « انه يظن انه بعد أن يزال فى الحال السد من ترعة المحمودية كدليل على الاخلاص سوف يقترح العصاة على السير بوشامب سيمور أن يسرح الجيش وأن يعود الجميع الى مواطنهم ويكتفى بنفى القادة المحرضين . فقال السير ا. كلفن : ان كان ثمة من شروط تقترح ، فيجب الا يضيع شيء ما من الوقت لان قوات عظيمة تعد الان ، ولما كان كل مخرج ممكن من البلاد محاصرا فان خاتمة المحرضين قد فرغ منها ... وأضاف الى ذلك أنه اذا

ابتدا القتال فانهم سيسلكون الطريق التى رسموها ...

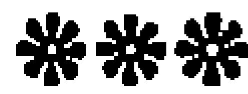
ورد على باشا مبارك فأفصح عما فى نفسه بالتحديد قائلا : ان معظم الضباط وفيهم طلبة يتلهفون الى ضمان سلامتهم ، وأنهم اذا نجحوا فى الحصول على شروط لانفسهم بانسحابهم عن عرابى ، فانه واشياعه الاقربين

مهما يبدو من اصرارهم سوف يضطرون فى عزلتهم الى طلب الصلح، ويعتقد انه بهذا يمكن بعثرة الجيش وبذلك تنتهى المقاومة ... وأكد له سير ا.كلفن ثانية أن كل مقاومة سوف لا تجدى ، وانه لايترتب علىاعمال التحطيم الا خراب مصر لانه لابد منفرضغرامة عليها ، وانصرف على باشا مبارك مصمما أن يتصل بطلبة باشا ، ولكن السير ا.كلفن كان حريصا فلم يذكر اى اقتراحات عما تكون عليه الشروط ولا عما عسى أن يتوقع اذا قبلت شروط من أى نوع ما ... وقد علم السير يوشامب سيمور بما حدث ، ومن الخير أن ترسل اليه بعض التعليمات ليهتدى بها فى حالة الضرورة »

ورد جرانفل فى نفس اليوم فقال : « تؤيد حكومة جلالة الملكة بقوة لغة السير ا. كلفن فى هذا الامر ، ولكنها ترى الا يشار الى شىء من هذا فى المؤتمر فى المرحلة الحالية . وحكومة جلالة الملكة على استعداد أن تنظر فى أى مقترحات من جانب عرابى على شرط أن يكون اساسها الاخلاص ، ولكن يجب أن يكون مفهوما بأنها لا تقبل الا الخضوع التام ... على أنه اذا نتحت ترعة المحمودية فسوف تعد هذه الخطوة من جانبه علامة على حسن مقاصده ، ولما كانت حكومة جلالة الملكة واثقة من ثبات السير ا.كلفن فانها تسند كثيرا من الامور الى حكمته . وفى الوقت نفسه فان حكومة جلالة الملكة لن تتراخى فى تدبيراتها الحربية . اتصل بالادميرال بشأن

موضوع هذه الرسالة » (١) .

هذا ما صنعه على باشا مبارك الذى يؤسفنا اشد الاسف أن يكون مثله من دعاة التردد والهزيمة وأن يكون طليعة هؤلاء الذين سوف يكونون اشد خطرا على عرابى من أعدائه الانجليز ...



وعظمت دهشة عرابى أن يكون اقتراح الصلح على أساس قبول عرابى ماجاء فى المذكرة المشتركة الثانية التى استقالت بسببها وزارة البارودى ، ولذلك بادر برفض هذا الاقتراح السخيف معلنا انه لا يجوز تأليف لجان بعد قرار الجمعية العمومية

وأذاع عرابى من فوره بلاغا الى داخل البلاد حتى لا تثمر هذه الخدعة ثمرتها من الانقسام والتخاذل وذلك اذ يعلم الجيش وتعلم البلاد أن عرابى يطلب الصلح وقد جاء فى هذا البلاغ أن الخديو انضم الى الانجليز فلا طاعة له على الناس واختتم بلاغه بقوله : « وها نحن بجيشنا المظفر المنصور فى مراكز الحرب قد بعنا أنفسنا فى حياة بلادنا وحفظها من الاعداء ولا يردنا عن ذلك الا الظفر والنصر أو ارتحال العدو من مياه الاسكندرية بأساطيله ورجاله والا فاننا نقابل القوة بمثلها ولا نسلم البلاد لاحد وفيها ذو روح يتنفس والله يؤيد بنصره من يشاء» (٢) .

وكان يقرأ الناس هذا البلاغ فيرددون كلمتهم التى ألفوها والتى صارت شعار البلد كله : « الله ينصرك يا عرابى » .

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١٣
(٢) الوقائع المصرية ٢٥ يوليو سنة ١٨٨٢

كفر الدوار

رابط عرابى عند كفر الدوار ، وهذا المكان هو مايعرف فى الثورة باسم الميدان الغربى ، ولقد اختاره عرابى عند انسحاب الحامية من الاسكندرية ، كما ذكر محمود فهمى باشا فى محضر استجوابه ، وكما ذكر عرابى فى التقرير الذى كتبه لمحاميه وهو فى سجنه ، قال محمود فهمى باشا : « توجهنا الى كفر الدوار ... وطلعنا الى المحطه ومنها الى كنج عثمان وتقابل معنا حسن بك ابن كنج عثمان فوجدنا هناك تلا قديما ، فسأل عرابى عن اسم هذا التل فقال له حسن بك : اسمه تل الناصر ، فالتفت الى عرابى وقال : ان ابتداء استحكاماتنا يكون هنـا . وامرنى بانشاء استحكامات وحرر بطلب العساكر وطلب الانفار للعملية »

وقال عرابى : « وجرت مناقشة فيما عسى أن نفعل اذا عاد الادميرال الضرب ؟ والى أى مكان ينسحب الجيش اذا اضطررنا لاخلاء المدينة ؟ وسمحت لمحمود باشا فهمى وخليل بك كامل أن يذهبا الى المحمودية ويفحصا الجهة ابتداء من حجر النواتية الى كفر الدوار ويضعا رسما للموضع الذى يريانه أليق من غيره » (٢)

How We Defended Orabi p. 269. (1)

وقال فى مكان آخر : « امرت قوادهم أن يتجهوا بفرقهم صوب ترعة المحمودية ... وعند الغروب بلغت جسر السكة الحديد الذى يعبر الترعة وهنالك وراء الجسر مباشرة اخترت مكان المعسكر ، وتوافد الجند من الاسكندرية والرمل أثناء الليل ، وكانت الساعة الثانية صباحا حين وصل الجند الذين تركتهم بالاسكندرية فقد تأخروا بسبب الزحام الشديد من الناس والدواب والعربات فى الطريق... وفى الصباح وجدنا أن معسكرنا معرض للضرب من السفن فانتقلنا مبتعدين بجنودنا الى مكان يسمى عزبة خورشيد على بعد نحو خمسة آلاف متر من محطة الملاحة » (١)

ويعزو بلنت اختيار هذا الموضع الى محمود فهمى باشا ويصف المكان فى قوله : « وكان الفضل فى اختيار هذا المكان المنيع الواقع على الخط الحديدى الى القاهرة والذى تكتنفه من الجهتين بحيرة مريوط الضحلة وبعض المناقع راجعا فيما أعتقد الى مهارة محمود فهمى الهندسية ، ولم يكن فى وسع عرابى أن يصنع خيرا من اتخاذه هذا المكان مستقرا لمعسكره الجديد ، لقد كان بعيدا البعد الكافى عن مدافع سيمور ، ولم يكن يستطيع جيش مهاجم أن يبلغه الا عن الطريق الضيق الذى مهده خط السكة الحديد. وبهذا لم يكن يمكن اقتحامه من جهة الاسكندرية فى حين أنه من جهة الارض كانت الدلتا مفتوحة للجيش بامداداتها التى لا تكل ، وكان الجيش حر الاتصال بالقاهرة . وهنا استطاع الجيش المصرى أن يثبت أمام الانجليز بنجاح نحو خمسة أسابيع ، يصد كل الهجمات بل يدفع العدو بهجمات مضادة الى ما يقرب من أبواب الاسكندرية ، ولو لم يكن هنالك باب آخر لدخول مصر

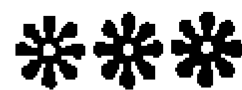
(١) المرجع السالف ص ١٢٩

لخير كفر الدوار لظفرت الحركة القومية بالنجاح » (١) .

وقال عرابى فى مذكراته المخطوطة : « ان الاستحكامات فى كفر الدوار كانت تمتد من عزبة خورشيد الى كفر الدوار ، وأنشأوا فى كفر الدوار استحكامات من ترعة المحمودية الى الملاحة وحفروا خندقا عرضه أربعة أمتار ، وجعل خط الدفاع فى المقدمة عند عزبة خورشيد على طول الخط من المحمودية الى الملاحة ، وجعل ما وراء هذا الخط من التلال والمرتفعات مواقع حصينة ركبت فيها مدافع كروب ، وكذلك التلال الكائنة بين المحمودية وسد أبو قير .. وقد تم اجراء هذه الاعمال الدفاعية بمعرفة المهندس الحربى العظيم محمود باشا فهمى ورجال الهندسة الحربيين ومساعدة خمسة آلاف رجل من الاهالى من مديريات البحيرة والغربية والمنوفية » .

وممن كان لهم عظيم فضل فى بناء هذه الاستحكامات الميرالاى محمد بك شكرى أحد الضباط المصريين النابهين فى أركان حرب الجيش المصرى

وكانت خطوط الدفاع فى هذا الميدان ثلاثة ، يبعد كل واحد عن الذى يليه بأربعة آلاف أو خمسة آلاف متر ، وكان بين كل خطين خندق عمقه ١٥ قدما ، وبنيت على جميع المرتفعات الصالحة قلاع وضع فيها نحو ٥٠ مدفعا



وأقام عرابى خيمته عند كنج عثمان ، وكان يفد اليه فيها غير ضباطه وأركان حربه ، الاعيان والعلماء وكبار التجار وغيرهم من ذوى المكانة والجاه ، وكانت خيمة فخمة هائلة وحسبك أنها خيمة سعيد باشا نفسه ، تفضلت أرملته فقدمتها الى عرابى هدية قومية مشفوعة

S. H. Blunt, p. 389. (1)

بأصدق امانيها أن يؤيده الله بنصره (١)

وكانت مصر كلها حينذاك فى قبضة عرابى ، تدين له طوعا لا كرها ، شعارها : « الله ينصرك ياعرابى» . لان انتصار عرابى كان فى نظر الامةخلاصها من جشع الاجانب ومن استبداد الترك والشراكسة .

واستجابت الامة لا بالدعاء فحسب ، لهذا الفلاح من ابنائها الذى يقف موقف الشرف والكرامة ، وأمدته بسخاء بما طلب من مال وعتاد ورجال

وقل أن نجد فى تاريخ الحروب حربا كهذه الحرب التى لم ينفق فيها قرش واحد من خزانة الدولة ، والتى قامت على ما بذل الشعب طائعا من أقواته وأمواله ودمه

وان المرء ليتملكه شعور الاعجاب والفخار تلقاء هذه الصفحة المشرقة التى هى بحق أنصع صفحة فى تاريخ هذه الحرب ، والتى نسوقها دليلا جديدا على قوة روح هذه الامة وكرم عنصرها ، وعلى أن ثورتها القومية كانت منبعثة من أعماق القرى ، وانها كانت تهز مشاعر أبنائها هزا ، وتنفض عنهم سبات القرون الطويلة .

هؤلاء فلاحون يعملون فى خطوط الدفاع ، الى جانب جند فلاحين من اخوانهم ، يقودهم مثلهم فلاحون ، وجميعهم تحت امرة فلاح مثلهم من قرية صغيرة ، ولم يكن أبوه من الباشوات ولا كان يفتخر بنسب شركسى أو تركى ، وانما كان هو محمد عرابى شيخ بلدة هرية رزنة

وكان هؤلاء الفلاحون يدافعون عن مبدأ استشعرته أنفسهم وان لم يدرك أكثرهم كنهه كما يدرك المتعلمون منهم والمثقفون ، وكانوا فى حملتهم اشبه حالا بأبناء فرنسا أيام ثورتها الكبرى فالبذل والتطوع كان قوام الحركتين، ولكن ثوار فرنسا كان وراءهم تاريخ طويل من المعرفة

---

(1) S. H. Blunt p. 39.

والثقافة ، فى حين لم يكن وراء ثوار مصر الا ما عانوه وما عاناه آباؤهم وأجدادهم زمنا طويلا من الجهل والمذلة على ان ذلك لن يضير المصريين شيئا ، بل انه ليحسب لهم لا عليهم ، فحسبهم ان يعفوا وقفتهم هذه ونهضتهم بنت الامس ...

وقال الشيخ محمد عبده فى تقريره الذى كتبه لمستر برودلى وهو بالسجن : « هل يقدر احد أن يشك فى كون جهادنا وطنيا صرفا بعد أن ازره رجال من جميع الاجناس والاديان ؟ فكان يتألب المسلمون والاقباط والاسرائيليون لنجدته بحماس غريب ، وبكل ما أوتوه من حول وقوة لاعتقادهم أنها حرب بين المصريين والانجليز... انى لم أعلم انه قيل ان الخديو كان يحارب جيشه ، بل المعروف عند الناس ان الحرب وقعت برضاه وبامره ، وقد رسخ هذا الاعتقاد عندما علم الناس أنه أقال عرابى من منصبه لانه لم ينفذ أمره بالاستمرار على المقاومة وتحصين بعض المراكز أتقاء لنزول غزاة من البحر ...

وفى أثناء ذلك طفق العلماء يقرأون البخارى فى الازهر ومسجد سيدنا الحسين، ويدعون بالنصر لعساكر عرابى والهزيمة للانجليز ، وكان أمام الخديو الشيخ الصالح العالم الابيارى فى طليعة الملتهبين غيرة ووطنيه ، فنشر قصيدة ابراهيم دريد فى غارة التتار على بغداد فى أيام الخليفة العباسى المعتصم ، وهى عبارة عن دعاء وابتهال وقد أضاف اليها أبياتا من نظمه فكان من الناس من يقرأها ويتلوها بعد قراءة البخارى ...

وقد تبرع الامراء والاعيان والعلماء وسائر أفراد الحاشية الخديوية ، حتى النساء ، بالخيل والحبوب والنقود والميرة اللازمة للجيش ، وأظهر المديرون والموظفون على اختلاف طبقاتهم والكتبة غيرة وحمية فى جمع الميرة

المطلوبة وحشد المتطوعين للجيش ولسائر الاشغال العسكرية ...

وقد رايت الناس من فلاحين وبدو ذاهبين الى الحرب برضاهم واختيارهم متشوقين لقتال الانجليز وقد شمل هذا الحماس الاقباط وكان يشجعهم على ذلك رؤساؤهم وكان شبان القاهرة يمرحون فى المدينة ليلا يتغنون بمديح عرابى ، وفى أى اجتماع ذكرت فيه الحرب كان الناس يدعون الله طالبين النصر لجيوشنا » (١) .

وقال نينيه : « كانت ترد كل يوم الى كفر الدوار امانات الشعب من المال والقمح والشعير والبقول والسمن والخضر والفاكهة والخيل والماشية ، وقد أبدى أعيان الوجهين البحرى والقبلى شهامة عظيمة فى امداد الجيش، وفى مقدمتهم أحمد باشا المنشاوى زعيم طنطا الوطنى ، الذى أنقذ من الموت فى حوادث ١٣ و ١٤ يوليو عددا من المسيحيين واليهود ، وقد بدا من الاهالى ما يدل على شدة تعلقهم بالدفاع عن وطنهم وظهروا بمظهر الشرف»(٢)

وقال عرابى فى مذكراته المخطوطة تحت عنوان : «كرم المصريين وسخاؤهم » . قامت هذه الحرب الشعواء وليس فى خزانة الحكومة درهم لان المراقب الانجليزى المستر كلفن أخذ الاموال من خزينة المالية . وأنزلها فى الدونمة الانجليزية قبل اعلان الحرب بأيام ، وكذلك الاموال الموجودة فى صندوق الدين العمومى وقد حملها أعضاء قومسيون الصندوق الى السفن الحربية حيث أمنوا عليها ...

وبناء على ذلك أرسل المجلس العام الى المديريات

---

(١) ورد هذا التعريب لكلام الاستاذ فى كتاب الشيخ رشيد رضا وقد راجعناه على الاصل الانجليزى

(٢) « عرابى باشا » ص ٢١٦

بتحصيل الاموال من الاهالى عشرة قروش عن كل فدان ، ومن شاء أن يتبرع بشيء اعانة للجند المجاهدين فى سبيل الدفاع عن الوطن وحفظ الكرامة والشرف يقبل منه مع اعلان الشكر ...

ولما أعلن ذلك للعموم جادت الامة على اختلاف طبقاتها بالمال والغلال والخيل والجمال والابقار والجاموس والاغنام والفاكهة والخضروات ، حتى حطب الحريق..

وقد تبرع موسى بك مزار الرجل الوطنى بـ ١٣٠٠ ثوب من البفتة و٣٠ عجل بقر عن طيب خاطر ، ووالدة الخديو اسماعيل تبرعت بجميع خيول عرباتها وجاراها فى هذا المضمار باقى أفراد العائلة الخديوية ، وكذلك حرم خيرى باشا رئيس الديوان الخديوى وحرم رياض باشا وكثير غيرهم من الذوات رجالا ونساء ، كل ذلك فضلا عما مدوا به الجيش من الاقمشة والاربطة اللازمة لتضميد جروح الجند وغيرهم .وتبرع بعض الاهالى بنصف مايملكونه من الغلال والماشية ومنهم من خرج عن جميع مقتنياته ، ومنهم من عرض أولاده للدفاع عن الوطن لعدم قدرته على الدفاع بنفسه ، وبالجمله فان الامة المصرية عن بكرة ابيها قدمت من التبرعات واظهرت من النخوة والغيرة ما لم يسبق له عهد فى القرون الماضية ، أسال الله سبحانه وتعالى أن يجزى الامة خير الجزاء وأن يرد لها حريتها واستقلالها » (١)

وجاء فى كتاب أرسله عرابى من منفاه الى صابونجى فى يوليو سنة ١٨٨٣ ، قوله : « ارجو ان تذكر صديقنا المستر بلنت ، فضلا عما كتبناه اليه بتاريخ ١٥ الحالى أن جميع النفقات التى لزمت لمائة ألف جندى مصرى

---

(١) فرغ المرحوم عرابى باشا من كتابة هذه المذكرات سنة ١٩١٠ اى قبل وفاته بسنة ، جعل الله الجنة مثواه .

أثناء الحرب كانت كلها تبرعات من الامة المصرية بغير تمييز بين العقائد . فقد بدأت الحرب ولم يكن هناك اكثر من عشرة آلاف جندى تحت السلاح ، ولا أكثر من ألف ومائتى حلة عسكرية فى المخازن ، وحتى هذه لم تكن كاملة ، ولم يكن لدينا أكثر من ألف وخمسمائة عدل من الحبوب ، ولكنه عند نهاية الحرب كان لدينا فى مستودعات الجيش وفى المديريات المختلفة والمخازن ما يزيد قيمته على مليون من الجنيهات من المال والمنتجات الزراعية والبقر والجاموس والغنم والاقمشة ، وكل ذلك قدم هدايا من الامة لجيشها المدافع عن وطنها ... ولم ينفق على الجيش أثناء القتال درهم واحد من خزانة الحكومة » (١)

وتجلت حماسة الامة للثورة وللحرب فيما ألقاه نفر من أبنائها من الخطب وما كتبوه من المقالات وما نظموه من الشعر وكلها ناطقة بنضج هؤلاء وحرصهم على الحرية والدستور ونفورهم من الاستبداد والعبودية ، وان الذى يقرأ ذلك ليوقن انه حيال حركة صادقة قوية جديرة بكل ثناء واعجاب ، ولو اتسع المجال لاوردنا طائفة منها ، فلنكتف بذكر أسماء نفر من أصحابها ، وقد كان فى مقدمة هؤلاء عبد الله نديم خطيب الثورة وكاتبها الاشهر وصاحب جريدة «الطائف» لسان حال الثورة ومرآتها ، والشيخ محمد عبده أحد أفذاذ الحركة الاعلام والاستاذ الشاعر الشيخ أحمد عبد الغنى من علماء الازهر والشيخ على المليجى والشيخ محمود ابراهيم خطيبا أسيوط ، والشيخ محمد أبو الفضل خطيب مسجد الحنفى ، والشيخ حميدة الدمنهورى والشيخ عبد الوهاب أبو عسكر والشيخ محمد فتح الله والملازم على أفندى غالب

(1) S. H. Blunt p. 541

والشيخ أحمد سيف البارى وغيرهم من الخطباء ورجال القلم ...

***

وكان جيش مصر العامل تحت السلاح عند بدء الحرب لايزيد عن عشرة آلاف كما ذكر عرابى ولعل عرابى يقصد القوات التى كانت فى كفر الدوار، فقد ذكر الشيخ محمد عبده فى مذكراته احصاء عدد الجيش فقال : « كان الجيش مؤلفا من ٨٠٠٠ منظمة مع ٨٠ مدفعا من كروب ، وكان يوجد فى أبى قير ثلاثة آلاف وخمسمائة ، وألفان وخمسمائة فى رشيد وخمسة آلاف فى دمياط ، المجموع احد عشر ألفا ، أما الخيالة فلم يكن لهم وجود الا قايلا » (١)

واحصاء الشيخ محمد عبده قريب من احصاء عرابى لانه كان يقصد بالثمانية آلاف التى ذكرها أولا الجيش القائم فى كفر الدوار ، فاذا أضيفت هذه الى تلك الآلاف الاحدى عشرة الموزعة على النحو الذى ذكر كان الجيش فى مجموعة نحو تسعة عشر ألفا .

ويقول بلنت : ان الجيش المصرى لم يكن يزيد عن ثلاثة عشر ألفا من الجنود النظامية كان منهم ثمانية آلاف فى كفر الدوار ...

وذكر نينيه أن الجيش النظامى لم يكن يزيد عن تسعة عشر ألفا ، كان منهم ثمانية آلاف فى كفر الدوار، وثلاثة آلاف وخمسمائة فى أبى قير والفان وخمسمائة فى رشيد وخمسة آلاف فى دمياط ، ويتفق هذا الاحصاء مع ما ذكره الشيخ محمد عبده

أما الصحف الانجليزية فقد بالغت فى عدد الجيش ،

(١) تاريخ الاستاذ الامام ص ٢٥٥

حتى كانت ترتفع بهذا العدد احيانا الى ما يقرب من خمسين الفا ...

وانضمت الى الجيش النظامى اعداد من المتطوعين لم يتوصل الى حصرهم ، ولعل هذا هو السبب في اختلاف الآراء فى احصاء عدد الجيش المصرى وقت القتال ، والواقع أن المتطوعين كانوا أضعاف النظاميين وقد وزعوا على اعمال مختلفة تتصل بالجهاد ...

وقد عين عرابى باشا محمود فهمى باشا رئيسا لهيئة اركان حرب الجيش المصرى عقب ضرب الاسكندرية ، وكان محمود باشا فهمى من أكفأ رجال الهندسة الحربية فى مصر ، وقد تخرج فى مدرسة المهندسخانة ببولاق ، ونبغ فى الفنون الهندسية أثناء التحاقه بالجيش المصرى ، ثم عين أستاذا لعلم بناء الاستحكامات والفنون العسكرية فى المدارس الحربية فى عهدى سعيد واسماعيل باشا ، وقد عهد اليه بتحصين الشواطىء المصرية الشمالية ، فاكسبه ذلك خبرة عمليـة ، كما أنه اشترك فى حرب البلقان التى نشبت بين تركيا وروسيا سنة ١٨٧٦ ، فاكتسب مرانا وخبرة ...

وقد وضع محمود فهمى باشا خطة حكيمة للدفاع عن مصر كانت كفيلة بأن تصد الانجليز وتنقذ مصر من تدبيرهم وسوء مكرهم ، وسنرى مبلغ ما دخل على هذه الخطة من عوامل أضعفتها واحبطتها فى النهاية ...

عين محمود باشـا خمسة مواقع رئيسية للدفاع ، اولها فى كفر الدوار ، وثانيها فى رشيد ، وثالثها بين رشيد وبحيرة البرلس ، ورابعها فى دمياط ، وخامسها فى الصالحية والتل الكبير ، وكان الغرض من هذا الاخير صد هجوم الانجليز من ناحية قناة السويس

وقد سد محمود باشا ترعة المحمودية بالقرب من كنج

عثمان ووضع المدافع على السد لحمايته ، كما اشار بسد ترعة الاسماعيلية لمنع المياه العذبة عن الاسماعيلية والسويس وبورسعيد ، وبسد قناة السويس نفسها لمنع اتخاذها قاعدة عسكرية للانجليز ...

أما القيادة فقد عين طلبة عصمت باشا قائدا لفرقة كفر الدوار تحت امرة عرابى ، وخورشيد باشا طاهر على رشيد وأبى قير ، وعلى باشا الروبى على مريوط وعبد العال باشا حلمى على دمياط ومحمود باشا سامى البارودى على الصالحية ، والفريق راشد باشا حسنى لخطوط الدفاع فى الميدان الشرقى .

وبعد .. فهذه أمة ممثلة فى مؤتمر وطني وقد نهضت نهضتها بالامس القريب ، وهذا جيش أمة يقوم على تطوع أبنائها ، وهذا قائد أمة يذود عنها فى وجه انجلترا صاحبة الامبراطورية العظمى ، ومالكة الاساطيل الضخمة ، وذات النفوذ السياسى العظيم ..

وقد واتت انجلترا الفرصة لتحقيق حلمها الذى ساورها منذ اخراج حملة نابليون من مصر، والذى بدده محمد على سنة ١٨٠٧ حين أجبر فريزر على الانسحاب بعد أن أحبط كيده وقد كان يمنى نفسه أن ينضم اليه بعض زعماء المماليك كما ينضم الخديو الى سيمور اليوم ... والذى عاد يغازل خيالها حين فتحت قناة السويس وصار فيها النفوذ لفرنسا ، والذى باتت منه اليوم على قيد خطوات بعد ضرب الاسكندرية واحتلالها ...

ونحب من الذين لا يزالون ينكرون الحرب على عرابى أن ينظروا فى هذا الذى نقول ، وان يذكروا ما قدمناه فى صفحات هذا الكتاب من الادلة على أن نية انجلترا فى الاستيلاء على مصر كانت سابقة لعهد عرابى ، وأن يستعيدوا ما قلنا فى أكثر من موضع انه لو لم يوجد

عرابى لعمل الانجليز على خلقه ...

وليـذكر هؤلاء حقيقـة اخرى لا يخلق بمصرى أن يجهلهـا ، وهى ان الانجليز حاربوا الحركة القوميـة الدستورية فى مصر لانها قامت حين قامت فى أواخر عهد اسماعيل لتنقذ مصر من دسائسهم ومن شباكهم المالية ولانهم أيقنوا انهم لو تركوها وشانها استعصى عليهم بعد ذلك قمعها وضاعت فرصة اصطياد مصر من أيديهم !

ونظن أنه لم يعد فى مصر من يمارى فى هذه الحقائق، وعلى ذلك فمن لغو القول ومن تفاهة التفكير وسخفه أن يردد انسان فى مثل نغمة الصبية قول الجاهلين بحقيقة هذه الثورة القومية وحقيقة أطماع الانجليز فى مصر ، انه لولا عرابى وثورته ما دخل الانجليز مصر ...

ما سعى عرابى الى هذه الحرب ، ولكنه لمـا رأى أن انجلترا قد ساقت البلاد اليها بسياستها ، وأيقن أن الامر بات أمر كرامة وشرف ودفاع عن حرية يراد بها أن تخنق ، لم يجد بدا من خوض غمرتها كما ذكرنا فاما نصر يتحقق به كل شىء ، واما هزيمة تذهب بكل شىء الا الشرف والـكرامة ، ولم يكن ينتظر من وراء التسليم بلا قتال كما ذكر بلنت شىء يخالف ما حـدث فعلا بعد الحرب ، وعلى هذا فضلت مصر أن تقف موقف الكرامة ، وما حملها عرابى على هذا الموقف كرها وانما كان ممثل ارادتها وقائد ثورتها ..

وقد حاول عرابى ورجال الحزب الوطنى أكثر من مرة أن يقنعوا جلادستون بعدالة قضيتهم وبأن العدوان عليهم ليس طريق الصواب ، وكان سفيرهم فى هـذا السعى صديقهم مستر بلنت ، ولكن المسألة كما ذكرنا فى أكثر من موطن فى هذا التاريخ لم تكن مسألة اقناع وانما هى نية مبيتة ، والانجليز فى سبيل امبراطوريتهم

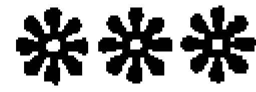
ومطامعهم الاستعمارية لا يبالون بشيء ...

وكانت آخر محاولة من عرابى فى هـذا السبيل ما أملاه على صابونجي ليرسله الى بلنت كى يحمله هذا الى جلادستون وكان ذلك فى اليوم الثانى من يوليو أى قبل العدوان الغادر على البلاد بتسعة أيام ... قال عرابى بعد أن أنذر بسوء ما يترتب على نية انجلترا فى الشرق الاسلامى كله : «لقد سمحت الحكومة الانجليزية لنفسها أن يخدعها وكلاؤها فكلفها ذلك مكانتها فى مصر. وستجد انجلترا نفسها أنها عملت بنصح أسوأ اذا حاولت أن تستعيد مافقدته بالقوة الوحشية ، قوة المدافع والحراب ... ومن الناحية الاخرى فان هناك وسائل انسانية ودية الى هذا الغرض ، ان مصر على استعداد بل انها لترغب فى أن تصل الى تفاهم مع انجلترا على أساس أن تكون صديقتها وأن تحمى مصالحها فىمصر كما تحمى طريقها الى الهند ، وتكون حليفتها ، ولكن يجب على انجلترا أن تظل فى حدود ما تخوله لها القوانين ، فاذا آثرت انجلترا أن تظل على انخداعها وأن تتباهى علينا وتهددنا بأساطيلها وفرقها الهندية فلها أن تختار ما تشاء ولكن على الا تقدر وطنية الشعب المصرى قدرا ينزل بها عن حقيقتها ، ان ممثليها لم يطلعوها على التغيير الذى طرأ علينا منذ أيام طغيان اسماعيل

وان الامم فى عصرنا هذا لتخطو خطوات مفاجئة هائلة فى طريق التقدم ، وجملة القول : انه ينبغى أن تكون انجلترا على يقين من اننا عقدنا العزم على أن نحارب ، وأن نموت شهداء أوطاننـا كما يقضى بذلك ما جاء به رسولنا أو ننتصر فنعيش سعداء مستقلين ، وان السعادة فى الحالين هى ما نوعد به ، وان أمة تؤمن بهذا لن يعرف

لشجاعتها حد » (١) .

واختارت انجلترا سبيل القوة وضرب أسطولها الاسكندرية واعتدت عدوانها الغادر على مصر والمؤتمر الدولي الذى انعقد فى الآستانة والذى قرر أن يكون للسلطان وحده حق التدخل فى مصر لايزال قائما لم ينفض ...



اختلقت انجلترا الظرف القاهر الذى اتخذته ذريعة لضرب الاسكندرية ، ثم فعلت ذلك فى غير تحرج من شناعة ما تفعل ، والآن بعد أن خطت الخطوة الاولى وأنزلت جنودها بالاسكندرية ، اتجهت سياستها الى اتمام ما بدأت وتحقيق حلمها القديم باحتلال مصر ...

وانحصر همها الآن فى أن تصل بسياستها الى أحد أمرين : أما أن تظفر من المؤتمر بتفويضها بدخول مصر وبذلك يلغى قراراته جميعا ، واما أن تفعل ذلك دون مبالاة بالمؤتمر كما فعلت حين ضربت الاسكندرية ...

وكان الخطر الذى زعمت أنه محدق بالاجانب هو الذى خوفت به المؤتمر بالامس فبماذا تخوف المؤتمر اليوم وقد رحل الاجانب عن داخل البلاد وبقى منهم من بقى بالاسكندرية ؟ ولكن هل يعدم الانجليز حيلة ؟ لقد راحوا يخوفون المؤتمر وينذرونه بويل جديد هو الخطر المحدق بقناة السويس ...

واحست انجلترا أن أمامها صخورا يجب أن تتجنبها فى حذق ويقظة ، فهى لا تأمن أن تراجع فرنسا نفسها فيما فعلت فتطرح حيادها ، وهى لا تأمن جانب الدول الاخرى كروسيا والمانيا والنمسا وايطاليا ، وهى

(١) S. H. Blunt p. 372

لا تستبعد ان توافق تركيا على الانضمام الى المؤتمر ، وقبول قراره الذى أصدره فى اليوم السادس من يوليو وارسال قوة تركية الى مصر بناء على هذا القرار ...

لذلك عادت انجلترا الى مراوغاتها ، وقد أعدت لكل أمر حسابه ، وسوف تعتمد هنا كذلك على سياسة الامر الواقع ، تلك السياسة التى نبغت فى اتباعها ، والتى تسبقها بمفاوضات ومراسلات تقصد بها الى التمويه ، ثم تباغت بالخطوة المبيتة ، كما تفعل سفنها اذ تثير الدخان من حولها ثم تضرب ضربتها ...

ماكاد يفرغ سيمور من ضرب الاسكندرية حتى ارسل جرانفل الى دوفرين بيانا مطولا ليفضى به الى زملائه ، وفيه تفصيل للحوادث التى ادت الى ضرب الاسكندرية واختتمه بقوله : « ان حكومة جلالة الملكة لا ترى الآن غير اتباع القوة للقضاء على حال لن تطيق بعد صبرا عليها ... وانها ترى أن أصلح وضع واقربه الى مبادىء القانون الدولى والعرف أن يكون الجيش الذى يؤدى هذا الفرض هو جيش الدولة صاحبة السيادة ، فاذا لم يتيسر ذلك لتردد السلطان صار من الضرورى النظر فى طرق أخرى ... ولا تزال حكومة جلالة الملكة عند رأيها الذى أبدته فى منشورها بتاريخ ١١ فبراير ومؤداه أن كل تدخل فى مصر يجب أن يكون مظهرا لارادة أوربا وتضامنها » (١) .

اذن ترى انجلترا الاستمرار فى الحرب ولكن ماذا تقصد « بالطرق الاخرى ؟ » ذلك ما سوف تتكشف عنه سياستها ، وهل تكون الطرق الاخرى غير انفرادها بدخول مصر كما انفردت بضرب الاسكندرية ؟

---

(١) مصر رقم ١٠ سنة ١٨٨٢ ص ١٧٣

وفي اليوم الخامس عشر من يوليو ، أي بعد ضرب الاسكندرية باربعة ايام اجتمع المؤتمر لاستئناف أعماله فبلغت المهزلة في تاريخه أقصى ما تبلغه ، ففي ذلك اليوم تلقى أعضاء المؤتمر اعتماد حكوماتهم للمذكرة المشتركة وارسلت الى تركيا الدعوة للاشتراك في المؤتمر وارسال جيش عثماني الى مصر تنفيذا لقراره ...

وتباطأ السلطان وتلكأ وصار يقدم رجلا ويؤخر اخرى حتى بعد أن وصلت الامور الى هذا الحد ، ويبدو أن انجلترا كانت واثقة من أن السلطان لن يقبل ما طلبت الدول ، فقد أبرق جرانفل الى دوفرين في اليوم التاسع عشر يطلب اليه اما أن يمهل السلطان اثنتى عشرة ساعة أو يشرع في البحث عن وسائل أخـــرى (١) . وأخيرا فاجأ السلطان المؤتمرين في اليوم التاسع عشر نفسه بأنه قبل الاشتراك في المؤتمـــر للمباحثة في اقرار الوسائل الـكفيلة باعادة الامور الى وضعها السليم !..

ولعل تركيا كانت تتوقع أن تؤيدها المانيـــا فتضـــع العراقيل في سبيل انجلترا ، اذ كانت المانيا منذ مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ تميل الى ملاينة تركيا واستدراجها الى جانبها تحقيقا لاطماعها في البلقان والشرق ، ولـكن بسمارك كان يرمي من جهة أخرى الى الايقاع بين انجلترا وفرنسا وذلك باطلاق يد انجلترا لتنفرد بالدخول في مصر فتثير بذلك فرنسا ، كما انه في الوقت نفسه كان يريد أن يوقع انجلترا وحدها في سوء عملها ليحاسبها على ذلك عند الضرورة ، ولهذا راى بسمارك أن يترك انجلترا وشأنها فلم يمنحها تفويضا كما فاوضته وساومته ولم يضع في وجهها العراقيل كما توقعت تركيا أن يفعل،

(١) مصر رقم ١٧ ص ١٧٥

ففي اليوم العشرين من يوليو أبرق دوفرين الى جرانفل خلاصة حديث جرى بينه وبين القائم بأعمال السفارة الالمانية فقال : « انه بعد انفضاض الاجتماع أعاد على وعلى السفير الفرنسي ، القائم بأعمال السفارة الالمانية ما سبق أنذكره فياليوم السالف ومؤداه أن دولالشمال لن ترضى بتفويض ما وأنه خير لنا أن نتقدم وحدنا من غير ابطاء ، وان كل انسان يقر أن التحفظ الذى أثبتناه باسم الظروف القاهرة يشمل كل ما نضطر الى عمله في مصر ، وقد حذا حذوه السفير النمسوى فى الاجتماع الاخير » (١) .

ولقد كان سفير النمسا أكثر صراحة من القائم بأعمال السفارة الالمانية وذلك أنه قال : « انه لا يعارض فى أن تعمل انجلترا أو فرنسا على شرط الا يفهم من ذلك أنها تعمل بتفويض من أوربا » (٢) .

ويبدو أنه لما يئست تركيا من المانيا وأحست ما كان بين مندوبها وبين دوفرين مالت أخيرا الى الاشتراك فى المؤتمر .

وكان عمل تركيا هذا خليقا أن يسبب ارتباكا شديدا للسياسة الانجليزية ، ولكن انجلترا سوف لا تبالى به ولن تعدم أن تخلق شروطا ومباحثات مع تركيا حتى تباغتها بالامر الواقع ...

ولم تنتظر انجلترا ماعسى ان يفعل المؤتمر ولا ماعسى أن تفعل تركيا ، فقد رأت فى موقف المانيا والنمسا ما يسهل لها عملها تسهيلا كبيرا .

ففياليوم الثاني والعشرين من يوليو شرحجلادستون سياسة الحكومة الانجليزية فى مجلس العموم حيال المسالة

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢١٦

(٢) ص ٢١٥٢

المصرية فأدلى بتصريح جلي وصل به الى وضع المؤتمر أمام الامر الواقع ، وواضح أنه كان يقصد به الى الرد على قبول تركيا دخول المؤتمر وتنفيذ قراره قال : «اننا نشعر أننا لم نؤد واجبنا اذا لم نحاول أن نغير الحال الداخلية القائمة فى مصر الآن من الفوضى والفتن الى السلام والنظام، وسوف ننظر فيما تبقى لدينا من وقت فى تعاون دول أوربا المتمدنة وايانا اذا كان سبيل ذلك التعاون مفتوحا أمامنا » ثم أضاف الى ذلك بين هتاف النواب واستحسانهم قوله : « فاذا أعيتنا جميع الوسائل المؤدية الى التعاون فان هذا العمل سوف تضطلع به انجلترا وحدها » (١) .

ولكن انجلترا لم تكن تريد أن تذهب فى معارضة تركيا الى حد اغضابها وذلك لانها كانت تدخرها لامر خطير ذلك هو أن يعلن السلطان عصيان عرابى فيذهب بذلك ما جاءه من مكانة فى نفوس الناس من ناحية أنه المدافع عن حقوق أمير المؤمنين ... لذلك سوف تعمد انجلترا الى المراوغة والمصانعة حتى تظفر بهذا التصريح الخطير ثم تدير ظهرها لتركيا آخر الامر فى غير مبالاة وفى غير هوادة ...

وهل يمنع انجلترا قبول تركيا تنفيذ قرار المؤتمر والاشتراك فيه عن اعداد حملتها على مصر والسير فيها الى نهاية الشوط ؟ كلا بل ان ذلك كان حافزا لها على سرعة البت لتضع تركيا وغيرها حيال الامر الواقع ...

وما كانت معارضة تركيا سياسة انجلترا لتغنى عنها شيئا ، وان انجلترا لتفهم ما بين الدول من تيارات خفية يصعب معها اجماع كلمتها على مناهضتها ، وتدرك مبلغ استعداد كل منها للتدخل الفعلى فى شئون مصر ...

M. E. Cromer p. 234 (1)

ومضت انجلترا فى سياستها ، ففى اليوم السابع والعشرين من يوليو وافق البرلمان على المبلغ اللازم للحملة وقدره ٢٣ مليونا من الجنيهات باغلبية ٢٧٥ عضوا تلقاء ١٩ من المعارضين ...

وأعد خمسة عشر ألفا من الرجال للسفر الى مالطة وقبرص وأمر بارسال خمسة آلاف من الهنود الى مصر وعين السير جارنت ولسلى قائدا عاما للحمله الانجليزية على مصر « ليقضى على ثورة عسكرية فى تلك البلاد ورغبة فى تأييد سلطة سمو الخديو كما قررتها الفرمانات السلطانية والعلاقات الدولية القائمة » .

وكانت انجلترا قد أخذت تعمل على وضع الصعاب فى وجه تركيا منذ ان ثبت لديها أنها قبلت قرار المؤتمر فأرسل جرانفل الى دوفرين فى الحادى والعشرين من الشهر يطلب الى السلطان : « فى عبارات مناسبة أنه بعد المراسلات التى جرت والتباطؤ الذى حدث ، لم يبق له من أمل به يستعيد ثقة حكومة جلالة الملكة الا أن يعلن فى الحال بلاغا فى صالح الخديو وفيه قرار بأن عرابى يعد من العصاة » (١)

وكانت انجلترا ترمى بذلك الى المراوغة كما ذكرنا ريثما تعد العدة لحملتها وتتبين سياسة الدول الاخرى ولعلها كذلك تظفر بهذا البلاغ الذى سوف تعيد الكرة للظفر به مهما كلفها ذلك من جهد ...

أما عن موقف فرنسا ، فكان يتحكم فى سياستها نحو المسألة المصرية عامل قوى ، وذلك أنها كانت لا تستطيع اغضاب انجلترا ، لان سياسة بسمارك كانت موجهة فى نشاط الى وضعها فى عزلة سياسية ، وكانت تدرك فرنسا بعد أن انضمت ايطاليا فى مايو سنة ١٨٨٢ الى

---

(١) مصر رقم ١٨ ص ١٨٧ .

التحالف بين ألمانيا والنمسا ، ان سياسة بسمارك فى طريقها الى النجاح ، وانه خير لفرنسا أن تحرص على مودة انجلترا وروسيا ، وهي لا تامن ان شاركت انجلترا فى حملتها على مصر أن يؤدى ذلك الى الخلاف بينهما ، كما انها بالضرورة لا تستطيع أن تقف منها موقف المعارضة لهذا الاعتبار . .

وكان بسمارك لا يفتأ يلاين انجلترا فى المسألة المصرية ليثير بذلك فرنسا علها تتدخل فيصيب بذلك غرضين : أن يجعل فرنسا فى وضع لا يبعد فيه أن ينشب الخلاف بينها وبين انجلترا ثم توزيع جزء من قواتها فى مصر وقد وزع جزء منها فى تونس منذ احتلتها فرنسا سنة ١٨٨١ لهذا انقسم الرأى العام فى فرنسا قسمين : فريق يرى التدخل فى شئون مصر ، وفريق يدعو الى عدم اثارة ما يمس التحالف بين انجلترا وفرنسا . . . على أن كلا الفريقين اتفقا على وجوب اتخاذ الوسائل الفعلية للدفاع عن قناة السويس بقطع النظر عن دخول مصر . وكان رئيس الوزارة المسيو فرسنيه يرى أن أسلم حل هو أن تتولى تركيا التدخل وفقا لقرار المؤتمر ، وبذلك لا تنفرد انجلترا باحتلال مصر ولايكون هناك مجال للخلاف بينها وبين فرنسا ولكن أنى له أن يظفر بهذا الحل ؟

وفى الثاني والعشرين من يوليو أرسل جرانفل الى السفير الانجليزى فى باريس يقول له : « قدم هذه المقترحات الى الحكومة الفرنسية ، أولا : ما لم يرد من الباب العالى موافقة من نوع يمكن أن نعول عليه فى الحال ، ففى هذه الحال ترسل تعليمات الى المندوبين الانجليزى والفرنسى ليقولا لبقية السفراء ان انجلترا وفرنسا لم تعودا تعتمدان على التدخل التركى ، ولما كانتا تريان

ضرورة العمل السريع لمنع اى خسارة جديدة فى الارواح ولمنع استمرار الفوضى ، فانهما تعتزمان - اذا لم يكن لدى المؤتمر خطة أخرى - أن تبحثا مع دولة ثالثة الوسائل المؤدية الى حل .

ثانيا : أن يطلب الى ايطاليا أن تكون هى الدولة الثالثة

ثالثا : أن نتشاور فى الحال فى تقسيم العمل

رابعا : أن تكون قناة السويس ضمن المشروع العام لهذا العمل الائتلافى » (١)

وفى الرابع والعشرين رد القائم بأعمال السفارة الفرنسية فى لندن على هذه المقترحات « بأن الحكومة الفرنسية قد صممت على أن تفصل مسألة حماية قناة السويس عن المسألة التى عرفت بالتدخل فى مصر ... وأنها ستبتعد عن أى عمل فى داخل مصر الا اذا كان لرد عدوان مباشر ، واذا كان الجيش الانجليزى يرى من الملائم أن يضطلع بهذا العمل فليس له أن يعتمد على مشاركة فرنسا ، وفى الوقت نفسه فان مسيو فرسنيه يرغب أن يكون مفهوما أن الحكومة الفرنسية لا تعارض فى اقدام انجلترا على هذا اذا عزمت على الاقدام (٢) .

وبعد ذلك بيوم أرسل السفير الانجليزى بباريس الى جرانفل يقول انه قابل فرسنيه فقال ان رد الحكومة الفرنسية « هو انها فى الوقت الحالى لا ترى الذهاب الى ما هو أبعد من التعاون المحدود على حماية قناة السويس ، ذلك الذى تم الاتفاق عليه » واضاف السفير الانجليزى أن فرسنيه لم يبد اعتراضا على اعتزام الحكومة الانجليزية دعوة ايطاليا (٣) .

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ١٩٤ (٢) ص ٢١١
(٣) مصر رقم ١٧ ص ٢٠٩

وكان غرض انجلترا من دعوة ايطاليا فى الواقع أن تتمادى فى ادعائها أنها لا تريد الانفراد بالعمل وأنها لما لم تجد عونا من فرنسا التمسته عند ايطاليا ، وأنها تبذل ما فى وسعها فى سبيل التعاون الدولى الذى زعمه جلادستون فى تصريحه بمجلس العموم لكيلا يكون لاوربا بعد ذلك حجة على انجلترا ...

واشتدت المعارضة فى وجه فرسنيه فى المجلس التشريعى الفرنسى على اثر اتصال بينه وبين السفير الالمانى فى باريس ذكر فيه ذلك السفير أن ألمانيا ترى أن خير وسيلة لحل المسألة المصرية هو التدخل التركى ...

ورأى الفرنسيون أن بسمارك يريد بذلك أن يسند وزارة فرسنيه ، وعدوا ذلك تدخلا فى شئونهم الداخلية فغضبوا على وزارتهم أيما غضب .

وفى الوقت نفسه أرسلت انجلترا الى فرنسا تقول ، فى اليوم السابع والعشرين من يوليو : « ان حكومة جلالة الملكة وان كانت تقبل اشتراك تركيا فيما يتعلق بالتدخل فى مصر آلا انها ستمضى فيما شرعت فيه من الوسائل» (١)

لذلك حينما استمرت المناقشة فى المجلس التشريعى الفرنسى فى التاسع والعشرين من الشهر ، خذلت الوزارة بأغلبية ٤١٦ عضوا حيال ٧٥ ، فاضطرت الى الاستقالة وخلفتها وزارة سوف تنفض يدها عما قريب من المسألة المصرية .

ففى اليوم التالى ردت الحكومة الايطالية على اقتراح اشتراكها فى التدخل برفضها هذا التدخل من جانبها تاركة انجلترا تتحمل تبعة التدخل وحدها .

ومما يحمل على العجب أن ايطاليا كانت قد ثارت ثائرتها أول الامر لرغبة انجلترا فى الانفراد بالعمل وحملت

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٣٤

الصحف الايطالية على سياسة انجلترا حملة شديدة وحملتها تبعة ما وقع فى مصر من ارتباك ونددت بمطامعها الاستعمارية ، وكانت ايطاليا الطامعة فى شمال افريقيا حانقة على فرنسا التى استولت على تونس وزاد حنقها على انجلترا التى همت بالتهام مصر . وكان من اسباب دعوة انجلترا اياها لمشاركتها فى مصر هذا الحنق ، ووجه العجب أن تنفض يدها بعد ذلك من المسألة بهذه السهولة .

***

وأشارت روسيا على مندوبها بعدم حضور المؤتمر فى نهاية يوليو وذلك « لانها اشتركت فيه على أن تكون قراراته ذات قيمة لا على ان يكون مسجلا لحقائق واقعة فحسب » (١) .

وبذلك اخلت جميع الدول سبيل انجلترا للعمل بمفردها ، وهى ان لم تظفر بتفويض من المؤتمر بتدخلها لن يضيرها ذلك ما دامت قد أطلقت يدها ، وما كانت انجلترا تعبأ يوما بالشكل دون الجوهر .

ولم تعد انجلترا تحفل بتركيا ، وانما استمرت فى خطتها التى راحت توهمها بها أنها جادة فى دعوتها اياها للعمل على حل المسألة ، حتى تظفر منها باعلان قرار العصيان الذى ترمى عرابى به فتصميه ، وتنال به منه أكثر مما تنال بجنودها وأسلحتها ...

ولندع المؤتمر عند هذا الوضع من مهزلته لنعود الى خطوط الدفاع عند كفر الدوار ، ولنا بعد ذلك عودة لنبلغ بمهزلة المؤتمر نهايتها ولنتتبع سياسة انجلترا حتى نهاية الشوط ...

كان أول عمل من جانب المصريين هو سد ترعة

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٥٩

المحمودية كما سلف الاشارة اليه لمنع المياه العذبة عن الاسكندرية ، ولقد انزعج الانجليز من هذا العمل واخذتهم منه حيرة ...

وفى اليوم السادس عشر من بوليو ابرق كارتريت الى حكومته أنه يخشى من هجوم ليلى على الاسكندرية . وأن الادميرال أرسل سفينتين الى أبى قير مخافة أن يقطع عرابى الشاطىء ويدع ماء البحر ينساب ، وقد سلفت اشارة منا الى ذلك ...

بقى الحال على ذلك بقية شهر يوليو وانجلترا تعد العدة لحملتها الكبرى وتبذل نشاطها السياسى فى المؤتمر وفى العواصم الاوربية حتى اطلقت يدها فى نهاية الشهر كما بينا ...

ففى اليوم الخامس من أغسطس بدأ الانجليز هجومهم ببعض ما لديهم من الجند قبل أن يأتيهم المدد ، فزحفوا من الرمل فى نحو ألفى مقاتل من المشاة يقودهم الجنرال أليسون ، فلما صاروا على بعد الف وخمسمائة متر من الخطوط المصرية ، تصدى لهم المصريون فى أورطتين فى مثل عددهم تحت قيادة البكباشيين أحمد البيار ومصطفى حسان وأوقفوا زحفهم ... ثم جاء خورشيد باشا طاهر على رأس ثلاث بلوكات من الفرسان ، وحمل المصريون على الانجليز حملة قوية ، وبعد ثلاث ساعات ونصف ساعة اضطر الانجليز الى التقهقر وفروا الى الرمل مهزومين (١) .

ويقول عرابى فى مذكراته المخطوطة تعقيبا على هذه المعركة التى سماها واقعة أبى قير « ولم يستشهد احد من عساكرنا الابطال ، وكان ابتداء المحاربة الساعة الاولى من النهار وانتهاؤها فى تمام الساعة الرابعة فمدة القتال

---

(١) الوقائع المصرية ٨ ، ١٠ اغسطس ١٨٨٢

ثلاث ساعات ونصف ساعة أبلت فى خلالها رجالنا بلاء حسنا ، بيد أنه لم تعرف خسائر العدو لرفعه اياها من الميدان أولا فأول » (١) .

عاد الانجليز الى الهجوم فى اليوم التالى وقد أعدوا له عدة قوية هذه المرة ، فتقدمت ميمنتهم بطريق السكة الحديد من القبارى ، وميسرتهم على ضفة الترعـــــة المحمودية من الرمل ، وتحرك القلب من طريق الجسر الذى يعبر المحمودية ،وكان يقودهم اليسون .

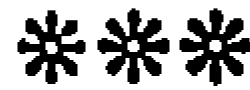
وثبت لهم المصريون ثباتا خليقـا بالاعجاب حقـا ، ودافعوا فى هذه المعركة دفاعا مجيدا ، وقد شهدها من المصريين طلبة عصمت الذى ولى القيادة بعد احمد عبد الغفار وكان على راس الفرسان والبكباشيـة محروس ومحمـد فودة وسـليمان تعيلب ورزق الله حجـازى والقائمقام أحمد عفت ...

وأبلى البكباشي محروس بلاء حسنا فى صد ميسرة الانجليز ولم يمنعه جرحه الشديد من أن يشد عليهم برجاله وكذلك أظهر البكباشي محمد فودة بسالة وجلدا عظيمين فى الهجوم على قلب الانجليز وميسرتهم ، وجاءه المدد مرات بقيادة أحمد عفت وتعيلب وحجازى ، ثم جاء طلبة باشا ومعه فرقة الفرسان بقيادة أحمـد عبد الغفار ، وبعد ست ساعات من القتال الشـــديد ، ارتد الانجليز منهزمين ولحق بهم المصريون حتى حجبـهم الظلام عنهم ...

وقد عقب عرابى على هذه المعركة بقوله : « فلمـا قربوا مسافة ٨٠٠ متر اشتبكوا فى القتال مع أورطـة محروس أفندى البكباشي وأورطة المستحفظين حكمدارية

(١) الوقائع ٨ أغسطس ســـنة ١٨٨٢ . وقد اعتمدنا فى تاريخ المعركتين على ماجاء فى مذكرات عرابى المخطوطة

محمد أفندى فودة الذى اظهر من الشجاعة ما يقصر اليراع عن وصفه ، ولما اشتد القتال بين الطرفين ، تقدم الرجل الشجاع أحمد بك عفت حكمدار المقدمة ومعه اورطة سليمان أفندى تعيلب واورطة رزق الله حجازى البكباشي ، واصلوا العدو نارا حامية ، ثم قام فى الحال طلبة باشا عصمت قومندان فرقة كفر الدوار ومعه الآلاى برنجى سوارى حكمدارية أحمد بك عبد الغفار ، وحرك الاورطة جهة المقدمة فتقارب الجيشان واختلط الفريقان وتقاتلوا بالسلاح الابيض وجها لوجه ، ولما أظلم الليل وضعفت قوة العدو قفل راجعا وعساكرنا فى اثره تأخذ عليه الطريق وتضيق عليه السبل وتضربه حتى حال الظلام بين الفريقين ٠٠ وعند تفقد عساكرنا وجد من المستشهدين ٢٩ من الانفار والصف ضباط والملازم الشجاع أحمد أفندى على والجرحى البكباشي محروس أفندى الذى توفى بسبب جراحه واثنان من الملازمين و ٦٥ من الصف ضباط والانفار ٠٠ .



ولقد أبدى كل من الضباط والعساكر من الشهامة والثبات فى هذه الموقعة ما يستحقون من أجله الثناء الجميل فى الدنيا وعظيم الاجر فى الآخرة ٠٠ وخسائر العدو كانت عظيمة وقد ترك عساكر الانجليز بميدان القتال ١٧ جثة منها الملازم ديز وصار دفنه فى جسر المحمودية ، وقد شوهد الكثير من عساكر الانجليز يحملون قتلاهم وجرحاهم ، وفى اليوم الثانى كانت ساحة القتال مشوهة بالدماء وآثار جر الموتى ظاهرة فى نقط عديدة»

ولما استيقن الانجليز أنهم عاجزون عن زحزحة المصريين عن خطوطهم القوية انكفأوا راجعين الى الاسكندرية لينتظروا هناك ما يأتيهم من المدد ...

أما عرابى وأصحابه فما زالت تسعى اليهم الوفود فى خيمته عند كنجعثمان ، حاملة للجيش ماجادت به البلاد من مال وتمار وماشية للدفاع عن الوطن وكرامته ...

وأما الخديو فقد بادر بتهنئة الانجليز على ما اصابوا من انتصار فى المعركتين ! كأنما يستحيل على توفيق أن يتصور الانجليز الا غالبين ولو كانت هزيمتهم أمرا محققا

وفى الوقت نفسه أصدر توفيق بلاغا فى اليوم السابع من أغسطس يحذر فيه المصريين من مشايعة عرابى ، ورماه فيه بالعصيان والثورة وتوعد كل من يشايعه بعقاب شديد من لدنه (١)

***

واستمر مجىء المدد الى الانجليز ، فأصبح لديهم فى الاسكندرية حوالى اليوم العاشر من اغسطس نحو اربعة عشر ألفا من المشاة وثلاث فرق من الفرسان ونحو الف من رجال المدفعية ونيف وخمسمائة من المهندسين ، وعدد آخر من المختصين بأعمال الجسور وأسلاك البرق والخطوط الحديدية ...

وفى اليوم الثالث عشر من أغسطس وصل الى الاسكندرية السير جارنت ولسلى القائد العام للحملة الانجليزية ...

لنعد بعد ذلك الى مهزلة المؤتمر او الى مراوغة السياسة الانجليزية وانتصارها تحت سمع المؤتمر وبصره وسلوكها وانوف أعضائه فى الرغام سبيلا غير التى أرادوها من أول الامر ...

انطلقت تركيا منجمودها آخر الامر كما بينا وانضمت الى المؤتمر وقبلت ارسال جند عثمانية الى مصر ، أى أنها قبلت أن تعمل بما كانت تلح به انجلترا عليها من

(١) الوقائع المصرية ٢١ سبتمبر سنة ١٨٨٢

قبل ، ولكن انجلترا لن تسمح لها اليوم بشيء من هذا .

في اليوم السادس والعشرين من يوليو أفضى سعيد باشا وزير الخارجية وعضو المؤتمر الى الاعضاء بأن الجنود العثمانية على أهبة السفر الى مصر ، وفى الوقت نفسه أفصح للمؤتمر عن أمل حكومته فى « أن التدخل الحربى بجنود أجنبية فى مصر لم تعد له ثمة ضرورة»

ولو أن المؤتمر كان يريد الانصاف لكان فيما تقدم به سعيد باشا أقرب وضع الى الحل المنشود الذى وضع المؤتمر قراره فى اليوم السادس من يوليو ...

ولكن الدول كما بينا تراجعت فى صورة مضحكة مخجلة عن قرارها للأسباب التى بيناها وجنحت الى ترك انجلترا تعمل على مسئوليتها مكتفية بأنها لم تعطها تفويضا بهذا . وهل كانت انجلترا تطمع فى أكثر من أن تعمل على مسئوليتها ؟

وليتدبر القارىء فى رد انجلترا على كلام سعيد باشا ولينظر مبلغ ما فيه من مناقضة لسياستها يعد من أكبر دواعى الخجل لو أن السياسة الانجليزية كانت تعرف الخجل يوما ما ، قالت انجلترا فى برقية الى دوفرين فى التاسع والعشرين من يوليو . « ان حكومة جلالة الملكة تقبل وصول قوات عثمانية الى مصر وتقبل التعاون معها على شرط أن تكون الصفة التى تأتى بها محددة تحديدا مقنعا ، وأن تكون خالية من كل ما يجعلها تؤول تأويلين بسبب تصريحات السلطان السابقة » (١)

وكانت ترمى انجلترا بهذه العبارة : « خالية من كل ما يجعلها تؤول تأويلين » أن يصدر السلطان قرارا ضد عرابى ورجاله ، وذلك أن الصدر الاعظم كان قد أخبر دوفرين قبيل ذلك « أنه ليس من الحكمة اصدار هذا

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٤٨

القرار قبل بلوغ الجنود العثمانية مصر » وقد رد عليه دوفرين بقوله : « اذا كان السلطان يرغب فى التعاون مع حكومة جلالة الملكة ، فان من الضرورى أن يحدد فى وضوح ما يعتزم اتباعه نحو عرابى وعصابة الثوار » (١)

وفى نفس هذه البرقية قالت انجلترا : « ترغب حكومة جلالة الملكة أن تخبر سعيد باشا والمؤتمر بأنها لايمكنها سحب جنودها من مصر ولا التراخى فى أعداد العدة» .

وقالت كذلك : « ان قعود السلطان عن العمل ذلك القعود الذى طال امره حيال وضع كهذا الذى تمثله الحال فى مصر قد القى على عاتق انجلترا عبئا تضطلع به الآن فى سبيل الصالح العام وفى سبيل صالحها كذلك ، وان حكومة جلالة الملكة ترغب فى أن يكون معلوما لدى المؤتمر أنه حالما ينتهى العمل الحربى المراد فانها ستستعين الدول فى وضع نظام قويم لحكم مصر فى المستقبل »

اذن فاما أن يعلن السلطان ذلك القرار الخطير الذى تريده انجلترا فتقبل تعاونه معها فى بلاده واما أن يحجم عن ذلك فتمضى انجلترا الى غايتها ، وهكذا تستدرج انجلترا السلطان خطوة فخطوة ، ولسوف يضطر الى قبول هذا الشرط ليظفر بتفضل انجلترا عليه بقبول معونته اياها فى بلد هو صاحبها الشرعى ، ولكن هل تجود انجلترا عليه بهذا الفضل حتى بعد قبوله ما تشترط ؟ ذلك ما نرى الجواب عليه فيما يلى :

فى اليوم الثانى من أغسطس تعهد سعيد باشا أن يعرض على المؤتمر صيغة قرار يعلن فيه السلطان أن عرابى من العصاة (٢) وهكذا تخطو تركيا على رغمها خطوة

(١) M. E. Cromer p. 241

(٢) M. E Cromer p. 241

اخرى فى صالح السياسة الانجليزية ، وذلك كى يسمح لها بالتدخل فى بلاد هى صاحبتها ! الا ما أشد وما أقسى ما يجلبه الضعف من مذلة ، وهذا فى الوقت نفسه هو عبد الحميد الذى لا يتنفس الناس فى بلاده الا باذنه !

وردت انجلترا على ذلك بأنها فضلا عن اعلان قرار العصيان الذي تعده ضمانا لاغراض السلطان ، ترى من الامور الضرورية أن يعقد مؤتمر حربى بين الدولتين للنظر فى التعاون كيف يكون بينهما

وأبلغ دوفرين حكومة الباب العالى فى الخامس من اغسطس : « انه ما لم يعد السلطان قرارا ذا صفة مرضية وما لم توافق الحكومة التركية على الدخول فى مؤتمر حربى مع حكومة جلالة الملكة ، لن يسمح للجنود العثمانية بالنزول فى مصر » (١)

ومن ذلك نرى أن انجلترا حين رأت السلطان يقبل اعلان العصيان المنشود ذلك القرار الذى تصل به الى ضالتها ، ابتدعت المؤتمر الحربى لتؤجل تدخل تركيا حتى تفرغ هى من دخول مصر فلا يكون ثمة داع الى جنود عثمانية ... ولايمكن أن يكون فى الصلات الدبلوماسية أكثر من هذا استهتارا من امة قوية بامة ضعيفة ، كما لايمكن أن يبلغ الضعف بامة أكثر مما بلغ بتركيا التى يشبه موقفها هذا الاستجداء الذليل ...

وأبلغ دليل على ذلك هذه البرقية التى أرسلها جرانفل الى دوفرين فى الرابع من أغسطس اى قبل الاتصال بالباب العالى ينبئه فيها أنه أرسل تعليمات الى سيمور ، قال : « ارسلت تعليمات الى الادميرال سيمور أنه اذا قدمت اى سفينة تحمل جنودا تركية الى بورسعيد او الى الاسكندرية او الى اى جهة أخرى فعليه أن يبلغ

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٩١

قائدها فى أكثر الصيغ مودة ورفقا أنه ينتظر تعليمات من حكومته تشأن مؤتمر حربى بين تركيا وانجلترا الغرض منه معاونة الاولى لنا فى القضاء على العصاة ، ولكنه لم يتلق أنباء بأن هذا المؤتمر قد عقد وبناء على ذلك فان ارسال جنود تركية لابد أن يكون عملا سابقا لاوانه أو بنى على سوء فهم ، وان الاوامر التى لديه هى أن يطلب الى القائد أن يواصل السير الى كريت أو أى جهة أخرى وأن يخاطب الحكومة التركية لارسال تعليمات أخرى نظرا لان الادميرال سيمور لايستطيع أن يدعوه الى النزول فى مصر... وقد سمحنا لسيمور أن يمنع نزول الجنود اذا لم ينتصحوا بنصحه » (١)

تلقاء هذا اضطرت تركيا أن تعلن فى المؤتمر فى السابع من أغسطس أن الباب العالى يقبل الدعوة الى التدخل الحربى فى مصر على أساس المذكرة المشتركة بتاريخ ١٥ يوليو بما تحتوى عليه من بنود وشروط »

ومعنى ذلك أن تركيا تقيدت بالشروط التى وضعها المؤتمر فى السادس من يوليو والتى وافقت عليها الحكومات فى الخامس عشر منه والتى كانت تركيا تعارض فيها أشد المعارضة (٢) ، وهى اذ تتقيد بهذه الشروط تلتزم فى الوقت نفسه بأساس التعاون مع انجلترا ، أى أن التدخل الآن ليس لتركيا وحدها وانما هو بصفتها شريكة لانجلترا ولكن انجلترا سوف لا تمكنها حتى من هذا الوضع الذى هو دون ما رفضته من قبل بمراحل ...

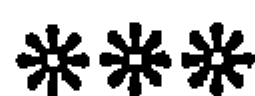
وفى التاسع من اغسطس أرسل قرار عصيان عرابى الى دوفرين ليطلع عليه وفى العاشر منه قبلت صيغة القرار بعد ادخال بعض التعديل عليه

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٨٧
(٢) راجع ص ٢٩٠ من هذا الكتاب

واخذت انجلترا تتصل بتركيا بشان المؤتمر الثنائى الذى يحدد طريقة العمل بينهما مع أنه يتعارض مع قرار المؤتمر العام الذى جاء فيه أنه اذا وافق السلطان كما ترجو الدول على هذا النداء الصادر من الدول الكبرى فان نفاذ المواد والشروط الآنفة الذكر يكون موضع اتفاق آخر بين الدول الست وبين تركيا »

وكانت انجلترا ترمى من وراء المؤتمر الثنائى ، الى الاخذ والرد بينها وبين تركيا حتى ينتهى الامر كما ذكرنا وذلك ما سوف تؤيده الحوادث

أما المؤتمر العام فقد بلغت مهزلته منتهى سخفها ، حين قرر فى اجتماع عقده فى اليوم الرابع عشر من أغسطس تأجيل انعقاد جلساته الى أجل غير مسمى ، وبذلك أسدل الستار على أسخف مهزلة فى تاريخ المؤتمرات السياسية ...



ولنعد الى مصر ، فنجد عرابى فى خطوط دفاعه تمده الامة بما تجود به ويؤيده أبناؤها جميعا كبراؤها وفلاحوها وتتطلع اليه القلوب فى موقفه المجيد وقد ازداد الناس أملا فى النصر بعد ما كان بين الجيش المصرى وبين الانجليز من تلاحم أثبت فيه المصريون انهم جادون وانهم اذ يحاربون انجلترا ذات الامبراطورية الكبرى لا تنخلع أفئدتهم فزعا كما يظن أعداؤهم من فاجر الظنون

وكان عرابى قد أرسل الى السلطان برقية أورد نبأها دوفرين فيما أرسله الى جرانفل فى السادس والعشرين من يوليو اذ قال : «علمت أن عرابى باشا أبرق مباشرة الى السلطان يعبر عن ولائه للخلافة ، ويقول انه وقد حمل حملا على الحرب يمتلك كل ما يلزم لقهر أعدائه وذلك بفضل المساعدة المقدسة وما تفيض به مصر من

خير ، وانه لايصدق ما يؤكده أعداء وطنه ودينه من أنه سيجد فرقا عثمانية فى طريقه فان ذلك سيضعه أمام الضرورة القاسية التى تجعله يعامل اخوانه فى الدين معاملة الاعداء (١)

وفى اليوم الخامس من اغسطس ابرق جرانفل الى دوفرين يقول : « نشرت جريدة الطائف فى تأييد عرابى باشا تقول : ان الباب العالى أرسل برقية يهنىء بها الجنود المصرية على ما أبدوه من شجاعة أثناء ضرب الاسكندرية ، كما ورد الى تركيا فى برقية كان قد أرسلها درويش باشا » (٢)

أما توفيق فان يد السلطان مكفوفة عنه منذ قبوله المذكرة المشتركة الثانية فى الخامس والعشرين من مايو ، وقد بلغت به الجراة أن أفضى الى كلفن فى الحادى والثلاثين من يوليو : « أنه شديد الخوف من دسائس الترك وانه يثق من أن الترك سوف يراقبون مراقبة دقيقة »(٣)

ولقد كان السلطان يريد عزله وتعيين حليم مكانه ؛ وتقدم بهذا الاقتراح الى انجلترا عقب ضرب الاسكندرية مباشرة ممتدحا حليم قائلا : « أنه يكون حاكما ممتازا » وأن تعيينه « يحقن الدماء ويرضي كل انسان » ، ولقد رفضت الحكومة الانجليزية هذا الاقتراح رفضا باتا عاجلا وأبلغت السلطان أنه « يضيع الوقت فحسب بعرضه مثل هذه الاقتراحات » (٤)

فى التاسع عشر من أغسطس أذاع الجنرال ولسلى

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٢٢ (٢) رقم ١٧ ٢٩٠

(٣) M. E. Cromer p. 241

(٤) المرجع السالف ص ٢٤٠

البلاغ الاتى : « بأمر الحضرة الخديوية . اعلان للمصريين: يعلن الجنرال قائد الجيوش الانجليزية بأن مقاصد الدولة البريطانية فى ارسالها تجريدة عسكرية الى القطر المصرى ليست الا لتأييد سلطة الحضرة الخديويه ، وعساكرنا يحاربون فقط حاملى السلاح ضدسموه ، فعموم الاهالى الذين فى سلام وسكينة تصير معاملاتهم بكل ود وانسانيه ولا يحصل لهم أدنى ضرر ، بل يحترم دينهم ومساجدهم وعائلاتهم ، والاشياء التى تلزم الجيش يصير دفع ثمنها وعليه ندعو الاهالى لتقديم ذلك ، وان الجنرال قائد الجيوش يسر جدا من زيارة مشايخ البلاد وخلافهم ممن يرغبون المساعدة لردع العصيان الذى هو ضد الحضرة الخديوية الحاكم والوالى الشرعى على القطر المصرى المعين من لدن الذات الشاهانية » (١)

وفى نفس اليوم أعاد الانجليز وقدجاءهم المدد هجومهم على خطوط كفر الدوار ، وزحفوا هذه المرة بقوات كبيرة نقلتها القطارات المسلحة من جهة القبارى وأعانتها قوات أخرى جاءت من جهة الرمل ، والتحم الجيشان ودارت معركة شديدة استمرت ثلاث ســـــاعات حتى غربت الشمس ، وكانت قيادة المصريين لطلبــه عصمت وكان معه رضا باشا ومصطفى بك عبد الرحيم وعيــد بك محمد وأحمد عبد الغفار والقائمقام أحمد بك عفت ، والقائمقام سليمان سامى داود وحكمدار المدفعية بدوى بك . وارتد الانجليز الى الاسكندرية بعد أن خسروا خسائر جمة

وأعاد الانجليز الكرة عقب ذلك أياما ثلاثة متوالية ، كانت تنشب فيها المعارك حامية بينهم وبين المصريين حتى

---

(١) الوقائع المصرية ٢١ سبتمبر سنة ١٨٨٢ . ومصر رقم ١٨ سنة ١٨٨٢ ص ٣ ، ومذكــرات عرابى المخطوطة ص ١٢٥ .

الغروب ، والمصريون يردونهم كل يوم الى الاسكندرية بعد دفاع قوى مجيد

وهكذا كانت وقائع كفر الدوار أو الميدان الغربى سجلا مجيدا لحرب الثوره ، وحسب هؤلاء الفلاحين فخرا أن يخوضوا غمـــار المعـــارك لاول مرة فى تاريخهم الطويل مدافعين عن مبدأ من أسمى المبادىء الانسانية ، الا وهو مبدأ الحرية الزهراء ، وحسب قائدهم أن يكون أول فلاح فى مصر نادى بالحرية فى قومه ثم وقف يذود عنها فى ميدان من ميادين القتال ، وانه لامر وأيم الحق جليل

ولكن توفيق رد على هذه الجهود الوطنية الرائعـــة بهذا البلاغ الذى جعل عنوانه : « الى جميـــع أهالى وسكان القطر المصرى » والذى قال فيه : « ليس خافيا ما اقدم عليه احمد عرابى وشيعته الضالة من الافعال المغايرة والتشبثات الفوضوية التى اخلت بنظام القطر واضعفت الثقة به ، بل اورثتـــه الخســـائر والاضرار الجسيمة ولا سيما بانضمام الجيش المصرى اليه واتحادهم معه فى البغى والمجاهرة بالعصيان لحكومتنا الخديوية حتى ارتبكت الاحوال وخيفت العواقب فبادرت الدول الى عقد المؤتمر الدولى بالاستانة للنظر فى المسألة وتقرير ما به حلها ، وبالبحث والمذاكرة فى ذلك استقر رأيهم على اتخاذ الطرق التى يترتب عليها عودة سلطتنا الخديوية وتأديب هؤلاء الخارجين لتستتب الراحة وتزول أسباب المفاسد حرصا على عمارية القطر واحترازا مما عسى أن يلم به من الدمار

ولما كانت الدولة البريطانية الانجليزية لها فيه المنافع الكبرى ولاسيما بالنظر الى ترعة السويس التى هى طريقها الوحيد للخطة الهندية المهمة ، فقد اخذت على عهدتها وتحت امرتها التداخل الفعلى لقمع هؤلاء المفسدين

ومحو آثار الفتن دون أن تمس حقـوق السلطنـة ولا الامتيازات المصرية ، ولتحققنا أن نيتها سليمة فى الظاهر والباطن ليس الا الاصلاح ولا غاية لها فى الاستيلاء على البلاد ولا الفتك باهلها لعداوة دينية ولا غير ذلك مما يذيعه العصاة تنفيرا منهم للعامة وتبغيضا لهم فى الامة الانجليزية على حسـن مقاصـدها المذكورة ، ولايزال العاصون على حالهم من المقاومة وتجسيم الحال المؤدى الى زيادة الخراب حتى اعترفتهم السلطنة السنيةعصاة مخالفين للأحـكام الشرعية فاسـتدراكا للأمر ومراعاة للمصلحة العامة قد رخصنا لحضرة القائد العام للجيش الانجليزى بالتجول نحو جموع العصاة واستعمال الحيل القاهرة لتبديد شملهم وسرعة القبض على رؤسـائهم لمحاكمتهم بما يستحقون من أشد العقاب ...

وبما أن العساكر الانجليزية يعدون فى هـذه الحالة نائبين عنا فى قطع دابر المفسدين وتطهير البـلاد منهم « ليعود » (١) الامن والراحة ويزول الشقاء عن العباد ومن كانتهذه صفتهم فانهمجديرون بالمعاونة والمساعدة ولا ريب من جهتهم بوجه منالوجوه ، فينبغى أن لايرهب منهم أحد ولا يظن فيهم سوءا أو مكروها وألا يعاملوا بما يستوجب المنافرة ، بل على كل مصرى يحب وطنـه ويخشى خرابه أن يعاملهم لقاء حسن نيـاتهم بالاكرام اللائق بهم ولا يتأخر أحد عن مساعدتهم فى تقديم ما ربما يحتاجون اليه من المؤونة بأثمانها السـائرة التى هم مستعدون لادائها فورا فمن فعل ذلك فقد وفى بما يجب عليه من حقوق الوطنية الصادقة واستوجب رضاء الله، ورضانا عنه فضلا عما يراه منهم من المكرمة ، ومن أبى

---

(١) ليست هذه الكلمة بالاصل فوضعناها ليستقيم المعنى ولعلها سقطت سهوا

التل الكبير

كانت التل الكبير مركز الميدان الشرقي فى جهاد الثورة كما كانت كفر الدوار مركز الميدان الغربى ، ولقد دارت فى هذا الميدان الشرقى معارك فى مجال أوسع وفى أعداد اكبر مما كان فى كفر الدوار ، وكانت فى هذه المعارك الشرقية صفحات مشرقة يطرب لها قلب كل مصرى وتتهلل أسارير وجهه وصفحات مظلمة يندى لها جبين كل مصرى وتتلون صفحة محياه ... كانت فيها البطولة الباهرة الى جانب الخيانة السافرة الغادرة ، وكان فيها الاخلاص المتين للوطن المستصرخ احاط به العدو من كل ناحية الى جانب الاثرة الحقيرة على حساب هذا البلد المسكين نكب بفريق من الخائنين كانوا أشد عليه من أعدائه ، والحق أنه قلما نجد فى تاريخ الحروب معركة جمعت بين النقيضين كهذه المعركة التى لم يـر فيها العدو طريقا توصله الى غرضه الا سلكها مهما كان فيها من عدوان على الفضيلة والحق ، ولم يتورع فيها الخونة المستضعفون عن اقتراف كل ما ينزل بالانسان عن مرتبة الانسانية ...

فى هذه المعركة استشهدت الحركة القومية ، ووضعت الاغلال فى عنق الحرية وفيها اختتم أسوأ خاتمة جهاد زعيم أحاط به من الخيانة ما لم يحط قط بزعيم من

قبله ولا من بعده ، أجل ... ولكن ترك فيها الاحرار من دمائهم ومن أشلائهم ما قدموه مهرا غاليا للحرية الزهراء ، وما وضع به التاريخ حركتهم ـ وان غلبوا ـ في صف الحركات التي طبعها بطابع الخلود والمجد والتضحية والفداء ...

***

كان اكبر أخطـاء عرابى وأركان حربه فيما أعتقـد اهمالهم هذا المنفذ الشرقى الى مصر اهمالا قل أن نجد له نظيرا ، وصرف همهم كله الى كفر الدوار ، ولعـل مرد ذلك فيما أفهم من حوادث هذه الحرب الى خطأ آخر لا يقل خطره عن هذا الخطأ الاول الا وهو اطمئنان عرابى وأصحابه الى حيدة قناة السويس وحرصهم على ارضـاء الدول بالمحافظة عليها ... ولنأت بالحديث على سرده حتى يتبين لنا فى هذه القضية وجه الحق ...

ما كاد الانجليز يفرغون من ضرب الاسـكندرية حتى أخذوا يخوفون الدول بما زعموا من خطر محدق بقناة السويس وتأهبوا ليلعبوا نفس الدور الذى لعبـوه فى ضرب الاسكندرية ...

وكانوا يريدون من اثارة المخاوف كما أسلفنا أن يزعموا أمام دول المؤتمر أن الظرف القاهر الذى يستلزم التدخل الحربى فى شئون مصر لايزال قائما على الرغم من رحيل الاوربيين ...

وهم من جهة أخرى يتخذون من اذاعة هذه المخـاوف المزعومة ذريعة لخطوات يخطونها فى الناحية الشرقيـة تتصل بخطتهم الحربية العامة ، دون أن يظهروا تلك الخطة ، اذ أنهم كانوا لايزالون يموهون على الدول أنهم لا يبتغون تدخلا بمفردهم وأنهم ينتظرون رد تركيا على قرار المؤتمر الذى زعموا أنهم يحترمونه كل الاحترام ..

وهكذا توصل الانجليز الى السير فى خطتهم الحربية المرسومة عقب ضرب الاسكندرية فى غير ابطاء ، اذ كانت سياسة الامر الواقع هى معولهم الذى حرصوا عليه ليواجهوا بها الدول والوطنيين على حد سواء ...

والواقع ان انجلترا بدأت تظهر ما تزعمه من مخاوف عن القناة منذ أواخر شهر يونيو كما يتبين فيما أرسله جرانفل الى سفير انجلترا فى باريس فى الرابع والعشرين من يونيو ليخبر فرسنيه بأن «حكومة جلالة الملكة تلقت أنباء مزعجة لديها من الاسباب ما يحملها على تصديقها مؤداها أن خططا وضعت ضد القناة نفسها » (١)

وزادت انجلترا فى اثارة المخاوف عقب ضرب الاسكندرية مباشرة ، فقد أرسل جرانفل فى الثانى عشر من يوليو الى سفراء انجلترا فى كل من باريس وبرلين وروما وفينا وبطرسبرج والقسطنطينية ليخبر كل منهم الدولة المقيم فيها بما يخشى من خطر على القناة ، ويسألها ماذا تراه من « علاج لحالة قد تفضى الى كارثة بالتجارة الدولية » (٢)

ودارت بعد ذلك الاتصالات بين فرنسا وانجلترا للنظر فى اتحاد الدولتين على ما يعمل لحماية القناة ، حتى استقالت وزارة فرسنيه على نحو ما ذكرنا من قبل ، بعد أن أظهرت من التردد حيال هذه المسألة مثل ما أظهرت حيال ضرب الاسكندرية

وكذلك اتصلت انجلترا بايطاليا ، وطلبت معونتها فى هذا الامر حتى نفضت ايطاليا يدها من المسألة المصرية كلها ...

ومهدت انجلترا بهذه التعمية المقصودة لانفرادها بالعمل هنا كذلك على نحو ما فعلت فى ضرب الاسكندرية

(١) مصر رقم ١٧ ص ٩
(٢) مصر رقم ١٧ ص ١٣٣

وفى الثانى والعشرين من يوليو عادت انجلترا الى نغمتها السمجة فى الشكوى من تحصينات تقام على الساحل غربى بورسعيد ، فى طابية الجميل على مدخل بحيرة المنزلة ، ومن ثم أصدرت الحكومة الانجليزية أمرها الى الادميرال العظيم بوشامب سيمور فاتح الاسكندرية باحتلال بور سعيد والاسماعيلية .

وفى السادس والعشرين من يوليو اخترق الانجليز قناة السويس غير مبالين بشىء ولا حاسبين لقانون حسابا ، أو ليسوا يدافعون عن القناة مما يحدق بها من خطر لينقذوا التجارة الدولية من كارثة محققة ؟

اقتحمت القناة فى هذا اليوم من الشمال السفينة الحربية أوريون بقيادة فتزورى، وفىاليوم التالى وقفت فى بحيرة التمساح على ٨٠٠ متر من الاسماعيلية .

وفى التاسع والعشرين منه ، وصل الى السويس على مقربة من مدخل القناة من الجنوب الادميرال هوت يقود أربع سفن حربية ووصل الى بورسعيد على مقربة من مدخل القناة من الشمال الادميرال هوسكن ، وكان فتزورى كما رأينا فى بحيرة التمساح على مرأى من الاسماعيلية ...

وفى اليوم الثانى من أغسطس انزل الانجليز عساكرهم فى السويس واحتلوا ثكناتها التى اخلاها الجيش المصرى بغير مقاومة ...

ولاريب ان اخلاء السويس على هذه الصورة كان من أكبر العيوب فى هذا الميدان ، على أنه جزء من العيب الشامل الا وهو اهمال تحصين المدخل الشرقى الى مصر ، كله ...

وأرسل جرانفل الى دوفرين فى السابع من الشهر يقول : « فى حالة ما اذا سئلت عن شرح لاحتلال السويس

يمكنك القول ان حكومة جلالة الملكة لم ترسل تعليمات بهذا الشأن ، ولكن أدميرال سير و . هوت . وكانت لديه السلطة أن ينزل جنودا حيثما وجد الضرورة تدعو الى ذلك ، ولقد فعل ذلك بناء على ما تعرضت له المدينة من خطر ووافقته حكومة جلالتها على ما فعل ؛ وقد كان يعمل لصالح الخديو الذى أعطى قائد القوات البحرية البريطانية السلطة ليتخذ من الخطوات ما يراه ضروريا لحماية القناة باسم سموه » (١)

ولينظر القارىء مبلغ ما فى هذه البرقية مما يشبه حال اللص اذ تعوزه الحجة ومبلغ ما فيها من استغلال اسم الخديو واتخاذ الانجليز انضمامه اليهم وسيلة لتحقيق خطتهم فى التهام مصر ...

***

ومما يعجب له المرء أن الانجليز كانوا بعد هذا الذى بلغوه من سيطرة على القناة يزعمون أنهم لم يعتدوا عليها بشىء وانها لفى قبضتهم الان فى واقع الامر وان لم يمنعوا دخول السفن فيها بعد كما سيفعلون ، تجد هذا الزعم فى قول جرانفل فى آخر هذه البرقية « واحب أن أشير الى أن مدينة السويس تعد خارجة عن القناة» ...

يفسر موقف عرابى من قناة السويس اهماله وأركان حربه تحصين الميدان الشرقى ، ونقصد بموقف عرابى من القناة مسألة حيادها ، ولقد رأى كثيرون ممن كتبوا عن عرابى أنه ارتكب خطأ من أكبر أخطائه باحجامه عن ردم القناة حتى ضاعت الفرصة واحتلها الانجليز ، ونحن نوافقهم كل الموافقة على رأيهم هذا فى غير تردد فما كان غرضنا من كتابة هذه السيرة الا وجه الحق مجردا من كل محاباة ، ولكنا نخالفهم كل المخالفة فى أمور أحاطوا

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٩٨

بها هذا الخطأ فأسرفوا فيها اسرافا شديدا وخاصة كتاب الانجليز ممن دافعوا عن الاحتلال

نخالفهم فى ان دى لسبس كان يخدع عرابى وأن عرابى جازت عليه الخدعة ونخالفهم فى أن عرابى لم يفطن بسبب جهله الى أهمية ردم القناة كوسيلة من وسائل الدفاع ، ونخالفهم فى أن عدم ردم القناة كان السبب الاساسى للهزيمة ، ونخالفهم فى أن عرابى أحجم بسبب جبنه عن ردم القناة ، ونخالفهم فى أن العمل كان من السهولة كما يصفون ... أجل ، نخالفهم فى ذلك كله مستندين الى ما نقدم من أدلة نثبت بها ما نقول ..

ومن الصعب على المرء أن يمحو من الاذهان فكرة استقرت فيها بفعل السنين منذ أن أذاعها خصوم عرابى مهولين فى الامر قبل يوم الناس هذا بنيف وستين عاما ، ولم نجد ردا عليها طوال هذه المدة كأنها من الحقائق المقررة التى لا تحتاج الى نظر ، وانك لتتحدث الى الناس فى سيرة عرابى فتسمع فيما تسمع قولهم لقد كان عرابى ساذجا خدعه دى لسبس وغرر به فصدقه ، أو على حد تعبيرهم العامى : «ضحك عليه» فلم يردم القناة ..

ولكن الخطب يسير اذا نظر المرء فى هذا الامر نظرة مجردة من المزاعم السالفة جاعلا غايته الوصول الى الحق فى غير محاباة لعرابى ولا تجن عليه ...

فى التاسع عشر من يوليو ذكر كارتريت فيما ابرق به الى جرانفل قوله : « أتشرف بابلاغكم بوصول المسيو دى لسبس الى الاسكندرية ، ويظهر أنه فى مقابلته للخديو لم يتحدث كثيرا عن الموقف السياسى ، ولكن مجيئه الى مصر الان يعد من سوء الحظ » (١)

وفى الثلاثين من الشهر أبرق جرانفل الى سفير انجلترا

(١) مصر رقم ١٧ ص ١٦٥

بباريس يقول : « ايماء الى الطريق الذى يسلكه المسيو دى لسبس فيما يتصل بحماية قناة السويس ، ارغب أن تبسط للمسيو دى فرسنيه أن حكومة جلالة الملكة ترى من المسلم أن المسيو دى لسبس لم يعط سلطة ليتكلم أو يعمل باسم الحكومة الفرنسية . وعليك أن تطالب برد سريع بحقيقة الامر ويسر حكومة جلالة الملكة أن تتلقى الضمان قبل ان ينفض يديه كلية من مقاليد الحكم » (١)

وفى الرابع من شهر اغسطس ابرق جرانفل البرقية الخطيرة الاتية الى نفس السفير يقول : « ارغب أن تبسط للحكومة الفرنسية انحكومة جلالة الملكة وصل الىعلمها أن المسيو دىلسبس يعارضمعارضة قوية أعمالحكومة جلالة الملكه فى مصر ، وذلك بتهديده بتعطيل القناة اذا أنزلت جنود بريطانية فى أى مكان فى القناة أو على مقربة منها ، وحكومة جلالة الملكة لا ترغب الآن ان تتخذ شيئا لقاء ماحدث منه نظرا لانه من رجال فرنسا ذوى المكانة ولانه رئيسمجلسادارة الشركة، الا اذا الجأتها الضرورة الملحة الى ذلك ، وان الحكومة لتأمل أن تتجنب هذه الضرورة وذلك بما تبسطه الحكومة الفرنسية للمسيو دى لسبس مما يصرفه عن مسلكه ، وان حكومة جلالة الملكة لواثقة منأنلها أن تتوقعهذا من الحكومة الفرنسية نظرا لما بين الدولتين من علاقات الصداقة ولاتفاق مصالحهما فى القناة وفى شئون مصر بوجه عام » (٢) .

وفى الخامس من اغسطس عقد مجلس ادارة الشركة اجتماعا غير عادى وكان مما أعلنه فيه تمسكه بحياد القناة وانضمامه تبعا لذلك الى رئيسه فيما يدافع به

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٩٤
(٢) ص ١٥٤

عن حقوق الشركة المهددة ووجه الثناء الى هذا الرئيس وقد خالف هذا القرار العضوالانجليزى مستر ستاندن(١)

من هذا يتبين أن دى لسبس كان جادا فى المحافظة على حيدة القناة ، وأنه كان يخشى من سياسة الانجليز أن تؤدى الى سدها أو تحطيمها بايدى الوطنيين ،ولذلك كان شغله الشاغل أن يحمل بمعارضة الانجليز حكومته على التدخل لحماية القناة ...

واذا رجعنا الى سياسة فرسنيه وجدنا ان دى لسبس كان على حق فى انتظار تأييد حكومته ، ولذلك وقف من الانجليز موقف الجد والصرامة ، فان فرسنيه وان لم يوافق على التدخل فى مصر الا أنه كان لايعارض فى مشاركة انجلترا فى حماية قناة السويس كما بينا اذ أنه فصل المسألتين احداهما عن الاخرى وقد خطا فعلا خطوات فى هذا السبيل واعتمد له المجلس التشريعى المال اللازم ، وأرسلت التعليمات الى الادميرال الفرنسى ببور سعيد ليتفق مع هوسكن على ما ينبغى عمله (١)

لكن سقوط وزارة فرسنيه فى آخر يونيو ذهب بهذه السياسة اذ كان برنامج خلفه الابتعاد عن المسألة المصرية كلها ومن ثم ضعف دى لسبس ، وتنمرت الحكومة الانجليزية وأبلغت فرنسا التهديد الذى أشرنا اليه .

ولايمكن مع هذا الذى ذكرناه من الحقائق أن يكون دى لسبس مخادعا لعرابى ، فليس في الامر خديعة وانما غلب دى لسبس على أمره بسياسة الامر الواقع ...

والحق أن عرابى لم يحجم عن ردم القناة منخدعا بأقوال دى لسبس وانما كان هناك اعتبار على قدر عظيم جدا من الاهمية يشغل ذهن عرابى ، وذلك هو ما كان

---

(١) ص ٢٨٥

(٢) M.E. Cromer p. 235

يحيط به من ظروف ...

كانت انجلترا تصور عرابى وانصاره انهم عصاة مخربون ، وان لم يعملوا شيئا ما يبرر هذه التهمة النكراء ، فكيف يكون الحال لو أن عرابى أقدم على ردم القناة والمؤتمر منعقد بالآستانة ، ومجلس ادارة الشركة خائف يترقب ؟ ولقد راينا كيف خوفت انجلترا الدنيا مما زعمته من خطر محدق بالقناة قبل أن يحدث اى شيء ...

للقارىء أن يصور لنفسه مبلغ ما كان يصيب الحركة القومية فى مصر من سوء السمعة ، الامر الذى كان ينفر عرابى منه أشد النفور لانه كان شديد الحرص على أن يظهر للملأ أن حركته عادلة سليمة وأنه لايبدأ بالعدوان أحدا وان كان لا يحجم عن رد ما يوجه أليه من عدوان

وليت الامر كان يقتصر على سوء السمعة ، بل ان الدنيا كلها كانت تصبح عدوة لعرابى وحركته ، وحسبه ما كان يلاقيه من انجلترا التى لم تدع وسيلة لتشويه حركته الا اذاعتها ..

وليس لاحد أن يقول وماذا صنع المؤتمر بانجلترا وقد خرجت على قراره وضربت الاسكندرية ؛ لان هذا قياس مع فوارق بينة ، فانجلترا فعلت فعلتها الآثمة بحجة الدفاع عن مصالح الاوربيين فى مصر وأرواحهم ، وانجلترا تستند الى قوتها وأسطولها ونفوذها السياسى ، وانجلترا تزعم أنها تعمل عملا مشروعا لتأديب قوم تعدهم من العصاة ، واين هذا كله من عرابى الذى لم يجد أحدا يعطف عليه وهو المظلوم فكيف اذا ظهر بمظهر الطاغية الذى يردم القناة ويعطل تجارة الدنيا ؟ !

ولسنا نريد بذلك أن نبرر عدم ردم القناة والا فما كان هناك مجال لان نناله باللوم ، وانما قصدنا أن نبين

سبب تردده واحجامه وأن ننفى أنه كان فى ذلك ساذجا جازت عليه خدعة دى لسبس التى زعمها المبطلون أو الجاهلون ...

وقد أحسن جون نينيه تلخيص هذه القضية فى كتابه « عرابى باشا » فى قوله : « فلما حل موعد المعركة لم تركن انجلترا الى قوانين القتال وقواعد الحرب ، ولم تأبه بحيدة القناة التى تضمنها الدول بل أسرجت خيول سان جورج (١) ،وأطلقتها في ميدان السبق لتحرز نصرا قائما على الغدر والخيانة ومستندا الى الدسيسة والرشوة ... وقد وقع نزاع خطير فى فرنسا حول الدفاع عن قناة السويس وذلك لكى ينفذ دى لسبس ما وعد به عرابى ، فانه تعهد لزعيم الثورة المصرية وقائد الجيش المصرى بأن تقاوم قوة حربية الىجانبه اذا نزلت جنود انجلترا فى الاسماعيلية أو اعتدت على حياد القناة الدولية ... ولم يكن دى لسبس كاذبا ، ولكنالسياسة عرضة للكذب فقد تقدم مسيو دى فرسنيه الى المجلس التشريعى بفتح اعتماد لاعداد الحملة الحربية للدفاع عن القناة فلم يجبه المجلس الى طلبه فاستقال فى أولأغسطس سنة ١٨٨٢ » (٢)

وقال عن عرابى بعد أن أشار الى نصحه اياه بردم القناة فلم يجبه المجلس الى طلبه فاستقال فىأولأغسطس وذوو عقول مدبرة وعلى جانب عظيم من فنون الحرب والهندسة ، ولكن عرابى باشا لم يستمع لنصحهم ، فكان يخشى بالوهم ما يسميه الرأى العام الاوربى ، ولطالما أفهمته أن هذا الرأى العام حديث خرافة ، وأن

(١) عبارة مجازية معناها الجنيهات الانجليزية الذهبية .
(٢) الواقع أن المجلس وافق على الاعتماد وكانت الاستقالة لسبب اخر كما ذكرنا

اوربا طامعة فى الشرق كله » ...

ونحب أن نورد ما كتبه الشيخ محمد عبده فى هـذا الصدد وما ذكره بلنت فى تعقيبه على رسالة من رسائل عرابى الى دى لسبس ، قال الاستاذ الامام : « عرابى اعتمد على دى لسبس فى حماية القنال ، وكان يظن أن مس القنال يهيج عليه جميع الامم لهذا ترك هذه الناحية عوراء ، وعندما احس دى لسبس بأن الجيش المصرى قد يتحرك ناحية القنال كتب تلغرافا لعرابى يقول له : من المستحيل أن عساكر الانجليز تمر من القنال ... وبعد واقعة مهمة فى ناحية كفر الدوار جاء الخبر عقبها بأن اثنتين وثلاثين سفينة توجهت الى القنال فورد تلغراف من دى لسبس يقول : لا تسرع فى شىء يمس القنال ، لا يمر عسكرى انجليزى الا ومعه فرنسى ، أنا مسئول عن كل ما يحدث . فأجيب بأن هـذا غير كاف وتقرر ارسال جيش ، ثم أرسل الجواب ببطء ، وقبـل أن يتحرك عسـكرى الى ناحية القنـال ، وكان الجيش الانجليزى قد احتله وذلك لتأخر الجيش ١٥ ساعة فى ابلاغ دى لسبس ، ويظهر أنه كان فى الحاضرين خونة نقلوا الاخبار وأخطأوا فى التبليغ » (١)

وأوجه نظر القارىء الى قول الاستاذ الامام : « وكان يظن أن مس القنال يهيج عليه جميع الامم لهذا ترك هذه الناحية عوراء » والى قوله : « فأجيب بأن هـذا غير كاف وتقرر ارسال جيش » ففى هاتين العبـارتين ما يلخص المسألة كلها ويقطع بأن الامر أمر تردد له سببه الوجيه لا أمر خدعة طال فيها كلام العائبين ...

أما بلنت فقد أورد فى كتابه أحـد ردود عرابى على دى لسبس وهذا نصه : « لما كنت احترم حيدة القنال

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام ص ٢٥٧

احتراما كليا وخاصة لاعتبار أنها عمل من الاعمال العظيمة ولان اسم سعادتكم سوف يقترن بها فى التاريخ ، فانى أتشرف بابلاغكم أن الحكومة المصرية سوف لا تعتدى على هذه الحيدة الا عند الضرورة القصوى وفى حالة ما اذا ارتكب الانجليز بعض الاعمال العدوانية فى الاسماعيليه وبورسعيد أو فى أى جزء آخر من القنال »

ويعقب بلنت على ذلك بقوله : « هنا نجد المبدأ قد وضع وضعا طيبا فى وضوح ولكن موضع الضعف فيه يرى فى أنه يدع للعدو أن يقترف أول خطوة عدائية بدل أن يحول بينه وبين ذلك من قبل ويمنعه »

وأين الخديعة فى كلام عرابى مع هذا التحفظ الـذى يبديه فى كتبه وفى كلامه ؟ الا ان العيب كله ينحصر فى التردد الذى أضاع الفرصة وهو ما استحق عليه عرابى اللوم بلا مراء ، لا فى الغفلة التى حاول زورا أن يلصقها به المفرضون ...

اما قصته مع دى لسبس فأمرها هين وان ألقى عليها المفرضون شبهات من الاهمية والخطر... يقول عرابى فى مذكراته : « فى ١٤ يوليو سنة ١٨٨٢ ورد لنا تلغراف من المسيو دى لسبس مدير شركة القنال المذكور يستعلم عن رأينا فى القنال بالنسبة للحركات الحربيه فأجبتـه فى التاريخ المذكور بالتلغراف أيضا أننا نعتبر القنال حرا للمنافع العامة الدولية ولذلك فانا لا نتعرض له بضرر اذا أمكنه منع السفن الحربية الانجليزية من خرق حرمة الحياد واحترامها لقانون الشركة والا فنكون أحرارا فى مقابلتهم بالمثل ...

فورد تلغراف فى اليوم المذكور يفيد أنه ضامن ومتكفل يمنع الانجليز عن اختراق القنال ما دام فيه عرق ينبض ظنا أن فرنسا تدافع عن حقوقها وتحافظ على حرية

القنال ولا تلدغ من جحر مرتين »

واستمرت الرسائل بين عرابى ودى لسبس ، ونكتفى منها بما أرسله عرابى فى ٢٧ يوليو و ٤ اغسطس و ٢٥ منه ، و٣ أخرى بغير تاريخ ، وكلها تبين لدى لسبس ما يقف عليه عرابى من حركات الانجليز العدوانية فى منطقة القنال ، وقد تساءل عرابى فى بعضها : أهذا ما يريده دى لسبس بحياد القنال ؟.. ومعنى ذلك أن عرابى كان على بينة من ضعف دى لسبس أمام الانجليز وأنه لم يخدع بأنه قادر على منعهم من دخول القنال ، وأنه انما تردد لذلك الاعتبار الدولى الذى بيناه ...

وقد حصل بلنت على هذه المكاتبات من دى لسبس أثناء المحاكمة وأثبتها فى آخر كتابه ، وقد أرسلها اليه دى لسبس مع كتاب منه جاء فيه : « انى أرسل اليك الترجمة الفرنسية لتلك الرسائل التى من شأنها أن تشرف متهما يحملك كرمك على الدفاع عنه » (١)

وأخيرا ، لما لم يجد عرابى بدا من العمل خرج من تردده وأصدر أمره بردم القناة ولكن بعد أن ضاعت الفرصة وهو ماعددناه من أكبر أخطائه بلا جدال ...

ولم يكن عرابى يجهل أهمية هذا العمل فى الدفاع عن مصر كما زعم خصومه ، فقد نصح به محمود باشا فهمى فى خطته التى ذكرناها ، ونصح به جون نينيه الى عرابى أكثر من مرة كما ذكر فى كتابه اذ قال : « فأحجم عرابى عن سد القناة فى حينه وتمسك برأيه على الرغم مما كانت تقضى به الخطط الحربية الفنية ، وعلى الرغم مما ذهب اليه زملاؤه وما ذهبت اليه أنا وكررته له عشر مرات ، تارة بشديد الكلام ، وتارة بالكتابة ... على الرغم من ذلك كله ظل عرابى على رايه فمهد للجنرال

(1) S.H. Blunt p. 571

ولسلى نصرا من أسهل ما عرف فى تاريخ الحروب » (١) حيث قال فى موضع آخر : « لن يجد الانجليز صعوبة فى احتلال القناة فهم لا يبالون بالمعاهدات والقوانين ولا يعنيهم الا مصالحهم ، واذا بلغوا الاسماعيلية فمعنى ذلك أن الحملة بلغت النهاية » (٢)

ومما يزيدنا ثقة فى أن عرابى كان يدرك أهمية هـذا العمل أنه صرح به لمراسل احدى الصحف بالاسكندرية قبل ضربها قائلا : « سوف نحترم القناة ما دام العدو يحترم استقلالنا ، ولكن اذا نشبت الحرب فاننا سنهدم القناة مؤقتا عند أول طلقة من مدفع ، وسأفعل ذلك آسفا لان القناة من طرق التجارة المحايدة » (٣)

وكذلك نجد دليلا على هذا فى ذلك الكتاب الذى أملاه عرابى على صابونجى ليرسله الى بلنت كى يحمله الى جلادستون والذى ذكرنا طرفا منه فى الفصل السابق ؛ فقد ذكر فيه عرابى أن الحرب تجعل مصر فى حل من الالتزام بالعهود والمعاهدات وأنها سوف تحطم جميـع القنوات وتعطل كل المواصلات » (١)

وأما قول القائلين أن عدم ردم القنـاة كان السبب الاساسى للهزيمة ، فينفيه ماحدث فى معركة القصاصين الثانية اذ كان المصريون على قاب قوسين من النصر ولولا الخيانة كما سنبينه فى حينه لتغير وجه الحرب كلها . . . ولكان اليوم لعرابى تماثيل فى كبرى العواصم . . . وكل ما يمكن أن يقال هو أن دخول الانجليز من القنـاة قد سهل عليهم الى مدى عظيم النجاح فى خطتهم بوجه عام

وأما أن عرابى أحجم عن ردم القنـاة لجبنه فرأى سخيف لان تردده لذلك الاعتبار السياسى الذى فصلناه

(١،٢،٣) جون نينيه ص ١٠٥
(٤) S.H. B. p. 371

فسر بالجبن وفرق بين أن يجبن الانسان عن تحمل تبعة فعل من الافعال وبين أن يقارن بين فعله وتركه فيرى حينا أن تركه أجدى عليه وعلى قضيته من فعله فيقف زمنا موقف الحيرة بين الرأيين ..

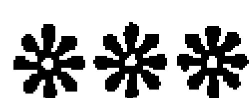
وأما أن ردم القناة كان من السهولة كما يصوره خصوم عرابى فى نعيهم عليه انه لم يفعله فى الحال ، فذلك ما ينفيه الواقع ، وذلك أن الانجليز ما كادوا يفرغون من ضرب الاسكندرية حتى اتجهوا الى حماية القناة ، وكان على عرابى أن ينشىء خطوط كفر الدوار ليصد الانجليز الذين دخلوا الاسكندرية فعلا ، فاذا ذكرنا أنهم فرغوا من ضرب الاسكندرية فى اليوم الثانى عشر من يوليو ، وانهم سيطروا على مدخلى القناة قبل نهاية الشهر ، واحتلوا السويس فى اليوم الثانى من الشهر التالى ، وأن جانبا من أسطولهم كان يستطيع الانتقال فورا الى بورسعيد ، اذا ذكرنا ذلك كله ادركنا مقـــــدار ما كان يواجه عرابى ورجاله من صعوبة اذا هم أقدموا على عمل جبار كردم قناة السويس

وليس معنى ذلك انه كان يستحيل عليهم هذا العمل والا سقط عنهم اللوم وذلك ما لم نقله ، وانما كان الامر صعبا وقصاراهم أنهم كانوا يستطيعون أن يوزعوا جهودهم بين كفر الدوار وقناة السويس ، ولا يخفى ما يكون فى ذلك من خطر على الميدان الغربى

والواقع ان سرعة الانجليز ورسمهم خطة محكمة من زمن بعيد هو الذى أوقع المصريين فى الحيرة ، ولا يصح أن يقال ان عرابى ملوم على كل حال لانه كان عليه ان يبادر بالعمل من قبل ذلك ، ولقد رددنا على مثل هـذا الكلام عما وجه اليه من لوم بشأن حصون الاسكندرية

والقضيـــة كلها تتلخص فى كلمة ، فطالما كان عرابى

وزيرا فى وزارة يملك الخديو اسقاطها فى اى وقت ، وطالما كان الخديو فى صف الانجليز ، فلن يستطيع عرابى أن يتأهب للحرب فضلا عن اقدامه على عمل كردم قناة السويس ، وما كان يستطيع عرابى أن يفعل شيئا الا بعد سقوط الوزارة وبعد عجز توفيق عن اقامة وزارة غيرها واضطراره الى ابقاء عرابى فى وزارة الجهادية . والمدة بين عودة عرابى الى الوزارة وبين ضرب الاسكندرية هى شهر ونصف انشغل فيها عرابى بالامن وقضيته ومأساة الاسكندرية وما جرته فى أعقابها ، ودرويش وبعثته ودسائسه مما لم يدع له مجالا للاستعداد ولو سرا ، هذا الى أن عملا كردم القناة لا يكون الا فى موقف له مبرراته ، اعنى لا يكون الا عند نشوب الحرب أو توقع نشوبها بين حين وحين وهو ما لم يخطر ببال أحد فى مصر على هذه الصورة من السرعة وخاصة بعد انعقاد مؤتمر الآستانة ...



ولم يقتصر نشاط الانجليز فى المنطقة الشرقية من مصر على ما فعلوه بشأن قناة السويس ، وانما لجأوا كذلك الى أسلوب فيه أقوى الادلة على مبلغ ما للشرف البريطانى عندهم من رعاية واحترام ، ويتضح هذا فيما فعله الاستاذ بالمر وشريكه الكابتن جل... وفيما استعان به الانجليز بعد ذلك من رشوة خسيسة ودس دنىء ..

كانت انجلترا تدرس خطة احتلال مصر منذ أوائل سنة ١٨٨٢ ، اى قبل نفاذها فعلا بنحو ستة أشهر ، وقد أشرنا الى حديث جرى بين مستر بلنت والجنرال ولسلى فى ١٥ مارس تحدث فيه ولسلى عن أسهل الطرق الى القاهرة وأبدى اهتماما بالصحراء الشرقية

وفي منتصف شهر يونيو ، اي عقب مذبحة الاسكندرية قررت وزارة الحرب بالاتفاق مع الادميرالية تمهيد السبيل للحملة وذلك بالاعتماد على رشوة واسعة النطاق وخاصة بين البدو فى المناطق الشرقية (١)

واستدعت أدارة الادميرالية البريطانية ادوارد بالمر استاذ اللغات الشرقية فى كمبردج ، وقد رأت فى هذا الرجل خير من يصلح لاداء العمل المراد لمعرفته اللغة العربية ولخبرته بالمنطقة المقصودة اذ تصادف انه كان من قبل عضوا فى جمعية كشف فلسطين

وتحدث اليه اللورد نورثبروك وعرض عليه أن ينهض بهذا العمل الوطنى المشرف — كما قال — الا وهو ضمان انضمام البدو شرقى القناة الى الجيش الانجليزى وذلك بالافادة من قابليتهم للرشوة ، وقدم له نورثبروك ٥٠٠ جنيه غير نفقات الرحلة ووعده بمكافأة عظيمة اذا اتفق له النجاح ...

وكان المستر بالمر معسرا فقبل الاضطلاع بهذا العمل الوطنى المشرف ، وتهيأ للسفر وهو يرجو لعمله هذا النجاح . ويقول بلنت : انه مر به قبل سفره وتظاهر أنه عين مراسلا لجريدة « استاندارد » وطلب منه أن يزكيه لاصحابه من رجال الحزب الوطنى فى مصر ، وكان ذلك ليخفى — كما يذكر بلنت — العمل الذى كلف بأدائه

أما التعليمات التى ألقيت اليه فهى أن يذهب الى الاسكندرية حيث يتشاور في خطته مع سيمور ، وبعد ذلك عليه أن يذهب فى غير ابطاء الى يافا حيث يتنكر فى زى عربى ويزور الصحراء جنوبى غزة وغربيها ، ويتصل بقبيلتى الطياحة والطرابين ...

وقد اطلع بلنت على يوميات بالمر وأورد منها بعض

(١) S. H. Blunt p. 400

فقرات كقول الاستاذ : « أعطـاني الادميرال مسدسا وبندقية وكثيرا من الطلقات » وقوله عن الادميرال انه قال : « يهنـأ الوطن بوجود رجل قدير مثلي يضطلع بمثل هذا العمل الصعب »

وانطلق بالمر الى يافا على ظهر قارب بخاري فوقه العلم البريطاني وكان معه في القارب بحاران ، وهنـاك اتصل بالقنصل الانجليزي ، وأرسل القنصل ابنه الى غزة ليمهد السـبيل للرحـلة ، واشترى بالمر الملابس العربية المطلوبة وبدأ بعدذلك رحلته الصحراوية متظاهرا أنه من تجار الابل ..

واستمر بالمر في رحلته وقد ذكر في يومياته أنه اتصل ببعض مشايخ الطرابين وأنه تعاقد مع الطياحة ، وأنه قطع شوطا كبيرا صوب النجاح، وانالبدو كانوا يحبونه ويقبلون عليه ويدعونه عبد الله أفندي ، وكان يسمعهم الشعر العربي فيطربون له وقد أكل معهم الخبز واللحم كمهد بينهم وبينه أن يحمي كل منهما الآخر حتىالموت

وفي أول أغسـطس بلغ بالمر السويس واشـترك مع الجند الذين احتلوها ثم خرج الى الصحراء ثانية ليعمل على قطع أسـلاك التلغراف واحراق الاعمـدة لتنقطع المواصلات بين عرابي وتركيا ...

وبعد ذلك بيومين التقى بالكابتن جل وقد أعطاه هذا عشرين ألف جنيه لتوزيعها على البدو ولقي بالمر حتفه في السابع من أغسطس هو وجل وانجليزي آخر ، اذ صادفهم في صحراء سيناء عدد من البـدو من قبيلتي الحوايات والحويطات ، فعرفوا أن معهم مالا كان يحمله بالمر الى الطياحة ، فأوثقهم البدو وأخذوا المال وقتلوهم رميا بالرصاص في وادي صدر

ولم يقل نشـاط جل غربي القناة من نشـاط بالمر

شرقيها فقد اتصل باثنين من أكبر مشايخ البدو ، هما سعود الطحاوى فى جهة الصالحية ومحمد البقلى فى وادى الطميلات كما جاء فى يومياته ، ويذكر جل فى هذه اليوميات أنه تلقى هذين الاسمين من الخديو نفسه وقد كتبهما الخديو بخط يده ، وكان آخر ماكتبه جل فىاليوم السادس من اغسطس ، اى قبل مصرعه بيوم ، قال : « يسرنى أنى تخلصت من العشرين ألف جنيه ، اذ أننى أعطيت هذا المبلغ لبالمر ليوزعه على البدو » ...

***

ونرى قبل أن نتكلم عن وقائع الحرب فى الميدانالشرقى أن نذكر ما كان من سعى الخديو واتصالاته فى هـذه الجهة ، وذلك لما كان لفعله هذا من عظيم الاثر فى نتيجة الحرب ...

كان من أكبر أعوان الخديو فى هذا الميدان أولا الكابتن جل ، فقد أرسله توفيق الى الشيخينالبدويينالطحاوى والبقلى وكان الانجليز يعينون رسل الخديو من المصريين كذلك ويمدونهم بما يطلبون من سلاح ومال ...

ويلى الكابتن جل فى هذا المضمار محمد سلطان باشا الذى كان رئيس الحزب الوطنى قبل رئاسة عرابى اياه والذى لقب يوما ما أبا المصريين ، والذى نراه اليوم يسعى سعيه جنديا متحمسا للخديو وللانجليز ...

قال الشيخ محمدعبده فى مذكراته : «مركزالدسائس والمخابرات كان فى الاسكندرية فى مكتب يسمى قسم المخابرات العسكرية اجتمع فيه كثير من الانجليز من موظفى الحكومة المصرية ومن المقيمين بمصر، وكان روح الجميع سلطان باشا ، عرف سلطان باشـا أن توزيع النقود باسم الانجليز لا يفيد ، وعرف مقدار سلطة النقود على الارواح ، فأخذ فى التوزيع باسم الخديو والسلطان

واختار لبث الافكار الحاوى الطحاوى أحد ثقاة عرابى»

وقال أيضا : « فى ٢٧ أغسطس جاء بلاغ بأن فارسين خرجا من الاسكندرية وتوجها من الناحية الشرقية من البحيرة وهما بدويان من قبيلة أولادعلى من عائلة مشهورة بالفيوم فقبض عليهما عند مرورهما من قرب معسكر كفر الدوار ووجد معهما منشورات من سلطان باشا ، ورسائل منه الى رؤساء القبائل وبعض الضباط يدعوهم الى ترك عرابى والالتحاق بالجيش العثمانى الذى جاء لاخضاع العصاة ... استجوابا فاعترفا بكل شىء ؛ وذكرا أن جنديا بحريا انجليزيا يسمى جيل حمل ٣٠ ألف جنيه من سيمور ليلحق بالاستاذ بالمر يستميل معه عرب غزة وحمل معه رسائل من توفيق ومن سلطان باشا الى رؤساء العرب فى الشرقية ، وأن مبلغا لا يقل عن المبلغ السابق سيصحب القائد الانجليزى الى الزقازيق ، وبعد أن سلم الضابط أوراق المرور الى القائد ذهب الى السويس لمقابلة بالمر وقد قطع سلك التلغراف الذى يصل بين مصر والآستانة » .

وقال بلنت : « ولم يكن ذلك الشخص غير زعيم حركة الفلاحين القديم ذلك الذى لم يساوره الخجل وقد ألقى بنفسه فى أحضان الانجليز كلية ، أن يبذر بذور الشقاق بين أولئك الذين لايزالون يتمسكون بوطنيتهم ، ولقد يبدو من الصعب على الجيل الحديث فى مصر أن يفهم كيف يهوى رجل اتصف بصفة عالية هى صفة الوطنية الى ذلك السبيل الوضيع ... وقد أرسل كتبا الى عدد من أصدقائه السابقين فى القاهرة يشرح لهم فيها أن التحالف بين الخديو والانجليز انما هو ضرورة مؤقتة ، ويقول ان الجنود الانجليز لن تبقى بمصر بعد اعادة سلطة الخديو ، وان عرابى قد فقد ثقة السلطان ، وان المقاومة

المستمرة فى القاهرة أمر ينقم عليه المسلمون ... وقد احدثت أثرها هذه الـكتب التى أحكم توزيعها ، ولعب المال مرة ثانية دوره القوى ... »

وقال فى موضع آخر : « لقد وجدت هذا مكتوبا فى يومياتى عن سنة ١٨٨٧ (١) ١٣ فبراير ، زارنى عبد السلام المويلحى من مؤسسى الدستور وعضو مجلس سنة ١٨٨٢ ، واخبرنى أنه كان صديقا حميما لسلطان باشا ومن أعوانه وانه كان أحد الذين انضموا اليه فى خصومته لعرابى ، ولكن الاسف يتملكهم جميعا الآن ان لم يتحدوا ، وهو لا يقر مسلك سلطان أثناء الحرب . فقـد خدع مالت سلطان الذى غرر به ليفعل ما فعل واعدا أياه وعـــدا واضحا أن حقوق البرلمان المصرى سوف تحترم ، وقد وعد مالت هذا الوعد شفويا وطلب سلطان أن يكتب له هذا ولكن الخديو صرفه عن الالحاح فى هذا الطلب قائلا: ان كلمة الوكيل الانجليزى لها قيمة الصك . ولما رأى الرجل الشيخ بعد الحرب مبلغ ما خدع به حـزن حزنا شديدا ومات وهو يأمل أن يسامحه عرابى وألا ينتقل اسمه فى الاعقاب موصوما بالخيانة لوطنه » .

وقال نينيه فى كتابه : « وكان بجانب الامناء فى جيشنا بالشرقية فريق من الخونة يسوقهم الانجليز ويمدونهم بالمـال ويحرضهم توفيق باشـا ويعدهم ؛ وفريق من الشراكسة الباشــوات الذين يحقدون على الفـلاحين المصريين ، ومن هؤلاء على يوسف الشهير بخنفس ، وقد زعم البعض أنه من صميم المصريين والحق أنه من حثالة الاتراك ، وكان مع الاسف الشديد قائد قلب الجيش المصرى وهو الذى اشترى سلطان باشا ذمته للانجليز ، فانسحب بفرقته فأفسح الطريق لجيش ولسلى » .

---

(١) يلاحظ أن بلنت نشر كتابه سنة ١٩٠٧ .

وكان سلطان باشا أثناء القتال يرافق الجيش الانجليزى نائبا عن الخديو ، فقد أصدر الخديو أمرا بتعيينه نائبا عنه لمرافقة الجنرال ولسلى فى زحفه على العاصمة (١)

من هذا الذى ذكرناه عن سلطان ، يتبين لنا مبلغ ما بذل من نشاط فى صفوف المدنيين والعسكريين ، ومبلغ ما أدى من خدمة لجيش الاحتلال على حساب وطنه ؟ ولقد كوفىء بعد الحرب بلقب السير من الانجليز وبعشرة آلاف جنيه قبضها من الخديو ... الا بئس ما باع به نفسه ووطنه ...

اما من اشتراهم سلطان بالمال ، فمن أشهرهم سعود الطحاوى من البدو، وعلى يوسف خنفس، وعبدالرحمن حسن قائد فرقة الاستطلاع السوارى ، وراغب ناشد ، وهو قائمقام فى المقدمة ، وسيأتى مع عظيم الاسف والخجل الكلام على خيانة كل من هؤلاء فى موضعها .

وممن عمل غير سلطان من المصريين مثل عمله عثمان بك رفعت ياور الخديو الذى وصفه بلنت بالمهارة والذكاء وقال انه أحدث تأثيرا كبيرا فى نفوس عدد كبير من الضباط وخاصة من كانوا من أصل شركسى ، اذ راح يريهم ألا فائدة من المقاومة وان الخير للشخص منهم أن يتجنب سوء العاقبة قبل فوات الوقت وسبيل ذلك هو الولاء للخديو ، وكان عثمان بك يعرف فريقا من الضباط فاستطاع أن يتصل بهم سرا ويغريهم ...

ومما يبعث على الاسف أن بعض الضباط المصريين من الموالين للخديو غير من اشتراهم سلطان من الذين أخفوا خيانتهم فى أنفسهم حتى يحين الوقت، قد رافقوا الجيش الانجليزى وارشدوه وأعانوه بالاستطلاع والتجسس بأمر الخديو وهم الاميرالاى زهراب بك ،

(١) مصر رقم ١٨ ص ٣٩

والقائمقام يوسف ضيا بك، واليوزباشي توفيق افندى(١)

وسوف نرى أن السبب الاساسي للهزيمة كان مرده الى هذا السعي الاثيم الذى قل أن يوجد له نظير فى تاريخ بلد من بلاد العالم ...

كانت الخطة الاساسية للحملة الانجليزية غزو مصر من الشرق كما ذكرنا ، وكان ذلك يقتضى اقتحام قناة السويس واتخاذ الاسماعيلية قاعدة للزحف على القاهرة

وقد رأينا ما كان من نشاط الانجليز فى هذه المنطقة حتى أوائل شهر اغسطس وما كان من اهمال المصريين اياها حتى ذلك التاريخ ، وفى اليوم التاسع عشر من أغسطس ابحرت الحملة الانجليزية من الاسكندريه الى بورسعيد تحت قيادة سيمور وكان الانجليز قد حصنوا مدخل الاسكندرية تحصينا قويا خشية أن يدخلها الجيش المصرى من كفر الدوار وربطوا بينها وبين بورسعيد من البحر بأسلاك التلغراف

وفى الاسبوع الاول من اغسطس كان عرابى قد أرسل محمود فهمى باشا لبناء مايمكن بناؤه من الاستحكامات عند التل الكبير والصالحية ، وبعض المواقع الاخرى ، كما أرسل بعض القوات فرابطت على مقربة من الاسماعيلية

وفى العشرين من اغسطس بلغت السفن الانجليزية المقلة للحملة بورسعيد، وكان عدد رجال الحملة نحو ٣٠ الفا ، وفى هذا اليوم احتل الانجليز بورسعيد واقتحمت السفن الحربية قناة السويس رغم أنف القانون وعلى حيادها ألف سلام ، ومنعت السفن التجارية من دخول القناة من الشمال ومن الجنوب ..

واحتلت جنودهم الاسماعيلية كذلك فى هذا اليوم ،

(١) مصر رقم ١٨ ص ٤٢

وشرعوا فى انزال عتادهم بها ليتخذوها قاعدة لزحفهم على القاهرة ، وتحقق لهم بذلك خطوة هامة من خطوات حملتهم ، فبين الاسماعيليه والقاهره ما لايزيد عن ١٥٩ كيلومترا فى حين أن بين الاسكندريه والقاهرة نيفا ومائتى كيلومتر.. هذا وان الطريق فى الصحراء أسهل منه فى الدلتا حيث الترع التى تعوق سير الجيش وحيث يخشى قطع الجسور وتهديد مؤخرة الجيش الزاحف ، من القرى والمدن

وأرسل عرابى الى دى لسبس فى هذا التاريخ يقول : «حيث أن الانجليز اعتدوا على حياد القناة ، فقد صارت مصر مضطرة الى سدها وتعطيلها لمنع عدوانهم عليها »

وحاول الجيش تنفيذ هذا العمل فلم يستطع ، اذ حرس الانجليز بسفنهم ومدفعيتهم شواطىء القناة فكان كلما قرب العمال من مكان أبلغت طلائع الانجليز عنهم فأقبلت القوارب بمدافعها تصليهم نار قذائفها فيولون الادبار ، ولم يتسن للمصريين الا سد الترعة العذبة فمنعوا وصول الماء الى السويس والاسماعيلية ...

وكانت السفن الانجليزية منذ وصولها لاتزال تضرب نفيشة أول معسكر للمصريين بقنابلها لتشغلهم عن العمل فى ردم القناة ولتلقى الرعب فى نفوسهم ، ولا تبعد نفيشة عن الاسماعيلية الى الغرب الا بنحو ٣ كيلومترات ...

بلغ ولسلى الاسماعيلية فى ٢١ أغسطس ، وبدأ يعد العدة للزحف على الصحراء ، وفى هذا اليوم وصلت القوات الهندية الى السويس ...

يقول عرابى فى مذكراته : « فى ٢١ أغسطس توجه الفريق راشد باشا حسنى الى الخط الشرقى ومعه فرق من البيادة والطوبجية والسوارى تحت قيادة خالد باشا نديم ، ومحمد عبيد بك الميرالاى ، وعبد القادر بك عبد الصمد الميرالاى ، ثم صار وضع أورطة فى محطة

فايد ، وأخرى فى نفيشة ، وجعلوا المركز العمومى فى المسخوطه بواسطه الاهالىالمتطوعين وسد الترعة الحلوة»

وفى ٢٣ من الشهر التحم الانجليز والمصريون اول التحام فى الميدان الشرقى ، وبعد قتال شديد ارتد المصريون عن نفيشة فاحتلها الانجليز ...

وفى اليوم التالى هاجم الانجليز موضع سد الترعة الاسماعيلية وكان يسمى المجفر واحتلته جنودهم ...

ودارت معركة عنيفة بين الجيشين فى المسخوطة فى ٢٥ أغسطس ، وقد أبلى راشد باشا بلاء حسنا فى هذه المعركة ، ولكن تكاثر العدو عليه اضطره الى الانسحاب فسقطت المسخوطة

وفى هذه المعركة اصيب الدفاع الوطنى بضربة من أشد الضربات وخسر خسارة كبيره وذلك بأسر رئيس أركان حرب الجيش وكبير مهندسيه محمود فهمى باشا كأنما قدر على الجيش المصرى أن يصادفه النحس فى أولى خطواته

وبيان ذلك أنه خرج فى المساء وكان يرتدى ملابس مدنية ومعه ياوره فترك الياور فىقرية هناك وسار وحده حتى بلغ قمة تل غير مرتفع على الجانب الآخر من وادى الطميلات ليلقى نظرة على الصحراء فى اتجاه الاسماعيلية وتصادف أنكانت ثلة انجليزيةصغيرة بهذا المكانفأحاطت به وظنته يتجسس ، ولكنه أوهم هؤلاء انه مالك من أصحاب الارض فى القرية القريبة وكادوا يصدقونه ويطلقونه ، ولكن رئيس هذه الثلة رأى أن يأخذه الى معسكر الانجليز ، ربما كان فى الامر شيء ، وبقى الياور فى القرية لا يدرى ماذا وقع لرئيس أركان حرب الجيش ؟ وهكذا لحقت الجيش المصرى خسارة فادحة فى أيسر صورة

ولهذا ظن عرابى الظنون بمحمود فهمى باشا وحسب أنه فعل هذا ليقع أسيرا فى يد الانجليز ، فقد قال فى مذكراته : «وأما محمود فهمى باشا فانه لم يرد أن يرجع مع العساكر وآثر الوقوع فى الاسر على البقاء فى الجيش لشدة ما هاله من منشور السلطان بعصياننا (١) وطمعا منه فى قبوله لدى الخديو بسبب استسلامه الى الانجليز ولذلك خالف خالد باشا وثبت على موقفه مع خادمه حتى قبض عليه الانجليز بصفة كونه نفر بسيط »

واستولى الانجليز على المحسمة فى نفس اليوم الذى استولوا فيه على المسخوطة وهى على مسافة ٢٢ كيلومترا من نفيشة ونحو ٢٤ كيلومترا من التل الكبير ، وكانت خسائر المصريين فى المحسمة ٧ مدافع كروب وكمية كبيرة من البنادق وقطار محمل بالذخيرة ...

ودخل الانجليز القصاصين بعد مقاومة صغيرة ، فأصبحوا على مسافة ١٥ كيلومترا من التل الكبير وعند ذلك رأى عرابى أن ينتقل الى الميدان الشرقى فسافر الى هناك من كفر الدوار بالقطار يصحبه عدد من الضباط وقوة من الحرس ، وكان معه عبدالله نديم خطيب الثورة وكاتبها وقد جاء يستنهض الهمم بأحاديثه وخطبه بين صفوف الجيش

واستقبل عرابى فى الزقازيق استقبالا حارا ، فقد خف للقائه الاعيان والعمد والموظفون وأرباب الطرق الصوفية وحيته الجموع المتزاحمة لرؤيته بالدعاء المعروف : «الله ينصرك ياعرابى» وكانت النساء والصبية على خط السكة الحديد يرددون أغنية أولها : «يامولانا ياعزيز ، أهلك عسكر الانجليز!» ثم يهتف أحد الشباب

---

(١) لعل عرابى يقصد موافقة تركيا على طلب انجلترا بشأن هذا المنشور وذيوع هذا النبأ وذلك لانه لم يصدر الا فى ٦ سبتمبر .

قائلا : « الله ينصرك » فتردد جموع الشباب قائلة : « ياعرابى » وتألف من هذا مظاهرة شعبية جميلة فيها الدعاء وفيها الرجاء ..

واقيمت لعرابى بالتل الكبير خيمة سعيد باشا التى كان يقيم بها فى كفر الدوار واحيطت بالحرس خوفا من كيد الكائدين

وتشاور عرابى وكبار رجاله فى الموقف الحربى فتقرر اتخاذ خطة الهجوم فى الحال ، وقد وصل الى الميدان الشرقى من القاهرة على فهمى باشا يقود الآلاى الاول من المشاة ، ثم وصل بعد ذلك عيد محمد بك بآلايه من كفر الدوار ، وكذلك أحمدعبد الغفار بك . وعبدالرحمن بك حسن ومعهم الفرسان ، ووصل من دمياط خضر بك خضر ومعه اورطتان من السودانيين

على أن مجموع هذه القوات لم يكن يزيد فى الميدان الشرقى عن ١٣ ألفا من الجنود النظامية ، أما المتطوعون والانفار والعمال فكان عددهم يزيد كثيرا عن ذلك

وفى ٢٨ أغسطس تهيأ المصريون للهجوم وقد اشتعلت الحماسة فى نفوسهم على الرغم مما أنبت فيها من أسف على أسر محمود فهمى باشا ...

يقول عرابى فى مذكراته : « ثم عقد مجلس حربى تحت رئاستنا تقرر فيه الهجوم على العدو وعرف الرؤساء كيفية ترتيب الجيش وسيره وأعطى لكل واحد منهم رسم الشكل الحربى مبينا فيه الدقيقة التى يلزم أن توجد الفرق فيها على خط النار أمام العدو حيث كان معسكرا فى القصاصين ، وكان الترتيب على هيئة شكل مقعر يكتنف العدو من كل جهة فكانت أورطة محمد افندى الرملاوى فى الجناح الايمن للترعة الحلوة ، ومعه أورطة من السوارى ومدفعان وجانب من العربان ، وفى

هذا الجناح من يسار الترعة اجى آلاى بيادة حكمدارية أحمد فرج بك وخلفه مدفعان ، وفى القلب ثلاث أورط يتقدمها ٨ مدافع من الكروب وخلفها أورطة من البيادة و ٦ مدافع والجميع تحت حكمدارية على فهمى باشا ، والطوبجية تحت حكمدارية حسن رأفت بك ، وفى الجناح الايسر ٦ اورط من السوارى تحت حكمدارية أحمد بك عبد الغفار ، وأورطتان من البيادة ومدفعان تحت حكمدارية عيد بك ، وقومندان هذا الجيش هو راشد باشا حسنى ، وكذلك محمود باشا سامى حكمدار الجيش المعسكر فى الصالحية وهو مكون من ١٢ ألف عسكرى ، يقوم بجيشه ليلا بحيث يصل الى يسار جيش رأس الوادى عند مطلع الفجر ، ويحيط بميمنة العدو والقوة التى على يمين الترعة تحيط بميسرته والعربان يقتحمون الترعة من خلفه وتقطع عليه خط الرجعة ، وبذلك لا يتمكن العدو من الفرار ، وقد كان مع العدو الدوق أوف كنوت ثالث أنجال ملكة الانجليز ، وانفض المجلس على ذلك »

وهى خطة محكمة كما نرى ، وقد نفذت كذلك باحكام فهجم المصريون على مواقع الانجليز فى القصاصين فى ٢٨ اغسطس بقيادة راشد باشا حسنى الشهير بأبى شنب فضة ، ودار قتال شديد جدا وتحمس المصريون وقويت روحهم المعنوية وكأنما تذكروا المبادىء التى يحاربون فى سبيلها فشدوا على الانجليز مستبسلين وعظمت قوة هجومهم فأجلوا الانجليز عن مواقعهم الامامية واستولوا عليها ...

واستعاد الانجليز قوتهم وهجم فرسانهم بقيادة الجنرال لو ، وبعد تلاحم شديد استردوا مواقعهم من المصريين ، وقد هبط الليل والحرب سجال بين الجانبين ، وقتل من الانجليز فى المعركة ٨ منهم ضابط وجرح واحد

وستون ، منهم ١٠ من الضباط ... وهذا هو احصاء الانجليـز أنفسـهم (١) وتعرف هـذه المعركة بمعركة القصاصين الاولى

اما التقرير الرسمى الذى أعلنه وكيل الجهادية بناء على ما ورد اليه من ميدان القتال ، فيقول : ان المصريين أسروا ٧٠ انجليزيا وان جثث الانجليز فى ساحة المعركة بلغت ٨٠٠ « وجدوهم مجندلين بأسلحتهم والبسـتهم وذخيرتهم ، وهم غير الذين سيعثر عليهم فيما بعد ، وغير الذين تمكن العدو من حملهم الى مراكزه أو احراقهم ، فقد ورد الينا من على فهمى باشا انه رأى حريقا فى جهة الـكبرى فأرسل الى تلك الجهة من يستكشف خبر هذا الحريق فظهر أنه حريق قتلى الهنـود من جيش الانجليز وقد استشهد من عساكرنا فى هذه المعركة ٦٠ شهيدا ، وجرح ٨٥ »

أورد عرابى فى مذكراته تقريرين للانجليز عن هـذه المعركة ، ومما جاء فى أولهما : « وكان العرابيون بعـدد عظيم لم تقو عليه الفرق الانجليزية فوردت اليها نجدة من المحسمة ، ثم اشتد القتال واستمر الى أول الليل فتشتت شمل العرابيين وتكبدوا خسائر جسيمة منها عدة مدافع غنمها الانجليز . . أما خسائر الانجليز فكانت قتيلا واحدا و ٦ جرحى من الضباط و ١٩ قتيلا و ٥٢ جريحا من الجند »

ومما جاء فى التقرير الثانى وهو للجنرال جراهام قائد هذه المعركة : « ففى الظهر أطلق العصاة علينا نارا شديدة من مدافع العيار الاول فلم يلحق بنا أقل ضرر وفى الساعة الثالثة بعد الظهر أمرت رجالى بالرجوع الى مراكزهم ، فعادت فرقة الخيالة الى المحسمة وكانت قد وفدت على

(١) الحملات الانجليزية فى افريقيا للكيرنل سبتان ص ٣٠٩

امدادات ونجدات ، وفى الساعة الرابعة تقدمت نحونا فرقة من المشاة من الاعداء وحاولت التغلب على ميمنة الجيش واكراهه على التسليم » ... ولم يشر هـذا التقرير الى القتلى والجرحى ..

ويتبين من هـذه الروايات على كل حال ، تـكافؤ الجانبين فى المعركة ، ولا نجد أحسن من هذا نرد به على الذين يتحدثون عما ليس لهم به علم ، أو الذين أضلهم الاحتلال فقالوا : ان المصريين لم يحاربوا فما هو الا أن رأوا الانجليز حتى فروا هاربين ، وليت شعرى ماذا

يريد هؤلاء بترديد تلك الاباطيل عن جيش أمنهم ؟ هل لكي ينكروا الجهاد على عرابى ؟ الا ما أشد ما لقى هذا الرجل من نكران للجميل ؟ !

ويجدر بنا أن نلاحظ أمرا على جانب عظيم من الاهمية وهو أن الانجليز الذين كانوا يوالون الزحف الى الامام قد توقفوا بعد هذه المعركة أياما ، ولم يستأنف القتال

الا بعد أن هجم المصريون عليهم مرة ثانية فى ٢٩ سبتمبر ، وذلك لان دسائس سلطان وأعوانه لم تكن قد نجحت بعد ، فخشى الانجليز التقدم دون أن يستعينوا بهـذا السلاح الدنىء ... سلاح الرشوة والخيانة والغدر ، كما أنهم كانوا يعدون لعرابى الضربة القاصمة وهى اعلان قرار عصيانه ، وحسبنا هذا دليلا على خوف الانجليز من خطوط المصريين وعلى أنهم قد عرفوا ثبات المصريين واستبسالهم فى هذه المعركة حيث تبين لهم أن الامر جد وما هو بالهزل

والحق أن المصريين منذ معارك كفر الدوار حتى نهاية معركة القصاصين الاولى ، قد خلا جهادهم المشرف من كل شائبة ، وهو حتى هذا الطور خليق بكل ثناء واعجاب فحسب المرء أن يبذل كل ما فى وسعه فى سبيل النجاح

وفى سبيل الشرف ، أما ادراك النجاح فعلا فقد يفلت من أعظم القواد كفاءة ومن أقوى الجيوش بأسا لأمور لم تجر لاحد فى حساب ..

لابد لنا قبل أن نتتبع أدوار الحرب ، من أن ننظر فيما كان من أمر تركيا والمؤتمر الحربى بينهـا وبين انجلترا ، ومساعى الانجليز كى يصدر السلطان قراره بعصيان عرابى ..

ارادت تركيا أن يظل المؤتمر العام منعقدا املا فى أنه ربما جـد خلاف بين الدول ، ولذلك لم توافق على التأجيل واعلنت احتفاظها بحقها فى دعوة المؤتمر فى أى وقت ، ولكن مساعيها ذهبت هباء ، وذهب كذلك المؤتمر الى غير رجعة ...

ووجهت تركيا همها الى المؤتمر الحربى الثنائى بينها وبين انجلترا ، وكان السلطان يتحرق شوقا الى اليوم الذى تنجح فيه مساعيه للاشتراك مع انجلترا فى الحملة على مصر وذلك بالسماح له بارسال جنود الى مصر التى هى جزء من سلطنته !

واستغلت انجلترا هذا الاهتمام الشديد لتظفر ببغيتها الا وهى « قرار العصيان » وراح دوفرين يتوعد تارة ، ويصانع تارة أخرى أثناء المناقشة فى الشروط المقترحة للعمل المشترك وهو فى الحالتين انما يمثل على الحكومة التركية ويعاملها معاملة الشيخ الخبيث الماكر ، لحدث لا يحيط بشيء مما حوله ، بغية اكتساب الوقت والظفر « بقرار العصيان » فحسب ...

وكان السلطان راغبا عن هذا القرار لما يكون من سوء أثره فى العالم الاسلامى ، ولأنه يوقن أن عرابى انما يدافع عن حقوقه فى مصر ، وأراد السلطان أن يظهر شيئا من الغضب فمنع ارسال عدد من البغال اشترتها انجلترا

لجيشها فى مصر ، ولكن ما كاد دوفرين يحتج على ذلك فى عنف حتى تراجع السلطان وأرسل اليه رسولا خاصا يبلغه أنه أمر بارسال البغال المطلوبة ...

واغتنم دوفرين الفرصة فأبلغ رسول السلطان بأن الحالة فى مصر تستدعى عملا حاسما وهو يشير بذلك الى القرار المطلوب ، وفى ٢٣ أغسطس زار دوفرين سعيد باشا ، وبعد مناقشة فى أحد بنود المؤتمر المطلوب عقده ، اذ كان السلطان يريد أن تنزل جنوده بالاسكندرية بينما كانت انجلترا ضياعا منها للوقت تقترح غير جادة أن يكون ذلك فى أبى قير ، ورشيد ، ودمياط ، أشار دوفرين الى قرار العصيان ، وأجاب سعيد باشا بأن حكومته ترى أنها خطوة ليس من الميسور اتخاذها لاول وهلة ، وتريد أن تستبدل بها قرارا آخر يقوم على النصح لعرابى ومناشدة ولائه مناشدة أخيرة ، واذ ذاك نهض دوفرين غاضبا معلنا أنه من المستحيل أن يعود ثانية الى التحدث مع تركيا بشأن المؤتمر أو فى أى أمر آخر (١)

وأحدثت هذه الغضبة أثرها اذ رافقه سعيد باشا ، وقاسم باشا الى أسفل الدار ثم الى الشارع معتذرين ، وقالا : أنهما تقدما بهذا الاقتراح على غير مشيئتهما ، ورد دوفرين فى صلف أنه لن يوقع على قرار عقد المؤتمر الا اذا وصله قرار العصيان باللغتين العربية والفرنسية

وفى ٢٥ أغسطس أرسل دوفرين الى حكومته يقول : ان السلطان عاد يضع العقبات فى سبيل ما يعده التجار لامداد الانجليز بما يريدون ارساله الى جيشهم فى مصر وأنه يهدد بالسجن أى تركى يرافق الحيوانات المزمع ارسالها بقصد المحافظة على حياتها ...

وفى اليوم نفسه أبرق مالت الى جرانفل يشكو من

(١) M.E. Cromer p. 244

ان عمل السلطان من شأنه الا يجعل العصاة يصدقون أنه سوف يساعد الحملة ، لذلك فان الحملة لن تحصل منه على التأييد الادبى المطلوب ، ويقول أن شريف ورياض يعارضان فى مجيء جنود تركية الى مصر ويخشيان مما ينجم من المتاعب بسبب ذلك فيما بعد (١)

وفى ٢٧ اغسطس عاد سعيد باشا يلح وقد افضى الى دوفرين بأن تركيا مستعدة لقبول الشروط التى تراها انجلترا لعقد المؤتمر وأن قرار عصيان عرابى يصدر عقب التوقيع على الاتفاق الاخير ..

. ووافقت انجلترا على شرط أن يعلن قرار العصيان حالا وهو فى الواقع ماكانت تبتغيه انجلترا بهذه الاتصالات وعلم ذلك فى مصر فى ٣١ أغسطس على أثر برقيته الى مالت، وعاد السلطان يبذل آخر محاولة لان تنزل جنوده بالاسكندرية وذلك فى ضراعة وتوسل يدلان على مبلغ ما انحدر اليه هذا الطاغية المستبد فى قومه أمام الانجليز من هوان ، فقد أرسل دوفرين يقول : « أن السلطان جاث على ركبتيه وانى لاجرؤ على أن اتقدم الى حكومة جلالة الملكة فى اخلاص ان تقبل تضرعاته » (١) وزاد دوفرين على ذلك : « أن السلطان يعد فى نظير ذلك أن يعمل كل شيء تريده انجلترا بشأن القرار ضد عرابى ، وأن يأمر الصحف بتغيير لهجتها »

. وعلى الرغم من هذه المذلة فى الرجاء لم تقبل الحكومة الإنجليزية نزول الاتراك بالاسكندرية التى هى من أملاك السلطان ! وفى اليوم السادس من سبتمبر أعد السلطان القرار ونشر فى الصحف قبل أن يرسل الى دوفرين

وما أن ظفرت انجلترا بتوقيع السلطان على القرار،

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٤٥
(٢) المصدر السابق صفحة ٢٤٦ وفى الاصل الانجليزى « صلواته »

حتى راحت فى لؤم ، ليس له مثيل ، تتنصل من وعدها بقبول المؤتمر بحجة أن قرار العصيان لم يكن فى الصيغة التى أرادتها انجلترا تماما !

واستؤنفت بعد ذلك الاتصالات بين الدولتين فى صورة مملة حسبنا منها هذا القدر لنعود الى الحرب فى مصر

***

فى ٩ سبتمبر وقعت معركة القصاصين الثانية وكانت آخر معركة أثبت فيها المصريون شجاعتهم وكاد جيش مصر رغم قلته يظفر بالجيش الانجليزى رغم كثرته ، ولكن وا أسفاه ، كانت الدسائس قد أفرخت فحيل بين المصريين وبين الظفر وهم منه على خطوة ، ولذلك كانت هذه فى الوقت نفسه أول معركة سجل فيها نفر من المصريين على أنفسهم عار الخيانة فى أقبح صورها وأشنعها ، وبسبب هذه الخيانة الغادرة حلت الهزيمة السوداء حين التمعت بوارق النصر ...

كانت لا تخرج خطة هذه المعركة فى جوهرها عن خطة المعركة الاولى ، وكان المصريون هنا كذلك البادئين بالهجوم على الانجليز ، وهى ظاهرة تسجل لهم بالحمد اذ كان عمل المصريين فى كفر الدوار قاصرا على الدفاع ..

وقد وصف بلنت هذه المعركة بقوله : « انها كانت افضل فرصة أتيحت للمصريين لصد تقدم الانجليز وآخرها ، ولم تكن بعيدا جدا من النجاح » ..

ويقول بلنت : « ولو أنها نجحت فليس يعرف ماكانوا لا يحصلون عليه من الاعتراف بهم ومصالحتهم ، وذلك لان الرأى العام فى انجلترا كان قد تغير فعلا فى هذا الوقت بالذات وأخذ الناس يشعرون بالخجل من حرب تشن على الفلاحين الذين يحاربون ليخلصوا حريتهم من استبداد قديم »

وكان قد وصل فى ٣١ أغسطس كما ذكرنا الى مصر ، با موافقة السلطان على اصدار قراره بعصيان عرابى ، نشرت صحف الآستانة هـذا النبأ وتناقلته الصحف لانجليزية والصحف المؤيدة للخديو ، وقد طرب لهـذا لنبأ توفيق باشا وأعوانه ايما طرب . وهرول سلطان اشا الى الاسماعيلية ليعمل على الاتصال ببعض ضباط لجيش المصرى بعد معركة القصاصين الاولى ، ورأى ن الفرصة سانحة ليوهم بعض المستضعفين أن حياتهم نتوقف فيما بعد على ما يفعلون الآن ...

قال عرابى فى مذكراته : « ولما بلغ الخديو هول هذه الواقعة أرسل وفدا الى الاسماعيليه مؤلفا من محمد سلطان باشا ، وعمر لطفى باشا ، وفريد باشا ، وزكى بك ابن أخت يعقوب باشا سامى ، وعثمان بك رأفت ، ومعهم مقادير عظيمة من نسخ الجوائب المندرج فيهـا منشور السلطان بعصياننا ، ومنشور الخديو القـاضى بمسـاعدة الانجليز وانه لا مطمـع لهم فى بلادنا ، وقد انضموا الى زهراب بك المعين مع الجيش الانجليزى من قبل ليبثوا العيون والجواسيس على جيشـنا وليتفقوا مع بعض الضباط المصريين الذين فسدت ضمائرهم ، وضعفت عزيمتهم ويوزعوا عليهم تلك المنشورات ... وقـد كلف بعض رجال الوفد المذكور بالتنقل فى البلاد الريفية لدعوة العمد والاعيان لطاعة الانجليز ومساعدتهم وفقا للمنشور الخديوى وقد انخدع وانضم اليهم فى هذه الخيانة السيد أفندى الفقى من مديرية المنوفية واحمد افندى عبد الغفار عمدة تلا ، وغيرهم من المصريين الذين انخلعت قلوبهم من منشور السلطان المندرج بالجوائب المشار اليها »

أحكم عرابى ورجاله وضع خطتهم للهجوم على الانجليز

وقد ذكر عرابى لصديقه مستر بلنت : أن السير شارلز ولسن أحضر لى خطة المعركة حين كنت بالسجن فى القاهرة وسألنى عما اذا كانت من رسم يدى فأجبته : نعم ، فأخبرنى كيف حصلوا عليها ، ثم قال : انها خطة جيدة وربما كنتم بها تنتصرون علينا »

ولكن ما جدوى احكام الخطة مع الخيانة فى أشنع صورها وقد أحدثت دسائس سلطان اثرها فى بعض صغار النفوس فهووا الى موضع يتندى وايم الله جبيننا خجلا اذ نذكره ! وأى شىء يخجل منه مصرى يتحدث عن تاريخ وطنه هو اشد وافظع من أن يقول ان مصريا من بنى وطنه أرسل وا اسفاه خطة المعركة بحذافيرها الى العدو ، بل لقد سرق النسخة الاصلية التى رسمها عرابى بيده فأضاف الى جريمة الخيانة فضيحة السرقة فكانت خيانة على خيانة ؟ وكان هذا المصرى الخائن هو على يوسف خنفس الذى وقف بآلايه فى ميسرة خط القتال ، وأى فضيحة فى تاريخ الحروب أفظع من هذه الفضيحة الفاضحة ؟

قال عرابى فيما تحدث به الى بلنت : « ان الخطة أفشيت للعدو على يد على يوسف خنفس الذى أرسل الرسم الاصلى الذى رسمته بيدى الى الجنرال ولسلى ، وكان هو وغيره من رجال الجيش قد أفسدهم أبوسلطان الذى كان يعمل لصالح الخديو »

وقال الشيخ محمد عبده : « فى واقعة القصاصين كان الرسم كما ينبغى وكانت العساكر المصرية يجب أن تزحف فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل على الجيش الانجليزى ، وما راع القواد المصريين آلا وجود الفرق الانجليزية زاحفة وآخذة جميع الطرق فى الساعة الواحدة وكانت الخيانة وصلت والنقود قد وصلت الى قلب

الجيش والى كثير من الضباط بسعى سلطان باشا ومراسلة العربان »

وليس فيما يذكره المتحدثون عن فنون القتال من شيء هو أشد خطرا على جيش محارب من أن تكون خطته معروفة لعدوه ، ذلك لانه بنى هذه الخطة على اساس مفاجأة العدو وأخذه من حيث لا يدرى ، فاذا عرف العدو الخطة انقلب الوضع وفوت على عدوه قصده وكان هو المباغت ، هذا فضلا عما يحدثه انكشاف الخطة فى النفوس من ذعر وقت القتال ...

قاد الجيش المصرى فى المعركة الفريق راشد باشا حسنى ، وقد بدأ الهجوم فى الثلث الاخير من الليل ، والتحم الجيشان والعدو على علم بالهجوم فلم يباغت وان كان قد فوجىء بابتداء المعركة ، لان علمه بخطتها ساعد على ثباته حتى ينجلى النهار ، وأسفر الصبح والمعركة حامية بين الجيشين ، والمدفعية من الجانبين ترسل قذائفها فى سرعة وقوة ، وتكافأ الفريقان على الرغم من تفوق الانجليز فى العدد ...

وتلفت قواد المصريين يتوقعون دخول محمود باشا البارودى الميدان قادما بجيشه من الصالحية ليكر على ميمنة العدو ، ولكنه تأخر عن موعده فلم يدخل فى غبش الفجر كما كانت تقضى به الخطة ، ولما كان الانجليز على علم بمقدمه فقد رصدوا له قوة من المدفعية حالت بينه وبين الوصول الى موضعه من المعركة ، ومما يذكر مع عظيم الاسف أن رجال سعود الطحاوى هم الذين أضلوه عن وجهته فى الصحراء فتأخر وصوله ...

ومضت ساعات ونار الحرب مستعرة ، وقد توالى الجزر والمد بين الجيشين ، وثبت كل من البطلين المصريين علي فهمي باشا وراشد باشا حسنى بطولة فذة طول النهار

ومن حولهم الجيش المصرى لا يتزحزح ولا يهن ...
ولكن المعركة قد انقلبت من أولها بسبب الخيانة الى معركة دفاعية بعد أن كانت خطتها هجومية ، قال مستر بلنت : « بناء على أقوال الجانب المصرى عن المعركة قد فوجىء العدو بالهجوم ، وظلت المعركة زمنا طويلا غير معروفة العاقبة ، وأوشك دوق كنوت فى وقت ما أن يقع أسيرا » . ثم أشار بلنت الى تأخر البارودى وسببه بما لايخرج عما ذكرناه الى أن قال : « ومن المؤكد أن احد القواد المصريين وهو على بك يوسف قد خان رفقاءه عن قصد » .

وظل القتال على أشده طول النهار ، ولكن القدر ابى الا أن يصيب المصريين بمصيبة لا تقل شأنا عن اسر محمود فهمى باشا ، كأن لم يكفه ما أحاط بهم من خيانة ، وذلك أن كلا من بطلى المعركة على فهمى وراشد حسنى قد تلقى رصاصة فى جسمه أقعدته ، الاول فى ساقه ، والثانى فى قدمه ، فخرجا من المعركة ، وبخروجهما ضعف هجوم المصريين وانقضى اليوم ولم يظفر بالنصر هؤلاء ولا هؤلاء .

قال عرابى فى مذكراته : « وأما راشد باشا حسنى وعلى باشا فهمى ومن معهما من الجيش ، فقد ثبتوا ثبات الابطال الى آخر النهار ، حتى اذا جرح راشد باشا حسنى فى قدمه برصاصة ، وعلى باشا فهمى برصاصة أيضا فى ساقه ، وخسر كل من الجيشين خسارة كبيرة من ضرب البنادق والمدافع التى كانت مقذوفاتها كالمطر المنهمر فى الميدان ، وكانت هذه المعركة أشد حرب نشبت بيننا وبين الانجليز ، اذ كانت قوة الجيشين عظيمة وثباتهم نادر المثال ، تراجع الجيشان بانتظام » .

قال الاستاذ محمد رفعت بك فى كتابه تاريخ مصر

السياسي فى الازمنة الحديثة : « وقـد ابلى المصريون بقيادة الفريق راشد حسنى باشا المعروف بابى شنب فضة فى هذه الموقعة بلاء حسنا ، فأوقعوا خسائر جمة بصـفوف الانجليز وزحزحوهم عن مواقعهم ، وكادوا يظفرون بالنصر الى أن جرح راشد حسنى جرحا بليغا ، فذاع الخبر بين المصريين وبدأوا يتقهقرون » .

وان وقفة المصريين على هذه الصورة الرائعة فى معركة القصاصين الثانية على قلة عددهم بالنسبة لعدد الانجليز ، اذ كان هؤلاء يقربون فيها من ضعفهم ، لتجعلنا نعتقد فى غير تردد أنه لولا الخيـانة لاحاط المصريون بجيش ولسلى فهزموه فى صحرائهم وهم القادرون على شمسها وحرها فى شهر سبتمبر ، ولولد فى هذا المكان عصر جديد فى تاريخ مصر ، ولازدانت ميادين عواصـمنا بتماثيل عرابى منقذ مصر ...

***

ارسل البطلان الـكبيران على فهمى وراشد حسنى الى القاهرة مع جرحى المعركة فى القطارات الخاصة التى أقلتهم ، وهكذا خلا الميدان الشرقي من ثلاثة رجـال هم من أعظم قواد عرابى خبرة وبسـالة .

وأخذ ذلك يحدث أثره فى نفوس المصريين ، فليس بالامر الهين غياب رجال من المعركة تعقد عليهم الآمال فى النصر ، وليس يخفى مايكون لشهرة القواد ولاسمائهم من وقع فى نفوس الجند ، تشتد به عزائمهم وتنتعش آمالهم .

على أن أعظم ما أثر فى النفوس وبث فيها التردد الذى هو مقدمة الهزيمة ، انما هو ما سعى به سلطان واعوانه من تخويف الجند والضباط من عاقبة بقائهم على الولاء لعرابى ، وقد جاءوا فى ساعة الفصل يوهمونهم أن النصر

للانجليز ، ولن يشفع لاحد بعد ذلك شفيع ، وسبيل الخلاص من العقاب الشديد هو ترك جانب عرابى على الفور قبل أن يحصى العصاة الثائرون على الخديو ، وان حسابهم فى الغد لعسير ...

ومن اكبر ما كفل النجاح لسلطان هو اذاعة قرار الخليفة بعصيان عرابى، ذلك القرار الذى بذلت انجلترا ما بذلت من جهد للحصول عليه من عبد الحميد الذى يعد بفعلته هذه شريكا فيما وقع من خيانة ، فقد طعن بهذا القرار عرابى من وراء ظهره بعد الذى أبداه من عطف عليه وعلى حركته ، ولئن كان بالامس قد أنعم عليه بالوسام المجيدى الاكبر ، فها هو ذا اليوم يثبت فى ظهره الخنجر ...

ولقد نشط سلطان ومن أخذ مأخذه من أعوان الخديو فى نشر أنباء القرار بمجرد ان وافق عبد الحميد على اصداره ، وراحوا يوزعون على الجند والضباط ، كما بينا ، أعدادا من الصحف التى نشرت هذا النبأ منذ نهاية أغسطس ، بل لقد أرجفوا به قبل ذلك ، وما زالوا يرجفون حتى أصبح ارجافهم حقيقة ، فلما نشر القرار فى اليوم السادس من سبتمبر ، وأذاعت نصه جريدة الجوائب ، استحضر الانجليز آلافا من نسخ هذه الجريدة ، وشمر سلطان وفريقه سواعدهم فوزعوا هذه النسخ على الجيش قبيل معركة التل الكبير ..

ومن السهل أن ندرك مبلغ ما كان لهذا القرار من أثر فى نفوس الجند الذين كانوا يعتقدون أن جهادهم كان وطنيا دينيا فى وقت واحد ، فهم جند مصر وجند السلطان خليفة المسلمين الذى يعتدي الانجليز الكفرة على حقوقه .

وكان نص هذا القرار ما يأتى : « ان الدولة العلية

السلطانيــة تعلن أن وكيلهـا الشرعى بمصر هو حضرة فخامتلو دولتلو محمد توفيق باشا ، وان اعمال عرابى باشا كانت مخالفة لارادة الدولة العلية ، ثم التمس من جناب الخديو العفو فعفا عنه ، ونال أيضا من الحضرة السلطانية العفو العام ، وان الشرف الذى ناله أخيرا من الحضرة العلية السلطانية ، انما كان من تصريحه بالطاعة لاوامر مولانا السلطان المعظم الخليفة الاعظم .

وقد تحقق الآن رسميا أن عرابى باشا رجع الى زلاته السابقة واستبد برئاسة العساكر بدون حق ، فيكون قد عرض نفســه لمسئولية عظيمة لاسيما انه تهـدد أساطيل دولة حليفة للدولة العلية السلطانية ..

وبناء على ما تقدم يحسب عرابى باشا وأعوانه عصاة ليسوا على طاعة الدولة العلية السلطانية .

وان تصرف الدولة العلية السلطانية بالنظر الى عرابى باشا ورفقائه وأعوانه يكون بصفة أنهم عصاة ، ويتعين على سكان الاقطار المصرية حالة كونهم رعية مولانا وسيدنا الخليفة الاعظم أن يطيعوا أوامر الخديو المعظم الذى هو فى مصر وكيل الخليفة وكل من خالف هذه الاوامر يعرض نفسه لمسئولية عظيمة ، وان معاملة عرابى باشا وحركاته وأطواره مع حضرة الســـادات الاشراف هى مخالفة للشريعة الاسلامية الغراء ومضادة لها بالكلية (١)

والواقع أن هذا المنشور كان ضربة شديدة لعرابى ، بل أنا لا نسرف اذا قلنا انه قد فعل وحده بجيش عرابى ما لم تفعله الجنود الانجليزية مجتمعة ...

قال عرابى : « ولمـا نشر منشور السلطان بعصياننا ومن معنا بجريدة الجوائب ارضاء للانجليز أرسل منه مئات الالوف الى الهند والافغان والحجـاز والعـراق

(١) من مذكرات عرابى المخطوطة

والترك ومصر والمغرب الاقصى وجميع بلاد الاسلام بواسطة أبوسلطان باشا ومن معه من المخدوعين ــ كما أسلفنا ــ وتذمر بعض أمراء العسكرية وقالوا : اننا اذن عصاة على السلطان مخالفين لكتاب الله وسنة رسوله كما فعل محمد على باشا رأس العائلة الخديوية وابنه ابراهيم باشا ومن مات منا مات عاصيا لا أجر له مثل الذين ماتوا من المصريين فى قتال الدولة العلية ، فنصحناهم بأن هذا المنشور مخالف لاحكام الدين الاسلامى لاننا انما نقاتل أعداء المسلمين الذين يريدون أن يستولوا على بلادنا الاسلامية وأن الجهاد فى سبيل حماية الدين والمال والوطن فرض واجب علينا وأن سلطان المسلمين لايسمح بمثل هذا المنشور وانما هو دسيسة انجليزية تمكنوا من انفاذها بواسطة الرشوة ، ولو فرض وصدر مثل ذلك من سلطان المسلمين لوجب على المسلمين خلعه لمخالفته لاحكام الدين ..

الا أن تلك النصائح لم تؤثر فى الذين يجهلون أحكام الدين مثل أحمد بك عبد الغفار قومندان السوارى ، وعبد الرحمن بك حسن حكمدار ٢ جى آلاى سوارى وعلى بك يوسف ميرالاى ٣ جى بيادة ، ولكنهم اظهروا قبول ما أوضحناه لهم وأسروا الغدر والخيانة ، والحساب على الله »

***

واشتدت حيرة عرابى بعد اصابة على فهمى وراشد حسنى ، من يخلفهما على القيادة ، وكان عبد العال حلمى خير من يصلح لهذا ولكنه كان بدمياط مع الآلاى السودانى للدفاع عن هذا الموضع الهام مخافة أن ينزل الانجليز به فرقا بقصد تطويق التل الكبير ...

واستدعى عرابى على باشا الروبى من مريوط ، فكان

حضوره قبل معركة التل الكبير بيوم واحد ، ولذلك لم يستطع أن يدرك حقيقة الحال فى الميدان ادراكا تاما ، ولم يكن له فى الواقع مثل منزلة على فهمى أو راشد حسنى فى القيادة ولكنه كان من أكبر المخلصين لعرابى

لم تكن خطوط الدفاع فى التل الكبير متبنة كخطوط كفر الدوار لانها انشئت على عجل ، وقد عمل فى انشائها آلاف الفلاحين باشراف محمود باشا فهمى قبل اسره . وكانت عبارة عن خنادق جافة تمتد نحو ستة كيلومترات من الجنوب الى الشمال وتتراوح أعماقها بين متر ومترين واتساعها بين مترين وثلاثة أمتار .

وكان مركز الجيش المصرى على هضبة وراء هذه الخطوط يبلغ ارتفاع قمتها نحو ٣٠ مترا وتنحدر انحدارا بطيئا نحو الشرق والشمال ، وعلى المنحدر الشرقى للهضبة وراء مركز الجيش أقيمت خيمة عرابى على بعد أربعة آلاف متر من الخطوط الامامية .

وكان جيش عرابى لا يزيد عن ١٢ ألف جندى من الجنود النظامية (١) وكانت بقية الفرق النظامية فى كفر الدوار بقيادة طلبة عصمت وفى دمياط بقيادة عبد العال حلمى .. على أن عرابى استحضر أورطتين من الآلاى السودانى بدمياط فانضمتا الى جيش التل الكبير ... وكانت مدفعية هذا الجيش تتألف من نحو ٧٠ مدفعا

أما جيش ولسلى فكان يتألف من ١٣ ألف حسب ما جاء فى تقريره الذى أرسله الى حكومته عن الواقعة وكان معه نحو ٦٠ مدفعا .

وكان سعيد الطحاوى لا يفتأ يلقى فى روع عرابى أن الانجليز لم يعدوا العدة للزحف بعد ، وكان كلما سأله عرابى عن حركات الجيش الانجليزى أملت عليه خيانته

(١) حسب احصاء بلنت وقد استقاه من عدة روايات مصرية .

ان يهون أمرها ويوحي الى عرابى أن بين الانجليز وبين الزحف أيام ويقبض ثمن هذا الكلام ، ثم يذهب الى المعسكر الانجليزى فيطلع ولسلى على كل ما يهمه معرفته، ويبسط يده لذهب الانجليز ولا ينسى نصيبه كذلك من سلطان ...

وفى اليوم الثانى عشر من سبتمبر ارسل على يوسف من المقدمة الى عرابى يقول : ان الانجليز لن يتحركوا اليوم ، فركن الجيش الى الراحة بأمر قواده ...

وان بعض المؤرخين ليعيبون على عرابى أنه لم يضع فى مقدمة الجيش طلائع ترشده عن حركات العدو، وانه يحق للمرء أن يعجب من انكار الحقائق على هذه الصورة فهل كان هؤلاء يريدون أن ينسبوا الخطأ الى عرابى ، أم كانوا يريدون أن يخفوا خيانة على يوسف ؟

وفى مساء ذلك اليوم نفسه ١٢ سبتمبر تأهب ولسلى للزحف ، واختار الليل كى يتقى حر النهار وكى يتخذ من الليل ستارا لخطته القائمة على المباغتة التى هيأ لنجاحها سعيد الطحاوى وعلى خنفس !

وزحف الجيش فى سكون بعد منتصف الليل بساعتين، وقد شدد ولسلى التحذير وأمر بألا يرتفع صوت أو توقد نار ، الا نار المعسكر الانجليزى التى تركوها وراءهم ايهاما للجيش المصرى بأنهم لايزالون قائمين فى خطوطهم لايتحركون ...

وكان يرشد الجيش الانجليزى فى الصحراء ضباط من بحارة الاسطول ممن يعلمون الاهتداء بالنجوم ، ولكن علمهم لم يغنهم شيئا فكان اعتماد ولسلى على نفر من الضباط المصريين الموالين للخديو تقدم ذكرهم ، وعلى فريق من عرب الهنادى اشترى الانجليز ذممهم بالمال ، إن كان لهم ثمة من ذمم ...

وتقدم جيش ولسلى مطمئنا لا يتهيب طلائع الجيش المصرى ، ولكن فيم التهيب وقد كان فى مقدمه الطلائع عبد الرحمن حسن قائد فرقة الاستطلاع السوارى ، ثم يليه من ورائه خنفس ؟ وكان عبد الرحمن قد انضم الى الانجليز والخديو ، كما انضم خنفس، وقبل الرشوة كما قبلها خنفس، ولم يعرف مقدار ماأخذ عبدالرحمن، أما خنفس فانه بعد الحرب لم يخجل من أن يشكو لانه لم ينل سوى ألف جنيه ولانه لم يمنح ما وعد به ، وهو عشرة آلاف جنيه (١) ، كأنما كان يريد أن يكون نصيبه مثل نصيب سلطان نفسه كبيرهم الذى علمهم الخيانة !

وكان عبد الرحمن يحرس الطريق الآتى الى الصحراء من الشرق ، فاتجه بفرقته الى الشمال ، وترك الجيش الانجليزى يمر فى سلام وامن وليت شعرى كيف تبلغ خيانة هذا الانسان مبلغها هذا ، وفى أى معارك الدنيا نعثر على مثيل لها ؟ !

ومر الجيش الانجليزى حتى كان على مقربة من موضع خنفس ، فكان هذا أعظم خيانة من سلفه فانه لم يكتف بترك الجيش الانجليزى يمر ، بل وضع له الفوانيس على المسالك التى يخترقها فى يسر ، وأنا لنحتقر أن نعقب على ما فعل خنفس بكلمة ...

وكان المصريون نائمين فى خطوطهم فما راعهم الا أصوات البنادق والمدافع والرصاص يحصدهم فى صورة وحشية مروعة ، وكان ذلك فى الساعة٤ والدقيقة ٤٥ صباحا ...

وكان هجوم الانجليز على نصف دائرة فاحاطوا بميمنة المصريين وميسرتهم وتقدمت فرقة من المدفعية حتى صارت وراء خطوطهم وفتكت بنادق الانجليز ومدافعهم

(١) S. H. Blunt p. 421

بالمصريين فتكا ذريعا ، ولم تكن هذه فى الواقع معركة ولكنها كانت فرصة فى الصحراء لا ندرى كيف يجعلها الانجليز من مفاخر ولسلى فينعمون عليه من اجلها بلعب اللورد وكان خليقا بهم أن يدركوا أنها من مخازيهم ومخازيه ، فهذا السطو القائم على الخيانة والغدر أقرب الى عمل اللصوص منه الى عمل الجند ، وان تبجح العسكريون بأن الحرب تبرر كل شىء ...

وفر أكثر الجيش المصرى مذعورين ، ولكن الميدان فى هذه المحنة وفى هذه المباغتة التى تطيش فيها الاحلام لم يخل من نفر من المصريين حفظوا شرف قومهم من الانهيار ، فأثبتوا فى مستنقع الموت أرجلهم والهول محيط بهم والموت ياتيهم من كل مكان ، وان جلال عملهم هذا ليمحو من النفوس شيئا كثيرا مما تركته فيها خيانة خنفس ومن حذا حذوه من الخزى والالم ، وهؤلاء الابطال الميامين البواسل هم ، الشهيد البطل الميرالاى محمد عبيد ، وأحمد بك فرج ، وعبد القادر بك عبد الصمد ، وحسن أفندى رضوان

وقف هؤلاء الاربعة بفرقهم مستبسلين وكان مجموعها لايزيد عن ثلاثة آلاف ، وكان أكثرهم بسالة واقداما ، محمد عبيد بطل الهجوم على قصر النيل يوم أن أخرج عرابى وصاحبيه من سجنه ، فقد صمد هنا للانجليز برجاله السودانيين وأوقف زحفهم وقاتلهم قتالا شديدا مات فيه معظم رجاله فتقدم واستقبل الموت راضيا مرضيا ، وذهب شهيد وفائه وبطولته

ويلى محمد عبيد فى البسالة حسن رضوان قومندان الطوبجية الذى أصلى الانجليز نارا حامية بمدافعه وأوقع بهم رغم تفوقهم خسائر جسيمة حتى سقط جريحا فى الميدان ، ولما حمل اسيرا الى ولسلى واقبل يقدم له

سيفه لم يشأ أن يأخذه منه احتراما له وأثنى على بسالته
واستمرت المعركة بين هؤلاء البواسل وبين الانجليز نحو ٤٠ دقيقة ، وكان القتلى من المصريين نحو الفين ، أما الجرحى فلم يحص عددهم لفرارهم ، وأما الانجليز فقد قتل منهم ٥٧ ، منهم ٩ ضباط ، وجرح ٤٠٢ ، منهم ٢٧ من الضباط .

وأما غنائم الانجليز فكانت مدافع الجيش المصرى ومهماته وذخائره ومؤونته جميعها ...

وأما عرابى فكان يؤدى صلاة الفجر فانتبه على صوت المدافع وكانت خيمته على نحو الف متر من المعركة ، وأرسل اليه على الروبى لينتقل الى موضع آخر حيث ان الانجليز أوشكوا أن يحيطوا بالجيش ...

وأدى عرابى الصلاة ولبس ملابسه العسكرية وركب جواده واتجه الى حيث كان يوجد نحو الفين من الرجال على مقربة من خيمته فدعاهم ليذهبوا معه صوب المعركة ولكن كان أكثرهم من الاحتياطى فولوا الادبار خائفين ، فاتجه صوب المعركة الى حيث كان يقف محمد عبيد ، فرأى الفارين قادمين فى ذعر ، وعبثا حاول أن يحملهم على الوقوف ، وكانوا يلقون أسلحتهم وما منهم الا من يجرى على ساقى نعامة !

واقترب الانجليز حتى صاروا على نحو ٦٠٠ متر من خيمته وأطلقوا عليها قذيفة اقتلعتها وأطاحت بها فى الهواء ، وألح على عرابى خادمه محمد سيد أحمد (١) أن ينجو بنفسه اذ لا فائدة بعد ذلك من القتال ولوى عنان فرسه بالقوة وما زال يتوسل اليه حتى أطاعه .

ويذكر جون نينيه فى كتابه أن الذى حمل عرابى على طلب النجاة هو طبيبه لا خادمه قال : « ونجا كل الخونة لانهم

---
(1) S. H. B. p. 422

دبروا فرارهم قبل خوض غمار المعركة الصورية المزيفة ليعلنها الانجليز نصرا مؤزرا ، وهم يعلمون أنها كانت تكون لهم هزيمة منكرة لو لم يلجأوا الى الخيانة والرشوة ... وكنت بجانب عرابى وبيدى بندقية ، ولما أوشك الانجليز أن يطبقوا على عرابى رجوته فى الثبات فاستعد للموت والاستشهاد ، ولكن طبيبه الدكتور مصطفى بك نصح له بالفرار على صهوة جواده » (١)

وفى قول جون نينيه أبلغ رد على الذين يقولون ان عرابى ما كاد يعلم نبأ ما حدث فى المعركة حتى ركب جواده ولاذ بالفرار ...

أما بعض من لا تمتلىء قلوبهم سخيمة على عرابى ، فيقولون انه كان خيرا له لو أنه استشهد فى معركة التل الكبير ، ونحن نميل الى رأيهم هذا فلو أنه قتل فى المعركة لتخلص من السجن ومن النفى الى سيلان ومما تقول عليه المبطلون من الفرار والجبن وما اليهما ، كما كان خيرا لنابليون لو أنه قتل فى وترلو ولم يذهب الى سانت هيلين ...

ولكنا نعجب أشد العجب من جرأة الذين يجترئون على الحق بقولهم انه فر من خوف ويأس ، فان من الحقائق الثابتة بالادلة كما سنبين ذلك فى موضعه أنه عجل بالذهاب الى القاهرة ليدافع عنها قبل فوات الوقت وقبل أن تؤثر فى نفوس أعضاء المجلس العرفى انباء الهزيمه وأدعى من هذه الجرأة الى العجب انكار الذين ينكرون عليه محاولته الدفاع عن القاهرة ، وأن هؤلاء لمن الذين يكتبون التاريخ كما تشاء أهواؤهم لا كما حدثت حوادثه ، وذلك لأنهم يريدون بالكتابة غرضا فى أنفسهم .

---

(١) العبارة من تعريب الاستاذ محمد لطفى جمعة .

يقول عرابى عن معركة التل الكبير ما يأتى : «وطلبنا على باشا الروبى قومندان مريوط ليتولى قيـــادة جيش رأس الوادى فحضر فى عصر يوم الثلاثاء الموافق ٢٨ شوال سنة ١٢٩٩ ـ ١٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢ وتوجه توا الى المقدمة فأمر بانتقال الآى على بك يوسف (خنفس) وعبد القادر بك عبد الصمد من الجناح الايسر الذى كان مائلا الى الوراء على شكل زاوية منفرجة ليحمى العسكر من هجوم العدو، ووضعهما على استقامة الخط المستحكم الممتد من الترعة الحلوة الى الجهة الشرقية ، وأمرهما باتخاذ دروة خفيفة من التراب فى أثناء الليل ، فعمل عبدالقادر بك عبدالصمد خط استحكام خفيف بعساكره حيث كان فى نهاية الجناح الايسر ، وأما على بك يوسف فانه جمع عساكر الآيه فى هيئة القول ، ولم يجر عمل شىء يقيهم قاذفات العدو اذا هجم على الجيش، وتقدم أحمد بك عبد الغفار وعبد الرحمن بك حسن بعساكر السوارى الى الامام على بعد ألفى متر ليمنعوا تقدم العدو اذا أراد الهجوم على معسكرنا ، ولكن وامصيبتاه خاب الامل فيهما ، وفى يوم ٢٩ شوال سنة ١٢٩٩ ـ ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ كنت فى صلاة الفجر ، اذ سمعت ضرب المدافع والبنادق بشدة ، فخرجت ونظرت فوجدت ضرب النار على طول خط الاستحكام ، ورأيت بطـــارية طوبجية سوارى على مرتفع من الارض تبعد عن الخيمة التى كنت فيها بنحو ٦٠٠ متر صبت مقذوفاتها على مركزنا العمومى ، وكان مركزنا المذكور خلف الاستحكامات بأربعة آلاف متر ولم يكن هناك الا الاهالى المتطوعون مع الشيخ محمد عبد الجواد وأخيــه الشيخ احمد عبد الجواد ، وجابر بك من بندر ببا بمديرية بنى سويف ، وكانوا نحو ألفى نفر فدعوناهم للهجوم معنا على تلك

البطارية فامتنعوا ، وذهشوا ، فذكرناهم بحماية الدين والعرض والشرف والوطن ، ولم يجد ذلك نفعا ، بل تفرقوا فرارا ، فجاء ضابط من طرف على باشا الروبى القومندان الجديد يخبرني باتخاذ مركز آخر ، ثم نظرت فوجدت الميدان مزدحما بالخيل والجمال والعساكر ، مشتتين وموليين ظهورهم للعدو ، فذهبت الى القنطرة التي على الترعة هناك لأمنع العساكر عن الفرار ، وصرت اناديهم واحرضهم على الرجوع والثبات والصبر على قتال العدو ، واذكرهم بالشرف الاسلامى والعرض والوطن ، فما كان من سميع ولا بصير ، فألقوا بأنفسهم في الترعة وسبحوا الى البر الغربي ، فذهبت الى بلبيس لجمع المنهزمين هناك واتخاذ مركز آخر لمنع العدو من الوصول الى القاهرة ، وكان معى أخي السيد صالح عرابي وخادمى محمد ابراهيم وجاويش بروجي يدعى عطية محمد ، فقط ، وكانت قاذفات الطوبجية السوارى تتساقط علينا من كل جهة حتى تركنا حدود التل الكبير ، فلما وصلت الى بلبيس وجدت على باشا الروبى سبقنى اليها ، فسألته عما دهاهم ؟ فلم يزد على قوله انه خذلان ، وكان على اثرنا فرقة من خيالة العدو فهجموا علينا ، فأرخينا للخيل العنان حتى وصلنا الى محطة انشاص ، فوجدنا هناك قطارا فركبناه وذهبنا الى القاهرة لاتخاذ الوسائل اللازمة لحفظها من الاعداء قبل وصولهم اليها ، واسباب هذا الخذلان هو انه في خلال تلك الايام كانت الرسائل تبعث من قبل الخديو الى كبراء الضباط بالوعد والوعيد معلنة لهم أن الجيش الانجليزى لم يحضر الى مصر الا بامر من السلطان خدمة للخديو وتاييدا لسلطته وكانت توزع تلك الرسائل بواسطة محمد باشا أبى سلطان رئيس مجلس النواب ومن معه الذين هم مع

الانجليز ، فى الاسماعيلية بأمر الخديو وبواسطة الجواسيس من المصريين كأحمد عبد الغفار عمدة تلا ، والسيد الفقى العضوين فى مجلس النواب عن مديرية المنوفية ، وأثروا على قلوب على بك يوسف قومندان الآلاى الثالث ، وأحمد بك عبد الغفار قومندان السوارى لشدة ضغط ابن عمه عليه ، وعبد الرحمن بك حسن حكمدارآلاى السوارى الثانى وحسن بك رأفت قومندان الطوبجية ، واستمر ذلك الى ان كانت ليلة الاربعاء ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، فأشاع على بك يوسف أنه علم من الجواسيس أن الانجليز لايخرجون فى هذه الليلة من مراكزهم ، ولذلك لم يفعل ما أمر به على باشا الروبى من عمل خط استحكام من التراب ، وجمع عساكره فى نقطة واحدة فى شكل قول وكانت العساكر الانجليزية قد سارت من أول الليل وفى مقدمتها بعض ضباط أركان حرب من المصريين الذين انحازوا الى الخديو بطرف الانجليز ، وأمامهم عربان الهنادى يرشدونهم الى الطريق واستمروا سائرين الى أن بلغوا المقدمة فى آخر الليل ، وكانت من السوارى تحت حكمدارية أحمد بك عبدالغفار وعبد الرحمن بك حسن ، فبدل أن تناوش العدو القتال وتوقف سيره رجعت أمامه كأنها تقوده الى أن بلغوا محل آلاى على بك يوسف الذى كان خاليا من عساكره فمروا بين العساكر بلا مانع يمنعهم ، وأطلقوا النار على الاستحكامات من الخلف والامام ، وأوقعوا بالجند على حين كان راقدا ، فدهشت العساكر وتولاها الذهول ، حيث رأوا ضرب النار عليهم ومن خلفهم وأمامهم ، فألقوا أسلحتهم وفروا طالبين النجاة لانفسهم الا آلاى المشاة الاول حكمدارية أحمد بك فرج وآلاى محمد بك عبيد وآلاى عبد القادر بك عبد الصمد فانهم ثبتوا فى مراكزهم

وقاتلوا أعداءهم حتى النهاية ، فاستشهد منهم من استشهد وجرح من جرح ، وصار الميدان ظلاما من دخان البارود ، واختلط الجند المنهزم بالحيوانات المنتشرة في تلك الصحراء الواسعة ، واشتعلت النار بعربات السكة الحديد التي بها الذخيرة الحربية وما جاورها من عربات المئونة من قاذفات الطوبجية السوارى التى عمدت الى ضرب المركز العمومى .. وهكذا تم استيلاء الانجليز على مركز التل الكبير ومهماته وذخائره ، وبه كانت نهاية الحرب والخسارة عظيمة بسعى الخديو ومن انحاز اليه من المصريين الذين نشأوا تحت ضغط الاستبداد ، واستمرأوا عيش الاستعباد ، وبمساعدة المنافقين من عمد وأعيان المنوفية وعرب الهنادى بالشرقية الذين كافأهم الخديو ، خصوصا الشيخ احمد ابوسلطان واخوته من عربان الهنادى القاطنين بالشرقية ، فان الخديو اقطعهم خمسة آلاف فدان فى رأس الوادى مكافأة لهم على خيانتهم للدين والوطن الذى نشأوا فيه » ..

وقال فى حديثه الذى أفضى به الى صديقه بلنت بعد عودته من المنفى : « أديت الصلاة واسرعت بجوادى الى حيث كان يوجد الاحتياطى ، وناديتهم ليذهبوا معى ، ولكنهم كانوا جماعة من الفلاحين فحسب ، وكانت القذائف تتساقط بينهم فولوا هاربين ، فاتجهت وحدى بجوادى الى الامام ولم يكن معى الا خادمى محمد ، فحينما رآنى وحيدا وأدرك أنى ذاهب الى الموت المحقق أمسك بجوادى وتوسل الى أن أرجع ، ولما رأيت أننا خسرنا المعركة وان الجميع كانوا يفرون ، رجعت ومعى محمد ، وعبرنا الوادى عند التل الكبير وسرنا فى محاذاة ترعة الاسماعيلية حتى بلغنا بلبيس ، وهناك كونت معسكرا جديدا ورأيت على الروبى قد سبقنى الى هناك فاتفقنا

على الوقوف فى بلبيس ، ولكن ما أن وصل فرسان دروری لو ، حتى هم الجميع بالفرار ولم يرض أحد أن يقف فتركنا كل شيء وركبنا قطارا الى القاهرة » .

***

من مهازل السياسة حقا أن تركيا كانت حتى ذلك اليوم ، يوم التل الكبير لاتزال تفاوض انجلترا فى شروط ارسال جيش عثمانى الى مصر، وكان السلطان فى نفس هذا اليوم قد دعا اليه دوفرين فى قصره فمكث عنده ١١ ساعة في أخذ ورد ..

ولما بلغت أوربا هزيمة التل الكبير كانت فرنسا أول من اشار على انجلترا بانه لم تعد ثمة حاجة الى ذلك المؤتمر الثنائى المزمع عقده ، وكانت فرنسا لا تميل الى وجود جند عثمانيين بمصر وذلك جريا وراء ميلها من أول الامر ...

وافضى الخديو الى مالت « أنه ان كان ثمة شيء من شانه أن يزيد قيمة النصر ، فذلك أنه قد قضى على كل حجة للتوقيع على مؤتمر مع تركيا ، وانه لينظر الى الماضى والحزن ملء نفسه اذ يفكر فيما كان عسى أن يحيق بمصر من خطر لو أن السلطان استطاع بجنوده أن يتدخل في شئون مصر » (١)

لذلك أبرق جرانفل عصر ذلك اليوم المشئوم الى دوفرين يقول : « ان حكومة جلالة الملكة ترى وقد قضى الامر أن صاحب الجلالة السلطان لم يعد يجد هناك حاجة لارسال جند الى مصر » . وانقطعت بذلك المفاوضة بين الدولتين وأسدل الستار هنا كذلك على مهزلة من أسخف مهازل السياسة

وبادر المسيو تيسو سفير فرنسا بلندن الى مقابلة

(١) M.E. Cromer p. 248

جرانفل وهناه باسم الحكومة الفرنسيةعلىهذا الانتصار ولم تدر فرنسا أن هذا الانتصار هو خيبة كبرى لسياستها في مصر ، أو لعلها كانت تتبع مثل أساوب النعامة ، ورد جرانفل بقوله : « ان واقعة التل الكبير انما هى انتصار لاوربا فلو أن الجيش الانجليزى قد هزم فيها لكان ذلك كارثة على جميع الدول التى يقلقها التعصب الاسلامى »(١)

وهنأ مسيو دوكلرك رئيس وزراء فرنسا السفير الانجليزى بباريس قائلا : « ان انتصار الانجليز على العرب فى مصر أمر طيب النتائج لفرنسا فى كل من تونس والجزائر » (٢)

والمسألة كلها من جهة فرنسا مسألة جشع استعمارى لا أقل ولا أكثر ، والحق ان المرء قلما يقع على ما هو أقبح وأرذل من جشع فرنسا فى الاستعمار ، تلك الدولة التى تزعم انها موطن الحرية وبلد الديموقراطية ، الا انها أوهام انخدع بها الشرق زمنا فسهل التهامه ثم أخذ يتعلم المدنية والحرية على أيدى آكليه ! عقب روثستين فى كتابه المسألة المصرية على انتصار انجلترا بقوله : « وهكذا صدقت الاحلام ، اننا اذا جرينا على رأى أنصار الاحتلال قلنا ان مصر انما صارت الى الانجليز مصادفة واتفاقا ، ولكن الذين يكونون قد قرأوا هذه القصة بشىء من التنبه والالتفات يقولون معنا ان السياسة البريطانية والجمهور البريطانى لم يهملوا قط الانتفاع بكل حادث من شأنه تسليم مصر الى انجلترا ، وأنهم كانوا اذا ما أعوزتهم الحوادث خلقوها بالكيد والاحتيال ، وان انجلترا فى جميع علاقاتها بمصر لم تخفف عنها الوطأة لحظة واحدة ، بل كانت على العكس تجتهد فى شد الوطأة

(١) الكتاب الاصفر سنة ١٨٨٢ ـ ٨٢ وثيقة رقم ٦٤
(٢) الكتاب الازرق رقم ١٨ وثيقة رقم ١٣٣

عليها ما استطاعت وفى احلال نفسها محل فرنسا التى كانت تنافسها وتباريها ، وانه لم يكن من سبب لجميع عدائها لاسماعيل باشا ، ثم لعرابى من بعده غير خوفها بحق ان مصر اذا كانت دستورية سهل عليها الافلات من قبضتها ، وانها لم يمنعها أن تغلظ على مصر ويضطرها الى استعانة الباب العالى غير ظنها ان كل محاولة منها لضم مصر توقعها فى حرب مع أوربا ، أو على الاقل فى مشاكل لا يستهان بها وانها عندما رات أن هذه المخاوف لا أساس لها اغتبطت بتلك المفاجأة اللذيذة ، ولا يفوتنا ان نذكر أنها هى نفسها الى هذا كله كانت عاملا فعالا فى الامر ، فقد سعت الى تالك « المفاجأة » عندما برزت الى حومة الوغى وتحدت بضربها الاسكندرية دون أوربا كلها » (١)

(١) العبارة من تعريب الاستاذين العبادى وبدران .

أودت الخيانة بعرابي

« الولس كسر عرابى » ... هذه هى الكلمة الجديدة التي حلت فى أفواه المصريين وا أسفاه محل الكلمة السالفة «الله ينصرك ياعرابى» ولايزال الناس فى القرى حتى يومنا هذا كلما استفظع أحد الغش أو الخيانة وأراد أن يعبر عن سوء عاقبتهما قال فى جد وألم : « الولس كسر عرابى » ...

وها نحن أولاء نرى بعد معركتى القصاصين الثانية والتل الكبير مبلغ ما فى هذه العبارة من صدق

ولسنا نريد بذلك أن الخيانة وحدها هى التى أدت الى الهزيمة فقد كان للهزيمة عاملان آخران على قدر كبير من الاهمية الا وهما اهمال الميدان الشرقى وانضمام الخديو الى الانجليز من أول الامر ، وانما نريد أن نقول ان العامل الجوهرى فى الهزيمة كان الخيانة ، بمعنى أنه لو لم ينكب بها الجيش لكان من المرجح نجاحه فى رد الغزو عن البلاد ، وبعبارة أخرى لو فرضنا أن المصريين كانوا حصنوا حدودهم الشرقية كما حصنوا خطوط كفر الدوار ، وردموا القناة ، ثم وقعت الخيانة على الصورة الشنيعة التى ذكرناها لانحلت العزائم ووقعت الهزيمة ولو بعد حين .. اذ انه ليس من الضرورى أن تفعل الخيانة فعلها أثناء القتال فحسب ، فمن الميسور احداث فتنة داخلية أثناء الحصار تؤدى الى انهيار الدفاع كله ، وكنا نرى الهرب والخوف وقطع المدد عن الجيش فى

الخطوط وما الى ذلك من عوامل الفشل. وماكان سلطان ومن معه يغفلون عن هـذه الناحيـة التى بدأوا بعض خطواتهم الأثيمة نحوها فعلا، والتى أغناهم عنها ماحدث فى صفوف الجيش ...

ولقد رأينا مبلغ اهتمام الانجليز والخديو بهذا السلاح فجاءت الخيانة على عدة صور فقبائل البدو فى الصحراء قد افسدها بالمر ، وجل ، وسلطان ، وبعض ضباط الجيش أصبحوا فى جانب العدو الى درجة لم يعرف لها نظير فى تاريخ الحروب والسلطان نفسه يعلن عصيان عرابى فى الساعة الفاصلة ، وليت شعرى ماذا كان يصنع بونابرت نفسه لو أنه أحيط بما أحيط به عرابى ؟

وثمة صورة أخرى من صور الخيانة أحاطت بعرابى، الا وهى حقد بعض رجاله عليه اذ رأوه وقد كان دونهم يغدو رجل الامة ومناط رجائها ، ولعل ذلك هو ما أحفظ سلطان عليه وجعله يسعى سعيه ضده ...

ولكن خطر هذا الحقد كان فى صفوف الجيش وقد أشار بلنت الى ذلك فى قوله : « ولو أن طبقات الجيش الدنيا قد اتبعت عرابى فى ولاء وحماسة شديدين ، الا أنه أثار حقدا ليس بالقليل بين رجال طبقته العليا من الضباط وذلك لانهم كانوا يعدون انفسهم كجند أكفأ كثيرا منه » (١)

وذكر بلنت فى موضع آخر فيما أورده فى يومياته سنة ١٨٨٤ ، أن الامير كامل (٢) قال له : « أن عرابى قد خانه كل من كانوا حوله ، وقد خانه بعضهم ابتغاء الحصول على الذهب ، وبعضهم بدافع الحقد ، وقد كان محمود سامى يحقد على عرابى ولذلك أفسد معركة

(1) S. H. B. p. 431
(٢) الامير كامل باشا فاضل ابن الامير مصطفى فاضل

القصاصين الثانية فقد كان عليه أن يتقدم من الصالحية ولكنه لم يصل في الموعد الذى اتفق مع على فهمى عليه »

ولقد شك بلنت فى يعقوب سامى نفسه رئيس المجلس العرفى وقال عنه انه تأثر كذلك بمسعى الخديو آخر الامر ولو أن الخديو نفاه مع من نفوا الى سيلان : « وان الاوراق لناطقة بالادلة القوية على حقده على عرابى ، ومن الممكن أنه بعد أن عجز على فهمى بسبب اصابته ، أن يكون قد بذل أقصى ما فى وسعه ليضع عرابى فى عزلة كي يعجل انهياره فى التل الكبير ، فانه بدلا من أن تعطى القيادة لعبد العال اعطيت لرجل موال ولكنه غير كفء لها وذلك هو على باشا الروبى »

ومن السهل على المرء ان يرى الهزيمة ماثلة فى جيش هذا حاله ، وأن يدرك استحالة النصر على قائد تحيط به مثل هذه المهلكات التى تكفى واحدة منها للقضاء عليه

نقول من السهل أن يدرك المرء ذلك حتى ولو لم يعلم ما حدث من خيانة سافرة غادرة أثناء القتال ، وحسب المرء أن يذكر من هذا ارسال الخطة الى العدو فى معركة القصاصين الثانية على يد على يوسف خنفس ، وقد زاد الامير كامل على ذلك فيما تحدث به الى بلنت فى ذلك الذى أثبته فى تلك اليوميات المشار اليها « أنه حدث أثناء هذه المعركة أن كان نحو ١٨ الفا من المصريين على مقربة من نحو ٢٥٠٠ من الانجليز فيهم دوق كنوت ، ولو أن على يوسف الذى كان يقود القلب تقدم لسحق الانجليز وأسر الدوق ، ولكنه تأخر برجاله وترك العدو يحيط بالجناحين »

ولقد رأينا كيف كانت خطة هذه المعركة محكمة الوضع ورأينا كيف اثنى عليها أحد قواد الانجليز أنفسهم قائلا انه كان يمكن بها أن يتحقق للمصريين النصر ...

ولولا خيانة على يوسف وتأخر البارودى بسبب خيانة

الطحاوى لكان من أقرب الظنون الى اليقين أن يولد فى القصاصين عصر جديد فى تاريخ مصر

قال الاستاذ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « الثورة العرابية» عن الجنرال ولسلى : « لم يكن الجنرال ولسلى من القواد الذين اشتهروا بالكفاءة العالية فى القيادة ولا ممن امتازوا فى معارك سابقة بالنبوغ فى الفنون الحربية، بل كل ما عرف عنه انه اشترك من قبل فى حرب القرم وفى بعض الحملات الاستعمارية الانجليزية ، وكان لم يزل برتبة قائمقام جنرال حين تولى قيادة الحملة على مصر سنة ١٨٨٢ ، فلما انتهت بهزيمة العرابيين فى التل الكبير واحتلال العاصمة انهالت عليه القاب الشرف والتكريم ، فنال لقب لورد «فيكونت» ولسلى أوف كايرو، ورتبة جنرال وغير ذلك من علامات التقدير ، على أنه تولى فيما بعد سنة ١٨٨٢ قيادة الحملة على قوات المهدى فى دنقلة ، فانتهت باخفاقها ومقتل غوردن باشا ، وتولى سنة ١٩٠٣ قيادة الجيش الانجليزى فى حرب البوير بالترنسفال فباء بالهزيمة والخسران ، وعدته حكومته مسئولا عن النكبة التى حلت بالجيش الانجليزى ، فعزلته عن قيادته وعينت بدله الجنرال اللورد روبرتس من هذا يتضح لك أن قيادة الجيش الانجليزى وذات الجيش الانجليزى الذى هاجم مصر سنة ١٨٨٢ لم يكونا كافيين للظفر بها واحتلالها ، لولا الانقسام الذى أضعف قوة الدفاع عنها »

والواقع أن مايخرج به المرء من انباء معركة القصاصين الثانية ، هو شعوره بأن المصريين لم يكن بينهم وبين النصر على الانجليز الا خطوة فكيف لو لم تقع الخيانة ؟

أما فى التل الكبير فكان مثل المصريين كمثل قوم ناموا فى دارهم ووضعوا على بابهم حارسا يوقظهم ان قرب

منها عدو ، ولكن الحارس سار مع العدو جنبا الى جنب حتى وقف به على رؤوس النائمين وقال له : اضرب من تشاء فى غير خوف ...

لقد أحيط بجيش نابليون فى وترلو ولم يكن ذلك على حين غفلة كما أحيط بجيش عرابى فى التل الكبير، ففر الفرنسيون البواسل ، وطلب نابليون الموت ففاته حتى الموت ففر نابغة الحروب ونادرة العصور مع الفارين عسى أن يملك الدفاع عن باريس ... وكذلك الحال فى كل جيش يحاط به فاما الفرار أو التسليم أو الموت ...

ولعل معركة التل الكبير التى كانت فى الحقيقة مذبحة هى أروع مثل فى تاريخ الحروب للخيانة كيف تودى بجيش من الجيوش وماذا بعد أن يؤخذ القوم وهم نائمون؟

هكذا كسبت انجلترا المعركة بالذهب ، وليته كان ذهبا خالصا ، فقد كان رصاصا يغطيه الذهب كما ذكر الامير كامل للمستر بلنت ، وقد ظهر فى القاهرة بعد الحرب فأسرعت الحكومة الى شرائه من السوق وكان الجنيه يباع بخمسة فرنكات أو عشر وقد كسر الامير بعض هذه القطع ورأى ما فيها من رصاص فكأنما تأبى انجلترا الا أن تخون حتى فى أداة الخيانة !

تبقى بعد ذلك مسألة يوردها خصوم عرابى ساخرين منه بها جاعلين منها سببا من أكبر أسباب هزيمته وذلك لكى يقللوا من شأن الخيانة أو لكى يصرفوا عنها النظر ويحصروها فيما زعموه من أخطاء عرابى الا وهى أنه سهر طول ليلة المعركة فى حلقة ذكر مع جيشه وفى قراءة الادعية مع رجال الطرق الصوفية ، فلم ينم العساكر وبذلك لم يستطيعوا الحرب فى الصباح

ولسنا ندرى أبلغ الاستخفاف بعقول الناس هذا الحد فجعل هؤلاء الخراصين ينتظرون أن يجوز كلامهم هذا

على الناس ، أم انهم كانوا هم البلهاء فصدقوا مايذيعونه في الناس ...

وبعد فليتهم صـــدقوا ! وليت العساكر قد قاموا الليل يذكرون الله اذن لما استطاع العدو أن يدهمهم وهم نيام ، وكيف يجتمع مثل هذا العدد في حلقة ذكر مع قائد الجيش وقد كان بين خيمته وبين خطوط الدفاع الاولى نحو أربعة آلاف متر ؟

واذا صح أن عرابى قد استدعى عددا من رجال الطرق الصوفية أو أنهم هم الذين قدموا عليه ، فأرسلهم الى الفرق في مراكزها يستحثونهم ويستنهضونهم ويثيرون حماستهم في الله والوطن وهذا ما نعتقد أنه هو ماحدث ، فما عيب هذا ؟ وأى عيب في أن يقرأ عرابى القرآن في خيمته ويدعو الله مع نفر من رجال الدين ؟ هل جعل ذلك كل عدته للجهاد فدعا الله أن يمده بالملائكة مسومين ليضربوا له العدو ثم نام ؟ الا خسىء الخراصون الافاكون

وأى فرق في جوهر الامرين بين أن ينشد رجال الدين بين الفرق اناشيدهم الدينية يقصدون استنهاض هممهم واثارة حماستهم ، وبين الاناشيد التى يهتف بها الجند في كافة الجيوش الحديثة ؟ وما الغرض من الموسيقى الحربية والخطب والنشرات ؟ أليست كلها وسائل تبعث الروح المعنوية في الجند وتهز عواطفهم النبيلة للفـداء والنضال ؟ واذا لجأ عرابى الى الوسائل التى كانت تتفق مع البيئة ومع العصر الذى كان يعيش فيه وهى لاتخرج في جوهرها وفي الغرض منها عن وسائل الجيوش الحديثة فكيف يعد ذلك مما يسخر به منه ولا يعد مما يسجل له الالتفات الى كل معنى يراد به بث الحمية في قلوب الجند ؟

ان مرد المسألة كما قلنا الى الرغبة في صرف الانظار

عن الخيانة والى الرغبة فى قلب محاسن عرابى كلها مساوىء بطريقة مدبرة محكمة جاز أكثر مفترياتها زمنا على البسطاء

ومن احسن ما يذكر فى هذا الصدد أن هذه الحملة الانجليزية بالذات قد أقيمت لها الصلوات عند خروجها من انجلترا وباركها كبير الاساقفة مع عدد من رجال الدين ، وقد أورد ذلك هربرت سبنسر فى كتابه «أصول علم الاجتماع» أثناء كلامه على الدين وآثره فى حياة المجتمعات ، ومن أجمل ما علق به على ذلك قوله : « ان هذه الحملة كانت موجهة الى قوم يحاربون فى سبيل الحرية والاستقلال »

الا انها الخيانة الغادرة السافرة هى التى أودت بعرابى ، وكانت كفيلة بأن تودى بأى قائد غيره فى مكانه، وفى التاريخ شواهد كثيرة على أثر الخيانة فى انهيار الجيوش ولعلنا لم ننس الامس القريب حين كان الجنرال ويفل فى صحرائنا الغربية يجمع بقلته المتهيبة جموع الطليان جمعا فيأسرهم بلا قتال لانهم كانوا فريقين : أحدهما فى صف الملك والثانى فى صف الزعيم ، كما كان المصريون فريقين : أحدهما فى صف الخديو ، والثانى فى صف عرابى .

والخيانة مسالة تكمن فى النفوس ، ولن يستطيع أن يعرف الخونة ليردهم عن وجهتهم الآثمة قائد ، وما لم يكن لهم وازع من ضمائرهم فان خطرهم فى الساعة الفاصلة شديد ، وعلى ذلك فلن يلام عرابى على وجود الخيانة فى جيشه وقد راينا كيف تمكن اثنان أو ثلاثة من هؤلاء المنافقين من القضاء على ذلك الجيش وهم يظهرون له الولاء والفداء ، وما حيلته أو حيلة غيره فى نفوس تشترى بالمال كما يشترى الرقيق ؟

بعد وترلو

ما أشبه حال عرابى بعد التل الكبير بحال نابليون بعد وترلو ، كلاهما هرول الى عاصمة بلاده بعد أن حلت الهزيمة بجيشه على غير انتظار ، وكلاهما دعا قومه الى مواصلة الجهاد ولكنهم خذلوه ، وخلعوا طاعته فى غير خوف وقد زال عنه سلطانه بزوال النصر او على الاصح بحلول الهزيمة ، وهما موقفان تتمثل فى كل منهما مأساة من مآسى التاريخ سوف تبقيان فى فرنسا وفى مصر بقاء الزمن ...

مضى عرابى الى القاهرة فبلغها قبل الظهر وبصحبته على الروبى وقصد من فوره الى قصر النيـل ، وكان المجلس العرفى منعقدا منذ الصباح ينتظر أنباء من التل الكبير ، ولكنه لم يتلق شيئا فساور الاعضـاء كثير من القلق، وكان يعقوب باشا قد تلقى وهو فى مكتب التلغراف كثيرا من الانباء ولكنه لم يفض بشىء منها الى أحد حتى فاجأ الحاضرين بقوله : أن عرابى باشا قادم بعد حين الى القاهرة ، فوجمت الوجوه وعرف الاعضاء ما حدث وان لم يزد يعقوب باشا شيئا على هذه الكلمة .

وبلغ عرابى مقر المجلس العرفى فتلقاه الاعضاء واجمين، وكان الاسف الشديد باديا على محياه ، ولبث لحظة لا يدرى ماذ يقول ؟ ثم أظهر المجلس على كل شىء وشكا

كثيرا من الخيانة ومن تفرق كلمة الجند وفرارهم لايلوون على شيء وهو يدعوهم فلا يستجيبون له ...

وانضم الى المجلس العرفى بعض الامراء والكبراء ، وتشاوروا فيما يعملون ؟ أيسلمون القاهرة للانجليز ام يدافعون عنها ؟ ..

وكان عرابى يستحثهم على الدفاع ذاكرا لهم أنه من الوجهة الحربية لم يزل الامل قويا فهناك حامية القاهره فى القلعة بمدفعيتها ، وهناك حامية دمياط بقيادة عبد العال ، وفى امكانها التحرك أثناء الدفاع عن القاهرة لرفع الحصار عنها وكذلك هناك حامية كفر الدوار وفى استطاعة طلبه ان يرسل المدد المطلوب ، فبالثبات والصبر يمكن معالجة الامر، فليس طريق الانجليز سهلا كما ظن البعض

ونهض الامير ابراهيم باشا أحمد ابن عم الخديو واهاب بالحاضرين أن يثبتوا وأن يقاوموا وقال : « ان مصر غاصة بالجند والمخازن مليئة بالمؤن والذخائر ، والاسلحة ومعدات الدفاع متوفرة فالواجب علينا اذن الدفاع مادام فينا بقية ... فأجاب الجميع بالموافقة»(١)

واخذ شبح اليأس يبتعد عن عرابى ونهض من فوره ليعد العدة للدفاع ، وكان قد ترك فى بلبيس عددا من التلغرافات فى مكتب التلغراف يستنهض بها البلاد لترسل المدد لمقاومة زحف الانجليز ، ومضى عرابى الى العباسية ومعه بعض الفنيين لانشاء خط استحكامات هناك للدفاع عن القاهرة ...

وفى هذا الذى فعله عرابى ما يثبت الكذب الوضيع على الذين عابوا عليه فراره من التل الكبير قائلين انه فعل ذلك لينجو بنفسه لا ليستأنف الجهاد الذى كان ممكنا لو أنه اراده ، ومما يملأ النفس أسى وألما ان يعمد

---

(١) مذكرات عرابى المخطوطة ص ١٨٧ ج ٢ .

هؤلاء الى انكار الحقائق وهم يعلمونها ، وأمرهم فى ذلك عجيب ، فاننا نفهم أن يخطيء المـــرء فهم حقيقة أو أن يؤولها بدافع الغرض والهوى تأويلا يساير هواه ، ولكنا لا نفهم كيف يعمد انسان الى قلب الوضع قلبا تاما فيقول فى موقف كهذا شهدت به أكثر المصادر ان عرابى هرب لا ليقاوم ولا ليدافع عن القاهرة ولكن لينجو بنفسه فحسب ! ..

ولم يكن الاستيلاء على القاهرة بالامر الهين لو وجدت من يدافع عنها ، قال المســيو بيوفيس : « ولم يكن الجنرال درورى لويسير فى زحفه فى طريق آمنة اذ لم يكن معه سوى عدة مئات من الجند ، وكان أمامه مدينة آهلة بالسكان تدافع عنها حامية قوية كبيرة العدد ترابط فى العباسية والقلعة وفى المعاقل التى بنيت أخيرا فوق جبل المقطم ، وأمامه ذكريات الثورات الهائلة التى سببت المتاعب والخسائر الكبيرة لنابليون وكليبر خلال الحملة الفرنسية ، ولكن جبن الرؤساء العرابيين قـــد أخرجه من المـأزق » (١) ...

قال عرابى : « تم استقر الرأى على انشاء خط دفاعى فى ضواحى المحروسة ، وبناء على ذلك ذهبت الى العباسية ومعى محمود باشا المرعشلى باشمهندس الاستحكامات ومحمود باشا رضا لواء الخيالة وحسن باشا مظهر لواء مأمور تشهيل ارسال الذخائر الحربية الى مركز الجيش وتقرر اتخاذ الخط الدفاعى أمام المطرية شرقى عين شمس يستند يمينه على الجبل ويمتد شمالا الى ترعة الاسماعيلية ثم ينعطف غربا على الترعة المذكورة الى النيل عند قم رياح الترعة المذكورة بالقرب من شبرا ... ثم ذهبنا جميعا الى مركز الطوبجية وأردنا استعراض العساكر

---

(١) الرافعى ص ٤٦٠ عن بيوفيس ــ الفرنســـيون والانجليز فى مصر ص ٢٩١ .

الموجودة هناك فلم نجد الا نحو الف رجل من خفراء البلاد بدون ضباط ونحو ٤٠ نفرا من السوارى فى مركز عساكر الخيالة مع الاميرالاى أحمد بك نير ، فقال الاميرالاى المذكور انه يقف فى وجه العدو ويقاتله برجاله الاربعين حتى يموت معهم » ...

أين الجند وأين الضباط ؟ هنا أدرك عرابى مرة ثانية ما فعلته الخيانة وما فعله قرار السلطان باعلان عصيانه فقد انحلت العزائم وهرب الرجال وأصبح هم كل امرىء الدفاع عن نفسه ، وعاد اليأس فأحاط بعرابى من كل ناحية ووقف وحده لا يجد من يمد يد المعونة اليه ... والانجليز زاحفون على القاهرة فى غير ابطاء ، ولندع عرابى يقص علينا نبأ هذه المحنة ، قال : « فلما شاهدنا كل ذلك وأينا ان الاولى حقن الدماء وحفظ القاهرة من غوائل الخراب والدمار كما حدث فى الاسكندرية مادامت المقاومة لا تجدى نفعا ، وفضلنا تقديم أنفسنا فداء عن الامة المصرية السيئة الحظ ، فرجعنا الى المجلس سالف الذكر وبلغناه بما عن لنا ، ثم قلنا حيث ان الانجليز يحاربوننا الآن باسم الخديو لانحيازه اليهم ففى امكانه ايقاف هذه الحرب وعدم خراب القاهرة وغيرها ويصنع بنا بعد ذلك ما هو أهله ...

فلم يجد أرباب المجلس المذكور أفضل من رفع عريضة باسمنا الى الخديو نعترف فيها بوقف الحرب ونلتمس منه الوساطة لدى الانجليز بعدم دخولهم القاهرة حفظا عليها من الخراب بعد تقديم الطاعة له والخضوع ، فحرروا العريضة وأرسلوها اليه بعد أن ذيلتها بامضائى مع بطرس باشا غالى ورؤوف باشا وعلى باشا الروبى ويعقوب باشا سامى رئيس المجلس العسكرى فى قطار خاص ، وكان ذلك فى يوم الخميس الموافق غرة ذى القعدة

سنة ١٢٩٩ ، ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ فلم يجدهم ذلك نفعا فان مساعيهم أخفقت وآمالهم خابت بأن أبى الخديو قبول العريضة واجابة الالتماس وأمر بالقاء يعقوب باشا سامى وعلى باشا الروبى فى السجن فسجنا فى الاسكندرية»

ودخل الانجليز بلبيس والزقازيق فى نفس اليوم الذى وقعت فيه معركة التل الكبير ، وفى اليوم التالى ١٤ سبتمبر بلغ الجنود الانجليز العباسية فى نحو الساعة ٤ مساء .. وتلقى عرابى نبأ ذلك فى الساعة ٦ وكان فى منزل على باشا فهمى ولم يكن على باشا قد شفى من جرحه بعد ، فأرسل عرابى الى قائد ثكنات العباسية يأمره بالتسليم ...

ونصح جون نينيه وكان فى منزل على باشا فهمى ، لعرابى ولطلبه عصمت وكان هذا قد جاء الى القاهرة ، ولمحمود سامى بتسليم انفسهم أسرى حرب للجيش البريطانى خوفا عليهم مما يحل بهم على يد توفيق ، واستصوب رأيه عرابى وطلبه ورفضه البارودى قائلا : « انى ذاهب الى منزلى فان أرادونى فانهم يعرفون أين يجدوننى » ...

وذهب عرابى الى منزله وارتدى ملابسه العسكرية ، وتقلد سيفه وتأهب ومعه طلبه للتسليم ، قال يصف ذلك : « وفى عصر يوم ١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، ورد تلغراف من الجنرال لو ، خيالة الانجليز بالعباسية الى ابراهيم بك فوزى مأمور ضبطية القاهرة بانه يريد مقابلتى بالعباسية ومقابلة طلبه عصمت باشا . فتوجهنا الى العباسية واجتمعنا بالجنرال المذكور ، فابتدرنا بقوله : هل تقبلون أن تكونوا أسرى حرب لجلالة الملكة ؟ فقلنا له : نعم ، نريد ذلك حقنا للدماء ، فلو أن عندنا من القوى الحربية ما يمكننا بها اطالة زمن القتال والدفاع

عن البلاد لما قبلنا ذلك ، ولكنا قاتلنا حتى يقضى الله بيننا ، ولكن حيث علم لنا أن الانجليز لا مطمع لهم فى الاستيلاء على بلادنا وماكان مجيئهم الى مصر الا ليؤيدوا السلطة الخديوية ويسلموا البلاد الى الخديو ثم يعودوا الى بلادهم فنحن كففنا عن القتال ورضينا بأن نسلم سيوفنا الى قائد الجيش الانجليزى واثقين بعدالة الامة الانجليزية أن تعاملنا كأسرى حرب ، وسلمنا سيوفنا وقضينا تلك الليلة داخل غرفة من غرف قشلاق الطوبجية لا فراش فيها ولا غطاء وكان الجنرال فى غرفة أخرى مثلها

وفى عصر يوم السبت قمنا من العباسية بكوكبة من خيالة الهنود وضابط أنجليزى الى قشلاق عابدين فوجدناه محتلا بآلاى حرس ملكة الانجليز حكمدارية الميرالاى تين من منزل شريف فى أحرار الانجليز ، فقابلنا الميرالاى المذكور وقال لنا أنتما أسيرا حرب عند جلالة ملكة الانجليز فلا بأس عليكما ... وأقمنا فى غرفة مقابلة للغرفة التى هو فيها وكان أميرا كريم السجايا يأتى الينا كل يوم ويعزينا على ما أصابنا ويعترف بظلم الانجليز لنا ، وأن الاستبداد لايزال كامنا فى قلوب الانجليز أكثر من كل الامم ... وبعد ذلك وصلت جيوش الانجليز الى القاهرة أفواجا أفواجا ، وكانت نساء رجال حكام المصريين المستبدين يحيين عساكر الانجليز عند مرورهم فى الشوارع بلباسهم الاحمر وأسلحتهم السوداء على عواتقهم ، بالزغاريد تقربا اليهم وشكرا لهم على اطفاء شعلة الحرية المصرية » ...

وعصف الغضب برؤوس بعض المدنيين من سكان القاهرة وثارت النخوة فى نفوسهم ولم تكن الرشوة قد فعلت بهم ما فعلته بالجيش فتجمعوا من باب الشعرية والحسينية وتهيأوا للثورة ، وكادت القاهرة ترى مارأته

أيام نابليون وكليبر ولكن محافظ المدينة بذل أقصى جهده للقضاء على الفتنة في مهدها مبينا للثائرين أن عملهم لايجدى نفعا وليس وراءه الا سفك الدماء ...

وفى نفس اليوم ١٥ سبتمبر دخل الجنرال ولسلى القاهرة وكان يصحبه سلطان باشا نائبا عن الخديو ، ونزل ولسلى فى سراى عابدين وقد اعدت له بأمر الخديو

وكان الانجليز قد استولوا على القلعة من طريق الجبل فى اليوم الذى بلغوا فيه القاهرة وقد سلمهم مفاتيحها مغتبطا على خنفس منتظرا ما وعد به من الذهب قبل معركة التل الكبير ، ولكن الانجليز أداروا له ظهورهم ، فلم تعد بهم حاجة اليه ...

واحتل الانجليز قصر النيل ، كما احتلوا القلعة ، والعباسية ، وهكذا أخذوا القاهرة من أطرافها ، وصح حلمهم الذى ساورهم منذ عهد محمد على ...

وبعد فهذه قصة تسليم عرابى ، لا نرى فيها شيئا مما افتراه المفترون من مذلة وهوان ، فالقانون العسكرى يقضى بأن يسلم القائد المغلوب سيفه ، ولقد سلم عرابى سيفه للجنرال لو ، قائلا : انه يفعل ذلك على الرغم منه فلو أنه استطاع مواصلة القتال ما سلم ...

وماذا كان فى وسع عرابى غير هذا ، ولم يكن أمامه الا الفرار والهرب الى بلد آخر أو التسليم للجيش المنتصر ، ولو أنه هرب ثم قبض عليه وجىء به الى مصر ، أو لم يقبض عليه وظل طريدا شريدا أكان ذلك يعجب خصومه ؟

لست أفهم ماذا كان هؤلاء يريدون ؟ هل سلم سيفه والجيش من حوله يستطيع المقاومة والدفاع ؟ أم أنه فعل ذلك حين هرب الرجال فلم يجد حوله الا ٤٠ رجلا فى خطوط الاستحكامات ؟

غلب نابليون على أمره بعد ان وضع احدى قدميه فى

مدريد والاخرى فى موسكو ، فكتب الى الامير الوصى على عرش انجلترا يقول : « ياصاحب السمو الملكى ، رأيت أن أختم حياتى السياسية اذ رأيتنى معرضا للخلاف الذى يفرق بنى وطنى شيعا ، وللعداء الذى تناصبنى اياه دول أوربا الكبرى فجئت كثموسكليز لالقى بنفسى فى جوار الشعب الانجليزى ، وانى اضع نفسى فى حماية قوانينه وأرجو من سموكم الملكى أن تمنحونى هذه الحماية جيث أنكم أقوى أعدائى واعظمهم مصابرة وكرما»(١)

وصعد نابليون الى ظهر احدى السفن التى كانت تراقب الشاطىء فحيا ضابط هذه السفينة برفع قبعته الامر الذى لم يكن يفعله كثيرا من قبل تلقاء الملوك والقياصرة ، فهل يعاب على نابليون ويتهم بالجبن والمذلة من أجل كتابه ومن أجل تسليمه نفسه على هذه الصورة ؟

ولكن الذين كتبوا سيرة عرابى عقب الاحتلال من أعدائه لم يدعوا ناحية من هذه السيرة الا شوهوها لكى تبث فى أذهان الجيل القادم الصورة التى وضعها الاحتلال لعرابى فجعله رجلا جاهلا طائشا لم يحارب من أجل مبدأ من المبادىء وانما كانت تحركه أطماعه الشخصية، وما زال يخبط فى حماقته وجهله حتى اضطر آخر الامر الى أن يسلم سيفه صاغرا الى قائد جيش الاحتلال الانجليزى .

واما أن يكون عرابى ضحية مبادىء سامية حارب فى سبيلها حتى لم يبق فى قوسه منزع ، واما أن يكون أول فلاح فى مصر نادى بالحرية والدستور وأول زعيم وطنى وضع جهاد وطنه على أساس قومى فافتتح بذلك فصلا جديدا فى تاريخ هذا الوطن ، فذلك ما لايطيق ان يسمعه الاحتلال أو يسمح حتى أن يهمس به ...

(١) أميل لودفج : نابليون . ص ٥٣٧ .

توفيق يدخل العاصمة

انتظر توفيق بضعة أيام ريثما تسلم بقية المعاقل كى يدخل القاهرة دخول الظافر ، ولسوف يدخلها فى حماية الانجليز كما دخل البربوني لويس الثامن عشر باريس فى حماية الحلفاء بعد هزيمة نابليون مما جعل الفرنسيين يقولون ان جلالته جاء بين الحقائب فى عربة البضاعة .

توقفت حاميات «أبو قير» و «مريوط» و «رشيد» بعض الوقت عن التسليم ، ولعل ذلك لانهم لم يصدقوا نبأ الهزيمة ، وتوقف عبد العال باشا عن تسليم دمياط مدة أسبوع ، ثم لم يجد بدا من التسليم فسلم وقبض عليه وارسل الى القاهرة ، أما معاقل كفر الدوار فقد تركها الضباط والجند منذ ان رحل طلبه باشا الى العاصمة واستولى الانجليز عليها ونسفوا ما فيها من الحصون ...

وفى ٢٥ سبتمبر اى بعد ١٢ يوما من معركة التل الكبير سافر الخديو بقطاره الخاص من الاسكندرية الى القاهرة وفى معيته كبير وزرائه شريف باشا والوزراء الا رياض الذى كان فى القاهرة يعد العدة لاستقباله ...

زينت العاصمة بالاعلام على جانبى الشوارع وفى الشرفات والمنافذ ، ولكن الناس كانت ترتد ابصارهم خاسئة اذ يرون بين الرايات المصرية هنا وهناك راية جديدة ، هى راية الجيش المحتل ...

ولم ير المصريون وا أسفاه على جانبى الشوارع أولئك الجنود المصريين والسودانيين الذين ألفوا رؤيتهم فى مثل

هذه المناسبة فقد الفى الخديو الجيش المصرى بجرة قلم، وانما رأوا نمطا عجيبا من الجند حمر الوجوه طوال الأجسام يضعون فوق رؤوسهم القبعات ويبعث منظرهم الرهبة فى قلوب المصريين ، ويشعر المصريون حيالهم بالاشمئزاز والكره الشديدين ولكنه شعور خفى مكبوت لا يجرؤ أن يظهره أحد .

وقد بلغ عدد هؤلاء الجنود الحمر المقبعين نحو ٥٠٠٠ اصطفوا من المحطة الى سراى الاسماعيلية ، ليمر من بين صفيهم الطويلين خديو مصر القادم الى مقر حكمه .

وبلغ القطار القاهرة فى منتصف الساعة العاشرة صباحا ، ونزل توفيق فتقدم لتحيته الامراء ثم ولسلى قائد جيش الاحتلال ودوق كنوت نجل الملكة فكتوريا ، وادوارد مالت المعتمد البريطانى ، ثم محمد سلطان باشا ورياض باشا وكبار المصريين من العلماء ورجال الدولة والاعيان ...

وتقدم الشيخ عبد الهادى نجا الابيارى بين يدى الخديو ودعا له بالتأييد والنصر وكان يرد الحاضرون دعاءه ...

وكانت المحطة مفروشة بالبسط مزينة بالرايات والرياحين ، وقد حشد فيها رياض ما أمكنه حشده من أعيان البلاد وهتف رياض باشا عند مرور الخديو من بينهم : « يعيش الجناب العالى مؤيدا بالنصر والاجلال » وردد الحاضرون هتافه ويعلم الله كم كان فيهم من انبعث هتافه من قلبه ، وكم كان فيهم من أيقن مع ما كان يرى حوله أن هذا نصر وأن هذا اجلال ...

وكانت مدافع المحطة ترسل طلقاتها مدوية ، تكريما للخديو الظافر ، وكانت تجاوبها مدافع القلعة ، كما كانت الموسيقى تصدح بالسلام الخديوى ...

وجلس عن يسار الخديو فى مركبته دون كنوت وجلس

امامه ولسلى ومالت واحاطت بهذه المركبة كوكبة من الفرسان الانجليز ، ومن خلفهم مركبات الامراء والوزراء ورجال الدولة ...

ونظر اهل القاهرة ساخطين الى فاتحة عهد الاحتلال، ولسوف يبقى هذا السخط كامنا فى نفوسهم الجريحة حتى يأذن الله ببعث من يثور على الاحتلال ...

وظن توفيق أنه استعاد سلطانه ولكنه لن يلبث حتى يجد نفسه مجردا من كل سلطان، وحسب أن له السيادة اليوم ولكنه لن يلبث حتى يرى أن هذه السيادة تتمثل فى مظاهر كاذبة ... فى حرس يحيط به ، وفى موسيقى تصدح أمام قصوره ، وفى ألقاب التمجيد تضاف الى اسمه ، أما فيما عدا ذلك فالسيادة للانجليز ، ولقد بدأ كبار المصريين يولون وجوههم قبل من أصبح لهم السلطان الحقيقى فى البلاد ...

ففى ٢٨ سبتمبر ذهب سلطان الى رياض ومعه وفد من عمد البلاد وأعيانها ، فأبلغ الوزير أن هؤلاء الاعيان يريدون تقديم هدايا من السلاح الفاخر الى سيمور ، وولسلي ولو شكرا لهم « على انقاذ البلاد من غوائل الفتنة العاصية » ..

وأعدت الهدايا بعد سفر هؤلاء الثلاثة وارسلت اليهم فى انجلترا ، الى سيمور مخرب الاسكندرية ، وولسلى بطل مذبحة التل الكبير ، ولو ، أول من دخل القاهرة من الانجليز وآسر عرابى ...

وأرسل هؤلاء كتب الشكر لسلطان باشا ومن انضم اليه من الامعات وطلائع أعوان الاحتلال . قال عرابى فى مذكراته : « وفى ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢ وفد على نظارة الداخلية محمد سلطان باشا واحمد بك السيوفى وغيرهما من المخدوعين ، وأبلغوا رياض باشا بأنهم يعتزمون أن يقدموا نوعا من الاسلحة الفاخرة المحلاة بالجواهر

الثمينة هدية منهم للأدميرال سيمور قائد الدونمة الانجليزية وللجنرال ولسلى قائد الجيش الانجليزى ، وللجنرال لو ، الذى كان أول قادم الى القاهرة بعد سقوط التل الكبير ، فاستحسن رياض باشا منهم تلك الاريحية ورخص لهم فى تقديم الاسلحة الفاخرة المذكورة للقواد الموما اليهم ، وكانوا قد عزموا قبل ذلك على أن يؤلفوا لجاناً من كل جهة ينشئون فيها اكتتابا لجمع نقود كافية لانفاذ هذا الغرض ولكنهم فشلوا فى ذلك واكتفوا بشراء الهدية من مالهم الخاص فأعطوا الجنرال ولسلى سيفا مجوهرا ، وكذلك الجنرال لو ، سيفا ، وأما الاميرال سيمور فأهدوه طبنجة مجوهرة بالماس مكافأة لهم على احتقارهم للأمة المصرية واذلالها » ...

وفى ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، اصطف الجيش الانجليزى فى ميدان عابدين ، فى المكان نفسه حيث وقف عرابى قبل ذلك بعام ، وقفته المشهورة ومعه الجيش المصرى فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ . يسمع الخديو مطالب الامة ويعلن اليه مشيئتها ...

ولا تقع عينا توفيق الآن على جنود يتحدونه بل تقع على جنود يحيونه ويحييهم رافعا يده بالسلام العسكرى وكم اثلج فؤاده أن يرى هذه القوة التى ظن أنها تسند عرشه ، ولو أنه فكر قليلا لفطن الى أنها كانت تمتهن ذلك العرش !

وكان الخديو فى المقصورة التى أعدت له يرتدى ملابسه الرسمية ، وكان يحيط به الوزراء والكبراء بملابسهم وأوسمتهم الرسمية ...

وكان الجنرال ولسلى والدوق كنوت على ظهر جواديهما الى جانب مقصورة الخديو ، وسارت فرق الجيش الانجليزى أمامه حتى انتهى عرضها فى ساعة ونصف ثم أبدى الخديو سروره واعجابه واثنى على الجيش ورؤسائه

وقد جاء فى عدد الوقائع الصادر فى أول أكتوبر سنة ١٨٨٢ أنه قد « انشرحت صدور الحاضرين وأعجب الجناب الخديوى المعظم بما رآه من مهارة رؤسائهم وضباطهم وحسن انتظام العساكر وكمال نظامهم وشكر الكل لهم ما قاموا به من اخماد فتنة العصاة واطفاء ثورتهم »

ومما يدعو الى أعظم الاسف ما نشر عن احتلال العاصمة فى هذه الجريدة فى ٣١ سبتمبر اى فى اليوم التالى للعرض وقد جاء فيه : «حضرت العساكر الانجليزية الى العباسية فى غروب يوم الخميس غرة ذى القعدة فسلمت العساكر التى كانت مجتمعة فيها أسلحتها وتوجهوا الى بلادهم من غير أن يمس أحد منهم بسوء ، ثم دخلوا مصر ليلة الجمعة واحتلوا الاماكن العسكرية كالقلعة وقصر النيل وقشلاق عابدين فسلمت العساكر التى فيها أيضا أسلحتها وتوجهوا الى بلادهم آمنين ، وبعد هذا قبض على الشقى أحمد عرابى ، ومشت العساكر الانجليزية فى شوارع المحروسة بالهدوء والسكينة ولم يظهر واحد منهم أدنى شىء ينفر منه طبع احد المصريين خلافا لما كان يزعمه ويشيعه أحمد عرابى العاصى وأتباعه الاشقياء ، ولهذا لم نر شيئا تعطل من المصالح ولا من الاعمال لا فى المحروسة ولا فى ضواحيها » .

وفى ليلة ٣ أكتوبر أقام الخديو مادبة كبرى وحفلة بسمر باهرة ساهرة فى سراى الجزيرة تكريما للقواد والضباط الانجليز ، وكان فى مقدمة من شهدها سيمور وولسلى ودوق كنوت ومالت ولو ، وفى هذه الحفلة الكبرى أنعم الخديو على ٦٠ من هؤلاء الانجليز بالاوسمة المختلفة .

يقول عرابى فى مذكراته : « وكانت تلك النياشين التى حضرت من الآستانة بطلب درويش باشا المندوب السلطانى لاجل اعطائها للضباط المصريين » .

ثواب وعقاب

بالقضاء على الثورة الوطنية وبدخول توفيق العاصمة فى حماية جيش الاحتلال بدأ فى تاريخ مصر عهد من أسوأ العهود التى يمنى بها تاريخ أمة من الامم ، فهو العهد الذى ينطوى فيه الاباة على ما فى أنفسهم خوف النكال والهلاك، والذى يمالىء المستضعفون فيه الاقوياء اما جلبا لمنفعة أو دفعا لضرر ، والذى ينتقم فيه من خصومه من واتته الفرصة للانتقام ، والذى يرتزق فيه حثالة الناس بوشاية بعضهم ببعض ، والذى يتسلط فيه المستبدون فيأخذون بالظنة رغبة فى اظهار جاههم وسلطانهم فحسب ، والذى يضيع فيه الحق فى ضجيج الباطل فلا سميع ولا شفيع ...

هذا هو العهد الذى اختفت فيه روح الوطنية وتوارت شعلة الحرية ، والذى وئد فيه الدستور وهو فى مهده ، وقتلت القومية المصرية وهى لا تزال تحبو ، والذى نفى فيه عن مصر اباة الرجال ، وتسلط فيها الاحتلال ...

وهذا هو العهد الذى بدأ فيه الانجليز يبثون فى النفوس هيبة الاحتلال وهيبة جيش الاحتلال ، وأخذوا يعلمون الوزراء وكبار الموظفين من المصريين وعلى رأسهم الخديو ان كانوا فى حاجة الى تعليم أن السلطة للانجليز والطاعة للانجليز وأن نصائح المعتمد البريطانى فى مصر واجبة الاتباع .

وقد افتتح هذا العهد بما يشاكله من الثواب والعقاب أما الثواب فللذين عدهم الخديو من الموالين له والذين سماهم المصريون الخائنين ، وأما العقاب فللذين كانوا فى رأى الخديو عصاة ثائرين وان عرفهم بنو مصر مجاهدين فى الله والوطن صادقين ...

وكان أول من حظى بالثواب محمد سلطان باشا الرئيس الاول للحزب الوطنى والذى سماه الناس من قبل كما ذكرنا أبا المصريين وقد أنعم عليه توفيق بالوسام المجيدى من الدرجة الاولى جزاء له على بث روح الخيانة فى الجيش المصرى ، ثم منحه فوق ذلك عشرة آلاف من الجنيهات ذهبا لازيف فيه وذلك كما قال الخديو : « لما أظهره من الصداقة لحكومتنا الخديوية ومعارضته للعصاة فى جميع أمورهم وعزائمهم بالمخاطرة على حياته وما حدث له بسبب ذلك من الضرر والتعدى منهم على شخصه وأقاربه واتلاف موجوداته ومقدار جسيم من مزروعاته » ...

أما الانجليز فقد جعلوه السير محمد سلطان فانعمت عليه ملكة انجلترا بوسام سان ميشيل وسان جورج مكافأة له على ما بذل فى سبيل نجاح معركة التل الكبير...

وظهر الثواب بعد ذلك فى المناصب بصورة واسعة ومن أمثلة ذلك اعادة ابراهيم أدهم باشا مديرا للغربية واعادة الشيخ محمد العباسى المهدى شيخا للجامع الازهر بعد اقالة الشيخ الامبابى وذلك علاوة على منصب الافتاء الذى كان يشغله وقد تجلت هذه الروح فى تأليف وزارة شريف فرأينا فيها عمر لطفى ورياض ومبارك ومدحت

وأما العقاب فقد بدأه الخديو بالغاء الجيش المصرى جملة بحجة أنه انضم الى العصاة ، وكان هذا توطئة لمحاكمة قواده وضباطه الا من انحاز أثناء الحرب الى الخديو ...

وكان سلطان باشا يأمر بالقبض على من يشاء والقائه فى السجن ، ولذلك تم الكثير من الاعتقالات بأمره ، قال عرابى فى مذكراته : « انه أمر بسجن جميع الضباط وجميع رجال الملكية والعلماء وخطباء المساجد والتجار والاعيان الا من كان من الجواسيس والمنافقين حسب ما هو مندرج بسجلات الخديو فسجنوا جميعا الا على بك يوسف وأحمد بك عبد الغفار وعبد الرحمن بك حسن مكافأة لهم على خيانتهم وغدرهم فى التل الكبير. وكذلك صار سجن جميع الذين بالمديريات والمحافظات من المستخدمين والموظفين والعمد والاعيان والقضاة والمفتين وغيرهم من عامة الناس حتى غصت بهم السجون بما يربو على ثلاثين الفا من المصريين (١) » .

وللمرء أن يتصور مبلغ ما كان يرتكب من المظالم فى حال كهذه يقع فيها القبض على الناس بغير حساب ولا رقابة من قانون أو عرف ، وما أشبه هذا الموقف بعهد الارهاب الاكبر فى فرنسا أيام ثورتها ، يقول عرابى : « وانتهز حكام المديريات من رجال الاستبداد فرصة القبض على وجوه البلاد واعيانها وانتزفوا مادة ثروتهم حتى أثروا وامتلكوا الاراضى الواسعة ومن ضن عليهم بماله كان جزاؤه الاعدام بدعوى أنه من العصاة وأنهم مصرون على الانتقام » ...

وقد اعتقل كبار رجال الجيش من الثوار وجميع زعماء الثورة من المدنيين الا عبد الله نديم فقد اختفى ولم يعرف له مقر ، وعدد كبير من العلماء فى مقدمتهم الشيخ محمد عبده والشيخ حسن العدوى والشيخ محمد الخلفاوي والشيخ محمد عليش ، وعدد من كبار الموظفين كان بينهم أحمد رفعت بك مدير المطبوعات وأحمد

(١) ذكر محمود فهمى باشا أن عدد هؤلاء بلغ تسعة وعشرين الفا .

بك ناشد مدير الشرقية ويعقوب بك صبرى مديرالفيوم وعدد من النواب وعدد من الاعيان والتجار ...

كما قبض على حسن باشا الشريعى وزير الاوقاف فى وزارتى البارودى وراغب ، وعبد الله باشا فكرى وزير المعارف فى وزارة البارودى . وذلك لاستنكارهما انضمام توفيق الى الانجليز وعزله عرابى وهو بكفر الدوار...

هذا عدا من اشرنا الى القبض عليهم من الكافة فى القاهرة والاسكندرية وطنطا وغيرها من جهات الاقاليم مما فزعت منه البلاد زمنا كان فى مصر حقا عهد الارهاب

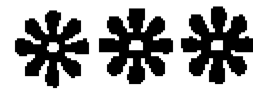
وكان السيد حسن موسى العقاد والقائمقام سليمان سامى داود قد فرا على ظهر احدى السفن الى كريت ، فعلمت الحكومة بمقرهما فارسلت الى الحكومة التركية تطلب تسليمهما فأرسلا الى الاسكندرية مقبوضا عليهما فى ٩ نوفمبر سنة ١٨٨٢.

وأصدر الخديو أمره بتأليف لجنة للتحقيق بالقاهرة وذلك فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، وكانت تسمى القومسيون أو اللجنة المخصوصة وقد تكونت من ١٠ اعضاء برئاسة اسماعيل أيوب باشا وكلفت باستجواب كل من اتهم بجريمة العصيان أو التعدى على سلطة الخديو أو اتيان أى عمل فيه اهانة للجناب العالى ، سواء كان المتهم فاعلا أصليا أو شريكا لغيره ، وكان من سلطة هذه اللجنة القبض على اى شخص بمجرد أن تبلغ ذلك الى وزير الداخلية ، ولها أن تقدم من ترى انه مدين الى المحكمة العسكرية التى تؤلف للحكم فى هذه التهم وايفاد مندوب من قبلها لاقامة الدعوى أمام هذه المحكمة .

وتالفت من هذه اللجنة لجنة فرعية لتحقيق التهم المنسوبة لاهل الاقاليم والمدن ...

وصدر أمر من الخديو فى نفس الوقت بتاليف محكمة

عسكرية لمحاكمة من ترى اللجنة تقديمهم اليها ، وجعل رئيسها محمد رؤوف باشا وهومن الموالين للخديووكان أعضاءالمحكمة ـالا واحدا ـ من أصل تركيأوشركسى وكانوا جميعا من الناقمين على عرابى وحركته القومية وممن يدركون حق الادراك ماذا يريد الخديو ، لانه اختارهم على هذا الاساس .



والفت محكمة عسكرية بالاسكندرية تعاونها لجنتان لتحقيق حوادث الاسكندرية وطنطا على نحو ما يحدث فى القاهرة واختير أعضاء اللجان جميعا بالضرورة لا من المحايدين الذين يريدون وجه الحق ولكن من انصار الخديو المملوءة قلوبهم غيظا وحقدا على عرابى وعلى الثورة ...

وكان رياض باشا من أشد الناقمين على عرابى وزعماء الثورة ، يتطلع فى صبر فارغ الى اليوم الذى يرى فيه وهو وزير الداخلية جسد عرابى متدليا فى حبل المشنقة أو ممزقا برصاص الجند ...

وكان شريف باشا كذلك ساخطا على هؤلاء جميعا منذ أن اخرجوه من الوزارة بسبب أزمة الميزانية ولئن ظل حريصا على الدستور كمبدأ للحكم الا انه قد امتلأ قسوة وغيظا على الثوار ، وقد كان بطبعه يكره التطرف ولذلك نظر بمنظاره الى عرابى وانصاره فكانوا عنده من أشد المتطرفين وان لم ينكر بينه وبين نفسه انهم طلاب دستور وحرية وانهم من حيث المبدأ كانوا فى الواقع يتجهون اتجاهه القائم على محاربة الاستبداد والنفور منه ...

البطل السجين

ظل عرابى معتقلا فى قشلاق عابدين حتى ٥ أكتوبر ، ثم أسلم الى الحكومة المصرية ، فألقت به مع زعماء الثورة وعدد كبير من المعتقلين فى بناء الدائرة السنيـــة الذى احالته الى معتقــل عام ، وجعلت فيه حجرة للجنــة التحقيق .

وبانتقال عرابى الى سجنه هذا بدأ عهد اهانته على صورة لولا اننا نريد أن نوفى هذا التاريخ حقه ما ذكرناها لفرط ما نحس من مجرد ذكرها من خزى والم ...

قال عرابى فى مذكراته المخطوطة : « وصار نقلنا من قشلاق عابدين الى سجن الدائرة السنية المذكورة لاجل المحاكمة ومعى طلبه باشا عصمت ، وسجن كل منا فى غرفة منفردا أسوة بمن فيها من المسجونين ، ثم أغلقوا المنافذ ومنعوا عنا السراج ليلا بعد أن فتشونا واخذوا ما معنا وأهانوا البعض منا خصوصا عبد العال حلمى »

وقال فيما كتبه وهو فى سجنه لمحاميه المستر برودلى « بعد ذلك أسلمنا الى السلطات المصرية ووضـــعنا فى السجن المصرى يوم ٥ أكتوبر ، وكان ذلك من أيامى الحزينة التى لا تنسى فقد فصل بينى وبين صديقى طلبه باشا ، وألقى بى فى حجرة ليس فيها شىء حتى الكرسى وأغلقــوها على ، وجاء خادمى الى ولــكن الحراس لم

يسمحوا بادخال شيء الى سوى بساط وملحفة ...

وعقب ذلك اقبل فريق ممن أرسلوا لاهانه السجناء وتهديدهم كما تبين من أمرهم ، وفتشوني وأخذوا كل ما لدى من الاوراق الخاصة التى طلبتها لجنة التحقيق، وبعد هذا جاء فريق ثان ومعظمهم من موظفى الخديو وكان بينهم عثمان بك القائم على شئون خيله ، وحسين أفندى فوزى وله صلة بشئون الخديو المنزلية الخاصة ومعهما أغا تركى هو الذى يركب امام سموه حيث انه أحد رجال حرسه الخاص ، وقد أعاد هؤلاء تفتيشي حتى انهم نزعوا قميصى ، ولكنهم لم يجدوا شيئا الا تميمة كنت ألبسها فانتزعها أحدهم بقوة ، ولما قلت انى اخلعها بنفسي صاح أحدهم قائلا : كلا لقد امرت ان أفعل ذلك وأن أخلع حتى حذاءك لتفتيشه ...

وبعد ساعة جاء ليزورنى بشارة تكلا محرر جريدة الاهرام وظننت أنه قدم ليعزينى وليبدى عواطفه نحوى ، وقد كان ممن يدينون بمبدئنا قبل الحرب وقد أقسم بدينه وشرفه أنه واحد منا وانه يعمل لحرية وطننا ، وقد عددناه فى الحق من الوطنيين ، ولكنه لما دخل على توقح أشد التوقح ، ثم قال : أى عرابى ماذا صنعت وماذا حل بك ؟ ورأيت أن الرجل خائن ولا شرف له ، ولما لم أجبه أدار ظهره وانصرف .

وما هي الا دقيقة ثم جاء فريق ثالث معظمهم من خدم الخديو وأتباعه وفيهم اتراك وجند من حرسه ، وفتشوا بساطى وملحفتى وقلبوهما ظهرا لوجه ثم انصرفوا ، وأقاموا طول الليل على باب غرفتى حراسا على وعلى السجناء » (١)

هذا ما عومل به عرابى أول يوم أدخل فيه السجن ،

---

(1) How we defended Orabi P. 139.

ولكن خصومه لم يروا فى ذلك ما يشفي ما فى نفوسهم من غل ، فأوفدوا اليه بعد ٤ ايام من ألحق به ، وهو السجين الذى لا يملك الدفاع عن نفسه ، اهانة يؤسفنا ويخجلنا أن نذكرها ولندع عرابى يصف ما حدث :

قال : «فى ٩ اكتوبر سمعت الباب يفتح حوالىالساعة التاسعة والنصف وقد خلعت ملابسى واضطجعت لانام ودخل على جماعة تتألف من ١٠ أو ١٢ شـــخصا ، ولما كان الظلام حالكا لم أستطع ان اتبين منهم احدا ، وصاح احدهم فجاة : اه .. عرابى ، الا تعرفنى ؟ وحسبت انه قادم ليقتلنى فنهضت قائلا : كلا لست أعرفك.. فصاح بى : انا ابراهيم اغا ، ثم اخذ يقسم الايمان متوعدا وقال لى : أيها الكلب .. ايها الخنزير ، وبصق على ٣ مرات. فوقفت ساكتا فى هدوء ، ثم تبينت شيئا فشيئا أنه ابراهيم اغا حقا توتونجى الخديو » (١)

وقد أعاد عرابى ذكر هـذا الكلام لمحاميه يصف به الحادث الشنيع وذلك فيما كتب له من تقرير عام وكان قد صرح به حين زاره لاول مرة ، وسلمه ورقة جاء فيها مايأتى : « لقد سلمت سيفى وشخصى الىالجنرال لو ، ممثل القائد العام للجنود البريطانية ، وكان ذلك منى ركونا الى شرف انجلترا ... وفى ٥ أكتوبر ألقى به فى سجن مصرى حيث ألحقت بى اهانة على صورة تظل صارخة فى وجه الشرف البريطانى ووجه كل انجليزى» ثم أورد عرابى الحادث بما لم يخرج عما سلف واختتم ورقته بقوله : « ان مسلكا كهذا لايمكن أن يرضى شرف انجلترا وسمعتها وخاصة نحوى أنا الذى أسلمت نفسى مصدقا بشرف الشعب الانجليزى »

ولم يكن عرابى وحده مصدر هذه الرواية حتى يمكن

(١) نفس المصدر

أن يقال انه اختلقها أو أسرف فيها ، فقد عرفها بلنت بين ما عرف من صديق له لايمكن أن يتطرق الشك الى معلوماته الا وهو المستر بيمان ترجمان مالت والذى اختاره ليحضر التحقيق نائبا عنه وكان بيمان يجيد اللغة العربية وكان قائما بأعمال مالت القنصل العام فى الاسابيع التى سبقت ضرب الاسكندرية وقد أرسل هذه المعلومات فى ٦ نوفمبر ، ويقول بلنت أن المعلومات التى أخذها عن بيمان على أعظم جانب من الاهمية التاريخية ، قال بيمان عن حادث ابراهيم أغا : أحسب أن حادث ابراهيم أغا وحده كاف ليظهر الخديو على حقيقته ، ولقد سمعت القصة كلها من القصر مباشرة وكيف أن توتونجى حامل فليون الخديو قد لثم يد الخديو ورجا منه أن يسمح له بأن يبصق فى وجوه السجناء ، وكان ذلك هو ما استقصى عنه السير شارلز ولسن (١) ووجده صحيحا ، وعلى الرغم من تبينه صحة الحادث ، فقد أغفله وذلك لانه كان للخديو قطعة قذرة جدا من القماش يجب أن تغسل فى هذا الموضوع (٢) ، ولقد اقترحت اذ رأيت الشهود جميعا يحنثون فى أيمانهم أن يحلفوا يمين الطلاق الثلاث ، وكان السير شارلز ولسن يميل الى ذلك ولكن مقترحى ما لبث أن أسكت ، وان أسرة سموه لاتستطيع الآن أن تنكر فيما بينها وقوع هذا الحادث ، وبعد فهذا هو الرجل الذى من أجله جئنا الى مصر » (٣)

ويقول بلنت : « ان حادث ارسال توفيق أغواته لاهانة زعماء الحركة القومية فى السجن قد ذكره الشيخ محمد عبده الذى كان من أوائل المقبوض عليهم والذى

---

(١) هو الذى انتدبه الانجليز لحضور جلسات لجنة التحقيق
(٢) كناية عن فضيحة له فيه
(٣) S. H. B. p. 348

كان من ضحايا الحادث ، وقد ذكر ما لقى فى السجن فى تصريح قدمه الى السير شارلز ولسن فى ٢٩ أكتوبر ، ولكنه لم يرد فى الكتاب الازرق » (١)

وقد ذكر مستر برودلى فى كتابه : « كيف دافعنا عن عرابى ؟ » أنه زار كلا من علي فهمي وعبد العال حلمى ، والشيخ محمد عبده فى حجراتهم وان عبد العال ذكر له « أن ابراهيم اغا توتونجى الخديو دخل حجرتى ومعه ٣ اشخاص وقال لى : يا عبد العال أتعرف من أنا ؟ فقلت كلا لست أعرفك ، فقال : أنا ابراهيم أغا توتونجى الخديو ، ثم دنا منى وبصق على وجهي وضربني بقلم كان فى يده على وجهي مرتين وقال : انتظروا لقد وقعتم يا أولاد الكلب سأريكم »

وقال الشيخ محمد عبده : « انى اعلن مع عظيم احترامي لسمو الخديو حفظه الله أن ابراهيم اغا توتونجى حضر الى فى الخامس من هذا الشهر وأهاننى ، وكان معه بعض أتباع الخديو ، وقد فتشونى وأخذوا منى ٣ مجلدات ، ٢ منها هما كتاب العقد الفريد ، والثالث هو الجزء الاول من تاريخ العصور الوسطى وهو مترجم عن الفرنسية ... ولما سألتهم : لماذا يأخذون الكتب ؟ الكي يعيدوها الى بيتى ؟ قال لى : ألك بيت ؟ فرأيت أن أسكت »

وأحسب أن هذه الفضيحة لا تحتاج الى تعقيب سوى الاشارة الى ما نحسه من الحسرة والخجل من أن ينزل الناس فى الخصومة الى مثل هذا الحد ، وأن يعامل رجال كهؤلاء هم بنفوسهم وجهادهم سادة أعزة وفى مقدمتهم زعيم ثورة وقائد جيش ووزير دولة ، معاملة لا تليق بأصفر الناس واحقرهم شأنا

S. H. B. p. 348 (1)

وكان عرابى يقضى أيامه فى سجنه على هذه الحال من سوء المعاملة وليس فى حجرته كرسى واحد كما ذكر هو وكما شهد محاميه ولم يجد فيها محاميه مستر برودلى وزميله مستر نابيير عندما سمح لهما بزيارته الا البساط والملحفة وحشية ووسادتين ومصحفا وبعض الآنية من الخزف والنحاس

وكان عرابى يلبس سروالا حربيا وقميصا أبيض ، وسترة كان يستبدل بها أحيانا استامبولية سوداء أو معطفا تركيا ، وكانت فى يده مسبحة صغيرة لا تفارقها الا نادرا كما ذكر مستر برودلى

ويقول محاميه انه بناء على طلب السير شارلز ولسن قد أحضر له ولزميليه منضدة وبعض الكراسى

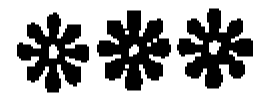
وكان لايزيد اتساع الحجرة عن ١٤ قدما فى مثلها وكانت مرتفعة السقف ، وكان ينفذ اليها بعض النور من نافذتين صغيرتين تطلان على الشارع ، أما بالليل فكانت حالكة الظلمة حيث لم يسمح بمصابيح أوشموع لاحد من السجناء ...

ولهذه الظلمة قصة ، فقد طلب عرابى على لسان محاميه أن يسمح له بالنور ليلا فرفضت ادارة السجن لانها علمت أن الخادم أراد أن يدخل له النفط ليحرق السجن ، ومن اجل ذلك منع الخدم من ان يدخلوا الطعام الى السجناء ، وقد غضب عرابى لهذه التهمة التى اشارت اليها جريدة التيمس غضبا شديدا ، وكتب الى مراسلها بالقاهرة تكذيبا لها قائلا: انه لم يسمح له برؤية خادمه منذ يوم ٥ أكتوبر ، وانه ليس هناك ما يدعوه الى أن يحرق نفسه ويموت ضد القانون فهو لم ييأس يوما من براءته مما نسب اليه »

وكان مما يؤلم نفس عرابى فى سجنه أسلوب سجانه

فى تقديم الطعام له ، وحق له أن يتألم وان يأسى. قال يصف هذه المعاملة : « منذ أن ألقى بى الى السلطات المصرية يأخذ أحد الحراس وهو تركى الطعام من خادمى متى حضر ويفتح الباب دقيقة ويلقى بالطعام امامى ثم يغلق الباب فى غلظة كما لو كنت وحشا فى قفص » .

وقد شكا عبد العال الى برودلى مخاوفه وقص عليه قصة محاولة قتله بالسم منذ بضعة اشهر مما دعا برودلى الى تصديقها ولذلك طلب من السير شارلز الا يكون مقدمو الطعام للسجناء أتراكا أو شراكسة .



ولندع عرابى فى سجنه لننظر كيف أتيح له أن يدافع عنه برودلى وزميله ، فان لهذا قصة ، هى قصة الوفاء والنجدة والمروءة ...

لم يكن يجرؤ احد من المصريين بالضروره فى مثل تلك الايام أن يفكر فى الدفاع عن عرابى والا عد من العصاة والجناة وقبض عليه وأودع السجن ، وربما كان مصيره الموت ، وحسب كل امرىء أن ينجو بنفسه من هذا الارهاب الذى يكاد يحصى على الناس أنفاسهم ...

وكان توفيق يريد رأس عرابى بأية صورة ، وقد عقد العزم على ذلك وانه ليتطلع منذ أشهر الى هذا اليوم الذى يظفر فيه برأس خصمه وكان رياض يذهب مذهب توفيق ولا يقل عنه حنقا وتطلعا ..

وكان الانجليز يريدون التخلص من عرابى بالموت ، ويقرر مستر بلنت أنهم كانوا لايترددون فى رميه بالرصاص فى موضعه لو أنهم أسروه فى التل الكبير ، ويقول : ان هذا ما عقد ولسلى عليه العزم ولم يرده عن رأيه الا السير جون أداى وهو قائد أكبر سنا وأكثر تجربة من ولسلى وقد بين له ما يكون فى مثل هذا العمل من عار،

اذ كيف لا يظفر قائد جيش نظامى استدعى مجىء ٣٠ الفا من الانجليز لمحاربته ، بما يظفر به كل قائد فى مثل ظروفه حسب قوانين العالم من معاملة شريفة عادلة؟ (١)

وسنرى فيما وقف عليه بلنت من معلومات اثناء سعيه للوصول الى تحقيق عادل والسماح لمحام انجليزى بالدفاع عن عرابى ، أن الحكومة الانجليزية نفسها كانت ترمى الى التخلص من عرابى بالموت على أن يأتى ذلك على يد توفيق ، وما أسلم عرابى الى السلطات المصرية الا لهذا الغرض ، ولنأت بهذه القصة ، قصة محاولات بلنت على سردها ...

يقول بلنت : انأخشى ماكان يخشاه بعد هزيمة عرابى أن يعمد جلادستون الى تغطية مذبحة التل الكبير وذلك بأن يجعل عرابى كبش الفداء عن هذه الخطيئة فيقتله ويجد ما يعتذر به عن ذلك فيما يزعمه من أنه قصاص عادل من ثائر عاص لايمكن أن يعامل معاملة زعيم وطنى أو قائد جيوش نظامية ...

وبعد أن أورد بلنت ما علمه من اعتزام ولسلى الذى أشرنا اليه وعن موقف السيرجـون أداى قال : « وكان جلادستون مصمما على هذا الاتجاه تصميم جرانفل أو أى شخص آخر من لوردات الهويج فى مجلسالوزراء »

ثم ذكر بلنت أن برايت الوزير الذى استقال محتجا على ضرب الاسكندرية قد أسمع جلادستون احتجاجه على هذه النية التى تنويها الحكومة وأن الضغط الشديد من جانب الرأى العام البريطانى هو الذى صرف الحكومة الانجليزية عن أن تجعل عرابى يؤدى بحياته الفداء عن جريمتها السياسية ...

واستعان بلنت بصديق له من رجال الصحافة هـــو

---

(1) S. H. B. p. 327

مستر بتن مراسل جريدة التيمس وبحسن مسعى هذا الصديق نشرت التيمس أنه لن يعدم عرابى أو أحد من رفاقه الا بعد موافقة الحكومة الانجليزية وأنه سوف يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم على يد محام كفء .

وتوصل بلنت بهذا الى أن يضع الحكومة الانجليزية ، كما قال ، فى نظر الرأى العام فى وضع كريم بحيث يصعب عليها أن تتراجع عن عمل انسانى نسب اليها .

ثم زار بلنت مستر برودلى فى منزله فى ١٩ سبتمبر ، اى بعد التل الكبير بسبعة أيام وكان لايزال عرابى فى معتقله بعابدين ، واتفق معه على أن يكون هو محامى القضية وجعل له أجرا على ذلك ٨٠٠ جنيه غير ما يلزم من مصروفات ...

وكتب بلنت فى نفس اليوم عملا بمشورة برودلى كتابا مطولا الى جلادستون وكان مما ذكره فيه أنه يخشى من عدة أمور فى التحقيق مع عرابى ، فأعضاء المحكمة العسكرية لابد أن ينحازوا الى الخديو ، واذا فرض أنهم لن يفعلوا ذلك فان الشهود من الوطنيين سيؤدون أقوالهم تحت تأثير الخوف ، وسيعمد الكثيرون الى التزوير ، أما الشهود من الاوربيين فسيتكلمون عن ضغن وحفيظة ، وسيكون المندوب الانجليزى نفسه فى لجنة التحقيق تحت تأثير الاتجاه السياسى الذى يتسلط الآن على الموقف فى القاهرة ، واذا أضيف الى المحكمة العسكرية ضباط من الانجليز كما نأمل أن يحدث ، فان جهلهم باللغة العربية سيحول بينهم وبين تتبع أقوال الشهود وسيكون اعتمادهم على المترجمين الذين لايؤمن جانبهم ... وبناء على ذلك فانه لن تتحقق العدالة ما لم تتبع خطوات خاصة نحو هذا الغرض ...

ثم ذكر بلنت أن العلاج الذى يراه هو أن يسمح بأن

يدافع عن المتهمين محام انجليزى كفء ، وأن يصحبه بلنت الى مصر ليجمع له المعلومات ، وأن يرافقهما صابونجي الذى يجيد عدة لغات منها العربية والانجليزية والذى يعرف الكثير عن أحوال المتهمين وأشخاصهم ... واختتم كتابه بوعد منه ألا يتدخل فى السياسة أثناء ذلك وأفصح عن عظيم رجائه أن ينال مقترحه قبولا لدى جلادستون وأن يأتيه منه رد سريع على كتابه...

وتلقى بلنت ردا من دوننج ستريت فى ٢٢ سبتمبر، مؤداه أن جلادستون قرأ كتابه ، وكل ما يستطيع قوله فى الوقت الحاضر أنه سوف يعرض هذا الكتاب على اللورد جرانفل ليرى فيه رأيه كى يشاوره فيه ، ولكنه لايمكنه أن يؤكد أنه سوف ينتهى به الإمر الى القبول..

وكتب بلنت الى عرابى كتابا فى ٢٢ سبتمبر يقول له فيه : انه خليق أن يدرك وهو الجندى الوطنى لماذا لم يكتب له أثناء الحرب ، ثم ذكر له أنه وقد انقضت الحرب سوف يرى أن صداقته له أعظم من أن تكون كلاما فحسب ، ويخبره بما اتخذ من خطوات فى سبيل الدفاع عنه ويطلب اليه أن يرسل تفويضا بذلك الى محاميه الذى اكتتب عدد من العلية الاحرار فى دفع أجره ويؤكد له أنه سوف يعنى بأسرته أثناء اعتقاله ، ويدعو له الله أن يهبه الشجاعة ويكون فى عونه ...

وارسل بلنت كتابه هذا الى صديقه عن طريق السير ادوارد مالت ، ولكن ما كان أشد أسفه وألمه ، اذ رد مالت اليه ذلك الكتاب مشفوعا بكلمة قصيرة جافة مؤداها أنه يفعل ذلك بأمر الحكومة الانجليزية ، ويقول بلنت : انه ليس أدل على ما كانت تنوى الحكومة أن تفعل بعرابى وأصحابه من هذا الذى صنعه مالت ...

وسافر برودلى الى تونس وقد طال انتظاره البت فى

الامر ، ورأى بلنت أن يبقى فى انجلترا حتى يستطيع أن يفعل شيئا لانه فى مصر لن يظفر بشيء مما يريد ما لم يكن لديه ما يشق به طريقه من سلطة يحصل عليها من الحكومة الانجليزية ...

وزاد لفط الصحف بتوقع الحكم على عرابى بالموت ، ولم يرتفع بالاحتجاج على ذلك الا أصوات خافتة ضئيلة وتلقى بلنت من صديق انجليزى من ذوى المكانة بالقاهرة كتابا يقول فيه : « انى أشك أكبر الشك فى أنه سوف يسمح بشيء من قبيل التحقيق العادل فانهم يعلمون حق العلم انهم ان فعلوا ذلك أدى الى ادانتهم هم ، وأن رجال السياسة اشد مكرا من ان يدفعهم أحد الى شيء من هذا القبيل ، وعلى أية حال فانك على حق فى محاولتك الوصول الى تحقيق عادل » .

ولم يجد بلنت مناصا من أن يكتب ثانية فى ٢٧ سبتمبر الى جلادستون يسأله عن مصير كتابه الاول وعن رأيه ورأى جرانفل فى الامر بعد تشاورهما ، ويشكو اليه مما فعل مالت من رد كتابه الى عرابى اليه ويخبره أنه اتفق فعلا مع احد المحامين النابهين لهذا الفرض ، وأنه قرأ فى جريدة التيمس برقية من القاهرة مؤداها أن المحكمة العسكرية سوف تعقد غدا وأن الخديو وشريف ورياض يصرون بشدة على أن الضرورة القصوى تقضى بالحكم بالموت على زعماء المجرمين ، ويقول شريف باشا وهو من اشتهر بسماحة خلقه : انه يرى ذلك لا لانه يحمل اى ضغن لهم ولكن لانه امر حتمى كى يضمن الامن لكل من يريد أن يعيش فى هذه البلاد ، واختتم بلنت كتابه الثانى بقوله : ان الحاح الضرورة هو ما يجعله يرجو ردا عاجلا ...

ولكن هذا الكتاب الثانى لم يصل جلادستون فى موعده

وذلك لسفره الى خارج لندن ، وقد أحاله الموظف القائم على شئون رسائله الى وزارة الخارجية ، وكتب الى بلنت يبلغه أنه سوف يتلقى ردا رسميا من جرانفل عما قريب وفهم بلنت من ذلك أن جلادستون خرج عن لا ، ونعم ، باحالة الامر الى جرانفل ، ولم يتلق من جرانفل شيئا اذ كان هذا كذلك خارج لندن ، ولكن ما لبث أن أبلغه أحد الموظفين أن اللورد جرانفل اطلع على كتابيه وانه يأسف ألا يستطيع الدخول معه فى مراسلات بشأن هذا الموضوع ...

وهكذا ذهبت محاولات بلنت عبثا ، ولكن اليأس لم ينل منه ، فقدظل ما نشرتهجريدة التيمس يلزم الحكومة أدبيا ، ولذلك عاد بلنت يستعين بصديقه بتن ،ووعد بتن وقد كانت له مكانة ممتازة لدى شنرى رئيس تحرير جريدة التيمس ، بأن ينشر ثانية ما يفيد قضية بلنت وأن يلح حتى يحمل اللورد جرانفل على الانجاه صـوب تحقيق عادل مع عرابى وأصحابه .

وعول بلنت على أن يبرق الى برودلى فى تونس ليكون على أهبة للسفر الى القاهرة ، وطفق يبحث عن محام آخر يسبق بلنت الى مصر ليعمل باسمه حتى يحضر فوقع على رجل هو خير من ينهض بهذا الامر وذلك هو مارك نابيير ، فقد كان نابيير لبقا ذا همة وعـزم ، يفهم الاعيب السياسة كما كان ضليعا فى القانون يجيد اللغة الفرنسية ويحسن المجادلة والمخاصمة ...

وسافر نابيير ليطلب الى مالت السماح له بالاتصال بعرابى بصفته محاميه ، وقد طلب اليه بلنت أن يحتج ما وسعه الاحتجاج اذا رفض مالت طلبه وألا يدع وسيلة لاثبات هذا الرفض الا سلكها ، وكان نابيير خفيفا الى غايته ليس فى يده الا حقيبة صغيرة كانت كل متاعه ..

أما بلنت فقد صمم أن يستأنف المعركة فى وزارة الخارجية وفى الصحف ، وقد نمى اليه أن خطة الخديو وحكومته هى أن يقدم المتهمون الى محكمة مصرية تنظر فى أمرهم فى مدى يومين ثم تقضى باعدامهم وقد تبين لها انهم عصاة ، والا يسمح لمحامين من الانجليز بالدفاع عنهم لان هذا يعد تدخلا من الاجانب لا يسمح به فى الوضع التشريعى للبلاد .

وما زال أحد اللوردات من أصدقاء بلنت وهو اللورد دى لاوور حتى حصل من جرانفل على تصريح يؤكد به أن الخديو سوف يتيح كل فرصة معقولة للدفاع عن المتهمين ، وهو تصريح مبهم لا يفيد المرء منه شيئا ، ولكن بتن لعب دور الصحفى اللبق فنشر فى جريدة التيمس ما يأتى : « كتب اللورد جرانفل بأن يمنح المساجين فى مصر وأصدقاؤهم كل ما من شأنه أن ييسر لهم الوصول الى محامين يدافعون عنهم » وغضب جرانفل مما كتبته جريدة التيمس ولكنه لم يستطع أن يتراجع فيكشف سياسته وسياسة حكومته ، فاضطر الى السكوت الذى هو نوع من الرضاء ... وقد رأى بلنت أنه كسب المعركة على هذه الصورة بوسيلة هينة ...

وأبرق بلنت الى برودلى ليسافر الى القاهرة فى الحال واتجهت نية الحكومة الانجليزية الى انجاز المحاكمة فى سرعة لتتم قبل أن يصل برودلى الى القاهرة ، ولم يكن لديها علم بنابيير واشتراكه فى الدفاع ...

وصدرت الاوامر بنقل عرابى من معتقل الجيش البريطانى الى السلطات المصرية ، حيث تحول بينه وحكومة الخديو وبين أية صلة بالعالم خارج السجن وتكون الحكومة الانجليزية بعيدة بذلك عن اللوم ، ثم أوعز الى الحكومة

المصرية أن تعلن أنه لن يسمح لاحد بالمرافعة الا باللغة العربية ...

واختارت الحكومة الانجليزية رجلين ليمثلاها فى التحقيق هما : السير شارلز ولسن ، والمستر بيمان ، وكانا كلاهما صديقين لبلنت ويشهد بلنت أنهما من ذوى الضمائر الحية والقلوب الرقيقة وأن اختيارهما كان من المصادفات الطيبة .

ولم يظفر نابيير من مالت بأكثر من اعترافه بشرعية موقفه كمحام من عرابى وأصحابه ، وظل يطلب منه السماح له بمقابلة عرابى فى غير جدوى اذ كان يحيله على رياض باشا ، وكان رياض يماطل ويراوغ حتى أدرك نابيير أنه يعبث به ، ثم رأى الحكومة المصرية تستعجل التحقيق كى يتم قبل أن يبت فى مسألة قبول المحامين الانجليز ...

وفى ١٨ أكتوبر تلقى بلنت من اللورد دى لاوور ، أنه بناء على معلوماته « ما لم تتخذ خطوات عاجلة حاسمة فان حياة عرابى فى خطر عظيم » وأسرع بلنت الى بتن فأفضى اليه بهذا النبأ السيىء ، ووجد لديه من المعلومات ما يتفق مع هذا النبأ كل الاتفاق ، وصمم الرجلان على الاحتكام الى الرأى العام فى صورة قوية أخاذة ...

وكتب بلنت كتابا الى جلادستون يحمل فيه على جرانفل وسياسته ويذكر جلادستون بعطفه ذات يوم على زعيم الحركة القومية فى مصر ، ويشير الى تبعة الحكومة البريطانية فيما ينوى الخديو عمله فى المحاكمة

وطلعت جريدة التيمس صباح الجمعة ومقالها الافتتاحى يدور حول هذه المسألة وذكرت أن المحاكمة سوف تكون يوم السبت وأن الحكم سوف يصدر يوم الاثنين وأن اعدام عرابى سيعقب الحكم مباشرة ، فأيقظت

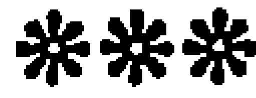
الرأى العام ونبهت شعوره فى صورة اهتم بها جلادستون وحكومته أشد الاهتمام ...

وذهب الوزير المستقيل الحر مستر برايت وأفضى شخصيا الى جلادستون برايه وصارحه بأنه سوف يقرن اسمه بالعار فى صفحات التاريخ لانحرافه عن مبادئه الانسانية باقراره مثل هذه الجريمة الكبرى.

وكللت مساعى بلنت بالنجاح اذ لم يجد جرانفل بدا من أن يبرق الى مالت بقرار الحكومة الانجليزية القاضى بالسماح بدفاع انجليزى عن المتهمين ...

وقد عقب بلنت على قصة سعيه بقوله: « لقد وجدت الضرورة تقتضى أن أفصل قصة محاكمة عرابى ، وذلك لانه بهذه الوسيلة وحدها يمكن أن أقضى على تلك الاسطورة السخيفة الكاذبة التى نجمت فى مصر ومؤداها انه كان هناك من أول الامر شىء من التفاهم السرى بين جلادستون وعرابى على حفظ حياته ، وانى لاستطيع أن أؤكد أن جلادستون قد بلغ من بعده عن الرثاء لحال «كبير العصاة» أو التفاهم واياه على أى صورة ما أنه قد اتحد مع جرانفل فى العمل على موته وذلك بأيدى أعوان الخديو المتاهبين لهذا العمل ، بعد محاكمة صورية ، من شأنها ألا تثير أسئلة ، وبهذا يتحقق لهما أضمن وسيلة وأسرعها للوصول الى السكون ولتبرير أخطائهما الادبية الهائلة أثناء الاشهر الستة الاخيرة فى مصر ، ولم يكن تأثم جلادستون هو الذى منعه عن السير فى خطته الى النهاية ، ولكن الذى منعه عن ذلك هو صوت الرأى العام المفاجىء الذى أخافه وأنذره أن فى ذلك خطرا على ما ذهب له من الصيت وهذه هى حقيقة المسألة فى بساطتها ، مهما بلغ ما يضيفه اليها المدافعون عن جلادستون وعن سمعته الانسانية ، ومهما يكن من

خيال كتاب فرنسا السياسيين الذين أرادوا أن يجدوا سببا لتسامح مستر جلادستون خيال عرابى بعد الحرب فلم يبد للمسألة عندهم وجه مفهوم الا أن يكون هناك تفاهم سرى سابق بين رئيس الوزارة البريطانية وزعيم الثورة المصرية » (١) .



بلغ نابيير القاهرة فى ٧ أكتوبر أى بعد نقل عرابى الى سجن الدائرة السنية بيومين ، وفى القاهرة أشرك نابيير معه أحد رجال القانون من أصدقائه المشتغلين بالاستشارات القضائية ويدعى المستر ريتشارد ايف ، وظل نابيير يسعى سعيه لدى مالت كما ذكرنا عدة أيام دون أن يظفر بشيء سوى انه كان يحيله على رياض باشا وحاول نابيير أن يظفر بشيء من السير شارلز ولسن ولكن هذا كان يحيله كذلك على رياض باشا ، وتخلص منه رياض باشا بقوله انه سوف يتصل بالسير ادوارد مالت .

وقدم نابيير مذكرة كتبها صديقه ايف ، الى رياض باشا يطلب فيها ايف بصفته مستشار عرابى أن يسمح له بالاتصال به فى سجنه ليتفق معه على أوجه الدفاع عنه فى التهم المنسوبة اليه ، ولكن رياض لم يرد على هذه المذكرة ، وذكر لهما السير ادوارد مالت أن رياض لن يقبل الا محامين وطنيين وانه سيتصل بوزارة الخارجية يسألها عما اذا كان لديها تعليمات أخرى ...

وكتب نابيير احتجاجا على منعه من الاتصال بعرابى وعلى موقف رياض باشا منه على الرغم من انه أعلنه مرارا انه قدم للدفاع عن عرابى ، وعلى عدم ابلاغ عرابى حتى ذلك الوقت بمجيء محام للدفاع عنه ...

---

(1) S. H. B. p. 341

وفى ١٤ أكتوبر جاءهما السير شارلز ولسن بالنبأ السار ، الا وهو السماح لهما بالدفاع عن عرابى وقرب مقابلتهما اياه

وكتبا من فورهما طلبا قدماه الى رياض باشا ليدخلا على عرابى ، ولكن ولسن مالبث أن جاءهما مرة ثانية يخبرهما بان الحكومة المصرية عدلت عن موافقتها

وفى اليوم التالى علما أن مجلس الوزراء المصرى انعقد بضع ساعات وأنه يؤثر الاستقالة على السماح لهما بالدفاع عن عرابى وأصحابه ...

وذهبا الى مالت واليأس ملء نفسيهما فأخبرهما بأن التحقيق لن يبدأ الا بعد أن يريا عرابى والمتهمين وأنه سوف يسمح لهما بالوقت الكافى لاعداد دفاعهما عنه .

وفى ١٨ اكتوبر بلغ برودلى القاهرة وسمع من نابيير هذه الانباء واعجب بنشاطه ونشاط صاحبه واثنى على حسن مسعاهما ...

وفى ٢١ أكتوبر أرسل السير شارلز ولسن برقية صغيرة الى برودلى جاء فيها هذه العبارة : « اسمح لى أن أقدم اليك نجل عرابى باشا »

وشكا محمد بن عرابى باشا الى مستر برودلى ماتلقاه اسرته وزوجته من سوء المعاملة والاهانة وخاصة منذ أن نقل عرابى باشا الى سجنه الحالى بالدائرة السنية ، ولكن محمدا ما لبث أن طاب نفسا حين علم أن برودلى وصاحبيه ذاهبون من فورهم الى لقاء أبيه فى سجنه توطئة للدفاع عنه ، ولم يستطع الفتى أن يحبس دمعه من الفرح ...

ودخل المحامون على عرابى يصحبهم السير شارلز ولسن ، يقول برودلى : « ولما أن ظهر الكيرنل ولسن نهض رجل طويل قوى البنية من فوق سجادة كان

يجلس عليها فى ركن الى جوار النافذة واقبل يحييه...
وقدمنا الى عرابى وطلب السير ولسن منضدة وبعض الكراسى... وبعد انانصرف السيرشارلز ولسن قدمت اليه كتابا من المستر بلنت أحضره معه المستر نابيير واستأذننا فى قراءته ...

وبينما كان يفعل ذلك أتيحت لى فرصة نادرة لادرس وجه رجل هو ملء أسماع أوربا كلها ، ورأيت انه فى حال سكونه ترتسم على محياه تقطيبة ثابتة ويخالطها عبوس فيلقيان فى روع المرء الشعور بما لصاحبهما من جهامة ، ولكنى لم البث أن وجدت أن ذلك يرد الى التفكير الطويل العميق أكثر مما يرد الى الجفاء أو عنف المزاج ، ولقد جعل اعتياد عرابى التفكير الدائم عددا كبيرا من الناس اعداء له ، وهؤلاء ممن يحكمون على الامور بمظاهرها ... فاذا تهلل محياه كان التغير الذى يطرأ على وجهه من العجب بحيث يصعب عليك أن تتبين أنه الرجل نفسه ، وان عينيه لتمتلئان بالذكاء ، وان فى ابتسامته كثيرا من الجاذبية ، ويرى محياه أرق من محيا ابنه ولكن انفه الافطس الذى يبلغ فى ذلك حدا كبيرا ، وشفتيه البالغتى الغلظ يحولان دون أن أصفه بالملاحة.

ويزيد طوله عن ستة أقدام ويتناسب عرضه مع هذا الطول ، وقد تغير منظره ماديا أثناء وجوده فى السجن وذلك باطلاق لحيته الشهباء ، ويدور حول معصمه وشم أزرق على عادة الفلاحين ، ولا يدع من يده مسبحته السوداء الصغيرة الا نادرا ويدير حباتها بين أصابعه أثناء الحديث ، وقد انقشعت شيئا فشيئا سحب القلق التى أحاطت به وكاد يعود الى بشاشته قبل أن تنتهى مدة سجنه

وكان عرابى يبتسم غالبا أثناء قراءته كتاب المستر

بلنت وكان يرفع يده الى جبينه علامة الشكر ، وعرفان الجميل وكانت هذه العادة التى تظهر من عرابى فى تناول رسائله تروعنى دائما بما تنم عليه بصورة خاصة من كرم السجية ، وكانت وداعته على الصورة الخاصة به تؤثر دائما فيمن لهم به صلة .

وبعد أن فرغ عرابى من قراءة الكتاب استأذننى أن يستعمل المداد والاقلام التى احضرناها معنا ليكتب كلمة شكر للمستر بلنت وزوجته ، ولما فرغ من ذلك اشار عليه المستر ايف أن يكتب توكيلا للمستر نابيير ولى لنكون محاميه ، وقد اجاب هذا الطلب فى الحال وختم على التوكيل بخاتمه .. ثم طلبت من عرابى أن يثق فينا كل الثقة وان يتكلم فى غير تحفظ عما يدافع به عن نفسه ، فكان اول ما ذكره ـ وذلك كما فعل من قبله كثير من القواد غيره ممن فاتهم النجاح ـ أنه وضع سيفه وشرفه بين يدى الجنرال لو ، وقد فعل ذلك واثقا كل الثقة أن اعداءه فى الميدان لا خصومه السياسيين هم الذين سوف يكونون قضاته ، وقال : أنه حفظ النظام ، وراعى اصول الحرب عند الامم المتمدنة وعامل السجناء بالرفق والانسانية ... وحق له فى الواقع أن يطلب أن يعامل معاملة خيرا مما لقى على أيدينا ، أو ليس فى مجيئنا اليوم اليه على الرغم من أعدائه ما يدل على أنه لم يكن يعد مخطئا من الجميع ؟ لقد قاد المصريين فى جهادهم من اجل الحرية ، وقطع شوطا فى طريق النجاح قبل أن توقف جنودنا تقدمه ثم تحطمت مطامحه التى كان يظهرها للملأ بارادة الامة كلها وذلك بهزيمته فى التل الكبير ، ثم سحقها سحقا لا امل معه ما أعقبها من قسوة الاتراك والشراكسة ...

وقال عرابى : « انكم اذا بحثتم فسوف تجدون ان

مصر كلها كانت الى جانبى وسوف يمكنكم اقامة الدليل على ذلك فكانت تؤيدنى عائلة الخديو ورجالها القدامى الباقون من عهد محمد على ، كما كان يؤيدنى العلماء والجيش والفلاحون ، ولكن فى حالتنا الراهنه من القبض والسجن والارهاب من يعترف بى الآن ، انى لن أعجب اذا انكرنى أولادى انفسهم تلقاء وجهى اذا مثلوا أمام لجنة التحقيق » ...

وذكر عرابى ما لحقه فى سجنه قائلا : انه اذا كان يعامل هذه المعاملة فماذا عسى أن يبقى لاتباعه وخاصة الطبقة المتواضعة من امل ؟ ثم ذكر أن اتباعه فى طول البلاد وعرضها قد ألقى بهم فى السجون ، وأن كل من يعرف هذه البلاد يدرك ما يكون لهذا من تأثير فى عقول الناس ، ولقد استجوبته اللجنة ولكن لم يكن له حيلة ازاء ما سمته أدلة ذكرتها ، وانه ليخشى مما رأى ان يجبن أقوى اتباعه جنانا من أمثال محمود سامى ويعقوب سوف يكونون قضاته ، وقال : انه حفظ النظام ، وراعى من عجز فى وضعهم الحالى ...

وفيما يتصل بسلوكه هو فانه يحسب أن لديه دفاعا جيداً عنه ، وقال : « انى أقسمه قسمين : ماحدث قبل ١١ يوليو ، وماحدث بعده ، ولن أعد عاصيا فى هذا ولا ذاك . فلقد وافق الخديو على رأينا فى وجوب الرد على نيران الانجليز وعبر السلطان مرات عن رضائه عن أعمالى وبعد ذلك أصبح الخديو أسيرا عندكم ، وبقيت أنا انفذ أوامر مجلس الوزراء التى أيدتها الامة كلها وأكسبتها مشروعيتها والتى ظل السلطان يقرها ، واذا كان الخديو والسلطان رئيسى فانى أكون عدوا لكم ولكنى لن أكون عاصيا لهما ، وانى آمل أن أستطيع اقامة الحجة على ما أقول ولست أخشى شيئا طالما انه لم تكن لى صلة

بفتنة الاسكندرية فى يونيو ولا بما أعقب ضربها من نهب وتخريب »

ووعد عرابى انه حالما يستطيع مقابلة ابنه سوف يمدنا بما يفيد قضيته من أوراق ، وقال : انه يتوق الى أن يضع بين أيدينا تعليمات تتصل بالدفاع عنه ولا ينقصه الا أن يسمح له ببعض أدوات الكتابة ...

وأفصح عرابى عن أمله ألا ننسى اخوانه المسجونين ، حتى ولو وجدناهم أجبروا على أن يرموه بالتهم أو يشركوه معهم فيما يتهمون به وكل ما طلبه فيما يتصل بالسجن هو أن يسمح له بالنور ليعمل ليلا ، وأن يسمح لخادمه باحضار الطعام اليه حتى مكانه ، ثم شرح لنا وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى ما يتعرض له الطعام من خطر بمروره بين أيدى الحراس الشراكسة ، وقص علينا كيف أوشك صديقه عبد العال أن يموت مسموما فى مرحلة مبكرة من مراحل الحركة القومية ، ولهذا ليس مما يدعو الى العجب فى مثل هذه الظروف أن يطلب الينا عرابى أن يوضع حراس من الانجليز داخل السجن كما يوضعون خارجه .

وغادرنا السجن وفى نفوسنا شعور طيب جدا تركه فيها حديث موكلنا ذى الصيت الذائع وما رأيناه من ثباته وتجمله » (١) .

هذا ما ذكره برودلى عن عرابى فى سجنه والحق انه لمما يدعو الى الاعجاب بزعيم الحركة القومية ، ولكم يروقنا هذا الوفاء الذى يتجلى فى توصيته باخوانه حتى ولو آذوه وذلك مع ما هو فيه من محنة ، وهكذا شأن عظماء النفوس وأحرار الشمائل ...

ولقد أثنى بلنت على شجاعته وقوة روحه وحرصه

(١) How we defended Orobi 56. 70.

على كرامته قائلا : انه كان يمتـــاز الى درجــة عاليــة بالشجاعة الادبية وأن الفرق كان عظيما بينه فى تجمله وثباته وبين أكثر الذين سجنوا مثله ، ولم تخب قط شجاعته فى أن تحمل على الاعجاب به كل من رآه ، وذكر بلنت من أدلة شجاعته ما كتبه بلا تردد فى سجنه من تقرير أثبت فيه تاريخ الحركة القومية فى صراحة وأسلوب أخاذ ...

ولقد جاء فى هذا التقرير ما يدل حقا على اباء نفسه وشجاعه روحه وعلى أنه فطر على الشـــمم والقوة ، ومن أمثلة ذلك قوله : «دخل الخديو الاسكندرية وأسلم نفسه وقد أخليت المدينة من الجيش ومن الناس ، ولم يكن تبعا لقوانيننا مما يليق بحاكم أمة ولا مما يسمح به أن يفعل ذلك فينحاز الى أمة تحاربنا ، أمة عقد هو نفسه العزم فى مجلس موقر على مقاومتها ، وأن قانون الانسان وان كلمة الله لينهيان عن هذه الاعمال الهادمة للشرف ، ولا يمكن أن يكون مثل هذا الرجل مسلما ولا أن يحكم فريقا من المسلمين »

وقوله عن الحرب انه يدهش كيف أن دولة عظيمة الصيت كانجلترا تقول انها صديقة الانسانية وأنها تحرر العبيد وتحترم القوانين التى تبين الحق من الباطل ، كيف أن دولة كهذه تقدم على محاربة أمة كل جريمتها أنها قاومت حاكمها حين رأته لا يحترم قانون شـــعبه ولا حقوق هذا الشعب »

ومن أدلة شجاعته كذلك فى هذا التقرير ذكره ما لحقه من اهانة فى سجنه وتعقيبه على ذلك بما أشرنا اليه من قوله : ان هذا يصرخ فى وجه الشرف البريطانى وفى وجه كل انجليزى ...

وهــذا التقرير تلخيص أمين حسن السياق للحركة

القومية واطوارها والحرب وادوارها ، وقد كتبه عرابى فى سجنه مع ما كان يحيط به من آلام وبغير أن يرجع الى كتاب أو مذكرة وفى ذلك برهان قوى على خصوبة ذهنه وحسن المامه بما يجرى حوله ...

وبعد فهذه قصة الدفاع عن عرابى نبسطها صفحات مشرفة ونقذف بها على باطل الذين يكتبون التاريخ بلا علم والذين يكتبون عن هوى فيقولون كيف يليق بزعيم وطنى أن يدافع عنه محاميان انجليزيان ؟ فهل غاب عن هؤلاء صفة المحكمة العسكرية التى ألفت لمحاكمته وهل غاب عنهم ما كان يريده توفيق ورياض به فى غير وازع من ضمير أو رادع من قانون ؟ أم انهم يعلمون ذلك ومع علمهم هذا يطلبون من الرجل أن يسلم نفسه الى من يريد قتله بأى ثمن فلا يدافع عن نفسه دفاعا ينقذ به شرفه حتى ولو لم ينقذ به حياته ؟ واذا قيض الله له هذا الدفاع على يد صديق مد له يد المعونة فى محنته ، أكانوا يريدون منه أن يرفضه ؟ وأين كان يجد عرابى الدفاع الوطنى عنه ؟ أكان يجرؤ أحد من المصريين حتى على أداء الشهادة الحق عنه وسيف الطغيان مسلط على الاعناق ؟ وأين هم المصريون ومنهم ٣٠ الفا فى السجون؟

الحق اننا فى حيرة مما يقول هؤلاء الجاهلون والمغرضون وفى عجب ؟ كيف لم يدعوا ناحية من حياة عرابى الا شوهوها بالباطل ، وحاولوا طمس حقائقها باللغو ، ولكن الباطل لا يعيش ، واللغو لا يجدى شيئا ولن يموت الحق ولا مناص من أن يظهر وان طال احتجابه .

ومن أسخف أنواع البهتان وأدلها على جهل هؤلاء الذين كتبوا عن عرابى كتابة هوى وحقد ، قولهم : ان الانجليز كانوا يعطفون عليه وأن جلادستون كان يهتم بحياته ، وأنه كتب فى السجن يتملق الحكومة الانجليزية

وأن ذلك من أشد ما يعاب على زعيم وطنى ، ولن يعترف هؤلاء له بالزعامة الوطنية الا حين يبتفون أن ينالوا منه بافكهم وما ينالون الا من أنفسهم ولكن لايشعرون! ولقد بينا مبلغ ما بين أقوالهم هذه وبين الحق من بعد وفصلنا كيف آن للتاريخ أن ينصف عرابى على الرغم من باطل هؤلاء المبطلين وجهل هؤلاء الجاهلين ...

ويؤلمنا قبل أن ندع الكلام عن البطل السجين أن نشير الى ما حل ببيته وأهله ، وهو من أشد الادلة على ما بلغ بالطاغين من روح الطغيـــان وعلى مبلغ ما وصلوا اليه من انحطاط فى الخصومة بل من بعد عن الانسانية

كان أول ما شكا منه محمد أحمد عرابي الى برودلى ما يتعرض له هو وأمه وأسرته من اهانات متصلة على أيدى بعض خدم الخديو وأتباعه ، وقد أشار الى ذلك برودلي ــ كما أسلفنا ــ عند كلامه على لقائه نجل عرابى

وذكر بلنت فى صدد الكلام عن أوراق عرابى أن زوجته وأهله لم يسمحوا لمحاميه ومن معه بالبحث عنها الا بعد لاى ؛ وذلك لانهم فيما كان يحيط بهم من ارهاب، قـد سبقت لهم كذلك بعض « الزيارات » من جانب خدم الخديو وأعوانه ...

ويذكر برودلي فى كتابه ما يأتى : «عند دخولنا القاهرة كان قد تحطم أثاث عرابى كله أثناء البحث عن أوراق تثبت ادانته وخيانته ، وقد تمزقت الفرش والوسائد. وكانت الليدى سترانجفورد قد طلبت أن تأخذ المنزل ، وأعطاها الخديو اياه ، ولست أدرى كيف استولى عليه؟ وكانت حجراته الفسيحة المرتفعة التى كانت قبل ذلك بثلاثة أشــهر تزدحم بالمعجبين ملائمة كل الملاءمة لمـا استعملت فيه الآن »

وكانت هــذه السيــدة قد أحالت بيت عرابى الى

مستشفى وقد امتلأت حجراته بالجرحى من ضباط الانجليز وعساكرهم ، ومما يذكره برودلي أن بعض خصوم عرابى قد خوفوا هذه السيدة من قطة سوداء كبيرة ذات ذيل أبيض كانت لا تزال تفشى البيت كأنما تبحث عن سكانه السالفين ، وكانوا يحدثونها عما بثه عرابى فى المنزل من الارواح الشريرة ، ولكن عرابى وقد علم بذلك من برودلي ارسل اليها صورته وشكرها على عملها الانسانى قائلا: انه ليس أحب اليه من ان يستعمل بيته فيما استعمل فيه ...

وقالت أخت الخديو ذات مرة لصديقة من صديقات الليدى سترانجفورد : ليت عرابى يصيبه المرض فينقل الى هذا المستشفى لنعطيه فنجانا من القهوة على الطريقة الشرقية ...

وامتدت قسوة خصوم عرابى الى المرضى والاطفال المرضى ، فقد أصاب المرض طفلا له ، فلم يجرؤ طبيب وطنى على التقدم لعلاجه ، ونحب أن ينظر فى هذا الذين انكروا منه أن يستعين بمحامين من الانجليز ...

ولما ضاقت السبل بنجله محمد ، ذهب الى مستر برودلي وشكا اليه هذا الاضطهاد ، وارسل برودلي الى طبيب انجليزى صديق كما ارسل نابيير الى طبيب الليدى سترانجفورد ، فذهبا من فورهما لمعالجة الطفل وأديا هذا العمل الانسانى الذى احجم عنه الاطباء المصريون فكان احجامهم مثارا للغط جديد من جانب القصر اذ قال شيعة الخديو ان فى ذلك لدليلا على أن عرابى ليس يحبه أحد ...

أما الذين يشايعون عرابى فقد رأوا كما يذكر برودلى فى هذا العمل دليلا على قسوة خصومه ... وتجادل الطبيبان على صفحات الجريدة الطبية الانجليزية فيمن

كان له منهما شرف معالجة ابن عرابى وتخاصما فى ماهية المرض الذى ألم به .

واهتمت جريدة التيمس نفسها بالامر فنشرت كلمة بعنوان « طفل عرابى » قالت فيها : « ترى الصحيفة الطبية الانجليزية أن طفل عرابى الذى أصيب بمرض قيل انه خطير ، والذى أحجم الاطباء المصريون لاسباب سياسية عن معالجته مصاب بتهيج فى الجلد وقد تبين ذلك بعد عرضه للعلاج على أطباء بريطانيين » .

ولا يستطيع المرء أن يتصور كيف تصل القسوة ببعض بنى الانسان الى حد أن يجعلوا اسعاف طفل مريض عملا يجلب الغضب على صاحبه ، ولولا أن راى الاطباء المصريون ذلك ما أحجموا عن معالجة هذا الطفل المسكين ، وفى هذه المسألة وحدها ما يكفى لبيان مبلغ ما كان يحيط بعرابى وأهل عرابى من اضطهاد ومبلغ ما كان يشيع فى مصر كلها من ارهاب .

وهكذا يتنكر الناس لعرابى عدا الفلاحين والعامة فقد كانت قلوبهم معه وان لم يملكوا له عونا ، وكثيرا ماكانت تطوف جماعات منهم بسجنه ، يتطلعون ولا يتكلمون ولا يرون شيئا الا الحراس من الانجليز ، فينصرفون وهم يدعون الله أن ينقذه من الموت ...

زاره ذات صباح مستر برودلى فوجده فى شغل بكتابة مذكراته التى كان يكتبها فى ثبات ويقين ونشاط ، يقول مستر برودلى : « ثم وجه عرابى الحديث الى فجاة قائلا : أتحب أن أريك برهانا على أن شعب مصر كان معى ؟ انظر هنا ... وأخذ بذراعى وقادنى الى نافذة فرأيت خلال ثقوبها عددا من النساء والصبية يبكون على الجانب الآخر من الشارع وكان يزداد الازدحام شيئا فشيئا كل يوم حتى ليضطر الحراس الى تشتيتهم

ولم أر عرابى أكثر ضيقا مما رأيته عند ذاك »

ويقول برودلى : ان كثيرا من الاوربيين كانوا يعطفون على عرابى فى سجنه ، وقد أرسل محاميان ، أحدهما انجليزى ، والثانى فرنسى ، الى برودلى يقترحان بعض أوجه الدفاع عنه ، وكانت سيدات امريكيات يتنافسن بغية الحصول على صورته وكن يرسلن اليه تحياتهن ، راجيات له الخلاص من اعدائه .

مهزلة المحاكمة

عقدت لجنة التحقيق أو القومسيون المخصوص كما كانت تسمى أولى جلساتها فى ١٠ أكتوبر برئاسة اسماعيل أيوب باشا وبدأت أعمالها باستجواب أحمدعرابى باشا، وقد استغرق استجوابه ثمان جلسات وامتد بضعة أيام وكان مما تريد اللجنة أن تلصقه بعرابى من التهم تدبيره مذبحة الاسكندرية ثم احراقها بعد اطلاق مدافع الانجليز على الطوابى ، وعدم مراعاة القانون الحربى الخاص برفع الراية البيضاء ، وعصيان الخديو ...

واستجوبته اللجنة أياما فلم تستطع أن تقحمه فى مسألة واحدة ، وأن من يطلع على محاضر استجوابه ، ليزداد اعجابا به وادراكا لحقيقة شخصيته ، فلم يتنصل عرابى من حادث ، وترفع أن يكذب أو يداجى أو قل انه بطبعه لم يستطع ان يكذب ، هذا الى حضورذهنه وقوة بديهته ومتانة حجته وشجاعة قلبه ، ولولا أن هذه المحاضر تقع فى قرابة مائتى صفحة ما تركنا منها كلمة واحدة الا أوردناها ، وقصارانا ان نلم بأهم ماجاء فيها..

ناقشته اللجنة فى الجلسة الاولى فى مظلمته الى رياض باشا بشأن عثمان رفقى ، فأجاب بما لم يخرج عن كلامه وقت تقديم هذه المظلمة ، وكذلك كان الحال فى اجابته عن حادث قصر النيل وقال : ان الخديو أصدر عفوه

هما وقع فكأنه لم يكن ...

وسئل عن ذهابه بالجند الى قصر الخديو « ولماذا تجاسر على هذا الفعل المضاد للنظام العسكرى » يوم عابدين ؟ فأجاب بقوله : « ان الاسباب التى دعت لذلك هى عدم الاخذ بالعدل والمساواة فى المعاملات شأن البلاد التى لم يكن فيها قوانين ، أو فيها قوانين ولم يراع فيها الاجراء على مقتضاها فلذلك اعتمد أعيان البلاد على ابنائهم رؤساء العسكرية وتاقت انفسهم الى تشكيل مجلس نيابى بالبلاد يحفظ لهم حقوقهم ويدفع عنهم ما ألم بهم من المظالم ... فأجمعوا امرهم على ذلك وتحرر منهم بذلك عرضحالات وختم عليها نحو ألف من عمد واعيان وتجار وغيرهم ولخوفهم من البطش بهم أنابونى مع اخوانى الضباط فى عرض طلباتهم لاننا اخوانهم وابناؤهم وهم أهلونا يضرنا مايضرهم وينفعنا ما ينفعهم »

ووجهت اليه اللجنة سؤالا فى غاية السخف هذا نصه : « لو فرض أن الحضرة الخديوية لم تسلم بهذه الطلبات فماذا كان يحصل ؟ » وما أعجب وأغرب أن يسأل المرء عن شىء لم يحدث ! وان هذا فى سخفه ليذكرنا بقصة الخجول الذى سأل عروسه أيحب أخوها التفاح ؟ فلما ذكرته أن ليس لها من أخ عاد فسألها : « أقصد اذا كان لك أخ أكان يحب التفاح ؟ »

ورد عرابى على سؤال اللجنة بقوله : « لا لزوم للفرض والتقدير لاننا واثقون بكرم الخديو ووفائه بوعده » ...

واتهمته اللجنة بانه نادى مع المنادين بخلع الخديو فى اليوم التالى لسقوط وزارة البارودى ، فانظر الى اجابة هذا الرجل الذى رماه خصومه بالجبن قال : « مما توضح يعلم انه لشدة تأثير اللائحة المذكورة التى قبلها الجناب الخديو ، ما كان يمكن قبولها ولو أدى ذلك الى

خلع الخديو وكنت أنا وكل الناس على هذا الرأى »...

وسئل لماذا لم يغادر مصر مع علمه بقبول الخديو اللائحة ، فأجاب فى شجاعة بقوله : « ان أفكار الناس وقتها وحالة البلاد وشرف الامة منعتني من ذلك ، وأما ما ذكر من لزوم موافقة النظار للحضرة الخديوية لما لها من الامتيازات الخاصة فذلك لا يكون أمرا لازما فى الحكومات الشورية خصوصا وان جنابه الكريم أوجب على نفسه جعل الحكومة شورية وأن يشترك مع نظاره ونواب البلاد فى الرأى ، ولحرص النظار على تلك الامتيازات وما رأوا فى قبول تلك اللائحة من التدخل فى الامور الادارية ومس الامتيازات المصرية لم يصر قبولها كما تقدم الايضاح بالاجوبة السابقة » .

وسئل عن رفضه ما أشار به عليه درويش باشا من الذهاب الى الآستانة فقال : « قلت له انى أود ذلك بل هو أعظم شيء أتمناه ولكن لتعلق الناس بى وازدحامهم على فى كل وقت بحيث أنهم لايمكنوننى من تناول غذائى الذى هو من الزم ضرورياتى المعيشية الا بمشقة ، أخشى أن يحولوا بينى وبين ذلك اذا علم لهم أنى أريد السفر الى خارج القطر لما يتوقعونه مما يحيق بهم من الضرر فى المستقبل ويترتب على ذلك حدوث فتنة داخلية » .

وانتقلت اللجنة الى مأساة الاسكندرية فاتهمت عرابى بأنه أرسل تعليمات الى وكيل الجهادية بابعاد الشبهة عن الاهالى والعساكر وهذا ما يفهم منه أن الحادثة « اما أن تكون بأمركم أو بتعليماتكم » ...

ونفى عرابى أن يكون حادث كهذا من تعليماته وهو الذى يحافظ على الامن حرصا على سمعة مصر ، وكان اتهام اللجنة ضعيفا جدا فى هذا الحادث فلم تجد لديها الا كتابا من عرابى كان قد أرسله الى وكيل الجهادية

المنتدب فى لجنة تحقيق ذلك الحادث فتلته عليه وسألته هل له علم به وكيف يقول مع ذلك انه لم يرسل تعليمات؟

والذى يدعو الى الدهشة حقا أن هذا الكتاب مما يصح ان يقدمه عرابى دليلا على براءته وهذا مما يدل على تخبط اللجنة وأنها كانت تريد مجرد الاتهام لعلمها أن الحكم فى نهاية الامر معروف ، فلم يكن الفرض الوصول الى الحق وانما هو تحقيق صورى فحسب..

وقد جاء فى هذا الخطاب قول عرابى : « ولا تقبلوا كل ما يقال فى جانب الوطنيين والحكومة من غير تدقيق وبحث طويل وتحقيق تعرفون صدقه وعدم تصنعه ولا تميلوا بجانبكم لاحد من أعضاء اللجنةخشية أن يخدعكم ويستميلكم لامر ظاهره الاصلاح وباطنه الفساد... وأما ما يلزم للمراقبة العامة فيلزم أن تلاحظوا البلد وأخبارها وتتأكدوا مما تسمعونه وترونه وتبادروا بابلاغنا أولا بأول عن جميع الاعمال » .

وأجاب عرابى بقوله : « نعم صدر منى هذا الخطاب الذى هو عبارة عن الاخذ بالحزم فى اظهار الحقيقة والعمل بالحق وليس فيه ما ينكر عليه » ...

وسئل عن سبب اصراره على عدم ابطال التجهيزات بالطوابى وعدم امتثاله لامر الخديو فقال : « انه على حسب العادة السنوية كان جارى ترميم بعض طوابى الاسكندرية ولما ورد تلغراف من الحضرة السلطانية الى الحضرة الخديوية بناء على تبليغات سفير انجلترا بالاستانة بابطال انشاء تجديد استحكامات الاسكندرية اذ يعد ذلك تهديدا للمراكب الحربية الانجليزية ، وصدر أمر الخديو بذلك ففى الحال صار ابطال الترميمات وتعيين من لزم من رجال المعية لمشاهدة ابطال العمل».

ومن أهم ما سئل عنه فى الجلسة سبب رفضه أمر

الخديو وعدم مجيئه الى الاسكندرية وتلى عليه كتاب الخديو الذى استدعاه فيه ، فأجاب عرابى فى صراحة وشمم قائلا : « ان الحرب التى حصلت لم يسبق لها مثيل اذ هى خارجة عن حد القياس حيث أن الحرب المذكورة ما صار اجراؤها الا بمقتضى قرار من مجلس مؤلف من النظار والذوات الاختياريه تحت رئاسه الحضرة الخديوية بحضور أعضاء الوفد العثمانى، فكان اجراؤها على مقتضى الحق والقانون . ثم بعد خروج العساكر من الاسكندرية توجه الجناب الخديو من سراى الرمل الى داخل الاسكندرية التى تركها أهلها والعساكر ، فلمابلغنا ذلك تحقق لنا أن انتقال جنابه العالى الى الاسكندرية مع حدوث المناوشات الحربية بين مقدمات العساكر المصرية والعساكر الانجليزية اما أن يكون لاخذه أسيرا واما لانحيازه الى الطرف المحارب لبلاده ، فمن أجل ذلك كتبنا لوكيل الجهادية يعقوب باشا سامى بما حدث للمشاورة مع رجال الحكومة فى هذا الامر الذى لم يسبق له مثيل .

وبناء على ذلك صار عقد اجتماع عام من وكلاء الدواوين والمديرين والامراء والعلماء وشيخ الاسلام ، والقاضى السيد السادات والسيد البكرى واعيان التجار والعمد وغير ذلك تشاوروا فيما بينهم فى هذا الامر الذى دهم البلاد واستقر رأيهم جميعا على اعطاء قرار بعدم استماع أوامر الحضرة الخديوية وتوقيفها عن الاعمال حيث أنه توجه للطرف المحارب للبلاد وعرضوا ذلك تلغرافيا للحضرة السلطانية ببيان أسماء الشاهدين من اعضاء ذلك المجمع العام » .

وفى الجلسة الرابعة سئل عن صلته بنديم وهل يعلم أنه سافر الى الاسكندرية قبيل المذبحة فاثار فيها الفتنة

وعما كان يكتبه بجريدته «الطائف» وأجاب عرابى بأنه لم يعلم باثارة الفتنة ولم يكن له أن يمنع نديم عن كتابة ما يشاء فى جريدته ...

وسئل عن سبب اختفاء حسن موسى العقاد فأجاب بقوله : « يؤخذ من هذا السؤال انى أسأل عن كل من غاب من الناس ولم يوجد ، مع انى لست بمأمور عليهم ولا مسئول عنهم »

وسئل عن صلته بحليم باشا وهل وصلت اليه من الآستانة صورته ؟ فأجاب « بأنه وصلته صورة منه وان كثيرا من النــاس وطنيين وأجانب كانوا يرسلون اليه صورهم ...

ووجهت اليه اللجنة هذا السؤال : « لما كنت بكفر الدوار هل صدر منك تلغراف الى كل من راشد باشا قومندان خط الشرق ومحمود فهمى باشا رئيس أركان حرب بردم قناة السويس المالح وسد الترعة الحلوة ؟ »

وأجاب عرابى بقوله : « التــلغرافات التى تداولت بينى وبين المسيو دى لسبس تعلن وتؤكد احترام قناة السويس مادامت على الحياد ولم تتخذ فيها أعمال حربية فلغاية دخول السفن الحربية الانجليزية فى قناة السويس وحدوث الضرب منها فى الاسماعيلية على العساكر التى كانت بجهة نفيشة كان قد حدث احترام القنال المذكور، ومن بعد ذلك حيث اتخذ القنال المذكور ميدانا للحرب ولنا الحق فى كل ما أمكن اجراؤه من الاعمال الحربية ، اذ ذاك تحرر لرئيس أركان حرب محمود فهمى باشا بتلك الجهة باتخاذ ما يمكن اجراؤه من التدابير الحربية وسد الترعة الحلوة لما صار اعلان المسيو دى لسبس بأن الحالة الحربيــة أرغمتنــا على ذلك لعــدم احترام الانجليز لحياد القنال »

وسئل عرابى عن المجلس العرفى من شكله فلم يتنصل منه وقال ان الذى شكله وكلاء النظارات بموافقته

واهم ما وجه اليه فى الجلسة الخامسة أن ما سماه مساعدات من جانب الامة لم يكن الا اجبارا لها على ذلك بالقوة فاجاب : « قد قلت فى أجوبتى المتقدمة فى هذا الخصوص أنه لايتصور احد اصلا حصول تهديدات بمجلس مؤلف من اعيان الامة المصرية ورؤسائها ونبهائها يزيدون عن ٤٠٠ نفس كما أن المساعدات والتبرعات التى كانت ترد للجيش المدافع عن البلاد مدافعة شرعية لم تكن بتهديدات أيضا بل من الناس من تبرع بنصف ماله ومن الناس من تبرع بماله كله ابتغاء مرضاة الله وغيرة على الوطن ، ومنهم موسى بك مزار تبرع من ماله بثلاثة آلاف أردب غلال و٣٠ راس من الخيل والف ومائتى ثوب بفتة تبرعا لمساعدة الجيش اذ أن الحرب الشرعية اما أن تكون بالنفس والمال ، أو بالمال فقط أو بالرأى ، ومنهم حميد بك أبو ستيت تبرع ب ١٥٠٠ اردب غلال ، ومن ضمن من تبرع وافتتح باب المساعدة دوائر العائلة الخديوية وفى مقدمة الجميع دائرة والدة الخديوالسابق وأغلب الذوات تبرعوا أيضا ، ولواستكشفت التلغرافات التى كانت ترد من جميع أهالى المديريات حتى من مديرية اسنا بدون واسطة مديرياتهم يعلم أن الامة المصرية كلها كانت محاربة بمالها ونفسها ، ورأيها متفق على ذلك ولو استكشفت قوائم التبرعات لعلمت أنه لم يتأخر أحد من أولى الرئاسة فى المساعدة ، ومن ضمنهم دائرة سعادة خيرى باشا حالة كونه لم يشهد الحرب بل كان فى الاسكندرية مع الخديو عند الانجليز ، ومن ضمنهم دائرة دولتو رياض باشا وغير هؤلاء ، فهل كل هذا كان رغما عن الناس ؟ ومن ذا الذى كان يرغمهم ؟

أن هذا الأمر حق تعرفه أهل البصائر الثاقبة والضمائر الحية ، واما الذين وجدوا مسجونين فى القلعة فاظنهم لايزيدون عن مائه نفس من أرباب الجنايات المحكوم عليهم بالحبس ومحضرين من المديريات وانه لم يصدر منى اصلا امر بسجن احد فى القلعة أو غيرها ، واما طلب ابراهيم باشا ادهم فذلك مبنى على ماحدث بطنطا بين مهاجرى الاسكندرية وبين الاوربيين ، كما أن شاكر باشا وغيره لم يكن عزلهم من المديريات التى كانوا بها الا بأمر المجلس الادارى لا بأمرى » .

وفى الجلسة السادسة اطلع عرابى على كتاب وقع عليه بانه رئيس الحزب الوطنى وسألته اللجنة سؤالا يدل على تعسفها ولفوها قالت : « تعلمون انه بالممالك المنتظمة ووجود الحضرة الخديوية بمقر الحكومة ، لايجوز وجود احزاب حتى تمضوا تلك المكاتبة بصفة رئيس الحزب الوطنى فهل صرح لكم من الحضرة الخديوية بذلك ؟ واذا كان لم يصرح لكم فهل جعل نفسكم رئيسا لحزب داخل الحكومة لايعد عصيانا ؟ وان كنتم ترتكنون على عدم وجود وظيفة لكم وقت تحرير هذا الخطاب أفما كان يمكن أن توضعوا فى الامضاء ناظر الجهادية سابقا كالجارى فيمن يرفتون من مامورى الحكومة ؟ » وأجاب عرابى بقوله : « من المعلوم بداهة أن مصر آهلة بأجناس وعناصر مختلفة وكل عنصر منهم يعتبر نفسه حزبا كما أن أهل البلاد وهم حزب قائم بذاته يعتبر عند الآخرين منحطا عنهم ويطلقون عليه لفظ فلاحين اذلالا لهم وتحقيرا وأولئك هم الحزب الوطنى وهم أهل البلاد حقيقة . وحيث انهم أنابونى عنهم فى طلب ما يكفل لهم الحرية فى حفظ الحقوق وكنت أنا القائم بطلب ذلك ولم تكن لى صفة فى الحكومة فى ذلك الوقت فوضعت امضائى بذلك

لما لى من حق الرئاسة على الحزب الوطنى وليكون ذلك أدعى لاجتناب ما يخل بأمر الراحة العامة كما هو واضح بالكتاب المذكور ولا يعد ذلك عصيانا لان كل أمة من الامم المتمدنة الراقية فيها أحزاب مختلفة قائمون بحفظ حرية بلادهم والدفاع عن حقوقهم » .

وفى الجلسة السابعة وجه اليه السؤال الآتى : « قد وجد فى الاوراق التى ضبطت ورقة محرر فيها صورة سؤال استفتاء من العلماء عن جواز عزل الخديو لاسباب تمويهية مخترعة فى تلك الصورة فها هى الورقة المذكورة اطلع عليها وأجب »

ونفى عرابى معرفته بهذه الورقة وقرر انها ليست بخطه وقال : انه ربما كانت مع أحد الناس وتركها على المنضدة التى كانت عليها الاوراق ...

وسألته اللجنة هذا السؤال : « منـذ أيام سقوط وزارة محمود سامى كنتم جارين تحرير محاضر بمنزلكم بعزل الخديو، وجارين احضار الاهالى والعلماء لتختيمهم عليها رغما منهم واستحضارهم لمنزلكم كان بواسطة ضابطين من الآلايات وأشخاص من مستخدمى الضبطية كما هو واضح من التحقيقات التى جرت بهذا القومسيون فأفيدوا عن أسباب ذلك »

وأجاب عرابى : « لما تقدمت اللائحة المقدمة من قنصلى دولتى الانجليز وفرنسا وقبلها الخديو ولم تقبلها الوزارة ، وحضر أعضاء مجلس النواب وأشيع ذلك بين الناس توافدوا أفواجا وجماعات من المديريات والمحافظات ومصر والاسكندرية لرفض اللائحة المذكورة ورفض من يقبلها محررين بذلك عرائض ومحاضر ، فهل كذلك كان كل هذا رغما من الناس ؟ وكنت أنا مرغما لهم ؟ الحق أن جميع المسلمين تأثروا لقبول هذه اللائحة وأنكروها

بل ان جميع المصريين أنكروها لما فيها من تدخل الاجانب في أمور بلادهم الداخلية » ...

وسألته اللجنة : « الى أين توافد الناس ؟ هل الى منزلكم أو لاى جهة ؟ وهل كانت المحاضر التى يحررونها ترد اليكم مختومة أو تختم بمنزلكم وما الذى أجريتموه فى ذلك ؟»

أجاب بقوله : « كانت تأتي المحاضر مختومة وكان حضور الناس بها جهرة لا خفية وبحضور الجميع لمنزلى ولمنزل رئيس النظار محمود باشا سامى ، وكانوا يأتون بها ويقدمونها الينا اعلانا بعدم قبولهم اللائحة المذكورة ومن يقبلها ، وكان ذلك بحضور كثير من أعضاء مجلس النواب وكلهم موافقون على ذلك ، وكما قلنا أولا ، ان الامة المصرية لم تختلف فى هذه الكارثة ، وكانت تلك المحـــاضر باقية طرف اربابها وبحضور دولتو درويش باشا وتشكيل وزارة راغب باشا وصدور العفو العام صرف النظر عن هذا وذاك »

ولم يكن فى الجلسة الثامنة شيء ذو بال ، وعلى ذلك انتهت اللجنة من التحقيق ومنه يتبين أن ما وجه اليه لم يعد حد الاتهام ، فلم تستطع اللجنة أن تثبت عليه شيئا مما حاولت أن تلصقه به من عصيان أو فتنة أو حريق ، ولو أن هــذا التحقيق أجرته لجنة عادلة لمـــا وجدت فيه ما يدعو الى ارسال المتهم الى المحكمة ...

واستدعت اللجنة عددا كبيرا من المتهمين ومن الشهود، وليس يعنينا الا أقوال زعماء الحركة من أصدقاء عرابى وهم : على فهمى وعبدالعال حلمي ومحمود سامى ويعقوب سامي وطلبه عصمت ومحمود فهمى... وقد نفوا جميعا كل ماحاولت اللجنة الصاقه بعرابى من التهم وخاصـــة فتنة الاسكندرية وحرقها ...

أما تهمة العصيان التى وجهتها اللجنة اليهم جميعا ، فكانت تتلخص فى أنهم أطاعوا عرابى بعد ان علموا بقرار عزله ، وكانت اجاباتهم عن ذلك قوية ، اذ أنهم عللوا ذلك الى راى الامة ممثلة فى المجلس العام الذى قرر بقاء عرابى واستمرار القتال وعدم اطاعة أوامر الخديو .

وكانت اجابات كل من على فهمى وعبد العال حلمى قائمة على تصوير الوقائع صورة شرعية لا اثر فيها لعصيان الخديو ، ولكن لم يحاول أحدهما أن يسىء الى عرابى أو الى الجند بشىء ...

أما البارودى فقد أساء الى الحزب العسكرى بان نسب اليهم العنف والارهاب وقال : ان ارهابهم تناوله هو كذلك بالذات ، ولكن البارودى لم يذكر عرابى بسوء ولا اتهمه بشىء ...

ولما سئل البارودى عما يعلمه عن حريق الاسكندرية اجاب بقوله : « هذه المسألة شنيعة جدا وكل الناس وبالجملة أحمد عرابى استقبحها »

ومما يعاب على البارودى أنه حاول التنصل من مسألة اعترف بها أكثر المتهمين ولم يجدوا فيها ما يدعو الى التنصل منها وهى مسألة القسم الذى أدوه بقشلاق عابدين والذى تلى عليهم صيغته الشيخ محمد عبده ، ولما واجهته اللجنة بالشيخ محمد عبده قال البارودى ان الشيخ محمد عبده يكذب ، ولما واجهته بيعقوب سامى باشا عاب عليه يعقوب باشا انكاره وذكره بانه كان حاضرا واقسم مع من أقسموا ، فاضطرب البارودى وناقض أقواله السالفة ...

واعترف محمود فهمى بانه أسلم نفسه للانجليز طائعا ، وهذا يتفق مع رأى عرابى فى هذا الحادث . قال محمود باشا : « أما أنا وخادمى فمسكنا ضفة الترعة البحرية

قاصدين المحسمة فسألنى خادمى عن قصدى فقلت له اننا سنتوجه لطرف الانجليز وأمرته بقطع غابه وتعليق منديل أبيض فيها ، وحدث ذلك وتوجهنا ودخلنا عند الانجليز فىمقدمة جيشهم فقابلنىضابط انجليزى يعرف الفرنسية ولما رآنى أرتدى ملابس ملكية قال لى : أنت شيخ البلد ؟ فقلت له : نعم » .

وسألته اللجنة : « لماذا كنت ترتدى ملابس ملكية ؟»

فأجاب بقوله : « لانى لم أكن أريد الحرب ، فلوكنت أريد الحرب كنت ارتديت ملابسى الرسمية وطبنجتى وحاربت » ...

ولما سئل محمود باشا فهمى عما يعرف عن حريق الاسكندرية ، شهد أن عرابى اهتم بالامر ولم يرض عنه وارسله فى طلب سليمان سامى فلما حضر سليمان نهره عرابى وقال له : « انى برىء مما فعلته »

ومما يجدر بنا الاشارة اليه فى هذا المقام بعض أقوال الشيخ حسن العدوى وكان شيخا يشرف على الثمانين فلم تفل السن ولا السجن من شجاعته شيئا ، ولندع برودلى يقصعلينا ماشهده من بسالة هذا الشيخ الجليل الذى يسجل له ولامثاله ما يشهد له التاريخ المصرى..

قال برودلى : « وفى صوت كصوت الرعد سأل اسماعيل أيوب باشا الشيخ الضعيف الطاعن فى السن الم يوقع ويختم بخاتمه على قرار يقضى بأن سمو الخديو توفيق باشا يستحق العزل ؟ وظهر على حسن العدوى كأنما استعاد حمية شبابه ، واتكأ على المنضدة وبسط يده وثبت نظره فى وجه أسماعيل أيوب وقال : أيها الباشا لم أر الورقة التى تتحدث عنها ولايمكننى أن اقول شيئا عما اذا كنت وقعت عليها أو ختمتها بخاتمى ، ولكننى أقول لك ما يأتى : انك اذا احضرت الى ورقة

تحتوى على مثل المعنى الذى ذكرته فانى أبادر بالتوقيع عليها وختمها بخاتمى فى حضورك الآن ، وهل اذا كنتم مسلمين هل تستطيعون أن تنكروا أن توفيق باشا وقد خان بلاده وذهب الى الانجليز لم يعد يصلح للحكم ؟ »

ولو أن قذيفة القيت فجاة وسط الحجرة ما أعقبت من الوجوم والفم مثل ما أعقبته كلمات ذلك الشيخ ، لقد ظهرت الصفرة فى وجنتى اسماعيل أيوب السمراوين ولم ينبس احد ببنت شفة ، ثم طلب الى الشيخ فى رفق أن يبرح الحجرة ، ولم يفكر أحد بعدها فى استجوابه قط ، وبعد بضعة أيام أطلق سراحه على شرط أن يذهب الى قريته حيث لا تكون له صلة بعد بتاريخ مصر» (١)

وكذلك يخلق بنا أن نشير الى جراة أحمد رفعت بك وحسن دفاعه ولندع كذلك برودلى يتلو علينا بعض ما رأى من ذلك ، قال : « .. وبعد تبادل التحيات وتقديم القهوة والسجائر، دخل رفعت وكان يبدو فىحالةعصبية شديدة وجلس علىكرسى بجانبى واظن انى أسأت الى ولاء الاعضاء بمصافحته ، ولن انسى أبدا التماع الشر فى عينى اسماعيل أيوب حين تناول عددا قديما منجريدة « الطان » (٢) كان يحتوى على مقارنة صريحة لا مجاملة فيها بقلم أحمد رفعت بين المدنية الفرنسية والرصاص الانجليزى ، وقال رئيس اللجنة يخاطبنى : ياصديقى العزيز ، أظن أنه يجب أن نتنحى عن الدفاع عن مثل هذا الرجل بعد هذا ، والقى الى بالصحيفة ، وقرأت المقال وكتبت على ورقة صغيرة : « لو اننى كنت فى مكانه لفعلت مثل ما فعل » ..

وسال رئيس اللجنة المتهم عن برقية فى تلك الصحيفة فيها دفاع عن عرابى اذا كان هو مرسلها ؟ فقال رفعت

---

(١) How we defend Orabi P. 370

(٢) Temps

بك : « نعم .. وذلك بأمر مجلس الامة الذى كنت أنت نفسك عضوا فيه » ...

وقال الرئيس : « انى أنفى نفيا قاطعا انى كنت حاضرا أثناء بحث هذه المسألة »

وأجاب رفعت ، فكان مما جبه به الرئيس قوله : « لست أتذكر ما اذا كنت سعادتك قد وقعت على سجل الجلسات ولكنى أذكر انك ذهبت معى يوم الجمعة ١٨ اغسطس فى قطار خاص وكان بصحبتنا رؤوف باشا ، وعثمان باشا فوزى وحسين باشا الدرمللى ، الى عرابى بكفر الدوار لتعبر له عما ترجوه له من نجاح » ...

وقال الرئيس محتدا : انى أمنعك عن الكلام لولا انك تتكلم عنى ، وعاد رفعت يذكره انهم جميعا تناولوا الغداء مع عرابى ، وأن طلبة طاف بهم على خطوط الدفاع وأنه - اى الرئيس - تمنى وهو الجندى القديم لو أتيح له الاشتراك فى القتال ، وفطن الرئيس الى ما يرمى اليه رفعت فى دهاء وكياسة ، فقال : ان كل انسان يعلم انى ذهبت الى هناك بما فى ذلك الخديو وكان هذا بدافع حب الاستطلاع ...

وأحس الرئيس كذلك أنه صار فى مثل موقف المتهم فتدارك الامر وسأل رفعت عما اذا كان ماجاء فى البرقية من أفكاره ، وأجاب رفعت بقوله : « نعم من أفكارى ، كما أنها من أفكار كل امرىء سواى »

وسأله الرئيس : كيف سمح وقد كان مديرا للمطبوعات أن تنشر جريدة «الطائف» مقالات فيها طعن على الخديو ، فكان مما أجاب به رفعت : « ان ما قالته جريدة الطائف وما قالته غيرها من الصحف كان نتيجة لقلق الرأى العام من مسلك الخديو بعد انعقاد المجلس العام مرتين بوزارة الداخلية ، وأن جريدة الطائف عبرت عما اعتاد أن يقوله

حتى الصبية فى الشارع » . وسأله الرئيس : هل معنى ذلك انه يقر ما جاء بتلك الجريدة ؟ فأجاب رفعت فى شجاعة : « لقد تقرر فى المجلس العام الذى انعقد بوزارة الداخلية والذى شهده العلماء والقواد والاعيان أن الخديو خرج على الشرع المقدس ، وحيث أنى مصرى فلم يكن فى وسعى أن أخرج على ما أجمع عليه النـــاس فأعاقب جريدة الطائف مخالفا بذلك ما فى نفسى » . ووجه اليه الرئيس هذا السؤال : « لقد ذكرت من قبل أن الخديو أمرك أن تحضر بعض السجلات وانك آثرت أن تتبـــع أوامر عرابى فكيف تفسر ذلك ؟ » .

وكان مما أجاب به رفعت قوله : « حيث ان عرابى كان ناظر الجهادية والبحرية ، وكانت السجلات المذكورة تتصل بعمله فقد ذهبت اليه لابلغه بأمر الخديو ، ثم أسلمها لسموه ، ولكن عرابى باشا أمرنى الا أسلمها له قائلا انى مسئول شخصيا اذا فعلت ذلك ، فكتبت فى الحال لمحمد بك خليـــل أبلغه بذلك ولم أتلق الا جوابا شفويا » .

وبعد يومين استؤنف استجواب رفعت بك ، ويذكر برودلى أنه دخل قاعة الجلسة هذه المرة وليس يبدو عليه شىء من الاضطراب ...

وأطلعه الرئيس على صور لبرقيات أرسلت الى الآستانة وسأله عنها ، فقال رفعت : أن المجلس العام كان يريد ابلاغ الباب العالى بكل شىء ، وأن برقية منها كتبت بموافقة رؤوف باشا (١) وأنه يعتقد أنها لم تصل الى غايتها بسبب قطع الاسلاك .

وسأله الرئيس عما اذا كان ما جاء بهذه الاوراق يتفق مع آرائه ، أم أنه أرغم على ارســالها ؟ وعاد رفعت

(١) رئيس المحكمة العسكرية .

يؤكد ان البرقيات انما أرسلت بقرار من المجلس الذى كان بمثل الرأى العام فيه أعضاء برجع صبت بعضهم الى عهد محمد على ، وانه لم يرغم على شيء ...

وقال الرئيس أنه يرى من احدى البرقيات أنه تقرر ردم قناة السويس فهل كان ذلك من راى المتهم ؟ وأجاب رفعت بك بأنها كانت ضرورة قضت بها الحرب وانه يأسف لذلك ...

ووجه اليه الرئيس هذا السؤال : « جاء فى احدى البرقيات المرسلة الى القسطنطينية أن المجلس العام امر محافظ السويس بأن يبلغ الادميرال الانجليزى ان المجلس القائم بالقاهرة هو وحده الحكومة الشرعية فى مصر ، فهل كانت هذه عقيدتك ؟ »

وأجاب رفعت بشجاعة : « لقد قلت فى اليوم السابق أن قوة سمو الخديو قد أوقفت بمقتضى قرار المجلس العام الذى عقد فى القاهرة والذى تألف من كبار المصريين من العاصمة ومن البلاد ، وبناء على ذلك أصبح هذا المجلس هو الحكومة الحقيقية لمصر وقد أيدته وعضدته الامة كلها واضطلع بالدفاع عن الوطن » .

وسأله الرئيس : « هل وقعت على هذا القرار؟ وهل كان هذا باختيارك ؟ » فقال رفعت : « وقعت عليه بمحض ارادتى ولم أجبر انا ولم يجبر أحد غيرى على التوقيع » .

ورفعت الجلسة على أن تعقد فى اليوم التالى ، وكان احمد بك رفعت قد أدلى بأقوال للجنة قبل مجيء مستر برودلى فيها مطاعن واتهامات لرجال الجيش بأنهم لجأوا الى العنف والتهديد وأنه كان مرغما على ما فعل ...

فلما عقدت اللجنة فى الموعد المحدد ، سأله الرئيس عن سبب تناقض أقواله وطلب اليه أن يبين وجه الحق

فقال : « اذا سمحت لى أن أتكلم فى صراحة فانى أشرح هذا التناقض ، وان هذا حق يسمح به لاى مجرم عادى وانا أطالب به » .

وقال الرئيس : « يمكنك أن تفعل ذلك اذا التزمت بالمسائل التى يدور حولها الـكلام » .

وأجاب رفعت : « لقد عوملت أسوأ معاملة فى السجن فان ابراهيم أغا توتونجى ... »

وقاطعه الرئيس قائلا : « كف عن هذا ... ليس هذا هو الموضوع ، ونحن نعلم جميعا انه لم يشك من توتونجى الا عرابى وعبد الغفار » .

ورد السير شارلز ولسن قائلا : « ليس الامر كذلك وانى أشعر أن واجبى يقضى عـلى أن أقول انه اثنـاء زياراتى الاسبوعية سمعت من جميع المسجونين تقريبا شكواهم من زيارات هذا الرجل ومن اساءاته » .

واستدعى الرئيس المسيو بورلى المستشار القضائى للحكومة وسـأله مستر برودلى عما اذا كانت المحكمة ملزمة بأن تسجل اجابة المتهم كلها ، وأجاب بورلى أنها ملزمة ولكن يجب عليه أن يوجز .

ومضى رفعت فقص على اللجنـة ما لقيـه من اهانة وتهديد بالموت فى سجنه وقال : انه عقب ذلك استدعى للوقوف أول مرة أمام لجنة التحقيق .

***

قضت اللجنة نحو شهر ولم تضع يدها بعد هـذه الاسـتجوابات على شىء تدين به عرابى ، وكانت أكثر أسئلتها للمتهمين جميعا ترمى الى ادانة عرابى وبعد ذلك يحق عليهم بالتبعية ما حق عليه ...

وكان برودلى ذات ليلة عقب الفراغ من استجواب رفعت عند عرابى ، فقص عليه عرابى أن شيئا ذا بال

حدث فى مقر اللجنة ، وذلك أنه بعد مغادرة السير شارلز ولسن السجن عاد أعضاء اللجنة فاجتمعوا بعد أن كانوا قد تفرقوا وأقاموا فى هذا المبنى حتى ساعة متأخرة من الليل ، واستطاع عرابى أن يسمع أن اجتماعا عقد فى الحجرة المجاورة وانه استمر بضع ساعات كما استطاع أن يرى من بين الواح الخشب فى نافذته أن رسلا من القصر كانوا يجيئون ويذهبون (١) ... وارتاب عرابى فى أن شيئا يدبر ..

وسمع برودلى مثل هذا الذى ذكره عرابى من رفعت ومن سجين آخر هو خضر بك خضر ، وظل فى حيرة الى أن علم من الحراس أن سليمان سامى استجوب فى مقر اللجنة ساعات متوالية ، فطلب برودلى من المسجونين أن يكتبوا له ما سمعوا وانطلق الى مسكنه ضائق النفس بما أيقن أنه يدبر فى الخفاء ...

وكان سليمان سامى قد احضر من كريت فوصل الى الاسكندرية فى ٩ نوفمبر ، وظل تحت مراقبة أعوان الخديو منذ أن بلغ الاسكندرية حتى دخل السجن فى بناء الدائرة السنية فلم يتصل به احد قط ، وذلك أنه اتفق معه على أن يكون شاهد اثبات !

فقد طلعت جريدة الاجبشيان جازيت بعد ٣ أو ٤ أيام من حضوره تعلن للناس نبأ مدهشا ، وذلك أن سليمان بك سامى اعترف بأنه أحرق الاسكندرية وانه فعل ذلك بأمر من عرابى باشا ألقاه اليه على مرأى ومسمع من بعض الناس ، واعترف كذلك بأمر أعظم خطرا ألا وهو أن عرابى أرسله ليقتل الخديو بقصره فى الرمل ، ولكنه قابل وهو فى طريقه الى القصر ، كلا من سلطان باشا وحسن باشا الشريعى ، وحالما رأى هذين

(١) How we defend Orabi P. 257

الرجلين ثاب الى رشده وندم على اعتزامه ما اعتزم واعترف لهما به ، ثم عاد أدراجه ...

قال برودلى : « وكان لدى ما قاله فى التحقيق كل من سلطان وحسن الشريعي فلم أجد فيه أقل اشارة الى شيء من هذا الذى لو أنه حدث لذكره سلطان على الاقل اذا كان لديه أى سبيل لتأكيده » .

وكتب برودلى الى اسماعيل أيوب باشا يحتج ويذكر أن ما حدث فى غير حضوره يخالف ما اتفق عليه ولذلك فهو لا يتقيد بهاتيك الاقوال التى جاءت على لسان سليمان ويعدها كأن لم تكن .

وفرح رجال القصر وأعوان الخديو فرحا عظيما ، ولكن فرحتهم لم تطل ، فان جميع من ذكرهم سليمان سامى فى كلامه عندما واجهوه فى اليوم التالى أمام اللجنة رفضوا أن يشايعوه فيما ذهب اليه ، وأنكر حسن الشريعى وكان سجينا رواية سليمان ، كما أنكرها سلطان باشا كل الانكار ...

يقول برودلى : «وكان أحد الاوربيين من اشد الناقمين على الحركة القومية حاضرا عندما جاء وفد من قبل اللجنة يسأل سلطانا فى داره عن رواية سليمان ، ونفى سلطان نفيا باتا حدوث ما سئل عنه فقال زائره الاوربى: يا للأسف .. ان اجابة مخالفة لهذه كانت تحسم الامر كله » .

ويعقب برودلى على ذلك بقوله : « فهل كانت تؤلم بقية من الضمير عقل سلطان باشا فى أواخر أيامه ؟ انى أظن ذلك »

وكان يرد الى برودلى رسائل من مجهولين مما يدل على مقدار ما كان يساور الناس من خوف ، ومن اعجبها رسالة يعزوها برودلى الى أحد الاعضاء الماسونيين ،

قال مرسلها : « عزيزى الأخ : ألنصر للحق ! أتشرف بابلاغك أن سلطان باشا ينفى انه رأى سليمان سامى فى طريقه الى قصر الرمل ، وقد أفضى الى كثير من الناس أخيرا بأن عرابى لم يحرق الاسكندرية ولا أصدر أمرا باحراقها وذكر ايضا أنه تحقق من ذلك بنفسه حينما ذهب الى عرابى ليتحدث اليه بشأن الجند الذين احاطوا بقصر الرمل يوم ١٢ يوليو ، فانه وجد عرابى خارج الباب الشرقى يسخط بأعلى صوته على أعمال النهب والحريق ويعنف الجند على ما حدث حتى لقد اخذ من أيدى بعض الجند ما نهبوه وأمر باحراقه ، وسأله سلطان من فعل هذا ؟ فأجاب عرابى انهم يقولون انه سليمان سامى ... ارجو منك أن تزور سلطان ، فان لديه الكثير مما يريد أن يقوله لك .. حقا انه فى انتظارك ، وسوف يؤكد لك ما أقوله الآن ... احرق هذا ولك الفضل .. من أخيك ؟ »

ويقول برودلى : « أما عرابى فلم يبد عليه أنه اهتم كثيرا بما أتهمه به سليمان ولم يؤلمه الا شدة شعوره بما يحيط به من خيانة هو ضحيتها .. قال : انى لم يعلم عنى قط انى أسأت أو الحقت الضرر بأى مخلوق، وقد كنت أحرس الخديو فى القاهرة مدة ثلاثة أشهر حراسة شديدة يوما بعد يوم ، ولو كنت اردت مرة أن أقتله لكان ذلك فى وسعى فى أية لحظة ، فلماذا أفكر فى قتله فى الوقت الذى كنت أعده من أسوأ أوقاتنا جميعا ؟ »

***

هذا ما كان من أمر التحقيق وقد كان ما تبتغيه اللجنة اثبات التهم التى ذكرناها على عرابى ، ولكن برودلى كان من ناحيته يعد كل ما فى وسعه للدفاع لا

عن عرابى وحده ، بل عن كبار انصاره ...

واول ما وجه اليه برودلى اهتمامه هو الحصول على أوراق عرابى ، ففى ٢٣ أكتوبر زار برودلى عرابى فى سجنه ، وطلب اليه ما أخفى من أوراق ، ويقول برودلى انه تحدث اليه طويلا فيما يلزم من ثقة تامة بين المحامى وموكله ، وفيما ينجم من خطر اذا أخفى الموكل عنه شيئا حتى اقتنع عرابى وقال : « لكى تحصل على ما تريد لابد لى أن أرى نجلى محمدا أو خادمى محمد بن أحمد ، فانه لا تزال لدى أوراق كثيرة ، بعد أن أخذت كمية منها من بيتى فى القاهرة وكمية من خيمتى بالتل الكبير » .

واستعان برودلى بالسير ادوارد مالت والسير شارلز ولسن ، حتى سمح لمحمد بن احمد خادم عرابى بالدخول على سيده مع محاميه ، ولثم محمد يد سيده فى احترام شديد وناوله ورقة عرف برودلى أنها من أميرة مصرية لم يذكر اسمها من زعيمات الحركة القومية وقد رجت فيها من عرابى أن يعطى الاوراق المطلوبة لمحاميه ، وأمر عرابى خادمه أن يعطى الاوراق للمستر برودلى ودله على الاماكن التى يجدها فيها ، ومضى الخادم وقد وعد أن يحضرها فى الصباح بعد أن أوضح له برودلى أهمية ذلك ... وجاء الخادم فى الصباح ومعه محمد بن عرابى فقالا: ان زوجة عرابى وقد أحاط بها الخوف قد اختفت وأخذت معها الاوراق ، واذ ذاك غضب برودلى وخاطبهما محتدا ، فوعدا أن يبحثا مرة ثانية ، ثم عادا بعد ساعتين ومعهما الاوراق المطلوبة ، وفرح برودلى وزميله فرحا عظيما ، وحملا الاوراق الى القنصلية الانجليزية لتكون فى مأمن وليسهر بيمان على ترجمتها ...

ويقول برودلى : « لو أن معركة الدفاع استمرت حتى نهايتها المرة لكان لهذه الوثائق التى ألقى بها عرابى

فى أيدينا أهمية عظمى فى اثبات براءته من تهمة العصيان»
كانت تحتوى هذه الوثائق على الكتابين اللذين جاءاه من السلطان على لسانى محمد ظافر وأحمد راتب .. وهما وثيقتان على أكبر جانب من الخطورة فى صدد ما اتهم به عرابى من عصيان لانهما شهادتا براءته وفيهما رضاء السلطان عن أعماله حتى قبيل هزيمته فى التل الكبير ...

وكان فى تلك الاوراق كذلك ما يثبت كما يقول برودلى « أن الامة كلها كانت معه » على حد تعبير عرابى نفسه ، فقدجاءته منمصر كلها من أقصى الصعيد الى الاسكندرية كتب عليها مئات التوقيعات من أعيان البلاد وكبرائها وعلى بعضها آلاف ، وكلها تؤيد عرابى فى رفضه المذكرة المشتركة الثانية وتقرر الثقة التامة به وبوزارة البارودى الوطنية ، وتستنكر « اللائحة ومن يقبلها » ...

وكان من بينها فتوى موقع عليها من كبار العلماء ، ومؤداها أن الخديو بقبوله اللائحة قد انحرف عنالشرع وقد أورد فيها العلماء قوله تعالى : « يا أيها الذينآمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم » (١)

ويعقب برودلى على هذه الوثائق بقوله : « انها كانت أكثر مما يلزم لنفى تهمة العصيان فى معناها العادى ، وانها لتبين أنه ان يكن قد ثار فانما فعل ذلك قائدا لخمسة ملايين من الاهالى وانه كان على رأس شعب مصر كله ؟ ...

واعتمد برودلى كذلك فى دفاعه على ماكتبه له أحمد بك رفعت والشيخ محمد عبده ويعقوب سامى باشا ،

(١) أورد برودلى فى كتابه ترجمة الفتوى وترجمة الآية الكريمة

وكان ماكتبه رفعت بك والشيخ محمد عبده يدور حول معنى عام هو أن الامة فى مجلسها الشامل قد أعلنت كلمتها وأيدت عرابى فى الدفاع عن الوطن وقررت عدم اطاعة توفيق لانحيازه الى الاجانب ، وعلى ذلك فكل عمل ينسب الى عرابى وأصحابه بعد هذا التاريخ هو عمل مشروع لانه وليد ارادة الامة ... اما يعقوب سامى فقد كان أكثر اهتمامه بنفسه ..

وأثنى برودلى على رفعت بك لثقافته الفرنسية ، وذكائه وذوقه الادبى ، كما أثنى على الشيخ محمدعبده وقال : ان له بين هؤلاء الزعماء مكانة عظيمة فهو أكثرهم علما وفطنة ونورا ...

وقال برودلى : انه بزيارته لرفعت بك قد ازداد أملا وثقة وذلك لما ظهر له من شجاعته ودفاعه عن زعيمه ، وتصويره اياه أنه كان زعيم شعب بكل ما تحمله الزعامة من معنى وأنه ظفر بمحبة الناس وعطفهم عليه وأن حركة مصر القومية من أقوى الحركات وأنبلها ، وان الحق سوف يظهر وسيعرف عرابى على حقيقته وتتبين قضيته الوطنية للعالم ...

أما يعقوب سامي فقد انخلع عنه عزمه وكان يبكى فى سجنه ويشكو مر الشكوى مما لحقه من اهانة ، كضربه والبصق على وجهه ، وقد تنكر لزعامة عرابى وتخلى عنه فى غير خجل ، ولما ناوله برودلى كتابا من عرابى يعبر له فيه عن اهتمامه بأمره ومواساته له قال : « أرجو أن تبلغوا عرابى أنى لا أستحق هذه الكلمات الطيبة التى يرسلها الى » .

وكان لايهمل عرابى فى سجنه أن يرد على كل ما يقع عليه من اتهام لقضيته ، وكان يعنى بالقضية العامة أكثر مما يعنى بشخصه ، وكان يبدى رأيه فى شجاعة وصراحة

جديرتين حقا بأعظم الثناء والاعجاب ، واذا كان خصومه بعد الذى قدمناه من سيرته لايزالون فى حاجة الى برهان جديد على ابائه وقوته فليقرأوا هذا الذى ارسله الى جريدة التيمس من سجنه لينشر ويذاع على العالم ، وليتدبروا ماجاء فيه عن الخديو ومسلكه ، وكان ذلك ردا على جريدة الجوائب التى كانت تعترف ببطولته ، حتى صدر قرار السلطان بعصيانه فصارت تنعته بالعاصى وقد اطلع فى السجن على مقال نشرته وفيه طعن

على الحركة القومية فكتب يقول : « سيدى .. اطلعت فى العدد ١١٠٥ من جريدة الجوائب تحت عنوان : « القبض على العاصى فى مصر » على مقال ذكر فيه أنه ألقى فى السجن عدد كذا وكذا من الضباط والعلماء والاعيان والتجار والمديرين وشيوخ البدو، والآن ياحماة الحرية اذا كان الجند هم العصاة فلماذا ألقى فى السجن من ذكر من العلماء والاعيان والقضاة حيث أذيقوا الهوان؟ واذا كانت الامة كلها بكافة طبقاتها تتجه اتجاها واحدا

وتفكر تفكيرا واحدا فلماذا تميزون الجند باسم العصاة؟ انى أعلن باسم الحق انه لظلم مبين أن يعاملوا هذه المعاملة ، لقد كانت الحرب وفق قانون الله وقانون الانسان ، وقد أعلنت بناء على قرار موقر لمجلس عقد برئاسة الخديو ودرويش باشا مندوب السلطان ، وبعد أن غادر الجيش والاهالى الاسكندرية ذهب الخديو الى هؤلاء الذين كانوا يحاربون أمته ، الأمر الذى ينهى عنه كل قانون .

لقد اجمعت الامة كلها على ضرورة وقف توفيق باشا لخروجه على الشرع الحنيف والقانون المنيف ، وطلبت الاستمرار فى أعمال الدفاع عن الوطن بقرار رفع الى جلالة السلطان ، أبعد هذا نكون عصاة ؟ اننا كنا ندافع

عن وطننا بطريقة تقرها شريعة الله والانسان ، وكل من يقول غير هذا كائنا ما كان فهو عبد للهوى والمال ، وأضيف الى ذلك أن علماء الاسلام والمسلمين فى كل بلاد العالم ، يسلمون اننا لم نتجاوز حدود ما أنزل الله فى كتابه وهم يستنكرون ما نلقى من سوء المعاملة لانه يتنافى مع العدل .

يا دعاة الحق ! هل من العدل أن يحرم أبناء الوطن من كل وظيفة ويأخذ الاجانب أماكنهم ومن حضر الى مصر من الشراكسة والالبان والبلغار بحيث أن جميع الرتب حتى أحطها مثل رتبة اليوزباشى فى الجيش قد احتلها الاجانب دون أبناء مصر ؟ ولكنا سنجد بين حماة الانسانية من يدافعون عن الحق فى وجه طغيان هذا العهد الذى يسود منه وجه الانسان ... أحمد عرابى المصرى » (١)

هذا ما كتبه فى سجنه عرابى الجاهل الجبان ! الا ما أجمل هذا الجهل وما أعظم هذا الجبن وما أحط ما ذكره عنه المغرضون من بهتان .

وكان برودلى فى شغل دائم باعداد دفاعه الذى أقامه على ما اقتنع به من أمور هامة وصل اليها بطول أناته واحاطته بموضوع القضية التى هو بصددها جملة وتفصيلا ، وكان من ذلك الذى اقتنع به نبل الدوافع التى دفعت عرابى فى حركته من أول الامر ، وموافقة توفيق اياه حتى ١٢ يوليو ، وكذلك موافقة السلطان الى ما بعد ذلك التاريخ ، هذا الى انضمام الامة كلها الى عرابى مما يجعل حركته حركة قومية عامة لا حركة فردية ، ويجعل سلوك عرابى مسلكا انسانيا فائقا أثناء الحرب

(١) How we defend Orabi P. 150

هذا من ناحية عرابى ، أما من ناحية خصومه فقد أعد برودلى الادلة على سخف التهمة القائلة باهانة الراية البيضاء وبطلان تهمتى الاشتراك فى فتنة الاسكندرية واحراقها ...

ثم انه اعتزم أن يقيم الادلة على عدم شرعية المحكمة العسكرية فى تأليفها على هذه الصورة ، وعلى ما كان فى اجراءات التحقيق من نقص قبل مجيئه هو وزميله ، وعلى ما لقى المسجونين من اهانة وتعذيب بقصد ارهابهم قبل استجوابهم وحملهم على غير ما يريدون ...

كذلك اراد برودلى أن يتبين كيف كان توفيق يطعن الانجليز فى رسائل منه الى الآستانة ، حتى اذا اطمأن اليهم ألقى بنفسه فى أحضانهم وأدار للسلطان ظهره...

ولكن قوة الدفاع لا تغنى شيئا فى جو كذلك الذى كان يحيط به وبزميله منذ مجيئهما ، فقد عمدت الحكومة المصرية وخاصة رياض ، ومن ورائه توفيق ، الى وضع الصعاب فى سبيله هو وزميله منذ حضورهما ، ولجأت لجنة التحقيق الى أساليب أقل ما توصف به أنها ملتوية ومن امثلة ذلك ما كان من أمر سليمان سامى ، ثم خروجها فى كثير من الاحوال على الاتفاق الذى وقعه برودلى وزميله بشأن ما يتبع من أصول أثناء التحقيق وفى ساحة المحكمة ...

والواقع أن السماح لعرابى بمحاميين انجليزيين ، قد ألقى الفزع من أول الامر فى نفس الخديو ورجال حكومته فقد يقلب التحقيق فرحهم غما ويكشف عن امور ظنوا أنهم بانتصار الانجليز والقضاء على عرابى قد خلصوا منها الى الابد ، ولذلك لجأوا الى وسائل الغش والتدليس والارهاب واعداد شهود الزور والتجسس على رسائل برودلى وزميله الى حد فض الكتب وتلك امور جعلت

عملهما شاقا محفوفا بالخطر ، وزادهما خوفا أنه لا يبعد أن تغمض الحكومة الانجليزية عينيها وتدع الخديو يصنع ما يشــاء بعرابى وزملائه ، ولن تحجم المحكمه العسكرية عن أن تعلن آخر الامر على الرغم من كل دفاع أنها اقتنعت بادانتهم ثم تحكم عليهم بالموت وينفذ حكمها فى الحال ويسدل الستار على المأساة ، وتذهب جهود برودلى وزميله عبثا ، وتتنصل انجلترا بعد ذلك من كل تبعة قائلة انها فعلت ما كان فى وسعها أن تفعله وهو الســماح لعرابى بدفاع حر ، ولم يكن فى وســعها أن تتدخل فى حكم المحكمة العسكرية ...

وكان المتفق عليه من أول الامر بين بورلى نائبا عن الحكومة المصرية وبين برودلى تجنب الخوض فى الامور السياسية والاكتفاء بالاشارات التى يقتضيها المقام اذا دعت الضرورة الى ذلك، وقد أرسلت الحكومة الانجليزية الى مالت فى ١٣ أكتوبر رغبتها فى ألا يسمح بمجادلات أو أدلة تتصل بالدافع أو الاسباب السياسية التى تبرر التهم المعلنة ، الا ماكان منها لاثبات أونفى تلك التهم» (١)

وقبل برودلى ذلك لانه ســمح له بشروط معقولة لاجراء التحقيق والمحاكمة ومن أهمها أن يسمح للدفاع بدعوة من يشاء من الشهود وأن يناقشــهم بحضــور المتهمين بصرف النظر عما اذا كانوا أدوا شهادة قبل ذلك أم لا ...

ولكن حدث بعد ذلك أن الحكومة المصرية وقد كان أخشى ما تخشاه هذا الشرط ، لم تتقيــد بما وافقت عليه ، وتجلى ذلك فى شــاهدين وقع عليهمــا برودلى مصادفة ، أما أولهما فهو على راغب وقد رأى برودلى فى الممر المؤدى الى مقر اللجنة وذلك فى ٢ نوفمبر فتحدث

(1) How we defend Orabi P. 45

اليه بالانجليزية حديثا مقتضبا فى حذر وخوف اذ كان يحيط به الجند قائلا : ان اسمه على راغب وهو الضابط البحرى الذى كان يحمل كتب عرابى الى الآستانة ويحمل كتب الاستانة اليه ، وانه حكم عليه بالنفى الى السودان ١٠ سنوات مع الاشغال الشاقة ، ولديه معلومات تفيد قضية عرابى ويرجو أن يؤدى الشهادة عنه ، ولكن حينما طلب برودلى استدعاءه بادرت الحكومة بارساله الى السودان ليمضى هناك ١٥ سنة لا ١٠ ، واما ثانيهما فشخص يدعى كارمى كان يقيم فى بيروت أثناء الحرب وكان يتمتع بالحماية البريطانية ، وقد كان كاتبا لدى أسرة الشمسى . وقد حدث أن أعيد الى وظيفته مدير الشرقية الذى فصل وقت الحرب ، وواتته الفرصة الآن للانتقام من شخصين ظن أنهما عملا على فصله وهما أمين بك الشمسى واحمد بك أباظة وكانا من أنصار عرابى ، فجىء بهما من سجن القاهرة الى سجن الزقازيق ، حيث القيا فى حجرة مظلمة والاغلال فى أيديهما ، وأرغما وهما من علية القوم على كنس السجن وتنظيفه ، وتصادف أن جاء كارمى فأرسلته أسرة الشمسى الى برودلى ليقدمه شاهدا وسرعان ما قبضت الحكومة عليه وقد أخبرها عنه جواسيسها وأخرج من مصر عنوة الى بيروت ...

وفى ٧ نوفمبر استدعت اللجنة برودلى وزميله وسألتهما عما ينويان عمله؟ قال برودلى : «ووجدنا اننا أمام اللجنة كأنما خضعنا لنوع من الاستجواب يقصد منه القضاء على ما أعددناه من اجراءات الدفاع ، كم يستغرق استجوابنا الشهود من أيام ؟ ومن يوجه الاسئلة عمليا ؟ وأى التراجمة يعول على ترجمته ؟ وهل يسمح للمتهمين بالكلام ؟ وهل لدينا ما يمنع عن ارسال أوراق عرابى الى اللجنة فى الحال ؟ ثم أليس المسجونون فى انجلترا

يقضى فى أمرهم بعد استجواب هين ؟ الى أمثال ذلك من أسئلة وجدنا أنها عقبات تدل على ما تنويه اللجنة ...»

وكان من أكبر الصعوبات كذلك فى طريق برودلى وصاحبه أن اللجنة كانت تستدعى شهود الاثبات وتسألهم فى غيابهما ، وكانت تلجأ الى ما تستطيع من وسائل التهديد والاغراء لحملهم على ما تريد ، وكانت تطلب اليهم ان يقدموا اليها كتابة ما يعرفونه عن الاتهامات ؛ وتوحى اليهم بما يفعلون (١)

وفى ١٤ نوفمبر منع رياض باشا المستر برودلى من زيارة موكليه فى السجن ما عدا عرابى بحجة أن موظفيه من الكتبة ينقلون انباء من المسجونين الى ذويهم خارج السجن مما يخشى منه أن يؤدى الى هياج .

وظل الافق هكذا مظلما أمام برودلى وصاحبه تتجمع فيه السحب من كل جانب ، وكانا يرسلان الى بلنت هذه الانباء السيئة وقد طالت اقامتهما بمصر وكثرت نفقات القضية كثرة أوشكت أن تعجزه ..

وفى رسالة من بيمان الى بلنت فى ١٧ نوفمبر تبين أن السحب قد تمزقت فى بعض نواحى الافق ، قال بيمان : « أكتب اليك هذه الكلمة لابلغك أن الامور تسير الآن سيرا طيبا ، فان شهادة سليمان سامى التى طرب لها الاتهام ما لبث أن تبين أنها لا تساوى قلامة ظفر اذ أنها لفقت لوقتها وليس فيما مضى من الاقوال ما يؤيدها ، وان السؤال القائم الآن هو : هل يطلق المسجونون بغير محاكمة أم هل تهيأ لهم الفرصة فى عدالة ليتكلموا مدافعين عن انفسهم ؟ وانى مقتنع هنا ان الحكومة تبذل كل ما فى وسعها للقضاء على اجراءات التحقيق لان الحقائق التى سوف يبرزها استجواب الشهود سوف تمس كل شخص

---

(١) S. H. B. p. 352

تقريبا ممن بيدهم السلطة الآن ، وسوف تكشف عن أشياء تتصل بالخديو مما لايحمد ، ولهذا السبب الاخير أحسب أنحكومتنا ستحس فى نفسها الميل الى أنتعرض على عرابى بعض شروط خشية أن يظهر التحقيق أن أكبر الآثمين فى مصر هو الرجل الذى أحضرنا جيشنا لنصرته ، فانى أكاد أجزم شخصيا أن الخديو وعمرلطفى هما مدبرا فتنة الاسكندرية لتكون ضربة لعرابى الذى أعلن قبلها مباشرة أنه يضمن الامن العام » (١) .

والحق أن بيمان قد تسقط هذه الانباء مما كان يتحدث به همسا فى الحلقات الانجليزية منذ مجىء دوفرين الى مصر فقد أوفدته الحكومة الانجليزية الى مصر لحل هذه المشكلة فبلغ القاهرة فى ١٦ نوفمبر١٨٨٢

وأقام دوفرين بقصر النزهة يستفسر الانجليز وغيرهم وقد لقيه برودلى وصاحبه بقصرالنزهة، يقول برودلى : « وفىحجرة منحجرات هذا القصر لقينى اللورد دوفرين وزميلى نابيير فى ١١ نوفمبر ، وهيأ لى فى الحال الفرصة ليسمع قضيتى ، فقصصت عليه كل ما حدث لنا منذ حضورنا حتى ساعة لقائه ، وكان يصغى فى صبر وصمت الى قولى ، ولم يتكلم الا قليلا ، شأن السياسى المحنك واقتنعت أنه آن للزعماء القوميين ألا ييأسوا من العدالة»

وتلقى بلنت برقية من برودلى فى ١٨ نوفمبر هذا نصها : « أعتقد أنه من الممكن الوصول الى تسوية طيبة .. لا تهاجم ادارة الشئون الخارجية .. الحرص على السر أمر جوهرى » .

ولكن السحب ما لبثت أن تقاربت لتتجمع ثانية على الافق حيث يتبين ذلك من الرسائل الآتية :

فى ٢٠ نوفمبر أبرق برودلى يقول : « لندن تشاور

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٥٤ .

دوفرين .. ضعف ميل الحكومة المصرية الى عقد تسوية وذلك لظنها أن الرأى العام فى انجلترا قد تغير بسبب أقوال سليمان سامى » .

وفى ٢١ نوفمبر ، أبرق يقول : « أزمة خطيرة ماثلة ، يؤكد اصدقاء الحكومة المصرية تصميمها على شنق عرابى لا تغادر لندن » .

وفى اليوم نفسه أرسل برقية أخرى يقول فيها : « لايعبر أى كلام فى استطاعتى عن مسلك الحكومة المصرية الشائن ، انها تضرب باتفاقنا واياها على اجراءات التحقيق عرض الحائط .. انها لاتبالى بشىء طالما أنها تعالج المسألة دبلوماسيا لشنق عرابى » .

وأبرق نابيير أيضا فى اليوم نفسه يشكو من الحكومة المصرية ويشير الى ما يرجى من معاونة دوفرين ، ولكن الوزارة المصرية ماضية فى سبيلها بسرعة نحو غايتها ...

وعاد الى برودلى شىء من التفاؤل بعد بضعة أيام ، فأبرق الى بلنت فى ٢٧ يقول : « القيت بالبريد ما يشرح لك الموقف شرحا كاملا ، لدى ما يجعلنى أعتقد أنه لو وافق عرابى ومحمود سامى وطلبة موافقة صورية على تهمة العصيان أعنى الاستمرار فى الحرب على الرغم من أوامر الخديو ، فان الحكومة المصرية توافق على نفيهم أو اعتقالهم فى رأس الرجاء الصالح أو فى أى جهة أخرى »

ورد بلنت فى ٢٨ يقول : « لا أقبل الشروط المقترحة ورأس الرجاء بوجه خاص ، سأشاور أحد أصدقائى الليلة بشأن النفقات ، موقفنا من الوجهة السياسية فى منتهى القوة ، سيصلك الرأى القاطع بعد » .

وكان برودلى قد شرح الموقف فى كتابه الذى أرسله بالبريد قائلا : انه لم يبق صعوبة فى القضية الا حادث حريق الاسكندرية فانه وان كان عرابى برىء من حرقها

الا أن فى مسلكه أمورا تجعل للاتهام سبيلا للجدل والكلام ، ومن ذلك أنه لم يبذل اية محاولة لوقف النار والنهب ، كما أن صلته بسليمان سامى استمرت بعد ذلك ، ولم يعاقب المسئولين ، فضلا عن وجود أوراق فيها شراء كميات كبيرة من النفط ، هذا الى ما ظهر من الجند من الميل الى ازدياد الحريق بدلا من اطفائه ...

واقترح برودلى أن تقبل التسوية والا فأمامهم محاكمة طويلة لايؤمن معها تقلبات الراى العام ، على أنه على استعداد لخوض غمار المعركة فى قوة حتى نهايتها ...

وكتب نابيير كذلك الى بلنت فى ٢٧ نوفمبر يقترح قبول التسوية ، وان كان على استعداد هو وزميله للمرافعة قائلين انهما قادران على أن يجعلا تهمة حريق الاسكندرية هباء ، وان يجعلا من مذبحة ١١ يوبيو مسألة حامية بينهم وبين خصومهم ...

وفى ٢٨ أبرقا معا الى بلنت يقولان : « قابلنا دوفرين طويلا ، نرجو منك أن ترسل الينا مستشاريك لنحصل على أحسن شروط ممكنة ، الابطاء يقضى علينا ، اعتمد على حكمنا ، لاجدوى من انتظار المعونة من ادارة الشئون الخارجية ، يميل دوفرين الى أن يزيد تعليماته لصالحنا يحكم دوفرين الحكومة المصرية ، الدفاع عن مسألة حريق الاسكندرية يحيط به شىء من الشك ، هذا هو مبعث القلق ، اغتنم الفرصة الحالية ، خدمات دوفرين الطيبة ضرورية جدا ، أبرق لنا بتعليماتك ، سنقابل دوفرين غدا فى الساعة العاشرة » .

وأبرق نابيير الى بلنت فى اليوم نفسه : « أقول لك بشرفى انى موافق على البرقية السالفة ، الامر يستدعى أشد الاستدعاء أن ترسل تعليماتك ، ليس ثمة أى مصلحة شخصية فيما طلبنا » .

وذكر برودلى فى كتابه أنه منذ ٢٧ نوفمبر رغبت جميع الجهات فى تسويه للموقف ، فالحكومة الانجليزية التى أعلنت من قبل عصيان الجند والتى سمت الحركة كلها ثورة عسكرية والتى أرسلت حملة لقمعها انفقت فيها ملايين الجنيهات لايمكنها أن تطلق عرابى بعد هذا بلا قيد ولا شرط ، ولن يوافق جلادستون على قرار مؤداه أن عرابى قد سقطت عنه تهمة العصيان بعد كل هذا ، ولكن الحكومة الانجليزية من ناحية أخرى لم تعد تقوى على أصدار حكم بالموت على عرابى ، وان كانت لا تعترض على الحكومة المصرية اذا ألقته فى السجن الى اى وقت تشاء .

وكانت تركيا تريد أن تنتهى هذه المسألة على اى وجه الا الكابوس الذى يزعجها وهو محاكمة عرابى ، ويعتقد برودلى انها استعانت بألمانيا لتتوسط لدى دونتجستريت لمنع ذكر ما من شأنه أن يمس السلطان من فضائح فى القاهرة ...

ورأت حتى الحكومة المصرية ما عدا رياض أن تتجه هذا الاتجاه وذلك بعد أن عجز سليمان سامى عن اقامة الدليل على عرابى وبعد أن أبلغ شريف باشا بأن الحكومة الانجليزية لا تستطيع أن تصدر حكما بالموت على عرابى، وأصبح هم الخديو أن يخرج العصاة من مصر جملة على حد تعبيره (١) ...

وفى ٢٨ نوفمبر أبرق بلنت الى برودلى يقول : « لا أقر شيئا أقل من نفى شريف : عدن ، مالطة ، قبرص فى حدود هذا أترك الامر لحكمتك »

واتفق على أن تكون التسوية كما يأتى : تستبعد جميع التهم عن عرابى ما عدا تهمة عصيان امر الخديو

(١) How we defend Orabi p. 307

ويقدم الى المحاكمة متهما بهذه التهمة الاخيرة ويعترف بها ، وتصدر المحكمة حكمها عليه بالموت ، ولكن مرسوما خديويا بتعديل الحكم يتلى فى قاعة الجلسة ويقضى بنفيه من مصر ، ويصدر بعد ذلك قرار بتجريده من لقبه وممتلكاته ما عدا ممتلكات زوجته ، ثم يقسم عرابى بشرفه أن يذهب الى الجهة التى تحدد له والا يبرحها الا اذا سمح له بذلك ...

وقد كان هذا الاتفاق من وضع اللورد دوفرين ، ويقول برودلى : ان الحكومة المصرية قبلته على الرغم منها ، وقد غضب رياض غضبا شديدا اذ كان يصر على موت عرابى ، وسوف يستقيل عقب تنفيذه وان لم يذكر سبب استقالته ...

وأوعز رجال السراى الى مراسلى الصحف الفرنسية فأثاروا حملة شديدة على الانجليز وعلى عرابى ، حتى لقد أبرقوا الى صحفهم بأن هناك اتفاقا سابقا بين الحكومة الانجليزية وعرابى ...

وينتقد برودلى مسلك الحكومة المصرية انتقادا شديدا ويقول : انها بدل أن تظهر شيئا من الصفح والتسامح يبعد عنها الشبهات قد أدت بما فعلت الى اظهار نفسها بمظهر المغلوبة على أمرها ... الامر الذى لا يليق بكرامة أية حكومة ، ولكن الخديو هو الذى كان يدير ذلك كله من وراء ستار .

ولم يكن عرابى حتى ٢٩ نوفمبر يعلم شيئا من هذا كله ، فلما ذهب اليه برودلى فى صباح ذلك اليوم ومعه ترجمانه المستر سانتلا ، قص عليه القصص وقال : لا تخف ... نجوت من القوم الظالمين ..

وفكر عرابى قليلا ، وقد أخذته الدهشة ، ثم قال :
« اعترف بصراحة أنى كنت أفضل المحاكمة لاسمع أوربا

كلها قضيتى ، والقى من اتهمونى وجها لوجه فى ساحة المحكمة » وتساءل عرابى : « أليس يرجى ان يفضى ما عسى أن يلقى من ضوء على المسائل المصرية فى المحكمة الى تحقيق الاصلاحات التى عجزت الحرب عن تحقيقها؟»

وذكر له مستر برودلى مايتعرض لهمن الخطر منجانب محكمة كهذه ؟ فتدبر ، ثم قال : « اذا قبلت ما تتحدث عنه من شروط ، فماذا عسى أن يكون مصير اخوانى ؟» وأبلغه محاميه أنهم سيعاملون مثل معاملته ...

وأطرق عرابى لحظة ، ثم صاح قائلا : « كيف أقول انى عاص ؟ ألم أفعل ما أمر به السلطان والخديو؟ واذا كان الخديو قد انحاز الى الانجليز فهل أسمى أنا عاصيا لانى أطعت ارادة الامة المصرية ؟ » .

وحار برودلى لحظة ماذا يقول ، ثم أجاب بقوله : « ان الحكومة الانجليزية لايمكنها أن تتراجع عما أعلنته ولذلك قضت الضرورة بهذا الحل » .

ولكن عرابى سأله : « وهل عاملت الحكومة الانجليزية عدوا غلب على أمره من أعدائها مثل هـذه المعاملة من قبل ؟ » .

وكان اللورد راندلف تشرشـل قد سأل جلادستون هذا السؤال فى البرلمانالانجليزى قبلذلك بثلاثة أسابيع ورد جلادستون بأن حال نابليون بعد فترة المائة يوم هى أشبه شىء بحال عرابى اليوم .

وذكر برودلى ذلك لعرابى ، فقال عرابى : وأين انا من نابليون حتى أعامل بما عومل به ؟ فذكره برودلى بأن الذى عقد هذه المقارنة هو خصمه الذى يقرر مصيره .

ونهض البطل السجين وأخذ يمشى فى غرفته جيئة وذهابا وعلى وجهه علامات التفكير العميق ، وظلّ على هذه الحال زمنا ليس بالقصير ، ثم توجه الى محاميه

قائلا : « عندما جئت الى هنا أول مرة ائتمنتك على حياتي وشرفي ، واني أفعل الآن مافعلتهحينذاك ، ولذلك فاني مستعد ان أقبل نصحك ، فأما ما يتصل بالالقاب فلست أعبأ بأن أفقدها لاني ما سعيت اليها ، وأما الممتلكات فليس عندي الا ما خلفه لي أبي وهو لا يكاد يطعمنا الخبز ، اني لست أنتظر أن تغير انجلترا ماعقدت عليه العزم الآن ، ولكني على يقين أنها سوف تفعل ذلك في المستقبل وساكتب لك كتابا يتيح لك من السلطة ما توافق به على ما تراه عادلا مشرفا من الشروط ، ولكني أرجو منك أن تكون شهيدا على أني أفعل ذلك ابتغاء انقاذ اخواني أكثر مما أفعله من أجل شخصي » (١)

وكتبعرابي هذا الكتاب، وذكر فيه أنه بدع للمستر برودلي أن يفعل مايراه لصالحه « مع تذكر قضايا اخواني السياسيين وغيرهم من المواطنين المسجونين » وانه يثق أن ذلك سوف يكون كما يشاكل شرف انجلترا « حيث أننا أبرياء جميعا من التهم الوحشية الموجهة الينا » .

هذا موقف عرابي المؤمن بعدالة قضيته ، والذي ظن أن خصومه في مصر يريدون وجه الحق وما كانوا يريدون الا رأسه بأي ثمن وعلى أية صورة ، ولو أتيحت له محاكمة عادلة على أيدي قضاة عادلين لكانت البراءة الناصعة عاقبته في غير مشقة ، فليقبل حكم الظروف وقد حرم حكم القضاء ...

كان على برودلي بعد ذلك أن يعد تمثيل المهزلة مع المسئولين، وكان بورلي قد استقال لانه « لا يستطيع الاشتراك في مهزلة سياسية كهذه » كما قال ، ويذكر برودلي أنالخديو هو الذي أوعز اليه بهذا ففعله مشايعة

(1) How we defend Orabi P. 824

لبقية بني جنسه الفرنسيين ولذلك كان على برودلى ان يتصل بتجران باشا الذى حل محله وقد بذل تجران أقصىما فى وسعه ليكتم غضبه من اضطلاعه بهذا العمل

وكان على ممثلى المهزلة أن يبحثوا فى القانون العثمانى عن مادة تنطبق على مثل هذا العصيان ، فوجدوا مأربهم فى المادة ٩٦ من القانون العسكرى ، والمادة ٥٩ من قانون العقوبات ...

وكتبت لجنة التحقيق الى المحاميين تبلغهما انها رأت تقديم عرابى الى المحكمة العسكرية بمقتضى هاتين المادتين وتسألهما ان كان لديهما اعتراض على هذا ...

ورد برودلى وصاحبه انهما لا يعترضان ، وعلى ذلك أرسل اسماعيل أيوب باشا عضو المجمع الشعبى العام وضيف عرابى فى كفر الدوار (١) الى رؤوف باشا عضو ذلك المجلس العام أيضـا (٢) يقول انه بعد استجواب عرابى باشا اقتنع بتقديمه الى المحكمة العسكرية وفقا للمادتين المشار اليهما .

على هذه الصورة فرغ من اعداد المهزلة فى ٢ ديسمبر واتفق على أن يكون تمثيلها فى اليوم الذى يليه ...



كانت قاعة مجلس النواب المصرى (٣) قد أعدت من أول الامر لانعقاد جلسات المحكمة العسكرية ، ووضعت فيها المقاعد لجمهور كبير يشهد الحكم على عرابى بالموت ومما يذكره المستر برودلى وقد شهد القاعة عقب مجيئه الى مصر انه لم يكن فيها مكان للدفاع ...

وشاءت الاقدار لهذه القاعة التى كانت مجالا لنواب الامة والتى كان فيها منبر حريتهم ، والتى هى الآن مقر

(١، ٢) هذا تعقيب برودلى على اسميها .
(٣) قاعة مجلس الشيوخ الحالية .

مجلس شيوخها الموقر ، الا تشهد حكما كهذا على زعيم الحركة القومية فى مصر احمد عرابى باشا .

وكان تمثيل المهزلة فى مكان غير هذا الحرم الشعبى الجليل ، فقد اختيرت قاعة من قاعات مبنى الدائرة السنية حيث كان المسجونون ، وحيث كان مقر لجنة التحقيق ...

وفى صباح ٣ ديسمبر سنة ١٨٨٢ بدأ تمثيل المهزلة ، فتأهب رؤوف باشا رئيس المحكمة العسكرية بملابسه الرسمية ووسامه المجيدى الاكبر ، وتأهب بقية القضاة بأوسمتهم وملابسهم الرسمية كذلك فى حجرة مجاورة ودخل قاعة الجلسة بعض الانجليز من العسكريين ، والمدنيين ، وبعض الاوربيين وعدد صغير من الاوربيات وفريق من مراسلى الصحف الاجنبية ، كالتيمس ، وستاندارد، والديلى نيوز، والديلى تلغراف، والنيويورك هرالد ، والجرافيك ، والالستراسيون وغيرها ، ولم يكن شهود الجلسة أوالملهاة يزيدون فى مجموعهم عن أربعين.

قال برودلى : « ... ودنا منى اسماعيل أيوب باشا وفى يده ورقة وقال انه يأمل الا أعترض على قراءته من أجل بعض المظاهر فقط ، عبارة من وضعه ، فأجبته فى غير التواء أن له أن يفعل ما يقضى به رأيه ، ولكن اذا استعملت أية رقعة غير الرقعتين اللتين اتفق عليهما فسيعلن عرابى أنه غير مذنب ... فتنهد تنهيدة طويلة فى هدوء ودس رقعته تحت المنشفة ولم يعرف عنها شىء بعد » ...

أما الرقعتان المتفق عليهما ففى احداهما عبارة قصيرة وقع عليها عرابى هى « انى بارادتى وعملا بنصيحة محامى أقر ما يتلى على الآن من اتهام » وفى الثانية يتعهد كجندى أن يبقى فى المكان الذى تحدده له الحكومة

الانجليزية وفقا للحكم الذى يتلى عليه ...

وكان مراسلو الصحف المصورة يرسمون القاعة ومن فيهـا تاركين موضع القضـاة فى أوراقهم خاليا حتى يحضروا وكذلك موضع المتهم ، وقد أعد الذين لم يبلغهم نبأ المهزلة أوراقا كثيرة وافلاما يحسبون أنهم سيملأونها بالاوصاف والانباء ...

يقول برودلى : « وفى الساعة الثامنة دخل القضاة التسعة قاعة الجلسة ، وجلسوا على كراسيهم ذات الظهور المخملية الحمراء . وجلس السير شارلز ولسن على يمين المكان الذى خصص للسجين ، وجلست أنا وراء قمطر يواجه هذا المكان ، وكانت المنصة المخصصة لمثل الاتهام خالية ...

وبعد دقائق رأيت عرابى من الباب المفتوح يقطع الفناء ومعه نابيير فى ردائه التقليدى وعثمان شريف وحارسان شركسيان ودار عرابى حول مؤخرة القاعة ، وبعد أن مر بمقعد طويل كان مخصصا لجلوس نحو ٢٠ شخصا على الاقل ، جلس بجوارى ، واتخذ المستر نابيير كذلك مكانه الى جانبى ، وساد الصمت العميق هنيهة ، وكان يبدو على عرابى بعض الاضطراب العصبى أول الامر ولكنه ما لبث أن تمالك نفسه ، وتناول رؤوف باشـا ورقة وتلى ما بها وهذا نصها :

« أحمد عرابى باشا ... أنت متهم الآن أمامنا بناء على قرار لجنة التحقيق بجريمة عصيان سمو الخديو ، مخالفا بذلك المادة ٩٦ من القانون العسكرى العثمانى والمادة ٥٩ من قانون العقوبات العثمانى ، فهـل أنت مذنب أم غير مذنب ؟ »

وقد نهض عرابى بمجرد أن أخذ رؤوف باشا يتلو هذه العبارة ، فلما فرغ منها أجاب عرابى قائلا : « ان

محامى سوف يرد عنى » .

ونهضت وتلوت الترجمة الفرنسية لاعتراف عرابى وأبرزت الاصل العربى وعليه خاتمه وقرأه كاتب كان يجلس على مقربة من الرئيس ، ونظر رؤوف باشا الى عرابى متسائلا ، فأومأ برأسه علامة الموافقة ، فأعلن الرئيس تأجيل الجلسة الى الساعة الثالثة بعد الظهر..

وفى الموعد المحدد ازدحمت القاعة بشهود الجلسة وحضر عدد غير قليل من السيدات وكانت بينهن زوجة نابيير، وكان الطريق أمام الدائرة السنية مزدحما بالناس وانعقدت المحكمة ، فناول رؤوف باشا كاتب الجلسة نص الحكم وأمره بتلاوته ، فتلاه ... وبعد فترة قصيرة من السكون ناوله ورقة أخرى واتجه الى عرابى قائلا: « أحمد عرابى .. ستسمع المرسوم الصادر من سمو الخديو ، وتلا المرسوم المذكور » ...

وكان الحكم يقضى بالموت على عرابى ، والمرسوم يستبدل به النفى المؤبد ، وانفضت الجلسة بعد عشر دقائق واسدل الستار على المهزلة ...

وتقدم المهنئون الى عرابى وتزاحم عليه مراسلو الصحف مصافحين اياه فى حماسة وقدمت له بعض السيدات الاوربيات باقات من الزهور فتقبلها شاكرا .

ويذكر مستر برودلى أن زوجة زميله المستر نابيير كان أمامها باقة من الزهور صغيرة كانت أعدتها لترسلها الى عرابى بعد المحاكمة فأخذها أحد الجالسين من غير شعور ووضعها فى يد عرابى ، ولقد أثار هذا كثيرا من اللغط وخاصة من جانب أعوان الخديو ، اذ عجبوا أن تفعل ذلك سيدة على مرأى من الناس ، ولكن هذا اللغط ما لبث أن ذهب بظهور حقيقة ما حدث .

وأعيد عرابى الى السجن ليبقى فيه ريثما ينفذ الحكم

إلى المنفى

كان أول شيء فعله عرابى بعد عودته الى سجنه أن صلى لله وأطال سجوده شكرا له سبحانه ، ولما خرج من الصلاة وجد محامييه فى الحجرة فوجه اليهما بعد الله شكره ، وأعادا عليه تهنئتهما وخرجا بعد حديث جرى بينهما وبينه ، وتركاه ليكتب لصديقه مستر بلنت الذى أبلى فى سبيل انقاذه ما أبلى

وذكر برودلى انه علم علم اليقين أن الوطنيين من أهل القاهرة قد باتوا ليلتهم فى فرح عظيم وان لم تخرج مظاهر الفرح من بين جدران المنازل خوفا من الحكومة والخديو ، فوزعت الصدقات والملابس وأطعم الفقراء ، وأقيمت الصلوات وكان فرح الناس منبعثا من أعماق نفوسهم أو على الاصح مستقرا فى أعماقهم .

وزاره برودلى صباح اليوم التالى وأخبره أنه لم يبق لديه مما يشغل باله الا قلقه على اخوانه المسجونين ، ورغبته أن يبين لاهل أوربا حقيقة اعترافه الشكلى بعصيانه أمر الخديو ...

وطاب عرابى نفسا بما ذكره له برودلى من انه يأخذ على عاتقه قضية اخوانه ، وأنه لن يألو جهدا فى العمل على انقاذهم ...

وكتب عرابى الى جريدة التيمس كتابا تاريخيا طويلا قال فيه ، بعد أن أثنى أعظم الثناء على محامييه ، أنه

اتبع ما أشارا به عليه وذكر « أن الوزراء الانجليز قد أعلنوا قبل ذلك اكثر من مرة أنى ثائر ولست أتوقع أن يغيروا رأيهم فجأة » وأشار الى براءته من تهمتي المذبحة والحريق، وقال : «انه يغادر مصر مرتاح الضمير وملء نفسه الثقة فى المستقبل لانه يعتقد أن انجلترا لن تستطيع أن تعوق الاصلاحات التى حارب فى سبيلها ، وعما قريب ستلغى الرقابة الانجليزية الفرنسية ، وتتخلص مصر من قبضة الموظفين الاجانب الذين يشغلون كل منصب دون المصريين ، وستطهر محاكمنا الوطنية من العيوب. وستوحد القوانين ويكون لها سلطة ، وسيكون للأمة مجلس نواب ذو رأى مسموع وله حق التدخل فى شئون الشعب المصرى ، وسيطرد المرابون من القرى ، وعندما يرى الشعب الانجليزى تحقيق هذا كله يستطيع أن يتبين أن عصيانى كان له مسوغ عظيم .

انى ابن فلاح مصرى وقد بذلت جهد طاقتى فى سبيل الحصول على هذه الاصلاحات لوطنى العزيز الذى أنتمى اليه والذى أحبه أشد الحب ، ولكن سوء حظى حال بينى وبين ما أردت ... واذا لم تقف انجلترا فى وجه هذه الاصلاحات وسلمت مصر للمصريين كما تقتضيها ذمتها وشرفها فيومئذ يتبين للعالم كله حقيقة مساعى عرابى العاصى وحقيقة أغراضه » .

وأثنى عرابى أعظم الثناء على مستر بلنت « الذى لم يدخر جهدا ولا مالا ليعيننى فى ساعة محنتى وحاجتى، فى حين تخلى عنى جميع أصدقائى المصريين الذين كانوا يلازموننى فى أيام اليسر »

واختتم رسالته بقوله : « انى أغادر مصر مقتنعا كل الاقتناع أنه كلما مرت الايام اتضح للعالم عدالة قضيتنا شيئا فشيئا وسوف لا تندم انجلترا على ما اظهرت من

انسانية وتسامح ازاء رجل حاربها وحاربته » .

وبعد أربعة أيام من صدور الحكم على عرابى قدم الى المحكمة العسكرية كل من محمود سامى وعلى فهمى ، وعبد العال حلمى وطلبه عصمت ، وكان مصيرهم مثل مصيره ، وكذلك كان مصير محمود فهمى ويعقوب سامى بعد هؤلاء بثلاثة ايام ...

واتفق أخيرا على أن تكون سرنديب منفى عرابى ؛ فذهب اليه برودلى وبيمان يبلغانه بذلك فى ٨ ديسمبر فارتاح عرابى لذلك المكان ، قائلا : « انى أخرج من مصر بستان الدنيا لاذهب الى سرنديب جنة آدم » ، وأخذ يحدث بلنت عما يذكره التاريخ القديم من قصة هبوط آدم وكيف انه حل بهذه الجزيرة فصارت تعرف بجنة آدم كما ذهبت حواء الى الحجاز فصار يعرف بجنة حواء ... واستبشر عرابى وشاع فى نفسه السرور..

ويذكر برودلى أن اللورد شارلز برسفورد كان يجمع المعلومات عن أسباب الحرب أثناء اقامته بالقاهرة فأحب أن يعرف ما يقول عرابى ، وحمل نابيير الى عرابى هذه الرغبة فكتب له تاريخا موجزا للأيام السابقة لضرب الاسكندرية ، ثم وصف كيف قررت الحرب وكيف بدأت

وكان عرابى شديد التطلع الى معرفة ما تكتبه عنه الصحف الاوربية ، وقد آلمه تغير الصحف العربية ، وتنكرها له ولحركته ، وترجم له التراجمة اقوال بعض الصحف الاجنبية كجريدة التيمس وستاندارد والديلى نيوز ، فسرى عنه كثيرا ، وكان ذلك من أسباب كتابته لجريدة التيمس .

وكتبت جريدة « تروث » الانجليزية (١) تمتدح عرابى وتثنى على الحركة القومية فى مصر ، فسر عرابى لهذا

---

(١) Truth

سرورا عظيما وأعجبه اسمها وترجمته بالعربية «الحق» وقال : انه يريد أن يعبر عن الحق فى جريدة «الحق» ، فكتب الى محررها المستر لابوشير رسالة افتتحها بقوله : « أرجو أن تسمح لى بأن أقدم اليك أصدق شكرى على ما أعلنته دائما من الحق فيما يتصل بى وباخوانى فى أيام محنتهم ، وأنى مقتنع كل الاقتناع ببراءة مقاصدك وأنك أردت دائما أن تظفر بما يتفق مع الحق من عدالة وليس من شك فى أن أولى العدل من الرجال الذين يجودون بالعون لمن لحقهم سوء الحظ، فى ساعة حزنهم»

وبعد ، فانه لما كان لايعنينى شىء أكثر مما يعنينى رخاء وطنى وتقدمه وسعادة أهله ، وذلك على الرغم من انى أغادره الآن الى الابد ، فانى أحب أن أذكر لك بعض الامور الجوهرية التى لو روعيت جلبت الخير الكثير لوطنى وأفادت أهله فائدة عظيمة ، وأحسب أنه لن يبلغك هذه الامور فى غير هوى مثل رجل مجرب فقد كل ما يملك فى سبيل حب وطنه » .

ومضى عرابى يذكر ما يرجوه من أوجه الاصلاح معقبا على كل وجه بما يفسره ، فأشار الى ضرورة وجود مجلس نواب تام السلطة على أساس انتخاب حر ، كما هو الحال فى الامم المتمدنة ، يسأل أمامه الوزراء وينعقد لمدة محدودة لا تنقص عن خمس سنوات ، والى ضرورة المساواة بين المصريين فى المعاملة وفى الضرائب ، والغاء السخرة بحيث يكافأ الناس على ما يؤدون من أعمال لان حياة الفقير تتوقف على عمله اليومى ، والغاء الربا فى القرى ، ووضع قانون عادل يطبق فى المحاكم ولا يعتدى عليه أحد ، وأن تكون وظائف الدولة للوطنيين جميعا على أساس الكفاءة والاستعداد ، ولا بأس من أن يستخدم بعض الاجانب مع مراعاة الحالة الاقتصادية

واختتم رسالته بقوله : « واذا وافقت انجلترا على اقتراحاتى هذه فلست أبالى بالنفى أو بأى شىء آخر يخبئه لى القدر » (١) .

ومازال يسعى برودلى حتى رفعت الحواجز الخشبية الغليظة التى كانت تفصل بين الردهات والحجرات ، واستطاع المسجونون السبعة أن يلتقوا فى ١٣ديسمبر ، فكان لقاء اهتزت له نفوسهم ، عناق وضغط على الأيدى ودموع فى المآقى ، وأصبحت حجرة عرابى ملتقاهم كل يوم حيث كانوا يتجمعون أمامه وينظرون اليه جميعا كما كانوا يفعلون من قبل نظرتهم الى كبيرهم وزعيمهم ؛ وكانوا لايبرمون أمرا الا برأيه ولا يتناقشون فى شىء الا فى مجلسه ..

وامتلأت الحجرات بالزائرين والزائرات من الاقارب القاهريين والقرويين ؛ وكان اقارب المسجونين جميعا يذهبون الىحجرة عرابى فيلثمون يده ويحظون بالجلوس ساعة بين يديه وأعينهم لا تتحول عن وجهه ...

وأحضر الخدم ما يلزم من متاع فى المنفى ، من سرر وكلل وستائر وبسط وآنية وغير ذلك حتى امتلأت به الحجرات ...

وطلب اليهم صديقهم المستر برودلى أن يعد كل منهم قائمة بأسماء من يريد أن يرافقوه الى المنفى ليحمل تلك القوائم الى وزير الداخلية وكان حينذاك اسماعيل باشا أيوب الذى حل محل رياض ...

وذهب برودلى فقابلالوزير، وبلغه الوزير أنالحكومة تفكر فى أن ترسل بعض المنفيين الى هنجكنج ، فغضب برودلى ، لان فى ذلك اخلالا بالشروط المتفقعليها ، وبعد جدال طويل عدل الوزير عن رأيه ، ولكنه أبدى اعتراضا

---

(١) How we defend Orabi P. 388

على القوائم وأصر على وجوب انقاصها ، ولم يجد برودلى بدا من أن يعود بها الى المسجونين لينقصوها وقد وقع ذلك من نفوسهم وقعا سيئا ، ولكنهم نزلوا على حكم الضرورة . .

وفى ١٤ ديسمبر صدر أمر الخديو بمصادرة أملاك الزعماء السبعة وأموالهم ، وحرمانهم حق امتلاك أى عقار فى الدولة المصرية بطريق الارث أو الهبة أو البيع أو بأى طريقة ما ، مع صرف معاش سنوى لكل منهم بما يكفي معيشتهم ...

وما أن صدر هذا القرار حتى سلكت الحكومة مسلكا حقيرا ، اذ أسرعت بارسال جند اقتحموا منازل الزعماء فى غلظة ولم يراعوا حرمة شيء ، وكانوا يقلبون الامتعة رأسا على عقب ، ولايسمحون بدخول أحد أو خروجه الا بعد تفتيشه ، ولقد بلغت بهم الغلظة والقحة أن كانوا يقتحمون على السيدات خدورهن ، وكانت السيدات فى تلك الايام لايرين الرجال الا والنقـاب على وجوههن ، وللقارىء أن يتصور مبلغ ما نالهن من ألم وفزع ...

ولقد شكا الزعماء الى برودلى مما حل بزوجاتهم وبيوتهم ، وذهب برودلى فقابل اسماعيل ايوب فتظاهر بأنه لا يعلم شيئا عن هذا ، وأحاله الى رئيس الشرطة أو الحكمدار ، وهو حينذاك عثمان باشا غالب ...

ويقول برودلى : ان غالب باشا ظل ساعة يتحدث فى غير ماجاءه من أجله ، ثم أشار الى قمطر فى حجرته ، وقال : انه ملىء بصور عرابى الفوتوغرافية ، وانه حطم فى محال بعض المصورين زجاجات لصورة عرابى وصادر آلافا مطبوعة منها ، وقال : أنه لا يعرف وقد فشـل عرابى ، ماذا يريد الناس منه بعد ذلك ؟

وبعد الحاح برودلى وعد غالب ألا يدخل الجند بيوت

الزعماء ، والا يفتشوا الداخلين والخارجين على هـذه الصورة المهينة ، ولكنه لم ينفذ ما وعد به ...

ويذكر برودلى أن زوجة نابيير أرسلت الى زوجها كتابا من منزل على فهمى تبلغه بأن الجند اقتحموه ، وروعوا السيدات واقتحموا الحجرات وطلبت من زوجها ان يأتى اليها لانها تخشى أن يمنعها الحرس من الخروج

وذهب برودلى ونابيير الى هناك ، وتصادف أن كان الخديو فى طريقه من عابدين الى قصر الاسماعيلية وكان مارا بمنزل على فهمى ، فما راعه الا سيدة حاسرة الرأس تعترض عربته فتوقفها وتصيح به : « يا توفيق حاربت الرجال ، ألم يكفك هذا حتى تحارب النساء ؟ انك ترانى الآن بغير نقاب وفى وضع ينال من شرفى ، ولكن عار ذلك يلحقك كما يلحقنى » وتقدم بعض من شهدوا المنظر ، فقادوا هذه السيدة فى رفق الى منزلها وهى زوجة على باشا فهمى ، ولم يعد الخديو يسلك بعد هذا الطريق.. وشكت السيدة ألمها الى برودلى وصـاحبه من وراء ستار بكلمات تتخللها اجهاشات مؤلمة ..

ولم تكف الحكومة عن هذا الطغيان الا بعد أن تدخل دوفرين فى الامر ، فلم يجد برودلى مناصا من الشكوى اليه ...

وحدث أن أبدت الحكومة تعنتا فى أمر جديد ، وذلك أن السفينة لا تتسع للزعماء جميعا ومن معهم ، وعلى ذلك فلن يسافروا معا ، وكتب اثنان منهم رسالة وقعا عليها ليرسلاها الى الحكومة وقد دعيـا فيهـا للخديو بالتوفيق ، وما أن رآها عرابى حتى صاح بيعقوب سامى غاضبا أشد الغضب : « هل وقعت على هذه الرسالة ؟ انى أوثر أن أمزق اربا قبل أن أفعل شيئا كهذا ، لقد قلت وما زلت أقول : أن توفيق لم يكن يصلح لان يحكمنا

فكيف اكذب اليوم وأدعو له ؟ اننا على أية حال لم نبلغ هذا القدر من السقوط » .

وفى ٢٤ ديسمبر ، نشرت « الوقائع المصرية » أمرا خديويا آخر بتجريد الزعماء السبعة من جميع الرتب والالقاب وعلامات الشرف التى كانوا حائزين لها ، ومحو أسمائهم من سجلات ضباط الجيش المصرى الى الابد

وفى ٢٥ ديسمبر ، وهو يوم عيد الميلاد ، زار برودلى عرابى وأصحابه فى سجنهم ، وهنأه عرابى وزملاؤه بالعيد ، ولم يجد عرابى لديه ما يقدمه له هدية وذكرى غير مسبحته وبساطه ، وتقبلهما برودلى شاكرا وتبادل وعرابى واصحابه الصور ، وقد أعربوا له جميعا عن خالص مودتهم وعظيم شكرهم له ولزميله وللمستر بلنت

وأبت الحكومة الا أن تمضى فى تعسفها وتتمادى فيه قبل سفر الزعماء، اذ تلت عليهم قرار تجريدهم من رتبهم والقابهم على مرأى ومسمع من الجند والناس..

أحضرت عربتان الى باب الدائرة السنية ، وأمر المسجونون فجأة ، بعد الساعةالثانية بقليل . أن ينزلوا فى غير أبطاء ، ولم يبلغهم أحد عما يراد بهم ، ولكن هذا العمل لا يختلف عن معاملة المجرمين العاديين ...

ونزل الزعماءوهم يخشون أن يكون فى الامرغدر جديد فأمروا بالدخول فى العربتين ، وسارتا بهم فى حراسة بعض الضباط الى قصر النيل ، حيث أصطف بعض الجند على هيئة مربع ، واجتمع فى احدى الشرفات عدد من عساكر الانجليز وضباطهم يشاهدون ويصفقون ، ووضع الزعماء وسط المربع ، واخذ أحد الضباط يتلو عليهم قرار الخديو ، ولما فرغ من تلاوته صاح الجند : « يعيش سمو الخديو » ، وسئل الزعماء عن سيوفهم ، وشاراتهم أين هى ؟ وهو سؤال سمج ، لانهم بملابسهم

المدنية وليس معهم شيء ، ثم أعيدوا الي العربتين فسارتا بهم الى مقرهم فى السجن ونفوسهم مليئة بالسخط على هذه الافعال الحقيرة ...

وكان قد اجتمع عدد من الناس خارج قصر النيل ، فنظروا الى عرابى وصحبه فى حسرة وألم ولم يستطع الا واحد ان يهتف : « حماكم الله » ثم اندس فى الجموع، وكان يشهد الحادث خادم مصرى كان قد استأجره المستر برودلي منذ أن جاء الى مصر ويدعى حسن وكان شديد الميل لعرابى وقد زاد تأثره وهو يقص على برودلى ماراى وعقب على غياب السيوف والشارات التى كانت تكسر وتنتزع لو أنها وجدت ، بقوله : « الله أكبر احتى الخديو لم يستطع أن ينال من عرابى » .

وذهب برودلى ونابيير الى السجن ، واخذا يهدئان خواطر الزعماء بالكلمات الطيبة ، ويقول برودلى : انه تنفس الصعداء اذ علم أن السفينة ماريوتس (١) دخلت قناة السويس فعلا لتكون على أهبة السفر من السويس الى سيلان فى مساء اليوم التالى ...

وبقيت مسألة هامة ، فليس مع عرابى ولا أحد من أصحابه مال ، وقد بذل برودلى مساعيه حتى صرف لكل منهم ثلاثون جنيهـا مقدما ممـا قرر صرفه لهم بسرنديب ...

وقد كتب بيمان بعد ذلك بنحو سنة معقبا على ذلك فى احدى الصحف (٢) فكان مما قاله : « ان عرابى الذى كان يستطيع أن يجمع لنفسه مليونا من الجنيهات لم يجد ما يشترى به ملابس له عند سفره وقد أرسل له بعض أصدقائه حقيبة مليئة بالملابس والقطار على أهبة

---

(١) مريوط .

(٢) Fort Nightly Revieus, November 1983

السفر ، وكانت أسرته تعيش وهو فى السجن على صدقات يدفعها بعض محبيه سرا وكنت أنا الذى أحملها اليها بيدى .. ولست أكتب هذا بدافع عبادة البطولة ، وآنما لابين لماذا اختار الشعب المصرى رجلا نشأ من طبقة الفلاحين وتمسك به لانه يعرف ما يشكو منه ، وكيف يدافع عن حقوقه المكتسبة ، وآثر ذلك على أن يظل خاضعا للسلطان الموروث » .

وفى ٢٦ ديسمبر ، تأهب عرابى وأصحابه للسفر ، وأرسلت اليه بعض فضليات السيدات على يد برودلى كثيرا من الهدايا (١) فى حذر خوفا من توفيق ، فارسلت احداهن حقيبتين انجليزيتين كبيرتين وأخرى مصحفا فخما وثالثة سجادة للصلاة ، ورابعة حقيبة مليئة بالملابس وخامسة سلة جميلة ...

ولندع لبرودلى وصف هذا الرحيل ، يقول : « كان المفروض أن يبرح القطار الخاص قصر النيل الى السويس فى الساعة العاشرة على وجه التحديد ... وفى الساعة الاخيرة بلغنا أن الرحلة ستؤجل الى موعد آخر بسبب رداءة الجو فى السويس ، ولكنا أخذنا الحيطة فتركنا حسن عند السجن لينظر ماذا يحدث خشية أن نفاجأ مفاجأة أخرى ...

وأقبل حسن قبيل الساعة العاشرة منقطع الانفاس من شدة الجرى فأبلغنا أن الزعماء غادروا لتوهم الدائرة السنية وكان نابيير فى شغل بالبحث عن متاعه لانه كان يتأهب لمرافقتهم حتى السويس ، فركبت عربة واسرعت الى قصر النيل ...

وكان منظر القصر واضحا فى نور القمر الساطع الذى

---

(١) لم يذكر برودلى أسماءهن واكتفى بقوله بعض العظيمات ولعلهن من الاميرات .

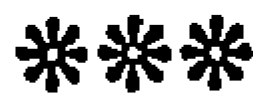
كاد يمحو نور المشاعل التى حملها بعض الحراس المصريين وكان أمام عربات القطار بعض شهود الرحيل وكان بينهم السير شارلز ولسن والمستر ماكنزى ولاس وعثمان باشا غالب ...

وكان القطار عظيم الطول يكاد يمتد من أول الفناء الى آخره ، وكان فى مقدمته السيدات ومعهن أطفالهن وفى مؤخرته الخدم والمتاع الثقيل وفرقة من الجند الانجليز تحت اشراف الميجور فريزر ، وبعض الجند والضباط المصريين الذين كلفوا أن يرافقوا المنفيين حتى السويس ، وخصصت فى وسط القطار عربة من عربات الدرجة الاولى لعرابى وأصحابه ، وكانوا قد أخذوا أماكنهم فى القطار عندما بلغ قصر النيل... وبدا عليهم من البشاشة أكثر مما كان يبدو على وجوه فريق مثلهم من الانجليز لو كانوا فى مثل موقفهم ، وأسرعت الى النوافذ لاسمعهم بعض كلمات التوديع ، وأعاد عرابى على كلمات ثنائه وشكره الطيبات ..

وكان الامر بالرحيل على وشك أن يصدر، ولكن بيمان أعلن أن رجال الشرطة عند منزل عرابى منعوا زوجة ابنه وأختها من مغادرته ... وما الحيلة ؟ لقد حانت ساعة الرحيل ، ولم يكن ناظر محطة القاهرة يسمح بأى تأخير للقطار وكان الحى الذى يقع فيه بيت عرابى بعيدا وعندئذ قال السير شارلز ولسن لعثمان غالب باشا فى لهجة حاسمة ان القطار لن يبرح مكانه الا اذا حضرت السيدتان ، وأرسل غالب باشا عربته ليجىء بهما ... وأعقب ذلك فترة صمت محير .. وقد جاء بعض الخدم يحيوننى ، وبحث المستر نابيير عن مكان له ولحقائب عرابى وتقدم بعض الضباط الانجليز فصافحوا عرابى وجلس الى جانبه الميجور فريزر ، الامر الذى ارتاح له

عرابى ارتياحا ظاهرا ووصلت أخيرا سيدتان تلبسان ملابس بيضاء وسرعان ما توارتا فى احدى العربات بين فريق السيدات ، ولم يكد يغلق البـاب عليهما حتى صدرت اشارة برحيل القطار ، وغاب عرابى وأصحابه وراء جدر قصر النيل ...

هكذا أخرج عرابى ليلا الى حيث لايرجو له خصومه عودة ، لم يره من الشعب المصرى أحد ، ولا ودعه من محبيه أحد ، وتنفس توفيق وحزبه الصعداء مرة ثانية



ولئن حيل بين عرابى وبين بنى قومه وأخـرج على هذه الصورة المدبرة ، فها نحن أولاء نودعه على صفحات التاريخ بما هو أهل له من الاجلال والاحترام ...

أخرج عرابى من مصر مغلوبا على أمره واسدل الستار على حركته ، ومهما يكن من حقد خصومه عليه ومن محاولاتهم المتصلة النشيطة لتشويه حركته منذ ان ذاع صيته بحادث عابدين ، فان شيئا واحدا هوحسبه من المجد والفخر سوف يبقى على الرغم من كيدهم وسوف تزيده الايام وضوحا ورسوخا ، الا وهو أن عرابى كان الزعيم القومى الاول فى مصر ، فهو أول فلاح من أعماق القرى هتف بحرية مصر واستخلص لها الدستور وأنف أن يخضع لحكم الفرد ، وفرق بين ما هو حركة اسلامية عامة وبين ما أصبح بحق فى مصر حركة قومية مصرية قوامها أن يكون أبناء مصر من الفلاحين هم السادة وهم مصدر كل سلطة لانهم عماد الثروة ودافعو الضرائب ، ولانهم قبل ذلك أهل البلاد وأصحابها الحقيقيين ... وهـذه هى الديموقراطية بأحدث معانيها كما يفهمها الناس اليوم ...

كانت حركة عرابى حركة قومية على الرغم من باطل

المبطلين، وقد جحد بها كثيرون من خصومه واستيقنتها أنفسهم ولم يستطع حتى كرومر نفسه كما ذكرنا من قبل أن ينكر قومية هذه الحركة وقد جاء فى موضع آخر من كتابه قوله : « ان حركة عرابى أكثر من أن تكون مجرد فتنة عسكرية . لقد كان فيها الى حد ما طبيعة الحركة القومية الحقيقية ، ولم تكن هذه الحركة موجهة كلها أو فى جوهرها ضد الاوربيين والتدخل الاوربى فى الشئون المصرية ولو أن النفور من الاوربيين والتجنى عليهم كانا يسيطران على عقول قواد هذه الحركة ، انما كانت هذه الحركة الى مدى عظيم موجهة من المصريين ضد الحكم التركى » (١) .

ولقد بينا فى أكثر من موضع فى هذا الكتاب كيف التفت الامة حول عرابى وقد تجلى هذا المظهر بوجه خاص فيما جادت به طوائفها جميعا أثناء القتال ، كما تجلى فى المجلس العام الذى مثلت فيه طوائف الامة جميعا حتى الامراء فكان هذا المجلس بحق مؤتمرا وطنيا عاما يتكلم باسم الامة . . .

وممن كتبوا عن عرابى فأنصفوه وأنصفوا حركته السير ماكنزى ولاس الذى رافق اللورد دوفرين الى مصر ، قال : « لم يظهر من عهد محمد على أو من قبل ذلك بزمن بعيد رجل فى مصر كان له على البلاد من السيطرة مثل ما كان لعرابى ، فانه لم يقتصر أمره على أن الشرطة والجيش كانا رهن اشارته بحيث يستطيع أن يأخذ بالارهاب كيف يشاء ، بل كان يتمتع كذلك بعطف كل الطبقات فى مصر تقريبا . ولم يحصل عرابى على نفوذه أو يحافظ عليه بالارهاب لانه عند بدء حركته لم يكن لديه أية قوة يضر بها أحدا ، ولم يعلم عنه انه فى أثناء

(١) M. E. Cromer p. 251

قوته ذبح شخصا او شنقه أو رماه بالرصاص ؛ ولو أنه خاض معركة انتخابية خالية من وسائل الغش ، وكان خصمه فيها توفيق ، لفاز عليه بأغلبية هائلة من أصوات الناخبين الاحرار » (١)

وقال في موضع آخر : « اذا كنا لم نرد أن نقيم نظاما دائما في مصر فلماذا ذهبنا الى هناك ؟ واذا كنا لم نرم الى اقامة حكومة صالحة حقا فلماذا قضينا على الحزب القومي الذى كان لديه فرصة لاقامة نظام من أي نوع ، كان خيرا مما يصنع الخديو الذى أعدناه الى سلطته» (٢)

وكذلك ممن أنصفوا عرابى اللورد شارلز برسفورد الذى اشترك فى ضرب الاسكندرية فقد كتب فى جريدة التيمس بتاريخ ٨ يناير سنة ١٨٨٣ : « حقا أن من الممكن أن تسمى حركة عرابى حركة قومية ، فقد نعتها بعض الانجليز بهذا فى شهر مايو سنة ١٨٨٢ عندما تحرجت الامور تحرجا خطيرا ، وكان منهم بعض الضباط البحريين من ذوى المكانة والذين حضروا فى الاسطول الذى جاء الى الاسكندرية ... ونحن اذا نظرنا الى المسألة من وجهة النظر المصرية لايخالجنا أدنى شك فى أن عرابى كان يحظى بعطف الشعب المصرى.. ويستطيع عرابى وأصحابه أن يقولوا انهم كانوا يحاربون فى سبيل الاصلاح ، وأن الدليل الذى يؤيد عدالة قضيتهم هو أن انجلترا آخذة فى تنفيذ اصلاحاتهم بالذات، ويستطيعون كذلك أن يبرهنوا بحقيقة أخرى هى أنهم لم يأخذوا من الشعب قرشا واحدا الا ما رأوا أنه ضرورى لخير الشعب ، الامر الذى يعد نادرا فى الشرق » ...

اما برودلي فيقول عن عرابى : « انى لا اكتفى بأن اقول ان الامة كلها كانت فى جانب عرابى ، بل انى أقرر

(١) Egypt and Egyptian Question p. 379

(٢) نفس المصدر ص ٣٧٧ .

فى غير خوف من نقض آرائى أن عرابى واصحابه قد أظهروا فى أداء رسالتهم أمانة تامة واعتــدالا وروحا انسانية تشرفهم على مدى العصور» .. وقال فى موضع آخر : « ليس يخامرنى أقل شك فى أن عرابى واصحابه كانت لديهم كل القدرة على أن ينهضوا بحكم أمتهم حكما شعبيا وأن ينفذوا فى جدارة كل التغييرات والاصلاحات التى خلفوها لنا بصفتنا ورثتهم وخلفاءهم ، لم يكن عرابى من ذوى الاحلام أو من ذوى التحمس ، وانما كان — اذا قيس بالمقيــاس المصرى — رجـــلا متعلما ذا مقدرة ملما بشئون وطنه وما تحتاج اليه بلاده ، وهب كثيرا من النشاط وقدرا عظيما من أمانة الفرض » ...

وكان الامراء والعلمــاء والاعيان وهم صفوة الامة ، يحترمون عرابى ويرفعون قدره .. كتب اليه الامير ابراهيم باشا وهو بكفرالدوار فكانمما خاطبه به قوله : « الى صاحب السعادة حامى حقوق مصر أحمد عرابى باشا » (١)

وأثنى الامير فى كتابه على همته ونخوته وعبر له عن مودته ومحبته ...

وقال الشيخ محمد عبده فيما كتبه للمستر برودلى بعد أن ذكر ما كان بينه وبين عرابى من خلاف فى الرأى قبل يوم عابدين : « ان الاجتماعات العامة المتنوعة التى عقدت بعد ذلك مباشرة للحصول على دستور برئاسة سلطان باشا حولت فى الحال مقام عرابى من قائد جيش الى قائد مصر ، وحينئذ أصبحت وسلطان باشا والبلاد المصرية قاطبة من أتباع أحمد عرابى » (٢)

وقال برودلى عن الشيخ محمد عبده : « انه أمدنا بقدر كبير من المعلومات عنالايام الاولى للحركة القومية ،

---

(١) How we defended Orabi p. 381

(٢) تاريخ الاستاذ الامام ص ٢٢٧

ووصف وصفا حيا كيف أصبح عرابى بطل مصر الذائع الصيت ، وكيف أن آلافا من الآباء المصريين أطلقوا على أبنائهم أسمه وكيف ذهب أسم توفيق من الارض » (١)

وكانت اميرات الاسرة الخديوية ما عدا زوجة توفيق وأمه ، يعطفن على عرابى ويتحمسن لقضيته ومن بينهن الاميرة أنجه هانم ارملة المرحوم سعيد باشا التى أهدت الى عرابى خيمة زوجها ، وقد كتبت هذه الاميرة الى المستر برودلى بعد الحكم على عرابى تثنى عليه أعظم الثناء وتشكره على صنيعه ، وقدمت اليه والى زميله هدايا غالية ...

وذكر برودلى حديثا طويلا جرى بينه وبين أميرة لم يذكر اسمها وكان يشير اليها بقوله الاميرة ثم يضع خطا مكان اسمها ومما قالته هذه الاميرة : « كانت تعطف كل واحدة منا على عرابى سرا لاننا عرفنا انه يعمل لخير مصر ، وقد ظننا فى وقت ما أن توفيق يؤيده ، ولـكنا لما رأيناه ينوى ان يخون مصر كرهناه أشد الكره ، وقد بذل كل ما فى وسعه ليشقينا منذ ذلك الوقت ، ولقد حدثته الاميرة انجه التى نجلها كل الاجلال ولكن فى غير جدوى، وذهب توفيق عقب ذلك الى الاسكندرية وانضم الى الانجليز ، ومنذ ذلك الوقت اتجهنا صوب عرابى للدفاع عن الوطن ... وكانت حماستنا له لا تعرف حدا وكنا نكتب له جميعا الرسائل والبرقيات نهنئه ونشد ازره ... وقد كتبت له الاميرة ــ خطابا عظيم الحمق ــ تعرض عليه أن تتزوجه لانها تراه منقذ مصر » (٢)

وذكر بلنت فى كتابه « انه رجع الى يومياته بتاريخ ٣١ يناير سنة ١٨٨٧ ، فوجد فيها انه زار الاميرة نازلى التى يعد حديثها ممتعا فى أى جماعة من جماعات الدنيا ،

---

(١) How we defended Orabi p. 200

(٢) نفس المصدر صفحة ــ ٣٩٤

والتى كانت تعطف على عرابى أشد العطف ومما ذكرته الاميرة قولها : « كان عرابى أول وزير مصرى حمل الاجانب على طاعته وقد رفع المسلمون رؤوسهم فى عهده على الاقل ولم يجرؤ اليونانيون ولا الايطاليون على الاعتداء على القانون ، وقد أخبرت توفيق بذلك أكثر من مرة . والآن ليس هنا من يحفظ النظام فان المصريين وحدهم هم الذين يقعون تحت سلطان الشرطة ويفعل الاوربيون ما يشاءون » (١)

وقد أورد برودلى رأيا لشخص لايمكن المرء أن ينتظر منه كلمة طيبة عن عرابى وذلك الشخص هو توفيق نفسه ! قال برودلى : « اتيح لى أن أرى توفيق مرتين وذلك عندما سمح أن يلقانى فى قصره بعابدين ... وبعد ان قدم لى سيجارة بدأ الحديث فأكد لى أن أوربا أخطأت فهم آرائه فيما يتصل بالتحقيقات الاخيرة ، فهو لم يرد قط موت المسجونين ولا اعتنق هذه الفكرة وكان تغيير الحكم عليهم تجربة سارة للتسامح أملتها عليه ارادته . وحاولت أن أتكلم قليلا عن عرابى فقال الخديو انه يرى حتى فى هذا الوقت أن عرابى من خيار الرجال ، وأنه لم يصدق لحظة قط ان عرابى أراد أن يقتله ، ولو انه كان ينوى شيئا من هذا لاستطاع أن ينفذه فى فرص عديدة أتيحت له عندما كان واياه فى القاهرة (٢) ...

هذا جانب مما يقوله المنصفون عن عرابى وحركته من ناحية حياته العامة ، أما من الناحية الشخصية فكان من أبرز صفاته كما رأينا من سيرته الورع وخشية الله والوفاء والاباء الذى قل ان كان له فيهما نظير بين أقرانه والايثار الذى جعله يقدم مصلحة مصر وقضية مصر على مصلحته الشخصية ، وقد رأينا كيف خرج من الحرب

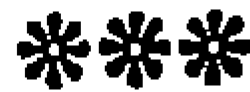
---

(١) S. H. B. p. 394

(٢) How we defended Orabi p. 381

صفر اليدين كما قال المستر بيمان ، كما رأينا أنه لم يكن يخطو خطوة واحدة بدافع الطمع الشخصى ، وقد تجلى ذلك فى حرصه الشديد الذى هو من صفات

الزعامة الصادقة على قضية مصر وهو فى محنته واهتمامه بأن يرد على كل مطعن يوجه اليها دون أن يعنى قليلا أو كثيرا بما يقال عن شخصه ...



أقلعت بعرابى وأصحابه السفينة مريوتس من السويس فى الساعة الواحدة بعد ظهر يوم ٢٧ ديسمبر ، وهى سفينة انجليزية حمولتها نحو ١٤٠٠ طن وقد استأجرتها الحكومة المصرية لنقل هؤلاء المنفيين ...

ولم يقتصر الامر على هؤلاء السبعة المنفيين فقد صدرت فى مصر بعد ذلك أحكام أخرى على عدد كبير جدا من المصريين ، فصدر الحكم على الروبى باشا والسيد حسن موسى العقاد بالنفى ٢٠ سنة فى مصوع ، وعلى أحمد عبد الغفار بالنفى ٨ سنوات خارج مصر وعلى أحمد بك رفعت بخمس سنوات كذلك خارج مصر وعلى الشيخ محمد عبده بثلاث سنوات قضاها فى بيروت ...

وحكم على نحو ٣٥ غير هؤلاء بالنفى مددا تتراوح بين سنة وخمس سنوات ، وقضى على طائفة من كبار الاعيان بتجريدهم من الرتب والامتيازات وأن يقيم كل منهم فى بلده مدة معينة ، تحت رقابة الحكومة المحلية مع دفع تأمين مالى كبير ، وكذلك قضى على عدد من كبار الباشوات بأحكام كهذه وان خلت من التأمين المالى ...

أما العلماء فقد قضى بتجريد عدد كبير منهم من رتبهم وشارات شرفهم وامتيازاتهم ومن هؤلاء الشيخ حسن العدوى وابنه الشيخ أحمد العدوى والشيخ محمد أبو العلا الخلفاوى والشيخ أحمد عبد الغنى ...

وفضى على عدد كبير من الموظفين والعمد والاعيـان بمثل هذا الحكم ، كما فصل أكثر من ٢٥٠ ضـابطا من ضباط الجيش وجردوا من رتبهم وامتيازاتهم وحرموا من مرتب الاستيداع ومعاش التقاعد ...

ومن اكبر مآسى هذه الاحكام ما حكم به على يوسف أفندى أبو دية ، فقد كان هذا الضابط ياورا لعبد العال قائد دمياط وارسـله فى امر الى عرابى بكفر الدوار ، وتصادف أثناء مروره بطنطا ان شهد فيها تلك الفتنـة التى أشرنا اليها بين الاجانب والمصريين ، فذهب الى المدير ابراهيم باشا أدهم فألفاه متمارضا فعبر له عن أسفه وكان فى كلامه شىء من اللوم ، ولما أخبر عرابى بذلك بادر عرابى باصدار أمره بالقبض على أدهم باشـا والتحقيق معه ...

ومن المؤلم حقا أن يقبض بعد هزيمة عرابى على هذا الضـابط الامين ثم يتهم باثارةالفتنة فى طنطا ويحكم عليه بالموت ، وينفذ عليه هذا الحكم فيشنق وهو برىء ... ومما يزيد فى معنى هذه المأساة أن الخديو أصدر عفوا عنه ولكن البرقية المرسلة بهـذا العفو لم تصـل الى المختصين الا بعد أن شنق الشهيد ... وحسـبنا هذا الحادث وحده للدلالة على ما كان يسود هذه الفترة التى أعقبت الثورة من ارهاب وبطش ومظالم كثيرة ...

***

وفى ٩ يناير سـنة ١٨٨٣ رست السفينة مريوتس بميناء كولومبو بسرنديب ونزل الزعماء السبعة ليعيشوا بالجزيرة ما بقى من أعمارهم كما كان مقررا فى حكم النفى

وان المرء ليمتلىء المًا وحنقا على هـذا الحكم الجائر الذى يقضى بحرمان هؤلاء الامجاد الميامين من وطنهم الذى أحبوه فى غير ذنب الا هذا الحب ...

ولو أن عرابى قدم الى محكمة عادلة تريد احقاق الحق

لما كان هناك شك فى براءته من جميع ما نسب اليه من تهم ، فقد رأينا كيف عجزت لجنة التحقيق مع اضطغانها عليه عن أن تدينه فى تهمتى تدبير فتنة الاسكندرية واحراقها

أما العصيان فلم يكن له أى أساس أو شبه أساس كما بينا ، وانما قضت الظروف أن يقر عرابى اقرارا صـــوريا جانبا منه وهو عصيــــان أمر الخديو وذلك بالاستمرار فى الحرب بعد أن طلب وقفها ...

وما سمعنا أنه فى تاريخ المحاكمات فى الدنيا كلها تقدم الحاكمون يساومون المتهم على أن يقبل كيت وكيت ثمنا لاعفائه من الموت !

كذلك ما سمعنا أن متهما يتفق معه على ما يحكم به عليه قبل مثوله أمام القضاء ، ولو أن عرابى ضمن أن يكون قضاته ممن يطمئن الى عدالتهم ما قبل هذا الوضع وهو متأكد من البراءة ...

ومن أبلغ الظلم فى هذه المهزلة الهازلة أن يمن على امرىء برىء بأن ينفى بدل أن يموت كأن من التفضل عليه أن يظلم هذا الظلم الفادح بحرمانه بقية حياته من العيش فى وطنه ومن ممتلـكاته التى إحلهـا الله له ومن أهله وعشيرته وقد كان بنو مصر جميعا أهله وعشيرته ...

ولكن هكذا شاءت سياسة انجلترا ، فان حملتها جاءت الى مصر لاسباب بسطناها تتلخص فى تحقيق حلمهـا القديم ، ولكنها ادعت أنها جاءت للقضاء على العصاة ، ولو برىء هؤلاء العصاة فكيف كانت تبرر انجلترا مجيئها الى هذه البلاد ؟ ذلك ما جعل دوفرين يقترح ما اقترح، وذلك ما قامت عليه مهزلة المحاكمة وما نتج عنه هـذا النفى أو هذا الظلم العظيم ..

الحياة فى سرنديب

تبلغ مساحة هذه الجزيرة التى نزل بها عرابى وأصحابه نيفا وخمسة وعشرين ألف ميل مربع، وتكثر بها سلاسل الجبال بالجنوب ويتخللها كثير من السهول الواسعة الخصبة التى تنمو فيها غابات عظيمة وعرة المسالك كثيرة الاحراج والالفاف ... وتبلغ أعلى قمة فيها ٨ آلاف قدم ، ومن أشهر هذه القمم قمة جبل آدم وتبلغ مايزيد عن ٧ آلاف قدم ..

ومناخ الجزيرة استوائى ولكن احاطة البحر بها يلطف حرارتها ، ومن أشهر مدنها كولومبو وهى عاصمتها واهم ثغورها ، ثم جافنا وكندى وكالوتارا ..

والتربة عظيمة الخصوبة وتكثر فيها أشجار الفاكهة والخضر وجوز الهند ويزرع فيها الشاى والبن والارز والقطن والتوابل والطباق ، وتعد سيلان من أعظم حقول الشاى فى العالم ..

ومن حيواناتها الفيلة والنمور والدببة والجاموس والغزلان ، وتكثر فيها أنواع الزواحف وأنماط الطيور

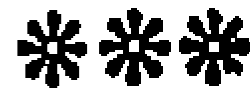
وقد حل بها البرتغاليون منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، والهولنديون منذ منتصف القرن السابع عشر ، وفى سنة ١٧٨٥ امتلكها الانجليز وكانت ملحقة بمدراس ، ثم جعلوا منها مستعمرة قائمة بذاتها سنة ١٨٠١ ..

ومن سكانها الاصليين قبائل السنهاليز ، وأصلهم من الهنود من حوض نهر الكنج وقد حلوا بها منذ القرن السادس قبل الميلاد ولغة هؤلاء أقرب الى الهندية الحديثة وديانتهم البوذية ، ثم قبائل التامل وقد نزحوا اليها من جنوب الهند وديانتهم الهندوكية

ويقطن الجزيرة عدد من المسلمين من أصل عربى او من أصل هندى . وهم من أذكى سكانها وأكثرهم نشاطا

كما أن بها بقايا البرتغاليين والهولنديين وعددا من الاوروبيين من مختلف الاجناس وعددا من أهل جاوة والملايو وغيرهم من الاسيويين

ويقول عرابى فى مذكراته المخطوطة ان تعداد اهلها زمن اقامته بها كان نحو ثلاثة ملايين ، منهم ٢٥٠ ألف مسلم ، وأن السنهاليز والتامل أهل دعة وسكون يكرمون الغريب ويحسنون معاملته ..



ويتحدث عرابى عن نزوله بالجزيرة قائلا : « وفى غروب يوم ٩ يناير سنة ١٨٨٣ دخلت الباخرة الى ميناء ثغر كولومبو بجزيرة سيلان وألقت مرساها فحضر الينا وكيل حكومة سيلان ، وحيانا تحية القدوم ، وابلغ موريس بك (١) بأن الحكومة أعدت أربعة بيوت لذوى العائلات منا وفيها الخدم وكل ما يلزم من أسباب الراحة كالسرر المفروشة اللازمة للنوم والكراسى وأدوات المطبخ والسفرة والدواليب وغير ذلك وذخيرة ثلاثة أشهر ضيافة لنا ، ولكن على حساب مصر ، وثمن تلك الادوات ثلاثة آلاف جنيه ، ثم أمضينا تلك الليلة فى الباخرة المذكورة ، وفى صباح غرة ربيع الاول سنة ١٣٠٠ الموافق ١٠ يناير سنة ١٨٨٣ خرجنا الى البر فوجدنا رصيف الميناء

(١) مرافقهم المنتدب من قبل الحكومة المصرية

مزدحما أيما ازدحام باخواننا المسلمين من أهل الجزيرة المذكورة وأهل جاوه والهند والملايو وأعيان طائفتى التامل والسنهاليز أهل البلاد من عباد الاوثان على مذهب بوذا وكانوا يشيرون الينا بالسلام وزيادة الاحترام

ثم تقدمت لنا العربات فركبنا وتوجهنا الى البيوت المذكورة وكان قد خصص لنا بيت عظيم يسمى « ليك هاوس » ومساحة بستانه ١٤ فدانا وأعظم أشجاره من جوزالهند والموز وغيره ، فتوجهنا اليه والناس مزدحمون

على جانبى الطريق من الميناء الى البيت المذكور يهتفون لنا بالترحيب والاكرام الى أن وصلنا الى المنزل المذكور وأخذنا معنا طلبة باشا عصمت وعبد العال باشا حلمى ليقيما معنا حيث أنهما تركا عائلتيهما بمصر ، وكذلك توجه محمود باشا سامى مع محمود باشا فهمى ليقيما فى منزل واحد لان الاول ترك أهله وأولاده بمصر أيضا ، وانفرد كل من على باشا فهمى ويعقوب باشا سامى فى بيت على حدته لوجود عائلتيهما معهما

ولما دخلنا البيوت المعدة لنا ، أخذت تلك الطوائف تتوافد علينا للسلام بوجوه باشة وقلوب مليئة بالمحبة والحنان ليلا ونهارا »

وكان عدد من رافقوا الزعماء السبعة من الاهل والخدم ٤١ ، وكانوا عند وصولهم كأبناء أسرة واحدة جمعت بينهم المحنة كما جمعت الصداقة من قبل ووثقت الغربة أواصر المحبة ..

وبعد ثلاثة أيام من وصول الزعماء الى الجزيرة أقام لهم كثير من أعيانها وتجارها الولائم ، واشترك فى ذلك المسلمون وزعماء السنهاليز والتامل ، وقد استمرت تلك الولائم بضعة أيام ، وكان يدعى اليها كبار سكان كولومبو ، فعرفوا زعماء المصريين وألفت تلك الاجتماعات بينهم .

وأقام عرابى وأصحابه لهؤلاء وليمة كبيرة وصفها عرابى بقوله : « وبعد ذلك أقمنا وليمة جامعة لاعيان المسلمين والانجليز والتامل والسنهاليز وكان عدد المدعوين اليها ۲۰۰ شخص من مختلف الاجناس والمذاهب ، والمعتقدات .. شكرا لهم على حسن حفاوتهم بنا » .

وكانت الحكومة المصرية قد أرجأت تقرير ما يلزم ثمنا لمعيشة كل من المنفيين حتى تعلم حال الجزيرة من حيث رخص الاسعار أو غلائها ، وفى فبراير سنة ۱۸۸۳ وصل الى الجزيرة حاكم جديد هو السير آرثر جوردن فخاطب الحكومة المصرية فقررت لعرابى ٥٠ جنيها شهريا ولكل من أصحابه ۳۸ جنيها ..

وكان عرابى وأصحابه يقضون أوقاتهم فى القراءة والكتابة ، وتعلم اللغة الانجليزية وفى التزاور بينهم وبين حكام الجزيرة وأعيانها .

وكتب عرابى الى صديقه برودلى كتابا فى ٢٤ يناير سنة ۱۸۸۳ ، كان مما جاء فيه : « وقد لقيتنا السلطات هنا فى الجزيرة بالحفاوة وأعدوا بيوتا لراحتنا وزودونا بقدر كبير من الاطعمة الدسمة التى كفتنا وأسرنا بضعة أيام .. ونجد الجزيرة ملائمة لسكنانا كل الملاءمة بمناخها ، ونعتزم أن نرسل أبناءنا الى المدارس المحلية وأن نتعلم نحن اللغة الانجليزية... ويبعث اليك اخوانى وأبناؤهم خالص مودتهم ، وانى أرجو أن تذكرنا لاخى أحمد بك رفعت اذا كان عندك والى أمك العزيزة التى هى موضع اجلالنا جميعا »

وأبى وفاء بلنت الا أن يزور صديقه فى منفاه ، وقد اضطر أن يبقى بلندن كما رأينا ليدبر وسائل الدفاع عنه فلم يستطع أن يزوره فى مصر

يقول عرابى : « وفى ۲۰ أكتوبر سنة ۱۸۸۳ ، حضر

صديقنا المستر بلنت من انجلترا لزيارتنا وتهنئتنا على نجاتنا من أيدى خصومنا ، وبوصول القطار كولومبو ، هرع جميع سكان الثغر المذكور لاستقباله حيث كانوا على استعداد تام لذلك قبل وصوله ، وقد أخذنا نحن واخواننا وأولادنا زورقا بخاريا وذهبنا الى القطار المذكور ثم صعدنا اليه وحظينا بمقابلته ومقابلة السيدة الفاضلة الليدى آنا بلنت وكان بمعيتهما القس لويس صابونجى ، ثم نزلنا بعد ذلك الى الرفاص وعدنا الى البر والزوارق الاهلية محيطة بنا يهتف من فيها بعبارات الترحيب ويشيرون بأيديهم علامة للسلام والاعظام ..

ولما وصلنا الى البر تكاثرت علينا جموع المحتفين بقدوم السير ولفرد اسكاون بلنت حتى تعسر علينا الوصول الى المركبات ،ولولا تدخل الشرطة لمنع ذلك البحر الزاحف من التكدس حولنا لاضطررنا الى الوقوف فى الميناء الساعات الطوال ...

ثم ركبنا العربات وتوجهنا الى سراى مورجن المعدة لاقامة ذلك الضيف الكريم مدة ضيافته ، وهى كائنة على بعد ثلاثة أميال من الميناء بجهة متوال ، مشرفة على البحر ، وكان الناس مصطفين على جانبى الطريق الموصل الى السراى وهم يحيون المستر بلنت ونحن معه فى المركبة بوجوه باشة وأسارير نضرة حتى وصلنا قصر الضيافة»

وبالغ أهل المدينة فى الحفاوة بضيف عرابى وبزوجته فوضعوا الزينات على الدار التى نزل فيها ، وأقاموا أقواس النصر على مقربة منها وزينوها للناظرين بالاغصان من كل صنف وبالازهار المختلفة الالوان ، وكتبوا عليها بالانجليزية : « مرحبا بالصديق الوفى المستر ولفرد اسكاون بلنت »

وأعدوا له مأدبة كبيرة شهدها أكثر من ٢٠٠ مدعو ،

وخطب بعض الخطباء مرحبين بالضيف العزيز ، وأثنوا على وفائه واخلاصه ، ورد بلنت شاكرا لهم حفاوتهم وشريف احساسهم ...

وأقام بلنت وزوجته بالجزيرة ٢٢ يوما ، وكان لمقامه بين الزعماء أثر طيب ، فقد أخذ قبيل مجيئه يدب دبيب الخلاف بين عرابى وبعض اخوانه وخاصة محمود فهمى باشا الذى استوحش المنفى فاضطربت أعصابه ، وهو فى الحق منذ أن أسلم نفسه للانجليز فى الميدان الشرقى لا يخلص الود لعرابى ، ولعله كان يرجو من وراء ذلك أن يخفف عنه ، فلما نفى مع المنفيين ضاق صدره واخذ يكره عرابى ويرد اليه سبب ما لحقه ...

وأعاد بلنت الوئام بينهم ولم يختلفوا بعدها أبدا ، وان كان محمود فهمى باشا ليخفى فى نفسه ما لايستطيع أن يبديه من السخط والنفور .

وفى شهر نوفمبر سنة ١٨٨٣ زار عرابى فى كولومبو اثنان من اللوردات الانجليز ، هما اللورد روزبرى واللورد ماكدونالد واستطلعا رأيه فى حركة المهدى بالسودان ، وكان يترجم الحوار بينهما محمود فهمى باشا ، فسألا عرابى هل محمد أحمد هو المهدى المنتظر عند المسلمين ؟ وأبدى عرابى دهشته قائلا : وماذا يعنيكم من أمره ؟ فقالا : ان أمره يهم انجلترا فان فى الهند ٦٠ مليونا من المسلمين يعتقدون أن المهدى المنتظر يجمع شتات المسلمين تحت رايته ، وأجاب عرابى بأن كل داع الى الخير والاصلاح هو مهدى ولكنه لا يكون المهدى المنتظر ، وقال اللوردان ان الحكومة الانجليزية أرسلت جيشا مكونا من عشرين ألفا بقيادة هكس وسألا عرابى هل يكفى هذا الجيش للتغلب على المهدى ؟ فقال عرابى : « نحن نرى أن وجود قائد انجليزى على جيش يكون من صالح المهدى

فانه يحكم بكفر المصريين الذين يقاتلون المسلمين تحت قيادة مسيحية ويستبيح قتلهم بسبب هـذه القيادة ؛ واذا استولى على أسلحة هذا الجيش وذخيرته أصبح قويا يخشى جانبه » .

ونصح عرابى بمقابلته فى منتصف الطريق بأن تقيمه مصر أميرا على السودان على أن يكون تابعا للتاج المصرى وتنبأ عرابى باندحار حملة هكس ، وفى اليوم التالى أذاعت البرقيات هلاك الحملة كلها ...

وفى شهر ينـاير سنة ١٨٨٤ زار عرابى فى كولومبو مهراجا سلطنة لاهور ، يقول عرابى : « فلقيناه بما يجب لجلالته من التعظيم والاحترام وكان بمعيته مستشار انجليزى حتى لا ينبس نبسة الا حفظها الرقيب عليه فى حبة قلبه ، وبعـد نصف سـاعة عادا الى دار حكومة سيلان » .

ووردت الى عرابى بكولومبو رسالة خطيرة من المستر بلنت فى أواخر سنة ١٨٨٤ ذكر فيها بلنت أن الحكومة الانجليزية تفكر فى تعيين عرابى سفيرا مؤقتا الى المهدى لرفع الحصار عن غوردون على أن يعزل توفيق ويعين أمير غيره يستطيع الاتفاق مع المهدى ، وأن النية متجهة الى اعادة اسماعيل بشرط أن يكون عرابى رئيسا لوزارته باعتباره زعيم مصر المختـار ، وطلب بلنت رأى عرابى ، فأبرق اليه أنه يرفض ذلك وانه يؤثر المنفى على مثل هذه العودة وهذا الحكم تحت رئاسة اسماعيل الذى لا يشاكل مبادئه وخطته ، وقد أدى مقتل غوردون الى الانصراف بالضرورة عن هذه المسألة ...

وكان لغوردون قبـل ذلك مسـاع لاعادة عرابى الى وطنه ، فقد كتب بلنت فى جريدة «البول مول جازيت» فى ٢٥ أغسطس سنة ١٨٨٧ مقالا جاء فيه قوله : « يجب

ان أشير الى أن الحكومة الانجليــزية أدركت خطــأهــا واعتزمت اصلاح موقفها وذلك بأن تعيد عرابى بعد سنة أو سنتين من نفيه وتساعد على تشكيل الحزب الوطنى من جديد ويؤيد رايى هذا كتاب وصلنى من الجنرال غوردون وانى أسمح لنفسى باذاعة محتوياته لاول مرة ، فقد كتب لى من الكاب يبلغنى بميله وعطفه على عرابى باشا طوال مدة الحرب ولما عاد الى انجلترا فى ديسمبر سنة ١٨٨٢ تفضــل بزيارتى ليــؤكد لى عزم الحكومة ونياتها وها انذا حين رجعت الى مذكراتى التى كتبتها من هذه المقابلة وجدت اننى كتبت فيها : «زارنى الجنرال غوردون وتناول معى الغداء بمنزلى الكائن بشارع جيمس وقد تبين لى انه كان يعطف عطفا تاما على عرابى ابان الحرب وقال الجنرال : انه اتى ليدرس معى أمر انشاء حكومة حرة فى مصر تحت ملاحظة انجلترا » ...

وكانت حياة الزعماء بالجزيرة حياة رتيبة لا تغير فيها ولكنهم لم يشعروا بالملل وذلك لما كان بينهم وبين سكان الجزيرة من صلات الود ومن تبادل المراسلات والزيارات

وفى سنة ١٨٨٨ ، توفى لعرابى ابن فى الثالثة من عمره كان اسمه صالح ، وقد كان مصابا بالدفتريا ، وحزن عليه حزنا شديدا ...

وحدث بعد ذلك سنة ١٨٩١ أن قضى عبد العال باشا حلمى نحبه فى شهر مارس ، وكان لوفاته حزن عميق فى نفوس أصحابه ، ورأوا فى مصيره شبح مصيرهم فعظم عليهم ذلك ، وقد ذكر عرابى نبأ وفاته بقوله : « وفى سنة ١٣١٠ توفى شهيد الوطنية والغربة عبد العال باشا حلمى ودفن فى قرافة قسم مردانة أيضا وضريحه مشهور يزار ، ومن كراماته ما شهدناه من اجتماع اسراب الطير فوق نعشه تسير بسير الجنازة حتى واريناه التراب ،

وقد أخذ العجب من الناس كل مأخذ » .

وفى سنة ١٨٩١ ، زار السير توماس لبتن صاحب مزارع الشاى المعروفة باسمه ، عرابى باشا ودعاه الى زيارة مزارعه على نفقته ، على أن يصحبه من يشاء من اخوانه ، وقد رحب عرابى بهذه الزيارة ترويحا للنفس واستجلاء للجنان من أكداس الصدأ الذى اصطلح عليه

وعين السير توماس اثنين من وكلائه الانجليز لمرافقة عرابى ، ولم يذهب مع عرابى من أصحابه الا على باشا فهمى وكان أشدهم اخلاصا ومحبة له ...

يقول عرابى : « فقمنا من كولومبو ومعنا أخونا على باشا فهمى والوكيلان المذكوران الى مدينة كندى العاصمة القديمة ومقر الحكومة بطريق السكة الحديد فوصلناها بعد أن قطع بنا القطار ٧٢ ميلا ، ومن ثم ركبنا قطارا آخر الى نوراليه وهى آخر محطة للسكة الحديدية ، فبلغناها بعد قطع ٢٠ ميلا ، ومن هناك ركبنا المركبات وصعدنا الى سطح جبل هناك واقمنا ليلتين فى فندق يقال له جراند أوتل ... ولما سمع المسلمون بمقدمنا حضروا لزيارتنا والاحتفال بنا زرافات ووحدانا ... فشكرناهم على حسن ترحيبهم بنا.. وفى اليوم الخامس وصلنا الى دمبتنا وهناك استقبلنا أهلها من المسلمين وغيرهم بكل بشاشة واكرام ، وبعد أن تغدينا فى نزلها امتطينا جيادا كانت معدة لنا وصعدنا الى سراى السير توماس لبتن البعيدة عن النزل بحوالى أربعة أميال..وهناك وجدنا أسباب الراحة متوفرة فأقمنا شهرا كاملا فى ضيافة صديقنا سالف الذكر ... ولايجاد نوع البن اليمنى فى بلادنا المصرية أرسلنا الى صديقنا المرحوم أحمد باشا المنشاوى تقاوى تكفى لزرع ٢٠ فدانا حتى يعم انتشاره ، كما أرسلنا له لهذا الفرض أحسن أنواع

المانجة والموز الاحمر والاصفر المضلع أيضــــا وغيره من الاصناف المتعددة من الفـــاكهة الزكية الرائحة اللذيذة الطعم مما رجوت انتشاره فى مصر ، وبعثنا اليه أيضا بأنواع الحبهان والقرنفل والمنلا الطيبة الرائحة ... ثم زرنا مصانع صديقنا السير لبتن بجهة بيراسيا ومكثنا بها شهرا أيضا » ...

وفى سنة ١٨٩٢، أى بعد نحو عشرسنوات من مجيئه الى كولومبو ، انتقل عرابى الى مدينة كندى ، وسوف يظل بها حتى يعود الى مصر... وقد أمر الحاكم بسفره اليها فى صالونه الخاص بالسكة الحديد ...

وقد سبق عرابى الى مدينة كندى محمود سامى ، ويعقوب باشا سامى وطلبة باشا عصمت ، ثم انتقــل اليها بعد قليل على باشا فهمى ، ولم يبق فى كولومبو غير محمودفهمى باشا وكانقد أصيب بالفالج فىجنبه الايسر

وذهب محمود باشا فهمى الى كندى لتبديل الهواء ونزل ضيفا على محمد عرابى نجل عرابى باشا ، وهناك قضى نحبه فى ١٧ يوليو سنة ١٨٩٤ ...

يقول عرابى : « ومدينة كندى هذه كائنة فى واد ذى ثلاث شعب بين ثلاثة جبال وبها بيت للحاكم ومحكمة نظامية فى بيت ملوك طائفة السنهاليز ... وفى المدينــة المذكورة ضريح للسيد شهاب الدينعلى مرتفع منالارض يصعد اليه بمرتقى نحو ٢٠ سلما ومسجده عظيم متقن وهو حرم المدينة... وهناكمسجد آخر لطائفة الملاى ، وكنيسة للبروتســـتانت وأخرى للكاثوليك ، ومعـــابد لطائفتى السنهاليز والتامل .. ويبلغ تعداد هذه المدينة ٢٠ الف نفس ، منهم نحو ١٠ آلاف من المسلمين وكلهم على مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه » ...

وصار لعرابى مكانة عظيمة بين سكان هذه المدينة ،

وقد سارع المسلمون باستيراد الطرابيش من الخارج ، ولبسها اسـوة به وبأصحابه ، وبلغ من حبهم لعرابى واجلالهم له انهم كانوا يطلقون عدة طلقات من مدفع بجوار المسجد الذى كان يؤدى فيه صلاة الجمعة كل اسبوع

وذهب لعرابى صيت فى الجزر المجاورة مثل ملاديف ولاكاديف وفى الهند وبورما والملايو ، وقد ارسل اليه سلاطين هذه الجهات وبعض مهراجات الهند كثيرا من الهدايا وظلوا على مودته حتى عاد الى مصر ، وكان يستشيره سلطان جاوا فى كل أموره ويعد رأيه دستورا لايمكن نقضه ، ولما كان عرابى ممنوعا من مغادرة الجزيرة كان ينيب عنه بعض أولاده فى اجابة الدعوات التى ترسل اليه ومن ذلك دعوة أمير حيدر أباد فى الهند ودعوات سلطان جاوا وبعض سلاطين الملايو وغيرهم فى جهات كثيرة

وظل بعض أصحاب عرابى وهم قلة قليلة فى مصر على الوفاء له فكانوا يرسلون اليه الكتب ، ومن هؤلاء أحمد باشا المنشاوى ومحمد بك الزمر وخضر بك خضر ، والنجدى بك والشيخ احمد عبد الغنى ، والشيخ محمد خليل الهجرسي وكان منفيا بالحجاز ، وقد ضرب هذا الاخير المثل الاعلى فى الوفاء ، وذلك أنه لما انتهت مدة نفيه وهى خمس سنوات أرسلت اليه الحكومة آذنا بالعودة الى وطنه فرفض أن يعود « حتى يعود عرابى وحتى يموت توفيق أو يتنحى عن عرشه » ...

وداب الشيخ الهجرسى على ارسال كتبه الى عرابى من الحجاز، وكان اذا سمع عن احد رجال الثورة الباقين انحرافا عن مبادئها كتب الى عرابى ليسقطه من حسابه، ويتبين هذا فيما كتبه عن أمين بك الشمسى فقد قابله أثناء الحج فكتب الى عرابى كتابا جاء فيه : « وقد زار المدينة عدة اناس منهم أمين الشمسى الزقازيقى ، وانى

لالتمس من دولتكم ألا تخاطبوه أبدا فى هذه الغربة حتى تنقضى هذه الكربة فانه أسيف على ضياع بعض أمـــواله وتغير بعض أحواله بسبب هذه المسألة ولا أسف له على المهم الاكبر من ضياع القطر وما حل باعظم رجال الدين فى هذا الامر لان أمثاله فى خدمة الدنيا فقط ، أســأل الله الكريم بجاه هذا النبى العظيم أن يردكم الرد الجميل مع الحظ والنصر والسعد الجزيل » ...

وظل على الوفاء له من الانجليز المستر برودلى ، فلم تنقطع رسائله اليه الا بعد وفاته ، وقد ارسل الى أولاده بعد وفاة أبيهم يذكر لهم انه على استعداد لمعاونتهم فى المطالبة برد أملاك أبيهم ..

وكان صديقه بلنت وزوجته آنا بلنت حفيدة اللورد بيرون يرسلان اليه الرسائل المملوءة بالعطف والمودة ، وكانت آنا تكتب العربية فى طلاقة (١)

وكتب له غير هـــذين عدد من المعجبين بحركته من الانجليز وخاصـــة بعض اصحاب الصحف والمجلات ، وكانوا يسالونه كثيرا عن حوادث ثورته ..

وقد ذكر لى احد ابنائه انه علم ممن لا يجهل ولا يكذب ان كثيرا من الرسائل تبادلهـــــا والده ومصطفى كامل فى اول حركتـــه وان فارس نمر باشا حصل على الرســـائل التى كانت لدى مصطفى كامل ...

وفى فبرايرسنة ١٩٠٠ سمحت الحكومة المصرية لطلبه باشا عصمت بالعودة الى مصر حيث ساءت صحتـــه وقررت جمعية من الاطباء وجوب سفره فى تلك السنة ودفن بمدافن الامام الشـافعى

وفى اكتوبرسنة ١٩٠٠ توفى بكندى يعقوب باشا سامى ودفن بجوار قبر محمود باشا فهمى ، وكان قد صدر

(١) بين يدى بعض كتبها الى عرابى بخطها العربى وعبارتها العربية

العفو عنه ولكنه قضى نحبه قبل أن يصل اليه النبأ...

وأصيب محمود باشا سامى البارودى برشح فى القرنيتين أفقده البصر وقرر الاطباء ضرورة عودته الى مصر لمعالجته فى المناخ الذى نشأ فيه ، وعفا عنه الخديو عباس حلمى فعاد الى مصر وردت اليه ممتلكاته المصادرة وجملة ريعها ولكن لم يعد اليه بصره ، وتوفى سنة ١٩٠٤

وقد حدث فى ١٢ مايو سنة ١٩٠١ ، أن زار الجزيرة ولى عهد انجلترا الملك جورج الخامس - فيما بعد - فاستقبل عرابى ورحب به وسأله عن صحته وعن حاله وكانت هذه الزيارة سببا فى عودة عرابى ، ولندع لعرابى أن يصف كيف كانت عودته ، قال : « عرضت على سموه أنى أعتبر تشريفه للجزيرة فكاكا لنا من الاسر فتكرم علينا بأنه سيسعى لدى الخديو فى تحقيق أمنيتنا ، ثم دارت المخابرة بين سموه وبين الحكومة الانجليزية والحكومة المصرية فى هذا الشأن ...

وفى ٢٤ من الشهر المذكور ، جاءنا تلغراف من حاكم الجزيرة يقول فيه انه قادم الى كندى ليبلغنا شخصيا صدور أمر الخديو بالعفو عنا وعودتنا الى وطننا العزيز ، وعند حضوره توجهنا اليه وشكرناه على سعيه وعرضنا عليه أن لنا الحق فى السفر على نفقة الحكومة التى حملتنا الى تلك الجزيرة

وفى اغسطس بارح على فهمى باشا جزيرة سيلان ، وبلغ القاهرة فى أول سبتمبر من السنة المذكورة ...

وفى ٤ سبتمبر بارحنا مدينة كندى صباحا وكان صالون الحاكم معدا لنا فأقلنا القطار الى كولومبو ، أما احتفال أهل كندى بوداعنا فقد كان عظيما حتى غصت أرصفة المحطة بالمودعين وفى مقدمتهم محمد أفندى يوسف والدكتور كيت طبيب عائلتنا وابراهيم لبى وغيرهم ، ولما

وصلنا ثغر كولومبو نزلنا فى منزل صديقنا المحترم كرمجى جعفرجى ، واقمنا به فى انتظار السفينة المسماه برنس هنرى الالمانية الآتية من الصين ، وفى تلك المدة دعينا لتوزيع المكافآت على الناجحين من تلاميذ مدرسة ميردانة الاسلامية التى افتتحت بحضورنا على نفقة المسلمين .

وفى أصيل ٢١ سبتمبر سنة ١٩٠١ الموافق ٦ جمادى الآخرة سنة ١٣١٩ دخلت السفينة البرنس هنرى ميناء كولومبو ، وتغطى وجه الماء بالزوارق والرفاصات ، وتكدست جموع المودعين تكدسا هائلا حتى لم نتمكن من الوصول الى السفينة الا بشق النفس ، وهناك تليت علينا قصائد التوديع من نخبة أهل سيلان ثم سلمت الينا فى محافظ من الفضة الخالصة البديعة الصنع ...

ولما استقر بنا المقام فى السفينة بعد مغادرة تلك الجموع المكتظة بها أقلعت بعد ساعتين باسم الله مجريها ومرساها تمخر فى عرض المحيط الهندى لاول مرة ، وقبلتها كنانة الله العزيز الحكيم ، وكانت حمولتها ١٢٫٠٠٠ طن وسرعة سيرها بنسبة ١٦ عقدة فى الساعة وهى مستوفية لاسباب الراحة وكانت الرياح هادئة ، وبعد قليل غابت شواطىء الجزيرة عن الانظار ...

على هذا النحو مرت الايام والليالى حتى وصلنا خليج عدن والسفينة تتهادى فى مياه البحر الاحمر ... وبعد أن قطعت نحو ثلاثة آلاف ومائتى ميل رست فى ميناء السويس وذلك فى غروب يوم ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣١٩ ، فقضينا تلك الليلة فى السفينة وفى الصباح ودعنا من فيها وخرجنا الى البر ونحن نتنفس الصعداء ونلهج بالدعاء لله سبحانه وتعالى بالوصول الى بلادنا سالمين بعد مرور ١٩ عاما تحملنا فيها آلام الفراق »

العائد الذى نسى

غاب عرابى عن مصر ١٩ عاما ، وأقام بها الاحتلال الذى جاء للقضاء على العصاة فحسب هذه الاعوام التسعة عشر ، وعمل الاحتلال فى هذه السنين الطويلة على مد جذوره وبسط فروعه ، على الرغم من وعوده المتكررة بالجلاء ، بل بفضل هذه الوعود التى لم يكن يقصد بها الا خدعة المسئولين ...

لم تكد تمضى خمسة أشهر على دخول الانجليز مصر حتى تمت لهم السيطرة على الجيش والشرطة ، أما جيش الثورة فقد حله توفيق بجرة قلم كما ذكرنا بتهمة العصيان ، وأحل الاحتلال محله جيشا جديدا هزيلا فى قبضة سردار انجليزى ، ولم يكن للروح المعنوية سبيل الى قلوب رجاله ، بل كان السبيل للرهبة والنظر الى الانجليز نظرة السادة الذين أعادوا للخديو سلطته فهو مدين لهم بكرسيه ، واذا كان « أفندينا » يظهر الخضوع والولاء للانجليز صغارهم وكبارهم ، فكيف بالجند ؟ وبلغ هذا المعنى أقصى مداه فى حادث الحدود فى يناير سنة ١٨٩٤ ، فقد أبدى الخديو ملاحظات على فرقة من الجيش المصرى بقيادة ضابط بريطانى عند وادى حلفا ، وعاب على الجيش سوء نظامه ، فعد السردار اللورد كتشنر كلام الخديو اهانة له ولكرامة

انجلترا ، وكان جزاء الخديو وقد بلغ الفيوم عند عودته الى القاهرة أن منع منعا صريحا من دخول العاصمة الا أن يعلن ثناءه على الجيش وادارته ليكون هـذا بمثابة اعتذار منه ، ولم يجد الخديو بدا من الاذعان ، ثم سمح له بعد ذلك بدخول عاصمته ، وثبت فى نفوس الجند أن سلطة أى ضابط بريطانى أكبر من سـلطة الخديو ، وأن الرقى والاسعاد لمن كان له عند الانجليز حظوة ...

واما الشرطة فقد عين رئيس عام لهم من البريطانيين كان له سلطة الاشراف التام عليهم ...

وسيطر الانجليز على الشئون المـالية ، وذلك بأن الغوا الرقابة الثنائية ، وعينوا مستشـارا عاما ماليـا انجليزيا فى أوائل سنة ١٨٨٣ لا يبرم أمر من الامور يتصل بالمال الا باذنه ...

وقبض الانجليز على ناصية الحكم والادارة ، فـكان لكبار موظفيهم وصغارهم فى الدواوين الكلمة العليا ، والجاه والهيبة ، تكفى كلمة من أحدهم لنقض أى أمـر لاى وزير ، والدليل على ذلك فى هذا البلاغ الذى أصدرته الحكومة البريطانية الى سفيرها فى مصر ليحمله الى شريف باشا بمناسبة اصراره على الاحتفاظ بالسودان : «مادام الاحتلال المؤقت قائما فيلزم أن تكونوا على يقين من أن النصائح التى تزجونها لسمو الخديو وحكومته يؤخذ بها وتنفذ ، ويجب أن يعلم النظار والمديرون صراحة ، أنه ما دامت انجلترا مضطلعة بالمسئولية فى مصر ، فان حكومة جلالة الملكة لابد أن تطمئن الى تنفيذ سياستها المرسومة والا وجب على النظـار والمديرين أن يتركوا كراسيهم .»

أما الدستور فيا أسفا عليه ، قد الغاه الاحتلال وأحل

محله فى مايو سنة ١٨٨٣ ما عرف بالقانون النظامى ، وبمقتضاه أنشىء مجلس شورى القوانين وأنشئت الجمعية العمومية ، وهما هيئتان لا سلطة لهما ولا شبه سلطة الغرض منهما خداع الامة بأن لها مجلسين ، بدلا من مجلس واحد ، وشتان بين هـذين وبين ذلك المجلس النيابى الذى كانت الوزارة مسئولة أمامه والذى وضعت وزارة البارودى أو وزارة الثورة دستوره ، فجعلت به الامة مصدر السلطات كما هو الحال فى الدساتير الحديثة

هكذا قضى الاحتلال على كل شيء ، وجعل همه بث هيبة انجلترا فى نفوس المصريين والقضاء فى عنف على أية محاولة لبعث الروح الوطنية مهما كان من ضآلتها ، وألقيت مقاليد الامور الى كرومر أحد بناة الامبراطورية وأحد أساطين الاستعمار ...

وكان دعاة الاحتلال والسنته يلقون فى روع الناس أن حركة عرابى لم تكن الا عصيانا أهوج بعثه الطمع الشخصى ، وانه لولا أن تداركت انجلترا البلاد من فوضى هذا العصيان الاحمق للحق بها الهلاك ...

وثبت فى أذهان ناشئة الجيل الذى أعقب الاحتلال أن عرابى هو سبب النكبة وان « هوجة » عرابى هى التى جلبت الاحتلال ، ومما يؤسف له حقا أشد الاسف أن بعض المصريين ما يزالون حتى الآن يرددون هذا الكلام

وشاع الانحلال القومى فى الامة ، وماتت روح المقاومة وخيل للناس أن الاحتلال قوة لا تقاوم أبدا وأن هؤلاء الانجليز المتسلطون لن يغلبهم غالب ...

وفى هذا الجو الكئيب وصل أحمد عرابى باشا زعيم الثورة القومية الى مصر ، فلم يجد أحدا من الجيل الناشىء يذكره ويذكر ثورته الا بالسوء من القول ، ولولا بقية ممن شهدوا الثورة وعرفوا حقيقة أمرها ، ما لقيه

فى مصر أحد ...

يقول عرابى بعد أن وصل السويس : « وهناك نزلنا فى منزل الشيخ البخارى ، بعد أن كتبنا الى محافظ البندر مصطفى بك ماهر الذى كان من تلاميذ السيد عبد الله نديم وكان معروفا بحبه للحرية والوطنيــة ، فأنكرنا واعرض عنا ولم يرد علينا ، فأرسلنا برقية الى قائمقام الحضرة الخديوية فخرى باشا (١) فكتب الى مصلحة السكك الحديدية بحجز صالون لنزولنا وعائلتنا ومن معنا من السويس الى القاهرة على نفقة الحكومة.. وفى ١٦ جمادى الآخرة سنة ١٣١٩ الموافق أول أكتوبر سنة ١٩٠١ ، برحنا السويس ووصلنا القاهرة قبيل الغروب، وكان ازدحام الناس لتوديعنا فى محطة السويس عظيما ، وكذلك عند استقبالنا فى الزقازيق ، وبنها ، وخاصة فى القاهرة ، فان ازدحام الناس بلغ أشده ، بالرغم من اعلان المحافظة بعدم التجمهر والاحتفاء ...

ولما نزلنا فى محطة القاهرة أخذنا المركبات الى منزل أولادى الكائن بشارع الملك الناصر فى شارع خيرت ، واجتمعنا بهم بعد غياب ١٩ عاما و ٤ أشهر » ...

وعاش عرابى فى منزل أولاده بشارع خيرت كما يعيش عامة الناس ، الرجل الذى كانت مصر كلها فى قبضته ، والذى خلعت الامة طاعة الخديو لتطيعه فى الدفاع عن وطنه ، والذى أيده السلطان وراسله ، والذى لم تجد انجلترا بدا من اعداد حملة تحاربه وتحارب مصر المتوثبة فى شخصه ...

وكانت جريدة « اللواء » تناصر عباس فرأت أن تتلقى عرابى لقاء كريها ابتغاء مرضاته ، كما رأى شوقى شاعر

(١) كان الخديو بأوروبا وتصادف انه وصل الى الاسكندرية فى اليوم الذى وصل فيه عرابى الى السويس

الامير ان يهجو الزعيم العائد تزلفا الى الامير وعملا بسنة قديمة للشعراء ، مؤداها أن يمتدح الشاعر من يرضى عنه أميره وأن يذم من يغضب عليه ذلك الامير دون أن يكون بين الشاعر وبين من يمدح أو يذم أية صلة ...

وقالت جريدة « اللواء » وهى تعلم أنها كاذبة فيما تقول : أن اللورد كرومر جاء بنفسه الى محطة القاهرة لاستقبال عرابى وذلك لتلقى فى روع الناس أن عرابى من صنائع الانجليز ...

ونشر شوقى قصيدة قال فى مطلعها :

صغار فى الذهاب وفى الاياب أهذا كل شأنك ياعرابى؟

وفى مثل هذا الهذر من شاعر الامير صورة من أخلاقه وصورة من روح العصر كله ، ودليل على ما نقوله من اجتماع عوامل كثيرة على تشويه سيرة عرابى ، كان القصر أيام توفيق وأيام ابنه عباس من أهمها ...

ولو صدقت جريدة « اللواء » لخف الى المحطة مع كرومر مئات من المصريين للقاء عرابى والحفاوة به لا ليظهروا له مودتهم، ولكن ليظهروا تملقهم لعميد الاحتلال صاحب القوة والجاه فى مصر ...

قال عرابى : « غير أن رجوعنا الى وطننا العزيز لم يرق فى نظر خصومنا الجهلاء ظنا منهم أننا بعنا ذلك الوطن للانجليز على اتفاق بيننا وبينهم ، فأوعزوا الى بعض الجرائد المأجورة ، وفى مقدمتها جريدة « اللواء » بالتنديد بنا ، والخروج علينا بألسنتها فوجهت الينا سهام جهلها وضغنها »

ولولا أن انجلترا قد وثقت كل الثقة من أن عودة عرابى لن تسبب لها متاعب فى مصر ما أعادته ...

ولم يكن عرابى ليستطيع بعد أن بسط الاحتلال سلطانه على هذه الصورة أن يعيد حياته سيرتها الاولى

من الجهاد والعناد ، فان الرماد الكثيف يطمر الجمرات التى اشعلها بالامس وجعل نارها تتأجج ...

وستبقى هذه الجمرات تحت الرماد حتى يهيىء الله لها زعيما فلاحا آخر ، هو سعد زغلول فما هو الا أن ينفخ فيها من روحه القوية حتى تنبعث جبارة عاتية لا يطفئها طغيان ...

وسوف تكون ثورة سعد فى تاريخ مصر هى البعث لثورة عرابى وتكملتها ، فعلى يد سعد تعود القومية المصرية التى بدأها عرابى ، وعلى يد سعد يخذل الاحتلال الذى خنق ثورة عرابى ، وعلى يد سعد يبعث الدستور الذى هتف به فى مسمع الزمن أحمد عرابى حين واجه توفيق يوم عابدين بأنه جاء يتكلم باسم الامة التى تطلب الدستور ، ولا ترضى غيره قاعدة للحكم ...

غريب في الوطن

رأى عرابى وقد أصدر الخديو عفوه عنه أن أدب اللياقة يقضي عليه أن يتقدم اليه بالشكر ، وقد تصادف كما ذكرنا أن بلغ عباس الاسكندرية عائدا من احدى رحلاته فى اليوم الذى بلغ عرابى فيه السويس عائدا من منفاه ، فأبرق الى القصر يعبر عن شكره للخديو ويهنئه بسلامة العودة ويستأذن فى المثول بين يديه ... ولكنه لم يظفر من القصر حتى بالرد عليه ..

وزار عرابى الوزراء فى بيوتهم ، فلم يرد أحدهم له الزيارة ، وقد تألم عرابى لذلك كثيرا ، اذ أنه ما زارهم الا لان الواجب يقضى بذلك ، قال فى مذكراته : « وما فعلت ذلك الا قياما بالواجب » .

وخشى كبار الموظفين الاتصال بعرابى ، والا أغضبوا الخديو ، وكذلك أصدر كرومر أوامره للوزراء الا يتصل به أحد خشية أن يستغل اسمه فى تنبيه الاذهان الى مذلة الاحتلال ، كما أشار الى ذلك بلنت فى بعض مذكراته ... وهكذا يعامل عرابى معاملة من أساء الى وطنه ، وليس فى مصر حينذاك من أحسن الى مصر مثله

واحس عرابى انه غريب فى وطنه ، فقد أنكره أكثر من كانوا يلتفون حوله ابان سلطانه ، ومنهم من كان يود لو وجه اليه حينذاك عرابى نظرة ، أو حياه بتحية

ولولا بقية من أولى الفضل والاباء ممن كان الوفاء فيهم طبعا لضاق عرابى بالحياة فى وطنه وفضل عليها حياته فى المنفى ، وكان فى مقدمة هؤلاء الذين تنكروا له على فهمى باشا زميله فى الثورة وفى المنفى ، وابراهيم فوزى باشا مامور ضبط القاهرة ابان الثورة ، والشيخ محمد خليل الهجرسى الصديق الوفى ، والزبير باشا ، ومحمد بك الزمر ، والسيد باشا شكرى المهندس واحمد بك ناشد مدير الشرقية فى اثناء الحرب ، ورزق حجازى بك من رجال الثورة ، وعبد الحميد باشا العبادى ، واحمد حمدى باشا ، والشاعر حافظ بك ابراهيم ، والدكتور محجوب ثابت ، ومحمد بك أبوشادى المحامى وعلى بك آصف ، ونفر قليل مما كانوا يجلسون عرابى ويحبونه ...

ومما يؤسف له أن البارودى لم يزره الا بعد عودته بأسبوع ، ثم انقطع عنه ولم يزره بعدها أبدا ... وفى أكتوبر سنة ١٩٠١ جاء صديقه المستر بلنت الى مصر، وزاره فى منزله ، وكان يزوره دائما كلما جاء الى مصر ، وفى ٢٤ من هذا الشهر جمع بلنت بينه وبين الشيخ محمد عبده بحديقته بالشيخ عبيد وقد شهد هذا اللقاء على باشا فهمى .

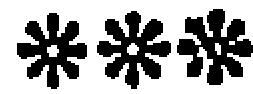
وتعانق الزعيم الشيخ ، والاستاذ الامام عند اللقاء ، وقد اجتمعت ذكريات الثورة فى هذه اللحظة ، ولكن عرابى ما لبث أن أغلظ للامام فى القول حين تشعب الحديث الى الثورة وحوادثها ولامه على مصانعته الخديو فى بعض ما كتب ...

وكان عرابى يؤدى صلاة الجمعة فى جامع الرماح بالناصرية ، أو بمسجد السيدة زينب ، أو بمسجد الحسين رضى الله عنهما ، وكان يتزاحم عليه الناس

لرؤيته والسلام عليه ...

وقد حدثنى كثيرون ممن رأوه فى تلك الايام ، فقالوا انهم لن ينسوا قامته الطويلة ولا لحيته البيضاء ولا وجهه الذى تنبعث منه هيبة شديدة ويشع منه الايمان والورع فى وقت واحد ، ولا مسبحته التى كانت لاتفارق يده ، ولن ينسوا اقبال الناس عليه كلما رأوه واشارتهم اليه ، وتزاحمهم لرؤيته اذا كان جالسا فى دكان ، او فى مسجد ، وقولهم : هذا هو عرابى ، وسؤال بعضهم بعضا : هل رأيت عرابى ؟ ها هو ذا عرابى ...

وكان عرابى يخرج أصيل كل يوم فى فصل الصيف للرياضة ، فيذهب فى عربته الى الجزيرة أو شارع الهرم فيقضى ساعة أو بعض ساعة ، وكان وجهاء المدينة فى الشوارع التى يمر بها ينهضون وقوفا اذا مر بهم وهم جلوس أمام منازلهم حسب عادة الناس فى تلك الايام ويحيونه برفع أيديهم الى رؤوسهم اجلالا له ، وكان يرد عليهم تحياتهم شاكرا لهم جميل صنعهم ...



وكان من أشد ما يتألم منه عرابى وهو مقيم مع أولاده بعمارة البابلى بشارع خيرت ، ضيق ذات يده ، فان المعاش لم يكن يكفيه هو وأسرته الكثيرة العدد ...

وحق للرجل أن يتالم ، فقد كان من الجحود أن يظل هذا الزعيم محروما من أملاكه التى حللها الله له ، فيعيش وهو الابى الكريم حياة المعسرين ، وقد كانت مصر كلها طوع يمينه ذات يوم ... وذلك ما كان يبث فى نفسه الشعور بالغربة فى وطنه ، فهل هذا جزاء ما قدمت يداه من خير لهذا الوطن ، وما بذل من جهود فى سبيل اصلاحه والنهوض به ؟

وقضى عرابى أياما كانت شديدة الوطأة عليه ؛

يحسبه الجاهلون غنيا من التعفف ، وانه ليقـاسى مما هو فيه العذاب الاليم ...

وكتب عرابى للخديو ، يرجو منه رفع هـذا الحيف عنه ، فما رجع من كتابته بطائل ، ولم يظفر حتى برد ، وكتب للحكومة فأعرضت عنه أشـد أعراض ، وكانت حجته فى تلك المكاتبات أن مصـادرة أملاكه لا تتفق مع العدالة ولا مع الشرع لانه لم يصدر بناء على حكم شرعى ثم ان العفو صدر عنه فرجع الى وطنه ، فلم يكن العفو ناقصا لا يشمل العقوبة كلها ؟

وكان يكرر عرابى ما أورده على أنه حديث وهو : « مال المسلم على المسلم حرام » ...

ونسى عرابى ، أو لعله تناسى أن العفو عنه لم يكن بارادة عباس ، وانما كان بشفاعة ولى عهد انجلترا ، وهى شفاعة لا ترد ، ولو أنها شملت اعادة ما أخذ منه لاعيد اليه دون أن ينقص درهما واحدا ...

واشتكى عرابى الى من كانوا السبب فى نفيه ، ولكن الانجليز كانوا يحيلونه على الحكومة المصرية قائلين : انهم لا يستطيعون التدخل فى مسألة هى من اختصاص الحكومة المصرية ، وذلك هو دابهم ، يتدخلون فى كل شىء تقضى مصلحتهم بالتدخل فيه ويحتجون حين لايريدون التدخل فى أمر بأن ذلك من اختصاص الحكومة المصرية ...

والواقع أن مصادرة ممتلكات عرابى وأصحابه على الصورة التى تمت بها لا تستند الى شىء من القانون أو الشرع فالمعروف أن تباع أملاكه ويؤدى اليه ثمنها ، أما أن تؤخذ هكذا بغير حكم قضائى وليست وفاء لدين أو تعويضا عن مال سلب ، فهذا ما لم يسبق به حكم فى مصر ولا فى غير مصر ...

ولقـــد يئس عرابى من اقناع أولى الامر برد حقـــه المغتصب ، يقول فى مذكراته : « ومن حيث أن الحكومة المصرية لا تريد أن تسمع الحق ، ولا ترد على من يتظلم اليها أو هى لا تقدر على الاجابة ولا على أى عمل ضد ارادة الانجليز ، كما أن الحكومة الانجليزية لا تريد أن تتوسط فى اقامة العـــــدل ودحض الظلم ورد امـــلاكى المنهوبة بقوة الاحتلال وتحيل شكواى على حكومة سمو الخديو وهى لا تقدر على عمل ما بدون أمر الانجليز ، فقد تركت لاولادى وحفدتى من بعدى وذريتى جيلا بعد جيل الحق فى المطـــالبة بحقـــوقى وأملاكى المنهوبة من الحكومة المصرية ومن المجلس النيـــابى المصرى حـــين تسترد الامة حريتهـــا واستقلالهـــا ومجلسها النيابى ، وانى واثق بأن أمتى المصرية الكريمة لن تنسانى ، ولن تترك أولادى حين يأتى اليوم الذى تعرف فيه حقيقـــة أعمالى الوطنية الواجبة على كل وطنى حر » .

ونحن نقول : انه قد حان أن تنصف مصر عرابى وأن تعرف حقيقة أعماله الوطنية كما يقول ، ولقـــد دأب أبناؤه عملا بوصية أبيهم ورغبة فى الوصول الى حقهم المهضوم ، بالشـــكوى الى ولاة الامور منـــذ أن تألفت الوزارة الوطنية الثانية برئاسة الزعيم القومى الثانى ، سعد زغلول ، ولئن حالت دون احقاق هذا الحق مشاغل وظروف لا داعى لتفصيلها الآن فانا نحسب أن الوقت الذى ترد مصر فيه الجميل لعرابى هو هذا الوقت الذى تقتلع فيه ما بقى من جذور الاحتلال . . .

ويسرنا أن نثبت فى هذا التاريخ آخر خطوة رسمية حتى يومنا هذا ، فقد تقدمت اللجنة المالية الى مجلس الوزراء فى صيف سنة ١٩٤٧ بمذكرة جاء فيها : « وقد استخرجت مصلحة الاملاك بيانا عن مساحة هذه الاملاك

من الملفات المحفوظة ، فوجدت أنها ١٢ س ، ٦٩ ط ، ٤٦١ ف ، وقدرت ثمنها حسب الاسعار الحالية بمبلغ ٤٢٢ر٤٨٦٦١ جنيها .

وقد طالب ورثة عرابى باشا مرارا وتكرارا باعادة أملاك مورثهم اليهم . تلك الاملاك التى يقدرونها بتسعمائة فدان ، الا أن هذه المطالبات كان نصيبها الحفظ فى ٢٤ مارس سنة ١٩٣٨ ، ٢ يوليو سنة ١٩٤٠ ، ٢٧ مايو سنة ١٩٤٢ » .

ومن أجمل ما ذكرته اللجنة المالية قولها :

« وتذكر وزارة المالية أن مسألة اعادة املاك احمد عرابى باشا المصادرة ، الى ورثته يجب أن ينظر اليها بمنظار اليوم ، لا بمنظار الامس الذى انقضى بآثاره ونتائجه وتقادم عهده وانقضى عليه زهاء ثلثى قرن ، تعاقبت فيها أجيال وتغيرت فيها النظريات والعقائد ، واصبح ينظر الى الثورة العرابية بأنها كانت حركة وطنية صميمة فى مصريتها ، نبيلة فى أغراضها ، سامية فى مقاصدها ، وقد دافع عرابى باشا عن المبادىء والحريات التى يحارب من أجلها العالم الآن والتى يضحى لها بالملايين من البشر ، وان النظرة الحديثة الى عقوبة مصادرة الاملاك لا تعتبرها عقوبة عادلة رادعة ، كما كان يؤخذ بها فى العصور الماضية ، بل عقوبة متعدية الى غير الشخص المقصود بذاته ، الى ورثته الابرياء الذين لم يقدموا على جرم أو يقترفوا ذنبا يستحقون عليه الحكم بالفقر ، والعوز ، والحرمان » .

قضى الزعيم نحبه

على تلك الحال التي ذكرنا قضى عرابى أيامه فى مصر بعد عودته من المنفى ، يتلقى أصحابه فى منزله ويزورهم فى منازلهم ، وكانوا يتجاذبون ذكريات الماضى ويألمون مما آلت اليه مصر من حكم المستعمرين لها وقضائهم على دستورها ، وكان هؤلاء الاخوان يحدثون عرابى عن عباس وكيف أخذ يناهض الاحتلال حتى اذله كرومر وأرغمه على مصانعة الاحتلال ، وعن تخاذل النفوس أيام أن كان عرابى فى منفاه ، وكان الاسى يرمض جوانح هؤلاء الذين خاضوا غمار الثورة وشعروا بالعزة القومية قبل الاحتلال ، وهم لايملكون اليوم الا أن يسألوا الله أن يجعل لمصر مخرجا مما هى فيه ...

وكان عرابى فى أواخر أيامه يكثر من تلاوة القرآن ، ويحرص على أن يؤدى أبناؤه الصلوات فى أوقاتها وكان يؤمهم ويحرم على الذكور منهم التحلى بأية حلية ذهبية ويحفظهم القرآن الكريم ، وقد قرأ عليه أحدهم نهج البلاغة وهو غلام ، وكان يحبذ لهم الجد والاحتشام ، ومن ذلك أنه غضب على اكبر أبنائه لانه حلق لحيته ولم يرض عنه حتى أطلقها مرة ثانية ...

وكان عرابى يتألم كلما سمع الناس يثنون على حركته القومية ويعدونها الخطوة الاولى لما بعدها من نهوض ،

كما كان يتألم جدا اذا علم ان الجيل الناشيء يجهل هذه الحركة التى لم تجد دفاعا عنها ، والتى عمل الاحتلال على أن يصورها صورة بعيدة كل البعد عن حقيقتها .
حدثنى أحد أبنائه أن أباه قال له ذات مرة غاضبا لما رآه من جهل الجيل الجديد بحركته : ان هذه الحركة سوف يقيض الله لها من يفهمها حق الفهم من أبناء الجيل القادم الذين يفطنون الى ألاعيب الاحتلال وتثور نفوسهم عليه وحينئذ يعرفون ما فعلناه من أجل الوطن ويعملون على هذا الطريق ...

***

والحق أن الاحتلال قد أضل الناس كثيرا عن ثورة عرابى ، وساعد الاحتلال عدة عوامل ، منها الخوف ، والجهل ، وعدم التمكن من نشر شيىء عن هذه الثورة بقصد الدفاع عنها ، لان هذا يغضب الاحتلال من جهة ويغضب الخديو من جهة أخرى ، اذ كان عباس يحقد أشد الحقد على عرابى معتقدا أنه أراد يوما ان يخلع أباه ويقيم حليما بدله .

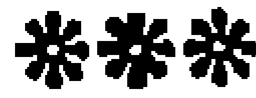
وكان الاحتلال ينشر فى مدارسنا أن عرابى جاهل ، أحمق ، مغرور ، ساق البلاد الى الفتنة والخراب
ولم ينصف عرابى الا صديقه بلنت حين نشر سنة ١٩٠٧ كتابه « التاريخ السرى للاحتلال البريطانى لمصر» ولكن هذا الكتاب لم يقرأه الا عدد من الانجليز ، فلم يكن له أثر يذكر فى مصر ...

وكل ما استطاع عرابى أن يفعله للدفاع عن نفسه وعن قضية الوطن هو أنه كتب لبلنت بناء على طلبه ، تاريخا موجزا لحياته وحركته سلمه اليه الشيخ عبيد فى ٢٦ مارس سنة ١٩٠٣ فنشره بلنت فى آخر كتابه عند طبعه ..

ظل عرابى حتى السنوات الاخيرة من عمره مرتفع الهامة منتصب القامة حتى أشرف على السبعين وهو قوى البدن جم النشاط ، الى أن أصيب بمرض أقعده ذلك هو السرطان الذى اصابه فى المثانة ...

وتولى علاجه ثلاثة من الاطباء هم : أحمد بك عيسى ومحجوب ثابت ، وانيس أنسى ، ولكن هذا الداء قد استعصى على العلاج ...

وكان عرابى قد دون مذكراته عن الثورة فى ثلاث كراسات كبيرة (١) تكلم فيها عن حوادث الثورة جميعا ، فلم يترك ناحية منها الا ذكرها .. وقد حرص على كتابة ثلاث صور منها ، احداها محفوظة بدار الكتب المصرية ، والثانية والثالثة لدى أبنائه ..



وفى ٢٦ يوليو سنة ١٩١٠ فرغ من كتابة هذه المذكرات وقد اختتمها بذكر جميع من فتحوا مصر وتغلبوا عليها منذ عهد الفراعنة حتى الاحتلال البريطانى ووضح كيف تخلصت مصر منهم جميعا ، ثم قال : « فعلى الجيل الجديد أن يجد ويجتهد ويعمل ليلا ونهارا على استرداد مجده واستقلاله وحريته المسلوبة منه ومطالبة الانجليز بالجلاء حتى ينكشف عنه هذا البلاء ، ثم أنى أدعو الشعب المصرى ألا يقلد التمدن الاوربى المزيف حتى لايرتكب المنكرات التي نهى الله عنها وأن يأمر بالمعروف الذى أمر الله به ، وأن يترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن وأن يقيم شعائر الدين الحنيف ويحيى مناسكه ، فلا عز ولا انتصار بغير الدين وهو وحده يكفل لمن اتبعه باخلاص هناء الدنيا وثواب الآخرة ، ثم أناشدهم أن يشدوا أواصر الاخاء بين أبناء وطنهم وينزعوا ما فى

(١) طبع الجزء الاول منها بعنوان : كشف الستار عن سر الاسرار

قلوبهم من غل وضغينة ويعملوا يدا واحدة وقلبا واحدا لرفع شأن بلادهم واعزاز كلمة دينهم ، فاذا فعلتم كل ما ذكرت وأرهفتم آذانكم للسمع وأصختم الى نصائح حكيم مجرب ، عندئذ يخرج الله أعداءكم ويولى عليكم خياركم والله على كل شيء قدير » ...

وفى ٢٠ سبتمبر سنة ١٩١١ اشتدت وطأة المرض على الزعيم الشيخ وكان قد انتقل الى منزل فى المنيرة فأوصى أولاده بنشر مذكراته مهما قابلهم من عقبات ليعلم الناس حقيقة أعماله وما أراده من الخير لوطنه ، وأن يلحوا على المطالبة بحقهم حتى ينالوه ...

***

وغاب الزعيم الشيخ عن وعيه ٣٦ ساعة لم يتكلم فيها أو يفتح عينيه أو يدرى شيئا مما حوله ، ثم وافاه الاجل المحتوم فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩١١ الموافق ٢٧ رمضان سنة ١٣٢٩ ، فأصبح فى ذمة الله وسجل التاريخ

ولم يكن لدى أولاده من المال ما يكفى لتجهيزه ودفنه فاضطروا الى عدم اعلان نبأ وفاته حتى اليوم التالى ، حتى قبضوا معاشه ، اذ صرفت وزارة المالية المرتبات والمعاشات فى هذا اليوم بمناسبة عيد الفطر المبارك ...

ولم يشيعه الى مقره الاخير رجل رسمى واحد ، أو يحضر فى مأتمه ، ولكن مصر الوفية التى طغى عليها الاحتلال فتباعدت عنه فى حياته ، أبت الا ان تكرمه ميتا فأحاط بنعشه الالوف من أبنائها وتألفت من هؤلاء جنازة شعبية عظيمة سارت فى صمت وخشوع من داره بالمنيرة حتى قبره بالامام الشافعى حيث اهيل عليه التراب ، بين ترحم المترحمين وبكاء الباكين ...

وستنقضى العصور والاعوام ، ويبقى فى أذهان بنى الاجيال القادمة أن أحمد عرابى كان زعيم القومية المصرية الاول وكان الفلاح المصرى الاول الذى دعا الى حرية

قومه وحارب فى سبيلها ونفى وذاق ألم الفاقة والحرمان من أجل مصر ، وكان صاحب الصيحة الاولى وصاحب الخطوة الاولى فى سبيل الكرامة القومية والنهوض بمصر على أساس الدستور والحرية ، جزى الله عرابى جزاء المحسنين عن امته وأسكنه فسيح جناته ...

فهرس

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

هذا الكتاب

فى الشهر الماضى ظهر القسم الاول من كتاب « احمد عرابى الزعيم المفترى عليه » وهذا هو القسم الثانى من الكتاب الذى الفه المرحوم محمود الخفيف . ومحمود الخفيف هو شـــاعر وناقد ومؤرخ من كبار الادباء والكتاب الذين ظهروا فى بلادنا بعد ثورة ١٩١٩ . وهذا الكتاب الذى نقدمه هو نموذج لفكر هذا الكاتب الكبير واسلوبه . وقد صدر هذا الكتاب فى طبعته الاولى قبل الثورة واثار غضب الملك فاروق والسلطة الحاكمة آنذاك .. لقد اثارهم ان مؤلف الكتاب دافع فيه دفاعا علميا وعاطفيا مجيدا عن احمد عرابى حيث جعل شعار كتابه عندما كان ينشره مسلسلا فى مجلة الرسالة القديمة : « اما آن للتاريخ ان ينصف هـــذا الزعيم الفلاح ؟! » . ولذلك اتجهت السلطات الحاكمة فى ذلك الحين الى تشريد مؤلف الكتاب محمود الخفيف ، وكان موظفا كبيرا فى وزارة المعارف ، فصـــدرت قرارات عديدة بنقله من مكان الى مكان بقصـــد ازعاجه وارباك حياته ، كما كان معروفا لدى الجميع أنه من « المغضوب عليهم » من السلطات مما جعله يعيش فى ظروف معنوية ومادية صعبة . ولقد كان محمود الخفيف كاتبا لامعا ، ولعله أبرز كتاب التراجم الادبية والتاريخية فى مكتبتنا العربية المعاصرة كلها ، فقد كتب عن «تولستوى» و « ملتن » و « لينكولن » وكتب هذا الكتاب الرائع الذى نقدمه اليوم الى القراء العرب فى كل مكان قسمه الثانى والاخير . ولكن محمـــود الخفيف لم ياخذ حقه الادبى الكامل بسبب الحـــرب التى واجهته فى حياته وبسبب انصرافه الكامل للعمل الفكرى والثقـــافى وانصرافه عـــن الحياة الاجتماعية والعلاقات العامة . وكتابات محمود الخفيف ــ كما سوف يظهر للقارىء بوضـــوح من خلال هذا الكتـــاب الهـــام ــ تتميز بالثقافة الواسعة وبالاسلوب الممتع ، فقد كان الى جانب ثقافته العلميـــة والتاريخية شاعرا ، كذلك يتضح لنا ايضا من هذا الكتاب بالذات . بقظة ضميره القومى بصورة رائعة ، ففى هذا الكتاب وثيقة هامة من وثائق الدفاع عن عرابى بل لعلها الوثيقة الوحيدة التى كتبت بهـــذا العمق والشمول ، وعرابى زعيم ظلمه الكثـــيرون ، وعلى رأسهم المؤرخ الكبير عبـــد الرحمن الرافعى ... فجاء كتاب محمود الخفيف لينصفه بالحق والعلم ، وليقدم نموذجا رائعا للكتابة التاريخية ... كيف يمكن أن تصبح هذه الكتابة علما راقيا وادبا رفيعا فى نفس الوقت .

١٥ قرشـــا

كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

يوميات فنان في باريس ١٩٣٨

فتوح نشاطي

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : يوسف السباعي

رئيس التحرير : صالح جودت

العدد ٢٤٧ جمادى الآخرة ١٣٩١ اغسطس ١٩٧١

No. 247 — Aout 1971

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عدداً) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ – فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات أمريكية أو ٢ جك – والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج. ع. م.) – والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى – وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

كتاب الهلال

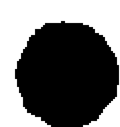


سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشـــــة
الفنان حلمى التونى

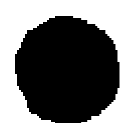
يوميات

فنان في باريس ١٩٣٨



بقلم :

فتوح نشاطى



دار الهلال

يناير

اول يناير سنة ١٩٣٨ :

مضينا ليلة ليلاء فى مقهى الكوبول ، أنا والزميل صالح الشيتى وتناولنا من اكواب الشمبانيا ما «برجل» رؤوسنا وان لم يمنع هذا الاخ صالح من رسم الوجوه العابرة وقد تقدمت منا فتاه من أهل الشمال واطرت ذوق صاحبى على رسومه وخاصة على ملابسه التى امتازت بألوان الكناريا فمن ربطة عنق حمراء الى سترة خضراء الى سروال بنى اللون الى حذاء اصفر ، ثم طلبت منى ان أراقصها فاعتذرت بعدم اتقانى الرقص فأشارت على صاحبة لها أن تراقص صالح وشدتنى الى حلبة الرقص وأنا أكاد أذوب خجلا وما هى الا رقصة والثانية حتى كنا نرقص مع آلاف الراقصين تحت الثريات المضيئة وفى جو الاعياد وقد شعرت انى انتقلت الى عالم سحرى كله جمال ومرح وتناسيت احتقارى السابق كأديب للرقص والراقصين .

٢ يناير :

انى الزم غرفتى بالفندق وقد استغرقتنى مطالعة

كتاب « وردة » لعالم المصرلوجيا ايبرس ترجمة محمد مسعود .

٣ يناير :

حضرت تدريبا على مسرحية « نيكوميد » لكورنيل في مسرح الاوديون .

تسلمت رسالة من عزيزي الدكتور ابراهيم ناجي مليئة برقته وشاعريته وبتلك الطيبة الفريدة التي يسميها شكسبير « لبن الحنان الانساني » .

استمعت في السوربون الى محاضرة عن السياسة الانجليزية الفرنسية ما بين سنوات ١٨٩٢ — ١٩١٤ وعن الاسس والمقدمات التي دعت الدولتين الى تجميع مصالحهما وقواتهما أمام التهديد العارم الذى تلوح به القوة الالمانية الصاعدة .

شاهدت جريتا جاربو فى « الكاميليا » ما أروعها ! لقد أثرت فى أبلغ تأثير ! وان كان الفيلم لم يهيىء لنا الجو الرومانسى الذى اراده اسكندر ديماس الابن . فالاداء و «التون» والحركة والمواقف المصطنعة تحمل الطابع الامريكى الصارخ ، على ان هذا لا يمنع من أن روبرت تيلور جميل كأبولون وأن جريتا جاربو رائعة الى أبعد غايات الفن الانسانى .

٤ يناير :

تسلمت رسالة قصيرة من الصديق زكى طليمات وحضرت حصة جورج فيتراى عند جاستون باتى .

شاهدت مسرحية « أسمودية » فى الكوميدى فرانسيز . وأسمودية شخص شيطانى جعله الكاتب الفرنسى « ليساج » بطلا لقصته الذائعة الصيت

« الشيطان الاعرج » وجعل هوايته الاثيرة نزع سقوف المنازل ليشهد ما يجرى بداخلها . أما مسرحية فرانسوا مورياك فهى من أجمل وأنبل ما رايت وقد تغلب عليها أحيانا التحاليل النفسية الدقيقة التى تمتاز بها القصة بيد أنها من القصص التمثيلى القوى وتأثيرها على الجمهور عميق جدا . كما ان هناك كلمات وجملا تشعرك بأنها منتزعة من صميم الحياة اليومية وهى مسرحية حية . ولشد ما أعجبت بتحليل المؤلف لعواطف الفتاة الصغيرة « امانويلة » قد لا تكون جميلة كما يقول مورياك بيد أنها « مضيئة من الداخل » .

٦ يناير :

برجونت للمرة الثانية . أكاد أجن بهذه الموسيقى السماوية !

اقتطفت هذه الآراء خلال قراءاتى اليوم :

عملية الخلق فى المسرح تتم أمام أعين النظارة اما فى السينما فنحن نشاهد تحقيقا « آليا » لعملية خلق تمت سابقا .

تحاليل العقل الباطن على طريقة فرويد فى المسرح تحذف كلية « صراع الارادات » الذى لا تقوم الدراما على غيره .

٨ يناير :

أرسلت اليوم خطابا للصديق زكى طليمات ردا على خطابه .

١٠ يناير :

لزمت فندقى حيث وافانى بعد الظهر مدرس الرسم

مسيو فاليه وقد دفعت له ستين فرنكا لهذه الحصة ولحصة سابقة .

يهطل المطر بفزارة فى الخارج وقد شعرت بفرحة خبيثة وانا انظر من نافذتى الى عشرات الباريسيين وقد فاجأتهم الامطار يفرون كالارانب بينما أستمتع انا بالدفء والطمأنينة .. ما أعرب جبلتنا الانسانية !

استمر الجو الممطر العاصف طوال الليل . وقد مللت القراءة وتشوقت الى سمائنا الصافية ولياليـنا العذبة وتداعت الخواطر فتذكرت جلساتى الاثيرة فى مطلع شبابى على ضفاف النيل بالجزيرة وبيدى كتاب إقرأ فيه وقد أسندت ظهرى الى جزع نخلة تجاور شجرة صفصاف . ومضت الساعات وأنا مستغرق فى أحلام عميقة خرجت منها بالقصيدة التالية التى كتبتها نثرا بالفرنسية :

النخلة والصفصافة

«كانت الشمس العتيقة وقد أدركها الشحوب تحتضر على البعد السحيق خلف التلال وهى تصعد انفاسها الوردية الاخيرة . تلك ساعة الغروب الغامضة. لا حركة فى أوراق الشجر فقد هدأت الريح وساد الطبيعة صمت فاجع بينما الليل الغادر يرقب عن كثب وهو يزحف كالمارد باسطا ذراعيه الحالكتين ليكتم أنفاس النهار .

أما أنا فكنت أسير بمفردى على ضفاف النيل وقد انطويت على نفسى أناجيها فى الم وحسرة واطيل التأمل فى هذا السباق الخاطف الىالموت الذى يسمونه الحياة.

بين وقت وآخر كانت تطاردنى فكرة سيئة شبيهة

بذبابة ســوداء . كنت أحس فى فؤادى بثــورة عارمة ترجف لها أوصالى وتحملنى على الشعور بأن وجودى أضحى عبئا ثقيلا على كاهلى بيد أن قلبى كان ما يلبث أن يستنير بأضواء باهرة ومن أعمــاق تعاستى يرتفع أمر مزهر كالربيع ناصع كزنبقة الحقل . وهكذا كنت اسير فى طريقى . مد من الحنان يعطفنى على الحياة ، وجزر من الالم ينأى بى عنها . وفيما أنا ببعض سبيلى توقفت فجأة قرب الشاطىء وقد استرعت نظرى على ضفاف النهر ، شجرة صفصاف تنحنى باكية بالقرب من نخلة عملاقة . كانت الصفصافة تبدو لعينى كعابد يجثو للصلاة فى خوف ورهبة أمام معبوده اتقاء لشره وأذاه .

وكان شعرها الذى بدأ الليل يلفه فى غلالته القاتمة ، يتدلى فى المــاء حزينا ، كئيبا مهيضا ! بجانب النخلة الشامخة الصاعدة الى السماء كرغبة حارة للحياة . كانت الشـجرة القميئة تنوح فى الليــل الســاجى وهى تردد أناشيد اليأس والفناء والموت . عندها فررت هاربا وقد تأكد لى أن فى قلبى أيضا تتعالى نخلة وتنحنى صفصافة

١١ يناير :

قضيت سهرتى الليلة فى أحاديث منوعة عن المصرلوجية وعن الفيلسوف سبينوزا وعن المسرح مع شاب المــانى يشتعل ذكاء ويمتاز بثقافة شاملة وكنا فى زيارة للغرفة التى يحتلها الاخ «عثمان أمين» من فندق بالحى اللاتينى وهذا الصديق المصرى الجديد ليسانسيه فى الفلسفة .

١٤ يناير :

زارنى اليوم فى الفندق مسيو اميل فابر وهو يشكو

مر الشكوى من عدم وصول أى خبر من اللجنة العليا لترقية التمثيل بالقاهرة . وقد تحدثنا حديثا شائقا فى عدة مواضيع . وسرد لى بعض النوادر عن الكاتب المسرحى هنرى برنشتين الذى مثلنا له فى مسرح رمسيس روايات : « السارق » و « الجبار » و « الفضيحة » وقد أعطانى عنه صورة فكاهية لاذعة بوصفه كاتبا مسرحيا ، **فهو خلال تدريب أية مسرحية** رجل ملحاح يلاحق مدير الفرقة فى كل لحظة من ليل أو نهار ويرسل اليه البرقيات والرسائل ، ولا ينقطع عن مكالماته التليفونية ناصحا متوسلا مهددا. فهو كالصاروخ ولكنه « صاروخ بيتى » كما يقول مسيو فابر .

افضيت الى مسيو فابر بالخطوط العامة لمسرحيتى « مصر الخالدة » وبما سأقتبسه من مسرحية « ابنة رولان » لهنرى دى بورينيه فأقرنى وتمنى لى التوفيق

شاهدت مسرحية « الدور السادس » فى مسرح الفنون . المنظر مبتكر أما الموضوع فهو ميلو درامى وله تأثيره البالغ فى الجمهور وان كان يروى لنا القصة الابدية المعادة .. قصة فتاة غرر بها شاب فاسد .

١٥ يناير :

درس فى الرسم مع مسيو فاليه .

أعجبتنى الفكرة الآتية : احدى فضائل الفن الكبرى ان تجعل الرجل منا يتسامى ويتفوق على نفسه ويشقى فيتناسى لمدة من الزمن مصالحه المادية ويتحول من الاثرة الى الايثار .

استمعت اليوم الى محاضرة من مسيو اندريه بلسور الناقد الفنى الذى اشتريت له البارحة كتاب « أثينا ومسرحها » وكان يحلل الغيرة فى مسرحية شكسبير :

« عطيل » ومما قال : ان غيرة عطيل لا تذكر بجانب غيرة ياجو فهذا هو الغيور الحقيقى . انه يغار من سيده لانه يتصوره قد اندس فى فراش زوجته وهو غيور من « رودريجو » لانه موسر ولانه يعشق ديدمونة كما انه يغار من « كاسيو » لانه ضابط شجاع ومرضى عنه من قائده وسيحاول خلال احداث المسرحية أن يوقعه فى شرك رهيب ثم يدفع أحدهما لمبارزة الآخر بعد ان يكون قد سرق رودريجو ! يا له من شيطان ! انه أبشع شخصيات شكسبير على الاطلاق وهو محور المسرحية الذى يحرك جميع شخوصها ويحولهم الى ضحايا ! وفى الختام اية مجزرة بشرية ! !

فى مسرح صغير من الطراز القوطى شاهدت مسرحيات « برج الحب » و « قبلة الظلام » و « روزالى » : برنامج من روايات الجرانجينيول لعشاق الفزع والرعب. أعترف بانى على الرغم منى اقشعر بدنى وأنا اشاهد أحد مواقف الرعب .. فغطيت وجهى بيدى !!

١٦ يناير :

قضيت ليلتى فى الفندق وانا عاكف على قراءة كتاب فى الاخراج المسرحى نصحنى مسيو فابر بقراءته .. والكتاب للناقد بيك دى فوكييفر وقد وجدت فيه نبعا « دفاقا » من المعلومات والآراء الناضجة .

١٧ يناير :

شاهدت « المتوحشة » لجان انوى على مسرح بيتوئيف . وهى مسرحية عظيمة تحلل شخصية فتاة مسكينة تحاول دون جدوى أن تتأقلم وتعتاد حياة السعادة . « الممثلة لودميلا وبيتوئيف » رائعة فى أدائها

وفي تقمصها لدور المتوحشة ، يتسم تمثيلها بطابع الصدق والقوة . كلها أعصاب : اندفاعاتها الوجدانيــة تخدمها أجل خدمة فى هذا الدور المتناقض الذى يتأرجح بين العنف والنبل .

اني ألمح فى تضاعيف هذه المسرحية لونا من صراع الطبقات . انه الصراع الابدى بين الاغنياء والفقراء . والمسرحية عموما احدى نماذج مسرح جان انوى : مسرح الطهارة !

١٨ يناير :

تدريب لمسرحيــة « نيكوميد » على مسرح الاوديون بالمناظر والملابس .

« كنوك » مهزلة ســاخرة تنقد شــعوذة الاطبــاء الدجــالين وهي جديرة بأعمال موليير . جوفيه فى دور كنوك لا يبارى . على انى لمست فى الايقــاع شيئا من البطء والاغراب لم استوضح له سببا . هذا لا يمنع أنى أعجبت اشد الاعجاب بمنظر الفصل الاول المشهور : منظر السيارة وهي تدور فى مكانها وسط المسرح بينما فى الخلفية يلف منظر سماء رسم على نصفها الاســفل طرق وتلال واشجار توحى للناظر بأن الديكور يتحرك ويمر فى سرعة المناظر الطبيعيــة . هــذه خدعة ماهرة ومضحكة لاقصى حد .

اقتطفت الجملة التالية لمؤلف «كبار العارفين» ادوار شيوريه مصورا النبى موسى « وما أوفى موسى على سن البلوغ حتى بدأت الايام تحتفر بين حاجبيه ذلك الشق المشئوم الذى نراه على وجه عظماء الرجال الذين تلقى المقادير عليهم عبء أعمال جسام » .

١٩ يناير :

شاهدت بعد ظهر اليوم فيلم عن « بريدنيون » تلك الميلودراما المشهورة التى مثلناها على مسرح رمسيس

ذهبت لزيارة المنظم الاول للكوميدى فرانسيز مسيو ماتيس . انهم يمثلون الليلة لاول مرة « خبز العائلة » لجول رينار و « الخصام » لجان فيلدراك . الاضاءة والمناظر عادية بسيطة لا ابتكار فيها

تهب على باريس الليلة نسمات ربيعية. فتحت نافذتى على مصراعيها وقد أحسست كأنما خلعت عنى ثقل الشتاء .

٢٠ يناير :

درس فى الرسم صباحا مع مسيو فالين .

يتهافت الطلبة والطالبات على مشاهدة المسرحيات بالكوميدى فرانسيز فى ليالى الاثنين التى خصصها لهم مسيو ادوار بورديه بنصف أجر وقد فاجأ الليلة أحد ملاحظى الباب سيدة أوفت على السبعين وهى تحاول أن تنحشر وسط جمع الفتيان على أنها طالبة ، فحاول فى أدب أن يمنعها من الدخول لكنها صاحت به قائلة : لا تنس يا سيدى أن المثل يقول : « يتعلم الانسان فى كل سن ويموت جاهلا » فسمح لها الملاحظ بالدخول وسط ضحكات الطلبة والطالبات . ما أروع الدرس الذى تقدمه لنا هذه العجوز ! انه مثال الحكمة والتواضع !

زرت اليوم مسيو فابر حاملا اليه ديوان « حديقة الازهار » ، « لبطرس غالى » الذى كان قد طلبه منى وقد تحدثنا فى شتى المواضيع وخاصة عن كتاب

« بيك دي فوكيير » الذي ورد ذكره فى كتاب اميل فابر عن المسرح ، وبهذه المناسبة اهدانى مسيو فابر كتابه وعليه الاهداء التالى : « الى السيد فتوح نشاطي الذى يعرف مسرحنا الفرنسي كأحد أبناء فرنسا » .

٢٢ يناير :

كم يسعدنى أن أتلقى أخبارا من مصر !

لقد وصلتنى مجلة « الصباح » فسررت بها كثيرا .. ان نقطة الضعف عندى هى أننى لا أستطيع أن أعيش فى عزلة تامة عن بيئتى الاصلية . ولو أن الانسان يجب أن يتعلم كيف يكتفى بنفسه اكتفاء ذاتيا ، ولكن ماذا أصنع ؟ لقد خلقت هكذا . ان العزلة صديقتى العزيزة ، تبدو لى فى بعض الاوقات شديدة الوطأة على نفسى .

وجدت بداخل مجلة « الصباح » خطابا من الاستاذ عبد الشافى القشاشي يحثنى فيه على موالاة الكتابة للمجلة فبادرت بارسال المقال التالى عن مقابلتى الاولى لمؤلف « القبلة القاتلة » التى ترجمتها لمسرح رمسيس عام ١٩٢٩ ، واضطلعت ببطولتها الى جانب الاستاذ يوسف وهبى والآنسة أمينة رزق .

ساعة مع مؤلف القبلة القاتلة

فى تمام الساعة الخامسة من بعد ظهر يوم ممطر كنت أصعد سلم احدى تلك العمارات الفخمة التى تزين حى « الشانزيليزيه » واجف القلب تتنازعنى عوامل الغبطة والاحجام ويحفزنى فضول قاهر .

هل كان يدور بخاطرى ساعة أن قرأت « القبلة القاتلة » لاول مرة فى حديقة الازبكية واشتعلت نفسى

حماسا بغاياتها النبيلة أنه سيأتى يوم ألتقى فيه بمؤلفها فى باريس ؟ آمنت بأن الزمن أحيانا يحقق أحلامنـا ، وكيف لا يكون هذا اللقاء حلما عزيزا والرجـل الذى يرتقب زيارتى هناك فى الدور الرابع هو «لويك لجويادك» مؤلف المسرحية الخالدة التى نقلتها الى العربيـة عام ١٩٢٩ والتى كان لها فى حياتى أثر عميق لا يمحى ؟ ترى أى رجل سألقى ؟ لقـد حدثنى عنه الـكاتب المسرحى « ادمون جيرو » حديث مودة وتقدير لكنه أبلغنى عتابه على عدم استئذانى اياه فى ترجمة روايته . فهل ترانى سأصطدم بمؤلف مغبون يحدثنى حديث الفرنك والسنتيم ويلوح فى وجهى بحقوق المؤلفين ؟ أم أنا مقبـل على المصلح النبيل الذى اتخذ من المسرح منبرا عالى الشرفات يحارب منه التقاليد العتيقة فى التربية الجنسية وينبه الى ذلك الوباء الجارف الذى ينخر فى عظـام المجتمع العصرى ألا وهو « الزهرى » ؟

وجمت برهة أمام بابه . هل أدق الجرس أم أهبط الى الشارع ؟ تلك اللحظة ذكرتنى فى الفصل الثانى من « القبلة القاتلة » بكواليس مسرح رمسيس وقد وقفت مترددا أمام عيادة « الدكتور مونروا » يدفعنى الخوف ويلجمنى الخجل مترع الفؤاد بمزيج من العزم والاسى وقد تأهبت للنطق بأولى جمل دورى : « الدكتور مونروا من فضلك » فجأة فتح الباب ولاح فى اطاره شاب نحيل مديد القامة تفحصتنى عيناه الزرقاوان :

ــ مترجمى الى اللغة العربية ولاشك ؟

ــ نعم ياسيدى .

ــ تفضل بالدخول .

فدخلت متمتما :

ــ المسيو لويك لجوريادك طبعا ؟ فأومأ برأسه أن

نعم فقلت : انى احمل اليك تحية المسرح المصرى الذى كانت قبلتك القاتلة احدى تواريخه المجيدة . فابتسم شاكرا بسمة عريضة ومضى بى الى حجرة عصرية الطراز عارية من كل زخرف يتوسطها مكتب ضخم تبعثرت عليه كتب وأوراق عديدة ، وعلى جانب منه آلة للكتابة فأشار الى مقعد وثير فجلست وجلس وهو يردد :

ـ سعيد بمعرفتك ياسيدى ! وسددت ناظرى اتملى فى فضول وشراهة وجه محدثى ، فاذا بى تلقاء رجل فى نحو الخامسة والثلاثين صغير الراس دقيق التقاطيع اشقر الشعر محدد الذقن تنقل نظرته الصافية احلام أهل مقاطعته : بريتانيا ، وتبدو على قسمات وجهه رزانتهم وعنادهم وايمانهم ، وكأنه قد فطن لما جال بخاطرى فقال :

ـ نعم انا بريتونى المولد كما يستدل من اسمى الصغير « لويك » ولو انى بدات حياتى المسرحية فى كندا .

ـ فى أية سن يا سيدى ؟

ـ فى الثامنة عشرة . ان قصتى من هذه الناحية لا تختلف عن قصة الكثيرين من الفنانين الذين تغلبت هوايتهم فى النهاية على ما كانوا يمارسونه من أعمال . فقد كانت هجرتى الى كندا الفرنسية لمجرد العمل فى مصانع دبغ الجلود فى تلك الاصقاع النائية ، ثم شغفت بالتمثيل الذى لازمنى منذ عهد الطفولة . كل هذه الاسباب مجتمعة دفعت بى وبنفر من أصدقائى الى احياء حفلات متواضعة بمسرح متواضع يسمى « شانتكلير مونتريال » غير أنى لما كنت وهؤلاء الاخوان يقل عددنا عن أصابع اليد الواحدة ففى امكانك أن تتصور المجهود الجبار الذى كان يقتضينا اياه تمثيل مسرحية تحتاج الى ممثلين وملقن ومدير مسرح وعمال

وطابعي تذاكر وموزعي اعلانات الى آخر تلك الاختصاصات التي كنا نضطلع بها والتى تنوء بهـا الفرق الـكبرى عادة . فلما كثرت متاعبنا وزاد الاقبال علينا استقلت من عملي وطرحت جانبا تلك المهازل التافهة التى اعتدنا ان نسلي بها جمهورنا الـكاثوليكي المتعب والفت مسرحية اجتماعية عصرية فى ثلاثة فصول لا يحتاج تمثيلها لاكثر من أربعة أشخاص . هكذا استهللت حياتى المسرحية كمؤلف وكانت أولى رواياتى « الرجـل ذو الوشـاح الابيض » . هذه الخطوة كانت حاسمة فقد جذبت الينا جمهرة من الشعب المونتريالى . وفتقت قريحتى فالفت المسرحيـات التالية التي لاقت من الاعجاب والتشجيع ما صعد بى الى ادارة أكبر مسرح فى مدينـة مونتريال وهو التياترو الفرنسي الاهلى : « مارى روز ــ الجوارى البيض ــ الاميرات الـكسولات ــ بابا فير ــ كوكايين ــ ماريا المجدلية » .

هنا كانت عقليتى قد نضجت وعدت أفهم رسـالة المسرح السامية على حقيقتها ، اى رسالة تهذيبية ولا سيما بعد رحلة قصيرة قمت بها الى أمريكا الشمالية فتحت أمامى آفاقا رحبة فقد وجدتهم فى تلك البـلاد الفتية العظيمة يلزمون بناتهم وأولادهم فى المدارس على دراسة ما اصطلحوا على تسميته « بالصحة الجنسية » ويطرقون على مسارحهم جميع المواضيع حتى التناسلية منها فى صراحة كبيرة . وشاءت الظروف المواتية وقتها ان أشاهد تمثيل رواية « المسعورين » للـكاتب ميريو فاختمر فى رأسي موضوع القبلة القاتلة التى أدين بفكرتها النبيلة لذلك الاستاذ العظيم .

ــ الا انك نجحت يا سيدى حيث أخفق ميريو !

ــ نعم .. وهنا فى رأيي الفارق والفيصل بين المحاضرة

الوعظية الموضوعة فى قالب مسرحى لمجرد الدعاية لفكرة معينة وبين الرواية الانسانية المحبوكة وفق قواعد التمثيل الثابتة تحمل فى تضاعيفها عظة كبرى . على أن هذه المسرحية التى ترجمت الى عشرات اللغات والتى تمثل الى الآن فى موسكو وبرلين وأوسلو ونيويورك وفيينا وبروكسل وباريس ولشبونة وروما وغيرها من المدن الكبيرة او الصغيرة فى العالم كما ترى من اعلانات الحائط التى ترد على من جميع أنحاء البلاد ، هذه المسرحية التى توخيت منها خدمة انسانية بحتة أحفظت على أهل كندا الكاثوليك المتعصبين فثارت على الجرائد وقاطعنى الناس وأغلقت المسارح فى وجهى فاضطررت أن أنزح الى أوربا وهناك فى باريس جازفت بروايتى على مسرح « الاوفر » تحت اشراف المخرج العظيم « لونيه بو » مروج مسرحيات ابسن فى فرنسا فنجحت روايتى النجاح الذى أطلقها فى أوربا وأمريكا ، ولكن حدثنى أنت عن تأثيرها فى البيئة المصرية على أن تسمح لى قبل ذلك أن أدهش للأمم الشرقية المحافظة كيف تستسيغ عملا فنيا يخرج فى مثل هذه الصراحة المتطرفة على جميع التقاليد المقدسة عندكم . فلم أتمالك أن أجبته : يؤسفنى يا سيدى أن تتصور أن مصر ما برحت تلك الامة الشرقية التى تخب فى مواكب العصور الوسطى .

هناك ثورة حررت النفوس والعقول . هناك جيل وثاب يحاول تحقيق أبعد الغايات وأسماها . لقد أخذنا من زمن طويل بأسباب الحضارة الاوربية فان رأيتنا نتأبى على بعض أفكاركم الحديثة ونستبعدها من حياتنا الشرقية فما ذلك الا لاننا وجدناها تدمر صرح مدنيتكم . أما الافكار الطريفة المفيدة حقيقة فنحن نرحب بها دائما ، واليك أقرب الادلة على ما أقول هذا الكتاب

الذى جمعت بين دفتيه كل ما كتب فى مصر وسوريا والعراق عن « القبلة القاتلة » فانك غير واجد فيه صوتا واحدا نشز منددا بما عرضته من آراء متطرفة فى القضايا التناسلية كما فعل الشعب الكندى ، بالعكس لقد أجمعت على اننا أحوج ما نكون لمثل هذه المسرحيات الجريئة التى تتوجها العظة والتى يجب ان تكون القدوة للمسرح المصرى المقبل كما قال أحد نقادنا المشهورين . لكن دعنا من هذه المفاضلات يا سيدى وحدثنى عن ذكرياتك المسرحية الخاصة بالقبلة القاتلة . أعرف أنك مثلت مثلى دور المريض « ريمون » وطالعت مثلى مختلف الجماهير فهل بلغ تأثير مسرحيتك فى النفوس مبلغه فى القاهرة وبيروت حيث تحول الفصل الرابع عندنا الى « مناحة » فى الصالة ؟

ـ لقد وفقت يا سيدى الى الكلمة التى نصف حالة الجمهور فى ذلك الفصل الختامى خاصة حين يصيح الفتى التعيس بالدكتور أن يضىء المكان ايرى خطيبته سيسيل ما فعل الزهرى بوجهه الجميل . ولكن أروع ما صادفنى من هذا القبيل حادث امراة فى بروكسل كانت تشاهد هذه المسرحية فما أن وصلت الى هذا الموقف الرهيب حتى تشنجت أعصابها وصرخت صرخة مدوية سقطت على أثرها دون حراك ، وبعد يومين قيل لنا أنها ماتت . هل كانت المرأة مصابة بهذا الداء ؟ هل اجتازت مأساة شبيهة بتلك التى رأتها تمثل ؟ من يستطيع ان يحل هذا اللغز ؟

أما الحادث الآخر المضحك المفجع فهو ذاك الذى قصه على صديقى المخرج والممثل الكبير « لونيه بو » « كان الاخير فى رحلة فنية يمثل وفرقته « القبلة القاتلة » فى مدينة أوسلو بالنرويج فما أن اسدل الستار على ختام

الرواية حتى ضج المسرح بالهتاف والتصـــفيق لبحيى المثلين مثنى وثلاث ورباع ، والجمهور ما ينفك يصفق ويضحك ، فتغامز الممثلون متسائلين عن السبب ، واذا بأحدهم يلمح ممثل دور « الاب تيسيه » جالسا على مقعد وقد شبك يديه ببعضهما كأنه غارق فى عالم الاحلام فهرع اليه منبهـا فما أن هزه حتى وقع على الارض صريعا . كان المسكين قد فارق الحياة من عشر دقائق! تلك بعض الذكريات السريعة سردتها عليك لعلاقتهـا « بالقبلة القـــاتلة » على أن حافظتى تعى المئـــات من الذكريات المسرحية فأنا مثل أى رجل جوابة ، أعبــد الرحلات والتنقل . وقد مثلت رواياتى بنفسى صحبة فرقتى فى جميع أنحاء القارتين الاوربية والامريكية غير أن هناك بلدا واحدا لم تطأه قدماى : الروسيا. ويغيظنى أن « القبلة » مثلت بها تحت اسم « الزهرى » الصريح دون أن أتناول « كوبيكا » واحدا من حقوق التأليف على الرغم من أن ادارة التعليم فى موسكو قد أخطرتنى بأنها تحتفظ تحت امرى فى خزينتها بمبلغ خمسة آلاف روبل استطيع صرفها لـكن فى بلاد الروسيا فقط. هنا خشيت ان يتطرق بنا الحديث الى حقوقه الضائعة فى مصر فيغيم الجو بيننا بعد أن كان صحوا ، فلم أجــد أليق من الاستئذان ، لـكنه أدرك ما قام بنفسى فأخذ بذراعى وسار بى الى نافذة فسيحة تطل على ميـــدان النجمة ، يتوجه قوس النصر وقد تمزقت خلفه فى السماء شمس غاربة تحيط قبر الجندى المجهول بهالة من الجلال . هناك وقفنا برهة وقد أخرسنا جمال هذه النـــاحية من باريس التى لا أرى لها مثيلا فى العالم ثم قال لى هذه الـكلمات التى لن أنساها : « كلما ضاقت بى الحياة فى باريس ــ وقليلا ما تضيق لانى من المتفائلين ــ عطفت

مطلا على هذا الميدان الفسيح فتتسع أمامى الامانى ، واحس بجمال الكفاح يبذله المرء فى سبيل فكرة علوية أو غاية نبيلة . ولو خيرت فى أن أعود الى الحياة ثانية لما استبدلت مهنة الممثل ـ المؤلف بأخرى مهما سمت انى أشعر ساعة أمثل رواية لى بلذتين عميقتين : لذة المجد القريب يشعرنى به جمهور متعاطف متأثر واجم هاتف ، ولذة المجد البعيد بعد أن يفنى هذا الجسم ولا يعود يبقى منه سوى شعلة صغيرة وهاجة تكافح الزمن حاملة الى أجيال مقبلة صميم فكرى ! والآن يا صديقى أودعك على أن نلتقى بعد شهر اذ انى أزمع السفر غدا الى بلجيكا ، ولكن لا تنس هذا الميعاد . اليك بعض رواياتى فاقرأها واختر منها ما يبدو لك جديرا بالترجمة . قال هذا وأخرج من درج مكتبه ملفا ضخما تناولته منه شاكرا وودعته عامر القلب باحترامه فقد تأكد لى انه المصلح النبيل والرجل المثالى الذى نمت عنه « القبلة القاتلة » .

٢٣ يناير :

بعد الدرس الاخير فى معهد دولان ، طلبت من مسيو لوسيان نات أن يقدمنى الى المخرج الكبير شارل دولان، بوصفى من تلامذة معهده المستمعين. ففعل مشكورا ، وذهب الى مقصورته يستأذن لى. وما مرت لحظة حتى دخلت واجما ، فاستقبلنى الرجل مرحبا ، وكان يتهيأ لعمل الماكياج لدوره فى مسرحية «بلوتوس» لارستوفان، من اقتباس مدام سيمون جوليفيه . اعتذرت لازعاجى اياه أولا ، ثم سألته مباشرة عن وجهة نظره فى اخراجه لهذه المهزلة اليونانية . فقال بالحرف الواحد : هذه المسرحية تمتاز بسهولة فهمها لدى جميع طبقات النظارة ،

وهى فى نفس الوقت ذروة الفن الكامل . وقد يكون من الخطأ أن نسلكها فى نوع الاستعراض ، الا انه ليس من الغباء التأكيد أنها تحتوى على مشاهد تذكرنا باستعراضاتنا المعاصرة « الريفيو » . ان اخراج هذه اليونانيات ، كما كانت تخرج فى أثينا فى القرن الخامس قبل الميلاد ، أمر مستحيل لسببين : الاول لاننا نجهل على الرغم من جميع ما كتب فى هذا الموضوع ، كيف كان يتم ذلك الاخراج . ثانيا : اننا عندما نقرأ ترجمة أمينة للنص اليونانى ، نجد فيه من الوعورة والادب المكشوف والعنف ، ما يستحيل علينا معه عرضه على مسرحنا الراهن . مثلا يمكننا أن نقدم اليوم ، النص الموازى لمهازل أريستوفان لذلك عمدت مدام سيمون جوليفيه ، فى اقتباسها ، الى التهذيب . ولما كانت المادة التى بنيت عليها مسرحية بلوتوس ، مادة هشة ، فقد اضطرت مدام جوليفيه أن تطيل بعض المشاهد وتستغلها احسن استغلال درامى ، مستوحية دائما روح النص الاريستوفانى . فسألت مسيو دولان :

هل لى أن استوضحك يا سيدى عن الطريقة التى حددت بها اخراجك بين المسرح اليونانى العتيد ، والمسرح المعاصر ؟ فأجاب : لقد تمنيت دائما أن أقدم للناس لمحة من المسرح القديم ، باستعمال شكل يقبله جمهورنا الآن . وفى هذا السبيل ينبغى حذف كل حشو ، وكل ما لا فائدة منه ، والا نزحم المسرحية باضافات لا جدوى منها ، على الا يكون الاخراج جافا . لذلك كلفت راسم الديكور أن يبتكر منظرا ثابتا ، يخدم النص ويوائم بينه وبين ملابس العهد ، لىكون هناك انسجام تام فى الخطوط والالوان . أما الموسيقى ، فان الموسيقار « داريوس ميليو » ، الذى يعمل معنا من

زمن طويل ، اتفق معى على ادخال الموسيقى كعنصر يتبع النص الدرامى ·· لا أن تكون نوعا من الاوبرا، بافتتاحياتها والحانها التى تستدر التصفيق ·

وبالاختصار، فالامر الجوهرى فيما يختص بكوميديات اريستوفان ، أن نستبعد كل عناصر الاغراب فى الاخراج والمناظر والموسيقى .

قال لى مسيو دولان هذا الكلام ودعانى لمشاهدة المسرحية ، فشكرته جزيل الشكر ، ثم خرجت ، فتناولت عشائى فى مطعم « الارنب الحرك » . وبعدها شاهدت طرفة أريستوفان الخالدة .

٢٤ يناير :

أمضيت سحابة يومى فى مطالعة « فن الاخراج » ، لبيك دى فوكيير . وهو كتاب رائع فى فلسفة الجمال المسرحى ، أقبلت على مطالعته بنهم ، واعتقد انه سيكون مرجعى الاثير ، وان كنت لا أشارك المؤلف جميع نظرياته

« خبز الاسرة » و « الخصام » : طرفتان مكونتان من لا شيء . ليس هناك حدث درامى ، أو اى صراع كبير، من تلك الصراعات التى تدفع الى خواتيم مفجعة . لا شيء سوى خصام بين صديقين فى مسرحية «الخصام» ، وحديث بين رجل متزوج وزوجة صديقة فى مسرحية « خبز الاسرة » . لكن يا للحوار المتألق الزاخر بالظرف الفرنسى الصميم ! أية حرارة ! أية حياة دافقة ! وكل ذلك فى نطاق المعيشة اليومية ، وفى دائرة الطبيعة والصدق ، والكلمات تبرق كالفراش فى أشعة الشمس وتلتمع . هذا نوع من المسرحيات التى يحبها صديقنا المؤلف المسرحى محمد خورشيد ، على أن هذا اللون من القصص التمثيلى يحتاج الى جمهور واع رفيع الثقافة

٢٦ يناير :

تدريب آخر على مسرحية « دافيد كوبرفيلد» بمسرح الاوديون . الممثل كوزان يبدع فى تمثيله الى ابعد مدى انه يتألق ويفور كحبب الشمبانيا . وفى دور ميكوبير بالذات أجده لا يبارى ، فهو على التوالى جامح الخيال، طائش ، مغرور ، متفاصح ، متعالم ، مؤثر ، حسب خطوط الدور الرئيسية .

٢٧ يناير :

صحوت من نومى فى الساعة الخامسة ، واستغرقت فى قراءتى لكتاب « بيك دى فوكيير » حتى السابعة ، ثم تناولت جرائد الصباح ، فاذا بها طافحة بمقالات التقدير من مخرج الواقعية العظيم « أندريه أنطوان » بمناسبة بلوغه الثمانين ، فقد ولد فى ٣١ يناير عام ١٨٥٨ ، وقد مضت خمسون عاما وهدف حياته الاوحد أن يخدم المسرح . وقد خدمه أجل خدمة فى المسرح الحر الذى أنشأه ، وفى ادارته لمسرح انطوان ومسرح الاوديون . وهو ما زال يخدم المسرح الى اليوم ، كناقد فنى ، وبوصفه مكتشفا للمؤلفين الناشئين .

٣٠ يناير :

شاهدت للمرة الثانية «مدام كابيه» بمسرح مونبرناس بعد أن حضرت بعض التدريبات عليها . ما زلت معجبا بتمثيل مارجريت جاموا ، لما تودعه من انسانية عميقة فى دور الملكة مارى انطوانيت ، خاصة فى الجزء الاخير، خلال اعتقالها فى سجن التامبل . كان فى رفقتى الصديق احمد رشاد ، الذى دعوته لمشاهدة هذه المسرحية .

لن يكون المسرح عظيما ان لم يرتفع تارة الى القمم النبيلة ، ويهبط تارة أخرى إلى دركها السحيق من أهواء النفس البشرية .

۳۱ يناير :

شاهدت سيسيل سوربل بمسرح أنطوان، فىمسرحية « سافو » لالفونس دوديه . وعلى الرغم من أن هذه الممثلة المشهورة قد طعنت فى السن « ۷۰ عاماً »، فقد راقني أداؤها الحار ، كما أعجبنى فهمها لشخصية البطلة . لقد أبرزت جانب الغانية فيها ، ولم تمثلها على فرار ما مثلت عندنا فى مصر حسب تعليمات الاستاذ عزيز عيد ، على أنها امرأة عاطفية خيالية . لقد أدت شخصية بنت الهوى الباريسية التقليدية ، بلكنتها الشعبية ولهجتها الساخرة ، فى صوت شهوانى النبرة ، حافل بالغموض الجنسى .

فبراير

١ فبراير :

لم يوجد المسرح لعرض آراء بالذات ، بل للايحاء بها .

٢ فبراير :

رأيت ــ فيما يرى النائم ــ حلما مزعجا ، لا أذكر منه سوى انى كنت مصابا بمرض خطير ؛ وارقب فى جزع دنو أجلى ، ولكنى صحوت اليوم والنشاط يملأ كيانى ، وتنفست الصعداء وانا أكرر الشكر لله !

لا ينبغى للانسان أن يضيع وقتا من حياته الا فى واجب يجلب نفعا أو يدفع ضررا .

وصلتنى اليوم هدية نفيسة من مصر : جزءان يتضمنان مسرحيات الاستاذ توفيق الحكيم . وقد أرسلهما الى الصديق الدكتور حسين فوزى .

تلقيت خطابا من الصديق الاديب حسن محمود : أطيب الناس قلبا ، وأعفهم نفسا .

زرت معامل كليمانصون للاضاءة المسرحية ، فى رفقة الزملاء . وأمضينا وقتا ممتعا فى صالة العرض . وشاهدنا آلات سحرية تعكس لاعيننا المشدوهة هطول الامطار

وسقوط الثلج والتماع البرق ، كما انها نرينا شروق الشمس أو غروبها بالتدريج الطبيعى .

شـــهدت مسرحية « الرداء الاحمر » فى الـكوميدى فرانسيز . وقد فكرت فى ترجمتها ، على الرغم من أنى شاهدت فرقة عبد الرحمن رشدى تمثلها فى القــاهرة عام ١٩١٧ ، فهى عمل جليل مؤثر ، وبها عظة كبرى . ويتلخص موضوعها فى أن جريمة قتل وقعت ، اتهم بارتكابها فلاح ساذج يدعى ايتشبار ، وبالتحقيق معه لم يستطع أن يقدم دليلا على عدم وجوده بمكان الجريمة فهو من المهربين . فينتهز قاضى التحقيق « موزون » الذى يصوره لنا المؤلف كرجل وصولى ماكر خبيث ، يستضعف أمام الاقوياء ويستأسد مع الضعفاء ـ الفرصة السانحة ، ويضـــيق على الفــلاح المسكين وامرأته كل المسالك حتى نراهما على وشك الاعتراف بجريمة لم يرتكباها .. بيد ان هناك قاضيا منصفا يعاود التحقيق معهما ، وما يلبث أن يتحقــق من براءتهمــا ، فيطلــق سراحهما . غير أن حياتهمــا الزوجية تتحطم ، اذ يعلم ايتشبار ـ خلال تحقيق القاضى موزون ، أن زوجتــه قد زلت قبل الزواج ، فيهجرها ويمضى بأولاده بعيــدا عنها . فلم تملك المسكينة « يانيتا » سوى قتل موزون القاضى الشرير .

الشريعة الخلقية كالطب ، افيد ما تكون حين تعمــل على الوقاية من الاذى ، منها حين تعمل على معالجته .

« دالمبير »

حين نسرف فى ذم النساء عامة ، فانما هــذه طريقة ملتوية مهذبة ، لذم امرأة بالذات .

الفكرة التى نكونها عن أنفسنا ، هى التى تدفعنا الى الاخفاق أو الى النصر .

« ادمون جالو »

٤ فبراير :

زيارة لمرتفعات مونمارتر ، وكنيسة القلب المقدس ، المشرفتان على باريس . كانت « بريتا » فى صحبتى . وفى فترة ما لاحظتها وهى تغمغم صلاة لله . انها تأنس بصداقتى ، وان كانت تخشانى ، فهى تتصورنى كغيرى ذئبا مفترسا .

٥ فبراير :

أرسلت تقاريرى لخليل مطران .

يقول جوفيه فى كتابه « خواطر الممثل » : ان مهنة التمثيل فى غير حاجة الى فكر أو ذكاء ، حسب ما نفهمه من هاتين الكلمتين . وان مزاولة هذه المهنة لايترك لنا الوقت الكافى لادمان التأمل . على أن الممثل لا يحتاج الى الفكر ، بل الى المشاعر ، فهى بضاعته الاساسية .

٦ فبراير :

يقول أندريه بول : ان التطور الراهن للمناظرالمسرحية « الذى جعلنا نهمل المنظر المرسوم على القماش ونؤثر عليه المنظر المبنى » قد أملاه علينا تقدم فن الاضاءة . فمن هنا نبعت مهنة جديدة مختلفة كل الاختلاف عما درج عليه مصممو المناظر فى القرن التاسع عشر . فراسم المناظر قد اضطر أن يخلى مكانه للمهندس وللنقاش ولعامل الاضاءة . ان مهنة راسم المناظر مهنة رائعة ، ولكنها بدأت تنقرض . وأنا واحد ممن يأسفون على ذلك ، ولكن ما باليد حيلة ، فحتم علينا أن نساير ركب التطور ، ونزاول التكنيك الجديد لنخدم النصوص الجديدة .

ان أقصى ما يجب أن يطمح اليه الفنان ، أن يخدم العمل الفني . لقد مات فن الديكور القديم ، فليحيا الفن الحديث !

٩ فبراير :

تدريب عام على مسرحية ايفيجينيا بمسرح الاوديون. قضيت ليلتي في صحبة « بريتا » ، وتناولنا العشاء في المطعم الالزاسي . وقد عابت على تركي لبعض الشعيرات البيضاء ، التي بدأت تشتعل في رأسي . فقلت لها : ما العمل ، لقد دخلت طاحونة الزمن ، وهذا بعض رذاذ الدقيق . ثم ترجمت لها بيت الشعر الذي كثيرا ما كان يردده زعيمنا الثائر الاكبر ، سعد زغلول :

ومن هوى الصدق في نفسي وعادته
تركت لون مشيبي غير مخضوب

فضحكت الفتاة ، وقد أعجبها المعنى ، ثم قرعت كأسها بكأسي ، وصاحت ، على عادة أهل بلادها : سكول!

١٠ فبراير

« ايفيجينيا » لراسين و « مفاجأة الحب » لماريفو ، في حفلة الماتينيه بالاوديون . ان فاجعة راسين العظيم الملقب بالشاعر الوديع ، لهي مسرحية في منتهى القسوة. ففيها يحاول الملك أجا ممنون تقديم ابنته ايفيجينيا قربانا للآلهة ، وفاء لوعده لها أن يقدم للموت أول من يصادفه في طريق عودته منتصرا من حرب طروادة . على أن راسين يبتعد في روايته عن الخاتمة المشئومة والمحتومة في آن واحد ، التي تخيلها سوفوكليس : فان أجا ممنون ، عند راسين ، يعدل عن الوفاء بنذره وتقديم ابنته للموت ، ومع ذلك فان فاجعة راسين صعبة

الاحتمال ، غير انسانية بالمرة . أما تمثيلها بمسرح الاوديون ، فقد اتسم بالتضخيم والتهويل والغلو، وقد ارتدى الممثلون زى القرن السابع عشر الفرسى ، وعلى رؤوسهم باروكات يتعالى منها ريش أبيض مضحك جدا.

١٢ فبراير :

محاضرة للكاتب الناقد روبير برازياك ، فى نادى الفوبور ، عن « اغراء الخيال » عند كورنيل . حديث شائق دقيق حافل بالظرف الفرنسى ، مصحوب بتمثيل بعض المشاهد التمثيلية غير المعروفة للمؤلف العظيم .

١٣ فبراير :

« الساعة الخامسة صباحا » انتهيت الساعة من قراءة كتاب العقاد الضخم ، عن سعد زغلول . انه كتاب عملاق جدير بالعملاق الذى أوحى به .

جميع القواعد والقوانين والحدود التى وضعت لفن الدراما ، قد تحطمت على مر العصور ، واحدة بعد اخرى . فالعبقرية ، وهى تبتكر قواعد جديدة ، تهدم القواعد القديمة . الا أن قانونا واحدا للمسرح سيبقى خالدا : وهو القانون الذى نادى به موليير ، فى قوله : اهم ما ينبغى أن تصبو اليه المسرحية ، أن تروق لجمهور النظارة .

١٤ فبراير :

انتهيت من قراءة الدراسة النفسية ، التى حلل فيها الكاتب دانييل روبس مسرح « لنورمان » . يحسن بى معاودة قراءته ، ففيه آراء عن العقل الباطن ، شفافة الوضوح .

« فونتوكابر » مسرحية من ثلاثة فصول ، مقتبسة عن الكاتب الاسبانى لوب دى فيجا ، بقلم جان كاسو وجان كامى . شاهدت هذه المسرحية الثورية بمسرح الشعب ، الذى تديره النقابة العامة للعمال . وهى لوحة درامية هائلة ، تبعث أمامنا قرية بأسرها تحارب الظلم فى شخص الحاكم جوميز دى جوزمان ، الذى لا يكتفى فى معاملته للشعب بارتكاب ألوان من العسف والطغيان : يضرب ويشنق ويفرض الضرائب ، بل ويستحل أيضا أعراض نساء القرية. الا ان امرأة واحدة تستعصى عليه ، وتثير نخوة اهل بلدها ، فيتألبون عليه ويقتلونه. ويبادر القضاة بمحاكمة القرية ، بيد أن روح الجماعة تنقذهم من الموت . اذ يتفقون على توزيع مسئولية الجريمة على قرية فونتوكابر بأسرها . فاذا ما سأل القضاه عن القاتل يجيب الشعب : فونتوكابر ! فونتوكابر !

١٥ فبراير :

بلوتوس او الذهب ، لاريستوفان . اقتباس سيمون جوليفيه ، لمسرح الاتلييه . مهزلة رائعة ، مليئة بالحركة والنكات الطريفة الخارجة أحيانا . ومسرحية «بلوتوس» تدافع عن نظرية مبتكرة ، فهى تعالج بحماس فكرة أن المال لا يمنح المرء السعادة ، بل العمل هو الذى يسعدنا. فان شئنا تبديل هذه القيم المعنوية ، فقد حكمنا على الدنيا بالافلاس والانحطاط. «هذه مسرحية للترجمة»

شاهدت مسرحية « جنون الحب » ، وهى المسرحية الاولى لكاتب شاب فى السادسة والعشرين ، بمسرح شارل دى روشفور . انها تدل على أصالة وأستاذية مؤكدة . هذه مأساة عانس تستفيق فى سن متأخرة للحب . وياله من حب عاصف ! أى عنفوان فى عواطف

هذه المرأة ! ومما يزيد فى اشتعال الايقاع فى هذه المسرحية تمثيل الممثلة الكبيرة جيرمين ديرموز . انها ترتفع احيانا الى أعلى القمم . اية نبرة مأساوية فى صوتها وايمائها وحركتها والقائها المحموم ، الزاخر ، العاصف !

١٨ فبراير :

الساعة ٨ صباحا : انتهيت اللحظة من مطالعة كتاب الناقد فورتينا ستروفسكى : «المسرح ونحن» . أقتطف منه هذا الرأى : « يستجيب المسرح لغريزة عميقة فى الطبيعة البشرية . لذلك فلا خطر عليه من الفناء . قد يأتى يوم لا نحس بحاجتنا الى الشعر أو الادب ، ولكن من المؤكد أننا سنظل مشغوفين بمشاهدة التمثيل . ان الازمات والثورات قد توقف أو تطور فن المسرح ، ولكنها لا تمحو أثره . فهذه الخاصية الطبيعية ، وهذه الضرورة العضوية للمسرح ، أساسية تختلف باختلاف طبائع الامم . فبحسب الازمنة والشعوب المختلفة يمكن للمسرح أن يشبه أحد الطقوس الدينية ، أو ملاعب سيرك ، أو مهزلة موليرية ، أو مسرحية لراسين . فجميع هذه الاشــــكال ضرورية وشرعية وجميلة فى آن واحد . المهم ان نعرف أيا من هذه الانواع يناسبنا ويرقى بنا الى غاية فن الدراما : وهى خلق روح جماعية شاملة ، وتوكيد وهم هـذا العرض ، على أنه الواقع الاسمى ! »

١٩ فبراير :

رســالة من مطران بك ، ومن مصانع كليمانصون ، وكذلك خطاب من مجلة « الفجر » الفلسطينية تطلب منى مقالا أو قصة . وقد سخطت أول الامر وبرمت بهذه الطلبات الادبية المرهقة ، فقد استغرقنى عملى الفنى

حتى اني لاأجد وقتا للراحة، لـكني ما لبثت أن راجعت نفسي وأرسلت الى المجلة المذكورة مونولوجا وطنيا عن سعد زغلول ، كنت ألقيه فى بعض المناسبات بعد وفاته

وصية سعد الأخيرة

وفى عصر من العصور الخوالى أذن الله فانتشر فى أرض مصر نور باهر اللألاء . كانت الزهرة ذابلة فانتعشت ، وكانت القلوب صادية فرويت . حيثما اتجهت رأيت الامل المضيء يشع من العيون ، والاحلام المرحة تسرى فى الاجواء مسرى النسيم . كانت فى الليل بهجة ، وكان النهار عذب الورود . فلما آذنت شـمس ذلك النـور بالمغيب ــ وكان النور سعدا ــ اجتمع حول فراشه الاخير لفيف من أبناء مصر ، فى حجرة ضيقة وسعت العظمة والخلود . كان النور مسجى مطبق الاجفان وهو ينازع الموت حياة أمة .

وبينما يهوم ملك الفناء فى هول تلك الساعة الرهيبة، كانت مصر تراقب ــ فى جزع ــ صراع الجبـابرة : الظلمة والنور .

كان العملاق الثاوى كوكبا دريا ، كذلك الذي يصادفه المسافر الضال فيهديه الصراط المستقيم . كان هـذا « الباشا » مخلوقا من الدهماء ، وكان هذا الوزير فلاحا من أبناء النيل . لقد جمع فى نفسـه الاضداد ، فكان الجبار والحليم ، وكان العادل والرحيم . على طريق الاجيال الغامضة وقفت مصر التائهة الحزينة الى هذا الرجل ، فأخذ بها نحو فجر جديد . فاذا رأيت العيون تغص بالدموع ، وأحسست بالافئدة ذليلة بعد عزة ، فلا تعجب ، فقد عاد المسافر الضال يهيم فى بيداء الليالى

السود » . ولكن شاء العلى وانتفض جبار الوادى على سرير الالم فعم الارجاء فرح مشرق . تفتحت عينا النمر بعد أن طالعت غيبوبة الابدية ، فتدافع من حواليه أبناء مصر مهللين مستبشرين . واذ رأى من أحب حتى الساعة الاخيرة ، من ضحى لاسعادهم بسعادة الدنيا ، من تغرب عنهم وسجن ونفى ، سرت فى دمائه الباردة حرارة الشباب الازلى : استوى سعد جالسا على فراش الموت ولآخر مرة تمثل حواليه الوطن . فى رهبة السكون فى تلك الحجرة الضيقة التى وسعت العظمة والخلود ، ألقى النور على مصر وصيته الاخيرة ، فنمت بذلك الرسالة التى من أجلها بعث للعالم رسولا للوطنية !

« يا أولادى ، ها قد دنت الساعة الاخيرة . أشعر بظلمة القبر الموحشة تملأ فضاء الغرفة ، نفسى حزينة حتى الموت . لقد أحببت مصر بقلب أربعة عشر مليونا من الناس ، وها أنا ذا أتركها فى مهب العواصف ولما تتكسر عنها أغلال الذل . سأمضى الى خالقى وفى فمى مرارة العلقم ، فما زالت راية الغاصب تخفق ساخرة تحت زرقة سمائنا الزاهية . أمضى يائسا بعد أن نشرت بينكم بذور الرجاء ، كئيبا مهموما وقد قسمت بين جموعكم الفقيرة أنوار الفرح . لقد أردت بالأرض عدلا : حثثت العالم فتطلعت عيناه نحو مثل أعلى ، وأقمت للجاهل على أرض الوطن غاية نبيلة يسمو اليها . لقد أردت الحق نبراسا ولكنهم لا يريدون » .

« أودعكم يا أبنائى حاملا الى الله شكاواكم وثورتى . سأقص عليه احاديث الطغاة ، آلام شعب يتلمس الصبح فى الليل البهيم ، النفى والتشريد ، ظلم العدو وخيانة من تجمعنا بهم أواصر النسب . سأدافع أمام العادل عن قضية العدل . لكنى اذا كنت أودعكم فما أنا بتارككم

لن انساكم فى الدار الاخرى يا أعز الناس علي. سيعود جسمى ترابا الى التراب ، غير أن روحى خالدة ترفرف عليكم من عل وترعاكم . سأبقى معكم الى أن تفنىالاجيال المتعاقبة فى مجاهل المستقبل البعيد ! »

هنا تخاذلت قوى الجبار ، فخبـــا النور وعشيت الابصار ، ولـكن الحيوية العجيبة التى كانت توقف سعدا خطيبا مدى أربع ساعات ، بينما المرض يأكل ذلك الجسم العليل ، نفثت فى الجثة القريبة من البلى روحا سحريا ، فدب فيه النشاط وعاودته القوة وتابع سعد الـكلام ..

« يا أبنائى ، لم يبق فى القوس منزع . الموت ينادينى، والحياة تتخاذل بين مفاصلي . أذناى تطنان طنين الفناء فاقتربوا واصغوا الى جيدا . لقـد أردت تبصـيركم بواجبكم ، ولـكننى لا أجد فى العمر متسعا لغير ابداء أمنية ، فاسمعوها . قلت لـكم انى باق معكم بروحى الى الابد ، لـكن قلبى الشاكى لن يهدأ فى الثرى. سوف ينبض بين جنبى معذبا الى أن تحين الساعة ، أتسمعون؟ ساعة الخلاص ، تلك الساعة قريبة لاشك آتية ، ولكننى أمضي ولن أراها . فاذا أردتم أن يهدأ قلبى فى الثرى ، اذا أردتم أن ترقد رفاتى فى سلام ، فاقسموا هنا فى هذا البيت الذى آوى أمة ، أقسموا أن تنفذوا وصية سعد الاخيرة » .

فتدافع الـكل نحوه ، واحتشدوا كالبنيان المرصوص، واقسموا يمين الطـاعة بين انات الهلـع والدموع وهم يملأون عيونهم للمرة الاخيرة بمرأى الجبار الذى انتصب للأبد على أفق الثورة المصرية واغمض « النور » عينا على اطمئنان قلبه ، ثم استطرد قائلا :

« أولادى .. أولادى .. سيعيش بعدى كثيرون منكم

بين خمس وعشر وعشرين عاما ، هؤلاء سيشاهدون ما تعلمون ، ما نحلم به جميعا فى ليالينا السود التى يساورها الارق ، ما أسال دمع العجوز وأهدر دماء الشباب . سيرون ذات صباح شروق شمس الحرية يضيء البلاد من ثغر الاسكندرية الى أقاصي السودان . والآن اصغوا الى جيدا ، اذا دقت تلك الساعة المباركة التي ترقص لها قلوبكم فى صدوركم ، فأريد ممن أراهم هنا ، من يبقى منهم وقتئذ على قيد الحياة أن يتركوا جانبا مشاغل الدنيا أيا كانت ، أن يتركوا منازلهم ، ومصانعهم ، متاجرهم ومزارعهم . ومهما يكن الفصل، صيفا أو شتاء ، والساعة ليلا أو نهارا . فليركضوا فى سرعة البرق الخاطف الى الصخرة التي سأرقد تحتها ، وليركع أكبركم سنا ، واذا كان يحبني فليعانق قبرى ، وليصرخ ثلاث مرات : « سعد » ، من كل قلبه ، بكل ما أوتى من قوة دون أن يقص على تفاصيل الختام وأخبار الانتصار الاخير ، رافعا عن صدرى العبء الثقيل الذى حملته حيا وميتا . يصيح مرددا :

ــ سعد ! سعد ! لقد تم كل شيء !

يقول الناقد جان برنارلوك عن جان أنوى المؤلف المسرحي المعروف :

« فى الثامنة والعشرين توطدت شهرة هذا الكاتب القدير الذى قدم للمسرح روايات : « الفرو الابيض » ، و « كان هناك أسير » ، و « المتوحشة » ، و « المسافر بلا متاع » . وكلها مسرحيات ناجحة .

ان المشاكل التي يعرضها أنوى يقوم اساسها جميعا، اما على طغيان المال أو طغيان الاسرة . فالمال يسيطر على كل شيء ويزيف حتى العواطف ويهدد الطهارة والنقاء ، وما أن يبنى حتى يهدم . أما الاسرة فهي

الحليف المصطنع ، فخلف جميع الامتيازات التى تقدمها لنا الاسرة يختفى العقاب ، ويتحتم علينا أن نقبل الامتيازات والعقاب معا ، والا لفظتنا الاسرة . انها تفتت الواحد منا لتبتلعنا وتمتصنا آخر الامر . لذلك يثور أبطال « جان أنوى » على طغيانها . انهم لا يحاولون قلبها ، بل يؤثرون التخلص منها . فكيف يتخلصون من سيطرة المال والاسرة ؟ يتخلصون من سيطرة المال بالحصول عليه ، ويتخلصون من طغيان الاسرة بانكار وجودها » .

٢٠ فبراير :

الساعة الآن الثالثة والنصف صباحا : أقتطف من محاضرة لشاعرى الاثير « ادمون هاروكور » عن قصة دون كيشوت ، للاسبانى سرفانتيس ما يأتى :

« دون كيشوت » و « سانشوبانسا » ، هما النصفان المتممان لكل واحد منا . انهما كياننا بأجمعه من جهة الآمال التى نصبو اليها ، ومن جهة الغريزة التى تذكرنا بواقعنا المادى : الامل واليأس وهما يسيران جنبا لجنب الى نهاية غامضة . الملاك والحيوان اللذان يكونان الانسان . انهما الجوهر المركب لعالمنا اللاتينى الذى يجاهد فى سبيل القضاء على المادة وانتصار الروح . أن دون كيشوت هو انجيل الغرب ، نقرأ فيه عبادة السلم وحب الضعيف والفزع من الطغيان والاحترام العميق للضمير الانسانى .

يقول كلوديل : يوجد أحيانا فى تاريخ الامم لحظات يتحتم علينا فيها ، للحفاظ على روح الجنس ورسالته ، أن نحطم بشجاعة قوالب كانت لها فى الماضى قيمتها

وفوائدها ، ولكنهـــا لم تعـــد تتفق مـــع الحاجة الملحة المقدسـة لـكل كائن حى : وهى أن يستمر على الحياة .

٢١ فبراير :

استهوانى الشعر هذه الايام ، فانكببت على دواوين الشعراء الفرنسيين : فيرلين ، ورانبو ، والكونتيس دى نواى ، وهنرى دى رينييه . أعب من هذه المناهل العذبة

٢٣ فبراير :

خطاب من الزميل حلمى رفله الموجود الآن فى هولاندا :
امستردام فى ١٠ مايو عام ١٩٣٨

عزيزى فتوح :

عجيب ان يكون لرسالتك ذلك المفعول السحرى الذى عجزت عنه تلك الزجاجات المرصوصة أمامى وقد ملئت بانواع مختلفة من الادوية والبرشام أتناولها فى ترتيب ودقة حسب أوامر الطبيب .. فقد تسلمت رسالتك وانا أعانى آلام حمى شديدة الزمتنى الفراش منذ أيام. وبرغم ما كان يعلو رأسي من المكمدات ويدور حول رقبتى من اللفافات الواقية للزور . فقد أخرجت ذراعى من بين تلك الاغطية المـكدســة فوق جســمى وفضضت رسالتك واخذت اقرأها بفرح وشغف خيــل لى معهما أننى أستعيد ما فقدت من الصحة .. ومما ضــاعف سرورى فى هذا اليوم ، يوم اســتلام رسالتك ، أنها وصلت مصحوبة بمجلة « الصباح » التى أخذت اتنسم فيها أخبار مصر العزيزة تارة ثم أعود الى رسالتك تارة أخرى فكان يبدو لى أن أوراقها الرقيقة قد استحالت الى أجسام حية أتمثل فيها صور الاصدقاء والاهــل وأن حروفهما أخذت تنطق بما يكنه هؤلاء الاصدقاء من كلمات الود والرعاية التى تخفف عن الصديق وطــأة

المرض فى هذه الغربة النائية . ويكفى أن تعلم ان حرارتى كانت تزيد عن ٣٩ر٥ مما دعا أصحاب الدار الى سرعه احضار الطبيب الذى أمر بوجوب عمل كيت وكيت من الاجراءات اياها المعروفة فى مثل هذه الحالات . وان كان قد بعث فى نفسى الاطمئنان قليلا حيث عرفنى أن ارتفاع الحرارة عندى مجرد حالة وقتية قد تزول بزوال أسبابها .

أما عن وحدتك فلا أدعوك الى مجافاتها لانني أعلم مقدار ما تثمره فيها من ثروة هى موضع آمال محبيك بل ومحبى الفن فى الشرق . لكننى دعوتك الى عدم مجافاة المجتمع . وكنت أعلم أنك لم تزهد فيه ولكنك توهمت الزهد فيه تحت تأثير حبك الجامح للوحدة . لذلك أردت أن أوقظ فيك عاطفة هى بلا شك كامنة فى نفسك نحو المجتمع ولعلنى أفلحت ! ! أما عن مشروعاتك التى اعتزمت القيام بها قريبا فاننى أتمنى لها من كل قلبى بل أكاد أشعر مقدما أنها ستنال من النجاح بقدر ما يتناسب مع جهادك الطويل وخبرتك الواسعة وأرجو أن تثق باننى ساكون أول المبشرين بها وسافخر باننى كنت من أوائل مريديك وفى مقدمة من تتلمذوا على مدرستك الحديثة .

سألتنى مرة اذا كنت أجد من أتحدث معه باللغة الفرنسية هنا .. ومشكلة اللغة يا صديقى أو كما يسميها صديقنا الشبلى « قضية اللغة » .. هى قضية طريفة لكنها تحتاج لمجال أوسع فأفضل أن يكون حديثها الخطاب المقبل .. اما الآن فاليك كل تمنياتى وسلامى وقبلاتى »

اخوك المخلص ــ حلمى رفله

٢٥ فبراير :

تدريب بمسرح الكوميدى فرانسيز على مهزلة « قبعة من القش الايطالى » للكاتب المسرحى الفياض لابيش . كما شاهدت بمسرح الاوبرا « هملت » بطولة المغنى سنجر . انه رائع فى دور « هملت » ، صوته قوى حار ، وشكله شكل أمير حقيقى . وقد عدل مسنيو جاك روشيه عن استعمال المناظر المرسومة ، ولجأ الى حيلة طريفة مستحدثة : استعمل درجا ثابتا بعرض المسرح ، ووضع أعلى هذا الدرج « بسطة » خلفها شاشة بيضاء ، يسلط عليها من الكواليس فانوس سحرى من اليمين وآخر من اليسار ، يعكسان على الشاشة الخلفية المنظر المطلوب . فتارة هو قاعة العرش أو أبراج « قصر السنور » أو حجرة نوم الملكة او مقبرة .. الخ . وكل ذلك بابسط الوسائل واسرعها وأروعها .

اشتهرت عن نابليون بعض « اللوازم » الخاصة ، يمكن للممثل استغلالها مسرحيا . فمن ذلك انه عندما يكون مستغرقا فى تفكير عميق ، كان يرفع كتفه اليمنى مرارا ، ويلوى فمه نحو اليمين ، كما لوحظ عليه انه اذا اشترك فى حوار هام مع وزرائه يقتضيه انتباها دقيقا كان ينسى نفسه ، فيتناول مدية ، أو أية آلة حادة ، ويأخذ فى تقليم مساند الفوتيل الذى يجلس عليه ، مما كان يضطر الحاشية بعد انتهاء الجلسة الى حمل الفوتيل لورشة نجارة القصور لاصلاح ما أفسده الامبراطور .

٢٦ فبراير :

خطابان لبعض المراسلين الباريسيين .

قمت بزيارة المسيو فابر فى منزله ، وقدمت له مشروع تركيب جهاز للاضاءة بمسرح الازبكية ، عن مقايسه لشركة كليمانصون .

« المحكمة الثالثة » بمسرح الاوديون فى حفلة الماتينيه بطولة الممثل اندريه بروليه ، الذى طعن فى السن ، وفقد صوته الجهير ، بيد انه عوضنا عن ذلك بأداء حار ذى ايقاع سريع وحركة دائبة وحيوية فياضة ، انتزعت اعجاب الجمهور ، وجعلتنا نؤمن أن الشباب الحقيقى هو شباب القلب !

درس فى التمثيل مع مسيو فيتراى ، بمعهد باتى . وقد دونت فى مذكرة خاصة كلامه عن ازدواج الشخصية الآدمية فى تحليله لدور « فالير » بمسرحية البخيل . كما أنه تحدث عن تأثير المهنة فى حياة الناس .

أشهر مؤلفى الميلودراما فى فرنسا هم : دينيرى ، وبوشاردى ، وبيكسيريكور ، وبورجوا ، وفريدريك سوليبه ، وأوجين سو ، وغيرهم .

ذكر لى مسيو فابر خلال حديثنا صباح اليوم كلمة مأثورة عن موريليير بواب الكوميدى فرانسيز ، الذى كانوا يسمونه بيت موريليير وليس بيت موليير ، لان البواب المذكور كان يفرض على هذا المسرح سلطانا واسعا يخضع له الجميع . فقد كان يقول : « مهما احسنت الكوميدى فرانسيز فهى فى نظر نقادها مسيئة » .

أمضيت ليلتى بطولها اقرأ فرانسيسك سارسيه الناقد المشهور الذى اشتريت الاجزاء الثمانية التى كتبها فى نقد المسرحيات خلال أربعين عاما لم ينقطع خلالها ليلة واحدة عن مشاهدة التمثيل .

٢٧ فبراير :

انتهيت الساعة من معاودة قراءة الجزء الأول من كتاب « أربعون عاما من المسرح » للناقد فرانسيسك سارسيه . وهو من أنفس المراجع عن نقد المسرحيات الكلاسية . أى وضوح فى نظرته المسرحية ! ان قراءته تلذ لى كما لو كنت أقرأ قصة مثيرة ، ومع ذلك فجميع آرائه صائبة ونقده فى الصميم وهو يتجاوب مع قرائه لايثاره الوضوح الشفاف . وهذه خاصية يميل اليها الشعب الفرنسى .

ما زلت أواصل قراءة فرانسيسك سارسيه . وقد أعدت قراءة الجزء الثانى الخاص بالكوميديا .

مارس

٥ مارس :

ندوة فى نادى الفوبورج عن « الـكاجولار » ، وهم عصابات الملثمين. وقد انتهت المداولات الى معركة حامية الوطيـس بين جورج كلزانت ، المحرر « بالاكسـيون فرانسيز » ، وبين مخالف له فى الرأى كان سابقا من باعة هذه الصحيفة التى تنادى بعودة الملـكية. ما أشجع هؤلاء الفرنسيين فى ابداء آرائهم ! هذه بلاد الحرية دون شك ، فلـكل مواطن هنا الحق فى المجاهرة بكامل فكره دون خوف أورهبة . وهذا فى عرفى اجمل ما فى فرنسا ، فهو يشعرك بتقديسهم لـكرامة الانسان واحترامهم لكل رأى مهما كانت الطبقة التى ينتمى اليها صاحبه .

« جوليان بندا »

تقول بورشيا لبروتس فى مأساة « يوليوس قيصر » لشكسبير : « انى ابنة كاتون ، وقد دخلت بيتك لا لاشاركك مضجعك ومائدة طعامك فحسب، بل لمشاركتك فى احزانك وهمومك » .

من لى بمثل هذه المراة المثالية ؟ !

خطاب للأسرة .

درس عند باتى مع مسيو لوسيان نات .

سينما : فيلم « ديزيريه » ، بطولة ساشاجيترى .

تقول « مدام دوسان » الممثلة الاديبة ، فى كتابها « الممثل بلا متناقضات » : « على الممثل أن يكون على المسرح فى حالة من التوتر الحار » . وهى هنا تتوسط الطريق بين نظرية الفيلسوف ديدرو ، الذى يطالب الممثل بتغليب العقل على العاطفة ، والنظريه الاخرى ، نظرية مونيه سوللى وسارة برنار التى تتلخص فى تقمص الدور ونسيان الممثل لشخصيته الخاصة وفنائه فى الدور الذى يمثله على خشبة المسرح .

وهذه النظرية الاخيرة لها خطرها ومساوئها . فقد شاهدت عام ١٩١٧ ممثلنا القدير عبد الرحمن رشدى ، وكان مشهورا بتقمصه لادواره ، حتى انه كان يبكى بكاء حقيقيا فى دور تيمور بمسرحية لويس الحادى عشر ، وكان صدقه هذا يؤثر فينا أبلغ التأثير ، بيد أنه فى مسرحية «ماكبث» التى كان يقوم فيها بدور«مكدوف» قد غلبه الانفعال العميق الذى يلغى كل رقابة من عقله على تمثيله ، الى حد أنه ارتبك فصرخ قائلا : أنا ماكبث .. ثم توقف عن الكلام وقد ذهل فجاة فجعل يردد : أنا مكدوف ، أنا ماكبث ، أنا مكدوف ، أنا ماكبث و « علقت معاه » ، فاضطر الريجيسور ــ انقاذا للموقف ــ أن يسدل الستار .

يبرز الكاتب الفريد مورتيه فى « دراسات ايطالية » نظرية النسبية التى تتخلل جميع مؤلفات بيراندللو . وقد اقتطفت بعض الفقرات الهامة التى وردت فى هذه الدراسات ، منها قوله : « ان مأساة الانسان تتركز فى استحالة أن يعيش حياته دون أن يفكر فيها . وهكذا يشعر بحاجته الماسة الى تكوين رأى عن نفسه وعن الآخرين ، الا أنه لما كانت نفوس الناس مستغلقة ، فلا يعرف الواحد منا عن الآخر سوى الفكرة التى يفترضها

عنه . لذلك فمن المؤكد فى هذه الحالة ان يخطىء المرء ليس فى معرفة الآخرين فحسب ، بل وايضا فى معرفة نفسه . كل ما فى العالم وهم وخيال ، ونسنا نملك سوى يقين واحد وهو اننا فرسة للمظاهر » .

٨ مارس :

تدريب على مسرحية « قبعة من القش الايطالى » بالكوميدى فرانسيز .

درس عند بالى مع مسيو فيتراى .

أمضى الليلة فى حجرتى بالفندق فى صحبة خير الاصدقاء : الكتب . كما يقول شوقى :

أنا من بدل بالكتب الصحابا
لم أجد لى وافيا الا الكتابا

١٠ مارس :

الساعة الآن السادسة والنصف صباحا . انى أستمع لقرع أجراس كنيسة سان سولبيس ، وانا اطالع بقية الجزء الثانى من كتاب «أربعون عاما من المسرح» الخاص بموليير . أنا أيضا مثل القديس بولص ، قد فزت براحة القلب فى كتاب بعيدا عن العالم .

خطاب لمطران بك

١١ مارس :

يمثلون فى هذه الاونة على مسارح باريس عدة روايات « كالمتوحشة » لانوى ، و « جنون الحب » لبيريه شابوى، و « أهل اللامبالاة » لستيف باسور . وهذه المسرحيات من الممكن أن نسلكها جميعا فيما قد يسمى بمسرح القسوة . وعلى الرغم مما تعالجه هذه التمثيليات من

مواضيع عنيفة قاسية ، فقد لاقت اقبالا عجيبا عليها من الجمهور . فهل هذه عودة الى المدرسة الواقعية ؟ مهما تكن الحقيقة مرة ، فالناس ميالون بطبعهم الى سماع صوتها الصارم . وقد عمد هؤلاء المؤلفون الثلاثة الى المصارحة بالحقيقة العارية ولم يتورعوا عن اقتحام التحاليل الجريئة وتصوير اخفى الغرائز الدنيا . ولكنى اميل أيضا الى مسرح آخر يعكس لنا حقيقة الانسان بشكل مختلف . أوثر ذلك المسرح الذى يقدم للنظارة بدلا عن هذه الفظائع السافرة تحليلا صادقا مبطنا بشيء من الجمال والسمو . فنرى الانسان على المسرح صورة لما يتمنى المشاهد أن يكون لا صورة لما هو كائن .

يقول فرانسيسك سارسيه :

« أليس تهذيبا للناس أن ننتزعهم لمدى ساعات من مشاكلهم اليومية الحقيرة وأن نجبرهم على رفع أذهانهم نحو آراء جليلة ، نحو لوحات نبيلة ، وأن نزودهم بشجاعة تؤهلهم لمحاربة الدنايا والشهوات والمؤامرات التى تدبر من حولهم ، وذلك بعرض آراء مفيدة بطريقة بهيجة مسلية .

على هذا الاساس تكون هزليات موليير اخلاقية .

استمعت اليوم فى السوربون الى محاضرة لاندريه موروا عن الكاتب والكتاب والقارىء ، اقتطفت منها بسرعة الفقرات التالية :

انما يكتب الكاتب للتفريج عن نفسه .

مارسيل بروست والاشجار الثلاث :

بعد أن صور بروست هذه الاشجار أرسل تنهيدة شبيهة بنقنقة الدجاجة بعد أن تبيض .

الرجل السعيد حقا فى غير حاجة الى الكتابة .

جميع الكتاب تقريبا لم يكونوا سعداء كل السعادة.

كان فلوبير مصابا بالصرع ، وكان ستندال أكرش قبيح الوجه .

الفن اذن عند هؤلاء الكتاب تعويض عن النقص ، وثورة على واقعهم الانسانى وحاجتهم الملحة الى التعبير عن المختزن المكبوت فى أعماقهم .

لا يمكن للقارىء أن يهتم بكتاب ما الا اذا كان هو نفسه فنانا .

ان كتابا زهدت فى قراءته صبيا ، قد يثير اعجابك وانت شاب . فكل قارىء له المؤلفون الذين يؤثرهم على غيرهم .

أية قراءة ممتعة لهى نوع من التطهير .

تحاش أن تحلم دون أن تعمل ، فهذه الاحلام الباطلة تقود الى اخماد عزائمنا وتعفنها .

يفرض الفن تنظيما لفوضى الحياة ، وهو فى تصويره لها يبعثها ويخلقها من جديد .

١٦ مارس :

أنفقت ليلتى فى قراءة كتاب عن فن المسرح للممثل تيسران . اقتطف منه الفقرات الآتية :

هناك ثلاثة أشياء ضرورية لتكوين الممثل : الطبيعة ، الحرفية ، الفن .

لايرى الممثل نفسه ، ولا يستطيع الحكم على مواهبه ، فهو غالبا ما يتصور نفسه بخلاف ما هو فى الحقيقة .

الحرفية تعلم الممثل كيف يسير ، كيف يلقى ، كيف يتنفس « وعملية التنفس خمسون فى المائة من فن التمثيل » ، كيف يتحرك ، كيف يومىء ويشير .

بعض الممثلين الممتازين يجيئون الى العالم وقد الهموا هذه المبادىء بالسليقة ، فسرعان ما يسيطرون على

جماهير المسرح : أولئك هم العباقرة .

يحتاج الممثل ليدرس أدواره الى أستاذ ، وهذا الاستاذ لا يمكن أن يكون الا ممثلا ، فلا يستطيع المرء أن يدرس سوى ما يعرفه .

ان حرفية المسرح هى جذع الشجرة ، والفن زهرتها من الممكن أن يكون هناك جذع بلا زهرة ، ولكن لا زهرة بلا جذع .

ينبغى أن ترسم الشخصية المطلوب تمثيلها كما يرسم المصور صورته : فنبدأ بتكوينها فى خطوطها العامة ثم نرسمها ثم نوزع ألوانها ونلقى الظلال والاضواء هنا وهناك .

عندما لا يستطيع الممثل أن يتقمص دوره ، فانه يجذب الدور الى شخصيته ، فينجح أحيانا نجاحا كبيرا ولكنه غالبا ما يتسبب فى سقوط الرواية .

فن المسرح هو فن التعبير عن العواطف البشرية ، لذلك فالاحساس المرهف بتلك العواطف هو الشرط الاول للنجاح .

الاحساس اذن هو رأس الشروط المطلوبة للممثل . وما دام عمله يحتم عليه أن يشعر وأن يعبر عن أهواء النفس ومظاهر تلك الاهواء . فالممثل الذى لا يواتيه الشعور بها لا يمكنه التعبير عنها .

أهم الصفات التى ينبغى أن يتحلى بها الممثل هى دقة الملاحظة . الاحساس هو المضمون والملاحظة هى الشكل . أيها الممثل انزل الى الشارع ولاحظ مختلف التعبيرات على وجوه الناس واقبس مظاهر فرحهم وحزنهم وسخطهم ورضاهم ، سخريتهم ، حقدهم ، حسدهم ... الخ .

ان ما يروق للجمهور ليس دائما النبرة الطبيعية أو

الاحساس الصادق . هناك حركات مفتعلة وأصوات مجلجلة وايماءات نابية قد تنتزع اعجاب المشاهدين ، ولـكنها هادمة للفن .

فليحذر المثلون من النجاح الاول. ان النجاح الواحد أصعب حملا من عشر سقطات . بعد النجاح يقول الممثل الناشىء وداعا للنصائح وداعا للعمل ، ويعمد الى التأثير على جمهوره بكل الوسائل حتى ولو كانت هابطة ، وفى سبيل التصفيق والهتاف يضحى بكل شىء : بالطبيعة والقصد والصدق ، ويستحل الخروج والمغالاة والتهريج وهكذا يضل سبيله على ذلك الطريق المليء بالازهار التى تخفى أشواكا .

تدريب بمسرح الاوديون على مسرحية « شاترتون» .

يقول مريجكوسكي فى كتابه عن المؤلف المسرحى الاسبانى كلديرون : الارادة هى محور الالهام الجوهرى لكل حدث درامى ، فحيث لا توجد ارادة لا توجد مأساة .

ان ما يشكل التأثير فى كل مشهد هو الحركة ، وما يلمسنا نبض الحياة هو الارادة ، أما أساس الدراما فهو الحدث .

ان أبطال المسرحيات المعاصرة يحسون ويتأملون ، أما أبطال كلديرون وسوفوكليس وشكسبير فيشتهون ويعملون .

تقوم التراجيديا اليونانية على القدر وعلى الصراع بين الانتقام والعدل ـ ذلك الصراع المسيطر على العالم . أما المأساة المسيحية فقوامها الله وفكرة الحب التى تشمل الوجود وتحرك الشموس والكواكب .

الفكرة الاولى لاية مسرحية يمكن أن تستمد من أربعة أشياء محددة : قد تستلهم من نظرية أو خلق أو موقف أو بيئة يريد المؤلف تصويرها .

كل موضوع يقتضى الكاتب تأليف بعض مشاهد يضعها تحت أنظار المشاهدين ويستحيل عليه التهرب من عرضها ، فمن واجبه مواجهتها بصراحة وتحويلها الى حدث يشاهده الجمهور . فهو كلف بطبعه الى هذه الرؤية المجسدة ويشعر بخيبة أمل شديدة ان وقع هذا الحدث خلف الابواب المغلقة أو قام بسرده أحد الاشخاص .

يجب أن ينبع الموقف الدرامى من صراع داخلى ويتكون من ثلاث زوايا : الاولى ملاحقة هدف ما ، والثانية الارتطام بالعقبات ، والثالثة تحقيق ذلك الهدف . والمثل على ذلك : الموقف الدرامى لشخصية تتلهف على الخلاص من أحد المآزق : الشخصية المعذبة ، العقبة ، المنقذ ..

١٧ مارس :

« شاترتون » بمسرح الاوديون ، بطولة لوسيان بسكال الذى مثل دوره بطريقة رومانسية ممتازة . فهذا هو البطل الرومانسى كما رسمه الشاعر الفريد دى فينى بوجهه الملهم وآلامه العميقة من قسوة الحياة والناس . لقد هزنى أداء هذا الممثل هزا عنيفا ، وقد طفرت دمعة من عينى وأنا أسمعه للمرة الرابعة يقول تلك الجملة المروعة وهو يتناول السم : « أخيرا أصبحت حرا ومساويا للكل » . فالموت وحده ينقذنا من ضعة النفوس وحقارة شهواتنا ومن ظلم البغاة والزلفى وتصعير الخد أمام ذوى السلطة والمال واحتمال شتى الاهانات والشعور بالنقص وذل السؤال . ومن منا لم يشعر بكل هذا ؟

كان الشاعر الرمزى الكبير « مالارميه » يطالب بمسرح

حر لعرض الاساطير والقصص الخيالية . وهكذا يفهم المخرج جاك كوبو المسرح، فيقول فى محاضرة له استمعت اليها فى مسرح بيجال : « لا ينبغى أن تكون خشبة المسرح الا مملكة للكلمة والفكر . فما الداعى لان نزحمها بالمناظر والاثاث والاكسسوار » . ومن هنا يدعو كوبو لمسرح صارم وخشبة عارية من كل زخرف ، انه يؤثر التزمت والاقتصاد فى اخراجه ويسمى هذا : تخلص الفكر من ربقة الزخرف وسيطرة المؤلف المباشرة على آلية المسرح .

١٨ مارس :

اليوم ذكرى عيد ميلادى ، فقد ولدت فى الثامن عشر من شهر مارس عام ١٩٠١ ، وقد احتفلت به في حجرتى وآثرت أن أطعم بمفردى ، فأحضرت من سوق سان جيرمان بيضتين وشريحة من اللحم وقطعة من الجبن الايطالى اللذيذ الذى أحبه : البارميزان ، وبعض الفاكهة ووضعت كل هذا على منضدة صغيرة تتوسطها تورتة بها عدد من الشموع الموقدة يوازى ما بلغته من أعوام العمر ، ثم غمغمت صلاة قصيرة أحمد فيها الله على ما أغدقه على من نعم ، وبعدها فتحت ديوان شعر «أدمون هاروكور» وأخذت أمتع نفسى بشهى الطعام وعبقرى الشعر . وقد وقعت على قصيدة لهذا الشاعر استغرقنى الاعجاب بها الى حد انى صممت على ترجمتها ، فشغلت بذلك عن كل شيء ونسيت اطفاء الشموع ، فساحت فى التورتة و « بقت الحكاية خلطبيصة » .

٢٠ مارس :

تدريب بالاوديون على مسرحية « الملك ــ الشمس»

٢٢ مارس :

انتهيت الآن من قراءة « أجـواء » ، رواية اندريه موروا . وقد اقتطفت منها الفقرات التالية :

حب الذات عندما يمتد الى من خرجوا من أصـلابنا يحول الانانية فينا الى عطف ، كما يحول غريزة الملكية الى اندفاعات ودية ومشاركة وجدانية .

ان الآباء فى عصرنا الحاضر يقتلون ابناءهم أقل مما كان يفعل أجدادنا ، ولـكنهم يكرهونهم أكثر .

بحسب الطريقة التى تعامل بها الام أبناءها ، نستطيع أن نميز الطريقة التى تربت هى عليها .

لم تقم الاسرة الرومانية على المولد أو الحب ، بل على سيطرة الوالد التى لم يكن يمارسها الآباء حبا فى القوة بل تحت تأثير معتقداتهم الدينية .

هذه النظرية هي التي دافع عنها فوستيل دى كولانج فى كتابه العظيم « المدينة القديمة » .

لا يكره الآباء أبناءهم الخاملين الذين لا يستطيعون المفاخرة بهم بقدر ما يكرهون أبناءهم الآخرين الذين يتفوقون عليهم بمواهبهم الفذة ونجاحهم المبكر .

كان المعتقد قبل فرويد أن الاحساس بالجنس لايظهر عند المراهقة الا وقت البلوغ . لـكن فرويد اثبت أنه قبل أن تنضج الاعضاء التناسلية ، وفى الشهور الاولى بعد ميلاد الطفل ، توجد مناطق يسميها فرويد منـاطق غزلية ، يجتر منها الطفل ملذات من نوع جنسي. فالأم ليست فقط ينبوعا للملذات ، من وجهة التغذية فحسب بل أيضا من وجهة المداعبات وامتصاص حلمة الثـدى والهدهدة واحتكاك الطفـل ببشرة الام . الا أن هـذا الحنان يتجه أغلب الوقت ، وفى السنوات الاولى ، الى الجنس الآخر . فالصبى يتجه بعاطفتـه نحو الام ،

والبنت نحو الاب . هذا التعلق الذى يبديه الابن نحو امه هو الذى أسماه فرويد « عقدة أوديب » .

٢٥ مارس :

يقول مؤلف « أحقاد عائلية » :
بقدر ما تتطور احدى العواطف وتنمو وتبلغ ذروة عنفوانها الاكبر ، بقدر ما تنقلب الى عاطفة مضادة : حب ، حقد . اعجاب ، احتقار . توتر عصبى شديد ، انهيار تام .. الى آخر هـذه العواطف المضـادة التى يسميها فرويد ، العواطف المتوازية .
لاتلومن الحقد ، فهو النتيجة الحتمية للمعاملة السيئة
لو اننا نستعمل عقلنا بطريقة منطقية لما شعرنا بالحقد على أى مخلوق .
فمن واجبنا أن نصلح كل ما فى الطبيعة ونرقى به الى السمت الافضل .
الحقد يولد الحزن .
كان تمثال نيميزيس التى تضع أصبعا على فمها ، يمثل عند الافريق الهة « الاتزان » التى تحرم على المرء أن يفاخر حتى بانتصاره . هذا الاصبع على الفم يأمر بالصمت فى ساعة الفوز وساعة الالم ، ويطالب الانسان أن يكون متواضعا ومعتدلا .
يقول جوته فى حديث له مع اكرمان، سكرتيره الخاص:
ـ اننا نسير وسط أسرار عجيبة ، لا نعرف حتى ما يجرى حوالينا فى الجو المحيط بنا . وأى تأثير لهـذه الأسرار علينا ! !

٢٦ مارس :

بمسرح الاوديون : « شاترتون » ، و « فيم تحلم

الفتيات » . لقد استهوانى مسرح ألفريد دي موسيه لشاعريته ورقته وتحاليله الممتازة ، حتى بدأت أتساءل جديا عما اذا كان قد حان الحين لترجمة هذه الكنوز الرقيقة وعرضها على مسرحنا ، خاصة هذه المسرحية الاخيرة . فقد شببنا عن مسرح الميلودراما .

٢٧ مارس :

مكالمة تليفونية من مسيو فابر . انه يشكو من أن أخبار القاهرة قد شحت .

أشعر بانهيار عصبى . أنا فى حاجة لبعض حقن الساندوز لتقوية صدرى ، وليتنى أكف عن القراءة ، ولكن هل هذا ممكن وهى غذائى الروحى وسلوتى الوحيدة فى هذه الغربة ؟

٢٨ مارس :

أعطانى أحد الاطباء حقنة ساندوز فى الوريد أعادت الى النشاط والتفاؤل والقوة ، ولو أنى لزمت حجرتى بالفندق .

انتهيت من قراءة « المسرح» للمخرج فيرمان جيميه . وهو كتاب نفيس ، أو مجموعة أناجيل . أطلق مؤلفه على كل فصل منه كلمة انجيل ، فهناك انجيل موليير ؛ وانجيل شكسبير ، وانجيل كورنيل ، وانجيل راسين . الخ

ان جيمييه يقدس المسرح ومؤلفيه ، ويباشر فن المسرح كما لو كان كاهنا يقوم بمراسيم الصلاة والعبادة .

وأذكر بمناسبة انضمام جورج أبيض الى مسرح رمسيس عام ١٩٢٧ ، أنى ألقيت كلمة بهذا المعنى أبرزت فيها أن هناك حلقة مفقودة فى مسرحنا العربى ، وهى المسرحية الدينية . فقد نشأ المسرح فى العالم عند الاغريق

وفى العصور الوسطى داخل المعابد والكنائس كاسمى الروابط الروحية التى تصل المخلوق بالخالق ، بينما نشأ عندنا منذ مائتى عام مع « القراقوزات » التيأدخلها المماليك والاتراك معهم فى غزوهم لمصر. ومن هنا أحاطت بالتمثيل فى الغرب هالة من الاحترام والتقديس ، بينما « التشخيص » عندنا ما زال محل احتقار وازدراء . واعتقادى الراسخ أن الفن الحقيقى صنو للعبادة والصلاة

٢٩ مارس :

قمت اليوم بزيارة مسيو فابر فى منزله ، وحدثته طويلا عن كتاب المخرج الكبير فيرمان جيمييه واعجابى العظيم به ، فذكر لى فابر أنه قد عرفه معرفة شخصية وثيقة . وحدثني عن كلفه بالصمت وكرمه الحاتمى وعبقريته النادرة فى الاخراج ، كما حدثنى عن علاقاته بمشاهير رجال السياسة من أمثال فيفيانى وارستيد بريان وبول بونكور وكليمانصو ، ثم جعل يمتدحه كممثل نابغ، ويشيد بالتزامه حدود الطبيعة فى تمثيله واندماجه فى تقمص كل شخصية ، تقمصا يختلف من شخصية لاخرى ، كأوديب الملك والنائب هالير وقناع السعادة ، وغيرها . وذلك على الرغم من ضآلة صوته . وهذا ما تحققته بنفسى عام ١٩٣٠ عندما استدعانى الزميل يوسف وهبى للتمثيل فى باريس معه ومع عزيزة أمير ، فقد انتهزتها فرصة سانحة ورحت أشاهد مختلف الروايات . وكان من بينها مسرحية « الكلبة » التى كان جيمييه يقوم ببطولتها « وهنا أفتح قوسا لاقول : ان مسرحية الكلبة هذه هى المسرحية التى نقل عنها يوسف وهبى مسرحية « أولاد الذوات » مقتبسة إقتباسا حرا » .

وقد لاحظت أنا الآخر شحوب صوت جيمييه ليلتئذ، بيد أن تمثيله وايماءاته المعبرة وتقمصه لشخصية الرجل المخون ، مما هز مشاعرى وعصر قلبى عصرا . وان انس لا أنس تقاطيع وجهه بعد أن علم بخيانة زوجته ، وكيف جمع ملابسه فى حقيبة وخرج فى صمت مذهل وقد تقوس ظهره وبدا لنا كرجل محطم دمرته المرأة تدميرا . وأمام كل هذا البؤس والالم الصامت ذهل الجمهور مدى ثوان ثم اندفع يصفق له بجنون مدى خمس دقائق متواصلة

درس بمعهد باتى ، مع جورج فيتراى .

شاهدت فى الكوميدى فرانسيز مسرحية «المسارات المزيفة » لماريفو باخراج يملأ العين والقلب بهجة. وهذه المسرحية تذكرنى برواية « روى بلاس» لفيكتورهوجو، الا أن البطل هنا وكيل القصر ، وهو شاب من أسرة طيبة يظفر آخر الامر بقلب سيدة القصر ، بعد المد والجزر الذى عودنا عليه ماريفو فى أحداث تمثيلياته الظريفة . وقد احاط المخرج هذه المسرحية بمناظر مضيئة رشيقة جديرة بعالم ماريفو، ذلك العالم المسحور الذى يشبه عالم الرسام « واتو » الذى اشتريت صورته المشهورة (الرحلة الى «سيتير») من «سوق البراغيث» بقرب باب فرساى .

من الحريات التى يجب أن يستمتع بها الكاتب المسرحي ليجيء خلقه سويا مستكملا شروط الفن والحياة ، حرية اختيار الاسلوب الذى يعالج به مسرحيته . فليس لاحد أن يفرض عليه أسلوبا خاصا ، فهو حر فى اصطناع الشعر أو النثر ، يستوى فى ذلك الموضوع التاريخى أو العصرى .

ان راسين الالهى ـ كما يسميه الفرنسيون ـ كان يصور شهوات أهل عصره ، وخاصة أشراف بلاط لويس

الرابع عشر ، حين كان يصور لنا مآسي الافريق وأبطالهم . ومع ذلك فقد كان يرسم شخوصه بواسطه الشعر ، ولم ينكر عليه أحد خلو مسرحياته من اللون المحلى .

فالموضوع هو الذى يتحكم فى الاسلوب ويمليه على الكاتب . وعندما يكون الموضوع عاليا رفيعا يقوم على تحليل نفوس ممتازة وتصوير عواطف انسانية ساميه مشتركة ، يحل للمؤلف ان يكتب تمثيليته ـ عصرية كانت أو تاريخية ـ بالاسلوب الشعرى . فاذا ما كانت مسرحيته عادات تمثل لنا حياتنا اليومية فى تفاصيلها الصغيرة ، فللمؤلف أن يصورها بأسلوبنا . وبذلك يتم التطابق بين العامى الجارى الاسلوب والموضوع. وأقرب مثل يحضرنى الآن ، الاسلوب الشعرى الرفيع الذى عالج به شوقى مسرحية « مجنون ليلى » . وأسلوب الزجل الخفيف ، الذى لجأ اليه حين اضطر لتصوير الحى الزينبى وأبطال مسرحية « الست هدى » .

وفى الادب الفرنسى امثلة عديدة على اصطناع المؤلفين للأسلوب الشعرى فى مسرحيات عصرية أمثال فرانسوا بورشيه ، وموريس روستان ، وأوجين مانويل ، واميل أوجييه .. وغيرهم .

ان الشعر هبة الهية ، والشاعر المطبوع يقول الشعر مثلما تنير الشمس ويتدفق النهر . فكيف نطالبه بالتزام النثر حتى فى المسرحية العصرية ، وهو لا يحسن التعبير عما يختلج فى نفوس شخوصه الا شعرا ! ! فلنحاسبه اذن ، لا على أسلوبه فى الكتابة ، بل على ما يشيعه فى نفوسنا من صدق وجمال ومعقولية .

٣٠ مارس :

خلال مشاهدتى البارحة لرواية «المسارات المزيفة»

صعدت فى الاستراحة الى المسرح لتحية صديقى ماتيس، المنظم الاول للكوميدى فرانسيز. وفيما نحن نتجاذب اطراف الحديث ، مر بنا الممثل الكبير «يونيل» فقدمنى اليه صديقى ، فرحب بى أجمل ترحيب وانس بى كما انست به . ثم مضينا الى « الفوايه» ، وهو صالة متسعة لاستراحة الممثلين ، ازدانت جدرانها بصور كبار ممثلى الكوميدى فرانسيز منذ ثلاثمائة عام . وهناك جلسنا بقرب مدفأة من المرمر الفخم ، وضع عليها تمثال نصفى لموليير . وجعلنا نتبادل أحاديث المسرح الشهية فى مصر وفرنسا ورومانيا . فالمسيو يونيل من أصل رومانى . وقد حانت منى لفتة جانبية خلال حوارنا ، فلمحت صورة التراجيديان العظيم مونيه سوللى. حينئذ ثار فضولى وطلبت من محدثى أن يذكر لى الخصائص التى امتاز بها هذا الممثل العبقرى الذى تبوأ عرش التمثيل التراجيدى فى فرنسا خلال أربعين عاما ، فقال لى مسيو يونيل ما أثبته هنا بالحرف :

« كان مونيه سوللى زوبعة من الاحساس والجلال البلوكانى، اذا ما بدا علىالمسرح أخذتك مهابته واستحوذ عليك صوته وجرفك انفعاله الفوار . فأنت عالق بشفتيه يلعب بمشاعرك ما شاء له اللعب ، فما تلبث بعد حين من الزمن حتى تعود لا ترى سواه على خشبة المسرح . وما كان هذا التأثير السحرى يفارقه بعد أداء دوره بل كان يلازمه اذا ما عاد الى حياته العادية وانطلق يجوس خلال الحى اللاتينى الذى كان يسكنه بصحبة أخيه التراجيديان العملاق بول مونيه . فكنت ترى الناس يتزاحمون حواليهما ويتتبعون خطواتهما عن كثب ، لا لشهرتهما التمثيلية فحسب ، بل لان قامتهما المديدة وصوتهما المجلجل كان يوحى للناظرين انهما من طينة

اخرى غير طينة الانسان العـــادية ، بل أقرب ما تكون شبها بالارباب والعمالقة ، او كما اسماهم جان كوكتو، المخلوقات الشاذة المقدسة .

وأمثال هؤلاء الممثلين آخذون فى الانقراض . فمـــن النادر أن نجد فى أيامنـــا الحاضره من تؤهلهم مواهبهم الخارقة من جهارة صوت وشكل مهيب واحساس فاجع لتمثيل أدوار الآلهة والملوك والعظماء .

بدأت فى كتابة الفصل الاول من مسرحيتى الفرعونية مصر الخالدة ، بعـــد أن قـــرأت عشرات الـــكتب فى المصرولوجية .

أبريل

٤ ابريل :

تناولت عشائى الليلة بمطعم بروكوب بشارع الكوميديا القديمة وهو نفس المقهى الذى كان يتردد عليه كل ليلة الشاعر بول فرلين ويمضى الساعات الطوال فى تنـــاول الابسنت والقاء قصائده على المعجبين به ويجرجر حياته التعسة البوهيمية التى لم يقلع عنها الى آخر نسمة . هذا المقهى تحول اليوم الى مطعم شعبى ولم يبق من ذكرى ذلك الشاعر العظيم سوى تمثال نصفى من الجص .

ألبير كاريه المدير الســابق للأوبرا ولبعض مســارح البوليفار بدأ ينشر ذكرياته عن المسرح فى جريدة «الجورنال» وقد اختص اليوم الـكاتب الهزلى الـكسندر بيســون بمقال ممتع الخصه فيما يلى خاصة وقد ترجمت لهذا الـكاتب مسرحيتى « خروف » و « مفاجآت الطلاق » وهما ضمن أوراقى فى القــاهرة : « يزعم البعض أن مؤلفى الهزليات فى حياتهم الخاصة رجال حزانى تغلب عليهم الـكآبة والهموم لـكن هــذا لم يكن حال بيسون الذى كان كلفا بالضحك والمباسطة . وقد رشحه هــذا المرح الطبيعى لان يكون قسيسا فى قرية « ميــدون » لولا أنه كان الـكن ، مصابا بتهتهة أعيت نطس الاطبــاء فعدل فى آخر لحظة ، عشية تكريمه كاهنا ، وشلح ملابس

الـكهنوت السـوداء وفر الى باريس حيث أمضى عدة اسابيع يبحث عن عمل دون جدوى . وتفاقمت حاله ، وعضه الجوع بنابه الازرق وكاد يشرف على الهلاك لولا مصادفة سعيدة قادته الى حى الشانزيليزيه فى يوم صاح فاذا بالامبراطور نابليون الثالث يمر أمامه داخل مركبة فخمة تحيط بها كوكبة من الحرس وتتعالى من حواليه هتافات الشعب المدوية فخطرت لصاحبنا الجسور فكرة الاستنجاد بالامبراطور . وعلى التو أرسل اليه مكتوبا يشرح له الحال السيئة التى وصل اليهـا ويستشفعه ويلوذ به . وتتم المعجزة فيرد عليه الامبراطور أو بالاحرى يكلف من ألحقه بعمل فى ارشيف وزارة التعليم وفى الحال أعطوه ريشا وحبرا وورقا ثم ... نسوه .

وحاول ألكسندر بيسون أن يكتب فتناول الريشـة وغمسها بالحبر وخط بضع كلمات فاذا بالكلمات تتحول الى حوار ، والحوار الى مشاهد ، والمشاهد الى فصل واحد من الفودفيل حمله وذهب فسلمه لبواب مسرح « الجيمناز » وتمت المعجزة الثانية فقرأ مدير المسرح الرواية واقرها ومثلت ونجحت ، فشجع هذا النجاح صاحبنا على كتابة مسرحية أخرى .

وبدأ أمره يشتهر ونجمه يلمع وفرح زملاؤه بنجاحه كما أغضى رئيسـه عن مخالفاته المتعددة فقـد حرص « بيسون » على دعوته الى الحفلات الاولى لكل مسرحياته بيد أن هذا الرئيس اضطر يوما الى لفت نظر مرءوسه فقال له فى رقة متناهية :

ـ خذ قدوة من زميلك « دوران » الذى يحضر الى مكتبه يوميا فى الموعد المحدد وأحيانا .. قبل الموعد .

فكان رد صاحبنا :

ـ ربما لانه لا يجد الراحة فى منزله مع زوجة كريهة!

وقدم بيسون للكوميدى فرانسيز مسرحيته المشهورة « نائب بومبينياك » ويقول ألبير كاريه بهذه المناسبة : « ونجحت المسرحية نجاحا شجعنى على ان أطلب منه كتابة هزلية لمسرح الفودفيل الذى كنت أديره يومذاك. فجاءنى بعد ثلاثة أشهر بطرفته الظافرة « مفاجآت الطلاق » . وان أنس لا أنس أول عرض لهذه المسرحية فلم أشاهد عمرى النظارة تضحك بمثل هذه الطريقة الجنونية . كان الضحك يهزها كأمواج البحر فيتمايل الجمهور يمينا ويسارا كحقل من القمح تلعب به ريح عاتية وكان الممثلون يضطرون للتوقف عن التمثيل الى أن يهدأ الجمهور ويسترد أنفاسه . أما بيسون فكان يشاهد مسرحيته من مقصورة رجل المطافىء الذى كان يجهل شخصية الجالس معه ويزغده بكوعه ليحضه على مشاركته فى الضحك » .

شاهدت الليلة « شاترتون » و « فيم تحلم الفتيات؟» بمسرح الاوديون فى صحبة مدام مرجريت فايول ممثلة الكوميدى فرانسيز العجوز التى تحبونى بفسط وافر من العطف وتسمينى فى رسائلها الى : ربيع شتائها ! ! تسلمت خطابا رقيقا من الزميل حلمى رفله .

٦ ابريل :

الحى اللاتينى فى حالة غليان مستمر وقد تظاهر الطلبة وانطلقوا فى الشوارع يصخبون وهم ينشدون بصوت مدو أناشيد ثورية وقد وضعوا فوق رءوسهم « البيريه » التقليدية الخاصة بجامعة السوربون .

راقتنى هذه الابيات لموليير فى « مدرسة النساء » على لسان « أرنولف » وقد علم بخديعة « أنييس » له وثارت نفسه على النساء قاطبة :

ان أفكارهن خبيثة وأرواحهن هشة متهافتة .
ليس فى العالم أضعف منهن ولا أسخف .
ولا أقل منهن اخلاصا ووفاء ومع ذلك .
فالرجال يضحون بكل شيء فى سبيل هذه الحيوانات .

٩ ابريل :

زيارة لمسكن فيكتور هيجو بميدان الفوج مع فريق نادى « العبقرية الفرنسية » وقد القى اثنان من الممثلين بمسرح الاوديون قصائد للشاعر الكبير بطريقة رائعة خاصة قصيدة «الضفدع» . انى أحفظ من هذه الزيارة للمسكن الذى عاش فيه الشاعر ستة عشر عاما ذكريات لا تمحى . وقد استغرقنى الاعجاب وأنا أشاهد الصالون الفخم الذى كان يستقبل فيه زواره ، وجميع أثاثه من الطراز القوطى ، وهو من صنع يديه . بيد أن الذى اثر فى نفسى أبلغ تأثير هو غرفة نومه الضيقة بسريره من طراز العصور الوسطى وبقرب النافذة المطلة على فناء المنزل تقوم منضدة مرتفعة كان الشاعر يكتب عليها كل يوم ست ساعات متواصلة وهو واقف . وكان عمال المطبعة يحضرون لجمع الاوراق المتساقطة من « شجرة البلوط » هذه ، على حد تعبير من كتبوا سيرة الشاعر الخالد .

١١ ابريل :

لقد ضحكت الليلة حتى البكاء كما يقول الفرنسيون ، فقد شاهدت فى الكوميدى فرانسيز مهزلة « موليير » الشهيرة « البورجوازى النبيل » . وهى كوميديا عادات تنتهى « بفارس » وتمثلها فرقة بيت موليير بحمية مسعورة وفنتازية جديرة بكل اعجاب وتتخلل التمثيل

رقصات واغان وموسيقى .

١٢ ابريل :

« سبتمبر » للكاتبة كونستانس كولين بمسرح الفيوكولومبيه . موضوع المسرحية مكرر مستهلك بيد انه يمتاز فى رأيى بتصوير صادق للجيل الحاضر، وخاصة للطلبة المراهقين . يصورهم فى خشونة طباعهم والفاظهم، فى أنانيتهم وقحتهم ، فى جفاف احساساتهم، فى استعمالهم للكلمة البذيئة واللفظ النابى ، فى كرههم للمشاعر الوجدانية . ان النفوس فى هذه المسرحية عارية ، أشبه ما تكون بطراز البيوت العصرية . وقد سمعت فى الفصل الثانى فتاة تناهز السابعة عشر تعرض على فتى يذاكر معها أن يضاجعها كما لو كانت تطلب منه بكل بساطة كوب ماء . لقد صعقت تلقاء هذه الاباحية ، وشاركنى الجمهور الباريسى نفسه استنكارى لهذا الخروج على الآداب العامة بهمهمة ساخطة . على أن هؤلاء الشبان ، على الرغم من هذا الفجر فى سلوكهم الظاهر، وعلى الرغم من عدم مبالاتهم ، فهم فى أعماق نفوسهم على شىء كثير من السذاجة والبراءة . أما الممثلون والممثلات فتبلغ سنهم سن الادوار التى يلعبونها . وقد امتازت من بينهم الصغيرة بوريل، وهى حفيدة الممثلة العظيمة ريجان خطاب الى مطران بك .

١٤ ابريل :

استمعت الى محاضرة للكاتب جان كاسو عن المسرح الاسبانى وكبار مؤلفيه : لوب دى فيجا ، كالدرون ، دى كاسترو ، تيرسودى مولينا . انه لا يكف عن امتداح وفرة انتاجهم الخصيب . فكل واحد من هؤلاء المؤلفين

كتب ما لايقل عن ألف مسرحية .

وقد عقد فصلا شرح فيه النظرية الآتية :

ان علم الجمال الفرنسى لم يحفل يوما بالكم . ان عظة من عظات لافونتين ممكن أن تكون طرفة متكاملة كاحدى مسرحيات شكسبير . لقد قامت شهرة كل من بودلير ورامبو ومالارمين على كتاب واحد . وجان كاسو يعتبر مسرحية « الحياة حلم » لكلدرون احدى الطرف الانسانية الخالدة على نفس مستوى « هملت » للشاعر الانجليزى العظيم .

بعد سماعى لهذه المحاضرة فى المركز الدرامى ، سارعت بالاشتراك فيه . فقد علمت أنه ستلقى هناك محاضرات ابتداء من الثلاثاء القادم ، يقوم بها أعلام المسرح الفرنسى بين مؤلفين وممثلين ومخرجين ، من أمثال جان كوكتو ولنورمان وجاك كوبو وموسيناك وجوفين .. الخ .

١٥ ابريل :

تحصنت فى حجرتى بالفندق لاطالع كتاب لوسيان دوبيك عن المسرح العالمى ، وهو سفر نفيس من خمسة أجزاء انتقيت منها الفقرات التالية :

لما كان الحب دون العواطف البشرية الاخرى هو العاطفة الاعظم انتشارا بين الناس ، فلا موجب للدهشة ان رأينا مؤلفينا من ثلاثة قرون قد جعلوه محور دراساتهم الوحيد تقريبا : حب سعيد أو حب تعيس ، حب متبادل أو حب محتقر ، أفراح الحب أو أتراحه ، خيبة الامل فى الحب أو الغيرة بين العشاق .

ولما كان الحب عند الرومان واليونان لا يحتل سوى مكان صغير جدا فى حياة الناس الذين كانوا يقصرونه تقريبا على ارضاء شهوات الجنس . لذلك لم يحتل فى

المسرح اليوناني سوى مكان ضئيل جدا .

يقول مصمم المناظر بابست أن المناظر المشدودة على خشب ، والمرسومة على قماش لم تعرف فى فرنسا الا فى عهد الملك لويس الثالث عشر . فاذا ما كان المنظر مغلقا فهو يمثل واجهة منزل ، فاذا ارتفع منظـر الواجهـة شاهدنا خلفه منظر حجرة داخلية ، وبينما ننتقل من مكان الى آخر يجتاز المتفرج بخياله آلاف الاميال ويسافر من فرنسا الى تركيا . وكان الممثل اذا ما وقف بطوله فكثيرا ما يصل رأسه الى الدور الاول المرسوم بالمنظر.

فى مقدمة « بريتانيكوس » يقول راسين : يجب أن يكون قوام التراجيديا حدثا بسـيطا محملا بأقل مادة ممكنة ، كما يجب أن يكون حدثا يقع فى يوم واحد ، ويتطور شيئا فشيئا نحو الخاتمة المحتومة ، وهـذا الحدث يستمد قوته من مصالح وعواطف واهواء شخوص الفاجعة .

ـ ان البحث وراء اللون المحلى يرجع تاريخه الى عهد الرومانسية ، كما أن الستار لم يعرف فى فرنسا الا منذ عام ١٦٧٨ . هناك رأى شائع عن أنوار مقدمة المسرح « الرامب » يقول ان أول من استخدمها هم فقراء الممثلين الذين كانوا لايملـكون النجف لاضاءة المسرح ، فاستعانوا على ذلك بوضع شموع عند مقدمة المسرح . ثم تطور هذا النوع من الاضاءة فوصل الى ما نراه عليه فى عصرنا الحاضر من اتقان . ويحكى جان جوجون أن أهل الملاعب كانوا يضعون صفا من الشموع لاضاءة الممثلين . وأن بعض العمال من أهل « سافوا » كانوا كلما انطفأت تلك الشموع يسيرون اليها على أربع ويضيئونها من جديد أمام الجمهور الذى كان يضحك ملء شدقيه من هـذا المنظر الفكه .

ـ يذكر أفلاطون ان أسكيلاس كان يظهر سروره لانه تخلص من زمن طويل من ربقة شهوات الجنس .

ـ يجمع النقاد على ان فاجعة أوديب هي المثل الاعلى للميلودراما . وقد قال لى مسيو فابر انها أقرب الى الدراما البوليسية ، فانأوديب يحقق في جريمة يستكشف آخر الامر أنه هو الذى اقترفها وانه هو المجرم .

الساعة الآن الثالثة والنصف صباحا ، وقد انتهيت من مطالعة كتاب الشعر لارسطو ، ومائة صفحة من كتاب « تاريخ المسرح العام » للوسيان دى بيك . ما أمتع الساعات التى قضيتها بين هذين الكتابين . انى سعيد كما يكون المرء حين يحتك بالاعمال الشامخة الخالدة .

يقول جوستاف كوهين :

ـ ان المنظر الموحد الثابت الذى يجمع عدة مناظر فى صعيد واحد ، كما كان الحال فى القرون الوسطى هو المنظر الوحيد الذى عرفه المسرح فى فرنسا الى أن مثلت مسرحية «السيد» لكورنيل . ومن عجب أن المحاولات الراهنة لتجديد المناظر المسرحية تعود بنا الى المنظر الموحد على مسارح باريس والاقاليم ، حتى أنه لو قدر لممثلى العصور الوسطى أن يبعثوا ويعودوا أحياء من جديد ويمثلوا على هذه المسارح ، لما شعروا بفارق كبير . وهكذا نستطيع أن نقول أن رجال المسرح فى عصرنا الحاضر قد عادوا ـ أرادوا أم لم يريدوا ـ الى مناظر « الميستير » وأنهم يقبسون عنها رمزيتها وشكلها الموحد

ـ مما لاشك فيه أن مصممى المناظر « توريللى » و «ساباتينى» قد أثرا أعظم تأثير فى تقدم وتطور المناظر وآلية المسرح فى مطلع القرن السابع عشر الفرنسى .

يقول الشاعر اليونانى الفكاهى ميننذر :

ـ ابتعد عن محافل التكريم .

أحبب العمل .
وابحث عن السلام .

« يزعم البعض أن الآلهة لا تهتم بنا وقد تتساءل : «فمن يهتم بنا اذن؟» وأنا أزعم لك أن الآلهة قد ركبوا فى كل نفس حية خلقا للمحافظة عليها . ان خلق كل منا هو الذى يتسبب فى شقاء من لا يحسن المعايشة ، كما أنه يفضى الى سعادة من يحسن تصريف أموره . الخلق ! هذا هو علة شقاء أو سعادة كل انسان . فان شئت أن تكون سعيدا فاجتهد الا ترتكب عملا من أعمال الحماقة أو الاسراف وكن دائما على توافق تام مع خلقك !

كان الغناء منذ أقدم الازمنة أساســا لجميع فنون الادب « فقد كانت الاجزاء الغنائية للمأســاة اليونانية تنشد على أنغام الناى » كما أن الموسيقى والرقص كانا يمتزجان بالتراجيديا وكان الناى ذو القناتين والقيثارة هى الآلات المفضلة عند اليونان . أما الرقصات فقــد كانت تصاحب فى ايقاعها أحــداث المــأساة وتعبر عن عواطف النظــارة ، كما أنها كانت تزاوج حوار الممثلين وتجعله أقرب الى فهم البســطاء من المتفرجين . وكانت الجوقة تنقسم الى مجموعتين : مجموعة تمثل النص تمثيلا صامتا والاخرى تنشده. وهكذا كانت التراجيديا تقدم عرضا متكاملا يرضى أذواق اليونانيين فى كل مجالات الفكر ، وكان التمثيل يبدأ فى أثينا من الصباح الباكر ، وكان النظارة يأكلون ويشربون خلال العرض المسرحى ، فان راقت لهم الرواية صفقوا للمؤلف واستعادوا بعض مشاهدها . أما ان لم ترق لهم فقد كانوا يصفرون ، ويلقون الحجارة على الممثلين ثم يوالون مشاهدة الرواية التالية .

وبهذه المناسبة يحضرنى رأى الفيلسوف ارنست رينان

عن اثينا فى القرن الخامس ، قال :

« لقد وجد فى تلك البلاد شعب من أرستقراطية الفكر ، جمهور غفير مكون من أهل المعرفة والذوق ، يفهم أدق الوان الفن وينفذ ببصيرته الى أرفع درجات الادب مما يستعصى اليوم على أصحاب الذوق عندنا . نعم وجد جمهور يفهم ما يميز جمال الاكروبول وجلال البارتنون ويقدر العظمة والبساطة الحقيقيتين لاعمال اسكيلاس وسوفوكليس » .

« كان قرار المحكمين عن نجاح أو فشل الروايات ينقش على لوحات من المرمر وقد سجل ارسطو قائمة الاسماء كاملة . وهكذا لا نستطيع أن نقرأ اليوم على أقدم لوح من المرمر وصل الينا دون أن تهز نفوسنا هذه الكلمات :

« عندما كان بريكليس منظما لحفلات التراجيديا التى صرف عليها من حر ماله فاز الشاعر اسكيلاس على منافسيه فى مسابقة التراجيديات » .

«كان اسكيلاس مؤلفا وممثلا ومخرجا وكان من أصل نبيل وكذلك سوفوكليس . وقد عينته أثينا من شدة اعجابها بعبقريته قائدا أعلى للجيش . وعلى عكسه أوريبيدس فقد كان من أصل خسيس . وقد حكى أريستوفان الذى نقد أعماله أشد النقد وسخر منه فى مهازله أن أمه كانت بائعة حشائش فى السوق » .

١٨ ابريل :

لم تلق مسرحية « الملك ــ الشمس » فى الاوديون نجاحا كبيرا والبرهان على ذلك ضعف اقبال الجمهور وامتناعه عن التصفيق والتهليل . والحقيقة أنه على الرغم من بعض مشاهد ناجحة فى حوارها وتمثيلها ،

فان المسرحية سقيمة مهزولة ومصدر ذلك عدم وجود حدث قوى متطور . أكثر المشاهد مكتوبه لسد الفراغ كما يقولون . وما لا شك فيه أن تحليل شخوص المسرحيه على الرغم من صدقها يؤكد أنها باهتة ،والحبكة قوامها مؤامرات حقيرة واهواء منحطة من غير المعقول أن تعكس لنا القرن السابع عشر الذى يباهى به الفرنسيون والذى نحتفظ منه بأروع الذكريات . لقد قدم لنا المؤلف الناحية السيئة من الصورة . فلم يكن لويس الرابععشر رجلا نهما أكولا فقط ، ولم يكن زئر نساء تلهيه شهواته عن أعباء الحكم ويترك مقوده لندمائه وعشيقاته ، بل كان مهده يمثل أعظم العهود فى تاريخ فرنسا . ولويس الرابع عشر كان وما يزال من مفاخرها وهو جدير بكل تقدير . لقد أعطانا المؤلف صورة من الرجل ولكنه نسى الملك . وقد لمست تقصيرا وأخطاء صارخة فى الاخراج كما لاحظت تقصيرا معيبا فى تبديل المناظر ، وبهذه الطريقة يهدم المخرج الايهام عند كل تغيير .

٢٠ ابريل :

زيارة لمتحف اللوفر ومحاضرة ألقتها الآنسة دوميك وسط التماثيل اليونانية الجميلة وقد انعكست عليها الاضواء بطريقة مبهجة ، وقد شرحت لنا الآنسة المذكورة مختلف الاساطير الاغريقية وما أنتجته من تحف بلغت من الفن قمما شامخة كما شرحت لنا كيف أن هذه الآيات ما هى الا صور رومانية منحولة للتحف الاغريقية ففى القرن الثانى غزا الرومان البلاد اليونانية وفى طريق عودتهم الى روما حملوا معهم جميع التحف الفنية الاصيلة واستنسخوا منها تحفا من عمل الايدى الرومانية

وقد جعلتنا الآنسة دوميك نلاحظ أن وجوه جميع

التماثيل التى يعود تاريخها الى العهود القديمة باسمة على عكس الوجوه المنحوتة فى عهود قمة الحضارة او انحطاطها ، فهى وجوه حزينة . ونفس الملحوظة فيما يختص بالنحت الفرنسي ، فكأن الانسان وهو يبتعد عن عهود البساطه القديمة يفقد مرح القلب ويسقط فى متاهات التشاؤم والكآبة .

كان الفن الاغريقى فى صميم جوهره فنا مثاليا ، على عكس الفن الرومانى الذى كان فنا واقعيا مثله فى ذلك مثل الفن الفرعونى .

٢٤ ابريل :

محاضرة عن مسرحية « تريستان وايزولت » بالمركز الدرامى .

زيارة لمتحف اللوفر ، ومحاضرة من الآنسة دوميك حفيدة الناقد الكبير رينيه دوميك .

يقول نيتشه فى كتابه « أصل التراجيديا » الذى انتهيت اليوم من مطالعته : « ان المعرفة تقتل الفعل » وذلك بمناسبة دراسته لهملت شكسبير .

٢٦ ابريل :

محاضرة لجوستاف كوهين عن الاخراج فى العصر الوسيط بالمركز الدرامى .

لجأ راسم المناظر فيرتيس الى حيلة مبتكرة فى اخراج مسرحية « المشاجرة » لماريفو فى الكوميدى فرانسيز. فالستار لايرتفع فى هذه المسرحية عن المنظر كما هو المعتاد ، بل يتقدم قزم رمزى من مقدمة المسرح وبيده مقص هائل يقص به الستار الى أعلى كى يكشف للنظارة عن منظر كله شعر وخيال .

وهذه طريقة مبتكرة .. وعصرية !

يقول لوسيان دوبيك فى تعريفه للكوميديا الخفيفة : هى رسم للعادات والاخلاق خلال حدث خفيف لا عمق له ولا أبعاد ، يصور المؤلف فيه وقائع الحياة اليومية بصورة باسمة كما يصور الحقيقة بألوان من العواطف البهيجة التى تعتبر كحلية تزين الحياة وليست جوهرا خطيرا لها .

ان المثل الاعلى للمؤلفى الكوميديا الخفيفة هو ماريفو

فى المسرح كلمات المؤلف الظريفة ونكاته المستملحة هى القضاء المبرم للكوميك الحقيقىالذى هوكوميك المواقف فى جميع مهازل موليير لا توجد كلمة واحدة تشعرك بأنها من كلمات المؤلف ، فهى أولا وأخيرا صادرة عنشخوصه المسرحية وخارجة من أخلاقهم وعواطفهم وزمانهم وبيئاتهم .

المسرح هو الجرم الاصفر الذى يعكس لنا المجتمع بأسره .

أمام المؤلف القصصى ميدان فسيح . خياله حر وكل شىء مباح له على شريطة أن تكون كتاباته ممتعة . أما فن المسرح فمحروم من هذه الحرية ، خاضع لقواعد ثابتة : فالمؤلف مطالب بان يشد اليه النظارة وأن يكون بصيرا بأصول مهنته ، وأن يتفادى الاسهاب ويعمد الى التركيز والقصد ما أمكن .

فى الحياة اليومية قلما نشرح أعمالنا للغير، بل يتصرف الكل أغلب الوقت حسب طبائعهم دون علم منهم ودون أن يحللوا اندفاعات غرائزهم .

ان فن كبار المؤلفين يتركز فى أن يوحوا لقرائهم ومشاهديهم بأكثر مما تعبر عنه الكلمات . وذلك باختيارهم للألفاظ وتنسيقهم لها على نحو ما ، ذلك أن

كبار الاساتذة يعلمون علم اليقين أن الفن الحقيقى يوحى ولا يشرح . ومع ذلك فلكى يبلغ الايحاء تأثيره العميق لا يجب ان يتحول الى نمط يستعمل فى كل لحظة ، بل لا ينبغى ان يلجأ المؤلف اليه الا فى المواقف الحاسمة لى يضىء الموضوع فى فقرات قوية موجزة .

يقول لوسيان دوبيك :

ان مدرسة التشاؤم فى فرنسا اليوم تجمع : برنار زيمير ومارسيل أشار وفيالار وناتنسون وباسور وبانيول ونيفوا الذين يجاهرون فى مسرحياتهم بعدائهم السافر للعواطف التقليدية واحتقارهم للحب وايثارهم الرياضه على كل شىء . وهؤلاء الشبان الجدد محقون فى تشاؤمهم، فانهم حيثما نظروا من حولهم لم يبصروا الا الخراب والدمار . يرون الحق مهانا والعدالة منهارة والحضارة مهددة بالفناء ، أكثر مما كانت فى أى عهد مضى. فعندما يقدم بلد ما مليونا وسبعمائة ألف من أبنائه كى ينتصر فى الحرب ، كما فعلت فرنسا ، ثم يجد مرافقه وقد تخربت تحت وطأة صراع المذاهب بين حكامه وجشع حلفائه الذين انقذهم من هزيمة محققة ، فمن الطبيعى أن الشبان الذين بلغوا العشرين ابان ذلك يدخلون العالم والسخرية على شفاههم والمرارة فى قلوبهم .

وظيفة الفن أن يحاكى الطبيعة والحياة عن قرب ، بحيث يصل الى المعقول والمحتمل .

القصة تحل خيطا ، أما المسرحية فتقطع عقدة .

المسرح الخالص : هو قراءة المسرحية على طريقة جاك كوبو وهى طريقة تحذف المنظر والتمثيل وخشبة المسرح .

لايوجد فى العالم أشنع من أولئك الممثلين الذين أفسدهم النجاح السهل ، والذين يتخذون أوضاعا اصطلاحية

فوق المسرح ، ويرون فى الحوار نوعا من الالقاء المفخم ، ويلعبون بحناجرهم كما يلعب العازف بكمانه ، فيعمدون فى أدائهم المفتعل الى استجداء الاعجاب والتصفيق بشتى الوسائل الرخيصة بين حركة وايماءة وصوت منغم . كل هذا الافتعال أهاج عليهم أهــل الذوق . لذلك فنحن نبارك المخرج العظيم أنطوان الذى ثار فيما مضى على هذا الزيف باسم الطبيعة ، وأطلق على أولئك الممثلين لقب « رجال المطافىء » .

٢٧ ابريل :

اقف احيانا الى نافذتى واتأمل نجما يلمع فى السماء وأسائل نفسى : « ترى هل يلمع هذا النجم أيضا فوق منزل الجاحدة التى نسيتنى ؟ » . صدق شكسبير اذ يقول : « ياسرعة التحول لو سميت لسميت امرأة » . لم تنسنى واحدة من عشرات الفتيات اللاتى ألتقى بهن هنا ذلك الوجه الآسر الذى استعبــد فكرى ، والذى سأحمل ذكراه الى مثواى الاخير !

يقول دوبيــك فى كتابه عن أزمة المسرح الفرنسى : لا يوجد فى المسرح قواعد يكفى المؤلف أن يحترمها ويطبقها ليكتب مسرحية ناجحة ، لــكن هناك قواعد أو قوانين يكفى المؤلف أن يتخطاها ليضل فى متاهات العمل الدرامى ففى الفن المسرحى لا يوجد سوى قاعدتين محتومتين : أولاهما ، أن الرواية التمثيلية هى فعل يعبر عنه بالحوار ، وقوام هذا الفعل هو شد اهتمام النظارة ، كما أن قوام الحوار ينبغى أن يكون هو الطبيعة .

ان مسرحية لا تثير احداثها اهتمام الجمهور ، ولا ينطوى حوارها على الصدق والحقيقة هى مسرحية من الممكن أن تكون عملا أدبيا مثيرا ، ولــكنها ليست رواية

تمثيلية . وهى بذلك أشبه ما تكون بالمثلث الذى يتكلم العالم الرياضى عنه حين يقول : « لو أن أحد أضلاع هذا المثلث يسقط ، فلا يوجد مثلث» . كل جهود المؤلف اذن ينبغى أن تبذل للعودة الى هـذه الآراء البسيـطة والحقائق الثابتة .

ان الابتكار والحركة والوحدة هي العناصر التى تثير اهتمامنا فى المسرح . كما أن الطبيعة والشعر والاسلوب هى وسائل الحقيقة .

مايو

١ مايو :

يقول الناقد الايطالى نارديللى فى كتابه عن سيرة حياة دانونزيو : لم يكن دانونزيو كهؤلاء الشعراء الذين يعنون بالحقيقة المجردة ثم يصبونها فى قالب شعرى ، ولكنه كان يتجنب تصوير الحقائق على علاتها ، وكان يأبى الا أن يضفى عليها حلية من الشعر مدفوعا الى ذلك بطبعه وسليقته .

يقول الناقد برونيتير : ان انسان القرن التاسع عشر وقد زهد فى القوالب المجردة ، التفت نحو الشىء الذى لم يخدعه أبدا : نحو الطبيعة ، فعكف على نفسه وعلى ما يحيط به ، وأخذ يستكشف أغوار قلبه ويسبر ضمير العالم .

ثم يقول : منذ أقدم الازمنة تكونت لغتنا الفرنسية وواصلت حياتها ونموها . انها تعيش ، أى أنها تتغير مع الزمن . فهى صورة شعب ، وصورة أعماره المتعددة كما هى صورة صحته وأمراضه .

شاهدت « الآنسة بورا » بمسرح بتيوئيف ، وهى مسرحية كلها اغراب ، مثيرة للفضول ، تصور العادات الريفية فى صدق ودقة ، الا أنها مليئة بتفاصيل الحياة

اليومية لدرجة انها تبطىء الفعل الدرامى . اما بطولتها فكانت معقودة للودميلابيتوئيف ، ولاول مرة اضيق بتمثيلها ، فهى لا تخرج فى أدائها عن بعض الحركات والايماءات والنبرات التى اعتادت ابرازها فى جميع أدوارها : حركات تظرف أشبه بحركات القطط ، اهتزازات الرأس يمينا ويسارا ، ابتهال العيون الى أعلى ، بحيث نرى بياضها الناصع ، ايماءات الوجه المتأرجحة بين الالم والالهام ، وفوق هذا كله فانى لم أطق أن أرى هذه المرأة الناضجة التى أنجبت خمسة من الاولاد فى دور فتاة صغيرة . أما المنظر الذى أحاط به بيتوئيف هذه المسرحية ، فقد خلق الجو الريفى الرتيب الذى يحمل على الملالة والسأم . وقد لاحظت سيدة أمريكية جالسة الى جانبى ، أنى أرسم كروكى للمنظر ، فرجتنى خلال الاستراحة أن أريه لها ، ففعلت وقد راق لها كثيرا وطلبته منى فقدمته لها عن طيب خاطر . وهذه السيدة ، كما عرفت منها ، ممن يعملن على ترويج المسرحيات الفرنسية وتمثيلها فى أمريكا .

٢ مايو :

درس مع لوسيان نات بمعهد جاستون باتى .

استمعت الى محاضرة بالفانوس السحرى لمسيو بيير ابراهام ، عن وظيفة الجسم فى المسرح ، وقد شرح لنا كيف أن جسم الممثل وتقاطيعه تتحكم فى صلاحيته لادوار بالذات دون أخرى ، واستشهد بالممثلة العظيمة « سارا برنار » حين رجاها الممثل الكبير « كوكلان » أن يلعب معها دور « ارمان دوفال » وألقى أمامها بعض مقطوعات من الدور ، فما كادت « سارة » تسمعه حتى أغرقت فى الضحك . وحين سألها عن السبب ، أعطته مرآة

صغيرة وطلبت منه أن ينظر الى صفحة وجهه ليرى أنفه المرتفع فى الهواء على شكل « ترومبيطـة » تبعث على الضحك وقالت له أنك عظيم فى الـكوميديا وقد أعدتك الطبيعة لهذه الادوار الباسمة ، فلم تحاول تمثيل أدوار المشاق والطبيعة لم تؤهلك لها ؟ وقد اقتنع «كوكلان» بهذا الرأى الصائب وأفرد جهده فى الادوار التى خلق لها فحلق على عصره فى أدوار الخدم بمسرحيات موليير وفى فلامبو وسيرانو دى برجيراك وغيرها من الادوار التى خلدت اسمه فى تاريخ المسرح الفرنسى .

٤ مايو :

تدريب بمسرح الاوديون عن « عطيل » . منـاظر مهندس الديكور اندريه بول كثيبة « مطفية » الا أن هناك فكرة فى الاخراج اعجبتنى ، ففى المنظر السـابع وضع المخرج بئرا واجلس عطيـل أمامه ، ولـكى يثير ياجو غيرة عطيـل على زوجته حرك المخرج ياجو حول البئر وهو سـادر فى كلامه ، يحوم حول قائده وكأنه العنكبوت ينسج خيوطه من حوله ، وقد رمزت حركته الدائبة الى محاصرته لذهن عطيل واثارة خياله بواسطة كلامه المسموم . وهذه فكرة مبتكرة يجمل الانتفاع بها

استوقف ذهنى أحد الخواطر التى دونها بيير لوتى فى قصته « الشجيات » .

« من يستطيع أن يقول لم يوجد على الارض هـذه الليالى الربيعية ، وهذه العيون السـاحرة وضحكات الفتيات وعبق أريج الحدائق التى تصعدها أنفاس الزهور فى أبريل ، وكل هذا السحر الخلاب تحيطنا به الحياة ما دام كل هذا مقدرا عليه أن ينتهى آخر الامر الى الوداع والفناء والموت ؟ » .

٨ مايو :

يقول افرينوف :

« تمتاز الصفحات الاولى لتاريخ الثقـافة فى العالم بأعمال جماعية : فالناس يصلون جمعا وينامون جماعة ، كما انهم يؤثرون الاستحمام معا فى الحمامات العامة ، ويقبلون على ممارسة الرذيلة والموبقات جماعة ، حتى الموسيقى فى عهـودها الغابرة كانت جماعيـة ، وكذلك جوقات المنشدين والرقص . كما أن المسرح فى مبـدأ نشأته كان للشعب جميعا . وبكلمـة مختصرة فالروح الجماعية هى التى كانت مسيطرة على كل مناحى الحياة »

١٠ مايو :

شاهدت بمسرح الاوبرا : « تاجر البندقية » ممثلة ومغناة بأستـاذية مع كبار المغنـين : سينجر وبريين وهيلدى . المناظر غاية فى الفخامة : منظر المحاكمة يذكرنى بلوحة «روشجروس» المشهورة التى شاهدتها فى متحف اللوفر . وهناك موسيقى رائعة للموسيقار رينلدوهان تضفى على العرض بأجمعه السحر والخيال وبريق الظرف الذى صاغ منه شكسبير العظيم هذه الكوميديا الخالدة .

محاضرة بالمركز الدرامى القاها علينا المؤلف الروائى: لنورمان . وقد اقتطفت من حديثه عن روايات القرون الوسطى : الميستير ما يلى :

« ان هـذه المسرحيات الطويلة كان ينقصها البنـاء والتحاليل الاخلاقية ، وكانت تستعيض عن ذلك بالكلام فى شتى المواضيع ، وتكثر من التفاصيل الفرعية لحكاية طويلة معقدة كالحياة ، وهذا يخالف الفن كل المخالفة ، فالفن انتخاب قبل كل شىء . وكانت هـذه المسرحيات

تجهل تماما وحدة المكان وتضع على خشبة واحدة مدنا بعيدة كروما والقدس ، كما كانت تزاوج بين عناصر الدراما والكوميديا ، وكان الانتقال السريع من البكاء الى الضحك يلمسنا روح العصر الوسيط . وكان جمهور ذلك الزمن من السذاجة بحيث يضحك ضحكا طويلاً لاقل بادرة لعصا ترفع ، لحمار يتكلم ، ليهودى يهز رأسه أو يضرب الارض بقدمه . كما انه يبكى بنفس السهولة. تلك أرواح لم تؤهلها التربية لالوان الصراع الاخلاقى ، لكنها على استعداد دائم للاستمتاع بجميع ضروب البهجة والوان الالم التى تعرضها تلك المآسى البسيطة الساذجة والخشنة فى آن واحد . وكانت مسرحية « الميستير » تستعرض الاحداث الصغيرة التى تجمعها الفاجعة فى أزمة واحدة . انها زاخرة بالحكمة كما أنها تؤثر عرض الجانب الخيالى فوق الطبيعى ، انها فى منتهى الاحتشام وأحيانا فى منتهى النبل كما أنها شعبية وفى غلظة « الفارس » التى كثيرا ما تمثل معها . انها عمل فنى بينما الفارس هو عرض للتسلية والترويح .

« السوتى » هى نقد يسخر فيه الصغار من الكبار.

ان الرواية الاخلاقية فى القرن الخامس عشر أصبحت الكوميديا الاخلاقية ، كوميديا العصر الكلاسيكى حيث يبذل الشاعر جهده ليجسد فى شخص واحد نمطا انسانيا كاملا أو خلقا انسانيا عاما .

١٢ مايو :

درس بمعهد جاستون باتى .

محاضرة من بيير باريبه فى نادى « التقارب بين الشبيبة » عن اتجاهات المسرح الحديث . وقد تعرفت بالمحاضر عقب محاضرته وظللنا نتحدث الى الواحدة

والنصف صباحا عن المسرح والاخراج ومخرجي الطليعة. وقد تفضل فأحاطني علما بجهوده الدراميـة : انه فى سبيل تأليف « تامار » وهى مسرحيـة استلهمها من التوراة ومن الـكاتب الاسبانى كلدرون . هذا الشـاب يشتعل ذكاء ، متوقد الذهن ، رفيع الثقافة ، وقـد وافقنى على رأيى فى أن المسرح الفرنسى اليوم أصـبح يغلب العقل على العاطفـة ، ويبتعـد شيئا فشيئا عن الجمهور الفقير .

ان المتعة التى يتذوقها الجمهور فى مشاهدة المسرح تختلف عن متعته فى مشاهدة السينما . فالمتعة الاولى ثقافية انسانية ، فان رؤية النظارة للممثل « بشحمه ولحمه » بتعبيرات وجهه المختلفة ، وقد تصاعدت من حوله حرارة الحياة شىء آخر غير رؤيته لصور متتابعة. أضف الى هذا أن المسرح يتيح للمتفرج نصا أدبيا ، على عكس الفيلم الذى لا يحتمل النصـــوص . والمسرح وحده كفيل بمعالجة المواضيـع الـكبيرة ومهمـا تكن الصورة موحية ، فلا يمكنها أن تحل محل الـكلمة . ان مشاهد التاريخ العظيمة ومآسى ومهازل الحياة الكبيرة ، أو الحب ، لايمكن للسينما الا أن تعبر بها صورا . أما فى المسرح فانها تعالج معالجة صريحة كاملة . لن يموت المسرح ، فهو مع الشعر والنقد ، أحد الاشكال الرفيعة لـكل نهضة أدبية فى حضارتنا الراهنة .

٢٠ مايو :

تدريب على « روى بلاس » بالـكوميدى فرانسيز . على أثر اختلاف فى الرأى ، ومقالات ساخرة ، تبـادل فيها الفريمان الاتهامات والشتـائم ، دعا ادوار بورديه مدير الـكوميدى فرانسيـز غريمه الـكاتب المسرحى

هنرى برنشتين الى المبارزة . وقد انتهت المعركة بجرح أصاب ساعد بورديه الذى رايته اليوم معصوب الذراع، وهو يراقب من الصالة تدريب مسرحية روى بلاس ! ما اروع هذا الدرس الذى يعطيه هذا الرجل لمرؤوسيه!

٢٢ مايو :

ان ما يبهرنى فى فرنسا هو حرية التفكير وحرية ابداء الراى والمعتقدات ، وخاصة حرية المراة ، تلك المراة التى تضفى على المجتمع الفرنسى ألوانا من السحر، وتنتزعنا من ابراجنا العاجية لتلقى بنا وسط هذا المجتمع المضىء الكامل البهيج .

هذه الحياة المدنية تربى فينا ملكة الذوق والرقة والآداب الرفيعة . فمنذ ما وطئت قدماى أرض هذه البلاد وأنا أردد مائة مرة فى اليوم كلمة : عفوا ياسيدى أو عفوا ياسيدتى اعتذارا عما يكون قد بدر منى فى الطريق أو على المقهى أو فى منتدى عام . ومما لاشك فيه أن وجود المراة الى جانب الرجل فى كل مكان مما يحبب اليه طعم الحياة ، ويدفعه الى الكفاح بأسلحة نظيفة .

٢٦ مايو :

كتب بن جونسون وهو منافس شكسبير النبيل ، كتب عنه بعد موته يقول : « اذا كانت الطبيعة هى مادة الشاعر ، فان فنه هو الذى يضفى عليها الشكل . ان العمل هو الذى يكون الشاعر بقدر ما يكونه المولد . ان الذى نظم الاشعار الخالدة عرف كيف يجهد نفسه ويطرق سندان آلهة الشعر مهذبا ، وصائغا أشعاره دون كلال، كما يهذب خلقه أيضا . فالشاعر الحقيقى يخلق نفسه

خلقا جديدا ، وأنت البرهان الحى ياصديقى الحبيب شكسبير . هذا ما أقوله عن فنه . أما عن شكسبير نفسه ، فأقول بأنه لم يكن شاعر عصره فحسب ، بل شاعر كل العصور » .

يحصون عيوب شكسبير فى :
ـ الحذلقة ـ المبالغة ـ الغموض .

يضع شكسبير على لسان هملت ، فى مشهده مع الممثلين ، هذه النصائح الحكيمة التى يوصيهم باتباعها لاجادة فنهم ، فيقول لكبيرهم : « أرجوك أن تلقى هذه القطعة من الشعر مثلما سمعتها منى فى القاء نشط ، أما أن تعمد الى النطق بها بكامل حنجرتك المدوية ، كما يفعل العديد من الممثلين ، فانى أوثر أن أكل القاء شعرى الى أحد المنادين فى الاسواق . واياك أن تمزق الهواء بمنشار يدك ، بل توخ دائما القصد والاتزان فى كل شيء ، فانه حتى فى أعنف ثوران المشاعر يجب أن تلوذ بالاعتدال الذى يضفى على تلك المشاعر عذوبة شائقة . انى لاشعر بأشد الالم حين أسمع مخلوقا أرعن يمزق كل ممزق جملة تعبر عن عاطفة صادقة ، فيصك أسماع الحاضرين بهدير الرعد دون أن يفهموا منه حرفا واحدا . مثل هذا الممثل الذى يتفوق فى ابراز عواطفه الصاخبة على جنون «أورست» ، خليق بضرب السياط . لذلك ألتمس اليك أن لا تنحدر الى مثل هذا الدرك المعيب » .

ـ أعدك يا مولاى .

ـ كما انى انصحك الا تكون فى تمثيلك تافها رتيبا مملا كابيا ، بل استرشد فى أدائك بمنطقك الخاص ، ووائم بين الاشارة والكلمة ، واحذر خاصة أن تخرج عن جادة الطبيعة ، فان كل غلو ينأى بنا عن الغاية التى

يستهدفها فن الممثل ، فتلك الغاية كانت وستبقى الى الابد منحصرة فى تقديم مرآة للطبيعة تعكس حياة الناس باظهار ملامح الفضيلة أو سوءات الرذيلة ، كما تبرز للمجتمع وللعصر صورته الصادقة .

لذلك لا يجمل بالممثل أن يغلو فى ابراز الحقيقة أو أن يتباعد عنها ، فقد تضحك هذه المغالاة الرجل الجاهل، ولكنها تحزن الرجل العاقل . وحكم هذا الاخير هو الحكم الذى يجب أن يعلو فى اعتباركم على حكم جمهور بأسره . وأخيرا فاني أنصح لبعض من يمثلون أدوار المهرجين ان لا يتعدوا ما خطه المؤلف فى أدوارهم من كلام ، فمنهم من يأخذ فى الضحك بلا مناسبة ، ليحمل الحمقى من المشاهدين على الضحك ، وذلك فى اللحظة التى ينبغى أن يتركز فيها انتباه النظارة على مشهد جاد وحوار جوهرى . هذا شيء بشع ، وان دل على شيء فعلى طموح رخيص عند المهرج الذى يعمد اليه .

والآن اذهبوا وتهيأوا للتمثيل .

ان النظرية التى اتبعها بن جونسون ، وبنى عليها أساس مسرحياته ، كانت الآتية : « كل انسان منا عبد لمزاجه الخاص ، أو بالاحرى أسير لطبعه الغلاب ، فهو الذى يسيطر على خلقه ويوجه حياته . ان الشخصية عند بن جونسون ثابتة ، وتظل مطابقة لخلقها الاول ، دون أن تتطور ، فلا تثرى المعنى ولا تفقره . واخطار هذه النظرية فى المسرح كبيرة . ففى استطاعة « بن جونسون » أن يحدد لنصه خطا مستقيما ، ووحدة لا غبار عليها ، كما أنه قد يخلق شخوصا مبتكرة ومختلفة، لكنه لا يملك أن يرسم خلقا واحدا طبيعيا ، فما شخوصه غير أنماط ، وليست مخلوقات انسانية منتزعة من الحياة مباشرة . ان تشاؤمه تلقاء العواطف ،

وسخريته اللاذعة من الحب ينأيان بمؤلفاته عن عالمنا الارضي ، ويحولان شخوصه الى مجموعة من المخلوقات الشاذة . وأقرب مثل على ذلك ، شخصيه فولبون !

يقول لوسيان دوبيك فى كتابه العظيم : « تاريخ المسرح العالمي المصور» : كان شكسبير أقل مؤلفى عصره ابتكارا للمواضيع ، فقد آثر أن يقيم بناء رواياته على مواضيع غيره التى ظفرت بالنجاح . والقائمة طويلة للروايات التى لم يقم بغير تحويرها من أمثال : هنرى السادس ، كوميدية الأخطاء ، سيدان من فيرونا ، ريتشارد الثانى، ريتشارد الثالث ، الملك جان ، تاجر البندقية ، هنرى الرابع ، ترويض النمرة ، دقة بدقة ، يوليوس قيصر ، ترويلوس وكريسيرا ، روميو وجولييت ، هملت ، الملك لير . أما بقية أعماله المسرحية ، فمأخوذة عن قصة طويلة أو قصة قصيرة أو حدث تاريخى من مثل : « كثيرا من الضوضاء للاشيء » ، « ليلة الملوك » ، «سيمبلين» ، «على هواك» التى اقتبسها عن لودج ، و « قصة الشتاء » التى أخذها من جرين ، و« كل شيء حسن ينتهى نهاية حسنة » التى استعار موضوعها من الكاتب الايطالى بوكاشيو ، و « عطيل » التى نقلها عن سنتيو . أما المواضيع التى هى خاصته وحده فهى : « نساء وندسور المرحات » ، و « حلم ليلة صيف » ، و « العاصفة » . وان كان لنا ان نشير الى ابرز الحقائق فى عبقرية شكسبير التى لم يجاره فيها أحد ، فاننا نقول انها : الخيال السحرى الجامح .

التراجيديا فى صميمها ازمة تتعقد ثم تنحل فى قوة .
ما أعمق وأروع هذه الاشعار لابى نواس :

الا كل حى هالك وابن هالك
وذو نسب فى الهالكين عريق

اذا امتحن الدنيـــا لبيب تكشـــفت
له عن عدو فى ثياب صديق

رواية « الخادم » للـكاتب الايطالى لويجى دولشى ، ألهمت قسما من مسرحية « البخيل » لموليير. كما أن مسرحية « الارواح » التى ألفها « لورنزينودى ميديشى» هى الاساس الذى قامت عليه رواية «مدرسة الازواج» لموليير ، و « العودة المفاجئة » لرنيار . الموضوعات اذن مشاع بين الكتاب ، وانما تفرق بينهم طريقة الاستيعاب والمعالجة . لقـــد استخرج « جيلهين دى كاسترو » موضوع مأساته : « السيد » من مجموعة أناشيد كانت متداولة فى القرن الثالث عشر . وبنى كورنيـــل آيتـــه الخالدة على مأساة الكاتب الاسبانى فهو لم يبتكر مادته لان العبقرية فى غير حاجة الى ابتكار مادتها ، فقد تلقى « هوميروس » مادته من الاساطير الشائعة فى عصره . كما أن « اسكيلاس » أخذ عن «فيرنوكوس» تراجيديا « الفينيقيات » ، والتقط « جوته » مادته عن أسطورة « فاوست » العتيقة .

فبين جميع هذه الروائع الـكبرى ، لا توجد واحدة لم يكن لها سابقة ممهدة .

يقول « سانت بوف » : اننا نلمس فى جميع أجزاء مسرحية « السيد » نخاع الاسد كما يقول : « تخيل ما شئت واحلم واكتب وابتـــكر ، فلن يكتب لعمـــلك الخلود الا بوساطة الاسلوب » .

فى مسرحية الـكذوب نجد كورنيل قد حاكى الكاتب الاسبانى « الارسون » لتشابه المزاج بينهما ، ثم لان أسبانيا فى ذلك العصر كانت الدولة الاولى فى العالم .

مما لا شك فيه أن طبيعة المسرح غير طبيعة الحياة السر فى الاداء المثالى على المسرح وفى التراجيديا على

وجه الخصوص أن يجمع الممثل بين العظمة والبساطة ، وبين النبل والشاعرية والحقيقة .

ان قاعدة القواعد فى المسرح الهزلى أن تروق للنظارة

النجاح الفنى الاعظم يتم عندما تلتقى العظمة بالطبيعة ، وخاصة عندما يصبح الجمال حقيقة ، والحقيقة جمالا .

٣٠ مايو :

انتهيت اليوم من قراءة الجزء الثالث من كتاب « تاريخ المسرح العالمى المصور » للوسيان دوميك ، للمرة الثانية .

يقول « بيير بريسون » : بين « كوميك » السست لوليير ، و « كوميك » شارلى شابلن مشابهة عميقة ، فكلاهما يضحكنا ، لان كلا منهما غير متأقلم ، ومن هذه الحالة الأساسية لعدم اعتياد الشخص للحياة الاجتماعية وتأقلمه بها يخرج ضحك عارم متجدد .

٣١ مايو :

شاهدت الليلة « الزفاف الدامى » للوركا ، وهى فاجعة أندلسية عنيفة هزتنى حتى الاعماق ، وقد مثلتها فرقة «ستار باريس» بمسرح الاتيلييه وأخرجتها فى بساطة مؤثرة وبوسائل متواضعة ضاعفت من قيمتها الفنية . هذا مسرح قوى مباشر ، مغلف بشاعرية تكاد تكون وحشية ، تعصر النفس عصرا . ان موت «لوركا» خلال الحرب الاهلية فى اسبانيا من أتعس أحداث تلك الحرب . وقد كان « لوركا » مؤلفا ومخرجا ومديرا لفرقة « براكا » المسرحية . أما أحداث هذه الفاجعة فانها تقع فى جبال الاندلس حيث الحياة البدائية الخشنة

التى لا يعرفها الشعراء ومنشدو الاغانى وهى تعرض ألوانا من الحب والحقد بين الاسر تذكرنا بأحقاد أهل كورسيكا وولوعهم بأخذ الثأر . ويعتقد « لوركا » أن الاعتزاز بالكرامة الانسانية قد انتقلت مع الزمن من الامراء والنبلاء الى الفلاحين. ونجد فى «الزفاف الدامى» جو مسرحية « السيد » ، ولكنه «سيد» فلاح ينتهى أسوأ نهاية . على أنى لاحظت أن قوة النص الفاجعة تتناقض مع القصائد الغنائية التى بعثرها «لوركا» خلال الرواية .

يقول جورج ميشو فى كتابه عن حياة موليير : لقد شعر موليير بأنه ممثل قبل أن يكون مؤلفا ، وقد أثر تكوينه كمؤلف مسرحى مدى ثلاثة عشر عاما قضاها متجولا فى أقاليم فرنسا أعظم تأثير على موهبته كممثل. فالرواية تبدو له أولا فى حركتها وفى ايقاعها التمثيلى ، وليس فى فلسفتها أو تحليلها أو جانبها الاخلاقى ، ذلك الجانب الادبى الذى يعرقل سير الحدث ، وعندما اضطر أن ينشر رواية « المتحذلقات » ، ودفع بها الى المطبعة ، اعتذر عن هذا العمل واصفا اياه بالخيانة ، فقال فى المقدمة : « بما أن جانبا كبيرا من طرافة هذه التمثيلية يعود الى التمثيل والحركة والصوت والايماء. فكان يهمنى الا أجردها من هذه المحاسن وأكتفى بنجاحها على ضوء الشموع ، ومع ذلك لم أتمكن من تحاشى طبعها » .

هذا النفور الذى يبديه الممثل موليير للدخول فى اهاب المؤلف ليس مصطنعا . انه يتفق مع مزاج موليير الممثل والفنان الصادق ، كما يتفق مع حبه للمسرح وأضوائه وممثليه .

يونية

١ يونية :

شاهدت كوميديا « الرئيسة » فى السينما ، تمثيل « الفير بوبسكو » و « ليفور » و «جارا» . وكان الاداء سريعا ، ظريفا ، باسما . وقد ضحكت كثيرا ، على الرغم من معرفتى للموضوع ، فقد مثلنا هذه الرواية فى رمسيس عام ١٩٢٦ ، وكانت من ترجمة الاستاذ عزيز عيد ، وقام ببطولتها عزيز وفاطمة ، وكان لى فيها دور « بوش » ، وهو بوليسى مترجم فكه للغاية ، تجاوب مع الجمهور تجاوبا شديدا .

٢ يونية :

راقتنى هذه الصفحة من قصة أناتول فرانس «جزيرة البنجوين » ، فترجمتها لمتعتى الخاصة .

أجمل الصفحات

لعظيم كتاب فرنسا أناتول فرانس كتاب خالد «جزيرة طيور البنجوين » تناول فيه القيم الادبية والاجتماعية

والسياسية التى يعيش عليهـا العالم المتحضر بالنقـد القارس والسخريه اللادعة ، فقد صور فى هذا السفر النفيس نشاة المدنيات والعقـائد والعواطف فى جزيره صفيره شـاء الـكاتب الشهير أن يرسـل اليها احـد القديسين ليبشر برسالة المسيحية فيعمـد جماعة من طيـور البنجوين توهمها لضعف فى نظره من الآدميين ، وشاء ربك أن يامر قديسه بتحويلها الى جماعات انسانية ، ومنـذ ذلك اليوم خرجت هـذه الطيـور عن غرائزها الساذجة الى مراتب الانسانية التى تدفع بها الى كل ما فى المدنيات من خير وشر. وأنا اقتطف هذه الصفحة بعد اذ تحولت هذه الطيور الى آدميين ..

... وفى صباح يوم من أيام الخريف بينما القديس « مائيل » يتنزه فى وادى « كلانج » النـدى صحبـة أحد رجال الدين يدعى « بللوك » من ضاحية ايفيرن ، رأى جماعات من النـاس تلوح على تقـاطيعهم الجافة سمات الشراسة وقد ناءت ظهورهم بما تحمل من أحجار غلاظ . ثم سـمع فى ذات الوقت صرخات وشـكاوى تتصاعد من كل أنحاء الوادى الى السماء الآمنة . فقال لبللوك : ألاحظ مع الاسف يابنى أن سكان هذه الجزيرة

منذ ما أصبحوا رجالا زهدت نفوسهم فى الحكمة التى كانت دستور معاملاتهم لبعضهم فيما مضى. عند ما كانوا طيورا لم يكن ثمة نزاع يقوم بينهم الا فى الفصول التى يحلو فيها الغرام . أما الآن فهم يتشاجرون طول الوقت ويتعاركون فى الصيف والشتـاء ، فسقطت عنهم تلك الهيبة الوادعة التى كانت تسود جماعة طيور «البنجوين» على ضفاف الانهار فتجعلها شبيهـة بمجلس شـيوخ جمهورية حكيمة !.. انظر يابنى صوب الشمال، ها أنت ترى عشرة منهم يتلهون بتقتيل بعضهم بعضا بالفؤوس

والمعاول التى كان أولى لهم أن يفلحوا بها الارض . ثم تأمل نساءهم صوب الجنوب تراهن يمزقن بأظفارهن وجوه أعدائهن فى قسوة تفوق قسوة الرجال. وا أسفاه يا ولدى بللوك ، لم يقتتلون هكذا ؟

فأجابه بللوك : انما يفعلون ذلك احتياطا للمستقبل يا أبى العزيز وبدافع من روح الاجتماع . ان الانسان بفطرته اجتماعى وحريص . هذه أظهر خلاله . لذلك تراه لا يتصور الحياة ممكنة بغير أن يستحل لنفسه امتلاك شىء وهؤلاء الناس الذين تراهم أمامك يا استاذى الكريم .. انما يتبارون فى امتلاك الاراضى .

فقال القديس الشيخ : وهلا يستطيعون امتلاك هذه الاراضى فى غير صخب ولا عنف ؟ انهم يتقاتلون وهم يتلاعنون مهددين بعضهم بعضا حتى لقد التبس على معنى كلامهم . فقال بللوك : يبين لى يا ابى أن كل فريق منهم يتهم الآخر بالسرقة والاغتصاب .

هنا تعالت فى الجو فجاة صرخات فاجعة فالتفت القديس مذعورا ثم هتف وهو يضم راحتيه مصعدا نفسا طويلا حارا : « الا ترى يابنى هذا الفضوب الذى يقضم بأسنانه أنف غريمه المطروح على الارض وذلك الشقى الذى يهشم رأس امرأة تحت حجر كبير؟ » فأجابه بللوك : « انى أراهم يا أبى . انهم يشرعون القانون ، يؤسسون الملكية ، يركزون عمد المدنية ويوطدون أسس المجتمعات والحكومات » .

فسأل الشيخ مستغربا : « وكيف ذلك ؟ » .

بتخطيطهم حدود مزارعهم . فهذا التخطيط أصل كل نظام . ان رعاياك أيها الاستاذ الكريم يؤدون أقدس واسمى الواجبات وسوف يتوج المشرعون أعمالهم على

مدى العصور المتعاقبة ويذود عن حماها القضاه والمحلفون .

وبينما هما مسترسلان فى هذا الحديث اذ بعملاق ناصع البشرة أحمر الشعر قد هبط الوادى حاملا على كتفه جذع شجرة واقترب من صعلوك هزيل الجثة ، صهرته الشمس بشواظها وهو يسقى أرضا له مزروعة خسا ثم صاح به :

ـ ان مزرعتك ملك لى ! ..

وبعد أن نطق بهذه الكلمة العظيمة هوى بالجذع على يافوخ الصعلوك الهزيل الذى سقط ميتا لساعته على الارض التى افلحتها يداه .

تلقاء هذا المشهد المروع ارتعش القديس « مائيل » ذرف الدموع الغزيرة ثم اتجه نحو السماء بالصلاة التالية يغمغمها فى صوت أخفته الرعب والخشية : « الهى ومولاى العلى أنت يا من تقبل قرابين الفتى هابيل وانتقم من قابيل ، انتقم ياربى للبرىء الذى ذبح وسط ارضه واشعر القاتل الاثيم بثقل يدك الباطشة فما من جرم ياربى أبشع ولا تجديف نحو عدالتك اخطر من هذا القتل وهذه السرقة » .

فقال بللوك فى وداعة : « حذار يا أبى فان ما تدعوه قتلا وسرقة ان هو فى واقع الامر الا الحرب والفتح ، وهما الاسس المقدسة للممالك والينابيع الدافقة لجميع الفضائل والعظائم الانسانية . لاحظ أنك بتانيبك العملاق الابيض تهاجم الملكية فى صميم أصولها ومبادئها الق السمع ، فلن أعدم وسيلة للدلالة على صدق ما اقول . ان فلاحة الارض شىء يا أبى وامتلاك الارض شىء آخر . هذان شيئان جد مختلفان لا ينبغى الخلط بينهما . من وجهة نظر الملكية الحقوق التى تخولها الفلاحة غير

صريحة ومزعزعة ، أما حقوق الفتح فهى ترتكز بالعكس على دعائم متينة . انها الوحيدة الجديرة بالاحترام لانها الوحيدة التى يمكنها أن تفرض هذا الاحترام . فالملكية يا أبى الاقدس ، أصلها الوحيد المجيد : القوة . انها تولد وتخلد بواسطة القوة وهى لذلك مقدسة ولا تضمحل الا أمام قوة أكبر . لهذا السبب من العدل أن نقول أن كل من ملك يعد نبيلا وهذا العملاق الاحمر بقتله الزارع الصعلوك ليستخلص منه أرضه ، قد شاد اللحظة بيتا رفيع العماد على هذه الارض . لذا أريد تهنئته » .

قال هذا وتقدم بللوك من العملاق الذى وقف قرب الاخدود المضرج بالدماء وقد استند الى مطرقته وبعد أن انحنى أمامه حتى الارض قال :

« مولاى جرياتوك أيها الامير الرهيب الخطير، أتيتك أزجي خالص الولاء وأؤدى فروض الطاعة لذاتك العلية بصفتك مؤسس سلطة شرعية وثروة خالدة سيتوارثها أحفادك جيلا بعد جيل . ان جمجمة الصعلوك الحقير التى أطحت بها ستبقى مطمورة فى مزارعك لتشهد الى الابد بحقوق ذريتك المقدسة على هذه الارض التى تشرفت بوطء قدميك . طوبى لابنائك وأبناء أبنائك !! سوف يصبحون أمراء جرياتوك ودوقات سكول وسوف يتربعون على عرش جزيرة الكا » .

فاه بللوك بهذه الكلمات ثم التفت الى القديس الشيخ وقال بصوت جهورى :

« يا أبى بارك جرياتوك فكل سلطة من الله » .

الا أن الشيخ «مائيل» ظل صامتا دون حراك وقد رفع عينيه الى السماء اذ كان يشعر باضطراب ذهنى مؤلم وهو يمعن التفكير فى مذهب القس بللوك .

ومع ذلك فهذا المذهب هو الذى قدر له أن يسود

فى الحقب التى وصلت فيها المدنيات الى أوجها . لذا يمكننا أن نعتبر القس بللوك كخالق للقانون المدنى فى جزيرة البنجوين » .

٤ يولية :

يقول بيير بريسون :

كان لوقوع الحرب العالمية فيما يخص قطاع المسرح ، أسعد النتائج . لقد عجلت هذه الحرب بالقضاء على بعض المصطلحات المسرحية العتيقة . فانهارت واجهات ضخمة من روايات التراث الرومانسى والتراث الواقعى، واختفت الروايات الاخلاقية التى تنادى جهارا بالتهذيب والعظة وتلقت البلاغة ضربة قاصمة . وبفضل هذه المزايا استحق عصرنا الحاضر عرفان جميل أجيال المستقبل .

كما يقول :

« احدى مميزات مسرح موليير هو حواره الذى تنتصر فيه لغة الكلام التى يتكلمها الشعب فى حياته اليومية والتى تكتسب قيمتها الفعلية وهى تمر من حنجرة ولهاث الممثل ؟ »

٨ يولية :

أمضيت يومى وليلتى فى كتابة الفصل الاول من « مصر الخالدة » .

١١ يولية :

درس فى المركز الدرامى من الساعة الثالثة الى الثامنة مع الآنسة جيتو فى محاضرتها عن موليير وجوليان برتو

فى التدريب على مسرحية موليير « طبيب رغم أنفه » .

انى مستمر على الكتابة .. بصعوبة . حالتى النفسية لا تسعفنى ، ومع ذلك فانى أروض ذهنى على العمل قدر ما أستطيع .

كان برنارد شو قد انتقد نقدا مرا مسرحية كتبها احد رجال المجتمع اللندنى الراقى . وتصادف أن اجتمع الرجلان : الناقد ، والمنقود فى صالة الاستراحة لاحد المسارح ، فهاجم الرجل برنارد شو أعنف هجوم ورماه بجهل الادب المسرحى وانتهى من كلامه بأن قال :

انك لا تكتب الا من أجل المال ، أما أنا فأكتب من أجل المجد والشرف ، فأجابه برنارد شو على الفور :

انى أوافقك ميلورد ، فكل منا يكتب ليحصل على ما ينقصه .

فيما يختص باخراج « مصر الخالدة » يجمل بى أن استلهم الفقرات المدونة فى كتاب تاريخ مصر لكيزر عن العمارة الفرعونية ، صفحات ١٢٤ ــ ١٢٥ ــ ١٢٦ .

١٧ يونية :

« يوليوس قيصر » على مسرح الهواء الطلق بلوتيس . هى نفس المسرحية «لجيريل بواسيى» التى أخرجها مسيو فابر فى مدينة أورانج . وقد اقتبس بواسيى مسرحيته عن شكسبير اقتباسا حرا فاستولى على الموضوع فى صميمه بيد أنه تصرف فى النص الشكسبيرى تصرفات كبيرة ؛ وهو فى عمله هذا لم يخرج عما فعله شكسبير نفسه الذى استعار مشاهد عديدة ، وكلاما بنصه من بلوتارك وسوبتون ولوكان . كان التمثيل والاخراج غاية فى الرداءة ، على أن ظهور شبح قيصر فى الفصل الثالث كان رائعا . لقد توصلوا الى هذه النتيجة

بواسطة ما يسمونه « بالنور الاسود » . يجب دراسة هذا الضوء الجديد ؛ فهو سحر !

٢٠ يونية :

أول واجبات المخرج المسرحي أن يخدم النص ، لا أن يستخدمه في سبيل اظهار براعته الخاصة .

شاهدت « طرطوف » لموليير و « نزوة » لالفريد دي موسيه بمسرح الاوديون . أحسست بفن رفيع وكأني شربت خمرا معتقة ، أو شممت زهرة عبقة . التمثيل والنص يتوافقان توافقا رائعا برباط من التناسق السحرى .

٢١ يونية :

يجرى شكسبير على لسان هملت هذه الجملة الخالدة :

« أيها الضمير ، انك أنت الذى يجعل منا جميعا جبناء » .

٢٢ يونية :

تدريب فى الاوديون على مسرحية «تاجر البندقية» ، اخراج « جيمييه » بالدرج المشهور على المسرح ، وهو الدرج الذى أفاد منه الصديق زكى طليمات فى اخراجه لنفس المسرحية فى مصر .

يقول المخرج جاستون باتى :

« أن جمال الدراما يلتمع كالشهاب ، منذ اليوم الذى يتلقى فيه المؤلف البذرة الخصبة الى الساعة التى يرتفع فيها عنها الستار . منذ ذلك اليوم ، كم من التأملات

والابحاث والجهود ، ولـكم من الناس ! ! ومن كل هذا لن يبقى شيء ، سوى المناظر المتربة والملابس الـكالحة والنصوص الميتة ! !

مثل ذلك مثـل شجرة عظيمـة تولد ببطء من بذرة صغيرة تتطاول فى اصرار من موسـم لموسـم ، وترفع راسها نحو الشمس، وتدفع بجذورها فىمجاهل الارض. وبفضل مقاومتها لقيـظ الحر وعواصـف الخريف ، واحتمالها للثلوج والجليد ، تستحق آخر الامر أن تجيء الينا لتدفئة بيوتنا وانارتها ، ولمدى لحظـات يتراقص لهبها فى المدفأة ، وتلتمع جذوتها الحمراء ؛ فتضيء عالما من الجمال يدفع الناس الى التـأمل ، ثم تبعثر الريح العاتية رمادها الى الابد . أما نحن يا رفاقي ، فالافضل بالنسبة لنا أن نتخيل ما يأتى : ان الشجرة العظيمة ما جاهدت هذا الجهاد الطويل لتعيش ، الا ارتقابا لتلك اللحظة العابرة ، التى يتراقص فيها اللهب أمام أعيننا المشدوهة ، فيسعدنا ويثرى أرواحنا » .

٢٩ يونية :

خطابان من مطران بك ، ومن الدكتور عراطه .

مما لا شك فيه أن عبقرية برنارد شو قد حلقت على القرن التاسع عشر الانجليزى بأسره . وقد أفاد الكاتب الايرلندى من حرية الفكر التى أطلقتها الملـكة فيكتوريا فى أواخر عهدها ، فكتب مسرحيات لامعة ساخرة موجهة ضد العاطفية الانجليزية ، كما أنه سخر من جميع ألوان الاكاذيب الاجتماعية . ففىمسرحية « الانسان والانسان الاعلى » ، هاجم ديانة الحب ، وفى « البطل والجندى » هاجم الشجاعة العسكرية . وقد مجد الثـائرين على

الاحاسيس الوجدانية . ووضع فى الصف الاول من المتازين المراة والفنان والرجل الايرلندى !

ان الرجل العظيم فى رأى برنارد شو لايجب أن يكترث لنوازع الضمير ، تماما كالمرأة العاشقة . فالمرأة تحت تأثير غريزتها الحيوية ، وابقاء على الجنس ، تضحى بزوجها فى سبيل ولدها . والابن ، ان كان « نابليون » أو « قيصر » يضحى بالامم فى سبيل مجده ورسالته . وبرنارد شو يقارن نفسه بشكسبير ، من باب الهزل . ومما لا شك فيه أن لبرنارد شو خصوبة شكسبير فى التأليف ، وان كانت تنقصه انسانية شكسبير العميقة .

احتفلت الجرائد والمجلات الفنية بذكرى الممثل الكبير « سيلفان » ، وهو الاستاذ الذى تتلمذ على يديه « جورج أبيض » ، ونقل الينا أدواره العظيمة فى مسرحيات : « الاب ليبونار » و « لويس الحادى عشر » و « البورجراف » ، التى اقتبسها نجيب الحداد باسم « ثارات العرب » . وسيلفان وجه من أكمل الوجوه للممثل الكلاسيكى ، وفنان من أنبل فنانى المسرح الفرنسى ، وهو فى تمثيله خليفة لاساتذة التراجيديا فى فرنسا ، من أمثال : « تلما » و « جوت » و « مونيه سوللى » . وقد امتاز سيلفان بثقافته الادبية الرفيعة ، الى جانب موهبته التمثيلية الخارقة . وكثيرا ما نظم الشعر ، كما أن له بعض المسرحيات الشعرية ، وقد عاونته ثقافته الكلاسيكية ، ومطالعاته الواسعة على تذوق الادب اليونانى بصفة خاصة ، فكان يطعم تمثيله لادواره بفهم عميق لجمال التعبير الذى امتاز به مؤلفو الاغريق ، وموسيقية كلامهم ، ودقة أسلوبهم . وكانت معارفه فى الادب المسرحى هائلة . وقد ترجم تراجيديات

« الفرس » و « هيكوبا » و « أندروماك » أحسن ترجمة . وكثيرا ما كان ينظم القصائد الساخرة ، يتهكم فيها ببعض النقاد والممثلين من زملائه ، كما كان مرهوب الجانب فى الكوميدى فرانسيز ، حيث كانوا يحترمون عبقريته ، ويجلون أدبه ويخشون لسانه ! وعند ما أحاله وزير الفنون الجميلة الى المعاش، ذهب اليه وعيره بجهله لمسرحيات التراث التى يعيش عليها بيت موليير، سائلا اياه عمن سيخلفه فى تمثيل دور « فردريك بربروسا » الذى يناهز التسعين عاما ، وهل سيسنده الى خريج مراهق من المعهد الحكومى للتمثيل ؟

وقد اشتهر عن سيلفان أنه أحب زوجته لويز سيلفان الممثلة الى آخر يوم من أيام حياته ، وكثيرا ماكان يردد :

لقد أحببت فى حياتى ثلاثا : المسرح ، ولويز ، والطيور ! !

رحمه الله رحمة واسعة ، وأطال لنا فى عمر تلميذه جورج أبيض .

نظرية المخرج السويسرى

اننا نأتى لنشاهد فى المسرح حدثا دراميا : ان وجود الشخوص على خشبة المسرح هو الذى يتسبب فى تحريك ذلك الحدث . يجب اذن بأى ثمن ، أن تقوم عملية الاخراج على وجود الممثل . لذلك ينبغى أن نزيل من على الخشبة ، كل ما يتعارض مع هذا الوجود . والشرطان الاساسيان اللذان يعاونان على الوجود الفنى للجسم الانسانى هما :

١ ــ الاضاءة التى تبرز أوضاع هذه الاجسام .

٢ ــ والتطابق التشكيلي للمنظر الذى يعاون الممثل على اظهار أوضاعه وحركاته .

يطالب كوبو للمسرحيات الجديدة بخشبة مسرح عارية من كل زخرف ، ويدعو فى مكان آخر الى الكشف من جديد عن القاعدة الاساسية للمسرح ، من وجهة نظر الممثلين والمؤلفين والمخرجين . ومهما كان المنظر رمزيا أو واقعيا ، مركزا أو مبنيا ، فهو منظر فحسب ، أى « برواز » للحادث . وهذا البرواز لا يهم الحدث الدرامى بصورة مباشرة . بينما يحدد الحادث الدرامى نوع وطراز المنظر الذى يحيط به . وفى هذه الحالة يجب أن يكون المنظر مجردا ، وأن يكون بناؤه المعمارى من البساطة بحيث يزاوج النص مزاوجة تامة . ويميل « كوبو » الى استعمال الستائر وبعض الكتل من الاحجار ، أو الاخشاب التى ترسم فى الفضاء أمامنا مستويات تكون خلفية صالحة لتمثيل الممثل،كما ينادى اخيرا بتلوين اللوحة بالظلال والانوار الكافية لخلق الجو والايحاء به .

هذا ملخص ما ينادى به « كوبو » ، أما « جوفيه » فيقول :

علينا أن نخلق الجو المسرحى على أساس من معرفة المكان الدرامى . ويجب خلق هذا الجو مسطحا على خشبة المسرح ، بعد أن نحررها من العوائق المرسومة والرموز السفسطائية ، وأن نبنى فوق الخشبة العمارة التشكيلية التى ستصبح المكان المناسب للدراما والتعبير التام لها ، كما كانت الكاتدرائية فى العصور الوسطى تعبيرا للمأساة الدينية ، يمتزج فيها التمثيل الخالص بالحركة ، هذه الحركة التى يبحثون عنها فى كل مكان ، ويعتقدون انهم وجدوها فى براعة الممثل وفى سرعة القائه ،

وهكذا سيكون الدور الاول للمهندس المعمـارى الذى سيحل مكان الرسام ، فيصبح المنظر عمارة مبنية ، ولن يعنى المخرج بعد اليوم بجمال المنظر قدر ما يعنى بفائدته المادية ومشاركته فى العرض المسرحى العام .

ينادى الروس بضرورة خلق الوحدة بين الممثل والجو الذى يحيط به على المسرح ، كما انهم يحاولون جعله يتصل بالفضاء الذى حوله ، وهكذا يحققون المنظر ذا الثلاثة أبعاد ، او ما يسمونه بالمنظر البنائى Constructuviste وهم يبدلون المناظر المرسومة ببنايات معمارية ، تعطى اهميـة كبرى لمواهب الممثـل الجسمانيـة ، وكذلك للمجاميع. هكذا يقع الحدث الدرامى فى الابعاد الثلاثة : فى عرض المسرح وطوله وعمقه ، ويتحول الراسم الى مهندس يقيم على الخشبة مجموعة من السـلالم أو الارصفة المتحركة . وهـذه الميـكانيكية على الرغم من تعقيدها ، فهى تطابق تماما نوع العرض وتيسر للممثل عمله الفنى. ان التقدم الميكانيكى الذى وصل اليه الروس فى عروضهم كان له أعظم التأثير فى أوربا وأمريكا، وخاصة فى مسرحهم ، حيث يعطون الاسبقية للاضـاءة كعامل خلاق .

يلاحظ جاستون باتى أن الدراما عند اليونان ، وفى العصر الوسيط ، كانت شيئا خطيرا يوقف حياة المدينة لمدة من الزمن ، ويوجهها نحو المسرح . اما عهد النهضة الذى كان ينادى بتمجيد الفرد على حساب المجموع ، فقد جعل من المسرح عامة ، فنا ذهنيا بحتا ، ووسيلة أرستقراطية ، فهبط به الى مستوى تسلية أنيقـة . صحيح أن هناك شكسبير وراسين وموليير ، بيـد ان العبقرية تتغلب دائما على جميع المصاعب .

يولية

٦ يولية :

شاهدت بمسرح الاوبرا ثلاثة باليهات من تنظيم الراقص المشهور سيبرج ليفار : اينا وايكار وبروميتوس كانت بصحبتى أمينة محمد ، التى شاقها ما رأت من فخامة المناظر وروعة بناء الاوبرا ، فندت عنها هذه الكلمة الساذجة فى صيحة اعجاب مكتومة : « كأننا فى صالون ببيت الملك ! » .

٩ يولية :

بمسرح الاوديون : مسرحية « ملكة الشيكولاتة فى الماتينيه » وهى نفس مسرحية « الدلوعة » التى اقتبسها الريحانى .

ينبغى أن يكون هدفنا فى الحياة هو تهذيب انفسنا .

يقول اندريه بلسور فى احدى فقرات كتابه : « متعة المسرح » : « قلما نبحث فى المسرح عن صورة دقيقة لحياتنا اليومية . يكفينا أن نجد فيه صورة اخلاقية مقاربة كما يحلو لنا أن يأخذ المؤلف بيدنا ويرتاد بنا عالم النفس ، فنزداد معرفة بالانسان ويكشف أمامنا

بأنواره الساطعة أعمق جوانب النفس غموضا وظلاما ، على أن أعظم ما نبحث عنه في المسرح هو الاوهام التى نشارك في البحث عنها الانسانية قاطبة . هذه في يقينى اسمى متع المسرح ، وهى متعة الحضارة الرفيعة ، وليست رؤية الواقع هى التى تقدمه الينا ، بل الحقيقة. ان معاصرينا انما يذهبون الى المسرح لينسوا ذلك الواقع » .

١١ يوليه :

زرت اليوم مسيو اميل فابر ، في مقر جمعية المؤلفين المسرحيين ، ١١ شارع بلو . وقد تبادلنا الحديث عن مسرحيتى ، وطالبنى مسيو فابر بأن أعجل في الانتهاء منها لكى يستطيع أن يدافع عنها أمام لجنتنا العليا في مصر .

١٢ يولية :

شاهدت « السيد » لكورنيل بمسرح الاوديون . في صحبة صديقى الدكتور عراطه ، الذى وفد البارحة من القاهرة .

انتهيت من كتابة الفصل الاول من « مصر الخالدة »

يقول جاستون باتى أن النص لا يعبر عن كل شيء ، والا لاكتفينا بقراءته ، لكن اللون والضوء والاشكال ووجه الممثل وفترات الصمت ، كل هذا يعطى الحياة للمسرحية ، أو بكلمة مختصرة ، يستكمل خلقها وتكوينها

١٤ يولية :

شاهدت « مارى تيودور » لفيكتور هوجو بمسرح

لوتيس فى الهواء الطلق : ماتينيه مجانى للشعب بمناسبة عيد الثورة الفرنسيه . لقد احتفل الفرنسيون بهذه المناسبة احتفالا رائعا ، فاقاموا الزينات وفتحوا ابواب المسارح للجماهير وغنوا ورقصوا فى الشوارع ، وقد جرفنى تيار حماسهم ، فغنيت ورقصت مع المغنين والراقصين ... والمغنيات والراقصات !

١٩ يولية :

استقبال عظيم للملك وملكة انجلترا بمناسبة زيارتهما لباريس .

مما لاحظته على المخرج فيرمين جيمييه أنه يميل الى استكثار المجاميع على المسرح وتحريكها وكأنما يخضع بطريقة لا تنبهية الى مزاج داخلى خاص يجعله يؤثر الخطابة وحماس الجماهير. أما كوبو فتغلب على اخراجه مسحة من التقشف والمنطق الديكارتى ، ويجاريه فى ذلك « لويس جوفيه » ، فهو يؤثر الوضوح والذكاء والدقة. أما جاستون باتى فقد عيب عليه أنه عارض فترينات ، وأن كنت لا أكتم اعجابى بألوانه وأناقته ولوحاته الجميلة .

٢١ يولية :

تناولت الغداء عند مسيو فابر ، مع مسيو فلاندر الذى أخرج أخيرا فى مصر روايات : « المتحذلقات » ، و « انتيجونا » ، و « طبيب المعجزات » ، و « كرنفال الحب » . وقد امتدح مواهب ممثلينا ، وان كان يتفق مع مسيو فابر فى أن ممثلاتنا تنقصهن الانوثة فى أدائهن التمثيلى ، وقد يكون فى هذا بقية من الخفر الشرقى المأثور .

وصل باريس الشاعر الرقيق « محمود أبو الوفا » الذى اوصانى به الاستاد خليل مطران خيرا .

« بودلير »

٢٧ يولية :

فى العاشرة والنصف من صباح اليوم ، كنت اتخطى عتبة منزل الكاتب المسرحي والشاعر الرقيق الذى اشتهر بديوان شعره العصرى « انت وأنا » وكان مسيو فابر قد عرفنى به خلال تمثيل رواية «رجل كالآخرين» بمسرح الماتورين ، وطلبت منه موعدا لحديث عن المسرح، فاستجاب لرغبتى مشكورا ، وفى الموعد المحدد كنت أطرق باب منزله فى حى « سان جيرمان » ، وما اجتزت ردهة البيت حتى أدخلنى خادمه الكهل مباشرة الى حجرة مكتبه ، فتأنيت لحظة وقد بهرنى ما شاهدته من تلال الكتب المجلدة ذات الاحجام المختلفة بكعابها الحمراء والبيضاء والخضراء ، وقد رصت فى نظام دقيق داخل مكتبات من خشب السنديان الزاهى ، ويتوسط الحجرة مكتب ضخم من طراز « لويس الخامس عشر» وخلفه نافذة كبيرة تطل على قباب متحف الانفاليد

فى هذا المحراب المهيب والانيق فى آن واحد ، كان يجلس الشاعر والكاتب المسرحى الكبير الذى يصوغ بدقة معجزة الكلمات والافكار والمشاعر ، منقطعا الى الكتابة والتأمل ، ودعانى مسيو « بول جيرالدى» الى الجلوس فى ابتسامة عذبة وعيونه تضحك خلف نظارته الذهبية ، فجلست وجعلت أتأمله فى شغف واعجاب ، وقد راعنى ما لمست فيه من رقة ونحافة وروح مرفرفة وتداعت الخواطر فى رأسى فذكرتنى تقاطيع وجهه الدقيقة الناعمة وجسمه الهزيل الشفاف ببيت شعر

عربي مشهور :

« انا من رق واستدق
فلا يزحم أرضا ولا يسد فضاء »

ورحب الشاعر بي قائلا : « أهلا بمن وفد من بلاد الشمس الساطعة » ثم اخذنا نتجاذب أطراف أحاديث مختلفة عن الادب والشعر والمسرح ، وكنت قد قرأت فى الصباح الباكر بجريدة « الجورنال » مقالا لاندريه انطوان عن ازمة المسرح فى فرنسا ، ينعي الناقد فيه على الحكومة ضآلة معاوناتها المادية للفرق الجادة ، كما ينعى ما يقدمه الكتاب للجمهور من غذاء تافه ونصوص ذهنية جملته ينصرف عن المسرح ويقبل على السينما ، حتى ان رجلا من رجالات المسرح مثل « برنشتين » يوشك ان يغلق مسرحه «بالضبة والمفتاح» فعرضت الموضوع على مضيفى أستطلعه رايه الشخصي، فقال مؤلف مسرحية « الحب » والابتسامة العذبة لا تفارق ثغره : « اعتقد انه لا بد لانقاذ المسرح من أن نفعل ما انادى به ، والا نفعل ما افعله » . فقلت له وقد استغرقتنى الدهشة : « انى لا أفهم ما تقصد اليه يا استاذى العزيز » . فقال : « أقصد انى أقتبس الان مسرحية لكاتب أجنبى اشترك معه فى الاحاسيس والرؤية ، على حين انه كان الاولى بى أن أؤلف مسرحيات فرنسية لحما ودما . أما أزمة المسرح فقد يهون من حدتها أن يهتم مؤلفونا بمشاكل عصرنا الراهن ، فيصبح المسرح أكثر شعبية واقل ثرثرة وفصاحة . من واجب المؤلف المسرحي أن يخاطب المشاعر لا العقل ، ويحلل مختلف العواطف البشرية التى تنفعل بها قلوب الناس. ان تمثيل الممثل : ايماءته أو حركته ، يجب أن تكفينا لتوضيح ما يعتمل فى نفسه دون ما حاجة الى شرح أو

تفسير . أن «سكابان» ـ فى مهزلة «مقالب سكابان» ـ يضع «جيرونت» فى « الخرج » ، ويضرب هذا الخرج ، فينفجر الجمهور بالضحك . وهذا شىء واضح لايحتاج الى تفسير .

ان أحسن مسرح ليس هو الذى يخاطب الصفوة الممتازة المثقفة . المسرح الحقيقى هو مسرح الشعب . ان كورنيل شعبى ، وكذلك شكسبير ، وأكثرهم شعبية هو « موليير » . لذلك أحض المؤلفين المعاصرين أن يقتفوا أثر هؤلاء العمالقة ، ففى استطاعة المؤلف أن يبدع ويخلق بجملة واحدة عالما من المعانى الصادقة . أنظر الى « بيرجونت » وهو ينطق بهذه الكلمة البسيطة ، كرثاء وتأبين لامه الحنون التى حضرتها الوفاة أمامه :

« وداعا يا عجوز ، وشكرا على الضرب والقبلات معا » .

الا تعبر هذه الجملة بطريقة اخاذة عن جوهر حب الام ، وفى مثل هذه اللحظة الا يفهم أكثر الناس بساطة وسذاجة ما يقصد اليه المؤلف العظيم « ابسن » ؟

ان مديرى المسارح يتفننون فى الاغداق على المناظر الضخمة وعلى العروض البراقة الرائعة ، لكن النجاح الاكيد فى غير هذه الناحية . انه فى تطوير النصوص وتطويعها لمخاطبة الجماهير الغفيرة .

وهنا كان قد انتهى كلام مؤلف مسرحيات « الحب » و « الفتيان الكبار » و « يوبيل الزواج الفضى » . وكانت الساعة قد جاوزت الواحدة ، فوجدت من اللائق أن أستأذن ، فهذه ساعة الفداء ، وودعت الكاتب الكبير شاكرا له هذه الساعات التى قضيتها تحت سقف أرق شعراء فرنسا اليوم .

شاهدت رواية « الصائدة فى المـاء العكر » لبلزاك ، التى اقتبسـها مسيو فابر لمسرح الكوميدى فرانسيز ، والملاحظ ان مسيو فابر من يوم أن تولى ادارة الكوميدى الى أن قدم استقالته عام ١٩٣٦ لم يقبل ان تمثل له مسرحية واحدة فى بيت موليير ، كى تبقى نزاهته ـ كامرأة قيصر ـ فوق مستوى الشبهات .

٢٩ يوليه :

قرات فى جريدة « الجورنال » القصة التالية : قبيل زواج مسيو داشيه من زوجتــه الحالية ، كانت هى زوجة لرجل آخر ، وقد ظلت تخدع ذلك الرجل الى اليوم الذى ارغمها فيه عشيقها على طلب الطلاف . وما ان طلقت حتى تزوجها . بيد انه من يومها وهو يعيش فى جحيم القلق ، وقد وقر فى خلده أنه قد يصبح مغفلا كزوج امرأته السابق ، كما خيل له الوهم أخيرا أنها تخدعه مع صديق له ، فاعتدى عليها وأصابها بجرح بالغ ، على الرغم من وفائها له .

يا له من موضوع مبتكر واخلاقى فى آن واحد ! !

٣٠ يولية :

انى ألزم الفندق لاطالع كتاب «توشار» «ديونيزوس» وقد جذبنى اليه جذبا عنيفـا ، وهـذه بعض فقرات اقتطفتها من هنا وهناك ، ولو كان أمامى فسحة من وقت لترجمت الـكتاب بأكمله :

ليس المسرح فى حـد ذاته خيرا أو شرا ، أنه ظـل المرآة ، التعبير الحى لحدث عاطفى قاهر لا تجدى فيه المناقشة ، كما لا تجدى مناقشة غريزة البقاء أو قانون

تداعى الافكار . ان هذا الحدث الوجدانى يمثل حاجة الانسان المستديمة الى الشعور بمدى الحد الاقصى لقوته او لضعفه ، فى الشر كما فى الخير . هذه الحاجة الملحة دائمة دوام الانسان على الارض ، ولذلك فان المسرح خالد لا يموت !

التراجيديا اليونانية تصور لنا الانسان وقد غلبه القدر ، أما التراجيديا الانجليزية فى القرن السادس عشر فقد حررت جميع قدرات الخير والشر التى تعتمل فى النفس الانسانية وتركتها تنفجر انفجارا فوضويا . أما التراجيديا الفرنسية فهى صرح جميل من التحليل النفسانى الفردى .

تبدأ التراجيديا فى العز والاقبال ، وتنتهى فى الشقاء والويل والدمار .

يقول إرسطو :

التراجيديا هى محاكاة لحدث رفيع الطابع يعبر عنه حوار مطعم بكلمات تمتاز بالتوابل الحريفة ، وتختلف من شخص لآخر . وهذه المحاكاة يقوم بها أشخاص يعيشون ويتحركون ويضعون الاحداث بالفعل لا بالسرد ، فيثيرون الرثاء عليهم أو الفزع . وبذلك يطهرون المشاهدين مما هو عالق بنفوسهم من أمثال هذه العواطف .

ان ما أبحث عنه فى التراجيديا هو معرفة نفسى وأنا أقوم بفعل ما ، بوساطة انسان آخر ، وهكذا عن طريق الممثل الذى يؤدى الفعل نيابة عنى ، أشعر بانى تطهرت وتحررت من شرور كامنة فى صميم كيانى .

الكوميديا هى محاكاة لاناس من طبقة دنيا ، ليس فى كل مجالات الرذيلة ، لكن فى مجال الشىء المضحك الذى هو جزء من القبح . فالمضحك عيب لا ينجم عنه

الم أو خسارة .

فى الكوميديا اذن، الامر خاص بشخص آخر غيرى ، أو « بأنا » لا أعترف به .

يقول الفيلسوف « هوبس » فى تعريفه للضحك : انه تقلص عضوى ينتج عن اكتشافنا المفاجىء لتفوقنا على الآخرين .

ان لم توجد فى المسرحية ضحية جديرة باهتمامنا وعطفنا ، فان وجود الشخصيات البغيضة لا تستطيع مهما بلغ عددها أن تخلق الجو الفاجع ، وأحسن مثل على ذلك مسرحية « توركارت » .

أعجبتنى قصيدة للشاعر العظيم « بودلير » ، فأقدمت على ترجمتها ، وعنوانها « الرجل والبحر » :

أيها الرجل ، سيظل البحر أبدا عزيزا عليك . البحر مرآة نفسك انك لتتأمل روحك فى امتداد أمواجه اللانهائية وليست اغوار فكرك بأقل مرارة من أغواره السحيقة .

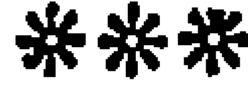
لكم يروق لك أن تغوص فى أعماق البحر وهو صورتك الاثيرة ، فتعانقه بالعيون وبالاذرع ، وقد تنسى أحيانا شكاتك الخاصة وانت تصغى الى اعوال البحر الرهيب . كلاكما مظلم جهم ، وكلاكما كتوم للسر .

أيها الرجل ! لم يسبر غور أعماقك أحد . ويا أيها البحر ! لا أحد يعرف كنوزك الخفية ، فكل منكما أكتم من الآخر ، واحفظ للسر . ومع ذلك فقد مضت قرون لا عد لها وأنتما تتناحران دون رحمة أو ندم وما ذلك الا لفرط شغفكما بالموت والدمار . أيها المصارعان الخالدان ! أيها الاخوان الضاريان !

ان الاهتمام الشديد الذى نتابع به آلام بطل رواية ما ، هو أساس التراجيديا ، أما الفضول البسيط

الذي يترك لنا الوقت الكافى لملاحظة مئات التفاصيل المختلفة ، فهو مجال الكوميديا .

« العالم مهزلة فى نظر الانسان الذي يفكر ، ومأساة فى نظر الانسان الذى يشعر » .



يقول جوته فى أحاديثه مع أكرمان :

تنعكس فى شكسبير عبقرية الخليقة كلها ، كما ينفذ الشاعر الخالد الى أعماق الوجود ، فينكشف له الستر ولا يبقى شيء خافيا أمام بصيرته الثاقبة . لكن اذ كان الدور العبقرى للعالم هو الحفاظ على السر، فان رسالة الشاعر توجب عليه اماطة اللثام عن هذا السر والبوح به واعلانه قبل الحدث ، أو على الاقل خلال وقوعه . ان الفاسق صاحب السطوة ، والجاهل الممتلىء بالنوايا الطيبة ، والاحمق الذى تجمح به شهواته ، والمفكر الذى يلاحظ مجرى الحياة فى هدوء ، جميع هؤلاء يحملون قلوبهم على أكفهم ويتكلمون فى مسرحيات شكسبير حسب طبائعهم ، وعندئذ يعلن شرهم ، حتى ولو اضطر الامر عندئذ الى أن يعلنه الحجر ، اذ ان عبقرية شكسبير لم تنطق الجماد فحسب ، بل انطقت الطبيعة بأسرها فى مختلف عناصرها من خوارق السماء والارض والبحار، فأومض البرق وجاشت أمواج البحر وزمجرت أسود الغاب وهى تشترك فى الحدث المسرحى ، وكذلك فتح العالم للشاعر العظيم كنوزه وفنونه وعلومه وصناعاته ووظائفه وقدم له هداياه ، وجملة القول ان اعمال شكسبير هى معرض كبير حى خالد .

يطالب أرسطو المسرح بأحداث تتابع حسب الضرورة أو المنطق « المعقولية » .

يقول موليير فى مقدمة مسرحية « طرطوف » :

لما كان هدف الـكوميديا ــ كما أراه ــ تهذيب الناس والتسرية عنهم ، فلم أجد منـدوحة من مهاجمة رذائل عصرى بتصويرها تصويرا ساخرا ، منفرا .

يقول توشار فى كتابه « ديونيزوس » :

« الاقتصار فى المسرح على مخاطبة جماعة ضئيلة من المثقفين ، فيه حرمان صارخ لملايين الناس » .

لا يمكن ان يطمح المسرح الى ان يكون الاداة الوحيدة لفهم ما يختلج فى أعماق نفوسنا ، بيد انه أداة فعـالة لمعرفة الانسان معرفـة كاملة وهو يتحرك ويعمـل فى الحياة . فالمسرح هو تمثيل تجارب الانسان . تجارب ميتافيزيقية فى التراجيـديا ، وأخلاقيـة تحليليـة فى الـكوميديا .

حرمان الشعب من المسرح هو بمثابة حرمانه من لغة مشتركة ، ومن مجال واسع للتجربة . فالمسرح اذن ، اسوة بجمع الفنون الاخرى ، ينبغى أن يخاطب جمهورا غفيرا ، بل جمهورا عالميا .

ان كشف خبايا الانسان وتصويرها فى صدق ، هو المحاولة التى يعمل فى سبيل الوصـول اليهـا المؤلفون المسرحيون الحقيقيون فى جميع بلاد العالم .

مسرح ابيسـن عظيـم ، لا لانه يدافع عن قضـايا اجتماعية ، فما أسرع ما تزول هذه القضايا مع الزمن وتتبدل ، بل لانه ابتعث فى مسرحياته روح أسلافه من « الفايكنجز » وولعهم الوحشى بالسيادة والحرية ، كما يمتـاز مسرحـه بالجرأة على الخروج من عالم الواقع اليومى .

ان وحدة الحدث هى الوحدة الفريدة التى لم يوجه اليها اى نقد ، لانها من قواعد المسرح الاساسية المعقولة ان العقدة فى المسرحية ما هى الا هيكل الحدث .

الاحساس بالقدر أمر جوهرى فى كل عمل درامى.

الحدث هو الحركة العامة التى ترينا ـ بين بدء المسرحية وختامها ـ ان شيئا ما قد ولد ثم نما وتطور ثم مات .

فى المسرح نشعر شعورا عضويا برجفة الحياة. فالممثل مسئول عن النص وعن كل دقيقة يعيشها على خشبة المسرح . أما فى السينما ، فالمخرج القدير يستطيع أن يجعل من ممثل عادى شيئا لامعا ، بعد أن يستغل أحسن ما فى موهبته ويدع جانبا أسوأ ما فيه . فى المسرح ، هذا العمل لا يمكن أن يتم ، لان مهمة المخرج فى توجيه الممثل تكون قد انتهت . فن السينما هو فن التقطيع واللصق ، أما المسرح فعدته الوجود الحى .

عند ما يضعف الاحساس بالحدث الدرامى عند المؤلف القاصر ، يعمد الى أسلوبه الادبى لانقاذ روايته .

الاسلوب الادبى يجب أن يعلو على أسلوب الكلام اليومى ، ويتحرر من الاسهاب الممل والتكرار الرتيب ومن آلاف الفخاخ التى تختفى داخلها ظواهر الواقع .

أغسطس

٢٩ اغسطس :

بمصادفة عجيبة التقيت الليلة بالدكتور طه حسين، وقد جلس فى مقهى بشارع فانو ، يحيط به أفراد أسرته فلم أجسر على مواجهته وأرسلت اليه خطابا قصيرا على فندقه بشارع « سيفر ـ فانو » أستأذنه فى مقابلة لليوم التالى ، فأسرع باجابتى الى طلبى مشكورا .

٣٠ اغسطس :

أعود الساعة من مقابلتى للدكتور طه حسين ، وانا راض كل الرضا. لقد وجه الى عدة أسئلة عن مشاهداتى ومطالعاتى وانطباعاتى والدروس التى ألقاها فى مختلف فروع المعرفة المسرحية ، كما سألنى عن المسرحيات التى شاهدتها وطلب منى تلخيصها له وتعليقى على مواضيعها واعجابى بها أو نقدى لها ، كما سألنى عن المعاهد التى أدرس فيها ، فذكرت له كل ما وعتــه الحافظة ، ثم حدثته عن مقابلتى للمخرج الكبير أندريه أنطوان وتأثير كلامه على فيما يختص بالرواية الفرعونية واستلهامى للنبع الفرعونى فى كتابة مسرحية عن عهد رمسيس الثانى أسميتها «مصر الخالدة» ، فسر الدكتور بهذه المعلومات وشجعنى على تقديم المسرحية للجنة القراءة بالفرقة

القومية عند عودتى مؤكدا لى معاونته على قبولها ، كما انبأنى بأنه يرشحنى من الآن لان أكون أستاذا للتمثيـــل بالمعهد الذى يزمعون افتتاحه فى مصر ، وذلك الى جانب عملى كممثل ومخرج . بعد هذه المقابلة اشعر بأنى أخف وزنا وأنشط على مواصـــلة دراساتى أكثر من أى وقت مضى .

« جيرو »

سبتمبر

٢٠ سبتمبر :

تدريب على مسرحية « الرئيس هودكور » بمسرح الاوديون، وحديث مع مخرجها مسيو ألدبير فىالاتجاهات الراهنة للمسرح فى فرنسا .

يجب على من يتصدى لتمثيل التراجيديا أن يمتاز ببساطة نبيلة ، وأن تتوفر له صفات جسمانية وصوتية معينة تتيح له تمثيل أدوار الملوك والآلهة ، كما فى مآسى الاغريق .

الكوميديا صورة اساسها :

اننا نشاهد عيوب الآخرين بمتعة يمازجها الاحتقار عندما تكون هذه العيوب لا خطر لها ، فلا تثير فينا الالم والعطف ، ولا تهز نفوسنا ، فتدفعها الى الحقد أو ليست خطيرة لدرجة أن تفزعنا وتخيفنا .

ما يسمى بالتقاليد المسرحية ، ان هو الا الوصفات الفنية التى تتلخص فى كيفية تمثيل دور أو مشهد بالذات ، والتى تتسامع بها وتتناقلها أجيال الممثلين جيلا بعد جيل .

الفن يضيف ويجترىء دائما ، وقلما يلاحظ النسب التى تمليها الطبيعة .

الطبيعة التي ننشدها في المسرح غير الطبيعة التي نشاهدها في الحياة . انها تشبه امرأة غنجة تستمد جاذبيتها من أرديتها التنكرية ، فان جردتها من هذه الازدية عادت شبحا مخيفا مفزعا .

عندما يحترف المرء التمثيل حبا للفن ، فلا بد له من التضحية بالعديد من لذائذ الحياة ومتعها . فالممثل في المسرح مطالب بالعمل الدائب والدراسة المتصلة والافادة من كل تجربة جديدة والخضوع لمقتضيات المهنة التي توجب عليه أن يوقف فكره وجهده ونشاطه على التمثيل الى آخر يوم من أيام حياته .

جميع ما يجري في المسرح مصطنع . كل ما فيه مصطلحات : الحوار والتعبير عن انفعالات النفس وشهواتها وحنينها ، وحتى الموت ، كل هذا يخضع لنفس القواعد ويحتاج الى أداء خاص . لذلك ينبغي على الممثل أن يحذف من تمثيله ما لا يروق للنظارة . فالجمال أهم ما نطالب به المسرح ، بل يجب أحيانا تعديل ايقاع الحشرجة ساعة الموت ، كما نعدل طريقة الطعنة النافذة التي يطعن بها القاتل المقتول .

آمنت اليوم وأنا أشاهد الممثل ايرز وهو يقلد زميله « شامرا » بمسرح الاوديون ، ان في تقليد الممثل لممثل آخر قضاء مبرما على موهبته الاصيلة . لذلك أنصح الممثل بالدفاع عن جوهر شخصيته دفاع المستميت ، فهي أثمن ما يملك .

ولو أن المسرح هو عالم الايهام ، الا أنه لن نتمكن من جذب المشاهد واغرائه الا ببذل أقصى آيات الصدق والطبيعة .

محاولة الممثل أن يتشبه بأحد زملائه ، وأن يحاكيه في أدائه هي محاولة مزيفة مقضي عليها بالفشل . أما

تقليد الطبيعة بدراسة الناس أجمعين ، فهذا هو الواجب الاسمى .

كما أن الطبيعة لا تخلق ورقتين من أوراق الشجر تشبه احداهما الاخرى ، كذلك لا تخلق روحين متشابهتين .

التقليد آفة النبوغ الحقيقى . اننا نفقد النبوغ الذى حبتنا به الطبيعة عند ما نحاول انتحال نبوغ الآخرين.

ان الممثل الذى « يتكلم » على المسرح ، أفضل من الممثل الذى يغنى أو الذى يصرخ ، فانه يرغب فى أن يروق الصفوة من المشاهدين بالقاء طبيعى صادق .

اقتصد فى اشاراتك بوجه عام ، فعند ما تكفى الكلمة فان الاشارة تصبح لا فائدة منها .

لكل انفعال ايقاع خاص ، وهذا الايقاع هو الذى يجب على الممثل البحث عنه .

الارادة هى عصب المأساة .

٢٣ سبتمبر :

تدريب بمسرح الاوديون على مسرحية « الرئيس هودكور » للكاتب المسرحى روجيه فردينان ، التى يقول عنها مؤلفها انه كتبها ليبرهن على أن الغرور هو أكبر الرذائل التى تسيطر على الناس .

منذ أكثر من أسبوع التقيت مصادفة بصديق عرفته فى القاهرة ، وهو من هواة السينما ، ويعمل على الافادة من مشاهداته باستوديوهات السينما الفرنسية ببليانكور وقد توثقت بيننا عرى الصداقة ، وأصبحنا نلتقى صباحا وبعد الظهر فى مقاهى الحى اللاتينى . وقد جاء أول البارحة بمضربين ، وجعلنى الاعبه التنس فى حديقة لوكسمبرج ! ! هذا الصديق الجديد شاقتنى صحبته ،

فهو انسان بسيط ذكي ذو قلب شفاف وعقلية متزنة. انه يدعى « بركات » .

٢٦ سبتمبر :

سافر اليوم العزيز بركات ، وقد تفضل فحمل معه حقيبة مكتظة بالكتب لتسليمها للعائلة ، كما سلمته مبلغ خمسة وخمسين جنيها انجليزيا سحبتها من البنك على اثر الشائعات التى ملأت باريس هذه الايام عن قرب وقوع الحرب . وقد ودعته متمنيا له سفرا سعيدا .

٢٧ سبتمبر :

الجرائد والشوارع والمقاهى تطن بآلاف النذر السيئة . يظهر أن الحرب وشيكة الوقوع . فى كل مكان تخيم على مدينة باريس أشباح الحرب القريبة . انهم يحفرون الخنادق فى الشوارع ، ويهرع مئات الالوف من جنود الاحتياط ليحتلوا مكانهم على خط « ماجينو » وعلى الحدود . فى محطة ليون يشاهد المرء زحاما لا يتصوره العقل . الجميع يعيشون فى جو من الخوف والرعب ، ويحاولون النجاة من وجه العاصفة المقبلة . ترى ما الذى يخبئه لنا الغد ؟ الله أعلم ! الليلة شاهدت الباريسيين فى شوارع البوليفار الرئيسية وهم يتخاطفون الجرائد ليقرأوا آخر الانباء . ان لهجة هتلر فى خطبته الاخيرة لا تحمل على تهدئة الخواطر ، انه يقول باختصار : « فليعط السيد «بنيش» الحرية لمقاطعات السوديت ، والا ذهبنا نحن وأعطيناهم اياها » .

وقد بدأت دول « فرنسا وانجلترا وروسيا » تهدد بدخول الحرب ، ان استهدفت تشيكوسلوفاكيا للغزو الالمانى .

٢٨ سبتمبر :

تدريب بمسرح الاوديون على الفصل الرابع لمسرحية « الرئيس هودكور » .

حاولت زيارة متحف جاليرا بمناسبة معرض الازياء التاريخية ، لـكن المتحف ــ مع الاسف ــ كان مغلقا .. للظروف الراهنة . سأحاول زيارته مرة أخرى .

يظهر أن الديواني بك مدير بعثاتنا فى فرنسا ، قد انذر جميع الطلبة القاطنين فى باريس ونصحهم بالعودة الى مصر بمجرد أن تعلن الحرب . وحمل المتخلفين عن السفر كل المسئولية فيما قد يصيبهم .

تأجلت البروفة جنرال لمسرحية « الرئيس هودكور» للظروف الحاضرة . فان الحالة السياسية قد تأزمت الى أبعد حد . وليس الاوديون وحده الذى فعل ذلك ، فان أغلب المسارح أرجأت عروضها المسرحية الى أجل غير مسمى .

٢٩ سبتمبر :

بدأ الجو يصفو ، وبدأنا نتنفس ! جرائد المساء تتحدث عن اجتماع رؤساء الدول الاربع : هتلر ، موسولينى ، دلاديه ، وتشمبرلين فى ميونيخ غدا . فلنأمل خيرا ،رغم كل النذر .

انى اطالع شعر فرلين . الساعة الآن الثانية صباحا. لقد خف القلق الذى ساورنى خلال الايام الاخيرة .

٣٠ سبتمبر :

أف ! تنفس العـالم اليوم ! حلت الازمة ، ومرت الفارة بسلام ! كنا قاب قوسـين من الحرب العامة . « السلام ! » « السلام ! » ما أجمل السلام ! لا قتال!

لا مذابح ! لا جنون دموى ! ها نحن نعود الى أعمالنا اليومية . ما أروع الفرحة التى استولت على هذه المدينة « باريس » التى كانت منذ يومين فقط ، جهمة ، مظلمة ، عابسة . ما أسعدنا بهذا السلام .. لكن لكم من الوقت ؟ ان مطامع هذا الطاغية الجديد لا حد لها ، على ما يبدو لى . فلننتظر ما تكشفه الايام المقبلة من اطماع الهر « هتلر » !

أكتوبر

٣ اكتوبر :

« بوليوكت » بمسرح الاوديون ، بصحبة صديق من القاهرة . ما اروعها من مأساة مسيحية ! هذا هو الانسان عند ما يتفوق على نفسه فى سبيل عقيدته !

لقد عدت الى الفندق ، وكأنما نبت لى جناحان أطير بهما فوق السحاب . وازاء ما شاهدته حولي من حماس النظارة الروحى وتجاوبهم مع هذه العواطف الدينية السامية ، جعلت أفكر فى أن المسرح الدينى هو فى الواقع حلقة مفقودة من مسرحنا المصرى ، وقد يكون هذا هو السبب الذى جعل الناس فى مصر لا يقيمون وزنا لهذا الفن الخطير ، لا لشىء الا لانه نشأ عندنا مع فكرة « القراقوزات » التى جاءنا بها الاتراك فى مطلع القرن التاسع عشر ، على خلاف المسرح اليونانى الذى نشأ داخل المعابد متأثرا بأسرار الوزيس ، كما نشأ المسرح الاوربى فى أحضان الكنيسة . لذلك كان المسرح محتقرا فى مصر ، ومقدسا فى أوربا . على كل حال ، هذه المأساة الدينية — فى نظرى — هى قمة شامخة فى الادب الفرنسى، وتستحق وحدها تخليد اسم كورنيل . وليس الموضوع فقط هو الشىء السامى الوحيد ، وانما الحدث أيضا معالج علاجا دراميا ممتازا ، يدل على مقدرة خارقة !

فما أقوى ردود الفعل ! وما أبرع وأصدق الايقاع العام! انها لآية من آيات المسرح الخالده ! انى أعجب بها اعجابا « ضاريا » على حد تعبير الشاعر « فيكتور هوجو » !

يقول كبلنج : ان ما أعرفه قد دفعت الثمن لمعرفته .

الساعة الرابعة صباحا ، وما زلت أطالع كتاب « النيل والحضارة المصرية » لموريه . فى الخارج تعصف الريح ، والمطر ينهمر بفزارة ، الى حد انى أرتعش كما لو كنت أواجه سرا من أسرار الطبيعة . ان الشتاء يفتتح الموسم فى صخب مدو ، مفرقع .

أقتطف من كتاب موريه « النيل والحضارة المصرية» هذه الجملة ، يقولها حكيم لاحد القضاة ناصحا اياه باظهار سلطانه وقوته : « ألق الرهبة امامك تعش مرهوب الجانب » . وهذه الحكمة — فى عرفى — أقرب ما تكون شبها لكلمة الماريشال ليوتيه المأثورة ، حين كان يحكم شمال افريقيا : « أظهر قوتك كى لا تحتاج لاستخدامها » .

٧ اكتوبر :

ما زلت أوالى العمل فى مسرحيتى الفرعونية .

٨ اكتوبر :

ترى هل يسجل اليوم فى حياتى فجرا جديدا ؟ أتكون هى أخيرا شقيقة الروح التى طالما ناجيتها فى وحدتى ، المرأة الكاملة التى امتلأت بها أحلامى منذ تفتح قلبى للحب ؟ لكم أتمنى ذلك . هل بلغت يا الهى المرفأ الذى أرسى عنده قارب حياتى الضالة ؟ انها شقراء ، انها تقية ، انها من أهل بريطانيا ، كلها تواضع وبساطة ، ومع ذلك تعلو سيماها مخائل الاصالة والنبل ، انها

سيدة حقيقية ! ما كان أسعدنى الليلة ! ان شعرها الاشقر وعينيها الزرقاوين كانت تضىء من حولى صالة السينما حيث كنا نشاهد فيلما ظريفا للممثل الخفيف الروح نوبل نوبل .

١٠ اكتوبر :

لا ينبغى الكلام عن السعادة فى منزل الرجل .. الشقى ! ! ان قصور الورق التى شيدتها قد تداعت جميعها ! ! مارسيل ما هى الا ... أحقر النساء ! كل فتيات هذه المدينة يتشابهن : ممثلات بارعات! فى الظاهر قديسات وفى الباطن مومسات . النهاية هذه قصة أخرى قمت بتصفيتها ، وان دلت على شىء فعلى غفلتى وسذاجتى . وا خجلى من قلة احتراسى وخلوص نيتى ! اى درس ! ! !

ذهبت لشراء تذكرة كى أشاهد الليلة مسرحية « أردين دى فافرشام » بمسرح مونبارناس ، فرآنى المخرج الكبير جاستون باتى أحادث مدموازيل لوريوتى، سكرتيرته ، بالقرب من باب مكتبه ، فتصور أنى جئت أستأذن فى حديث معه ، فأدخلنى مرحبا بى ، وانتهزتها فرصة سانحة وأخذت أحادثه عن الاخراج والمسرح والتمثيل فى مصر ، والجريمة والعقاب التى ترجمتها له ، فاستبقانى مدة عشرين دقيقة ، عرضت خلالها على هذا الاستاذ القدير آرائى فيما يختص بنهضة مسرحية فى بلادنا فأصغى الى فى صبر ورضى واستصوب بعض ما قلت وعارضنى فى البعض الآخر ، وفى نهاية حوارنا نصحنى بمحاولة بعث الاسرار الاوزيرية الفرعونية التى يرى أنها أوحت الى الاغريق أسرار الوزيس التى خرج منها نشيد الماعز، وهو أساس التراجيديا عند اسكيلاس

وبذرتها الاولى . وقد أوصـــاني بمقابلة الاب دريوتون الموجود الآن ، على ما يظهر ، بالمعهد الـكاثوايكى بشارع فوجيرار ، لأحصل منه على تفاصيل كشفه الاخير عن مسرحية فرعونية قديمة ، فصارحتــه عندئذ بطموحى لتاليف مسرحية فرعونية ، فبدا لى منه تحمس كبير لهذه الفكرة ، وطالبنى بنسخة فرنسية لهذد المسرحية، ووعد بتمثيلها ان راقت له . واستأذنته فى الانصراف وانا أؤكد له مرة ثانية انى أطمع فى الرجوع الى الينابيع الفرعونية الاولى ، وأبذل الجهد الجهيد لارســـاء مسرح اليوم على اساس مسرح الماضى المجيد .

١٢ اكتوبر :

الساعة الثانية صباحا : أطالع كتاب «الفريد بوازا» « اعــلام المسرح » ، وها أنا ذا أقتطف منه الفقرات التالية :

ــ قرأ كتاب القصص التمثيلى فى القرن السابع عشر عن قواعد المسرح عند ارسطو ، وفهموا منها قبل كل شيء ، أن الفن انما هو محاكاة للطبيعة وللحياة ، وأنه تقليد لواقع مختار ومركز ، فاستخلصوا من ذلك بحق، أن الحدث المسرحى يجب أن يوحى الى المشـــاهـدين بايهام الحياة ، وأن يكون اذن شبيها بالحقيقة، كما فهموا كذلك أن المـأساة تحتاج الى صراع ينتهى بفاجعــة ، ليكون الحدث غاية فى العنف ، فيحتدم الموقف ويتصاعد الى المـأساة والى الضراوة المسعورة . وفهموا ايضا انه يحسن الاكتفاء بهذا الحدث الفرد . ومن هنا وحــدة الحدث الذى يجب أن يتم سريعا وفى نفس اليوم وفى نفس المـكان ، وفى هــذا التركيز للحــدث تقوية له وتصعيد فى عنفوانه ، ثم جاءوا لمشكلة تطهير الشهوات.

فترجموا هـذه الفقرة الغامضة من كتاب أرسطو على أنها تعنى استهداف المؤلف لعظة أخلاقية سامية تحيط بالنص وتسيطر عليه مستخلصة منه للمشاهدين فى النهاية درسا كبيرا !

ب فى القرن السابع عشر بدأ المؤلفون المسرحيون يتخذون من الحب ، المحور الاساسى لرواياتهم .

ـ تصور كورنيل المأساة على أنها صراع بين الحب والواجب ، وقد شاء أن يكون مسرحه مدرسة عامة للبطولة والنزاهة والاستقامة والصراحة والبساطة . وفى نفس الوقت أن يتلقى المشاهدون منها دروسا صادقة عن الانسان والدين والسياسة . وقد عبر عن آرائه هذه فى حكم موجزة لماحة عميقة التأثير ، تكون فى مجموعها انجيلا حقيقيا لرجل الدولة وللانسان الفاضل ، وسجلا عمليا مختصرا لانبل العواطف البشرية . وقصارى القول ، فقد أراد كورنيل أن يصنع من فرنسا شعبا عظيما ، على غرار الشعب الرومانى العتيد .

ـ العبقرية الفرنسية تقوم على التركيز والتحليل والتبسيط .

ـ بينما كنت جالسا ظهر اليوم وانا اكتب فى مقهى الـكابولاد ، تقدم منى الدكتور « بشر فارس » على غير معرفة سابقة ، وحيانى . انه شـاب ظريف وأديب مثقف . وقد كاشفنى بأنه الف مسرحية من ذات الفصل الواحد ، ويرغب فى قراءتها لى .

١٣ اكتوبر :

استغرقت فى كتابة مسرحيتى طوال النهار .

قرات خمسين صفحة من كتاب « ألفرد بوازا » : « أعلام المسرح العالمى » .

قضيت سهرتي في مشاهدة مسرحية « بيتهوفن » على مسرح « بورت سان مارتان » . يا لها من مسرحية رائعة ، مؤثرة ! لقد انتزعت من جمهور المشاهدين ومني دموع الاعجاب ، والتصفيق الحار ، وقد صاحبتها موسيقى بيتهوفن السماوية . هذه مسرحية جديرة بالترجمة ، على أن تقدم في اخراج مختلف عما رايت ، فان العرض كان مهلهلا ، كما كان التمثيل سيئا ، على أن الموسيقى عوضتنا عن ذلك بلحظات ملهمة ، عبقرية ، شدتنا الى حياة علوية .

١٥ اكتوبر :

وفد اليوم الاخ الدكتور حسين فوزى من مصر، وقد امضيت سحابة يومى فى رفقته ، وحضرنا معا حفلة موسيقية بمسرح الاوبراكوميك ، استمتعنا خلالها بمقطوعات لتشايكوفسكى ، وريمسكى كورساكوف ، وموسورجسكى الذى كنت قد أعجبت بأوبراه الشهيرة « بوريس جودونوف » فى مسرح الاوبرا .

يقول لويس جوفيه : المسرح الحقيقى ، هو الذى لا يبعث على الملل والسأم .

١٧ اكتوبر :

أول درس لى فى المبارزة ، عند الاستاذ السياف الشهير : جورج .

١٨ اكتوبر :

اجتمعت بالمسيو فابر فى نهاية تدريب «باريس-بابل» وتحدث الى حديثا فنيا شائقا ، فى مقهى داركور من

نشأة فكرة هذه المسرحية فى ذهنه وما شاهده يوما من حياة الشرقيين فى شارع موفتـار ، الامر الذى أوحى اليه بموضوع مسرحيته .

قابلت بشر فارس فى مطعم الكابولاد بعد العشاء ، وقد مضى بى الى البانسيون الذى يقطنه ، وقرأ على مسرحية قصيرة عنوانها « على مفترق الطرق » ، وهى مسرحية رمزية، يغلب على حوارها الغموض، وشخوصها نمطية مستغلقة ، من نوع المسرحيات الذهنية ، خالية من اى حدث درامى ، وأعجب ما فيهـا أن هناك بين شخوصها « كلبا » يمص قصبا . وبكلمة واحدة فهى « تقليعة » شعرية يغلب عليها الحذلقة والتصنع ، لكن هذا لم يمنع من أننا أمضينا سهرة ممتعة ، تطارحنا خلالها ما نحفظ من آيات شعرية قديمة وحديثة ، وقد أهدانى قصيدة شعرية بخط يده ــ أثبتها هنا ــ فيهـا ملامح كثيرة من قصيدة للشاعر الفرنسى بول فيرلين التى يقول فى مطلعها :

« تنهمـر الدموع على قلـبى
مثلما تمطر السماء على المدينة »

أما قصيدة الدكتور بشر فارس ، فقد كتبها بخط يده كالآتى :

الخريف فى باريس

يا لهـذا الشـجر عابسـا كالقـدر
باكيـا فى السـحر بدمـوع المطـر
يا لصـوت المطـر فى حفيـف الشـجر
مثـل نوح الوتر فى حـديث السـمر
يا لرقص المطـر حـول قلبى الضجر

مثـــل سجع القمـــر حـــول ذاوى الزهر
يا لعيـــشى الـــكدر عنـــد صـــفو المطر
لفتـــــة المحتضـــر لـــــلألمانى أثر .
« بشرفارس »

١٩ اكتوبر :

تدريب على مسرحية باريس ـ بابل بمسرح الاوديون. وقد نادانى مسيو فابر خلال التدريب ، وكنت جالسا فى الصالة لأصعد على خشبة المسرح وأصحح للممثلين بعض الكلمات العربية التى ينطقونها بشكل مضحك ، وقد تعرفت بهذه المناسبة الى الآنسة «مونتيرو» بطلة المسرحية ، و « جوزيه سكينكل » الذى لقنته كيف يتلو سورة الموت .

٢٣ اكتوبر :

يقول الشاعر أندريه شينيه فى بيت مشهور :
« ولد للعبودية من لا يعرف القناعة والرضا بالفقر».
كلما توغلت فى قراءة الشاعر « أندريه شينيه » زاد يقينى أنه الينبوع الذى استلهم منه « أدمون روستان » بعض فقرات من مسرحيته « سيرانو دى برجيراك » .
انتهيت الليلة من مطالعة الكتاب العظيم العامر بالمراجع التاريخية « النيل والحضارة المصرية » وهو كتاب عميق ، جليل النفع ، للكاتب الفرنسى موريه . وقد وجدت فيه ينابيع صافية من شعر قدماء المصريين وحكمتهم وديانتهم ، سأضمن بعضها مسرحيتى « مصر الخالدة » .
يقول فيكتور هوجو :
يبحث الجمهور فى المسرحية عن الحدث ، والنساء عن العواطف ، والخاصة عن الاخلاق .

٢٥ اكتوبر :

كنت اعمــل فى كتابة مسرحيتى الفرعونية فى مقهى « الشوب اللاتينى » حين وفد على الممثل سكنكل فى صحبته جيرمين مونتيرو . وقد أمضينا وقتا ممتعا فى حديث طويل عن التمثيل ، وقد اتفقت آراؤنا على كثير من قضايا المسرح من حيث الاداء والنصوص والاخراج.

فى الساعة السادسة ، أخذت درسى الثانى فى المبارزة عند جورج . وقد جعلنى أكرر نفس التمارين السابقة.

الاوليزيه بمسرح الاوديون بمناسبة مرور مائة عام على وفاة الموسيقار بيزيه ! كانت حفلة شائقة ! وقد مثلت مدام تونيا نوفار دور الام بطريقة انسانية عصرت منـا القلوب . وقد رصدت على حدة فى دفتر صغير بعض حركات الميزانسين .

يقول توشار :

ــ ان الجو الفاجع يتوفر للمشاهد عند ما تعكس له المـأساة صورة من نفســه فى الحدث الذى يقع أمام عينيه . ولهــذا الســبب بالذات ، كثيرا ما تســقط المسرحيات التى تحلل شخصيــات خاصــة ، كالممثلين والمؤلفين ، اذ هم أقلية لا تمثل الاغلبية الساحقة من المتفرجين .

ــ كان ديونيزوس عند الاغريق الها للخمر والسكر للمرح والزهور والربيع . كان الها للانبهــار الروحى وللرعب . وهو اله يؤثر ظهوره على الاحياء فيدفعهم الى الهذيان والبحران . وبالاختصار ، فان اله الفن هو قبل كل شىء اله الانطلاق الصاروخى لجميع العواطف. وهكذا تبدو لنا غاية المسرح ، أن تظهر للانسان الى أى مدى يستطيع أن يصل اليه حبه وحقده ، غضبه وفرحه وخشيته وقسوته . كما أنها تلمسه مدى ما قد يؤول

اليه أمره فى عالم لا قيود فيه ، عالم يتداخل فيه الكرم بالشح ، والغضب بالشريعة الخلقية ، الحب المحموم بالسمعة الطيبة ، الحقد بخشية الشرطة . فالهدف الذى يطالب به المشاهد أخيرا هو استشراف ذلك العالم الذى يستطيع فيه أن يبدو أمام نفسه كما هو فى كامل حقيقته !

ـ هذه النشوة الديونيزية ، هذا الاستهتار بالحواجز المادية والمعنوية التى تعارض شهوات الانسان أو أحلامه. كل هذا هو ما يطلب من المسرح أن يعيد خلقه ، فيقدم للمشاهد عاطفة شبيهة بالعاطفة الدينية المشبوبة ، تنبع أصلا من وعى عميق لفعل صادق متسام

ـ يقدم المسرح للانسان مشهد احدى قدراته وهى تعمل دون عائق يقف فى سبيلها .

ـ يؤثر الفرنسيون الانواع المحددة ، ولا يميلون الى الخلط فى الانواع المسرحية .

ـ لم يقصد أرسطو فى كلامه عن المسرح أن يحاكى الواقع حرفيا ، وهو يصور الحياة .

ـ يخلق الجو التراجيدى بمجرد أن ارى نفسى فى بطل المسرحية ، وبمجرد أن يصبح الحدث المسرحى حدثى انا ، اى عند ما أشعر أنى أعيش المغامرة التى تجرى وقائعها أمامى .

ـ كان أرسطو يقول ان الشعر التراجيدى أسمى انواع الشعر .

ـ ان الينابيع التى استقى منها كورنيل الهام تراجيدياته هى كالآتى : تيت ليف ، وبلوطرخوس ، ولوكان، وسنيكا ، والاسبان ، لوب دى فيجا وكلديرون

٢٦ اكتوبر :

أمضيت يومى فى مشاهدة التدريب الختامى لمسرحية « البورجوازى النبيل » لموليير ! يا لعظمة هذا الرجل ! انه نبع فوار بالضحك الصادق العميق ، وهذه مسرحية جديدة بالترجمة والاخراج . وقد انتهزتها فرصة للتحدث مع مسيو الدبير ومسيو ابرام مدير مسرح الاوديون ، وقد طلبت من هذا الاخير أن يسمح لى بمراجعة ميزانسين هذه المسرحية ، فوعدنى بكل سرور بعد ظهورها على المسرح .

٢٧ اكتوبر :

تناولت غدائى وعشائى مع فوزى ، ثم ذهبنا فشاهدنا الفيلم العظيم « آلهة الستاد » ، بطولة ليناريننشتال.
أمضيت الليل فى مقهى الكوبول الشهير ، فى صحبة بشر فارس ، وحسين فوزى . وقد لمست بينهما سوء تفاهم خفيف .

٢٩ اكتوبر :

أعمل ليل نهار فى كتابة مسرحيتى ، ونصب عينى « الكلمة المأثورة » البلاغة ما فهمته العامة ، ورضيت عنه الخاصة .

نوفمبر

انتهيت الآن من قراءة مقال عظيم عن جوته ، بوصفه مديرا لمسرح ويمار . يجب ترجمته .

أعدت تبييض مسرحيتى الفرعونية بأكملها ، وساعمل من الآن على تحسين أسلوب كتابتها .

علمت اليوم من الجرائد أن شاعرى الاثير « فرانسيس جام » قد توفى ، فى نفس اللحظة التى دخلت فيها الدير ابنته الصغرى .

ويمتاز فرانسيس جام بولعه الفائق بالطبيعة ، فهو يشعرك وأنت تقرأه بأنه قطعة منها ، على عكس شعراء العصر الحاضر من المتحذلقين والتابعين لحركات الدادائية والسوريالية . يتسم شعره بالبساطة والصدق والطبيعية ، وقد أنكر وجود الله فى مطلع شبابه ، ثم عاد اليه فى خريف العمر ومسائه ، فتصوف وأشاد بالحب الالهى ، فاستحق أن يكون من أعظم خدام الجمال والفن ، وهما الترجمة الصادقة لكلمة « الخالق » عز وجل .

يقول الممثل « جورج بيير » فى كتابه عن الالقاء : « لا يجب أن نلقى كما نتكلم فى الحياة ، بل كما يجب أن نتكلم » هذا هو سر التفوق فى فننا .

٣ نوفمبر :

أول درس فى المركز الدرامى ، الذى عاود فتح أبوابه

لدراسة الاخراج المسرحي تحت اشراف مسيوموسيناك.
دفعت ٦٥ فرنكا للاشتراك الشهرى .

بمناسبة عيد القديسين ، قصدت صباح اليوم مقبرة « الاب لاشيز » ، وقد لفتت نظرى امرأة عجوز تتنقل بين القبور وهى تقتطف وردة من هنا وزهرة من هناك ، تختفي لحظة ثم تعاود الظهور ، وعند ما رأتنى أحدق فيها فى دهشة بالغة ، اقتربت منى على استحياء وقالت لى : « لا تعجب ياسيدى ، فقد لاحظت ان بعض القبور المهجورة لم يفكر أحد فى تزيينها بزهرة ، كما لاحظت قبورا أخرى غارقة تحت باقات الزهور ، فانا أحاول أن أقيم بعض العدل بين الاموات ، فانثر على المقابر الفقيرة ما أجمعه من على مقابر الاغنياء » .

وخرجت من المقبرة وانا كالمذهول ، أعجب أشد العجب من مثل هذا الحنان وهذه الرقة المتناهية ، والمح فيهما علامة مؤكدة على أصدق وأعظم الحضارات : حضارة القلب !

٤ نوفمبر :

تدريب بمسرح الاوديون على مسرحية « النبى » عن اللوحتين السابعة والثامنة. وقد رسمت اللوحة السابعة بيد أستاذ قدير ، والسابعة هى قمة المسرحية . فهنا يعرض المؤلف مذهبين متعارضين :

١ ــ مذهب القوة الغالبة فى الوثنية .
٢ ــ ومذهب التسامح الذى يتسم به الاسلام .

ويدافع عن الراى الاخير مسلم ملهم ، متاثر بمبادىء وفلسفة الغرب ، وهو فى دفاعه يتصور أنه يدافع عن جوهر الاسلام .

تقابلت خلال التدريب مع راسم المناظر مسيو برتان،

وقد شكرنى على الآيات القرآنيــة التى رسمتها له ، ليستفيد بها فى أحد مناظر الرواية ، وقد دعانى لزياره مرسمه بشارع بلاتو .

لـكثرة ماحدثنى مسيو فابر عن شارع موفتار فى باريس ، اشتقت الى رؤيته خاصة وقد اتخذه نبع الهامه فى مسرحيته ، فتوجهت اليوم فى صحبتــه ، ومعنــا مدموازيل مونتيرو وسكنكل ، واجتزنا ممر البوستة ، وشارع أورتولان ، وكنيسة القديس ميدار حيث ركز فابر أحداث روايته . وهناك شاهدنا حوانيت صــغيرة يصعد اليها بثلاث درجات ، كما فى دمشق ، أو عندنا فى التربيعة . ورأينا وجوها مغربية وتونسيه ومراكشية وقد سمعت بأذنى أحاديث مصرية يتبادلها بعض تجار العطــارة ، فهبت على من مصر نسمات عذبة أنعشت قلبى . وقد صادفنا هناك مسيو برتان راسم المنــاظر الذى جاء هو الآخر يســتلهم جو هــذا الحى الشرقى العجيب !

لم تكن الملـكية الادبية معروفة فى زمن شكسبير ، فكانت المسارح تتبادل المسرحيات التى مثلت وفازت بقسط من النجاح ، ولم تعرف تلك الملكية الا بعد وفاة شكسبير ، فقد قام المؤلف المسرحى « بن جونسون » يطالب لنفسه بحقوق التأليف بمناســبة طبــع ونشر مؤلفاته . وهكذا كان « بن جونسون » أول من بشر بميلاد الملـكية الادبية فى انجلترا .

استمعت الى محاضرة فى المركز الدرامى ، القــاها بيير أبراهام عن « اللياقة التمثيلية » ، وهى « اللياقة البدنية » و«الاحساسية» ، التى تؤهل الممثل لاداء دور بالذات . فمما لا شك فيه أن الطبيعة تحدد لكل ممثل نوع الدور الذى يجب أن يضطلع به ، ليكون فى حدود

امكانياته ، وان كان هناك ممثلون عباقرة وهبتهم الطبيعة جسما وسطا ، ومواهب صوتية فذة ، وقوة خلق عجيبة تساعدهم على القيام بجميع الادوار الدرامية والكوميدية أدوار الشباب والشيوخ والعشـــاق والملوك ، بيد أن هؤلاء نادرون !

لاحظت فى مسرح الاوديون أنهم يضعون فوق التابورهات اغطية من الممكن استبدالها بسهولة فيتحول التابوريه من طراز ريفى الى عصرى الى غوطى الى رينيسانس ، وهى فكره طريفة .

٧ نوفمبر :

عشت اليوم أعجب مغامرة عاطفيـــة حـدثت لى فى باريس . حضر عندى قبيل الظهر الدكتور بشر فارس، وعلى الرغم من أنى كنت مشغولا بكتابة تقرير للأستاذ مطران عن مشاهداتى وانطباعاتى ومطالعاتى خلال شهر أكتوبر الماضى . فقد الح على للخروج معا ، كى نسهر فى أحد مقاهى الحى اللاتينى . فأطعته كارها وخرجنا معا . فما أن اجتزنا شارع راسين ، وأشرفنـــا على البولفار سان ميشـــيل أو البول ميش ، كما يسمونه هنا ، حتى لمحنا بالقرب من مكتبة « جيبيرت » فتاتين من أهل الشمال الشقراوات ، واحدة منهما فيها مشابه من « جريتا جاربو » ، والاخرى فى جمال ورقة عذارى « بوتيتشيللى » فوقفت حائرا أمام هذا الجمال العبقرى والجمال أيا كان يصيبنى دائما بنوع من الذهول يحولنى الى آلة بكماء ، على عكس صاحبى الذى سرعان ما أسر الى باعجابه بالفتاتين وتصميمه على مطاردة هذه الغنيمة النـــادرة ، فجهـــدت فى منعه وقـــد خشيت فضـــيحة « بجلاجل » ، خاصة ولم أعتد فى حياتى هذا النوع من

المطاردات . فطمأنني الدكتور بشر فارس بلهجة زير النساء الواثق من نفسه ، وتقدم منهما مبتسما ، فانتحيت جانبا من الشارع أرقب منه وأرتقب اخفاقه المؤكد ، فما مضت ثوان حتى رأيت صاحبي يشير الى بالاقتراب ، كما لمحت على ثغر الفتاتين بسمة مشجعة فتقدمت على حذر ، وأنا لا أصدق عيني ، ويقدمني بشر اليهما ثم يدعوهما الى تناول فنجان من القهوة باللبن فى مقهى « السورس » المواجه لمكتبة «جيبرت». وتوافق الفتاتان فى بساطة متناهية ، فنجتاز الشارع

ونأخذ مقاعدنا فى المقهى وأنا كالمسلوب لا أدرى كيف تم كل هذا وفى مثل هذه السرعة الخاطفة. وجاء الجارسون « بأكواب القهوة باللبن » ، وانطلق الدكتور فى حديث شائق استهله بسؤال الفتاتين عن اسميهما وعن اسم البلد الذى تنتميان اليه وعما تصنعان هنا فى باريس ؟ وهكذا علمنا أن احداهن تسمى «سولفيج» ، والاخرى « ايفا » ، وانهما من أهل النرويج ، وان احداهما تدرس

الادب المقارن فى السوربون ، والاخرى حائكة ملابس ، تفد على باريس فى مطلع كل موسم ، فتنقل عن العاصمة الفرنسية أحدث موضاتها ، ثم تعود بها الى النرويج كآخر صيحة للأزياء الباريسية . وعندما استطلعت الفتاتان خبرنا بدورهما ، تبرع صاحبى بالاجابة ، فاستفاض وتطاوس وتألق وجعل يتحدث عن مواهبه

الادبية وعن الدكتوراه التى يحملها من جامعة السوربون وعن القصر المطل على النيل الذى يسكنه فى القاهرة ، ثم أشاد بمقالاته النقدية والادبية التى ينشرها فى المجلات العربية ، وحتى فى المجلات الفرنسية ، واهتماماته بفن المنياتور (النمنمة) . واستحوذ صاحبى على أعنة الحديث فلم يترك لأحد مجالا للكلام وكأنه وجدها فرصة سانحة

فجعل يتحدث بطلاقة وألمعية عن أبسن واثره في الادب المسرحي العالمي . وجعلنا نصغي اليه ــ الفتاتان وأنا ــ ونحن نعجب بهذه الطلاقة وهذا التبحر . وفجأة غمزت ايفا صاحبتها ثم أوقفت هذا الشلال الهادر من الكلام متسائلة : « لقد علمنا الكثير عن المعيتك، ونشاطك ، ومواهبك يا دكتور ، فمن يكون السيد صاحبك ؟ ..

واشارت الى ، فلم يترك صاحبي المجال لي ، واستطرد يقول في اختصار يهون به من شاني : هذا الصديق ممثل قديم وفد على باريس في بعثة لدراسة الاخراج ، وفي عودته الى مصر كلما أخرج مسرحية فسأكون أنا ناقدها وأذيقه المر . فضحكت الفتاتان طويلا ، ثم استأذنتا في الانصراف ، فقمنا لتوديعهما ، ولكن الدكتور أصر على مرافقتهما الى حيث تذهبان . وفي الطريق حاول

المستحيل مع الصغيرة الحسناء ليأخذ منها موعدا للقاء آخر ، ولكنها كانت تعتذر ضاحكة ، ثم اضطرت تلقاء الحاحه الشديد أن تصارحه بأن لها في باريس صديقا تحبه ويحبها ، وكنا حينئذ قد وصلنا أمام حديقة لوكسمبرج حيث توجد محطة أوتوبيس ؛ فاستقلت الفتاة الصغيرة السيارة بعد أن ودعتنا متمنية أن ترانا مرة ثانية في الحي . وأسقط في يد الاخ أبي الفوارس ، وقد خاب أمله فأدار مدافعه صوب الفتاة الاخرى

وحاول محاصرتها طالبا منها أن تسمح له بأن يصحبها الى حيث تقطن ، فاعتذرت الفتاة في لطف وتخلصت بلباقة قائلة : لا تكلف خاطرك فاني أقطن بالقرب من مسرح الاوديون ، وهذا السيد ، واشارت الى ، سيتفضل مشكورا بتوصيلي . فاحمر وجه صاحبي كعرف الديك واستشاط غضبا وحملني مسئولية اخفاقه فصرخ في وجهي : يا ابن الـ .. !

ومضى الدكتور بشر فارس الى حال سبيله و « قفاه يقمر عيش » وهو يكاد ينفجر من الغيظ . والتفتت ايفا نحوى تسالنى .

ـ اين تقطن ؟

ـ فى شارع كازمير دى لافين

ـ يا للعجب ! انه نفس الشارع الذى أقطن فيه . وفى اى فندق تقيم ؟

ـ فندق سان سولبيس .

ـ يا للمصادفة المجيبه ! انه على بعد خطوتين من فندقى . هيا بنا ! هيا بنا !

وما لبثنا حتى أخذنا طريقنا الى مسرح الاوديون وأنا ذاهل واجم ، وأشرفنا على فندقى ، فقالت « ايفا » فى مكر ظريف :

ـ هل تسمح لى بزيارة غرفتك لاقارنها بغرفتى ، فقد أبدل اقامتى فأنتقل الى فندقك ان راقنى اتساع الغرفة وأثاثها . فوافقت بسلامة نية وأنا أعتقد أن المسألة ستقف عند هذا الحد . وصعدنا الدرج بعد أن تناولت مفتاح الغرفة من صندوق الرسائل الخاص بى .

فتحت الباب وهممت بفتح النافذة ، فاذا بالفتاة تسارع بمنعى وتوصد الباب بالمفتاح بدون مقدمات ، ثم تركع على الارض وهى تردد : أجبنى بصراحة أرجوك ، ارجوك . فتسمرت فى مكانى كالمصعوق وأنا لا أدرى ما أقول وقد تواردت على خاطرى كالبرق الخاطف شتى الافتراضات : ما تكون هذه المرأة ؟ افاقة ؟ لصة ؟ مومس ؟ وعاودت ايفا التوسل بحرارة أشد : قل لى بربك أرجوك ، أأنت مصاب بمرض سرى ؟

فبهت من هول السؤال ، ولكنى ما لبثت حتى هززت رأسى بالنفى وأنا أحملق فيها كالابله ، فاذا

بصاحبتى تنطرح على السرير مادة نحوى ذراعيها ومقدمة لى فما يختلج ويرتعش .

وظلت « ايفا » تتردد على كلما ترددت على باريس ، وتوثقت بيننا عرى صداقة متينة . وقد سألتها مرة لارواء فضولى :

ــ ترى ما الذى اعجبك فى وقد التزمت الصمت التام فى مقابلتنا الاولى ، ولم احاول ان المع فى نظرك او نظر صديقتك ، فقالت ايفا :

ــ هذا بالضبط ما اعجبنى فيك ، فعلى قدر ما أطنب صاحبك الدكتور فى نفسه وبدا على حقيقته ينتفش غرورا وزهوا ، بقدر ما سرنى تواضعك ، فنحن النساء نفهم فى لمح البصر ــ عن طريق حدسنا ــ ما تفهمونه أنتم عن طريق العقل فى سنين .

٩ نوفمبر :

محاضرة من المؤلف المسرحى « لنورمان » فى المركز الدرامى عن الخلق الادبى .

١٢ نوفمبر :

اقتطفت من كتاب «ديونيزوس» للكاتب القدير «ايميه توشار » الفقرات التالية :

بوساطة الضحك ، فى المسرحية الهزلية ، يؤكد المشاهد تفوقه .

يقول موليير : لما كان من واجب الكوميديا تهذيب المشاهدين فى نفس الوقت الذى تعمل على تسليتهم ، فلم يكن أمامى سوى أن أنقد بصورة منفرة رذائل عصرى.

التراجيديا هى المرآة التى أبحث فيها عن نفسى ، والكوميديا هى المرآة التى أكتشف فيها غيرى من الناس.

يختلف الجمهور من عصر لعصر ، ومن سنة لاخرى ، كما انه يختلف كذلك بحسب الشعوب والاوطان المتعددة، وأخيرا بحسب الطبقات الاجتماعية .

لايمكن للعمل الفنى المسرحي أن يستهدف سوى تصوير وتحليل الانسان المعاصر لنا ومن نفس بلدنا. كما يجب أن يكون ذلك العمل الفني عالميا أيضا وباقيا على الزمن مثله فى ذلك مثل الخوارق الطبيعية العظيمة .

للفن المسرحى رسالة اجتماعية ، فهو يستطيع المعاونة على محو شعورنا بالفوارق الطبقية .

على المسرح ان يخاطب الناس أجمعين ، لا طبقة أو اخرى من الجمهور ، ويتكامل الجمهور حقيقة اذا جمع فى صفوفه أعظم الفلاسفة وآخر حمالى الانسواق .

فى مسرحية « أندروماك » تتركز الحبكة فى المنافسة الغرامية بين هرميون وأندروماك ، ويتأرجح الموقف بين الحب والحقد فى الفصول الاولى . أما « الحدث » فلا يبدأ الا فى اللحظة التى تصدر فيها هرميون الامر لأوريست بقتل حبيبها « بيروس » ، وفى اللحظة التى يستجيب لها القدر .

أما الخاتمة فتدخل ضمن « الحبكة » ، وفيها ترضية لفضول المشاهد فقط .

هناك فى المسرح شيء أسمى بكثير من منظر رجال هائجين يمسك أحدهم بخناق الآخر ، مثل ما نشاهده فى مسرحيات هنرى برنشتين ، فان هذا المسرح يقوم على دعامتين :

١ ــ المال .　　　　٢ ــ والشهوات .

مثلما ينبغى للحدث الدرامى أن يعبر عن المواقف أو الاخلاق الانسانية فى عالميتها الرحبة ، كذلك أسلوب الحوار الادبى يجب أن يرتفع ويتسامى عن أسلوب

الحوار اليومى .

من أهم ما يطالب به المؤلف المسرحى كى ينبثق عمله الفنى ويبرز الى عالم النور ان يخضع لوحدة موضوعه وأن يتواضع أمام خلقه الفنى وأن يتناسى نفسه . قارن بين « الاقتصاد » الذى يعمد اليه راسين والثرثرات اللامعة التى يتورط فيها فيكتورهوجو بدافع من شاعريته الهوجاء .

ان الاخراج المسرحى بمعناه الصحيح يتلخص فى عملية التنسيق بين جميع العناصر التى تساهم فى تمثيل النص المكتوب : وليس المنظر سوى أحد هذه العناصر ، وغالبا ما يوكل أمر تنفيذه الى شخص آخر . لكن هذا لا يعفى المخرج من أن يتخيل الجو الذى ستظهر فيه أحداث المسرحية ، وهو المسئول عن تحريك الممثلين على خشبة المسرح ، كما هو مسئول عن توزيع الادوار . وفى عصرنا الحاضر أصبح المخرج يطالب بأن يكون الخالق الثانى للنص ، ولما كان المخرج فى الغالب هو مدير المسرح فان سلطاته الادارية تخول له تحقيق جميع الحقوق الديكتاتورية تقريبا .

كان الاغريق فى مآسيهم الخالدة يكتفون ببعض الاشارات الرمزية وبمنظرين يدور كل منهما حول نفسه عن يمين ويسار المسرح ، وكان هناك منظر خلفى مشدود على حائط الصدر يفى للايحاء بأن هناك معبدا أو قصرا او مخيم قائد او منظرا من المناظر الطبيعية التى تقع الاحداث فى رحابها .

كان من تقاليد الاشراف فى فرنسا أن يجلسوا على مقاعد وثيرة توضع خاصة من أجلهم فوق خشبة المسرح ويدفعون عنها ثمنا باهظا . وقد أعاق جلوسهم هذا تركيب مناظر تخلق جو التمثيلية لمدة طويلة من الزمن ،

الى أن جاء الفيلسوف والـكاتب المسرحى « فولتير » فقاد حملة عنيفة فى الجرائد والمجلات ضد هذه التقاليد البالية والمعوقة لتطور الفن الدرامى ، وطالب بتحرير الخشبة من جلوس هؤلاء النبلاء . وفى عام ١٧٥٩ عرض احدهم ويدعى الـكونت دى لوراجيه على فرق الممثلين أن يعوضهم ماليا عن الخسارة التى تلحق بهم بعد حذف مقاعد خشبة المسرح ، وقبلوا . وكان هذا ايذانا بتقدم وتطور المناظر المسرحية .

قالب المسرحية ذات المناظر المتعددة قالب خطير، اذ أن وحدة النص لا تحتمل القطع المستمر الذى تتعرض له . فاهتمام المشاهد لا يكاد يثور حتى يتعثر ويتلاشى بعد نزول كل ستار ، وفى هذه الاحوال فمن المحتم أن يكون المنظر قصيرا بل كروكيا لا يحتوى على أكثر من بعض الاشارات السانحة ، بعض التصوير العابر، بعض الارهاصات التى تساعد على خلق الجو .

أهم ما تمتاز به التراجيديا أن تضع وجها لوجه قوتين غير متكافئتين تتصارعان : الواحدة تمثل الانسان فى شهواته أو حبه ، والاخرى سلطة قاهرة عليا ، غير معرضة بطبيعتها السرمدية للانهزام .

فى التراجيديا الاغريقية كان القدر يطابق فى غالب الاحيان تلك القوة القاهرة الغامضة غير المنظورة ، لكن المسيحية جاءت فتسامت بفكرة الله عز وجل وتغلغلت فى ضميرالانسان فحملته علىالشعور بمسئوليته المباشرة عن خطاياه ، فحولت بذلك التراجيديا عن طريقها الاول ودفعت بالرجل الى حياته الخاصة واضطرته الى الحوار مع ضميره ، مع شهواته أو واجبه ، فأصبح الانسان عند راسين أو شكسبير أو كورنيل يتصارع مع نفسه أو مع رجال آخرين .

١٥ نوفمبر :

تناولت العشاء الليلة فى رفقة الاخ بشر فارس ، و « فاكالو » راسم مناظر مسرح الاتيليبه فى مطعم الكوبول . وكان الدكتور بشر قد رجانى أن أمهد لهذا اللقاء كى يقرأ على « فاكالو » مسرحيته « فى مفترق الطريق » ، المترجمة الى الفرنسية ، ويقنعه بتقديمها الى المخرج دولان لتمثيلها . وقد خضنا فى أحاديث المسرح الشائقة طول الليل ، وقرأ بشر روايته التى لاحظت انه يطبل لها ويرمز فى كل مكان ، لكن مع الاسف لم تنتزع هذه القراءة من فاكالو سوى هذا الرأى الصريح : « لا أعتقد يا مسيو بشر أن مسرحيتك جديرة بالتمثيل على مسرح كبير ، فهى من النوع الرمزى المستغلق . والليق بأن تقرأ بعد وفاتك فى حفلة تأبينك كشاعر رمزى » .

وقد امتعض صاحبى اشد الامتعاض ، وأمسك عن صب نبيذ بوردو الفاخر الذى كان قد أمر بتقديم زجاجة منه لنا على حسابه الخاص . وفى المطاعم الكبرى بفرنسا تقدم زجاجة النبيذ الجيد على المائدة ولايحاسب الزبون الا على الاكواب التى يتناولها منها . وتشاء المصادفة أن يطلب بشر لحديث تليفونى فيتركنا الى الدور الاول ، فيسارع فاكالو الخبيث الذى لاحظ بخل صاحبى ، فيتناول الزجاجة ويأخذ يصب لى وله منها دفعة بعد اخرى ، وهو يضحك كالاطفال الى أن أتينا على آخر نقطة فيها . وهنا يعود صاحبنا بشر ، ويفهم الملعوب فيكاد يصعق ، ويوزع نظرات الحيرة والغضب مناصفة بينى وبين فاكالو ، وهو يغلى ويتميز من الغيظ الكظيم !

١٩ نوفمبر :

ماتينيه وسواريه بمسرح الاوديون ، وقد بدأت أضيق بالدور الصغير الذى أسنـد الى ، اذ أنه يحرمنى من حرية التنقل والافادة من المحاضرات ومشاهدة المسرحيات ومع ذلك فقد استطعت أن أفلت فى الخامسة ، والحق بالمركز الدرامى . على كل حال ، آمل الا يفوتنى درس الثلاثاء القادم عن الاخراج المسرحى .

سمعت اليوم مدير الـكوميدى فرانسيز « ادوارد بورديه » يقول : ان روح الجماعة فى الفرقة المسرحية الواحدة ، هى روح تعاون وتضحية ، يبذلها الممثل الفرد نحو الجماعة .. ففى هذا التعاون قوة كل فرقة وانسجام ممثليها بعضهم ببعض .

كنت أتحدث اليوم مع مسيو فابر ، فشرح لى ما يسمونه بالايقاع أو « النغمة » التى يقتضيها المشهد الواحد، فهذه النغمة تكون أحيانا سريعة Allegro أو بطيئة Pianissimo حسب العامل النفسانى الذى ينبغى أن يتبعه الممثل ليعاونه على خلق جو من الطبيعة والصـدق ، وليحمل جمهوره على الشـعور بحرارة الموقف . ثم استطرد : « نحن فى فرنسا نميل الى الالقـاء السريع المتألق ، ونهوى الاداء اللامع المتحفز ، وقد عودتنـا تقاليدنا المسرحية منذ مئات السنين على فهم المعانى وهى « طائرة » . لذلك لا نحتمل الممثل الذى يثقل النص بأداء بطىء ، متعب ، شاق ، كأنه يتصورنا جمعا من البلهاء الذين لا يفهمون ما يقال » .

وأنا بدورى أسائل نفسى : هل يكتب النجاح لسرعة الاداء هذه فى بلدنا ، خاصة بعد أن شـاهدت بنفسى السيدة « روز اليوسف » اثر رجوعها من فرنسا عام ١٩٢٦ ، وانضمامها الى فرقة الريحانى ، وتمثيلها دور

« مونافانا » بهذه السرعة فى الالقاء . فقد أجمع كل من شاهدها يومئذ على انه لم يفهم من كلامها شيئا .

استأذنت من مسيو ابرام راجيا منه أن يعفينى من أداء دورى الصفير فى مسرحية مسيو فابر وقد اذن متفضلا . وهكذا حضرت مسرحية « حلاق اشبيليه فى الكوميدى فرانسيز » .

۲۳ نوفمبر :

حدثنى مسيو « جرمان بوكيه » الممثل النابغ بفرقة « لويس جوفيه » ، الذى تعرفت به أخيرا عن طريق مسيو « اميل فابر » ، قال :

— على قدر ما يبدو مديرنا «جوفيه» مرهف الحس عطوفا طيبا ، على قدر ما تبدر منه أحيانا تصرفات شاذة ترجف لها القلوب فى الصدور . واليك مثلا شاهدته بعينى راسى . فقد احتاج جوفيه لممثلة تقوم بدور عاطفى فى احدى مسرحياتنا الجديدة ، فما أن أعلن ذلك الخبر فى الصحف حتى توافدت على مسرح « الماتوران » عشرات الممثلات المعروفات ، وكل منهن تحلم باليوم السعيد الذى تنضم فيه الى فرقتنا الممتازة وتعمل تحت اشراف هذا المخرج العظيم . وقد تولى جوفيه بنفسه امتحان المتقدمات فى حضرة بعض ممثلى الفرقة ، وكنت واحدا منهم ، فما كانت تمضى لحظة قصيرة يصغى فيها الى الواحدة منهن ، حتى يصرفها خاسرة دون رحمة .

وتوالت أمامنا هذه الهزائم المفجعة والآمال الخائبة ، الى أن تقدمت فتاة نحيفة مهزولة ، شقراء الشعر ، زرقاء العينين ، فاستفسرها جوفيه عن اسمها وسنة تخرجها من معهد التمثيل الحكومى ، فأجابته وهى فى

ذروة الاضطراب : « انى أدعى سوزى مائيس ، وقد تخرجت ضمن دفعة عام ١٩٣٧ » .. فطلب منها أن تسمعه دور آنييس من مسرحية « مدرسة النساء » لموليير . فتشجعت الفتاة ، وبرقت عيناها ببريق الامل، فهذا الدور بالذات هو دور تخرجها من المعهد ، بيد أنها ما كادت تنطق بكلمات المشهد الاولى فى توتر وهلع حتى صاح بها جوفيه : « كفى يا مدموازيل ، لا جدوى من متابعتك، فانت لا تصلحين للتمثيل». فتوقفت المسكينة كالمصعوقة ، وقد شحب لونها وتولاها يأس أسود ، ثم ادارت عينيها فى الحاضرين كالمتوسلة ، ومضت فترة صمت رهيب ، فأطرقت الفتاة لحظة ثم جمعت أطراف شجاعتها وهمت بالخروج من باب المكتب . وهنا دوى صوت مديرنا العظيم يستمهلها قائلا : « توقفى مدموازيل ، لقد نجحت » . فلم تتمالك الفتاة نفسها واستندت الى الباب ، وقد هزتها المفاجاة هزة عنيفة ، فانهمرت دموعها وتعالت شهقاتها . حينئذ قال جوفيه : « اعتبرى نفسك من اليوم عضوة فى فرقتى » . « لقد جربت مع من سبقتك من الممثلات نفس هذه الطريقة ، فلم تبد احداهن أى رد فعل صادق . أما دور آنييس الذى قمت بتمثيله كممتحنة ، فسوف تمثلينه أمام الجمهور بعد شهرين » . وقد أضاف جرمان بوكيه : « قد يكون هذا الاسلوب فى اختيار الممثلات بعيدا — هونا ما — عن الرفق والانسانية ، لكنه أثبت أنه اكسبنا ممثلة عظيمة هى سوزى مائيس ، التى تحتل اليوم مكان الصدارة بين ممثلات فرنسا » .

تحققت الليلة من وجود شبه كبير بين موضوع « حلاق اشبيليه » للكاتب المسرحى « بومارشيه » ، وموضوع «مدرسة النساء» لموليير ، التى شاهدتها فى

الكوميدى فرانسيز . على أن المعالجة مختلفة كل الاختلاف .

أعود الليلة وقد امتلأت نفسى بسعادة غامرة ، اذ وفقت أخيرا الى هدية نفيسة أقدمها لمسرحنا المصرى . فقد صممت على اقتباس رواية « شقاوة الآباء » بعد أن شاهدتها على مسرح « الامباسادور » من تمثيل جرمين درموز وجبرييل دوزريا وجان ماريه ، وتأليف جان كوكتو . وكوكتو اليوم من ألمع كتاب فرنسا ، وهو كاتب جرىء استهوته جميع المذاهب الادبية من رمزية وتكعيبية وسريالية . واقتحم ميادين القصة الطويلة ، والشعر ، والمسرح ، والسينما ، والرسم ، والتليفزيون والموسيقى ، والباليه. فتراه فى طليعة كل حركة تجديد، ورائدا لكل فكرة جديدة مبتكرة . بيد أن هذا الكاتب الثائر الذى جعل شعاره كلمة دانونزيو الخالدة : «الكاتب الذى لا يتجدد يموت» . احب يوما أن يكتب للمسرح رواية يكسب بها جمهور النظارة فتخلص من نظرياته المتطرفة ، وكتب للمسرح رواية انسانية عميقة فى أسلوب بسيط صادق، وطرق موضوعا واقعيا شائعا مشتركا بين الناس والامم ، وهو موضوع حب الام لابنها حبا معقدا جامحا ، تتداخل فيه لمحات رهيبة من غيرة الانوثة ، والذى جلا أغواره للناس العلامة الكبير « فرويد » باسم « عقدة أوديب » . وقد شاقنى ما فى هذه المسرحية من حبكة قوية وتحليل عميق وانسانية دافقة ، فصممت على اقتباسها وتمصيرها تقريبا لموضوعها من النظارة عندنا .

بينما كنت البارحة واقفا تحت رذاذ المطر أقلب أكوام الكتب المعروضة أمام مكتبة جيبير ، اذ بسيدة عجوز تصحبها فتاة نحيلة تسألنى فى لهجة فرنسية غريبة :

« هل لك ياسيدى أن تتفضل فتدلنا على موقع شـارع جاى لوساك ؟ نحن غريبتان عن باريس ، وقد ضللنـا الطريق » . فاستدرت اليهما وأخذت أشرح للسيـدة العجوز موقع ذلك الشارع من الحى اللاتيني ، لكنها لم تكتف بشرحي وأصرت فى لطف زائد على أن أصحبهما الى الفندق الذى تنزلان فيه من ذلك الشارع . فكدت أضيق ذرعا بهذا الاصرار ، لـكنني تلفتت صوب الفتاة النحيفة ، فلمحت فى عينيها براءة آسرة ورجاء حارا . ولما كان الوقت ظهرا وأمامى متسع من الوقت على موعد تدريب مسرحية « الملك ــ الشمس » ، ارتضيت آخر الامر أن أرافقهما والله المستعان ، ومضينـا ثلاثتنـا صاعدين بولفار سان ميشيل. وفى الطريق أخذت العجوز تطرح على السؤال تلو السؤال : من اكون ؟ وهل أنا من أهل باريس ؟ وماذا أعمل فى العاصـمة الفرنسية ؟ فأخبرتها أنى مصرى من القـاهرة ، وانى عضو بعثـة لدراسة الاخراج المسرحى . فما أن سـمعت العجوز ذلك حتي قاطعتني فى حماس دافق وهى تهتف : « يا للمصادفة العجيبة ! نحن أيضا ياسيدى من مصر ، أو بالاحرى من الاسكندرية. انى أدعى مدام توتو وأنا مديرة ومؤسسة مدرسة الامل للصم والبكم ، وهـذه ابنتى هيلين . ونحن من أفراد الجالية اليونانيـة ، ونعتبر أنفسنا مصريين لحمـا ودما . ثم أردفت وقد أشرق وجهها : «لقد وجدناك فى خضم هذه العاصمة الصاخبة ، وكأنما أرسلك الله لتهدينا سواء السبيل فى هذه المتاهات المخيفة . لقد جئنا لدراسة وشراء أحدث الاجهزة للصم والبكم . فكن دليلنا وعدنا أن تلازمنا خلال الاسـبوع الذى سنقضيه فى باريس » .

فتطلعت الى العجوز وأنا فى أشـد حـالات العجب

والارتباك والحيرة ، وكدت أرفض لكنى ازاء نظراتها المتوسلة لم أملك نفسى من أن أعدها . وهنا كنا قد وصلنا الى فندقهما الصغير بشارع جاى لوساك ، خلف جامعة السوربون . فودعتهما وما زالت العجوز تكرر شكرها وتذكرنى بموعد الغد فى مقهى «السورس» بالحى اللاتينى .

فى انتظار موعد التدريب على احدى المسرحيات ، واحتماء من وابل المطر جعلت أتسكع تحت بواكى مسرح الاوديون ، القى نظرة عابرة هنا وهناك على آلاف الكتب التى تعرضها مكتبة « فلاماريون » المواجهة لهذا المسرح العتيق . فما أن انتهيت الى خاتمة مطاف ، حتى لفت نظرى عامل بناء يجلس فوق سقالة وقد عكف مستأنيا على اصلاح جانب من حائط مؤخرة المسرح . كان هذا المنظر عاديا ، بيد أنه استوقف خاطرى ، فالمطر كان يهطل مدرارا ، والعامل يعكف على الحائط ويسوى « المونة » هنا وهناك بعدل وقسطاس ، دون أن يشعر بالمياه الفزيرة المنهالة عليه ، ولا بالجو العاصف الذى يحيط به ، وكأنما هو عاشق لهذا الحائط يحيط معشوقته بشتى ضروب الرعاية والحب . وقفت طويلا أرقب هذا العامل العجيب الذى يباشر عمله ويجوده فى تفان واخلاص يتساميان بهذا العمل البسيط الى مرتبة الفن ، فاطرقت مفكرا وتذكرت آلاف العمال والصناع الذين شاهدتهم فى هذا البلد الامين وهم عاكفون على أعمالهم اليدوية أو الفكرية يباشرونها بنفس هذا الحب والاخلاص وقلت لنفسى : « لاشك أن حصيلة هذه الجهود الجادة المتضافرة هى التى بوأت فرنسا قمة الحضارة التى تستوى عليها الى اليوم » .

٢٨ نوفمبر :

« الايام السعيدة » فى مسرح ميشيل : كوميديا ظريفة فتية ، يؤديها ممثلون فتيان ، يمتاز تمثيلهم بالصدق والطبيعة والحرارة والعفوية والاصـالة . وقد شـد انتباهى ممثل منهم يدعى فرانسوا بيريه ، فى السابعة عشر ، يمتاز عن جميع زملائه بموهبة فذة فى الكوميديا ، وبحضور بديهة على المسرح لم أر له مثيلا فى هذه السن المبكرة . والى جانبه ممثلة ناشئة تدعى بيرنيت أشـبه « بتحف سيفر » الدقيقة المشهورة .

ما أمتعها ليلة قضيتها مع الفن والشباب !

٣٠ نوفمبر :

اشعر بانى مرهق . لقد التزمت الفندق ، وعكفت على القراءة . انى أسعل بعض الشىء واشعر بهبوط عام

ديسمبر

٣ ديسمبر :

طول الليل وقسم كبير من الصباح فى قراءة الالياذة ، وقد انتهيت من قراءة هذا السفر النفيس مساء اليوم.

وقعت على هذه الابيات للشاعر الفرنسى الكبير : رونسار ، فحلا لى أن أترجمها : « عند ما تطعنين فى السن ، وتجلسين ليلا تحت ضوء الشموع ، بالقرب من النار الموقدة ، وأنت تحلين غزلك ، ثم تغزلين. ستقولين وانت ترتلين أشعارى فى اعجاب : كان رونسار يشيد بى عند ما كنت جميلة .

حينئذ أكون طى الارض ، وشبحا مجردا من العظام. سأرقد رقدتى الاخيرة فى ظلال أشجار الآس والريحان ، بينما تكونين أنت فى الدار عجوزا فانية آسفة على حبى اياك ، وعلى تعاليك واحتقارك الشامخ . صدقينى لا تنتظرى الى الغد ، عيشى قبل فوات الاوان واقتطفى من اليوم أزهار الحياة .

٥ ديسمبر :

ربما كانت أعظم العبقريات اكثرها دينا .

« امرسون »

٦ ديسمبر :

محاضرة فى المركز الدرامى عن الاخراج . القاها موسيناك ، وقد قرأ لنا توصيات ستانسلافسكى لأحد الممثلين المبتدئين ، كان يجرب نفسه فى دور «هملت». وهذا مستند مهم سينشره موسيناك فى مجلة «كومون» ، ويجمل بى شراء المجلة التي ستنشره .

أن الواقعية كانت حركة عظيمة قربتنا من صميم الطبيعة ، وحررتنا من الزيف والصنعة ، بيد أن الشاعر خلال عهد سيطرتها قد وضع على الرف وفى الصف الاخير من الادب ، وقد نسى دوره الهام الذى ينحصر فى تحويل الحوار اليومى المتواضع الى الاسلوب الادبى الرفيع ، واضفاء سحر الخيال على الواقع القاسي ، وربط كل مخلوق منا بالابدية ، وبكلمة واحدة أن يخلق ويبدع .

هل الافضل أن نصف ملابس الاشخاص والجو الذى يعيشون فيه ، وتقاطيع وجوههم ، أم الافضل أن نرسم الشهوات التى تضطرب بها نفوسهم وتختلج فى أرواحهم؟

يقول أرسطو فى هذا الموضوع :

« الانسان وحده ينبغى أن ينفرد بانتباهنا ، وأن يكون الهدف الدائم لدراستنا » .

وظيفة المؤلف أن يخلق ويبدع .

لقد حول شكسبير شخوصه الرومانية الى شخوص انجليزية ، وكان محقا ، فلو لم يفعل ذلك لما فهمته أمته ، وقد جاءت عظمة الاغريق من هنا ، فلم يهتموا بالدقة التاريخية لواقعة ما ، بل احتفلوا بالطريقة التى عالج بها الشاعر هذه الواقعة .

التراجيديا على حد قول أرسطو تهدف الى تطهير شهواتنا عن طريق المشاهدة المفجعة للشهوات التى

تعصف بنفوس أنبل الناس وأدناهم . ان هدفها أن تروق لنا ، حتى فى أشد مواقف الفزع هولا . أعنى أنه الى جانب الفزع والرحمة التى تحركها التراجيديا فى نفوسنا ، فلا بد لها أيضا من أن تكون مصحوبة بفيض روحانى يرضى فينا الشعور بالجمال .

الجمال وعد بالسعادة .

انى ألزم الفندق للعمل والقراءة والتامل .

عاب النقاد على الكاتب المسرحى «سكريب» أسرافه فى استعمال الوسائل الفنية الرخيصة ، فبدلا من أن يخرج خاتمة مسرحياته من صراع الشهوات والاخلاق ، يعمد للوصول الى ذلك عن طريق احد عناصر الزيف ، من مثل سوء تفاهم أو خطاب مفقود أو غيره . ذلك انه ينسب لمثل هذه المصادفات الحقيرة تأثيرا حاسما على حياة الناس . انه يجهل أن لحمة وجودنا لم تنسج الا من صفاتنا وعيوبنا ، وأن الاحداث التى تصيبنا عرضا لا اهمية لها أن لم تنبع من أخلاقنا ، وهكذا ، فاعتذارنا بالمصادفة ، والقاء التبعة عليها عذر واه ، وان حقيقة الحقائق أن كلا منا مسئول مسئولية كاملة عن قدره .

لا أمل لأى نجاح فى المسرح ، ان لم يعمل المؤلف على شد الجمهور اليه ، واثارة فضوله ، وايقاظ اهتمامه . ومعنى هذا انه لابد للمسرحية الناجحة من حدث وحبكة تتعقد ، وينتظر الجمهور حلا لها ، أو على الاقل أن يكون هناك حدث ما يقع ، وأن تسير المسرحية الى الامام ، لا أن تفحص الارض كالدجاج « محلك سر » ، والا نجد أنفسنا عند النهاية فى نفس النقطة التى بدأنا منها .

« دوميك »

اهم ما ينبغى أن يستهدفه فن التمثيل أن يبلور النص ليجعله مفهوما ، وليجعل له معنى . لا يوجد فى الحياة حديث يبدأ فى وقت معين لينتهى فى وقت معين بالذات . لا يوجد هناك بداية ولا حل ، بل هناك مجموعة مترابطة من الوقائع ، تتشابك وتمتد الى ما لانهاية. انجوهر الحياة يقوم على لانهائية تعقيداتها ، وفى سلوك كل منا يبقى دائما جانب الظروف الطارئة .

حاول أن تصور على المسرح هذا الجانب غير المنتظر من عدم الترابط البعيد عنكل منطق ، والذى نشاهده ليل نهار فى الحياة ، وفى الحال يبدو تصويرك شاذا مزيفا متكلفا . ان فن المسرح يقوم على البساطة والوضوح والمنطق والتناسق . هذه العناصر لا معدى للمؤلف من أن يدخلها على الحياة المعقدة التى لا منطق لها ولا ضابط . فان الفن يفرض نظاما دقيقا على فوضى الحياة . لذلك فالمصطلح هو السيد المطلق فى المسرح .

٢٠ ديسمبر :

عشرون درجة تحت الصفر . برد لا يتصوره العقل :

اخذت اليوم نصف الحقنة ، والباقى ذهب هدرا ، وقد تورمت ذراعى قليلا . عسى الا تحدث مضاعفات . يا لهذا الصدر الضعيف المنهوك !

حاضرنا اليوم مسيو موسيناك فى المركز الدرامى عن الايقاع العام فى الرواية المسرحية . وقد كنت أنا الذى وجهه نحو هذا الموضوع الذى يشوقنى من أمد طويل . وقد سررت غاية السرور لما لمسته من تشابه أفكاره بأفكارى . فمن رأيه اعطاء كل مسرحية ايقاعا مختلفا حسب اختلاف الجمهور المستمع . وأنا أعتقد أن جمهورنا المصرى الذى لم يتعود حتى الآن على التقاليد

المسرحية ، ولم يدخل المسرح فى صميم عاداته الا من زمن وجيز ، لايستطيع ان يقتنص بسرعة المعنى العميق. هذا الجمهور البطىء الفهم ، والذى يذهب اهتمامه نحو الموقف العنيف ، لا نحو معالجته التحليلية الادبية. فالايقاع السريع كما اشاهده فى تمثيل ممثلى فرنسا ، لا يمكن لجمهورنا استساغته أو فهمه، كما ذكرت سابقا فى حديث لى مع مسيو فابر .

١٧ ديسمبر :

« طرطوف » فى مسرح بيجال ، بدعوة من الصديق الريجيسير « ماكس دى جى » . الممثل جان مارشا فى دور طرطوف مفتعل ، ويبحث عن التاثير الرخيص على الجمهور ، وهو جميل الشكل أكثر مما ينبغى لكى تصده امراة ، وبعيد كل البعد عن جانب الكياسة والنعومة الدينية ، التى هى طابع رجل الدين المزيف .

١٨ ديسمبر :

برد فظيع . تكاد اطرافى تتجمد ، ومؤشر الترمومتر واقف على ٨ درجات تحت الصفر ، والرياح سيبيرية. وقد اضطررت للخروج لشراء ما احتاجه من طعام ، ففاجانى الصقيع فى الطريق ، فهرولت كالمخبول وانا اشعر بسياط البرد تلسع أذنى وتكاد تنتزع أنفى وتجمده .

٢٤ ديسمبر :

قضيت ليلة عيد الميلاد فى مطعم الكابولاد ، وحيدا مع الذكريات .

كانوا يطلقون على مدير الكوميدي فرانسيز السابق، مسيو جول كلارتى : انه قصبة غاب مدهونة بالحديد، او قبضة من حرير تحمل قفازا من حديد ، كناية عن تظاهره بالقوة والسيطرة على حين أنه رجل ضعيف .

يقول أندريه جيد : « لا يستطيع الكاتب ان يؤلف ادبا طيبا بعواطف طيبة » .

٢٩ ديسمبر :

بت ليلتي ساهدا مؤرقا ، فاستعنت على الارق بقراءة كتاب « موليير » لمؤلفه « رامون فرنانديز » . وقد جذبني هذا الكتاب اليه بشدة حتى انى لم أشعر بمرور الزمن ، فانتهيت من قراءته وتباشير الصباح تلوح خلف نافذتى . وانى أوجز بعض فقراته فيما يلى لما فيها من معلومات قد أحتاج اليها يوما ما :

ولد موليير فى باريس عام ١٦٢٢ ومات فيها ليلة ١٧ فبراير عام ١٦٧٣ . وبين هذين التاريخين عاش موليير وكتب ، ومثل تلك الاعمال المسرحية الضخمة ، التى يذهلنا منها اليوم اختلاف موضوعاتها ، وعمق تحليلاتها ، وصدق تصويرها للطبائع البشرية . وقد درس موليير جميع طبقات أمته وألف فى الكوميديا ، والتراجيديا ، والفارس ، والاوبرا ، والتراجى كوميدى ووضع أساس كوميدية الاخلاق ، وبرز فى كوميدية الاحداث وكوميدية العادات .

وقد أخذ عليه الحاقدون من معاصريه انه قلد الايطاليين والاسبان والرومان ، وسطا على مسرحيات روترو ، وسكارون ، وبوار وبير ، وبلوت ، وتيرانس ، وحتى سيرانو دى برجراك . ولكنه فى الواقع أضفى على كل ما استعاره منهم حياة مضاعفة ، ولحما ودما وشاعرية

وابتكارا وأصالة والوانا من التجارب الخاصة ، وحكمة وجمالا .

وكانت طريقته فى التاليف المسرحى أن يختار رذيلة كالبخل ، أو حب الظهور ، أو النفاق ، أو الوصولية.. الخ .. ويضفى تلك الرذيلة على شخص ما . ثم يضع ذلك الشخص فى بيئة معينة ، وفى أزمة معينة ، ثم يتركه يتكلم ويعمل . وجميع أحداث المسرحية بعد ذلك تكون نتيجة حتمية تنحدر من أفعاله واقواله فى غير خطابة .

وهكذا كان موليير أول من ابتدع ما نسميه «بالكوميديا الاخلاقية » ، وهى أسمى أنواع الكوميديا ، وكانت تلك ثورة فى المسرح .

وموليير هو المصور الاكبر للنفس الانسانية، على غرار شيكسبير ، هذا فى الدراما وذاك فى الكوميديا . لقد خلق أبطالا ورجالا انتزعهم من صميم الحياة اليومية ، وتركهم تراثا خالدا للناس . صور لنا كل الوان الغرور فى جميع الطوائف والطبقات. صور المتزمتين وأهل النفاق والدجل فى الادب والدين والطب والشعر. صور عجرفة النبلاء ومظالمهم ، كما صور الفلاح وسذاجته التى لاتخلو من الخبث ، وصور أهل الطبقة الوسطى الذين يطمحون الى النبالة وتقليد النبلاء . كما حارب البدع العتيقة والمعتقدات الرجعية .

ان مسرحيات موليير مرايا صريحة تعكس للناس قرارة نفوسهم . ومن هنا كان خلودها .

ولقد أثار عليه كل ذلك حقد الاشراف الذين جعل ينقدهم ويندد بنقائصهم ، ويفضح عيوبهم وهو مستظل بحماية الملك لويس الرابع عشر، الذى كان يريد أن يكسر من شوكتهم ، وربما غلا فى ذلك غلوا كبيرا وبخاصة فى

مسرحيات : « المتحذلقات » ، و « الرجل النفور » ، و«مسيو دى بورسونياك». مما أثار عليه حفيظة النبلاء ، ودفع أحدهم الى أن يستدعيه يوما ، وهما فى قصر فرساى طالبا اليه أن يدنو منه ليسر اليه كلاما خاصا ، فما أن اقترب موليير حتى اخذ الشريف الوضيع رأس المؤلف النابغ ، الذى كان ينحنى أمامه للتحية ، ومرغه فى أزرار صديره المدببة ، وجعل يضحك وهو يتأمل وجه موليير الدامى ! !

وقد كان رأى موليير فيما نسميه «قواعد المسرح» ، ان قاعدة القواعد التى يجب أن نحتذيها ، هى أن تروق المسرحية للنظارة وتعجبهم قبل كل شيء . لذلك رأيناه يخرج فى مسرحياته على جميع القواعد والمصطلحات المعروفة الى عهده ، ويحطم جميع الوحدات من وحدة الزمن الى وحدة المكان . وكانت قوة الخلق عنده عظيمة ، كما ان اعظم ما يميزه عن بومارشيه ورنيار ، وجميع من تصدوا لكتابة الكوميديا بعده الى يومنا هذا انه كان يختفى ويترك شخوصه يعيشون ويتحركون ويعملون ، ولكل منهم حياته الخاصة دون أن يتدخل فيما يصدر عنهم من أقوال أو أفعال . ومن هنا أختلف خلق كل منهم ، كما اختلف أسلوب حواره وتفكيره .

على ان أغلب كوميدياته هى ــ فى واقع الامر ــ مآس منتزعة من صميم الحياة . فهل هناك أعمق وأروع من تصويره للغيرة فى مسرحية « مدرسة النساء » . غيرة رجل عجوز يريد الزواج من فتاة قاصر تكاد أن تكون حفيدة له .. لذلك تضحكنا غيرته .

وقد استهدف موليير ــ فى جميع مؤلفاته ــ أن يهذب نفوسنا وهو يضحكنا .

وبكلمة مختصرة ، لقد وضع هذا الرجل جميع رذائل

أهل عصره تحت الملاحظة ، وصــور أخلاقهم وعاداتهم وشهواتهم أعمق تصوير .

ومن بين أعماله المسرحية الخالدة « دون جوان » . وقد دفعه الى كتابة هــذه المسرحية تآمر رجال الدين وفوزهم بمنع تمثيل مسرحية « طرطوف » . فقد وجد موليير نفسه مدفوعا الى كتابة هذه المسرحية فى خمسة عشر يوما ، ليسد الفراغ كى تستمر فرقته فى العمــل واجتذاب الجمهور ومنافسة الفرق الاخرى .

ولن يفرب عن بال من يتتبع سيرة حياة هذا الــكاتب العظيم أنه ــ حين كتب « دون جوان » ــ عام ١٦٦٥ ، كان فى أوج غيرته على زوجته الممثلة الشابة « ارماند بيجار » ، كما كان فى ذروة ثورته على فتيان البــلاط المخنثين أهل الغزل والعشق الذين كانوا يلاحقون زوجته الجميلة بغرامهم ، فتستجيب لهم وتبــادلهم غزلا بغزل تلبية لنداء شبابها .

وقد كانت هــذه المسرحية متنفسا لموليير كى ينتقم من أولئك المنحلين ، ويصورهم فى صورة الملاحدة الذين لا يؤمنون بشىء . لذلك رأيناه يرسم لنــا صــورة من « دون جوان » على عكس ما رسمه معاصروه أو من سبقوه من الــكتاب . فلم يعد « دون جوان » بين يديه ذلك العاشق الظامىء الى نساء العالم ، يتنقل من امرأة الى أخرى ، دون أن تبرد له غلة فحسب ، بل رسم له صورة مختلفة . فصــوره رجلا مستهترا زنديقا كافرا يتحدى الســماء ، ويسخر من جميــع المحارم والمقدسات . وهو لا يكتفى بافوائه العذارى ، ومهاجمة الشرفاء ، بل « يجدف » باسم الله ويهزأ من الكنيسة والمجتمع . وكأنما هو رمز الرجل الذى تحلل من كل شريعة دينية وخلقية ، صــامدا للقــدر ، متحديا اياه

بكبرياء الرجل المنحل .

وقد كان موضوع هذه المسرحية ـ كما ذكرنا آنفا ـ مطروقا معروفا ، يمثل على عدة مسارح ، منها مسرح « أوتيل دى بورجونيا » . كما ان الممثلين الايطاليين فى فرنسا كانوا يمثلون مسرحيات بهذا الاسم من تأليف مواطنيهم : مستجونيني ، وبيرسلوتى ، وسولوفرا ، الذين استوحوا تيرسو دى مولينا الاسبانى فيما الفوه.

ولا شك ان نظرة مقارنة تجعلنا نقطع بأن موليير استوحى المؤلف الاخير . غير انه كالعادة اضفى على الموضوع حياة جديدة ومعنى جديدا .

فدون جوان موليير ـ كما هو ثابت من نص المسرحية ـ « رجل شهوانى ، أنانى ، محتال ، أفاق ، يحتقر جميع الناس ، ملحد، كافرلايؤمن بالله ولا بالشيطان». على حد قول خادمه سجاناريل . ولاشك أنه انسان مصاب بنوع من النرجسية ، فهو لا يحب ولا يؤمن بغير نفسه ، رجل مادى ، لا يفهم الا العملية الحسابية : ٢ × ٢ = ٤ .

وسجاناريل يقدم لنا «دونجوان» فىمستهل المسرحية كاكبر مجرم حملته الارض على ظهرها ، وكمخلوق شاذ لا يؤمن بالاخلاص فى الحب ، كما يتشكك فى كل شيء .

ويعيب عليه خادمه أنه يتلاعب بمقدسات الزواج . وهو عمل يغضب السماء ، فما يأبه «دونجوان» بذلك ، بل يهزأ منه قائلا : ان هذا شيء بينى وبين السماء ، فلا تتدخل فيما لا يعنيك . فيحذره «سجاناريل» قائلا: ان السماء تعاقب آجلا أو عاجلا الزنادقة ، وان الحياة الداعرة تفضى الى خاتمة مشئومة . ولكن «دونجوان» لا يرعوى . فروح الشر متاصلة فيه ، وهو لا يزدجر من نصائح ابيه، بل يسخر منه ويمضى فى رذائله وغواياته

الى مصيره المحتوم. فيتراءى له شبح «البكومندوز» ، الذي قتله ، ويمضى به الى نيران جهنم التى تفغر فاها وتبتلعه .

والمسرحية تعد ظاهرة غريبة بين مؤلفات موليير الكوميدية ، وهي بطيئة بعض الشيء ، خالية من أى حبكة . بيد أن أسلوبها وشخوصها وطرافة تناولها تجعلها قمة في الادب العالمى .

٣٠ ديسمبر :

عند عودتى الى الفندق وجدت رسالة من الاخ الكريم زكى طليمات اثبتها هنا بنصها كخاتمة طيبة لنهاية العام

جمعتنى وصديقنا الدكتور بشر فارس خلوة ذاكرنى فيها باريس عام ١٩٣٨ كما رآها وذاكرته وجوها فيها محببة الى أناجيها وتناجينى من غير حاجة الى القلم والورق . وشممت من خلال كلامه عنك انك آخذ على امساكى الكتابة اليك ، تساورك الظنون وتفترض الفروض والمح فى الافق البعيد سحابة قاتمة قد تتحول يوما الى برق ورعد فتسود الجفوة بيننا على غير ما نريد ويحل سوء التفاهم مكان الود الصافى والصراحة الشريفة لهذا اكتب اليك لأقول لك انني لست ممن يخون عهدا وبيني وبينك عهود لحمتها الزمالة والهوية واتحاد الفكرة العاملة وزاد فى الاتصال بينى وبينك ان كلينا عبر بمظهر واحد واغتسل في ينبوع من الألم . وأرى ان ما بينى وبينك كثير وثابت واكيد ومهما اغفل كل منا أمر صاحبه تحت تأثير الحوادث والاحداث فان مجرد الذكرى الخالصة جديرة ببعث الحنين والصداقة وايقاد ما خمد وهذا هو شأنى الساعة . ان محنتى اليوم هى محنتك فى الغد ــ وارجو أن اكون مخطئا ــ وهي محنة برموثيوس ومحنة كل من سما بتفكيره وتطاول الى السماء يبتغى

الـكمال الذى حرمناه . ولا أريد أن أفيض فى هـذا لان تمزيق الجروح لا يفيد فى ابرائها وانى أنفس بك أن ينالك شىء من رشاش صديدها وحسبى أن أؤكد لك أننى الرجل الذى عرفت منذ زمن طويل ، عرفته متأدبا وهاويا ثم ممثلا ومخرجا ومجنونا يحاول الاصـلاح ، فتخرجه نزعته الاصلاحية الرعناء عن هدوئه وتخلد به الى عصبية قد يرى فيها البعض نوعا من التكبر والناس كما تعلم أعداء ما جهلوا . لا أبرىء مظاهرى من خشونة طارئة بفعل الحماس والدفاع عن عقيدة ولكنها خشونة البئر الذى يرقد فى قاعه الماء الزلال . وأنت ببصيرتك احق من يعرف ذلك . لـكنك نشأت يا صديقى مرهف الحس الى حد بعيد فأنت ترى أحيانا الاشياء على غير حقيقتها . هل يكفيك هذا لتعاود ابتسامتك الصافية اذا ما خطرت فى ذاكرتك ؟

افعل .. وها أنا أسـجل حاجتى اليك فأرجو أن ترسل كتاب « خواطر ممثل » الذى وضـعه المخرج الـكبير لويس جوفيه بعنـوانى : « تفتيش التمثيـل بالمدرسة الابراهيمية الثانوية ــ جاردن سيتى » ولن أدفع لك الثمن لأكون دائما مدينـا لك فوق دينى لك بالصداقة والوفاء .

اقبلك على أن تقبل لى عمودا من أعمدة «الاوديون» واقبلك ثانية من غير طلب ولك منى دائما كل ما تريد من مودة واعزاز ..

المخلص
زكى طليمات

فهرس

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

هذا الكتاب

فى باريس . فى الثلاثينات ، وفى وسط غيوم سياسية داكنة ، واحداث اجتماعية وثقافية تغلى وتمور ، انغمس الفنان الشاب فتوح نشاطى من رأسه الى القدم : انغمس فى الفن والادب والمسرح ، وكل ما يغذى القلب الكبير والعقل الصاحى .

نهم كبير للحياة والاحياء تكشف عنه هذه اليوميات : الفنان الشاب يعيش فيها قلقا متوتر الاعصاب ، يعيش على مستويين معا . يحيا فى باريس والقاهرة فى آن . يرى ما حوله ، فترده الرؤية دوما الى البلد التى جاء منها ، والتى من أجلها رحل عنها .. الى باريس .

واصدقاء الفنان فى مدينة الفنون كثيرون ، لكن الخالدين منهم اكبر عددا من الاحياء : شكسبير . المعلمون الاغريق . فلوبير . ستندال .. الخ .

هذا فصل من حياة فنان جاد .. آمن ببلده وفنه ورحل الى عاصمة عالمية لا ليلهو ، وانما ليتزود .

١٠ قـروش

كتاب الهلال



لسلة
قافية
هرية

فنون الكوميديا

من خيال الظل .. إلى نجيب الريحاني

الدكتور على الراعى

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : يوسف السباعي

رئيس التحرير : صالح جودت

العدد ٢٤٨ رجب ١٣٩١ سبتمبر ١٩٧١

No. 248 - Septembre 1971

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ ــ فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات أمريكية أو ٢ جك ــ والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية ــ والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى ــ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنان
الفنان جمال قطب

الدكتور علي الراعي

فنون الكوميديا

من خيال الظل إلى نجيب الريحاني

دار الهلال

تقديم

بهذه الدراسة فى فنون الكوميديا على المسرح المصرى مضافا اليها دراستى السابقة للكوميديا المرتجلة اكون قد قطعت أرض الكوميديا المسرحية كلها منذ مصر المملوكية حتى يومنا هذا .

وقد كان همى فى هاتين الدراستين أن أقطع الارض أولا ثم أتمهل لدى بعض الاماكن التى تشوقنى أو تعدنى بنتائج هامة .

فعلت هذا وشعور واضح بالخطر يستحثنى ويستعجل خطواتى . خطر ان تندثر النصوص القديمة أو يقل الاهتمام بها . ومن ثم نسدر فيما نقوم به الان من انشاء كوميديا عصرية مقطوعة الصلة بتراث الماضى ، او قليلة المعرفة به .

ولو أن هذا حدث فعلا لثبت ذلك الانفصام الخطر الذى نجده الآن بين كوميديا الجماهير العريضة ، وكوميديا المثقفين ، والذى جعل من الكوميديا المسرحية بنائين منفصلين : أحدهما يزدحم بالناس حتى ليضيق بهم يضحكون فيه ملء قلوبهم وبطونهم ، والثانى تغشاه كثرة من المثقفين ومن لف لفهم ، يستمتعون بالبسمة والفكرة المتألقة والضحكة العالية أحيانا .

ضحك وهذر وصوت عال فى البناء الاول وفكر وذكاء

وحوار رشيق فى البناء الثانى .

ولكن ، حبذا لو اتحد البناءان ، فقد كانا دائما متحدين فى عصور الكوميديا الزاهية .

عرف ارستوفان كيف يؤلف بين الفكر والفرجة فى عروضه المسرحية أيام مجد أثينا ، واستطاع بلوتس أن يمتع جماهير روما القديمة بالعرض المسرحي الناجح ، القائم على القصة والشخصية والفكاهة الزاعقة ، وشيء غير قليل من الفكر ، واللذع الاجتماعى .

واندمج فى فن موليير وشكسبير كل من المهرج والمفكر والشاعر ، واستطاع المعلمان أن يجذبا لمسرحهما الناس من كل لون وصنف ، فأصبح فنهما قوميا ، واستحال من بعد عالميا .

وفى بلادنا لم يأنف صنوع من استخدام فن الاراجوز ـ أحيانا ـ لتزجية مسرحياته ، ووجد محمد تيمور ان كشكش ناجح ، فاستخدم بعضا من أسلوبه ليصل بمسرحياته الاجتماعية الى جمهور أعرض .

وعرف الريحانى كيف يوائم بين الكوميديا الشعبية ، وكوميديا المثقفين ويتجنب المنزلق الخطر الذى وضع الفشل فى طريق عزيز عيد : الاصرار على أن يعطى الناس ما لا يريدونه ـ فى أعماقهم ـ أو ما هم ليسوا مؤهلين لتقبله فى وقت ما .

وفى أيامنا هذه استخدم بيكيت فنون الكباريه ، والمهرج فى علاجه لظاهرة الافلاس الروحى فى الغرب ، وقبله بسنوات استخدمت جون ليتلوود فنون التهريج والميوزيك هول للتنديد بالحرب العالمية الاولى واظهار ما جرته على العالم من ويلات .

ومالى أنسى بريشت ، الذى مزج الفكرة بالفرجة ، بالموقف السياسى المناضل ؟

لا شيء يبرر انعزال كتاب الـكوميديا المثقفين عندنا عن كوميديا الشعب ـ ومن ثم عن الشعب نفسه ـ سوى عدم معرفتهم بالتراث الـكبير ، الذى تجمع للشعب فى هذا المجال الفتان .

ومن ثم ، أخذت على عاتقى هذه المهمة الثقيلة ـ مهمة أن أصل ما بين الكتاب المثقفين وبين تراث الناس فى المسرح بأمل أن يتبينوا ـ كما أتبين أنا ـ انه لا مستقبل حقيقى لـكوميدياتهم ما لم تتصل أسبابها بفن الكوميديا الشعبية ـ تأخذ منه ، وتصحح فيه ، وتعلم وتتعلم .

لقد شهد هذا العصر ظاهرة تغلب فنون الـكوميديا المختلفة ، على التراجيديا وأصبحت الـكوميديا بهذا فن الحاضر ، وهى ستزداد أهمية وقوة فى المستقبل ، اذ تتوالى انتصارات الانسان على البيئة وعلى نفسه ، مما يفتح للتفاؤل ـ جوهر الـكوميديا ـ أوسع الابواب .

ومن المهم لفننا المسرحي أن تكون الـكوميديا عنـدنا بعيدة الجذور ، واسـعة الرقعة ، موفورة الحظ من الوجدان القومى ، طيبة ، دافئة القلب بفضل احتضانها للجماهير ، وولع الجماهير بها .

والى السير فى طريق الجماهير أدعو كتاب الكوميديا جميعا .

على الراعى

٣٠ ديسمبر ١٩٧٠

الفصل الاول

المقامة على المسرح

بعـد طول تسـكع فى الطرقات والمجتمعات وقاعات الدرس ، دخلت المقامة المسرح .

دخلتـه أخيرا بعد أن غازلته طويلا ، وتحرشت به تحرشا متصلا .

لو اخذنا بما يقوله الدكتور عبد الحميد يونس (١) من أن « المقامة فى أصلها ادب تمثيلى ، وأنها من القيام فى دار الندوة ابان العصر الجاهلى » وانها : « كانت تمثيلا مباشرا متواصلا ، يقوم به ممثل فرد » فسوف نجد من طبيعة الاشياء أن تعود المقامة من حيث بدات .

وسـوف نلحظ ، ونحن نتتبع المراحل المختلفة التى عددها الـكاتب وهو يستعرض تطور المقامة ، انها كانت تعتمد دائما على الحضور .. حضور الناس فى النادى ، أو مجلس الخلفاء ، أو حضور الطلاب فى قاعة الدرس ، أو احتشـاد الجمهور فى أماكن السمر المختلفة .

ونتبين كذلك ان هذا الحضور كان يقف على رأسه فنان مؤد من نوع أو آخر : أما الراوية الممثل فى دار الندوة ، أو الزاهد الحريص على تأدية المعنى فى حضرة

(١) كتاب خيال الظل ، ص ١٠ ، العدد ١٣٨ من سلسلة المكتبة الثقافية .

الخلفاء والسلاطين والوزراء ، أو الممثل الفرد فى حالة المقامة الشعبيــة التى تستهدف التعليم والتسرية فى وقت واحد .

كان هناك دائما مؤد ، ومؤدى اليه ، فنان وجمهور، ولم تنفصل المقــامة قط عن « الحضور » ، حتى فى الطور الذى دفعها اليه بديع الزمان والحريرى ، حيث المقامة نص أدبى يعتد به ، ولــكنها فى الوقت ذاته أدب حى قابل للتمثيل .

لناخذ مثلا : « المقامة المضيرية » لبديع الزمان . مقامة تستحق ما نالته من شهرة ، وتستاهل أن توضع فى مكان الصدارة من أدب المقامات ، لمــا فيها من فن راق يرسم به بديع الزمان شخصيتها الرئيسية : التاجر الحديث النعمة ، الــكثير الفخر بنفسه وزوجه وماله ، الثابت منه والمنقول . الفرد المنكفىء على ذاته ، الذى لا يرى الاها ، ولا يقدر لاحد وجودا الى جوارها ، أو حتى حقا فى وجود . ممثل الطبقة الجديدة التى تندفع فى لذة ونهم وحب استطلاع لا شك فيه الى دنيا جديدة تريد أن تكتشفها وتمتلــكها ، وتصــد غيرها عنهــا . التــاجر الراســمالى فى دور التــكوين ، الذى يسعى بالتدليس والنصب وانتهاز الفرص الى تجميع أقصى ما يستطيع من مال وعقار ، لا يبالى فى سبيل هــذا أن يغش جارا ، أو يأخذ من محتاجة مالها بالثمن البخس، حتى اذا فرغ من جرائم النهار ، دعا الضيفان ليــلا وأولم لهم ، كى يتخذهم شــهودا ونظارة لعمــل فنى يؤلفه من واقع مغامراته ، ويجعل نفسه فيه البطــل الوحيد وسط جمع من المغفلين .

كل هذا تقدمه « المقامة المضيرية » فى تركيب يجمع بين الأسلوب الادبى المتأنق ، والتصميم الفنى الدقيق ،

الى جوار الهدف الاجتماعى الواضح ، تجمع هـذا فى تركيب يؤلف بين القصة والمسرحية بحيث تؤثر فينا المقامة كيفما اقتربنا منها ، ان شئنا قرأناها وتخيلنـا احداثها وان اردنا جسدناها على المسرح بالتمثيل المباشر امام جمهور محتشد ، أو بالتمثيل المنقول فى السينما او التليفزيون ، وأمام جمهور منتشر .

والدراما هنا ـ من ناحيـة الشكل ـ تعتمـد على الاحداث المتوالية وليس على الحدث الواحـد المتـازم المنفرج .

ومن ناحية المزاج الفنى والنفسى ، يمكن مقـارنتها بما يعرف فى تاريخ الدراما « بكوميديا الامزجة » ، التى تقدم دراسة كاريكاتورية مبالغا فيها فى شخصية انسانية منتزعة من واقع المجتمع، فتعزل أبرز صفاتها ، وتضخم فيها وتنفخ ، حتى تستوى الشخصية الفنية أمامنـا قائمة على ركيزة نفسية واحدة .

وفى حالة « المقامة المضيرية » ، يقدم لنا بديع الزمان واحدة من هذه الشخصيات : شخصية التاجر المتفاخر الشره ، ويقيـم له علاقات مع غيره من الشخصيـات السوية تنتهى بكشفه والضحك عليه ، ونقـد سلوكه الفردى والاجتماعى معا .

وهو أمر مشابه لما فعله الـكاتب المسرحى الانجليزى بن جونسون بعد بديع الزمان بحوالى خمسة قرون ، حين أخذ يكتب مسرحياته القـائمة على الشخصيـات المفردة الصفات ، وان كان الانجليزى قـد حشـد فى مسرحياته شخصيات منحرفة كلها ، ادار بينها الاحداث وجعلها تتولى تعرية بعضها البعض ، دون اعتماد على مقارنتها بشخصيات سوية تحقيقا لهذا الـكشف .

ولو شئنا أن نقطع المقامة المضيرية الى مشـاهد ، لما

وجدنا فى هذا عنتا ، فان هذا التقطيع موجود فعلا ، لا يحتاج الا مجرد « تفصيص » ٠

المشـــهد الاول : يبدو فيه أبو الفتح الاسكندرى ، الشخصية الدائمة فى مقامات البديع ، وهو وسط جمع من التجار كلهم دعى الى وليمة قدمت فيها المضيرة ، فما أن يراها أبو الفتح وقد أخذت من الخوان مكانها ، ومن القلوب أوطانها ، حتى يقوم منتفضا كمن لســعته عقرب وهو يسب المضيرة وصـــاحبها ، ويلعن آكلهـــا وطابخها معا .

ويظنه المدعوون يمزح ، ولـكنهم يتبينون أن أبا الفتح أخذ بعين الجد ، فهو يتنحى عن الخوان ، ويترك مساعدة الاخوان .

ويصبح لا مفر من أن ترفع المضيرة الشهية ، فانظر بأى صور حركية اخاذة ، تصف المقامة عملية الرفـــع المؤلمة هذه :

« ورفعناها فارتفعت معها القلوب ، وسافرت خلفها العيون ، وتحلبت لها الافواه ، وتلمظت لها الشفاه » !

وينتهى هـــذا المشـــهد والمدعوون ملتفون حول أبى الفتح ، يسألونه تفسيرا لهذه الواقعة المثيرة ـ واقعة أن يتخلى أبو الفتح طائعا مختارا ، بل وبكثير من الارتياح ورغبة واضحة فى دفع الاذى ، عن أكلة شهية ، كانت جديرة أن تكون هنية ، وسط خلان ظراف ، وفى مجمع مرح :

الراوى : ولـكنا ساعدناه على هجرها ، وسألناه عن أمرها .

أبو الفتح : قصتى معها أطول من مصيبتى فيها ، ولو حدثتكم بها لم آمن المقت واضاعة الوقت .

المدعوون : هات ..

ومن ثم يبدأ المشهد الثاني .

وفيه يبدو أبو الفتح وقد استجاب ـ كارها ـ لالحاح تاجر من تجار بغداد ، وقبل دعوة له لتناول المضيرة في داره .

وهنا تأخذ يد البديع القادرة في بناء شخصيته الرئيسية أمامنا جزءا جزءا ، تارة برواية ما يقع في الحاضر أو ما وقع في الماضي من احداث ، وتصرفات ، أو بالحركة يديرها البديع أمامنا ادارة موجزة مقتصدة، ولكنها كالفاكهة الناضجة ـ تكاد تتفجر بالمحتوى لدى أقل لمسة .

فهو يقول في وصف الحاح التاجر على الدعوة انه لزم أبا الفتح الاسكندرى « ملازمة الفريم ، والكلب لاصحاب الرقيم » (١) وما أبلغ هاتين العبارتين من ارشاد المسرحى لمخرج وممثل يكون من نصيبهما تجسيد شخصية التاجر ، يوما ما .

ويمضى أبو الفتح مع مضيفه الملحاح ، فيجعل هذا يتحدث طول الطريق عن زوجته ، يثنى عليها ، ويفديها بمهجته ، ويصف حذقها في صنعتها ، وتأنقها في طبخها ويقول ، موردا سلسلة من الصور المتحركة الاخاذة : كأنها شريط سينما اخذ من واقع الحياة ، بطريقة غير محضرة ولا مسبقة .

التاجر: يامولاى ، لو رأيتها ، والخرقة في وسطها ، وهى تدور في الدور ، من التنور الى القدور ، ومن القدور الى التنور ، تنفث بفيها النار ، وتدق بيديها الابزار ..

ولو رأيت الدخان وقد غبر الوجه الجميل ، وأثر في ذلك الخد الصقيل ، لرأيت منظرا تحار فيه العيون.

---

(١) أهل الكهف

وأنا أعشقها لانها تعشقنى ، ومن سـعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليلته .. ولا سيما اذا كانت من طينته .

وهى ابنة عمى لحا ، طينتها من طينتى ، ومدينتها مدينتي ، وعومتها عومتى ، وأرومتها أرومتى (١) .

لـكنها أوسع منى خلقا ، وأحسن خلقا .

ابو الفتح : صدعنى بصفات زوجته .. ! ولـكن ، ها نحن قد انتهينا الى محلته .

التاجر : يا مولاى ، ترى هذه المحلة ؟ هى أشرف محال بغداد ، يتنافس الاخيار فى نزولها ويتغاير الكبار فى حلولها ، ثم لا يسكنها غير التجار .

ودارى فى السطة من قلادتها .

كم تقدر يا مولاى ، انفق على كل دار فيها ؟ قله تخمينا ، ان لم تعرفه يقينا .

ابو الفتح : الكثير (٢) !

التاجر : يا سبحان الله ، ما أكبر هذا الغلط ، تقول الكثير فقط ؟ ! « يتنفس الصعداء » (٣) سـبحان من يعلم الاشياء .

أبو الفتح : انتهينا الى باب داره .

التاجر : هذه دارى ، كم تقدر يا مولاى ، انفقت على هذه الطاقة ؟

ابو الفتح : . . . . . ؟

التاجر : انفقت والله فوق الطاقة ، ووراء الفاقة ،

---

(١) الاطناب هنا ليس مجرد استعراض للقدرة اللغوية لدى الكاتب كما هو الحال فى مواضع كثيرة من هذه المقامة والمقامات عامة . وانما يخدم هنا غرضا فنيا واضحا ، هو المعاونة فى تصوير ميل التاجر الى التشدق بالكلمات .

(٢) هذا الرد المقتضب بليغ فى تعبيره عن شديد ضجر أبى الفتح

(٣) يتنفس الصعداء لان الفرصه واتته — واسعة — للحديث

كيف ترى صنعتها وشكلها ؟ (١)

أبو الفتح : . . . . ؟ ؟ ! !

التاجر : ارأيت بالله مثلها ؟ ! انظر الى دقائق الصنعة فيها ، وتأمل تعريجها فكأنما خطت بالبركار .

وانظر الى حذق النجار فى صنعة هذا الباب .

إتخذ من كم ؟ قل (٢) « ومن أين أعلم ؟ » .

هو ساج من قطعة واحدة .. اذا حرك أن ، واذا نقر طن ، من اتخذه ياسيدى ؟ اتخذه أبو اسحق بن محمد البصرى ، وهو ، والله ، رجل نظيف الاثواب ، بصير بصنعة الابواب ، خفيف اليد فى العمل .. بحياتى لا استعنت الا به على مثله ..

أبو الفتح : . . . . .

التاجر : وهذه الحلقة ، تراها ؟

أبو الفتح : . . . . .

التاجر : اشــتريتها فى ســوق الطرائف من عمران الطرائفى بثلاثة دنانير معزية .

وكم فيها يا سيدى من الشبه ؟

أبو الفتح : . . . . .

التاجر : فيها ســتة ارطال ، وهى تدور بلولب فى الباب ، بالله دورها ، ثم انقرها وأبصرها ، وبحياتى عليك لا اشتريت الحلق الا منه ، فليس يبيع الا الاعلاق

أبو الفتح : . . . . .

التاجر : « يقرع الباب ويدخل الاثنــان الدهليز »

(١) ، (٢) يلحظ التاجر صمت أبى الفتح المتصل فلا يبالى ، بل يروح يلقن أبا الفتح الاسئلة التى كان هذا خليقا ان يوجهها الى التاجر، لو كان مهتما حقا بالموضوع ، ثم يأخذ يجيب على تلك الاســئلة ، دون مشاركة من أبى الفتح • كل همه ان يتصل كلامه ، الذى هو فى الواقع كلام شخصيتين معا ، اغتصبه جميعا لنفسه ذلك التاجر المفتــون بذاته وبالكلام •

عمرك الله يا دار ، ولاخربك ياجدار، فما أمتن حيطانك ، واوثق بنيانك ، واقوى اساسك .. !
تأمل بالله معارجها ، وتبين دواخلها وخوارجها ، وسلنى : كيف حصلتها ، وكم من حيلة احتلتها حتى عقدتها ؟

ابو الفتح : . . . . .

التاجر : كان لى جار يكنى أبا سليمان ، يسكن هذه المحلة ، وله من المال ما لا يسعه الخزن .. مات رحمه الله وخلف خلفا أتلفه بين الخمر والزمر .. واشفقت أن يسوقه قائد الاضطرار ، الى بيع الدار.. ثم أراها ، وقد فاتنى شراها ، فاتقطع عليها حسرات ، الى يوم الممات ، فعمدت الى أثواب لا تنض تجارتها ، فحملتها اليه .. وساومته على أن يشتريها نسية .. وسألته وثيقة بأصل المال ففعل .. ثم تغافلت عن اقتضائه ، حتى كادت حاشية حاله ترق فاتيته فاقتضيته ، واستمهلنى فانظرته ، والتمس غيرها من الثياب فأحضرته ، وسألته أن يجعل داره رهينة لدى .. ففعل .

ثم درجته بالمعاملات الى بيعها حتى حصلت لى بجد صاعد .. وقوة ساعد .

وأنا بحمد الله مجدود فى مثل هذه الاحوال ، محمود

أبو الفتح : . . . . .

التاجر : وحسبك أنى كنت منذ ليال نائما فى البيت مع من فيه اذ قرع علينا الباب ، فقلت من الطارق المنتاب ؟ فاذا امرأة معها عقد لآل .. تعرضه للبيع ، فأخذته منها أخذة خلس ..

« يلفت نظر ضيفه الى حصير »

اشتريت هذا الحصير فى المناداة ، وقد أخرج من دور آل الفرات ، وقت المصادرات .. وكنت أطلب مثله منذ

الزمن الاطول فلا أجد ..
ثم اتفق انى حضرت باب الطاق ، وهذا يعرض فى الاسواق ، فوزنت فيه كذا وكذا دينار !
تأمل بالله دقته ولينه ، وصنعته ولونه .. وان كنت سمعت بأبى عمران الحصيرى فهو عمله ، وله ابن يخلفه الآن فى حانوته ، لا توجد أعلاق الحصر الا عنده ، فبحيالى لا اشتريت الحصر الا من دكانه ..
ونعود الى حديث المضيرة ، فقد حان وقت الظهيرة ، يا غلام .
« يظهر غلام » الطست والماء .
ابو الفتح : الله اكبر ، ربما جاء الفرج ..
« الغلام يتقدم »
التاجر : ترى هذا الغلام ؟
ابو الفتح : « تبدو عليه علامات الانهيار ، بعد أمل قصير الامد » .
التاجر : « سادرا » انه رومى الاصل ، عراقى النشء ، تقدم يا غلام واحسر عن راسك ، وشمر عن ساقك ، وانفض عن ذراعك ، وافتر عن أسنانك ، واقبل وادبر .
« الغلام يفعل »
بالله من اشتراه ؟ ! اشتراه والله أبو العباس ، من النخاس . « للغلام » ضع الطست ، وهات الابريق
« الغلام يفعل ، يأخذ التاجر الطست ويقلبه ويدير فيه النظر ثم ينقره »
انظر الى هذا الشبه ، كأنه جذوة اللهب ، أو قطعة من الذهب ، شبه الشام وصنعة العراق .. تأمل حسنه ، وسلنى : متى اشتريته ؟ !
ابو الفتح : . . . .

التاجر : اشتريته والله عام المجاعة ، وادخرته لهذه الساعة . يا غلام ، الابريق .

« الغلام يقدم الابريق ، التاجر يقلبه »

وانبوبه منه ، لا يصلح هذا الابريق الا لهذا الطست. ولا يصلح هذا الطست الا مع هذا الدست ، ولا يحسن هذا الدست الا فى هذا البيت ، ولا يجمل هذا البيت الا مع هذا الضيف .

ارسل الماء يا غلام ، فقد حان وقت الطعام .

« الغلام يفعل »

بالله ترى هذا الماء ، ما أصفاه ! ازرق كعين السنور ، وصاف كقضيب البللور .

وهذا المنديل ! سلنى عن قصته .

أبو الفتح : . . . . .

التاجر : هو نسج جرجان ، وعمل أرجان ، وقع الى فاشتريته ، فاتخذت امرأتى بعضه سراويلا ، واتخذت بعضه منديلا ، دخل فى سراويلها عشرون ذراعا ، وانتزعت من يدها هذا القدر انتزاعا ، وأسلمته الى المطرز حتى صنعه كما تراه وطرزه ، ثم رددته من السوق ، وخزنته فى الصندوق .

« ينتبه لحظات الى أنه أفرط فى الكلام »

يا غلام ، الخوان ، فقد طال الزمان ، والقصاع ، فقد طال المصاع ، والطعام فقد كثر الكلام .

« الغلام يأتى بالخوان ، التاجر يقلبه ، وينقره ببنانه ، ويعجمه بأسنانه »

عمر الله بغداد فما أجود متاعها ، واظرف صناعها !

« ينسى نفسه من جديد »

تأمل بالله هذا الخوان ، وأنظر الى عرض متنه ، وخفة وزنه ، وصلابة عوده ، وحسن شكله .

أبو الفتح : «تبدأ تظهر ثورته المكبوتة» هذا الشكل، فمتى الاكل ؟ !

التاجر : الآن . عجل يا غلام ، الطعام « مستمرا فى وصف الخوان » لكن الخوان قوائمه منه .

أبو الفتح : « تجيش نفسه » (١) لقد بقي الخبز وآلاته ، والخبز وصفاته ، والحنطة من أين اشتريت أصلا ، وكيف اكترى لها حملا ، وفى أى رحى طحن ، واجانة عجن ، وأى تنور سجر ، وخباز استأجر .

وبقى الحطب من أين احتطب ، ومتى جلب ، وكيف صفف حتى جفف ، وحبس حتى يبس .

وبقى الخباز ووصفه والتلميذ ونعته ، والدقيق ومدحه ، والخمير وشرحه ، والملح وملاحته .

وبقيت السكرجات ، من اتخذها ، وكيف انتقدها ، ومن عملها ، والخل كيف انتقى عنبه ، أو اشترى رطبه ، وكيف صهرجت معصرته واستخلص لبه ، وكيف قير حبه ، وكم يساوى دنه ، وبقى البقل كيف احتيل له حتى قطف ، وفى أى مبقلة رصف ، وكيف تؤنق حتى نظف .

وبقيت المضيرة كيف اشترى لحمها ، ووفى شحمها ، ونصبت قدرها ، وأججت نارها ، ودقت أبزارها ، حتى أجيد طبخها وعقد مرقها .

وهذا خطب يطم ، وامر لا يتم (٢)

« يقوم »

التاجر : أين تريد ؟

---

(١) ، (٢) فن المقامة هو الفن الكامن المركز . وعلينا دائما أن نحتلب مافيه من معنى، وهدف ، وموقف ، وحركة . انظر الى العالم النفسى الكامل ، المختبىء وراء عبارة : « تجيش نفسه » ، وعبارة : « أمر لايتم » بكل ماتحوى الاخيرة من غضب ويأس وعزم على انهاء الموقف بأية وسيلة .

أبو الفتح : حاجة أقضيها .

التاجر : يا مولاى ، تريد كنيفا يزرى بربيعي الامير، وخريفى الوزير ، قد جصص أعلاه ، وصهرج أسفله ، وسطح سقفه ، وفرشت بالمرمر أرضه .. يتمنىالضيف ان ياكل فيه ؟

أبو الفتح : كل انت من هذا الجراب ، لم يكنالكنيف فى الحساب .

« يخرج نحو الباب مسرعا وهو يعدو والتاجر يتبعه » .

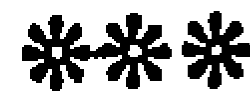
التاجر : يا أبا الفتح ! المضيرة .

صبيان : « يظنون المضيرة لقبا لابى الفتح ، يصيحون، يا ابا الفتح ، المضيرة ، يا أبا الفتح المضيرة .

أبو الفتح : « يرمى أحدهم بحجر ، يسقط الحجر على عمامة رجل ويغوص فى رأسه ، يتجمع الناس حول أبى الفتح ، ويتناولونه بالنعال ، القديم منها والجديد ، ويصفعونه الصفع كله ، بين لين وشديد ، ثم يساق الى الحبس » .

أبو الفتح : أقمت عامين فى ذلك النحس ، فنذرت ان لا آكل مضيرة ما عشت ، فهل أنا فى ذا يا آل همدان ظالم ؟

الجمع : جنت المضيرة علىالاحرار ، وقدمت الاراذل على الاخيار .

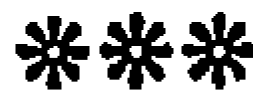


هذا عمل فنىكامل، تقرؤه بسهولة كقصة ، وتستطيع أن تشاهده مجسدا على المسرح على شكل مسرحية من فصل واحد يحتويها اطار تبدأ منه الاحداث وتنتهى اليه وهو اطار الجماعة يقوم فيها أبو الفتح راويا قصته.

وما تحسبه العين المتعجلة منولوجا ينفرد فيه التاجر بالـكلام انما هو فى الحقيقـة ديالوج بين أبى الفتـح ومضيفة • ديالوج بعض الاجزاء الاولى منه فقط صامتة ، التعبير فيها موكول الى فن التمثيل الايمائى ، وفيه تأخذ مشاعر الضيق ، والملل ، تتفاقم فى نفس أبى الفتح حتى تتحول الى غضب شديد ، ثم ثورة متفجرة واذ ذاك ينقلب الحوار الصامت الى آخر متكلم ، وتأخذ الحـمم تتدفق من فم أبى الفتح بصـوت لا يزال يعلو ويعلو حتى ينتهى بالعبارة الحاسمة المفضية الى فعل مادى شديد : « وهذا خطب يطم ، وأمر لا يتم » .

ومن ثم تزول حواجز الصمت نهائيا من دور أبى الفتح فى المسرحية ويصبح هذا الدور ناطقا متحركا ، ويدفع هذا بالاحداث الى نهايتها المضحكة .

كل ما ينقص هذه المقامة حتى تتضح قيمتها المسرحية ممثل قدير يستطيع أن يقوم بعبء دور صعب ، هو دور أبى الفتح ، ويكون قادرا على الجمع بين التمثيـل الصامت وأداء الانفعالات المـكبوتة ، بطريقة مقنعة ، ثم الانتقال منها الى الثورة التى تبدأ من القرار ، كنوع من حديث النفس ، عند قول أبى الفتح : « لقد بقى الخبز وآلاته » ، ثم تتدرج فى الافصاح وتعلو الطبقـة رويدا رويدا حتى نصل الى النهاية الحادة الزاعقة : « كل انت من هذا الجراب .. الخ » .



ومن مقامات بديع الزمان ، ننتقل الى الحريرى تلميذه النجيب ، ومقامات هذا الاخير لا ينقص الافضل فيها سمات مسرحية واضحة ، مثل المقامة العـاشرة الرجبية ، التى يصور فيها الحريرى بطله الدائم أبا زيد فى عملية أخرى من عمليات الاحتيال العديدة التى يشغل

نفسه بها على امتداد المقامات التسع والاربعين ، قبل ان يتوب فى المقامة الخمسين ، ويلزم المسجد .

فى هذه المقامة ، يحتال أبو زيد على قاض ضعيف النفس ، فيقدم له شركا ، فتى مليحا ، يدعى أبو زيد انه قتل ابنه ، ومن ثم فهو يقدمه للقاضى ليحاكمه ويحكم فيما بينهما .

ويقع القاضى فى شرك الغلام المليح ، ويريد أن يستبقيه لنفسه فيعرض على ابى زيد أن يطلق سراح الفتى نظير مال يؤديه القاضى لابى زيد ، يقدم جزءا منه عاجلا ، والباقى يدفعه فى غده .

ويقبل أبو زيد العرض، شريطة أن يلازم الفتى ليلته، حتى اذا أصبح الصباح تقاضى باقى الفدية ، وترك للقاضى الغلام .

وبالطبع يأخذ ابو زيد المال ، ويهرب بالفتى ، ويبين لنا أن الفتى انما هو ابن ابى زيد ، لم يتورع عن أن يتخذه فخا يتصيد به المال من ضعاف النفوس .

ومثل المقامة الثالثة عشرة البغدادية ، التى يتنكر فيها أبو زيد فى زى امرأة عجوز تمشى ووراءها صغار جياع ، وتحتال حتى تقنع جماعة من الكرام بأن يبذلوا لها عطاء ويجزلوا فيه ، حتى اذا انتفخت جيوبها بالمال، اماطت العجوز الجلباب ، وخلعت النقاب ، فاذا هى أبو زيد السروجى ، الذى يستخفه اذ ذاك الطرب بنجاح « عمله الفنى » ، فيرفع عقيرته بالغناء ، متفاخرا بقدرته على تقمص الادوار المختلفة :

اصطاد قوما بوعظ وآخرين بشعر
واستفز بخل عقلا وعقلا بخمر
وتارة أنا صخر وتارة أخت صخر

فهو ممثل دائم .. من النوع الجوال ، لا حدود

لقدراته ، ولا عائق يعوقه عن ممارسة فنه ، بل ولا مندوحة له عن ممارسة ذلك الفن :

ولو سلكت سبيلا مألوفة طول عمري
لخاب قدحي وقدحي ودام عسرى وخسرى

والواقع ان أبا زيد السروجي هو بذاته أكبر خلق فني في المقامات ، انه شخصيتها الدائمة ، ومحورها ، الذي تدور عليه الاحداث أبدا .

وأول ما نلقاه في المقامات نجده في صميم العمل ، كممثل محتال يؤدي عمله على « مسرح حلقة » ! فهو في المقامة الاولى يقوم في « ناد رحيب ، محتو على زحام ونحيب » وهو في وسط حلقة من الناس ، رجل ضامر ، تبدو عليه متاعب السفر الطويل واضحة .

وهو يبيع الناس اسجاعا وجواهر لفظية ، بعد أن تقمص دور الواعظ ، وأخذ يؤديه بنجاح كبير تنحدر من فمه كلمات منمقة معدة من قبل ، ولكنه يلفظها بطريقة توحي بأنه يرتجلها .

فاذا ما انتهى من موعظته سكت عن الكلام ، وبلع ريقه ، وحمل قربته ، وتأبط هراوته وتهيأ للانصراف ، فلما رأى الناس تحفزه للانصراف ، أدخل كل يده في جيبه وقال : اصرف هذا في نفقتك .

فقبل أبو زيد منهم عطاياهم وهو مغض الطرف ، تظاهرا بالحياء ، ثم جعل يودع كلا منهم لا يتركه حتى يزايل المكان ، مبالغة في الحفاوة في الظاهر ، وحرصا على ألا يتبعه أحد منهم ويعرف طريقه في حقيقة الامر .

وتنتهي المسرحية القصيرة بمشهد الكشف المألوف الذي يتكرر في باقي المقامات ، اذ يتبع الحارث بن همام أبا زيد دون أن يراه هذا ، فنتبين أن الرجل دجال ، وانه يقول ما لا يفعل ، فهو في نهاية المقامة يجالس

تلميذا جلسة هنية ، فيها النبيذ والسميذ ولحم جدي حنيذ « مشوى على حجر محمى » .

وحين يتحدى الحارث أبا زيد ، ويقرعه على ختله ، يرد هذا عليه ردا مفحما : ان يكن يلجأ الى الخداع والاحتيال ، فان هذا هو ما دفعه اليه الدهر ، على انه يراعى فى كل « عملياته » الا يتورط فى أعمال يدنس منها عرضه ، وما حيلته بعد هذا فى مجتمع سيىء التنظيم ، يدفع الناس الى ارتكاب الاخطاء .

ولو أنصف الدهر فى حكمه
لما ملك الحكم أهل النقيصة

ابو زيد السروجى ، اذن ، ممثل ممتاز ، محترف ، يأكل من فنه ، ويتجلى هذا الفن أكثر ما يتجلى حين تتوفر فى المقامة عناصر اخرى الى جوار الشخصية التشخيصية ، مثلما يحدث فى المقامة الاربعين التبريزية واختار هذه المقامة ــ رغم موضوعها الشائك ــ لانها اقرب مقامات الحريرى الى العمل المسرحى كما نعرفه.

هناك الى جوار أبى زيد ، الذى يتنكر هذه المرة فى زى زوج مضطهد ، يخرج مع نسائه لملاقاة القاضي والشكوى من واحدة منهن ، هناك شخصية الزوجة السليطة اللسان « الباهرة السفور » التى لا تتحرج أن تطرق أدق الموضوعات وأكثرها صراحة ، أمام القاضى والتى لا تعرف لا الحياء ولا الهزيمة فى عرض قضيتها وتصر الاصرار كله على نيل جائزتها ، مستخدمة فى هذا سلاحي التهديد والفصاحة .

وهناك شخصية القاضى ، الذى يخرج عما الفناه فى قضاة الحريرى الأخر ، ومنهم محب للدعابة يضحك حين يكتشف انه قد وقع ضحية احتيال ، بل ويزيد على ما أخرج من مال ، مالا آخر ، معلنا انه ضعيف أمام

الادباء ، حتى ولو كانوا محتالين « المقامة الخامسة والاربعون » .

وغيره يضحك أيضا حين يكتشف غفلتــه ، ولــكنه يحاول أن يعيد أبا زيد لمجلســه ، لا لينتقم منه وانما ليعظه ، ويعلمه أن عطــاء الآخرة هو خير له وأولى « المقامة التاسعة » .

اما القــاضي فى المقــامة الاربعين ، فانه ينهار لدى تبينه حقيقة ما حدث له ، فقد كان وطن نفسه على أن يحكم بين متخاصمين ، فاذا به ضحية داهيتين لا دفع لهما ولا سبيل لتوقيهما ، فاذا حاول ان يشترى سكوت واحد منهما وهو الزوج ، راجيا أن ينجو من الورطة ، هبت الزوجة فى وجهــه ، شــاهرة هراوة التهــديد بالتشهير ، رافعة زخارف الملق فيضطر الى أن ينقذها دينارا هى الاخرى .

ثم يكاد يبكى وهو يفعل هذا ــ فان قاضينا بخيل بقدر ما هو فاقد لروح الفكاهة ــ ويعلن انتهاء جلسات ذلك اليوم ، ويصرف المتقاضين ويغلق الباب ، ويروح يبكى ديناريه ، فيضطر حاجبه الى أن يبكى لبكائه ، حرصا على لقمة العيش ، وأن كان فى الواقع منعطفا الى المحتالين الماهرين مقدرا لفنهما ، فهو ينصحهما الا يكررا هذا الفصل مرة أخرى : « فما كل قاض قاضى تبريز ، ولا كل وقت تسمع الاراجيز » .

هــذا التمايز فى رسم الشخصيات يمتد حتى أقلها شأنا ، كما رأينا فى حالة الحاجب ، كما يجعل من القاضى شيئا آخر أكثر أهمية من قاضى الحريرى المعتــاد ــ يجعله ذا بعدين واضحين ، فهو ممثل لأمير المؤمنين ، الذى باسمه يحكم ويطلب الى المحتالين كشف حقيقــة أمرهما ، وهو فرد له مشكلتــه الخاصــة : بخله ،

وضعفه ، وقلة حيلته ، تتجمع عليه جميعـا فتجعله يلجأ الى الشكوى الخفيضة أولا ، يبرطم ، ويهمهم ، ويغمغم ، ثم يجعل للاحتجاج موضوعا هو « القضـاء ومتاعبه ، ثم ينتقل من الشكوى الى النحيب ، ومن هذا الى الزعيق بصوت عال ، ثم الى اغلاق المحكمة ، بدعوى ان اليوم مذموم ، وان القـاضى فيه مغموم ، وينتهى المشهد الفكاهى بالبكاء الثنائى ، وبخروج القاضى ، ليلقى حاجب الدرس المستفاد .

هذه القصة الخاصة تتقدم بالعمل خطوات فى سبيل النضج ، لانها تجعله قائما على حكايتين لا حكاية واحدة « كما هو الحال فى المقـامة الخامسـة والاربعين ، وموضوعها ، مشابه لمقامتنا الحالية ، فيها أيضا زوجان يتخاصمان أمام قاض ـ ومن ثم تكون الشخصـيات الرئيسية فى المقامة الاربعين هـذه : الزوج والزوجة ، والقاضى ، وتبرز بعد هذا ـ على قصر دوره ـ شخصية الحاجب .

أما موضوع المقامة ، الذي وصفته بأنه شائك ، فانه يدور حول زوج يشكو للقـاضى نشوزا فى زوجتـه ، وزوجة تتهم زوجها بالشذوذ فى علاقته بها ، فانه يأتيها من غير المـأتى .

ولا يكاد الزوج يعرض قضـية عصيـان زوجتـه على القاضي ويحظي منه بموافقة مبدئية على ان هذه جريمة تستوجب العقاب ، حتى تتلقف الزوجة طرف الحديث فتلقى بالسر المشين ، ومن ثم يندفع الزوجان فى فاصل من « الردح » يشينها جميعا ، وان كان لا يحـرجهما قط ، وانما يحرج القـاضى ، ويجعله يقع بسهولة فى الشرك الذى نصب له .

وأغلب الظن أن أبا زيد ، قد اختار ضحيته بعنـاية

« يؤيد هذا قول الحاجب : فما كل قاض قاضي تبريز» وقدر أنه لو أحرجه بعرض موقف يجرح الحياء أمامه ، فسيسعى جاهدا ليتخلص من الحرج ، ويبذل بعض ماله — وهو الشحيح — طلبا للنجاة .

وفعلا ، يسمع القاضي قول المتخاصمين الفاحش ثم يقول : « قد وافق شن طبقه » ، ثم يطلب من الرجل أن يترك جانب الخصومة الشديدة ، والى المرأة ان تدع السباب ، وتقر اذا أتى رجلها البيت من الباب !..

وترى الزوجة ان القاضي قد دخل المصيدة فتقول : والله لا أمكن له من نفسي الا اذا أطعمني وكساني .

وهنا يقرر القاضي ان يمارس سلطاته فيعمل في قصتهما نظره الالمعي ، وفكره اللوذعي « والحريري هنا يسخر من قلة عقل القاضي أو قلة تبصره » ، ويقطب وجهه ، ويقلب لهما ظهره ، ويتكيء على سلطان أمير المؤمنين ، ويطلب منه أن يعرف السر .

ويقول له أبو زيد انه رجل سوى في علاقته بزوجته ، وان كلا منهما يحب الاخر ويخلص له ، كل ما هنالك انهما قد افتقرا حتى أرملا ، فلا طعام ولا شراب .

ويجد القاضي واجبا عليه ازاء الفقر المدقع أن يدفع شيئا من مال فتهب الزوجة في وجه القاضي محذرة أن يعطي زوجها ، ويهملها هي :

كأنه لم يدر أني التي
لقنت الشيخ الاراجيزا
وانني ان شئت غادرته
أضحوكة في أهل تبريزا

وهنا يتبين القاضي أن قدميه كليهما قد تورطتا في خيوط الاحبولة ، فيدفع ماله وهو يتأوه .

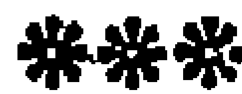
ومنذ البداية يحدد الحريرى سمات شخصياته بوضوح .

فالقاضي بخيل من النوع الذى « يرى فضل الامساك، ويضن بثفالة السواك » .

والزوجة « باهرة السفور ، ظاهرة النفور » وحين يهددها الخطر يصفها بأنها « تذمرت وتنمرت ، وحسرت عن ساعدها وشمرت » وهى لا تتردد فى أن تقول انها هى التى كتبت لزوجها دوره فى المسرحية ، وان القاضى لو اصر على تجاهلها فستجعل منه أضحوكة أهل تبريز .

أما الزوج : فلسان فاحش سليط ، ومكر وذكاء معا ، يجعلانه يقدر متى يكذب ، ومتى يكون فى صالحه ان يكشف الكذبة .

فهذا عمل آخر به سمات درامية واضحة ، وهو فى رأيى يفضل عمل بديع الزمان ، من حيث قلة اعتماده على الرواية ، وعلى ما يحدث خارج المسرح من أحداث ، والتفاته الواضح الى الحوار بالكلام وبالشخصيات وبالاحداث ، وعنايته بتمايز الشخصيات .



دخلت المقامة المسرح وهذه عدتها من السمات الدرامية : قدرة على عرض قصة ، وحبكها ودفع احداثها الى ازمة ثم انكشاف وشخصية رئيسية ثابتة تدور من حولها الاحداث ، وشخصيات أخرى يتفاوت حظها من جودة التصوير والبناء ، وحوار تتبادل فيه الصور الفنية ، والالفاظ الرقيقة أو الغليظة ، كما تتبادل الافكار .

وهذا كله عتاد لا بأس به ، وفى رأيى انه كان خليقا أن يعرف طريقه الى التجسيد ، لو كانت هناك فرصة معقولة للسماح بمبدأ التشخيص عن طريق البشر .

أما وقد كان هذا المبدأ مرفوضا من أساسه ، بل ومحرما ، فقد قنع كل من بديع الزمان والحريرى بأن يكتبا مسرحياتهما الجنينية هذه ويسجلاها على الورق ، تاركين للراوية أن يقوم بمهمة الممثل الفرد ، أو للذهن أن يتخيل احداث العمل كلها ويرسم شخصياته ويدير حركته على المسرح الوحيد الذى لا يناله رقيب ولا تمتد اليه يد سلطة ، وهو مسرح العقل .

وهنا يجدر بنا أن نحاول القاء ضوء جديد على دور الراوية فى أدبنا القصصى وعلى الاخص فى ذلك النوع من الادب القصصى الذى يتحرق رغبة فى أن يتحول الى مسرح ، مثل بعض مقامات البديع والحريرى .

فقد طال اعتقادنا بأن هذا الراوية يروى أحداثه وحسب وانه ليس قادرا على الاداء التمثيلى ، لان التمثيل محرم وبالتالى فليس ثمة حاجة للتأهيل له .

غير ان المقارنة ببيئات وفنون أخرى ، تلقى ضوءا جديدا على دور الراوية وقدرته على التمثيل .

ففى الملايو ، يستخدم فن خيال الظل ، ممثلا واحدا فقط ، يناط به أداء الادوار جميعا ، ليس لان التمثيل محرم ، وانما لانه مقدس ، لا يجوز لكل الناس أن يقوموا به ، انه رسالة دينية ، يقوم فيها السعيد المختار ، بدور الوسيط بين عالم البشر وعالم الارواح ، ولهذا فانه يصبح طوال العرض رسول السماء الى البشر ، وحرام عليه أن يغادر قاعة العرض طول الليل .

وعليه كذلك أن يمر بتدريبات ويرعى قواعد وأصولا خاصة تمنحه فى النهاية القدرة على اضفاء الحياة على شخوصه الظلية ، وبين هذه التدريبات تمارين على الزهد ، وعلى فقدان الوعى المتعمد ، وعلى المرور بحالات الصرع .

والنتيجة ان الممثل الفرد فى خيال الظل فى الملايو يصبح المؤدى العام المنتدب ، يؤدى عن السماء ما تريد ان تقوله ، ويؤدى للبشر رسالة السماء ، فهو فى مركز فريد حقا ، انسان مقدس وبشرى عادى معا ، ومن هنا تفرده ، وضرورة هذا التفرد ، ومن هنا أيضا يأتى الاستغناء عن ممثلين آخرين الى جواره ، فلا حاجة لهم من جهة ، ولا رغبة فى قيامهم من جهة اخرى ، الكل قانع بأن يؤدى الممثل الفرد المهمة كلها ، نيابة عن السماء ونيابة عن أهل الارض .

والرأى عندى ان شيئا من هذه النظرة قد تسرب الينا عبر قرون الادب العربى .

الشاعر فى الادب العربى فرد فنان ذو قدرات خاصة تتيح له أن يعرض قضية قومه فى أحسن صورة ممكنة ، وهو الى جوار هذا متصل بالجن ، الذين يوحون اليه بعض ما يقول ، فهو أيضا وسيط بين عالمين ، الوسيط الوحيد فى قومه .

وفى الادب الشعبى ، يقوم الشاعر بمهمة الممثل الفرد (١) ، بطريقة تقرب الى درجة ملحوظة من ممثل

---

(١) انظر — فى هذا الصدد المقالة الممتعة التى كتبها الدكتور عبد الحميد يونس فى مجلة : « المجلة » — فبراير ١٩٦٠ — بعنوان : « الشاعر والربابة » وتحدث فيها عن المظاهر التمثيلية فى الملاحم الشعبية ، ولفت النظر فيها الى أشياء هامة منها :

● ان المنشدين كانوا يتخصصون كل فى سيرة بذاتها . منهم من يتخصص فى سيرة عنترة ومنهم من ينشد سيرة سيف بن ذى يزن ... وهكذا . وهذا يشبه من بعيد عملية توزيع الادوار فى حقل المسرح .

● وأن هؤلاء المنشدين كان لهم مخزون عام من الشعر ، والكلام المقفى ، ووصف المعارك والمواقف ، ينقلونه من سيرة الى اخرى لانه عام ، صالح « للخدمة » فى أى مكان ، وهذا متساد فنى شبيه بما كان ممثل الكوميديا الشعبية الايطالية يملكه فى حقل التمثيل .

● وأن المنشد كان يعتمد احيانا على واحد أو اثنين لايرددون معه

خيال الظل فى الملايو ، الكل يعتبره الوحيد القادر على الوساطة بين عالم الناس ، وعالم الملاحم الشعبية ، بل ان بعضهم يعتبره مؤهلا ــ ومن ثم قادرا ــ على التحكم فى مصائر أبطال هذه الملاحم ، ولعل هذا هو بعض السر فى المنازعات التى كانت تقوم بين أنصار بطل ما وأنصار خصمه ــ كل يريد أن ينتصر بطله هو ــ والتى كانت تنقلب أحيانا على الراوية نفسه بوصفه وثيق الصلة بالابطال ومن ثم المسئول من هزيمة المهزوم ، فينساله اذ ذاك شيء من أذى الغاضبين .

المهم فى هذا الضوء الجديد الذى أسعى الى القائه على مهمة الراوية ، أن نلتفت الى ان تفرد فنان ما بكل الادوار لا يعنى بالضرورة انتفاء عنصر التمثيل الحقيقى المقنع فى عملية الرواية . ان هذا التفرد ينبع من حقيقة ان التمثيل عن طريق عديد من الافراد قد كان محرما ويمثل النتيجة العامة لهذا المنع سلبا وايجابا .

أما السلب فأمره معروف ، وأما الايجاب فهو هذا الندب العام ، عن طواعية واختيار من قبل الجمهور ؛ لفرد ممتاز كى يقوم بالاداء التمثيلى كله ، لانه الوحيد المؤهل لذلك .

فهذا التسليم هو مجرد حد للفن ، لا قيد عليه ؛ الحد الذى يشكل الفن ولا يضر به .

اللحن وحسب ، وانما يقومون فى كثير من الاحيان مقام الشخوص الاخرى ، التى توجه اليها الحركة والاشارة والحديث .

● وأن الشاعر كان يعتمد على لون ساذج من ألوان المهمات المسرحية يدل على السلطان أو السلاح .

● وأن فن الانشاد كان يتداخل مع فن تمثيل لفرد الواحد . الذى عرفه الشعب باسم « الحكاواتى » ، وهذا الفن كان يعتمد على تمثيل فعلى يقلد فيه الحكواتى الشخصيات ، ويلون صوته بمشاعر الغضب أو الفرح ، ويعكس تغير اللهجات بين عرب وعجم ، ويصدر أحيانا مايشبه الحوار بين رجلين أو امرأتين أو رجل وامرأة .

دخلت المقامة المسرح عن طريق خيال الظل ، دخلته بطريقة قاطعة حين كتب ابن دنيال فى مقدمة « طيف الخيال » يقول :

« صنفت من بابات المجون .. ما اذا رسمت شخوصه وبوبت مقصوصه ، وخلوت بالجمع ، وجلوت الستارة بالشمع ، رأيته بديع المثال ، يفوق بالحقيقة ذاك الخيال » (١) .

والكلمات الاربع الاخيرة فى هذه العبارة جديرة بأن نقف بازائها متأملين ، فهى الشهادة الواضحه بأن المقامة قد خرجت أخيراً من اسار مسرح العقل ، أو الاداء التمثيلى المحدود ، الى رحابة المسرح الحقيقى ، وانها ــ بحكم هذا الانطلاق ــ قد أصبحت شيئاً أحسن وأكثر تفوقا مما كانت عليه ــ أصبحت تفوق بالحقيقة ــ أى الحقيقة التى يمثلها التجسيد المنظور الملموس القائم أمام أناس من لحم ودم ــ ذاك الخيال ــ أى الخيال الذى انتجها والذى ظلت تعيش فيه حتى دخلت المسرح

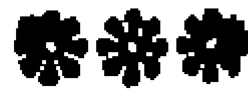
هنا نلتقى بالمبدأ المسرحى المعروف ، القائل بأن العمل المسرحى لا وجود حقيقى له الا فوق الخشبة وبمحضر من الجمهور ، لذلك يتحدث ابن دانيال أيضا عن وسائل التجسيد الناجح ، وعناصره الضرورية : يجب أن تكون هناك ستارة مجلوة بالشمع ، ويجب كذلك ــ وهو الاهم ــ أن يكون هناك جمع من الناس « يخلو » بهم الفنان ، اى يخلق فيهم ذلك المزاج النفسى الذى يتيحه الارتباط بين أصدقاء فى جلسة خاصة ، أو خلوة ، وهذه درجة عالية من درجات العرض المسرحى الناجح .

ثم يمضى ابن دانيال فيعرض علينا بابته الاولى :

---

(١) اقرأ بابات ابن دانيال فى كتاب : « خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال ، تحقيق ودراسة : الدكتور ابراهيم حمادة . وزارة الثقافة ــ ١٩٦٣

« طيف الخيال » والثانية : « عجيب وغريب » ، وسننظر فيهما معا من حيث قدرتهما على تحويل المقامة من نص مكتوب موجه للاداء الفردى ـ الفعلى أو الامكانى ـ الى الاداء الجمعى فى مسرح حقيقى وامام جمهور حاضر بكل جوارحه ، يحسب الفنان لحضوره ولرضاه ألف حساب .



يتحول راوية المقامة فى بابات ابن دانيال الى رئيس لفرقة مسرحية افرادها هم الفنانون المحركون لشخوص المسرحية الظلية .

ولكن : عوضا عن أن يروى الرئيس شيئا من حوادث وقعت فى الماضى ، نراه يتوجه بالحديث مباشرة الى جمهوره ، مقدما لهم فنه بكلمة قصيرة ، كما يحدث فى بابة طيف الخيال ، عارضا محتوى هذا الفن واسلوبه المختلف أساسا عن اسلوب الرواية .

عن المحتوى يقول الريس :

خيالنا هذا لاهل الرتب
والفضل والبذل لآهل الادب
حوى فنون الجد والهزل فى
احسن سمط وأتى بالعجب

أى انه فن يهدف الى الارشاد والامتاع معا ، ويتوسل فى هذا بالبهر فى عرض عجائب المخلوقات وعجائب صناعتها وتقديمها على المسرح .

وعن الاسلوب ، يوضح الريس النقطة الرئيسية التى يمتاز بها فنه من فن الرواية ، أو المقامة المروية :

اذ قام فيه ناطق واحد
عن كل شخص ناظر واحتجب

فالاداء هنا ـ يقول الريس ـ متعدد الاصوات ، بتعدد الشخوص ، أى انه تمثيل فعلى ، وليس رواية .

وهو ـ الى هذا ـ فن معتمـد اساسـا على رضى الجمهور وعلى عطائه ، لا يجد الريس حرجا فى هذا ، بل هو يبرزه ويطالب بالرضى والعطاء معا .

مذاهب الفضـل به جمـة
فنطقوه سـادتى بالذهب

ثم يدعو الريس من بعد شخصياته الرئيسية، لتعرض على الجمهور بأنفسها امورها ، وتقص حكاياتها ، فيصبح الريس هنا نوعا من رئيس البروتوكول ومديعا معلقـا فى وقت واحد ، اذ يقدم الشخصية الاولى ويعلق عليها وبهذا تدور عجلة المسرحية .

ويدخل طيف الخيال المسرح ، وهو الشخصية الثانية فى المسرحية ، فيتسلم المسرحيـة من الريس بتعليـق فكاهى ثم يتوجه هو الآخر الى الجمهور بالسـلام ، ولـكنه يضيف الى هـذا ما تعرفه فنون خيال الظل من تقليد هو فى أصله طقس دينى ، من توجه بالعرض المزمع تقديمه الى رب السماء ورسله فى الارض ، واهدائه اليهم جميعا .

يحدث هـذا فى فنون خيال الظل الاسـيوية ، لانها فنون مقدسة (١) ، كما تقدمت الاشارة ، خيـال الظل فيها يعكس حقائق السماء (٢) ، ويعرضها بوساطة من المقدسين ـ على أهل الارض .

---

(١) علينا دائما أن نتذكر الاصل الدينى لخيال الظل، فان هذا جدير بأن يلقى ضوءا اضافيا على ما فى البابات من نوازع واتجاهات دينية .
ولعله يكون واضحا مما قدمت ان ابن دنيال كان متأثرا فى هـذه التقدمة بتراث خيال الظل عامة ، أكثر من تأثره برهديات الحريرى فى بعض مقاماته .

(٢) العرض الظلى فى اندونيسيا واحد من الطقوس الدينية ، الشاشة فيه تمثل السماء ، والمسرح يمثل الارض . واللاعب مندوب الاله . ويعتقد الجميع ـ الفنان وجمهوره ـ أنهم فى آمان من أى شر طوال مدة العرض .

فالعرض الظلي بهذا المعنى هو عبادة ، يذكر فيها اسم الاله ، ويتوجه بالعرض اليه ، تقربا اليه واستدرارا لبركته ، وربطا للجمهور بالعرض ربطا وثيقا ، يستغل أعمق ما فيه وهو التعبد .

وشيء من هذا يحدث في طيف الخيال ، حين يتوجه هذا الاخير الى الله بالتعظيم والى نبيه الكريم وعترته الغر بالصلاة والسلام ، ثم يسأل رب العباد الغفور :

يديم لنا هؤلاء الحضور
ويبقيهم أبدا في سرور
فقولوا معي يا رفاقي آمين

فهو دعاء سيردده النظارة جميعا مع أعضاء الفريق . ومن ثم يزداد ارتباطهم بالعرض توثقا .

ثم يتوجه طيف الخيال بالحديث الى النظارة وهم أحد العناصر الرئيسية للفن الجديد ، والقوة الكبرى التي أصبح على المقامة أن تشكل نفسها وفق رغباتها فيقول :

ومن بعده اليكم أتيت
لأحكي لكم بعض ما قد رأيت

ويأخذ يحكي لهم ما هو في الواقع مقامة تقليدية موضوعها ما كان حدث في مصر مؤخرا من تحريم السلطان للخمر وأعمال الخلاعة والدعارة والمساخرة ، فتأخذ المقامة تصور الموقف بعد التحريم تصويرا فنيا

ـ ونظرا لبعد القرى وترامي المسافات فالجميع ايضا يكونون في امان من الحكومة . ومن ثم يصاحب العرض تعليق واقعي من مهرج أو اكثر يدور حول ارتفاع أسعار الارز مثلا !

واجتماع العرض الظلي القائم على مبدأ التمثيل بالوساطة .. مع العرض المباشر القائم على جهد فنان بشري يعرض نفسه على الجمهور ولا يختفي وراء ستار ، يكون ظاهرة فنية جديرة بالالتفات في ضوء المناقشة التي سوف اقدمها حالا ، من احتمال أن تكون العروض الظلية في مصر قد جمعت بين التمثيل البشري المباشر والتمثيل المختفي وراء الشخوص والستار .

مقتدرا ، فتتخيل ان الشيطان قد مات ـ لابد ـ ما دامت نواميسه قد تحطمت ، وأتباعه شردوا ، وأدوات اللهو قد كسرت ومعدات الحظ أبيدت أو أحرقت .

وليس فى هذا كله جديد على فن المقامة سوى ما اشرت اليه من ان المقامة هنا أصبحت تقدم عن طريق شخصية مصورة ومجسدة ومتحركة ، وان جمهور المقامة غير المنظور قد تجسد فعلا فى لحم ودم .

ثم ينادى طيف الخيال على صديقه الحميم وصال ، وحين يدخل هذا ويفرغ من تقديم نفسه للناس ومن ذكر مغامراته الغرامية السوية والمنحرفة معا ، ينادى هو الآخر على كاتب حساباته الشيخ بابوج ، ومن ثم تتصدر المشاهد التمثيلية المسرح ، ويقل نصيب المقامة التقليدية من اهتمام الفنان ، ونصل الى الحادثة الرئيسية فى البابة ، وهى سعى وصال الى الزواج ـ بعد التوبة ـ ولجوئه الى الخاطبة ـ القوادة أم رشيد ، التى تقوم بالدور التقليدى للخاطبة المدلسة ، فتوقع وصال فى عروس فرغت من الدنيا من زمن ، قبيحة شوهاء ، ولها ـ الى هذا ـ ولد ليس أقل منها قبحا .

وتنحل الازمة حين يسعى وصال الى البطش بأم رشيد فيجدها قد ماتت .

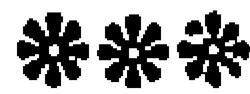
وهنا ينتقل وصال من التوبة الى الزهد ، فيقرر أن يخرج الى الحج ، تكفيرا عما تقدم من ذنبه وما تأخر .

وفى سياق هذه المسرحية القصيرة وما حوته من أحداث قليلة نتعرف على شخصيات نمطية ، ظلت على الدوام جزءا ثابتا من محتويات مخزن الكوميديا المصرية على رأسها الخاطبة العجوز المدلسة التى تجمع بين الوساطة والقوادة ، وكاتب الحسابات القبطى ، الذى يخدم المسلمين ، متأففا ، متأوها ، مواصلا للشكوى ،

والذى يضج من الفقر ، وان كان صبره على الخدمة يحملنا على الظن بأنه يخدم نفسه أيضا ، وفى السر ، بما يأخذ من مال مخدومه والشاعر « المهياص » المتظاهر بالبلاغة ، الذى يلقى الشعر الحلمنتيشى لتفكهة النظارة، والانتقام لهم من الشعر الفصيح الذى يصدع به الادباء رؤوسهم ، ثم لا يفهمون منه لا كثيرا ولا قليلا .

وأخيرا الطبيب الدجال ، الذى يتكسب من وراء الاوبئة أكثر مما يكسب من حوادث المرض العادية ، والذى يتأوه فى حسرة على الايام المواضى التى كان فيها عدد الموتى أكبر من قدرات الأطباء والمغسلين وعمال الجنازات واللحادين مجتمعين .

فى هذه البابة نرى المقامة وقد قطعت شوطا كبيرا فى سبيل التحول الى عرض مسرحى ، لم تتخل عن عناصر الحكاية وانما استخدمتها مقدمات ومشهيات لعرض حادثة رئيسية بأسلوب مسرحى لا شك فيه ، يتمثل فى حادثة زواج الامير وصال .



أما البابة التى يتم فيها فعلا تحول المقامة الى عرض مسرحى كامل ، فهى البابة الثانية : بابة عجيب وغريب

لا قصة هنا ، ولا حادثة ، وانما هو فن الفرجة خالصا من الشوائب ، ومعرض للشخصيات الطريفة المتنوعة المشارب واللهجات والمواطن والحرف ، تتوجه صراحة الى الجمهور وتحثك به بوسائل متعددة ، أما من خلف الستار بلسان المخايلين ، أو مباشرة ، قدام الستار ، « وربما بين صفوف النظارة » وهذا الاحتكاك الاخير عليه شواهد فى النص سأعرض لها حالا ، وان كانت لا ترقى الى مقام الدليل .

وأنا أحتفى بهذه النقطة ، وأعتبرها هامة ، ليس

فقط لمجرد التدقيق التكنيكى فى أساليب تطور المقامة ، وانما لان حضور الجمهور بمثل هـذه الطريقة البارزة هو الشيء الجديد حقا الذى تمتاز به هـذه البابة عن سابقتها .

وعلى سبيل الاحتفاء بهذا الحضور ، ومطاوعة له ، تتخلى المقامة هنا عن القصـة التى تعرفها الاشـكال الناضجة منها ، وتتحول طواعيـة الى عرض لمشـاهد تمثيلية متتالية ، بعضها يقوم على أساس الممثل الفرد ، وبعضها الآخر على أساس حوار بين ممثلين اثنين أو أكثر .

ولـكنها مشاهد لا ترفع عيونها مطلقا عن الجمهور ، بل هى تدير معه حوارا متصلا عن طريق الاستعطاء ، بعد كل مشهد أو عن طريق المخاطبة المباشرة أثناء بعض المشاهد .

ويمكن طبعا أن نفترض ان هذا الاستعطاء كان موجها الى جمهور يصوره الفنانون على الشاشة ويوجهون له الخطاب — جمهور مسرحى موجود على الخشبة وحدها

كذلك ليس ما يمنع أن تكون الاشارة التى ترد فى النص لخطاب مباشر يقوم بين الفنانين والنظارة خاصة باشياء تحدث على الشاشة وليس بين الشخوص الفنية وبين الجمهور المتخيل .

ولـكن الافتراض الآخر ، يظـل مع ذلك قائمـا : افتراض أن يكون مسرح الظل هنـا — فى هـذا النص بالذات ، قد فجر حدوده التقليدية وخرج بشخوصه الظلية لتتجول (١) بين النظارة وتخاطبهم ، وهى محمولة على أيدى الفنانين المحركين لها — مثلا — كما يحدث فى

---

(١) فى كمبوديا تظهر شخوص خيال الظل للجمهور ، نظرا لكبر حجمها ....

مسارح العرائس المعاصرة حين يظهر الفنان وعروسه معا ، وينشئان صلة ما بين الجماهير وبينهما ، فيرى الفنان جماهيره كيف يحرك عروســه ، ويجعلها تؤدى أمامهم بعضا من دورها بالحركة والحوار معا .

هنا تقوم بين الفنان وعروسه وجمهوره علاقة تآخ ، مصدرها الأساسى ان الفنان قد أطلع الجمهور على سره واعتبرهم بهذا من أسرة المسرح .

فاذا افترضنا ان مثل هذا الارتباط المباشر كان يقوم بين الفنانين والجمهور فى بابة « عجيب وغريب » وأمثالها، أمكننا أن نفهم على نحو أفضل بعض ما جاء فى هـذه البابة من ارشادات مسرحية تنص على الخطـاب بين الشخصيات الظلية وبين الجمهور .

ناخذ مثلا شخصية اللاعب البهلوانى حسون الموزون

هذا هو الفنان قد جعل بهلوانه حسون يتثنى ويتقلب ويمشى مشى العقرب ، يسير على راسه تارة ، ويصعد على قطع الخشب المصفوف تارة أخرى ، يقف بقدمه على حد السيوف ، ويتقوس من لينه ، ويتناول خاتما بجفونه ، ثم يجعله معلمه « أى اللاعب الموكول به » تزل قدمه ، أو تكاد .

وهنا يتقدم المعلم ويخاطب الجمهور :

المعلم : هذا الطفل قد أقدم على الحتـــوف ، ووقف زمانا على حد السيوف ، وأنا أقسم بغض قده ، وجلنار خده ، ورمان عضده ، لا أنزله الا بدرهمين ، ولو أقام على هذه السيوف يومين .

الموزون : يا للمروة ، يا للفتوة ، تحياتى عليــكم ، خذونى اليكم ..

وهنا تقول الارشادات المسرحية :

« فيدعوه اليه من اهتزت شجرة كرمه ، ويناوله

درهما من فمه الى فمه . وينصرف :
كيف نقيم هذه الحادثة المسرحية ؟ وكيف نفهم الارشاد الذى يليها ؟
البراعة فيها ظاهرة ، اذ يوقف الفنان الحركة فيها عند منحنى خطر ، تتعلق عنده الانفاس ، ويأخذ يهدد جمهوره تهديدا واضحا بأنه « يتركهم فى هذا الوضع المقلق ما لم يدفعوا شيئا ، ويدفعونه لمن ؟
لفنان قادر فى فنه ، هو حسون الموزون ، الذى هو ايضا صبى مليح ، يسلط نشيد سابق على الحادثة الحالية الضوء على مفاتن جسده ، وهذا هو الفتى المليح يصرخ ويستنجد بالمروة والفتوة ، ويحمل ويلوح مقابلها بجزاء جسدى سخى فهناك وعد بأن يتناول الفتى الدرهم بفمه من فم « المعطى » فيحدث تماس بين الشفاه يرضى من يهمه هذا اللون من العلاقات بين جمهور مختلط .
مرة اخرى ، كيف نفهم هذا ؟
هل يحدث على الشاشة بين الشخصية الظلية وبين ممثل للجمهور . هو الآخر شخصية ظلية ؟
أم نفترض شيئا آخر ينبع من طبيعة هذا اللون الشعبى من الوان العروض ، الذى يحرص على ارضاء جمهوره من كل سبيل فنتخيل — دون خوف من شطط — ان اللاعب الذى يحرك شخصية الموزون ، وهو صبى صغير لاريب ، كان يخرج من وراء الشاشة الى الجمهور ، ليتلقى عطاياه بهذه الطريقة الحسية التى قد نراها نحن فاقعة اليوم ، دون أن نتبين انها نوع من « الفتح » الذى تعرفه صالات اللهو الى اليوم (١) .

(١) قارن ماكان يحدث فى الافراح حتى وقت قريب حين كان المدعوون يلصقون النقود الذهبية فى جباه الراقصات على سبيل النقوط والمتعة الحسية معا .

ونأخذ مثلا آخر :

هـذا هلال ، المنجم ، قد خرجت الشخصية التى تمثله الى المسرح ، ومعها الادوات اللازمة : الـكتاب وتخت الرمل والـكرسى والاصطرلاب .

فبعد حمد الله والثناء عليه ، لمـا خلق من أفلاك ، وزين السماء الدنيا به من كواكب ، يمضى هلال بالخطاب الى الجمهور فيقرأ عليه طوالع العام ، ثم يقول :

هلال : ولـكننى يا سادتى أريد منكم رجلين طالعهما واحد ، وخلقهما متضاد ، لأتكلم على طالع الاصـــــل والتحويل ، وكواكب الزمان بالدليل ..

انت ، ما اسمك يا ولدى ، وانت أيضا ياسيدى ؟

مرة ثانية هل يحدث هـذا المشهد على الشاشة بين شخصين أم ترى ظل المنجم يشير بأصبعه الى اثنين من بين المشاهدين ، كما يحدث حتى اليوم فى نمر الحواة والسحرة فى الـكباريه أو الشارع على السواء — على سبيل اشراك الجمهور فى العرض اشراكا وثيقا ، والتقرب اليه بطلب العون منه ، ومنح بعض أفراده أدوارا ولو مؤقتة فى العرض ؟

هنا وفى الحالة الســابقة يمكن للأداء أن يقتصر على الشاشة كما يمكن أن يتعداها الى صفوف النظارة .

وانا اذهب الى أن التحام العرض بالنظارة على هـذا النحو يمكن أن يكون قد حدث تلقائيا اثنــاء العروض الظلية ، بأن رد « فصيح » بين الجمهور ذات مرة على سؤال موجه لشخصية ظلية ، أو استجاب لحركة ما مقصود بها الشاشة وجدها ، فوجـد « الريس » ان الفكرة طيبة ، وان اثرها حاسم فى رفع مستوى العرض، ودرجة الحماس له فقرر ادماجها فيه .

والذى نقرؤه عن هذه الفرق ومعلميها بالذات أنهم

الأذكياء فطنون واسعو الحيلة ، حاضرو البديهة كلهم رغبة فى خدمة جمهورهم وامتاعه ، لضمان الحصول على عطاياه .

ومسألة ضمان العطايا هذه تجعلنا نفكر فى مشاكل الفرق من الناحيه المالية .

فكيف يمكن لأفرادها أن يحصلوا على منح الزبائن نهم على سبيل الضمان ما دام فى امكان هؤلاء أن يمتنعوا عن الدفع ، بل وان يتركوا القاعة - فى حالة المسرح الثابت - أو يغادروا المكان فى حالة المسرح المتنقل ؟

هل كانت هناك رسوم دخول يدفعها النظارة مقدما ، فى حالة المسرح الثابت ؟ لا أحد يقول لنا .

وفى حالة المسرح المتنقل ، لا شىء من هذا طبعا ، وانما الاعتماد على أريحية الزبون ، وعطائه الحر .

وابسط وسائل الحصول على هذا العطاء ، هى ايقاف العرض ، فى واحد أو أكثر من مراحله واقتضاء أجر ما من العملاء (١) .

وهذا ما يشير اليه النص الحالى فى أكثر من موضع .

هناك بالطبع احتمال أن تكون الإشارات من هذا القبيل نوعا من محاكاة الواقع ، وكأن ابن دانيال ينقل لنا ما شاهده على الطبيعة بحذافيره ، فيقدم لنا القراد ،

---

(١) يذكر الدكتور عبد الحميد يونس « فى كتابه خيال الظل - المكتبة الثقافية عدد ١٣٨ » فى معرض وصف مسرح لخيال الظل حضر عروضه أيام صباه ، أنه لم تكن للعروض أجور تدفع عند الباب . ولا كانت هناك تذاكر . ولكن التمثيل كان ينقطع بعد تمهيد من صميم التمثيلية ، وفى هذه الاستراحة يدفع النظارة ، كل حسب طاقته ، مايشبه النقطة .

واعتقادى الشخصى ان هذا ماكان يحدث أيام ابن دنيال وغيره من فنانى خيال الظل القدامى . وهو لايزال يحدث حتى يومنا هذا فى عروض الحواة ، وغيرهم من الفنانين الجوالين من مستعرضى ألعاب القوة والشهامة ، وفنانى البيانوللا والرقص والتهريج .

والبهلوان ، والمشعوذ شكلا وموضوعا معا ، الفن ووسائل حصول الفن على لقمة العيش ، ولهذا جعل شخوصه الظلية تستعطى على الشاشة ولا عطاء حقيقى يأتى لها.

هذا الاحتمال قائم طبعا ، واصرار الفنان فى هــذه الحالة على أن يقدم صورة من الطبيعة بتفاصيلها الدقيقة له ما يبرره فنيا ، فانه يتيح له أن يقدم لنا مشــهدا فاتنا حقا يستطيع المرء أن يتخيل كم هو أخاذ بأسلوب المسرح الظلى ، وأعنى بهذا مشهد مبارك الفيال ، الذى يظهر ومعه فيل عظيم الجثة ، يدق مبارك هامته بكلابة الحديد ، ويأمره أن يجثو كالعبيد ، ثم ينهض الفيــل ويجول بزلومته فى الطريق ، ومبارك يلفت النظر الى عجيب صنع البارى فى خلقه ، ثم يخرج الفيل من المنظر مطرقا بزلومته ، والصبيان ينادون من حوله :

ــ حالومة ، زلومة ، حالومة ، زلومة !

فالمقارنة هنا بين ضخامة الفيــل وقوته الجســدية الهائلة واستسلامه مع ذلك وبين صغر حجم الصبيان ، وقلة حولهم ، وصوتهم العالى ــ كل هذا يقدم صــورة فنية أخاذة ، تبرر وجود التفاصيل على أساس موضوعى وظيفى وليس على أساس محاكاة الطبيعة وحدها .

فأنا لا أقول بأن كل ما جاء فى هذه البابة من نص على مخاطبة النظارة كان خطابا حقيقيا ، وانما أقول انه يبدو لى أن بعض هذه الاشــارات كان يعنى التحاما واقعيا مع الجمهور .

وكما قلت من قبل ، ليست المســألة مجرد تدقيق تكنيكى فى الشكل الذى انتهت اليه المقامة ، وانما المسألة أهم من هذا بكثير .

فلو صح ان المسرح الظلى كان يخاطب فى بعض مواضع من عروضه ، أو فى بعض المراحل الزمنية التى تعاقبت

على هذه العروض ـ أيام ابن دانيال نفسه ، وفى عهد من خلفه من فنانين ـ جماهير النظارة ، لكان معنى هذا ان مسرح الظل قد أخذ يتخذ لنفسه شيئا من سمات المسرح البشرى ، وذلك بالتوجه بفن ممثليه الى جمهور حى يقظ ، بغية اشراكه فى العرض من كل سبيل اى انه كان يتخذ خطوة منطقية أخرى على الطريق الطويل المؤدى الى قيام فن التمثيل كما نعرفه اليوم ، فهو يسعى الى تأكيد العنصر البشرى من خيال الظل ، وذلك بالاحتفاء بالجمهور واشراكه فى العرض وبالافراج عن بعض لاعبيه وعرضهم على الجمهور ، كل ذلك فى محاولة لتعويض النقص البادى لدى فن لا يكفيه أن تكون شخوصه ظلا ولا جسدا ، بل هو مضطر كذلك لان يدفع بعناصره البشرية الى الاختفاء فى الظلام .

ومن يدرى ما الذى كان يحسه فنان المخايلة وهو يختبىء ليلة وراء ليلة وراء شخوصه اذ يجدها تستمد منه الحياة والحركة والوجود ذاته ، وتحظى من دونه بفرصة العرض على الجمهور وتلقى الاعجاب ؟ !

ألم يدفع هذا بعض فنانى المخايلة الى تمنى الظهور مباشرة أمام جمهورهم ، والتمثيل له دون وساطة من شخوص ؟

ألم يحس بعضهم الآخر مع الشاعر بأن فنه خيال فى خيال ، وأنه يعتمد :

شخوصا وأصواتا يخالف بعضها
لبعض ، وأشكالا بغير وفاق
تجىء وتمضى بابة بعد بابة
وتفنى جميعا والمحرك باقى

الم يشعر أحد منهم بالاسى لان شخوصه تظهر ، ثم تختفى ـ تفنى ولا يبقى الا هو ـ ولكنه وهو الاصل

يبقى غير مميز يعيش بعد العرض حياة البشر العاديين ولا يعيش كفنان الا ظلا لشخوصه الظلية ؟

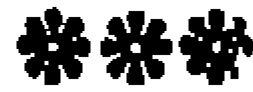
ان وجد أحد ان هذا خيال مسرف فى الجنوح فانى أقدم له سطورا من مسرحية « العاصفة » يتأمل فيهـا شكسبير من خلال كلمات بروسبيرو حال الفنان المسرحى اذ ينصب القبة السحرية كل ليلة ويجهد فى سبيل أن تكون جميلة ، مؤثرة ، وأخاذة ، ثم يتقدم هو بنفسـه ليهدمها بيديه ، وهو يعلم انه لن يبقى له بعد هدمها الا قوة الفرد العادى ، وأهميته ، وهى قليلة :

« ها قد انتهت أفراحنا .. ممثلونا هؤلاء .. كانوا مجرد أرواح ذابت فى الهواء .. وكمثل مادة هذه الرؤية بلا قوام ، ستذوب أيضا هذه الابراج تجللها السحب ، وهذى القصور الزاهية ، والمعابد الوقورة ..

بل الـكوكب الارضى العظيم ذاته ، وكل ما يحمـل فوقه ، سيختفى ــ كحفلنا الاثيرى هـذا ــ ولا يترك وراءه أثرا .

نحن من مادة الاحلام صنعنا ، وحياتنا القصيرة هذه يحوطها النوم من كل مكان » .

فاذا كان هذا هو شعور فنان يظهر بشخصـه أمام النظارة ويستمتع بالتأثير فيهم وتلقى اعجابهم موجهـا اليه بشحمه ولحمه ، فكيف يكون احساس فنان خيال الظل الذى يؤدى فنه من وراء حاجزين : السـتارة ، والشخصية الظلية ؟



على كل حال ، تظهر لنا بابة « عجيب وغريب » فن خيال الظل وهو ضيق أشد الضيق بحدوده القائمة على الاختباء وراء الحواجز ، ومخاطبة الجمهور بالوساطة .

وتظهره لنا وقد دفع هـذه الحدود الى أبعـد ما

يستطيع ، بل الى درجة احداث تصدع واضح فى تلك الحدود ، كما حاولت أن أبين .

فنون الفرجة والعرض المسرحى ، دون القصة ، تسيطر على البابة ، والعمدة فيها على الشخصيات الغريبة والمشاهد القصيرة المثيرة للانبهار أو المحركة للترقب .

والنقد الاجتماعى قليل ، لان الهدف هو الامتاع وليس الاصلاح .

كل شيء هنا مهيأ كى ينتقل فن خيال الظل من التمثيل بالتصاوير الى التمثيل الآدمى ، لو وجدت الظروف المناسبة .

وهو تطور منطقى ومعقول ، حدث مثله فى فنون اسيوية معروفة مثل فن الكابوكى اليابانى ، الذى تبادل فيه فن التمثيل وفن العرائس التأثير أكثر من مرة .

كما ان فن العرائس قد كان ذا أثر ظاهر على كتاب مسرحيين مرموقين من أمثال لوركا ، الذى بدأ حياته المسرحية كاتبا للعرائس وفنانا لها ، ثم تأثر مسرحه البشرى فيما بعد بتكنيك العرائس تأثرا واضحا . كذلك تأثر يونسكو بالعرائس التى شهدها فى صباه ، فتركت فى فنه المسرحى سمات واضحة .

ولكن الظروف المناسبة كى يحدث هذا فى حالة خيال الظل المصرى لم توجد قط ، فقد كان مبدأ التمثيل البشرى فى حد ذاته معترضا عليه ، ومن ثم أصبح التمثيل بالوساطة هو أقصى ما يمكن أن يتقبله الذوق العام ، دون أن تتحرك قوات المجتمع الرسمية بالحظر الرهيب وان كان هذا الحظر قد تم فى بعض الحالات ، حتى فى حالة التمثيل غير المباشر .

وبهذا تكون قد عرضت لادبنا العربى ولحياتنا الفنية

فرصتان لقيام المسرح ، ولكن الظروف المحيطة لم تساعدهما على الاثمار .

الاولى حين التفت بديع الزمان والحريرى الى فنون القصة وأنشأ كل منهما فى مقاماته اعمالا فنية هى مسرحيات جنينية ، كان يمكن أن تتطور الى عروض مسرحية ، لو كان التمثيل مأذونا به .

والثانية حين صحب ابن دانيال – وهو رجل مسرح حق – بعض هذه المقامات وأدخلها عالم خيال الظل الرحيب بعد أن أدرك بحسه الفنى الثاقب مبلغ ما بين فن المقامة وفن خيال الظل من التقاء .

فقد انشأ البديع والحريرى مسرحيات بدائية ، تعتمد على الشخصيات النمطية ، وعلى الحادثة البسيطة غير المعقدة .

وجاء ابن دانيال ، فاتخذ خطوة أخرى – منطقية – بأن حول المسرح البدائى المكتوب الى مسرح مجسد منظور عن طريق اللعب بالخيال .

فلو كانت الظروفة موالية اذ ذاك لقام فنانون آخر بازاحة الاقنعة عن فنهم ، وتقدموا للتمثيل المباشر أمام الناس .

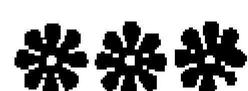
ولو كانت هناك امكانية لقيام هذا الفن ، لما وجد الفنانون عنتا فى تحويل البابات الى تمثيل .

ان طيف الخيال تحوى مسرحية قصيرة قابلة للتمثيل البشرى ، وبابة عجيب وغريب يمكن اخراجها دون عناء على مسرح منوعات يجمع بين فنون السيرك والتمثيل والغناء والرقص .

المسرحيات موجودة ، والفنانون متوافرون ، ولكن الحاجز صلد لا يريد أن يتصدع .

وكان ان ضاعت علينا فرصة واعدة لخلق مسرح

قومى خاص بنا ، يمتد فى التاريخ من العصور الوسطى حتى الآن ، بدلا من أن نؤرخ له ببدايات القرن التاسع عشر ، ثم يكون بعد هذا بضاعة أجنبية ، اجتلبناها فيما اجتلبنا من علامات الحضارة فى الغرب .



ترك مسرح الظل أثرا باقيا على الكوميديا المصرية .. فقد تسربت بعض شخوصه ، وأساليبه الفنية الى الفصول المضحكة التى عرفتها البيئات الشعبية فى الريف والمدينة ، وخاصة فى بداية القرن التاسع عشر ، وسنعرض لنماذج منها فى فصل لاحق .

كما تسربت الكوميديا الظلية الى فن الاراجوز ، الذى تبادل التأثير مع فنون أخرى ، أهمها الكوميديا الشعبية فى المسارح ودور اللهو الاخري ، وهذا أيضا سنعرض له في فصل آخر .

الفصل الثاني

بقية الرصيد
مسرح الأراجوز

ان تكن الظروف قد حالت دون تطور خيال الظل ــ وبابات ابن دانيال بالذات ــ الى مسرح للتمثيل البشرى، فقد أسدى هذا الفن الجميل ــ مع هذا ــ خدمة كبيرة للمسرح فى بلادنا ، بالابقاء على فكرة التمثيل حية عبر القرون الكثيرة التى تعاقبت على نموه وازدهاره .

ظل محتفظا للفن المسرحى بعناصره الرئيسية : التمثيل ــ عن طريق صور وظلال ، لا يهم ــ وعن طريق الحوار، ونوع من القصة ، مضافا الى هذا كله مشاهد ترفيهية منوعة ، تقدم كلها أمام جمهور ، فى دار مغلقة ، أو فى مكان مفتوح يقوم مقامها .

وبهذا حفظت لنا فكرة المسرح ، وجنبت الاندثار ، واستقرت بين عادات الناس ، عادة الذهاب لمشاهدة التمثيل ، بحيث لم تعان أجيال لاحقة صعوبة كبيرة فى لفت النظر الى ذلك الفن حين استوردت فكرة المسرح البشرى من أوروبا فى أواسط القرن الماضى .

***

وقد قام فن الاراجوز هو الآخر بنصيب لا يمكن انكاره فى هذا المجال ، وساعده على ذلك سهولة تنقله ،

وقلة احتياجاته الفنية ، وقبوله للتمثيل فى العراء ، دون حاجة الى اضاءة صناعية .

وبالتالى ، أصبح فى الامكان مشاهدة ذلك الفن بالليل او النهار .

على انه ـ على العكس من خيال الظل ـ لم يقدر للأراجوز أن يكتب له كتاب ولو على أدنى صلة بالادب ، بل ترك أمر النصوص فيه لجهود الحرفيين؛ فلم يستطع هؤلاء أن يرتفعوا عن مستوى الاضحاك الفج ، وتصوير بعض ما يجرى فى الحياة اليومية من علاقات بين الناس تصويرا يرتفع أحيانا الى مستوى النقد .

ولا زلت أذكر بعضا من حفلات الاراجوز شهدتها فى صباى فى ساحة الاحتفال بالمولد النبوى بمدينة الاسماعيلية ، وفى احداها كان الاراجوز يعرض اسكتشا قصيرا عن العلاقة بين زوج وزوجة ، الزوجة تأتى لزوجها شاكية باكية ، فالعجين عليها ، والخبيز عليها ، وكنس الدار عليها .. الخ .

ويحاول الزوج أن يهدىء من روعها ، وأن يطيب خاطرها ، ولكنها ترفض السكوت ، بل تنتقل من الشكوى الى الردح والشتائم ، فيمضى الزوج فى محاولة استرضائها المرة بعد المرة دون جدوى ، فان الزوجة تقفز من الشتائم الى العدوان اليدوى .

وفجأة يغيب الزوج خلف الساتر ثم يظهر ومعه هراوة ينهال بها ضربا على زوجته التى تهدأ وقتها ، ووقتها فقط ، وترضى ، ثم تتحول علاقة التماسك بالايدى بين الاثنين الى علاقة جنسية تظهر امام المتفرجين حركاتها الرئيسية ، ويكون من نتيجتها أن تحمل الزوجة ويظهر وليدها على شكل دمية صغيرة .

كان يقوم بدور الزوج الاراجوز ذاته ، وهو الشخصية

النمطية التى تجد مكوناتها دائما فى بناء المهرج الشعبى : خليط من المكر وطيبة القلب والشجاعة عند الحاجة والجبن عند الضرورة ، وسعة الصدر حينا ، ثم الثورة المسلحة بالعصى دائما حينا آخر .

والضرب بالعصى هو نوع من النقد العملى ، يقوم به الاراجوز نيابة عن المجتمع ، وكما رأينا فى الاسكتش السابق ، نراه يستخدمه ضد زوجة هى فى نظر الاراجوز والمجتمع الذى يمثله مخطئة ، لانها تجاسرت واشتكت مما لا داعى للشكوى منه : عمل البيت ، الذى هو من نصيب المرأة ، ولا محل للتململ منه مهما كثر ، والا فالعصا لمن عصى .

كذلك « ينقد » الاراجوز النقد العملى ذاته شخصيات تستحق القرع والتقريع معا : الصفيق الذى يستغل كرم الاراجوز التقليدى ، يثقل عليه بالطلبات ، حتى يضيق الصدر ، وترتفع اليد بالعصا . المدلس الذى يظن أن بوسعه أن يخدع الاراجوز ويسلبه بعضا من ماله . الغبى الذى يحاول الاراجوز أن يلقنه شيئا المرة بعد المرة ، ولكن ذكاءه المحدود يعجزه عن الفهم ، فيكون الضرب جزاء وفاقا له فى المفهوم الشعبى .

هؤلاء وغيرهم يتناولهم الاراجوز بالعرض على انظار الناس ، محاولا أولا أن ينصح لهم أو يصلح حالهم ، فاذا ما عجز تولت العصا مهمة التعامل معهم ، وسط ضحك الجمهور وموافقته التامة .

وتتكرر شخصيات الاراجوز مرات كثيرة ــ تتكرر صفاتها الاساسية وان اختلف الرداء والاسم .

افى عرض آخر لمسرح الاراجوز ، شهدته عام ١٩٥٧ ، فى احتفال لوزارة الارشاد بمولد الحسين ، ظهرت الى جوار الاراجوز ، الوحيد الذى لا يتغير نفسيا

او مظهريا ـ الشخصيات السابقة ذاتها وانما فى مواقف مختلفة ، أو أردية مختلفة .

كان العرض يدور حول امرأة من بنات الشعب ، تأتى لمقابلة الاراجوز ، شاكية ثائرة ، هذه المرة لان الاراجوز هو فى الواقع زوجها ، وقد أنجب منها تسعة أولاد ، ومع ذلك فهو ينكر الزواج ويهمل النفقة على العيال .

ويكون واضحا لنا ان التهمة ملفقة ، وان الاراجوز المسكين برىء منها ، ولكن الفكاهة تنبع مع ذلك مع كل محاولة يبذلها الاراجوز ليتخلص من الفخ المنصوب له كى يعترف بزواج لم يتم من امرأة لم يرها من قبل .

غير أن الاراجوز يضيق الخناق على المرأة حتى تضطر فى النهاية الى الاعتراف بأنها لفقت الحكاية لانها غلبانة ، وفقيرة ، وليس لها من ينفق عليها ، ثم تتوجه بالرجاء الى الاراجوز كى يتزوجها و « يلمها » .

ويقلب الاراجوز الفكرة فى رأسه ، ويقلب ببصره جسم بنت البلد ، فيجد ما يسره ، ويقرر أن يتزوجها.

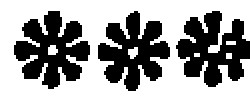
المرأة هنا غير مختلفة اساسا عن زميلتها فى المسرحية السابقة ، كلاهما امرأة مصرية شعبية ، تدخل فى عراك صغير مع الرجل لا تلبث أن تخرج منه منهزمة ، وتضطر فى الحالين للاعتماد على حسن نية الرجل وطيبة قلبه كى تواصل الحياة من يوم الى يوم .

كل ما هنالك ان احداهما هى المرأة المصرية الشعبية قبل الزواج ـ تسعى للزوج بوسيلة مكشوفة قليلة الحيلة ، والثانية هى هذه المرأة ذاتها وقد تزوجت ودخلت الاطار الذى يحدده المجتمع لها : عمل كثير ، وخضوع تام للرجل ، وتقبل لسيطرته عليها فى الفراش وخارج الفراش معا .

أما شخصية الصفيق التىظهرت فىالمسرحية الاولى، فاننا نجدها فى العمل الثانى فى زى شحاذ معمم : «الفقى

اللحوح » كما يسمى شعبنا هذه الشخصية ، وهو يثقل على الاراجوز بطلباته وبلسانه الفصيح ، فيتحمله الاراجوز بعض الوقت ثم تكون الثورة واستعمال العصا

وشخصية الفقى اللحوح وما يجرى لها من فضح وضرب تقدم فكاهة يطرب لها رواد مسرح الاراجوز دائما ، فالفقى بلسانه الفصيح يمثل واحدا من مستغلى الشعب باسم الدين ، كما يمثل فريقا من الناس يتعالون على الشعب بالحديث بلسان لا يعرفه ، ومن ثم يتشفى النظارة فى الفقى ويسرهم ما يجرى له .



الى جوار ما شاهدته فى صباى وفى الشباب من فصول الاراجوز ، ساعدنى الحظ فى مارس من هذا العام (١) فصادفت واحدا من فنانى الاراجوز القلائل الذين لا يزالون يذرعون شوارع القاهرة ، محاولين أن يستخدموا فن الاراجوز وسيلة لكسب عيش قليل ، وسط مزاحمة ضارية من أجهزة الترفيه العاتية : السينما والاذاعة والتليفزيون .

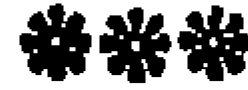
وقد التقيت بالفنان الشعبى سيد المصرى محمد ، الذى قال لى انه بدأ صلته بالفن وهو صغير ، وعمل فنانا لخيال الظل ، ثم انتقل الى فن الاراجوز ، ربما لان خيال الظل كان قد أخذ فى الانقراض ، بعد ظهور السينما ، ولانه أيضا فن كثير المطالب من الناحية الفنية فهو يفترض مهارة كبيرة فى تحريك الشخوص ، ومهارة أكبر لخلقها وقصها ، ثم هو لا يصلح للعرض الا فى المساء ، ولا ينتقل بسهولة من مكان الى آخر ، وهذا الانتقال السهل أصبح ضرورة كى يستطيع الفنان أن يلتقط رزقه القليل حيث يوجد هذا الرزق .

---

(١) ١٩٧٠

وقد استضفت الفنان سيد المصرى محمد فى بيتى ، وطلبت اليه أن يعرض على وعلى أفراد أسرتى المجموعة الكاملة للنمر التى يدور بها فى الشوارع .

وهذا وصف للنمر كما سجلتها يومذاك .



النمرة الاولى :

يظهر الفقى التقليدى على مسرح الاراجوز ، ويطلب من الاراجوز أن يكف عن الصياح والتهليل واحداث الجلبة التى كان آخذا بسبيلها ، نظرا لان الفقى عنده اولاد ، وهم مشغولون جميعا بمراجعة الدروس .

يرفض الاراجوز هذا الطلب الذى يعتبره سمجا ، ويوضح للفقى انه هو الآخر عنده فرح ، وليس من المعقول ان يوقف الفرح من أجل سواد عيون الفقى وأولاده .

الفقى يطلب من الاراجوز « هد » الفرح ، والاراجوز يرفض المرة بعد المرة ، ثم يلجأ الى العصا المشهورة لاقناع الفقى بسخافة طلبه .

النمرة الثانية :

يطلب الاراجوز الزواج ، وتعده الخاطبة بعروس بيضاء كالفل ، ويتهيأ الاراجوز للزواج ، وتزف اليه العروس ، فحين يكشف عنها النقاب يتبين أنها سوداء كالفحم .

النمرة الثالثة :

يظهر شحاذ يلبس ملابس افرنجية ممزقة ، ولكنه « طالع فيها » يسأل الاراجوز احسانا قائلا : «جيببيت مونى » (١) فيتظاهر الاراجوز بالاستماع اليه ، ويستدرجه الى التقدم بمزيد من الطلبات مثل : أريد

(١) اعطنى نقودا .

زبدا ، وجبنا ، وفراخا ، واريد الطلبات كلها من محل جروبى .

الاراجوز يطلب من الشحاذ أن يتقدم اليه ، أن يقترب ، أن يقترب أكثر ، أكثر وأكثر ، ثم يهمس فى أذنه فينيش مونى (١) وينهال عليه بالضرب .

النمرة الرابعة :

يظهر شخص بربرى ويسأل عن الاراجوز ، ويطلب اليه أن يبحث له عن عمل .

يعطيه الاراجوز عملا ، ويطلب منه أن يعمل بوابا ، يجلس البربرى بجوار البوابة لحراستها ،ويريد الاراجوز فيما بعد أن يجتاز البوابة ، فيمنعه البربرى ، ويطرده ، لانه لا حق له فى الدخول الى البيت الذى هو حارسه ، بصرف النظر عن ان الاراجوز ـ ولى نعمته ـ هو الذى يطلب الدخول ، فالشغل شغل !

يترك الاراجوز البواب حتى ينام ، ويحاول أن ينتزع منه عصاه المرة بعد المرة ، وفى كل مرة يصحو البواب ، ويضطر الاراجوز للهرب .

أخيرا يفلح الاراجوز فى انتزاع العصا .

النمرة الخامسة :

يظهر الاراجوز ومعه الكلب المدلل فوكس ، يعرض عليه الاراجوز أصناف الطعام الفاخر : تاكل بطاطة ؟ يرفض الكلب ، تاكل لحم ؟ يرفض الكلب ، تاكل عظاما ؟ يرفض الكلب ، وأخيرا يضيق صدر الكلب فيهجم على الاراجوز ويعضه .

والعمدة فى هذه النمرة على البراعة فى التحريك .

النمرة السادسة :

يظهر دكتور ليكشف على الاراجوز المريض ، وبعد أن

(١) مفيش فلوس

ينتهى الكشف يطلب الدكتور عشرين جنيها كأتعاب ٠ يتناوله الاراجوز بالعصا ٠

النمرة السابعة :

يظهر الخواجة بيجو، ويعطى الاراجوز شنطة يحرسها له نظير مبلغ شهرى قدره ستون جنيها .

ينام الاراجوز ، بعد أن يغالب النوم مدة طويلة ، ويأتى لص ويسرق المحفظة ، فيضبطه الاراجوز ويمنعه المرة بعد المرة .

فى النهاية ينجح اللص فى سرقة الشنطة .

النمرة الثامنة :

يظهر شكوكو فى شخصية مغنى قبيح الصوت ، يغنى مرة فيحتج عليه الاراجوز ، ولكنه يمضى فى الغناء ولا يبالى .

فى النهاية يضربه الاراجوز فيموت شكوكو ، ولكن عفريته يظهر للأراجوز ويعذبه ، ويحاول الاراجوز ضرب العفريت مرارا دون جدوى .

ينصحه الريس بأن يخزق عينيه ، كى يتخلص منه.

النمرة التاسعة :

تظهر امرأة عاشقة ، تحب الاراجوز ، وترمى « جتتها » عليه ٠ يقبلها الاراجوز قبلة طويلة ، فتلد اراجوزا صغيرا ، يظهر مع أبيه الاراجوز الكبير ، ويحييان الحضور ويدعوان لهم ٠

النمرة العاشرة :

زوجة الاراجوز مريوحة ، وعليها عفريت ، تتقدم للأراجوز بالطلبات غير المعقولة المعروفة فى هذه المناسبات والجديد فيها مع ذلك : جوز حمام نايلون .. !

يرفض الاراجوز اجابة الطلبات ، ينام ، فيظهر له العفريت فى المنام ، واسمه ابو سمرة ، يرتعد الاراجوز

ويؤدى حركات الخوف التقليدية المعروفة فى الكوميديا الشعبية ، وخاصة الـكوميديا المرتجلة .

يصحو فى الصباح ، ويجيب الزوجة الى جميع طلباتها غير المعقولة .

وتنتهز الزوجة فرصة ان الاراجوز قد اعترف بأنها مريوحة فعلا فتسوق على زوجها الدلال بطرق متعددة.

يضربها الاراجوز ويرمى عفشها فى الشارع .

النمرة الحادية عشرة :

حفل زواج به اثنان من الموسيقيين يتنازعان حول فتاة موصوفة بأنها جميلة ، كل يريد أن يخطبها الى نفسه ، يعرض أمر الفتاة على الاراجوز ، الذى يوافق على الزواج منها .

يقام الفرح ، وحين يزال النقاب عن وجه العروس تكون المفاجأة التقليدية ، العروس شمطاء قبيحة ، بالغة القبح .

النمرة الثانية عشرة :

مشهد ولادة ، امراة على وشك الوضع ، والداية تساعدها ، وتردد الادعية التقليدية :

يا فارج الفرج ، يا معلى الدرج ، يا مساعد الكتكوت حتى من البيضة خرج .

الاراجوز يعرض مساعداته ، ويردد هذه الادعيات هو أيضا ، ثم يتقدم بعرض عملى لمساعدة الطفل على الخروج هو « منشار » كبير يريد أن يشق به البطن ويخرج المولود !

النمرة الثالثة عشرة :

زوجة الاراجوز تتهمه بأنه يحب امراة اخرى .

الاراجوز يؤكد ، ويقسم ويصمم على ان هذا غير صحيح .

اخيرا ، يفقد صبره ، فيضرب الزوجة حتى تموت « ترتمى دمية بلا حراك على حافة الساتر » .

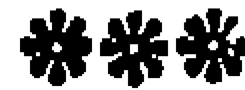
الاراجوز يبذل جهودا متصلة « لايقاظها » يقول لها :

اجيب لك مهلبية ؟

أجيب لك أرز بلبن .. الخ .. ثم يجرب أن يثير فزعها حتى تصحو فيستخدم أصوات تخويف مختلفة : قطار ، طيارة .. الخ

اخيرا يسلم بانها ماتت ، وتوضع فى نعش ، ويأخذها الحانوتى الى القبر مع نشيد : لا اله الا الله .

وفى مشهد الموت يقيم الفنان مفارقة حادة بين حيوية الزوجة الدمية ، وجمودها مع الموت ، ويبدو الموت هنا حقيقيا ، وتبدو حيوية الزوجة الدمية حقيقية ومقنعة بالمقارنة المتأخرة بجمودها فى مشهد الموت .



يذكر الاستاذ سعد الخادم فن الاراجوز فى كتابه : « الدمى المتحركة عند العرب » ، فيقرر أن فصوله تشبه الى حد بعيد فصول خيال الظل العثمانى « قره قوز » من حيث تضارب الشخوص بالعصى فى كل منهما ، ومن حيث استخدام الفصول المضحكة ، والقوافى الطريفة ومن حيث التعليق بصورة هزلية على احداث البلاد .

ويضيف الاستاذ الخادم رأيا أورده المؤلف الفرنسى كوبان فى كتاب له اسمه : « درع أوروبا » تحدث فيه عن الاراجوز فى مصر ، وكيف انه قليل الانتشار فى القرى والمدن ، وذلك لانصراف الاهالى عن جميع ما يصور الآدميين ، ولا سيما الدمى .

ثم يقرر الاستاذ الخادم ان الاراجوز قد ورث قبيل الحرب العالمية الاولى بعضا من تراث خيال الظل ، بعد

تدهور هذا الفن الاخير ، وأعاد تفصيل بعض الادوار بما يتناسب مع دمى الاراجوز ، فاتخذت المسرحيات صفة الفلظ فى تقديم الطرائف الخارجة ، أو التقليد الهزلى لشخصيات المشاهير من المطربين والراقصات ، أو مسخ أغانى المغنين .

كما قدم الاراجوز بعضا من القصص الشعبى ، الى جوار اشارات الى بطولات شعبية مثل أدهم الشرقاوى او حكايات مثيرة مثل ريا وسكينة ، وان طبع الجميع بطابع الفكاهة والمرح .

ثم ختم المؤلف كلامه بقوله : « ويبدو أن الاراجوز(١) ظل منتشرا لفترة متأخرة ، حيث كانت له أدوار كاملة أوردها الكاتب سوسى فى دراسة نشرها عام ١٩٣٧ ، نذكر منها الدور الآتى الذى قديكون له شبه ببعض أدوار الاراجوز المصرى » .

وهنا يورد المؤلف نصا كاملا لأحد فصول مسرح « القره قوز » اسمه : « الحمام » ، مثبتا بالدارجة السورية ، لان احداث الفصل تدور فى ذلك البلد .

وشخصيتا الفصل الرئيسيتان هما : عيواظ ، وقره قوز ، وهما الشخصيتان الرئيسيتان ذاتاهما اللتان نجدهما فى فصول القره قوز التركى ، وبين الشخصيتين فى فصل الحمام ما بين شخصيتى القره قوز التركي من علاقة كوميدية مبعثها التناقض بين التفوق العقلى النسبى الذى يتمتع به عيواظ ، «وكذلك التهذب النسبى » وبين غباء قره قوز الواضح ، وقلة تبصره ، وخشونة تصرفاته ، مما يجعله دائما ضحية للاعتداء من قبل الغير ، بعد أن يقع فى ورطة وراء ورطة

(١) واضح أن الاشارة هنا للقره‌قوز ، خيال الظل التركى ، وليس للاراجوز المصرى

وفى فصل : الحمام ، يتقدم كل من عيواظ وقره قوز لاستئجار حمام عام ، بغية ادارته والـكسب من وراء هذه الادارة .

ويكتشـفان انهما وقعا فى مطب ، فالحمام سبق أن استأجره ثلاثة أو اربعة او خمسـة من الناس على التوالى وجهزه كل منهم وانفق عليه ، ثم لم يبق فيه الا أياما قليلة ، كان يولى بعدها هاربا تاركا وراءه كل شيء .

ولـكن الاثنين يمضيان مع ذلك فى عملية الاستئجار، وتتم لهما الصفقة ، وهنا تبدأ المصائب ، ومعظمها يقع على راس قره قوز .

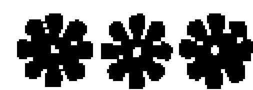
فهو أحمق ، يتشـاجر بلا سـبب مع صبى الحمام ، ويصطدم باناس من سـاكنى الحمام «من العهد السـابق» فيضربونه ويطردونه ، وحين يطردهم بعد ذلك ، عقب نصيحة من عيواظ ، يدخل احدهم خلسـة ويتظاهر بانه جنى ، ويأخذ فى تخويف قره قوز .

ويلى ذلك مشهد العفريت والخائف من العفريت ، المشهور فى المسرح الشعبى عامة ، حيث يحاول قره قوز أن يظهر بمظهر الثابت الجنان بينـما فرائصه ترتعد .

ثم يدخل العامل المـكلف بالنظـافة ، فيجرى بينه وبين قره قوز الحوار التقليدى بين شخص غبى لايريد أن يفهم وبين قره قوز النافد الصبر ، وينتهى الحوار باستخدام قره قوز للعصا ضد الغبى .

ويتكرر الحوار فى جوهـره بين قره قوز وقريبطم ، احد عملاء الحمام فى عهده الجديد ، الذى يأتى ليسـأل ان كان بالحمام محل أدب ، فيستخدم كلمات : بركة ، وأدبخانة ، ومستراح ، وخارج ، وبيت ماء ، كى يفهم قره قوز ما يريد ، كل هذا وقره قوز لا يفهم ، فاذا ذكر قريطم أخيرا كلمة شششمة فهم قره قوز المقصود ،

واحتج على اضاعة قريطم لوقته ، فضربه بالعصا .
ثم يطرأ على الحمام جماعة من الاعراب ، جاءوا كما هو واضح — بتآمر مع شخص اسمه المدلل « وهو الذى يتظاهر بانه جنى » لارهاب عيواظ وقره قوز ، فهم يغنون ويحفزون الجياد للهجوم فما أن ينتهى عيواظ وقره قوز من همهما — بعد لاى — حتى تدخل البلانة ، وهى عجوز صماء مشاكسة ، يحييها قره قوز تحيـــة المساء فتتهمه من فورها بانه يغازلها ، وهى العجوز فى سن جدته .
ويقوم بينهما تبادل شتائم وشجار ، فتفقأ العجـــوز احـــدى عينى قره قوز ، وتجىء عجوز أخرى فتهـــدد قره قوز لاشتباهها فى انه أجر الديوان الشـــمالى من الحمام للعجوز الاولى ثم تتنازع العجوزان على الديوان ويتدخل قره قوز فى الشجار ، فيناله من الضرب ما يوقعه على الارض .
وينتهى الفصل وقره قوز يضرب صاحبه ويقول له : سلم الحمام لاصحابه ، وهل كان قره قوز — فى أى وقت — صاحب حمامين ؟



بين هذا الفصل وبين فصول الاراجوز المصرى بعض نقاط الالتقاء ، خاصة فى المشاهد التى يخاطب فيهـــا قره قوز كلا من عامل النظافة الغبى ، وقريطم الزبون ، الذى يحتمل أن يكون من النوع «الملاوع» الذى يتغابى كى يغيظ المتحدث اليه ، أو هو غبى فعلا .
هذان المشهدان ، وما ينتهيان به من ضرب قره قوز لخصميه ، نجد لهما نظراء فى مسرح الاراجوز المصرى .
والفكاهة الغليظـــة حينا والرقيقة حينـــا آخر التى تجدها فى مشهد قريطم فى بيت الادب ، حيث يرجـــو

ويتوسل ، ثم يصر على أن يدخل معه قرد قوز بيت الراحة « ليؤنسه » ، بينما عيواظ يلح على أن يتحدث قره قوز اليه هو فتحدث بلبلة مضحكة عند قره قوز بازاء هذا الجذب من جهتين ــ هذا المشهد له أيضــا ما يقرب منه فى الاراجوز المصرى .

كذلك يمكن القول ان بعض الشخصيات مثل : البلانة العجوز ، والام الطيبة لها أقارب فى مسرح الاراجوز.

غير ان نقاط الخلاف بين فصل الحمام السورى ، والاراجوز المصرى ربما تكون أوضح من نقاط الالتقاء .

هناك أولا هذه العلاقة الثنائية بين قره قوز وعيواظ فى الفصل السورى ، فانها لا توجد فى الاراجوز المصرى.

الاراجوز فى مصر هو ملك المسرح بلا منازع ، هو وحده الذى يضحك ويسخر ، ويقرع ويضرب ، هو وحده ممثل المجتمع ، وهو أذكى من جميع الشخصيات لا يخدعه أحد أو يتغلب عليه الا مؤقتا ، فله دائما النصر الاخير . فاذا قارناه بزميله فى النص السورى ، وجدناه اكثر فكاهة وذكاء ، وأكثر تهذيبا بكثير .

ان الاراجوز المصرى ينتسب الى نوع راق من أنواع المضحكين ، هو المضحك الذكى الســاخر ، المعلق ، الذى يتأمل غباء الناس من حوله فى مزاج من العطف والحزن والرغبة فى الاصــلاح ، هو اقرب الى المهــرج « الانسان » .

اما قره قوز فهو ينتمى الى فصيلة أخرى ، تتسم بالخشونة ، وغلظ القلب والتهريج الغليظ .

والواقع ان الفصل الســورى عامة هو اقرب الى كوميديا خيال الظل كما يعرفها ابن دانيال فى بابتى : طيف الخيــال وعجيب وغريب ، منه الى كوميــديا الاراجوز .

هنا نجد العلاقة الثنائية ذاتها التى نجدها فى طيف الخيال بين طيف الخيال والامير وصال ، كما نجد معرض الشخصيات الغريبة والفكاهة الزاعقة القائمة على غلظ الحس والضوضاء .

والى جوار هذا يلتقى الفصل السورى التقاء واضحا بالفصول المضحكة التى عرضها الفنـــان السورى جورج دخول على مسارح مصر فى العقدين الاول والثانى من هذا القرن باسم الفصول المرتجلة .

ففى هذه الفصول يقوم كامل الاصلى، وهو الشخصية التى ابتدعها جورج دخول ، بلون من التهريج به ملامح واضحة من تهريج قره قوز ، كما انه يرتبط مع شخصية اخرى فى الفصول بعلاقة تلازم و « نقار » تشبه علاقة قره قوز بعيواظ ، ذلك ان كامل الاصلى هو دائما خادم فى فصول جورج دخول ، وله دائما معلم يتبادل واياه الـكلام الجارح ، أو الخارج أو المضحك .. الخ .

وعلاوة على هذا ، فان دقائق التكنيك فى الفصـــل السورى ـ المواقف ، ووسائل استنبـــاط الضحك ، والنمر ، كلها نجدها بتفاصيلها فى فصول جورج دخول مثال ذلك ما يعرف باسم « نمرة التطويل» فى المسرح المرتجل ، التى تقوم على أساس سوء فهم ، طبيعى أو متعمد بين شخصيتين نجدها فى الفصـــل السورى فى المشهدين اللذين يقدمان بين قره قوز من جهة ، وعامل النظافة ، وقريطم ـ على التوالى ـ من جهة أخرى .

ونمرة العفريت وما يقوم به من تخويف للمهرج «هنا قره قوز » نجدها فى فصول جورج دخول .. وهكذا .

والرأى عندى ان جورج دخول قد أفاد من فصول قره قوز السورى ، فى خلق فصوله المضحكة المرتجلة ، بعد أن حول التمثيل من الاداء بالدمى الى الاداء عن

طريق البشر .

وبهذا يكون فن خيال الظل قد عرف طريقه أخيرا الى المسرح البشرى ، بوساطة هذا الجسر الهام الذى اقامه الفنان السوري المتواضع بين كوميديا خيال الظل والكوميديا المعاصرة التى كان كل من نجيب الريحانى وبديع خيرى من جهة ، وعلى الكسار من جهة ثانية ينقبون عنها .

ولكن هذا حديث سنفصله فى فصول تالية .

***

ترك فن الاراجوز أثرا واضحا على الكوميديا المصرية كان ابرز مظهر له هو تحول الاراجوز من دمية الى شخصية انسانية .

حدث هذا حين اكتشف على الكسار شخصية عثمان عبد الباسط ، ممثل الشعب الخفيف الظل ، الطيب القلب ، الطويل اللسان ، الذى يقول الحق دائما واجره على الله .

وشخصية عثمان عبد الباسط ـ او دققنا النظر ـ هى الاراجوز وقد طلى وجهه باللون الاسود ، وخرج من اسر فنان بشرى يحركه الى نطاق أرحب ـ نسبيا ـ هو نطاق فنان يحرك نفسه .

ولكنه يحركها فى حدود واضحة لا يتعداها ، هى الحدود المادية والنفسية التى أجملتها آنفا .

ان عثمان عبد الباسط شخصية نمطية لا تتطور كثيرا ، كل ما هنالك ان قدرتها على الحركة أكبر ، لانها تركت حدود المسرح الصغير ، واستغنت عن المحرك الذى لا غنى عنه كى يظل باقيا ذلك الايهام الذى يسعى اليه مسرح الاراجوز بأن الدمية هى انسان .

وقد حدث انسلاخ طريف وواضح للأراجوز البشرى من الاراجوز الدمية فى حالة الفنان محمود شكوكو ،

الذى كان يلقى مونولوجاته الفكاهية وهو مرتد طرطور الاراجوز ، وكان يعمد الى اعطاء نفسه الرخصة ذاتها للتعليق على الناس والتنـــدر بهم التى هى من امتيازات الاراجوز الدمية .

ثم اقترب شكوكو خطوة اخرى من فن الاراجوز حين انشأ فرقة للأراجوز حدثت فيها أكثر من مقابلة طريفة بين الاراجوز الدمية والاراجوز البشرى .

وقد منحت شخصية الاراجوز الفنان (١) شـــكوكو شعبية واسعة وصلت الى حد أن التماثيل كانت تصنع له ، وتباع على نطاق واسع فى الاسـواق الشعبية وعلى عربات اليد .

كذلك كانت اغطية الراس تصنـــع على غرار طرطور الاراجوز وتباع باسم محمود شكوكو .

وهذا كله يدل على مدى الاثر البعيـــد الذى تركته شخصية الاراجوز فى الوجدان الشعبى ، وفى المفهوم الشعبى للـكوميديا .

وفى السنوات الاخيرة تسرب الاراجوز مرة أخرى الى الـكوميديا المسرحية البشرية ، عن طريق الادوار التى يؤديها الفنان عبد المنعم مدبولى .

وقد أخذ عبد المنعم من الاراجوز الدمية ،مكره الشعبى وسلاطة لسانه ، وتصلب تعبيرات وجهه ، كما استبقى صوته ذا الفحيح ، وحبه للمرح ، ثم ضعفه الدائم أمام النسوان وميله الى التهريج بالـكلمة والحركة والفعل اللا ارادى، كأن تمتد يده ــ وهو شبه عاجز عن منعها ــ الى جسد امرأة حلوة المرة بعد المرة ، لا يردها زجر ، أو حتى ضرب .

---

(١) بل ان شكوكو قد أصبح هو نفسه واحـــــدة من دمى مسرح الاراجوز كما تقدم .

ولكن عبد المنعم لم يسجن نفسه فى شخصية الاراجوز كما فعل شكوكو ، ولم يلبس قناعا بشريا أسود اللون يضعه على وجه الاراجوز كما فعل الكسار وانما هو استعان بروح الاراجوز وملامحه الثابتة وبعض تصرفاته ، ليضفى طابعا شعبيا على أدوار متعددة قام بتمثيلها فى حياته المسرحية الطويلة : أدوار تتقلب بين عديد من الشخصيات : ابن البلد والمدرس الريفى وزير النساء والصحفى .. وناظر المدرسة الى آخره.

وكان من أمتع ما قدمه عبد المنعم مدبولى من التمثيل القائم على فن الاراجوز خاصة ، وفن الكوميديا الشعبية عامة ، دور فنان المسرح الجوال ، المتشرد ، المفلس الاستاذ عنبر ، فى مسرحية : «هاللو شلبى» ، التى قدمتها فرقة الفنانين المتحدين عام ١٩٧١ .

فى هذا الدور أوضح عبد المنعم كم أن فنه موصول بتقاليد الكوميديا الشعبية الضاربة فى القدم ، فهو يلجأ هنا الى المكر الشعبى المعروف عن الاراجوز ، كما يلجأ الى حيل المهرج الشعبى المألوفة من تقمص لشخصيات الغير ، الى الرطانة المضحكة حين ينتحل شخصية لورد انجليزى (١) ، الى الكذب الصفيق ، الى المغالطة المضحكة ، الى التطويل ومط الكلام بغية التمويه وتغطية الحقائق ، فيقدم لنا عرضا لا ينسى للمهرج الشعبى القادر المستند فى رسوخ الى التراث. ثم لا يستخدم هذه الحيل الفنية للاضحاك وحده ، بل يتخذها أدوات لتصوير حال فنان المسرح المفلس الذى يعيش بلا سند ـ تحت رحمة كل من يعده بمال يقدم

---

(١) سنلتقى فى الفصلين الثالث والرابع من هذا الكتاب بشخصية السائح الانجليزى ، التى اصبحت تقليدية فى تراث الكوميديا الشعبية المصرية منذ ان استخدمها مسرح الافراح والموالد فى أوائل القرن الماضى .

به فنه . لا يدرى ان كان يحصل على الاكلة التالية أم يواصل المسغبة . بل لا يضمن أن يقدم فنه أصلا ، حتى ولو رضى بأن يجوع .

وهـذا هو دور المهرج التقليدى على امتداد رقعة الـكوميديا الشعبية ، فى مصر وفى العالم .

ومن الدقائق الاولى لظهور عبد المنعم مدبولى على المسرح نتبين فيه فن الاراجوز ، ومن ورائه فن الكسار وقد أضيفت اليهما لمسات انسانية رطبت من جفاف الضحك اللاهي ، وبللته بقطرات من العطف على مصائر الناس .

الفصل الثالث

مسرح الأسواق والشوارع والأفراح

فى طفولتى بمدينة الاسماعيلية كنت أشاهد وأمارس بعض التقاليد الشعبية ذات الصلة الظاهرة بفن المسرح وفن عروض الشوارع على وجه الخصوص .

كان الاولاد الصغار يغنون — واغنى معهم — أغانى غريبة لرمضان لم أسمعها فى مكان آخر من بعد . وكان أهم سمات هذه الاغانى انها تجسد رمضان شخصا حيا ، له أم تحنو عليه ، وله تاريخ حياة واضح ، فهو يبدأ صغيرا فى حاجة الى رعاية أمه ، وتخاطبها واحدة من الاغنيات هكذا ، مسدية اليها النصح :

يا أم رمضـــان قومى اتسحرى
بالجبنة الحلوم والعيش الطرى

فاذا ما نما رمضان شيئا ما ، وقوى عوده كنا نغنى له فرحين فخورين .

يا رمضـــان يا صحن نحاس
يا مســـوح فى بلاد النـــاس

ثم تفترض الاغنيات — اذ تتقدم أيام الشهر — ان رمضان لابد أن يصيبه المرض ، وتعلوه مظاهر الاهمال:

رمضان ماله اليوم رابط راسه
... ...

وأخيرا يتجه رمضان المجسد هذا الى النهاية المحتومة ، فيصيح الاولاد فى الشوارع فى بهجة ظاهرة ، وشىء من الشماتة أيضا :

يا رمضان يا قلقيلة
ما عدش فيك آلا الليلة

***

وحين يصاب القمر بالخسوف ، كنا نخرج ومع كل طفل منا ما يستطيع الحصول عليه من أوان كالحلل والاطباق النحاسية والصفائح ، ونأخذ نقرع هذه « الآلات الموسيقية » بشدة متزايدة ونحن نغنى :

يا بنات الحور سيبوا القمر (١)

وكان القرع يتزايد كلما زاد زحف الظلام على نور القمر ، حتى اذا اختفى هذا النور تماما ، عدت هذه لحظة مباركة ، الدعاء فيها الى الله مستجاب لا محالة ، واذ ذاك كنا نغنى أغنية أخرى :

يا رب تبت ورقتنا
على شجرتنا . .
واحنا لسه صغار
يارب حنن على أبونا
وافتح له الباب .

***

هذه الرؤية التجسيدية لرمضان ، التى تقدمه لنا

---

(١) الظاهر أن هذه الظاهرة الفولكلورية معروفة فى أماكن أخرى من مصر . فقد نشرت « الاهرام » نبأ عن مسرحية قدمها التليفزيون عام ١٩٧٠ حول ظاهرة « خنقة القمر » وأورد النبأ كلمات الاغنية المصاحبة على هذا النحو :

يا بنات الحور خلوا القمر يدور
يا بنات الجنة خلوا القمر يتهنى
يا سيدنا يا عمر فك خنقة القمر
يا سيدنا يا بلال فك خنقة الهلال

انسانا له مصير قابل للتحول ، وهذا التصوير لخسوف القمر والقصة التى نسجها الشعب حول هذا الخسوف هى فى أساسها رؤية درامية . وتمثيل هذه الرؤية فى الشوارع على شكل أغنيات يلقيها الاطفال (١) مجتمعين أو متفرقين يجعل هذه الاغنيات جزءا ـ صغيرا طبعا ـ من عروض الشوارع المختلفة التى تعرفها بلادنا من قرون عديدة ، والتى يرجع أقدم ما تسجل المصادر التاريخية منها الى بداية القرن التاسع عشر .

ومن هذه العروض الشوارعية ما لايزال قائما حتى اليوم ، مثل زفة الاخرس التى تقام أواخر شهر شعبان من كل عام فى مدينة الاسكندرية ، ويشترك فيها جمع من الناس يؤدون عن طريق التمثيل الصامت كل مظاهر الاحتفال بزفاف شاب من الشبان .

ويطوف المشتركون فى الاحتفال على شكل موكب يمرون به على الدور والمقاهى ، فيحييهم الناس تحيات صامتة أيضا ، حتى ينتهى الموكب الى نهايته المحددة . ومن هذه العروض الشوارعية أيضا العروض التى

(١) وصف الاستاذ أحمد حسين ، المحامى والسياسى المعروف ، فى مذكراته بآخر ساعة « ٣٠ ديسمبر ١٩٧٠ » واحدة من التمثيليات الشعبية الشوارعية على هذا النحو :

« أما أولى هذه الصور التى تشغل رأسى وتأبى الا ان ابادر بتسجيلها صورة ذلك الرجل المجذوب الذى كان شيخا معمما يمسك بسيف خشبى ويحمل زمارة ينفخ فيها فنتجمع حوله نحن الغلمان فيهتف فينا ونحن نردد من خلفه: يا عزيز كبة تاخد الانجليز الله حى عباس جى ..

وكان عباس المخلوع يمثل فى نفوس المصريين آن ذاك أملا حيا فى خلاص مصر من ربقة الانجليز وكان الشيخ المجذوب يمثل معنا نحن الاطفال صورة معركة ، فيسمح لنا بالهجوم عليه حتى اذا نفخ فى زمارته فيتعين علينا جميعا أن نقع صرعى على الارض يرمز بذلك الى انتصار قوة الحق على الباطل ثم يستأنف مسيرته فى دروب الحى وأزقته ونحن نصيح وراءه يا عزيز كبة تاخد الانجليز . »

يقدمها القرداتية ، والحاوى ، وهــذه كانت تصحبها مظاهر تمثيلية طريفة ، لا تزال بقاياها تشاهد حتى الآن ..

ويصف ادوارد لين فى كتابه المعروف بعض هــذه العروض بقوله : يتبارز القرداتى مع قرده بالعصى ، ويلبسه ملابس عجيبة ، وكثيرا مايلبسـه ملابس العروس أو المراة المحجبة ، ويضعه على ظهر حمار ويستعرضه أمام حلقة المتفرجين ، بينما يتقــدم هو الموكب وهو يعزف على الطمبور .

وللقرداتى حمار أيضا ، يطلب اليه أن يختار من بين الموجودات اجمل بنت كي تصبح عروســا له ، فيمد الحمار أنفه الى وجه الفتاة ، فيضج الناس بالضحك ويبتهجون وبينهم الفتاة .

أما الحاوى فيصف لنا بعضا من العابه تفصيلا . واهمها بالنسبة لنا تلك التى يشارك فيهــا النظــارة مشاركة فعلية . وهذه احداها :

يطلب الحاوى من احد المتفرجين خاتما ، ثم يضعه فى صندوق صغير وينفخ فى زمارته ويقول : يا عفريت ، بدل الخــاتم . ويفتح الصـــــندوق فاذا به خاتم مغاير تماما للخاتم الاول . ثم يغلق الصندوق مرة ثانية ، ويزمر ويفتح الصندوق فاذا بالخاتم الاول عاد اليه . ويغلق الحاوى الصندوق للمرة الثالثة ويزمر ثم يفتحه فاذا فى الصندوق كتلة من الفضة بلا شكل ، واذ ذاك يعلن ان الخاتم قد انصهر واتخذ الشــكل الحالى ، ويقدم الفضة لصاحب الخاتم .

ولــكن الرجل يصر على أن يعاد اليه خاتمه ولا شيء آخر ، فيطلب الحاوى « خمسة أو عشرة فضة » ثمنا لاعادة الخاتم . وما أن يحصل عليهــا ويزمر : توت

حاوى ، بعد غلق الصندوق ، حتى يعود الخاتم الاصلى فيعطيه لصاحبه .

وللحاوى مساعدون (١) يعاونونه على تقديم الالعاب يذكر لين انه رأى مع الحاوى ولدين يمثلان معه الادوار المطلوبة . يلبس أحدهما حية كبيرة على رأسه على شكل عمامة ، ويضع حيتين حول عنقه ـ مثلا .

او يلعب الولدان لعبة الطاقية التى تتحول الى فطير مشلتت يقدمه لهما الحاوى ، فيصران على الا يأكلاه الا بالعسل ، فسرعان ما يستخرج الحاوى العسل من ابريق يريه للمشاهدين أولا وهو فارغ .

ويلعب أحد الولدين لعبة الطاقية والحية مع الحاوى ويمثل دور المفزوع حين تتحول الطاقية الى حيات ، فيرميها على الارض وهو « خائف » ، ويصر على أن

---

(١) شاهدت فى الاسماعيلية فى أواسط العشرينات عرضا لفن الحاوى ، كان المساعد فيه بنت فى اوائل العقد الثانى من عمرها . كانت تغنى مع الحاوى اغنية لازلت اذكر سطورها الاولى :

البنت البيضة قالت لابوها   جوزنى يابا لاطلع طفشانة !

وكان الحاوى يستخدم هذه البنت بعيمتها البصرية (كان بها مسحة من الجمال) ولتجسيد الايحاءات الجنسية التى تحملها الاغنية.

ولكن ذلك الحاوى كان له أيضا معاون صبى ، كان يستخدمه فى لعبة « الفطير المشلتت » التى يشير اليها لين . كان الحاوى يضع الثعبان على آنية ويغطيها بالكيس الجلدى الاسود التقليدى عند الحواة ، ثم يزمر ، ويطلب الى الصبى ان يزعق بقوله : جيت ياأبيض؟

ويفعل الصبى ، ويكشف الحاوى الغطاء ، ولكن الثعبان لا يزال موجودا . فيستعيذ بالله من شر المكوسات ، ويطلب الى الصبى ان يزعق من جديد : جيت ياأبيض ، بعد أن يزمر : توت حاوى .

وفى هذه المرة يتحول الثعبان الى فطيرة مشلتتة شهية يصب عليها الحاوى العسل ، كما يصف لين تماما .

ونلاحظ هنا محاولة الحاوى أن يضفى شيئا من التشويق الى عروضه ، فيتعمد الا ينجح التحول من الثعبان الى الفطير من أول مرة . وكان من السهل عليه أن ينجح .

تعود اليه طاقيته .

ويورد لين العابا أخرى اشترك فيهـا النظـارة مع الحاوى . منها لعبة الاوراق البيضاء الصـغيره التى يقذفها الحاوى فى طشت فتخرج منه وقد تلونت بألوان مختلفة . تم يصب الحاوى ماء فى الطشت ويضع فيه قطعة من التيل ، ثم يوزع ما فى الطشت من ماء على النظارة ، فاذا هو شربات لذيذ الطعم .

وفى لعبـة أخرى يتعرى الحاوى الا من سرواله ، ويطلب الى اثنين من المتفرجين أن يقيداه من اليـدين والقدمين معا ، ويضعاه فى كيس . وحين يفعلان ذلك ، يطلب من أحد الموجودين قرشا ، فيقال له : تحصل عليه اذا مددت يدك . فيخرج الحاوى يديه بسهولة — وقد تخلص من القيد — ويتناول القرش ، فلمـا يخرجه الناس من الـكيس بعـد ذلك يجده النظـارة لايزال موثوق اليدين والرجلين !

ويعود الحاوى الى الـكيس من جديد ، ثم يخرج وهو حر من كل قيد ، ومعه صينية صغيرة عليها أطباق بها مأكولات مختلفة ، يعطيها الحاوى للمتفرجين فيأكلون منها . واذا كان الوقت ليلا خرجت الاطبـاق محاطة بشموع صغيرة مشتعلة ! (١)

(١) لايزال فن الحاوى يطوف الشوارع . وقد رأيت فى شهر أكتوبر عام ١٩٧٠ تنويعا طريفا طرأ على هذا الفن اذ تطوف شوارع الجيزة سيدة تعمل حاوية ، معها ثعبان وكلبة اسمها فايزة . وتعاونها سيدة أخرى . والسيدتان تقرعان المزاهر .
المنمرة الرئيسية هى الكلبة ، وهى تقوم بالالعاب المعروفة عن القرد مع القرداتى :
فى احدى اللعبات تنام الكلبة ، ويغطى وجهها بالشاش ويطلب من احد المتفرجين أن يتطوع بالاشـتراك فى اللعبة ويقول للكلبا . « قومى يا عروستى » . ترفض الكلبة مرارا ، حتى تسـمع الكلمـة المتفق عليها .

واضح من نماذج الالعاب التي سجلها لين لفن القراد والحاوى ، ومما استطاعت ذاكرتى أن تحفظه حتى الآن من فن الحاوى ، ان هذه الالعاب ليست مجرد عروض صماء تعرض على جمهور سلبى ، بل انها فى الواقع جزء من فن تمثيلى متجول اتخذ الشوارع والميادين مسرحا له ، وتعددت أساليبه وتنوع فنانوه ، وجعل المناسبات الدينية والقومية والاجتماعية مجال عمله الاكبر ، وواصل ـ مع هذا ـ البقاء على مدار العام .

ولعل اكبر مظاهر هذا الفن المتجول شأنا ما نجده فى فن جماعة المحبظين ، الذين حفظ لنا التاريخ نماذج من اعمالهم اقدمها يرجع الى عام ١٨١٥ ، العام الذى شاهد فيه الرحالة الايطالى بلزونى مسرحيتين قصيرتين قدمتا ضمن احتفال بالزواج أقيم فى شبرا (١) .

وقد بدأ الاحتفال بالموسيقى والرقص التقليديين ، ثم قام جمع من الفنانين بتمثيل المسرحية الاولى. وهى تدور حول رجل يريد أن يؤدى فريضة الحج ، فهو يذهب الى راعى ابل ويطلب اليه أن يحصل له على جمل مناسب يركبه الى مكة .

ويقرر الجمال أن يغش الحاج المنتظر ، فيحول بينه وبين رؤية صاحب الجمل الذى قرر أن يبيعه له . ومن ثم يطلب فى الجمل مبلغا أكبر مما طلب صاحبه ، بينما يعطى صاحب الجمل مبلغا أقل بكثير مما دفع الشارى ويحتفظ بالفرق لنفسه طبعا .

ـ المتفرج هنا متفق عليه ،واسمه الحرفى بعرق ، وهو ابن الحاوية واسمه الحقيقى مجدى .. ! ويلبس جلبابا وطربوشا بلا خوص . ويقوم بتمثيل دور الخائف حين يعرض عليه ان يمسك الثعبان .

(١) راجع : « دراسات فى المسرح والسينما العربيين » . تأليف جيكوب لاندو . ص ٥١ وما بعدها .

ثم يدخل جمل مكون من رجلين تغطيا بالكسوة التقليدية ، وبديا كما لو كانا جملا حقيقيا على أهبة الرحيل الى مكة . ويركب الحاج الجمل فيكتشف انه ضعيف ، قليل الهمة ، فيرفض أن يقبله ويطلب أن تعاد اليه نقوده .

ويقوم بين الحاج والجمال نزاع ، ثم يتصادف أن يدخل صاحب الجمل ، فيتبين هو والشارى ان الجمال لم يكتف بخداع الاثنين فيما يخص الثمن ، بل احتفظ لنفسه بالجمل الاصلى واعطى الشارى جملا حقير الشأن .

وتنتهى المسرحية بهرب الجمال بعد علقة حامية .

ويقول بلزونى ان جمهور المتفرجين على المسرحية كان شديد الابتهاج بها ، حتى بدا له أن شيئا فى العالم لا يمكن أن تعدل الفرحة به فرحة ذلك الجمهور بمسرحيته تلك ، وذلك رغم بساطتها الظاهرة ويضيف بلزونى ان ما شاق ذلك الجمهور منها كان ــ على وجه الخصوص ــ التحذير الذى توجهه ضد الجمالين وأضرابهم .

وبعد هذا قدمت مسرحية قصيرة على سبيل الختام ، اقرب ما تكون الى الفصل المضحك . وفيها ظهر أحد أولاد البلد وهو يصطحب سائحا أجنبيا الى بيته ، مستضيفا اياه للطعام .

وابن البلد فقير ، ولكنه يريد أن يظهر بمظهر الغنى ، فيأمر زوجته أن تذبح خروفا من فورها ليقدمه للضيف . وتتظاهر الزوجة بالطاعة ثم لا تلبث أن تعود قائلة : ان قطيع الخراف كله قد فر هاربا ، وانها لو ذهبت تبحث عنه ، فسيمضى وقت طويل .. اذ ذاك يأمرها الزوج أن تذبح أربع دجاجات ، ولكن الزوجة

تدفع بأن الدجاج قد « هج » كله ، ولا تستطيع الامساك به . ويامرها الزوج بأن تذبح حماما ، ولكن الحمام قد ترك أعشاشه كلها .

اذ ذاك لا يبقى الا أن يقنع السائح باللبن الرائب وخبز الاذرة لان هذا هو كل ما فى البيت من مؤونة .
ويضيف بلزونى الى ما تقدم ان السائح كان يقوم بدور المهرج فى المسرحية .

كان هذا فى عام ١٨١٥ ، وبعد هذا بحوالى خمسة عشر عاما ، شاهد لين فن المحبظين فى احدى الحفلات التى أقامها محمد على لمناسبة ختان واحد من انجاله. وقد اشترك المحبظون فى الحفلة بمسرحية وصف لين خطوطها الرئيسية وشخصياتها .

قال لين : ان هؤلاء المحبظين يقدمون عروضهم فى حفلات الزواج والختان فى بيوت العظماء ، كما انهم يجذبون اليهم حلقات من المتفرجين حين يلعبون فى الاماكن العامة . وأضاف أنهم يعتمدون على النكات والحركات الخارجة ، وان الممثلين كلهم من الذكور ، ما بين رجال وصبيان، يقدمون الادوار جميعا الرجالية منها والنسائية .
ثم وصف لين المسرحية التى شاهدها ، وهى تدور حول فلاح فقير اسمه عوض ، تقول السجلات انعليه الف قرش لجباة الضرائب لم يدفع منها سوى خمسة فقط .
ويسأل شيخ البلد الفلاح عوض : لماذا لم يدفع ما عليه ؟ فيقول : انه معدم لا يملك ما يدفعه . واذ ذاك يامر شيخ البلد بطرحه أرضا وجلده نحو عشرينجلدة ثم يساق الى السجن .
وتزوره زوجته فى السجن ، فيطلب اليها أن تأخذ

بيضا وقليلا من « الكشك والشعرية » وتعطيها للكاتب القبطى المعلم حنا ، وتطلب اليه ان يعمل على اخراج الفلاح من السجن .

وتأخذ الزوجة هذه الطلبات فى ثلاثة اسبتة ، وتمضى تسأل عن بيت المعلم حنا ، فيقال لها : هذا هو جالس أمام البيت ، واذ ذاك ترجو الزوجة المعلم أن يقبل منها هداياها وأن يخرج لها زوجها . ويقبل الكاتب الهدايا ، ويطلب الى الزوجة أن تحصل على عشرين أو ثلاثين قرشا وتعطيها لشيخ البلد ، وتعطى الزوجة شيخ البلد القروش وهى تقول صراحة : اقبل منى هذه الرشوه ، واخرج لى زوجى . ويقبل شيخ البلد الرشوة وينصحها بأن تتوجه الى بيت الناظر .

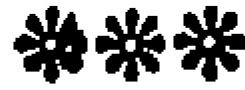
وتتكحل الزوجة ، وتحنى يديها وقدميها ، وتتوجه لبيت الناظر وترجوه فى الحاح أن يطلق سراح زوجها ، وتبتسم له وهى تستعرض جمالها أمامه ، وتوضح انها ستقدم له من نفسها ما يكافىء خدماته .

ويقبل الناظر العرض الشهى ، وينحاز للزوج ، ويعمل على تحريره من السجن .

ويبدو من وصف لين للعرض أن المسرحية كانت على درجة لا بأس بها من التقدم الفنى . فهى تبدأ بعرض موسيقى واقعى يقدمه خمسة من الفنانين ، اثنان منهم طبالان ، والآخر عازف على المزمار، والرابع والخامس راقصتان . ثم يسأل ناظر الناحية عن دين الفلاح عوض ، وهنا يقوم الموسيقيون والراقصتان بأدوار جديدة هى أدوار جماعة منالفلاحين ، ويجيبون على سؤال الناظر .

ثم يأتى دور المعلم حنا ، وواضح انه كان يلبس ملابس خاصة بالدور فهو يظهر بالعمة السوداء والملابس

التقليدية للمسيحيين ، ويضع فى حزامه محبرة كبيرة .
ويصف رحالة آخر ، أسمه وارنر ما شاهده فى موسم ١٨٧٤ - ١٨٧٥ ، حين قضى الشتاء فى ذهبية ، ورأى بحارة مصريين يمثلون فيما بينهم هزلية محلية ، تصور عادات العظماء وكبار الموظفين فى اعطاء الرشاوى وتلقيها .



وواضح مما تقدم من نماذج مسرحية ، انه قد كان هناك طوال القرن التاسع عشر على الاقل (١) دراما محلية (٢) تماما ، خالية من المؤثرات الاجنبية التى اخذت تتعامل على فن التمثيل فى مصر منذ بداية القرن

---

(١) يورد الدكتور محمد يوسف نجم ، نقلا عن رحاله دينمركى اسمه كارستين نيبر نبأ مسرحية مصرية شاهدها ذلك الرحالة عام ١٧٨٠، واورد بعضا من خطوط القصة فيها . راجع كتاب : المسرحية فى الادب العربى الحديث . »

(٢) يودى أن أضيف الزار الى هذه الدراما المحلية . فان طقوس الزار منذ بدايتها الى النهاية تشكل ظاهرة مسرحية لا شك فيها . تبدا مسرحية الزار بالمريوحة وهى تستفتى الشيخ - الوسيط بين الناس وبين الجن - فى نوع العفريت الذى تلبسها . وتسأله أن يحدد شكاله وجنسه ويدلها على طلباته .
ثم يأتى دور الحصول على هذه الطلبات وما يثيره هذا من مشاكل أو مضايقات فى عالم البيت .
وتحصل المريوحة على طلباتها ، مع ذلك ، ومن ثم يأتى المشهد الكبير فى المسرحية ، مشهد المريوحة التى كانت فى السابق مضيقا عليها أو مهملة ، وقد ارتفعت فجأة الى مقام الشخصية الرئيسية ، وأصبحت محط الانظار فى حفل كبير ارتدت له زيا خاصا ، ثم اخذت تؤدى فيه رقصة تطهيرية أو تخليصية ، لا تنتهى الا وقد استنفدت المريوحة طاقتها وتخلصت من همومها .
وهذا نوع من الدراما الطقوسية ، له نظائر فى فن الهند المسرحى ، حيث تمثل قصص الانتصار على عدو خارجى ، أو على روح شريرة داخلية على شكل رقصات تصحبها موسيقى صاخبة وطبل ، فيها الممثلون الملابس الفاقعة الالوان ، ويضعون الاقنعة ويطلون الوجوه وبعض الجسم بالدهون الملونة .

التاسع عشر ، وما لبثت ان اثرت تأثيرا بارزا على حرفية هذا التمثيل ، مما بدا واضحا منذ قيام مسرح يعقوب صنوع حتى الآن .

ان أولى المسرحيتين اللتين شاهدهما بلزونى عام ١٨١٥ هى كوميديا انتقادية تنتزع موضوعها من الواقع الحى المحيط بالممثلين والنظارة ، وترضى جمهورها بالامتاع والنصح معا ، على عادة الفن الشعبى عندنا .

وهى تحوى شيئا من التركيب الفنى يتمثل فى الظهور المفاجىء لصاحب الجمل ، والانكشاف المزدوج الذى يتعرض له الجمال ، وهو انكشاف يشير بدوره ، الى شىء من العمق فى هذه الشخصية ، فهى ليست مسطحة مثل شخصيتى البائع والشارى وانما لابد لها من قدرة على التمثيل والتحايل تستطيع بها أن تتعامل مع الرجلين كل بطريقة تجوز عليه .

أما مسرحية السائح ، فانها فصل مضحك واضح ، أشخاصه : السائح الاوروبى الذى يتصور مؤلف المسرحية انه لا بد وأن يكون عبيطا ، ثم الزوج المتفاخر الساذج — مع ذلك — والزوجة الواسعة الحيلة التى تصمم حركاتها وتخطط لها حتى تنتهى الحوادث الى النهاية التى تريدها .

والذى يقارن هذا الفصل المضحك ، بالفصول المضحكة التى اخذت مصر تعرفها منذ نهاية القرن الماضى وحتى عشرينات هذا القرن ، يتبين بوضوح ان فصل السائح هذا نتاج محلى لاشك فيه .

وقد تعرضت فى كتابى : « الكوميديا المرتجلة فى المسرح المصرى » لتحليل كثير من هذه الفصول . وستطيع من شاء أن يرجع الى الكتاب اذا أراد المقارنة . غير انى ازمع أن أقارن هنا بين فصل السائح

هذا وبين فصل مضحك شاهده بروفر (١) فى القاهرة فى اوائل العشرينات ، وهو يدور حول خادم مضحك يرتدى ملابس المهرج المرقعة ويخدم ضابطا ويقيم علاقة سرية مع زوجة مخدومه .

ويحوى الفصل بعض النمر التهريجية التقليـدية فى الـكوميديا الشعبية ولـكن يلفت النظر فيه شخصية الاوروبى المتفاخر العبيط ، الذى يرتدى ملابس الجنود الانجليز الحمراء الفامقة وهو يتعرض للضرب المتصـل طول الفصل .

هنا صلة واضحة بين فصل السائح والفصل الذى شاهده بروفر وتتمثل هذه الصلة فى الاوروبى العبيط ولـكن الشخصيات فى فصل بروفر ، قـد تغيرت عن شخصيات الفصل المصرى ، كما تغيرت العلاقات بينها. دخلت شخصيات اجنبية على راسها الخادم المهرج ، الذى يقيم العلاقات مع زوجة مخدومه . هذا الخادم وفد الى البلاد مع الفرق الايطالية . كما وفدت معه شخصية الزوجة الغزلة ، والزوج المخدوع ، والغبى المتفاخر وكلها من شخصيات الكوميديا دى لارتى (٢).

غير ان هذا التحول فى شخصيات الفصل المضحك المصرى لم يتم دفعة واحدة ، وانما قطعت الـكوميديا دى لارتى سنوات طويلة قبل أن تسيطر على الكوميديا المصرية . والدليل على هذا أن يعقوب صنوع ، كما سنرى فى الفصل التالى يستخدم شخصية السـائح الاجنبى على نحو كثير القرب من استخدام الفصـل المصرى له . مما يدل على أن السنوات ما بين ١٨١٥، ١٨٧٠ (خمسا وخمسين سنة متصلة) لم تفلح فى اجراء تغيير ذى بال فى شخوص الـكوميديا الشعبية .

(١) ، (٢) راجع لاندو . ص ص ٧٢ ـ ٧٣ .

أما مسرحية الفلاح عوض ، التى قدمها المحبظون أمام محمد على ، فهى ناطقة بانتمائها الى البيئة التى أنتجتها . وهى فى تركيبها الفنى وطريقة صنع شخصياتها ، لا تبين عن أثر فنى آخر غير المسرحية الظلية والاراجوزية ، وكلاهما من فنون مصر المحلية .

يظهر أثر المسرح الظلى والاراجوز فى مشهد طرح عوضين ارضا واستغاثاته المضحكة بديل حصان شيخ البلد ، وبسروال زوجته وبعصبة رأسها .. الخ .

كما يظهر فى الاغراض العريانة التى تبين عنها بعض الشخصيات ، والاستجابات المباشرة التى تقدمها الشخصيات الاخرى ردا على هذه الاغراض : الرشوة تقدم بصراحة وتقبل بصراحة. وعرض الزوجة جسدها يتم بلا نضال ويقبل بلا حرج من جانب الناظر. ونتائج عروض الرشوة المالية والجسدية مباشرة وآلية معا .

والضحك من الفلاح عوض ـ المجنى عليه ـ واظهاره بمظهر مغفل القرية هو أيضا بعض من ضحك الاراجوز، الذى يتسم أحيانا بفقدان الضمير فقدانا تاما .

ومع هذا التبسيط الظاهر ـ بل بفضل هذا التبسيط تنطلق الشكوى الموجعة والسخرية الدفينة من الحكم والحكام من هذه المسرحية القصيرة كما ينطلق الصاروخ الموجه فمن وراء الضحك الظاهر تقول المسرحية : فى مصر تلك الايام لا يحصل المرء على حريته الا اذا فقد كل شيء : ماله وشرفه معا !

***

لو تخيلنا دارا كبرى للملاهى يعمل على أرضها القراد، والحاوى ومسرح خيال الظل ، ومسرح الاراجوز ، والمحبظون ، لاستطعنا أن نحيط بالطاقة التمثيلية الكبرى التى تمتع بها أهل بلدنا قرونا طويلة ـ أحيانا ـ وسنوات

طويلة متصلة ـ أحيانا أخرى ـ قبـل أن يفد المسرح البشرى الغربى الى بلادنا على أيدى فرق أجنبية عديدة ، لم فى شكل فرق مصرية نبتت فى بلادنا ، وأخرى عربية تت لتزورنا من سوريا ولبنان .

ومن يزور اليوم سـوق جامع الغناء بمراكش يجـد هذه الصورة التى نتخيلها حقيقة واقعة . يجد مسرح لحلقة فى أشكال متعددة ، ويجد مسرح الممثل الفرد ، لذى يقوم وحده بجميع الادوار ، ويجد تمثيـلا عاديا تعدد فيه المؤدى ، ويشبه من قريب تمثيـــل المحبظين ما يجد العابا مختلفة للحواة والمشـعوذين ، يشركون يها الجمهور ، ورقصا شعبيا مخلوطا بالاداء التمثيـلى فكاهى ونمرا للبهلوانات والعابا أخرى تكون فيما بينها ن الحلقات ـ أو الحلاقى ـ كما يقولون فى المغرب .

وهذا كله يدل على وجود دراما بشرية شعبية عرفتها لاقطار العربية فى مصر والشمال الافريقى قبل أن يفد يها المسرح البشرى الغربى بوقت طويل (١) .

---

(١) أحيل من شاء ان يسـتكمل النظر فى الاشـكال المسرحية لشعبية التى عرفها وطننا العـربى وخاصـة فى المغرب الكبير الى لدراسة الممتعة والنفاذة التى قام بها الدكتور محمد عزيزة ، الباحث لتونسى ، والتى ترجمها عن الفرنسية الدكتور رفيق الصبان ، والحق بها دراسة أخرى عن فكرة المسرح والطقوس الاسلامية وعن الاســلام والمسرح الشعبى ، بقلم رشيد بنشنب . كتاب الهلال ـ ابريل ١٩٧١

الفصل الرابع

يدخل يعقوب صنوع..

حينما جلس صنوع ليكتب المسرحيات التى اعتزم ان يؤسس بها « التياترات العربية » ، لم يكن يستند ، كما ظن هو نفسه ، الى تراث أوربا من موليير وشيردان وجولدونى وحسب ، وانما نراه تزود كذلك من نبع الكوميديا الشعبية المصرية ، كما عرفها خيال الظل والاراجوز ، وتمثيل الشوارع .

بل ان مسرحياته لتظهر أيضا انه قد قرأ ألف ليلة ، وتأثر بها.

يظهر اثر فن الاراجوز واضحا فى النتفة المسرحية المسماة « السائح والحمار » (١)، كما يظهر بشكل أوضح فى مسرحية « الضرتين » التى يمكن اعتبارها دورا من أدوار الاراجوز أدخل عليه صنوع بعضا من التطويل ، والتطوير أيضا — ثم فى المسرحية المليئة بالفكاهة الاراجوزية : « أبو ريده وكعب الخير » .

«فى السواح والحمار» ، يقوم الحمار بدور الاراجوز المصرى التقليدى : ابن بلد خفيف الظل ، فصيح اللسان ، حريص على أن يستخرج المنفعة لنفسه باظهار الشطارة دائما ، يطاوع الغير — مؤقتا ، ومهما اختلف

(١) المقصود هنا الحمار — بتشديد الميم — أى المكارى ، أو صاحب الحمار .

رايه معهم ـ ما دام يتوسم الخير يأتيه منهم ، حتى اذا ضمن لنفسه ذلك الخير ، أطلق لسانه فيهم ، وربما أطلق عصاه أيضا .

وأمام هذا الحمار ـ الاراجوز ، شخصية أخرى من شخصيات مسرح الاراجوز ، وهي شخصية الفقي الذى يتحدث باللسان الفصيح ، فيغيظ ابن البلد العادى ، الذى لا يفهم اللسان الفصيح ، والذى يسيء الظن بمن يتحدثون به ، على اعتبار أنهم يريدون استغلاله ـ بطريقة أو بأخرى ـ بالتمويه بالغريب من الالفاظ .

وفي هذه الشخصية التقليدية ، يدمج صنوع شخصية اراجوزية أخرى هي شخصية الخواجة ، ويضاعف من كمية الفكاهة فيجعل هذا الخواجة سائحا انجليزيا مصمما على أن يتحدث بالفصحى رغم انه لايحسنها ، ومن ثم يرتكب أخطاء مضحكة .

ثم يستخدم صنوع حيلا كوميدية معروفة مثل المفارقة ، بأن يجعل الحمار يرجو السائح أن يحدثه بالانجليزية لانه لا يعرف « لسان الفقهاء » الذى يتكلمه .

ومثل سوء التفاهم اللفظى حين يصر السائح على أن يستخدم « العربيتي » فيظن الحمار ان السائح يريد عربة يركبها ويشد اليها الحمار .

ثم يعمق صنوع سوء التفاهم حين يصرح صاحب الحمار للسائح ان حماره اسمه بلبل الصباح ، فيروح السائح يفتش فى كتاب يحمله عن بلبل الصباح هذا ، ثم يعلن فى انتصار : ها قد وجدته !

كذلك يزيد صنوع من كم الفكاهة فى هذه النتفة المسرحية بأن يجعل الحمار يصور لنفسه ـ ولنا ـ منظر السائح الانجليزى وهو فى عربة يجرها حماره ، ومعه الحمار ابن البلد ، والموكب العجيب يخترق شارع

الموسكى ، بينما الناس يسألون :
ـ الزفة دى جاية منين ؟
ويرد الحمار :
ـ من قفا صاحبنا .

ولا ينهى صنوع مسرحيته القصيرة هذه ، ولكن ما استخدمه فيها من شخصيات وحيل فكاهية ، قد عرف طريقه الى مسرحيات أخرى للكاتب .

فشخصية الانجليزى الذى يتحدث بلسان مكسور يظنه هو فصيحا استخدمها صنوع فى مسرحية « الصداقة » حين جعل الخواجة نعوم ، يتنكر فى شخص رجل أعمال انجليزى يعرف العربية الفصيحة بالطريقة ذاتها التى عرفها بها السائح ، وذلك كى يختبر نعوم هذا ـ أو مستر هنجس ـ مدى اخلاص ابنة عمه له .

وشخصية المضحك الاراجوزى التى تظهر فى النتفة على شكل صاحب الحمار ، تتكرر بصورة واضحة فى شخصية الملك ، فى مسرحية « الضرتين » ، وبصورة أوضح فى شخصية أبو ريده فى مسرحية أبو ريدة وكعب الخير .

فى المسرحية الاولى : الضرتين ، موقف تقليدى من مواقف مسرح الاراجوز : الرجل الحائر بين زوجتين ، كل منهما تجذبه فى اتجاهها هى ، حتى يضطر المسكين فى نهاية الامر الى القيام باجراء عنيف ، ضرب احدى الزوجتين ضربا يفضي الى الموت ، أو الهرب منهما معا ، أو تطليقهما معا ، كما يحدث فى مسرحية صنوع .

وتبدأ مسرحية الضرتين بموقف تقليدى فى مسرح الاراجوز : موقف الزوجة التى تشكو من ظلم زوجها لها . فرغم انها فى رأى نفسها جميلة وخدوم ، وتقضى كل طلبات زوجها ، الا أنه ـ المدهول ـ يريد أن يتزوج

عليها . مع انه يكفيها أن تتزوق وتضع الملاءة على رأسها وتسير في الفورية لتشتري دراعين بفتة ، حتى يلتفت الناس كلهم اليها ويقولوا : دي جارية بيضة متخفية . ثم يودون لو وهبوا لها الدكاكين كلها بما فيهـا ، في مقابل نظرة .

ثم يدخل الزوج ، على استحياء ، ليخبر زوجته انه لم يأتها بمنافسة ولا زوجة ، وانما جاء لها ببنت طيبة « تبقى خدامة رجليكي وانتى تفضلي ست البيت » .

وحين تأتي الزوجة الجديدة وتنفرد بهـا ضرتها ، يقوم موقف معتـاد في الـكوميديا الشعبيـة : موقف « النقار » بين ضرتين ، احداهمـا ، القديمة ــ قليـلة المزايا بالنسبة للجديدة القادمة ــ فهي أكبر سنا ، وأقل ملاحة ، وهي في مسرحية صنوع بلا أولاد ، بعد أن مات من انجبتهم . فضلا عن ان عشرة خمس عشرة سـنة قد أورثت زوجها الملال منها .

اما الجديدة القادمة فهي رمز الهناء المختبىء الموعود. وفي « النقار » تتقاذف الزوجتان بالاوصاف. القديمة تعير الجديدة بأنها لن تكون أكثر من خادمة ، والجديدة تنادي ضرتها بـ « يا أمي » ، لتعييرها بكبر سنها .

ثم يحتال صنـوع ليجمع بين الزوج وزوجتيـه ، القديمة والجديدة ، وأخي الزوجة الجديده في مشـهد واحد يطلب المجتمعون خلاله الى الزوجه القـديمة ان تشارك في البهجة بالغناء ، فاذا وافقتهم وغنت عيروها بصوتها « البشع » ، فردت هي بأن أخا ضرتهـا هو صاحب الصوت البشع . وهنا يتطور المشهد الى موقف اراجوزي واضح .

فمن تقاليد مسرح الاراجوز التهكم من المغني صاحب الصوت القبيح الذي يعتقد بأن صوته جميل ، وينطلق

فى الفناء فيتناوله لسان الاراجوز بالتقريع ، وعصاه بالضرب .

وفى هذه المسرحية يتطور التقريع الى خناقة بين صابحة الزوجة القديمة ، وبين بعجر ، أخى الزوجة الجديدة ، لا تلبث أن تشترك فيها الزوجة الجديدة . ويقوم الزوج بدور المخلص ، فينساله اكثر من الجزاء التقليدى للمخلص — لا يقتصر الامر على تقطيع هدومه ، بل تعضه صابحة ، وتهدده فطومة — الزوجة الجديدة — بنتف لحيته ، ثم تزايد صابحة على فطومة بتهديد الزوج بخرق عينيه « وتخريق عينى الاراجوز هو أيضا من تقاليد المسرح الاراجوزى » .

وفى أثناء هذه المعركة الرباعية يدور فاصل من الردح الشعبى الاصلى . الزوجة القديمة تصرخ : يادهوتى ، دا سقطنى ، فيقول لها بعجر وهل العجوز مثلك تستطيع أن تحبل ؟ وبعجر يستنجد بزوج أخته ، لان صابحة قد طيرت من رأسه أنفاس الحشيش التى جذبها قبل الزيارة « لزوم السلطنة » !

وتنتهى المسرحية بمشهد الطلاق المزدوج ، وينعم الزوج بالحرية لحظات ، لا تلبث بعدها صابحة أن تعود اليه وتقول :

صابحة : يا ملك ، وحياة المرحوم محمود انك ما تكسرش بخاطرى ، وحياة العيش والملح والخمسة عشر سنة اللى عشناهم سوا .

ملك : طيب ، علشان خاطر عيون أسيادنا دول اللى شرفونا الليلة برؤياهم رايح أردك .

وهكذا ينهى صنوع مسرحيته مخلصا كل الاخلاص لتقاليد مسرح الاراجوز .

فالاراجوز شهم ، ضعيف أمام دموع النساء ، خاصة

من تحدثه عن « العشرة » وضرورة صيانتها . لذلك يرد « ملك » ، زوجته صابحة اليه .

والاراجوز — بوصفه ممثلا فى مسرح شعبى — يهمه ان يرضي جماهير النظارة ، وهؤلاء دائما فى صف المظلوم والضعيف ، وأميل فى الغالب الى طلب رد العدوان على صاحبة البيت « فضلا عن ان هذا رأى المؤلف أيضا ».

لذلك يتوجه «الاراجوز» الى « أسيادنا اللى شرفونا» بالحديث ويعلن لهم انه قرر اعادة الزوجة الى عصمته اكراما لهم .

ولنتهى المسرحية وقد رضى الجميع : الزوج وزوجته والنظارة والمؤلف .

وأقول المؤلف ، لان صنوع فى هذه المسرحية لم يكن يقدم عرضا أراجوزيا وحسب .

ان المسرحية أراجوزية فى أساسها ، فى الموقف الرئيسى منها — موقف الزوج بين زوجتين ، ولكن صنوع يكسو هذه النواة بكساء واضح من كوميديا النقد الاجتماعى .

هو مثلا يحاول — قدر ما تسمح به حدود هذه الكوميديا الاراجوزية — أن يعرض مشكلة الزوجة المخلصة المحبة لزوجها التى تفاجأ بضرة لها تدخل البيت — باسم الشرع — وتنازعها ملكية أكثر الناس قربا منها وهى مضطرة — من بعد — أن تحسن لقاء هذه الضرة ، ومدعوة من زوجها ومن الغير الى أن تعيش معها على وفاق كأنما هما أختان . بل انها لا تملك حتى مجرد الاحتجاج ، لان زوجها يستخدم حقا مشروعا .

اذ ذاك يقوم فى نفسها صراع بين مطالب قلبها وضرورة تأمين حياتها من جهة ، وبين هذا المثل الاعلى الاجتماعى الذى يرسمه الزوج ومن لف لفه ، ليهيىء لنفسه سبل

العيشة الهنية فى عش به دجاجتان !

وفى سبيل عرض قضية الزوجة ، يعطى صنوع لصابحة فرصتين طويلتين لشرح وجهة نظرها عن طريق المونولوج . بل يجرى على لسانها كلمات تحمل أفكارا جريئة :

ــ أما احنا يا نسا عبط اللى بنآمن للرجال ، والحق على أنا اللى ما انبسطش وانا صبية . يعنى الضبط نابنى منه ايه ؟ هم الرجال يطمر فيهم ؟

فهذه فكرة أوربية ، غريبة على فكر المرأة الشرقية المضطهدة .

وهو يجعل صابحة تقول فى مكان آخر :

ــ آه يا خسارة ، احنا يا نسوان ما نقدرش نتجوز اتنين والا كنت أدخل على جوزى « ضر » .

وهو يجعل الزوج يتهيأ فى آخر المسرحية ، وقد تخلص من زوجتيه معا ، لقبول مبدأ الزوجة الوحيدة .

ــ أما بردى أنا لابد انى اتدبق على بنت حلال ولا اتجوزشي عليها ، لان اللى بده يجعل عيشته نكد يدخل على امرأته ضرة .

ثم يدخل صنوع الزوجة فى هذه اللحظة المناسبة ، ويجعلها تستعطف وتتوجه الى الشهامة الشعبية ، فيعيدها الزوج الى عصمته ، وينتصر المبدأ الذى دعا اليه المؤلف ــ مبدأ الدجاجة الواحدة فى العش الواحد ، بينما يغنى الزوج فى آخر المسرحية :

أما اللى بده يعيش فرحان
ما يعملوش قلادة من النسوان

وبهذا يطور صنوع « الدور الاراجوزى » بالتوسع فى عرض القضية التي يشملها الموقف الاساسى ، وبادخال حيل فنية معروفة فى المسرح البشرى مثل المونولوج ،

وبمحاولة التعمق فى رسم الشخصيات ثم بالاستعانة بالاغنيه أثناء المسرحية وفى نهايتها .

وتكون النتيجة : قيام الشكل الاول من أشكال كوميديا النقد الاجتماعى يؤديها البشر لاول مرة ، بعد أن كانت تصاوير ابن دانيال وغيره من المخايلين تتولى عن البشر هذه المهمة .

***

على أن أوضح صور الفن الاراجوزى عند يعقوب صنوع ما نجده فى مسرحية أبو ريدة وكعب الخير .

ان النقد الاجتماعى هنا قليل . بل ان قصة المسرحية هزيلة ، لا تكاد تذكر ، فهى تدور حول رغبة الآنسة بمبة ، الثرية المترفة فى تزويج خادمها النوبى أبو ريدة ، من الفتاة التى يذوب بها عشقا ، كعب الخير .

وبمبة حريصة على هذا الزواج لانها تعز خادمها أبو ريدة ، فهو يضحكها ويسليها على حد قولها .

ومن جهة أخرى ، تحاول الخاطبة مبروكة أن تزوج بمبة من التاجر الثرى الخواجة نخلة ، فتبدى بمبة تمنعا ، وهى الراغبة .

وتنتهى المسرحية بالزواج المضاعف المشهور فى الكوميديات الغربية ، خاصة كوميديات عصر النهضة.

ولكن ما يلفت النظر فى هذه المسرحية ان قصة « زواج السادة » التى تتصدر المسرحية فى أعمال صنوع الاخرى : « بورصة مصر » و « الصداقة » و « الاميرة الاسكندرانية » ، و«العليل» ، تتراجع هنا الى الخلف ويتصدر المسرح قصة أبو ريدة وكعب الخير ، ومحاولة الاول الدائبة للتقرب الى غزاله النافر ، واصرار هذا الغزال على النفور — لا عن قلى — وانما لان الغيرة تأكل قلب كعب الخير ، فهى تتهم المتقدم لخطبتها بأنه انما يحب فتاة اخرى هى بخيتة .

وبهذا تأخذ المسرحية شكل عرض مسرحي تجعلني طبيعة الكوميديا فيه اسـميه أراجوزيا ، يتمركز على المسرح ، بينما يحيط به متفرجان من علية القوم هما : بمبة وخطيبها نخلة . وهما متفرجان من النوع الايجابي، لا يكتفيان بالفرجة بل يتدخلان ويواجهان الاحـداث ، ويحرصان كل الحرص على أن يتزوج ابو ريدة من كعب الخير بما يبذلان من وساطة ومال .

أما أبطال العرض المسرحي فهم : أبو ريدة الذي يقوم بدور الاراجوز (١) ، وخطيبته كعب الخير ، التي تقوم بدور الخطيبة العاصية ومبـروكة ، بنت البـلد ذات الخبرة الواسعة ، في شئون الغرام والزواج . المتلهفة دائما على اتمام الصفقات لما تدخله في جيبهـا من مال وليس لما تجمعه في الحلال من رؤوس .

تتركز المظاهر الاراجوزية في المسرحية في المنظرين الخامس والسادس .

يدخل أبو ريدة في المنظر الخامس على الموجودين : بمبة وخطيبها نخلة ، والحاجة مبروكة فيدور بين النوبي والخاطبة الحوار التالي :

أبو ريدة : مين بيندهني ؟ هما المسماسيلات جاتت ؟

مبروكة : احنا ما احناش في المسماسيلات يا أبو ريدة احنا في جوازك .

أبو ريدة : اتجوزيني يا هاجه ، اتجوزيني ، أهسن الهب مموتني .

مبروكة : يوه ، أنا اتجوز بربري ؟ بعد الشر ، البركة في أبو ابراهيم جوزي ، والا قالوا لك قلة رجالة ؟ !

أبو ريدة : لا موش انتي اللي تجوزيني ، اهنـا ما نفسناش في العجايز .

(١) أراجوز طلا وجهه باللون الاسود ، كما فعل الكسار فيما بعد

مبروكة : هو انا عجوزة يا بربرى ؟ جاك عجز فى عينك والله ما تستاهل انى أتوسط لك . « الى بمبة » أقول لك ياستى والله يا خسارة كعب الخير فى البربرى ده .

ابو ريدة : كئب الهير هسارة فينا ؟ آه من الهب ، الهب ، هوه الهب اللى بيسمئنا الـكلام الجاسى المر ، اهنا وجعنا فى أرضك يا هاجه مبروكة ، اشفجى على ابو ريدة .

نخلة : سامحيه يا حاجة علشان خاطرنا .

مبروكة : (الى نخلة) والله لولا خاطر عيونك ياخواجة نخلة ما كنت أتوسط له وأكلم له كعب الخير .

ابو ريدة : ايوه يا امى الهاجة ، علشان هاطر ايون الهواجة نهلة كلمى لنا كئب الهير .

مبروكة : طيب ، بس المهر فين ؟

أبو ريدة : المهر أهو فى جيبنا • أنتى يهسب اهنا مفلس • (ثم يخرج من جيبه ريالات) افتهى ايدك يامى الهاجة الاجوزة •

مبروكة : قلت لك ما تقولش عجوزة ، ما عجوز الاانت

ابو ريدة : طيب افته ايدك يا صبية .

مبروكة : (تفتح يدها) وادى ايدى .

أبو ريدة : (يعد) وهد الله ، واهد ، اتنين : أبو ريدة وكعب الخير .

أبو ريدة : (الى مبروكة) بجى اهنا جلنا كام ؟

مبروكة : قلنا اتنين .

أبو ريدة : صهيه يا صبية صهيه بجى ، وهد الله ، واحد اتنين : ابو ريدة وكئب الهير ، تلاته اهنـا وامى مبروكة ، اربعة وستى بمبه ويانا ، همســه والهواجه نهلة الا البيئه ، وبس ما بجاشى معنا ولا همسه .

بمبة : (الى مبروكة) رجعى له فلوسه ، المهر ده

على « تعطيها عشرين ريال » خدى .

أبو ريدة : كتر هيرك ياستى ، الله يهليكى « يقول لمبروكة » هاتى لنا بجى الهمسه فرانسا يا هاجه .

مبروكة : (تضع جميع الريالات فى جيبها) بعدين ، يعنى أنا رايحه اهرب بهم ، ولا رايحه آكلهم ؟

أبو ريدة : لا ، اهنا ما نشككوش ، هات الريال بتوعنا

أبو ريدة هنا يقوم بالتهريج الاراجوزى بما فيه من خفة دم وسلاطة لسان ومكر شعبى ، يصارح الخاطبة بأنها عجوز ، فلما تغضب هذه وتهدد بعدم اتمام الصفقة يغير الاراجوز رأيه ــ مؤقتا ــ ويسميها صبية ، ثم ينسى هذا التنازل ويسميها «العجوزة» ويعود فيسحب الصفة المكروهة تحت تهديد من نوع آخر ، تهديد بأن « تردح » له الخاطبة مبتدئة بعبارة : « والله ما عجوز الا انت » وفى رأسها سلسلة طويلة من الشتائم يعرفها الاراجوز جيدا ، وتعرض لها مرارا من نسوة عجوزات من أمثال الحاجة مبروكة . لذلك يكون الانسحاب السريع .

ويبدى أبو ريدة فى هذا المشهد الفطنة ذاتها التى يبديها الاراجوز ازاء من يحاولون انتهاز الفرص لسلب ماله أو الضحك عليه بوسائل مختلفة ، لا يستحى أبو ريدة من الموقف ــ موقفه بوصفه خاطبا يهمه حسن التأثير فى الخطيبة والخاطبة معا ، وانما يطالب بواقعية شعبية صريحة بأن تعيد له مبروكة رياﻻته الخمسة ، بعد أن حصلت على أجرها من الخواجة نخلة ، ولا ينطلى عليه ما تحتج به مبروكة من أنها لن تهرب بالريالات ولن تأكلها ، ان « أبو ريدة » رجل فطن ، لايقرض أحدا ، ولا ينقذ مبروكة من لسانه السليط ومطالبته الملحة سوى تدخل نخلة ، الذى يعوض أبو ريدة عما فقد من مال .

وتدخل كعب الخير فى المشهد السادس ، وبظهورها تزداد الفكاهة فى المسرحية ، فهى تصر فى عناء لايتزحزح على أن ترفض الزواج من «أبو ريدة» ويقول لها هذا انه سيعطيها ثلاث فرص للموافقة بأن ينادى ــ كما يحدث فى المزاد ــ الا اونا ، الا دوه ، الا تريه. ولكنها لاتزحزح ايضا ، حتى بعد النداء الثالث ، ويفك أبو ريده شال عمامته ويعطى طرفيه لمبروكة وكعب الخير بعد أن يلفه حول عنقه ويطلب اليهما أن تجذبا الشال فتفعلان ، حتى يتدلى لسان أبو ريدة من وشك الاختناق ، كل هذا وكعب الخير سادرة فى دلالها ، لا تلين .

لا تنهار مقاومتها الا حين يدخل أبو ريدة المطبخ ثم يعود ومعه سكين يهدد بقتل نفسه بها ، اذ ذاك تتأكد كعب الخير انه يحبها فعلا وتوافق على الزواج به ، وسط تهانى بمبه ونخلة ، وتعليقات مبروكة اللاذعة المتعجبة ، لان حبا قويا كهذا « الحب الجد بتاع قدبم الجدود » لا يزال موجودا حتى الآن .

وتنتهى بهذا المشاهد الاراجوزية فى مسرحية : أبو ريدة وكعب الخير .

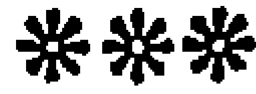
غير أن هذه المشاهد ليست كل ما فى المسرحية من عناصر ، فرغم ان جانب الترفيه فى المسرحية يحتل الجزء الاكبر منها ، فان صنوع لا يهمل النقد الاجتماعى فى مواضع كثيرة منها .

أبو ريدة بنقد تصرفات « السماسيلات » صديقات بمبة ، اللواتى لم يسألن عنها فى فترة مرضها ، فلما شفيت ، عدن للزيارات الكثيرة ، واحدة تأتى فى الصباح ولم يشرب أهل البيت القهوة بعد ، وأخرى تأتى قبل الغداء لتتغدى ، وثالثة قبل العشاء لتتعشى ، كأن البيت تكية .

كذلك يرسم أبو ريدة صورة لسوق الخضار بما فيه من خدم وطباخين وكمريرات وجزارين « افرنجى » ، ويشكو من أن باعة الخضار قد بالغوا فى الاسعار ، وان واحدا من الخواجات « ببرنيطة طويلة زى البلاص » قد خطف منه خستين ، فضربه أبو ريدة وقامت معركة كاد أبو ريدة يذهب بعدها الى السجن ، فقد امسك به « قومسيونجى نصرانى » ولولا تدخل ابن عم أبو ريدة ، الذى يعرف لغة هذا القومسيونجى لحدث ما لا تحمد عقباه ، فقد تفاهم مع القومسيونجى وأوضح له ان الحق على الخواجة سارق الخس !

وتنتقد كل من بمبة ومبروكة الخادمة كعب الخير ، لتعاليها على أبو ريدة ، بدعوى انه بربرى ، بينما تكشف مبروكة تمنع بمبة عن الزواج من نخلة ، وتوضح انها تحب نخلة من زمن وتدعى فقط انها لا تعرفه .

فعنصر النقد الاجتماعى الذى يدخله صنوع فى سائر مسرحياته ليس مهملا هنا ، وان جاء عرضا ولم يقصد له أن يبرز فى هذه المسرحية الترفيهية .



على ان أهم ما فى هذه المسرحية ـ بالنسبة لمستقبل الكوميديا ـ انما هى البراعة الفائقة والرقة الكبيرة التى صور بها صنوع شخصية الخاطبة ، مبروكة وهى أنجح شخصياته على الاطلاق واكثرها قدرة على الاقناع.

تدخل مبروكة علينا دخولا قادرا ، ولا يزايل المسرحية حضورها القوى حتى النهاية .

ما أن تطلق النداء الشعبى المعروف : « دستور يا أصحاب البيت » ويؤذن لها فى الدخول ، حتى يروح لسانها النشيط يتناول كل شىء بالوصف والتعليق ، تقول لصاحبة البيت بمبة :

مبروكة : (تدخل) يوه ، دا أنتى ياعينى بسم الله ما شاء الله ، يا صباح النور عليكى ، ازيك ياست بمبة ، بعد الشر عليكى ، كنا سمعنا انك من غير شر ، العدوين ما انتيش ناصحة ، أزيك دلوقت ، مش أحسن ؟

وتشكرها بمبة بكلمتين ، فتمضى مبروكة فى اطلاق الالفاظ والعواطف والافكار من رشاش فى فمها لا يهدأ ابدا ، تبدأ بتملق صاحبة البيت ، والتقرب منها لتصل الى الموضوع الذى قدمت من أجله وهو تزويج بمبة من الخواجة نخلة :

مبروكة : الصلا على النبى أحسن . ده نهار مبارك ، والله لو كنت منك ياستى لاعلق لى حتة شبه واتبخر بفاسوخ لاجل ما تخزى العين عنك ، لان اللى صابتك يا كبدى دى عين يا قلبى ، لما بتخرجى والناس بتشوف وشك ده اللى زى طبق الورد بتشهق فيه العين ، يخى الله يجازى ولاد الحرام ، يعنى بيجيلهم ايه من الاذيه دى ؟ يا ترى راح يخسروا حاجه ان كانوا يصلوا على النبى ؟ والله بركه ياستى اللى قمتى بالسلامة ، ده ألف نهار أبيض اللى كدتى العدوين وخطرتى فى قصرك مثل عاداتك ، دانتى ياعينى مالكيش حبايب ، يخى ربنا أولا ومطلع لكى ، ياعنى انتى عاوزاهم فى ايه ؟ خيرك بزيادة وبيتك مخزون من كله ، ربنا يجعله عمار بحسك ولا يحرمنى من شبابك يارب .

وتنتبه بمبة لهذه الاشارة الى « خيرها » وما تتضمنه من استعطاء فتقول وهى راغبة فى أن تسهل صفقة مشتروات للحاجة مبروكة (١) .

بمبة : انتى نسيتى تجيبى لى فاتورة الحرير اللى

---

(١) مبروكة ، كما هى الحالة مع كثيرات من أهل مهنتها ، دلالة الى جوار أنها خاطبة .

قلت لك عليها ؟

مبروكة : يوه ، أنسى ازاى ؟ لا هو أنا عنـدى أعز منك ؟ دى معايا من نهاريها ، أنا رحت أجرى على وشى لما جبتها ، بس كان المدهول على عينه عيان (١) ، يارب خلصنى منه بسـاعة رضـا ، على خير ، وان ما كنش المسخم على عينه يابنتى ما كنت جبتها لك من نهـاريها « تديها الفاتورة » اهه ياستى اتفضلى، شوفى البنفسجى ده ، يا محلاه ، والا الاخضر ، اسمعى كلام أمك الحاجة وخدى لك من كل لون بدلة ، ده صاحبهم راجل طيب وأمير ويتوصى بك .

وهنا تكون مبروكة قد وصلت الى منطقـة الهدف الثانى والاهم ، صفقة زواج بمبة ونخلة فتحول الحديث متعمدة من البضاعة الى صاحب البضاعة :

مبروكة : يوه دا تاجر مشهور ، دكانه فيها من كلشى وعنده سبل وبرشات ، ده ما فيش أخوه فى الحمزاوى فاتح اربع دكاكين .

بمبة : طيب اقطعى لى من كل واحده تلاتين دراع ، بس خليه يكيلهم لك طيب ويقول لك على آخر سعر .

وتجد مبروكة ان السمكة لم تلتقط الطعم بعـد ، فتقبض عليها قبضا وتوجه نظرها اليه .

مبروكة : يوه ياعينى من جهة السعر ما تفتكريش ، انتى عارفاه هوه مين ؟

بمبة : لا ما اعرفوش .

مبروكة : ولا تسألنيش يا عينى عنه ؟

بمبة : اسألك ليه ، أنا مستخوناكى ؟

مبروكة : يوه ، مش قصدى ، أنا باقول لك تسألينى

---

(١) لاحظ الواقعية فى هذا الموقف التقليدى الذى تتخذه بنت البلد من زوجها : الحب الذى يحمل شكل الكراهية السطحية .

لانك لما تسمعى الاسم تعرفيه .

بمبة : ليه هوه قريبى ؟

وعند هذه الكلمة المشجعة : « قريبى » تقفز مبروكة الى هدفها مرة واحدة :

مبروكة : ماهوش قريبك ، لكن فى نفسه يقرب لك خلينى أقول لك عنه وافهمك بالعبارة ، بقى التاجر ده انتى تعرفيه كل المعرفة ، ده الخواجة نخلة .

بمبة : ايوه احنا بنتقابل فى السهرات .

مبروكة : حكى لى ياعينى بكله ، وقال لى انه يحبك بكل قلبه .

وترد بمبة ببرود متعمد ، لتستفز الحاجة مبروكة الى مزيد من الكلام :

بمبة : كتر خيره .

مبروكة : كتر خيره وبس ؟ دا راجل عدل الحبايب ، تدخلى بيته تلاقى دا الجوارى ، ودا الفضى والمرايات ، وفرشه ياعينى أسطوفة حرير تفرق فيها النارنجة ، واما ياعينى الخزاين فيهم المكسرات بالفرد ، وأمه دى خليها على جنب ، تتحط على الجرح يبرد ، ست أميرة حلاوة الدنيا فيها ، ولسانها بينقط شهد ، واذا قعدت ياستى ساعة وياها ما بدكيش تفارقيها العمر كله ، يا بخت اللى تتجوزه وتعاشر أمه ، تبقى عيشتها هنية . وهو التانى والنبى يا بنتى ، وحياة من يأمنك على شبابك ونور عينك وعافيتك انه جدع زى عود الخزيران ولسه ما دخلش دنيا وشاب صغار ، ويهنا لك . بقا اسمعى نصيحة أمك الحاجة ، الولية الغلبانة اللى قدامك اللى ما تعرف تحت ربها حيلة ، وحياة اولادى يابنتى أنا أريد لك كل الخير .

ويأخذ كلام الحاجة يؤثر فى بمبة ، فتبدأ فى التقليل

من مظاهر التمنع ، وتطول عبارتها فى الرد على الخاطبة :

بمبة : الخواجة نخلة فى الواقع راجــل عظيم ، انما أنا مابديش أتجوز

ولــكن مبروكة لا تابه بهذا التمنع الضعيف ، وتمضى قدما كى تستخرج الموافقة :

مبروكة : ده حرام عليكي يا بنتى ، أنتى لسه شابه صغار وما فرحتيش بالدنيا ، اقبلى علشان خاطرى ، وتعاودى تقولى الله يسترك يامه الحاجة ، وتبقى تذكرينى بالخير ايوه .. ايوه .. انا شايفه من عينيك انك راضية وقلبك مايل له ، شوفى وشك احمر ازاى لما ســـمعتى سيرته ، وأنا كمان قلت له ييجى هنا بحجة الفواتير ، ديكى الســـاعة أكون أنا حاضرة وان شـــاء الله يحصل النصيب على يدى ويبقى عليكى الحلاوة .

بمبة : أنا ما احبش أكسفك يا امه الحاجة .

وحين تنتهى مبروكة من اتمام هذه الصفقة ، وتدخل بمبة لتتزين تمهيدا لمـلاقاة الخطيب ، تطلق الخاطبـة لسانها بالتعليق على مسلك بمبة :

مبروكة : دى عذبتنى ونشفت ريقى ، وهيـــه زى الولاد الصغار ، أجيبها من هنا تروح من هنا .. باين عليها بتحبه من زمان ، ما صـــدقت لما قلت لها ، قال وكانت عامله روحها ما هيش عارفه ، يوه من النسوان وحيلهم وتقلهم .

ثم نتبين ان الحاجة مبروكة هى فعلا « بنت فن » ، كما تسمى نفسها ، فقد ادمت للخطيب ان بمبة تميل الى آخر ، فجن جنون نخلة ، وأخذ يعدها بالعطاء الجزيل لو هى أتمت الصفقة .

والى جوار ما يجلبه لها فنها من عائد مادى ، نجد مبروكة مهتمة بهذا الفن من اجل ما يسبغه عليها من لذة

الاداء الناجح ، ان مبروكة ـ شأنها شأن كل خاطبة مقتنعة بمهنتها ـ تجد مسرة وراحة فى كل مرة تقرب فيها بين رجل وامرأة ، مثلما يجد الفنان لذة فى أن يخرج للناس عملا ناجحا ومقنعا .

ان الزواج ومن ثم الحب ، هو موضوعها ، ولها مصلحة معنوية كما هى مادية فى أن يجرى قارب الحب والزواج فى ريح رخاء ، من أجل هذا تتأثر مبروكة تأثرا واضحا بالحب المخلص الذى يبديه أبو ريده لكعب الخير ، وتحث الاخيرة على أن تقبل خطيبها قائلة :

مبروكة : ادى الحب الجد بتاع قديم الجدود . شوفوا ازاى رايح يموت نفسه .. (الى كعب الخير) ارضى بقى يا بنت الزربون ، جاتك داهية .

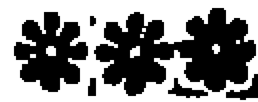
***

هذه هى الشخصية القادرة التى رسمتها ريشة صنوع ونفثت فيها حيوية كبرى ، تنبع من دقة ملاحظة الفنان للناس من حوله ، وقدرته على رسمهم عن طريق التعمق فى نفوسهم ، ومواجهتهم ببعضهم فى مواقف واضحة منتزعة من الحياة ، ثم ادارة الحوار بينهم ـ الحوار العاطفى واللفظى ـ فى نغمات نتبين على الفور رنة الصدق فيها .

ان نجاح صنوع فى خلق الحاجة مبروكة ، كان ايذانا بميلاد الكوميديا الاجتماعية المصرية .

ولنذكر انه قد سواها بكل هذا القدر من الاقناع ، ولا سوابق لها أمامه فى أدبنا المصرى ، اللهم الا خاطبة ابن دانيال المسماة : أم رشيد ، وهى لا تتفق مع مبروكة الا فى الحرص على المال ، واتمام الصفقات ، وان كانت الصفقات فى حالة أم رشيد مريبة ، ذلك انها من النوع الذى يجمع بين الوساطة الشريفة وبين القوادة .

وفيما عدا هذا تبدو أم رشيد ــ كشخصية ــ مجرد دمية بالقياس الى مبروكة ، ينقصها حيوية الاخيرة ، وحيلها التى لا تنضب ، ونفاذ نظرتها فى النـاس وفى الاشياء الى جوار روح الفكاهة الواضحة الذى تتمتع به وهذا فارق كبير أضيف الى رصيد الـكوميديا المصرية بفضل صنوع .



الى جانب مبروكة ، نجح صـنوع فى خلق كثير من شخصيات الـكوميديا الشعبية التى عرفت طريقها من بعد الى مسرحنا ، وان كانت ــ ربما باستثناء نعمة الله الشامى ــ أقل جودة وعمقا من مبروكة .

والخواجة نعمة الله ، هو الشامى الفحل ، الشـهم ، الطيب القلب السريع التصديق ، المندفع ، المتمسـك بالقيم الشريفة ، الحريص على مصالحه المادية مع كل هذا ، لا يفرط فيها لانها تعادل روحه ، هو الشـامى التقليدى الذى شق طريقه ــ بعد هذا ــ بنجاح فى اعمال فنية كثيرة فى مصر ــ فى المسرح والسينما معا .

وصنوع يعرضه ليضحك معه ، ويضحك منه فى وقت واحد .

حينما تلقاه فى مسرحية « الصداقة » نجده ــ كما ينبغى لكل فارس مثله ملىء بالحياة والعـاطفة ــ غارقا لشوشته فى غرام امرأة نصف اسمها صفصف . ما أن يلقى ابن أخيها نجيب ، حتى يروح يتمدح به لانه من « رائحة الحبايب » :

نعوم : ما ألطف زيتك ، وما أظرف شويربك ، ولك ، الله يحفظك لبيك نعمة الله .. وين عمة جنـابك حتى داعيكم يصبح عليها ، كيف مزاجها الشريف ! عسى الله تكون بخير .

ويطمئنه نجيب على صحة عمته ، ويعرض عليه أن يستدعيها له ، فيسارع نعمة الله بمنعه :

نعمة الله : ما يلزم تتعب خاطرك ياخواجة نجيب ، خليها على راحتها تتزوق وتتزبرق وتحط ها الرشـوق وتصير تحفة لمن ينظرها ، موهى شابة ؟

وينفرد نعمة الله بنفسه فيشكو تباريح الغرام ٠

نعمة الله : حقا اللى سماها صفصف ما غلط ، لان من ساعة ما شفتها لوقتنا هذا حاسس بعقلى مصفصف وقلبى متولع ولا باعرف أساوى لا شغل ولا مشغلة ، حتى اجانى اكم شـوال فستق ، الله وكيل ما عرفت اصرفهم ، وطول النهار ما بافتكر الا فى صفصفتى وبالليل ما باحلم الا بها ، ايه ، هيه صارت تجارتنا على الحال اخيرا ، أولة امبارح شفتها فى المنام كأنها بدر .

أنا سامع ، الله وكيل ، حس جاى لهونى ، لابد انها صفصفتى ، ما تدق يا قلبى تانشوف اذا احمـر وجهى لان عند ما تقترب لهونى باصير خجلان ومستحى (يطلع مرايه من جيبه وينظر فى وجهه) فى الواقع وجهى صار احمر مثـل الطربوش اللى على رويستى ٠٠ أما اليـوم لازم اعمل لى شو شقفة جراعة واكلمها هيكى بدون خشو وخجل ، واقول لها مثلا ، دخلـكم ، شو بدى أقول لها ؟ ايه ، وقت الله يعين الله .

وتدخل المتصابية صفصف فيستقبلها نعمة الله هذا الاستقبال الفحل ، الحار :

نعمة الله : ايه ، نهارك سعيد ، نهارك أبيض ، نهارك زى الحليب ، نهارك زى القشطة ، يا صباح النور ، يا صباح الهنا والسرور ، حلت علينا البركة (فى نفسه) ان ما كانت دى جراعة ، الله وكيل ما باعرف الجراعة شو حالها ، الا خبرونى ، الجراعة مو هيكى ؟ (الى

صفصف) ازاى جنابك ؟ عسى الله تكونى حايزه الصحة التامة ، أنا ما باسأل الا عن صحة جنابك ، وهاده كله من دعايا ، الله بيعلم أنا من لحظة الى لحظة باطلب لك من ربنا بأن ينعم عليكى بما تريديه .

صفصف : كتر خيرك ، القلوب عند بعضها .

نعمة الله : يحرس لى تمك .

صفصف : ايه ؟

نعمة الله : (فى نفسه) وينك ياجراعتى ؟ بيساعدنا الله (الى صفصف) الله وكيل و .. آيه مو رق قلبك علينا ؟ الا قولى لى : عندك رجال مثل حكايتنا أطيب ، ولا الجدعان اللى بيتمعشقوا بدون جنس فايدة ؟ احنا رجال تمام ، ما بدنا الا فى الحلال .

ويمضى صنوع فى تصويره لشخصية الشامى : فى لهفته على تجارته يوضح كم هو حريص على أن يزوج ابنة إخت خطيبتــه من خواجا انجليزى لا يعرف عنه شيئا ، لمجرد أن هذا الاخير وعده بأن يفتــح له محلا تجاريا يكون فرعا لتجارته الواسعة فى انجلترا .

وفى حرصه على مصلحة وردة ابنة خطيبتــه يسب خطيبها ويتهمه بالخداع لانه لم يعد يراســلها ـ يفعل هذا دون أن يتحقق مما حدث فعلا ، فلمــا يتبين ان الخطيب برىء يكون اعتذاره المندفع أيضا ، الذى ينقل به الخطيب من النقيض الى النقيض :

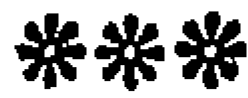
نعمة الله : دخلك تســامح داعيك على السب اللى سبيته لجنابك ، أنا رايح أشيلك من جهنم وأوضعك فى الجنة .

ولكن نعمة الله ـ الى جانب فضــــائله الـكثيرة ـ قليل الذكاء الى درجة ظاهرة . حين يتبين للجمـــيع ان الخواجا الانجليزى انما هو نعوم ، خطيب وردة ، قــد

جاء من انجلترا متنكرا حتى يمتحن اخلاص الخطيبة ، يسال نعمة الله فى سذاجة :

نعمة الله : بحضى ما فهمت ها الصورة ، هادا ملعوب جميل ، ايه ، هيكى المصريون والانجليزون والاثنان يربحان كأن كله كلام زور ولا طيب ؟

وهكذا ولد فى مسرحنا هذا النموذج الاصلى الطيب لشخصية الشامى ، وهى التى عرفها مسرح الكوميديا المرتجلة من بعد باسم الابضاى ، ولم تلبث أن وجدت لها فنانين قادرين كثيرين يؤدونها لعل أفضلهم جميعا قد كان الفنان الراسخ القدم : بشارة يواكيم .



الى هاتين الشخصيتين البارزتين ، أضاف صنوع شخصيات أخرى انتزعها من الواقع المحيط به ، واصبحت فيما بعد نماذج تتردد كثيرا فى الكوميديا الشعبية .

هناك طائفة من الخدم ، المتنوعى الطباع والجنسيات يقف على رأسهم الخادم سعد ، فى مسرحية « العليل » خادم كثير الحركة ، فصيح اللسان ، لا يتردد فى التعليق على السادة ، ما دام أمر هؤلاء لا يعجبه .

وهو يعمل فى خدمة طبيب أرمنى فى حمامات حلوان، ومهمته الرئيسية استقبال الزبائن ، وتلقى عطاياهم .

يرى سعد احد هؤلاء الزبائن مقبلا ، فيقول :

سعد : بدينا وبدى الخير علينا ، اهه واحد افندى داخل بترابه وعفاره ، لما نروح نستابله ، أمال ايه ؟ .. احنا البقشيش ما بينقطعش من جيبنا .

ويتبين أن القادم مصاب بالفأفأة ، فيتحول استقباله الى مشهد هزلى من النوع الذى تهش له الكوميديا الشعبية .

القادم اسمه الياس ، وهو يدخل محاولا أن يقول :

الياس : (يدخل ومعه صندوق ماسكه فى يده) صا. صا . صا . صا . با . با . با

سعد : ها . بقى المرحوم بابا مات صبابا ، وحضرتك انقهرت عليه وتشوشت وجيت تطيب هنا .

الياس : لا ، لا ، صا ، صا ، صا ، با ، با ، با ، ح الخير . صباح الخير .

سعد : (فى نفسه) دا المسكين ، ألكن (الى الياس) اماماية حلوان تفك لسان المربوط .

الياس : الحا ، حا ، حا .

سعد : جينا ســـوق الحمير (الى الياس) حضرتك جيت راكب حمار . يعنى حا ، حا .

الياس : لا ، لا ، الحا ، حا ، حا .

سعد : الحارة ، بدك تقول والا الحاصل ؟ ما تفسر .. الخ .

وبين هؤلاء الخدم ايضا جودة فى مسرحية « العليل » وهو النوع البلدى ، من الخدم ، النوع الذى يؤمن بانه وسادته فى صف واحد ، بحكم العيش والملح فمصلحته مصلحتهم ، وهو حريص على مصلحة السادة بطريقته الخاصة ، فهو مثلا ينصح صاحب الدار العليـــل بان يستعين بسحر الشيخ على بدلا من اضاعة الوقت والمال على الاطباء .

ومنهم الخادم المصرى « المسخة » شبـــه الريفى فى شكله ومزاجه ، وفى تطلعه غير « المشروع » لمن هم أحسن منه ، وتصـــويره الفكاهى لاناس يراهم ولا يقرهم ولا يستطيع أن يفهمهم وهؤلاء يمثلهم حسنين فى مسرحيـــة « الصداقة » فهو ـــ على هيئته الزرية ووضاعة حاله ـــ يعشق الخادمة الاوربية كارولينا :

حسنين : (ينظر كارولينا ويقول فى سره) ماشاء الله يا دهوتى على جمـال دى البنت ، دا ايه دا ، شيء يجنن ، يارب تكون عشقتنى زى ماعشقتها ، يخى انت مجنون يا واد ، بالله رايحه تعشـق فيك ايه ؟ وانت مسخة ، يعنى لو كان ربنا خلقنى سنيور ببرنيطه من اللي يبقوا زى البـلاص على الراس كان يجرى ايه فى الدنيا ؟ كنت أقول لها : سنيوره ، بونو ، بونو ، وهى ترد على بحسها الجميل وتقول لى : كرسى ، كرسى..

ومن هؤلاء الخدم ـ أخيرا ـ الخادم « الموليبرى » ، الذى تنحصر مهمته الرئيسيـة فى أن يؤتمن على سر غرامى بين الشخصيات الشابة فى المسرحية ، وأن يوصل الرسائل بينها ، وأن يشرح للجمهور بعض نقاط القصة المسرحية ، وهؤلاء يمثلهم فرج فى مسرحية « بورصـة مصر » الخادم ، الطباخ ، الذى لا يعجب لا البوابين ولا الخادمات الاوربيات .

ويستكمل صنوع مجموعة الخدم فى مسرحه بالكامريرا كارولينـا ، فى مسرحيـة « الاميرة الاسكندرانية » واللاونجية تريزه فى مسرحية «بورصة مصر» ويستخدمها لاستحداث مفارقة مضحكة بينهما وبين الخدم الرجال من أهل البلد ، مفارقة قوامها البون الواضـح بين حال الخادمين وحال الخـادمتين . واحداهما ـ كارولينا ـ شديدة الطموح ، ترمى الى أن تتزوج من أحد السادة الاجانب ، بعد ما جمعت من ثروة فى مدى عام واحد . والثانية تيريزه ، تكتفى باحتقـار الخادم فرج وتراه « وخش زى الـكنزير » .

ثم جرسون يونانى يظهر فى مسرحية « البورصة » واسمه ينى ، وهو لاشك الجد الاول لشخصية اليونانى التى أصبحت أحد مصادر الفكاهة المعروفة والمعتمدة فى

الـكوميديا الشعبية .

وهو لا يظهر فى المسرحية الا ليقول جملتين اثنتين ليس فيهما أى أثر للفكاهة ، ولـكن صنوع التفت الى ماتحمله شخصية اليونانى من كوميديا بوصفه خواجة حشرى ، أو خواجة وابن بلد معا ، يعيش عادات البلاد ويعرف الـكثير عنها ولـكنه لا يملك الا تعبيرا عاجزا عما يعرف وذلك فى مسرحية « الاميرة الاسكندرانية » ، حيث يقدم لنا شخصية الطبيب اليونانى خرالمبو ، الذى استدعى ليعود صاحبة البيت ، الزوجة المتحكمة مريم . والمشهد يدور بين خرالمبو ومريم وزوجها ابراهيم ، وفيه يضع صنوع أسس الاستغلال الكوميدى لشـــخصية اليونانى التى امتدت بعده لتشمل المسرح الكوميدى الشعبى حتى أيامنا هذه .

من أول الاسم اليونانى الذى يوحى فى العربية بأشياء واضحة الى العربى المـكسر الممزوج بعبارات يونانيــة شائعة ويعرفها الجمهور الى الحمــاس فى الخدمة ، والرغبة فى تخطى الحدود لادائها ، الى الادعاء المضـحك بأن اليونانى فصيح فى الواقع ويعرف العربية تماما .. كل هذا نجده فى المشهد التالى ، الذى يصحبه فاصل من الردح المنفرد والمهموس يقدمه الزوج المغلوب على أمره ، ابراهيم :

خرلبو : (الى مريم) سباك الـكير ياستى .

مريم : يسعد صباحك .

ابراهيم : (فى نفســه) ماكانش ناقصنا الا الرومى ده (الى الحكيم) اتفضل ارتاح .

خرلبو : افا خاريستوه

ابراهيم : من فضلك اتكلم عربى .

مريم : (الى الحكيم) ايوه لان الخواجة من ســوء

بخته ما يعرفش الا لسان العربى .

خرلبو : معلهش ، أنا كمان اعرفوا اتكلموا ويا هوه بالعربى ، أنا اتعلمت طيبين الـكلام بتاع هوه ، أنا عارف اقرا واكتب بولى كلاه .

ابراهيم : انت رجل شـاطر وتتكلم عربى فصيح . (فى نفسه) زى الزفت واسخم .

خرلبو : (الى مريم) خضرتك أخسن النهارده ؟.. وريني اللسان بتاع انتى .

ابراهيم : حقه يا أخى ، لسانها طولها ، لانها لما نزلت من بطن أمها الداية سحبتها منه بتخمنه ديل .

مريم : (تخرج طرف لسانها) ماهوش نضيف ؟..

ابراهيم : (فى نفسه) هوه يبقى فى الدنيا أظفر من كده ؟..

خرلبو : (الى مريم) افتحى فمك شويه سياده وطلأ اللسان بتاع انتى بره كالص كالص .

مريم : (تفتح فمها الى آخره) كده طيب ؟ ..

خرلبو : ايفا . اوه ، فى الفم بتاع انت خرارة كبيرة.

ابراهيم : (فى نفسه) والله ما صدقت الا فى ديه .

مريم : (الى الحكيم) والعمل ايه ؟

خرلبو : واكده شربه زيتكروع وبالليل اتنين خوكنة. فهمت ؟ وموش تكرج النهار دى .

ابراهيم : (فى نفسه) لك الحمد يارب .

مريم : (الى الحكيـم) لـكن أنا كنت عاوزه أروح القونصلاتوا مع العرسان .

خرلبو : أكسن انت افضـل فى البيت ، الـكواجـة ابراهيم يروح مع همان ، وأنا كمان دلوقت لازم يروح عند مدام القنصل. ايه ؟ هيا عيان وكده أناكول للقنصل حضرتك موش ...

مريم : (الى الحكيم) كتر خيرك .
ابراهيم : وشكر الله فضلك .
خرلبو : لا موش تخت خير ، انا خبيت بتاع انتم ، وأنا لازم أعمل انتم معروف . بكا مدموازيل رايخ يتجوز مع واخد جدع كويس .
مريم : حضرتك تعرفه ؟
خرلبو : من زمان .
مريم : وتعرف أبوه ؟
خرلبو : أبوه خبيب بتاع أنا .
مريم : هوه راجل عظيم ، هوه كونت ، يعنى باشا .
خرلبو : مين باشا ؟
مريم : أبو العريس .
خرلبو : ياستى انتى جلطان كتير ، كتير ، كتير .. أبوه كان واخد نجار زجيرين موش باشا .
ابراهيم : (فى نفسه) آدى اللى رايح يفسد اللى عملناه (١) .

ونستكمل الحديث عن معرض الشخصيات الشعبية التى قدمها صنوع وأصبحت من بعد جزءا من الكوميديا الشعبية بالحديث عن المغربى الكذاب : الشيخ على .

والشيخ على له نظير قوى أكثر فصاحة وأكبر اقناعا كدجال يستخدم كلمات الله وأقوال نبيه وذكر الصحابة ليوهم الناس بأنه يملك علما خاصا به ، لا يريد ـ ولا ينبغى ـ أن يكتمه ، مخافة الله . ذلكم هو عواد القراماطى فى بابة ابن دانيال : « عجيب وغريب » .

«١» السر ان عديلة ، ابنةمريم ستتزوج حبيبها متنكرا فى زى ابن كونت وذلك لان أمها تعارض زواجها من رجل عادى . لاحظ كيف أن خرلبو باندفاعه ، وحبه للصديق ، ورغبته الدائمة فى اقحام نفسه فى شئون الغير يكاد يفسد الطبخة على أصحابها .

غير ان عواد هذا يؤثر فى الناس بالفاظه وصورته فقط فهو صورة معلقة على الجدران ، أو أخرى تظهر على شاشة .

أما الشيخ على ، فقد ترك الجدار والشاشة معا ، وتجسد فى شخص بشرى يحدث النـاس ويحدثونه ، ويملك زمام الامر فى موقف مسرحى كامل الابعاد. يدخل الشيخ على على الموجودين ومعه الخادم جودة الذى يؤمن به ويسحره . اما الموجودون فهم العليل حبيب ، وابنته هانم ، وحبيبها مترى . يدخل الشيخ على فيقول :

على : السلام على من اتبع الهدى .

مترى : تفضل يا شيخ .

حبيب : اجلس يا والدى ، ارتاح .

على : الله يحفظك يا ولدى ويجعل شفاك على يدى .

جوده : آمين يارب .

على : (ينظر حبيب) هه يا ولدى ، أصابتك مصيبة وحصل لك منها ألم ما هو كده يا ولدى .

جوده : ايوه ، أخو الخواجه توفى (الى مترى) شفت ازاى عرف أن أصل تشويشه ناتج من غمه ؟

مترى : (الى جوده) كل الناس اللى يكون لهم نظر يفهموا من وجه الخواجه حبيب كونه مغموم .

جودة : طيب، من صبر نال دلوقت تشوف شطارته.

على : (الى حبيب) انت يا ولدى كنت تعز أخوك ؛ ووفاته كسر فى قلبك ، فحين جالك الخبر الشنيع فى البراوا ماقلت استغفر الله، تقاسى عليك وركبك الشيطان اللعين ، بقى صلى على النبى يا ولدى ياما أفنـديه ، وبهوات ، وبشوات غلبت فيهم الاطباء ، وصرفوا أموالهم يا ولدى من غير فايده ولا نفع ، ولله الحمد ما حصـل لهم الشفا الا على يدى ، لان احنا يا ولاد العرب لنـا

أسرار ما يعلمها ابن مصر ، لانى أنا ما بانام الليل ، باسهر ، براعي النجوم ، وأحسب سيرها ، واقرأ واعزم وأحضر الشيطان ، ولد القران خصمك ، وانده ما أريده منهم ، لان لى مقدمة عليهم يا ولدى ، والبعض منهم أسرجنوا ، لانه ما حد يعرف أسرار سيدنا سليمان عليه السلام وكتابة خاتمه وحبس الشياطين بالقماقم النحاس غير العبد الفقير .

مترى : (فى نفسه) أما دى لهجة عجيبة ، وأنا لو كنت حاكم كنت أسرجنوا زى ما بيسرجن العفاريت .

حبيب : (الى على) طيب بس فهمنى من فضلك . يا ترى عندك دوا المرض ده ؟

جوده : وأذا كان الحاج على ما عندوش دواك يبقى عند مين ؟ بس انت اتوصى به .

حبيب : روحى ، بس يطيبنى .

على : بقى صلى على النبى يا ولدى ، وقول لى شو عملت لنا لان البخور غالى فى الايام دى يا ولدى .

حبيب : أعطيك اللى تطلبه .

على : يا ولدى احنا موش ناس طماعين ، أقل الشيء يكفينا ، هات لنا جنيه دلوقت ، لما يحصل الشفا تبقى أنت وجودتك .

حبيب : (يضع يده فى جيبه ويعطيه جنيه) خد اهه جنيه .

على : فقط لى عندك سؤال يا ولدى ، المريض ينبغى عليه أن ينذر نذر يوفيه عند شفاه ، بقى انذر يا ولدى على نفسك بأعز ما عندك ، والله يقبل ندرك .

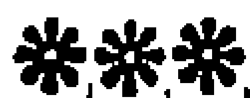
حبيب : أنا ما عندى أعز من بنتى ، ندر على قلبى انى اجوزها لمن يشفينى .

على : (الى حبيب) شفت يا ولدى ، احنا فهمنا

داءك ، من دون أن نعمل أمر دجل مثل الرمل والودع وغيره ، انت ابعت لى بكره فى الصباح خدامك جوده ، نعطيه حجاب توضعه على صدرك بدون أن تقرأه ؛ ونعطيه كمان ورقة بخور تحرقها ، وتتخطى عليها سبع مرات ، وتقول : سامحونى يا اهل الجن اذا قاسيتكم ؛ وارفعوا غضبكم وارحمونى ، فيحصل حالا الشفا ، ويبقى الحاج على يستاهل الحلاوة. السلام عليكم (يخرج)

وواضح من هذا المشهد ان شخصية المنجم قد وضعت هنا فى قلب موقف مسرحى فيه أخذ وفيه عطاء . فان الشيخ على لا يترك وحده كى يؤثر كلامه فى الموجودين على الخشبة والقاعة معا ، بل يعرض فنه للنقد على يد العليل حبيب ، الذى يوافق فى غير حماس على أن يستدعيه ، شاعرا بأن اللجوء الى أمثال الشيخ على أمر لا يليق باناس درسوا « الطبيعة والفلك والطب وما أشبه » . كما يتناوله مترى بالشك الواضح ، والاتهام الصريح بالدجل . أما هانم ، فهى تقف منه موقف : لعل وعسى ، ولا يؤيده تأييدا كاملا سوى الخادم جوده.

وهكذا يصبح الشيخ على شخصية درامية ، وليس مجرد طرفة مقصود بها بعض الاقناع وبعض الامتاع كما فى حالة عواد القرامطى فى بابة ابن دانيال .



ورغم ان انجاز صنوع فى حقل الكوميديا الشعبية هو أقوى ما قدم لنا ، واكثره اقناعا ، فان ما فعل فى مجال تقليد الكوميديا الاوربية ليس بلا قيمة ، فهو يستحق منا أن نلقى نظرة عليه .

يتركز الاثر الاوربى فى مسرح صنوع ــ وأثر موليير على وجه الخصوص ــ فى مسرحية «الاميرة الاسكندرانية» التى تستعير الموقف الرئيسى فى واحدة من مسرحيات

موليير ، تلك المسماة : « البورجوازى النبيل » ثم تعكس ذلك الموقف وتضيف اليه بعض ما يــرد فى مسرحيه أخرى لموليير : « جـورج داندان » من حـوار ونكات ومواقف ، فاذا نحن آخر الامر أمام عمل مسرحى يستند بشكل واضح على كوميديا موليير ، وان لم يخل قط من آثار واضحة للكوميديا الشعبية .

فى مسرحية : « البورجوازى النبيل » يتمسح السيد جوردان عضو الطبقة الوسطى ، بطبقة النبلاء ، ويثير على نفسه السخرية بمحاولة الظهور بمظهرها ، وعاداتها، وملبسها ، وطريقة لهوها وأساليب ثقافتها .

وتلومه زوجته على هذا التصرف الاخرق ، ولـكنه ينبذ نقدها ويصرفه عنه صرفا ، متهما اياها بأنها انسان جلف لا يفهم فى أصول التمدن .

وتحب لوسيل ، ابنة جوردان ، فتى يدعى كليونت ، ويحبها هو بدوره وتوافق مدام جوردان على هذا الزواج ولـكن الاب جوردان يرفض أن يزوج ابنته من حبيبها ، بدعوى ان هذا الاخير ليس من طبقة النبلاء .

ولا يجد الحبيبان آخر الامر بدا من خديعة الإب ، فيدخل كوفيل خادم كليونت على جوردان متنكرا ، فينبئه انه يعلم علم اليقين ان الاب ينتمى الى طبقـة النبلاء ، فان أباه ـ أبا جوردان ـ لم يكن تاجرا وانمـا كان يعطى الصحاب والمعارف بضاعة ويتلقى عنها مالا ، فهو اذن لم يكن تاجرا وانما كان نبيـلا ، ولهـذا فان جوردان نفسه هو من النبلاء .

ويهش جوردان لهذا النبأ ، فيمضى الخادم ليقول ان الباشا التركى له ابن يريد الزواج من لوسيل ، ابنـة جوردان ، فيوافق جوردان على الزيجة ، وقد زادته غرورا على غرور ، ولا يعبأ بكون ابنته أقسمت الا تتزوج

احدا غير حبيبها كليونت .

ويدخل كليونت ، متنكرا فى زى ابن الباشا التركى ، ولكن لوسيل تعرف فيه حبيبها ، فتوافق على الزواج منه ، وتلومها امها على تنكرها لحبيبها تتهمس لها بالحقيقه واذ ذاك ترضى الام وتوافق على الزيجة .. الى اخر حوادث المسرحيه .

وقد وضع صنوع يده على هذا الموضوع واستخدمه فى مسرحية : « الاميرة الاسكندرانيه » بعد أن أجرى فيه تعديلا واحدا فقط اذ جعل الزوجة مريم هى التى تتمسح بطبقة النبلاء ، وجعل الزوج ، ابراهيم يساند رغبة ابنته عديلة فى الزواج من حبيبها يوسف ، التاجر الصغير ، الذى لا يعجب الام لانه ليس نبيلا .

ثم استخدم صنوع الحيلة التنكرية ذاتها التى استخدمها موليير ليحمل الام على الرضى بزواج الحبيبين ، فانشأ فى مسرحيته « كونتا » فرنسيا وهميا اسمه « الخواجه لساناتور » وجعل له ابنا اسمه فيكتور . وأدخل يوسف — الحبيب — متنكرا فى زى ابن الكونت فحصل على موافقة الام .

وكما استنكرت الزوجة فى مسرحية موليير أن تتنكر ابنتها لحبيبها فهمست لها هذه بالسر وحصلت على رضاها ، يستنكر الاب ، ابراهيم ، رضى ابنته بالزواج من فيكتور ، حتى تطلعه عديلة على السر ، فيرضى هو الآخر ويدخل اللعبة فى سرور .

وفى مسرحية جورج داندان ، تبكت مدام دى سوتنفيل ، النبيلة المتغطرسة ، زوج ابنتها الضعيف ، جورج داندان ، لانه يناديها ب « ياحماتى » ، وتطلب اليه أن يناديها يا مدام ، لان من كانوا فى مركزه الوضيع لابد أن يتعلموا الادب بازاء من يفوقونهم مركزا .

كذلك يطلب اليه زوجها السيد دى ســـوتنفيل ان يكف عن مناداته باسمه ، ويناديه باسم « السيـــد » فقط وذلك للسبب نفسـه .

ولا يجد داندان مفرا من ان يمتثل للأمر ، وينادي الرجل قائلا : حسـنا ، أيها السيد فقط .. الخ .

ومثل هذا الموقف نجده ـ فى أساسه ـ فى مسرحية « الاميرة الاسكندرانية » حيث تبكت مريم ، الزوجـة المتطلعة الى النبلاء ، زوجهـا لانه ينـاديها ياستى ، وتنصحه بأن يقول لها : يا مدام .. فيرد عليهـا وهو نصف جاد ونصـف هازل : لا ياستى ، لا يا مدام ، مكررا نكتة موليير .

الى جوار هذا نجد ان تركيب مسرحية صنوع يعتمد النمط المولييرى أساسا : من أحاديث منفردة ـ نجـوى النفس ـ يشكو بها الزوج حاله ، ويعرض بأخلاقيـات الطبقة التى تتطلع اليها الزوجة .

ومن خـدم يعملون فى ايصـال الرســائل الغراميـة للعاشـقين ، ويتطلع بعضـهم للزواج من الآخر ، ومن تفاصيل أخرى فى التكنيك ، مثل التعليق الجارى على شكل أحاديث جانبية ، تستخدمها شخصيــة لنقـد شخصية أخرى .. الخ .

ويستخدم صنوع ما يقترضه من موليير لانتاج كوميديا انتقادية تقف ـ تقريبا ـ نفس الموقف الفكرى الذى وقفه موليير من الطبقات الاجتمـاعية ، فهو ـ كالمعلم الفرنسى ـ ينصح كل طبقة بأن تعيش فى حـدودها ، وذلك بعد أن يتناول كلا من طبقة النبلاء والطبقة الوسطى بالنقد الذى يرمى الى اصلاح المعايب ولا يصـبو الى تغيير الاوضـاع .

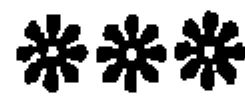
غير ان صنوع يزيد على هذا شيئا لا يجوز اغفاله فهو

يسمح لممثلى الطبقة الشعبية فى مسرحياته بشىء من التعبير عن وجهة نظرهم فى الناس والاشياء • يجعلهم ينقدون الخواجات ، والسادة الذين يعملون عندهم خدما نقدا فيه بعض اللذع والفضح (قد تقدمت نماذج منه)

ولكن استناد صنوع على الكوميديا الاوربية لم ينتج - مع هذا - شيئا ذا بال فنى مسرحه ، ربما باستثناء ما نجده فى « الاميرة الاسكندرانية » من موقف طريف بين زوج مغلوب على أمره وزوجة متسلطة حديثة النعمة ، وما ينتج عنه من فكاهة ، أصبحت فيما بعد جزءا رئيسيا من الكوميديا الشعبية المصرية .

وفيما عدا هذا ، فان تصوير صنوع للسادة فى مسرحه تصوير ضعيف ، فهم فى الاغلب الاعم اناس باهتون ، ثقلاء الظل ، ينطبق عليهم ما وصف به الشاعر الانجليزى اودين يوما ما شخصيات الروائية جين اوستين ، اذ قال ان رواياتها تصور العلاقات الغرامية التى تدور بين اكوام من المعدن (يعنى الشخصيات الحريصة على المال الى حد انها تتحول الى مال ولا شىء آخر) .

وانه لمما يشى بحب صنوع للشعب وقربه الحقيقى منه أن ينجح كل هذا النجاح فى تصوير النماذج الشعبية ويسبغ عليها عطفا ظاهرا ، ثم يفشل فى اقناعنا بالسادة والسيدات ، ويكون حديثه عن الحكام والخديو خاصة مجرد صوت عال ، لا فن وراءه ولا حرارة ولا اقتناع .



استخدم صنوع كل حيلة فنية وقعت له لاستنباط الضحك فى مسرحه ، استخدم النكات اللفظية ، والجنسية كما استعمل الهزل ، والفكاهة الراقية ، قدم أفكارا كما قدم تهريجا مسرحيا ، وفهم تماما ان المسرح ينبغى اولا وقبل كل شىء أن يكون فرجة ، على أن يقدم فيه

هدف ما من نوع أو آخر ، ممتزج امتزاجا عضويا بفن المسرح ، وليس مفروضا عليه من الخارج .

كان صنوع فى هــذا المضمار فنان العرض المسرحى الكامل الذى نصبو الى أن نجـــد اعـدادا كثيرة منه فى حياتنا المسرحية .

والى جوار هــذا ينبغى أن نسجل له قدرته الفائقة على ادارة الحوار بلغة عامية أصيلة فى واقعيتها ، سجلها صنوع من معايشته للناس وملاحظتهم ملاحظة دقيقة ، ولا يزال بعض من هذه التعبيرات يستخدم حتى الآن مثل : « جاى من باريس فى علبة » ــ احنا ربنا خلقنـا واقفين ؟ (كدعوة للجلوس) و « قلنا كده قالوا اطلعوا من البلد » .. الخ .

والواقع ان صنوع فى هــذا المضمار ، ورغم بعض الشوائب الشامية فى التعبير ــ يعتبر بحق أبا العــامية المصرية فى المسرح .

الفصل الخامس

موليير على الطريقة المصرية

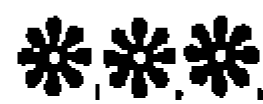
وصف محمدعثمان جلال موهبته المسرحية وحدودها ، حين كتب فى مقدمة : « الاربع روايات من نخب التياترات » يقول : « فلم لا أكثر التراجم من كتب الادب ، وأنزع عنها ثوب الفرنساوية ، والبسها ثوب العرب ؟ »

وكان هذا تواضعا لا شك فيه من هذا المؤلف الذكي. ذلك ان القول المتقدم ان انطبق على بعض ما تناوله عثمان جلال من أعمال موليير ، فانه يقصر عن وصف حقيقة ما أداه مؤلفنا للكوميديا المصرية والعالمية معا ، بتناوله أعمال المعلم الفرنسي .

فلم يكن عثمان جلال مجرد مترجم لاعمال موليير ، ولا اقتصر جهده على تمصير هذه الاعمال وحسب ، وانما تعدى هذا كله الى محاولة شيء من التأليف المسرحي ، وبثه فى خلال تمصيره لاعمال موليير ، وخاصة فى عملين محددين هما : « تارتوف » و « مدرسة النساء » .

فى هاتين المسرحيتين نرى عثمان جلال يضيف من عنده اشياء من البيئة المصرية الى نص موليرى وجد أن طبيعة الموضوع فى المسرحيتين تسمح بدخولها فيه ، وآنس من

نفسه من القدرة على الكتابة المسرحية ما يكفى كى يتحرر ـ ولو مؤقتا ـ من أستاذه الفرنسى .



وقد عاب بعض الدارسين على عثمان جلال فى هذا الصدد ما أسموه خروجا منه على نصوص موليير ، وعقدوا مقارنات بين ما كتبه المعلم الفرنسي وما أخرجه الكاتب المصرى ، خرجوا منها بأن جلال لم يفهم النص الفرنسى هنا أو هناك ، أو أنه غير فى سمات هذه الشخصية أو تلك تغييرا غير مشروع .

وفى رأيى ان الامر ينبغى أن ينظر اليه فى ضوء ما تقدمت الاشارة اليه ، من أن عثمان جلال لم يكن يسعى الى مجرد تقديم موليير ، ولا الى تمصيره وحسب ، بل كان ينفس أيضا عن رغبة مكبوتة عنده للتاليف المسرحى

وقد اثبتت الاحداث ان هذه الرغبة فى الكتابة كانت أكبر بكثير من قدرة الفنان الفعلية ، فان عثمان جلال ما أن ترك صحبة موليير ، وشق لنفسه طريقا مستقلا حتى وضح ضعفه ككاتب مسرحى .

ففى مسرحية المخدمين ، وهى من تأليفه الخالص ، لا نجد شيئا من التألق والبراعة والفكاهة اللذيذة التى حققها عثمان جلال لنفسه وهو فى كنف موليير ، (والتى سأفصلها حالا) .

ومن العجيب أن تظهر قدرة كاتب ما على الخلق المقنع وهو تحت وصاية كاتب آخر ، فاذا ما ارتفعت هذه الوصاية ، هبط رصيده من الخلق هبوطا ملحوظا .

ولكن هذا العجب ما يلبث أن يتبدد حين نمعن النظر فى مسرحية المخدمين ، فنجد أن ضعفها الاساسى راجع الى تهافت بنائها ، والى عدم قدرة الكاتب على أن يطور موضوعها وشخصياتها .

تلك عناصر فنية لم يكن رصيد المسرح المصرى الناشىء منها كبيرا ، ولهذا فلم يكن عجبا أن يفشل عثمان جلال فى توفيرها لمسرحيته .

ولكن الامر يختلف حين يكون على كاتبنا أن يسد ثغرات ، أو ينشىء شرفات أن يبنى حجرة هنا أو هناك فى بناء قائم فعلا ، فان خفة ظله الطبيعية ، وتمرسه بحياة الناس وعاداتهم ولغة حوارهم تمكنه لا من مجاراة المعلم الكبير وحسب ، بل تحفزه الى التفوق على هذا المعلم ذاته حين يكون الامر متعلقا بتفصيل ما أجمل المعلم ، أو تجسيد ما اقتضت طبيعته المفكرة أن يكون مجردا .

غير ان هذا الكلام ينطبق على عملين اثنين فقط من الاعمال التى أنتجها عثمان جلال تحت وصاية موليير ، وهما : الشيخ متلوف ، ومدرسة النساء .

أما المسرحيات الثلاث الباقية ، فان الجهد الانشائى لعثمان جلال لا يخرج فيها كثيرا عما وصفه هو نفسه بأنه نزع لثوب الفرنساوية والباس لثوب العرب .

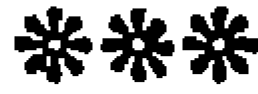
هنا يمصر جلال أعمال موليير مطاوعة لرغبة عارمة عنده لتمصير كل شيء ، وهو يقدم على التمصير فى : « النساء العالمات » وفى : « مدرسة الازواج » وفى : « الثقلاء » ، رغم نبو موضوعاتها نبوا واضحا وأحيانا لا أمل فى التغلب عليه ، عن الذوق العام .

غير ان هذا الجانب من جهد عثمان جلال فى خدمة الكوميديا ليس هو الجديد بأن يشغلنا فى هذا البحث . انه جهد الناقل وليس جهد الخالق .

أما عنايتنا بعثمان جلال هنا فهى من أجل ما قدم من خدمة فى سبيل تمهيد الطريق أمام قيام كوميديا انسانية ، تنبع فى وقت واحد من النبعين المحلى والعالمى

تستند الى الواقع المصرى استنادا راسخا ، وتشغل نفسها به ، وتتطلع الى افضل ما حققه كتاب العالم من انجاز فى الشكل والمضمون معا .

لهذا ، أقصر كلامى على مسرحيتى : الشيخ متلوف ومدرسة النساء .



كانت عدة عثمان جلال الرئيسية فى تمصيره لاعمال موليير معرفته العميقة ببلده وناسه ، وموقعه الوثيق القرب من عواطفهم وأفكارهم وأفعالهم ، وخلوه التام من عقد المثقفين فى حديثه عن أهل بلده وتصويره لهم واجرائه الحوار على السنتهم .

كذلك تحكمت فى هذا التمصير الرغبة التى أعلن الكاتب منذ البداية انها كانت ديدنه وهى : التزام نص موليير بشرط مراعاة عوائد الشرق .

فهذا الهدف المزدوج مسئول عما نجد فى التمصير من مزايا وعما نلقى خلاله أحيانا من عيوب .

فهى رغبته المتحرقة فى التقريب بين موليير وبين جمهور الشعب المصري على أيامه وحرصه على مراعاة عوائده التى دفعته ـ أو قل جملته يطاوع رغبة محببة اليه ـ لايراد صور واقعية من حياة المصريين خلال أعماله المصرة . صور بعضها يصدمنا الآن ، وبعضها نجد فيه مبالغة فى الواقعية أو مجافاة للذوق السليم ، ولكن قيمتها الفنية والتسجيلية تجعلنا نرحب بها مع ذلك ، ونشعر بغير قليل من الامتنان لعثمان جلال لانه حفظها لنا من الضياع .

ولنبدأ بمسرحية الشيخ متلوف :

انظر الى هذه الصورة التي يمصر بها عثمان جلال كلاما عاما تقوله عند موليير الوصيفة دورينا فى ذم

« اورانت » ، احدى النساء الغزلات اللواتى تتقدم بهن السن ، فيعجزن عن مزيد من الغزوات ، فتشيع المرارة فى نفوسهن ، ويحقدن على حب الشباب بعضهم البعض، ويتخذن من الفضيلة وقسوة الرأى فى الناس قناعا يخفى الحسد والعجز • وأورانت هذه عند عثمان جلال اسمها دودو . تقول الخادمة بيهـانة ، التى تقابل الوصـيفة دورينا عند موليير :

بيهانة : الست دودو من يقول عنها كلام ؟

حرة تقية ما عليهـاشى ملام .
لـكنها كبـرت قوى وتقدمت .
وتحسرت على الشباب وتندمت .
من قلة الحيلة ومن كثرة مفيش .
تابت عن العرقى وعن شرب الحشيش .
كانت وهى شبه تحب البحبحة
وتكلم الجدعان وتهوى السرمحة
وان فات عليها الحلو ترمش بالعيون
وتفتخر بالصرف مع كتر الديون •
لمـا أتاها الشيب ودلدل نهدها .
وبين الـكراميش قوام فوق جلدها .
صبحت عدم والفل فى القلب أنزرع .
تزعل وتظربن اذا شافت جدع .
وتطل من الطاقة وتقدح للصفار .
وتخرج السكة وراهم بالازار .

ان عثمان جلال هنا لا يورد مقابلا مصريا لشىء موجود فى نص موليير وانما هو يجسد الـكلام العام الذى تقوله دورينا عن الغزلات من العجائز وذلك عن طريق ايراد وقائع محددة لتصرف عجائز السيدات الغزلات فى مصر كما عاينها جلال أو سمع بها .

أما حين يورد موليير تفاصيل محددة فى مسرحياته ، فان عثمان جلال يختار منها ما يمكن أن يلقى استجابة لدى جمهوره ، ويضخم فى بعضه ويزيد عليه من عنده تفاصيل أخرى حتى تكتمل الصورة .

تصف دورينا موقف اورجون من تارتوف فى مسرحية موليير ، وتقول انه يصر على أن يكون القس على راس المائدة ، وانه يفرح حين يلتهم الطعام التهاما ، وان أورجون يحرص على ان يقدم له أطايب الطعام ، فاذا ما تجشا قال له : رحمك الله .

وتقول بيهانة فى وصف الموقف ذاته فى مسرحية عثمان جلال :

اذا لقاه يقبل عليه يعنقه
ويطعمه ويشربه وينشقه
يجلس على السفرة معه ويزقمه
وان قل عنده العيش قوام يلقمه
وينبسط كثير لما يدبها
وطاسة الشربه بحلقه يكبها
وان كان يتكرع ويفتح مبلعه
يفرح كتير وينشطه ويشجعه

ونلاحظ على الفور أن الصور المتتابعة التى يوردها عثمان جلال ، هى أبلغ أثرا فى وصف الالتصاق الشديد الذى يحسه غلبون بمتلوف من صور موليير ، فان مؤلفنا المصرى يستخدم تسعة أفعال يقوم بها غلبون بازاء متلوف على سبيل الرعاية والتدليل ، فى حين يستعمل موليير أربعة فقط ، كما ان الصور عند عثمان جلال وان نقلت المعنى العام لمعانى موليير ، هى فى صميمها صور مصرية ، بما فيها من حرص المصريين على أكل الكثير من الخبز .

ويزداد جهد عثمان جلال في التمصير وضوحا حين نتتبع ما تقوله الخادمة بيهانة خلال المسرحية اما فى وصف الشيخ متلوف ، أو فى الاحتجاج على تصرفات ضحيته غلبون ، أو فى استنفار باقى الشخصيات لمساعدة الابنة المسكينة مريم ، فقد ركز عثمان جلال على بهانة جهوده فى تقريب نص موليير من الشعب المصرى بحسبان انها ـ بحكم كونها خادمة ـ هى أقرب الشخصيات الى الشعب ، وأجدر ـ ان هو اعتنى بها عناية خاصة ـ ان تضفى الجو الشعبى المصرى على عمله :

بيهانة : (لسلمان) سايقه عليك سيدى الحسن
ويا الحسين .. تحكى لابوها بس بكره كلمتين
شافت العذاب والذل راخر والندم
انظر لحالها اهه .. صبحت عدم
وكلما اتفكرت فى كل اللى جرى
تشقع وترقع خدها حتى انبرى

فهذا تمصير بعيد الغور لعبارة عامة فى موليير تطلب فيها دورينا من كليانت أن يساعد ماريانا قدر مايستطيع فانها فى أعظم ما يتصور من هم ، أما عند عثمان جلال فان الهم يتحول الى صورة مادية هى « لطم الخدود »

وأبعد من هذا دلالة على الرغبة المتفجرة عند عثمان جلال فى أن يضيف شيئا وهو يمصر (أى يخلق فى الواقع) ما يفعله بعبارة قصيرة تقولها دورينا وهى تحاول أن تمنع العاشقين ماريانا وفالير من أن يفترقا ، تمسك دورينا فالير فتجمح ماريانا ، وتتحفظ على هذه، فيهرب فالير .

تقول دورينا وهى تخلى سبيل فالير وتجرى وراء ماريانا : « ماذا ؟ انت أيضا ؟ »

أما عثمان جلال فيترجم هذه العبارة العامة القصيرة

الى صورة مصرية غنية بالانتماء الى الواقع .

بيهانة : طاهرت انا عنبر وفرشح لي سعيد ..
أي ما كدت أخلص من هم حتى بدا لي هم آخر !

ويسأل أورجون الوصيفة دورينا عن صحة صديقه تارتوف ، فتقول انه فى أحسن حال ، سمين ، ناعم البال ، رائق اللون .

اما بيهانة فترد على سؤال مماثل بعدة صور ، أكثر دقة وتحديدا ، يكون من اثرها أن ترتفع أمامنا قامة الفتى الذى يسعى عثمان جلال الى أن يخلقه لنا خلقا ، ويستله من ملابس تارتوف .

بيهـــــانة : بخير فى كل شى
يمشى ويتهدف بجبـــه مشمشى
والوش رادد والخدود متختخـــه
وله زنود بيضا سمينه مبطرخه

وما أن ينجح عثمان جلال فى تحويل تارتوف من قس فرنسى الى فتى مصرى اســمه متلوف ، بما تقــدمت الاشارة اليه من وسائل التمصير وغيرها مما لم يرد ذكره حتى يشعر الخلق الجديد بقوته الى درجــة تتيــح له ولخالقه أن يضيفا الى موليير شيئا ليس فيه ــ أن يخرجا سويا عن نهج موليير ، فى سبيل انتماء أكبر الى البيئة المصرية .

فى المنظر الثالث من الفصل الثالث ، يدخل متلوف على انيسة وقد استبد به الشوق ، فان السيدة التى تمنعت عليه وتعففت ، قد اذنت له أخيرا بالمثول ، بل ارسلت فى الواقع تطلب رؤياه .

يدخل متلوف ونظره كله مركز على محاسن حبيبته الجسدية . ينتهز أول فرصة ليمد يده الى جسمها قارصا يدها ، متحسسا فخذها ، عابثا بما يحمل صــدرها من

لحم وزينة معا .

وبعض هذا موجود فى موليير فعلا ، ولكن ليس بهذه الصراحة ، وليس الى هذا الحد ، فبينما يمد تارتوف يده الى الركبة ، يرتفع محمد عثمان جلال بيد متلوف لتمسك الفخذ ، وبينما يتفحص تارتوف ـ متظاهرا ـ دانتيللا الثياب ، يمد متلوف يده الى حلى الصدر .

بل انه لا يتورع عن ان يذكر لانيسة علانية ولهه بمفاتن جسدها :

متلوف : من كان ينظر دى المحاسن والجمال
يجود بروحه فى الهوى من غير سؤال
وان كنت انا اذنبت فى هذا الطلب
خدك .. وعينيكى أهم دول السبب
ما شفت مره الردف والطرف الكحيل
والخصر الا صرت أنا زيه نحيل

فعثمان جلال يزيد كثيرا من النهم الذى ينظر به بطله متلوف الى انيسه ويجعل التعبير عنه أصرح وأوقح ، بحيث يبدو تارتوف بالقياس اليه متعقلا ، متحفظا .

والى جوار هذا يضفى جلال على انيسة غنجا ليس موجودا أصلا عند المرأ فى مسرحية موليير ، رغم انه يلتزم معانى موليير بكثير من الدقة ، انما هى اضافة كلمة هنا ، واختيار صيغة معينة للتعبير هناك تخلع جميعا هذا التثنى والتأود على أنيسة وتجعلها أقرب الى المثل الذى كان يراه المجتمع المصرى للمرأة فى تلك الايام :

آه ، اف يا سى الشيخ ليه تقرص كده ؟
(باضافة كلمة اف على العبارة الفرنسية)
ما تحطش ايدك دى هنا أحسن بفير ..
فى الاصل الفرنسى : ارفع يدك ، انا مفرطة الحساسية

الايحاء موجود فى صميم تركيب العبـــارة وما تحـيل سامعها اليه من مواقف ، وما تبثه فيه من ايحاءات ٠

بل ان عثمان جلال يمضى قدما فى تمصيره لشخصية الميرا الى حد اضافة أبعـــاد جديدة لما يمكن أن تذهب اليه فى خداع متلوف، ملوحة له بلذائذ التمتع بجسدها:

العشق ده حمرى وجمرى ما اعرفوش
تعمــل كدا زى البهـــايم والوحــوش
واش كان حوجنـــا بالعجل للمربعـــة
معنـــا تلات ســـاعات والا اربعـــة
لمـــا أروح ألبس ملابس شـــــفتشى
واحضر الفرشــــه وأعمـــل كل شى
ما يصح منك تنكرش من غير لزوم
هوه وراك نجـــار وفى ايده قادوم !

وعثمان جلال ينأى هنا تماما عن موليير ، ولا يحتفظ منه الا بمجرد المعنى العام جدا وهو أن السيدة تطلب من عاشقها الا يكون مندفعا هكذا فى طلب المتعة . وفيما عدا هذا فالصور وتفاصيــل الـكلام ، ولبس الملابس الشفتشى ، والنجار الذى معه قادوم ، كلها من خلق جلال . ولا يمكن لنا بحال من الاحوال ان نعتبر هـذه ترجمة لموليير ، أو مجرد تمصير لما هو موجـــود فيه ٠

ولا يمكن كذلك أن ندخل هذا فى باب عدم الدقة أو الخروج العشوائى على النص ٠ أنما هى رغبة واضـحة عند عثمان جلال فى أن يقفز من فوق كتف موليير لشىء من التنفيس عن رغبته الدفينة فى الـكتابة الاصيلة .

وفى هذا الضوء لا نستغرب أن « يخرج » متلوف من كل هدف من أهداف موليير فيقول وهو يظهر أســـفه لان أنيسة مخستكة من اثر البرد ، ولا ينفع فى علاج بردها لا ربسوس ولا مستكة ٠

متلوف : والله اتفميت ولكن ده يزول
ركك على عرقة على حسب الاصول

فان عثمان جلال قد ترك بطله حرا الآن كى يتصرف، وفق هواه ، لا وفق النص الفرنسى الذى خرج منه .

ولهذا نهش ولا نحتج أبدا حين يطاوع متلوف انيسه فيفتش المكان ليتاكد من أن احدا لا يراهما ، ثم يغلق الباب ، ويتصرف نهائيا كشخصية أصيلة خلقها جلال وسواها بعيدا عن أى اثر أو ظل من أثر من المعلم الفرنسى :

الله يعينك يا جميل على دا الكفل
ازى مشيك به وهو محمل جمل

فهذا أخيرا هو « العترة » المصرى الذى يرى امراة « ملحمة » تسير أمامه ، يهتز منها ردف ثقيل فتدفعه النشوة الى أن يدق كفيه بصوت عال ويقول :

الله الله .. يا بختنا .. يا سعدنا ، أو ما أشبه .

هذا هو المثل التقليدى لمقاييس جسم المرأة ينحدر عبر اجيال من الشعر العربى ليعبر عن نفسه فى صورة مصرية مائة فى المائة .

يعبر عن نفسه فى مزيج من الفروسية وخفة الظل ، تصحب دائما ابن البلد فى مثل هذه المواقف .

***

وما يبقي بعد هذا من مظهر لخلق عثمان جلال أثناء تمصيره لموليير يتركز فى الفصل الخامس من المسرحية ، وسنرى حالا انه ليس قليلا بحال من الاحوال .

فى المنظر الرابع من هذا الفصل ، يأتى المحضر عبد العال ، لينفذ امرا بطرد غلبون وأسرته من منزلهم ، الذى أصبح الآن بفضل حماقة غلبون ، ملكا لا نزاع فيه للشيخ متلوف .

ويتناول عثمان جلال شخصية السيد لويال فى

مسرحية موليير بلمسات قادرة وواعية ، تحيله من الموظف البالغ الادب اللفظى ، البارد الاعصاب ، المدرب على ذبح الناس دون أن يهتز أدبه أو وقاره ، الى محضر مصري حقيقى ، لعله النموذج الاول لهذه الشخصية فى أدبنا المسرحي .

فهو يغير مهنته من موظف تابع للقصر الى قواس من المعصرة ، كان فى السابق مكاسا فى طره ، وهو يخبر غلبون بانه يعرف أباه من عشرين سنة ، وان « الست أمه ستنا » (لا ذكر لام أرجون فى حديث لويال معه)

ويصفه سامى ، محتجا على مظهره الزرى فيقول :

هوه كده القواس عينه معمصة
اظن بدك فى عصايا محمصة ..

اما بيهانة فتقول انه « صاحب تبات » وتضيف :

والله عليه اكتاف زى المطرحة
وله صداغ لاجل الكفوف مصلحة

وبهذا يتغير لويال تماما ، ويتحول فى يد جلال الى موظف منتزع من البيئة المحلية ، يتحدث أثناء محاولته للتقرب من غلبون وتهوين مسالة الطرد من البيت عليه ، عن استعداده للانتظار ، موردا فى أثناء الحديث تفاصيل من الحياة المصرية القحة :

اهه كده استنى لبكره فى الصباح
لازم عن المفاتيح ونزح المستراح ..

ويذكر أن رجاله الذين قدموا معه لمعاونته فى التنفيد على استعداد لخدمة غلبون :

دولا نقاوه .. وكلهم متعافيين
يكركبوا لزيار .. ومواجير العجين

وواضح من هذا بعض ما سبق أن أشرت اليه من أن جلال لم يكن يمصر مسرحيات موليير وحسب ، وانما

كان ينتهز كل فرصة ليخلق شخصيات مصرية حقيقية ، مستعينا بموليير كنقطة انطلاق ، مستخدما تجاربه الشخصية وبيئته المحلية بعد ذلك لخلق شخصيات مقابلة ، لها انتماء حقيقي لمصر .

الى جوار هذا ، كان جلال ينجح فى الارتفاع بمستوى التمصير فى بعض المواقف الهامة فى المسرحية الى الحد الذى تصبح فيه هذه المواقف ، بما فيها من شخصيات وحوار ونقاش ، مصرية خالصة ، وكأنما نحن نشهد مؤقتا جزءا من مسرحية مصرية حقيقية يعرض ضمن مشاهد مسرحية أخرى ذات أصل أجنبى .

نأخذ المشهد الثالث من الفصل الخامس ، وفيه تدخل ام النيل ، والدة غلبون ، لتعلن فى اصرار لا يتزحزح انها لا تصدق هذا الذى قيل عن سوء نوايا متلوف وخبث افعاله .

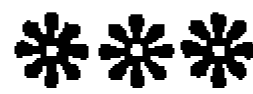
ويثير هذا الاصرار الاعمى ثائرة غلبون ، وبه من الجراح ما به ، فقد شهد لتوه محاولة متلوف أن يهتك عرض امرأته ، ومع ذلك فهذه أمه ـ أقرب الناس اليه ـ لا تريد أن تصدقه ، وتروح تلتمس لمتلوف أسباب النجاة من الاتهام .

أثناء الصدام العالى الصوت الذى يقع بين غلبون الثائر ، وأمه المالكة زمام أمرها - بفضل عماها وعنادها ـ ترتفع حرارة المشهد ، ويرتفع معها حماس جلال وقدرته على الاندماج فى الاحداث ، واذا به يتعدى حدود التمصير العادى وينشىء هذا المشهد الطريف ، الذى يتحدث فيه غلبون خاصة ، كشخصية مصرية أصيلة :

ام النيل : طول عمرى أشوف اللى هنا متعصبين
كلك عليه دا بالشمال ودا باليمين
غلبون : واش دخل العصبة كمان فى اللى جرى

لا هو انت دايما تسمعى لى من ورا
ده شيء نظرته يا وليه بالعيون ..
ام النيل : دى برضها فتنة وغير ده لا يكون
غلبون : ده شيء يكفر يا وليه اسمعى ..
ازاى ما أقول شفته وبرضك ترجعى
ام النيل : والناس لها ألسن مبارد حامية
ترمى البرى من حكها فى داهية
غلبون : أما كلام بارد يا قول أنا رأيت ..
شفته ، نظرته بالعيون وما رويت
افضل أقول شفت ورأيت شفت ورأيت ..
شفت ورأيت شفت ورأيت شفت ورأيت..

ومقارنة هذا المشهد الحامى بما جاء فى موليير .. توضح تماما أن عثمان جلال هنا قد انفصل عن أصله الفرنسى ، وأخذ يتحرك حرا تماما ، ولبعض لحظات : كما يحدث للسباح المبتدىء الذى يطفو دقائق بمعزل من مدربه وانما بمحضر منه ، ويحقق بهذا شيئا من التقدم .



وفى المشهد السادس من الفصل الثانى من مسرحية « مدرسة النساء » ، تمصير عثمان جلال ، يضيف مؤلفنا المصرى الى السذاجة التى تتمتع بها أجنيس فى مسرحية موليير جرعة كبيرة من الجنس والصور والافعال الجنسية ، بحيث يتغير وضع أجنيس الاصلى من فتاة خام تقع فى ورطة للذبذة فتستمتع بها ، ولا تجد فيها ضيرا ، ولا تفهم ابدا لماذا يحاول مربيها أن يصدها عن المضى فيها ، الى امرأة غزلة ذات غنج ، تستمتع وهى تروى لزوجها ما حدث ، بهذا الذى ترويه ، وتستخدم نوعا من التشويق (عن طريق حبس المعلومات) لاثارة

الزوج ، (ولاثارة المتفرج طبعا) .

انيسة : كان يمسك ايديا ويملاها فلوس
وكان يعســانقنى كتير ، وكان يبوس

ابو عوف : وبعد ده كله .. عمل ايه يا ترى ؟

انيسة : (تخجل) اف اسكت امال .

ابو عوف : مش تقولى اللى جرى ؟

انيسة : بعدين مسك ..

ابو عوف : ايه بالعجل ؟

انيسة : ما اقدرش أقول بعدين تزعل ..

ابو عوف : قلت لك مانيش زعول ..

انيسة : مسك .. مسك ..

ابو عوف : قولى قوام .. وكملى ..

انيسة : تزعل كتير ..

ابو عوف : لا والنبى .. لا والولى ..

انيسة : مسك قوام طرف القفطان ودلدله
وانا كمان ، لمــا مسك ســكت له

ابوعوف : (يتنهد) طيبعرفنا انه مسك طرف القفطان
بدى أنا أعرف حصل لك ايه كمان ؟

انيسة : كشف غطا صدرى وبان منه النهود
فضـــل يبوس فيهـــم ويلعب بالعقـــود

وليس فى موليير شىء من هذا الغرام الحسى الفاقع من جانب هوراس ، وكل المعلومات التى تحبسها أجنيس عن مربيها ارنولف بعد تشويق مماثل فى تكنيكه لتشويق عثمان جلال ، هو ان الحبيب قد أخذ من الفتاة الساذجة شريطا للزينة كان ارنولف قد أهداها اياه .

وواضح ان عثمان جلال قد وجد الشريط شيئا غير ذى بال لا يستأهل عنـــاء المحب المصرى ولا يثير غيرة الزوج أو اهتمام القارىء أو المتفرج ، فأدخل تفاصيـــل

أكثر اتساقا مع مفهوم العصر عن مسلك المرأة فى موقف مثل هذا !

يكفينا من عثمان جلال انه كان محبا للمسرح ، وخادما فى ساحته ، وانه كان فى أعماقه يرنو الى ان يكون من بين المبدعين فيه ، وان كان نقص الموهبة قد قعد به عند الحدود التى قدمت تحليلا لبعضها آنفا .

غير ان ما انجزه عثمان جلال عند هذه الحدود كان خدمة كبرى لقضية الكوميديا المسرحية فى بلادنا ، فى وقت اشتدت فيه الحاجة الى هذه الخدمة ، كى تتصل الجهود التى بذلها فنانون آخرون سابقون على محمد عثمان جلال ، وأهمهم جميعا صنوع .

فقد اختفى مسرح صنوع فى عام ١٨٧٢ ، واذا بجلال يتقدم فى العام التالى ١٨٧٣ بتمصيره الشهير لمسرحية موليير « تارتوف » الذى أطلق عليه اسم : « الشيخ متلوف » . ثم يخطو من بعد لتمصير مسرحيات أربع أخرى هى : « النساء العالمات » و « مدرسة الازواج » و « مدرسة النساء » و « الثقلاء » .

فيقدم بهذا خدمة كبرى للمسرح المصرى ، أول مظهر لها هو تحقيق ذلك الاتصال الحيوى الذى تحتاجه الحركات المسرحية ، كى تنمو وتزدهر ، فلم يمض وقت طويل على اختفاء صنوع ، وتمصيرات محمد عثمان جلال ، حتى أخذت مسرحيات موليير المصرى تعرف طريقها الى المسرح .

قدمت مدرسة النساء فى عام ١٨٩٥ ، بعد حوالى ست سنوات من انتهاء جلال من تمصيرها .

وقد يكون البدء بهذه المسرحية بالذات نوعا من سوء الحظ ، فان موضوعها كان جديرا بأن يصدم الذوق العام ، فلم يكن جمهور آخر القرن ليرضى عن مسلك فتاة تلقى عشيقا لها المرة بعد المرة فى بيت ربيبها وتسلم له

جسـدها ليعانق ويبوس ، ثم تروح تحكى لربيبها تفاصيل هذه اللقاءات الحسية العارمة فى براءة مصطنعة

وربما كانت الصورة اختلفت شيئا ما لو أن «الشيخ متلوف » قدمت بدلا من « مدرسـة النسـاء » ، فان الدجل الدينى موضـوع قريب من أذهان جمـاهيرنا ووجدانها ، والرغبة فى السخرية من الفقهاء ، وكشف تنطعهم وجشعهم دفينة فى تقاليد المسرح الشعبى ، وعلى الاخص مسرح الاراجوز .

وفعلا أثبت تاريخ العروض المسرحيـة خلال النصف الاول من هذا القرن أن « الشيخ متلوف » مسرحيـة ناجحة ، وانها قد شقت لنفسـها مكانا واضـحا بين مسرحيات التراث ، فلو ان جمهور أواخر القرن كان قد تعرف على فن كل من موليير ومحمد عثمان جلال من خلال هذه المسرحية الموفقة ، فلربما كان أمكن تعويده ـ بالتدريج ـ على ما فى باقى المسرحيـات من أشيـاء تنبو عن ذوقه ، فنظر اليها فى اطار الفن المسرحى وحكم لها أو عليها على هذا المستوى ، بدلا من مجرد رفضها على المستوى الاجتماعى .

مهما يكن من شيء فان عثمان جلال بتمصيره مسرحيات موليير الخمس قد قام بشيء هام حقا من أجل مسرحنا الناشيء وهو توفير نصوص مسرحية على مستوى عال من التاليف استخدمها المسرح الجاد فيما بعد دعامة لما كان يدعو اليه من ربط الحركة المسرحيـة الناشـئة بروائع المسرح العالمى ، فقد استند جورج ابيض الى نصوص عثمان جلال حين أراد أن يقدم كوميديات رفيعة المستوى تثبت للقمارنة بالمآسى الـكبرى التى كان يشرع فى تقديمها .

كذلك قدمت فرقة عكاشة مسرحية «الشيخ متلوف» كما قدمتها فرقة الدولة من بعد مرات عديدة .

وكان معنى هذا بالنسبة لتاريخ المسرح المصرى ان نماذج جيـــدة من التاليف الكوميدى قد اتيحت لأول مرة للنظارة والـكتاب الناشئين معا وان هذه النماذج قد تحملت ــ نيــابة عن تاليف أخرى لاحقــة ــ عبء الصدمة الاولى التى يحدثها الجديد دائما فى صفوف الناس

وهكذا ، وبفضل نصوص عثمان جلال ، التى شرع جورج أبيض يقدمها بشيء من الانتظام عام ١٩١٢ استطاع محمد تيمــور ان يقــدم كوميدياته الاخــلافيه التى سنناقشها فى الفصل التالى ،واستطاع توفيق الحكيم أن يقدم المرأة الجديدة في عام ١٩٢٣ دون خوف من عقــاب وبفضل عثمان جلال ايضا أمكن لاحمد شــوقى أن يقدم « الست هــدى » للمسرح بنجاح كبير ، وهى تعتبر أول ثمرة مصرية حقيقية للنبت الذى استورده عثمان جلال وزرعه فى التربة المسرحيــة الناشئة بكثير من الجهد ، ثم ترك لمن تلاه من الـكتاب أمر تحسين انواعه ، وتاصيله فى الارض المصرية ــ وأعنى به كوميديا النقد الاجتماعى المعروفة أيضا باسم كوميديا السلوك

وهكذا بدأت الـكوميديا الانتقــادية ممصرة على يد عثمان جلال ، ونشأ منها فيما بعد جيل ثان استوطن الارض واكتسب كثيرا من خصائصها وذلك فى مسرحيات محمد تيمور ومسرحية المرأة الجديدة لتوفيق الحكيم ، ثم أنتج شوقى أول نموذج مصرى خالص منها فى «الست هدى » (١) .

ومعنى هذا ــ مرة ثانية ــ انعثمانجلال ــ بالاشتراك

(١) منذ ان كتبت هذا الكلام فى العام الماضى (١٩٧٠) وقع لى نص أول كوميديا مصرية حقيقية ، وهى كوميــديا : « دخول الحمام مش زى خروجه » التى ألفها ابراهيم رمــزى فى ١٩١٥ أو أوائل ١٩١٦ ونشرتها مجلة الهــلال فى عدد يوليو ١٩٧١ .

مع يعقوب صنوع ـ قد حفر للكوميديا المصرية الرافد الثاني الهام الذي لا غنى لاى كوميديا انسانية عنه ، وهو الرافد العالمي ، الذي لولاه لما أخذ الناس فن الكوميديا ماخذ الجد الواجب لها ، فظلت أسيرة المستوى الفكري المنخفض الذي تحققه الكوميديا الشعبية ، ولا نستطيع الارتفاع عنه ، لانشغالها فى معظم الوقت بفنون الاضحاك المادي .

وقد أخذ هذا الرافد العالمي يقوم بعمله الهام فى اغناء الكوميديا المصرية ، حين بدأ يظهر الكاتب المسرحي الكوميدي ويقدم أعمالا منسوبة اليه هو وحده ، بعد ان كان التأليف الجماعي ذو الطابع الارتجالي هو سمة المرحلة التي بدأت فى نهاية القرن الماضي واستمرت حتى نهاية عشرينات هذا القرن (باستثناء أعمال صنوع) .

كذلك أشارت جهود عثمان جلال الى الطريق الذي يمكن الكوميديا أن تسلكه كلما أعوزها النص الجيد وهو التمصير عن أصول عالمية .

وهو الطريق الذي سلكه فيما بعد كل من بديع خيري ونجيب الريحاني ـ وان كان هذان قد تجنبا النماذج الرفيعة فى فن الكوميديا ، بحسبان أنها لن تلقى نجاحا شعبيا كانا يسعيان جاهدين الى تحقيقه ، فقصرا همهما على مسرحيات الجمهور العريض فى فرنسا ، استوردا أفكارها وموضوعاتها ولكنهما أحسنا تمصيرها ، فلم يعد الامر معهما مقصورا على نزع « ثوب الفرنساوية » عن الشخصية ، والباسها «توب العرب» بل تعدى هذا الى تغير أشمل ، تناول النفسية والعقلية أيضا ، بحيث أصبح التمصير شيئا كثير الشبه بالتأليف

الفصل السادس

محمد تيمور
والكوميديا الانتقادية

ان كان محمد عثمان جلال قد قعدت به قدراته دون اخراج كوميديا انتقادية مصرية من اللون الذى هفا اليه فؤاده وهو يمصر موليير ، فان فارسا آخر من فرسان المسرح المصرى ما لبث أن ظهر على المنظر ، وأخذ يكتب لمسرح كوميدى جاد تعلقت به روحه الوثابة وأبت الا أن تخرجه للنـــاس .

ذلـكم هو محمد تيمور .

فى عام واحد ، بالغ الاهمية فى تاريخ الكوميديا المصرية الراقية ، هو عام ١٩١٨ ، أخرج محمد تيمور مسرحيتين جديرتين بكل اعتبار، الاولى : «العصفور فى القفص» ، وقدمتها فرقة عبد الرحمن رشدى فى مارس عام ١٩١٨

والثانية ، وهى أنضج الاثنتين وأكثرهما دلالة : «عبد الستار أفندى » ، وقدمها عزيز عيد على مسرح دار التمثيل العربى ، فى اطار فرقة منيرة المهدية ؛ وذلك فى ديسمبر عام ١٩١٨ .

قدم محمد تيمور : « العصفور فى القفص » على اعتبار أنها نموذج لما ينبغى أن تكون عليـــه الـــكوميديا الانتقادية ، ذات المضمون الاجتماعى الواضح .

وفعلا ، يبرز موضوع المسرحية بروزا واضــحا ، وان

كان غير ضار فنيا ـ فنتبين انه علاقة الآباء بالابناء ، وهى علاقة متأزمه دائما ، ولكنها فى الفترة التاريخية التى تدور فيها حوادث المسرحية ، متأزمة بصفة خاصة فالبلاد على عتبة ثورة كبرى كان مقدرا لها أن تنفجر بعد عام ، والابناء يتطلعون ـ مع غيرهم من اهل مصر ـ الى شىء من الحرية ، فى السياسة وفى الاجتماع معا .

وبيت محمد باشا الزفتاوى يمثل الرجعية المصرية تمثيلا واضحا ، فمحمد باشا اقطاعى واسع الثراء ، كبير البخل ، كل همه أن يروج حاله وترتفع اسهمه لدى الحكام ، ويعاد انتخابه لعضوية مجلس المديرية ، لما يمثله هذا من جاه وكسب مادى ومعنوى معا .

وهو يعلن صراحة انه لا شأن له بالسياسة ، ويقرر انه الآمر الناهى فى البيت ، فتخنع له زوجته عزيزة ، ويثور ابنه حسن ثورة ضعيفة ، سكبوتة ، ويلجأ الى التمرد السرى على والده ، فينشىء علاقة غير شرعية مع خادمة سورية فى البيت اسمها مرجريت ، تحبه ، وتظهر له الحنان الذى يفتقده فى أبيه ، والذى لا تفلح أمه فى تعويضه عنه ، فهى أضعف من أن تحمى ظهره وتؤثر فى أبيه ليستجيب لطلباته المشروعة : شراء بدلة اسموكنج مثلا لحضور حفل زواج !

ويكتشف الاب علاقة ابنه بالخادمة ، فتطرد المسكينة من البيت ، دون ان تستطيع ثورة حسن الضعيفة أن تثمر شيئا على سبيل حماية البنت أو تعويضها ، وحين يعرض حسن ان يترك البيت ويمضى وراء مرجريت ، يقول الباشا معلقا : « توفر ياخويا ، لكن أستنى ، والله العظيم لاضربك » .

وبالطبع لا يغادر حسن البيت ، وانما يبقى فيه ليواصل الدراسة !

ونعرف من بعد أن مرجريت قد حملت ـ سفاحا ـ من حسن وانها اتصلت به مرارا ، مرة تخبره ، ومرة اخرى ترجوه ، وفى مرة ثالثة تهدده بالحضور الى بيت أبيه واعلان النبأ على شكل فضيحة .

وفعلا تحضر مرجريت ، ولا تجدى محاولات حسن وأمه عزيزة وابن خاله محمود فى حجب ما تحمله من أنباء عن الباشا ، فهم يحاولون ـ المرة بعد المرة ـ اقناع الوالد بالذهاب الى منزل حسن باشا رضوان الذى يسعى محمد باشا الى اقناعه بالتوسط ‹‹ حتى يعـاد انتخابه ، ولـكن الباشا يقرر فى كل مرة البقاء فى البيت بحجة أو أخرى ، وحين يقتنع أخيرا بالخروج يصطدم بمرجريت داخلة لتنفيذ تهديدها :

الباشا : شيء جميل ! انا فى حلم والا فى علم (لمرجريت) جايه تعملى ايه يا بنت (بشدة) جايه هنا تعملى ايه ؟

مرجريت : اسأل ابنك ! ؟

الباشا : (مندهشا) أسأل إبنى ؟

حسن : ما تسألهاش يا بابا ، اسـألنى أنا ، الحق مش عليها ، الحق على .

الباشا : ايه هوه اللى جرى ؟

عزيزة : مافيش حاجه ، دى بس ..

حسن : (يقطع عليها الحديث) اسكتى يا نينا ، ما حدش حيتكلم غيرى .

محمود : (لحسن سرا) اسكت يا حسن ، اسكت خلينا احنا اللى نتكلم .

حسن : (لمحمود بصوت مرتفع) أنا مش هيل يامحمود لازم الحقيقة تتعرف .

الباشا : ايه هيه الحقيقة ؟

حسن : (بصـوت فيه رنة المقدم على شيء كبير)

الحقيقة ان مرجريت حامل .

الباشا : حامل ! من سيادتكم ؟

حسن : ايوه منى انا ، والواجب يدفعنى انى اساعدها

الباشا : (للجميع) ده كلام فارغ ، بقى بنت زى دى تضحك علينا كلنا ؟ اطلعى بره يا بنت ، اطلعى بره .. لحسن اخبط وشك فى الارض .

حسن : اذا طردتها يا بابا رايح أطلع أنا وراها .

الباشا : بطلوا ده واسمعوا ده ! !

عزيزة : يا باشا استنى شويه ، الولد حسن ده مجنون وطالع فيها مرة واحدة ، لازم نعقله ، موش كده يا محمود بك ؟

محمود : معلوم ، لازم نعقله ، بدل ما ندفعه لعمل حاجات موش كويسة .

الباشا : أنا بدى أعرف سى حسن عاوز يعمل ايه ؟

حسن : عاوز أربى الولد اللى فى بطن مرجريت ، عاوز أطلعها من هوة العار اللى رميتها فيها .. عاوز ..

الباشا : اخرص يا قليل الادب ، اخرص والا اطلع بره أنت وهيه .

حسن : يكون احسن .

محمود : اسكت يا حسن .

الباشا : لازم أطرده هوه وهيه حالا .. حالا ..

عزيزة : يا باشا أبوس ايدك ورجلك .

مرجريت : يا باشا ما تخافش ، كنت اظن ان الاغنياء فى قلوبهم رحمة على الفقراء ، كنت أظن الباشوات يعرفوا الواجب ، كنت اظن ان الرحمة والشفقة لسه موجودة فى الدنيا ، لكن دلوقت عرفت الحياة عبارة عن غش وخداع وظلم ، ما تآخذنيش يا سعادة الباشا اللى جيت وقلقت راحتك ، وانت يا حسن دلوقت

عرفت انك راجل صحيح ، خليك مع أبوك وأمك ، ما يصحش انك تسيبهم علشان بنت مسكينة زيي ، أما أنا عندي رب ما ينساش حد .

حسن : (يسرع ويقف بجوارها) استنى يا مرجريت يستحيل تطلعى من هنا من غير ما اكون معاكى ، انت بتحسبينى راجل متوحش ما عنديش شفقة ولا رحمة ؟ أبدا لازم أعيش معاكى ونربى سوا الولد اللى لسه ما شافش نور الدنيا .

الباشا : (ينظر لزوجته) أنا ما أقدرش على الحال ده أبدا ، هوه أنا بيتى معرض فسق يا محمود بك ؟ أنا يا أقول لك للمرة الاخيرة انى مانيش عاوز أشوف وش البنت دى ولا وش الحمار ده (مشيرا لمرجريت وحسن) يالله بره ، اخرجوا بره .

عزيزة : يا باشا باترجاك ، أبوس ايدك (لحسن) يا حسن أنا أمك ، ارحم أمك .

محمود : يا حسن شوف أمك وأبوك .

حسن : يستحيل ، آه ، عاوزين انى أرحم أمى ولا أرحمش ابنى ؟ مستحيل .

الباشا : (محتدا جدا) اطلع بره انت وهيه ، اطلع أحسن والله بعدين أخسف بكم الارض ، يالله بره حالا .

حسن : يالله يا مرجريت ، الوداع يا أمى (يخرج ومعه مرجريت) .

عزيزة : آه ، محمود بيه ، روح معاه ، خليك معاه لحد ما تنفض المسألة ، روح يا حبيبى .

محمود : حاضر يا خالتى ، ادينى رايح . (يخرج)

عزيزة : (تجلس على كرسى وتضع رأسها بين يديها) آه يا قلبى ، يا قلبى يانا .

الباشا : قلب ايه وبتاع ايه ؟ الحمد لله اللى استريحنا

منه ومنها ، كنا يا ترى حا نقبل على نفسنا المصيبة دى؟

عزيزة : (لا ترد عليه بل تجلس وهى واضعة راسها بين يديها) .

الباشا : (لنفسه) ودلوقت وجب انى انظم حساب بيتى بشكل تانى بعد ما طردت الملعون ده ، بنجيب فى اليوم تلاته كيلو لحمه ، نجيب اتنين كيلو ونص ، وبنجيب بسته صاغ خضار ، نجيب بخمسة ، وبنجيب اربعه كيلو عيش ، نجيب تلاته ونص ، أيوه كده تمام . (يذهب الى الشباك ويفتحه وينادى) يا عبد السلام افندى ، يا كاتب سعادة محمد باشا الزفتاوى .

(صوت عبد السلام افندى من الحوش) أفندم

الباشا : تعالى تحت الشباك وامسك الدواية والقلم واكتب .

(صوت عبد السلام افندى من الحوش) أيوه يا أفندم .

الباشا : الآن وقد طردنا ولدنا العزيز حسن بك على من منزل سعادتنا ، أمرنا بما هو آت :

اولا ــ انزال مرتب اللحمة من تلاته كيلو الى اتنين كيلو ونص .

ثانيا ــ انزال مرتب الخضار من ستة قروش لخمسة

ثالثا ــ انزال مرتب العيش من تلاته كيلو الى اتنين كيلو ونصف .

رابعا ــ انزال مرتب ...

(ستار)

هـذا المشهد الرئيسى ، يحمل معه روح المسرحيـة ولونها ، وطريقة علاجها للموضوع ، كما يحدد بوضوح علاقة الشخصيات بعضها ببعض .

فمسرحية « العصفور فى القفص » هى من اللون الذى

عرف فى مصر باسم الدرام ، وتعرفه كتب تاريخ المسرح أيضا باسم الدراما البورجوازية ، وفيه يسعى الكاتب الى عرض مشكلة اجتماعية عرضا رنانا زاعقا ، تبرز فيه المشكلة موضحة باللونين الابيض والاسود ، على أن يجمع العلاج بين السمات الجادة والفكاهية ، ويتوسل الكاتب أثناءه بكل وسائل الاثارة من حوادث ميلو درامية ، ومواقف خطابية وأبطال مثاليين فى الخير ، وغيرهم مثاليين فى الشر .. الخ .

وبرغم أن محمد تيمور يسمى مسرحيته : «كوميدى» الا ان جدية نظرته لموضوعه ، قد انتهت بـ « العصفور فى القفص » الى أن تصبح من لون الدرام فعلا ، مع محاولات لطلاء الموضوع من الخارج طلاء كوميديا .

وفى سبيل الكوميديا يخلق محمد تيمور شخصية الباشا : محمد الزفتاوى ويضفى عليه ، بتأثر واضح من موليير ، صفتى البخل ، والتفاخر معا ، فهو يقتر على أهل بيته كل التقتير ، وهو فى الوقت ذاته يشترى من التحف والفازات ما يحاول أن يزايد به على خصومه الاجتماعيين ، فيجمع تيمور بهذا بين شخصيتين من شخصيات موليير فى شخص بخيله المصرى ـ شخصية ارباجون فى مسرحية « البخيل » ، وشخصية : مسيو جوردان فى البورجوازى النبيل .

كذلك يقترض الكاتب شخصية « العايق » من مجموعة شخصيات موليير فى : « مدرسة الازواج » فيجعل لها نظيرا مصريا فى شخص أمين بك ، ابن عم حسن ، الوارث المتلاف ، الذى لا يهمه من الدنيا سوى ملذاته مع عشيقاته ، وأناقته ، ولا يبالى بعد هذا ان مرضت أخته ، أو اختلت الامور فى ضيعته .

ومن المسرح الاوربى عامة ـ وموليير خاصة ـ اجتلب

تيمور موضوع العلاقة الغرامية التى تقوم طواعية بين الخدم ، أو التى يحاول فريق من الخدم الرجال انشاءها مع الخدم النساء واستخدم هذا الموضوع وسيلة من وسائل خلق الفكاهة ، فهو يجعل الخادم السوداني فيروز أغا يقع فى غرام الخادمة مرجريت ، التى تسخر منه وتضحك المتفرجين عليه .

ومن حيل مسرح موليير المعروفة استخدام الميلودراما وسيلة فعالة لفك عقدة المسرحية ، وكذلك يفعل محمد تيمور فى مسرحيته ، فحين يضطر حسن الى العمل كاتبا صغيرا فى متجر ، ويقاسي شظف العيش فى سبيل زوجته وابنه ، يسوق له القدر الميلودرامى هدية ثمينة فيجعله ينقذ رضوان باشا من الموت تحت عجلات الترام ورضوان باشا هذا هو الرجل الواسع النفوذ ، الذى يحاول الزفتاوى باشا ، والد حسن ، أن يترضاه ولو بجدع الانف ، وبالطبع يتوسط رضوان باشا لدى الزفتاوى باشا ويضطره الى الصفح عن حسن وزوجته وابنه ، ثم يرضى الباشا عنهم من بعد رضاء فعليا ، ويجرى عليهم الارزاق ، ويعود الجميع هانئين الى أحضان الاسرة الكبيرة .

على أن محمد تيمور لا يتأثر مسرح موليير وحده ، وانما هو أيضا واقع فى دائرة نفوذ مسرح أواسط القرن فى فرنسا ، حيث كتاب الواقعية الشعبية الناشئة من أمثال اميل اوجييه ، والكسندر ديماس ، الابن ، قد تفوقوا فى علاج المشاكل الاجتماعية علاجا دراميا فعالا ، على أساس من الفكرة القائلة بأن الفرد نتاج حتمى للبيئة المحيطة به ، وأن الخير والشر يكمنان فى المجتمع وليس فى البشر .

ونحن نجد فى « العصفور فى القفص » شيئا من هذا

المنطق الاجتماعى متمثلا فى حسن الشـــاب الذى يتوق الى التحرر ، ويود لو استطاع أن يقف من أبيه موقف الند ، ولكن يقعـــد به عن هـــذا خنوع ، هو نتـــاج سنوات طويلة من الاستبداد الابوى .

ومحمد تيمور يعرض هـــذه المشكلة عرضـــا واضحا وواقعيا أيضا ، على نحو ما فعـــل واقعيو فرنســـا فى أواسط القرن ، ولـــكنه لا يلبث أن يســـتعين ــ كما رأينا ــ بالميلودراما كى يحل عقدة المسرحية على نحو يعجب الجمهور العريض .

ومع ذلك فان الموقف الواضح الذى يقفه المؤلف من موضوعه والذى يجعل رضوان باشا يتبناه فى المسرحية ليذكرنا بتمقل اوجييه بازاء المشاكل الاجتماعية التى كان يعرض لها ، فان الـــكاتب الفرنسى لم يكن ثائرا ، ولا متمردا على النظم الاجتماعية ، وانمـــا كان كل همه أن يرسم من الطبيعة صورا منتزعة من الواقع ، ويدعو خلال هذا الى ما يعتقد انه الفضائل الاساسيـــة فى المجتمع .

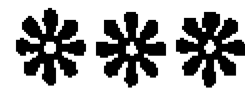
وشيئا من هذا فعل محمد تيمور ، حين انتهى من استكشافه المسرحى لمشكلة الآباء والابناء ، ثم جعل ــ رضوان باشا ــ قبل نهاية المسرحية بدقيقة أو دقيقتين يقول :

رضـــوان : الحمد لله ، ودلوقت بقى ، حيث انكم اصطلحتم ، فأنا لى كلمة صغيرة أقولها لك يا محمود بك ، وأمين بك ، ما تظنوش أن حسن عمـــل طيب ، الظروف كانت قاسيه عليه يابنى يا محمود انت وأمين ، انتم لسه ما اتجوزتوش ، وادى انتم شفتم بعنيكم الغلب اللى شافه حسن ، فانصحكم انكم ما تتجوزوش الا من جنسكم ولا تطلعوش من خلف أبهاتكم .

فهدف المسرحية اذن ليس الدعوة الى المساواة الاجتماعية ، وانما غرضها هو التعقل الاجتماعى ـ ان يتعقل الباشا الزفتاوى فى معاملته لابنه ، وأن يتعقل ابنه ايضا ، وأهم من هذا رفقاء ابنه من الشباب ، فلا يتزوجوا من خارج طبقتهم .

باسم التعقل قد كان الصفح عن حسن ، واعتبار ما تم قضية منتهية يرجى الا تتكرر ، ولا بأس ـ لخدمة هذا الفرض الاساسي ـ من استخدام الميلودراما ، بل ولا بأس ايضا من العطف على موقف الخادمة مرجريت والانتصار المؤقت لزواجها من حسن ، والصفح الضمنى عن « جريمة » انجاب طفل غير شرعى ، ما دام هذا كله سيرفع الى المجتمع ليجد له وضعا مشروعا يرضى عنه الجميع .

وهنا يجدر بنا أن نشير الى ان موضوع العلاقات الجنسية غير المشروعة ، ومحاولة القاء ضوء منصف وواقعى عليها قد كان موضوعا دائم التردد فى المسرح الفرنسى ، منذ نظر اوجييه بعين العطف الى مومس اسمها كلوريند فى مسرحية « المغامرة » وجعل وجودها كله يتغير بعد أن تقع فى غرام ، وان حرص الكاتب ـ مع هذا ـ على أن يؤكد حكمة الطبقة البورجوازية وتعقلها ، فى مواجهة الحماقات الرومانسية ، وهو عين ما فعله تيمور فى مسرحية «العصفور» ، اذ عرض قضية مرجريت عرضا منصفا وعطوفا ، ثم جعل الحكمة كلها تنبع من الطبقة الاعلى .



بعد حوالى تسعة أشهر منظهور مسرحية «العصفور» أخرج عزيز عيد مسرحية تيمور الثانية « عبد الستار أفندى » .

وقد كتب محمود عزى ، صديق محمد تيمور يقـــدم المسرحيـــة بقوله : « كان فى الفتـــرة بين مسرحيـــتى العصفور فى القفص ، وعبد الستار أفندى ، القضاء على التمثيل الجدى بانتصار كشكش بك ، ذلك الانتصـــار الذى اجتذب اليه عشاق المسرح ، فترة رآها تيمور القضاء على الفن الذى تعشقه ، فقال فى نفسه فلأحارب التمثيل الهزلى بنفس سلاحه ولاجتذب الجمهور برواية فنية ذات صبغة هزلية ونكات ثم أرتفع به بعد ذلك من الهوة التى ألقاه فيها التمثيل الهزلى الى الفـــاية التى أنشدها » (١) .

من هذه الخطوة التى قرر محمد تيمور أن يخطـــوها نحو الـكوميديا الشعبية تأتى أهمية مسرحية « عبـــد الستار أفندى » ، وينبع ــ أيضا ــ شىء كثير مما فيها من فضائل .

والمسرحية تقوم على موقف رئيسى نعرفه الكوميديا العالمية والمحلية (٢) حق المعرفة ، وهو موقف الزوجـــة المتسلطة ، والزوج المغلوب على أمره ، وما يجرى بينهما من شد وجذب تنتج عنه الفكاهة المطلوبة .

نفوسة الزوجة تتحكم فى أمور بيتها ، وتسيطر عليه وعلى زوجها ، عبـــد الستـــار أفندى الموظف بنظـــارة الاوقاف ، وفى الوقت الذى تظهر فيه جانب القســـــوة لزوجها ، تلين وتخنع أمام ابنها عفيفى ، المدلل العاطل، الذى يدعى انه ممثل موهوب .

وفى المسرحية أيضا : جميلة الابنـــة الشريفة التى تستنكر أفعال أمها وتنحاز الى أبيها ، رأفة به وحبا .

(١) مقدمة المسرح المصرى . صفحتا ح ، ط .
(٢) هـــو الموقف ذاته الذى استغله صنوع من قبل فى مسرحية الاميرة الاسكندرانية . وفيها ــ كما رأينا ــ زوجة متسلطة ..

وهى تقاوم مقاومة كبيرة مشروعا يتقدم به أخوها عفيفي لتزويجها من صديقه السيىء السمعة : فرحات ، بعد أن وعده هذا الاخير بأن يزوجه بدوره من ابنة أحد البهوات ممن يلوذ بهم فرحات هذا .

ثم شخصية البواب والخادم العام : عم خليفة ، العجوز الذى يجمع بين المكر والطيبة والذى ربى أولاد الاسرة جميعا ، وهو ينحاز الى معسكر عبد الستار ـ جميلة .

وهناك أيضا الخادمة «اللهلوبة» هانم ، كتلة النشاط والحيوية وانعدام الضمير ، التى تنحاز الى معسكر نفوسه ـ عفيفى وتدبر معهما المؤامرات ضد الزوج والابنة وخليفة .

وبين هذين المعسكرين يدير محمد تيمور صراعا حافلا بالحيوية والفكاهة بدرجاتها المتفاوتة بين الكوميديا الناعمة والهزل الخشن ، ويعرض أثناء هذا الصراع شخصية الزوج المغلوب على أمره عرضا عطوفا ومقنعا ، ويبين محاولاته الكثيرة والمضحكة للخروج من تحت سيطرة الزوجة واستبداد الابن المدلل .

كما يعرض شخصية الابن « المفسود » ، الذى تتبناه الام تبنيا أعمى ، وتفضله على زوجها ، رغم عيوب الابن الواضحة ، ربما لان الام تجد فى الابن من المزايا النفسية ومن قوة الشخصية ، ومن القدرة على السيطرة ما تفتقده فى زوجها ، وما كانت تتمنى لو كان موجودا فيه .

كذلك تعرض المسرحية لمشكلة البنت التى يراد تزويجها رغما عنها ، والتى تقع ـ الى جوار تحكم الام ـ تحت استبداد الابن أيضا لان العرف الاجتماعى يعطيه حق التصرف فى أمرها بحكم انه ذكر، وبرغم انه يصغرها

بخمس سنوات كاملة .

فالمسرحية ـ اذن ـ هي دراسة فى المشكلة ذاتها التى شغلت تيمور فى مسرحيـــة « العصـــفور » علاقة الآباء بالابناء ، وأن كانت المشكلة هنا مقلوبة رأسا على عقب ، فهى تصور استبداد الابناء بالآباء ، مما يسمح بالكوميديا والهزل معا .

***

ولــكى يحصل محمد تيمور على الدرجة القصوى من الفكاهة فى مسرحيته خرج بموضــوعه من حــدود الطبقة العليا ، التى لم يكن الاستبداد الاجتماعى يسمح بالتندر بها الى حد ينتج الــكوميديا الناجحة ، وحط رحاله فى أرض طبقة تليها هى الطبقة المتوسطة الصغيرة.

وقد هيأ له هذا الانتقال حرية ومرونة فى استخدام الشخصيات الشعبية ، فلم يعــد الخدم فى المسرحيـــة مخلوقات قليلة القيمة ، يسىء الســـادة استخدامهم ، ويتندرون بهم ، ويعتدون على النساء منهم ، بل أصبحوا شركاء فعليين لاهل الدار فى تصريف شئونهم .

ان عم خليفة البواب ، وهو واحد من أنجح شخصيات المسرحية ، يدخل المعركة مع عبد الستار وابنته جميلة باقتناع تام بأنه يحارب من أجل قضية مشتركة .

والخادمة اللهلوبة هانم ، تنضم أيضـــا بمثل هــذا الحماس التلقائى الى قضية الفريق المضاد ، وكأنها فرد منهم ، بل انها تنشىء علاقة بالابن الفاســد عفيفى ، تقرضه فيها النقود ، وتتطلع الى أن يبقى حبه لها .

واثر هــذا كله على المسرحيـــة طيب وباعث للمرح الحقيقى . لا حواجز هنا ولا سدود تعوق الحركة بين الشخصيات ، وعلى هذا تتوالى المشـــاهد اللذيذة فى سهولة وتلقائية ، وتتفاوت بين الــكوميديا النــاعمة ـ

كما قلت ، وبين الهزل الصاخب .

فمن النوع الاول هـذا المشهد الذى يدور بين الام نفوسة ، وبين ابنها عفيفى ، الذى يدعى انه ممثل موهوب . يريد عفيفى أن يخلق فرصه كى يعرض فيها قدرته على التمثيل على أمه ، فيفتعل معها معركة :

عفيفى : اظن انك فاهمه انى موش عارف انك سبب الخناقة دى كلها ، أنا بس حبيت احترمك قدام الخدامين لـكن يظهر انك مش عارفه مقامى ؟

نفوسة : محسب بالنبى يابنى ، ما اعرفش مقامك ازاى ؟ انت غاوى تراترو وعضو فى جنينة الحيوانات .

عفيفى : تراترو ايه ، وجنينة الحيوانات ايه ياوليه ؟ بطلوا ده واسمعوا ده يا اخوانا ، انت ياشيخه انضربتى فى عقلك ؟ دنا ممثل تراجيدى وكوميدى كمان ، والله بلاوى ، اوريكى ازاى ؟ اوريكى عشان تصدقى ؟

نفوسة : محسب بسورة يس والقرآن الحكيم ، وريني ياخويا وريني .

عفيفى : عاوزه قطعة تراجيدى من شاكسبير ، والا من الحداد ؟

نفوسة : اللى يعجبك ياخويا .

عفيفى : اسمعى كلام عطيل لما جه يموت دمونة ، دى قطعة ترجمتها أنا بنفسى ، اسمعى : ثغر جميل ، وشعر طويل ، وخصر نحيل ، وردف ثقيل ، وغرام فى الفؤاد ، يضيع الرشاد ، ويقتل العباد . اى دمونة المحبوبة ، أنا أهواك وأموت فى هواك ، وأضع قلبى فى يمناك قبل يسراك ، ولكنك خنت العهود ، ونقضت الوعود . (يتحمس ويقترب من أمه) وعشقت كاسيو اللعين ابن اللعين الخائن الاثيم ، وخنت عطيل الاسد الهمام والقائد الدرغام ، ولم تخشى القادر العلام .. ويك

يا دمونة (يهدد أمه بيده) .

نفوسة : بسم الله ما شاء الله ، ربنا يزيد ويبارك .

عفيفي : ويك يا دمونة ، سـأخلع أضراسك وأخمد أنفاسك .

نفوسة : بس ابعد ياخويه شويه .

عفيفى : اسمعى امال (يقترب منها مادا يده لرقبتها) سأجعل عظمك ولحمك شذر مذر ويـكون موتك عبرة للبشر ، وسيقول الناس أحسن عطيل وأجاد ونال المراد وشفى الفؤاد .

نفوسة : الواد جرى له ايه يا اختى ؟ ابعد يا عفيفى.

عفيفى : (ماسكا رقبتهـا) موتى يا خائنـة موتى (يضغط على رقبتها) لقد دنت الساعة وحل العقاب ، موتى ، موتى .

نفوسة : الحقونى يا ناس الواد اتجنن .

عفيفى : (مندفعا) موتى ، موتى ، موتى (١) .

ومن أمثلة الـكوميديا الحية ، التى تعتمد على النقد الاجتماعى وعلى الصدام المضحك بين الشخصيـات ، هذا المشهد الذى يدور بين عم خليفـة البواب وهانم الخادمة ، وقد جاءت الاخيرة تنقل له خبرا يسوءه .

هانم : (تدخل وهى مذعورة) اسكت ياعم خليفة ، اسكت ياعم خليفة ، ياخراب بيتي وبيتك ياعم خليفة ، يادى الداهية الجديدة ياعم خليفة .

خليفة : جرى ايه يا بنت ؟

هانم : (تلطم وجههـا) يامصيبتى ومصيبتك ياعم خليفة ، يا ترقيع صداغى وصداغك ياعم خليفة .

(١) سنجد أن بديع خيرى والريحانى قد استغلا جوهر هذا الموقف ـ بنجاح أكثر ـ فى مسرحية : أموت فى كده . كما سبق أن استخدمها أمين صدقى فى مسرحيـة : « هز ياوز » (عام ١٩١٦) التى كتبها للريحانى ، ومسرحية ولسة (١٩١٩) التى كتبها للكسار .

خليفة : جرى ايه يا بنت ، ستك نفوسة حصل لها أمر الله ؟

هانم : (تلطم وجهها وتشنشل) ياريت كان كده ياعم خليفة ، ياريت كان كده ياعم خليفة .

خليفة : سيدك عبد الستار راح لرحمة ربه ؟

هانم : لا ياعم خليفة ، ياريت المصيبة كانت فيه ياعم خليفة .

خليفة : بلا قافية سيدك عفيفي دهسه اوتروبيل ؟

هانم : يكون احسن ياعم خليفة .

خليفة : يا بنت بلاش هلس بقى ، اطلعى برا ، برا .

هانم : (تسكت قليلا وتتكلم وهى تبكى بعد أن تجلس على الارض) اسكت ياعم خليفة ، اسكت ، دى مصيبة كبيرة ياعم خليفة ، بكره تنخرق عينى وعينك ياعم خليفة بكره تتنتف دقنك ، وتنبهدل عمتك ياعم خليفة ، عمتك الشريفة ، الشريفة قوى .

خليفة : بس موش تقولى .

هانم : اسكت (تبكى) فوكس مات (١) .

خليفة : (يصفر وجهه ويسقط على الكرسى) فوكس مات ؟ ونزوح فين يا هانم ، نروح فين ؟ فوكس مات ؟ الكلب الحلو ده ؟

هانم : قل لى ياعم خليفة ، نعمل ايه لما سيدك عفيفي يسمع ؟ نعمل ايه ؟ ده يطلع روحى وروحك .

خليفة : (يتهدج صوته) آه يطلع روحى وروحك ؛ ياخسارتك يافوكس ، ياما كنت كلب كويس ، اسمعى تجيش نقول له انه هرب ؟

هانم : (بحزن) مايصدقش ياعم خليفة ، مايصدقش

---

(١) استغلت كوميديا الريحاني جوهر هذا الموقف أيضا ، مع التنويع والتعميق في مسرحيات أبرزها : لو كنت حليوة .

ابدا ، بكره وحياة راس أبوك وتربة أمك راح يخرب بيتك .

خليفة : (يبكى) هوه انت فاهمه انى بعيط على فوكس؟ انا بعيط على خراب بيتك .

هانم : موش انت الباش أغا بتاع الكلاب ، وسيدى مسميك كده ؟

خليفة : موش انت الدادة بتاعتهم ؟ موش مسميكى عفيفى كده ؟

هانم : ونعمل ايه ؟ ده كمان شويه يسمع ويبهدلنا والكلب والنبى كان حلو .

خليفة : (يبكى ويشنشل) يادى الداهية السودة يا خليفة .

هانم : (تبكى وتبتدى فى الشنشلة) يادى الوحسة الكبيرة ياعم خليفة .

خليفة : (يزداد فى البكاء) يا قطع عيشك ياخليفة.

هانم : ما بقاش فيه أمل يا عم خليفة .

خليفة : ما فيش غير التربة يا خليفة .

هانم : (تبتعد عنه وتضحك وهى تشنشل) وضحكت عليك ياعم خليفة ، والكلب عيان بس ياعم خليفة ، وينعل أبوك ياعم خليفة ، يا ابن الكلب ياعم خليفة .

خليفة : (يجرى وراها رافعا المقشة فتحاوره فى أنحاء الغرفة وعند اقترابها من الباب يكون قد اقترب منها وتسنح له فرصة فيهوى بالمقشة عليها ولكنها تتلافاها بخفة فتنزل الضربة على راس عبد الستار أفندى الذى كان مندفعا من الباب الى الداخل ، حاملا فى يده كيس فاكهة ، أما هانم فتندفع الى الخارج وتنتثر الفاكهة على الارض) .

أما المشهد التالى فهو ينتمى الى الكوميديا الشعبية

التى عرفتها مصر فى ظل المسرح المرتجل ابتداء من أوائل القرن ، فى الوقت ذاته الذى ينتمى فيه بناؤه الى كوميديا موليير .

هذا عبد الستار أفندى يدخل الفرفة ، وهو لايدرى ان مؤامرة قد تمت ضده منذ لحظات اشترك فيها عفيفى وبفوسة والخادم هانم ، لكشف غراميات عبد الستار امام زوجته .

الزوجة وعفيفى يختبئان خلف ستار ، ويتركان هانم وحدها لتكون طعما لعبد الستار ، تسأله هانم فى دلال :

هانم : والنبى ياسيدى ادينى يوسف افندية .

عبد الستار : (ينظر حواليه) أقول لك ، خلى المسألة بيع وشرا ، اليوسفافندية ببوسة ، ولا عنهاش كلت المتلومه نفوسة ، (تظهر دماغ نفوسة فيرجعها عفيفى).

هانم : أقول لك ياسيدى ، ما دام بتقول ان المسالة بيع وشرا ، خللى اليوسفافنديتين ببوسة ؟

عبد الستار : أبدا .. أبدا .

هانم : (تقبله فجأة) وتقول ايه فى البوسة دى ؟

عبد الستار : زى الشهد ، أقول لك الاربع يوسفافنديات ببوسة .

(يناولها أربع يوسفافنديات ويقبلها) .

نفوسة : يا ابن الكلب .

عفيفى : أستنى شويه ، ان الله مع الصابرين .

هانم : نفسى فى بوسة كمان .

عبد الستار : وانا يعنى اللى ما نفسيش فى بوسة ، (تقبله ويقبلها) .

نفوسة : (تظهر قليلا) يا دقن تعيتع .

عفيفى : أستنى ، (يختفيان) .

عبد الستار : (مفزوعا) مين اللى بيتكلم يابنت ياهانم؟

هانم : سبحان الله ياسيدى ، هوه الشارع يخلى من الناس ؟

ثم يطلب عبد الستار من هانم ما هو أكثر من القبلات فتساومه :

هانم : لا ، شوف أما اقول لك بقى ، انت راجل بتاع نسوان ، وانا ما اقدرش على كده .

عبد الستار : ومين قال لك انى بتاع نسوان ؟

هانم : وهوه حد يقدر يشوف عينيك ولابقعش فيهم؟

ثم تأخذ تفرض شروطها :

هانم : عاوزه تحلف لى انك يا تطلق ستى نفوسة وتتجوزنى بدالها يا ماتنامش معاها فى سرير أبدا ، يعنى تبقى جوزها كده وكده .

عبد الستار : قصدك يعنى انى ما . . .

هانم : (مقاطعة) ايوه .. فهمت ؟

عبد الستار : فهمت قوى ، ودى حاجه بسيطة ، اما الطلاق صعب . انت نسيتى انها أم أولادى ؟

هانم : طيب بالله احلف .

عبد الستار : اقسم لك بالله والانبيا والاوليا انى ..

نفوسة : (مندفعة صارخة) انك راجل دون قليل الاصل ، ابن كلب ، حمار ، عره خالص ، تستاهل الضرب بالشبشب .

(تتناول شبشبها وتنهال ضربا عليه) .

فى هذا المشهد نجد الكوميديا المتحضرة ، المتأنقة ، ذات اللون المهندس ، المدبر الذى عرفته كومبديا عصر النهضة وما بعدها ، خصوصا فى شكسبير وموليير ، ويتمثل فى اختباء عفيفى وأمه نفوسة خلف الستار ، وخروج الاخيرة بين الحين والحين من خلف الستار ، لان أعصابها تفلت منها فتود لو تنتقم من زوجها وان

انهت بهذا المؤامرة المؤقتة التى حاكتها ضده .

كما نجد الكوميديا الشعبية ، التى تتمثل فى تخوف عبد الستار أفندى من الاصوات التى يصدرها عفيفى وأمه بين الحين والحين ، وما يرتسم على وجهه من امارات الفزع ، فهذا يشبه ـ الى حد واضح ـ نمرة الفزع من عفريت حقيقي أو متخيل ، كان المسرح المرتجل يستخدمها كثيرا وسيلة للاضحاك .

كما ان نهاية المشهد ، بما فيها من كشف لعبد الستار وضرب بالشبشب تنتمى أيضا للكوميديا الشعبية .

والواقع ان مسرحية عبد الستار أفندى انما هى قسمة واضحة بين الكوميديا العالمية والكوميديا المحلية بل انه يمكن القول بأن موضوعها تجرى فيه قصتان الاولى : محلية ، والثانية : عالمية ، أما القصة الاولى فتخص نفوسة وزوجها وابنها ، وتضم أيضا عم خليفة البواب ، وهى تعالج مصائر هؤلاء الناس وصداماتهم بعضهم ببعض (١) .

وأما القصة الثانية العالمية الاصل ، فتخص جميلة ، وخطيبها الشريف بليغ ، الذى تحبه وتسعى جاهدة للزواج منه ، كما تضم الخطيب غير الشريف فرحات ، الذى تفر منه جميلة بكل ما وسعها من حيلة .

ويربط العالمين معا الخادمة هانم ، التى تتحرك بسهولة بين الاثنين .

وجدير بالذكر ان موضوع محاولة فتاة شريفة أن تفر بكل الوسائل من زوج لا تحبه موجود فى موليير فى

---

(١) اعتبرت هذه القصة محلية لان لها اشباها فى مجتمعنا المصرى، ولان تيمور ينجح فيها فى خلق شخصياته نجاحا واضحا يقنعنا بمصريتها وان كنت قد أسلفت ان موقف الزوجة المستبدة والزوج الخنوع موجود فى المسرح العالمى . واضيف هنا ان موقف الام المستبدة الضعيفة أمام ابن مدلل موجود فى مسرحية جولد سميث : « تمسكنت فتمكنت » .

مسرحيتي : مدرسة النساء ومدرسة الازواج ، كما ان صنوع يفيد منه ايضا فى مسرحية الاميرة الاسكندرانية التى لا يبعد أن يكون محمد تيمور قد أطلع عليها ، فان بالمسرحيتين أكثر من نقطة التقاء ، هناك ـ علاوة على موضوع الفتاة العاشقة التى تقبل على خطيب وترفض آخر ـ موضوع الزوجة المستبدة والزوج الخنوع وما يجرى بينهما من صراع ، ينتهى بأن ينتصر الزوج المضطهد وينجح فى نصرة ابنته وتزويجها بمن تحب ، كلا الموضوعين موجود فى صنوع وفى محمد تيمور .

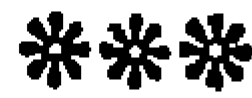
ونعود الى القصة الثانية فى المسرحية فنقول : ان الاثر الآجنبى يبدو واضحا كل الوضوح فى موضوع علاقات جميلة وبليغ وفرحات ، جميلة الفتاة الخجول تلقى حبيبها من وراء أهلها ، وتحدثه طويلا من خلف شباك المندرة ، الذى يطل على الحارة ، ثم تمنحه القبلات ، كل هذا وهى بالداخل وهو بالحارة !

ويطلعها بليغ على تطور مفاجىء ، هو وفاة عمه ، ويحدثها عن الارث الكبير الذى أصبح ينتظره ، والذى يزيل ـ بطريقة ميلودرامية ـ العقبة الحقيقية التى تحول بين الاثنين والزواج ، ثم تتطور الحوادث الى مشهد كبير فى المسرحية ، يتقدم فيه كل من بليغ والخطيب الآخر فرحات للمزايدة على جميلة ، كل يعد بانه سيدفع فيها أكثر من الآخر ، ولا يحسم الموضوع الا دخول ضابط يتقدم ـ على الطريقة المولييرية ـ ليخلص البطل والبطلة من المتاعب ، وذلك بالقبض على فرحات بتهمة النصب .

ومشهد المزاد هذا ، الذى احتج على نبوه محمود عزى ، صديق محمد تيمور يبدو انه جزء من تراث المسرح الفرنسى فى النصف الثانى من القرن الماضى ، فقد

استخدمه ــ نقلا عن فرنســا ــ كل من ابسن « سـيدة البحر » وبرنارد شو « كانديدا » لمـا فيه من أثر درامى واضح .

كما ان توزيع الوعود بالعطايا على أهـل العروس ، الذى يقوم به بليغ فى نهاية المسرحية يبـدو هو الآخر جزءا من تراث فرنسا المسرحى ، وقد استخدم الريحانى ــ فيما بعد ــ مشهدا قريبا منه فى مسرحية « لو كنت حليوة » حين جعل بطل المسرحية ــ بعد ثروة مفاجئة منحته حبيبة قلبه زوجة له ــ يوزع العطايا أيضا على ام العروس وابيها وقريباتها .. الخ .



رغم الاثر الاجنبى فى المسرحية ، وما فيها من مشاهد مصطنعة تنبو عن الواقع الذى رمى تيمور الى تصويره فان ما يبقى منها بعد ذلك هو تقدم لاشك فيه فى طريق الـكوميديا المصرية .

وهو تقـدم ذو اتجاهين : أولهما نحو الـكوميـديا الانتقادية ، القائمة على ملاحظـة الواقع وتصويره ، ونقده ، والافادة فى هذا كله من التراث العالمى ، والثانى نحو الـكوميديا الشعبية بما فيها من حيوية فائقة ، وما تمنحه الكاتب من فرص لخلق الشخصيات الشعبية عـلاوة على الافادة من الشخصيـات والمواقف والنمر الجاهزة .

والمسرحية ــ بعد هذا ــ تمثل تقدما واضحا على فن صنوع ، الذى سعى هو الآخر الى السير فى الاتجاهين العالمى ، والشعبى ــ كما انها تحقق ما أخفق محمـد عثمان جلال فى عمله ، وهو الافادة من موليير لـكتابة كوميديا مصرية يكون جانب الخلق فيها أكبر من جانب التمصير .

وأغلب الظن ان الاجل لو كان طال بمحمد تيمور ، لاستطاع (١) أن يعمق من المجرى الذى حفره للكوميديا المصرية ، باضافة مسرحيات أكثر نضجا ، واذن لجاءت جهود من تلاه من كتاب فى هذا المجال أكثر نجاحا وأوفر حظا من الاستمرار ، كتاب من أمثال توفيق الحكيم « المرأة الجديدة » و « رصاصة فى القلب » .

واذن ــ أيضا ــ لما اضطر نجيب الريحاني وبديع خيرى الى السير فى خط شديد الذبذبة أوصلهما من المسرح الهزلى الى الكوميديا الانتقادية بعد عناء شديد

---

(١) كتبت هذا الكلام قبل أن أطلع على الكوميديا اللذيذة والناضجة ، التى كتبها ابراهيم رمزى بعنوان : « دخول الحمام مش زى خروجه » ــ راجع عدد يوليو ١٩٧١ من مجلة الهلال . وينبغى ان يذهب جزء هام من المديح الذى سقته هنا لمحمد تيمور الى زميله وصديقه : ابراهيم رمزى ، فهو الفاتح الحقيقى فى حقل الكوميديا المصرية الخالصة .

الفصل السابع

أرليكينو والبربري عثمان

حين قرر علي الكسار أن يطلي وجهه باللون الاسود . لم يكن يدري انه بهذا يربط نفسه ـ من حيث الشكل ـ بواحد من أشهر الخدم في دنيا الكوميديا دي لارتي ، واحبهم الى قلوب الجماهير العريضة والمثقفين معا ، ذلكم هو الخادم الماكر ، الذكي ، المندفع ، الجبان ، محب الحياة ومساعد المحبين : أرليكينو ، ذو القناع الاسود .

واللقاء بين عثمان عبد الباسط البربري وارليكينو الايطالي ، يتعدى الشكل بكثير ، كما سوف نتبين فيما بعد ولكن الغريب حقا ، أن يلتقي الاثنان في القناع كذلك . أهي مصادفة طريفة وحسب ، أم أن علي الكسار كان يعرف شيئا عن الكوميديا الشعبية الايطالية ـ شيئا شاهده في الفرق المصرية الجوالة ، التي كانت تقدم لجماهيرها الشعبية الضحك المرتجل والمحفوظ معا ، في مسارح المقاهي وحلقات السيرك منذ أوائل القرن خاصة ؟

يذكر الاستاذ عدلي نور في كتاب له لم ينشر بعنوان : « علي الكسار والمسرح العربي » (١) أن الكسار كان

(١) ينبغي ان تزجى التحية للاستاذ عدلي نور لاهتمامه الواضح والباكر والعطوف بعلي الكسار في وقت لم تكن فيه الحفاوة بالفن المسرحي الشعبي تتعدى السطح ، وكثيرا ما كان هذا الفن يلقى الصمت بل والاحتقار .

يهوى التمثيل منذ حداثته وكان دائم التردد على الفرق الجوالة التى تضرب خيامها فى ساحات الموالد والاعياد الشعبية ، وكان يعجبه كثيرا دور البلياتشو الذى يتبع البهلوان ، وكان الكسار يصفق كثيرا ويضحك من اعماقه ، حينما يحاول البلياتشو أن يقلد البهلوان فى خفة حركاته ورشاقته المفرطة وهو يثب على الحبل ، فيقع البلياتشو المسكين لا مفر ، وهنا يسأله البهلوان : انت مت يا بلياتشو ؟ فيقول البلياتشو : من زمان ا..

ولا يبعد أن يكون الكسار قد قرر فى أعماقه ، أن يصبح هو الآخر نوعا من البلياتشو ، ولعله أعجب بما فى هذا المسكين من تطلع ورغبة فى التفوق ، يقعد بهما عجز واضح ، وافتقار الى موهبة اللياقة البدنية ، فانعطف قلب الكسار اليه ، وقرر أن يعبر عن هذه الشخصية فى اعمال فنية متعددة ، وأن يقدمها للناس ، بهدف اثارة العطف عليها ، الى جانب الضحك منها ومعها

والبلياتشو ، هو واحد من الخدم العديدين فى عالم الكوميديا دى لارتى ـ شأنه فى هذا شأن أرليكينو. ـ هو مضحك ريفى ظهر فى دنيا الكوميديا قرب نهاية القرن السادس عشر ، وتعددت أسماؤه بتعدد البلاد التى نجم فيها أو ارتحل اليها ، له شرف الفلاح الساذج وصراحته ونقاء روحه ، وهو دائما عون للمحبين ، يحنو عليهم حنوا آسرا ، والعامل المحرك له هو خوفه مما يحيطه من أشياء وأشخاص وتوجسه ، وتوقعه أن يصيبه المكروه على أيدى الناس ، ومع هذا كله فهو مرح ، محب للفكاهة ، يجد لذة طفولية فى تدبير المقالب حتى وان عادت عليه هذه بالضرر السريع ، وفى أعماق نفسه حزن دفين ، يعكس احساس الانسان بالفشل الجذرى فى اصلاح الناس والاشياء .

اما ارليكينو ، الذى ظهر بعد بالياتشو بقرن تقريبا : فى نهاية القرن السابع عشر ، فهو أشهر خدم الكوميديا دى لارتى ، واكبرهم أثرا فى قلوب الناس وفى فن الكتاب

وهو خادم بهلوان ، كثير الرشاقة ، سريع الحركة ، يدخل المسرح وهو فى عجله من أمره ، منتصبا ، قائم الجسم ، فيبدو كمن يقفز ، وله الاعيب كثيرة ، يضحك بها الناس ويدهشهم معا ، فهو يدخل راسه فى جسمه ، دون ان يحرك بدنه ، حتى يختفى الرأس — لا أحد يدرى كيف — ثم يقفز بالرأس فجاة ، فيرتفع كعفريت العلبة ، وهو يستطيع أن يقفز فى الهواء الى الوراء ومعه كاس من النبيذ ، فلا يسقط منها قطرة واحدة ، وهو يزحف على حيطان الدورين الثانى والثالث من المسرح — كما تفعل الذبابة — فلا يسقط ، وان سقطت قلوب الناس فى صدورهم خوفا عليه .

وهو خارج نطاق ما تواضع الناس على اعتباره فيما أخلاقية . لا تستطيع ان تصفه بأنه مناف للاخلاق ، فهو يقبل على القيم الاخلاقية أو يدبر عنها وفق رغبـــاته الحيوية ، وليس حسب ما يمليه عليه العقل والضمير ، فهذان لا وجود لهما عنده . وهو لهذا قد ينصح امرأة شابة بأن تحب الرجال جميعا ، أو يقوم بدور الوسيط فى مهمة غرامية ، دون أن يقصد الاضرار بأحد وانما تأتى أفعاله من وحى ما يحس به فى التو واللحظة .

وهو لاصبر له على التفكير المتصل ، أو على استخراج النتائج من المقدمات ومن هنا تراه لا يحمل على أحـد اصرا ، بل سرعان ما ينسى الاساءة وهذا كله يجعله غير قادر على أن يعتبر بما جرى له فى السابق ، فهو يجرى وراء الافكار الوقتية ، مهما جلبت عليه من مصائب .

والى جوار هذا ، فهو واسع الحيلة ، يستطيع أن

يخرج من المآزق بالجهد العضلى وشىء من التفكير ، مهما بدا خروجه مستحيلا وهو محب للحياة بكل ما فيها من متاع ، شكواه الرئيسية منها انها لا تقدم له نصيبا عادلا من هذا المتاع ـ الطعام والشراب والنساء ـ والنساء خاصة !

وحبه الدائم للمرح يدفعه الى التنكر ، فهو مغرم بأن يتلبس الاشياء والشخصيات ، وان كان ذكره الدائم لنفسه ، ووعيه بشخصيته الحقيقية كثيرا ما يجعله يفضح نفسه ، فتسقط منه الكلمات أو المعلومات لتشى بحقيقته ، مما يزج به فى مآزق عديدة مضحكة .

هذا هو الخادم المهرج أرليكينو ، الخشن المظهر ، الرقيق المخبر ، الرشيق كقطة ، سريع التصديق كطفل، المخلص ، الطماع ، العاشق دائما ، الذى يدفع بنفسه وبمن حوله الى مآزق متصلة ، والذى يجمع بين الغفلة وشىء من المكر .

ولو أضفنا الى هذه الحقائق كلها انه كان يرتدى قناعا اسود ، لوجدنا أنفسنا آخر الامر أمام شخص يقرب كثيرا من عثمان عبد الباسط .

ولا أقول ان الكسار كان يعلم هذا كله ، ويتعمد أن يحاكيه ، وانما أقول ان روح البلياتشو والارليكينو ربما تكون قد تقطرت الى الكسار عبر ما تركته الفرق الجوالة الايطالية التى كانت كثيرة التردد على مصر طوال القرن التاسع عشر ، وعبر ما حمله الى مصر جورج دخول من فنى الكوميديا دى لارتى وخيال الظل التركى وذلك فى فصوله المرتجلة ، وما حملته فرق السيرك المختلفة من اجنبية ومحلية من تقاليد الكوميديا الشعبية

ثم نظر على الكسار حواليه ، فوجد شخصية النوبى التى خبرها تماما أيام أن كان يعمل طاهيا مساعدا فى

بيت احد الاغنياء ، وجد فى هذه الشخصية التناقضات الرئيسية المضحكة التى استغلها فيما بعد حين خلق شخصية عثمان عبد الباسط وجعل يعيشها كل ليلة على مسرحه فى واحدة بعد الاخرى من المسرحيات التى حكت مغامرات بربرى مصر الوحيد ، وحماقاته ، ونزواته ، وجد فيها الشرف والحكمة ، والنزق ، وضيق الصدر ، والرغبة الجامحة فى الحياة ، وحب الشراب والنساء ، والافتتان الذى لا حد له بالمرح والشجار ، والولع بالرقص والاداء التمثيلى وطيبة القلب الاساسية ، فقرر أن يتلبس هذا كله ، وان يجعله وسيلة لتأكيد حق النوبى المسحوق فى الحياة ، والاحتجاج على الظلم الواقع عليه بسبب لونه الاسود ، واشهار ما يخفيه هذا اللون من فضائل كثيرة ، الى جوار اعلان انحياز الفنان الى جانب الطبقات الشعبيـة ممثلة فى النوبى وذلك فى مواجهة السادة .

على اننا نعلم من الفصول المتقدمة ان بربرى مصر الوحيد على الكسار ، لم يكن أول نوبى ظهر على المسرح ، فهناك أبو ريدة فى مسرحية صنوع : « أبو ريدة وكعب الخير » ، وهو يعتبر رائد النوبيين جميعا ، واول من علمهم كيف يعتلون خشبة المسرح ، وان كان من المشكوك فيه كثيرا أن يكون الكسار قد علم بوجود هذا البربرى الممتاز .

ولد على الكسار فى أحضان التمثيل المرتجل ، بدأ حياته الفنية بتقليد زملائه من الطباخين النوبيين ، حتى اتقن خلق شخصية النوبى عن طريق الخيال والمحاكاة معا ، ثم انتقل من هذا الى التمثيل المرتجل أمام الجماهير الشعبية فى حى السيدة زينب وذلك فى فرقة الفها الكسار واسماها فرقة « دار التمثيل الزينبى »

وكانت تقدم فصولا مرتجلة ، ثم انحلت هـذه الفرقة فانضم على الكسار الى فرقة دار السلام فى حى الحسين التى كانت تقدم - هى الاخرى - عروضا مرتجلة (١) .

ويروى الاستاذ حسين عثمان فى مجلة «الكواكب» (٢) ان على الكسار بدأ حياته التمثيلية بدور صغير ما لبث أن جلب له الشهرة ، فقد كان يعمل فى مولد السيدة زينب عام ١٩٠٧ ، مقدما هذا الدور ، واذا بواحد من المتفرجين يصفر أثناء تمثيل الكسار ، فتلقفه الممثل الشاب بالتعليق الفكاهى والنكات ، وما لبثت مباراة حامية أن قامت بين الممثل والمتفرج ، استمرت ساعتين بين تشجيع الجمهور واستحسانه وطلب المزيد !

ومن يومها ولد الممثل الكوميدى على الكسار .

وكما ترى ، تشهد الروايتان معا على ان على الكسار قد ولد فى حضن ذلك النوع من الفن الكوميدى الشعبى الذى يعتمد فى أساسه على فن الممثل : ممثل من نوع نادر يجمع بين القدرة على الخلق والقدرة على الاداء ، ويتمتع بحس فنى مرهف يجعله يضع يده دائما على نبض جماهيره ، ويشعر تلقائيا بماتحتاجه هذه الجماهير وما تتطلع اليه ، فكأنه مؤلف وممثل ومتفرج فى شخص واحد . وهكذا يقوم بين المنصة والقاعة فى هذا اللون من الفن المسرحى نوع من الارتباط السحرى ، هو اشبه الاشياء بالدائرة الكهربائية تضم الفنان والمتفرج فى رباط حيوى لا ينفصم طوال مدة العرض .

وكان الكسار فيما يقول الاستاذ حسين عثمان : يوحى الى المؤلفين بفكرة مسرحياته ، وكان أيضا يحفظ

(١) عدلى نور . المصدر السابق .
(٢) عدد ٩٥٥ - ١٨ نوفمبر ١٩٦٩ .

الكثير من القفشات والنكات اللاذعة ، يختزنها فى حالة استعداد دائم ، كى يستخدمها كلما قرر واحد أو أكثر من المتفرجين ان يشتبك مع الفنان فى المباريات الفكاهية المعروفة لدى جماهيرنا باسم « القافية » .

فاذا اضفنا الى هـذا أن على الكسار قد خصص جهده الفنى كله لخلق وأداء شخصية واحدة بعينها هى شخصية المهرج عثمان عبد الباسط وجدنا انفسنا أمام ظاهرة فريدة حقا ، هى انه — فى بلادنا ودون اتصال مباشر أو قوى بفن الكوميديا دى لارتى الذى عرفته ايطاليا ثلاثة قرون أو يزيد — قد ولد فنان ممتاز من فنانى هذا اللون البالغ الصعوبة من فنون اضحاك الجماهير ، ولد دون تدريب سابق ، ودون استناد الى تقاليد متصلة فى هذا الفن ، كما كان الحال فى ايطاليا ولد بقوة الموهبة الذاتية ، واستمر قويا قادرا مبدعا ، حتى النهاية . ثم لقى الجزاء القليل الذى يلقاه دائما كل فن لا يعتمد على شىء مكتوب خليق بأن يبقى : الا وهو قلة التقدير ، ثم النسيان .

هذا هو مصير كل فنان شعبى يختزن فى ذاته أسرار فنه ، ولا يستطيع — لسبب أو لآخر — أن ينقل هذه الاسرار الى الاجيال التالية ، لقلة الرعاية تارة ، أو لان الحاجة لم تعد قائمة لهـذا الفن ، أو لان فنونا اخرى قد قامت لتحل محل ذلك الفن الشعبى .

وهـذا هو مصير الخيامين ، وحافرى النحاس ، وصانعى شخوص خيال الظل ودمى الاراجوز والخزافين .. الخ .

والمشكلة فى حالة الكوميديا المرتجلة بالذات هى أن الفنان اما أن يولد قادرا على الارتجال أو لا يكون فنانا فليس هناك حال وسط ، وليس ثمة سبيل الى تدريب

الممثل على فن حضور البديهة وممارسة الخلق الفورى ذلك فن تمنحه الطبيعة لمن تشاء ، وهو يختلف عن فن الممثل العادى فى انه يشمخ بأنفه فى كبرياء ، مستقلا عن النص المكتوب ، غير خاضع له ، بل أن فن الممثل المرتجل ليذوى ثم ينتهى ، بالقدر الذى ينجح به النص المكتوب فى التسرب اليه .

هكذا كان الحال مع الكوميديا دى لارتى ، وهكذا كان الحال عندنا .

شاهد الكاتب الصحفى «هنرى بيروه» على الكسار على المسرح فى عامى ١٩٢١ ، ١٩٢٤ فلفت نظره نقاط بذاتها فى أداء الفنان ، وكتب يقول : (١)

« يخيل الى ان ممثلى الكوميديات اليونانية الاولى لابد كانوا يتصرفون بأجسادهم على طريقة النوبى على الكسار ، ولا شك ان تأثيرهم على معاصريهم قد كان التأثير ذاته الذى يتركه البربرى الوحيد فى جمهوره المتواضع .

« كان الكسار فى تمثيله يبدى أحيانا قوة وعنفا يتميزان بالشعبية وأحيانا أخرى يبدى سلبية مذهلة ، ولا أظن انى سمعت أو رأيت ممثلا كوميديا بهذا التفوق ان تمثيله كامل ومستمر ، والاستمرار فى التعبير — على المسرح أو على واجهات الآثار — علامة مميزة فى الفنون البدائية ، ان على الكسار يقوم بأدواره بمهارة صانع الاوانى الخزفية ، انه يخلق معجزات ، ولكن هذه المعجزات لا تدهشه »

ويعلق بيروه على ما كان يقوم بين على الكسار وجمهوره من رباط حيوى فيقول :

« آه من (ذلك) الرباط ، لقد رأيته ينعقد أمام

(١) فى كتابه : « العودة على الاقدام » .

هيني فى ذلك المسرح الصغير فى شارع عماد الدين ، أن أساتذة المسرح فى الغرب يبحثون دون ملل عن سر هذا التجاوب العجيب (الذى ينبغى ان يقوم) بين الممثل والمشاهد ، لكنه سر مفقود ، مثل كل اسرار الصناع السذج فى العصور الغابرة » .

ثم يعلق الكاتب على نوع الكوميديا التى يقدمها على الكسار فيقول انهـا من نوع الكوميديا دى لارتى ، وان المسرحيات لا تعدو أن تكون اطارا لما يقدمه البربرى من نكات لاذعة » .

ويكمل الاستاذ زكى طليمات صورة المهرج الشعبى العظيم فى على الكسار فيقول وهو يصف مشيته وطريقة دخوله الى المسرح أنه : « يمشي وكأنه لايمشي .. أو هو يمشي ، ولكن ليس كسائر الناس ، لان قدمه لا تزحف فى خطوها ، ولا ترتفع عن الارض بالقدر المألوف ، بل هى تبالغ فى ارتفاعها ، فيخيل اليك انه فرخة تدب على الارض باحثة عما تقتات به من حب.. وفى ظني ان هذه المشية طبيعية أصيلة فيه ، أو هى مكتسبة من زمن طويل .. بدليل انه كان يجرى عليها فى حياته العادية وفى حياته فوق المسرح » .

وحين شاهد دينى دينيس ، عميد الكوميدى فرانسيز على الكسار فى عام ١٩٣٧ فى واحدة من مسرحيات الماجستيك قال للأستاذ زكى طليمات : «على جهلي التام باللغة التى يمثل بها .. اراني منجذبا اليه ، ولا أرى سواه على المسرح .. ان فى نبرات صوته وحركاته تعبيرا صادقا وواضحا عن المعاني التي يحسها كل الناس ، ولا يحتاج التأثر بها الى أن تفهم اللغة التى تعبر عنها » .

تبين هذه الآراء والملاحظات كلها اننا ــ بازاء على

الكسار ـ أمام فنان عظيم من فنانى الكوميديا دى لارتى ، واننا ـ لكى نقدره حق قدره ، ينبغى أن نحكم عليه وعلى أعماله فى نطاق الفن الذى تعشقه واختاره اسلوبا ، وليس خارج هذا الاطار ، كما يفعل البعض.

ان نفرا من هؤلاء ينقدون على الكسار من أجل مزايا فنه وخصائصه فيحتجون لانه كان يترك التمثيل ويتبادل النكات مع الجمهور ، وغيرهم يحملون فن على الكسار ما لم يخلق لتحمله من هدف ، واصلاح اجتماعى ، فاذا ما طولبوا بأن يثبتوا هذا كله ، لم يجدوا الا نتفا فى المسرحيات تشير الى معايب اجتماعية وتنادى بالقضاء عليها ، ولكنها تفعل هذا عرضا ودون حماس قوى .

اما الهدف الواضح والمعلن فى كوميديا الكسار فهو الامتاع فى المحل الاول الامتاع بفن الممثل العبقرى ، البهلوان ، الخفيف الظل ، الصاحى الفؤاد .

ووسيلة هذا الامتاع الاولى هي شخصية عثمان عبد الباسط ، وما يجرى لها من مآزق ، تدور كلها فى اطار فنى ينبع من تقاليد الفصل المضحك المصرى من خصائص الكوميديا دى لارتى التى شاءت طبيعة موهبة الكسار أن تصب فنه فى اطارها .

ومن حسن الحظ ومن المنطق أيضا أن يكون عثمان عبد الباسط شخصية شعبية فان هذا قد مكن على الكسار من أن ينحاز بفنه الى الشعب ، ويعبر عن اعجابه بكثير من فضائله ممثلة فى النوبى الشهم الطيب الفؤاد ، غير ان هذا نتاج فرعى لكوميديا الكسار ، اهدته للناس الى جوار عطيتها الاولى وهى الامتاع بفن الممثل وفنون الرقص والغناء والموسيقى ، هذا حقيقة ينبغى الا تغيب عن البال كلما قيمنا تراث الكسار ،

حتى لا نعاين المسرحيات ، مدونة على الورق ، فنصدم لما فيها من هزال ظاهرى ، سببه الرئيسي أن المسرحيات المدونة هي مجرد هيكل عظمي كان الممثل والمغنى والراقص والموسيقار يكسونه اللحم فى كل يوم ، واننا ما لم نفعل الشيء ذاته ، فنخلق اللحم بالفعل أو بالخيال فلا مفر من أن نظلم الفنان ونظلم أنفسنا معا .

كذلك ، ينبغى أن نذكر دوما الحقيقة الاخرى التى أشرت اليها ، وهى ان كوميديا الكسار ليست كوميديا النقد الاجتماعى بأى حال ، وان ما فيها من نقد انما يجيء عرضا .

اذا ما وعينا هذا كله ، نكون قد وضعنا الكسار وفنه فى أبعادهما الحقيقية ، وتصبح المشكلات التى تثيرها كوميديا الكسار أقرب الى الفهم والحل معا .

واول هذه المشكلات هى القناع الذى ارتداه على الكسار ، وظل محافظا عليه حتى النهاية ، قناع عثمان عبد الباسط . ان هذا القناع — فى رأى البعض — قد حرم الكسار من أن يتطور بفنه من شخصية البربرى الى شخصيات أخرى متنوعة ومغايرة ، على نحو ما فعل نجيب الريحانى .

والذين يرون هذا الرأى يحاسبون الكسار فى غير مجاله ، ويطلبون اليه أن يقدم ما لم يتعهد بتقديمه أبدا . ان موهبة الكسار الحقيقية كامنة فى حقل الكوميديا دى لارتى . وهذه الكوميديا تقوم على أساس من الشخوص المثبتة أو الاقنعة وتسعى الى بث الحياة فى هذه الشخوص ، لا عن طريق تطوير الشخصية الواحدة داخل المسرحية الواحدة من نقطة بداية الى نقطة نهاية كما تفعل الدراما العادية وانما تخيل الكوميديا دى لارتى للناس ان نماذجها المثبتة تنبض بالحياة عن

طريقين واضحين . الاول : انشـــاء عائلة بذاتها من الشخصيـــات ، تظهر فى المسرحيات كلها ، ويعرفهـــا المتفرج بمجرد النظر الى اقنعتها وأزيائها وطريقة تحركها على المسرح .

والثانى التغيير فىطبيعة العلاقات بينهذه الشخصيات من مسرحية الى اخرى . فالسيد ، أو البانتالوني تجده تارة أبا معنيا بشئون ابنته فلامينا ، وتارة ثانية معنيا بابن له فقده فهو يرثيه رثاء حارا ، ومرة ثالثة تجده زوجا شديد الغيرة لزوجة غزلة تصغره كثيرا فى السن .

العلاقات هنا تتغير بتغير المواقف ، ولـكن الصـفات الرئيسية للشخصية تبقى على حالها فى كل مسرحية ، وكذلك يبقى الاسم والزى ، ومع ذلك فان شخصيـة السيد هذه ينالها ، على المدى ، شيء من التطور ، مرجعه المواقف الـكثيرة التى تتعاقب عليها . اننا نضيف الى قامة البنتالونى المحتفى بأمور ابنته ، موقف البنتالونى الآخر المتفجع لفقـد ابنه ، وموقف البنتـالونى الثالث المهموم من أجل شرفه وشرف زوجتـه وهكذا . ومن مجموع هذه المواقف تتكون لنا شخصية كلية تتحرك فى أذهاننا حركة ظاهرية ، كتلك التى تحدث فى حـالة الرسوم الجامدة التى يصور كل منها موقفا ما لشخصية ما ، فاذا ما عرضت هذه المواقف بسرعة كافية أصبحت رسوما متحركة .

فى هذا الاطار تتحرك شخصيات الـكوميديا دى لارتى وتنمو نموا تراكميا ، أشبه الاشيـاء بنمو الشخصيـة المثبتة فى مسلسلة تليفزيونية مثل « الهـارب » حيث الطبيب الهارب هو هو أساسا فى كل حلقـة ، ولـكن شيئا ما يضاف اليه فى كل واحدة منها ، بفضل الجديد الذى يحدث له ، حتى اذا ما انتهت المسلسلة أصبح

الطبيب فى اذهانسا هو السمات الرئيسية المثبتة فيه منذ البداية مضافا اليها جمساع ما حدث للطبيب من حوادث تركت أثرها فيه .

ولو نظرنا الى قناع عثمان عبد الباسط على هذا الضوء ، لوجدنا شيئا مشابها يحدث له ، فهو النوبى الساذج ، المندفع ، الشهم ، العربيد طول الوقت .

ولكنه يغير من مواقفه وعلاقاته بباقى الشخصيات من مسرحية الى أخرى ، فهو تارة يعمل جرسونا ، وهو ثانية تاجر من الريف ، وهو مرة ثالثة مأذون الشرع ، ومرة رابعة مجند فى الجيش وهكذا . وهذه المواقف والعلاقات المتغيرة تجعل له شخصية تراكمية ينمو بفضلها فى اذهاننا ، وتضفى عليه حيوية فائقة هى التى جعلته يعيش فى مسرحية وراء مسرحية منذ عام ١٩١٦ الى ان اعتزل الكسار فنه فى الاربعينات .

وكما كانت الكوميديا دى لارتى تفعل ، كذلك كان يفعل على الكسار . كان هناك دائما شخصيات بعينها مع بربرى مصر الوحيد ، أهمها زوجته أم احمد ، السوقية السليطة اللسان ، التى تطارده عبر عشرات المسرحيات فى كلّ مكان : فى دور اللهو ، وفى البيوت ، وفى المحاكم . فكوميديا الكسار تأخذ بمبدأ شخصيات العائلة الواحدة الذى قامت عليه الكوميديا دى لارتى واعتمدته مبدأ وأسلوبا ، ووسيلة سهلة للوصول الى الجماهير العريضة .

كما انها تأخذ بمبدأ العرض المنوع ، أو كما نقول اليوم ، العرض الشامل ، الذى يجمع بين التمثيل والرقص والغناء والموسيقى والالوان ، والبهلوانية فى الاداء ، والتحالف الذى يقوم بين جميع الفنانين على

امتاع الجمهور واشعاره بأنه ليس مجرد ضيف فى القاعة وانما هو مشارك فى العرض مشاركة ايجابية . فالحديث يوجه الى الجمهور فى مناسبات متعددة ، والتراشق بالنكات أمر معترف به ، ولا عيب فيه ، وقصة المسرحية تجرى جريانا سهلا لا تزمت فيه ولا رغبة فى التزام حدود منطق ما . يكفى ان تقوم مناسبة لعرض رقصة أو لحن ، حتى يقول شخص ما لشخص آخر : هؤلاء طائفة الفجر ، أو السقايين أو الخشاشين جاءوا يعرضون لحن كذا أو رقصة كذا . ويدخل هؤلاء من فورهم ولا يلقون من الممثل أو المتفرج الا كل ترحيب .

والى جوار الكوميديا دي لارتى اعتمدت كوميديا الكسار على تقاليد الفصل المضحك المصرى ، وهو الآخر بعض نتاج الكوميديا دى لارتى ، بعد أن تزاوجت مع فن خيال الظل التركى وعروض الشوارع والموالد ، كما سأبين عند تحليل بعض مسرحيات الكسار تحليلا تفصيليا .

أما المشكلة الهامة الثانية التى يثيرها اعتماد كوميديا الكسار على فن الكوميديادىلارتى فتكمن فىمستقبل كوميديا الكسار . ان هذه الكوميديا تعتمد على فنان موهوب واسع الخيال ، قادر على الابتكار الفورى ، له جاذبية مغناطيسية وحضور مسرحى عات ، يستطيع أن يقبض بيد من حديد على انتباه الجمهور ، ويشد هذا الانتباه الى العرض المسرحى طول الوقت فاين نجد هذا الفنان القادر ، وهو لا يصنع وانما يولد ؟

فاذا حدث ووجد هذا الفنان فماذا يكون مصيره فى نظرية مسرحية تسود الآن بلادنا ، وتنكر أن يكون للفنان الحق فى الخلق الفورى ، وغير الفورى لان فى هذا ما يسمى خروجا على النص ؟

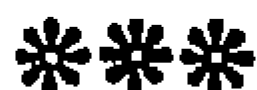
ان جزءا كبيرا من حيوية كوميديا الكسار يرجع الى حالة السيولة التى اشرت الى بعض مظاهرها انفا : الحوار ليس ثابتا وانما يتغير حسب المناسبات . الفرصة متاحة دائما لان يبتكر الكسار شيئا يقوله من فوره أو بعد تدبير سابق . المسرحية المكتوبة لا تعدو ان تكون خطوطا مطاطة لمسرحية يمكن التغيير فيها دون حرج . فكيف يمكن لنظرية مسرحية هذا حالها ، أن تنسجم مع النصوص الثابتة ، والنظرة الجامدة التى ينظر بها الآن الى الفن المسرحى ؟

لن تتاح لكوميديا الكسار فرصة معقولة للعودة الى الحياة الا اذا تغيرت النظرة الى الممثل من مجرد فنان مؤد الى فنان خالق ، اذ ذاك يقوم مناخ فنى نستطيع معه أن ننظر فى منهاج الكسار الفنى ، لنحدد أى طريق نسلك كى نفيد منه .

قد نجد اذ ذاك اننا نستطيع أن نستخدم شخصية عثمان عبد الباسط استخداما أعمق مما يجرى فى مسرحيات الكسار ، فلا نجعل الفكاهة تدور حول لونه الاسود هجوما أو دفاعا ، وانما نتجاوز هذا الى تصرفات عثمان عامة ، بين الحكمة والحمق، وبين التطلع والقعود، وبين سلبية الاهتمام بالافراد الى ايجابية الاحتفاء بالجماعات . وقد نجد فى أثناء هذا اننا فى غير حاجة الى لون عثمان الاسود أصلا ، فعثمان هو ممثل الشعب عامة بلا اصرار على لون معين .

وقد نقدم عثمان فى مسرحيات جديدة كاملة تعتمد على الكوميديا المرتجلة ، أو فى مشاهد من مسرحيات جديدة تحوى مناسبات لقيام الكوميديا المرتجلة أو قد نعدل فى مسرحيات من تراث الكسار لنجعلها أكثر قبولا لدى الجماهير المعاصرة ، كل هذا جائز وممكن الحدوث

ولـكنه لن يحدث الا اذا تبينا ان فن على الـكسار هو لون متميز من فنون الـكوميديا ، وانه لا يمثـل سذاجة مرحلة تطورنا منها وتركناها وراءنا ، وانما هو نبع كبير من ينابيع الحيوية قادر دائما على الخدمة ان كان له ماض زاهر يوما ما ، فان له أيضا مستقبلا واعدا



في مسرحية : « ولسه » التى أخرجها الـكسار عام ١٩١٩ ، من تأليف أمين صدقى ، نجد كثيرا من عناصر كوميديا الـكسار .

نجد أولا القصة السهلة الجريان المألوفة فى الكوميديا الشعبية ، فلا يتعدى الامر هنا ان عثمان عبد الباسط النوبى الطيب القلب يبحث عن عمـل يقتـات منه ، فتتوسط له مارى ، العاملة فى احد المحلات التجارية ، كى يحصل على وظيفة جرسون فى ناد خاص بالطبقـة العليا فى مصر .

وبالفعل يحصل عثمان على العمل ، ويروح ويجىء بصينية المشروبات فى حفل أقامه النادى ، وتحدث له عدة مغامرات مضحكة وتظنه سيدتان من سيدات المجتمع مخبرا سريا سلطه عليهما زوجاهما كى يسجل مغامراتهما الغرامية ، فترشوانه ، كما يرشـوه عشيقاهما بمبالغ طائلة ، ويلعب عثمان البوكر ببعض هذه المبالغ فيكسب طبعا ، ويرد الجميل لمارى بأن يهبها مبلغا تتزوج به من حبيب لها يدعى زكى بك . كما يهب المال لجرسون زميل له ، ولجرسونه فى المقهى الذى يتردد عليه .

هـذا هو الخيط الاساسي فى المسرحية ، ومن خلاله تقدم الحان الطوائف المختلفة : البويجية ، والفلاحين ، والحشاشين ، والجرسونات ، والممثلين ، والعربجية ، كما يقدم مونولوج فى ذم الشبان الذين يتصدون للنساء وتعرض أيضا بعض الرقصات .

ولـكن هذا كله انما هو الاطار البهيج الذى يتحرك داخله بطل العرض ، وشخصيته الاساسية : عثمان عبد الباسط ، فيقدم الفكاهة والالعاب والنمر والرقص ، ويحرك الاحداث ، ويجمع الشمل ويخرج لسانه لبعض الناس ، ثم يغادر المسرح وقد أرضى الجميع ، من هم على المسرح ومن هم فى الصالة معا .

ولننظر كيف يتحرك عثمان عبد الباسط فى هذه الاوبريت ، حتى يستوى أمامنا مهرجا عظيما وشخصية آسرة لا فكاك فيها .

حين يدخل علينا فى الفصل الاول نجده حيث سنتعود فى أعمال كثيرة لاحقة أن نجده . عند نقطة الصفر تماما ، على الحديدة.

وتسأله ستهم ، خادمة المقهى الذى تبدأ فيه أحداث المسرحية :

ــ طيب ايه كان طلعك من محل شيكوريل يا مدهول ما كنت بواب هناك فى أمان الله ! ؟

عثمان : بس ، بس ، بواب ايه وزفت ايه ؟ تبت ما بقتش اشتغل بواب أبدا ، ولا نخش فى البوابات ولا بوابة الشعرية حتى .

ونتبين أن عثمان يحتج على عمل البواب ، لانه لا نقابة هناك تحميه ، ويلمح زكى بك ، حبيب مارى هذا الذكاء فى النوبى الخفيف الظل ، فيقول :

زكى : اسمع يا عم عثمان ..

عثمان : (يقترب منهما وهو فى حالة يؤس ويهرش) نعم يا سيدى ..

زكى : انت بتعمل ايه دلوقت ؟

عثمان : باعمل ايه ؟ .. باهرش ! ؟

زكى : (ضاحكا) لا ، لا ، مش القصد ، يعنى ما

عندكش مركز ؟

عثمان : مركز ايه ؟ ليه ، انا مديرية ؟ !

مارى : يعنى ما عندكش وظيفة ؟ ما بتشتغلش فى حاجه أبدا ؟

ستهم : من حق ياسى زكى بك ، ما تشوف له شغلانه عندك ، يبقى لك ثواب ، ده راجل طيب وأمين .

عثمان : أمين ايه ؟ انا عثمان ياسيدى ، مش أمين أبدا ..

ومن هذا الخلط الفكاهى بين الغباء والتغابى ، ننتقل الى ناحيـة أخرى فى شخصيـة عثمـان ، فهو يحب الشراب ، لا يرفضه أبدا ، بصرف النظر عمن يقدمه له ، او فى أى وقت :

زكى : (لستهم) شوفيه قبله يشرب ايه على حسابى ؟

ستهم : حاضر ، حا تاخد ايه يا ادلعدى ؟

عثمان : آخد ايه ؟ آخد على خاطرى ، هاتى لى واحد كومندارى .

ستهم : واحد نبيت .

عثمان : واللا — واحد كونياك — .

ستهم : عوايدك يا اخويا (تخرج) .

عثمان : علشان الواحد ينسى همومه .

يتحسس عثمان الطريق ، يطلب النبيد أولا ، بوصفه طلبا غالى الثمن ، فلما لا يجد اعتراضا من زكى بك ، ينتقـل الى طلب أغلى ، هو الـكونياك ، ويقول وكأنه يبرر الشرب ، والطلب الغالى معا ، لنفسه ولزكى بك : « علشان الواحد ينسى همومه » !

ولا ينسى عثمان ان يتخفف من حيائه ازاء السادة ، فيمهد لقبوله عرض الشراب بنكتة لفظية ، تهدىء من روعه وتضحك الناس معا : « آخـد ايه ؟ آخـد على

خاطرى » (١) .

ويأنس عثمان من زكى بك ترحيبا وودا ، فيأخذ يعرض حاله :

عثمان : الاول خالص جيت أشتغل كمسارى فى الترامواى ، تانى يوم اعتصبوا الكمسارية ، جيت اشتغل فى مصلحة الكنس والرش ، اعتصبوا الكناسين جيت اشتغل فى بتوع وابور النور برضه اعتصبوا بتوع وابور النور ، قلت أنا راخر يا واد اعتصب .

هنا نجد تصويرا مسرحيا لموقف يعرفه أبناء الشعب حق المعرفة : موقف قليل البخت الذى يجد العظم فى الكرشه دائما ، وعثمان يعالج الموقف علاجا كوميديا به شىء من الاستسلام الفلسفى ، فيقرر أن يضرب هو الآخر عن البحث عن العمل فهو أولى بالاضراب ما دام من لهم عمل فعلا ، يضربون .

ونلحظ ان طبيعة الكوميديا هنا اراجوزية (٢) لانها تقدم الموقف فى خطوط سريعة ، تلخيصية ، وتنزع الى التجريد والوصول الى النتائج قفزا ، وليس عن طريق التطوير .

ثم يعرض على عثمان العمل فى النادى :

عثمان : كويس خالص ، والنادى ده فى اى حته فى قصر النيل؟

مارى : (تخرج من جيبها كارت وتعطيه له) خد

---

(١) سنجد فى مواضع متعددة من مسرح الكسار ان الهدف من النكته اللفظية كثيرا ما يكون شيئا آخر غير مجرد اثارة الضحك . يكون احيانا تعبيرا عن الحيرة ، أو الشعور بالفشل .. أو نقد الذات .. الخ . وسأشير الى بعض هذه المواضع كلما سنحت الفرصة .

(٢) كوميديا الاراجوز ليست غريبة على الكوميديا دى لارتى . ومن الناس من يعتقد أن الكوميديا دى لارتى قد عاشت بعد اختفائها فى عروض مسرح الدمى ـ راجع : دليل اكسفورد للمسرح ص ٤٠٣ طبعة ١٩٥٧

الـكرت ده ، فيه العنوان ، ولما تروح هناك بس تقول فين السكرتير ، وتقول له انك جاى من طرفى أنا .

عثمان : كويس ، بقى النادى جوه هنا ؟

مارى : لا ، لا ، ده فيه العنوان بس .

عثمان : انا أنادى على النـادى لما أشوف النادى ، (يهم بالخروج ثم يرجع) انما قولى لى : النـادى ده مش ناوى يعتصب ؟

مارى : (ضاحكة) لا ، لا ، ما تخافش .

عثمان : (خارجا) الحمد لله أنا دلوقت حالا أجيب لـكم الرد .

فى هذا المشهد تعرفنا الى عثمانعبد الباسط فى أردية مختلفة وان كان شخص واحد ثابت هو الذى يرتديها . عرفناه بوابا عند شيكوريل، وتخيلناه فى رداء الكمسارى والـكناس وعامل النور ، تخيلناه لانه لا مفر أمامنا من أن نفعل ، ما دام هو قد حاول أن يكون هؤلاء ، وان لم يفلح . ثم ها نحن نتوقع أن يصبح جرسونا فى ناد خاص

كل هذا يجعل شخصية عثمان عبد الباسط تتحرك امامنا تلك الحركة الظاهرية التى أشرت اليهـا آنفا ، وقلت انها تشبه حركة الرسوم الثابتة حين يتم تحريكها بسرعة كافية تجعلها تتحرك أمامنا وهما .

وسنجد فى المشـاهد التالية من الاوبريت ان عثمان يتقمص ـ فى الخيال وفى الواقع معـا ـ شخصيـات أخرى ، تضاف الى شخصيته الاصيلة ، وتراكم عليها الصفات والمواقف .

وسنجد كذلك ان كوميديا الـكسار تعتمد علىالخيال بنفس القدر الذى تعتمد به على الواقع ، فهى تطلب الى المتفرج أن يتخيل أحداثا الى جوار تلك التى تعرض امامه واقعا . انها نوع من الـكوميديا يفترض ان المتفرج ليس

مجرد مستهلك سلبى ، بل هو أيضا مشارك ايجابى .

وهذا الافتراض هو شيء فى صميم الكوميديا دى لارتى ، وفى كوميديا المسرح المرتجل فى مصر ، كما انه نبع واضح من ينابيع الكوميديا عند كبار المهرجين ، وعلى راسهم تشابلن ، الذى اغترف من الكوميديا دى لارتى حتى شبع (١) .

وما يلبث عثمان أن يعود فائزا منتصرا ، فقد حصل على عمل فى النادى ، وأن طلبوا اليه أن يشترى لنفسه بدلة سوداء وقفازا ابيض ، وليس أمام عثمان مفر من أن يحصل على المبلغ اللازم بأية وسيلة . لم لا يجرب أن يقترض من الجرسونة ستهم ؟ انها تحبه فيما يبدو وهو الآخر يميل اليها :

عثمان : يا ستهم .
ستهم : يوه ، قطيعه يا منيل ، قلبى قرب يحبك .
عثمان : وانا شرحه ، بس مكسوف نقول لك .
ستهم : يوه ، تقول لى على ايه ؟
عثمان : لا بس عبارة بسيطة خالص ، لكن يمكن موش موجود وياك .
ستهم : ايه هوه ؟ اطلب عينى .
عثمان : (على حدة ـ للجمهور) ايوه قربت تطلع . (لستهم) بس ...
ستهم : يوه ، اتكلم .
عثمان : لا بس عاوز قد سته ريال علشان نشترى

(١) الوهم بوصفه مصدرا للكوميديا موجود دائما فى الاعمال الكوميدية الهامة مثل الوليمة الوهمية فى ألف ليلة . مغامرات دون كيشوت أمام طواحين الهواء الوهمية . مشهد مباراة الكرة الوهمية فى فيلم انفجار . الخ . وهو موجود أيضا فى نمرة الارليكينو اللى ياكل ذبابة وهمية بعد أن يطاردها ويمسكها ، كما يرد كذلك فى فصل : « خياطة وخياطة » من فصول الارتجال المصرية .

البدلة ، لان لو ما جبتش البدله تروح من أيدى الوظيفة
ستهم : يا قلبى يا اخويا ، ما كانش ينعز ، لو كانوا بدلى ييجو على قدك لـكنت اديتك بدله .
عثمان : بدله ؟ ليه رايح أشـتغل كماريره ؟ اخص عليك وعلى معرفتك ، مش بتقولى بتحبينى ؟ مستخسره فى سته ريال ؟
ستهم : باحبك ، لكن ما معاييش فلوس .
عثمان : بقى حضرتك بتحبينى على الناشف ؟
ستهم : ناشف ايه وطرى ايه ؟
عثمان : (باكيا) بس بلاش كلام فارغ ، أنا أحسن طريقة دلوقت ما دام عيشتى بقت زى الزفت كده ، أنا أروح اسم روحى أحسن من البطالة .

الفكاهة هنا تكمن فى الطريقة التى تحدث بها الكوميديا الشعبية مفارقة واضحة بين ادعاءات كل من عثمـان وستهم الفراميـة وبين حقيقة نواياهما وامكانياتهما . المشهد يحوى سخرية متعمدة من الحب الرومانسى ، ومن فكرة الحبيب الفـارس الذى يحب بلا غرض ومن المحبة المضحية التى لا تبخل على حبيبها بشىء .

هذا نوع من الحب لا يقدر عليه الفقراء ، ستهم تحب عثمان فعلا ولـكنها لا مال لها تقدمه له ، وهو يحبهـا أيضا ، غير انه أعجز من ان يحبها بلا غرض .

وينتهى الموقف بالبكاء التقليدى الذى يقدمه المهرج ، حين يعجز عن مواجهة مشكلة ما (١) .

ويخرج عثمان من المشهد وقد أضيفت الى صـورته الـكلية صفة المـكر الشعبى المـدروس ، ولـكنه مكر هين ، طيب القلب ، يستهدف أشياء قريبـة لا تؤذى أحدا .

---

(١) البكاء المفاجىء للتأثير على الشخصية المقابلة سمة رئيسيه فى المهرج . قارن ما يفعله لوريل بازاء هاردى فى هذا المجال .

وفى الفصل الثانى نلقى عثمان وقد أصبح جرسونا فعلا ، ونال ما تمنى . انه يطوف بالصينية حاملا المشروبات للمشاركين فى الحفل ، ثم يؤدى حركة معروفة فى الكوميديا العالمية ، اذ يتلفت حوله فلا يجد أحدا يراقبه ، فيشرب ما فى الكاسات قائلا :

ـ سيبك ، خلينا ننبسط ، لازم أنا كمان نعملو باللو

ويدخل عليه جرسون زميل ويعلق على قيافته فى البدلة الجديدة فيقول عثمان :

ـ دى الحاجات الموضة الاصلى ، شوف ، شوف كمان يا وله (يفرجه على شعره) شوف الكاريه والجزماتيك اللى على راسى .

وينتشى المهرج المهزار ولا تسعه الدنيا ، فيقول لزميله :

ـ بالك لو كنت أنا دلوقت آتنين عثمان فى بعض كنت حطيت نصى فى الشباك علشان اتفرج على نصى التانى وهوه فايت كده زى البطة .

هذه هى الفكاهة الرقيقة المجنحة ، التى تحويها كوميديا الكسار ، والتى قلت فيما تقدم انها تعتمد على خيال مشتعل عند المتفرج ، فالمتفرج هنا لايشاهد شيئا ، وانما يطلب اليه أن يشحذ خياله ليجد مادة للفكاهة فى الصورة السيريالية التى يتخيلها عثمان لنفسه ، تعبيرا عن النشوة والرضا عن النفس .

ويرقص عثمان من بعد مع ستهم ـ لا يتردد ـ وتقع منه الصينية وتنكسر الكاسات ، وتبدر منه كل الاعمال الطائشة التى يتعمد المهرج فى الكوميديا الشعبية أن تصدر منه ، اذ هو يمثل دور الفشيم ، الخشن الحركات

وفى الفصل الثالث يقدم عثمان مشهدا طريفا يظهر به بوضوح أن كوميدياه تنتمى الى ذلك اللون العالمى الذى كان يقدمه المهرجون الكبار من أمثال لوريل ،

وهاردى ، واخوان ماركس، وتشابلن العظيم — وخاصة هذا الاخير ، وذلك حتى اربعينات هـذا القرن ، نوع تختلط فيه الحركة البدنية العنيفة بالسخرية الهزلية ، بالخيال :

عثمان : (يدخل ومعه صينية . لنفسه) أيوه براوه النوبه دى ما كسرتش حاجة .

جميل : انت ياجرسون .

عثمان : (يلتفت حوله ، ثم ينظر للخارج مناديا) انت انت ياجرسون .

جميل : انت ، انت .

عثمان : (للداخل) انت ، انت (١) .

لقد نسى عثمان انه جرسون ، انه — كزميله الـكبير — أرليكينو ، يحب أن يتلبس الشخصيات كلها ، ويقـدم الملاعيب ، ولـكنه ينسى أدواره دائما ولا يذكر الا نفسه ولهـذا سرعان ما ينسى انه يمثل ، ويظن مخلصـا ان الجرسون هو شخص آخر غيره ، وان النداء موجه لهذا الغير ، ومن ثم تنشأ فكاهة ساخرة غير مقصودة ، تصيب الثرى الثقيل الظل جميل بك ، وتجعل منه كلبا ينبح ، بدلا من ثرى يأمر ، تجعل هياجه سخيفا بلا معنى ، ويستمر المشهد :

جميل : (متضايقا) ايه ، انت مجنون ؟ (يقترب منه) يعنى عامل نفسك مش فاهم ؟ أنا باندهلك انت .

عثمان : بتنده لى أنا ؟!

---

(١) يذكرنا هذا المشهد بمشهد المدعى العام وهو يشير باصبع الاتهام الى مجرم عات وسفاح دموى يقتل النساء ويغتصب لنفسه أموالهن هو مسيو فردو . ويلتفت الناس الى فردو بوصفه ذلك المجـرم ، فيلتفت هو الاخر الى الوراء بحثا عن ذلك السفاح .
انه لا يعترف قط بأنه سفاح ، ويرى ان كلمات المدعى العام النارية لا تنطبق عليه بالقطع . ولربما انطبقت على غيره .

جميل : امال خيالك ؟
عثمان : طيب بردون ، بس علشان أنا لسه جديد فى الجرسنة .
جميل : (بتهكم) معلوم ، مش متعود ما أنا فاهم وظيفتك ايه .
عثمان : (باستغراب) وظيفتى ؟
جميل : بقى شوف أما أقول لك ، أنا فى امكانى دلوقت الخبط وشك ده اللى انت مسوده ، لكن علشان مركزى
عثمان : ايه ، ايه ، ايه ؟ تلخبط وشى ؟ (يرفع الصينية عليه) تلخبط وش مين يا وله ؟ (للمتفرجين) ايه الرأى ؟ اديله بالصينية دى فى خلقته ؟
جميل : لا ، لا ، سيبك من أمور التهويش دى ، انت شغلتك اللى بتعملها هنا أنا فاهمها (يتركه ويتمشى فى المسرح) .
عثمان : (للمتفرجين) انتم شاهدين ؟ أنا يا وله ؟ استنى ، يكونش الراجل اللوح ده قومندا هنا ، واخد باله لما انكسرت منى الكبايات مرتين وتلاته (يقترب منه) بردون ما تزعلش ياسيدى ، أنا ما عملتش كده بكيفى ، ده شيء غصب عنى .

تضيف السطور السابقة الى عثمان صفة جديدة هى الاندفاع الاهوج الذى يطاوع به رغبته فى الانتقام ممن يهينه ، ثم التراجع السريع الى موقف الحذر ، خوفا من أن يكون جميل بك رئيسا له فى العمل ، لا قبل له بأن يصطدم به ، حتى على سبيل الانتقام .

وهاتان صفتان رئيسيتان فى المهرج ارليكينو ، وفى المهرج عامة ــ الشجاعة الحمقاء والجبن الواقعى ، لا يفصل بينهما زمن طويل أو تحول معقول .

ويصبح عثمان ، بالرشاوى التى تقدم له ، وبما

يكسب فى اللعب من مال ، ثريا ، فيكون أول نازع له ان ينفس عن نفسه ، ويلعب مع جرسون زميل له ومع ستهم لعبة السيد الثرى المحسن ، مع أصدقائه الفقراء الذين زاملوه أيام النحس :

عثمان : خد الورقة دى علشانكم ، انتم الاتنين .

ستهم والجرسون : الله يخليك ، الله يسترك .

عثمان : لا خليها مع ستهم ، وهى تنقى تدى لك حصتك .

ستهم : الهى يغنيك كمان وكمان ياعثمان يا ابن‌حليمة

عثمان : هات لى سيجارة علشانى يا ولد .

الجرسون : حاضر يا افندم (يسرع الى الطاولة فياخذ علبة السجاير ويقدمها لعثمان) .

عثمان : (يتناول السيجارة) يا ولد ولع لى .

الجرسون : ايوه يا افندم (يشعل كبريت ويولع لعثمان) .

عثمان : (وقد أخذ نفسين) اذا سألوك عنى فى البوفيه قول لهم هوه كان بيشتغل كده بس زى غيه .

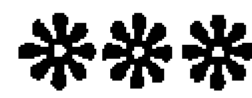
هذا هو جانب التفاخر والادعاء فى شخصية المهرج ، وهو ــ مثله مثل المكر الشعبى ــ ادعاء طيب القلب ، غير مؤذ ، هدفه الاساسى ان ينفس عن الكبت المتأصل فى نفس الفقير المسحوق ، ويعطى صورة فكاهية للخادم وهو يقلد السادة .

وتنتهى المسرحية وقد أصبح عثمان الجرسون عثمان بك ، من أعيان كوم امبو ، ويدخل فى مبارزة بين السادة جميل بك وحافظ بك تتخذ شكل المقامرة ، ويكسب ألفى جنيه من جميل بك ، فيتم بها الانتصار الشعبى على السادة ، ويصبح ممثل الشعب سيد الموقف بلا منازع .

اذ ذاك يتبرع عثمان (بك) بألفى جنيه لتتزوج مارى من حبيبها ، ردا لجميل الاخيرة التى كانت أقرضته جنيهين فى اليوم السابق ، ويقول لمارى بوضوح ولكن دون أن يمتن :

ـ علشان تعرفى ان المصرى منا كريم ولا ينساش الجميل .

ثم يتزوج عثمان من ستهم ، التى وقفت معه ـ قدر طاقتها ـ أيام الشدة .



يتحرك عثمان عبد الباسط كل هذه الحركة الواقعية والخيالية فى اطار واضح من اطر الفصل المضحك ، وشخصياته التقليدية : العاشق والعاشقة والاب الظالم (أو من يقوم مقامه) والخادم المضحك الذى يعين العاشقين على اللقيا والزواج ، ثم الخادمة أو من يقوم مقامها .

وتدور الحركة فى الاوبريت كما تدور دائما فى الفصل المضحك ـ فالعاشقان يحاولان دائما ، المرة بعد المرة أن يلتقيا ، فيمنعهما الاب المتعنت ، ولكنهما فى النهاية ينجحان فى التواصل بفضل جهود الخادم المضحك ، وينتهى الفصل بزواج العاشقين وزواج الخادم من حبيبة له كان يحبها ، أو هو يحبها خصيصا من أجل أن يحصل الفصل المضحك على خاتمته التقليدية وهو الزواج المزدوج .

وفى أوبريت « ولسه » ، يمثل العاشقين : مارى وزكى بك ، ويمثل الاب المتعنت : جميل بك عم زكى ، ويقوم عثمان بدور الخادم المضحك ، كما تقوم ستهم بدور الخادمة التى تتزوج من المهرج ، غير أن المؤلف يدخل على هيكل الفصل المضحك ما يطلبه المسرح الاستعراضى من تشويقات ، فهناك أغنيات الطوائف

المتعددة ، التى تتخذ وسيلة للترفيه عن المتفرج ، كما انها تحمل شيئا من النقد الاجتماعى الخفيف ، يزيد من خفته انه يتم فى اطار من الموسيقى والغناء والرقص

ولكن هذا النقد لا يخرج عن شكوى الزمان وعرض الحال ، والامل العام فى أن تنصلح الاحوال .

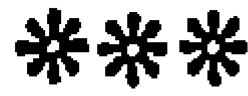
وبعض هذا النقد يقوم بوظيفتين متعارضتين ، هما عرض شكوى طائفة ما ، والسخرية من هذه الطائفة فى الوقت ذاته ، مثلما يحدث فى حالة أغنية العمد ، الذين تقدموا يشكون سوء تصرفات زكى بك ، وانفاقه المال جزافا على الراقصات ، فان الراقصات يتناولنهم بالسباب المقذع المزرى ، ولا يفعل المؤلف شيئا كى يرد عن العمد هذا الاذى مما يوحى بأنه يريد أن يستغل الموقف للسخرية من عمد الريف .

كذلك يضيف المؤلف الى ما تقدم موضوعا فرعيا عن زوجتين عاشقتين تظلان طول الوقت وهما متخوفتان من أن ينفضح أمرهما عند زوجيهما عن طريق مخبر سرى تظنان أنه عثمان عبد الباسط وقد تخفى فى زى جرسون .

وهو موضوع مجتلب من المسرح الفرنسى ، ولكن امين صدقى يحسن ادماجه فى مصير عثمان عبد الباسط ويجعله وسيلة لتحقيق هدف رئيسى من أهداف الكوميديا الشعبية ، وهو اظهار الشعب منتصرا وقويا وأرقى دائما من السادة .

ان الزوجتين تنكشفان أمام ممثل الشعب ، الذى يسخر من دناءاتهما ، ويقبل — مع ذلك — أموالهما ثمنا للسكوت عن الفضيحة (وهذا دائما داب المهرج ، والاراجوز بالذات ، الذى لا يجد تعارضا بين احتقاره لخصومه ، وقبوله لمالهم الملوث فى الوقت ذاته) .

وفى المسرحيات التالية لاوبريت « ولسه » ، أصبح الشكل الفنى الذى قدمت تحليلا له ، هو الشكل التقليدى لكثير من أوبريتات الكسار وأعماله المسرحية الاخرى : اى أساس من الفصل المضحك ، فوقه بناء مجتلب من المسرح الفرنسى ، على أن يظل عثمان عبد الباسط يتردد بين الاساس والبناء ، حتى تنتهى المسرحية .



كان هدفى الرئيسى من تحليل أوبريت « ولسه » ، ان اظهر سمات المهرج الكبير : عثمان عبد الباسط ، وأوضح كيف ينبنى أمامنا موقفا بعد موقف ، بوصفه أهم ما تحتويه كوميديا الكسار من شخوص .

والسمات التى قدمتها فى هذا التحليل هى التى تكون القناع الذى ارتداه على الكسار فى كثير من المسرحيات مثل : البربرى فى الجيش ، والهلال (١٩٢٣ كلاهما) ، اللتين يقوم فيهما الكسار بدور نفر فى الجيش ومثل « فلفل » ، و « القضية ١٤ »و« فهموه » و « احلاهم » الاربع الاخيرة منها من تأليف امين صدقى .

غير ان على الكسار لم يرتد هذا القناع وهو راض تماما ، بل ان علامات واضحة من علامات التململ لتطل من وراء القناع ، مظهرة بجلاء ان الكسار ، شأنه فى هذا شأن كثير من ممثلى الادوار الثابتة ، كان يضيق بالطريق الفنى الواحد ، ويود لو استطاع التخلى عنه وتبنى أساليب فنية مختلفة .

وقد لجأ الكسار الى حيل متعددة للتوسيع من قاعدته الفنية . لجأ الى ما يشبه النظر ـ بقناع عثمان عبد الباسط ـ فى مرايا متقابلة ، فتضاعفت صور عثمان فى المسرحية الواحدة .

فى مسرحية « فهموه » من تأليف أمين صدقى ، يقوم

عثمان عبد الباسط بدور جرسون فى مقهى الخواجه انطون اليونانى من الثامنة صباحا حتى الحادية عشرة مساء ، ومن بعد هذا يقوم بدور عثمان بك عبد الباسط التاجر الغني من أعيان كوم امبو المتزوج من أم أحمد شكشوكة ، المغنية البلدية ، والمصادق للجميلة فيكتوريا التى ينفق عليها عن سعة .

وحين « تطب » عليه أم احمد ، وهو فى صالة الالديرادو يتهيأ لقضاء ليلة أنس مع صديقته ، يضطر عثمان عبد الباسط الى القيام بدوريه معا : فهو التاجر الغنى بالنسبة لفيكتوريا ، وهو الجرسون بالنسبة لام احمد ، وهو مضطر الى أن يتصرف كغنى وكجرسون فى تتابع زمنى قصير ومضحك .

وفى مسرحية « القضية نمرة ١٤ » يقوم عثمان عبد الباسط بدور وكيل دايرة ، ويتصادف أن يلتقى بعثمان أفندى أبو زيد المحامى بطوكر ، وهو شبيهه تماما حتى يقول عثمان لدى رؤيته : « لازم هنا فيه مرايه ، أنا شايف روحى » (١) .

ويكون المحامى قد ضبط فى محل قمار واصبح حتما عليه أن يتعرض للمحاكمة ، فيتفق مع عثمان عبدالباسط على ان ينتحل شخصية المحامى ويمثل أمام البوليس نيابة عنه ، وذلك بعد أن يتبادلا الملابس .

ومن ثم يصبح عثمان عبد الباسط محاميا ، ويترافع أمام المحكمة مرة لصالح زوجته أم احمد وضد نفسه ، ومرة أخرى لصالح جميع بلدياته النوبيين الذين تعدوا القانون ، ويخرج عبد الباسط من احدى الشخصيتين ليدخل فى الأخرى بسرعة مضحكة على طريقة اركيكينو التقليدية .

(١) ولى تعديل على النص يقول : لازم أنا مت . وعفريتى طلع هنا

وهو فى مسرحيــة « بربرى فى الجيــش » يتبــادل شخصيته مع شخصية ضابط مصرى، دون أدنى احتفال بالمعقوليه ، فالضابط أسمر وعثمان أسود .

وجرب الـكسار حيلة فنية أخرى هى تغيير الوضع الاجتماعى لعثمان عبـد الباسط مع الاحتفـاظ باسمه ولونه وسماته الرئيسية .

فهو فى مسرحية « ما فيش منهــا » من تأليف بديع خيرى يصبح تاجر ســـباخ غنى اسمة عثمان أفنـدى ، يريد ان يتزوج من الريف . وهو فى مسرحية « عريس الهنا » من تاليف امين صــدقى ، قد أصــبح مأذونا للشرع .. وهكذا .

ومرة ثالثة يغير الـكسار من دور عثمان عبد الباسط التقليدى كما عرفناه فى المسرحيات .

فهو فى مسرحية « بنت الايه » من تأليف بديع خيرى لم يعد الخادم المضحك الذى يجعل همه الرئيسىالوصل ما بين المحبين ، بل هو الآن يقوم ـ فى الواقع ـ بدور الاب المتعنت الذى يمنع وصال المحبين .

ان دوره هنا هو دور الحاج عثمان عبد الباســط ، صاحب المقلى الذى يريد لابنتــه جواهر ان تتزوج من الطبقة التى تنتمى اليها ، .وأن تقبل عرض ابن عمهــا شومان الزواج منها ، ولكن الفتـــــاة متعلقة فى السر بالبرنس بسيم الذى يبادلها حبا بحب .

ويعلم الحاج عثمان بأمر هذا الغرام المخفى ، فيفعل كل ما فى وسعه ليمنع الحبيبين من اللقيا .

وهو يقوم طول الوقت بدور المضحك ـ مع ذلك ـ فكأنه يجمــع بين دورين : دور الاب المتعنت ، ودور المضحك وقد تغير وضعه الاقتصــادى ، فأصبح تاجرا صغيرا بدلا من مجرد خادم ، وبهذا يخرج الـكسـار على

تقاليد الفصل المضحك التي تثبت الادوار دائما .

ومرة رابعة ، يتنازل الكسار عن اسم عثمان عبد الباسط كلية ، وان أبقي على لونه وسماته العامة ، يحدث هذا في مسرحية « عمرو بن العاص » حيث يقوم الكسار بدور المهرج العربي الخفيف الظل عبد الله الذي يصحب جيش عمرو في غزوه لمصر ، ويقوم بدور فعال في اتمام هذا الغزو ، كما يقوم بدور المضحك التقليدي في الوصل ما بين المحبين ، وذلك حين يساعد أرمانوسة على الزواج من حبيبها الروماني الذي ترك صفوف الرومان واقتنع بمساعدة العرب .

وفي مسرحيتي « أبو زعيزع ، وورد شاه » من تأليف بديع خيري ، يقوم الكسار بدوري : الساحر سماح ، والمهرج الطيب المخلص زيتون على التوالي ، وكلاهما أسود اللون ، وكلاهما يقوم بدور الخادم المضحك التقليدي ، وهو التوفيق بين المحبين ، وان امتاز الساحر سماح عن بقية الخدم المضحكين بعلمه السحري وقواه الخارقة ، مما يجعله أشبه بالجني في حكايات ألف ليلة .

وفي المسرحيات الثلاث : « عمرو بن العاص ، وأبو زعيزع ، وورد شاه » يغير الكسار النوع المسرحي الذي يستخدمه ، فالاولى مسرحية تاريخية ، والثانية مسرحية خرافية ، والثالثة ميلودراما ، يفعل الكسار هذا سعيا واعيا منه نحو تغيير الخلفية التي يتحرك أمامها مهرجه الكبير (١) .

وفي مرة خامسة ، غير الكسار اسم عثمان عبد

---

(١) في هذا الشأن قال الفنان ذات يوم : « لم يقتصر جهدي على المسرحيات الفكاهية فقط (يريد المسرحيات التي تعتمد على الفكاهة الشعبية وحسب) بل قدمت مسرحيات من أنواع أخرى مثل : عمرو بن العاص وورد شاه .

الباسط ومركزه الاجتماعى وبعضا من سماته الرئيسية معا ، وذلك حين قدم تمصيره المشهور لبخيل موليير بعنوان : « سرفوا الصندوق » ففى هذا التمصير تدخل تركيب عثمان ـ لاول مرة ـ صفه البخل الواعى ، المخطط له ، وهى سمة غريبة على البربرى .

وفى مرة سادسة ، غير الكسار شخصية عثمان كما غير جوهر الكوميديا التى يتحرك فيها مهرجه ، فهو فى مسرحية « حارس القصر » يقترب بوضوح من كوميديا الريحانى ، التى تعتمد على شخصيات متباينة فى أسلوب خلقها ، منها ما هو تقليدى ، ومنها ما هو مبتكر منتزع من البيئة (١) .

وفى مرة سابعة غير الفنان جوهر الكوميديا دون أن يتنازل عن شخص عثمان عبد الباسط ، وانما اكتفى بأن جعله صديقا للطبيب كمال بطل مسرحية « جت سليمة » وجعل اسمه عثمان افندى ، واسند لعثمان افندى هذا دورا شبيها بدور الخادم المضحك ، فهو يعين صديقه الطبيب على الزواج من جمالات ، الفتاة العصرية الفائقة الحسن ، وهو يتناول الشخصيات والاحداث بتيار متصل من التندر والنقد ، ولكنه يختلف عن عثمان عبد الباسط فى انه أشبه بالشخصيات البوهيمية المتعددة الابعاد التى تعيش ليومها فقط ، وتعانى من افلاس متصل .

وهذه المسرحية بعيدة تماما عن الفصل المضحك الذى استندت اليه الاعمال الاولى للكسار ، فالشخصيات ليست نمطية، وليست تقليدية ٠٠بل هى منتزعة من واقع الحياة : الطبيب كمال ، الفتاة العصرية جمالات ، العمة

---

(١) قدمت فرقة الريحانى هذه المسرحية باسم : « عباسية » فى عام ١٩٣٠ ، اى قبل سنوات من تقديم الكسار لها .

خديجة هانم ، الارتيست صوفى وزميلتها سنية وهكذا.
الاستثناء الوحيد نجده فى صاحب الكاباريه اليونانى جورجى ، وحارس الكاباريه الارمنى غرغوريان .
واذا عرفنا أن المسرحية هى من تأليف على الكسار، أدركنا على الفور ان الفنان كان يحاول فى أواخر مجراه المسرحى (المسرحية أخرجت عام ١٩٤٦) أن ينطلق من حدود الكوميديا الشعبية الى نوع من الكوميديا قريب من ذلك الذى كان زميله ومنافسه نجيب الريحانى يقدمه بنجاح منذ أوائل الثلاثينات ، أى الكوميديا الانتقادية التى تستند الى أساس من الكوميديا الشعبية .
بل ان ثمة دليلا على ان الرغبة فى التغيير كانت تعتمل فى نفس الكسار منذ أخرج مسرحية « مرحب » فى أوائل العشرينات ، فقد قال فى حديث لمجلة الكواكب (١) انه رغب ذات يوم فى أن يحصل على اجازة بعد عمل متواصل خمس سنوات دون راحة ، فأسند دور البطولة فى مسرحية « مرحب » الى الممثل محمد بهجت الذى قام بتمثيل شخصية زقزوق خير قيام ، ولكنه ما لبث أن مرض بعد أسبوع فأسند الدور الى أمين صدقى ، فمرض هو الآخر بعد يومين ، ولم يعد مفر امام الكسار من أن يقوم هو نفسه بدور زقزوق ، فظهر لاول مرة دون طلاء وجهه باللون الاسود ، ونجح فى الدور الى حد انه فكر فى أن يطلق شخصية عثمان عبد الباسط مرة ثانية فى مسرحية جديدة وفعلا ظهر الكسار فى مسرحية لاحقة هى « راحت عليك » فى دور سفروت الحاوى ، وهو أيضا ليس أسود اللون ، فنجح هنا كذلك وهنأ الناس على الكسار وسموه على الابيض ، وقالوا انه تفوق على جورج أبيض .. !
غير ان المعجبين بعلى الكسار ما لبثوا أن عادوا

(١) عام ١٩٥٢

يحذرونه من ترك شخصية عثمان عبد الباسط ولو بين الحين والحين ، خوفا من أن يتوه بين البياض والسواد، ولا تعود له شخصية تقليدية يتهافت عليه الناس من اجلها .

هذا ما يقوله الكسار ، ولا شك انه صحيح ، غير انه ليس كل الحقيقة ، فان هناك سببا أعمق لتمسك الفنان بشخصية عثمان عبد الباسط ، هو أن القالب الذى صبت فيه موهبة الكسار ــ منذ البداية ــ كان الكوميديا دى لارتى ونتاجها المصرى : كوميديا الفصل المضحك (١) .

وهذه الكوميديا تقوم على دعامة من الشخصيات المثبتة ، أو الاقنعة ، وتوجه موهبة الفنان نحو اتقان تمثيل الشخصية القناع الى الحد الذى يختفى فيه الفاصل بين الممثل وقناعه ، فيصبح كلاهما شيئا واحدا، ويصبح من العسير على الفنان الذى قضى حياته الفنية كلها يمثل دورا واحدا أن يستطيع تمثيل غيره .

واعتقد ان ما حدث للكسار هو انه رغب فى التغيير، ولكنه لم يقدر عليه ، ولم يطاوعه قلبه وربما لم يشأ أن يغامر بمستقبله الفنى فى تجارب متصلة قد تنتهى بالفشل . والتغيير للفنانين من أمثاله ممن تربوا فى مدرسة الكوميديا دى لارتى أمر عسير حقا ، ولنذكر فى هذا الصدد ما حدث للممثل شارلى تشابلن ، الذى قاوم الظهور فى السينما الناطقة مدة طويلة ، ليس لمجرد انها ناطقة كما ظن المتعجلون اذ ذاك ، وانما لان التمثيل

---

(١) لعل هذا يفسر ما ذكره الكسار لحسين عثمان من ان الريحانى عرض عليه أن يعمل فى فرقته على أن يقدم له مسرحيات جديدة يلعب فيها دور عثمان ، فرفض الكسار العرض . وربما كان السبب فى الرفض أن الكسار احس ــ تلقائيا ــ بانه غير قادر على التمثيل فى اطار كوميديا جديدة ، حتى ولو لعب دوره التقليدى فيها .

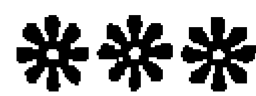
الصامت فن مختلف كل الاختلاف عن التمثيل الناطق، كلاهما له قواعده وقوانينه .

فالممثل الصامت محتاج الى المبالغة فى الحركات بالجسم وبالايدى ، ومحتاج الى ان يعقد مع المتفرج معاهدة تفاهم مشترك تؤدى فيه مجموعة من الحركات معانى بذاتها ، مثلما يحدث فى الباليه ، يراها المتفرج فيفهم المقصود بها فورا ، كما انه محتاج الىاستخدام(١) خياله ليكمل بعض المعانى .

أما المتفرج فى السينما الناطقة فهو فى غنى ــ بالحوار ــ عن هذا كله ، وهو غير مضطر لاستخدام خياله ، لان كل شىء يؤدى له كاملا ومن أيسر سبيل .

لهذا اعتقد تشابلن منذ البداية ان السينما الناطقة فن مسطح ، لا اعماق له بالقياس الى السينما الصامتة ومن ثم قاوم الظهور فيها مدة طويلة ، فلما ظهر فعلا ، رأى كثير من الناس انه خرج عن أعماقه التى عرفوها عنه أيام أن كان يقوم بشخصية شارلىالمسكين، الجوعان الفيلسوف ، أى انه ــ فى رأى هؤلاء ــ قد فقد أرضه حينما تخلى عن القناع ، وعما يمليه القناع من أسلوب فنى .

أما الكسار فلم يشأ ان يمضى قدما فى التخلى عن قناعه حين سنحت الفرصة ، وانما اكتفى بما سلفت الاشارة اليه من محاولات متنوعة لتوسيع معنى القناع.



الى جوار شخصية عثمان عبد الباسط فى دنيا الكسار ، هناك شخصيات أخرى كثيرة ، ولكنها فى معظمها نمطية ، وأغلبها موجود فى مخازن الكوميديا

---

(١) بهذا تضمن السينما الصامتة للمتفرج نوعا من الدور الابجابى ، يقربها من المسرح الحى . فالمتفرج فيها ليس مجرد مستهلك سلبى . وانما عليه أن يجهد ويتعب كى نفهم ما يعرض عليه . وهذا لون من ألوان المشاركة فى العرض .

الشعبية ، جاهز لاستعمال كل من أراد ، أى انها ملكية مشتركة لكتاب وفنانى الكوميديا .

وأول هذه الشخصيات وأكثرها استحقاقا للاعتبار، كما أنها أكثرها ترددا على مسرحيات الكسار ، هى الزوجة السليطة اللسان أم احمد ، العفية ، الراغبة دائما فى الشجار ، وان كانت مخلصة كل الاخلاص لزوجها عثمان عبد الباسط ، غيورة عليه ، محبة له الى الحد الذى يجعلها لا تفارقه الا اذا طلبت منه قبلة ، تعتبرها هى دليل محبة ، ويعدها البربرى المسكين نوعا من عقاب ، أسوأ ما فيه انه لا مفر منه !

وأم احمد ذات أصول عريقة فى دنيا الكوميديا الشعبية ، تعرفها فصول الارتجال باسم شكشوكة ، وتجعلها فى بعض هذه الفصول زوجة للمضحك ، مثلما يحدث فى هزلية جنيفياف ، وأحيانا أخرى هى زوجة وحسب وامرأة شرسة ، مثلما نجدها فى فصل الجزمجى اشكازى عبده (١) .

وقد أعطاها أمين صدقى اسم أم أحمد شكشوكة ، فى مسرحية « فهموه » ، وسماها أم أحمد فى باقى المسرحيات .

وكانت قد ظهرت بوصفها شخصية نمطية فى أعمال سابقة لامين صدقى ، أيام تعاونه مع الريحانى ، تارة باسم أم أحمد ، وتارة أخرى ، وفى معظم الاحيان ، باسم أم شولح ، حماة كشكش بك ، وسماتها وأخلاقها هى طبق الاصل ما نجده فى أم أحمد زوجة عثمان عبد الباسط .

وتخلق أم احمد حين تظهر أو تهدد بالظهور فى مسرحيات الكسار جوا من الرعب المضحك لدى المهرج

---

(١) راجع كتابى : الكوميديا المرتجلة فى المسرح المصرى .

الكبير ، أنها تطارده دائما ، وتكبس عليه وهو فى اجواء المرح والغزل ، فتقلب افراحه اتراحا ، وهو ضعيف بازائها ، ففى امكانها ان تضربه ، لذلك فهو ينافقها ، ويظهر لها الحب وهو يود ـ فى اعماقه ـ لو نزلت عليها مصيبة قضت عليها .

غير ان هذا كله بدون جدوى ، ان ام احمد هى المقابل المضاد لعثمان عبد الباسط . وهو مضطر الى العيش معها ، رضى أم كره ، وهو يرضى فى أحيان نادرة مثلما يحدث فى نهاية مسرحية « فهموه » ، حين يتمنى صاحب المقهى اليونانى انطون لو لم يكن عثمان نوبيا حتى يستطيع أن يزوجه من ابنته « كاتينا » فيقول عثمان :

ـ لا ، يا اخويا ، موش عاوز الكتينة بتاعك . انا عندى أم احمد مراتى ، أحسن من ألف كتينة ومنبه .

يقول هذا وهو نصف مخلص ، يقوله لان الوطنية تفرض عليه أن يفضل البضاعة المحلية على الاجنبية .

ولكنه يقوله أيضا لانه ـ فى أعماقه ـ ربما كان يحب أم احمد ، فان المرء يحب من هو ضده فى كثير من الاحيان !

هذا واحد من المواقف التى تظهر فيها أم احمد فجأة فتفسد على عثمان مشروعاته الغرامية . كان النوبى قد اتفق مع امرأة اسمها ما شا الله على أن يتزوجها بعد أن افهمها أن زوجته أم احمد قد ماتت ، وهذا هو يأتى ومعه هدايا لزوجته الجديدة ، ليقابلها فى الميعاد المحدد ولكن المرأة التى تنتظره ليست ما شا الله وانما هى أم احمد ، وذلك بعد أن تآمرت المرأتان على عثمان ، عقب انكشاف خطته لكل منهما « مسرحية فلفل ـ تأليف أمين صدقى »

ام احمد : والنبى ما انا عتقاك يا عثمان ، قلبت عليه الدنيا ما لقتوش ، قال ايه رامى على يمين من شهر ، وداير يقول للنسوان انى مت ، لولا الشابة دى اللى فهمتنى ما كنتش فهمت حاجة أبدا ، انا أقف أستناه هنا وأفهمه انى ما شاء الله ، واشوف رايح يعمل أيه ؟

عثمان : (يدخل وبيده بقجة فيرى ماشا الله) أيوه رندفوه تمام « يقترب منها » ياماشا لله ياجمال خالص .

أم احمد : (على حدة وهى تتمايل) نهار ابوك اسود.

عثمان : (ينظر اليها باعجاب) ياغصن البان ، ايوه ادى الحاجات اللى ترم ، مش مراتى القديمة أم احمد، خدى آدى جلابيتين ولباسين وفنلتين على كيفك ، واربع مناديل .

ام احمد : ماجبتش كركة ؟

عثمان : بكره أجيب لك كنكة تاخد خمس فناجيل. آه يا ماشا لله ، آه يا حبيبتى ، آه يا خطيبتى (يرى وجهها) آه يامصيبتى !

ام احمد : اخص عليك ياخاين العيش والملح ، هيه دى عشرة يوم ياعثمان ؟ دانت شقى العمر كله (تبكى) ماشا الله مين وزبيده مين اللى انت بتحبها ؟

عثمان : ما تعيطش لاعينيك تفرغ ، أنا اعمل ايه ؟ انا لما لقيت الست دى شبهك قلبى حبه ، ما دام انت طلقتينى .

ام احمد : يا ندامه ، هوه مين اللى بيطلق ؟

عثمان : ما دام انت استعجلت ورميت اليمين ، راح اعمل ايه ؟ ما تزعليش ، أنا أردك تانى واخليك على كيفك ، حتى من يوم ما سبتك وأنا افتقرت .

ام احمد : باقول لك علشان تعرف انى طول عمرى كعبى عليك كويس ، وخيرى عليك .

عثمان : عليك وعلى وشك ، المره رايحه توسخ .

ام احمد : يوه ، ودى ايه البتاعة الحمرة دى اللى انت لابسها ؟ انت شغال جرسون هنا والا ايه ؟

عثمان : اخرس ، جرسون فى عينك ، أنا شغال كومنده هنا فى اللوكاندة ، احكم على الشغالين والنايمين والصاحيين كمان .

وكيل اللوكاندة : (داخلا) عثمان ، فين الستات اللى انت مسكت الشنط بتوعهم ؟

ام احمد : انت بتشيل شنط يا منيل ؟

عثمان : (على حدة يخاطب الوكيل) اخص ، ربنا يكسفك ويسود وشك .

الوكيل : انا لسه ماشفتش واحد شيال عندنا يسيب الزباين ويبجى يبصبص كده ، يالله امشى امسك الشنطة (يخرج) .

ام احمد : ايوه قول لى كده ، انت بتشتغل شيال يا كبدى .

عثمان : لا يا شيخه ، الراجل ده كومنده ويايه .

ام احمد : همه كام كومنده ؟

عثمان : انا وهوه .

ام احمد : انت ايه ، وهوه ايه ؟

عثمان : انا نمرة واحد ، وهوه نمرة ثمانية .

ام احمد : (تضحك) قال يعنى كمان مش نمرة اتنين امال بيقول لك شنطة ايه ؟

عثمان : لا ، ده فيه سيم بينى وبينه ، كل واحد منا لما يشوف زميله واقف مع واحده ست ، يقوم التانى يقول له : امسك الشنطة .

ام احمد : آه ، والله انا افتكرت ..

الوكيل : (داخلا) انت لسه مش مسكت الشنطة ؟

ام احمد : امشى ، شنطة فى عينك وعين اللى خلفوك كمان ، يمسك شنطة مين يا راجل ؟ هوه انا من اللى بتتمسك شنطهم ياحبيبى ؟

عثمان : لا ماتزعليش يامراتى ، الخواجه بس بيهزر

الوكيل : ايه مراتك القبيحه دى ؟ بعدين انا اعرف شغلى واطردك من اللوكاندة (يخرج) .

ام احمد : طب مش كنت تقول لى انه هوه الكومنده علشان ما كنتش أشتمه .

عثمان : عجبك يابارد ؟ ماتبقـــاش تهزر ويايا .. ماتزعليش ، روحى أنت ، وأنا بكره أجيلك أردك وأخليك على كيفك .

ام احمد : اوعى تتأخر ، ولا تنساش بقى تجيب وياك واحد مأذون وراجلين من اللى تعرفهم ...

عثمان : لا مش رايح اتأخر .

ام احمد : آه ، يا عثمان !

عثمان : آه ياماشاالله!

ام احمد : ايه ؟ !

عثمان : لا ، لا ، يا ام احمد ، ياجمال ، يا لطافه ، ياترمواى يدوسك ، أن شاء الله ما توعى تلبسى الهدوم أن شاء الله اللباسين يطلعوا واسعين عليك ، يا بنت المركوب .

***

وهناك أيضا شخصية الخواجة اليونانى ، وهو دائما صاحب مقهى ، أو كباريه ، أو هو – فى القليـل – جرسون .

وهو خليط من المكر والغباء ، وتنبع الفكاهة من أنه أجنبى فشـــيم ، وهو مع ذلك يزعم انه ابن البلد ملم بأحوالها جميعا .

وفى مسرحيـــة « فهمود » يدخل خواجه من هــذا

الطراز مع عثمان عبد الباسط فى مبارزة عقول ، حول ثروه مفاجئة هبطت على عثمان يريد الخواجة ، بالتامر مع صديقه الشيخ كفت — أن يحصل على الفى جنيه منها ، دون وجه حق .

لقد كسب عثمان عشرين ألف جنيه ، والخواجة هو وصديقه الشيخ كفت ، يجعلان عثمان يوقع مع اليونانى عقدا بأن يظل يعمل جرسونا لمدة عشرين سنه فى مقابل خمسة عشر جنيها فى الشهر ، فاذا أخل احد من الطرفين بالعقد ، دفع غرامة قدرها ألفا جنيه ، ويوقع عثمان العقد ، قبل أن يعرف بأمر الثروه ، يوقعه وهو يكاد يطير من الفرح .

وينقلب الحال طبعا بعد أن يعرف عثمان الحقيقة وتقوم المبارزة العقلية بينه وبين الخواجة :

انطون : مادام خضرتك عايز تسيبنى قبل العشرين سنة ، لازم اديله التعويض .

عثمان : كده عملتها فى يا شيخ كفتة ؟

كفت : ايه العبارة ؟

عثمان : اعمل معروف فهم الخواجة انى لما ختمت الـكنتراتو ما كنتش عارف انى حاكسب المبلغ ده ... أنا ما ادفعش الالفين جنيه دول ولو تروح روحى .

كفت : خليك جرسون ، خليك كده طول العشرين سنة ، تيجى م الصبح الساعة تمانية — وتفضل هنا لحد نص الليل ، وانت محتكم على عشرين الف جنيه .

عثمان : اسمع يا خواجة ، أنا حاشتغل جرسون طول مدة العشرين سنة ، اما انكم تعرفوا تاخدوا منى مليم موش ممكن ابدا .

وتدور المبارزة بين الاثنين طوال المسرحية ، وتنتهى بالانتصار التام لعثمان عبد الباسط ، يضيع العقد الذى

وقعه مع الخواجة ، ويصبح حرا من كل التزام ، وكان الخواجه قد حاول أن يخفى عن عثمان هذه الحقيقة ، فلم يفلح ، والسبب ؟

عثمان : بقى يا راجل ياغبى ، انت فاكر ان واحد خواجة زيك يضحك على واحد مصرى زيى ويستغفله ؟

ومع ذلك يظهر عثمان شهامة مصرية حقيقية ، فيترك المقهى لصاحبه مع انه كان قد آل اليه .

وبين شخصيات كوميديا الكسار شخصية بارزة اخرى ، تعرفها الكوميديا المرتجلة حق المعرفة ، هى شخصية الشامى أو الابضاى .

ونحن نلقاه فى مسرحية « فلفل » فى شخص زعرور ، الذى جاء يطلب مقابلة شخص اسمه خيبت بك فلا يجد الا ام احمد ، التى تعمل خادمة عند خيبت هذا .

ويجرى أمين صدقى المفارقة الفكاهية التالية بين زعرور وام احمد ، مستغلا المقابلة الحادة بين اللهجتين المصرية والشامية ، والصدام الذى يتم بين عقليتين مختلفتين وطبعين حاميين ، وما ينتج عن هذا كله من كوميديا :

زعرور : ده بيت خيبت بك ماهيك ؟

ام احمد : بيت خيبت بك ؟ ايوه ، ده بيته ، لكن البيه مش هنا .

زعرور : كيف مشى هونه ؟ انا ما بيدخل عقلاتى ها الحكى ، أنا بدى خيبت بك ، بدى اياه .

ام احمد : هوه أصله ايه ،ايه ؟

زعرور : قلت لك انا بدى اياه (داخلا) ولو كان عند الله .

ام احمد : ارمى ! دا العيد الكبير ، انت ما تعرفش عربى ؟ با اقول لك سيدى خيبت مش هنا .

زعرور : شو ، شو ، شو ! باين عليها بندوقه يخرب بيتك .

ام احمد : يخرب بيت أبوك أوعى تشتم ، أنا باقول لك اهه ، يعني انت اللى عين جمل ؟

زعرور : ولاه ، سكرى ها التم ، يقصف عمرينك (يناولها ورقة) خدى ، ورقه بنص ليره .

ام احمد : علشان ايه دى ؟

زعرور : شو ؟ ما بتحبى المصارى ؟ انا باحبهن مثل عيونى ، العمى !

ام احمد : يا سلام ، بس كده ؟ قال غالى والطلب رخيص .

زعرور : ايه ، منيح ، هلا ، عيطى على معلمك لهون، عيطى على خيبت بك .

ام احمد : يا ندامتى ، يا لهوى ، جرى له ايه ، الشر بره وبعيد .

زعرور : ولاه ما بدك تقولى لى وينه ؟ وين صاحبين ها البيت ياستى ؟

ام احمد : آه ، طب قول كده ، بقى ادلعدى الست بتاعت خيبت بك ، سافرت على حلوان امبارح مع الست تيزتها .. ؟

زعرور : شو ؟ تيزتها (١) ؟

ام احمد : يوه ، جتك نايبه ، تيزتها يعنى زى ما تقول قابلتها .

زعرور : قابلتها والا ما قبلتها ، أنا بدى جوزها خيبت بك ، شو بيخصنى ؟! لابدى لا الست ولا قابلتها ولا تيزتها .

ام احمد : وراخر خيبت بك ، سافر حصلهم على حلوان ..

زعرور : خيبت بك هلا مسافر ، مسافر ؟

---

(١) ينطق زعرور الكلمة مفخمة !

ام احمد : ايوه ، يــوه ، رايحه اكــدب عليك ؟ وانت بعوق فيك كدب ؟
زعرور : ايه ، ما زال هيك ، اعطينى النص ليرة لهون
ام احمد : لا ، دى بتاعتى .
زعرور : ردى لى اياها ، ولاه .
ام احمد : يا باى ، خد اهه ، ده حايسرعنى ، قطيعه (تناولها اليه) .
زعرور : اصبرى يا ... حتى أشاور عقلاتى نتفه ، خدى (يعطيها الورقة) فيك تعملى فى جميلة ، شقفه جميلة صغيرة .
ام احمد : شقفة ؟ اذا كان على شــقفة أنا أرقعك ببلاصى .
زعرور : ايه ، منيح ، اذا اجى معلمك والا معلمتك لاتجيبى سيره لحد انى أنا جيت لهون .
ام احمد : يوه ، أنا حاجيب سيرة لمين يا ادلعدى ؟ ما اديك شايف البيت فاضى ...
زعرور : ايه ، منيح ، فهمت ، فهمت ، بعــدين بارجع باشوف ها الخبريه ، خاطرك .
ام احمد : روح الله لا يجبر خاطرك .
زعرور : يخرب بيتك .
ام احمد : الله يخرب بيتك وبيت أبوك ، والبيت اللى جنب بيت أبوك ، وبيت اللى خلفوك ، ياحفيظ يارب ، ازاى سيبوه من جنينة الحيوانات !

***

ومن الشخصيات التى نلقاها فى كوميديا الــكسار ، والتى كان لها مستقبل كبير فى عالم الــكوميديا المصرية عامة ، شخصيــة الخادمة « اللهلوبة » ، ذات الذكاء ، والاخلاص والتطلع ، والقــدرة على التطور السريع ،

الذى يحمل فى طياته الكثير مما يضحك .

وهى شخصية عرفناها فيما بعد فى أشكال متعددة ، منها الخادمة الوقحة ـ الظريفة مع ذلك ـ والاخرى التى تتحول الى أرتيست ، وتصادق الخواجات . وتشقشق باللسان مرددة ألفاظا أجنبية مشوهة .

وفى مسرحية « ولسه » نجدها فى شخصية ستهم الجرسونة ، التى تعطف على عثمان ، وتود لو تزوجته ثم تتزوجه فعلا .

وستهم بها شىء من الاسترجال والخشونة المعروفة عند « الحشاش المجدع » ؛ ولها عين ناقدة ، ولسان من الصعب اعتقاله .

يدخل المقهى الذى تعمل فيه عاشقان هما نظله وفريد ، فتسألهما ستهم عن الطلبات ، ثم تعلن على طريقة صبى المقهى البلدى :

ستهم : حاضر ، اتنين أزوزه اسباتس .

ولا تلبث أن تدخل بالطلبات وتقول لنفسها :

ـ الستالبطة دىلازم تكونواحدة متجوزة وبتتشاقى من ورا جوزها (تقترب بالصينية) اتفضلوا الازوزة اهه يابيه . (تدفع الصينية)

فريد : عايزه كام ؟

ستهم : أربعه مسيغ .

فريد : خدى ..

ستهم : يوه ، ده ريال يابيه ؟

فريد : خديه ، وياالله روحى من وشنا (يدفعها بيده) أحسن الست عصبيتها طالعة شوية ومش عاوزه تشوف حد قدامها .

ستهم : اسم الله عليها ، نبخرها يا اخويا (ضاحكة وتخرج) .

ثم نلقى ستهم فى الفصل الثانى وقد حدث لها تطور كبير ، لقد أصرت احدى زبائنها واسمها مارى ، على أن تصحبها الى حفل أقامه ناد خاص بقصر النيل ، وذلك بصفتها وصيفة لها ، وقد ارتدت ستهم لهذه المناسبة الملابس الاوربية الفخمة ، وتغير مظهرها ولكن مخبرها ظل ـ طبعا ـ كما هو ، ومن ثم تنبع الفكاهة فى المشهد التالى .

تدخل مارى ووراءها ستهم ببرنيطة فرنسية وبيدها شنطة ورافعة ديل الفستان :

ستهم : عقبال عندنا ان شاء الله يا قادر .

مارى : احنا اتأخرنا كتير عن ميعاد زكى ياخالتى ستهم ؟ !

ستهم : يالهوى ، ايه العالم دى كلها يا اختى ؟ هوه ده الباللو اللى بيقولوا عليه ؟

مارى : هس ماتزعقيش ، بلاش جرس يا وليه .

ستهم : يوه قطيعة !

مارى : أنت ملخبطه قيافتك كده ليه ؟

ستهم : يوه ، حا اعمل لك ايه بقى ، ما هو انت اللى سرعتينى وقومتينى من على حلة الطبيخ ، وخير وأبدا الا لازم آجى وياك على الباللو ، أنا ياعينى لحقت أتمهمز والا اعمل ..

مارى : (تصلح لها شعرها والبرنيطة على رأسها) الغاية بقى ، يعنى رايحه تتمهمزى لمين ياخية ؟

ستهم : اسم الله ، كل فولة ولها كيال يا ماما ، احنا العتاقى والاجر على الله .

ولكن ستهم تنجح مع ذلك فى تنكرها هذا ، لدرجة ان زكى ، حبيب مارى ، لا يتعرف عليها ويسأل ، مين المدام دى يا روحى ؟ !

وفى جاليرى الكسار شخصيات أخرى تقليدية تتردد على الكوميديات بين الحين والحين ، فيها المغربى الكذاب فى مسرحية « أحلاهم » من تأليف امين صدقى والسائح (أو السائحة) الاوربى فى مسرحيات كثيرة مثل : فلفل ، وأحلاهم ، ويتخذ امين صدقى من وجود الاجانب فرصة لخلق سوء التفاهم المضحك الناتج من صدام بين عثمان الذى لا يعرف لغات أجنبية ، وبين السواح الذين لايعرفون العربية ، وهو صدام ينتج أصواتا معينة يفهمها كل من الطرفين بطريقته الخاصة.

فكلمات Cet animal وتنطق بالفرنسية « سيت أنيمال » ، تصبح عند عثمان : أنامالى ، وتعبير ni là وينطق نى لا ، نى لا ، يصبح نيله عند عثمان وتعبير Sain beau وينطق سان بو يصبح عند عثمان سامبو ، وهكذا .

وأحيانا يغير أمين صدقى النكتة ، فيقلبها رأسا على عقب ، ويستخرج الفكاهة من ترجمة المصطلحات العربية الى الفرنسية ويقدمها الى السواح الذين لا يفهمون منها شيئا بالطبع ، مثلما يحدث فى مسرحية « فهموه » حين ينقل الترجمان تعبيرات مصرية قحة مثل : « آدى الجمل وآدى الجمال » و « كلمة ورد غطاها » و « يحابب القاضى » و « ليلتكم ندا » و « تاخدوش تشدوا » الى الفرنسية .

وفى هذا الجاليرى أيضا التركى المتغطرس ، والارمنى الذى يستعصى عليه الفهم ، والاطرش ، والاستاذ الفقى الذى يتكلم بالفصحى ليخفى لصوصيته وانتهازه ، أو الذى يحتمى بالعمامة ، كى يخدع الناس عن مؤامراته ونصبه ، مثل الشيخ كفت فى مسرحية « فهموه » .

وهذه الشخصيات جميعا نمطية ، كما قلت من قبل لها بعدان فقط ، ولا عمق لها ، وهى لا تتغير أبدا ، ولا

تتبدل طباعها ، هى أشبه الاشياء بشخصيات الاراجوز

***

كلما امعنا النظر فى كوميديا الكسار ، زاد اقتناعنا بأن هذه الكوميديا قد ورثت كثيرا من تراث الكوميديا دى لارتى مضافا اليه تراث الفصل المضحك والكوميديا المرتجلة المصريين معا .

ولنلق نظرة على مزيد من نقاط الالتقاء بين كوميديا الكسار والكوميديا الايطالية .

أبرز مصادر الفكاهة فى تلك الكوميديا نزوع شخصياتها الرئيسية ، وبينها أرليكينو ، الى التنكر فى زى النساء ، وهذا ما يفعله عثمان عبد الباسط فى مسرحية « عثمان حيخش دنيا » اذ تضطره حاجته الى الهرب من الشرس عوكل الى التنكر فى زى مرضعة ، فيحشو صدره بزرى شمام ، ويتعرض لمخاطر كثيرة مضحكة ، منها كشف يوشك أن يتحقق ، يهدد به الطبيب الذى جاء يفحص المرضعات ومن بينهن أم عثمان (عثمان) ، فتعجبه المرضعة السوداء ، لحسن صحتها وكبر ثدييها !

ومن بين معالم الكوميديا دى لارتى أيضا البهلوانية وخفة الحركة التى كان أرليكينو يقدم منها نمرا مدهشة لا تكاد تصدق ، منها نمرة تقدم وصفها يدخل بها رأسه فى جسده ، دون أن يتحرك هذا الجسد ، ثم اذا بالرأس يرتفع فجأة كعفريت العلبة .

وفى مسرحية « عثمان حيخش دنيا » شىء يقرب من هذا ، اذ تضطر أم احمد ، كى تساعد عثمان على الاختفاء فى الدولاب الى أن تستطيل بجسدها وتنكمش به ، مما يدفع أخاها عوكل الى التعليق بقوله :

عوكل : عجيبة ، مالك يا وليه عم تطولى وتقصرى كده ليه ؟

ام احمد . لا ، بس باحرك جتتى علشان عندى روماتيزم .

ومن بين النمر الكوميدية التى يقوم بها المهرج فى الكوميديا دى لارتى نمرة المبارزة الفكاهية ، التى تكشف عن حمقه واندفاعه للقتال ، رغم عدم اتقانه لفنونه ، والتي تنتهى مع هذا نهاية طيبة .

وفى مسرحية « عمرو بن العاص » يدخل المهرج عبد الله (الكسار) فى مبارزة فكاهية من هذا النوع مع اوركاديوس البطل الرومانى الذى يحب ارمانوسة المصرية ، ويتفق مع عبد الله خلسة على أن يتظاهر البطل بأنه قد غلب فى المبارزة ، ومن ثم يكسب القرب .

ومن الفصل المضحك المصرى ، استعارت كوميديا الكسار التركيب الاساسى لبعض المسرحيات ، وخاصة المسرحيات الاولى التى كتبها امين صدقى . أن هذه المسرحيات هى أحيانا فصل مضحك مطول مثلما يحدث فى مسرحية « البربرى فى الجيش » التى تحكى عن مغامرات البربرى الغشيم عثمان فى عالم التدريب العسكرى ، وهى فى الواقع استغلال لنمرة معروفة من نمر الكوميديا الشعبية (١) .

وأحيانا أخرى تكون هذه المسرحيات سلسلة متتابعة من الفصول المضحكة مثلما نجد فى مسرحية « عثمان حيخش دنيا » .

وأحيانا ثالثة تبدأ المسرحية بفصلين أو ثلاثة من الفصول المضحكة ، ثم تتطور فتشمل عناصر أخرى من عناصر الكوميديا الشعبية ، على نحو ما نجد فى

(١) يذكر الفنان الشعبى « الريس محمد » فى مقابلة معه سجلها مركز الفنون الشعبية ان فن خيال الظل كان يقدم فاصلا مضحكا باسم الجهادية كان به مجند غشيم ، يضحك منه الناس لسوء فهمه للتعليمات العسكرية : يمين در وشمال در .

مسرحية «الهلال» التى تبدأ بعثمان واقعا ـ كعادته ـ فى مازق محرج ، تنبع منه الكوميديا ، فهو متغيب عن الطابور العسكرى ، وامرأته ادعت ـ انقاذا له ـ انه مريض ، وحين يحضر فعلا يكون عليه أن يفهم الموقف اولا ، ثم يبرر غيابه بالمرض ، ثم يقتنع فعلا انه مريض .. ومن هذا الفصل المضحك تتطور حوادث المسرحية الى فصل آخر ، وهكذا .

ومن الكوميديا الشعبية أيضا ، تستعين كوميديا الكسار بالقافية (وبالفكاهة اللفظية عامة) مثلما يحدث فى مسرحية « القضية رقم ١٤ » وفيها يدخل البرابرة مع المذهبجية فى مباراة قافية تبدأ هكذا :

البرابرة : خش قافية ياوله ..

المذهبجية : خش قافية ..

البرابرة : زر طربوشك : اشمعنى ، أصله دوباره ، واللى يدور يلاقيه دكة لباس شيخ حارة .

المذهبجية : عينيك : اشمعنى ، نافدين على بطن حماتك ، واللى يبص فيهم يلاقى شعر بطاطك .

البرابرة : أصل أمك : اشمعنى ، جرسونة عند الحاتى ، ولما تاخد اجازه تسرح أدباتى .

المذهبجية : هدومكم : اشمعنى ، المصبغة احتارت فيها ، ولما تقدم تروح الكانتو لوحديها .

البرابرة : مطرح ما تروحوا تقولوا لبعضيكم : اشمعنى ، ياريت عبده وعثمان البربرى جا معنا .

المذهبجية : وشوشكم ديه أصلها من زفته ، وفى الايام السودة يطلعوا منها تفته .

البرابرة : احط صباعى فى عينيك ديه تقول لى : اشمعنى : وكمان أحط صباعى فى عين : وكمان اشمعنى باسيدى طول بالك ، طيب يا عثمان ، أحط صباعى فى

عينك دى : طيب اشمعنى ، وكمان أحط صباعى فى عين : ديهدى ما قلنا اشمعنى ، خليه فى عينك لما افتكر، ياالله اندوكرى يا عثمان .

والى جوار هـذا تستخدم كوميديا الـكسار قدرة الفنان على التاليف الفورى ، ورغبته فى أن تقوم صلة حية بينه وبين الجمهور فى كل ليلة .

لهذا نرى الـكسار يتسلم دور زقزوق فى أوبريت «مرحب» ، فيضيف اليه نكاتا كثيرة من عنده ، ويتراهن مع الممثل محمد بهجت على أن يدفع الاخير له نصف قرش نظير كل نكتة تعجبه ، فلما تنقضى السهرة يتبين محمد بهجت ان عليه أن يدفع ثمانية قروش كاملة !

ونذكر ان الـكسار بدأ حياته التمثيلية بفاصل من النكات الفورية اشتبك به مع متفرج فى دار التمثيل الزينبي واستمر ساعتين ، صنعت بعدهما شهرة الكسار كممثل فكاهى .

أما مخاطبة الجمهور أثناء التمثيل ، فقد وجدنا نماذج منها فى مسرحية « ولسه » حين رفع الـكسار صينية وهدد بها غريمه الثقيل الظل جميل بك ثم التفت الي الجمهور يسأله : ايه الرأى أديله بالصينية دى فى خلقته ؟ ثم عاد يسأل الناس من بعد : انتو شاهدين ؟

كل هـذه العناصر ، الى جوار الاغنيات الاجتماعية الخاصة بالطوائف ، والرقص والمونولوجات والقصة المطاطة السهلة الجريان قد جعل كوميديا الـكسار وسيلة جماهيرية مقبولة لدى مئات الالوف الذين استمتعوا بها من أواسط العشرينات حتى نهاية مجرى الـكسار المسرحى .

ومن المؤكد ان الـكسار ومؤلفيه المختلفين كانوا

يقصدون من وراء مسرحياتهم الكثيرة الى امتاع جماهيرهم اولا واخيرا ، ولكنهم لم يهملوا خدمة قضية الفن المسرحي عن طريق تقديم مسرحيات تلمس موضوعات مصرية لاصقة بالبيئة .

نجد اشارة الى هذا فى مسرحية « ولسه » اذ ينهى امين صدقى الفصل الثانى من المسرحية بدعوة ممثلى الدرام والفودفيل الى الاقلاع عن موضوعاتهم الاجنبية وطرق الموضوعات المحلية .

اذا كنتو عايزين تنجحوا
فى نوعكو دا وتتبحبحوا
ادم روايات زينا
موضوعها مصرى تفلحوا
الناس مالها ومال روميو ورااؤول
ورواية حدثت فى ليفربول ؟
الناس عايزه تشوف حوادتنا
واشخاصنا احنا كده بملابسنا

فين المؤلفين ؟ . . يا ناس يا منصفين ؟
يعالجم فى بلادنا دا الف داء دفين
ويصلحم وطننا يا ناس قولم آمين !

ولا ريب انهم قد نجحوا فى هذا الى حد كبير . لقد ربط الكسار مسرحه بالشعب المصرى وطوائفه المختلفة عن طريق خلقه ودعمه المستمر لعثمان عبد الباسط ، الذى يمثل واحدة من اكثر فئات الشعب تعرضا للظلم .

وصحيح ان الكسار كان له موقف مزدوج من البربرى فهو يدافع عنه ويسمح بالتندر على سواد وجهه فى وقت واحد ، ولكن هذا لا ينبغى ان يقلل بحال من الاحوال من مغزى ظهور عثمان عبد الباسط على المسرح بطلا غير منازع ، يحمل كثيرا من صفات الشعب وقيمه

الايجابية والسلبية معا ، فى وقت كان الشعب فيه محتقرا والبطولة فى المسرحيات معقودة للباشوات والبهوات ، بينما كل من عداهم كان خدما أو هملا ، أو مصدرا لاشباع شهوة السادة للتندر .

ان مسرح الكسار يعج بالطوائف الشعبية المختلفة ، ما بين غسالات وكناسين وبائمين وحمارين وغيرهم من طبقات المجتمع الدنيا .

وقد سمح لهم الكسار بعرض أنفسهم أولا ، ثم عرض شكواهم ووجهة نظرهم فيما يحيطهم من أحداث.

وهذا الانحياز للشعب وتصوير بعض مشاكله هو الذى جعل الشعب يرى نفسه فى مسرح الكسار وجعل باحثا مدققا مثل جيكوب . م . لاندو ، يعتبر الكسار الممثل الحقيقى للمسرح الشعبى بالمعنى العام للكلمة (١).

---

(١) دراسات فى المسرح والسينما العربيين . ص ٩١ .

الفصل الثامن

الريحاني
من الفصل المضحك إلى المسرح الهزلي

في عام ١٩١١ وقف نجيب الريحاني مع زميله وصديقه عزيز عيد على المسرح ليقدما بعض الفصول الكوميدية ، بعد انتهاء التمثيل « الجدى » ..

حدث هذا على مسرح دار التمثيل العربى، ولحساب الفرقة المشتركة التى كونها الشيخ سلامة حجازى مع عبد الله عكاشة .

ويحكى بديع خيرى عن تاريخ هذه الفترة فيقول : ان الشيخ سلامة حجازى كان اذ ذاك قلقا على جمهوره الذى كانت تراجيدياته تحطم قلوبه وتستنزف دمعه ، وكان يتمنى أن يعيد هذا الجمهور الى بيوته آخر الليل ضاحكا ، ولكنه لم يستطع أن يفعل ، حتى وجد الريحانى وعزيز عيد ، فأسند اليهما مهمة الترفيه عن النظارة عن طريق الفصل الواحد المضحك .

ويصف عثمان العنتبلى (١) هذا الفصل الفكاهى بقوله : « كان نجيب أو عزيز يمسك كل منهما بمقشة ويلبس طرطورا ويخرج لسانه ويهز جسده». ويضيف : ان نجيب وعزيز كانا برمين بهذا التمثيل العاطل عن الفن أو الفكاهة الحقيقية ، فسعيا الى اقناع المسئولين

(١) فى كتابه : نجيب الريحانى ٠ ص ٣٣ ٠ كتب للجميع ١٩٤٩

فى الفرقة بضرورة تقديم لون آخر أكثر رقيا ، ونجحا فى ذلك ، فأخذا يقدمان فصلا واحدا مقتبسا أو مترجما من الفكاهات الفرنسية ، ثم قدما من بعد عملا كاملا من ثلاثة فصول كان النجاح من نصيبه أيضا ، فشجعهما ذلك على الانفصال عن الفرقة ، والدخول فى مغامره تقديم المقتبسات الفرنسية الاصل .

ولم تعمر فرقة عزيز ونجيب هذه طويلا ، فالتحق نجيب بفرقة كونها احمد الشامى الذى كان يقلد الشيخ سلامة ، وعمل فيها ممثلا جوالا ، وطاف معها بلاد الصعيد من بنى سويف حتى آخر حدود مصر الجنوبية .

هاتان الحقيقتان ــ بداية عمل الريحانى فى اطار الفصل الواحد المضحك ، ثم مواصلة هذا العمل فى اطار فرقة جوالة ، كان لها أعمق الاثر على الكوميديا التى خرج بها الريحانى من بعد على الناس ، مبتدئا بالفرانكو ــ آراب ، وشخصية كشكش بك ، ومنتهيا بالكوميديات الاجتماعية التى قدمها فى أوائل الثلاثينات ممصرة عن الفرنسية ، متعاونا فى هذا مع زميل عمره بديع خيرى .

لقد بدأت كوميديا نجيب الريحانى بداية شعبية صرفا استمدت وجودها من فصول الكوميديا المرتجلة التى عرفتها مسارح مصر ومقاهيها وأفراحها منذ أوائل القرن (١) ، كما سنبين خلال تحليل بعض مسرحيات الريحانى ــ وبالاضافة الى هذا ــ تمرس الريحانى خلال جولته هذه مع فرقة الشامي ، بحياة الناس ، ولمس عن كثب أحوالهم وعاش عيشة الفقراء منهم ، فعلمه هذا كيف يقترب من جمهوره فيما بعد ، كيف يسعى الى ارضاء هذا الجمهور بوسائل مختلفة منها ما هو قريب من الإسفاف ، وخاصة فى البداية ، كما لقنه الدرس

(١) راجع كتابى : الكوميديا المرتجلة فى المسرح المصرى

الثمين الذى لم يعه زميله عزيز عيد ، وهو انه اذا كان المقصود عرض مسرحية ما من أصل أجنبى على جمهور مصرى ، فمن الواجب ان يدخل فى الاعتبار ذوق هـذا الجمهور وعاداته ووجدانه ، واذن يكون التمصير لا الترجمة هو الاسلوب، ويكون التصرف فى وقائع المسرحية بما يلائم الذوق المحلى أمرا لازما ، وليس عليه غبار .

باختصار ، تعلم الريحانى منذ البداية ان الكوميديا يجب أن تنبع من عرض مسرحى ناجح ـ من فرجة واضحة ، على أن يسمح هذا العرض بالنقد الاجتماعى، وبشىء من الفكر ، والعاطفة فى الوقت المناسب .

لهذا ، فحين عرض استيفان روستى فى عام ١٩١٦ على زميله المفلس نجيب الريحانى أن يشترك واياه فى نمرة « خيال الظل » التى كانت تعرض كل مساء فى كازينو « أبيه دى روز » ، لم يكن الفلس وحـده هو الذى دفعه للقبول ، بل دخل ـ لاشك ـ شعور باطن من نجيب بأن هذه النمرة تسمح له بأن يتخذها منطلقا لفن ترفيهى متعـدد الالوان ، يدخـل فيه الرقص ، والموسيقى والتمثيل ويعجب طبقات عدة من الجمهور.

كان نجيب قد انفصل لتوه من زميله عزيز عيد ، الذى شاركه العمل فى فرقة الـكوميدى العربى ، وكان من بين أسباب هذا الانفصال ان التعثر الذى منيت به الفرقة فى أواخر أيامها يرجع فى رأى نجيب الى تكرار عرض مسرحياتها ، والى أن هذه المسرحيات لم تكن محلية ، لا قلبا ولا قالبا .. بل كانت مسرحيات كوميدية مترجمة بالنص » (١) .

كان الريحانى يتخذ موقفا وسطا بين تشدد عزيز عيد

---

(١) مذكرات نجيب الريحانى ، زعيم المسرح الفكاهى . دار الجيب، ١٩٤٩

فى مراعاة الاصل الاجنبى فى العروض الكوميدية ، وبين الاسفاف والخلو من المعنى الذى تمثله نمرة « خيال الظل » ، وهى نمرة لاعلاقة لها بالفن الشعبى المعروف ، وانما هى لعبة « ستريبتيز » ، تتم من خلف ستار شفاف ، وكانت تنحصر فى أن يغازل نجيب سيدة متزوجة أمام خادمها الاسود ، فتسرع الزوجة للاختباء وراء الستار الشفاف الذى لا يخفى شيئا ، وتأخذ تخلع ملابسها قطعة قطعة .

لم يكن الريحانى ليرضى بأن يظل طويلا يقدم هذا التهريج وهو الذى سبق أن احتج على مثله من خمس سنوات أيام فرقة سلامة حجازى ـ عكاشة ، ولكنه كان أيضا غير راغب فى العودة الى الكوميديات المترجمة عن الفرنسية ، فضلا عن ان جو الكاباريه كان آخر مكان يحتمل عرض هذه الكوميديات ، كما تبين فعلا من تجربة تمثيل مسرحيات فرنسية من ذوات الفصل الواحد ، تمثيلها بالفرنسية أمام جمهور « أبيه دى روز » فقد كان النظارة يديرون ظهورهم للممثلين ، ويتحدثون مع بعضهم البعض ، ويضحكون ويصفقون ويهزأون ، غير مبدين أدنى اهتمام بالتمثيل .

من أجل هذا تقدم الريحانى الى ادارة الكازينو يطلب ان تأذن له فى القيام بتجربة جديدة ، هى مزج الرقص بالتمثيل والغناء ، مع استخدام حوار عربى ـ فرنسى ، أو عربى ـ فرنسى ـ انجليزى ، فى خليط يراعى فيه أن يكون الترفيه هو الاساس ، مع خيط رفيع من القصة المسرحية يتمثل فى شخصية العمدة كشكش بك ، عمدة كفر البلاص ، وما يجرى له من استغلال واستغفال على أيدى وسيقان الفاتنات من الراقصات اللواتى كن يملأن الكازينو .

ووافقت ادارة الـكازينو ، وقدمت التجربة فعلا ، ونجحت نجاحا كبيرا ، جعل فى الامكان تثبيت شخصية عمدة كفر البـلاص ، بمزيد من المغـامرات الراقصـة الموسيقيه ، مما جعل هـذا العمدة البـداية الواضحة للـكوميديا الشعبية كما شكلها نجيب الريحانى ، وهى تعتمد ـ كما قلت ـ على تراث الـكوميديا المرتجلة فى شخصياتها ومواقفها بل وبعض ممثليها الذين سبق لهم العمل فى فرق الـكوميديا المرتجلة ، مثل شرفنطح .

شخصية العمدة نفسه ، التى يقرر نجيب الريحانى انها قد اوحيت اليه وحيا فى فجر يوم قضى الليلة السابقة عليه مسهدا ، هذه الشخصية تجد شخصيـة قريبـة منها فى فاصل من الـكوميديا المرتجلة يرجح ان الفنان عبد القادر سليمان قد قدمه فى مقهى شيبان بالاسكندرية عام ١٩١١ ، وفيه عمدة مولع بالنساء ، يتحرق شوقا الى الزواج من حسناء من البندر ، ويجرى بينه وبين خادمه حوار من النوع الذى أصبح فيما بعد مألوفا بين عمدة كفر البلاص وتابعه زعرب (١) .

بل اننا نجده عمدة آخر يشبه من قريب عمدة كفر البلاص ، فى المسرحيـة التى كتبها ابراهيم رمزى عام ١٩١٥ (قبل عام واحد فقط من ظهور كشكش بك) واسمها : « دخول الحمام مش زى خروجه » وفيهـا ترتكز الاحداث على عمدة يدخل أحد الحمامات العامة ، فتحدث له مفامرة لم يكن ينتظرها .

ويلحظ زكى طليمات وجه الشبه بين هذه المسرحية وبين المسرحية الشفوية المرتجلة ، التى هى المصدر الذى انبنى عليه المسرح الهزلى ، أو الفرانكو ـ آراب (٢) .

---

(١) راجع كتابى : الكوميديا المرتجلة . ص ٧٩

(٢) راجع كتابه : التمثيل . التمثيلية . فن التمثل العربى . الكتاب رقم (١) الثقافة الفنية من منشورات مؤسسة المسرح والفنون بالكويت .

وفوق هذا كان نجيب الريحاني قد قام بدور خفير في مسرحية مصرية ريفيــة من فصــل واحد اسمها : « القرية الحمراء » ، وذلك خلال النصف الاول من عام ١٩١٦ ــ العام الذى أخرج فيه شخصية كشكش بك.

وفى هذه المسرحية ، وهي من تأليف عزيز عيد وامين صدقى ، عمدة يدعى عمدة كفر البــلاص ، ويفتصب هذا العمدة ابنة الخفير الذى يعمل فى خدمته ، فيقتل الخفير ابنته انتقاما لشرفه .

وترى السيدة روز اليوسف ان الريحانى قد اقتبس شخصية عمدة كفر البلاص من مسرحية «القرية الحمراء» التي قامت هى نفسها فيها بدور ابنة الخفير ، بعد ان أضفى على العمدة سمات كوميــدية ، ومنحه اسم كشكش بك ، وهو الاسم الذى كانت راقصة من صديقات الريحانى تدمى لوسى تنــادى به نجيب على سبيــل التدليل (١) .

المهم فى هــذا كله أن نتبين ان نجيب الريحانى كان راغبا منذ البداية فى الارتفــاع بمستوى الكوميــديا ، شريطة الا يهدد هذا الارتفاع شيئا جوهريا فى حياة كل مسرح ومسرحية وهو وجود الجمهور فى الصالة .

وقــد حــدث أكثر من مرة أن انفض الجمهور من الريحانى ، فكان لا يتردد فى الهبوط الى المستوى الذى يريده الجمهور اذ ذاك ، غير انه سرعان ما كان يستعيد توازنه فى أقرب فرصة متاحة .

والدليــل الواضــح على جدية نظرة الريحانى الى المسرح ، رغم تذبذبه صعودا وهبوطا ، نجده فى الرسالة التى بعث بها الى صحيفة الاهرام عام ١٩٠٨ ، يشرح

(١) ذكريات . فاطمة اليوسف . كتاب روز اليوسف العدد رقم ١ ص ١٨ .

فيها أهداف جمعية لهواة التمثيل اسمها «جمعية ترقى التمثيل العربى » ، وكان الريحانى من مؤسسيها :

« لما كان فن التمثيل هو الفن الوحيد الذى ينمى الشعور والعواطف ، ولما كان هذا الفن ساقطا لا يلتفت اليه فى القطر المصرى ، بعكس البلاد الاوربية ، عزمنا بحوله تعالى على احياء هذا الفن بكل قوانا ، نحن بعض المتخرجين من المدارس الثانوية ، وبعض المستخدمين فى القاهرة ، واتيناكم بهذه العجالة آملين ان تبدوا آراءكم فى هذا الصدد .

« ثم اننا عزمنا أيضا على انشاء جمعية للخطابة ، تنعقد فى كل أسبوع مرة .. فأملنا أن تحثوا أهل العلم والادب » (١) .

كما اننا نجد دليلا آخر فى الرغبة التى ظلت تعتمل فى نفس الريحانى طويلا وتحفزه الى أن يشتغل بالتمثيل التراجيدى ، حتى بعد أن ثبت نجاحه فى دور كوميدى هو دور « برجيه » فى مسرحية « خلى بالك من اميلى » التى قدمها عزيز عيد ضمن مسرحيات فرقة الكوميدى العربى ، بعد أن نقلها أمين صدقى عن الفرنسية ، عام ١٩١٦ .

بل حتى بعد النجاح الساحق الذى حققه نجيب الريحانى فى فنون الكوميديا المختلفة من فرانكو ـ آراب ، واستعراض ، وأوبرا كوميك ، وأوبريت ، نجده لايزال يحن فى عام ١٩٢١ الى تمثيل الادوار التراجيدية فيقوم بدور سفاح اسمه مرزوق فى مسرحية « ريا وسكينة » التى أعدها عن وقائع عصابة ريا وسكينة ، والسفاح الغربى .

(١) المسرحية فى الادب العربى الحديث . دكتور محمد يوسف نجم . ص ١٨٠ ـ ١٨١

ثم هو ينفق من حر ماله على أوبريت « العشرة الطيبة » التى مصرها محمد تيمور عن الفرنسية وقدمت عام ١٩٢٠ .

ويؤلف فى عام ١٩٢٦ فرقة للتمثيل التراجيدى يختار لها مسرحيات من الادب الفرنسي والانجليزى والالمانى والروسى ، ويرجو أن ينجح بها فى دعم النظرة الجادة للمسرح .

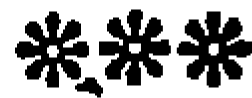
كل هذا يوحى باعماق فى نفس نجيب لا يفطن اليها الكثيرون ممن يصرف نظرهم القناع الضاحك ، وهو يفسر لماذا استطاع الريحانى ان يتغلب على كثير من العقبات التى واجهته فى مجراه المسرحى ، ومنها ما هو محيط به ، ومنها ما هو موجود داخل نفسه ، فيتطور من فن الفرانكو ـ آراب الترفيهى الصرف ويخلع عنه قناع كشكش بك الذى كان يهدد بالانحصار والذبول ، ثم يتقدم الى رحابة الكوميديا الانتقادية عن طريق الاقتباس من المسرح الفرنسى ، وهى الخطوة الجريئة التى ضمنت أن يظل اسمه باقيا حتى الآن فى حقل الكوميديا المصرية .

ولو ألقينا نظرة على بعض ما قدمه الريحانى من مسرحيات منذ أن خلق شخصية كشكش بك حتى وفاته فى عام ١٩٤٩ ، لوجدنا خطا واضحا من التطور يبدأ بالمتواضع ثم ينتقل الى الحسن فالاحسن ، مع خط مصاحب من الذبذبة والارتداد كان يصيب هذا الفنان الكبير عقب كل صدمة مادية ، أو فنية .

وكان الريحانى فى تطوره على طول هذا الخط العام يحمل معه دائما عنصرين أساسيين : الكوميديا الشعبية كما عرفها من ارث الكوميديا المرتجلة وكوميديا الفصل المضحك ، والكوميديا الاوروبية التى استطاع أن

يحصل على بعض من نماذجها المتفاوتة الحظ من الجودة عن طريق معرفته بالفرنسية ، مضافا الى هذا كله أثر من الف ليلة والادب الشعبى عامة ، حمله اليه بديع خيرى ، شريكه فى التمصير الخلاق .

وبين هذين القطبين الكبيرين : الكوميديا الشعبية والكوميديا المترجمة ظل فن الريحانى يتأرجح ، حتى استطاع أخيرا فى أوائل الثلاثينات أن يثبت فى مجال الكوميديا الانتقادية الممصرة عن أصول فرنسية .



فى عام ١٩١٦ ، وعلى مسرح « الابيه دى روز » أخرج نجيب الريحانى سلسلة من المسرحيات القصيرة ، استهل بها اللون المعروف بالفرانكو ــ آراب .

بدأت السلسلة بأسكتش : « تعالى لى يا بطة » وفيه يظهر كشكش بك لاول مرة فى الموقف الذى أصبح من بعد تقليديا فى كوميديا الفرانكو ــ آراب ، وهو موقف العمدة المنتفخة محفظته بالمال ، وسط باقة من الراقصات الحسان يداعبنه ويغازلنه وأعينهن على محفظته .

ويلخص الريحانى هذا الاسكتش بقوله : ان الراقصات يستولين على مال العمدة كله ، ويتركنه على الحديدة ، ومن ثم يعود الى قريته وهو يعض بنان الندم ، ويقسم بأغلظ الايمان أن يثوب الى رشده ولا يعود الى ارتكاب ما فعل .

وقد كان هذا الاسكتش ايذانا بسلسلة متصلة من الاسكتشات والمسرحيات القصيرة ، تدور كلها حول مغامرات كشكش مع الحسناوات الاجنبيات فى ملاهى القاهرة

وقد أضاف الريحانى فى الاسكتش التالى « بلاش أونطه » تابعا خاصا للعمدة المهزار ، هو الخفير زعرب ، ثم أتبعه بأسكتش آخر عنوانه « بكره فى المشمش » ،

ومن ثم توالت الاسكتشات ، وتوالى نجاحها ، مما دفع الريحاني الى الاستعانة بجهود المؤلف أمين صدقي الذي اقتبس له من المسرح الفرنسي مسرحية «خليك تقيل»(١)

تدور أحداث المسرحية حول كشكش بك ، وخليلته الفرنسية « تريز » التي يحبها بينما تعرف هي غيره من الرجال ، تعرف المليونير الفرنسي : دارفيل ، الذي يوصلها اليه « ديش » الوسيط الفرامي .

وحين يضبط كشكش بك خليلته مع الوسيط «ديش» تقنعه هذه بأنه طبيبها ، وتتودد اليه بالغناء والغزل ، وفجأة تدخل أم شولح ، حماة كشكش بك السليطة اللسان ، الوعرة الطباع ، فيخفى كشكش بك عشيقته وخادمتها على هيئة مقعد ويقعد عليهما امعانا فى التخفى

وفى مرة ثانية يضبط كشكش بك العشيقة مع حبيبها دارفيل فى مسكن العشيقة ، بصحبة الوسيط «ديش» وفى هذه المرة تزعم تريز ان دارفيل هو ابوها ، ولكن هذا لا ينطلى على العمدة ، الذى يأمر تابعه زعرب باعطاء الرجلين « علقة جامدة » ، وهنا تدخل أم شولح فجأة كعادتها ، فيهرب الجميع عدا دارفيل الذى يختفى فى دولاب ، وحين لا تجد أم شولح أحدا ، تقرر أن تختفى فى الدولاب ذاته ، كى تتجسس على كشكش بك .

ويعود كشكش بك ليبحث عن حماته ، ويفتح الدولاب ، فيخرج منه دارفيل وهو يطلب النجدة ، بينما تضربه أم شولح على مؤخرته .

---

(١) اعتمدت فى الحديث عن هذه المسرحية ، وكلتا مسرحية : « هز يا وز » واوبريت : « حمار وحلاوة » على ما ورد من تلخيص لهذه الاعمال الثلاثة فى دراسة قامت بها السيدة ليلى أبو سيف لمسرح الريحاني ، ونالت بها أجازة الماجستير من الجامعة الامريكية بالقاهرة، وتعتبر دراسة السيدة ليلى أبو سيف من أكثر الدراسات فهما لكوميديا هذا الفنان الكبير .

وقبل أن تتهم أم شولح زوج ابنتها بالخيانة يقول لها هذا : « جئت لتضبطينى مع السيدة وقد ضبطتك أنا مع السيد » .

وتنتهى المسرحية وقد انتصر كشكش بك على أعدائه جميعا .

وقدم الريحانى لامين صدقى أيضا مسرحية « هز يا وز » ، وأحداثها تدور حول أب فرنسي اسمه « ايزيدور » ، له ثلاث بنات . فى المنظر الاول ، يعلن ايزيدور لبناته أن عمدة مصريا ذا ثروة سيحضر بعد قليل ليخطب احداهن ، وتحتج واحدة من البنات بأنها تحب شابا فرنسيا اسمه كلود ، وقد خطبها لنفسه ، فيأمرها الاب بأن تنساه ، لانه معدم .

وفى المنظر الثانى يأتى ممثل ليخطب بنتا ثانية ، فيطرده الاب ويخرج هذا غاضبا وهو يزعق بالطريقة التمثيلية التراجيدية المعروفة عن المسرح الجاد فى ذلك الحين

وفى المنظر الرابع ، يدخل العمدة الغنى ، واسمه « بجر بك » ، فتستقبله الخادمة الفرنسية ليز ، وتدور محاولة الحوار بالعربية فى مقابل الفرنسية ، ويترك العمدة بطاقته ، حين يعلم بخروج السيد ، ويعد بأن يعود .

فى المنظر الخامس يبدو ايزيدور وهو يقرأ خطابا من وسيط زواج نعلم منه بثروة العمدة « بجر بك » ، وتحاول الخادمة ان تجعله ينصت لها ، ويتسلم البطاقة وحين يعلم ايزيدور أن « بجر بك » قد جاء وذهب يندب حظه ويلوم الخادمة بطريقة تمثيلية وحين يعلم أنه سوف يعود يلجأ الى الطريقة التمثيلية ذاتها لاعلان فرحه ويهجم على الخادمة يقبلها وهنا تدخل زوجته وبنته .

فى المنظر السادس : يتخلص ايزيدور من مأزقه بأن يعلن بالصوت العالى ان بجر بك موشك أن يصل ، ثم يأمر بناته بأن يداعبنه ويغازلنه ليسحرنه عن نفسه .

المنظر السابع : نعرف فيه ان العمدة قد وصل ، وتخرج ليز لاستقباله .

المنظر الثامن : يصل العمدة ، ولكنه كشكش بك ، وليس بجر بك ، تحييه البنات بأغنية لطيفة ، على زعم انه بجر ، ويبالغن فى مراسم استقباله ، يعجب كشكش ويتحادث مع زعرب جانبيا ويلى ذلك سوء تفاهم لغوى فكلمة الـ rose تصبح الرز ، وحين يعود كلود ، خطيب البنت وينادى كشكش : بجر ، يأمر كشكش زعرب بضربه لانه يقول له : يا بجر (يا بقر) .

ثم تدخل أم شولح ، ويخفى كشكش وزعرب نفسيهما ويضربان أم شولح من الخلف كلما حانت فرصة ، يظهر بجر بك ، فتظنه أم شولح كشكش وتضربه ، ثم تتعاون الاسرة كلها فى سبيل طرد أم شولح .

المنظر التاسع : فيه تبادل للاهانات بين بجر وكشكش لان كلا منهما ينافس الآخر فى الغرام ، ويتبين كل منهما ان الآخر عمدة مثله فيتصالحان ، ويتزوج كل من واحدة من بنات ايزيدور ، ويترك بجر لكشكش أن يختار أولا

هذان مثلان مما كان يعرضه الريحانى فى « الابيه دى روز» عامى ١٩١٦ و١٩١٧ ، وفيهما نتبين المصدرين الرئيسيين لكوميديا الريحانى ـ فالواقع الشعبى المصري والمسرح الهزلى الفرنسي ، يغذيان هذه الاعمال الباكرة جنبا الى جنب ، كما ظلا يفعلان الى النهاية .

ولسنا محتاجين للوقوف طويلا عند هذه النماذج ، فيما عدا تسجيل بعض الملاحظات العامة ، ذلك أنه ستعرض لنا فرصة أوسع للحديث التفصيلى عن كوميديا

كشكش بك ، حين نعرض بالتحليل لمسرحية كشكشية تمثل أصدق تمثيل هذا اللون المتميز من الكوميديا الهزلية ، ونعنى بها مسرحية « جنان فى جنان » التى اخرجها الريحانى فى عام ١٩٢٧ ، وعاد فيها مضطرا الى جبة كشكش بك ولحيته ومسبحته ، بعد أن تعثرت جهوده السابقة على هذا ، لتطوير فن الكوميديا فى مصر

يكفى أن نسجل هنا ان العائلة الكشكشية قد اكتملت بظهور التابع زعرب ، والحماة أم شولح ، والصديق الشيخ ينسون ، والقواد نصف المتفرنج ابو الدبل ، الذى ظهر فى مسرحية كشكش بك فى باريس ، ثم عاد للظهور من بعد فى مسرحية « جنان فى جنان » .

كذلك نقف وقفة قصيرة عند بعض نماذج الاوبريت التى قدمها الريحانى بالاشتراك مع امين صدقى عام ١٩١٨ ، وبديع خيرى ابتداء من عام ١٩١٩ .

ففى عام ١٩١٨ قدم نجيب الريحانى أوبريت : حمار وحلاوة ، من تأليف أمين صدقى ونجيب الريحانى ، وفيها يتناول الريحانى ـ ربما للمرة الاولى ـ موضوعا كوميديا سياسيا ظل يخايله منذ تلك اللحظة حتى أواسط الثلاثينات ، حين أخرج كوميديته الناجحة : « حكم قراقوش » بالاشتراك مع بديع خيرى ـ موضوع الرجل الفقير ذى المطامح والتطلعات ، الذى ينظر حواليه فلا تعجبه الاحوال ، فيود ـ من صميم قلبه ـ لو كان فى امكانه أن يعيد تشكيل الاشياء .

فى « حمار وحلاوة » يحلم كشكش بك ، وصديقه الشيخ ينسون ـ بعد جلسة حشيش ـ بأن كشكش قد أصبح ملك مصر وان الشيخ ينسون صار رئيسا للوزراء

وتدخل على الملك ورئيس الوزراء طوائف الشعب المسحوقة ، كل له شكواه ومطالبه : الفسالات ،

والسماكون ، والجزارون ، والحشاشون ، كل جمع يأتى ليعرض شكواه فى أغنية .

ويستمع كشكش بك ووزيره الاول الى هذه المطالب ، ولكنه لا يملك أن يفعل بازائها شيئا ، فالعين بصيرة ، واليد قصيرة .

ثم ان هذا كله ليس الا حلما .

هذه المسرحية الغنائية التى وضعها الريحانى تقليدا متعمدا لمسرح الكسار ، تسجل بدء اهتمام الريحانى بالوضع الاجتماعى المحيط بطريقة كوميدية خفيفة ، لا تنقد هذا الوضع نقدا مباشرا ، وانما تعتمد فى النقد على « عرض الحال » وتركه يتحدث عن نفسه وهى طريقة باقية الاثر مع ذلك ، لانها تتسرب الى نفس المتفرج وتصل الى لاواعيته وهو لا يحس بأن أحدا يعظه أو يوجهه ، وقد وصلت هذه الطريقة الى أكبر درجات فاعليتها حين انضم الى فن الريحانى التمثيلى أزجال بديع خيرى المعطرة بروح الشعب ، المتدفقة بدمه الحار ، وألحان سيد درويش التى قطرت روح الشعب تقطيرا ، وسكبتها فى ألحان كلها صدق فى التعبير ، وحب طبيعى متدفق لابناء الشعب .

تعاون الثلاثى الكبير على اخراج مسرحيتين استعراضيتين ، الاولى هى « ولو » التى تتبع الخط الاجتماعى ذاته الذى وجدناه فى «حمار وحلاوة » وهو عرض طوائف شعبية على المسرح ، تشكو حالها وتطالب بالانصاف .

كتب بديع خيرى ، ولحن سيد درويش :

يعوض الله ، يهون الله ، ع السقايين

دول غلبانين ، متبهدلين ، م الكبانية

خواجاتها جونا ، دول بيرازونا ، فى صنعة أبونا

ما تعبرونا يا خلايق .
وكتب بديع خيرى ، ولحن سيد درويش :
نبين زين ، ونخط الودع ..
وندق لـكم ، ونطاهر ..
ونحبل اللى ما تحبلشى ..
ونفك كمان اللى تشاهر ..

وكانت المسرحية الثانية هى « اش » وفيها يتقدم الخط الاجتماعى شيئا ما ليصبح قصة مسرحية أو يكاد .

فهذا كشكش بك قد خسر نقوده كلها فى القمار ، واضطر الى الاقتراض بالربا من خواجه يونانى لئيم ، ويعجز كشكش عن الدفع بالطبع ويتهدده خطر بيع أملاكه فى المزاد ، ولـكنه يرث ــ فى آخر لحظة ــ ثروة تخلصه من متاعبه .

وقد اتبع نجيب وبديع فى هذه المسرحية الاسلوب الفنى ذاته من تقديم اغنيات متعددة تشرح حال فئات شعبية مختلفة ، مثل جامعى الاعقاب ، وكتبة المحاكم ، ونسوة شعبيات يتقدمن بطلب الافراج عن أولادهن الذين دعوا للتجنيد .. الخ .

وضمن فن سيد درويش لهذه الاغنيات أن تصبح شعبية حقا ، وأن تمتد فتشمل البلاد كلها ، وخاصة لحن : « يا ابو الـكشاكش كان جرى لك ايه يا هلترى؟ دقنك شابت فى المسخرة وأمور الفنجرة ؟ » كذلك عمل الثلاثى : نجيب ، وبديع ، ودرويش ، على الاستجابة الى شعارات الحركة الوطنية اذ ذاك فأنشأوا لحن سياس الخيل ، وفى ختامه يقول السياس :

لا تقوللى نصرانى ولا مسلم
يا شيخ اتعلم

اللى أوطـــــــانهم تجمعهـــم
عمـــــــــر الاديان ما تفرقهم

وهو الاسلوب ذاته الذى اتبعه الثلاثى فى المسرحيتين الباقيتين من مجموعة المسرحيات التى تعاون أفراده على اخراجها : مسرحية « ولو » ومسرحية « رن » .

وفيها تختلط الاعيب كشكش بك وأفانينه وحماقاته وهذره مع النساء بالاناشيد الوطنية والاجتماعية مثل لحن الحرية فى مسرحية « رن » الذى يدعو الى حب الوطن بالافعال ، وليس بالاقوال ، فلا بد من تصنيـــع البلاد ، والتقدم للحاق بأوربا وامريكا فى هذا المجال .

ومثل لحن المتصبين فى المسرحية ذاتها الذى يدعو الى أن يقف العمال ضد مؤامرات الاستعمار الرامية الى الفرقة عن طريق الاديان ، ويؤيد حق العمال فى الاضراب ضد المصالح الاقتصادية الاجنبية ، بعد أن أصبح أفراد الشعب كما يصفهم اللحن :

عايشين فى وادى النيـــل نشرب
بالعـــدادات على مللى وســـنتى
من صـــابون للمـــح ومن ســكر
لتـــرموايات لخواجـــه كريانتى

ومن ثم يدعو اللحن الى التعاون والوحدة ، على لسان كشكش بك :

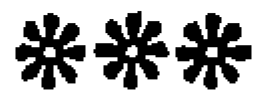
كشكش :

الحق كلــه على الاغنيـــــــــا
احم ! .. يا فرحتنـــا بكثرتهم
ملهيين فى « روزه » و « وسنية »
والســـــــــيف نازل على أمتهم
امتى بقى نشوف قرش المصرى؟
يفضـــل فى بلـــده ولا يطلعشى

انتم بمالكم ، واحنا بروحنا
دى ايد لوحدها ما تصقفشي

وهكذا ، يتحول الريحانى بكوميدياه شيئا فشيئا من الهزل والهذر الى شيء من النقد الاجتماعى ، ونوع من مواكبة الاحداث السياسية والتحولات الاقتصادية التى كان مجتمع تلك السنوات الهامة يمور بها .

وقد مكن هذا الالتفات الى الواقع المحيط نجيب الريحانى من ان يتخلص ـ تدريجيا ـ من قناع كشكش بك ، ومن فن الفرانكو-آراب والمسرحية الاستعراضية عامة ، ويتحول الى المسرحية القائمة على قصة محددة وشخصيات مرسومة بعناية ، ومواقف بارزة ، وحوار قوى ذكى .



ونحن نلمح شيئا من هذا التطور الواعد فى مسرحية « أيام العز » التى قدمها الريحانى عام ١٩٢٣ حيث تتحول كثير من المواد الفكاهية والنمر المحفوظة المعروفة فى الكوميديا المرتجلة ، الى مسرحية من ثلاثة فصول تستمد مصادرها الفنية من ألف ليلة ومن شخصيات الكوميديا الشعبية عامة ، والكوميديا المرتجلة بصفة خاصة .

فى المسرحية موقف رئيسى تنبنى عليه الاحداث ، هو موقف العاشق نور الدين ، الذى يقاسى ويذبل فى صمت ، من تباريح غرامه بمحبوبته حورية ، ابنة القاضى ، ولا يجد سبيلا للاجتماع بها ، كما لا تجد هى سبيلا للقياه اذ انها بدورها تذوب فيه هياما .

ووالد نور الدين ، وهو تاجر ثرى ، لايدرى لماذا يحزن ابنه ويتشاءم ، ويتمنى الموت ، ولهذا فهو يشترى له جارية حسناء فصيحة اللسان عسى أن تسرى عنه .

وحول هذا الموقف الرئيسى تنبنى حوادث المسرحية

وكلها تجرى فى اتجاه تحقيق جمع الشمل بين نورالدين وحورية .

على أن ما يجرى فى المسرحية ليس هاما فى ذاته ، اذ أنه مجرد مجموعة من المناسبات تتيح لنمر الكوميديا الشعبية أن تتوالى ، وتثير ما هو مطلوب أن تثيره من ضحك ، وهذه النمر محفوظة ، معروفة خارج المسرحية جاهزة للاستعمال فى أى وقت وأى مناسبة ، وما على من يريد استخدامها الا أن يلوى عنق الحوادث فى مسرحيته حتى تقوم المناسبة التى تتيح استخدام النمرة الشعبية .

هذا نور الدين ، وقد استبد به الشوق لرؤية حبيبته حورية يتهيأ للقياها فى منزلها قبل صلاة الجمعة ، ويستدعى « المزين » كى يحلق له لحيته ، وبهذا تقوم المناسبة المطلوبة لتضمين النص نمرة كوميدية شعبية معروفة ، هى نمرة الحلاقة بأسلوب فيه كثير من التعذيب للزبون ، واهدار واضح لحقوقه فى الراحة البدنية ، دع عنك فى الزينة الواجبة ، يدور المشهد بين نور الدين وخميس المزين ، وصبيه :

نور الدين : من فضلك خليك مزين وبس ، أنا جايبك تحلق لى . مستعجل . ماعندبش وقت . فاهم ؟

خميس : على عينى ، انت حضرتك موش عاوز تحلق؟

نور الدين : ايوه .

خميس : خلاص ، حتنبسط ، نعيما مقدما ، الفوطه ياولد (يضع الفوطه بشدة حتى يتالم)

نور الدين : آه ! ايدك حا تخنقنى .

خميس : خليك صنديد ، قالوا فى الامثال : وجع ساعة ولا كل ساعة ، الرجل من يتحمل الاهوال ،

العسكرى من دول يخش الميدان . . .

نور الدين : ميدان مين وهباب مين ؟ احلق لى .

خميس : انت حضرتك مش بدك تحلق ؟

نور الدين : ايوه يا سيدى .

خميس : خلاص ، حاتستريح ، نعيما مقدما .

نور الدين : طيب ، بس من فضلك تشهلنى .

خميس : على عينى ، الصابون يا ولد ، (يطرطشه بالصابون) .

نور الدين : عينى ، عينى ، الصابون دخل فى عينى.

خميس : ما يضرش ، كلها نضافة ، أصل الصابون يا حضرة بيصنع من مادة رغوية .. أيوه الصابون .. من فوائد الصابون ..

نور الدين : انت حتشرح لى صناعةالصابون يا اسطى احلق لى من فضلك .

خميس : حاضر ، انت مش عاوز تحلق ؟

نور الدين : أيوه .

خميس : خلاص ، حتنبسط ، نعيما مقدما .

ولكن نور الدين لايقدر له أن ينبسط أبدا ، انخميس يعلق القايش فى رقبته توفيرا للوقت ثم لا يلبث أن يتركه ويدخل فى مناقشة مضحكة مع عالم روحانى اسمه الشيخ على فى فوائد العلوم الروحانية ، وفى الاوصاف الفيزيقية للانسان ، التى يستدل منها على مزاجه النفسى ، ثم يروح يتحاور مع الشيخ على حول طبيعة نور الدين .

خميس : ملاحظ حضرتك المناخير دى ؟ !

على : ايوه يا اسطى ، المناخير دى تدل على ان صاحبها حبيب ومغرم صبابه ومتدهول فى عشقه .

خميس : لا ، ياعلامة ، ده ولا مؤاخذه يدل على ان

صاحبها قدامه سكة سفر .
على : السفر يكون اعوجاجه على الناحيـة اليمنى يا اسطى .
خميس : يمين ايه يافهامه ، الطرطوفه المسحوبة دى
على : دى مش مسحوبة دى مفطوسه .
خميس : دى مفطوسة يا جهبذ ؟ دى مطرطرة اهه .
نور الدين : يعنى يا اولاد الرفضى اعمل لى جنـايه وياكم النهاردة ؟ يا اسطى زفت ، يا هباب الطين ..
خميس : دى مفطوسه يا شيخ على ؟
نور الدين : لا اله الا الله .
على : مفطوسة ، مسحوبة ، ده شىء ما تفهمشى فيه حضرتك .
خميس : يعنى ايه من فضلك ؟
على : يعنى حضرتك حلاق خبير فى الدقون ، ضليع فى القصقصة ، لكن فى العلوم الـكبيرة ادراكك ده وادراك البهايم فى مستوى واحد .
خميس : بهايم .. انت حتوسخ ياشيخ على ؟ داهية تسمك من دون الجهابذة .
على : احترس يا حلاق ، يانتن ، يا قذر ، يامتطفل على موائد العلم .
خميس : هس ياجربوع ، يا أفضى من فؤاد أم موسى
على : انت حتطول لسانك ، يظهر انى حاقلع اللى فى رجلى و . . . .
خميس : ايه ؟ رجلك ؟ هيه وصلت لحد كده ؟ طيب هه (يجرى والقايش فى يده ومعلق فى رقبة نور الدين) قليل الحيا ما تختشيش .. راجل ندل .
نور الدين : يا مزين الـكلب رقبتى ! ؟
خميس : انت حضرتك مش سامع بيقول ايه .. ؟ اتفوه .

نور الدين : والله العظيم ، يا ابن اللاوندى ، أجلك يظهر انه حينتهى على ايدى .

خميس : ياسيدى ما تبقاش عصبى كده ، انت مش عاوز تحلق ؟ حتنبسط ، نعيما مقدما .

هذه النمرة معروفة فى الكوميديا الشعبية ، وقد استخدم توفيق الحكيم جوهرها فى أوبريت «على بابا» التى كتبها عام ١٩٢٥ (بعد أيام العز بعامين) ، كما ظل يلجأ اليها فى مسرحياته التالية « الصفقة ، كل شىء فى محله » (١) .

كذلك ظهرت هذه النمرة ذاتها فى مسارح الصالات (٢) فى الثلاثينات كما وردت آنفا ، مع حذف المناقشة الروحانية الفيزيقية بين الاسطى خميس والشيخ على (٣) التى هى على الارجح اضافة الريحانى وبديع على النمرة التقليدية .

ومعروف كذلك ان نمرة الحلاقة بأسلوب كاريكاتيرى هى بعض البضاعة الكوميدية التى تتداولها المسارح الشعبية فى العالم كله ، خاصة كوميديا المهرجين فى السيرك والكاباريه .

***

وفى الفصل الثانى ، تستخدم المسرحية نمرة أخرى من نمر المسرح المرتجل ، وهى نمرة المراوغة ، وتقضى بأن يختبىء شخص ما تماما خلف شخص آخر ، ويتحرك وراءه بمثل حركاته ، اذا دار ، دار معه ، وان أتجه

---

(١) راجع كتابى : توفيق الحكيم : فنان الفرجة وفنان الفكر .

(٢) استمعت اليها من اذاعة الدولة ، وكان يقوم بدور الحلاق الممثل الشعبى عبدالنبى محمد .

(٣) فى فيلم « حماتى ملاك » . بطولة اسماعيل يس ومارى منيب « وهو كنز ثمين لمن يريد دراسة الكوميديا الشعبية » تنويع على هذه النمرة . فالحلاقة البدائية الكاريكاتورية تجرى لرجل ميت . والنمرة تستخدم تعليق القايش فى رقبة الزبون !

يمنة أو يسرة فعل مثله ، وهكذا يصبح الشخص الآخر ملحقا بالاول ، فلا يستطيع أحد من الموجودين ان يتبين وجوده .

وفى مسرحية « أيام العز » تجرى النمرة على الوجه التالى :

يدخل خميس الحلاق ، ونور الدين ، المتخفى فى زى صبيه ، مكان الحريم فى بيت القاضى . نور الدين يسعى لمقابلة حبيبتــه ، يتبين خميس هــذه الحقيقة ويثور ويصبح من الواجب خداعه ، حتى لا يثير فضيحة ، فهو يخشى أن يداهم القــاضى الجميع ، ولهــذا يهدد بالاســتغاثة بصوت عال ، وهنــا يطلب نور الدين من الوصيفة كهرمانة أن تأتى بسيدتها حورية ويتعهد لها باسكات خميس والتخلص من أذاه ، بحيلة مناسبة .

ومن ثم تدخــل حورية وتختفى وراء نور الدين ، بحيث لايراها خميس ، ويجرى بين العاشقين غزل غير مباشر ، حين يقص خميس على نور الدين ماجرى لاخوته السبعة من مآس مع النساء فيتدخل نور الدين بالتعليق الغرامى الموجه فى حقيقته الى حبيبته حورية ، ولاتملك هذه نفسها من التــأوه بين الحين والحين ، مما يثير خميس ، ويثير معه الضحك .

وهذا هو المشهد : يأمر نور كهرمانة بأن تســتدعى سيدتها فتقول :

كهرمانة : طيب .. والمنيل ده ؟

نور الدين : مالــكيش انت دعوه ، أنا حادهــلره ، (مخاطبا خميس) من حق ، انت ماكملتليش الحكاية اللى كنت ابتديت لى فيها .

خميس : آه ، من حق ، احنا كنا وصلنا لحد فين ؟

نور الدين : لحد اخوك الخامس ما كان قاعد ينتظر

مجيء حبيبته .

(تدخل حورية وتختبيء وراء نور الدين هى وكهرمانة) روحه ، حياته ، مهجة قلبه ، مستنيها على نار .

خميس : مضبوط ، شويه وراحت داخله عليه .

نور الدين : ايوه دخلت عليه وهوه مش عارف نفسه ان كان صاحى والا بيحلم ، وقال لها ياحبيبتى ، يانور عينى ، يامهجة فؤادى ، اعبدك ، أبيع حياتى عشان نظره زى دى .

خميس : ديهدى ، ديهدى ، وانا حا اقول ايه بقى ؟

نور الدين : لا ، لا ، كمل .

خميس : اكمل ايه بقى ... يا اخى كمل انت .

نور الدين : لا والنبى لتكمل أنت .

خميس : نهايته ، هيه شافته بالصفة دى اتنهدت

حورية : (من خلف نور الدين) آه .

خميس : ديهدى ، والآه دى جاتنا منين بقى ؟

نور الدين : ايه ، مالك ، ماتكمل .

خميس : انت ماجتش فى ودنك حاجة ؟

نور الدين : حاجة ايه .. ياشيخ ؟ كمل كمل .

خميس : نهايته ، اتنهدت ، وبعد ما اتأملت فى وشه شويتين ، جت تكلمه قام خنقها العياط ، وفضلت .. اهىء اهىء .

حورية : اهىء ، اهىء ، اهىء .

خميس : ديهدى ! اهىء ازاى بقى ؟ طيب والنوبة دى مش سامع حاجة برضه ؟

نور الدين : أبدا .

خميس : أبدا ، يعنى اكون اتجننت ؟ دانا سامع التمثيل بودنى .

نور الدين : ياعم خميس ايه التهيؤات دى ؟ كمل يا اخينا .

خميس : أبدا ، أبدا ، لازم فى الامر سر .

نور الدين : مالك بس ياعم خميس ؟ انت استعطيت حاجة النهاردة ؟

خميس : حتة افيون كده ما تجيش وقيه ، بس خلينى اشوف فيه ايه وراك ؟ (حركات) (١)

نور الدين : افيون ؟ يا اخى قول كده ، افيون ؟ اعوذ بالله منه ، ياحفيظ ! افيون ؟ لا ، لا ، لا ، ما بقاش الا الافيون! اف! افيون ؟ شفتش حاجه ياسيدى؟

خميس : حاشوف ازاى وانت عامل لى زى الاراجوز!

نور الدين : يا اسطى كمل ، وربنا يتوب عليك من الهباب الافيون ده ، اتنهدت وعيطت وبعد ما عيطت.. ماتكمل يا اسطى ..

خميس : وبعد ماعيطت ، فضلو يشكو الغرام لبعض هيه تقول له ساعة ماعينى تشوفك يبقى قلبى بيدق زى الدربكة ، يقوم هوه يقول لها : وانا راخر ساعة ما اشوفك قلبى يخبط زى الوابور (يقلد الوابور) (٢) ، تغير كهرمانة محلها بمحل نور الدين (٣) والله عال ، انا عامل وابور وابن الخنزير ده مشغل النفس .

كهرمانة : ماتكمل يا اسطى .

خميس : اكمل ايه بقى ؟ الحقى التصادم اللى وراكى

كهرمانة : تصادم ايه يا اختى؟ انت اتجننت يا اسطى!

خميس : اوعى من على الرصيف يابنت الرفضى .

---

(١) نلاحظ هنا اعتماد المسرحية على أسلوب الكوميديا المرتجلة فى ترك الباب مفتوحا أمام الممثل كى ينتقى من مخزن النمر الكوميدية الثابتة ما يستطيع استخدامه تعبيرا عن الموقف الحالى

(٢) تقليد الوابور نمرة معروفة فى المسرح المرتجل .

(٣) كى يخلو له الجو « للتعامل » مع حبيبته !

حورية : يادهوتى (تخرج هاربة) .

نور الدين : الله ، الله ، مالك ؟ جرى لك ايه بس ؟ ماتكمل .

خميس : اكمل ازاى بس ؟ ده القطر لسه قايم اهه يا ابن الكلب (١) .

كهرمانة : يا اسطى خميس فوق لنفسك ، مش كده .

خميس : بس بقى يا قلم الاشارات يا بنت الصرمة .

نور الدين : بقى يا اخينا برضك داخل فى مخك انى باستلبخك للدرجة دى ؟ اتكلم مع واحدة فى وجودك ؟ أمال انت واقف بتعمل ايه ؟

خميس : با اعمل ايه ؟ بأشر لك على التصريح يا ابن الرفضى (٢) .

واوضح من هذا ـ على وضوحه الشديد ـ فى الدلالة على مدى استناد المسرحية على نمر المسرح المرتجل ، ما نجده فى الفصل الثالث من استخدام لنمرة مشهورة فى الكوميديا المرتجلة .

تستخدم هذه النمرة حين يقع أحد اشخاص الفصل المرتجل « كامل » مثلا فى موقف صعب ، كأن يعين حارسا على شخص مشاغب واسع الحيلة ، لص أو عاشق ، فيلجأ المشاغب أو اللص الى حيلة محدده وهى طلب السماح له بالنوم ويتثاءب المرة بعد المرة حتى تنتقل عدوى التثاؤب الى حارسه « كامل » ، فلا يلبث أن تغشاه سنة من النوم ، وهنا ينتفض اللص أو العاشق واقفا ويهرب .

---

(١) نفس الموقف والنبرة والكلام الذى يستخدمه كامل فى الفصول المرتجلة فى مداهمة العاشقين . خصوصا يا ابن الكلب .

(٢) تلاحظ القافية .

يحدث هذا فى فصل : ملعوب الـكاس (١) ، حين يفر العاشق من كامل بهذه الحيلة ذاتها ، وفى فصل : سنبل (٢) ، حين يفر اللص من كامل بنفس التكنيك .

وفى مسرحية « أيام العز » يستخدم الاسطى خميس الحلاق هذه الحيلة ، كى يفر من قاطع الطريق سرحان. بعد أن ألقت به حوادث الفصـل الثـالث من دهاليز القصور الى الصحراء والجبال ـ ما يسميـه المسرح المرتجل : الخلاء (وهذا الانتقال ذاته هو أحد تقاليد ذلك المسرح) .

خميس الان فى قبضة سرحان قاطع الطريق ، الذى اتهمه زورا بانه يحب زوجة رئيس العصابة وذلك كى يخفى حبه هو (أى حب سرحان) لهذه الزوجة .

وبعد ان يدغدغ أعصاب خميس الجائع بمنظر أوزة محمرة يدعوه لاكلها ثم يرفعها من أمامه ، يجرى بين الاثنين المشهد التالى :

سرحان : الا قول لى يا قتيل الحب ، يامفرم ، انت عندك شك فى ان عمرك راح ؟

خميس : لا ، شك ازاى ؟ هوه اللى يشوف خلقتك دى يبقى عنده أمل فى الدنيا تانى ؟

سرحان : بتعشق بسلامتك ، واقع فى حب عقيسلة حضرتك ؟

خميس : لا ، والله ياسيدى ، انا كنت واقع فى حب الوزة.

سرحان : لا وعامل لى مدردح قوى وصاحب خبرة عظيمة ..

خميس : . . . الله لا يكسبك ، معندكوش مخده ؟

---

(١) ، (٢) ـ كتاب : الكوميديا المرتجلة ص ١٦١ ، ص ٢٢٠ على التوالى .

سرحان : ايه ؟ تنام ؟
خميس : امال لا اكل ولا نوم ؟
سرحان : مخـدة ؟ عامل لى مترهف قوى ؟ لازم مخدة ؟ طوبة ما تنفعشي ؟
خميس : طيب طوبة تحت دماغى ، لـكن حاتفطى بايه ؟
سرحان : حتتفطى بالـكفن وتنبسط ٢٤ قيراط ، ولا تحس ببرد ولا بحر .

خميس : امرنا لله ، حسبنا الله ونعم الوكيل (يتثاءب) لو اعرف أنيمه !
سرحان : هس ، اقفل بقك ، تتجرأ بدون استئذان وتتاوب ؟
خميس : ايه .. لازم آخد تصريح عشان اتاوب ؟ (يتثاءب)
سرحان : يا بارد (الاثنان يتثاءبان) ده حيوخمنى والا ايه ؟ يا أخى ديهدى ، تعرف لما تتاوب من هنـا للصبح (يتثاءب خميس فيتثاءب معه سرحان) هوه انا من اللى يكبس عليهم النوم (يتثاءب خميس وسرحان أيضا) .
خميس : ياسلام ، قد ايه النوم لذيذ ! اما لو تغفل عينيه شوية (يتثاءب)

سرحان : ايه ؟ معلهش نام انت (يتثاءب) أنا مفتح عينيه ، اوع تكون فاكر انى غفلان عنك (يتثاءب ثم ينام رويدا ثم يسمع شخيرهما) .

وبعد محاولات من خميس يصحو خلالها سرحان اكثر من مرة ثم يعود للنوم ، ينجح خميس فى تجريد قاطع الطريق من سلاحه ، ويلجئه للهرب .
وتنتهى مسرحية « أيام العز » بموقف تقليدى عريق

فى انتمائه للمسرح المرتجل ، وفى الحوادث السابقة التى تؤدى اليه .

تهاجم عصابة من اللصوص بيت القاضى ، انتقاما من شدة أحكامه ، فتنهب الثروة وتسبى النساء ، ويكون بينهن حورية حبيبة نور الدين وجاريتها ليلى .

ويأتى القاضى بمفرده ليطمئن على حريمه ، بعد أن يوصى فرقة من الجنود بأن تتبعه وتهجم عند سماعها أول طلقة ، غير ان القاضى يقع فى كمين ، ويصبح أسيرا للعصابة .

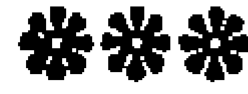
ولا ينقذ الجميع من المآزق الا ظهور خميس الذى يطلق طلقة من الفدارة التى سحبها من سرحان ، وعلى الفور تطبق العساكر على اللصوص ، وتنتهى المسرحية بمشهد الزواج المزدوج التقليدى ـ نور الدين يتزوج من حورية ، وخميس يتزوج من جاريتها ليلى .

وهو مشهد يتكرر كثيرا فى فصول الارتجال ، حين يخرج الملك أو ابن الملك للصيد أو الحرب ومعه دائما خادمه المضحك كامل ، فيقعان فى الاسر ، وينجوان بطريقة أو بأخرى ، ثم يتزوج ابن الملك من محبوبة الفؤاد ، وتكون جاريتها من نصيب كامل .

وواضح مما تقدم ان المسرحية لا تفترض المواقف ، والنمر وحدها من مسرح الارتجال ، بل تتعدى هذا الى الشخصيات ، فتستعير ثنائى الامير وخادمه ، أو المعلم وخادمه ، أو الضابط وخادمه الى آخر التنويعات التى نجدها فى مسرح الارتجال ـ تستعير ثنائى الامير وخادمه ، فتعطى ابن التاجر دور الامير ، وتعطى الحلاق دور الخادم المضحك .

على أن كوميديا الريحانى ـ كما رأينا ـ تضيف أشياء الى فاصل المسرح المرتجل ، تضيف شيئا من

التفكير فى بعض المواقف ، وتحشو بعضها بالحوار الجيد وبالضحك الممتاز ، وتنأى بنفسها عن الحركات الجسدية الداعرة والالفاظ البذيئة التى تتسرب الى الكوميديا المرتجلة فى أكثر من موضع ، ولا تحتفظ من عناصر الكوميديا الخشنة الا بمناظر الردح ، والسباب .



فى هذا العام ذاته ، أخرج الريحانى مسرحية هامة اخرى هى « البرنسيس » . كانت « البرنسيس » أول مسرحية هامة يخرج فيها نجيب الريحانى عن شخصية كشكش بك ، ويؤدى الدور الذى أصبح معروفا به فيما بعد : دور الرجل الفلبان ، الشهم ، الذى يتمسك بقيم الشرف مهما كانت المغريات ، ولا يرضى بديلا بوضعه ومكانه بين صفوف الشعب .

وهو فى هذه المسرحية يؤدى دور مفن بائس ، يعزف على القانون اسمه حسنين ، متزوج من بنت بلد فقيرة مثله اسمها عيوشة .

ويدعى حسنين الى الغناء فى قصر أحد أولاد الذوات وتصر عيوشة على مصاحبته ، وهناك يقع صاحب القصر فى غرام عيوشة ، بينما تحيط النساء الجميلات بحسنين يداعبنه ، ويغازلنه ، مما يسبب سوء التفاهم بين الزوجين ، فتستجيب عيوشة لرغبة صاحب القصر كاظم فى الزواج منها ، ويصفى حسنين لاغراء الامريكية الثرية « مس جاكسون » له بمصاحبتها الى أمريكا بعد الزواج منها .

وبالطبع لايتم هذا الزواج المزدوج ، بل يعود الزوجان كل للآخر فى آخر لحظة ، بعد أن لقنتهما الاحداث درسا واضحا : وهو ان كلا منا له طبقة لا ينبغى أن يخرج عليها ، صعودا أو هبوطا .

هذه المسرحية الهامة حقا من وجهة نظر الدارس

لـكوميديا الريحانى ، تسـجل صـورة واضحة لهذه الـكوميديا وهى تتطور عبر كوميديا الفرانكو ـ آراب ، وفنون الاستعراض ، وكوميديا المسرح المرتجل ، الى كوميديا النقد الاجتماعى التى انضجها الريحانى وبديع خيرى فيما بعد .

ورغم ان كشكش بك عمدة كفر البلاص ، لا يظهر فى المسرحية ، الا ان حسنين المفنى يرث موقفه التقليدى بين باقة من الحسان يعاتبنه ويضاحكنه ويضحكن منه .

والنص يتحدث عن لحية للمفنى ، فكأن كشكش قد نزل عن الجبة ولم ينزل عن الموقف واللحية ، غير ان هذا هو مجرد ارتباط شكلى بكشكش ، مجرد الشرنقة الفارغة التى ثقبتها الفراشة وخرجت منها خلقا جميلا آخر . ويدخل فى باب الارتباط الشكلى أيضا الاغنيات التى ترد فى المسرحية والتى يشترك فيها كل من حسنين وعيوشة على شكل ديالوجات قريبة الشبه بالديالوجات التى كان يلقيها حسين المليجى واحدى زوجاته فى صالات اللهو ، خلال الثلاثينات .

كذلك ترتبط المسرحية عن طريق الحوار المختلط ، بمسرحيات الفرانكو ـ آراب ، فهناك حوار بالفرنسية والانجليزية يدور بين بعض الشخصـيات المتفرنسة ، والاخرى الامريكية ، كما ان هذا الحوار يتخذ وسيـلة لاستنباط الفكاهة حين يلقى أمام اناس من أفراد الشعب ـ مثل الدادة ـ لا يفهمونه ، أو مثل حسنين وعيوشة ، اللذين يتراوح موقفهما بين استنكاره واستعماله ، وفى الحالتين تنشأ الفكاهة أيضا .

كذلك تستعير المسرحيـة نمرة معروفـة من نمـر الـكوميديا المرتجلة ، وهى نمرة العفريت ، الذى يطلع لواحد من الشخصيات فيبث فى قلبه الرعب ، وتصبح

ردود الافعال التى تصدر عن هذه الشخصية مصدرا للفكاهة عند بعض طبقات النظارة ، فضلا عن الامتاع البصرى والنفسى الذى يحدثه ظهور العفريت .

على ان المسرحية تنتمي ـ من الجانب الآخر انتماء واضحا الى الكوميديا العالمية ، وبالذات الى مسرحية « بيجماليون » التى كتبها برنارد شو ما بين عامى ١٩١٣ ـ ١٩١٤ ، بينما كتبت مسرحية « البرنسيس » عام ١٩٢٣ .

فى مسرحية الريحانى ـ بديع ، يتفق ابن الذوات كاظم مع بنت البلد عيوشة ، زوجة عازف القانون حسنين ، على أن تتظاهر بأنها ولية عهد مملكة « مناغوليا » ، ثم يقدمها لضيوف له كانوا يحضرون حفلا فى قصره ، بعد أن يوصيها بأن تتمسك بكلمات معينة لقنها اياها ، ولا تخرج عنها حتى لا ينفضح أمرها:

كاظم : بقى شوف ياعزيزتى ، ما تتكلميش الا عند اللزوم ، وبطلى كلمة : يوه ، قطيعه ، يادى النايبة ، بلا نيلة .

عيوشة : يوه قطيعة ، أمال حا اقول ايه ؟ يادى النايبة ، !

كاظم : لما حد يكلمك ما ترديش عليه الا بكلمة واحدة، مثلا : ايوه ، لا ، مرسى ، بردون ، فهمتى ؟

عيوشة : فهمت ، ايوه ، لا ، مرسى ، بردون .

مارسين : وسمو البرنسيس جايه مصر لوحدها ؟

عيوشة : ايوه ، لا ، مرسى ، باردون .

كاظم : يادى الفضيحة ! (مخاطبا الحضور) سمو البرنسيس جايه لوحدها ، أيوه جايه متنكرة ، بصفة غير رسمية .

فهذا الموقف وثيق الصلة بالاتفاقية التى يعقدها هيجنز

مع اليزا دوليتل فى مسرحية برنارد شو ، وتقضى بأن تتحدث اليزا فى الجو فقط ، وبكلمات محددة عينها لها ولا تخرج عنها أبدا .

ثم يقدم هيجنز فتاته الى ضيوف أمه ، فيسألها هؤلاء عن الجو ، واذ ذاك « تكر » لهم النشرة الجوية التى حفظتها عن طريق هيجنز ، فلما تنتهى تعود الى لغتها الاصيلة ـ لغة شوارع لندن وحواريها ، وتتحدث عن أقاربها بما يفضح مركزها تماما تقريبا .

وواضح من هذا ان موقف عيوشة ـ كاظم ، هو تمصير مقصود لموقف اليزا ـ هيجنز .

كما أن مسرحية « البرنسيس » تلتزم هى أيضا بالخط الذى رسمه برنارد شو للتفريق بين هيجنز ودميته اليزا ، وتفضيلها الزواج من شاب أقرب اليها نفسيا واقتصاديا من هيجنز المترف ، المتعالى ، وان كانت المسرحية المصرية تضيف الى موقف عيوشة موقفا آخر لحسنين ، الذى هو دمية أخرى للأمريكية جاكسون ، وانما على مستوى الرجال .

فلعبة شد الحبل بين اليزا وهيجنز فى مسرحية شو ، تصبح لعبة مزدوجة فى البرنسيس ، كاظم يشد عيوشة ، وجاكسون تشد حسنين ، وفى النهاية يعود كل الى مكانه الاصلى .

وقد أصبح موقف حسنين من تطلعات عيوشة الطبقية موقفا متكررا فى مسرحيات الريحانى ، نجده فى مسرحية « أموت فى كده » وسوف نناقشها حالا ، وفى مسرحية « حكاية كل يوم » التى تنتمى الى فترة النضوج .

الى جوار هذا نجد « مباريات الردح » التى ورثتها كوميديا الريحانى عن الكوميديا الشعبية بصفة عامة ، وعن الكوميديا المرتجلة بصفة خاصة ، وهذا هو أحد

مشاهد الردح الحار فى المسرحية .

تغنى عيوشة أغنية عن يمامة غزلة تحلم بعاشق يترضاها ويبذل لها « ألفين خيالى » (جنيه ذهب) حبا فى جمالها ، فيثور حسنين ، اذ يتبين ان الاغنية تصور افتتان كاظم الارستقراطى * بجمال عيوشة ، زوجته ، ويندفع يسب عيوشة بكلام منتقى يدخل فى صلب الاغنية ، فيبدأ بهذا مشهد الردح :

حسنين :

يمامه زى دى حقتهـا
كبريته ولشعلل جتتها
اللايدة خانت جنسيتها
منعول ابو فورمة سقالتها

عيوشة : هس اخرس ، بلاش كلام فارغ .

مارسين : مالك ؟ ايه اللى جرى ؟

عيوشة : بقى مش سامعينه عمال يشتم اليمامة ؟

حسنين : طبعا اشتمها ، والعن أبوها ع السبحة ، يمامة زى دى ما عندهاش دم ، يمامة وقحة ، دى مش يمامة ، دى بومة ، دى حداية ، دى أم قويق ، دى بفبفانة ، دى ست دودو .

عيوشة : ست دودو فى عينك ، تطول لسانك عليها ليه ؟ ذنبها ايه هيه يا راجل يا قبيح .

حسنين : يمامة سافلة ، يمامة منحطة ، يمامة ما عندهاش تربية ، اسفخص على دى يمامة .

عيوشة : اسفخص عليك انت يا نتن يا جربوع يا دون يا صايع .

حسنين : شاهدين على سمو كريمة ولى عهد مناغوليا ؟ ماردحتش أنا زى سموها ؟

عيوشة : طبعا أردح لك وأردح للى خلفوك كمان ،

اوعى تشتم اليمامة أنا با اقول لك اهه ، جوزها هوه اللى يستاهل ضرب الصرم .

حسنين : هيه اللى تستاهل ضرب البلغ القديمة .

عيوشة : فشر ، هوه اللى حقه الحرق .

حسنين : أبدا هيه اللى حقها الشنق .

الاثنين : (ينظر كل منهما للآخر) اتفوه بلا نيلة (١).

الىجوار هذا نجد الشخصيات التى أصبحت تقليدية فى كوميديا الريحانى : الشـــابة الجميـــلة ، الغزلة ، الدلوعة ، التى تضطر فى النهاية الى الاعتماد على صدر رجل واحد حنون ، أحبته طول الوقت ، رغم غزلهـا المتصل بغيره ، وتمثلها هنا عيوشة .

المرأة الشعبية ، الطويلة اللسان ، التى تنصح أحيانا وتلدع أحيانا أخرى ، وتمثلها هنا الدادة ، وكانت فى المسرحيات السابقة والمسرحيات اللاحقـة حتى فترة النضوج تمثلها أم شولخ حماة كشكش بك ، ثم أصبحت مجرد حماة فى مسرحيات النضوج .

وأخيرا لحظات الـكوميديا الناعمة ، المبللة بالدموع ، التى تنبثق دائما فى مسرحيات الريحانى ، حين يغلب الغلبان على أمره ، ويضطر الى خلع قناع المـكابرة ، ويعرض جراحه على الناس ، فيهزنا ويثير منا الاشجان

هذا حسنين قد قرر أن يســافر مع الامريـــكية مسز جاكسون الى امريكا ، بينما أعلن كاظم خطبته لعيوشة على ضيوفه .

والاثنان ــ مع ذلك ــ محيران ، يود كلٌ منهما لو عاد

---

(١) كان نجيب الريحانى على وعى تام بالقيمة الترفيهية للـــــردح . فهو يقول لعثمان العنتبلى ، الذى لامه على خروج بعض المشاهد على أصول اللياقة ونبو الفاظها : « انا معك .. ولكننى أريد أن استحوذ على عامة الجماهير ، وانتقم لها من كثير مما يضايقها . ولامانع من البجبحة قليلا ليضحك الناس » نجيب الريحانى ــ ص ١٠٠

للآخر ، لولا المكابرة ، والتمسك بالمظاهر ، اذ ذاك تأخذ عيوشة تتمسح كالقطة المحتاجة بحسنين وتحاول استدرار عطفه :

عيوشة : حسنين ، حسنين .

حسنين : حد بينده ؟

عيوشة : حسنين ، تعال هنا .

حسنين : يلزم حاجة ؟

عيوشة : ايوه ، كنت .. كنت بدى اقول لك ازيك يا حسنين ؟

حسنين : الله يسلمك يا عيوشة ، وانت ازى سموك؟

عيوشة : زى الزفت ، اقعد .

حسنين : طيب .

عيوشة : ازيك يا حسنين ؟

حسنين : الله يسلمك يا عيوشة ، ازيك ياعيوشة ؟

عيوشة : الله يسلمك يا حسنين .

حسنين : سبتك بالعافية good-by يا عيوشة .

عيوشة : الله ، رايح فين ؟

حسنين : رايح على اموركا اشوف نسايبى الجداد.

عيوشة : نسايبك مين يا حسنين ؟

حسنين : ولسن ، وهاردنج ، وتافت روزفلت ، وعدوك كتير .

عيوشة : بقى حاتفوتنى يا حسنين ؟

حسنين : آه .

عيوشة : ح تسافر ؟

حسنين : الوردة الجميلة ما تتحطش الا فى زهرية بنور واموركا دى ــ فضلة خيرك ــ مزروطة زهريات .

عيوشة : طيب وانا ؟

حسنين : على مانافوليا ، فوتك بالعافية ياعيوشة .

عيوشة : الله يعافيك يا حسنين ، حسنين ؟
حسنين : نعم ؟
عيوشة : نسيت أقول لك : ازيك يا حسنين ؟
حسنين : الله يسلمك يا عيوشة .
عيوشة : قلبك مطاوعك ؟ تفوتنى لمين ؟
حسنين : للقطيفة والحرير .
عيوشة : مش صعبان عليك حاجة ابدا ؟ مين بكره يعملك البصارة ؟
حسنين : ضرتك .
عيوشة : ودى تعرف تعمل بصارة ؟
حسنين : ايوه ، تعمل بصارة امريكانى ، بصارة بالبسكويت والبانتسبانيا ، والشكولاتة والكوكتيل .
عيوشة : بقى مبسوط يا حسنين ؟
حسنين : ايوه مبسوط قوى .
عيوشة : امال بتعيط ليه ؟
حسنين : باعيط م الانبساط ، باعيط م الفرح ، فرحان ، مزاطط ، قلبى مليان فرح ، باضحك اهه : باضحك .
عيوشة : ما تعيطش يا حسنين ، سد يا حسنين ، سامحنى يا حسنين .
حسنين : أسامحك ليه ؟ انت عملت حاجه ياعيوشة؟
عيوشة : ايوه ، أنا غلطانه . أنا مجنونه ، أنا مذنبه ، يا حسنين ، أنا جنيت عليك .
حسنين : ايوه صحيح ، جنيتى على يا عيوشة ، كسرتى نفسى ، حطمتى آمالى ، خربتى بيتى ، عدمتينى سعادتى ، جرحتى احساسى ، نسيتينى الضحك ، علمتينى البكا يا عيوشة ، من امبارح وانا زى المجنون ، ساعة أسكت وساعة أهيج وساعة اهلوس ، ساعة

ادعى وساعة اكفر ، صورتك قدام عينى ، لا انا عارف العنك ولا أعذرك والا أنتقم منك ، والا اسامحك ، الانتحار عندى بقى بسيط ، قتلتينى ، يخونك لقمة البصارة يا عيوشة ..

***

وصف نجيب الريحانى فى مذكراته مسرحية « البرنسيس » بأنها كانت أول محاولة حقيقية لنوع الكوميدى فى مصر ، وان كانت أشربت ببعض نواحى الاوبريت . »

وأضاف انها نجحت كما كان يقدر لها ، وبفضلها توطد مركز بطلتها بديعة مصابنى فى عالم التمثيل ، ولكنه عاد فاستدرك قائلا : أن المسرحية لم تستوف حظها من النجاح لانها كانت تعرض على فترات متقطعة.

وبالاضافة الى هذا فقد كان « الدرام قد طغى على مصر فاشتهر فيها اسم مسرح رمسيس ، وعمل عميده يوسف وهبى ومخرجه عزيز عيد على ترجمة أحسن منتجات الغرب الادبية ، وعرضها على الجمهور فى ثوب قشيب ومظهر خلاب ، لفت الى هذا النوع أنظار الناس قاطبة ، فتهافتوا على مشاهدته .. وتركنا نتابع سيرنا الاعرج .. فكانت محاولاتنا الكوميدية تنجح فى محيطها المحدود (١) . »

قد يصلح هذا الكلام كبعض التفسير لتعثر محاولات الريحانى فى تلك السنة فى انتاج كوميديا تحوى شيئا من المستوى الفنى ، ولا تضحى أبدا بمصالح الشباك .

غير انه يبقى مع هذا مجرد تفسير جزئى ، وغير جوهرى .

أما السبب الاساسى فى هذا التعثر ، فهو ان الريحانى لم يكن قد تبين طريقه بعد ، لم يكن قرر ان يظل يقدم

(١) المذكرات ــ ص ١٤٠

الكوميديات الشـعبية والفنتازية والاستعراضية ، كما كان زميله ومنافسه الـكسار يفعـل ، أو أن يمضى قدما ، فيتخلى عن هذا كله ، ويسير فى الطريق الذى كانت « البرنسيس » تشير اليه ، والذى وصـفه هو نفسـه فيما بعد بقوله : ان نتخلص شـيئا فشيئا من نوع الريفيو (الاستعراض) ونتعمق قليـلا قليـلا فى الـكوميدى الاخلاقى (١) .

والى جوار هذا فلم يكن الريحانى قد تخلى نهائيـا عن رغبته الدفينة فى أن يكون بطلا من أبطال «الدرام» ، فنراه يؤلف فى عام ١٩٢٦ فرقة الدرام التى تقدمت الاشارة اليها والتى ضمت ــ فيمن ضمت ــ الفنـانة المرموقة روز اليوسف ، ولم تمكث روز اليوسف فى الفرقة أكثر من أسبوعين ، ثم كتبت فى مذكراتها من بعد تقول فى تفسير فشل الفرقة : « أن الريحانى قد خلق للـكوميديا لا للدرام وقد كان يقف على خشـبة المسرح فى الموقف المحزن فيضحك الناس » (٢) .

وبسبب هذا التميع وعدم القدرة على تحديد الهدف وبأثر من وقع الخسائر المالية الموجعة التى حلت عليه من مشروع فرقة الدرام ، يستمع الريحانى الى نصح صديق له قال له فى عام ١٩٢٧ : « قوم حط دقنـك والبس جبتـك وقفطـانك ياسى كشكش ، وانت تلقى الفلوس هلت عليك تانى يا أخينا » .

وفعلا قدم الريحانى فى عامى ١٩٢٧ و ١٩٢٨ سلسلة من المسرحيات عاد فيها الى جبة كشكش بك ولحيته وهذره بين النسـاء ، وسنناقش من بين هذه مسرحية « جنان فى جنان » عام ١٩٢٧ وفيها كثير من التفاصيل والميزات الفنية لـكوميديا الفرانكو ــ آراب وزعيمه

---

(١) ص ١٧٩ من المذكرات . (٢) ص ٨٣ من ذكريات .

كشكش بك .

ثم مسرحية « ابقى اغمزنى » عام ١٩٢٨ التى تتطور فيها شخصية كشكش بك تطورا واضحا نحو الشخصية الـكوميدية التى استقر عليها الريحانى فيما بعد .

ثم ننهى الحديث عن مسرحيات هذه الفترة بتحليل لمسرحية « أموت فى كده » التى خرج فيهـا الريحانى مرة ثانية والى الابد من شخصية كشكش بك .

***

فى مسرحية « جنان فى جنان » تمشي الشخصيات التقليدية لـكوميديا الفرانكو ـ آراب : كشكش بك ، وتابعه زعرب ، ومعذبته الحماة : أم شولح ، جنبا لجنب مع الشخصية التى تقمصها الريحانى فيما بعد ، وهى شخصية الرجل الفلبان ، الذى يتذبذب بين الجعجعة ـ حين يجد الجو خاليا ـ وبين الاسـتكانة ، حين تنقض عليه قوى لا قبل له بمقاومتها .

وفيهـا أيضـا نجد بعضـا من الشخصيـات التى استخدمتها كوميديا الريحـانى فى مرحلة نضوجهـا . البلدى ، الذى يتطلع الى تسلق درجات أعلى فى السلم الاجتماعى ، ويتفاخر بثروته ، ويتفرنج فى كلامه بطريقة تضحكنا وتكشف فى الوقت ذاته عن جهـله وضحالته (وهى الشخصية التى تخصص فى أدائها عبد الفتـاح القصرى) .

كذلك تبدو الحماة أم شولح فى مظهر يذكرنا ببعض السمات التى ميزت هذه الشخصية فيما بعد ، حين تطورت من مجرد حماة لعمدة ريفى الى شخصية المرأة السليطة اللسان ، القوية الارادة ، الراغبة فى التقـدم مهما كان مظهريا ، ومهما بدا مضحكا (شخصية مارى منيب التقليدية) .

ويساعد على ظهور هاتين الشخصيتين جو الفرانكو

آراب الذى تتحرك فيه أحداث المسرحية واشخاصها ، حيث جزء من الحوار يدور بالفرنسية والانجليزية ، فيكون من المفارقات المضحكة أن يردد الفنى البلدى بعض الالفاظ الانجليزية ، وتتلفظ أم شولح بكلمات فرنسية مشوهة ، تعبيرا عن رغبتها فى التشبه بالاسياد

والمسرحية بعد هذا فى أساسها مجموعة من المشاهد الراقصة والترفيهية يربط بينها خيط قصصى مهمته الاولى أن يسمح للمشاهد الراقصة أن تتوالى وأن تتخللها مواقف المواجهة المضحكة بين كشكش بك وتابعه زعرب من جهة ، وبين كوكبة من الجميلات اللواتى يسيل لهن لعاب كشكش بك ، فينسى فى سبيلهن كل شىء ، من جهة أخرى .

كما ان هناك مواجهة أخرى بين كشكش بك ، الجعجاع ، الخواف ، وبين قوى السلطة ، ممثلة فى الامير الايرانى الذى جاء الى مصر ليكتشف الآثار ، ويسخر بالاعيبه من كشكش بك ، ويهدده بقصة مخترعة عن رقبة كهنة مصر القديمة فى الانتقام منه ، على نحو ما انتقموا من لورد كارنافون .

وتبدأ المسرحية بطريقة تذكرنا بقوة بفصول المسرح المرتجل ، تبدأ فى فندق ، وهو مكان أثير لدى فنانى الكوميديا المرتجلة ، يحبون أن يديروا فيه أحداثهم ، لانه يعطيهم فرصة واضحة لاستعراض طائفة منوعة من الشخصيات الغريبة التى تثير الضحك بتصرفاتها ، وسماتها ، وصفاتها البدنية ، وأزيائها ، ولهجاتها الغريبة .

وبالفعل ، ما أن تنتهى لحظات الحوار الفرنسى الذى يدور بين الراقصات وبين رئيس لهن ، والذى نفهم منه أن أميرا ايرانيا كبيرا يوشك أن يصل الى مصر ، وانه

قد اتخذ لاقامته فندق « لودوموند » (اى العالمين) ، وان الجميع ، بما فيهم الجرسون أبو الدبل ، مامورون بأن يقدموا له الاستقبال الفخم الذى يستحقه ، حتى يخلو الجو لابو الدبل ومجموعه مضحكه من الشخصيات تتوالى عليه ، طلبا ليد ابنة الامير الايرانى ، التى اعلن الامير ، انه مزوجها لمن يهديه اثمن أثر فرعونى ، بصرف النظر عن شخصيته ومركزه الاجتماعى .

وابو الدبل هذا شخصية طريفة تستحق ان نتوقف عندها قليلا . انه يتحدث فى هذا الفصل الاول كما لو كان واحدا من اشخاص المقامات ، ويتصرف تصرفات الرجل الجعجاع المسحوق معا ، فيذكرنا على الفور بشخصية الريحانى عقب خلعه لقناع كشكش بك .

وبهذا تحوى مسرحية «جنان فى جنان» هذه الظاهرة الفنية الطريفة ، ظاهرة تواجد كشكش بك نفسه الى جوار امتداده المستقبلى اى انها تجمع بين حاضر كشكش بك ومستقبله معا .

هذا هو أبو الدبل ، قد فرغ لتوه من استقبال أم شولح ، وعلم منها انها قد زوجت ابنها شولح فى حفل احيته فرقة جاز ، ورقصت فيه الشارلستون ، وانها قد صحبت صديقتها مدموازيل ست أبوها ، ومدام بخاطرها ، ومعهما الشيخ على ويكه الى محل جرمبى (جروبى) حيث كان عند الجميع انترفيو « تقصد رانديفو » .

ويعلق أبو الدبل على هذا بقوله :

ــ لا لا لا ، حقه يا اولاد الدنيا اتغيرت ، أم شولح ما بقتش من زقاق عطفة درب الوطاويط ، دى بقت من الفولى برجير .

وفجأة تأخذ مجموعة الشخصيات الغريبة تتوالى فى الظهور :

المحامى : الـ hall محل استقبال عظيم ، جرسون .
ابو الدبل : وده يطلع ايه ده راخر ؟ افندم !
المحامى : احنا هنا فى أوتيل Les deux mondes مش كده
ابو الدبل : أيوه يا افندم ، ومحسوبك يبقى ...
المحامى : هس ecoute ، بنطونك بشريط قصب : بكل تأكيد خدام لوكاندة ، لابس عمة ، ما فيش شك انت واحد ابن بلد ، واقف فى الـ hall de l'hotel بناء عليه أنت جرسون .
ابو الدبل : ودى لحسة ايه دى ياخويا ؟
المحامى : Ca, c'est une part أما فيما يختص بى أنا je suis
ابو الدبل : هس ecoute بنطلـونك بشريط مزيت ، بكل تأكيد وسخ ، جاكتتك مرقعة ، تبقى غلبان ، بتتكلم فرانكو آراب ، يعنى شحات moderne عرفتنى قوام ، بناء عليه ، انت يا مسيو منجم .
المحامى : برافو C'est, ca ، منجم قضائى أمام ...
ابو الدبل : مفهوم ، مفهوم ، أمام الطوخى والزرقاوى وطوالع الملوك .
المحامى : non, non ، أمام عموم المحاكم .
ابو الدبل : آه يعنى ..
المحامى : avocat ، محامى .
ابو الدبل : محامى ؟ امال ولا مؤاخـذه ايه الروب المرقع اللى على كل لون ده ؟
المحامى : mixte مختلط ، مون شير .
ابو الدبل : طيب والقضية ايه بقى يا متر ؟
ويقرأ له المحامى اعلانا نشرته صحف اليوم عن زيارة الامير الايرانى لمصر ، وكيف انه وعد بتزويج ابنته ممن يهديه اثرا فرعونيا قديما ، وانه أعد دفترا خاصا فى الفندق ليقيد فيه من يشاء خطبة الاميرة اسمه وطلبه.

المحامى : ... الدفتر فين ؟
ابو الدبل : طيب وحضرتك بالنيابة عن مين ؟
المحامى : بالنيابة عن مين ؟ بالنيابة عن نفسى ، ليه ، مش مالى عينك ؟
ابو الدبل : لا ، بس أنا غرضى استلفت نظر حضرتك لل ...
المحامى : دول ؟ دول شهادات قضايا ياغبى .
ابو الدبل : شهادات قضايا ؟ ليه ، الزباين كلها من الحسينية ؟
ثم يدخل سائح امريكى اسمه ردكينج ، فيظهر له ابو الدبل الحفاوة البالغة التى تليق بدولاراته ، ويلى ذلك مشهد رقص وموسيقى ، يعقبه دخول التاجر المصرى الفنى ، واسمه دسوقى :
دسوقى : سلام عليكم ياجدع come on here اما اقول لك .
ابو الدبل : الله ! وده مش عارف ايه راخر . انضف شوية ، يطلع قاضى .
دسوقى : طيبون .. مش برضك الاوتيل هنا ؟
ابو الدبل : كده ، كده ؟ ايوه يا افندم ، فيه حاجه للخدمة ؟
دسوقى : wait a moment تصدق بالله ، ساعتين ونص وأنا داير عالمخسوف الاوتيـــل بتاعكو ده ، بالك ياحظ ان ما كنتش وصلت له ، وحق من خلقك كان الابعد اتجنن ، آه ، كان اتهوس ، اتلحس .
ابو الدبل : طه وله ، وله يا اخينا ، ما حصل خير ، واهه وصل الابعد والحمد لله .
دسوقى : ده صحيح that is good حيث كده ، دوس كأنه لم يكن .

ابو الدبل : عيني ياعيني ، كل مدى عماله تتجليط ، والاشيا معدن .. يظهر ان الابعد ما دخلش دنيا ؟

دسوقي : حاخشها برضك بأنفاسك prochainement بقي العبد لله يعجبك ، بنى آدم ملو هدومه ، ثم انه بلا قافيه مسموع

ابو الدبل : ليه ، حضرتك تبقى مين ؟

دسوقي : ابقى مين ! تعرف تستقرا ؟

ابو الدبل : ايه ده ؟

دسوقي : الكارت ، بلا قافيه ، كارت فيزيت .

ابو الدبل : كارت فيزيت والا يافطه فيزيت ، دسوقى عبد المعين ، صاحب فابريقة القباقيب المصرية ليمتد.. ما شاء الله ، ما شاء الله ، وحضرتك جاى تخطب ؟

دسوقي : عفارم ع الابعد ، ما انا حاكم صاحب فابريكة .. آه مستكفى الشروطات ، قباقيبى نعم ، لكن ارابيسكه ، بالك يا مولانا لو ما كانش الابعد صاحب فابريكه ويليق لجوازة بنت ناس زى دى ، ياحفيظ ياحفيظ ! كان الابعد رمى نفسه تحت ترماواى كان شرب سليماني ، سليماني ايه ، فنيك ، ولا فنيك ، ميه ، بعيد عن السامعين مية نار ، موش صاحب فابريكة الا موش صاحب فابريكة دى كمان ، دانا كنت اتردم بالحيا ، حقه بس الا مش صاحب فابريكة دى كمان .

ابو الدبل : ياسيدى ومين قال لك مش صاحب فابريكة ! دى كانت مصيبة ايه النهاردة ! صاحب فابريكة ياسيدى ، صاحب فابريكة .

دسوقي : صحيح that is good حيث كده دوس كأنه لم يكن ، ثم انك تناولنى الدفتر .

ولا يكاد أبو الدبل يلتقط أنفاسه بعد خروج هذه « الرزية » حتى يدخل عليه مشاغب آخر ، هو فى

هذه المرة ايرانى :

العجمى : انوار ياهو .. خوش جلدى .

ابو الدبل : الله ، ده باين اللى فاتو أرحم ، خير يا افندم .

العجمى : طلعة بهية ، زهية ، حضرة فارسية ، امان قدومية ، امير نازيه اعظم حضرتلرى .

ابو الدبل : يانهـــار اســـود ، لا ، لا ، لا ، كله الا السوزيانى .

العجمى : صـــفا اولان شـــوك دف جانم بيوك كيم بشارة بشوك افندم لوكاندة امان امان ، أوشة شيتيوك قدوم أمير سلاله بزرحم هرير .

ابو الدبل : هرير ايه يا أخويا ، لا حول ولا قوة .

العجمى : حفيد أخلاف أسلاف انو شروان كسرى .

ابو الدبل : كسرى ؟ طب ما تقول كده م الصبح ، يحنن عليك .

العجمى : اخرس قطع لسانك ، منحس مظفر .

ابو الدبل : ياشيخ ! بس بقى لاتولك .

العجمى : هاى ، وقاحة ، اهانة ، امير بندر قيروان؟

ابو الدبل : ديهدى ، مستعفى روحك ياسى قيروان ؟ يعنى ارزعك ع الارض دلوقت .

العجمى : هاى سكلجى ، بكلجى ، عصبجى ، محتقر لوكندجى .

ابو الدبل : انا فى عرض النبى .

العجمى : اضرب انا ؟

ابو الدبل : ياسيدى حرمت ، ابوس ايدك .

العجمى : اتفوه ، حيوان .

ابو الدبل : يانهار اسود ، وانا كان مالى ومال الغلب ده النهاردة ؟

وواضح مما تقدم ان جوهر الشخصية التى تطور اليها كشكش بك فيما بعد يكمن فى «أبوالدبل» الفشيم المتعافى ، الذى تتوالى عليه المصائب ، فتارة ينشط لملاقاتها ، واخرى يستنيم ، وهو باستمرار مسحوق ، مضيق عليه ، نافد الصبر ، متحفز ، وهو دائما طيب القلب « نباحه أقوى من عضته » كما يقول الانجليز ، فى وصف شخصية الجعجاع .

غير أن « أبو الدبل » يفقد هذه الصفات جميعا ، ويرتد مجرد تابع متآمر ، لا هم له الا تنفيذ تعليمات الامير الايرانى ، وذلك حالما يظهر كشكش بك فى الميدان مصحوبا بتابعه زعرب .

هنا يسلب سحر العمدة الخفيف الظل ، الجعجاج الخواف هو الاخر ، شخصية « أبوالدبل» كل حيويتها ، ويؤكد الحاضر تفوقه على المستقبل .

يدخل كشكش بك فتظنه مجموعة الراقصات الفاتنات الامير الايرانى المنتظر ، ويهتفن جميعا بحياته ويعجب كشكش بك مما يجرى ويسأل تابعه :

كشكش : جرى ايه يا واد ، اللهم اجعله خير .

زعرب : ما انت تملى العين يا جناب العمدة .

كشكش : بيه بيه بيه ! خشينا الدنيا ياوله ، لازم هم دول النمابس اللى مواعدنا بيهم عمك « أبو الدبل » يا وله ؟

زعرب : ايوه يا جناب العمدة .

Vanca · Attention, un deux trois.
Tous : Vive Vendicator.

كشكش : طور ازاى يعنى ؟ وده استفتاح ايه ده !

Vanca : Soyez la bienvenu M. Vendicator.

كشكش : وبعدين بقى فى الكلام الفارغ ده .

Vanca : Nous sommes tous a votre addresse, M. Vendicator.

كشكش : ولسه برضك بتقول لى طور ، يعنى اطبق دلوقتى فى زمارة رقبتك ؟ يعنى اجيب خبرك دلوقت يعنى ؟ اموت فى كده يا فرفورة ، واد يا زعرب يا وله .

زعرب : افندم .

كشكش : شـوف ياواد الجلد المـكن اللى فى غاية الاجلاسيه ده .

Eliane : M. me fait l'honneur de parler ?

كشكش : آه يانى ، يا قلة اللسـان يا اخواتى ، وى ، وى ، مازمازون .

Eliane : je prie M. de bien vouloir croire a notre devoument

كشكش : وعدى عليك ياللى مانيش فاهمك أبدا .

Eliane : Et notre attachment à la personne auguste de la princesse Amar El Din.

كشكش : ايوه كده بالعربى ، يا مشمشبه خالص .

Lolite : Nous sommes les devoués serviteurs de la famille Fadl-Allah

كشكش : فضـــل الله ؟ فى أمان الله ! واهه التانيـــه روخره اتشـاهدت يا وله .

زعرب : ايوه ، عفارم على سعادتك يا جناب العمدة.

Lolita : Altesse !

زعرب : تيس ؟ تيس ازاى يابت انت ؟

كشكش : اخرس يا وله .

زعرب : دى بتقول على جنابك تيس يا جناب العمدة

كشكش : ما يضرش يا وله .

زعرب : ما يضرش ازاى بس ؟

كشكش : ايوه ، تحيتهم كده ، ده كلام ما تفهموش انت .

وتخرج مجموعة الراقصات بعد التحيات «التيسـية» المختلفة ، التى يتقبلها كشكش بك راضيا حين تأتى من

الجميلات ويغضب لها حين تخرج من فانكا ، رئيس الراقصات ، لانه رجل ! ثم تدخل مجموعة الشخصيات التى رأيناها من قبل :

المحامى : ياذا السيادة البهية .

كشكش : بهية ؟

دسوقى : مرحب ! تلتميت سجادة على عيونك .

كشكش : الاشيا معدن ، بقينا فى خان الخليلى ، ايه يا اخويا الجوز الهزؤ دول ؟

المحامى : انه بنــاء عــلى ما نشرتموه ســعادتكم فى الجرائد . .

كشكش : مين ؟ احنا ! ؟

المحامى : أتقــدم اليكم بالشروط التى تطلبــونها ، ملتمســا ، راجيا ، مؤملا ، مستقتلا أن تنظروا الى بعين الاعتبار .

كشكش : بعين الاعتبار ؟ آمال آحنا ناظرين لك بعين الصيرة ؟

المحامى : هذا ودمتم ، افندم .

كشكش : عظيم قوى ، فهمت يا وله ؟

زعرب : أبدا . .

دسوقى : ومحسوبك شرحه .

كشكش : تنورنا خالص .

دسوقى : تصدق بالله ياحضرة ، أن ما كنتش بلا قافيه شرفت النهاردة ، يا ستار !

(يدخل العجمى) .

كشكش : ما تفوتنيش يا واد يا زعرب .

دسوقى : لو ما شرفتش معناها .. اف ، اف ، اف .

كشكش : مسلح يا وله ؟

زعرب : ايوه يا جناب العمدة .

دسوقى : كان الابعد وحق من خلقك اختل ، اتقندل اتدهول ، اتنيــل ، الا ما كنتش شرفت ، ما كنتش شرفت !

كشكش : لا حول ولاقوة ، ياجــدع الله يهديك ما ادينى شرفت (١) .

دسوقى that is good حيث كده ، دوس كأنه لم يكن .

العجمى : امان ياربى ، خلقه فارسية ، أما عجيبة والله . (لزعرب) افندم سكرتير طلعة بهية ، زهية ، حظرة أمير أعظم حضرتلرى ؟

زعرب : خبر اسود !

كشكش : جرى ايه يا واد ؟

زعرب : الحقنى ، تعرفشي مالطى يا جناب العمدة ؟

دسوقى والمحامى : عمدة ؟ !

كشكش : مالطي ايه ، جاك البلا ، ما انك بليه ، اوع كده ، وانا أكلمه : نعم ؟

العجمى : طلعة بهية ، وزهيــة ، حظرة أمير اعظم حضرتلرى .

كشكش : ايه ؟ ..

(يتكرر كلام العجمى وسؤال كشكش وتعليقه ثلاث مرات) (٢) .

زعرب : فهمت ايه يا جناب العمدة ؟

كشكش : ولا حاجه يا وله .. فوت بنا من هنا فوت

المحامى : بكل تأكيــد مش هوه .. على فين وال reponse

كشكش : reponse فى عين أبوك منك له مجانين صحيح

---

(١) لاحظ التطابق فى تصرف كل من أبو الدبل وكشكش بازاء دسوقى

(٢) فى الكوميديا المرتجلة كثيرا ماتقضى التقاليد بتكرار المشاهد ذات الطابع الغريب ثلاث مرات .. دائما ثلاث مرات ، لا أقل ، ولا اكثر .

العجمى : اخرس حيوان .
كشكش : بس اقتصر انت راخر .
العجمى : هاى حيوان ، انت مش أمير .
كشكش : طب اتليس بقى لاعدمك .
العجمى : سكلجى ، بكلجى .
كشكش : خبر اسود ، جاى ، الحقنى ياواد يازعرب جاى (١) .

وتتطور حوادث المسرحية من بعد بطريقة الحواديت المعروفة فى الف ليلة وفى المسرح الاستعراضى عامة ، فيجد كشكش بك نفسه فى مقبرة فرعونية محاولا انتزاع جوهرة قديمة من آدمى متظاهر بانه تمثال ، ويخرج من المقبرة وقد صحبه تهديد واضح من الكاهن بان يعيد الى المقبرة عصا سحرية سرقها غيره فى موعد أقصاه ثلاثون يوما والا جاءه الموت من حيث لايحتسب.

ولا يبقى فى المسرحية ما يهمنا بعد هذا الا المشهد القديم قدم الكوميديا الشعبية المكتوبة ، وهو الذى يتهيأ فيه كشكش بك للزواج من ابنة الامير الايرانى ، فلما تأتى اللحظة الحاسمة ، ويرفع النقاب عن عروسه يجدها عدوته اللدودة الشمطاء أم شولح !

وهو مشهد يذكرنا على الفور بابن دانيال .

المهم ان المسرحية تسجل ذلك النزوع فى نفس الريحانى الى التخلص من قناع كشكش ، فهو كما رأينا يقدم بديلا — ولو مؤقتا — من العمدة المهزار ، وهو فى الوقت ذاته يطور من كشكش بك بدرجة ملحوظة ، بحيث يقترب العمدة من امتداده المستقبلى ، ويحدث

(١) وهذا تطابق آخر فى موقفى كل من كشكش وابى الدبل بازاء العجمى : الشجاعة الفارغة ثم الانكسار . ان الشخصيتين وجهان لشىء واحد .

تطابق بين الحاضر ومشروع المستقبل .

***

فى عام ١٩٢٨ أخرج الريحانى مسرحيتين أخريين ، تعتمد كل منهما على شخصية كشكش بك ، وان اختلف الموقف من العمدة المهزار .

فمسرحية « آه م النسوان » مثلا تعود عودة تامة الى كشكش بك التقليدى ، وتصور تحككه القصير النظر بالفاتنات الاجنبيات ، اللواتى يتخذنه مجرد وسيلة لبلوغ اغراضهن ، ثم يلفظنه دون ندم أو اعتذار فينتهى به الامر الى العودة الى كفر البلاص .

وهذه المسرحية بالذات ضعيفة البناء ، ليس فيها ما يلفت النظر من وجهة نظر الدارس لكوميديا الريحانى سوى الفصل الثالث ، الذى يعود فيه كشكش بك الى قريته ، ليقاسى الامرين على يد حماته أم شولح ، وحماه الشيخ ينسون ، ودائنه صاحب البيت ، حتى يضطر فى النهاية الى التظاهر بالموت ، وهنا ينشأ مشهد هزلى ممتاز ، تشترك فيه شخصيات الكوميديا الشعبية التقليدية : الحماة الطويلة اللسان القاسية ، التى تنقلب رحيمة عطوفا اذا ما أصاب زوج ابنتها مكروه حقيقى .

والشيخ ينسون الذى يتكلم بالفصحى ، فيستدعى النكات المتوالية على طريقته غير المفهومة لدى العامة .

وصاحب البيت الذى لا ينال حقا ولا باطلا من العمدة صاحب الحيل والافانين ، والرجل الفتوة كثير الكلام ، قليل العمل ، الذى تعرفه كوميديا جورج دخول الارتجالية باسم الابضاى ـ وان كان هنا مصريا لا شك فيه .

أما فى المسرحية الاخرى « ابقى افمزنى » فان كشكش

بك يتحرك فى القاهرة وحدها ، وهو هنا يتقدم حطوة أو أكثر نحو شخصية « الغلبان المقاوح » التى استقر عليها الريحانى فيما بعد ، بحيث يصح القول بأن الريحانى يستخدم شخصية كشكش بك فى هذه المسرحية كمجرد وعاء لتخليق واستكمال شخصيته الجديدة .

وكشكش بك هنا كان يعمل فى طابونة ، ثم توسط له أولاد الحلال فعمل كاتبا لدى محام ، وهو لا يزال هزأة ومضحكة الكل فى الفصل الاول ، ولكنه سرعان ما ينتقم لنفسه ، اذ يحدث له التطور المفاجىء الذى أصبح تقليدا فى كوميديا الريحانى من بعد ، فيكسب آلاف الجنيهات فجأة ، بعد ان تقع فى يده أسهم فى احدى الشركات تفوز بالجائزة الاولى .

وهنا يتحول كشكش بك المدهوس المطحون ، الى شخصية عالية الصوت ، فهو صاحب عزب وعمارات ، وخصومه السابقون يتسابقون لارضائه ، بينما يمضى هو فى اذلالهم .

ومع هذا فالمسرحية لا تستغنى عن عنصر الرقص ، فنجد فيها مواضع تستخدم هذا العنصر الترفيهى ، وان كان لا نص هنالك على تفاصيل لهذا الرقص .

ويلفت النظر فى المسرحية بدء ظهور شخصيات جديدة فى مسرح الريحانى : شخصيتى الزوج والزوجة المتنازعين دائما : ان قال الزوج يمين قالت الزوجة شمال والعكس ، ثم ظهور ابن الذوات المدلل الذى تفسده أمه بكثرة التدليل ، بينما يحتج أبوه ــ عبثا ــ على هذا التدليل .

وهناك أيضا معرض الشخصيات الغريبة الذى نجده فى الفصل الثالث ، اذ تتوالى مجموعة متنافرة من الناس كل يدعى انه قريب أو نسيب لكشكش بك ، وذلك

بعد ان يذيع بين الناس أمر الثروة المفاجئة التى هبطت عليه .

اذ ذاك يتوالى على كشكش : حسين ، بائع الكفته البلطجى ، الذى يهدد كشكش بالذبح أن لم يعترف بانه قريبه الفعلى . ثم شخصية الايرانى الذى رأينا نموذجا من عنجهيته وسرعة لجوئه الى الضرب فى مسرحية « جنان فى جنان » ثم شخصية الاستاذ التقليدية ، الذى يتكلم الفصحى فيستفز الناس الى التندر به .

وجميع هذه الشخصيات وطريقة عرضها بأزيائها ولفاتها وطرق تصرفها المتباينة ، واستخدام هذا كله وسيلة للاضحاك ــ كل هذا من تقاليد الكوميديا .

واذا كان الريحانى قد تنازل نهائيا فى مسرحية « اموت فى كده » من كشكش بك بكل مقوماته المادية (١) الجبة والعمامة واللحية ، وبعض من مقوماته النفسية ، مثل السذاجة المفرطة ، فهو انما فعل هذا لانه كان قد نجح اخيرا فى خلق الشخصية التى يرتاح اليها قلبه ، شخصية الطيب القلب ، الملطشة ، الملاوع ، الذكى ، المخلص ، الذى لا يتنازل عن مبادئه الاساسية فى الحياة مهما فعلت به الايام ، ومهما غدر به الناس .

وهو فى مسرحية « اموت فى كده » (عام ١٩٣١) يظهر فى ثوب الشخصية الجديدة باسم عنانى ، بائع اليانصيب الجرىء ، الذى يعمل قرب صالات اللهو ، ويعرف بحكم عمله ، كثيرا من خفايا السادة عملاء الصالات وفضائحهم الظاهرة والمستترة .

وحين تبدأ المسرحية ، يدخل عنان هذا كالاعصار

---

(١) وان لم يتنازل من الغناء « آخر الفصل الثانى » والرقص فى أوائل الفصل الثالث .

الى بيت الفنى المتلاف سليمان بك ابو رابية ، ويجزل له فى الشتائم المضحكة ، ويعرض عليه أفانين القول الجرىء الذى لا يملك له سليمان بك ردا .

وذلك ان عنانى ان كان جريئا فهو كذلك خفيف الظل يعرف متى يهجم ، ومتى يتراجع ، وهو الى هذا طيب القلب وأمين الى درجة مذهلة : يعيد الى سليمان بك خاتما ثمينا كان الاخير قد فقده فى مشاجرة حول غانية اصطحبها الى منزله قسرا ، رغم مقاومة عشيقها الدائم جنكيز بك .

وما ان يدخل عنانى بيت سليمان بك حتى تتوالى الاحداث المضحكة التى تجعله يتقمص شخصية وراء أخرى ، ان جنكيز بك يخطىء فيظنه سليمان بك أبو رابية ، غريمه الذى لم يتبين ملامحه فى الليلة السابقة لان كلا من المتنازعين كان فى حالة سكر بين .

وعلى الفور يضطر عنانى الى أن يتقمص شخصية سليمان بك طالما ان جنكيز موجود ، ويسكت سليمان بك على هذا ، لان جنكيز جاء يقتل غريمه ، وعلاوة على هذا فان عنانى يقوم له بمهمة الدرع الواقى .

وتدخل زوجة سليمان بك مفاجأة ــ وكانت مسافرة فى ضيعة زوجها ــ فيضطر عنانى الى تقمص شخصية أخرى ، هى شخصية قلدس ، الفنى الصعيدى ، صديق سليمان بك الروح بالروح ، وسبب هذا التقمص ان سليمان كان فى الليلة الماضية وطوال صباح اليوم قد احتفظ لنفسه بعشيقته نوسة ، ولا بد من تفسير لوجود نوسة هذه ، يتقدم به للزوجة .

وعلى الفور يصبح عنانى قلدس بك ، وتصبح نوسه زوجته .

وتمضى حوادث المسرحية على هذا النحو المضحك من

التعقيد ، ويزداد تشابكها ، حين يطب ــ فجاة أيضا ــ كل من قلدس بك الحقيقى وزوجته ، ويتبين للجميع ان عنانى لا هو سليمان أبو رابية ولا هو قلدس ، فيضطر الزوج العربيد الى ان يعترف بالحقيقة لزوجته ويطلب العفو ويعِد بأن ينصلح حاله من بعد .

هذه هى المسرحية التى خرج بها نجيب الريحانى من اهاب كشكش بك وسلك لنفسه عن طريقها شكلا جديدا ، ونهجا واضحا التزمه فيما تبقى من مجراه المسرحى .

ونلاحظ هنا ان الريحانى قد استكمل مجموعة الشخصيات التى ظلت تظهر فى مسرحياته التالية .

هنا نجد لاول مرة (١) شخصية الخادمة الشامية العجوز ، السليطة اللسان ، المخلصة لمخدوميها ، بين نساء ورجال ، التى هى فى الواقع وبحكم طول مدة خدمتها ، قد أصبحت واحدة من أفراد الاسرة واسمها كتورة .

والريحانى يستخدمها فى عدة أغراض ، فهو ، أولا يتندر على لهجتها الشامية ، ويمتع متفرجيه على حساب ما يرد فى هذه اللهجة من ألفاظ وتعبيرات وأصوات غريبة ، وهذا تقليد قديم من تقاليد الكوميديا الشعبية ، قديم قدم ابن دانيال ويعقوب صنوع .

وهو ــ ثانيا ــ يستخدمها طرفا ثانيا أمام عنانى فى فواصل الردح التى لا تستغنى عنها الكوميديا الشعبية بحال ، والتى وجد الريحانى انه ــ هو الآخر ــ لا غنى له عنها .

كما انها تشترك فى تطوير قصة المسرحية بما تخفى وما تعلن من أسرار ، على طريقة خادمات موليير الشهيرات

---

(١) لاول مرة فى مجموعة مسرحيات الريحانى التى وصلت الى .

وفى المسرحية كذلك شخصيتا : قلدس بك ، وحرمه دميانة ، والريحانى يستخدمهما للتندر على اللهجة الصعيدية ، وعلى أحوال الصعايدة عامة ، وعلى أحوال الاقباط منهم بوجه خاص .

وقد رأينا فى بابة ابن دانيال المسماة « الامير وصال » ان هناك شخصية لكاتب قبطى يتخذها المؤلف مادة للفكاهة .

ويبدو ان هذا التقليد قد استمر فيما بعد ، ففى مسرحية المحبظين التى أوردها ادوارد لين وقال انها مثلت أمام محمد على باشا بمناسبة ختان أنجاله ، نجد أيضا الكاتب القبطى الخرب الذمة موضوعا للفكاهة

وسنجد ان الريحانى قد واصل متابعة هذا التقليد فى أكثر من مسرحية من مسرحياته : « لو كنت حليوه مثلا » .

كذلك استخدم الريحانى ثنائى الزوج البلدى المحدث النعمة ، وزوجته المتطلعة ، كثيرة التفاخر ، المغرمة بترديد الالفاظ الاجنبية ، التى لا ينقطع شجارها مع زوجها ، وذلك حين أدخل على حوادث المسرحية شلضم وزوجته زليخه ، وهما حما وحماة سليمان بك ابو رابية ، ووالدا زوجته بهيجة .

ونلاحظ فى هذا الصدد ان الريحانى قد زوج أم شولح التى رأيناها فى مسرحية « جنان فى جنان » من التاجر محدث النعمة حسين ، الذى رأيناه أيضا فى المسرحية ذاتها ، وأسمى أم شولح زليخه ، وزوجها شلضم ، وذلك فى عملية لم الخيوط ، وتجميع المواد الماضية التى رآها تصلح لبناء كوميدياته الجديدة .

وفى مقابل عنانى ، وضع الريحانى شخصية زوجته السابقة بنت البلد « نكش فكش » التى تزوجها عنانى

ولـكنها هجرته وهربت مع شاب يعمل مبيض نحاس، ثم عملت مطربة من بعد ، واتخذت اســـم « دلال » وتصادف ان وجدها عنانى فى هيئتها الجديدة ، فأطلق عليها فاصل الردح التقليدى الذى يدور حول الاصـــل المتواضع والحاضر المزعوم .

واقول تقليدى لان الريحانى سبق له أن اســـتخدم هذا الموقف : بنت البـــلد التى تتطلع الى ما هو أعلى منها ، وابن البلد الامين لموقفه وطبقته، وذلك فى مسرحية « البرنسيس » كمـــا أنه سيستخدمه فيمـــا بعـــد فى مسرحيات أخرى .

ذلك ان هذا خيط رئيسى من خيوط كوميديا الريحانى يعبر به عن أصالة ابن البلد مهما تغيرت من حوله الظروف صعودا أو هبوطا .

يبقى فى الشخصيات بعد هذا المثلث الفرنسى الذى ينتظم الزوج : سليمان بك أبو رابية وزوجتـــه الفيور بهيجة وعشيقته العصرية الرقيقة ـ طالما هى لم تستثر ـ الشرسة كنمرة حين تغضب ، واسمها نوسة .

وهذا المثلث أصبح أيضا جزءا هاما من مسرحيـــات الريحانى ، ومن المسرحيات التى تعتمـــد ـ بدرجات متفاوتة ـ على مسرحيات البولفار الباريسى .

ثم شخصية العمدة الشيخ زعبلاوى ، ووجودها فى مسرحية استغنى فيها الريحانى عن شخصية العمـــدة كشكش بك ، يثير نقطة تكنيكية طريفة .

ذلك ان الريحانى يستخدم العمدة كصمام امان ، أو اجراء احتياطى ، يحاول أن يرضى به ذلك الفريق من متفرجيه الذى اعتاد أن يجد كشكش بك عمدة مهزا وملطوشا بالاكف ، ومسخة بين الجرسونات والراقصات ورواد الملاهى . فهو يطلق العنان لشخصيته الجـــديدة

عنانى ، وعلى سبيل الاحتياط يدخل العمدة ليكون فدية يقدمها لبعض المتفرجين فى سبيل أن يخفف عنهم وقع صدمة اختفاء كشكش بك .

هذا ، والعمدة يقوم بتصرفات كشكش بك البلهاء ، التقليدية ، ولكنه يفتقد بالطبع خفة دمه .

والطريف انالريحانى يحدث بينعنانى وأصله السابق هذا مواجهة لطيفة ، وذلك فى آخر المسرحية .

فقد ضاعت من العمدة محفظته بعد سكرة كبيرة فى الليلة الماضية ، وهو يتهم بائع اليانصيب عنانى بأنه نشلها ، فيدور اذ ذاك بين عنانى وأصله هذا المشهد الطريف :

العمدة : (داخلا) تعالى هنا يا مخسوف لما اقرض زورك ، أنا تخطف منى محفظتى ولا اخطفش عمرك ؟

عنانى : اختشى يا اقول لك يا عجل السيد انت راخر محفظة ايه ياجلنف ؟

العمدة : وبتشتمنى ياحرامى يا نشال يا ابو صوابع زى الكماشة ؟

عنانى : اعمل فى ده ايه يعنى ؟

خادم : (داخلا) اسمع يا شيخ زعبلاوى .. ايدك على الحلاوة ، اتحفنى ، أما عندى لك حتة خبر !

العمدة : قول لى ، اخلص ، جانى تلفراف مفرح من البلد ؟ ..

خادم : لا تلغراف ولا سينماتوغراف ، اسمع ، المحفظة اللى ضاعت منك جلدها لونه ايه ؟ زى دى ؟

العمدة : ايه ، يا متولى ! محفظتى !

خادم : النهاردة الصبح واحنا بننفض الاودة بتاعتك وبنشيل المراتب من ع السرير ، لقيناها محشورة بين السوستة وبين المرتبة التحتانية .

العمدة : يا خبر زى بعضه يا عنانى ، عدم المؤاخذة يا عناني (١) .
عناني : بعد ايه عدم المؤاخذة يا بارد .
العمدة : معلهش لك حق .
عناني : يادون ..
العمدة : معلهش ، لك حق ، انفش ..
عناني : يا بهيم ولابس فوق الحوافر جزمة .
العمدة : وهو كذلك ، لك حق .

وآخر ما تثيره المسرحية من تعليق ، يتركز حول شخصية عكوش ، الطالب بمعهد التمثيل الاهلى ، اعنى كونسرفتوار ايجبسيان .

وادخال هذه الشخصية فى المسرحية يسجل تنبه كوميديا الريحانى الى الظواهر الاجتماعية المحيطة ، والتحفز لنقدها .

فضلا عن انه ـ على المستوى الشخصى ـ يتيح للريحاني فرصة الهجوم الكوميدى اللاذع على منافسه القوى : مسرح الدرام ، الذى كان يقدم بنجاح حوالى هذا الوقت ، كما تقدمت الاشارة ، وعلى معهد التمثيل الذى كانت عاصفة قوية قد قامت حوله ، ودار نزاع مرير بين خصومه وأنصاره حول الغائه أو ابقائه ، انتهى بالالغاء الفج .

وكان الريحانى قد استفتى فى أمر المعهد ، فأمسك العصا من الوسط ، لم يقل بالالغاء ولم بشر بالابقاء . ثم عاد الفنان الكوميدى الى دنياه الخاصة ، فوجد فى المعهد وفن تمثيل الدرام مادة خصبة للفكاهة قرر أن يستخدمها على النحو التالى :

يدخل عنانى فيجد عكوش مشغولا بالقاء مقطوعة

---

(١) يتكرر هذا الاتهام الظالم فى مسرحية : استنى بختك .

تمثيلية من نوع الدرام :

عكوش : أيتها الملائكة : انشرى اجنحتك البيضاء وظللى جسمانها الطاهر ، لقد كانت حملا وديعا ، افتحى أبوابك ايتها السماء واستقبليها يا اشعة الشمس ، آه ، فقدتها ، فقدتها الى الابد ، آه .

عنانى : خبر اسود ! ايه الحكاية ؟ هوه ايه يا اخويا اللى فقدتها ؟ انما ده يبقى مين ؟ يكونش قريب سليمان بك ؟ يا حفيظ ده هالك نفسه من العياط ، ياسيدى الافندى ، ولا مؤاخذة حاجة بتوجعك ؟

عكوش : لقد ماتت ، ماتت ، ماتت (يبكى) .

عنانى : ايه ؟ ماتت ؟ لا اله الا الله ، معلهش ، ما يجيش منه ، دى أعمار ، ودى أحوال الدنيا ، مين هيه اللى ماتت يا ترى ؟ أمر ربنا ، ما تزعلش روحك ، كانت صفار المرحومة ؟

عكوش : فى الرابعة عشر .

عنانى : يا ولداه ! حاجه توجع ، الله بكون فى عونك ، دنيا وحشة ، سن ١٤ .

عكوش : ماتت ميتة اليمة .

عنانى : يا ولداه ! وكانت عيانة المرحومة والا .. ؟

عكوش : اشتد بها الداء ، وطغى عليها المرض ، وكم تأوهت ولا رحيم ، وكم صاحت ولا مغيث ، فأخذت روحها وهى تصرخ فى طلب الماء ، كوبة من الماء ما نالتها المسكينة ، فأسلمت النفس الاخير وهى عطشانة .

عنانى : يا حفيظ يارب ، سلام قولا من رب رحيم ، ده شىء يقطع القلب ، كباية ميه ما تطلهاش ؟ ما فيش ليمونادة ؟ ما عندهمش حنفية ؟ الله يجازيهم !

عكوش : لهفى عليك أيتها الراحلة ، تموتين وأنت تصرخين من ألم العطش والجوع ، كسرة خبز ، كسرة

خبز فقط ، وفقط كسرة خبز يابسة ، تنالها الـكلاب في الطريق ، ينالها الشحاذون ، وانت يا زهرة البساتين قضيت نحبك تتلوى احشاؤك من الفـاقة ، وفاضت روحك وانت تصرخين : كسرة خبز ، يا أيها الرحماء ! حرمت حتى من العيش ، لهفي عليك (يبكى) آه ، آه .

عنانى : يا لطيف الطف ! حاجة تصعب على الجماد، ياسيدنا الافندى ، من فضلك ، انا راجل قلبى ضعيف تموت جمانه يا اخواتى ؟ ينعل أبو دى دنيا ، شقة عيش ما تطلهاش ؟ الله يرحمها ، ويجعل اراضيها الجنة ، ومن اذن حضرتك .. هيه تبقى مين بقى ؟

عكوش : هى .. هى ابنة شرلمان .

عنانى : شرلمان ؟ الله يصـبر قلبـه ! دى لازم من العائلات الكبيرة ، صعبان عليه شرلمان ده ! انما شرلمان ده ، أنا زى اللى سمعت عنه !

عكوش : آه ، وكمان آه ، وداعا ايتهـا الحيـاة ، سأموت ، انتهت الرحلة ، انتظرينى فى السماء ، ها أنا صاعد اليك ، اننى ملاقيك ، وداعا يا نور السماء ، ان عينى لن تراك بعد الآن (يبكى) آه ، آه ، آه .

عنانى : يانهار اسود ! الراجل ماله ؟ ودى مصيبة ايه اللى ما كانتش ع البال دى ، ياسيدنا الافنـدى ، يا أخينا ، فوق انا فى عرضك ، أنا جتتى اتلبشت ، نشادر يا عالم ، أتير ياوليه ياكتوره ، الراجل بيرفص ، ياسيدنا الافندى ، ياحضرة الفاضل (يأخذه بين ذراعيه) أنت يا اخينا : ما هذا السكوت ؟

عكوش : (يتنبه) واه ، واه !

عنانى : ينعل أبو دمك ، واه ايه وبتاع ايه ؟ طلعت على جتتى البلا ، فوق لنفسك شوية ، فوق ، الموت علينا حق يا أخى ، البقية فى حياتك وخلاص . هـوه

مش مخلف غيرها شارلمان ده ؟
عكوش : (يقبض على زور عنانى) .
عنانى : دهده ، زورى ياسيدنا الافندى .
عكوش : آه ، آه .
عنانى : يانهار اسود ، ياهوه ، يا عالم ، ياللى هنا !
عكوش : انت الجانى وسوف اقتلك شر قتلة ، كما جنيت عليها ياشقى .
عنانى : الله ! الراجل حصل له جنون ، ياجدع انت اعقل ، مين هوه الجانى ياطور ، أنا عنانى ، عنانى .
عكوش : (يخرج مطواه) بحد هذا السيف سأقطعن جسدك اربا اربا .
عنانى : لا ، لا ، لأ ، دى حاجة وحشة ، الراجل ده عنده نوبة عصبية بطالة خالص ، يانهار اسود ، جاى ياهوه ، انت يا سليمان بك ، انت ياوليه ، يا عالم ، ياناس ، الحقونا (عكوش يضحك) .
عكوش : اتمنى ما اكونش أزعجتك !
عنانى : يخرب بيت أمك ، بس انت مزعل نفسـك، زيادة عن اللزوم ، هيه المرحومة ماتت قريب ؟
عكوش : من خمسمائة سنة ..
عنانى : بس ؟ ! من خمسمائة سنة بس ؟ وبتعيط عليها لدلوقت حضرتك ؟ وفاكر انك عاقل ؟
عكوش : اهى دى البراعة فى التمثيل .
عنانى : تمثيل ؟ ؟ !
عكوش : محسوبك ، ولا فخر، الاستاذ عكوش الطالب بالمعهد التمثيلى الاهلى : كونسرفتوار اجبسبان ، ودى القطعة اللى انتخبتها علشان القيها فى الامتحان النهائى.

***

ترتبـط مسرحيـة « أموت فى كـده » بمسرحيـة

« البرنسيس » ـ التى كانت المحاولة الاولى لكتابة الكوميديا الانتقادية فى مسرح الريحانى ـ بأكثر من رابطة .

هناك البطلان فى كل منهما ، وأحدهما ـ عنانى ـ هو توضيح وتطوير لشخصية الآخر : حسنين .

وهناك موضوع تعلق البطلين بفتاتين من بنات الشعب تحاول كل منهما أن تتجاوز حدود طبقتها بالتطلع الى ما هو أعلى ، فتحظيان بمقت البطل ، الذى يبقى أمينا لطبقته ولوضعه الاجتماعى ، فلا تلبث البنت فى كل مسرحية أن تصحو لنفسها ، وتنضم الى حبيبها ، وتعود الى طبقتها .

وهو موضوع ظل يشغل الريحانى ويراوده ، حتى عاد الى استخدامه بطريق انضج وأكثر اقناعا فى مسرحية « حكاية كل يوم » التى نتحدث عنها من بعد .

غير أن مسرحية « أموت فى كده » تمتاز عن « البرنسيس » بعلو النبرة الانتقادية فيها ، أن حسين وحبيبته عيوشة فى مسرحية « البرنسيس » لا ينقدان الطبقة العليا ، وانما يكتفيان بتأكيد انتمائهما لطبقتهما ، وحبهما لما تمثله هذه الطبقة من قيم ، رغم فقرها وشقائها ، والنغمة التى يصدرها الاثنان تتلخص فى عبارة : « انتم فين واحنا فين! » وهى تعبير عن الانكسار والاستخذاء أمام الطبقات العليا .

أما فى مسرحية «أموت فى كده» فان السادة يتعرضون لنقد واضح ، من كل من عنانى وكتوره الخادمة اللبنانية غير ان هذا النقد لاذع فقط وليس ثوريا ، هدفه أن ينتبه السادة الى أخطائهم فيسارعوا الى اصلاحها .

وهذا هو الموقف الذى ظلت تلتزمه كوميديا الريحانى من الوضع الاجتماعى حتى النهاية ، وهو موقف شكل

لهذه الكوميديا صيغتها الفنية ، ورسم حدود قدراتها وتطلعاتها ، وجعل بطلها الدائم ، الفلبان المدهوس ، الكثير الكلام ، القليل البخت ، يعرض موقفه عرضا واقعيا فى الفصل الاول ، ثم ينتابه تغيير اجتماعى مفاجىء فيما يتلوه من فصول ، يلقى به فى احضان السادة ، محبا أو زوجا ، أو وارثا لثروة جاءته من حيث لايحتسب ، ولكنه مع هذا متمسك بقيم الطبقة التى جاء منها ، حريص على تأكيد هذا ، فيصبح والامر كذلك مندوبا للطبقات الشعبية لدى السادة ، يؤكد لهذه الطبقات حقها وقدرتها على العيش كما يعيش الاكابر ، وهكذا يتمتع الفقراء بثروة الاغنياء ، ولا يهتز الكيان الاجتماعى ويبقى باب الامل مفتوحا ، بطريقة فردية ، لكل سعيد الحظ فى أن ينتشله القدر من الوهدة ليضعه فى القمة.

الفصل التاسع

الريحاني :
الهزل يتحول إلى كوميديا

فى عام ١٩٣٢ أراد الريحانى أن يدعم الخط الكوميدى الانتقادى الذى بدأه - بقوة - فى مسرحية « أموت فى كده » فقرر أن يتخلص من المشوقات والمشهيات التى حفلت بها تلك المسرحية : من شخصيات غريبة ، ولهجات متنافرة ، وانغماس فى قصص الحب غير المشروع ، وحياة الليل ، ومغامرات الغرام ، والرقص والغناء ، وأن يتجه من فوره الى لب الكوميديا الانتقادية بلا تحابيش .

وكان قد قرأ مسرحية لكاتب فرنسي اسمه مارسيل بانيول بعنوان توباز ، فأعجب بها كثيرا ، ووجد فيها ضالته ، اذ أن المسرحية الفرنسية تدور حول مدرس متواضع خجول ، شديد الشرف ، لا يتنازل عنه مهما كانت الظروف ، أى الشخصية ذاتها التى كان الريحانى يقدم للناس فنه من خلالها .

ويجد المتعاملون مع المدرس الفرنسى ان هذا الشرف شديد الوطأة عليهم ، فيقرروا طرده من المدرسة ، ومن ثم يقع المدرس بين براثن عصبة من الاشرار ، ويصبح من بعد اداة لهم ، وينجح فى عمله الجديد بفضل تأييد عشيقة زعيم العصابة له ، فينال نيشانا تقديرا له ،

ويثق بنفسه ، ويصبح مجرما لطيفا ، هادىء الاعصاب لا يتردد فى عمل شىء ، ولا يؤاخذه ضميره على شىء .

من هذا الموضوع اقتبس الريحانى مسرحيته « الجنيه المصرى » التى تدور احداثها حول مدرس اسمه ياقوت افندى متواضع ، خجول ، شديد الشرف ، يعمل فى مدرسة أهلية ، ويصر على أن يقول الحق ، الحق وحده مهما كانت النتائج ، فينتهى به الامر الى الطرد من المدرسة ، والفقر والتشرد .

ويكسب ياقوت قوته من بعد باعطاء دروس خصوصية لتلميذ صغير تعمل خالته شريكة لمدير شركة خرب الذمة ويحدث أن يطرد هذا المدير مساعدا له كان يسهل له عملية نهب أموال الشركة عن طريق التدليس والتزوير، فيقع ياقوت أفندى تحت اغراء كبير وخطير ـ بالمال حينا وبمفاتن الخالة حينا آخر ـ حتى يرضى بأن يلعب الدور القذر الذى كان يلعبه المساعد المطرود .

ويأخذ ياقوت أفندى فى الاندماج التدريجى فى اللعبة القذرة ، ولا يلبث أن يسيطر على وقائعها ، ويصبح المدير الحقيقى للشركة ، ويقرر أن ينفصل عن المدير وشريكته ويفتتح له مكتبا خاصا ، ويتحول الى رجل مجتمعات برىء ، ومجرم لطيف هادىء الاعصاب ، لا تطوله يد القانون ، لانه يحسن تدبير كل شىء .

وفى النهاية يخسر ياقوت أمواله الحرام كلها فى البورصة ، ثم يعود الى حياة الشرف من جديد .

هذا هو الموضوع الجرىء الذى قرر الريحانى أن يقدمه على المسرح ، دون أن يحسب حسابا لقدرة جمهوره على ابتلاع هذه الحبة المرة كلها ، بلا غلاف واق وسميك من السكر .

انها كوميديا مرة ، تهاجم النظام الاجتماعى من أساسه

هجوما وحشيا ، وان بدا هادئا على السطح ، تسب المجتمع كله وتقول له : ان الفقير لا يملك أن يعيش شريفا ، وان المجتمع لا يقدر الا اللصوص ، وأصحاب الاموال ، وان الذكاء لا يعترف به أحد الا اذا وضع فى خدمة الاجرام .

هى كوميديا ثورية ساخرة من النوع الذى قدمه شارلى شابلن من بعد فى فيلم « مسيو فردو » حيث جعل السفاح قاتل النساء انسانا مهذبا لا يتطرق اليه الشك فى أن ما يقوم به من قتل وسرقة لاموال النساء هو بعض من النشاط الاجتماعى الذى يمارسه المجتمع كله بأشكال مختلفة يضفى عليها طابع الشرف .

كما قدمها برنارد شو من قبل فى مسرحيات مثل : « حرفة مسز وارين » و « بيوت الارامل » ، حيث يصور شو ، الدعارة وسرقة أموال الفقراء على انهما نشاطان محترمان ، مثل سائر النشاطات فى المجتمع الرأسمالى

فاذا أضفنا الى هذا المضمون الثورى أن الريحانى لم يستعن هنا بالموسيقى والاغانى والتطور الميلودرامى ، والحدوتة الفانتازية — لم يجعل بطله ياقوت أفندى يكسب ورقة يانصيب ، أو يتزوج من أسرة ثرية ، لكى يحل مشكلته الاقتصادية — كما يحدث فى سائر المسرحيات من قبل ومن بعد — ادركنا لماذا لم تنجح هذه المسرحية حين عرضت أول مرة . انها كانت اجرا من أن تتقبلها عقلية أوائل الثلاثينات فى المسرح المصرى .

والدليل على هذا ان المسرحية ذاتها حين عرضت فى اواخر الاربعينات لقيت نجاحا كبيرا لم يكن ينتظره الريحانى الذى عرض المسرحية اذ ذاك على سبيل التجربة ، ففوجىء بالنجاح الكبير كما سبق أن فوجىء بالفشل الذريع .

والطريف ان مسرحية « الجنيه المصرى » وجدت من يهاجمها لدى العرض الاول على اساس انها هى بذاتها مسرحية قدمتها فرقة مصطفى امين وعلى الكسار على مسرح كازينودى بارى عام ١٩١٨ بعنوان « بعد ما شاب ودوه الكتاب » مع تغيير طفيف هو ان نجيب الريحانى مثل فى مسرحية « الجنيه المصرى » دوز المدرس ، بدلا من أن يمثل دور التلميذ كما فعـــل مصطفى أمين فى مسرحية « بعد ما شاب » (١)

غير أن الريحانى ما لبث أن امتص الصدمة ، وعمل على التخفيف من وقعها على نفسه وعلى فنه بوســائل مختلفة ، منها تلك الرحلة التى قام بها فى أمريكا اللاتينية فى عام ١٩٢٤ وعاد منها وقد شفى النجاح الذى لقيه هناك كثيرا من جراح نفسه .

ومنها العودة الى تقديم مسرحيات تحـــوى كل عناصر الاوبريت على ان يضيف اليها الفنـــان ما كانت نفسه تصبو اليه من نقد اجتماعى من نوع أو آخر ، وأنضج مثل لهــذا النوع من الاوبريت هو مسرحيـــة « حكم قراقوش » التى قدمت حوالى عام ١٩٣٣ .

ومنها العودة الى المسرح الاستعراضى ، بطريقة اقل الحاحا على الرقص والغناء ، وأوفر اعتمادا على الفكاهة الشعبية بكل مقوماتها ، كما حدث حين قدم الريحانى وبديع خيرى مسرحية « الدنيا على كف عفريت » التى قدمت عام ١٩٣٦ .

وسنعرض للمسرحيتين معا بشىء من التحليل .

***

فى مسرحية « حكم قراقوش » يقدم نجيب الريحانى أوبريت فعليـــة من تلحين زكريا احمـــد ، يتمثل روح

(١) المحرر الفنى لمجلة الكشكول . عدد ٥٥٢ . ١١ ديسمبر ١٩٣١

الاوبريت فى قصة المسرحية ذات السمات الخرافية ـ قصة الكاتب الفقير بندق ابو غزالة ، الذى يضيق بما فى المجتمع من ظلم ، ويتحرق شوقا لكى يخلص الناس مما يعانونه من شقاء ، ويتمنى لو استطاع أن يحكم سبعة أيام ، حتى ولو شنقوه بعدها ، فيسمعه قراقوش ، ويقرر أن يوليه الحكم سبعة أيام فعلا ، على أن يقتله فور انتهائها ، وذلك لانه تجرأ وعرض بحكم قراقوش .

وبالطبع يدير بندق شئون الحكم بالطريقة الكوميدية المتوقعة من أمثاله ، ممن يتمنون ولا يقدرون ، فهو مجرد ساخط حسن النية ، لا مواهب حقيقية له ، سوى حبه للحياة ، ولمتاعها ، وللثراء والنساء ، أجمل ما فيها !

هو فى الواقع كشكش بك ، وقد ترك زيه التقليدى ، وتخفى فى زى بندق أبو غزالة ، هو ـ كالعمدة ـ ضعيف أمام النساء ، ما ان تظهر له جميلة فتانة اسمها الاميرة شمس ، وتطلب اليه ان يقتل غريما لها ، حتى يجد نفسه منساقا الى ارتكاب الجريمة دون وازع حقيقى ، ولا رغبة ، ولا مقاومة .

وهو فى تصرفاته لا يرقى كثيرا عن عقلية العمدة ، حين يقال له هذا حامل سيفك البتار ، وهذا حامل أموالك ، يصرف حامل السيف ، لانه لا ينوى أن يقتل احدا ، ويقبل على حامل الاموال ، وهو يسأل : الا يمكن لمن فى مقامه ان ينعم بهذه الاموال على نفسه ؟ ويروح يحشو جيوبه بالمال ، حين يقال له انه حر التصرف فى أموال البلد !

وهو محب للحياة لدرجة التخلى عن كل مظاهر الشهامة فى سبيلها ، يحمل الى المشنقة وهو يبكى علنا ، فيقول قراقوش انه مستعد لاطلاق سراحه ، لو

تطوع احد بأن يحل محله فى حبل المشنقة فيروح بندق يرجو الناس ان يظهروا مروءة ويبرزوا واحـــدا منهم يفتديه بحياته !

هو اذن المهرج المهزار ، الذى ينقد الناس ويقرعهم الى الحد الذى لا يجلب عليه سخط أصحاب السلطان . الحدود التى وضعها لنفسه هى : الا يموت ، الا يضار، الا تقع له كارثة تسلبه رزقه الضئيل ، وفى داخل هذه الحدود ، هو راغب فى تحسين الحياة والاوضاع ، وهو مصر على التمسك بالشرف ، وهو مستعد لقول الحق .

وفى داخل هذه الحدود أيضا ينقد بندق ·أبو غزالة كثيرا من مساوىء المجتمع ، مجلس الابحاث العليا فى مجتمع قراقوش ، المكون من فارغى العقول والبلهاء والجهلة . مظاهر الملك وأبهته الفارغه ، سخافة عقول المحيطين بالسلطان ونفاقهم وجهلهم .. الخ .

ولـكنه لا ينقـد السلطـان نفسه الا فى لحظة تهور عارض ، بل أنه ينصح للسلطان ان ينقـذ نفســه من المحيطين به ، أن يكنسهم ــ على حد تعبيره ــ قبل أن يصحو الشعب يوما ويكنس السلطان .

وهو فى الفصل الاول من المسرحية يهاجم الاغنيـاء هجوما واضحا ويعلى من قدر الشعب العـامل بهـذه العبارة الملتهبة :

« هوه مين غير بندق وأمثال بندق اللى من عرقهم ومن دمهم بتكنزوها سبايك سبايك ياكوابيس الشعب»

ولـكن هذا الهجوم موجه بطريقة كوميدية وعارضة الى شخص كوميدى يثير الضحك أكثر مما يثير السخط وهو التركى الجلف : كشك أغا ، وعلى كل حال فقد جرى قلم الرقيب على العبارة ، فيما يبدو ، فاستبعدها

وترك ثورة بندق فى حدودها الضيقة المعتادة : كراهة شخصية لرجل أحمق وجاهل ومتسلط .

هذا هو الحد الذى قدر نجيب الريحانى وبديع خيرى انه مأمون بالنسبة لهما ، فبلغاه فى نقد المجتمع ، ثم حرصا على أن يخففا من وقعه فوضعاه فى قالب الاوبريت الذى يسلب النقد فاعليته الحقيقية ، ويجعله مقبولا وغير ضار فى وقت واحد (١)

وقد حرص الكاتبان على هذا التخفيف ، لا لتوقى بطش السلطات وحسب ، بل للحصول على رضا الجمهور كذلك ، الذى أثبتت تجربة مسرحية « الجنيه المصرى » انه أقسى من السلطات فى بعض الاحيان ، فهذه – على الاقل – قد سمحت بعرض المسرحية رغم كل مرارتها ونقدها الشامل ، بينما قاطعها الجمهور ولم يجد فيها ما اعتاد أن يجده من حلاوة لا تشوبها مرارة .

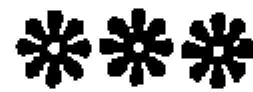
والى جانب الاوبريت ، استخدم بديع ونجيب بعضا من البضاعة الفنية المعروفة فى الكوميديا الشعبية ، مثل الشخصيات المتنافرة الغريبة التى نجدها فى مجلس الابحاث الاعلى : طرقعنجى أغا ، سلحدار الدولة ، ذو الضوضاء والعقل الفارغ ، والسيد جرجارالسنجابى معدى كرب ، قاضى قضاة السلطنة المصاب بالعى الشديد ، والذى يصر – مع ذلك – على الترحيب ببندق أبو غزالة (اسمه الآن : قرا زاده ادرنلى اوغلى أغا !) والسيد مفتاح أبو طيرة الكردانى ، عبقرى الانشاءات الهندسية الذى يقترح مصادرة أجسام الموتى، اذا رفض أهلهم دفع ضريبة الموت ، وحجة الفصاحة والبيان السيد سحبان القلنطيطى ذو الالفاظ الصخرية التى

(١) اكتشف جيلبرت وشو وتوفيق الحكيم هذه الحقيقة ..

تتناثر من فمه كالانهيارات الجبلية .

يضاف الى هؤلاء شخصيات العالم السفلى التى نجدها فى الفصل الاول ، المجرم زردق الذى يبحث عبثا عمن يشهد له شهادة زور لاخفاء جريمة ارتكبها ، ويتحسر على ما كان يقوم به من خدمة الاخوان بحوالى عشرين شهادة زور فى اليوم ، ووطواط الجرسون الشعبي اللمض ، الذى يعتمد على ذكائه وخفة يده وسرعة خاطره فى الحصول على ثمن المشروب ، والفحل صاحب خان مرجوش ، الفتوة المجرم وتاجر الجوارى ثم كشك أغا المتغطرس التركى التقليدى وتابعه الذليل بندق أبو غزالة .

كما استخدم الكاتبان حيلة الانقاذ الميلودرامى فى آخر دقيقة ، لبث التشويق وامتاع الجمهور واسعاده ، وذلك حين جعلا ابنتى السلطان تفتديان بندق أبوغزالة بروحيهما وهو على بعد ثوان من الموت ، وأفادا من حيلة معروفة فى الكوميديا الشعبية ، حيلة تحدث عاشق مع معشوقته عبر طرف ثالث لا يدرى انه يستخدم وسيلة غرام ، وحين يكتشف الامر يحتج ـ عبثا ـ وقبل هذا كله ، أرضى الكاتبان جمهورهما بأن أعادا اليه بطله التقليدى كشكش بك بروحه وشحمه ولحمه ، وان كانا أعطياه اسما جديدا ورداء مغايرا .



كان هذا فى عام ١٩٣٣ أو حوله .

وفى عام ١٩٣٦ أخرج الريحانى وبديع خيرى مسرحية « الدنيا على كف عفريت » وفيها يحشدان فى صعيد واحد جمعا كبيرا من شخصيات المسرح الشعبى ، التاريخية منها والحديثة ، ويجعلان كشكش بك يتنكر فى زى عمدة اسمه حمودة ، ثم يعاود الظهور فى القرية والمدينة معا : اسدا فى القرية بين رعيته من الفلاحين

السذج ، وهزؤا فى القاهرة بين طويلات اللســـــان من الراقصات وفنانات « الفتح » بالاضــافة الى محترفى النصب من الرجال على اختلاف أشكالهم .

غير ان الجديد فى هذا الجو اللاهى الذى خبرناه من قبل فى مسرحيات الفرانكو ــ آراب ان المشاهد التى تدور فى القرية تحوى بعضا من ألوان النقد الاجتماعى .

ذلك ان المسرحيــة تتخذ من محاكم الخط الريفية وسيلة لنقد ما يدور فى الريف من ألوان المساخر والمظالم والتحيزات .

هناك بالطبع العمدة الذى يســيل لعــابه لمرأى كل امرأة ، فيتنازل فى سبيل الرضى النسائى عن أى شىء وهناك عضوا اليمين والشمال فى المحكمة ، وهما ليسا اقل ترخصا أمام النساء من العمدة ، ولا هما دونه فى تفضيل المصلحة الخاصة على المصلحة العامة ، اذا ما تعارضت الاولى مع الثانية .

وهناك العجوز الذى يتزوج من صبيتين هما فى سن ابنتين صغيرتين له ، فيضطرهما اضطرارا الى التطلع الى شباب الجيران !

وهناك تاجر القطن اليونانى الذى يستصحب زوجته الجميلة فى صفقاته ، ليغرى بها البلهاء من أمثال العمدة على بيع أقطانهم بالثمن البخس .

وهناك الجزار الذى يضبط بتهمة البيــع بأكثر من التسعيرة ، فاذا ما دفع بأن لحمه يؤكل حقا بينما لحم غيره « كاوتش » وانه مستعد لاهداء المحكمـــة خروفا لزوم المعاينة ، قبلت المحكمة من فورها هــذا العرض اللذيذ ، وأخلى سبيل الجزار .

وهنــاك الخفير الجعجاع الذى يفلت منه المتهم رغم طول شواربه ــ هؤلاء وغيرهم يتخذهم المؤلفان وسيلة

لنقد أحوال الريف ـ نقدا هينا لا تضار منه السلطة الاكبر ، لانه لا يتجاوز القرية ولا اشخاص المقيمين فيها فالشر فى الريف مصدره الريف وسكانه ولا أحد سواهم !

ولكنه نقد على كل حال ، ووجوده هو الذى يجعلنى أعتبر هذه المسرحية نوعا من الجسر عبرت به كوميديا الاستعراض عند نجيب الريحانى البرزخ الذى يفصلها من كوميديا النقد الاجتماعى .

غير ان للمسرحية عندى أهمية أخرى بالنظر الى انها تثبت انه حتى فى هذا التاريخ المتأخر عام ١٩٣٦ وبعد ظهور مسرحيات أكثر قربا من الكوميديا الانتقادية مثل مسرحية « الجنيه المصرى » و « أموت فى كده » عام ١٩٣١ ، تثبت ان كوميديا الريحانى كانت لا تزال مشتبكة مع ومعتمدة على الكوميديا الشعبية وعلى نمر المسرح المرتجل ، حتى أواسط الثلاثينات ، أى على بعد زمنى قصير لا يزيد عن خمس سنوات من مسرحيات النضوج من أمثال مسرحيات « الدلوعة » و « حكاية كل يوم » و « الا خمسة » (أوائل الاربعينات) .

ومن هذه الجهة تعتبر مسرحية « الدنيا على كف عفريت » مخزنا عاما لكوميديا الريحانى ، يحفل بالشخصيات الجاهزة ، والمواقف الفكاهية التقليدية ، وبالحيل الكوميدية المعروفة ـ وكلها معدة للاستعمال الفورى كلما اقتضت الضرورة ، وسنجد عند تحليل بعض مسرحيات مرحلة النضوج أن الريحانى وزميله بديع خيرى كانا يفيدان بطريقة متصلة من هذا المخزن ، مما جعل أثر الكوميديا الشعبية يمتد بوضوح الى آخر مجراهما الفنى المشترك .

فى المسرحية نجد الكاتب القبطى التقليدى «تادرس»

الذى يجمع بين الدهاء والسذاجة ، ويرضى بالظلم المادى الظاهر ، ولكنه لا يغفل قط عن مصالح له أخرى ، غير الراتب الذى يتناوله من مخدومه ، وسنجد هذه الشخصية فى مسرحيات ريحانية لاحقة ، بينها مسرحية « لو كنت حليوة » حيث الكاتب غبريال مسحوق مضيق عليه فى الظاهر من مخدومته التركية يلدز ، وان كان هو فى الحقيقة السيد الآمر المتسلط عليها .

وهناك الشامى مخلوف ، وهو أيضا تقليدى فى مزاجه النفسى الذى يجمع بين سلاطة اللسان والصفاقة ، وشىء من السذاجة ، ومهمته فى المسرحية أن يبشر العمدة حمودة بأن هناك احتمالا لثروة يمكن أن تكون من نصيبه ، ومن ثم يصحبه الى القاهرة لمطاردة هذه الثروة

ومن الغريب أن الريحانى يجعل شاميا آخر هو جورجى فيليب قسطندى رعول بن ضومط ، من جبل لبنان بشيرا بثروة طائلة تهبط على شحاته افندى « نجيب الريحانى » فى مسرحية « لو كنت حليوة » . وشاميا ثالثا هو نيقولا بشاروش . مصدرا لوعد بثروة كبيرة يملك هو تفويض اعطائها لمن يشاء ، وذلك فى مسرحية « استنى بختك » .

الى جانب هذا ، هناك الشخصيات الشعبية التى استحدثها المسرحى الهزلى وهى ، الى جوار العمدة الهلاس ، وتابعه المطيع المضحك زعرب : الشاويش الساذج ، المهمل ، المتظاهر بالهمة ، الغبى ، المدعى الفهم و « الفرنجة » !

والممثل التراجيدى الذى يعيش أدواره المختلفة فى واقع الحياة ، علاوة على معايشتها على المسرح ، وقد مر بنا نموذج منه : عكوش فى مسرحية « أموت فى كده » .

والخواجة اليونانى الذى يريد أن يثبت بكل وسيلة - مضحكة ! - انه ابن بلد ، وانه يفهم فى كل شىء ويعرف كل الناس ، الخواجة استاورو ، الذى هو الاصل الواضح للخواجة بيجو فى كوميديا « ساعة لقلبك » .

والمحامى « الفصيح » المتلعثم الذى يبدى استعداده للمرافعة فى آية قضية ، ولدى أى محكمة !

والارتست « القطاعة » التى تبتكر الحيل ابتكارا حتى تنظف جيوب العملاء من اية عملة ، صفرت أو كبرت ، وسنجد نماذج اخرى منها فى مسرحيات لاحقة ، أوضحها الارتست عزيزة فى مسرحية « استنى بختك » التى تنجب من ابن الباشا ولدا غير شرعى ، ثم تلقيه القاء فى وجهه ، فيضطر هذا الى نسبته زورا الى شحاتة افندى ، الشخصية الغلبانة قليلة البخت ، التى اخـ.. نجيب الريحانى يمثلها بعد كشكش بك .

ثم شخصية سائحة انجليزية تظهر بين الحين والحين فى مسرحيات الريحانى ، وتقوم غالبا بدور صديقة الشخصية التى يمثلها نجيب الريحانى فى أية مسرحية ، وقد مر بنا نموذج سابق لهذه الشخصية فى مسرحية « البرنسيس » حيث السائحة الامريكية مس جاكسون تقع فى غرام حسنين (نجيب الريحانى) وتريد بكل وسيلة أن يصحبها الى أمريكا لتتزوجه .

وسنلقى نموذجا لاحقا لهذه الشخصية فى مسرحية « حكاية كل يوم » حيث الانجليزية مس اسبرنج تقع أيضا فى غرام صلاح (نجيب الريحانى) وتريد أن تتزوجه وتسافر به الى انجلترا .

والاستاذ برجل المحامى الشره الخرب الذمة ، وقد مر بنا نموذج منه فى مسرحية « ابقى اغمزنى » .

والمسرحية اذ تعرض كل هذه الشخصيات المتباينة تتبع تقاليد الكوميديا الشعبية منذ عهودها الباكرة ، وتفيد من التنوع والتنافر فى خلق الضحك المطلوب .

غير ان تكنيك الاضحاك ووسائله فى المسرحية أقرب الى تقاليد الكوميديا الشعبية من هذا ــ أقرب بكثير

ففى الفصل الثانى يقوم موقف هزلى ممتـــاز ، . يقع أبو الشام مخلوف فى قبضه أربع من نساء البلد السليطات اللسان تصادف أن ألقت احداهن بمحتويات حلة من مرق الدجاج من نافذة غرفتها ، فأصابت أبا الشام وبللت ملابسه .

ويحتج أبو الشام ، فيبدأ فاصل الردح المشهور فى الكوميديا الشعبية ، وهو فى المسرحية ردح جماعى ، أبطاله النسوة الاربع ، وضحيته أبو الشام • هذا هو المشهد :

امرأة : (من الشباك تدلق الماء) دستورك ياللى ماشى

مخلوف : العمى ، شو هايدى ؟ يخرب بيتك ، ما الك نظر ؟ ما الك عينتين ؟

امرأة : جرى ايه يا عمر ؟

مخلوف : ما انى عمر يا بلا ! مخلوف ، مخلوف الشويخاتى ، امبازى ، الله لايقشعك خير ، امبازى .

برجل : ايه ياحرمة ، قفطان الراجل غرقتيه ، انتم جنسكم ايه ، بهايم ؟

امرأة : لا ، أما اقول لك ، ما تقبحش ، قفطان الراجل ؟ صلاة النبى على قفطان الراجل ! خسرتله الردنجوت ، موش كده ؟ تلفت له بدلة التشريفة ! دى ممسحة البلاط اللى عندى انضف من قفطان الراجل .

مخلوف : الله يمسحك مسح ، لغمطتى الامباز تبعى بالزفت والوحل وما بتخجلى ، وعما بتقلى حياك ؟ شو

كان بدك يا بنت الملعونة ؟

امرأة : امشي ، ملعونة فى عينك ، لا ما تلبخش ، لم لسانك .

مخلوف : ايه ، بابعت لك تشكرات حارة من شان تكرمتي وقدفتيني بها الوساخة ؟

امرأة : هس ، قطع لسانك ، قال وساخة قال .

مخلوف : شو بدك اسميه ياصرماية ، ها الزفت اللي بقع هدومي ؟ روح النعنع ؟ اكسير الفل ؟

امرأة : شمها ، جاتك نايبه ، شمها ، مرقة فراخ يا منيل .

مخلوف : اى ، منيح ، اذا كان فى نظر حضرتك مرقة الدجاج ريحة عطرية ، انظرى نتفة تافرق نافوخك بمرقة ديك رومى ، يخرب بيتك ، امباز جديد بيصير هيك ؟ يالله ، شو ها الجبلات الجعيدية !

امرأة : اخرس ، جعيدية فى عينك ، لا ، أما اقول لك ، ده انا انزل أرن البنتوفلي على اصداغك ، ياراجل يا هلفوت ، يا زحافة العنكبوت ، يا زبالة بيروت ، يا مكولب يا مدولب ، يا ابو مناخير بلولب ، يا طبيخ وحمضان ، يا كرات ومرضان ، يا عجين وبايت ، ياضلم يا عتم .

مخلوف : شو ها القصيدة البليغة ؟ شو ها الاوزان الساحرة ؟ يحرق ميتينكم .

برجل : تعالى ، ما احناش قد دول .

امرأة ٢ : (تفتح الشباك) جرى ايه يا اختى ؟

امرأة ١ : يا ادلق الحلة فضلة خيرك ، قال ايه طرطشت قفطان الراجل .

مخلوف : ايه ، بمية عما ، مية زفت ، بمية فراخ .

امرأة ٢ : اسم الله ياكبة ، كان لازم تطرطشك

بليموناته وتكون متلجه ، جاتك نيله ، مية فراخ ولا هيش عاجباك ؟

مخلوف : يابنى آدمة ، يابنى معزة ، يابنى جاموسة دلقتها على امبازى ، ما دلقتهاش فى فمى !

حرمة ٣ : (تفتح شباك آخر) جرى ايه يا زهرة ؟ ابن قروبة مين اللى بيخانقك ؟

مخلوف : وليه .. اتحشمى ، يخرب بيتك !

حرمه ٢ : آل يا اختى سكينة بتدلق الحلة طرطشت عليه مية فراخ .

حرمة ٣ : لا ، غلطانة .

مخلوف : ايه ، ماهيك ياخيتي ، ماهيك بنت الحلال؟

حرمة ٣ : لاهيك يا بلح الشام !

مخلوف : بلح يرد المية فى بلعومك .

حرمة ٣ : النوبة الجاية تدلق عليك بلاص عسل ، تدلق عليك سلطانية خشاف ، ياخى جك نيلة فى امك ، مرقة فراخ مش عاجباك ؟ هوه انت طايل مرقة نابت ؟

مخلوف : يالله ، شو ها المجموعة القرداتية ؟ هولاك شو جمعهم فى شارع واحد ؟ يحرق ميتينكم !

حرمة ٤ : (تفتح شباكها) يوه ، كفى الله الشر ، جرى ايه يا زليخة ؟

مخلوف : الله يعدم حسك وحس زليخة بيوم واحد باتعجب كيف بيطلعو من الشقوق مثل السحالى !

حرمة ٣ : قال يا اختى سكينة بتدلق الحلة ، اسم الله على خيرك ، طرطشته بمية فراخ .

حرمة ٤ : يا ندامة .

مخلوف : ندامة تاخد اجلكم ، امبازى !

حرمة ٤ : مية فراخ ؟ ليه ، هيه دى تندلق الا على العزيز الغالى ؟ ما فيش مية نار ؟ ما فيش مية رصاص؟

ما فيش مية دقة ؟ ياخى جاك وجيعــة ، مرقة فراخ مش عاجباك ؟

مخلوف : ولاك ، سكرى تمك ، ياعقربه ، ياكهنه ، يا ابريق بلا تم ، يا ترابيزه بلا اجرين ، يا قنينة بلا فله ، يا جزمه بلا رباطات .

حرمة ١ : هس ، يا جلياط ، يا قصاصيص الخياط

حرمة ٢ : يا اصفراوى ، يا سحراوى ، يا بطيخه ماوى .

حرمة ٣ : يا شوم الناس ، يا قفة قلقاس ، يا شــعر بلا راس .

حرمة ٤ : يا سحنة مقشورة ، يابتاع العــاشورة ، يا خلقة الخنشورة .

الاربع : يا بو ، يا مرم ، يا داهية تلم ، يابو عينين حجارى ، يا نافد ع المجــارى ، يابوابة الانتيكخانة ، يا سقط السلخانة ، يا فيدو .

مخلوف : العمى ! هايدى مجمع لغوى بالقباحة .

برجل : يالله يا اخى ، احنا فى جهنم .

مخلوف : ايه ، ما بخمن جهنم تكون هيك ! الزبانية بداتهم ما بيقدروا يوجدوا ها الالفاظ المنقاية من كل عربخانة نتفه . يخرب بيتكم ، ولاك ياصرماية ، يا ابرة مصداية .

برجل : ياسيدى فوت ، ما احناش قد دول ، ما احناش فاضيين ، قدامنا أشغالنا ، الراجل حمودة يمكن يكون بيدور علينا .

مخلوف : ايه ، صرمايتى على حمودة ، وعلى واقعة حمودة ، امبازى ! (يخرجان) .

حرمة ٢ : غور ، داهية تسمك ، والنبى انا كان طالع فى مخى علشان خاطر عيونك ، انزل امرمط بيه الارض

حرمة ١ : حبيبة يا اختى ، أجاملك ان شاء الله فى بهدلة عدوينك .

حرمة ٢ : (مخاطبة من فى الداخل) سمى عليه يابت الواد بيعيط (تختفى)

حرمة ٣ : عندىماجور أخضرمشروخ ، كان يستاهل دماغه .

حرمة ١ : قد القول ياحبيبتى ، تعيشى !

حرمة ٣ : يوه ، الله ، يندمك راجل ، ماتقرصش ! يوه ، ذيهدى ، الله ، ما تقرصش با اقول لك ! اخص عليك ! (تختفى) .

حرمة ٤ : تصدقى بالله ؟ اذا كان طول كنت نزلت جبت لك فردة من شنبه .

حرمة ١ : فيكى الخير ياعينى ، التقلية ع النار ، تقعدى بالعافية .

هذا المشـــــهد هو فى الواقع مسرحية قصيرة مكتوبة بعناية واضحة لتسجل وتستفل ظاهرة الردح (١) فى الحياة الشعبية المصرية ، وما تحويه من فكاهة ، ونلاحظ ان المعركة تستجمع قواها تدريجا بدخول واحدة بعـد الاخرى من النسـاء الى الميدان ، حتى اذا وصلن الى القمة أصبح الردح جماعيا ، بعد ان كان مساهمات فردية

(١) أرجو أن يكون احد المهتمين بالفولكلور فى بلادنا قد درس هذه الظاهرة . او ان تتم هذه الدراسة فى المستقبل : وما سمعته وشاهدته من مظاهر الردح فىطفولتى يعد الدارسين بحصاد لابأس به على الاطلاق ! .. فى باب الشعرية ــ مثلا ــ كان الردح بين المتخاصمات يتم احيانا على طريقة الملاحم . تستمر الملحمة اسبوعا ، ويصحب الردح بالالفاظ القاسية الدق على الطبلة والاشارات اليدوية الداعرة ، وتتدرج الشتائم فى خط متصاعد من القسوة حتى تصل الى القمـــة فى اليوم الاخير وهنالك تتجرد النسـاء من ملابسهن تماما ، علامة على التخلى من أى مظهر من مظاهر الاحتشام ، ووعدا بأن تصل المعركة الى أعتى درجات القسوة .

متوالية (١)

وسنجد ان كوميديا الريحانى ظلت تستغل الردح منذ بدايتها حتى النهاية ، ونوعت فيه ، هنا يدور الردح بين مصريات وشامى ، وفى مسرحية « أموت فى كده » يدور بين شامية ومصرى ، وفيما تلا هاتين المسرحيتين أصبح الردح يدور تارة بالعامية ، وأخرى بالشعر الفصيح بين شخصين نصف مثقفين ، مثلما يحدث فى مسرحية « ٣٠ يوم فى السجن » حيث يتبادل أمشير أفندى (الريحانى) الهجاء بالشعر مع المحامى .

والى جانب الردح ، تفيد مسرحية « الدنيا على كف عفريت » من نمر المسرح المرتجل ، وبين فصول هذا المسرح فصل يحاول فيه الممثل ان يجمع بعض المعلومات عن بنت يزمع التزوج منها ، فيتقدم ليسأل عنها واحدا بعد الآخر من المارة ، وفى كل مرة يتعرض للاجابات

---

(١) يصف بيرم التونسى واحدة من مباريات الردح هذه بقوله :
« واسوأ ماكان يعرف من نساء ذلك الحى ، هو الشجار الدائم الذى كان يقع بينهن .. فاذا اختصمن استمرت خصومتهن اياما وليالى . واذا انقطعت فى النهار واصلنها فى الليل . واذا انقطعت فى الشارع ، واصلنها فوق أسطح المنازل ، ولايتحرجن من كشف كل شىء ، وتفصيل كل شىء بالادلة والبراهين .
كانت هذه المشاجرات عبارة عن مباراة بين اثنتين : ايهما اقدر على اختراع المعانى الخبيثة وصوغها فى قوالب بشعة ..
وللمتخصصات منهن اشارات بالاذرع والاصابع والحواجب .. تفوق فى مدلولها مايقال على اللسان .
وكانت لهذه المباريات مواعيد محددة واماكن معينة . وعندما كانت تقام احداها ، يعلن عنها فى الحى كله ، فتأخذ نساؤه أماكنهن ليتفرجن عليها فى شغف واهتمام وليحكمن للبطلة المتفوقة فى ـ الردح ـ و ـ التشلق ـ . ويدور حوار بين المتفرجات :
ـ لا يختى منحده مش قد مسعده
ـ ماتصلى ع النبى امال .. بقولك مسعده تاكل عشرة زيها .
من قصة حياة بيرم التونسى ـ اعداد عبد الفتاح غبن ـ الجمهورية ١١ فبراير ١٩٧١

السخيفة ، أو للهزء به ، أو للضرب أحيانا ، هـذا ما يحدث فى فصل شكلدم وشكلدمة (١) .

وهـذا فى الجوهر هو ما يحدث للعمدة حمودة فى المسرحية ، اذ يحاول الاستدلال على عنوان المحامى برجل ، الذى كان قـد زاره هو ومخلوف فى قريتـه ووعداه بالثروة . ان العمدة يسأل عديدا من الناس : فيتعرض للمهانة فى كل مرة ، يظنه من يسألهم شحاذا صفيقا مرة ، ومرة أخرى بائع يانصيب ، وثالثة زبالا جاء يطلب الزبالة ، ومرة رابعة يقع فى براثن المحامى ، المتلعثم ، وخامسة يطبق عليه اليونانى ابن البـلد .. وهكذا .

كذلك تفيد المسرحيـة من نمرة معروفة من نمـر الـكوميديا المرتجلة ، وذلك حين يقع حمودة بين براثن ارتيست مستغلة ، تمثل عليه ان لها زوجا ، وتجعل هذا الزوج يطب عليهمـا وهما فى بدء خلوة ، فتطلب الارتيست من العمدة أن « يعمل كنبة » وتفرش عليه الغطـاء ، وتطلب الى زوجهـا المزعوم أن يجلس على « الـكنبة » الآدمية ، وهو مشهد فكاهى يتكرر فى فصول المسرح المرتجل .

وأخيرا ، لا تهمل المسرحية ظاهرة القافية ، كمصدر للفكاهة ، فتجعل واحدا من العمد من رواد المـلاهى يدخل فى قافية من جانب واحد مع العمدة حمودة على النحو التالى :

عمدة : تسمح لى بكلمة صغيرة من فضلك ؟
حمودة : اتفضل يا اخينا اتفضل .. اف !
عمدة : من فكرى أنا اسمع كلامى وطلقها !
حمودة : أطلقها ؟

(١) راجع : الكوميديا المرتجلة . ص ١٩٩ .

عمدة : ايوه ، لحسن طويلة عليك قوى .
حمودة : هيه ايه دى ؟
عمدة : دقنك ! ..
حمودة : هزارك مالوش معنى ، مالوش طعم ، مالوش مناسبة ، أنا مش جاى هنا عشان أخش معاك قافية ، أطلقها وأجوزها ! ما لك انت ومال دقنى ؟
عمدة : عدم المؤاخذة ، يظهر ان بالك مش رايق ، فكرك مشغول .
حمودة : مشغول وهلكان وكفران ، وطالعة العفاريت على جتتى .
عمدة : كان الله فى عونك ، كل انســان وله همه ، تصدق حضرتك انى أخبط مشوار طويل لحد هنا واسأل عليهم يقولوا لى خرجوا ؟
حمودة : خرجوا ؟ همه مين ؟
عمدة : (يغنى) عيونك !

ولا يهم العمدة ما يناله من شتائم حمــــودة ، ولا تنقطع محاولاته الدخول فى القافية ، فلا يجد حمودة بدا من مشاركته أخيرا فى هذه الهواية الملحة .

عمدة : انت يا عمدتنا !
حمودة : عايز ايه يا زبالتنا ؟
عمدة : مناخير جنابك ..
حمودة : مالها ؟
عمدة : معطلة مشروعات التنظيم !
حمودة : ايه ؟ طب دماغ حضرتك ..
عمدة : مالها ؟
حمودة : نازلة فى التسميرة (ضحك) ..

***

كانت مقومات الكوميديا الريحانية قد اكتملت لبديع خيرى ونجيب الريحانى ، حين أخرجا للنــاس فى عام

١٩٣٧ مسرحية « لو كنت حليوة » .

هنا نجد الموقف الرئيسي فى الكوميديا الريحانية ، موقف الرجل المسحوق ، الفصيح اللسان ذى الموهبة ؛ اذ يمد لسانه بالنقد للطبقة المترفة التى يلتصق بها بطريقة أو بأخرى ، ويتطلع فى الوقت ذاته الى أن يصبح فى عدادها يوما ما ، ولا يلبث بنقلة مفاجئة من نقلات الحظ ، أن يصعد اليها فعلا .

والانسان المطحون هذا اسمه فى مسرحية « لو كنت حليوة » شحاتة أفندى ، كاتب الحسابات الذى يعمل فى خدمة عبد الحفيظ بك فتح الباب ، ناظر الاوقاف .

والعلاقة بين الكاتب ومخدومه يلخصها شحاتة افندى نفسه بقوله مخاطبا عبد الحفيظ بك : « أنا تبعك » .

فشحاتة ليس مجرد موظف أجير عند صاحب عمل، ولكنه أيضا جزء من الاسرة ـ جزء منحط فعلا ، تتناوله الايدى بالصفع والارجل بالركل والالسنة بالمقذع من الكلام ـ ولكنه مع ذلك جزء من الاسرة .

وهو لهذا يرفع شعار « التبعية » ويتصرف بمقتضى المثل القائل : « ان كنت تعمل فى خدمة الكافر، اضرب بسيفه » .

لهذا ينضم شحاتة أفندى الى المحاولات الكثيرة التى يقدم عليها عبد الحفيظ بك لاختلاس أموال المستحقين فى الاوقاف عن طريق التدليس فى الحسابات .

والنقد الواضح الذى يوجهه شحاتة الى مخدومه وطبقته يفضح هذه الطبقة فعلا ، ويعريها ، ولكنه لا يهدمها أبدا ، بل هو ـ على المستوى الشخصى ـ نوع من التخويف لهذه الطبقة حتى تظل متمسكة بشحاتة ، محتوية اياه .

وهو ــ على المستوى العام ــ ترفيه واضح عن الطبقات المسحوقة وتشف فى الاغنياء يتم لحسابها ، هدفه الاساسي هو اطلاق البخار حتى لا تتم ثورة ، نقد يقول لجماهير النظارة من الطبقة الوسطى الصغيرة ، والطبقة الوسطى : هؤلاء هم الاغنياء أمامكم على المسرح ، سأوجه لهم ضربات موجعة ، تشفى غليلكم ، ثم أدعو ممثلا منكم ــ هو شحاتة أفندى ــ الى أن ينضم اليهم ليستمتع ــ نيابة عنكم ــ بما يستمتع به الأغنياء ، ذلك اننا كلنا أولاد تسعة ، وكلنا أهل للغنى ، لو أسعفنا الحظ .

هذا هو مضمون النقد الاجتماعى فى ذلك النوع من مسرحيات الريحانى وبديع ، الذى يقوم فيه البطل بعملية مفازلة متصلة للطبقة العليا ، ولا يزال يجاهدها وتجاهده ، حتى ترضى به عضوا بها ، بعد أن يسعده الحظ ويربح ثروة طائلة .

يحدث هذا فى مسرحية « استنى بختك » ، حيث الفيلسوف الوهمى أبو فراس ــ ممثلا الآلهة الحظ ــ يعمل جاهدا على تحسين حال تيسير أبو الدهب ، الكاتب الفقير ، السيىء الحظ فاذا به فى آخر المسرحية سيد غير منازع للطبقة التى كان يخدمها ، بعد أن واتاه الحظ المرة بعد الاخرى ، ثم توج هذا كله بالثروة المفاجئة المعتادة التى تخر لها ساجدة أسرة بهجت باشا الرأسمالى الكبير فتسمح لتيسير بالانتساب اليها وتزوجه احدى بناتها .

ويحدث الشيء ذاته فى مسرحية « الدلوعة » حيث ينتقل أنور ، الكاتب الصغير باحدى المصالح الحكومية من تمنى التزوج من ابنة الباشكاتب ، رئيسه فى المصلحة ، الى تزوج « الدلوعة » فكرية ، ابنة تاجر

الجواهر الثرى الـكبير الزعفرانى بك ، وذلك بعد أن اسعفه الحظ فأوقعه فى طريق امرأة جموح ، متسلطة تعودت ان تفرض ارادتها على الجميع ، وهى فى أعماقها تحن أكبر الحنين الىمن يكبح جماحها : ويلزمها السير على الجادة فرسا ذلولا ، وانثى تعترف للرجل بحق السيطرة .

وفى مسرحية « الا خمسة » نلقى هذا الحظ ذاته ، فالمحامى البائس ، عديم الزبائن سليمان الزعفرانى ، يقع ، بطريق الصدفة على خريطة تشير الى كنز مدفون فى مبنى أثرى ، فيذهب جاهدا يبحث عن الـكنز ، ويحدث له مغامرة مضحكة وراء اخرى حتى اذا يئس فى النهاية من العثور على الـكنز ، وأوشك أن يؤمن بأن المتعوس متعوس مهما فعل ، اذ بالحظ يبتسم له فيلقى — لا الـكنز وحده — وانما ايضا عروسا كالقمر تبتسم له مع الدنانير التى تنهال عليه من الـكنز المخبوء فى الحائط .

والى جوار هـذا اللون من المسرحيات التى تؤكد الاهميـة الذاتية للفرد الفقير المطحون ، وتدعم هـذه الاهمية بمفاجآت الحظ السعيد ، نجد نوعا آخر من المسرحيات تلح على فضـل الفقير واصـالته ، وتؤكد تمسكه بطبقته وفضل هذه الطبقة على الطبقات الغنية وتعتبر مسرحية « حكاية كل يوم » نموذجا طيبا من هذه المسرحيات .

وفى هذه المسرحية التى نجد لها اصولا واضـحة فى مسرحيتى « البرنسيس » و « أموت فى كده » يقف ابن البلد الفقير موقف الند من الطبقات الغنية ، ويؤكد فضله عليها ، ويهاجم لا هذه الطبقة وحسب ، بل وكل الذين يتوقون الى الخروج من أصـولهم المتواضعة ،

ويتطلعون الى شرف الانتساب الى الاغنياء .

هذه الصيغة هى فى حقيقة الامر مجرد تنويع على الصيغة السابقة فهى ـ بدورها ـ تنقد الاغنياء ولا تهدمهم ، وانما تقول لهم : لكم دينكم ولى دين . ثم تربت على أكتاف الفقراء وتقول : أنتم الناس أيها الفقراء !

هذا هو مبلغ النقد الاجتماعى فى مسرح الريحانى ، وقد آثرت أن أورد تحليلا له قبل الالتفات الى بقية النواحى التكنيكية فى المسرحيات ، حتى أوضح حقيقة بعينها وهى : أن الريحانى كان مجرد ناقد مسالم لمجتمعه . لم يكن يرغب فى أن يحدث فيه تغييرا جذريا ، وانما كان يكتفى بالدعوة الى تحسين الحال عامة ، أن يصبح الاغنياء أقل قسوة وأقل غباء ، وأن ينفتح باب الامل قليلا أمام الفقراء ، ويجدوا من يمسح دموعهم ، ويمتعهم ، ولو فى الخيال بما يستمتع به الاغنياء .

لم يكن الريحانى ثوريا ولا ثائرا ، ولكنه كان مجرد ناقد المجتمع فى داخل حدود آمنة ، آمنة له هو شخصيا وللطبقة التى كان يحرص على أن يتوجه اليها

وفى داخل هذه الحدود فعل الريحانى وبديع خيرى الكثير لخدمة المسرح الكوميدى .

لقد استعانا بالنماذج الفرنسية التى وجداها فى مسرح البولفار الباريسى على تحويل المسرحية الهزلية التى شغلا بها حتى عام ١٩٣٦ تاريخ خروج مسرحية « الدنيا على كف عفريت » الى مسرحيات كوميدية تعتمد على الرسم المتقن للشخصيات ، وعلى المواقف المخلوقة بقوة واقتدار ، وعلى البناء المتماسك للمسرحيات ، ثم لم يهملا ـ مع ذلك ـ الافادة من تراث الكوميديا الشعبية كلما وجدا لهذا التراث قيمة أو نفعا .

والذى يقرأ مسرحيـة « الدلوعة » ـ مثلا ـ بعـد مسرحية « الدنيا على كف عفريت » يلمس فارقا واضحا فى البناء وفى رسم الشخصيات ، « الدنيـا على كف عفريت » بالقياس الى « الدلوعة » مجموعة من المشاهد الـكوميدية ، كل منها يكاد يكون مستقلا بذاته ، لا يجمعها الا خيط القصة الواهى الذى يمسك به العمـدة حمودة ، متنقلا من القرية الى المدينة ، ومن الشـارع الى الـكاباريه ، بحثا عن الثروة المفاجئة .

والاعتماد فى المسرحية ، كما رأينا ، على نمر الترفيه الشعبى ، وعلى الشخصيات الـكوميدية التقليدية .

أما فى مسرحية « الدلوعة » فان الاساس هو الموقف الرئيسى الذى اجتلبه الريحانى من المسرح الفرنسى : موقف المرأة المدللة كطفلة رعناء ، التى تعودت أن يكون الـكل رهن اشارتها ، ثم اذا هى تواجه بمن لا يأبه لها ، ولا يهمه رضيت أم سخطت ، لانه خارج تماما عن العالم الذى تعيش فيه ، غير معترف بالقيم التى تحركها وتحرك من يقعون تحت سلطانها .

والمسرحية تفيد من هذا الصدام القوى بين شخصيتين مختلفتين لخلق كوميديا من نوع أرقى من الذى اعتاده المسرح المصرى حتى ذلك الحين .

هذه فكرية فى مسرحية « الدلوعة » قد اضطرت الى دخول منزل كاتب المصلحة أنور عزمى ، فى ساعة متأخرة من احدى الليالى بعد أن فرقع اطار سيارتها ، دخلت البيت بجرأة واطمئنـان من اعتـاد ان يأمر فيطـاع ، فصاحت ، وصرخت ولم تبال أن تزعج صاحب البيت وأصـدقاءه ، وأمطرت أنور وابلا من الاسـئلة ، حول اسمه ، ووظيفته ، وأطلقت عليه الاسماء الفكاهية كلها ، ثم وصلت الى النقطة الرئيسية :

فكرية : حضرتك عازب ؟
انور : لا . .
فكرية : متجوز ؟
انور : لا . .
فكرية : لا ، لا ، امال إيه ؟ !
انور : بين البينين .
فكرية : بين البينين يعنى ايه ؟
انور : يعني خاطب ، على وش جواز ، عملت خطوبة
فكرية : طيب وانا يهمنى ايه ، ان كنت خاطب والا مش خاطب ؟
انور : حضرتك اللى بتسألى : متجوز ؟ عازب ؟،لا ، خاطب .
فكرية : واللى خاطبها دى واحده ست ؟
انور : واحده ست ؟
فكرية : باسأل . .
انور : ماهو ده سؤال ما يتسألش أبدا ، الراجل لما يخطب بيخطب ايه ؟
فكرية : طيب قول ست وخلاص .
انور : ماهو مش لازم اقول ، دى لازم تنفهم لوحدها (سكوت)
فكرية : (تغنى) وانخلقت فى الدنيا واحده ست تقدر تهضم حضرتك ؟
انور : ايوه انخلقت ، ومش بس بتهضم حضرتى ، بتحب حضرتى ، بتموت فى حضرتى ، حا تتخبل عشان جمال حضرتى .
فكرية : يانهار اسود !
انور : وبعدين يارب فى البلاوى دى !
فكرية : لها عينين من فضلك ؟

انور : اكبر من عينين حضرتك .
فكرية : بأى شكل ؟ ازاى ؟ عشان ايه ؟
انور : عشان كده ، عشان هيه عينها كده ، مزاجها كده ، عميت ، دغششت ، لطشت .
فكرية : لقيت فيك ايه باستعجب !
انور : لقيت فى شوية انسانية ، شوية حيا ، شويه كسوف ، ما اتناورشي على العالم من غير ما اعرفهم ويعرفونى ، ما اطلعش فيها واعمل روحى كبة عالية ، وانا يمكن . . .
فكرية : ايه الكلام ده ، ليه انا ؟
انور : شىء عمومى يعنى .. عمومى .
فكرية : بالعكس ، انت قاصـد تفهمنى انى قليلة الادب .
انور : وانا افهمك كده ليه ؟ انا اتداخل فى كده ليه ؟ لا انا الخوجة بتاعك ، ولا انا ابوكى ، ولا انا أمك ، عندك ادب لنفسك ، انما الشىء الوحيد اللى اقدر اقوله بس
فكرية : ايوه ، اتفضل !
انور : ان حضرتك نمرة لوحدك عن بقية العالم ، انا ما وردش على كده ابدا ، انا شفت ستات عدد شعر راسي ، انما بالجراة المفتوحة ، المكشوفة دى ، وبالدب والقفز ده ، لا .
فكرية : جايز يكون فى كلامك شىء من الحقيقة .
انور : شىء من الحقيقة ؟ انا احلف لحضرتك أن الحقيقة هى اللى شىء من كلامى انا ، ايه ده ! لو حضرتك تعرفينى من عشرين سنة ما كنتيش تلبخى وياى بالشكل البطال ده ، داخله على فى البيت زى البوليس ، زى النيابة وناقص كمان تمسكى عصايه وتطيحى فينا ، حضرتك متربية فين ؟ هنا فى مصر ؟

مش ممكن ، دى حاجه مش موجودة أبدا .

فكرية : اتصور زى ما انت عاوز ، قول اللى انت عاوزه ، رأى حضرتك عندى زى قلته .

انور : طبعا ، رأى الدنيا كلها عند حضرتك زى قلته انت تسالى فى حاجة ؟ !

ويفرقع اطار آخر فى سيارة الست ، ويصبح لزاما عليها أن تبيت فى بيت أنور .

فكرية : يعنى انسدت من كله ؟ ملزومة أبات هنا !

أنور : تباتى هنا ؟ !

فكرية : امال يعنى أبات فين ؟ فى الشارع ؟

انور : فى الشارع ، فى الحارة ، أنا مش مسئول عن حضرتك .

فكرية : اما انا يا اخوانى ماشفتش أفندى مجرد بالشكل ده .

انور : لا من فضلك ، اباحه مش لازم .

فكرية : انت حيطة ؟ انت جته من نحاس ؟ انت صنم ؟ ما فيش دم ؟ ما فيش مروءة ؟ ما فيش نخوة ؟

انور : ما فيش مروءة ، ما فيش نخوة ، المهم أنا بيتى مش وكالة .

ويتدخل الاستاذ سفرجل ، صديق أنور ، ليفهمه حقيقة المراة الوقحة التى دخلت بيته :

سفرجل : انت فاهمها مين دى ؟ فتح عينك ، حط عقلك فى دماغك ، دى فكرية هانم ، بنت الزعفرانى بك اكبر جواهرجى فى البلد ، مليون ونص مليون جنيه .

انور : ان شا الله يكونوا تسعين مليون جنيه ، يهمنى ايه ؟ بنت الجواهرجى ، بنت الشربتلى ، أنا مالى ؟

فكرية : بنت الشربتلى يا افندى يا موظف يا بتاع الانتيكخانة ؟

هذه القوة فى رسم الشخصيات ، هذا الصدام العالى الصوت بين قوتين متساويتين وان اختلفتا فى المركز الاجتماعى والفكرى ، هذا الايقاع السريع للحوار الذى يسمح « بلعبة الشيش » المعروفة فى مسرحيات الافكار ، كانت كلها شيئا جديدا على المسرح الفكاهى فى مصر (١) بالاضافة — طبعا ، وقبل كل ما تقدم — الى شخصية فكرية ذاتها : المرأة النمرة ذات القوة غير العادية ، فهى كما يلاحظ انور فى الحوار ، شيء جديد على مجموعة النساء المصريات فى المسرح الفكاهى .

على ان الكوميديا الشعبية — مع ذلك — لا تريد ان تفارق هذا الموقف الاوربى الواضح ، نجدها هنا ممثلة فى فاصل الردح الذى يقوم بين انور وفكرية تسميه : انور عجة . انور بطارج ، انور بعجر ، ويسميها ام زعيزع وبنت طرزان ، مفترسة .. الخ .

والى جوار هذا نجد فى المسرحية شخصية الخادم « اللهلوبة » التى تجمع بين الذكاء والجراة والاندفاع والرد الحاضر ، والتى لايمنعها شيء أو شخص عن ابداء رايها الصريح فيما حولها ومن حولها ، وهى شخصية تتكرر فى مسرح الريحانى ، وقد أصبحت فيما بعد (٢) شخصية تقليدية فى الاعمال الكوميدية كلها ما بين مسرح وسينما .

وهى فى مسرحية « الدلوعة » اسمها زبيبة ، والصفة التى تميزها عن بقية الخادمات هى ترديدها الدائم للأمثال الشعبية واحدا وراء الآخر ، تقول زبيبة وهى تحاول اقناع ضيفى مخدومها المستديمين بأن ينتظرا

---

(١) باستثناء مسرحية المرأة الجديدة لتوفيق الحكيم التى عرضت عام ١٩٢٣ ، وان لم تترك اثرا ذا بال على الكوميديا . « بينما لم تعرض زميلتها الارقى منها : رصاصة فى القلب » الا عام ١٩٦٥

(٢) لها سابقات — مع ذلك — فى مسرحيات محمد تيمور والكسار .

حتى يعود صاحب البيت انور عزمى ، وذلك قبل أن تهيىء مائدة العشاء :

– يا اخواتى على مهلكم ، زمانه جاى ، الغايب حجته معاه ، واللى ما تصبحه وتماسيه ما تعرف ايش جرى فيه ، واللى تحبه م القلب ما تمسكلوش على ذنب واللقمة لا تحلى ولا تطيب الا فى وجود الحبيب .

هذه الشخصية الدينامية ، بالاضافة الى شخصيات الموظفين الذين يعمل انور عزمى معهم أو تحت رئاستهم ومشاهد الديوان عامة وما يجرى فيه والنقد الذى يوجه له ، هى اضافة الكاتبين على الهيكل الفرنسى للمسرحية ، وهو هيكل يبدو واضحا رغم التمصير ، فان أنور عزمى الموظف الصغير ذا الثمانية عشر جنيها شهريا ، يسكن فيللا من طابقين فى الريف المتاخم للقاهرة ويقتنى كلبا فى الجنينة ، وأسماكا للزينة فى الصالون ، وله أوزة اسمها كاترينة ، ويتحدث عن طقم السرفيس فى غرفة الطعام ، ويلبس الروب دى شامبر ويستضيف اثنين من نجوم السينما ، هما الممثلة كناريا ، والمخرج العظيم سفرجل ما يزيد عن أربعين يوما ، وحين يفرقع اطارا سيارة فكرية ، يقنع سائق السيارة سيد ، الخادم زبيبة بأن تستقل معه قطار الثانية صباحا الى القاهرة على أن يعودا فى السادسة من الصباح ذاته لتستأنف زبيبة خدمتها .

وكانت الخادم قد وقعت فى غرام مفاجىء بالسائق.

كل هذا يظهر من خلاله الهيكل الفرنسى للمسرحية.

وقد أصبح مألوفا فى مسرحيات الريحانى أن يبدو هذا الهيكل من وراء الكسوة المصرية التى جهد نجيب الريحانى وبديع خيرى فى اضفائها عليه .

ففى مسرحية « لو كنت حليوة » عام ١٩٣٦ نجد

موقفا رئيسيا آخر مجتلبا من المسرح الفرنسى • وفيه يبدو طالب الطب الفاشل فريد واقعا فى ورطة كبيرة ، فقد انجب ابنا غير شرعى من ممثلة طويلة اللسان ، جاءت تهدده بأن يثبت أبوته للولد والا فانها ستفضحه

ويتطور الموقف من بعد لتدخل فيه عقدة أخرى ، فان سوسن ، أخت فريد ، تحب مهندسا شابا يعمل فى خدمة أبيها ، عبد الحفيظ بك ، ولا يجرؤ على أن يتقدم لخطبتها لضآلة مركزه الاجتماعى ، فتقرر البنت وحبيبها وأخوها أن يتهموا الكاتب شحاتة بأنه أغرى سوسن ، وتزوجها فى السر ، حيث أنجبت منه ولدا ، وذلك حتى يرضى الاب بأن يزوج البنت من حبيبها المهندس ، درءا للفضيحة ، وعوضا عن أن ينزل الى مستوى تزويج ابنته من كاتب حقير .

هذا الموقف الذى سبق أنوجدنا نظيرا له فى مسرحية « العصفور فى القفص » لمحمد تيمور (ويبدو واضحا انالمسرحيتين قد نهلتا منمنبع واحد هو المسرح الفرنسى) يتخذ منه المؤلفان بديع ونجيب هيكلا عظميا للمسرحية ويكسوانه باللحم المصرى ، فيدخلان شخصية ليلى ، البنت المصرية التى فاتها قطار الزواج ، والتى تتشوق الى الزوج ، وتبحث عنه بكل وسيلة مضحكة ، كما يدخلان بعض الشخصيات التقليدية التى سبق الاشارة اليها من أمثال المتفطرسة الغبية بلدز هانم التى يتعاون كاتبها القبطى غبريال مع شحاتة ، ومخدومه عبد الحفيظ بك فى سرقة مستحقاتها من الوقف .

ومع هذه الشخصيات المنتزعة من البيئة المصرية ، ومن تراث الكوميديا الشعبية ، يدخل النقد الاجتماعى وهو يتركز هنا فى نقد نظام الاوقاف ، وكشف السرقات التى يرتكبها نظار الوقف ومن يلوذ بهم من تابعين .

كما ان النقـد يتطرق أيضـا الى ظاهرة التفـاخر الاجتمـاعى بين الأغنيـاء ، وتتخذها المسرحيـة مادة ممتازة للفكاهة ، على نحو ما يحدث فى الفصل الاول من المسرحية ، حين يرسل عبد الحفيظ بك كاتبه شحاتة لدار الـكتب ، ليستخرج شجرة الاسرة ، ويرد بها على اتهامات يلدز هانم له بأنه من أصل متواضع ، كما يرد بها على غمزات ليلى ، أخت زوجتـه ، العـانس التى سبقت الاشارة اليها ، وهى تتخذ منه موقفا معاديا :

عبد الحفيظ : شحاتة افندى ناسخ بيده صورة من الـكتبخانة عن تراييخ العائلة منشور فى كتاب اسمه .. اسمه ايه يا شحاتة أفندى ؟

شحاتة : الجبرتى يا سعادة البيه .

عبد الحفيظ : أهو الجبرتى ده لا أعرفه ولا يعرفنى. مفيش مصلحة . قول . لقيت ايه ؟

شحاتة : ماتخليها لبعدين يا سعادة البيه .

عبد الحفيظ : (يشخط) با اقول لك قول ..

شحاتة : حاضر يا افنـدم .. ما هو التاريخ يعنى شوية . . .

عبد الحفيظ : ديهدى !

شحاتة : فى سنة ١٢٨٠ هجرية كان لسعادتك جد اسمه فلفل فتح الباب أبو الديوك .

عبد الحفيظ : مضبوط ، كان غاوى المضاربة بالديوك وطلعت عليه الشهرة دى .

ليلى : جدك كان اسمه فلفل ؟

عبد الحفيظ : كانوا بيدلعوه ياستى ، أبوه ما خلفش غيره ، هيه ؟

شحاتة : فى يوم جمعة كان أول رمضـان ، حضر الوالى فى ميدان الرصدخانة وبعت فى الحال يستدعى

جد سعادتك ، الله يرحمه فلفل فتح الباب أبو الديوك.
عبد الحفيظ : كويس ، الوالى بعت ينده لجدى ، قول يا شحاتة افندى .
شحاتة : فحضر جدك الله يرحمه ، وقدامه صفين من العساكر ، ووراه جموع من الشعب بتهلل .
عبد الحفيظ : تيجى تسمع يلدز هانم المجرمة ، قول يا شحاتة قول .
شحاتة : أنا من رأيى نكملها بعدين بقى يا سعادة البيه .
عبد الحفيظ : ما تنرفزنيش .. قول .
شحاتة : فوقف المرحوم جدك قدام الوالى .. قام الوالى من على كرسيه .
عبد الحفيظ : وسلم عليه ؟
شحاتة : لا ياسعادة البيه ، وتف فى وشه .
عبد الحفيظ : الوالى تف فى وش جدى أنا ؟
شحاتة : ايوه يا افندم ، وأمر بجلده ١٣٠ جلدة ، لانه سرق كل الديوك اللى كانوا فى تقفيصة الوالى .
عبد الحفيظ : ديوك ؟ ايه الكلام الفارغ ده ؟ الجبرتى بيقول كده ؟
شحاتة : ايوه ياسعادة البيه . ثم جدك الله يرحمه كان من أرباب السوابق ، لانه اتحكم عليه بالسجن خمس مرات .
عبد الحفيظ : جدى انا اتحبس ؟
شحاتة : ايوه يا أفندم اتحبس ، انا لما شفت كده فى الحقيقة اتفميت قوى ، وبقيت متعشم ان الحبس ده يكون لاسباب سياسية ، لاعمال خطيرة ، لمجازفات عظيمة ، حاجة والسلام تعمل للانسان حيثية ، تطول الرقبة ، تكبر القيمة ، انما مع الاسف كله ديوك ،

ديوك ، ديوك .

ليلى : ديوك ؟

شحاتة : ايوه ياست هانم ، كان الله يرحمه يسطى على التقفيصة من دول ، يسيب الفراخ ويخطف الديوك وعلشان كده سموه فتح الباب أبو الديوك .

ليلى : وفتح الباب بقى مش باب صلاح الدين ، باب التقفيصة ؟

عبد الحفيظ : جتك داهيه فى أخبارك ، أنا جدى يكون تاريخه بايخ بالشكل ده ؟ يسرق ديوك ؟

شحاتة : يا افندم أنا كمان اتضايقت لما شفت كده ، أنا طبعا من توابع سعادتك ، وكان يهمنى ان اللى باشتغل عنده يبقى له جد معتبر ، واذا كان ولا بد يكون حرامى ، حتى حرامى الماظات ، وثايق تاريخية ، وثايق سياسية ، سرقات عالية شوية ، انما ديوك ؟ !

عبد الحفيظ : بقى اسمع هنا .

شحاتة : افندم .

عبد الحفيظ : السيرة دى لو طلعت بره ، وخصوصا ليلدز هانم حاقطم رقبتك .

شحاتة : لا يا افندم ، هوه أنا مجنون ؟ عيب ، ومع ذلك ما تضايقش نفسك ، أغلب الناس المطرطرين اللى انت شايفهم دول لو بحثنا فى الجبرتى . .

عبد الحفيظ : خلاص !

شحاتة : خلاص يا أفندم .. خلاص.

***

حتى النهاية ظلت كوميديا الريحانى أمينة لنشأتها الاولى فى حضن المسرح الشعبى ، اليه كانت تلجأ كلما تعثرت الجهود لدفع الكوميديا المصرية خطوات اخرى فى طريق العمل المسرحى المتقن ومن الكوميديا الشعبية

كان الريحانى وبديع خيرى يتزودان حتىفى مسرحيات النضوج .

ففى مسرحية « أوروبية » ناضجة التكوين مثل مسرحية « حكاية كل يوم » نجد نمرة معروفة من نمر الكوميديا المرتجلة ، هى نمرة التمثيل الصامت ، يلجأ اليه الممثل الشعبى كى يخرج من ورطة تعبيرية وقع فيها .

ففى فصل « كامل وأولاده » يقع كامل وصديقه فى ورطة كهذه حين يحتاجان الى بيض فيطلبانه من صاحب فندق فى باريس بلغة الاشارة ــ فالاثنان لا يعرفان الفرنسية .

يقلد كامل صوت الفرخة ويقلد الافندى صديقه صوت الديك ، ويقوم الاثنان فيما بينهما بمحاكاة فكاهية لعملية وضع الفرخة لبيضه ، يمثلها طربوش يتدحرج بين فخذى كامل حتى يصل الارض ، فيفهم صاحب الفندق المطلوب ويأتى به .

وفى مسرحية « حكاية كل يوم » وحوادثها هى الاخرى تدور فى فندق ، يقوم موقف مشابه حين يهل على موظفة الاستقبال شاب أخرس يطلب فرخ ورق ، فيعبر عن نفسه بلغة الاشارة : الرفرفة بالجناحين تعبير عن « الفرخ » ومربع كبير يعنى الورق ، والمقصود : فرخ ورق ، ثم يطلب مظروفات خالية من اسم الفندق ، فيصور بالحركة شكل بيضة ، ويرمز الى المظروف بحركة القطار ، ويكون المطلوب مظروفات « بيضا » . وهذا كله ما يفهمه على الفور صلاح (الريحانى) ويقوم بترجمته لموظفة الاستقبال التى تستبد بها الدهشة . وفى مسرحية من أواخر ما كتب الصديقان خيرى والريحانى ، وهى مسرحية « الا خمسة » نجد حشدا

كبيرا من شخصيات المسرح الكوميدى الشعبى ، كما نجد موضوعا اثيرا لدى الكوميديا الشعبية .

أما الموضوع فهو البحث عن كنز مخبوء ، تقوم بالبحث عنه شخصية محبوبة يتمثل فيها الشعب نفسه ويود لها من صميم الفؤاد أن تعثر على الكنز فعلا ـ تلك هى شخصية سليمان الزعفرانى المحامى المفلس ، الشريف المتطلع .

وأما الشخصيات المنقولة من الكوميديا الشعبية ، فنجد بينها التركية المتفطرسة ، واليوناني العبيط ، والتاجر البلدى المتفاخر الساذج ، والخادمة «القارحة» والابن العبيط (١) ، والام البلدية المفرطة الحنان ، والتركى الجلف .

كما نجد كمية لا بأس بها من وقود الكوميديا الشعبية الذى لا غنى عنه قط ، وهو الردح .

وعن طريق احكام الربط بين الكوميديا الشعبية ، وكوميديا الجماهير العريضة المنقولة من فرنسا وعن طريق شيء من النقد الإجتماعى غير الثورى استطاع بديع ونجيب أن يقدما عددا كبيرا من المسرحيات امتعت الناس ، وأقنعتهم بأن ما يشاهدونه على المسرح هو جزء من حياتهم فعلا .

وبهذا اتصل تيار الخلق الكوميدى ولم ينقطع ، وهو التيار الذى قدم نماذج ناضجة منه ابن دانيال ، وكافح بعقوب صنوع كفاحا فكريا وعضليا حتى استطاع أن يعيده الى الحياة فى عصرنا الحديث .

---

(١) الابن العبيط فى الكوميديا المرتجلة شخصية معروفة ومستقلة

خاتمة :
مولد الكوميديا الجديدة

فى عام ١٩٥١ انتهى نعمان عاشور من كتابة أولى مسرحياته « حياتنا كده » وهى التى أسماها فيما بعد « المغماطيس » ووصفها بانها « كوميدى من أربعة فصول » .

كان قد انقضى على وفاة الريحانى حوالى عامين ، وكان الكسار قد ترك ميدان الكوميديا ــ عمليا ــ قبل ذلك التاريخ بسنوات ، وبدا للناس ان الميدان قد أصبح خاليا من المبدعين ، وان سنوات طويلة لابد ان تمر قبل أن يقوم من يستطيع ملء الفراغ الكبير الذى تركه هذان القطبان الكبيران من أقطاب الكوميديا

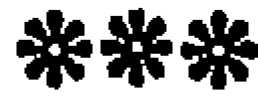
ولكن تاريخ الادب المسرحى كان قد قرر شيئا آخر

ففى عام ١٩٤٢ ، كانت كلية الآداب من جامعة فؤاد الاول ، قد أخرجت الى الحياة ، من بين خريجيها العديدين فى ذلك العام ، شابا خفيف الظل ، حلو الدعابة مر النقد ، ذكى الفؤاد ، تمور فى قلبه وفكره رغبات عارمة للثورة على مجتمع كان يراه متعفنا فى كل مظهر من مظاهره .

وكان هذا الشاب يجمع بين الفكر الاشتراكى ، والرغبة فى « أداء » هذا الفكر على نحو بصرى ، مجسد أمام جمهور ، وكان قد جرب حظه من قبل ، أيام

الدراسة ، فى كتابة اسكتشات تمثيلية كان يقرؤها بنفسه على زملائه فى الدراسة ، فان لم يجد منهم تطوعا لسماعه ، القى عليهم القبض القاء وأصر على أن يسمعهم أعماله ، أقبلوا عليه ، أم أعرضوا .

وكان هذا الشاب هو نعمان عاشور .



وكوميديا « المغماطيس » هى نوع جديد من الكوميديا المسرحية التى عرفتها بلادنا ، والتى استعرضنا مراحلها المختلفة وألوانها فيما تقدم من صفحات .

ان انتماءاتها الى الكوميديا الشعبية قليلة لدرجة تلفت النظر ، وهذه حقيقة سنثبت حالا مدى ما فيها من كسب وخسارة لفن الكوميديا بوجه عام .

وحتى حينما تلتقي كوميديا نعمان عاشور بنماذج وشخصيات من الكوميديا الشعبية ، لا تلبث عين الكاتب الفاحصة ، وروحه النافذة الى جوهر الاشياء أن تتسرب الى داخل الوعاء الذى تعرض الكوميديا الشعبية مظهره الخارجى وحسب ، فاذا بالشخصية النمطية تتحول عند نعمان عاشور الى شخصية كاملة الاستدارة ؛ لانه سرعان ما يكتشف ما يدور داخلها من صراع وانقسام وما يمور فى أعماقها من رغبات وأحاسيس متعاقبة .

اذ ذاك تتحول شخصيات الكوميديا الشعبية الى كائنات حية ، وتترك جذورها ، ولا يعود لها من الاصل الا المظهر الخارجى .

وقد كتب نعمان عاشور « المغماطيس » ليضحك الناس ويغيرهم معا ، أملى عليه هذا الهدف المزدوج ثورته الاجتماعية وفكره الاشتراكى ، وساعده حبه للناس ورغبته الطبيعية فى مخالطتهم — بل فلنقل

انتماؤه الطبيعي لهم ، واحساسه غير المخلوط بانهم أهله وناسه فعلا ـ على أن ينتزع موضوعه من حياة الناس الفعلية

لهذا ـ مرة أخرى ـ تحركت تماثيل الكوميديا الشعبية ـ تحت بصر نعمان عاشور ، وضاقت القوالب بما احتوت فتفجر منها الارهاب ، واصبحنا ازاء كوميديا جديدة ولدت بين ظهرانينا ، وأصبحت تعرف فيما بعد بالكوميديا الانتقادية ـ المصرية حقا ، مولدا ، وفكرا ، وعاطفة ، وروحا .

تعرض مسرحية « المغماطيس » لمصائر افراد أسرة مصرية من الطبقة الوسطى الصغيرة تعيش فى القاهرة فى أواخر الاربعينات ، راس الاسرة سيدة فى الخمسينات مات زوجها ، وكافحت الكفاح المر التقليدى الذى يخوضه أفراد طبقتها فى مواقف مماثلة من اجل تربية ولد لها وبنت مات عنهما الزوج .

أما الولد فقد واصل دراسته حتى سافر الى فرنسا لدراسة علم التحليل النفسى ، وعاد بعد سنوات ليواجه وضعا قلقا مزعزعا ، فهو ضائع بين حضارة متقدمة قطف ثمارها سنوات متصلة ، وبين تقاليد وعادات موروثة عرفها منذ بدء حياته .

وهو مضطر الى العيش فى حى شعبى هو درب عجوز حيث الناس ينظرون اليه على انه نوع من شمهورش ، ويتوقعون منه الخدمات ذاتها التى يقدمها ذلك الوسيط بين الانس والجن .

وأخته ، البنت الناضجة قمر ، تعلمت حتى اصبحت مؤهلة للتدريس فى احدى المدارس الابتدائية ، وهى محيرة بين أن تصبح امرأة عاملة ، وبين أن تعيش حياة الدعة والكسل والعبودية التى يقدمها لها تاجر موسر تقدم لخطبتها .

حول هذه النواة الاجتماعية التى تصور مصر فى مرحلة انتقال ، وتقدم شخصيات قلقة ، محيرة بين عالم يموت وآخر لم يولد بعد ، يدير نعمان عاشور أحداث مسرحيته ويضيف اليها مزيدا من الشخصيات .

هناك التاجر الفنى المستغل ، الذى ينتمى بلا تردد الى مجتمع الثروة ، والنصب والاستغلال : حسين ابو المال » وهو يتقدم « لشراء » البنت قمر ، واثقا من سحر ماله ، وقدرته على ان يتخطى عقبة الفارق الكبير فى العمر بين العريس والعروس .

وهناك عطوة افندى الكاتب بمحل « أبوالمال » الذى يسخط على الظلم ، ويحتج على النصب ، ولكنه عاجز عن أن يفعل شيئا ، غير تناول المخدرات ، وهو الآخر محير بين السخط على المجتمع الرأسمالى ، وبين الرغبة المحمومة فى أن يقع له نصيب من الغنائم التى يوزعها ذلك المجتمع على أفراد منتقين منه .

وهناك الست فرحانة التى تجمع بين مهنة الخاطبة ومهنة الوسيط التجارى ، وتشارك الحاج « حسين ابو المال » تجارته القذرة فى قوت الشعب ، وتوفق بين الرؤوس فى الحلال ، لايهمها أى راس تجمع على أى راس !

وهناك التاجر الشريف ، والاخ الاصغر « المنكسر » للحاج « حسين أبو المال » وهو محمود ، الذى التهم اخوه الاكبر نصيبه من الميراث ، ووظفه فى المحل الذى كان ينبغى أن يكون شريكا فيه ، لا موظفا ، يقنع براتب صغير يعيش منه .

ولو القينا نظرة فاحصة على هذه الشخصيات الرئيسية ، لوجدناها فى الاساس شخصيات نمطية ، بعضها معروف فى حقل الكوميديا الشعبية .

عطوة أفندى ، بما يجمع من مكر وغباء ، ونقد لاذع ، وقدرة على التهريج وحيلة لا تنفد ، تعينه على الخروج من المآزق ، هو فى أساسه المهرج الشعبى ، أو الاراجوز

والست فرحانة هى الخاطبة التقليدية ــ فى الجوهر ــ التى عرفتها الكوميديا الشعبية من أيام ابن دانيال

وغريب ، هو شمهورش ، الساحر ، القادر على أن يأتى بالمعجزات ويغير مصائر البشر .

والحاج حسين هو الشرير ، أو الاب ، أو العجوز ، الذى يحاول التحكم بقوته أو ماله ، أو مركزه فى مصائر الشباب ، ويربط الى هيكله المحطم زوجة شابة متفجرة بالحياة .

ومحمود أبو المال هو الشاب الطيب ، أو العاشق الذى يطمح الى أن يجمع شمله بالفتاة التى يهفو اليها قلبه .

ولو قصرنا الحديث على هذه الشخصيات الرئيسية لوجدنا ان أساس المسرحية شعبى فعلا .

غير أن نعمان عاشور لا يترك هذه الشخصيات التقليدية وشأنها ، وانما هو يتسرب الى داخلها واحدة واحدة ، فيكشف لنا عن شىء طريف حقا ، ان مأساة كل من هذه الشخصيات انها لا تلعب الدور الذى يهيؤه لها تاريخها السابق وانتماءاتها الطويلة الى الكوميديا الشعبية .

غريب الفنجرى ليس شمهورش ، بل هو احتجاج فعلى وفكرى على شمهورش ، وان كان به جزء ملحوظ من الشعوذة .

وعطوة افندى ليس اراجوزا ، وانما هو رغبة متصلة فى التخلص من الاراجوزية فى نفسه ، وفى نفوس الاخرين . انه احتجاج قائم على وجود

« الاراجوز » فى حياتنا ، كل ما هنالك انه لا قدرة له على التخلص من الاراجوزية فى نفسه وفى الغير ، ومن ثم تجمع شخصيته بين الاراجوز وبين نقيضه .

وحسين أبو المال ، ليس التاجر المستغل وحسب ، وانما فى اعماقه شيء يحتج على هذه الشخصية ، ويطالبه بالعودة الى أصوله البسيطة ، أيام أن كان تاجرا شريفا مكافحا .

وقمر التى تتحرك أحداث حياتها فى مجرى تقليدى تعرفه الكوميديا دى لارتى والكوميديا المرتجلة المصرية حق المعرفة ، اذ تجعلها تتزوج — رغما من أعمق أعماقها — من سيد موسر ، وتهيؤها بهذا لدور الزوجة الشابة الغزلة ، التى تعرفها الكوميديا الشعبية كما تهيىء زوجها للدور التقليدى : دور الزوج العجوز المخدوع — قمر هذه تحتج على هذا الدور احتجاجا واضحا ، فتتبين ان الغنى هباء ، وان العيش فى فيللا فاخرة يساوى السجن ، ولكنها لا تصبح زوجة غزلة ، ولا تبحث عن الصحاب ، وانما تجد العزاء فى الكتب والموسيقى العالمية .

شخصية واحدة فقط منهذه الشخصيات التقليدية الاساس هى شخصية الاخ المنكسر محمود ، تظل على حالها ، فلا تحتج ، وان كان مصيرها لا يظل تقليديا ، فان محمود لا يحصل على الفتاة التى يحبها كما تقضى بهذا تقاليد الادب الشعبى عامة !

أما شخصية الخاطبة فرحانة ، فان نعمان يضفى عليها حيوية كبرى ، ويمنحها دورا كبيرا فى المسرحية تتحول معه من مجرد وسيطة زواج وتاجرة ، الى محركة لاحداث المسرحية وعامل هام فى حل عقدتها . وبهذا تستدير الشخصية الى حد واضح ، ونسى —

فى قمرة الاحداث ـ انها فى أساسها هى الشخصية النمطية المعروفة فى الكوميديا الشعبية .

هذه هى المسرحية التى آذنتنا بمولد الكوميديا الجديدة ، وكانت بشيرا بسلسلة من مسرحيات مماثلة قدمها أنصار الكوميديا الانتقادية القائمة على الفكر الاشتراكى .

وكما راينا ، ادارت هذه الكوميديا الجديدة ظهرها ـ تقريبا ـ للكوميديا الشعبية القائمة على تقاليد الكوميديا دى لارتى الايطاليه وأصول الفصل المضحك المصرى ، والتى تعتمد فى جزء هام منها على فن الممثل ـ المهرج ـ القادر على الابتكار الفورى ، واعتمدت بصفة أساسية على قدرة المؤلف وفكره ونظرته الاجتماعية .

وقد كان من أثر هذا ان زاد العمق فى الكوميديا الجديدة ـ العمق الفكرى والفنى معا ، فالفكر واضح فى مسرحية « المغماطيس » والرسالة الاجتماعية لا تخطؤها عين ، بل هى فاقعة فى بعض المواضع .
والفن المسرحى ـ وخاصة فن رسم الشخصيات وادارة الحوار الذكى المشاكل للواقع ، متقدم أيضا عن نظيره فى الكوميديا الشعبية .

وهذان مكسبان لاشك فيهما ، أسهما فى رفع المسرحيات التى قدمتها هذه الكوميديا الجديدة الى مستوى الادب المسرحى ، الى جانب كونها أعمالا مسرحية قابلة للتمثيل .

غير ان ما كسبته الكوميديا الجديدة من عمق ، قد خسرته فى الانتشار ، فان هذه الكوميديا قد بالغت فى النأى عما ألفه الناس من شخصيات وحوادث وموضوعات ، واعتمدت فى نجاحها على قوة الفن والفكر

فقط ، دون الاستناد الى تراث الاجيال .

لم تفعل هذا عامدة ، وانما لان كتاب الكوميديا الجديدة ، رغم عطفهم البالغ على القضايا الاجتماعية ، بما فيها قضايا الشعب عامة ، انما هم فى جوهرهم يمثلون الطبقة الوسطى الصغيرة ، واهتماماتهم ، وموضوعاتهم ، ومواقعهم الفكرية ، وتدريبهم الفنى كله نابع من وجهة نظر الطبقة الوسطى الصغيرة .

وقد نتج عن هذا أن أصبحت الكوميديا الجديدة تعبيرا عن مثقفى الطبقة الوسطى الصغيرة ، مما يدفعنى الى تسميتها كوميديا المثقفين . وقد كان لهذهالكوميديا دوى كبير يوم مولدها ولايام طويلة بعد هذا المولد .

ولكن هذا الدوى لم يؤثر كثيرا على الكوميديا الشعبية ، وظلت هذه قوية ، قادرة على جذب أعداد كبيرة من المتفرجين ، أكبر بكثير مما جذبت كوميديا المثقفين .

ان الازمة التى تجد كوميديا المثقفين فيها نفسها الآن ، راجعة فى أساسها الى ضعف صلتها بكوميديا الشعب ، ولا أمل أمام كوميديا المثقفين فى مزيد من الحياة والانتشار ، الا اذا تعلمت من الكوميديا الشعبية كيف تضحك المتفرج حتى تتحرك أجهزته المادية جميعا الى جوار ما انجزته كوميديا المثقفين من تحريك وتنشيط لاجهزة الفكر عند عملائها المحدودى العدد .

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.



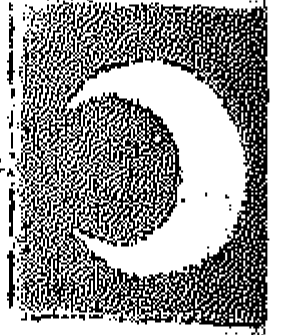
هذا الكتاب

حين ادخل شمس الدين بن دانيال المقامة الى المسرح ، وحولها من
يروى الى فن يؤدى عن طريق اشخاص كثيرين واصوات متعددة ، ولد الم
العربى الحقيقى ، وولدت معه الكوميديا العربية اولا ، ثم المصرية من بعد
وهذا الكتاب يتناول بالتحليل تراث الكوميديا العربية والمصرية من
التاريخ البعيد حتى اواسط الاربعينات من هذا القرن ، حين وضع كل
نجيب الريحانى وبديع خيرى كوميديات مصرية ممتازة ، استندا فيها ـ
وقت واحد ـ الى مسرح البولفار الباريسى ، وتراث الكوميديا الشـ
المصرية ..

وسيجد القارىء فى الكتاب تحليلا للامكانيات الدرامية للمقامة ، وع
للاصول الفنية لمسرح خيال الظل والاراجوز وفنون الشارع ، ثم دراس
لكوميديات محمد عثمان جلال الممصرة ، وكوميديات محمد تيمور الموضوع
الى جوار تحليل دقيق ـ يقدم لاول مرة ـ لكوميديات على الكسار ونج
الريحانى ..

وينتهى الكتاب بتحليل تسجيل لاول مسرحية كتبها نعمان عاشور مست
بها عهدا جديدا للكوميديات المصرية ..

١٥ قرشا



أنت.. كم تساوى

٢٤٩

دكتور عبد المحسن صالح

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL
سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة يوسف السباعى
رئيس التحرير : صالح جودت

العدد ٢٤٩ شعبان ١٣٩١ اكتوبر ١٩٧١
No. 249 — Octobre 1971
مركز الادارة
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب
تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى: (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ ـ فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات أمريكية أو ٢ جك ـ والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية ـ والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

كتاب الهلال

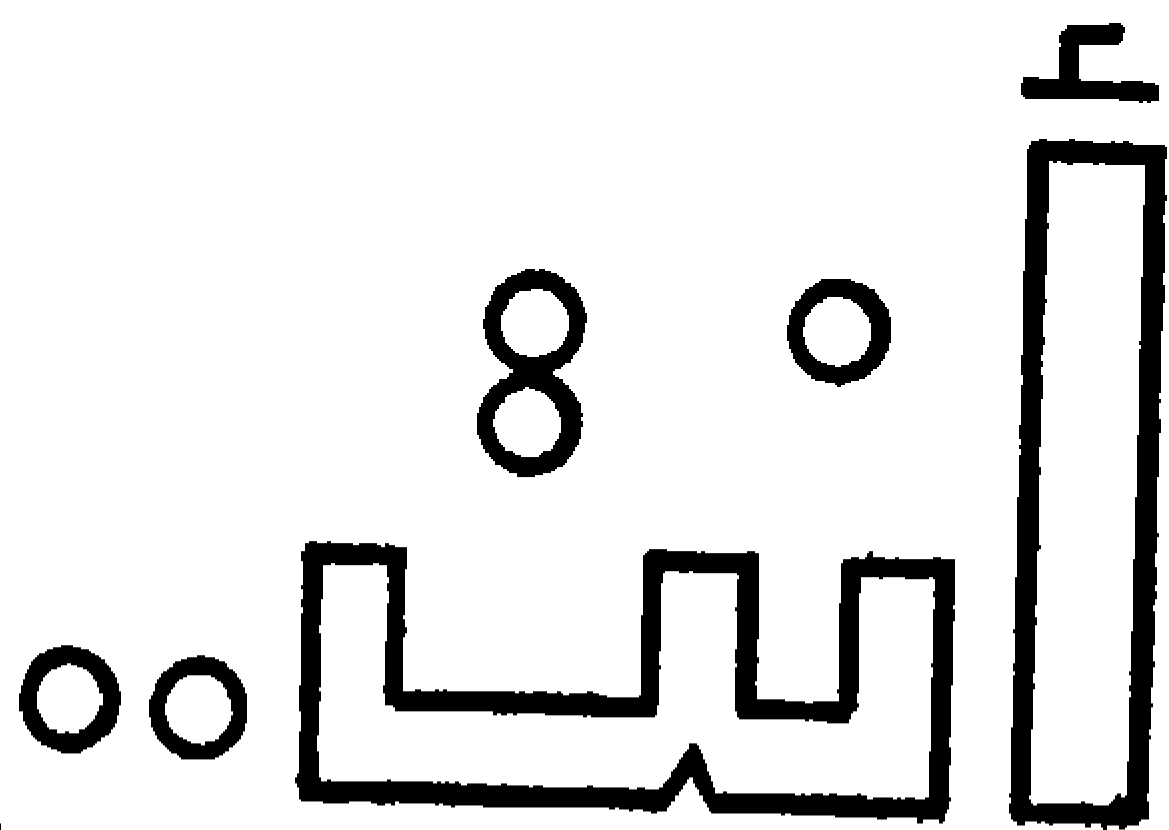




سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشـــــة
الفنـــــان جمال قطب

دكتور عبد المحسن صالح



كم تساوى ؟!

دار الهلال

تمهيد

نبدأ بالتمهيد لموضوعنا الذى نريد أن ننفــذ اليه ، فنتساءل مرة أخرى : كم تساوى أنت ؟!

وقد يبدو ـ لاول وهلة ـ أن ذلك سؤال غريب ، لان الانسان ليس سلعة تباع وتشترى .. ومع ذلك فليس هناك من مفر فى أن لكل انسان قيمة ، لان البشر لا شك مختلفون ، ولو كانوا متساوين لفسدت حياتهم .. فبماذا ـ يا ترى ـ نقيمهم ؟

هل نقيمهم بكثرة عددهم .. وأنت تعلم علم اليقين أن العبرة ليست بعدد الرؤوس ، ولكن العبرة بما تحوى الرؤوس !؟

أو .. هل نقيمك بأصلك وحسبك ونسبك .. وأنت سيد العارفين بأن أصل الفتى ما قد حصل ؟

أو ... هل نقيمك بوزنك .. ولندعك وشأنك ونوجه كلامنا « لزعيط » ، فنتساءل :

هل نقيم زعيطا بالوزن والطول والعرض ، وعندئذ قد ينطبق عليه القول : « جسم البغال واحلام العصافير » ؟!

أو .. هل نقيمه على أنه آلة حية رائعة ، تنتج طاقات تتحول الى عمل .. أى عمل ، حتى ولو كان ذلك حركة فى اللسان أو غمزة برمش العين ؟ .. وإذا كان الامر كذلك ، فهل نقدر قيمته بالكيلووات أو بالحصــان أو

بالطـــاقة الحرارية التى تنتج من الاحتراق الداخلى فى جسمه ؟

أو .. هل نقيمه بمعادلة اينشتاين صـــاحب نظرية النسبية .. وعندئذ سيكون زعيط هذا أعنف من عفاريت الملك سليمان ؟!

أو .. هل نقيمه بالعناصر التى يحتويها جسمه .. وعندئذ لن يساوى ثمن وجبة دسمة من طعام معها شىء من شراب ؟ .. الخ

والواقع أن لكل شىء هنا قيمة ، ولكن ليس مهما أن تكون مالا ، فهناك أشياء لن تقيم بمال ، كحياتك وعقلك .. وقد تهون الحياة ، ويهون العقل ، الا أن الفرق كبير جداً بين أن تهون الحياة وأن يهون العقل .. فقد تهون الحياة للدفاع عن مبدأ أو عقيدة أو وطن أو شرف .. الخ، وهذا رائع وجميل ، لان الانسان هو المخلوق الوحيد على هذا الكوكب الذى يعى هذه المعانى .. علما بأن الحيوان ايضا يعرف الى حد ما معنى الدفاع عن الوطن ..

ولكن .. لا يجب أن يهون العقل ، لانه اغلى واعظم منحة منحها الانسان .. لماذا هان العقل ، فما معنى الحياة اذن ؟

انكم لو تأملتم وتمعنتم فى القوانين التى تسير عليها حياة المخلوقات ، سواء كان ذلك فى عالم الانسان أو الحيـــوان أو الطير أو النبـــات أو الحشرات أو حتى الميكروبات ، لتوصلتم الى نتيجة واحدة : ذلك أن كل مخلوق قد جاء على هذا الكوكب بسلاحه الذى يستطيع أن يشق به فى الحياة طريقه ، فاذا تهاون ، قضى على نفسه وعلى نوعه ، واذا صمد ، سار مع الطوفان الحى المتصارع بكل أبعاده ومعانيه .

ولقد خلق الله البشر ، ووضع لهم سلاحهم ـ أعظم سلاح ـ فى عقولهم ، فان استخدموها استخداما صحيحا سادوا وملكوا وصمدوا ، وان طمسوها ، فالى الجحيم !

.. أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم !

الواقع أن هناك صنفين من الناس .. صنف يقول فيه الشاعر « الابله » :

دع المقادير تجرى فى أعنتها ولا تبيتن الا خالى البال

وهؤلاء هم المتواكلون الذين يسعون الى فناء أنفسهم ـ فتراهم يعيدون كل أمر من أمـــورهم ، وكل كارثة أو مكروه يحل بهم الى خالقهم ، والله لن ينظر الى هؤلاء .. اذ أين العقل وأين البصيرة ؟ .. « وكان الانسان على نفسه بصيرا »

وصنف آخر يقول فيه الشاعر الواعى :

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم لم يبن ملك على جهل واقلال

وهؤلاء هم الواعون ، ولابد أن تقف السماء بجوارهم ، لانهم يستخدمون عقولهم ، وبالعقل يسودون .. ذلك أن العقل يقود الى العلم ، و « فضل العلم خير من فضـــل العبادة » (*) .. والعلم يقود الى القوة ، والقوة هى سنة السماء مع كل مخلوقاتها ، لانها تريد أن تنتقى الصالح ، وتقضى على الطالح .. أو إن شئت الدقة ، فان الفساد يقضى على المتسببين فيه ، ولو طال الزمان .

ان الصراع سنة من سنن الحياة « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفســـدت الارض » .. « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » .. « المؤمن القوى خير عند الله من المؤمن الضعيف » (*) . الخ

اعود لاقول : ان الانسان هو المخلوق الوحيد على هذا

(*) حديث شريف

الكوكب الذى منح نعمة العقل ، وبقدر ما يفكر الانسان وينتج انتاجا سليما ، بقدر ما يقيم .. وما دام للانسان عقل ، فله ارادة ، وما دامت له ارادة ، فلابد ان تكون له حرية ، ومن لا يمارس حرية التفكير والتعبير فهو أقرب الى الحيوان منه الى الانسان ، وعندئذ يساق كما تساق القطعان !

والانسان لا يمكن ان يقيم بالوزن ، لانه ليس سلعة تباع وتشترى ، ولو كان ذلك معيارا لتقدير الانسان ، لكنت أول من يزف البشرى الى الخلق .. فلدينا ثروة قومية ضخمة من الدهون مكدسة فى أرداف كثير من النساء ، وكروش كثير من الرجال .. ومع ذلك لا يمكن الاستفادة بها ، حتى ولو فى صناعة الصابون .. فمصيرها المحتوم تراب .. ولا يمكن أن نقيم التراب .. كما لا يمكن أن نقيم الانسان بوزنه .. وعليك أن تقيم عقله !

والانسان لا يمكن أن يقيم هنا بما حوى من عناصر ، حتى ولو كانت كل عناصره من ذهب وماس وفضة .. ذلك ان الانسان أغلى من الماس والذهب والفضة .. على الاقل عند خالقه .. فهو محصلة تجربة كونية عظيمة استغرقت من عمر الزمان ثلاثة الاف مليون عام .. فيها بدأت الحياة بسيطة ، ثم أخذت تشق طريقها وتتطور فى ملايين الانواع من المخلوقات ، حتى توجها الخالق فى النهاية بالانسان العظيم الذى يستخدم عقله ، لكى يسخر قوى الطبيعة لارادته ، فتراه فى أعماق البحار سابحا بغواصاته ، وفى الهواء محلقا بطائراته ، وفى الفضاء منطلقا بصواريخه ، كأنما يريد أن ينفذ الى أقطار السماوات .. ثم تراه يسخر الذرة لخدمته ، وينشىء شبكات رائعة من أجهزة جبارة يربط بها بين أقطار أرضه

.. فاذا بها كلها كانما هى بين يديه .. وأمام عينيه .
ذلك هو المخلوق العظيم الذى لا يمكن أن نقيمه بالوزن كما نقيم العجل أو البهيم ، رغم أن أسس الحياة واحدة بين عجل وبهيم وانسان وخنزير .. مع فرق جوهرى ، هو العقل .. اذ لو امتلكت البهائم عقولا كعقولنا ، لكانت مصيبتنا معها ثقيلة ، ولكن حمدا لله ، فنحن نستطيع أن نسيطر عليها ، ونسخرها لخدمتنا ، ونأخذ خيراتها ، ونسوقها الى المذابح دون أن تستطيع أن تحتج أو تثور على الاوضاع !

لن نقيم الانسان هنا كما قيمه ذلك الساذج الذى قال : ان الانسان الذى يزن من ٦٠ الى ٦٥ كيلو جراما يحتوى على العناصر الاتية : ماء يملأ برميلا صغيراً سعته ٤٥ لترا ، ودهون لعمل ٧ قوالب صابون أو أكثر بكثير فى حالة أصحاب الدهون المكتنزة دون فائدة ، وكربون بما يكفى لصناعة تسعة الاف قلم رصاص ، وفوسفور لصناعة ٢٢٠٠ رأس عود كبريت ، وماغنسيوم لتجهيز شربة ملح « فوارة أو غير فوارة كما تحب » ، وحديد لصناعة مسمار متوسط الحجم ، وجير لتبييض حظيرة دجاج صغيرة ، وبوتاسيوم لصناعة قذيفة من قذائف الاطفال ، وكبريت لتخليص كلب من البراغيث « حجم الكلب متروك لتقديرك » ! .. وأن كل هذا لا يساوى عدة شلنات بحسب الاسعار الجبرية !!

ومن المؤكد أن ذلك تقدير ساذج للامور .. ولا يمكن أن نقيم الانسان بما يحوى من عناصر هى حولنا رخيصة رخص التراب .. ولكن ما أروع أن تتشكل عناصر التراب ليخرج منها ذلك المخلوق الذى تتوج هامته كتلة رجراجة من الخلايا تستطيع أن تمسكها بين يديك ـ تلك

هى مخ الانسان ·· أكثر الاعضاء فيه اثارة للعقول !

ان تلك الكتلة الحية الغريبة لن تثير فيك عجبا اذا ما وضعتها بين يديك ·· ولكنها فى رأس صاحبها معجزة من المعجزات ·· وكأنما هى شريط مسجل ، أو مكتبة عظيمة متنقلة ، يحتفظ فيها بكل المعلومات ، وتسجل له كل الأحداث ، ويستخرج منها ما يشاء من الصور والبيانات ، ويخزن فيها كل الذكريات ·· وبها يحسب ويقدر ويستقبل ويرسل ويعى كل ما حوله من أمور ·· أو قد لا يعى ، فذلك متروك لشخصه ·· ومن هنا نستطيع أن نفرق بين انسان وانسان ·

ومع ذلك ·· فهل نستطيع أن نقيم هذا المخ الحى بقيم مادية ؟ ·· هل بمقدورنا أن نحاكيه بعقول اليكترونية كالتى تسمعون عنها ؟! ·· واذا كان ذلك ممكنا ، فكم تبلغ التكاليف ؟

ان الانسان مهما أوتى من امكانيات عقلية ومادية وعلمية ، لن يستطيع أن يخلق خلية واحدة فى رأس انسان أو بهيم أو حتى خلية ميكروبية ·· فما بالك بعشرة الاف مليون خلية يحتويها مخ الانسان ؟

ولكن لنفرض هنا أننا حاولنا أن نقلد عمل خلية واحدة فى مخ انسان ، فما هى أقرب فكرة لذلك ؟

ليس هناك أبسط من صمام كهربى كالذى نضعه فى جهاز الراديو أو التليفزيون أو فى عقل اليكترونى ··· ولكن علينا ان نتصور ان الصمام يستطيع أن يولد شحنة ويختزنها ويطلقها ثم يعاود شحن نفسه من جديد كما تفعل الخلايا العصبية ·· ثم لو كدسنا كل هذه التصميمات فى صمامنا ، وجعلناه فى حجم عقلة الاصبع ــ وعليك أن تختار العقلة التى تعجبك ــ فان صمامنا هذا

سوف يكون معجزة من معجزات الصناعة الدقيقة والعلم الحديث .

ثم لو تصورنا اننا ربطنا كل هذه الصمامات مع بعضها كما تترابط الخلايا العصبية ، فان ذلك يحتاج الى مساحة من الارض تبلغ مئات الافدنة وبارتفاع عشرة اقدام لكى يتكدس فيها عشرة آلاف مليون صمام مترابطة بسلوك يبلغ طولها عدة ملايين من الكيلومترات !

وماذا عن التكاليف ؟

لو فرضنا اننا صنعنا كل صمام بجنيه واحد ، فان التكلفة تصل الى عشرة الاف مليون جنيه .. أما عن التوصيلات التى تترابط بها ، والتى يبلغ عددها ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ توصيلة « مائة بليون بليون » .. فان تكاليفها تصل الى بليون بليون جنيه ، بواقع قرش صاغ واحد لكل توصيلة !!

وماذا عن الطاقة الكهربية اللازمة لتشغيله ؟

يلزم ذلك طاقة تصل الى مليون كيلووات على أقل تقدير علما بأن العقل البشرى يشتغل بطاقة لاتزيد من ٢٥ «وات»

ورغم أن تكلفة عقل صناعى واحد تفوق كل ميزانيات العالم مجتمعة بأضعاف مضاعفة ، الا أنه لن يستطيع أن يقوم بما يقوم به المخ البشرى ، ولو كان هذا المخ ، فى انسان جاهل او معتوه .. فى حين أن مخ زعيط « أو بهانة أو كل الخلائق » لا يتكلف الا قضاء وقت سعيد بين والديه - لا يستغرق دقائق معدودات وبأقل التكاليف ، فاذا به يولد ويخرج الى الحياة .. وقد يذهب الى المدرسة والجامعة ويحصل على أرقى الشهادات .. وكل هذا لا يكلف فى المتوسط الا الفين من الجنيهات ، تزيد للاغنياء وتنقص للفقراء .. علما بأن المبلغ يتضمن مصاريف

وما أرخص الاسعار .. وما أكثر الرؤوس .. وما أندر الزواج والحمل والولادة والاكل والتعليم .. الخ .
العقول التى أثرت فى حياة الناس ، فأضاءت لهم الطريق وحملت لهم الرسالات ، وفتحت لهم معـــاليق الاسرار . واسعدتهم بعد شقاء ، وأنقذتهم بعد ضلال ، وأخـــذت بأيديهم لترشدهم الى حياة أيسر واجمل وأروع .. فاذا بالضنك - أيا كان نوعه - يتحول الى فرج .

ومن هنا يجب ان نقيم العقول التى تؤثر فيمن حولها لتدفعهم الى التقدم والتطور والايمان بحياة كريمة ترفرف عليها الطمانينة والسعادة والعدل والرفاهية .. وما أندر هذه العقول ، لو كنتم تعلمون .

اننا اذن لن نقيمك بحسبك ونسبك ، أو بما تلبس أو تركب .. أو برصيدك أيا كان نوعه .. فالقيمة الحقيقية تتركز فى هذه الكتلة الحية من الخلايا التى تسكن فى رؤوس الناس ، ثم تؤثر فى الناس !

بهذا ينتهى تمهيدنا لموضوع « كم تساوى أنت ؟! » .. وبعدها يأتى دور تقييم الانسان من زوايا مختلفة .

والواقع أن موضوع هذا الكتاب سوف يتناول جوانب علمية عديدة ولكل جانب منها أسس لابد أن نتعرض لها ، حتى نستطيع أن نقيم الانسان على أساسها .

فلو نظرنا مثلا الى الانسان على أنه مادة يمكن الاستفادة بها ، فسوف نعرج على الاصول العلمية الكامنة وراء هذا التقييم بشىء من التفصيل ، لكى نتوصل الى السر الكامن فى طبائع الاشياء .. وعلى هذه الوتيرة ستكون فصول الكتاب الاخرى ، سواء كان ذلك فى طاقته أو تطـــوره أو صراعه مع عوامل الطبيعة من حوله .. الخ .

وفقك الله فيما تقرأ ، ووفقنا فيما نكتب .

سبتمبر ١٩٧١ **دكتور عبد المحسن صالح**

الفصل الاول

أنت طاقة

تساوي الكثير!

كم وزنك بالضبط ؟ .. وارجو الا تبخس وزنك ولو بمقدار جرام واحد ، لان هذا ـ كما سترى ـ يساوى ملايين الجنيهات !

وهذا فى الواقع سؤال غريب نبدأ به موضوعنا .. وحتى لا نحرجك ، سوف ندعك وشأنك ، ونتخذ زعيطا أو بهانة ليكون أى منهما مادة لحديثنا .

ولنطرح السؤال مرة أخـــرى ، كم وزن زعيط أو بهانة ؟

ليكن مائة كيلو جرام .

وهذا حسن .. فلابد انهما يأكلان كثيرا ، ويختزنان رصيدا من اللحم والشحم ، ويظنان ان ذلك مدعاة للفخر، ودليلى على كثرة النعم ووفرة الخير . ومع ذلك فدعنا نبيعهما بالكيلو جرام أو بالكيلووات أو بالسعر الحرارى « الكالورى » !

هل هذا كلام عقلاء ؟ .. أزعيط بهيم حتى نبيعـــه بالكيلوجرام ؟ .. هل بهانة مولد كهربائى حتى نستغلها فى اضاءة بيوتنا أو تشغيل مروحتنا وثلاجتنا ؟ .. هل هى نار ملتهبة . أو هل هو وقود مشتعل حتى نستفيد منها ومنه بطاقة حرارية ؟

ان الكيلو جرام الواحد من زعيط يساوى مبلغا لو أنكم

رايتموه فى أحلامكم لما صدقتم أحلامكم ، ولا يهم ان كان الكيلوجرام من دهونه، أو عظامه ، او امعائه ، أو حتى من فضلاته وبوله !

وقبل ان نبيع زعيطا بالكيلوجرام ، سنسألك ، بكم تبيع لك مؤسسة الغاز والكهرباء الكيلووات ؟ .. لنقل هنا انها تبيعه بسعر مخفض ·· وليكن عشرة مليمات·· ستقولون فى صوت واحد : لعل الله يسمع منك ، ويحقق احلامك ··

ثم تستطردون فتقولون : ولكنها تبيعه بأكثر من ذلك .. ضعفين أو ثلاثة أضعاف

ليس ذلك مهما ·· فربما تستفيد المؤسسة بزعيط أو حتى بالكرسى الذى يجلس عليه زعيط ·· لتبيع لك الكيلووات بمليم لا غير !

ان هذه – فى الواقع – ليست ألغازا ·· ذلك أن الكيلوجرام من اى جزء من جسم زعيط يساوى ٢٥مليون جنيه لا غير .. هذا اذا بعناه على هيئة كهرباء .. اى بالكيلووات ذى السعر المخفض .

وقد يكون زعيط هذا تافها تفاهة الكرسى ، أو الحمار الذى يمتطيه ، ومع ذلك فهو بمعايير أخرى يساوى هذا المبلغ وزيادة ·· أعنى ١٠٠ كيلو جــــرام «وزنه» × ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٥٠ جنيه للكيلوجرام = ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٢٥ جنيه ·· أى ٢٥ ألف مليون جنيه ، وهى ميزانية دولة متوسطة فى سنة كاملة !

أو دعنا نضع ذلك بصورة أخرى فنقول : أن الكيلوجرام من كبد زعيط أو امعائه ، أو كما تحب ، يستطيع أن يمنحك طاقة كهربية تنير بها عشرة مصابيح قوة كل منها ١٠٠ وات لمدة ٠٠٠ر٨٥٠ر٢ عام « أى حوالى ثلاثة ملايين

عام » .. أطال الله فى عمرك وعمر مصابيحك ! .

إن قصة زعيط ليست اسطورة ، كما انه ليس عفريتا من عفاريت الملك سليمان .. ولكن العالم ألبرت اينشتاين صاحب نظرية النسبية الشهيرة قد تنبأ بذلك لزعيط وبهانة والخنزير والحجر والصخر والقنبلة الذرية ، وكل مادة على كوكبك .. ان معادلته الخاصة بالمادة والطاقة تشير الى ذلك .. ولكى نستفيد بزعيط كطاقة ، كان لابد أن يختفى كمادة !

وهنا قد يقفز فصيح (*) « ذو فتاكة » فيقول : ولكن هناك من يموتون ويختفون كمادة ، فلماذا لا تظهر هذه الطاقة عند اختفائهم ككائنات حية ؟ أى عندما يتحلل الواحد منهم فلا يترك لنا الا عظامه ، ثم قد تتحلل عظامه .. حتى ولو طال الزمان ؟

ومن قال لك يا فصيح أن مادته قد اختفت بموته ؟ .. الواقع أن كل الخلائق التى تختفى من مسرح الحياة لا تختفى كمادة .. ولكنها تختفى كنظام حى مادى متفاعل يولد طاقات حيوية تدفع المخلوق لكى يؤدى فى الحياة رسالته .. وعندما يختل النظام لاى سبب من الاسباب، ينتهى المخلوق ككيان حى متفاعل ، ويعبر عن ذلك بالموت .. وعندئذ يعود كل شىء فيه الى أصله .. الى غازات وأبخرة وعناصر وجزيئات وتراب .. وأصل كل هذا ذرات .. والذرات تبنى كل مادة حية أو ميتة ، عضوية أو غير عضوية .. وهى - أى الذرات - لا تختفى ، وان كان اختفاؤها من جسم الكائن الحى بعد موته اختفاء ظاهريا فقط .. ولكنها لاتزال موجودة برمتها كذرات وجزيئات

(*) الفصيح شخصية غريبة ظهرت فى مجتمعنا الحديث وهى تحب الجدل على غير علم .. ولهذا فسوف نتخذه مادة فى حديثنا مع زعيط

على هذا الكوكب ، وقد تدخل في تكوين مخلوقات أخرى، أي عندما يمتصها النبات ويكون بها حبـــوبا وثمرات ، فيأكل منها الاكلون ، ثم يدبون عليها الى حين ، ولكن لابد أن يعودوا الى عناصر وتراب وطين ، ليظهر على أنقاضهم أجيال وأجيال ·· « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى » ·· اذن فهى دورة من وراء دورة من وراء دورة ·· كرروا ذلك ملايين المرات (*)

وما دام زعيط هذا سيقف لنا كغصة في الحلق ، ومن ورائه فصيح يتساءل ، فعلينا ان نستبدل بزعيط حجرا ·· فان قيمة الحجر من قيمة زعيط بالنسبة لموضوعنا الذى نتعرض له هنا ·· أضيفوا الى ذلك أن الحجر ليس معقدا كالفصيح وأمثال الفصيح ·

علينا اذن بحجر ، وعلينا أن « نقتل » هذا الحجر ، لتخرج « روحه » ، وبهذا يختفى الحجر تماما كمادة من مسرح الطريق ، كما يختفى زعيط ظاهريا من مسرح الحياة !

وهنا يقفز الفصيح مرة أخرى ويعترض على ذلك قائلا :

ان هذا الكلام « فارغ » .. لقد عشنا وسمعنا ان حجرا يموت فتخرج روحه ·· هل يمكن أن تكون للحجر روح ؟!

ولا تبتئس يا فصيح ·· فلنقل ان فى الحجر طاقة بدلا من روح .. ومع ذلك فأنت لا تستطيع ان تمسك بالطاقة كما لا تستطيع أن تمسك بالروح ·· ولـــكن بمقدورك طبعا أن تمسك بالحجر ، وقد تقذف به زعيطا ·

ولكى نريحك نقول : ان الحجر من ذرات ، كما أن زعيطا من ذرات ·

(*) انظر دورات الحياة للمؤلف ضمن سلسلة المكتبة الثقـــافية رقم ٧٦ ·· دار الكاتب العربى ـ القاهرة

وقد تموت الذرات ، وتنطلق « روحها » ·· أو طاقتها كما يموت زعيط ، وتنطلـــق روحه ·· الا أننـــا لن نتعرض هنا لروح زعيط أو الصعلوك أو السلطان ،فذلك خارج عن موضوعنا ، ولكن الذى يهمنا هنا هو حيـــاة الذرة ، ثم موتها ، ثم طاقتها التى تنطلق منها بعد أن يتهدم تماما كيانها ·

اذن ·· فالذرة كيان منظم ·· وقد يتهدم نظامها ، وقد تختفى كمادة ، وتظهر على أنقاضها طاقة ·· كما أن زعيطا كيان منظم ، وقد يتهدم كيانه ، فيتحلل ، وتظهر على انقاضه الذرات بدلا من الطاقات. ولا شأن لنا هنابروحه!

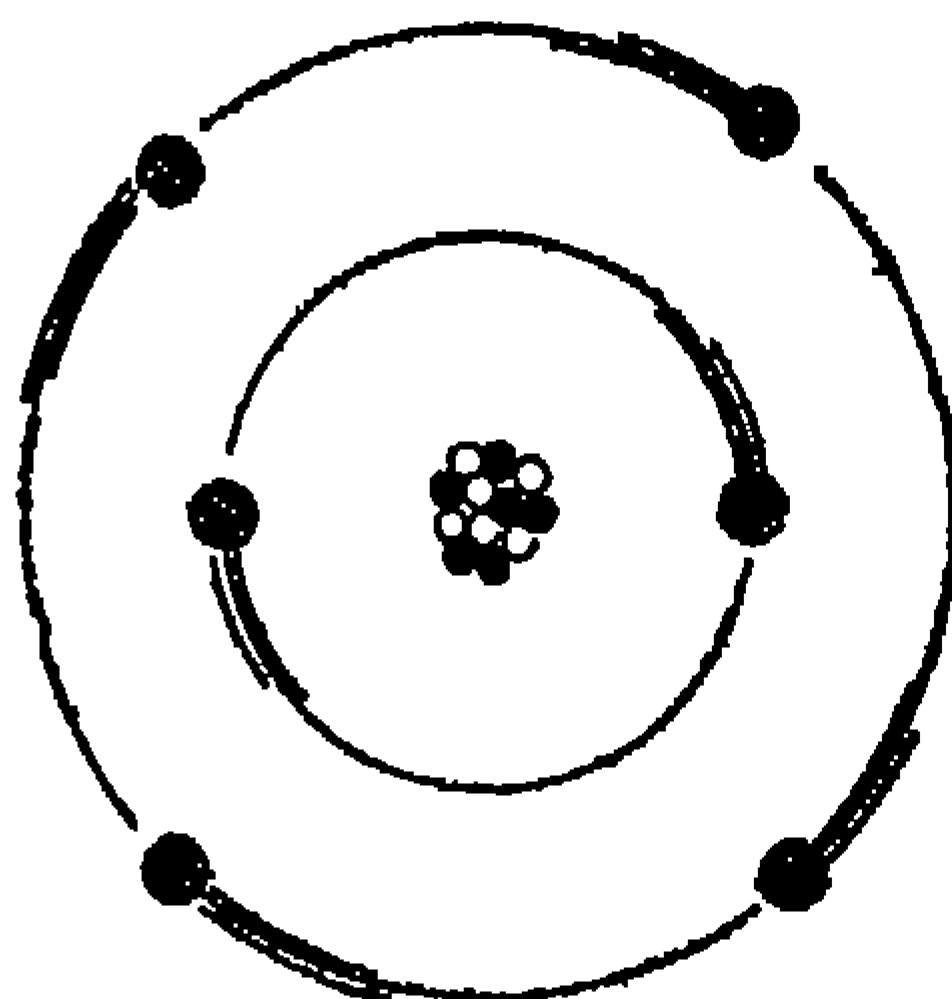
ان الاساس واحد .. وان اختلفت الصور .

وقبل أن نتعرض لموت الذرة ، كان لابد ان نعرف هنا ببساطة شيئا عن كيانها أو بنائها وتركيبها ·· فنقول : ان الذرة هى « الحجر الاساسى » فى بناء هذه الاكوان ·· وعدد انواعها على أرضنا أو فى الكون يصل الى ٩٢ نوعا أو عنصرا ·· فى جسم الانسان حوالى ٢٥ عنصرا ·· وهى تترابط مع بعضها لتكون جزيئات ·· والجزيئات تتحد لتكون جزيئات أكبر وأكبر ·· وبالجزيئات تبنى الخلايا ، ثم الانسجة ، ثم الاعضاء ، ثم المخلوق الذى قد يعجبك وقد لا يعجبك ·

وللذرة نواة تدور حولها اليكترونات ، كمـــا تدور الكواكب حول الشمس « والتشبيه هنا نسبى » ، وفى نواة الذرة أو قلبها يسكن نوعان من الجسيمات : أحدهما نطلق عليه اسم البروتون وهو محمـــل بشحنة كهربية موجبة ، والثانى أسمه النيوترون أو المتعادل ·· أى الذى لا يحمل شحنة ·· ولكى تصبح الذرة كيانا كهربيا متعادلا كان لابد أن تتساوى عدد البروتونات فى النواة ، مع عدد

الاليكترونات التى تطوف حـــولها •• فذرة الايدروجين تحتوى فى نواتها على بروتون « يتيم » يدور حـــوله اليكترون « يتيم » كذلك •• والاول موجب ، والثـــانى سالب •• ولهذا يعادل الموجب السالب ، وتصبح ذرة غير مكهربة •• رغم أنها قد شيدت من جسيمات مكهربة

ويأتى عنصر الهيليوم •• به بروتونان يدور حولهمـــا اليكترونان •• ثم عنصر الليثيوم ببروتونات ثـــلاثة واليكترونات ثلاثة •• وما عليك بعد ذلك الا أن تضيف فى النواة بروتونا ، فيظهر العنصر الذى بعده وبعده •• حتى نصل الى اليورانيوم ورقمه ٩٢ ، لان فى نواته ٩٢ بروتونا يدور حولها ٩٢ اليكترونا •• فيكون التعادل الكهربى « ولا شأن لنا بالنيوترونات لانها أصلا متعادلة » « شكل ١ » •



(شـــكل ١) نموذج مبســـط لذرة الكربون .. فى وســطها نواة بهـــا ٦ بروتونات (اســـود) + ٦ نيوترونات (ابيـــض) ويدور حولها ســـتة اليكترونات فى مدارين مختلفين • •

وليس حجرنا فى الواقع الا جزيئات متماسكة من كربونات الكالسيوم ٠٠ وكل جزىء يتكون من ذرة كالسيوم مترابطة مع ذرة كربون مترابطة مع ثلاث ذرات أوكسيجين ، ولا يهم بعد ذلك ان كانت المادة التى سنتناولها فى موضوعنا حجرا أو طينا أو لحما أو فحما ، فكلها من ذرات ٠٠ ويتبع ذلك أن الطاقة التى تتكدس فى جرام من فحم كالطاقة التى تتكدس فى جرام من حجر أو حتى من بول زعيط ٠

ولكى نوضح معنى هذا ، كان لابد أن نعود الى معادلة ألبرت أينشتاين ٠

كان اينشتاين من علماء الطبيعة والرياضة المرموقين ٠٠ وعلم الرياضيات لغة عقلية خاصة يتخاطب بها العلماء فيما بينهم ، ولا يفهمها الا كل من تعمق فى دراستها ٠٠ والواقع أنها علم أساسه رموز ومعادلات لو رأيتها لحسبتها حروفا هيروغلوفية لا معنى لها ولا طعم ، ومع ذلك فقد قادتنا الى اكتشاف كثير من اسرار الكون ، وكأنما قد أصبح شعار علماء الرياضة فيها « الله خلق كل شىء متكاملا ٠٠ وعلينا الباقى » ! ٠٠ أى عليهم أن يتفهموا أسراره فى خلقه ، ونظامه فى كونه بلغة المعادلات والتقديرات والحسابات التى فتحت لنا مغاليق الاسرار الكامنة فى طبائع الاشياء ٠

ومن هذه المعادلات معادلة اينشتاين التى لا تخرج عن حروف ثلاثة نكتبها هكذا : ط = ك × س٢ ٠٠ أى الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء ٠

ولكى تحل رموز المعادلات ، كان لابد أن تضع بدلا منها وحدات خاصة متفق عليها بين العلماء ٠٠ ولهذا فان وحدة الكتلة هنا يضعونها بالجرام ، ووحدة سرعة الضوء

بالسنتيمتر فى الثانية الواحدة .

ومعنى هذه المعادلة أن الطاقة الكامنة فى جرام واحد من المادة تساوى هذا الجرام مضروبا فى سرعة الضوء بالسنتيمتر فى الثانية مضروبا مرة أخرى فى نفس العدد .. هذا وسرعة الضوء فى الثانية الواحدة تساوى ثلاثين الف مليون سنتيمتر

اذن فالطاقة = ١ × (٣٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠) ٢

= ٩٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ ارج

والارج بدوره هو وحدة الطاقة التى يتخذها العلماء مقياسا فى تقديراتهم .. كالمتر والكيلو جرام والكيلووات .. التى نستخدمها نحن فى حياتنا .

معنى هذا ان جراما واحدا من أى مادة لو تحول الى طاقة لحصلنا منه على ٩٠٠ بليون بليون ارج ، أو ما يعادل ٢٥ مليون كيلووات ساعة .. وقدر بعد ذلك قيمتها بالجنيهات اذا أردت .

وعلى نفس المنوال نستطيع أن نقول ان المادة الموجودة فى تذكرة السكة الحديد ـ ولا يهم ثمن التذكرة هنا ـ تحتوى على طاقة لو أنها تحررت وأمكن السيطرة عليها لكانت كفيلة بتسيير قطار حول العالم عدة مرات .. وعليك أن تضيف ما تشاء من عربات وتكدس فيها ما تشاء من بشر وحيوانات !

ومعنى هذا أيضا أننا لو أخذنا كيلوجراما من أى مادة وحولناه الى طاقة كهربية أو ميكانيكية أو حرارية ، فانها تكفى :

ـ لاعطائك ٢٥ الف مليون كيلووات ساعة .. أى قدر ما ينتجه السد العالى فى سنتين ونصف وبكامل طاقته ، المعروف أن كل توربينات السد العالى لو دارت لانتجت

سنويا عشرة الاف مليون كيلووات ساعة » !
– لتحصل منها على ما قيمته ٣٥ الف مليون قوة حصان ساعة !
– لتشغيل مكواة كهربية باســـــتمرار لمدة مليونين ونصف مليون عام •
– لتشغيل جهاز تهوية لـمدة مليون وربع مليون عام بصفة مستمرة !
– لاشعال فرن منزلى باستمرار لمدة مائة ألف عام !
– لتسيير سيارة حول العالم ٤٠٠ ألف مرة تكون قد قطعت فيها مسافة تقدر بحوالى ١٦ الف مليون كيلومتر « أى ما بين الارض والشمس حوالى ١٠٨ مرة ! »
– لدفع أضخم حاملة بترول لتدور حول العالم الف مرة !
– لتعطى حرارة تساوى ما ينتج من حرق مليونى طن من الجازولين !

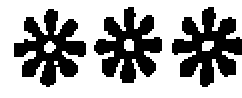
– لتحصل منها على طاقة مدمرة كالتى تنتج من تفجير ٢٢ مليون طن من مادة ت.ن.ت شديدة الانفجار ! «أى أكبر من قوة القنبلة التى ألقيت على هيروشيما بحوالى ١١٠٠ مرة »

– لو أنها تحولت الى طاقة حرارية وكيميائية من ذلك النوع الذى تحرره أجسامنا من حرق الطعـــام ، لكانت كفيلة بتغذية كل سكان العالم البالغ عـــــددهم ٣٤٠٠ مليون نسمة لمدة ٢٤ ساعة (وسوف نعود لنتعرض لمعنى ذلك فيما بعد) •

ومع أن هذه الارقام تبدو خيالية ، ومع أنها غريبـــة على عقولنا ، الا انها تقوّدنا الى معرفة سر غال من أسرار هذا الكون ، وما تحويه مادته من طاقات ، لو أنها تحررت

لكانت أعنف وأنفع من عفاريت الملك سليمان !!

ومن هذا يتبين لك أن الحجر الذى تركله بقـــدمك فى قارعة الطريق ثروة ضخمة تســاوى كنزا كبيرا من ذهب .. ولكن ليس معنى هذا يافصيح أن تجمـــــع الاحجار وتخزنها ظنا منك أن هذا قد يدر عليك فى المســـتقبل أموال قارون .. بل عليـك أن تنتظـــر حتى ننتهي من موضوعنا ، ولك أن تجمع بعد ذلك ما تشاء من أحجار ورمل وطين !



عندما نشر أينشتاين نظريته فى مجلة علمية أحدثت دويا هائلا ، وأبى العلماء والاصدقاء أن يصدقوا مضمونها، أو أن تتقبل عقولهم غرابتها .. ولقد حدثت مناقشـــه بينه وبين جمع من المتهكمين ، فيـوجه فصـــيح منهم الى أينشتاين سؤالا :

أنت تزعم بنظريتك هــــذه أن قطعة صغيرة من فحم تحتوى على قوة أحصنة أكبر من قوة الاحصنة الموجودة فى سلاح الفرسان بالجيش البروسى (الالمانى) .. واذا كان هذا صحيحا ، فلماذا لم نلحظ ذلك من قبل ؟!

عندئذ يرد أينشتاين : لو كان لشخص ثروة ضـــخمة مدفونة ، ومع ذلك لم نره يصرف بنسا ولا يتصدق ببنس .. عندئذ لن يستطيع أحد ان يقدر ثروته ، أو حتى لن يعرف أنه يمتلك ثروة على الاطلاق .. وذلك هو نفس الشىء مع المادة ـ فهى اذ لا تظهر لنا طاقتها الخافية : فاننا لا نستطيع أن نلحظها .

ثم يسألونه : وماذا تقترح اذن لكى نطلق هذه الطاقة الخفية ؟

يرد اينشتاين : لا يوجد عندى أى فكرة أو دليل على

انه يمكن أن تنطلق هذه الطاقة أو تظهر يوما ، لان انطلاقها يعنى تحطيم الذرة (*)

ونحن نستطيع أن نشهد انطلاق هذه الطاقة عندما نسيطر عليها الطبيعة (يقصد ما يحدث فى الشمس والنجوم أو فى المواد الطبيعية المشعة) .

ثم يسألونه : هل خرجت بنظريتك هذه الخاصة بالمادة والطاقة من تجارب معملية قمت بها من قبل ؟!

عندئذ دهش الاصدقاء وأستاء العلماء عندما أجاب : اننى لم أدخل معملا ولم أقم باجراء تجربة منذ سنوات طويلة (لقد كان عمره وقتذاك ٢٦ عاما وفى هذه السن قام بنشر نظريته عام ١٩٠٥) .. ثم يستطرد قائلا : ليست التجربة هنا ضرورية .. ان علم الطبيعة النظرية ليس الا طريقة منطقية لنظام فكرى فى حالة من التطور .. والاسس التى تقود الى هذا ، لا نحصل عليها من تجربة أو من خبرة . بل آن ارتقاءها أو تقدمها يعتمد على الابتكار العقلى مع خيال مبدع ، ومع ذلك فانه لا يساورنى أدنى شك فى أننى على حق !!

وتناسى الناس كل شيء عن معادلة أينشتاين التى لاتتمشى مع المنطق ولا المعقول .. ومع ذلك ، فلا يجب أن نخضع أمور الكون لعقولنا وحواسنا .

وتمر السنوات بطيئة متثاقلة ، ولا أحد يستطيع أن يدلل على صدق نظريته ، ثم بدأت البشائر تظهر ، ولكنها بشائر لا زالت على الورق ، كما لا زالت نظرية أينشتاين على الورق كذلك .

(*) والواقع انه كان مخطئا فى ذلك .. فلقد أمكن السيطرة على القوى النووية ، وقادت نظريته العلماء الاخرين بعد أربعين عاما لانتاج القنبلة الذرية .

وكان أهم هذه البشائر على الاطلاق ما خرج به العالم الانجليزى ديراك فى عام ١٩٢٩ من أنباء غريبة جعلت العلماء يهزون رؤوسهم استخفافا بما خرج به الانجليزى نتيجة لمعادلات رياضية خطها بحبر على ورق ‥ ولقد أراد صاحبنا هذا أن يوفق بين نظرية أينشتاين الخاصة بالمادة والطاقة وبين نظرية الكم لماكس بلانك ، وعندما زوج هذه النظرية لتلك ، خرج منهما مولود غريب على عقولنا أو حتى خيالنا ـ ذلك أن الوليد كان معادلة تنبأت بوجود شيء اسمه طاقة سالبة تجرى بها الجسيمات الذرية ‥ ونحن فى الواقع لا نستطيع أن نفهم معنى طاقة سالبة الا اذا تصورنا أننا نركل الحجر يمينا ، فيتحرك يسارا ، أو ان الوقت يسير الى الخلف ، أو أن الشيخ المسن يعود من شيخوخته الى شبابه الى طفولته الى جنين فى بطن أمه ثم الى حيوان منوى يعود الى أبيه وبويضة تسكن فى مبيض أمه ‥ ودعك من كون الام أو الاب قد ماتا منذ سنوات !

ان معادلة ديراك تشير الى شيء قريب من هذا ، ولذلك فقد هاجمه العلماء هجوما شديدا ، وقالوا : ليكن ما خرج به ديراك « نكتة » رياضية لا معنى لها ولا طعم ، ومع ذلك فلقد كان الرجل واثقا من كلامه ومن معادلاته ، رغم أنه لم يصدق فى بادىء الامر النتيجة التى توصل اليها ، ومع ذلك فقد تنبأ بأنه ربما يكون من وراء هذا الكلام الفارغ معنى لم تهيأ له عقولنا بعد !

وكما قال اينشتاين من قبل « ان علم الطبيعة النظرية ليس الا طريقة منطقية لنظام فكرى يعتمد على الابتكار العقلى مع خيال مبدع ‥ » الخ ‥ كذلك كان ديراك مبدعا عندما قال : الواقع ان الجسيم المادي الذى وضعته

فى نظريتى كان اليكترونا ذا طاقه موجبة ، ولهذا تستطيع اجهزتنا أن تكشف عنه لانه يعيش في عالمنا ، وهو واحد من الجسيمات الهامة التى تبنى الذرات ٠٠ الا أن معادلته قد اشارت ايضا الى وجود اليكترون ذى طاقة سالبة ٠٠ ونحن لا نستطيع أن نهضم ذلك ولا نفهمه ٠٠ وواتته فكرة جنونية : ألا يمكن أن يكون للاليكترون الذى يعيش فى عالمنا ضد أو عدو ؟ (*)

وهذه في الواقع نظرية أكثر جرأة من نظرية أينشتاين في زمانه ٠٠ الا أن ديراك قد اشار الى الطريقة التى نستطيع أن نحصل بها على ضد الاليكترون ٠٠ فقدر لذلك كمية من الطاقة وقال : ان الاليكترون و « عدوه » أو ضده ، اذا قدر لهما أن يظهرا فلابد أن يولدا معا ، ويموتا معا ٠٠ وأن كمية الطاقة اللازمة لظهورهما على هيئة جسيمين تقدر بمليون اليكترون فولت ٠٠ فاذا اصطدمت هذه « الباقة » أو الكمية المنطلقة من الطاقة بأى هدف مادى ، فانها تتوقف فجأة بعد أن كانت تجرى بسرعة الضوء ، ويخرج منها جسيمان : احدهما محمل بشحنة كهربية سالبة ، وهو اليكتروننا المعهود الذى نعرفه فى عالمنا ، أما الاخر فمحمل بشحنة موجبة ، وهو البوزيترون - أى الاليكترون الموجب - وهذا لا يمكن أن يعيش فى عالمنا لحظة واحدة ، وكأنما هو زائر غريب ، ولابد أن يتقابل مع واحد من الاليكترونات السالبة ، فاذا احدهما « ياكل » الاخر، ويفنيان تماما كمادة، لتنطلق « روحهما » على هيئة ومضتين ضوئيتين تجريان بسرعة الضوء !

أو دعنا نضعها فى معادلة بسيطة هكذا ، علما بأن

(*) التفاصيل الكاملة نسبيا فى كتاب آخر للمؤلف بعنوان « هل لك في الكون نقيض !؟ » ٠٠ دار الكاتب العربى - بالقاهرة

المعادلة صحيحة فى كلا الاتجاهين :

طاقة «مليون اليكترون فولت» = اليكترون «٥ر٠ مليون اليكترون فولت » + بوزيترون « ٥ر٠ مليون اليكترون فولت »

وما هي « باقة » الطاقة التي تنبأ بها ديراك ؟

انها الفوتون (*) الذى ينطلق على هيئة موجة كهرومغناطيسية ·· والفوتونات لها أقدار فى عالمها ، كما للناس أقدار في عالمنا ·· فالضوء الذى نرى به الاشياء ما هو الا خليط من فوتونات ، أو ألوان طيف أصفر وأحمر وأخضر وأزرق وبنفسجى ·· ألخ ، او اذا اردت الدقة فقل : ان فوتونات الضوء الاصفر ما هى الا باقات أو طرود دقيقة جدا من الطاقة المتحركة بسرعة الضوء على هيئة موجات كهرومغناطيسية ·· ولا تختلف باقات الطاقة الا من حيث تردد الموجة او طولها ·· كلما كانت طويلة ، كانت الطاقة المكدسة فيها صغيرة ·· وعيوننا لا ترى الا فى حدود موجات الضوء المنظور ·· اذا طالت الموجة عن الحدود المرسومة لعيوننا ، فانها لا ترى بها الاشياء ·· فالاشعة تحت الحمراء تحس بها كحرارة فقط ، ولكن العين لا تراها ·· واذا قصرت الموجة عن الحدود ، لا نراها كذلك ·· كالاشعة فوق البنفسجية وكأشعة اكس التى نستخدمها فى الكشف بالاشعة ·· الخ ·

وما دخل كل هذا بموضوعنا ؟

له دخل ·· فلكى تتحول باقة واحدة من الطاقة الى

(*) الفوتون هو وحدة كمضولى ·· بمعنى ان الضوء الذى نرى به الاشياء ينساب على هيئة بحر من الفوتونات تجرى بسرعة الضوء ·· والكلمة ليست غريبة علينا ، فنحن نذكرها مثلا فى الفوتوغرافيا ، اى التصوير الضوئى

مادة ، كان لابد ان نختار باقة مكدسة باقوى طاقة .. وكل ما ذكرناه في الفقرة السابقة باقات لا تحمل « مؤهلات » طاقية عالية •• ان فوتونا واحدا هو الذى يوصلنا الى غرضنا •• ذلك هو فوتون « جاما » أو جيم بلغتنا •• وهو ضوء بأسه شديد ، وطاقته مدمرة ، وهو الذى يخرج من تفجير القنابل النووية ، فيؤذى النـاس ويصيبهم بالحروق ، ويدمر فيهم الخلايا • وبعد ذلك ترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب « الجيم » فيهم شديد ! •

ولقد تنبأ ديراك بأن فوتونات الجيم ذات الطـاقات العالية ، اذا اصطدمت بمادة ، فانها تتوقف ، وتفقـد طاقتها التى كانت تجرى بها بسرعة الضوء ، ولكن لا شيء الى فناء ، فلابد أن يظهر بدلا منها جسيمان ماديان •• الاليكترون وعدوه البوزيترون •

وظل هذا حبرا على ورق •• وما أكثر ما خط الناس على الورق ، أكثره لا يساوى قيمة الورق •• والقليل منه جواهر نادرة لا تقدر بمال •• وقد تثبت الايام جواهر الفكر الانسانى التى انسابت بحبر على ورق !

فى عام ١٩٣٢ .. عادت ألواح حساسة من الفضاء، كان قد أطلقها العالم الامريكى آندرسون فى بالونات الى طبقات الجو العليا ، لكى يدرس تأثير الاشعة الكونية على المادة .. ولكى لا ندخل فى مزيد من التفاصيل نقول : لقد لاحظ آندرسون مسارين غريبين لجسيمين ولدا فى نفس اللحظة وفى نفس المكان ، ثم جرى أحدهما يمينا ، وترك أثره ، وجرى الاخر يسارا ، وترك أثره .

والواقع أن الذى يحدد مسيرة الجسـيمات على الالواح الفوتوغرافية الحساسة مجالات مغناطيسية توجه

الجسيمات السالبة فى اتجاه وتطرد الجسيمات الموجبة فى الاتجاه المضاد .

وبالاختصار : ظهر أن أحد الجسيمين كان اليكترونا وان الاخر كان بوزيترونا .. ولقد ولدا بفوتون جاما (*) الذى ينساب من الشمس عندما اصطدم بهدف مادى.. تماما كما تنبأت بذلك معادلات ديراك .. وكان ذلك يوما مشهودا لديراك ، وللعقل البشرى كذلك .

عندئذ بدأ العلماء يتساءلون : هل يمكن أن يكون للبروتون الذى يسكن فى نواة الذرة ضد أو « عدو » — وللنيوترون ضد أو «عدو» Antiproton and Antineutron

ولقد كانوا يودون من صميم قلوبهم أن يجيبوا على هذا السؤال ، ولكن « العين بصيرة واليد قصيرة » كما نقول ..ذلك أننا لو طبقنا معادلة ديراك واينشتاين لتبين لنا أنه لكى نولد البروتون وضده أو النيوترون وضده ، فلا بد من كمية من الطاقة تساوى حوالى ستة الاف مليون اليكترون فولت ، وهذا ما لم يستطع الانسان ان يولده بعد فى مفاعلاته الذرية الصغيرة ..

لماذا ؟ ..لان المادة الموجودة فى الاليكترون أو البوزيترون أصغر من المادة الموجودة فى البروتون أو النيوترون بحوالى الفى مرة .. والمادة تساوى الطاقة .. ومن أجل هذا كان لا بد من الحصول على طاقة تساوى أربعة آلاف مرة قدر الطاقة التى تخلق منها الاليكترون وضده (وهى تساوى حوالى مليون اليكترون فولت) .

الا أن كل شىء يتطور .. المخلوقات والعقول والافكار

(*) تنطلق فوتونات جاما مع الاشعة الشمسية ، ولكنها لاتصل الى الارض بتركيزاتها القاتلة ، لانها تصطدم بجزيئات الغلاف الهوائى فى طبقات الجو العليا وتحتجز هناك .

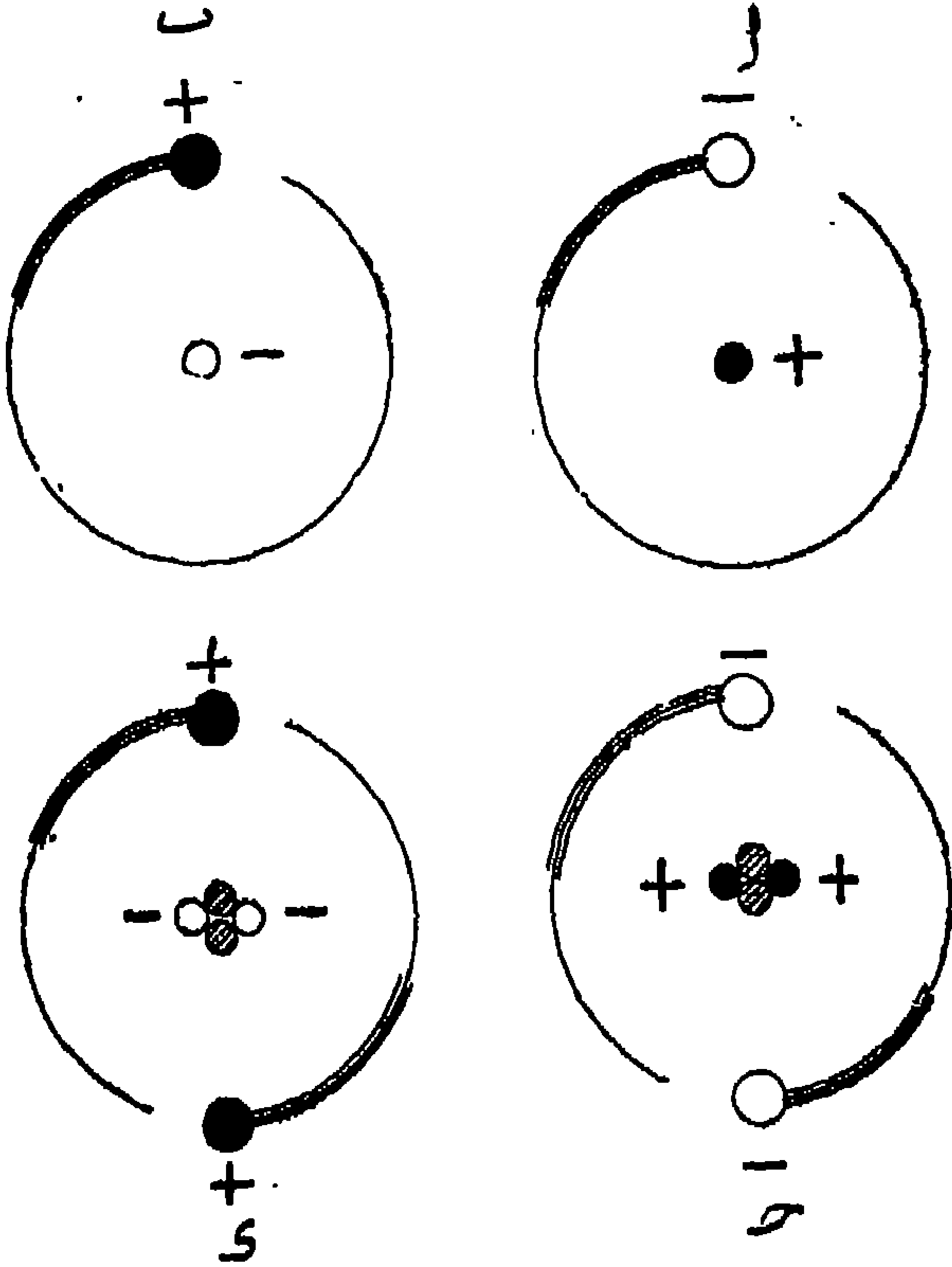
والدول .. ولقد استطاع الانسان العظيم أن يبنى مفاعلات ذرية جبارة تنطلق فيها الجسيمات بسرعة كبيرة للغاية .. والجسيم وكل شيء فى الكون لايجرى الا بطاقة .. كلما جرى أكثر كانت طاقته أكبر .

فى عام ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ توصل الانسان الى بناء مفاعل ذرى انطلقت فيه الجسيمات بطاقات تصل الى حوالى ستة آلاف مليون اليكترون فولت .. وعندما ضربت فى هدف ، توقفت ، وفقدت طاقاتها ، لتتحول الى بروتون وضده ، أو نيوترون وضده !

وعندما تقابل البروتون مع ضده ، أفنى أحدهما الآخر كمادة ، وانطلقت مادتهما على هيئة طاقة .. أو اشعاعات جاما الحارقة .. وكذلك النيوترون وضده.. كما كان من قبل الاليكترون وضده .

عندئذ تفتحت العقول على أسرار غريبة .. فمادامت الجسيمات التى تبنى الذرات لها ضديات فى عالمها ، وأنه يمكن تخليقها من الطاقات.. فهل يعنى هذا انه من المحتمل أن تكون هناك الذرة الضد ، والجزىء الضد ، والحجر الضد ، وزعيط الضد ، والكواكب الضد ، والشمس الضد ، والكون الضد ؟

لنبدأ هنا بالذرة الضد .. فذرةالايدروجين – ابسط الذرات على الاطلاق – تتكون من نواة بها بروتون يدور حوله اليكترون .. وفى ذرة الايدروجين الضد تنعكس الآية : فتكون نواتها من البروتون الضد . ويدورحولها الاليكترون الضد ، وليس من الممكن أن تعيش مثل هذه الذرة فى عالمنا ، لانها ستتقابل حتما فى لحظة خاطفة مع الايدروجين (أو أية ذرة أخرى) .. فيأكل الضد ضده، وتختفى مادتهما ، وتتحول كلية الى طاقة (شكل ٢).



« شكل ٢ » يبين بناء الذرة « ا » والذرة الضد «ب» .. لاحظ ان نواة ذرة الايدروجين تتكون من بروتون واحد موجب يدور حـــوله اليكترون سالب .. وفي ذرة الايدروجين الضد ينعكس البناء ، فتصبح النواة ذات بروتون سالب يدور حوله اليكترون موجب « بوزيترون » كذلك تكون ذرة الهيليوم « جـ » ، « د » وكل الذرات بنفس الفكرة .

ثم لنأخذ ذرة من كبد زعيط أو من الحجر .. ولتكن ذرة أوكسيجين .. فى نواتها بروتونات ثمانية ونيوترونات ثمانية ، ويدور حولها اليكترونات ثمانية .. وفى الذرة الضد نفس عدد الجسيمات ، ونفس البناء ، ولكن تسكنها الجسيمات الضد .. وعندما تتقابل ذرة الاوكسيجين مع ضدها ، تفنى البروتونات الثمانية ضدياتها ، والنيوترونات الثمانية ضدياتها ، والاليكترونات الثمانية ضدياتها .. ويفنى كيان الذرتين تماما كمادة ، لتتحول الى طاقات تقدر بمئات آلاف الملايين من الالكترون فولت !

وهكذا يتبين لنا معنى تحول المادة كلية الى طاقة .. او العكس .. والذرة ـ كما سبق أن ذكرنا ـ أساس المادة .. ولا يهم أن كانت الذرات فى الحجر أو فى زعيط ، او فى الكرسى الذى يجلس عليه زعيط .. فزعيط لن يفنى تماما كمادة ، الا اذا تقابل مع زعيط الضد ، أو بتعبير ادق مع مادة زعيط الضد .. ولقد كان وزن زعيطنا مائة كيلو جرام بالتمام والكمال .. وليكن زعيط الضد نفس الوزن تماما .. عندئذ لو تقابلا وجها لوجه فى الفضاء ، فلن يعرف زعيط ان الذى يقف أمامه هو ضد مادته ، بل سيكون صورة طبق الاصل من زعيطنا الارضى .. وكأنه هو وصورته فى المرآة تماما !

والواقع أن الموضوع هنا طويل ومثير ، ولكن يكفى أن نقول أن مجريات الامور تشير الى وجود أكوان واكوان نقيضة .. وكأنما الخالق قد أشار بيمينه فكان عالمنا ، وأشار بيساره فكانت العوالم الضد .. أو العوالم النقيضة .

لا علينا من كل ذلك الان .. ولنعد الى زعيط المادى ،

والى ضده المادى كذلك .. ولنفرض أنهما أخذا بعضهما بالاحضان .. عندئذ لن ترى زعيطا أو ضده ، فبمجرد اللمس تختفى مادتهما تماما ، ويتحولان الى طاقـــة مدمرة تساوى الطاقة التدميرية الناتجة من تفجير ٤٥٠٠ مليون طن من مادة ت ن ت T.N.T. الشديدة الانفجار .. أو لو امكن السيطرة على هذه الطاقة ، لكانت كفيلة بمدنا بطاقةكهربية تساوى ما ينتجهالسد العالىلمدة خمسمائة عام ، وبكامل طاقته !!

وهل يمكن السيطرة على هذه الطاقة ؟

قد يكون ذلك محتملا .. وليس لهذا الموضوع هنا مجال .

وقد يتساءل البعض : ولكننا نستطيع أن نسيطر على الطاقة النووية ، فنسير بها الغواصات ، ونولد الكهرباء، ونقطر مياه البحر .. وقد نستخدمها كأداة من أدوات الدمار فى القنابل الذرية والايدروجينية .. أوليس كل هذا دليلا على سيطرتنا على تلك الطاقة ؟

ان شرح مثل هذا الموضوع يطول .. ومع ذلك فلنقل فيه كلمتين :

لنأخذ مثلا القنبلة الذرية التى أحيانا ما نطلق عليها اسم القنبلة الانشطارية .. أى التى ينشطر فيها نوى ذرات اليورانيوم الى جزئين ، وليس مهمـــا أن يكون الجزءان متساويين .. وليس معنى ذلك أن انشطار نواة الذرة هنا يعطينا نصفى ذرة أو نصفى نـواة ، كمـا نحصل مثلا على نصفى بطيخة اذا شـــطرناها بسكين الى نصفين .. اذ لا يجب أن نقيس الاحداث الذرية بنفس المقاييس التى نراها فى عالمنا المنظور .. فالواقع أن نواة ذرة اليورانيوم تنشطر الى جزئين : احدهما يتحول الى

غاز خامل اسـمه الزينون (وهو من عائلة الهيليـوم والنيون) .. والآخر عنصر الاسـترنشيوم (من عائلة الكالسيوم أو الجير) (*) .. ويصاحب هذا الانشـطار انطلاق أشعة جاما الحارقة ، وخروج نيوترونين (أو ثلاثة) يهاجمان نواتى ذرتين ، فيشط انهما ليخرج منهمـا نيوترونات اربعة ، تهاجم ذرات اربعة ، فيخـرج منهـا نيوترونات ثمانية ، تهاجم ذرات ثمانية ، فيخرج منهـا ستة عشر .. فالف ، فمليون ، فبليون ، فبـلايين الملايين ، وكل هذا يتم فى لحظة خاطفة .. وهو مانسميه بالتفاعل المتسلسل .

اننا لو طبقنا معادلة اينشتاين التى جاءت القنبلة على أساسها ، لوجدنا ان جزءا واحدا من الف جزء من المادة النووية قد اختفى كمادة ، وتحول الى طاقة .. ومعنى هـذا أنه لايزال لدينا ٩٩٩ جزءا ماديا لم يتحـول الى طاقة .. فما بالكم لو تحول ؟ لو حدث هذا لكانت قوة القنبلة التدميرية ـ التى اسقطت على هيروشـيما أو ناجازاكى فى عام ١٩٤٥ ـ أكبر بالف مرة !

ولكن يكفينا جزء واحد من الف جزء أذل به الحلفـاء كبرياء دولة صمدت صـمودا عظيما .. وفى النهاية أباد هذا الجزء الضئيل مدينتين كبيرتين ، وقتل معظم سكانهما فى غمضة عين !

الا أن العلماء بعد ذلك استطاعوا أن يتحكموا فى هـذا التفاعل المتسلسل ليحصلوا منه على جزء واحـد من الف جزء من المادة النووية ، يتحول تلقائيا الى طاقة نووية تكفى لتشغيل الات فواصة ضخمة لسنوات طويلة .. أو لتقطير مياه البحار او انتاج طاقات حرارية وكهربية

(*) او نوى ذرات اخرى لا داعى لذكرها هنا

وحركية .. الخ ، وكأننا بهذا قد سيطرنا على المارد النووى الجبار الذى أصبح أكثر فائدة من عفاريت الملك سليمان !

وما قصة القنبلة الايدروجينية اذن ؟

الواقع ان الانسان الذكى يتعلم دائما من الطبيعة ، وكأنما هو ابنها الوحيد الذى جاء بعقله لكى يسيطر — الى حد ما — على قواها ، ويسخرها لخدمته .

اقول هذا لان فكرة القنبلة الايدروجينية قد بنيت على أساس ما يحدث فى الشمس لكى تبعث لنا بحرارتها وضوئها واشعاعاتها لبلايين السنين ، دون أن ينفد وقودها .. فالشمس ليست الا فرنا نوويا جبارا ،بمعنى انها تشتغل بتحويل مادتها الى طاقة اذ لو كانت الطاقات التى تطلقها الشمس تسير على نفس الاسس التى نستخدمها فى أفراننا ، لانطفأت الشمس وأظلمت من زمن فى عمر الكون سحيق

فى الشمس كميات هائلة جدا من الايدروجين — وعندما تتحد أربع أنوية من ذرات الايدروجين — تحت تأثير الحرارة العالية التى تصل الى ملايين الدرجات — فانها تتحول الى عنصر الهيليوم .. أى عنصر الشمس . . (فهيليوبوليس مثلا معناها مدينة الشمس) الا أن مادة نواة الهيليوم اقل قليلا من مادة نوى ذرات الايدروجين الاربع مجتمعة .. فأين ذهب هذا الفرق ؟ .. لقد تحول الى طاقات حرارية وضوئية واشعاعية جبارة .

وعلى نفس الوتيرة أراد الانسان ان يفعل نفس الشيء على أرضه ، فصمم لذلك قنبلة انشطارية (أو ذرية) لتنفجر وينتج منها حرارة عالية جدا كالموجودة فى جسم الشمس ، وبالحرارة الرهيبة تلتحم ذرات الايدروجين

الثقيل – أحد نظائر الايدروجين العادى – فتتحول الى عنصر الهيليوم ، ويختفى جزء من المادة ليتحول الى طاقة ، كما يحدث فى الشمس – واحيانا بالتحام عنصر اسمه الليثيوم مع الايدروجين الثقيل ، فيتكون الهيليوم ، ويختفى جزء من المادة ، ليتحول الى طاقة تقدر بحوالى ٢٢٫٥ مليون اليكترون فولت لكل ذرتين دخلتا فى التفاعل .. فما بالك ببلايين البلايين من الذرات التى تحتويها القنبلة ؟

يتبين لنا من هذا أن القنبلة الايدروجينية ليست فى الواقع الا قنبلتين : أحداهما انشطارية (ذرية) ، لتنتج جزءا كبيرا من الدمار ، ثم تساعد بحرارتها العالية على التحام نوى الذرات التى ذكرناها ، فتنتج طاقة تدميرية تفوق فى قوتها ما يكمن فى قنبلة ذرية .. وهكذا يسعى الانسان بفكره الى الدمار .. وهكذا يسيطر على المادة فتتحول الى اضواء تعمى الابصار ، والى اشعاعات تميت البشر ، والى حرارة تصهر الحديد والرمل وتذيب الحجارة .. وتلك هى صورة أخرى ، ومظهر اخر للمادة المسالمة التى تبنى زعيطا والحجر !

وقد يقفز هنا فصيح ويقول : لقد جاءتنى فكرة .. أو ليس ذلك هو المقصود بقوله عز وجل « وقودها الناس والحجارة » .

ولست يا « فصيح » من أنصار من يحاولون أن يفصلوا لكل آية تفسيرا ، ولا أن يلصقوا بها كشفا علميا .. ومع ذلك ، فلا يسعنى الا ان أترك ذلك لفصاحتك وعقلك وخيالك .. فمن يدرى ؟!

وقد يقول آخر : ما دامت جسيمات المادة تتخلق من طاقات ، أفلا يمكن القول بأن الكون كله كان فى البدء

ضياء فى ضياء ؟ او كان فوتونات (*) بلغة العلم ؟ .. وأن كل الموجودات ، ممثلة فى المادة التى نراها تنتشر فى الاكوان ، ما هى الا طاقات ضوئية خاصة تكدست على هيئة بروتونات ونيوترونات واليكترونات .. وبها بنى الله الذرات ، ومن الذرات خلق كل شىء ؟ .. أو ليس ذلك هو المقصود من قوله تعالى « الله نور السموات والارض .. مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء » . هل معنى هذا أن الكون الظاهر جزء من نورالله؟

قد يكون ذلك وقد لا يكون .. لست أدرى ، وكل ما أدريه أن هناك نظريات حديثة تشير الى ذلك ولقد تعرضنا لهذا الموضوع فى كتاب « هل لك فى الكون نقيض؟»

ومع ذلك فدعنا نعود بعد هذه الرحلة فى أصون الاشياء ، لنقيم زعيطا مرة اخرى .. فهل نقيمه بطاقاته المكدسة فيه على هيئة مادة ، وهى فى الواقع طاقات لو أمكن السيطرة عليها لاصبحت بمعايير المال عشرات البلايين من الجنيهات ؟

أننا لو فعلنا لكنا خاطئين .. فهو فى هذه الحالة سيتساوى مع الحجر والرمل والطين والصخر .. لان اى كتلة منها تحتوى على نفس قيمة الطاقة الموجودة فى زعيط واينشتاين وديراك واعظم رئيس فى هذا العالم .

هل نقيمه اذن على انه نظام خاص من مادة حية متفاعلة لا يستطيع البشر ان يفعلوا مثلها ؟

(*) الفوتون : وحدة الطاقة الضوئية .. اى كمية محددة من الطاقة تجرى بسرعة الضوء

اننا لو فعلنا ذلك لكنا خاطئين .. فهو فى هذه الحالة سيتساوى مع القرد والخنزير والبهيم والحمار .. لانها بدورها نظم خاصة من مادة حية متفاعلة .. ثم اننا لا نستطيع أن نقول أن زعيطا الانسان قد خلق من مادة نفيسة ، وان القرد قد خلق من مادة رخيصة ، فالواقع ان نفس الاسس الحيوية والعمليات الكيميـــائية التى تجرى فى جسم القرد وزعيط واحدة (واسألوا أهل العلم ان كنتم لا تصدقون) .. ثم ان لهذا لسانا وشفتين واذنين وعينين ومنخارين واسنانا كما لذاك .. ولكل كبد وقلب وطحال ومعدة وغدد وأمعاء ورئتان وكليتان .. الخ .. ولقد خلق كل عضو ليؤدى وظيفته بنفس الطريقة فى هذا او ذاك ، ثم أن بداية تكوين القرد كبداية تكوين زعيط — بمعنى أن الاحداث التى جرت بين والدى هذا ليخرج الى الحياة ، هى نفس الاحداث التى جرت بين والدى ذاك ليخرج هو أيضا الى الحياة .. ولقد ولدا من نفس الطريق ، ورضعا — كل من ثدى أمه — وكبرا ، وسيهرم هذا كما يهرم ذاك ، وسيموتان ويتحللان ليعودا الى تراب وطين .

هل نقيمه على أنه الة حية قوتها تســعة أحصنة فى اليوم ، أو أنه دينامو حى يعطينا فى اليوم سبعة كيلووات كهرباء ؟!

ان هذه لفكرة غريبة لا بأس بها .. وعلينا أن نتعرض لها ، فربما كانت قيمة زعيط بالحصــان او بالكيلووات اكثر فائدة من قيمته كانسان له كيان .. فالى تقييم جديد اذن .

الفصل الثانى

طاقة زعيط

تساوى تسعة أحصنه فى اليوم !!

كثيرا ما نسمع الناس يقولون : ان هذا فوق طاقتى، او ان ذلك ليس فى قدرتى ، اذن فلكل شىء قدرة وطاقة .. النجوم . الشمس . الارض . الانسان . الحصان الالة . الخلية . الميكروب . الذرة .. الخ .

ونحن لا نستطيع أن نتعرض لكل هذا بالتفصيل .. ولكن علينا أن نلتقط زعيطا مرة أخرى لكى نقيم فيه طاقته التى تتولد فى « محطات القوى » ، لتهبه الحياة وتمنحه القوة لكى يجرى ويرقص ويقفز ويتحرك ويتزوج ويرزق بذرية ويبكى أو يضحك ... ثم بطاقات أخرى لاعضائه الداخلية لكى تتلوى وتنقبض وتنبض وتفرر وترسل وتستقبل وتحلم .. الخ ، فتسهر عليه وهو نائم ، دون أن يحمل لكل هذا هما !

ان الحركة دليل الوجود ومظهر الحياة .. ولهذا كان مات زعيط ، وقفت كل محطات القوى التى يقدر عددها بملايين البلايين ، وبتوقف الطاقات تماما ، فلا يستطيع أن يحرك شفتيه ، أو يغمز لمن حوله بعينيه .

اذن .. فمن أين تأتيه الطاقة الحيوية ؟ .. وما هى ملايين البلايين من محطات القوى التى تنتشر فى جسمه ؟ .. وكيف نقيمها بمعايير جديدة ، لنرى كم يساوى زعيط بالنسبة لما حوله من قوى دافعة ، أو طاقات دافقة



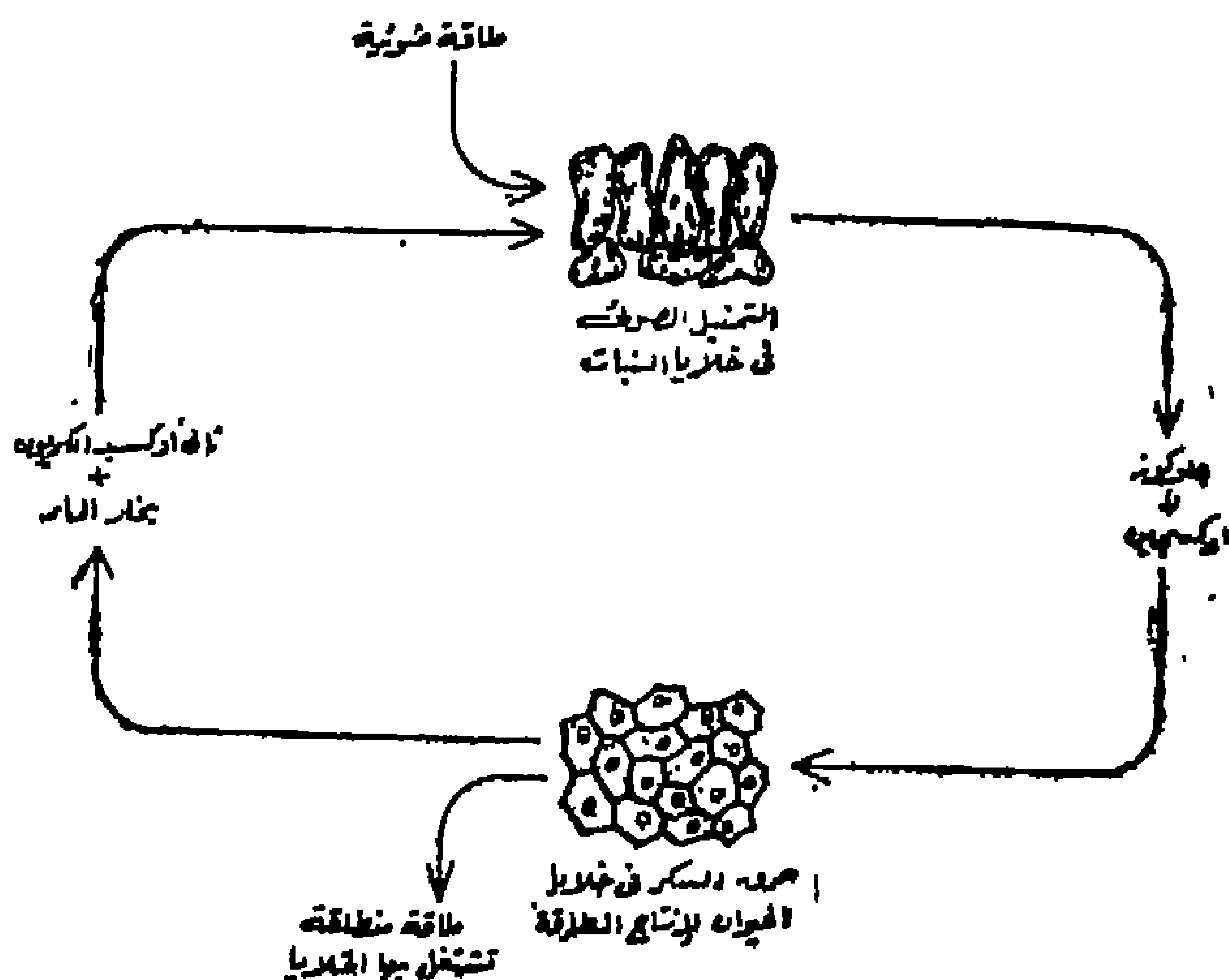
(شكل ٣) صورة بالميكروسكوب الاليكترونى لادق بطارية شمسية حية ((البلاستيده الخضراء)) تتواجد فى خلايا النبات .. لاحظ كيف تتراص فيها الجزيئات المعقدة التى تضم فى طياتها جزيئات الكلوروفيل المسئولة عن اقتناص الطاقة الضوئية ، فتحولها الى طاقة كيميائية تجرى بها كل المخلوقات .

نجيب على سؤالنا الاول باختصار فنقول : ان كل الخلائق التى تراها نتحرك أمامك انما تسير بطاقة شمسية ، وقبل ان يسأل الفصيح نسارع بالقول : أن أرضنا « ترضع » من أمها الشمس جزءاً من طاقتها التى تنتشر فى الكون .. ولا بد ان ترضع الشمس بنتها ولو بلغ عمرها بلايين السنين ، لانها لو توقفت عن ارضاعها، لتوقف كل شيء على هذا الكوكب .

كيف يكون ذلك ؟!

على الارض نباتات خضراء أصبحت بمثابة الوسيط الذى يرضع ويستفيد من الرضاعة الضوئية ، ففى كل خلية نباتية خضراء بطاريات شمسية دقيقة غاية الدقة .. ولهذا يحق لنا أن نعتبرها أعظم وأدق بطارية شمسية عرفها الانسان وعرفتها الارض منذ مئات الملايين من السنين .. تلك هى البلاستيدات الخضراء (شكل ٣).

ان أثمن ما فى هذه البطارية الحية جزيئات خاصة نطلق عليها اسم « الكلوروفيل » ، وهو بناية جزيئية معقدة الى حد ما .. ولقد تهيأ لكى يستقبل الضوء كطاقة ، ثم يستخدم هذه الطاقة ليربط الماء بغاز ثانى أوكسيد الكربون الخارج مع زفيرنا ، و « زفير » النيران والسيارات والمصانع ، فاذا بهذه الخامات البسيطة الرخيصة تتحول الى جزيئات من سكر (شكل ٤) وفى السكر طاقات كيميائية مختزنة ، كانت فى الاصل طاقات ضوئية .. ولكى نوضح نقول : لكى يربط زعيط صامولة كان لابد أن يبذل طاقة ، ولابد لعضلاته أن تحصل على هذه الطاقة لكى تتحرك .. كذلك يكون النبات الاخضر، فلكى يربط جزيئات صغيرة ، ويحولها الى جزيئات أكبر وأكبر ، فلابد أن يحصل على طاقة ، ولقد تهيأت له



(شكل ٤) يوضح عملية التمثيل الضوئى فى خلايا النبات ، فيتكون الجلوكوز الذى يحصل عليه الحيوان ((مع مواد اخرى)) ، ويحرقه فتنطلق الطاقة التى يعيش بها ، وعندما ينهدم الجلوكوز الى غاز ثانى اوكسيد الكربون وبخار الماء ، يعاد الى النبات عن طريق الهواء ليبنيه من جديد .. وهكذا تسير الدورة مابين نبات وحيوان والشمس تغذيها باشعاعاتها .

الامور لكي يستفيد بالطاقه الشـــمسية ، فيحولها الى طاقات كيميايه تترابط بها الجزيئات ، وتصبح تيهـ مخزونة ، الى أن ياتي زعيط فياكلها ، وتقـــوم خلاياه بفكها ، وتطلق طاقاتها المخزونة فى روابطها ، لتتحول فيه الى شغل .. الى عمل .. الى حركة ، لكي يربط الصامولة أو يصعد السلالم او يخرج لسانه .. الخ .

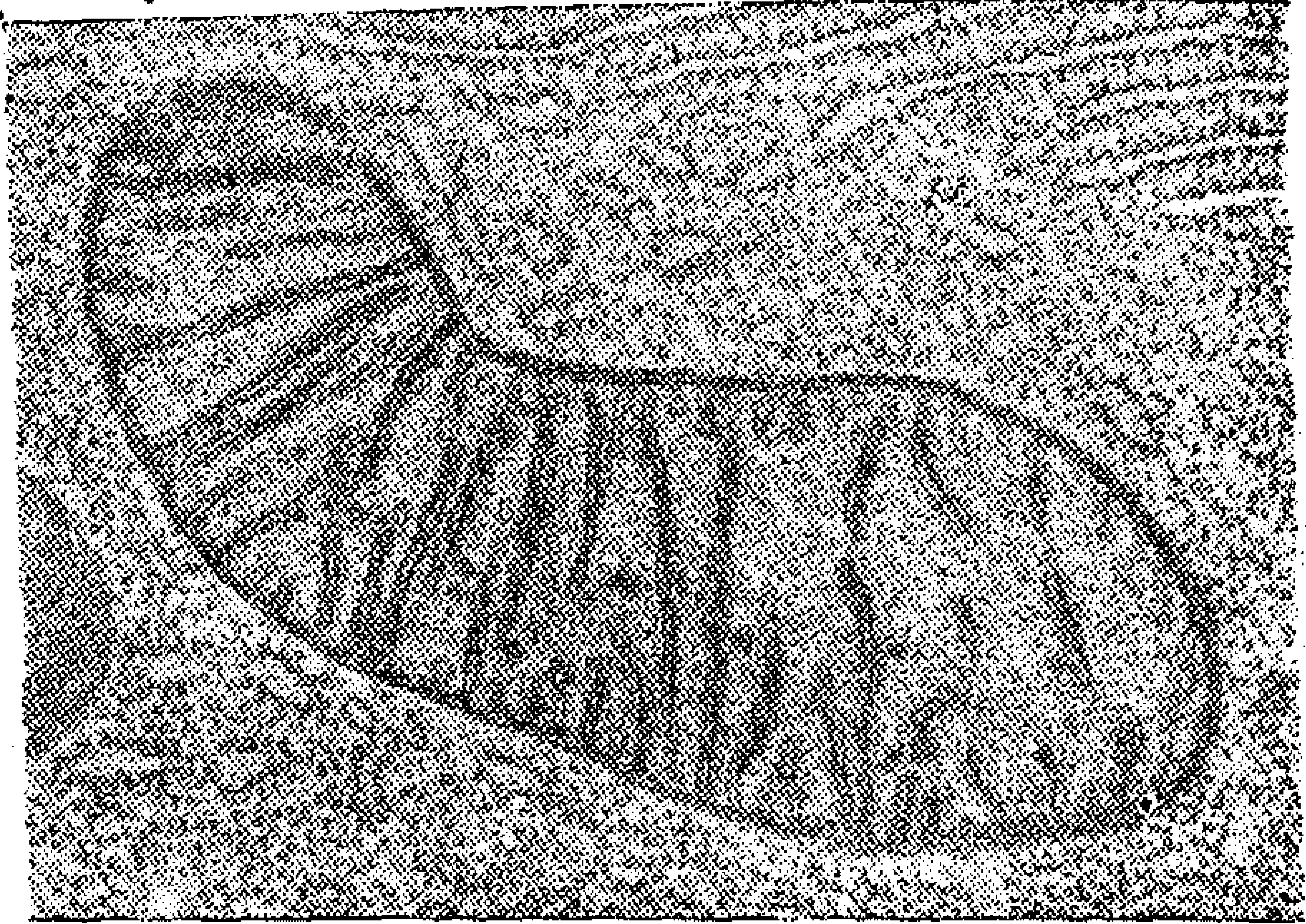
ان انتاج الوسيط ، اى النبـات الاخضر ، تتضاءل أمامه كل امكانيات صناعتنا وانتاجنا ، ذلك أن مصـانع الطبيعة الخضراء تربط سنويا ٥٥٠ الف مليون طن من غاز ثاني أوكسيد الكربون مع ٤٥٠ الف مليون طن من الماء ، لتنتج مادة عضوية على هيئة سكر يقدر بحوالى ٣٧٥ الف مليون طن ، وتطلق ٤٠٠ الف مليون طن من الاوكسجين .

وهنا قد يقفز الفصيح بعد عملية حسابية بسـيطة فيقول : معنى هذا أن نصيب الفرد فى العالم يبلغ حوالى ١٢٥ طنا من السكر فى كل عام .. فأين يذهب كل هذا السكر ؟ .. ولماذا بطاقات التموين اذن ؟!

وجوابنا على الفصيح : ان الســـــكر هو أول انتاج لمصانعنا الخضراء ، وبعدها يسير فى عمليات كثيرة ، لكي يبني منه النبات خلاياه .. ثم يعطينا قطنا وخشـــبا وبروتينات ونشويات وفيتامينات وزيوتا وحبوبا وثمارا وحنظلا ومواد عطرية ودواء .. الخ .. الخ

وكل هذا كانت بداياته سكرا – او ان شئت الدقة ماء وغاز وضوء وعناصر ارضية أخرى .

وزعيط لايستطيع أن ياكل برسيما ولا قطنا ولا خشبا .. وعليه أن ياكل حبوبا وفواكه وخضروات ولحـوما ، جاءت أصلا من حيوانات وطيور قد عاشت من قبل على النبات .. وكل هذا فى الواقع ليس الا جزيئات مترابطة ،



صورة بالميكروسكوب الاليكترونى

(شكل ٥) الميتوكوندريون أو محطة توليد الطاقة ، وهى واحدة من مئات أو آلاف تتواجد فى الخلية الواحدة ، وفيها يحترق السكر وتستفيد منه فى شحن جزيئات خاصة بالطاقة لتوزعها فى أرجاء الخلية وتفرغ الجزيئات طاقاتها وتعود الى محطة التوليد لتشحن من جديد ..

لو انها تفككت ، لانطلقت طاقاتها بأى صورة من الصـــور .. ولكى ارشدك الى صورة واحدة ، فما عليك الا ان تلقى ورقة أو نباتا جافا أو سكرا أو دهنـــا على النار ، تجده يحترق ويتفحم أو يشتعل ، ليعطيك طاقة حرارية وضوئية ، أو قد يشعل زعيط النار فى جسمه فيحترق، وقد يتفحم ، وعندئذ تستطيع ان تستفيد بطاقتـــــه الحرارية لكى تغلى حلة غسيل !

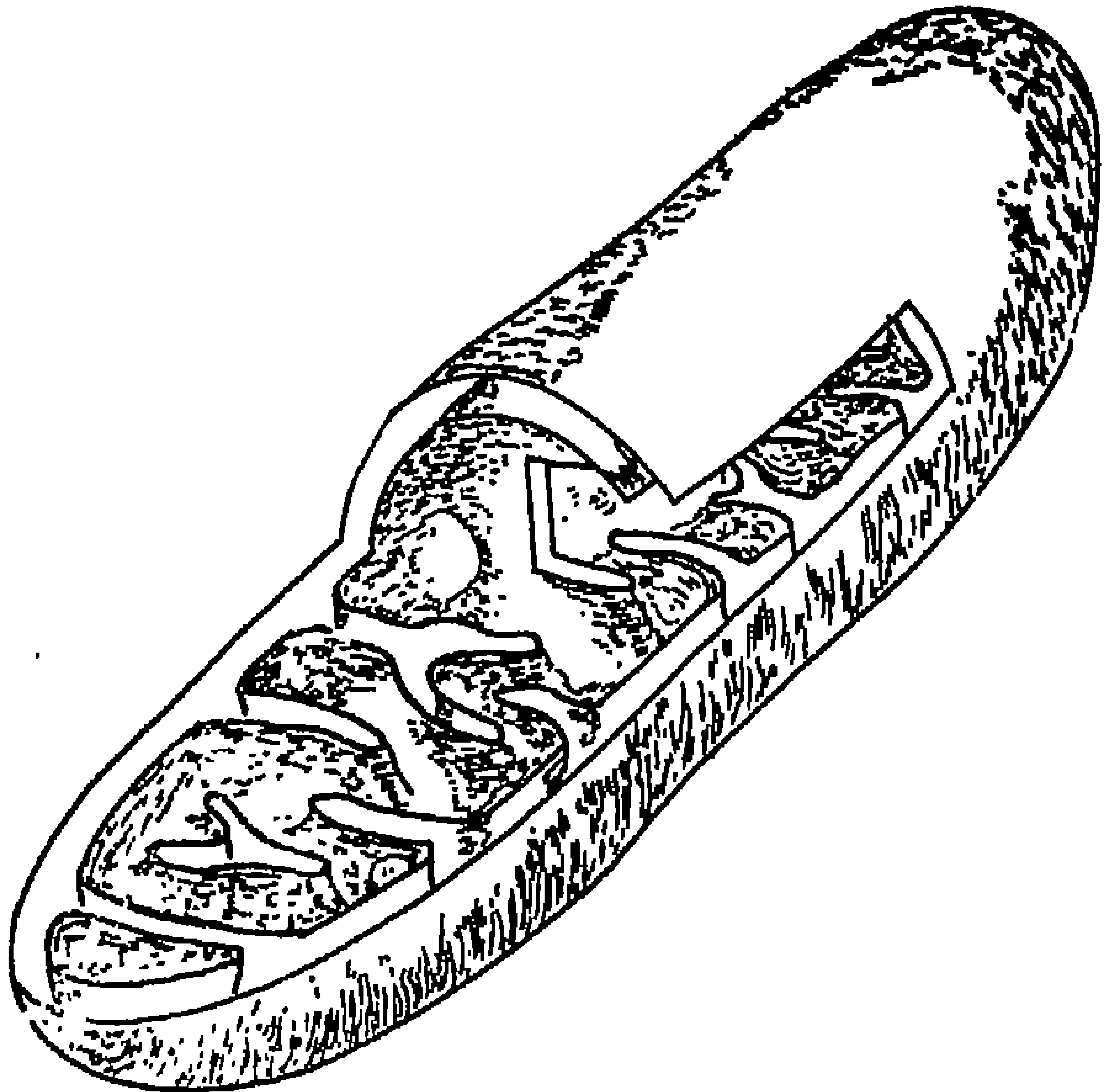
والواقع ان زعيطا ليس الا فرنا داخليا ، ولكنه فرن عظيم يسير بحساب ومقدار .. ان السكر هو وقوده ، ولابد أن يحرقه داخل جسمه ، لكى يفكك روابطه (كما تفككت على النار) فتنطلق الطاقة وبها يســخن ويبنى ويهدم ، وتشتعل فيه كل الالات الداخلية .. ولهــذا نعتبره مخلوقا حيا يرزق ، ليدفع الى داخل جوفه بوقوده الذى يحرقه ، ومادته التى تبنيه .

ان الذى يستفيد بالسكر (أو غير ذلك من مواد اخرى) محطات للقوى (*) تستطيع أن تفككه خطوة خطوة ،وكلما انكسر قيد كيميائى ، انطلق جزء من الطاقة ، لتشحن به بطاريات كيمائية دقيقة غاية الدقة ، على هيئـــــة جزيئات كيميائية اسمها « ثلاثى فوسفات الادينوسين » ولنختصرها الى « ث ف أ » .

و « ث ف أ » هو فى الواقع المصدر الرئيسى لكل حركة من حركاتك حتى ولو كان ذلك فى دمعة تفرزها العين ، أو قبلة خفيفة على الوجنتين !

الا ان محطات القوى (شكل ٥) لا تتواجد فى مكان واحد ، لكى تنتج الطاقات وتوزعها على خلايا جسمك ،

(*) اسمها العلمى ميتوكوندريا Mitochondria ، وسوف نستخدم دائما تعبير «محطات القوى» .. لان الاسم العلمى كما ترون سخيف !



(شاكل توضيحى على هيئة مقطع فى محطة
القوى الخاصة بالخلية الميتوكوندريون)

كما يقوم القلب مثلا بتوزيع الدم .. بل ان هناك فكرة أعظم من ذلك بكثير ، فلماذا لا يكون لكل خلية محطات قوى خاصة بها ، فتكون مسئولة عن نفسها مسئولية كاملة ؟

وقد كان .. فهى أدرى بشئونها ، وعليها أن تسرع بانتاج طاقاتها اذا ارادت ، أو أن تبطىء اذا شاءت .. وكل شيء هنا بحساب ومقدار .

والواقع أن الخلية بمثابة مصنع حي دقيق ، ولكنه رائع ومنظم وعظيم ، ففيه الات كيميائية معقدة تبنى آلات مثلها (الجزيئات الوراثية) .. وهذه تحتاج – لكى تبنى – الى طاقات ، ثم انها ترسل رسلا جزيئية لكى تقوم بتخليق جزيئات أخرى على هيئة خمائر (انزيمات) وبروتينات .. وهذه تحتاج فى عملها وبنائها الى طاقات .. وبين آونة وأخرى تقوم الخلية بترميم نفسها ، فتهدم وتبنى ، وتجدد وتضيف ، وتسحب الغذاء من القنوات التى تنساب حولها (الشعيرات الدموية) .. وكل هذا يحتاج الى طاقات .. وبالاختصار .. فان الخلية فى الجسم كيان قائم بذاته أولا ، ولكنها لابد أن تتجاوب وتتفاهم مع المجتمع العظيم الذى فيه تعيش ، فيخدمها وتخدمه ، ويعطيها وتأخذ منها ، وكأنما هو سوق تجارية ضخمة على درجة عظيمة من التنسيق والنظام والكفاءة .. فاذا اختل مرفق من مرافقه كان المرض .. ثم الموت ، مثله فى ذلك كمثل الدول والمجتمعات .. فاذا ترابط الافراد ، وتعاونوا وعملوا على ما فيه مصلحتهم ومصلحة غيرهم ، كان مجتمعا قويا يستحق البقاء ، واذا كان غير ذلك .. فالى الجحيم !

الا أن خلايانا – والحق يقال – لاتعرف فى حياتها مبدأ الطمع ولا « التكويش » .. فبقدر ما تحتاج الى

طاقات ، بقدر مايكون لديها من محطات .. لهذا نرى بعضها يكتفى بخمسين وبعضها الاخر يحتاج لاكثر من خمسة آلاف ، أو ما بين ذلك يكون عدد مولدات الطاقات .. ولكل طاقته .. ولكل عمله .

فخلايا عضلات القلب تحتاج الى الالاف ، لان عبء القلب ثقيل ، فعليه أن ينبض فى اليوم الواحد مائة ألف نبضة ، ليضخ أكثر من ٦٥٠ كيلوجراما من الدم ، حتى لقد قيل أن المجهود الذى يبذله القلب يوميا ، كالمجهود الذى يبذله زعيط وهو يصعد برجا يصل ارتفاعه الى أكثر من ثلاثمائة متر ، أى أقــل قليــلا من ارتفـــاع برجين كبرج القاهرة ، وليس هذا فحسب ، بل عليه أن يحمل على ظهره زعيطا اخر وزنه ٧٠ كيلوجراما ، حتى يحس بالعبء الكبير ، الذى يبذله القلب العظيم .. ومن هنا فقد أعطيت لكل خلية من خلايا عضــــلاته أكثر من خمسة الاف مولد لتعمل ليل نهار .. وفيها تشـــحن بطارياتنا الجزيئية الدقيقة ، ثم تفرغ طاقاتها ، لتتحول الى مجهود .. الى حركة .. الى نبضـــــة ، ثم يعاد شحنها مرة ومرة ومرة .. وبلايين المرات .

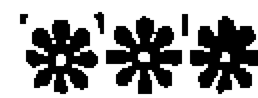
كذلك تحتاج خلايا الكبـــد للكثير من الطاقات ، لان الكبد بدوره مصنع عظيم يخزن ويوزع وينتج ويصـــنع ويحلل ويقوم بعمليات لو أنها وزعت على أعظم معمـــل كيميائى فى العالم يعمل فيه آلاف من العلماء الاكفاء ، لكان الكبد أكفأ وأسرع وأدق !

كذلك الخلايا العصبية التى تسهر عليك ليلا ، وتوجهك نهارا ، وكأنما هى شبكات رادار عظيمـــة ، تلتقط كل الاحداث الجارية حولك ، وتبعث بها الى المخ العظيم ، فيفك شفراتها بسرعة متناهية ، ويبعث بتعليماته ، لكى

تتجنب حجرا او تبتعد عن كلب مسعور ، أو تتمتع بالجمال ، أو تثور على الاوضاع .. أو تجرى وتطلق ساقيك للريح اذا وقعت فى مأزق لن ينجيك منه الا الهروب بجلدك .. الخ .. وكل هذا يحتاج الى طاقات كبيرة لكى تشحن الخلية العصبية نفسها ، ثم تفرغ شحنتها ، وعليها أن تفعل ذلك بسرعة عالية ، لكى تبعث بألف نبضة كهربية فى الثانية الواحدة .

ان العين تتحرك فى مقلتها ، وتبذل طاقة ، والقفص الصدرى يعلو ويهبط ، ويبذل طاقة ، والامعاء تتلوى ، وتبذل طاقة . والكليتان تخلصان الجسم من نفاياته، وتبذلان طاقة ، والمخ العظيم يفكر ويسيطر ، ويبذل طاقة

.. ومن وراء هذا بلايين البلايين من المولدات العظيمة الدقيقة التى تنتشر فى كل مكان بجسم زعيط الذى يحتوى بدوره على عشرات ملايين الملايين من الخلايا .. أو ليس هذا بمجتمع عظيم لايقدر بمال ؟!



على زعيط اذن أن يلقى فى جوفه بوقوده ، ولا يحمل بعد ذلك هما .. فلقد نظمت له الامور دون أن يدرى .. فليست العملية هى حرق الوقود بالاوكسجين لتنطلق الطاقة كما يحدث ذلك فى الفرن أو المصنع أو السيارة .. اذ لو حدث ذلك لاحترق زعيط من شدة الحرارة .. ولكن حمداً لله أن تكدست فيه بلايين البلايين من مولدات الطاقة التى تسيطر على عملية الاحتراق فى خطوات طويلة معقدة ، لم يستطع العلم حتى الان أن يفك كل ألغازها .

ويشرف على هذه العمليات الطويلة أنواع كثيرة من المفاتيح الكيميائية التى تربط الجزيئات أو تفككها ، وهى

التى نطلق عليها اسم الخمائر أو الانزيمات .

ولقد قسمت الانزيمات ـ التى يزيد عدد أنواعها على عشرين أنزيما فى مولد الطاقة ـ نفسها الى فرق ثلاث : فرقة تتناول السكر عندما يدخل الى ســـاحة الخلية (السيتوبلازم) « بالتوضيب » والتهيئة والتفكيك فى تسع خطوات ، حتى يتحول سكر الجلوكوز الى نصفين .. كل نصف اسمه حامض اللبن ، وهى عملية معقدة لايمكن أن نتناولها هنا .. ولكن يكفى أن نقول ان كل خطوة يشرف على اتمامها نوع واحد من الانزيمات .

ثم ينفذ حامض اللبن الى مولدات الطاقة (الميتوكوندريا) .. فيجد فى استقباله الفـرقتين الاخريين من الانزيمات وهى فى مولداتنا كثيرة جدا .. اذا قدر عدد الانزيمات فى مولد واحد من خلية قلب عجل بحوالى ١٧٠٠ أنزيم .. اضرب هذا الرقم فى عدد المولدات الموجودة فى الخلية الواحـــدة (أى فى ٥٠٠٠ مولد لكل خلية) ، ينتج لك حوالى تسعة ملايين من الانزيمات التى تمثل لنا ١١ نوعا مختلفا .. تقوم كل منها (وهو موجود بمئات الالوف) بعمله المتخصص فيه .

ولا فرق هنا بين قلب العجل وقلب زعيط أوالفصيح ، الذى قد يحتج على ذلك فيقول : كيف نشبه قلب العجل بقلب الانسان ، علما بأن الايمان فى القلب ، فهل فى قلب العجل ايمان ؟! أو هل فيه حب وعاطفة كما يعبر عن ذلك أصحاب الحب والعشق والغرام ؟!

وآه من فصاحتك يا فصيح ... فالواقع أن الحب والعاطفة والايمان والمثل العليا أو الخسيئة مركزها المخ ، اما القلب فليس الا مضخة عضلية حية ذات صـــمامات وحجرات لتضخ الدم وتوزعه على الخلايا .. ثم مـــاذا؟

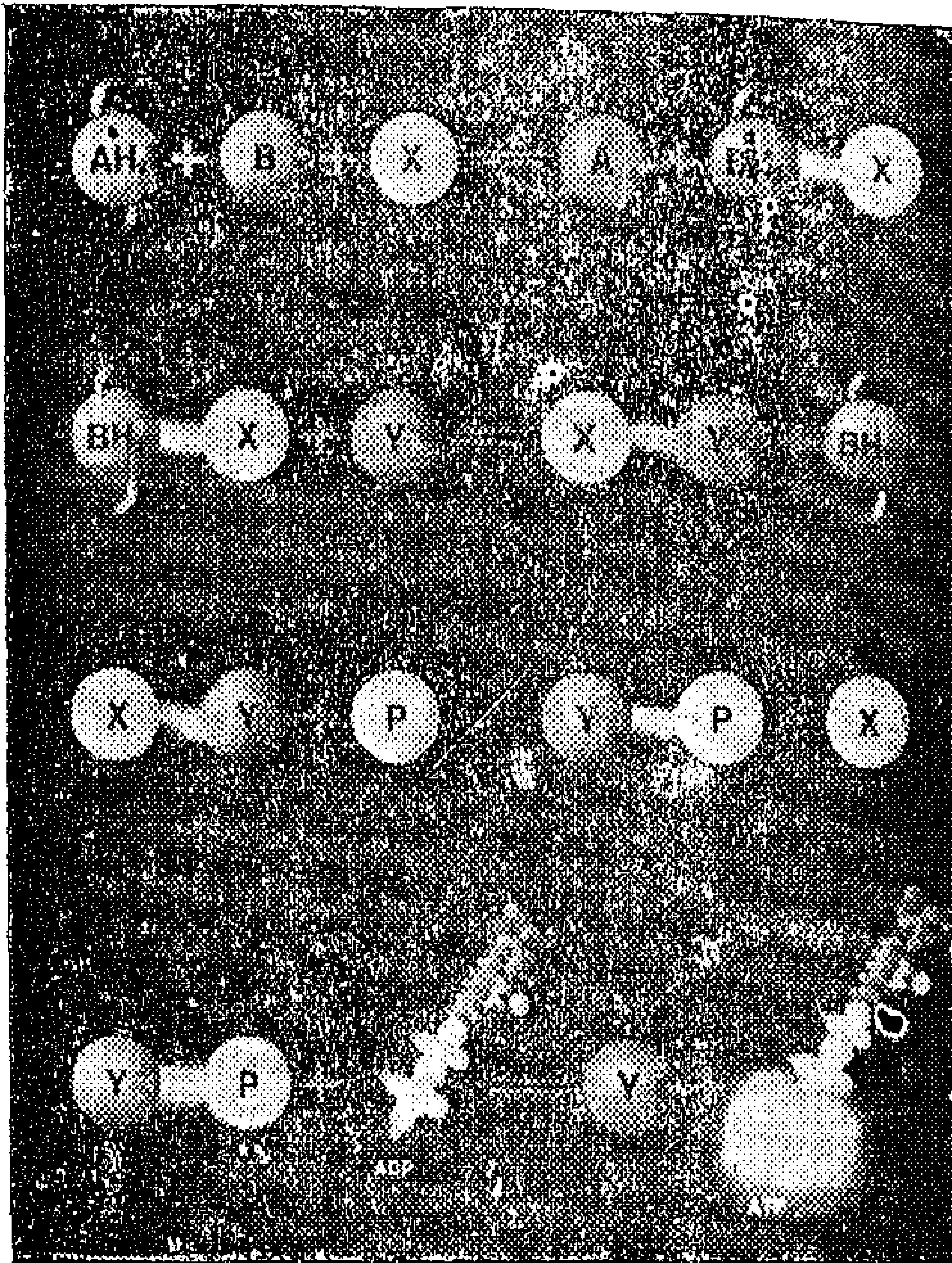
يحدث للمؤمن عندما ينقل اليه قلب غير مؤمن أو حتى قلب قرد أو قلب اليكترونى ؟!

ولندع الفصيح وفصاحته لنعود الى جزيئى حامض اللبن اللذين دخلا مولداتنا ، فاذا بهما فى نهاية الرحلة يعودان سيرتهما الاولى .. ماء وغاز ثانى أوكسيد الكربون ، ولكن بعد أن تكون المولدات قد استولت على الطاقة المخزونة فيهما ، وشحنت بهما ٣٦ جزيئا من ثنائى فوسفات الادينوسين ، لتصبح ٣٢ جزيئا من ثلاثى فوسفات الادينوسين ذى الطاقة العالية .

ما هذه «المعمعة» العلمية التى لامعنى لها ولا طعم ؟!.. هكذا ربما يتساءل البعض ، بسيط هذا الامر .. فليأخذ الفصيح زعيطا ويربطه ببهانه عن طريق المأذون فيصبح زعيط أحادى البهانه ، ثم اذا ربطه بأخرى يصير ثنائى البهانه ، وبثالثة ليكون ثلاثى البهانه !

البهانه الاولى حملها على زعيط خفيف ، والثانية أثقل والثالثة أثقل وأثقل .. فاذا أراد ان يتخلص من عبئه الاثقل ، فعليه أن يطلق بهانه الاخيرة .. فيصبح ثنائى البهانة .. ثم اذا تخلص من البهانة الثانية ، يصبح أحادى البهانة .

نفس القصة تتكرر فى مولداتنا التى أسميناها « الميتوكوندريا » .. ولتكن هنا بمثابة المأذون الشرعى أو غير الشرعى ، لست أدرى .. فتربط الادينوسين أحادى الفوسفات بجزىء آخر من الفوسفات ، ليصبح الادينوسين ثنائى الفوسفات ، ثم بجزىء ثان ليصبح ثلاثى الفوسفات .. ويبارك الشهود الاحد عشر (أى آل ١١ نوعا من الانزيمات) هذه الروابط المقدسة أو غير المقدسة .. الست أدرى كذلك ! (شكل ٦) .. أنما



(شكل ٦) شكل توضيحى لجزىء ثنائى فوسفات الادينوسين عندما يضاف اليه جـــزىء آخر من الفوسفات ، فيصبح ثلاثى فوسفات الادينوسين ذا الطاقة العالية التى يستفيد بها الكائن الحى عنـد تفريغها ، ويتحول الثلاثى الى ثنائى الفوسفات ، ثم يعاد شحنه من جديد

الذي ندريه أن رباط الفوسفات الثالث والاخير يحمل طاقة اكبر (كعبء زعيط ثلاثي البهانة) فاذا تحرر الجزيء من هذا الرباط ، انطلقت الطاقة ، لتجد فى استقبالها عملية تحتاجها .. حتى ولو كان ذلك فى رمش عين يغمز به زعيط لبهانة ، أو دمعة فى عين الفصيح ، ومن أجل هذا نستطيع ان نشبه الجزيئات بالعملة المتداولة .. ولكنها عملة من الطاقة .

ويعود الثلاثى ليصبح ثنائيا ، فيعاد شحنه مرة وبلايين المرات ، ومن وراء ذلك سكر ترابطت ذراته بطاقةشمسية فى نبات أخضر ، فيتحلل وتنطلق طاقة كيميائية لتستخدمها مولداتنا الدقيقة فى شحن ملايين بلايين البلايين من هـذه البطاريات الدقيقة التى كلما أفرغت شـحنتها ، عادت لتشحن من جديد ، حتى يودع زعيط دنيـاه الى الابد ، وعندئذ يتوقف كل شيء .

ان الفوسفات الذى يقف هنا كالوسيط ، يختلف عن الفوسفات الذى نسمد به ارضنا ـ لان النبات يحتـاجه كما يحتاجه زعيط والخنزير والفـأر والحيـة والحشرة والميكروب .. فأساس الحياة واحد بين أحط مخلوق ، وأعظم مخلوق .. الا اننى أعود فأقول : لو تعمقنـا فى الاسس الحيوية الكيميائية لكل المخلوقات ، لما قلنـا أحط وأعظم كما يظن البعض كذلك .. فالحيـاة فى أى صورة من صورها رائعة بألغازها وأسرارها وتنظيمهـا ودقتها ، حتى ولو كانت فى ميكروب لاتراه العين ، أو فى صرصار نضربه بالنعال !

هذا ببساطة جزء من قصة هذه الالة الحية الرائعة التى تفكر وتعمل وتسعد وتشقى وتموت .. ولكنها أكفأ وأعظم آلة عرفها الانسان .. ذلك ان دقة التنظيم الجزيئى

قد جعلها تستفيد بأكثر من ٦٠٪ من الطاقة المخزونة فى وقودها ـ السكر .. علما بأن الالة البخاريه ، مهمـــا بلغت كفاءتها لا تستفيد الا بحوالى ٣٠ ٪ من الطـــاقة المخزونة فى وقودها .. وهذا لا يرجع الى الالة ، بقـدر ما يرجع الى من صنع الالة ، ذلك ان القانون الاول من قوانين الديناميكا الحرارية يخبرنا بأن الطاقة اللازمة لفك جزىء تساوى تماما الطاقة التى دخلت فى ربط هـــذا الجزىء .. ومن هنا يبدو لنا كفاءة الآلية الحيـــة التى تشتغل فى جسم زعيط .

وليس ذلك فحسب .. بل ان هذه الالة العظيمة تعمل وتشتغل فى هـــدوء رائع جميل ، ودعك من الصخب والضوضاء والحركات الصبيانية التى يقوم بها صاحبها ، لكى يلفت الناس الى أهميته .. « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض » ، وكذلك ما ينفع هذه الآلة يمكث فى داخلها دون ان يصحب ذلك بخــــار ساخن ، ولا دخان متصــــــاعد ، ولا لهيب ظاهر ، ولا ضوضاء مكابس ولا أزيز مراوح ، ولا صوت نفاثات .!!

اروع من ذلك .. أن الخلايا لا تنتج من الطاقات الا بقدر ما تستهلك ، فعندما ينام زعيط ، لا يحتـــاج من الطاقة الا بقدر ما تستهلك أعضاؤه الداخلية لكى تسهر على راحته وحياته .. اذ لو نامت كما ينام .. لنام هو الى الابد !

ثم بمجرد ان يصحو من نومه تنطلق « صفارات الانذار الكيميائية » فى كل أنحاء جسمه .. فالحركة معنـــاها تفريغ البطاريات الكيميائية فى كل ثانية بالبلايين ، ولابد أن يعاد شحنها من جديد .. وعلى زعيط ان يلقى فى جوفه بمزيد من الخامات فى كل صباح وظهيرة ومساء .

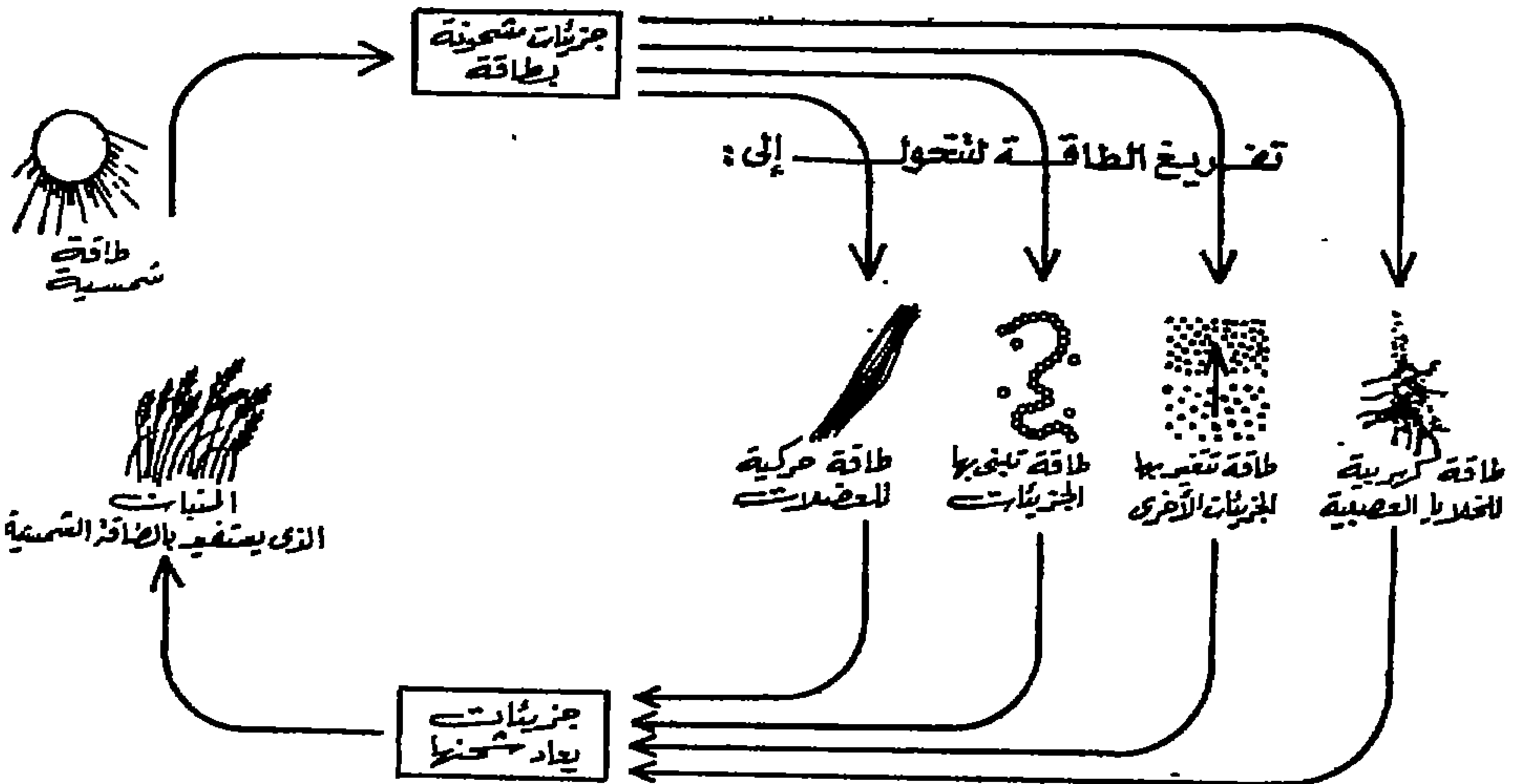
ان الذى يتحكم فى سرعة انتاج الطاقات هو نشاط المخلوق نفسه ، فعندما يقوم بمجهودات عنيفة .. يتضاعف شحن البطاريات ، وعندما يسكن تبطؤ ، ويرجع بطؤها الى تكدس المولدات ببطارياتها المشحونة معلنة بذلك عن استغناء الجسم عما انتجت ، وعندئذ تنقبض جـــدر المولدات ، وكأنما تضيق الخناق على الانتاج ، حتى اذا ما جد الجد ، وزاد النشاط ، اتسعت من جديد ، فيزيد الانتاج لتبعث به الى الساحات الخلوية فهى لا شك فى حاجة الى المزيد ، لتلبى نشاط المخلوق .

وهنا يقفز الفصيح ويقول : حسنا .. لقد توصلت الى فكرة .. فما دامت هـذه الجزيئات العجيبة تمنح اجسامنا القوة والنشاط فلماذا اذن لا اتناول منهـــا ملعقة او آخذ منها حقنة « دوبل » ، لكى اصبح فى قوة هرقل ، فأهزم الاعداء ، وأهدم الحصون ؟!

وحذار أن تفعل يا فصيح ، فنحن نحتـاج الى عقلك الواعى وفكرك السليم ، اكثر مما نحتاج الى عضلاتك ولسانك .. فلا فائدة ترجى من وراء ذلك ، حتى ولو أخذت الحقنة « الدوبل » ــ ان كانت ميسورة ــ فقـــد تظهر عليك أعراض التسمم .. وهنـــا لابد أن تعلم ان الجزىء الصحيح ، لابد أن يكون فى المكان الصحيح .. ولقد عرفت الخلايا ذلك منذ عشرات الملايين من السنين ، ولم يعرفه البشر ــ فكانت الفوضى المستترة ، أو الظاهرة .. لست أدرى

نترك الفصيح ، ونعود لزعيط لكى نقيمه بطاقاته التى يبذلها يوميا فى عمله ، ومنها ستعرف كم يساوى بمعايير الطاقات الاخرى .

ولكن قبل ان نسير فى هذا التقييم ، كان لابد ان نوضح



(شكل ٧) رسم توضيحي يبين تحويل الطاقة الضوئية في النبات الى طاقة كيميائية تشحن بها الجزيئات لتنتقل الى الحيوان (عن طريق الطعام)، فتتحول فيه الى طاقة حرارية وميكانيكية وكهربية .. الخ .. وعند التفريغ يعاد شحنها عن طريق ما يتناوله الحيوان من انتاج النبات .

معنى تحول الطاقات من صورة الى أخرى .. فالطاقات الضوئية – كما سبق ان ذكرنا – تتحول فى النبات الاخضر الى طاقة كيميائية لتترابط بها الجزيئات الصغيرة فى جزيئات اكبر ، وتصبح كامنة فيها لحين اطلاقهـا فى الكائنات الحيه .. وعندما تنطلق فيها تتحول بدورها الى صور عديدة ، فجزء منها يظهر على هيئة طـاقة حرارية لتحفظ جسم الانسان والحيوان عنـد درجة حرارة مناسبة ، والزيادة تنطلق فى الوسط الذى يعيش فيه ، وانت تستطيع ان تحس بذلك فى مـكان مزدحم بالناس .. فكل واحد منهم يشع من جسمه قدرا من الحرارة ، فاذا كان الجو باردا فى الخارج ، ودخلت عليهم فى قوقعتهم التى يتكدسون فيها ، لأحسست بدفء المكان.

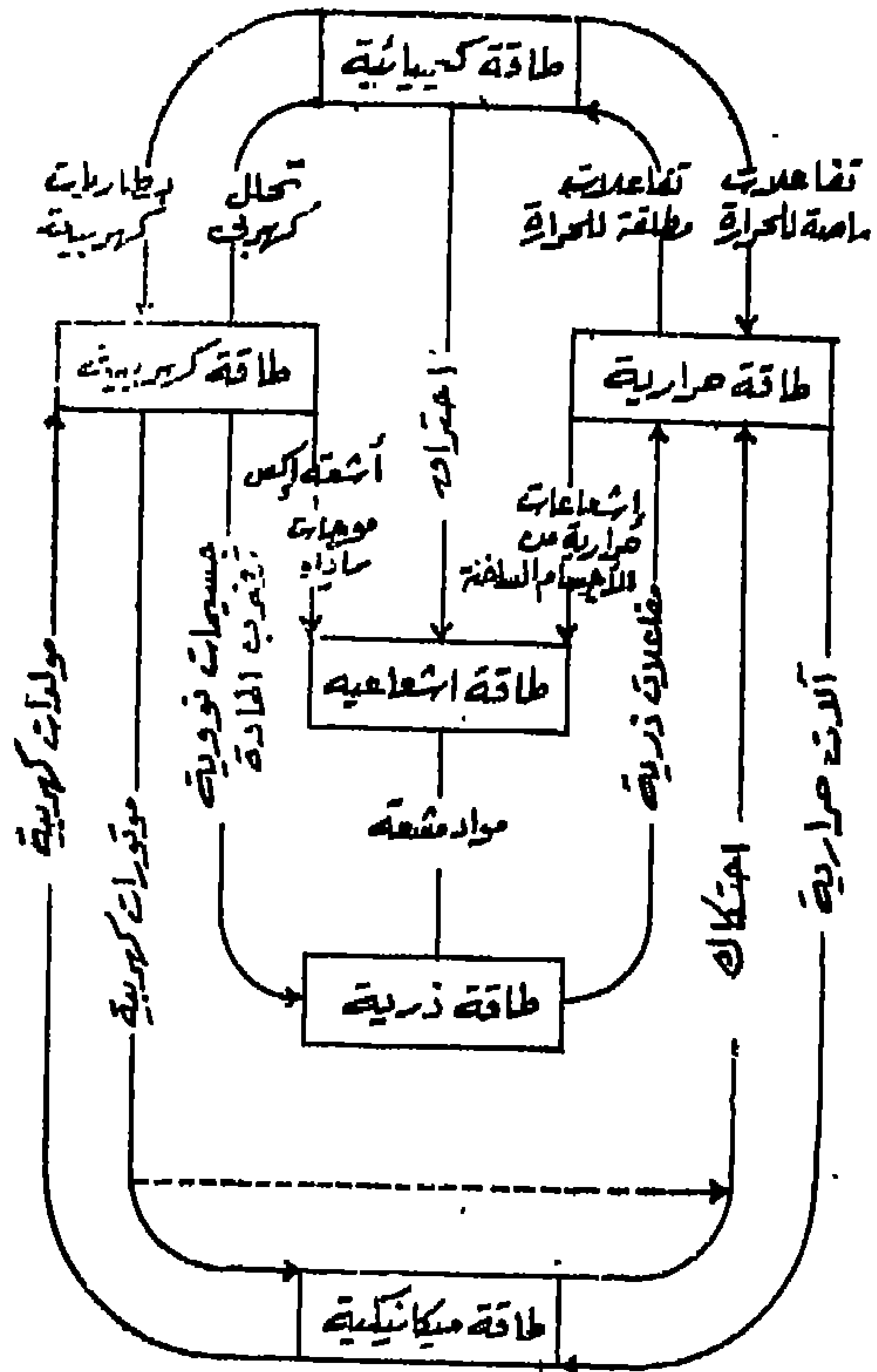
وجزء يتحول الى طاقة كهربية تشتغل بها الخـلايا العصبية التى ترسل اشاراتها على هيئه نبضات كهربية يمكن قياسها أو تسجيلها بأجهزة خاصة .

وجزء يتحول الى طاقة ميكانيكية أو حركية تشتغل بها العضلات (بما فى ذلك القلب والامعاء ... الخ)

وجزء يستغل على هيئة طاقة كيميائية تتم بها آلاف العمليات الكيميائية المنظمة التى تهب المخلوق حياته .

وجزء تستغله الخلايا المختلفة فى امتصـاص الجزيئات والايونات أو افرازها الى الخارج (أو مانعبر عنه بالخاصية الازموزية أو الانتشار الفشائى) .. الخ « شكل ٧ » .

والواقع انه يمكن تحويل اى صورة أو مظهر من الطاقة الى صورة أخرى مختلفة – فالطاقة الكهربية مثلا يمكن تحويلها الى طاقة ضوئية (كما فى المصابيح الكهربية) ، أو ميكانيكية (كما فى الموتورات) أو حرارية (كما فى الافران والدفايات الكهربية) ، أو اشعاعية (كما فى أشـعة رونتجن أو اكس) ..الخ .



(شكل ٨) رسم توضيحي يبين كيف تتحول الطاقات من صـــورة الى أخرى ((عن كتاب : آلان أيزاك . مقـــــدمة للعلم . كتاب بينجوين)) .

هذا وصور الطاقة التي نعرفها تبدو لنا فى ستة مظاهر مختلفة : كيميائية وكهربية وحرارية واشعاعية « ضوئية » وميكانيكية وذرية « أو نووية » .. وأنه يمكن تحويل اى منها الى الاخرى كما يظهر لنا ذلك فى الرسم التوضيحى (شكل ٨) .

لو عدنا بعد ذلك الى زعيط واردنا أن نحول الطـاقة الكيميائية الناتجة من حرق السكر فى خلاياه الى طاقة كهربية أو ميكانيكية أو حـــرارية ، فان ذلك لن يكون مستعصيا ــ نظريا على الاقل ــ وكأننا بذلك ننظر اليه قوانين الديناميكا الحرارية Thermodynamics .. ولهذا على أنه آلة حية تنتج عملا .

والواقع ان زعيطا نظام من النظم الكونية التى تطيع يمكن اعتباره ــ الى حد ما ــ آلة حية على قدر عظيم من الكفاءة والتعقيد .. ولكنها تختلف عن كل الآلات التى نعرفها فى حياتنا اختلافا جوهريا .. ذلك أن آلاتنا لا يمكن ان تعطى ذرية من آلات صـــغيرة : ولا ان تنمو وتكبر ، ولا ان يكون لها ارادة : ولا ان تصلح نفسها وتقاوم العطب كما تفعل الالة البشرية عندما تتعرض لجرح أو كسر أو هجوم ميكروبى .. الخ .

ومع ذلك فزعيط والالة لا يستطيعان أن يقوما بمجهود الا اذا حصل كل منهما على وقوده أو طعامه ، مع الاختلاف طبعا بين وقوده ووقودها ، فلم نر زعيطا واحدا يستطيع ان يحرق بنزينا أو مازوتا ، ليستخلص منه الطاقة التى تجرى بها آلته الحية (*) ولم نشاهد سيارة تجـــرى

(*) الواقع أن هناك بعض صور من الحياة ممثلة فى كائناتها الدقيقة « انواع خاصة من البكتريا » تستطيع ان تعيش على البترول كمصدر من مصادر طاقاتها ، فتحرقه حرقا بطيئا ، وتستغل الطاقة المنطلقة فى عملياتها الحيوية .

وتنطلق بوجبة من وجبـــــات زعيط .. ولكن النتيجة الحتمية ان كلا منهما يستهلك وقوده : ليحصل على الطاقة وتنطلق الحرارة المصحوبة ببخار ماء وغاز ثانى اوكسـيد الكربون .. كذلك تستهلك الآلة وقودا اكثر اذا اشتغلت بطاقة اكبر ولا يختلف عنها زعيط فى كل هذه الامور .. الخ

وكما تختلف قيمة وقود الالات ، كذلك تختلف قيمة وقود المخلوقات .. والجدول الآتى يبين لنا هذه الحقيقة مقدرة بالسعرات الحرارية لكل كيلو جرام

نوع الطعام	القيمة بالكالورى للكيلو جرام
بيرة	٥٠٠
لبن	٧٠٠
بطاطس	٩٠٠
لحـم	١٧٠٠
خبز	٢٣٠٠
ســكر	٠٠٠
شيكولاته	٥٥٠٠
زبدة	٨٠٠٠

وبمقدورك هنا أن تقدر لزعيط ما يحتاجه يوميا من سعرات حرارية على هيئة طعام ، الا ان زعيطا ـ كماذكرنا ـ رجل بدين لأنه يزن مائة كيلو جرام ، والرجل البدين يستهلك طاقة أكثر من الرجل النحيف.. فمساحة جسم البدين اكبر ، ولهذا فهو يشع حرارة أكثر .. وعليه أن يعوض ذلك ، اذا أراد ان يحتفظ ببدانته .

لقد قدر العلماء للانسان متوسط الوزن حاجته اليومية من السعرات الحرارية .. والسعر أو الكالورى وحـدة حرارية . وهى تساوى كمية الحرارة اللازمة لرفع درجة

حرارة كيلو جرام من الماء درجة واحدة مئوية .

والجدول الآتى يبين نوع النشاط لانسان وزنه ٦٥كيلو جراما ، وما يلزمه من سعرات حرارية فى كل ساعة .

نوع النشــــــاط	سعر
١ ـ الانسان وهو نائم	٦٥
٢ ـ الانسان وهو جالس « متيقظ »	١٠٠
٣ ـ الانسان وهو يكتب على آلة كاتبة	١١٠
٤ ـ الانسان وهو يغسل اطباقا	١٤٤
٥ ـ الانسان وهو يمشى ببطء	١٧٠
٦ ـ الانسان وهو يرقص	٢٠٠
٧ ـ الانسان وهو يمشى بسرعة	٢٥٠
٨ ـ الانسان وهو ينزل السلالم	٣٦٥
٩ ـ الانسان وهو ينشر الخشب	٤٨٠
١٠ ـ الانسان وهو يسبح	٥٠٠
١١ ـ الانسان وهو يجرى بسرعة ٥ اميال فى الســاعة	٥٧٠
١٢ ـ الانسان وهو يصعد السلالم	١١٠٠

ومن المعروف ان الانسان لا يستطيع ان يبــــذل مجهودات عالية لفترات طويلة .. فلكل شىء طاقة ، ولكل عمر .. ومع ذلك فان متوسط الطاقة التى يعيش بهــا الانسان تقع فى حدود ..٣٥ كالورى فى اليوم الواحد .. فاذا زاد نشاطه ، زادت احتياجاته من الطاقة .. وعليه ان يعوض هذا بطعام ليستخلص منه الطــاقة اللازمة لاستمرار نشاطه .

لو أن زعيطا قام بعمله على الوجه الذى يرضى الله والوطن والضمير ، وأنه فى عمله يبذل مجهودا جسمانيا كزراعة الارض وكنس الشوارع او حمل الاثقال .. الخ فانه يحتاج يوميا الى أكثر من ستة آلاف كالورى فى المتوسط يستطيع ان يحصل عليها من التهام حوالى ٧٥٠ جراما من الزبدة أو كيلو جرام ونصف من السكر ، او حوالى كيلو جرامين ونصف من الخبز ، أو سبعة كيلو جرامات الا ربعا من البطاطس ، أو أكثر قليلا من كيلوجرام من الشيكولاته ، أو ثلاثة كيلو جرامات ونصف من اللحم .. وكل هذا يتوقف على جيبه وما حوى .. ان حوى !

وبطبيعة الحال لا يستطيع الانسان ان يعيش على نوع واحد من الطعام ، بل عليه أن ينوع فى طعامه وشرابه ما استطاع الى ذلك سبيلا .. وعليه أن يلقى فى جوفه بقدر ما تستهلك خلاياه ، لان الزيادة تؤدى الى البدانة، والبدانة تجر على أصحابها أمراضا وبيلة .

فاذا كان طعامك فى يوم واحد يحتوى ٣٤٠٠ سعر حرارى ولم يستهلك جسمك منها الا ٢٤٠٠ سعر ، فان الالف الباقية لن تضيع عليك ، بل ستدخر فى « بنك » الجسم على هيئة دهون .. واليك كشف الحساب :

كل الف سعر حرارى تزيد عن احتياجات جسمك تختزن على هيئة ١/٩ كيلو جرام من الدهون .. اى ان كل ٩٠٠٠ سعر تزيد الرصيد الى كيلو جرام واحد !

ولكى يتخلص الانسان من الزيادة ، فعليه أن يقوم بمجهودات جسمانية لكى يستهلك الرصيد ـ فخطورته تتأتى بعد سن الثلاثين ، لان كل نصف جرام من الدهون تضاف الى وزن الجسم ، تحتاج الى زيادة فى طول الشعيرات الدموية تقدر بحوالى ١٧٠٠ ياردة .. وهنا

لابد ان يتحمل القلب عبئا جديدا فوق اعبائه .. ولكن نصف كيلو جرام أو كيلو جرامين لايهم كثيرا ، بعكس عشرة او عشرين كيلو جراما .. فهذه تحتاج الى شعيرات دموية جديدة يصل طولها الى عشرين او اربعين ميلا !

***

بعد هذه الرحلة القصيرة فى عالم الطاقات التى تسير بها حياة زعيط : نعود لنقيم صاحبنا على اساسها .

فهل نقيمه مثلا بالطاقة الكيميائية والحـــرارية التى تنطلق فى جسمه يوميا ؟

لو فعلنا ذلك ، لكنا خاطئين ، لانها لن تفيدنا الا بقدر ما نســـتفيد من حرق ثلاثة أرباع كيلو جرام من الفحم او كيلو جرام وربع كيلو جرام من الخشب او الحطب .. وزعيطنا أغلى من ذلك بكثير .

هل نقيمه مثلا بطاقة كهربية ؟ .. علينا بذلك فربما كان عاطلا ، أو لا يستفيد الناس من وجوده ، وعلينا أن نستفيد به ما دام محسوبا علينا « كمالة عدد » ! .. فاذا كان ذلك ممكنا « نظريا فقط » .. فكم تساوى بمعاييرنا الكهربية ؟

الواقع ان كل كيلو وات ساعة يساوى ٨٦٠ كالورى .. وزعيطنا يعيش بحوالى ستة آلاف كالورى « لأنه سمين ويقوم بمجهود » ـ عندئذ لو تحولت هـــذه الطاقة الى كهرباء فانها تعطينا حوالى سبعة كيلو واتات : تســاوى حوالى عشرين قرشا يوميا !

فهل انت مستعد لأ فصــح ، لكى تؤويه وتطعمـــه وتكسوه (وستكون كارثة لو كان زعيط من هواة التدخين) لكى تستخلص منه طاقاته الكيميائية على هيئة كهرباء ان استطعت الى ذلك سبيلا ؟

اذا فعلت وفعلنا لكنا خاطئين .. فما أكثر محطات توليد الكهرباء ، وما ارخص أسعارها .. ثم أن زعيطا أغلى من أن يكون مولدا كهربائيا طاقته ٣٠٠ وات ساعة .

هل نقيمه بقوة الحصان ؟!

حسنا هذه فكرة جذابة .. فكم حصانا يساوى ؟ .. هكذا ربما يتساءل الفصيح !

واليكم التقديرات بالارقام .. كل كيلووات يساوى ١ر٣٤ قوة حصان (*) .. وصاحبنا ينتج طاقة تساوى ٦٠٠٠ كالورى يوميا ، او سبعة كيلو واتات : تعادل ٣٨ر٩ قوة حصان يوميا أو حوالى ٤ر. حصان / ساعة .

اذا قدرنا زعيطا بهذه المقاييس لكنا خاطئين .. رغم ان الرقم مشجع ، فما أكثر الاحصنة والبغال والحمير والآلات .. فزعيط أغلى من ذلك بكثير .. هذا ان كان يدرك جلال الرسالة التى من اجلها قد جاء على هذا الكوكب .

هل نقيمه بما حوى فى جسمه من « بطاريات » كيميائية مشحونة .. فقد تكون لها ثمن .. اى ثمن ؟

دعنا نقدر هذا .. فربما كانت أكثر فائدة لنا من زعيط .

لو استطعنا ان « نحلبه » ونحصل منه اولا باول على كل جزىء من جزيئات ثلاثى فوسفات الادينوسين مشحون بطاقة ، فان حصيلتنا مما يشحن فى يوم واحد تقدر تقريبا بوزن جسمه .. اى اننا سنحصل على كومة محترمة من بلورات بيضاء نظيفة وزنها مائة كيلو جرام !

وقبل أن يعود الفصيح ليتدخل ويسأل نسارع بتوضيح

(*) قوة حصان وحدة من وحدات قياس الشغل الميكانيكى المستخدم فى الموتورات والالات والسيارات والطائرات .. الخ ، ويمكن تحويلها الى اى صورة من صور الطاقة .

ذلك بمثال ملموس، فجسم زعيط يحتوى تقريبا على اكثر من حوالى اربعة كيلو جرامات من الدم ، علما بأن قلبه يضخ فى اليوم الواحد ثلاثة ارباع طن من الدم .. وذلك لان الدم يدور ويعود الى القلب ليضخه فى اليوم مئات المرات .

وكذلك تكون حال الجزيئات المشحونة بالطاقات .. فهى تفرغ شحنتها وتعود الى مولدات الطاقة لتشحن وتفرغ لتشحن .. والواقع ان عمليه الشحن والتفريغ تتم فى الجسم فى كل ثانية بالبلايين ، ولو استطعنا ان نحصل على ما يشحن اولا بأول ، لحصلنا منها على ما يساوى وزن زعيط ، علما بأن جسمه لا يحتوى فى أى لحظة الا على حوالى ٧٠ – ٩٠ جراما لاغير .. الا ان اعادة التفريغ والشحن تتم مرات كثيرة جدا فى اليوم الواحد ، ومن هنا قدر العلماء نظريا معنى ذلك بالارقام .. كما قدروا مقدار ما يضخه القلب من الدم فى اليوم الواحد !

ومائة كيلو جرام من ثلاثى فوسفات الادينوسين يسيل لها اللعاب ، ويخفق لها القلب ، فليس لدى منها جرام واحد ، ولا فى السوق المحلى كذلك ، فثمن الجرام ـ على حسب السعر الذى سجل فى احد « كتالوجات » المواد الكيميائية ـ يبلغ ثمانية دولارات .. ذلك ان عمليـة استخلاصه وتنقيته تتكلف الكثير .

معنى هذا ان زعيطا يشحن فى جسمه ما يقدر قيمته بثمانمائة الف دولار يوميا ، أو حوالى ثلث مليون جنيه استرلينى بسعر «الكتالوج» ونصف مليون جنيه او أكثر بسعر القطاع العام ، هذا وتستخدم هذه المادة الثمينة اصلا فى البحوث العلمية .. وما أكثر المواد الثمينه التى يحتويها جسم المخلوق ، ثم يكون مآلها تراب .

اذن فزميطنا هذا يساوى الكثير دون أن ندرى .. وقد يرسل لى الفصيح خطابا ليسألنى عن اســـمه بالكامل وعنوانه بالتمام .. ولو فعل ذلك لكان فصيحنا خاطئا .. فنفس الشيء موجود فى البهائم والحمير والخنازير والديدان والحشرات والنبات .. وكل كائن حى يسعى امامك ، او لا يسعى ،، فالحياة فى أى صورة من صورها لا تتم الا من طريق هذه البطاريات الكيميائية الدقيقة ــ فهى العملة المشتركة التى تتداولها كل المخلوقات ، فتتحرك وتجرى وتؤدى فى الحياة رسالاتها أو لاتؤدى .. ومن وراء ذلك طاقة ضوئية ترضعها الشمس لأرضها ، والارض لنباتها ، والنبات لحيوانها .. وهكذا يسير الطوفان الحى بكل ابعاده ومعانيه !

بماذا نقيم زعيطا اذن ؟ ..

علينا ان ننظر اليه على انه كتاب مكتوب ، او قاموس ضخم مليء بالشفرات والاسرار .

اذن فالى تقييم جديد ..

الفصل الثالث

أنت قاموس..
لا يقيم بمال!

انت ـ كانسان ـ ذو كيان عظيم .. اعظم كيان على هذا الكوكب .. تولد وتنمو وتشق فى الحياة طريقك ؛ ثم تؤثر فى حياة الناس .. وقد تكون دائرة تأثيرك عظيمة او بسيطة ، وقد ياتى غيرك فيكون بمثابة عابر طريق ؛ لا يحس به احد ، ولا يقيمه احد . الا أننا سنترك هذا التقييم لنختتم به موضوعنا الذى تعرضنا له فى هذا الكتاب .

ولا بد ان نعودمرة اخرى لزعيط ولبهانة.. فلقد ذكرنا من قبل ان اعظم حدث فى بداية حياة زعيط قد تم بين والديه فى مكان ماوساعة ما قضيا فيهاوقتا طيبا سعيدا، وبعدها كتبت صفات زعيط ، وتحددت كل معالمه . . ولا يهم بعد ذلك قيمة والدى زعيط أو بهانه ، فقد يكون والده صاحب جلالة أو فخامة ، وقد تكون امه صاحبة العظمة السلطانة .. أو من هواة ركوب العربات « الكارو » .. كل هذا لا يهم ، بقدر ما يهمنا « قاموس » حياته المكتوب فى هذه الليلة التي قد يعتبرها زعيط ـ بعد ان يبلغ مبلغ الرجال ـ ليلة سعيدة أو سوداء فى حياته ..

أن عيد ميلاد زعيط او بهانه قد بدأ بالفعل فى هذه الليلة ، وليس يوم مولده كما نظن ثم نحتفل به أو لا نحتفل .. ولهذا فان الصينيين هنا على حق عندما يضيفون



(شكل ٩ أ) صورة بالميكروسكوب العادى عند انقســام خلية الى خليتين . .لاحظ وجود الكروموسومات وهى تهاجر الى قطبى الخليتين الجديدتين ((فى طور التكوين)) ،وبهذا تتكاثر الخلايا والمخلوقات

اشهرا تسعة الى عمر الطفل عند ولادته .

فى هذه الليلة انسابت ملايين الخلايا من والد زعيط، لكى تسبح بذيولها وتضرب فى سائل منوى يحملها .. ولقد كانت بويضة كامنة فى عشها تنتظر هذه الملايين السابحة ، واذا بها تحاط بالحيوانات المنوية الراقصة .. ولو قدر لنا وشاهدنا هذه الاحداث تحت عدسات المجهر ، لرأينا مهرجانا غريبا .. فهناك نرى الكل يضرب بذيوله ، والكل يرقص ويقبل جدار البويضة قبلة سحرية تختلف فى تفاصيلها ومعناها عن القبلة التى يتبادلها والدا زعيط على فراش الزوجية . . وعندئذ تستجيب البويضة لقبلة حيوان منوى واحد ، قد يكون هو أقواها ، أو قد لا يكون .. لسنا ندرى ، ودائما ما نرجع هذا الى المصادفة . والمصادفة لفظ يعبر عن جهلنا بما يدور من احداث تجرى فى رحم ام ، أو نواة خلية ، أو حياة ذرة ، أو بموت الناس .. الخ .. المهم انها تقبل واحدا، ثم تغلق أبوابها فى وجه الملايين الاخرى !

وبدخول الحيوان المنوى الى البويضة يتحدد جنس المخلوق ، اى هل سيخرج الى الحياة على هيئة زعيط أو بهانه .. ثم يتحدد له لون بشرته وعينيه وشعره ، طوله وقصره ، نحافته أو بدانته ، تقاطيع الوجه ، شكل الاظافر ، بصمات الاصابع ، تناسق الاطراف ... الخ كل هذا قد كتب « بمداد » غريب لا يزن أكثر من ستة اجزاء من مليون جزء من الجرام (أى ٦ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠ من الجرام)

ترى .. لو كان هذا المداد ينساب من قلم ، فكم كلمة نستطيع أن نخطها على الورق بـ ٦ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠ من الجرام؟!.. لنكن متفائلين ونقول نقطة أو



(شكل ٩ ب) .. بعد أن رحلت الكروموسومات فى شكل ٩ أ .. استقرت كل مجموعة فى نواة داكنة فى قلب كل خلية .. لاحظ تكوين خليتين جـــديدتين كذلك ..

شرطة واحدة لا غير ؟!

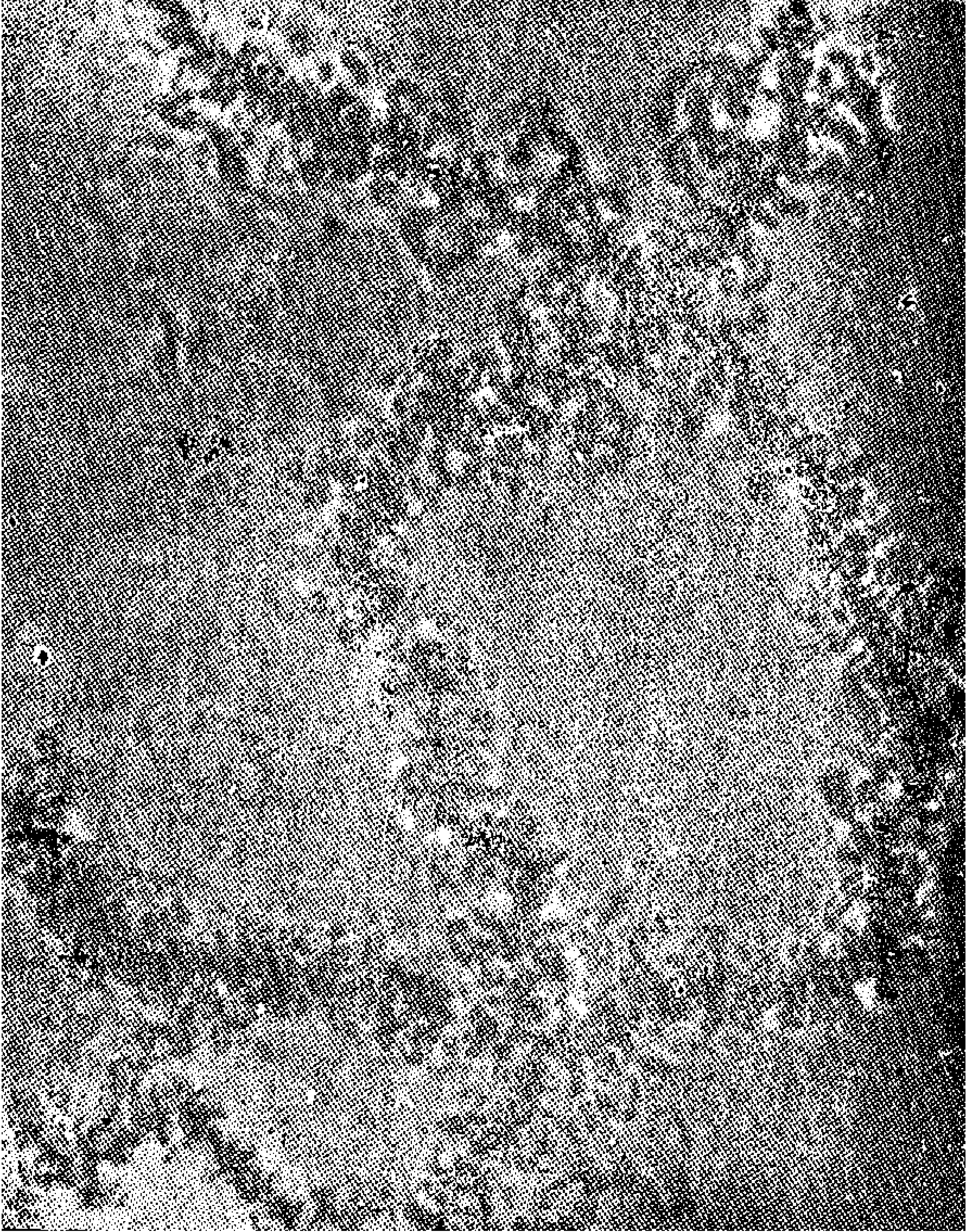
ولكن المعلومات الموجودة فى البويضة الملقحة التى بدأ بها زعيط بدايته الاولى مدونة على هيئة شفرات وراثية مسجلة بجزيئات كيميائية على هيئة اشرطة دقيقة لا يزيد طولها عن مترين وعرضها عن جزئين من مايون جزء من المليمتر ، ومع ذلك فلو استطعنا ان نخط هذه المعلومات الكيميائية بلغتنا ، فلن تكفيها مئات المجلدات الضخمة التى ينوء بحملها جمل ضخم او حصان قوى .

وهنا يظهر الفصيح على مسرح الاحداث فيتساءل بدهشة : ما معنى هذا الكلام الغريب ؟ . . مداد وقواميس ومعلومات مكتوبة وشفرات مسجلة . . واشرطة مكدسة ؟ . . هل هذا كلام له معنى وطعم ؟!

ولكى نقطع على الفصيح فصاحته نعود فنقول : ان كل خلية من خلاياه تحوى اشياء غريبة كأنها الدود أو العلق الدقيق (*) واننا لا نستطيع أن نرى هذه الاشياء الا اذا استعنا بميكروسكوب قوى واصباغ وخلايا فى حالة من الانقسام ، فاذا فحص الفصيح بدايته أو أى خلية فيه ، عندئذ سيظهر له أول سر من أسرار الخلق فى تلك الصورة التى التقطها العلماء لبداية هذا الطوفان الحى من البشر (شكل ٩ أ ، ب) .

والى هنا لا يستطيع الميكروسكوب العادى ان يوضح لنا أكثر ، وعندئذ نستعين بالميكروسكوب الاليكترونى ، ولكى يوضح لنا تفاصيل أدق (شكل ١٠) . . وهنا تظهر

(*) ونطلق على ذلك اسم الصبغيات او الكروموسومات chromosomes لان هذه الخيوط الدقيقة التى تسكن نواة الخلية تمتص الاصباغ بشراهة ، لتظهر لنا أوضح بما امتصت .



(شكل ١٠) .. صورة لكروموسومين بالميكروسكوب الاليكترونى .. بالرغم مما تراه هنا كمتاهات غريبة ليس لها معنى، الا أنها تعنى الكثير جدا بالنسبة للحياة وبالنسبة للعلماء

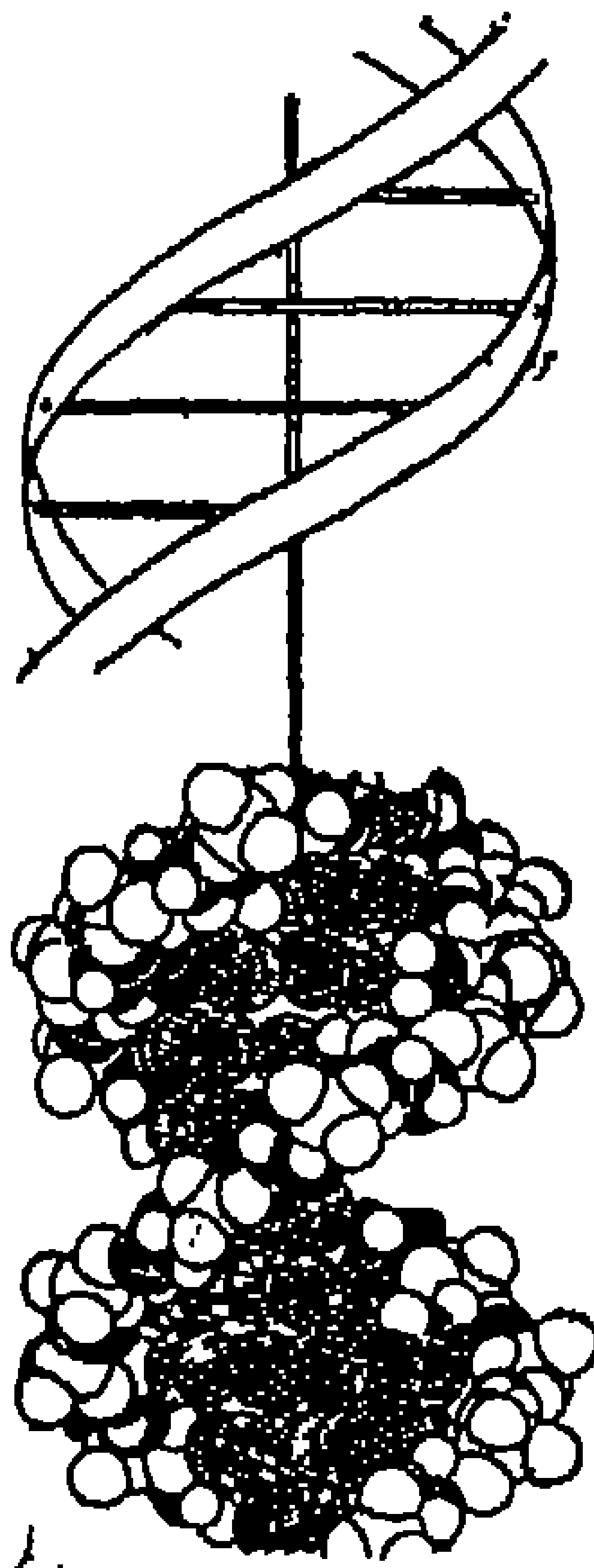
لنا أشياء تفيم على العقول وعلى البصر ، وكانمـــا نرى جزيئات حلزونية تدور وتلف ومن وراء دورانها هــــذا هدف ..

ثم يأتى دور التحليل الكيميائى والفحص باشعة اكس وغيرها .. فيتبين لنا ان هذه الغيوم ليست الا بلايين فوق بلايين من الذرات المترابطة فى جزيئات طــــويلة اسميناها الاحماض النووية لانها تسكن فى نواة الخلية.. وقد يسميها البعض الجزيئات الوراثية لانها تـــورث المخلوقات صفاتها .

غير أن لأحماضنا هذه نظاما غريبا ، أوضحه لنــــا اثنان من العلماء ظفرا من أجله على جائزة نوبل ·· فقــد تبين لهما ـ بعد بحوث طويلة مستفيضة ـ ان الجزيئات تلف وتدور وكانما هى سلالم كيميائية حلزونية ، وان كل ما فيها لا يخرج عن جزيئات ستة لا أكثر ولا أقل .. اثنان منها يبنيان على اليمين « درابــــزين » وعلى اليسار مثيل ·· فنرى دائما جزيئا من الفوسفات مرتبطا بجزىء من سكر خاص (اسمه ديزوكس ريبوز) .. ثم يرتبط سكر بفوسفاته .. ثم سكر بفوسفات.. كرروا هذا ببساطة ملايين المرات ليكــــون على اليمين درابزين ، وعلى اليسار درابزين .

ان بناء الدرابزين ليس مهما بقدر ما تهمنا الدرجات الكيميائية التى يضمها الدرابزين بين جانبيه .. فمـــا هى تلك الدرجات العجيبة ؟

انها جزيئات كيميائية أربعة من اثمن واروع ماعرفناه فى عالم البناء الذرى . فلقد تراصــــــت فيها ذرات الايدروجين والاوكسيجين والنيتروجـــــين والكربون بهندسة خاصة ، لتعطينا جزيئات الادينـــين والثيمين والجوانين والسيتوزين ، ولتبسيط الامور سناخـــذ



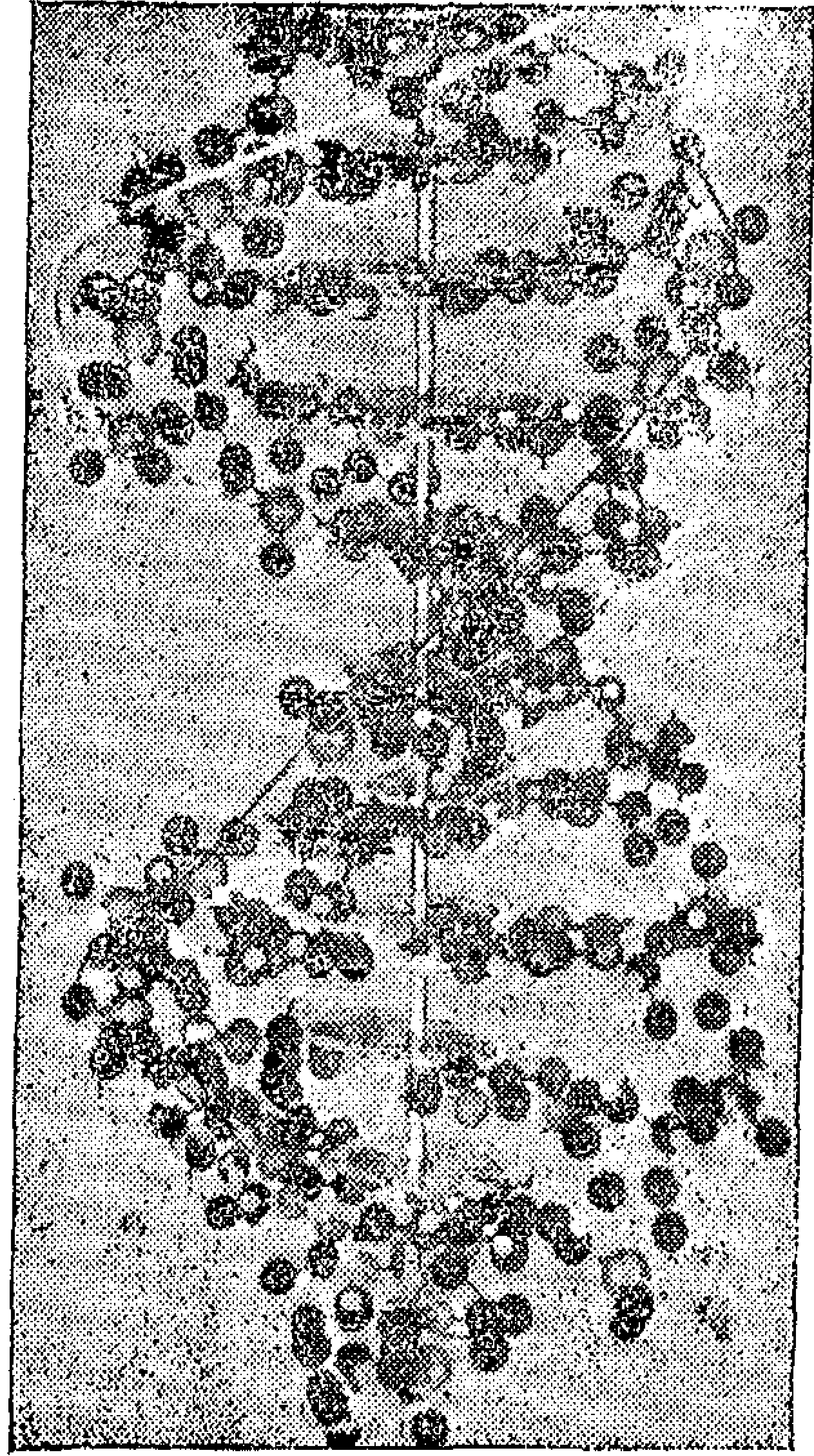
(شكل ١١ أ) رسم توضيحي يبين لنا كيف تبنى الجزيئات الوراثيه على هيئة سلم حلزوني وفيه تتراص الشفره « أ ، ث ، ج ، س » على هيئة درجات متتابعة « في كل كروموسوم ملايين من هذه اللفات الحلزونية »

الحرف الاول من كل مركب ، فتكون أ ، ث ، ج ، س.. الاول والثاني دائما مرتبطان في درجة ، والثالث والرابع يبنيان درجات اخرى مختلفة ، وبعدها تستطيع ان تكرر ملايين الدرجات العجيبة ! (شكل ١١ أ ، ب)

الا ان تكرارها بين شقى الدرابزين ليس له معنى في عقولنا رغم انها قد اصبحت اللغة السرية التى تكتب بها الحياة كل مخلوقاتها .. وبحروف أو مركبات كيميائية لا غير .. وهكذا قد تبدو لنا الامور بسيطة ، الا انها ليست في الواقع كذلك .. فما معنى تتابع أث . أث . ث ! . ج س .س ج .س ج .ث أ .. الخ ، ان ذلك ليس له معنى بالنسبة لنا ، ولكنه بالنسبة للبويضة الملقحة .. يعنى الكثير جدا ، فبهذه الشفرة الكيميائية (التى قد تتراص بالمئات والالاف في جزء صغير من الجزىء) ، تستطيع الجزيئات الوراثية الممثلة في أحماضها النووية أن تصدر تعليماتها لتخليق خميرة أو انزيم لاستخدامه في عملية واحدة من العمليات الكثيرة جدا في الخلايا الحية .

ان اختلاف نظام حرفين أو أكثر من المئات أو الالاف المتراصة في شفرة واحدة يعنى خطأ لا يغتفر ، لان ذلك يؤدى الى تكوين الجزىء الخاطىء ، وهذا لا يستطيع ان يؤدي في الحياة رسالته ، وهنا قد يظهر مرض وراثى في زعيط وغير زعيط .

معنى هذا أن النواة هى مركز القيادة الحية في الخلية ، وأن الجزيئات الوراثية التى تصدر التعليمات الكيميائية على هيئة شفرات سرية مسئولة مسئولية كاملة عن حسن سير الامور .. ولهذا نعتبرها بمثابة هيئة القيادة التى ترسم وتخطط وتنظم وتهيمن وتصدر الاوامر ، الخ ..



(شكل ١١ ب) يوضح نموذجا أكثر
تعقيداً لجزيئات الشــفرة الوراثية

ومن هنا كانت خطورة رسالتها ، لان الخطـأ – حتى ولو كان طفيفا – سيؤدى الى فوضى .. الى نكسة .. الى طفرة سيئة .. فتدفع الاجيال التالية من المخلوقات ثمنها على هيئة امراض وراثية . . والحياة غالبا ما تقضى على هؤلاء ، حتى ولو طال الزمان ، لانها تريد أن تحافظ على الصالح القوى ، وتقضى على الفاسد الخاطىء ، تماما كما هو الحال فى الشعوب .

ان النواة تستطيع أن تصدر امدادا لا حصر لها من الاوامر الكيميائية ، على هيئة شفرات سرية طويلة ، لو انها كتبت بشفراتنا وحروفنا لاستوعبنا فى ذلك خمسمائة مجلد من المجلدات الضخمة .. ذلك أن البويضة الملقحة التى بدأ بها زعيط حياته تحتوى على حوالى ثمانية الاف مليون شفرة ، موزعة على ٤٦ كروموسوما أو خيطا وراثيا دقيقا .. جاء نصفها من الاب فى رأس حيوان منوى ، ونصفها من الام فى نواة البويضة ، وباندماجهما بطريقة خاصة – لا داعى لذكرها هنا – تبدأ سلسلة ضخمة من الاحداث المتتابعة .

والى هنا تبرز امام العلماء علامة استفهام ضخمة كضخامة الكون : اذ كيف تستطيع هذه الحروف المتتابعة فى سلم كيميائى حلزونى – اى أ ، ث ، ج ، س – أن تحدد وضع كبد هنا ، وتخليق عين هناك ، وتحديد موضع كليتين على جانبى السلسلة الظهرية ، وقلب على اليسار (وأحيانا ما تخطىء وتضعه على اليمين فى حالات نادرة) ومخ تحيط به جمجمة صلبة .. ثم كيف تهيمن على خلق اطراف متناسقة تنتهى بأصابع محددة عليها بصمات لا يمكن أن تتكرر بين انسان وانسان . . ثم كيف تخرج عشرات الانواع من الخلايا والانسجة ، رغم انها قد نشأت

من اصل واحد .. من خلية ملقحة لا تكاد العين تراها ؟

ان كل هذا يكمن فى تتابع الالف والثاء والجيم والسين .. ثم بتنظيم هذه القواعد الكيميائية الاربع فى تباديل وتوافيق (أى لو أنها تبادلت فيما بينها) كما يقدرلذلك علماء الرياضيات لاعطتنا معلومات كونية جبـــــارة لا تستوعبها العقول .. أعظم العقول !!

ولكى نوضح معنى ذلك فعليك بمثال من واقع حياتنا ولنأخذ مثلا ثلاثة حروف ، ولتكن ع ب د ، وبهــــذه الحروف الثلاثة تستطيع أن تستخرج ست كلمات قد يكون لها معنى ، وقد لا يكون ، وبعدة تباديل بين العين والباء والدال تحصل على : ع ب د ، ع د ب ، ب ع د ، ب د ع ، دعب ، د ب ع .. وبحروف أربعة تحصل على ست عشرة كلمة ، وهكذا .

لقد سارع علماء الرياضة لكى يقدروا لعلماء الحياة كم من التباديل التى تستخدم فيها الحياة شفراتها أو حروفها الاربعة التى تكتب بها لغتها ، فتترجمها الخلية بعد ذلك على هيئة عشرات ومئـــــات الالوف من المركبات التى تستطيع ان تبنيها على حسب التعليمات التى خرجت بها الشفرات من نواتها .. من هيئة قيادتها !

يقولون : لو ان جزءا صغيرا من الجزىء الوراثى يحتوى على مائة قاعدة متتابعة ، وان القواعد الاربع « أى مركباتنا ا ، ث ، ج ، س » قد تبادلت فيها . فان العدد الناتج من هــذه التباديل يعطينا رقما يســـاوى أربعة مضروبه فى نفسها مائة مرة أى الرقم أربعة مرفوعا الى أس ١٠٠) .. وهو رقم اكبر من عدد الذرات الموجودة فى المجمــــوعة الشمسية كلها بألف مرة .. هذا ويبلغ عدد الــذرات فى

جرام واحد عشرات ومئات الوف ملايين الملايين (*) ثم ان وزن ارضنا يقدر بحوالى ٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ جرام .. ووزن الشمس اكبر من وزن الارض حـــوالى ٣٠٠٠٠٠ مرة .. ودعك من وزن الكواكب الاخرى التى تزن بلايين البلايين من الاطنان .. ولاترك للفصيح الحرية فى حساب عدد الذرات الموجودة فى المجموعة الشمسية ، ثم ليضربها فى الف ، ليخرج بعدها بعدد الاحتمالات التى يمكن ان تتبادل فيها القواعد الاربع فى هذا الجزء من جزيئنا الوراثى .

والواقع ان الكروموسوم الواحد ليس فيه مائة قاعدة متتابعة ، بل يحتوى على عشرات الملايين .. اذن فكم عدد احتمالات الشفرات الناتجة ؟

ان كتابا كهذا لن يستوعب اى رقم تختاره ، ثم تضع امامه ماتشاء من اصفار .. اى عدد تختاره !!

ان زعيطا اذن لكنز ضـــخم من المعلومات التى وقف أمامها علماء العالم اجمع حيارى ، وكانهـم يتخبطون فى ظلمات اسرار الحياة .. ومع ذلك فقد خرجوا منه بصيد ثمين .. وعرفوا شيئا من اسرار الشفرة التى ترسلها القيادة لكى تبنى عشرات الالوف من البروتينات والانزيمات التى تشكل بدورها كل عمليات الحياة .

والموضوع بعد ذلك طويل جدا ، ولهذا فسوف نؤجله لكتـــاب قادم .. لنرى مزيدا من اسرار بداية زعيط وغير زعيط .. ولكن يكفى ان نقول هنا ان القيادة ممثلة فى جزيئاتها الوراثية ، لا تترك عرشها النووى لتنظـــم عشرات الالوف من العمليات الكيميائية التى يتطلبها سير

(*) الواقع ان الجرام الواحد من ذرات الايدروجين يحتوى على حوالى ٦٠٠ الف مليون مليون مليون ذرة !

الحياة فى الخلية او الكائن ، بل تبعث نيابة عنها مبعوثين لينفذوا خططها وتعليماتها .

والمبعوث بدوره جزىء وراثى اقل درجة من باعثه .. فلقد حذف البلعث منه حرفا .. حذف الثاء (مركب الثيمين) ، واضاف بدلا منها ياء (مركب يوراسيل) ثم حور فى الدرابزين الكيميائى تحويرا طفيفا (اى أضاف الى السكر الذى يبنيه ذرة أوكسيجين) .. وبهذه السياسة الكيميائية ، لا يستطيع المبعوث أن يرقى الى باعثه ، ولا ان يقوم بعمله ، بل عليه فقط أن يحمل الشـــــفرة التى وضعها له الجزىء الباعث على هيئة عشرات ومئات وآلاف من الحروف المتراصة هكذا (كمثال فقط للتوضيح) ى ى ا . اا س . ىى س . س س ا . سىا . اى. ىىى ..... الخ .. وليس لهذه الشفرة بطبيعة الحال مغزى فى عقولنا .. ولكنها رسالة مكتوبة خرج بها الجزء المبعوث الى ساحة الخلية لكى يقوم بتخليق هرمون او بروتين او انزيم بالمواصفات التى بعثتها القيادة فى بنائه وتكوينه .. وقد تتكون الرسالة من آلاف الحروف المتراصة (ونعود لنذكرك انها جزيئات كيميائية خاصه اتخذتها الخلية بمثابة شفرة) .. ولابد ان تكون صحيحة مائة فى المائة ، لان الخطأ فى تنظيم حرف ، او نسيان حرف ، او وضع حرف مكان حرف آخر يعنى الكثير بالنسبة للحياة(*) والواقع ان الخطأ هنا هو خطأ القيادات ، لان المبعوث لايستطيع ان يصحح الاخطاء ، بل عليه فقط ان ينفذ الاوامر ، حتى ولو كانت خاطئة . وسيتبع ذلك بالطبع سلســـــلة من الاخطاء الاخرى ، نعرفها نحن على هيئة امراض وراثية.

(*) انظر « معارك وخطوط دفاعية فى جســـــمك » .. للمؤلف لفصل « الخط الدفاعى الثالث » .

وهل نستطيع ان نصحح أخطاء القيادات الخاويه ؟

ليس بعد .. لاننا لم نفهم الشفرة بعد ، ولا نعرف كذلك بالضبط اى جزء من القيادات كان مسئولا عن ذلك .. انها مئات من المجلدات المكتوبة كما سبق ان ذكرنا.. ففى اى صفحة ننظر ، وفى اى مجلد نبحث ؟! اضف الى ذلك انه لا يمكن رؤية الكيفية التى تتراص بهـــا بلايين الشفرات ، حتى ولو اســـــتخدمنا فى ذلك أعظم الميكروسكوبات الاليكترونية تكبيرا .. ذلك اننا نقيس الذرات والجزيئات بوحدة قياس اسمها الانجستروم .. والانجستروم جزء من عشرة ملايين جزء من المليمتر .

إن انواع المبعوثين الذين يخرجون من نواة الخلية إلى الساحة يقدرون بالالاف وعشرات الالاف .. وجزيئات المبعوث الواحد تتواجد فى ساحة الخلية بالمئات والالاف .. وهكذا يتبين لنا أن ساحة الخليـــة كون اخر قائم بذاته .. لان كل نوع (وهو بالالاف) يعرف الى اين يتوجه ، وكيف يؤدى رسالته .. ورسالته أن يبنى جزيئا بروتينيا خاصا .. ومن المعروف أن انواع البروتينات فى الخلية أو فى المخلوق الحى تقدر بعشرات الالوف ، وأعدادها بعشرات ومئات الملايين ، منها الكبير والمتوسط والصغير .. ولكل شفرة تناسبه .

ولكن من اى شيء تبنى البروتينات ؟

من حروف أخرى نسميها « الاحماض الامينية » .. وهى ليست الا جزيئات كيميائيه بسيطة ، عدد انواعها فى الكائن الحى عشرون حامضا ، ولهذا فقد اصــبحت بدورها « ألف باء البروتينات » .. عمد الحيـــــاة ، والمهيمنة على تفاعلاتها وتنظيمها

اننا نكتب ملايين وبلايين الكلمات بحروف لغتنــــا

الثمانية والعشرين ، والحيـــــاة تكتب ملايين وبلايين البروتينات بحروف لغتها العشرين (الاحماض الامينية) .. اذن فالبروتين جملة مكتوبة ، والمبعـــوث هو الذى جمعها « وكتبها » ، والمؤلف (الاحماض النووية) هـــو الذى ألفها ، ثم بعث بمبعوثيه الى المطابع (*) لكي يكتبوا مجلدات من البروتينات .. ثم نرى البروتينات تشرف على تكوين بروتينات أخرى أو تهدمهـا ، أو تبنيها .. فالعصارات الهاضمة انواع خاصة من البروتينات نطلق عليها اسم الانزيمات ، وهى التى تقوم بهدم البروتينات التى نتناولها فى طعامنا ـ والواقع ان الهدم هنـا ليس الا تفكيكا للروابط البروتينية ، فتحولها الى احمـــاض امينية .. تماما كما يفكك جامع الحروف فى المطبعـــة الحروف التى جمعها ، ليعيد جمعها مرات ومرات ، وهنا يحمل الدم الاحماض الامينية ، لكى يوزعها على الخلايا ، فتلتقط كل خلية ماتشاء من أنواع الحروف ، ثم تجمعها لتكون بها قواميسها التى تناسبها ، ولكن من خـــلال الخطة الموضوعة من لدن الهيئة الحاكمة فيهـا ، فاذا بالجزيئات البروتينية تظهر على مسرح الاحداث لتبنى جدارا أو قيادة أو محطات لتوليد الطاقة ، أو الاتلتجمع عليها الحروف ، أو اوكسيجينا لتحمله فى خطوات طويلة متتابعة لتحرق به جزيئات السكر فى خطوات متتابعـة كذلك ، وكل خطوة تحتاج الى انزيمات ، ثم تتداخـــل ايضا فى جمع حروف البروتينات ، لتربطها فى جزيئات طويلة ، والربط يحتـــاج الى طاقة .. ثم ان بعض الهرمونات انواع من البروتينات ، والهرمونات بدورهـا تشرف على سير كثير من العمليات ، وكأنها بمثـــابة

(*) اسمها العلمى الريبوسومات Ribosomes ، واليهـا تتوجه الجزيئات المجعولة .

« المايسترو » الذى يقود فرقة موسيقية فيشير بيده فى هذا الاتجاه لتبطىء فى العزف أو فى ذلك لتعلو النغمة ، وكذلك تفعل الهرمونات ، انها تسيطر على أحداث كثيرة فتسرع بعمليات اذا دعت الحاجة الى ذلك ، وتبطئها اذا لزم الامر .

دعونا من كل ذلك ، فلا نستطيع أن نوفيه حقه هنا، لانه لو كتب كما يجب ، لاستوعب مجلدات كثيرة .. وعلينا ان نعود بعد هذه الرحلة القصيرة فى عجائب بداية خلق زعيط لكى نقيمه بالاسرار العظيمة التى تكدست فى خلية تحتوى على جزيئات وراثية لا يزيد وزنها على ستة أجزاء من مليون جزء من الجرام !

ثم لنتساءل : أو ليس هذا بكون ساحر ، ذلك الذى بدأ بهزعيط حياته على هيئة خلية ملقحة أورثته صفات أمه وصفات أبيه كما كتبت فيهما ؟

ثم .. هل هناك روعة فى الخلق ، واتقان فى التنظيم، وجمال فى الاداء والتنفيذ ، وضخامة فى المعلومات العظيمة أكثر من هذا ــ رغم بساطتها الظاهرية ــ لكى تخلق منه رجلا نتباهى به أو لا نتباهى ؟

ثم .. هل هناك أعظم من « زناد » حيوى يدوس على قذيفة الخلية الملقحة ــ بعد راحة قصيرة تختلط فيها الشفرات ــ فنراها تنقسم وتنقسم ، لتصبح خليتين ، فأربع ، فثمان ، فست عشره .. فمائة .. فألف .. فمليون .. فبليون ، فعشرات البلايين ، وبعدها يكون زعيط قد تشكل على هيئة جنين كامل به حوالى مائتى بليون خلية ، ثم يخرج بعدها الى الحياة ، وينمو ... ويصبح رجلا نافعا قد يكون بلسما لمجتمعه ، أو قد يجر عليه الشقاء ؟

انه اذن لمجتمع عظيم من خلايا متباينة في اشكالها ، مختلفة فى اداء رسالاتها ، متناسقة فى أعمالها ، خادمة بعضها بعضا ، متفاهمة فيما بينها .. مجتمع يزخر بأسرار تعجز العقول عن ادراك مغزاها .. مجتمع عظيم عظيم .. اذ يكفى هنا أن نتذكر أننا لو تخيلنا فنانا عظيما قد اراد ان يرسم كل خلية من هذه الخلايا التى تكون زعيطا الجنين قبل ولادته بساعات ، وانه لايقضى اكثر من دقيقة واحدة فى رسم خلية واحدة ، فانه لن ينتهى من هذا العمل الشاق الا بعد مرور ٥٠٠ الف عام ، دون أن يغمض له جفن ، او يتوقف له قلم .. او لو تخيلنا ان سكان العالم أجمع (٣٤٠٠ مليون نسمة) قد امسكوا بورق واقلام ليخط كل واحد منهم خلية واحدة ، فانهم بالكاد لن ينتهوا الا برسم الخلايا الموجودة فى قدم زعيط الوليد !

انها اشهر تسعة يقضيها الجنين فى بطن امه ، وبعدها يتكامل البناء .. اعظم بناء .. يبدأ بخلية مكدسة بالمعلومات ، فاذا بها تنقسم وتتشكل وتتناسق فى اعضاء وانسجة وخلايا تختلف اختلافا كبيرا عن الاصل الذى منه قد نشأت .

ومع ذلك ، فان كل خلية فى جسم زعيط تحمل نفس الشفرات التى بدأ بها الرجل حياته ، الا ان هذه قد تشكلت فى الاذن لتسمع ، أو فى قلب لينبض ، أو فى عضلات لترفع ، أو فى غدد لتفرز ، أو فى عين لترى ، أو فى اعصاب لتحس وتنقل ، أو فى امعاء لتتلوى وتهضم او فى خلايا لتهاجم وتحارب ، أو فى عظام لتؤسس وتتحمل ، أو فى أعضاء تناسلية لتسلم الشفرات الى جيل واجيال كثيرة قادمة ، كما تسلمتها أجيال سابقة ..

وهكذا يسير الطوفان الحى العظيم ، ومن ورائه حروف اربعة : الف وثاء وجيم وسين ، وبها يتشكل كل الخلق ، بكل مافيهم من اختلاف فى اللون والشكل والصفات واللهجات والذكاء والغباء .. فلا تتكرر الصور ابدا ولا البصمات ابدا .. اذ كيف تتكرر وهناك شفرات تكفى لملء الكون كله بمخلوقات لا يمكن أن تأتى متشابهة أبدا ، ذلك أن احتمالات تنظيم الشفرة الكيميائية ضخمة غاية الضخامة ، فلا تستوعبها العقول ولا تعيها الافئدة .. ولا حتى الخيال .

هل نستطيع اذن أن نقيم زعيطا بكل هذه الاسرار العظيمة ، والشفرات الرائعة التى تكفى لملء ٥٠٠ مجلد من المجلدات الضخمة !

اننا لو فعلنا لكنا خاطئين !

وقبل أن يقفز الفصيح معترضا نقول : ان نفس هذه الشفرات وهذه الاسرار موجودة فى القرد والخنزير والبهيم والثعلب والسمكة والضفدعة .. حتى النبات والفيروس والميكروب .. فنفس المركبات الستة التى تتواجد فى الاحماض النووية التى تكون خلايا زعيط (أى السكر والفوسفات والادنين والثيمين والسيتوزين والجوانين) موجودة أيضا فى كل المخلوقات الاخرى .. ثم انها تتسلسل فيها منذ عشرات ومئات الملايين من السنين ، فترى القرود تعطى ذرية من قرود ، والطيور ذرية من طيور ، ولم يحدث اطلاقا ان خرج من صلب احداد زعيط حمار او خنزير ، ولم تعطنا الاشجار ديوكا بدلا من الازهار .. بل الكل يسير على نمط واحد .. أو اذا شئت الدقة فانه يسير على تنظيم تلك القواعد الاربعة (أ ، ث ، ج ، س) فى جزيئاتها الوراثية

لتكتب هذا انسانا وذلك ثعلبا ، وغيره حية أو خرتيتا .. الخ !

ان اساس الحياة واحد وان اختلفت الصور !

وقد يعود الفصيح ليقول : ولكن .. أليست هذه الجزيئات الاربعة هي المسئولة أيضا عن تكوين انسان يتكلم ويفكر ويعى الاحداث ثم يزنها بميزان العقل ، ويستفيد من أخطائه ، ويطور فى حياته ، فتتكون له حضارات ويصبح له تراث لم تحظ به البهائم والطيور وكل ما خلق الله من كائنات !

والى هنا لانستطيع أن نعارض الفصيح ، فهو فى استنتاجه هذا بحق فصيح ، ولابد أن نقيم الانسان بعقله وفكره ، ولكن ..

ودعنا من « لكن » هذه الان .. وعلينا بباب آت مستقل ، لنرى أصل زعيط وبدايته وكيف جاء الى الحياة بعد تجربة كونية استمرت ثلاثة الاف مليون عام ليكون له عقل وادراك ورسالة دون سائر الحيوانات .. هذا ان وعى هذه الاشياء .

الفصل الرابع

أنت تاج ...

المخلوقات جميعها !

انت فى الواقع تساوى كونا قائما بذاته ، حتى ولو قال الناس غير ذلك !

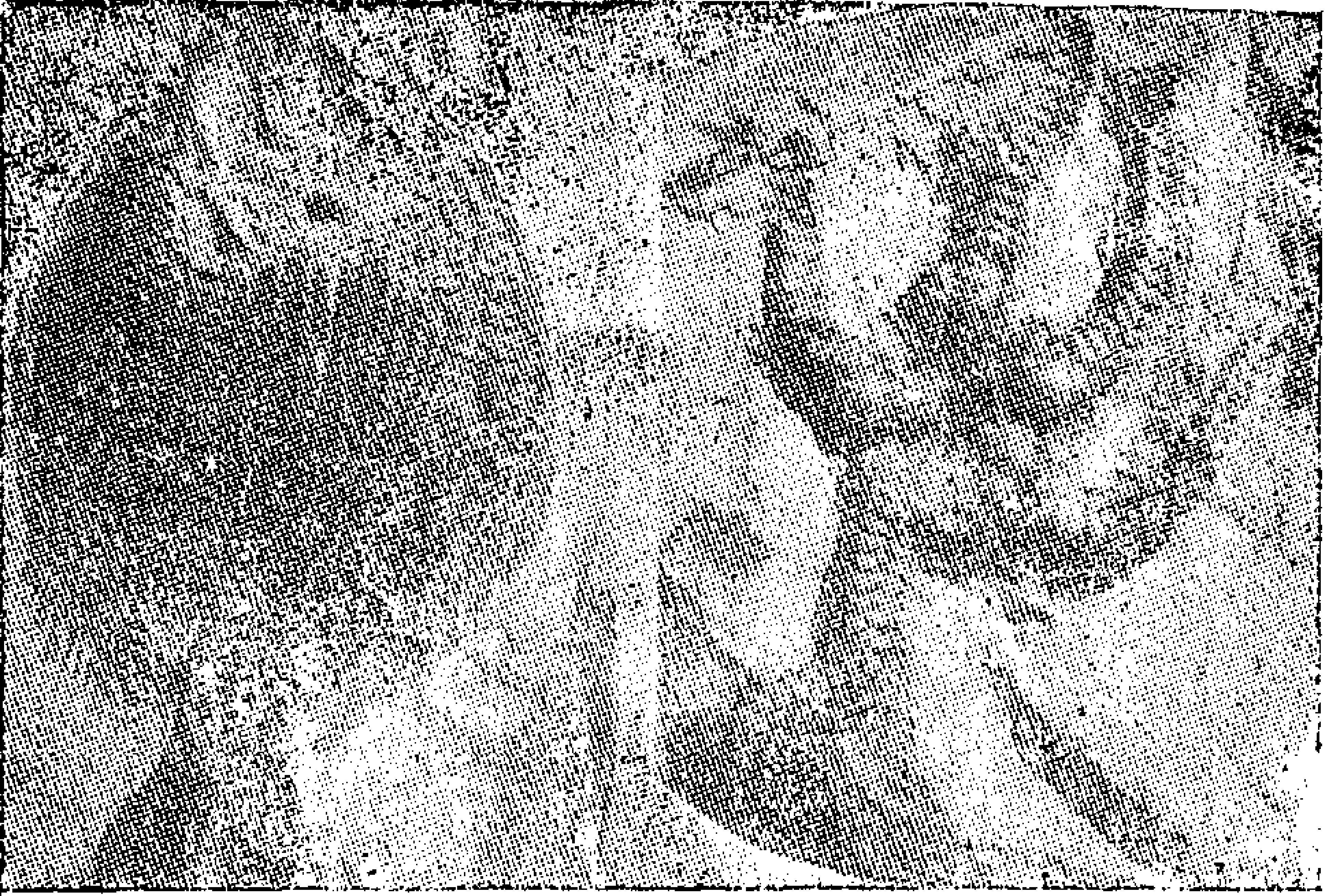
وانت المخلوق الوحيد الذى جاء لهدف فى الحيـاة ، ورسالة على هذا الكوكب .. هذا ان قدرت الهـدف والرسالة .. ووعيت المعنى الكامن وراء هذا وذاك ..

وانت أثمن مما تتصور ، لانك بمثابة تتويج عظيـم لتجربة كونية ضخمة استمرت ثلاثة الاف مليون عام .. فكنت انت ، وكان غيرك ..

ولكن .. لنتركك الان وشانك ، ونتوجه بكلامنـا لزعيط ..

ان بداية زعيط الحقيقية لم تكن يوم أن تقابل والداه على فراش الزوجية فى تلك اللحظة التى اتحدت فيهـا خلية منه بخلية منها ، ليكون زعيط امتدادا لكليهما . ولم تكن يوم أن ولد زعيط ، وخرج الى الحياة وهو يبكى ، ولكن بدايته الاولى كانت فى زمن من عمر الكون سحيق .. !

لقد سبق مجىء زعيط أحداث كثيرة جدا ، شهدتها الارض وسجلتها .. وكأنما قد ارادت ان تحتفظ بذكرياتها القديمة لتاج رأسها (الانسان العظيم) ، لكى يقـرأ نشأتها وتاريخها ، وليعلم انه قد جاء متوجا للنشـأة



(شكل ١٢) .. هكذا تركت لنا الحياة الغابرة اثارها على هيئة مخلوقات مندثرة طبعت على الصخور .. بعضـــها له شبيه مما يعيش اليوم ، وبعضها لم يتكرر بعد ذلك ، ومع ذلك فقد أوضحت النـــا الحلقات الناقصة في سلم تطور المخلوقات من مئات الملايين من السنين

والتاريخ العظيم ، وكانما كل شيء كان يسير من إجله هو ، ومن أجل عقله وادراكه بما هو كائن حوله .

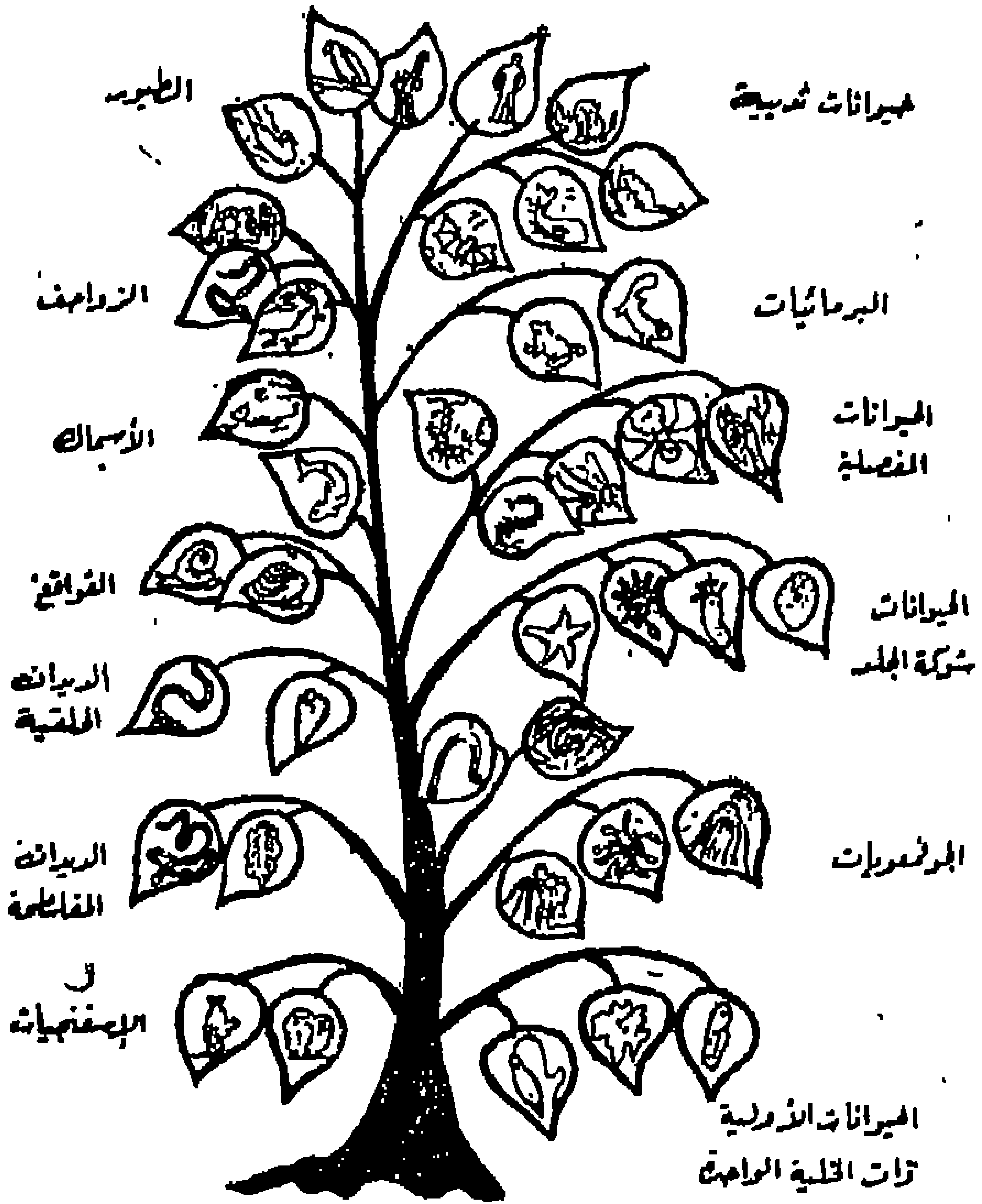
والواقع أن هناك نفرا من العلماء يستطيعون ان يقرأوا التاريخ القديم على صفحات كتاب الزمان » وكتابنا هذا كتاب عجيب ووحيد ، وهو لم يكتب بقلم انسان ، بل الفته الطبيعة » وكتبته ، ثم طبعته على صـــــفحات الصخور ، أو حفظته على هيئة « دوسيهات » ضخمةمن طبقات رسوبيه طوت بين صفحاتها السميكة معـــالم الحياة الغابرة (شكل ١٢) وكأنما هى تريد ان تحكى لنا فصولا شيقة عن نشأة الحياة على هذا الكوكب منذ مئات الملايين من السنين ، وكيف ان هـذه النشأة قد سارت خطوة من وراء خطوة .. كرروا هذا ملايين المرات .. وكانما هى حلقات متتابعة فى سلسلة الحياةالطويلة، وكانما كل حلقة منها تحكى لنا حقبة شيقة من ظهـور مخلوقات بدائية ، أخذت ترتقى وتتطـور فى ميكروب ونبات وحيوان .. توجته بعدها بالانســــان الحكيم (شـــكل ١٣) .

وعلماؤنا هؤلاء نطلق عليهم « علماء الحفريات » أو المنقبون عن اصول الحياة القديمه فى الصخور أوالطبقات الرسوبية بحثا عن حلقات مفقودة كان من المفروض ان تكون فى سلسلة الحياة الطويلة .

وكيف عرفوا أن هناك حلقات مفقودة ؟ ..

ان الدارسين لاى فرع من فروع العلوم والفنونوالاداب يعرفون معنى تتابع الاشياء ، وتسلسل الاحداث .
خذ مثلا تاريخ قدماء المصريين ..

ان الدارسين الاوائل لهذا التاريخ يعرفون من تتابع احداثه ، أن الحضارة قد سارت على هيئــة خطوات



(شكل ١٣) شجرة العائلة التى بدات بها الحياة على الارض منذ مئات الملايين من السنين بخلايا وحيدة كانت بمثابة البذور التى انبتت ولكنها تطورت وتشكلت وتخصصت فى اعضاء وانسجة ومخلوقات وسارت فى طريقها الطويل حتى ظهر الانسان فى النهاية « فى قمـة الشجرة » . لاحظ ان هذه امثلة قليلة جدا من مملكة الحيوان وحدها وان الفروع السفلية تمثل حيوانات اقل تطورا .

متصلة ، ولقد اكتشفوا حضارات أسر وملوك ، ولكنهم كانوا بين الحين والحين يكتشفون وجود حلقات ناقصة .. ولكى يكون التاريخ مكتملا ، فعليهم أن ينقبوا عن آثار ملك لم يكتشف أو افراد اسرة لم يظهروا على مسرح الاحداث .. ولقد تم اكتشاف مقبرة توت عنخآمون بناء على المعلومات التى جمعوها عن سير الامور فى هذه الحضارة القديمة .

والسيمفونية لها أصول والحان .. والاذن الموسيقية تستطيع ان تتبين تتابع النغم ، فتعرف ان كانت النغمات متكاملة ، أو أن فيها شيئا من نشاز .

حتى هذا الكتاب الذى بين يديك تستطيع أن تتبين ان كان متكاملا بأبوابه وفقراته وسطوره وكلماته .. وقد تقف فجأة عند كلمة سقطت فى المطبعة ، أو عند وجود سطر او فقرة محذوفة .. عندئذ تحس بأن هناك شيئا غير متكامل

كذلك كانت بدايات الحياة وتتابعها فى مخلوقاتها الكثيرة .. فلكل شيء اصل وبداية ، ولكل شيء هدف ونهاية ، والدارسون لمخلوقات هذا الكوكب يعلمون ذلك تماما من دراساتهم الطويلة ، ومنها قد عرفوا أن المخلوقات لم تظهر كلها دفعة واحدة ، بل هناك مايشير الى سيرها فى سلم طويل ذى درجات كثيرة متتابعة ، كلما ظهر مخلوق أرقى فى درجة أعلى ، اضافت له الحياة شيئا ، ليكون احسن تكوينا ، واكفأ بنيانا .

والواقع أن العلماء يرون ذلك الان ــ من خلال دراساتهم الطويلة أيضا ــ فى عيون المخلوقات وكيف نشأت .. ففى بعض الكائنات الدقيقة مثلا تتواجد العين على هيئة نقطة جد صغيرة Eye Spot ، وهى بمثابة عين كيميائية تساعد المخلوق ذا الخلية الواحدة لكى يستجيب للضوء

فيقترب منه ، فاذا اشتد الضوء وكان فى ذلك ضرره ، ابتعد منه .. ثم تتعقد الامور فى حاسة البصر ، من خلية الى عدة خلايا ، الى عدة عيون بسيطة ، الى عيون أكثر تعقيدا وتعقيدا ، وكل هذا قد تم على خطوات كثيرة استمرت عشرات ومئات الملايين من السنين (*)

ثم يرون ذلك فى تكوين القلوب وكيف بدأت ، ثم تشكلت وتطورت .. وفى الاذان وكيف بنيت وتعقدت ، وفى الامخاخ « جمع مخ » وكيف ظهرت ، ثم تشكلت وكبرت وتعقدت وتطورت ، حتى وعت وفكرت ، وكانت لها حضارات رائعة .. وتراث موروث ، لم يكن للبهائم والحيوان منه نصيب ، بل كانت للانسان صاحب أرقى مخ ، وأفصح لسان ، وأجمل تكوين وبنيان .

ونحن ــ فى الواقع ــ لسنا الا اخر درجة فى درجات هذا السلم الطويل من كل المخلوقات التى ظهرت على هذا الكوكب من قبل .. انهم أجدادنا الاوائل الذين سبقونا على الارض بمئات الملايين من السنين !

وقد يقفز الفصيح محتجا وغاضبا ومؤكدا أن الانسان لا يمكن أن يمت بصلة الى كل هذه المخلوقات ، ثم يستطرد ويتساءل : هل نحن مثلا من سلالة قرود وخنازير وأفاعى وحشرات وديدان وحيوانات أولية وميكروبات ؟!

وليس هناك ما أرد به على الفصيح ــ الذى ربما يكون قد اتخذ الاسلام دينا ــ الا باشارة القرآن الكريم الى الحض على البحث فى أصول الأشياء « قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق »

وهذه ــ فى الحقيقة ــ لفتة عظيمة تشير الى أن لكل

(*) نحن فى حل من التعرض لهذا الموضوع ، موضوع تطور العيون والآذان والقلوب والامخاخ والانسجة لانه سيبتعد بنا عن موضوعنا الاصلى .

شيء أصل وبداية ، وأصلنا من عناصر هذه الارض .. « منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة اخرى » .. ثم ان بدايتنا كانت من خلية أولى ظهرت على الارض منذ أكثر من ١٥٠٠ مليون عام (*) .. هكذا يخبرنا العلماء الذين ساروا ونقبوا ، ليروا كيف بدأ الله الخلق .. فيتبين لهم بساطة البداية ، وروعة النهاية ، والفكرة العظيمة التى ربطت مابين البداية والنهاية .

ثم لابد أن يعرف فصيحنا أن بدايته فى رحم أمه كانت بداية ميكروبية بسيطة .. فلقد سبح الحيوان المنوى الميكروسكوبى كما يسبح الميكروب ، وتحركت البويضة حركة أميبية ، وبعد التلقيح عاش الجنين عيشة طفيلية ، أى يعتمد اعتمادا كليا على أمه فى مده بالغذاء ، كما يفعل الطفيلى مع عائله الذى يعوله .

ثم لابد أن يعرف فصيحنا كذلك أن بدايته لا تختلف عن بداية حماره وكلبه ونعجته .. ذلك أن كل الخلائق التى يراها تسير أمامه قد بدأت نفس البداية ، وستنتهى نفس النهاية !

ولكى أوضح أكثر أقول : ان الاحداث التى جرت مع والدى زعيط ليخرج الى الحياة ، هى نفس الاحداث التى جرت مع والدى البعرور ليخرج هو أيضا الى الحياة .. مع فرق بسيط قد يراه الفصيح هاما ، ولكنه ليس كذلك بالنسبة لقوانين الخلايا الحية .. ذلك الفرق يبدو للفصيح فى أن والدى البعرور لايعرفان شيئا عن المأذون الشرعى ،

(*) بعد انتهائى من كتابة هذا الكتاب أطلعت على بحث نشره ثلاثة من كبار العلماء ، وقد ذكروا فيه ان نشأة الحياة البدائية جدا ربما تكون قد بدأت منذ ٣١٠٠ مليون عام .. وذلك بعد ان فحصوا عينات صخرية قديمة عثروا فيها على مركبات كيميائية من ذلك النوع الذى يدخل فى تكوين الكائنات الحية .

ولا يدركان معنى فراش الزوجية ، ولم يقيما حفلة صاخبة يدعوان اليها الجمال الاخرى .. كل هذا ليس مهما بقدر ما يهمنا الاساس فى الخلق .. والاساس أن يحرك هرمون الجنس والدى زعيط كما يحرك والدى البعرور ، فتتم عملية الجماع فى الانسان كما تتم فى الجمال والخنازير والكلاب والبهائم .. الخ (*) وتنتقل الخلايا الجنسيةفى كل المخلوقات وتسير فى نفس الاعضاء ، لتستقبلها أعضاء اخرى ، ويتم التلقيح على نفس الاسس ، وتندمج الخلايا بنفس الوسائل .. فيتكون زعيط كما يتكون البعرور ، وتحمل المرأة كما تحمل الناقة ، ويولد هذا كما يولد ذاك ، ويرضعان كل بطريقته الخاصة ، ويشبان من الطوق ، ويذهب هذا ليتعلم ، وذاك ليحمل الاثقال .. ثم يموت زعيط ، ويتكلف دفنه ، ويذبح الجمل ونأكل لحمه !

هذه واحدة .. والثانية ؟

والثانية : ان بداية زعيط فى رحم امه لازالت تحكى لنا القصة الطويلة التى سارت فيها الحياة على أرضنا منذ مئات الملايين من السنين ، ولكن زعيطا قد اختصرها لنا فى أشهر تسعة .. رأى بعدها النور ..

كيف يكون ذلك ؟!

● لقد بدأت الحياة أول مابدأت على هيئة خلية بسيطة قد تكون ميكروبا أو أميبا أو مخلوقات لازالت أبسط من الميكروب والاميبا .. وكذلك كانت بداية زعيط من حيوان منوى دقيق ، وبويضة فى حجم الاميبا (شكل ١٤ أ)

● ثم تنقسم الخلية الملقحة الى خليتين ، فأربع ، فثمان .. فست عشرة ، فاثنتين وثلاثين .. الخ .. ولدينا حتى

(*) مع فرق قد يرضى الفصيح : ذلك ان مجال التقبل والحب والهيام والعاطفة غير موجود فى الحيوان .. وهذا أيضا ليس مهما .. فالاساس أعمق من ذلك بكثير .

الان كائنات بسيطة بعضها من خليتين ، أو أربع أو ثمان أو ست عشرة .. الخ ، ولكل شكله وصفاته ومركزه فى قائمة الكائنات التى درسها العلماء .

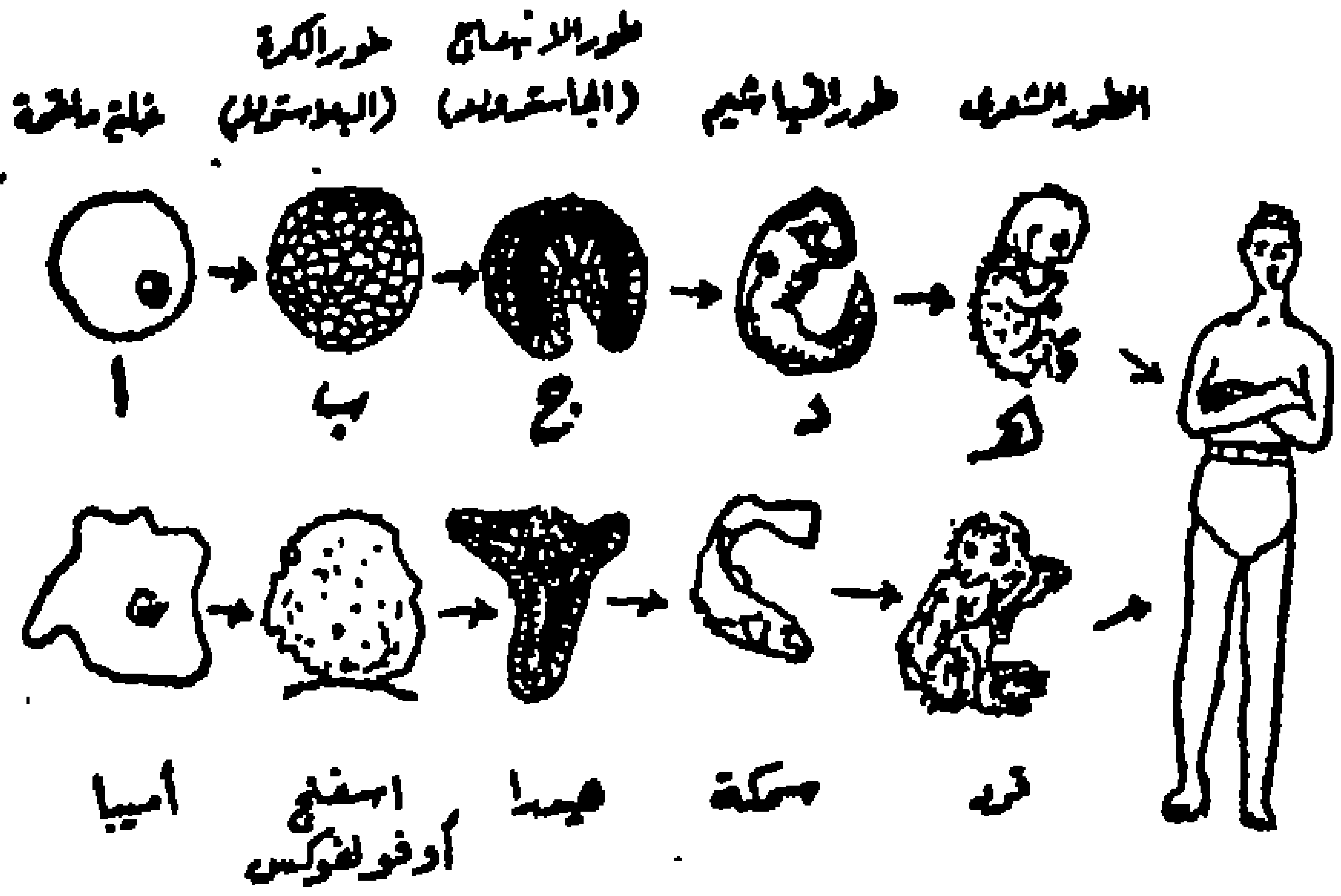
● ثم يأتى على جنين الانسان طور من الاطوار يصبح فيه كرة مجوفة سمك جدارها خلية واحدة ، ويطلق العلماء على هذا الطور « طور البلاستولا » .. وهى كلمة لاتينية معناها البرعم الصغير أو طور الكرة ، ويقابل هذا وجود كائنات على هيئة كرة مجوفة سمك جدارها خلية واحدة « كالفولفكس » .. « شكل ١٤ ب »

● بعدها يأتى طور الانبعاج ، أى الذى تنبعج فيه تلك الكرة المجوفة كما تنبعج كرة المطاط الى الداخل اذا ضغطت عليها باصبعك .. ونطلق على هذا الطور «طورالجاسترولا» وهى كلمة يونانية معناها « المعدة »(ذلك انها تشبه فى تجويفها تجويف المعدة) .. وفى هذا الطور تتكون طبقتان من الخلايا .. احداهما خارجية ، والاخرى داخلية .. ويقابل هذا الطور فى سلم المخلوقات حيوانات كثيرة منها الهيدرا مثلا .. والهيدرا حيوان مجوف بطبقتين من الخلايا « شكل ١٤ ج »

● ثم يأتى على بدايات الحيوانات ـ بما فى ذلك الانسان طبعا ـ طور تظهر فيه لاجنتها فتحات كفتحات الخياشيم وقلب بحجرتين كما فى الاسماك ، ثم يتطور القلب فيصير حجرات ثلاث كما فى البرمائيات « كالضفادع » ، ثم حجرات أربع « أذينان وبطينان » « شكل ١٤ د » .

● وفى مرحلة من مراحل تكويننا تظهر لنا ذيول كما فى معظم الحيوانات ، وتختفى الذيول قبل أن نولد ، كما نفقد فتحات الخياشيم .

● ثم يأتى على الانسان والحيوان طور يتغطى فيه



(شكل ١٤) يوضح كيف يتشكل الجنين فى الرحم من خلية واحدة فى اشهر تسعة ، ويمر باطوار متعددة ((الصف الاول)) .. ثم كيف تشكلت الخلية الاولى التى ظهرت على الارض منذ اكثر من ١٥٠٠ مليون عام ((الصف الثانى)) ومرت أيضا بمراحل طويلة تطورت فيها حتى جاءت فى الانسان الذى ينشأ من خلية ملقحة .

الجنين بالشعر ، الا أن شعر الانسان يتساقط ويختفى قبل ولادته ، ويبقى للحيوان شعره ليكون له غطاء وحماية « شكل ١٤ هـ »

والواقع أن هذا موضوع طويل ليس له هنا مجال ، ولكن يكفى اننا قد رأينا أن كل طور يمر به زعيط الجنين ، كان له ــ بصورة أو بأخرى ــ مثيل سابق على هذا الكوكب .. وان تتابع الاطوار فى الرحم وتعقيدها ، يسير على نفس المنوال الذى سارت فيه المخلوقات على الارض من بساطة الى تعقيد عبر مئات الملايين من السنين .

ثم علينا أن نسوق هنا ماتوصل اليه عالم الاجنة الشهير فون باير منذ اكثر من مائة عام حتى يتبين لنا أصول الخلق بالبحث والمشاهدة .. لا بالكلام .

كان فون باير يقوم بدراسات مقارنة على الاجنة فى بدايات تكوينها ، وكان يعطى لواحد من مساعديه عينات من أجنة فئران وخنازير وسحالى ودجاج وقرود وبشر .. الخ ، لكى يحتفظ بها فى « برطمان » زجاجى كبير دون أن يضع على كل جنين مايميزه .

وعندما عاد فون باير اليها ليفحصها ، كتب فى مذكراته « أننى لا استطيع ان احدد اطلاقا الى اى فصيله أو رتبة حيوانية ينتمى كل جنين من هذه الاجنة .. فقد يكون الجنين الذى بين يدى جنين سحلية أو جنين طائر صغير أو جنينا صغيرا جدا لاحد الحيوانات الثديية « بما فى ذلك الانسان » ــ كم هى متشابهة كل هذه الحيـــــوانات فى بدايات تكوينها ! »

الواقع أنها جميعا قد بدأت نفس البداية التى بدأ بها الانسان .. ولقد نشأ الكل من تلقيح حيوان منوى لبويضة والكل ينقسم على نفس الوتيرة ، ويمر بنفس الاطوار التى تمر بها بداياتنا .. ولكن فى أطوار معينة تظهر لنا عظمة

الخلق فى تشكيل الاجنة المختلفة .. فاذا بأطراف الانسان غير أطراف الحمار ، وراسه غير راس القرد ، وأذناه غير أذنى الثور وفمه غير فم الخنزير .. وبالاختصار ، فان كل جنين يتشكل فى النهاية بالصورة التى يتواجد عليها أبواه وذووه « شكل ١٥ » ، ويخرج الى الحياة بهيئة تختلف اختلافا عظيما عن بدايته .

ثم لابد أن يعرف فصيحنا أنه لم يكن مرسوما ومخطوطا فى الخلية الملقحة على هيئة فصيح دقيق غاية الدقة بعينين وأذنين وراس وأطراف ومعدة وطحال .. الخ .. الخ

فهذه فكرة ساذجة قد نادى بها الاوائل « شكل ١٦ » ، ولا نستطيع أن نرى فيها ابداعا ولا تصميما ولا فكرة ولا خلقا له أساس عميق .. انما الابداع الحق ، والفكرة العظيمة ، ان تكون هناك شفرات كيميائية خاصة من عناصر هذه الارض ليكون الفصيح وابنه ، أو زعيط وبهانته ونعجته .

ولقد اشتغلت هذه الشفرات السحرية التى وجدت فى بدايات المخلوقات ، فاذا بها كفيلة وفعالة فى خلق كل ماعلى الارض وفى الماء من طوفان حى .. من الحيوانات ١٫١٥٠٫٠٠٠ نوع ، ومن النباتات اكثر من ٣٠٠ الف نوع ، غير ماانقرض واندثر من ملايين الانواع الاخرى التى راحت ، ولكن بعد أن تركت لنا اثارها ، لتحكى لنا قصة من لا يستطيع أن يصمد ويقاوم ويتأقلم ويتطور مع العوامل والظروف المحيطة به .. فالبقاء فيها للاصلح ، حتى ولو كان ذلك ميكروبا لا تراه العين ، أو ديناصورا ضخما يثير الرعب والفزع .

كان هناك اذن هدف لكى يأتى زعيط وامثال زعيط ، ولكن قبل أن يتحقق الهدف فى الانسان ، كان لابد من تمهيد

لظهور هذا الانسان .. لابد أن تمهد له أرض طيبة ، ومناخ معتدل ، ولقمة سائغة ، وحياة متصارعة ، لكي يتصارع معها ويكتسب خبرة وذكاء وصمودا ووعيا ، فيتطور مخه وفكره تبعا لذلك .

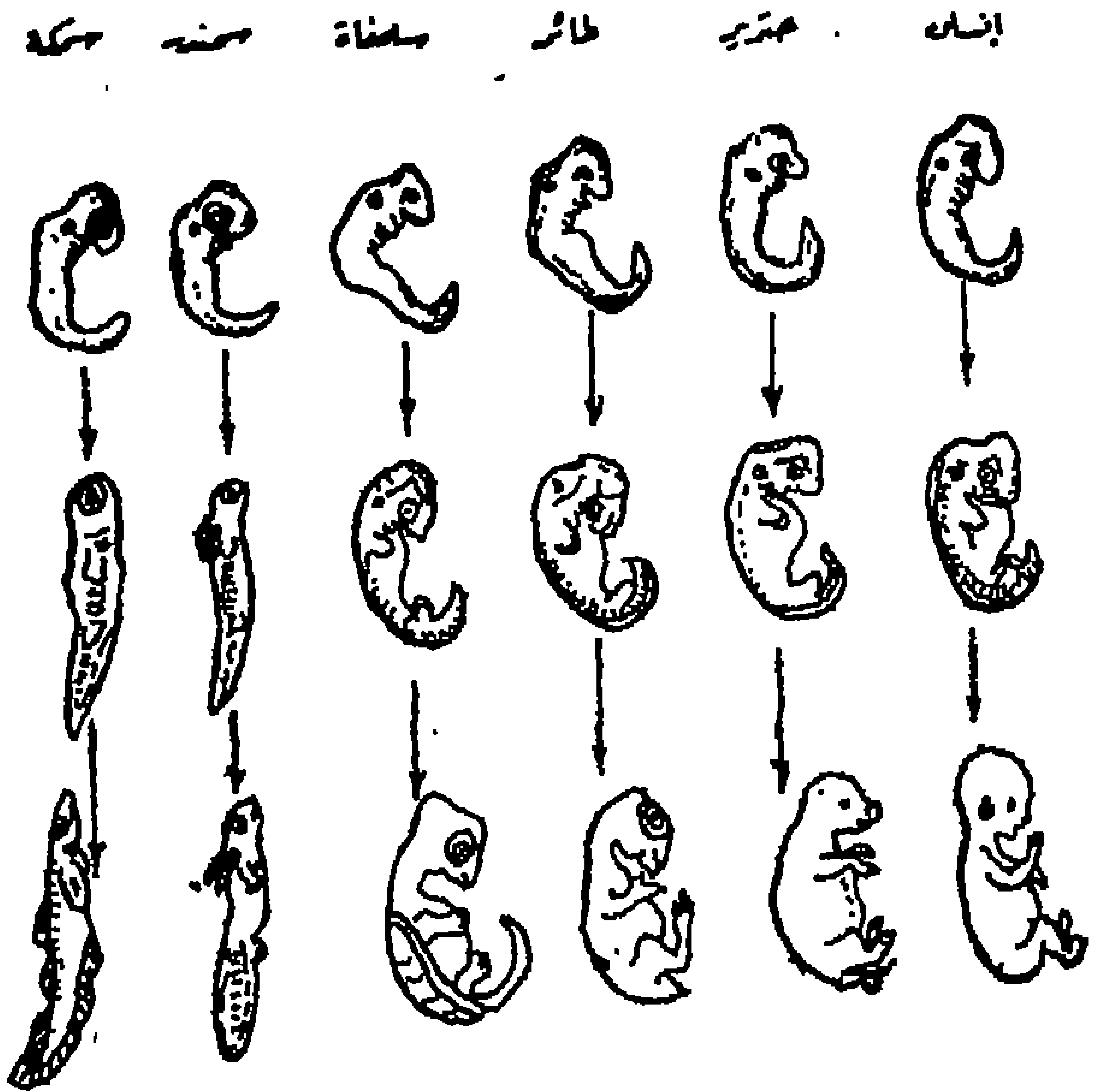
لقد كانت الارض منذ آلاف الملايين من السنين ، غير الارض التي نعيش عليها الان ايامنا .. فلو استطعت ان تعيد عقارب الزمن الى الوراء بضعة الاف ملايين الاعوام ، لما رأيت شجرة باسقة ، ولا زهرة متفتحة ، ولا حشرة شاردة ، ولا بومة ناعقة ، ولا سمكة عائمة .. ولا ما يكفي لاطعام ذبابة أو بعوضة .

لم يكن هناك شيء اطلاقا الا الضياع والخراب والسكون القاتل الذي يمتزج بين اونة واخرى بالبراكين الثائرة ، والرياح العاوية ، والامطار المتساقطة ، والبحور الساخنة ، والابخرة المتصاعدة ، والزلازل المتتابعة ، والاشعاعات القاتلة ، والغازات الخانقة ، والعربدة التي لايمكن أن تصمد لها حياة .

ان الارض في مولدها كانت بمثابة « طفلة شقية » ، كبداية مولد بهانة التي تبكي وتصرخ وترفس وتبول وتملأ الدنيا ضجيجا !

ثم هدأت الارض ، وانتابها شيء من التعقل والهدوء والرزينة .. كما هدأت بهانه عندما نمت وترعرعت واصبحت « عروسة » تنتظر حدثا سعيدا في حياتها .. وكذلك الارض تريد !

الا أن قصة الحدث السعيد الذي تنتظره الارض ، لكي يتغير وجهها الاغبر الكالح المحترق الى وجه مليح تكسوه الخضرة والحياة بكل صورها وجمالها ، ممثلا في ملايين الانواع من مخلوقاتها قصة طويلة ومثيرة ، ولهذا اراني في



(شكل ١٥) تبدأ كل الاجنة بحيوان منوى يلقح بويضة .. وفى المراحل الاولى لتكوين الجنين ((الصف الاول)) تتشابه الاجنة لدرجة من الصعب تمييزها .. وفى الصف الثانى يظهر الفرق واضحا بين جنين السمكة والسمندر .. ثم يصعب التمييز بين الاجنة الاخرى .. وفى النهاية ((الصف الثالث)) تظهر الفروق واضحة فى كل الاجنة ، ويمكن تمييز جنين الانسان من الخنزير من الطائر .. الخ .

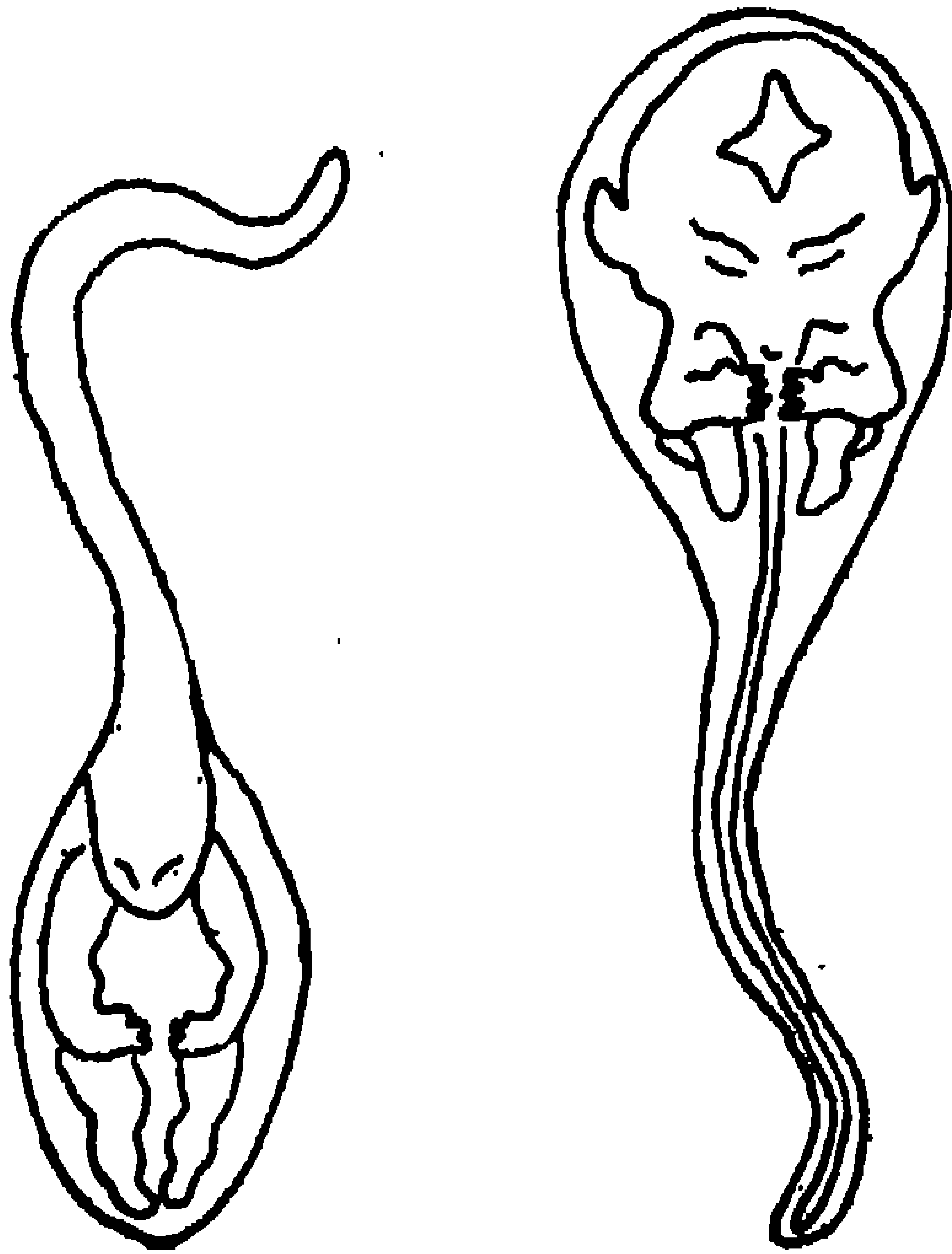
حل من التعرض لها هنا بالتفصيل .

ومع ذلك ، فلابد ان نذكر هنا أن الدراسات الحفرية والجيولوجية قد كشفت النقاب عن ظهور الحياة فى أبسط صورها منذ حوالي ١٥٠٠ مليون عام ، ولكن قبل أن تبدا الحياة فى الظهور كان لابد من أطوار وتمهيد طويل استمر مئات الملايين من الاعوام ، وفيها تحولت المادة غير العضوية التى جاءت بها الارض ، الى مادة عضوية لتجيء بهـا الحياة ، ثم مرت أطوار أخرى تشكلت فيها المادة العضوية وتخلقت على هيئة عشرات الالوف من أنواع المركبات التي تفاعلت وانفصلت ، وانفصلت لتتفاعل من جديد .. تكرر هذا ملايين المرات ، وفى كل طور أو فترة ـ يطول زمانها أو يقصر ـ تطورت الجزيئات وتعقدت ، واستمرت هذه الاحداث زمانا طويلا ، الى أن ظهرت الشفرة ، وظهـرت « الف باء » .. الحياة .. فكتبت بها الخلية ، أبسـط خلية .. وتطورت الشفرة ، ومن ورائها تطوير للخلية ، ومن وراء تطوير الخلية يكمن تطوير المخلوقات ، أو تلك القواميس الرائعة التى نراها على هيئة كائنات تسعى ، أو نراها فى الماء والطين .

الا أن أعظم تلك « القواميس » شأنا ، ذلك « القاموس» الرائع الذى تكدس فى الخلايا الجنسية للانسان العظيم ..

فنرى هذه الخلايا تنتقل من جيل الى جيل الى مـلايين الاجيال القادمة ، وكأنما نحن لسنا الا «مواعين» تحتفظ فيها الحياة بسر الخلود .. فتروح المواعين ، وتبقى الخـلايا لتنتقل من طور الى طور .. من جيل الى جيل ، ومن وراء ذلك أطوار بدأت فى زمن من عمر الكون سحيق .. « وقد

(*) انظر « لماذا نموت » للمؤلف ضمن سلسلة المكتبة الثقافية رقم ١٧٤ التى تصدرها دار الكاتب العربى بالقاهرة .



(شكل ١٦) هكذا تخيل بعض العلماء فى منتصف القرن التاسع عشر ان الحيوان المنوى يحمل صـــورة الانسان من البداية ولكن فى حالة متكورة غير واضحة !

خلقكم أطوارا » ، سواء أكانت هذه الاطوار ، فى الارض أم فى الارحام ·· فى الارض استمرت مئات الملايين من الاعوام ، وفى الارحام استمرت تسعة أشهر !

وهكذا فقد أصبح الانسان خلاصة مفيدة لتلك التجربة الكونية العظيمة التى استمرت ثلاثة الاف مليون عام

وفى ذلك ايضا يقول جورج جامو عالم الطبيعة الذرية الشهير « لقد كانت بضع سنوات تخلقت فيها الذرات ، وبضع ملايين من السنين ، تخلقت فيها الكواكب ، ولكنها ثلاثة الاف مليون عام لكى يظهر الانسان » ·· وهو يعنى بذلك بداية تخليقه من عناصر هذه الارض على هيئة خلية اولى « ولقد خلقنا الانسان من ســـــــلالة من طين » ·· « أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ، ثم سواك رجلا » ؟!

وقد تأخذ الفصيح الدهشة فيتساءل : ياله من عمــر طويل .. أوليس الله بقادر على أن يخلق كل ذلك فى لمح البصر ؟.. ثلاثة الاف مليون عام لكى أجىء ويجىء غيرى ! أوليس ذلك ضياع فى عمر الزمان ؟

وعليك يافصيح الا تخضع نواميس الكون لعقلك ، بل الاحرى أن تخضع عقلك لهذه النواميس حتى يمــكن أن تدرك مايجرى حولك ، فأنت جزء مما يجرى حولك .. وثلاثة آلاف مليون عام بالنسبة لنا عمر طويل ·· طويل جدا .. وقد لاتستوعبه العقول ولا الخيال ، ولكنها عند خالقك قد لاتساوي شيئا مذكورا .. لان الزمان بالنسبة له أبدى .. لا نهائى .. فاذا طرحت عاما او مائة عام او ثلاثة الاف مليون عام ، او اى رقم تختار من اللانهائية ، فستبقى اللانهائيـة قائمة .. ولن ينال من ضخامتها بلايين الاعوام التى نقدر بها عمر الارض والنجوم والكواكب ..

وربما كانت هذه البلايين بالنسبة لخالقك يوما او أياما ، لسنا ندرى ، ولكن الذى ندريه حقا، انه قد اشار الى نسبية الزمان .. أي مروره بالنسبة لهولنا ، حيث يقول « فى يوم كان مقداره ألف سنةمما تعدون » .. « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » !؟

ثم ان الله ليس كالانسان عجولا « وخلق الانسان عجولا» .. فلقد وضع لكل شيء نواميسه : الذرات والخلايا والمخلوقات والكواكب والاجرام السماوية والاكوان ، وارسى فى كل واحدة من هذه أمرها ، فسار كل شيء حولنا باتقان ونظام ، ولقد استشف الانسان من هذه النظم القوانين الطبيعية التى تحكم هذه الاكوان .

ومع ذلك ، فلا زالت التجربة تسير .. تجربة خلط الشفرات الوراثية عن طريق اندماج خلاياها الجنسية ، وكانما الهدف لم يكن الانسان الحالى ، لانه لايزال يحتفظ ببعض الصفات الحيوانية ولكن ـ فى رأينا ـ أن الهدف الحقيقى هو الوصول بالانسان الى مستوى أرقى من مستواه الذى يعيش به الان ، وذلك عن طريق التطور الذى يسرى فى كل شيء حولنا .

الا اننا لا يجب أن نقيس فترات هذا التطور بعشرات الاجيال ولا بمئات السنين وآلافها .. لان عملية التطور فى الطبيعة بطيئة للغاية ، وقد يسرع الانسان بحدوثها عندما تتهيأ الاذهان والعقول لذلك .. الا اننى لن أتعرض هنا للاسس التى قد تقود الى ذلك ، لانها قد تخرج بنا عن موضوعنا .

ونست بمستطيع ان اتنبأ بمستقبل الانسان ، ولكن ، ليكن لنا من الماضى عبرة ، اذ ان الانسان الذى يعيش على أرضنا اليوم ، لم يكن هو الانسان الوحيد الذى ظهر على

هذا الكوكب بل لقد سبقته عدة أنواع واجناس قريبة الصلة بالانسان ، ولقد بدأ ظهورها على هـذا الكوكب تدريجيا ـ كما تدل الحفريات على ذلك ـ منذ حوالى ١٢ مليونا من الاعوام •

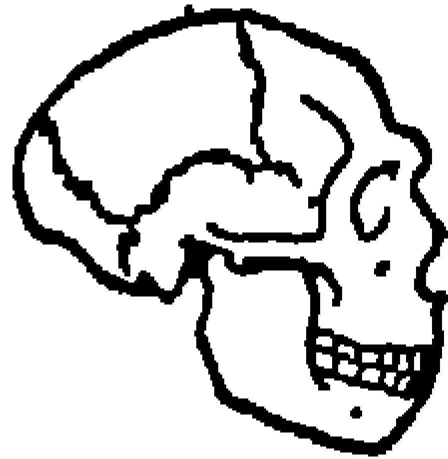
ونحن فى الواقع نوع واحد من جنس « هومو Homo » .. وهى كلمة يونانية معناها الانسان ، ولكى يميزه العلماء عن غيره من أنواع ، أطلقوا عليه اسم : « هوموسيبيانس Homo Sapiens » أى الانسان العاقل أو الحكيم أو المدرك » .. ومن المفروض أن يكون كذلك ، حتى ولو رأينا من الناس حولنا غير ذلك !

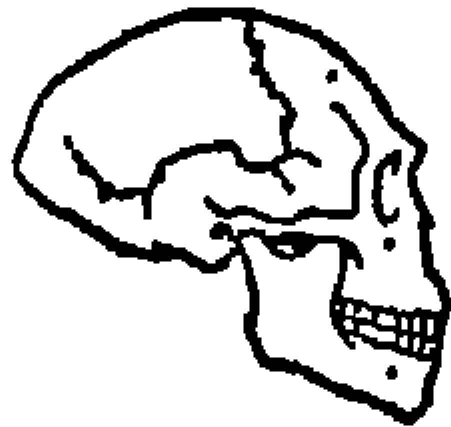
معنى هذا ان هناك أنواعا وأجناسا أخرى كثيرة قد ظهرت قبلنا ، منها على سبيل المثال لا الحصر ، انسان نيندرثال ، وانسان جاوه ، وانسان بكين،وانسان روديسيا وانسان هابيل ، وانسان فلسطين .. الخ .

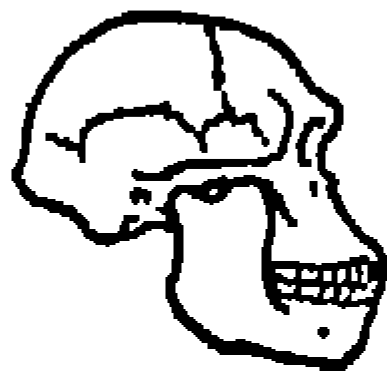
ولقد استطاع علماء الحفريات من خلال ماكتشفوه من بقايا عظام كثيرة لهذه الانواع فى المليون سنة الاخيرة ، أن يستدلوا على الفترات التى عاشت فيها وعلى طرق معيشتها وعلى تقاطيع الوجه ، وحجم المخ ، وشكل الاطراف واعتدال القوام •• الخ •

الا ان لهذه الانواع المنقرضة جذورا قديمة فى الماضى البعيد ، ففى شكل « ١٧ » يتبين لنا تقاطيع وجه الانسان القرد الذى كان يسكن جنوب افريقيا « أسفل الصورة » .. فمن الحقائق التى جمعها العلماء عن هذا النوع ، تبين أنه كان يسير بقامة معتدلة ، وانه ربما كان يستطيع أن يستخدم يديه فى صناعة أدوات بدائية للغاية ، كما يشير الى ذلك الاستاذ رايموند عندما اكتشف فى نفس المكان الذى وجد فيه بقايا هذا الانسان القرد بعض




(شكل ١٧) نماذج من رءوس الانسان واشباه الانسان .. وكلها قد انقرضت ماعدا الانسان الحكيم ـ لاحظ حجم الجبهة والانف والفم وحجم الراس ..ثم كيف يسير الاعتدال كلما ظهر نوع ارقى

ادوات كان يستخدمها فى تحطيم رءوس الحيوانات الاخرى « شكل ١٨ »

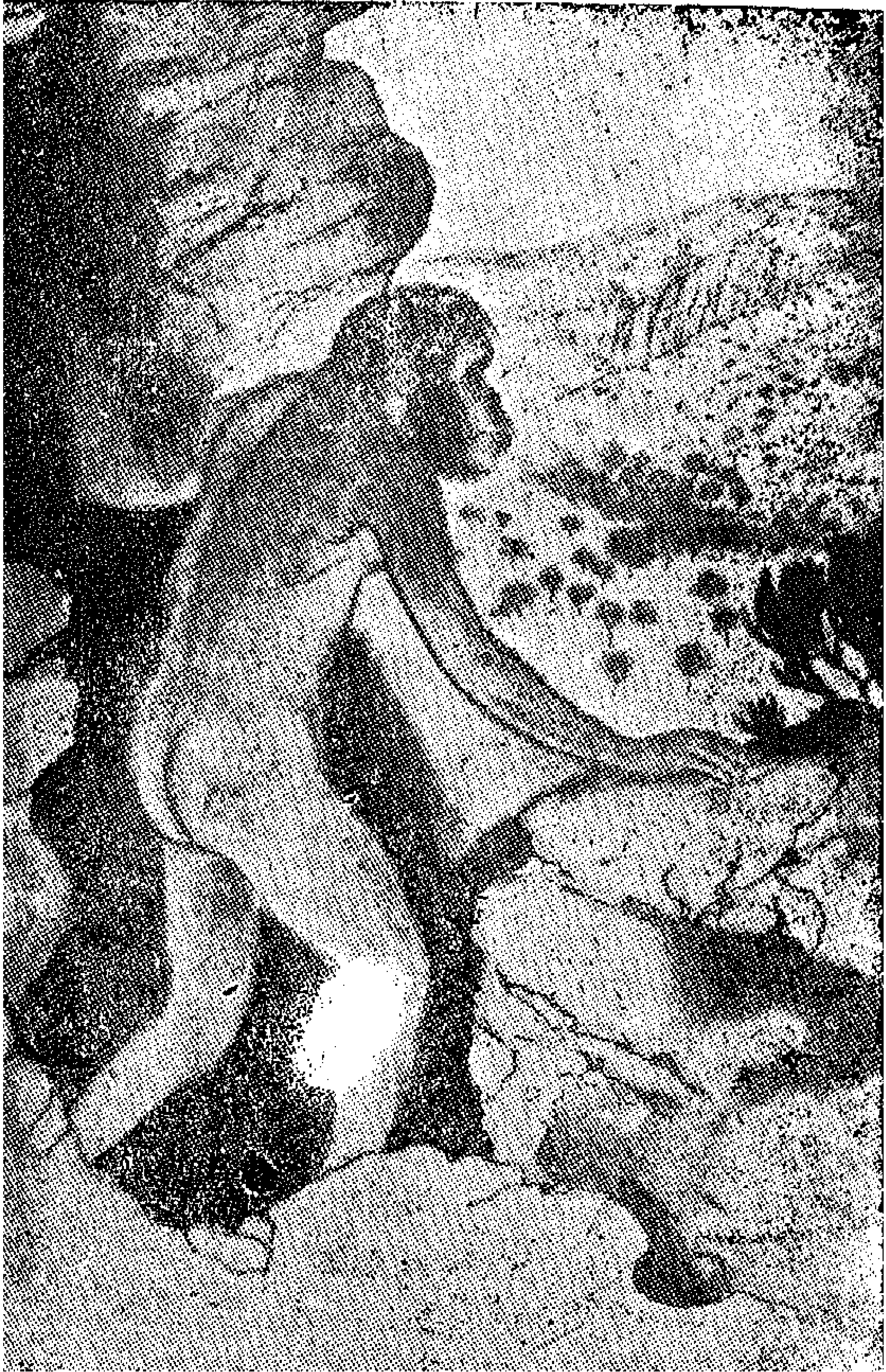
وتشير الدراسات ايضا الى أن حجم مخ هذا الانسان القرد وصل الى ٦٠٠ سنتيمتر مكعب ، فى حين أن حجم مخ الغوريلا الذكر ٥٥٠ سنتيمترا مكعبا في المتوسط ، وانثاه ٤٦٠ سنتيمترا مكعبا .. هذا بالمقارنة الى حجم مخ الانسان الحالى الذى يصل فى المتوسط الى ١٣٥٠ سنتيمترا مكعبا .

وبطبيعة الحال لا يمكن أن يقفز حجم المخ الى الضعف، الا بعد سلسلة طويلة من التطور ، ومع ذلك يقول آشلى مونتاجو عالم الانثروبولوجيا (*) الشهير « اما ان يكون هذا النوع هو السلف البعيد الذى انحدر منه الانسان الحديث او أن يكون الخيط الذى قاد الى ظهور الانسان فى النهاية .. الا انه لكونه قد امتاز ببعض الصفات شبه الانسانية ، فربما يمت بقرابة للمجموعة التى نشأ منها الانسان ، ومع أنه ليس لدينا معرفة تامة بأسلاف الانسان القدماء « أشباه القرود » ، الا أننا نستطيع أن نحكم — من تسلسل الحوادث — ما ستكون عليه اشكالهم ، عندما نكتشف بقاياهم »

ومعنى هذا أن التطور يسير الى غاية وهدف .. فكلما مرت عشرات الالاف ومئات الالاف من السنين ، تظهر انواع قريبة الشبه بالانسان ، وتنقرض انواع أخرى .. الى أن ظهر انسان نيندرثال « شكل ١٩ » الذى انتشر انتشارا واسعا وعاش مع الانسان الحديث بعض الوقت، واستطاع ان يترك حضارة بدائية للغاية .. وأن يترك رسوما تدل على فنه البدائى كذلك .

والموضوع بعد ذلك طويل .. الا أن النتيجة التى لامفر

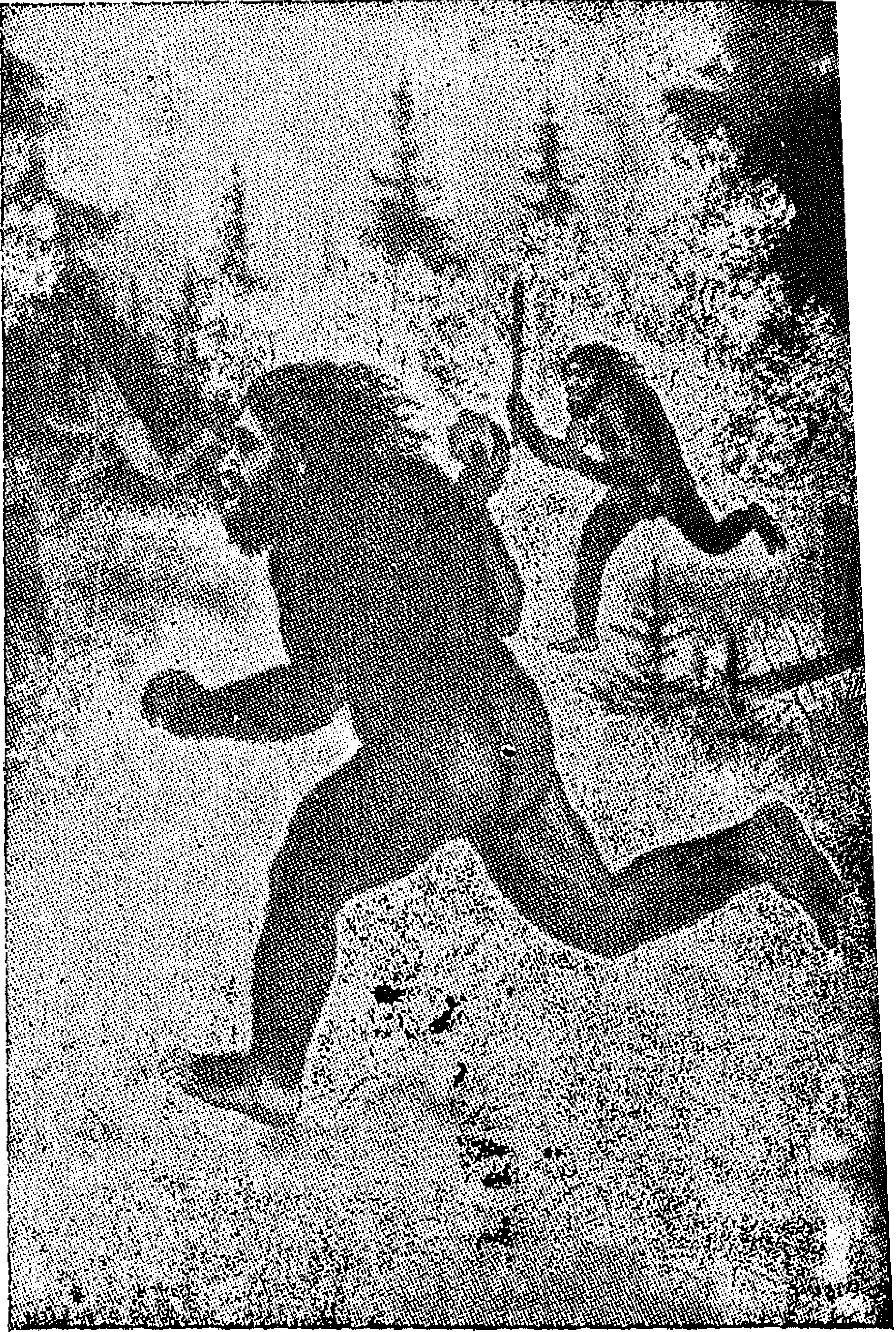
(*) الانثروبولوجيا Anthropology علم يبحث فى أصل الانسان .



(شكل ١٨)الانسان القرد ،أقدم صورة حفرية ترجع بنا الى بداية ظهور اشباه الانسان .. والصورة تكوين مما اكتشفه العلماء من بعض عظامه التى لا يوجد لها مثيل فى أى كائن حى يعيش حتى اليوم .. وما أيسر ان تعرف الصورة التى يمكن ان يتواجد عليها المخلوق من هيكله العظمى .

منها أن هناك انواعا من أشباه الانسان وأشباه القرود قد ظهرت تباعا على هذا الكوكب . ولقد قضت على نفسها بالفناء ، ربما لانها لم تستطع أن تستخدم عقولها البدائية ، لكى تتغلب على عوامل الفناء من حولها ، وكان لابد أن تموت وتنقرض لكى تفسح للانسان الحكيم الطريق لكى يسود على هذا الكوكب .. ومع ذلك فقد كانت هذه الانواع بمثابة القنطرة التى عبرت عليها الخلايا الخالدة (الجنسية) الطريق الطويل ، لكى تظهر فينا بشفراتها الوراثية ، وقد نكون نحن قنطرة لانسان أعظم شأنا ، واكثر تطورا ورقيا وادراكا ووعيا .. واكثر تفهما لاسرار الكون العظيم — فلا زالت بعض حواسنا قاصرة عن فهم الكثير من هذه الاسرار

وهكذا يتبين لنا أن الحياة تسير على مبدأ النوع ، لا الكم quality not quantity بمعنى أنه لا يهمها كثرة العدد ، بقدر ما يهمها نوع هذا العدد ، وتاريخ الارض الطويل يؤكد لنا هذا المعنى ، فهل نحن على هدى قوانين الحياة ونواميسها سائرون ؟.. أو هل نحن — عما يجرى حولنا — غافلون ؟.. عندئذ قد يكون مآلنا هو مآل اجدادنا القدماء الذين اندثروا كانواع كثيرة .. وهنا تستطيع أن تقيم نفسك وتقيم المجتمع الذى فيه تعيش .. ولتعلم ان للكون نواميسه ، وللحياة قوانينها ، فمن عرفها وأدركها وسار على هديها ، كان أحق من غيره بالبقاء .. ولا جدال فى ذلك ، والا فما معنى مجىء الانسان العاقل أو المدرك .. فهل يدرك حقا لماذا جاء ؟. ان مجيئه لكى يعمر لا ليدمر ، لكى يعقل ، لا ليهرج ، لتكون له رسالة أسمى من رسالة الحيوان الذى نسوقه ونوجهه كيف نشاء .. وليس البشر قطيعا من الاغنام



(شكل ١٩) انسان نيندرتال كما يتخيله العلماء نتيجة لاكتشاف كثير من الحفريات الهياكلية ((العظـام)) .

توجهه عصا الراعى ، بل الاحرى بالانســـان الذى جاء متوجا لثلاثة الاف مليون عام من التطور أن يدرك أن له في الحياة حرية وارادة ووعيا بما هو كائن حوله ، فيساند الحق ، ويحارب الفساد ، حتى يســـتطيع أن يعيش فى مجتمع يتصف بصفة الانسانيه ـ لا الحيوانية ـ ومن هنا نســـتطيع أن ننفذ الى باب آخر مســـتقل لنختتم به موضوعنا « كم تساوى أنت ؟! »

الفصل الخامس

إذن ...
فكم تساوى أنت ؟!

بعد هذه الرحلة القصيرة فى أسرار المادة والطاقة ، ثم فى النظام البديع الذى سلكته المادة ـ ممثلة فى ذراتها ـ لكى تتفاعل عن طريق جزيئاتها ، لتنتج طاقة حيوية دافقة تعيش بها كل المخلوقات ، من أول الميكروب الى الانسان ـ ثم فى عظمة الشفرات الوراثيه التى وقف أمامها العلماء مبهورين فى بساطتها .. حائرين فى ضخامتها .. تائهين فى معانيها .. ثم فى هذه الرحلة الطويلة التى سارت فيها الخلية الاولى ، لكى تظهر فى النهاية فى بداية مخلوق عظيم ، هو الانسان الحكيم .. بعد هذا نختتم موضوعنا الذى نحن بصدده .

ولقد جاء ختامه بعدة كلمات على أفواه كل من وقعت عيونهم على عنوان هذا الكتاب .. فمن قائل : لانساوى شيئا ، وهم غالبية للاسف الشديد ، ومن قائل : نحن نساوى الكثير ، لو عرفنا قيمة أنفسنا ، وقدرنا عقولنا واستخدمناها كما يجب .. وهؤلاء أقلية قليلة !

ولكن دعنا من هؤلاء وهؤلاء الى حين .. وسنعود الى ذلك ..

لقد قيمنا الانسان فى شخص زعيط كمادة وطاقة ونظام حيوى ، وعقل متطور .. الا أن قيمته الحقيقية تتركز فى عقله وادراكه ، لان المخلوقات الاخرى تشاركه نفس

الاسس الحيوية التى قام بها كيانها ، وهذا ماسبق ان أوضحناه باختصار .

وبالعقل أصبح الأنسان سفيرا للسماء على هـــذا الكوكب ، وصار الممثل العظيم لله على أرضه .. هـــذا النوع الوحيد من بين كل أنواع ملايين المخلوقات المندثرة والبـــاقية !

ان الانسان بعقله المدرك جزء من العقل الكونى الجبار .. اذ ليس شططا فى القول عندما وصف بأنه صـــاحب العقل الخلاق .. وهو فعلا كذلك .

فبعد أن سبر أغـــوار الذرة ، وتفهم بعض أسرار الجسيمات التى تبنيها (البروتون والنيوترون والاليكترون .. الخ) ، استطاع أن يقوم بتخليق جسيمات أخرى ، لايزال حائرا فى طبيعتها ، ومن خلال بحوثه العميقة فيها يريد أن يصل الى تفهم أسرار الكون وكيف نشأ .. ثم الحقيقة الكامنة من وراء كل هذه المظاهر الكونية التى لانستطيع ادراكها .

● وبعد أن تفهم بعض أسرار الذرات ، استطاع أن يقوم بتخليق ذرات جديدة لم تتواجد من قبل على أرضه .. فمنذ حوالى ربع قرن من الزمان لم نكن نعرف من عناصر الارض الا ٩٢ عنصرا .. ولقد كان اليورانيوم فى قمة العناصر الارضية المشعة ورقمه ٩٢ .. الا أننا لدينا الان حوالى ١١ عنصرا جديدا ، وبهذا ارتفع عدد العناصر الى ١٠٣ عنصر ، وهو يسعى الآن لتخليق ذرات جديدة لكى يضيفها الى قائمة العناصر .. بعضـــها طبيعى ، والاخر من تخليق يديه !

● وبعد ان تفهم أسرار ترابط الذرات فى جزيئات ، وتوصل الى القوانين التى تحكم تفاعلاتها ، قام بتخليق

جزيئات عضوية طويلة متماسكة « بلمرة » ، نافس بها انتاج الطبيعه واستخدمها بعد ذلك فى تصنيع أشياء لا نستطيع ان نحصيها عدا .. فكان البلاستيك بمشتقاته الكثيرة ، والاقمشةالصناعية كالنيلون والتيريلين والداكرون .. وكان المطاط الصناعى بأنواعه ، وكانت اللدائن الصناعية .. الخ .. الخ .

● وبعد أن تفهم بعض اسرار الجزيئات الحية ، وبعض أسرار الشفرة الوراثية نقلها من الخلايا الحية ، وسيطر عليها فى الدوارق والانابيب ، ودفعها دفعا لكى تعمل حسب هواه ، واشتغلت الشفرة أو الشفرات ، لتبنى له البروتينات أو غيرها من مركبات ، ثم نراه يسيطر على عملية التمثيل الضوئى التى تحدث فى النبات الاخضر ، ويجعلها تشتغل لحسابه خارج الخلايا الحية — أى فى الدوارق والانابيب — وقد يستغل هذه العمليه فى المستقبل القريب أو البعيد ، وبهذا يستغنى عن بعض انتاج النباتات ، ويستطيع أن يحصل على ما يشاء من موارد الغذاء .

ولقد نجح الانسان حديثا فى السيطرة على الجزيئات الوراثية فى الانابيب ، ودفعها لكى تخلق صورة منها ، وهنا بشائر تشير الى التوصل الى تخليق فيروس (*) !

والفيروس هو الخطوة الاولية فى بدايات الكائنات الحية .. وبعد هذا تجد اشارات كثيرة لعلماء مرموقين باحتمال توصل الانسان الى خلق خلية حية !! .. ولا ندرى بعد ذلك ماذا ستأتى به الايام ، وما نهاية مطاف العقل البشرى!

● وبعد أن تفهم بعض أسرار الخلية ، استطاع ان

(*) انظر الفيروس والحياة للمؤلف ضمن سلسلة المكتبة الثقافية رقم ١٥١ دار الكاتب العربى — القاهرة .

يسرع بتكوين سلالات جديدة من النبات والحيوان والميكروبات .. والواقع ان هذه السلالات والطفرات تنشأ تلقائيا ، نتيجة لعوامل طبيعية وكيميائية ، وهي عمليات تحدث ببطء شديد للغاية في الطبيعة ، الا ان الانسان يستطيع أن يسرع بحدوثها ، فيخرج القليل النافع فيبقي عليه لصالحه ، والكثير طفرات سيئة ، فيقضي عليها !

● وبعد ان تفهم بعض اسرار الطبيعة ، وعرف قوانينها ، نجح في تسخيرها لخدمته فسيطر على البخار ، وكان عصر الالة .. ثم على الالكترون ، فكان عصر الكهرباء . ثم على نواة الذرة ، فكان عصر الطاقة النووية . ثم على الصواريخ ، فكان عصر الاقمار الصناعية .. ثم تراه ساعيا الى السيطرة على الحياة ، وسيكون عصرنا القادم عصر علوم الحياة الذهبي ، ففي الخمس عشرة سنة الاخيرة قفز الانسان قفزة هائلة .. سيكون لها نتائجها العميقة والخطيرة على تفكير الانسان ، وهذا موضوع طويل ومثير ومخيف .. ولهذا فقد يكون له مجال آخر غير هذا المجال .

● ثم نراه يعزل الخلايا الانسانية والحيوانية والنباتية ، ويزرعها في الانابيب ، ويمدها بما تشاء من غذاء ، فاذا بها تنقسم وتتكاثر ، وكأنما هي خلايا ميكروبية .. حتى العظام التي قد نظنها رميما ، لقادرة على ان تنمو ايضا في الاطباق .. من ذلك مثلا ، ان العالمة المرموقة هونورفيل كانت تستخرج العظام من أجنة في دور التكوين وتضعها في طبق زجاجي معقم ، وتقدم لها خليطا كيميائيا من صنع يديها ، فاذا بالعظام تنمو وتستطيل ، ومنها درست نمو خلايا العظام وسلوكها وتكوينها !

ان الانسان بذلك يريد ان يصل الى لغز الحياة من

جذوره ، لكي يصحح للحياة اخطاءها الوراثية ، فما اكثر المعذبين فى الارض نتيجه لهذه الاخطاء ..

ثم نرى الانسان ينظر الى نفسه على انه آلة بشرية يمكن اطالة عمرها لو تعطل منها مرفق حيوى ، فهى بين الحين والحين تحتاج الى « قطع غيار » .. ويكفينا ما نسمعه هذه الايام عن نقل قلوب وكلى وعيون واكباد .. الخ ، وزراعتها فى بشر يحتاجون اليها .. والانسان هنا ينجح مرة ، ويفشل مرات ، ولكنه يتعلم من اخطائه ، فاذا بالفشل أو الخطأ يتحول فى النهاية الى نجاح .. ثم اننا لازلنا فى بداية الطريق !

● وبعد ان تفهم بعض قوانين الكون ، يحاول جاهدا أن يترك ارضه ، ويتخلص من جاذبيتها التى جعلته سجينا لها منذ ان ظهر عليها .. انه بهذا يريد أن يعرف ، يريد ان يسبر غور اسرار الله المكنونة فى كونه العظيم .. وذلك هو الانسان الحق الذى تجذبه روائع الخلق فى ذرة.. فى خلية .. فى مخلوقات فى ارض ــ فى كواكب فى سماء وسموات واكوان .. وكل غارق فيما يبحث فيه ، وكل يعلم أن وراء هذه الانظمة الرائعة مدبرا عظيما !

وربما كان الله يعنى فى حديثه القدسى هذا الانسان المنقب الباحث .. فعن الله عز وجل « كنت نسيا منسيا .. فأردت ان أعرف .. فخلقت الخلق ليعرفونى ».. والمقصود هنا بالخلق هو الانسان ، وهل يمكن لانسان ان يقدر الله حق قدره ، الا اذا سعى الى معرفة سر عظمته فى خلقه ، وعندئذ يحق القول « انا كل شيء خلقناه بقدر » .. « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .. « فضل العلم خير من فضل العبادة » ؟ الخ

ان المعرفة هدف الانسان لا الحيـــوان ، والا فبـالله خبروني : هل رأيتم في حياتكم حمارا يقرأ كتابا ؟ ·· أو خروفا يتمعن في أسرار الكون ، او بهيما يصنع سكينـــا او سلاحا ليدافع عن نفسه عندما يساق الى المذبح ؟ .. او خنزيرا يؤلف نظرية او يضرب على الاوتار فتكـــون له الحان تطرب لها الاذان ؟! ·· او ·· او ·· وأضيفوا بعد ذلك من « الاواوى » ما تشاءون .

هناك فرق كبير جدا بين انسان يعرف ، وانسان لا يعرف ·· تماما كالفرق بين النور والظلام ، أو بين الموت والحياة !

ورسالة الانسان الحقة على هذا الكوكب ان يسـعى ليعرف ، وأن يعرف لتتسع مداركه ، وان تتسع مداركه لكي يحكم على الامور بمنطق العقل المدرك ، لا العاطفة الجياشه ، فكثيرا ما أدت هذه العواطف الى كوارث !

ولست أقصد هنا أن الغي عواطف الانسان ، لانهـــا صفة يتمتع بها دون سائر المخلوقات ، ولكنني اقصـــد أن يزن الامور بميزان العقل أولا ، ثم لتأت عواطفـــه في المرتبة التـالية .

أن المجتمعات البشرية ــ ككل شيء حولها ــ لفي تطور دائم ، وقد يكون التطور دفعة الى الامام ، فتـــرقى الشعوب ، وقد يكون الى الخلف ، فتنتكس !

ان انسان اليوم ، غير انسان الامس .. رغم ان هذا من نسل ذلك .

وعالم اليوم « غير » عالم الامس ·· رغم ان هـــذا امتداد لذاك .

وصراع اليوم غير صراع الامس .. رغم ان هذا تطوير لذاك .

أما ان انسان اليوم غير انسان الامس – ونقصد بالامس هنا تلك الفترة الطويلة التى مضت على بداية ظهور الانسان على الارض منذ حوالى مليون عام او اقل – فذلك يعود الى أن الانسان القديم لم تظهر له حضارات ولم يترك تراثا ولا علما يمكن أن نقيمه به .. لقد قضى مئات الالوف من الاعوام هائما على وجهه فى الغابات والفيافى والقفار .. يصطاد ويعود بصيده الى الكهوف ، ولم يكن كل همه الا ان يأكل ويتناسل ويتصارع مع الحياة القاسية من حوله ، ومع ذلك فقد كان اكثر ادراكا ووعيا وتطورا من كل ما حوله من أنواع المخلوقات ، بدليل أنه استطاع ان يستخدم النار ، ويصنع أسلحته من الاحجار والصخور « العصر الحجرى » .. ثم عرف كيف يزرع ويستأنس الطير والحيوان ، ويقيم لنفسه حواجز لتحميه من تقلب الاجواء .. الخ ، وبالاختصار لقد كان يستخدم عضلاته اكثر من عقله ، فى حين ان انسان اليوم يعتمد اساسا على عقله ، فلقد ذهبت أمجاد العضلات والهراوات والسيوف ، وحل محلها عالم الازرار والصواريخ والاقمار !

ومع ذلك فلا يزال فى عصرنا الحاضر مجتمعات تستخدم عضلاتها والسنتها اكثر مما تستخدم عقولها .. وسلالات بشرية تعيش كما يعيش الانسان القديم او انسان الغاب ، ويكفينا هنا مثلا الهنود الحمر وأهل استراليا البدائيين وبعض القبائل التى تسكن اواسط افريقيا .. فاذا لم يتطوروا أو يسايروا العصر الذى فيه يعيشون ، فلا يلومون الا انفسهم .

ولا تحسبن أن بعض المجتمعات البشرية التى تعيش اليوم ، تتسم بالغباء المطلق ، ليس هذا صحيحا ..

فالذكاء موزع بالعدل والقسطاس على كل سكان هذا الكوكب . وفى كل مجتمع ـ بدائى او متحضر ـ نسبة من الاذكياء ونسبة من الاغبياء .. ولكن مشكلة المجتمعات المتخلفة أنها لا تريد ان تتطور وتكتسب معرفة أو علما

ان مسايرة روح العصر الحديث ، تعتمد على التخلى عن بعض القديم .. بمعنى انه يجب أن تزن الامور بلغة العالم الذى فيه تعيش .. فاذا كانت لغته القوة فلتكن قويا لا ثرثارا ، واذا كان علما ، فلتتسلح بسلاح العلم ، واذا كان مكرا وخداعا ، فليكن لك من المكر والخداع نصيب .. الخ ، ويكفى ان الله يضرب لنا الامثال ، ويسوق لنا « بتواضع » معنى ذلك فى آية كريمة حيث يقول « ومكروا ومكرالله ، والله خير الماكرين » !

اذن .. فكم تساوى انت ؟ .. عليك ان تقرأ ما فات مرة اخرى ، لكى تقيم نفسك مع مجتمعك ، فان قيمة المجتمعات من قيمة افرادها !

وعالم اليوم غير عالم الأمس البعيد ، رغم أن عالم اليوم امتداد لعالم الامس البعيد .. فلقد غير الانسان بعقله وجه الارض ، وفعل فى مائة من السنين ما لم تفعله الأجيال السابقة فى عشرات الالاف من السنين !

ان حضارة العالم وعلومه الآن سريعة وثابة ، وكأنها فى صراع مع الزمن ، فما من يوم يمر ، الا وتظهر لنا فيه اختراعات جديدة ، وعلوم جديدة ، وبحوث جديدة، وأفكار متطورة جديدة !

فى عام ١٧٥٠ لم يكن فى العالم كله الا عشر مجلات علمية (*) ، ولم تكن متداولة كالمجلات العلمية التى تصدر

(*) ونقصد بالمجلات العلمية هنا تلك التى تبحث فى فروع العلم Science التطبيقى والنظرى كالطبيعة والكيمياء والطب والزراعة الفلك .. الخ

اليوم .. لكثرة التكاليف ، وصعوبة المواصلات ، وقلة العلماء .

وفى بداية القرن التاسع عشر ارتفع عدد هذه المجلات الى مائة ، ثم الى ثلاثمائة فى عام ١٨٣٠ ، ثم الى ١٠,٠٠٠ فى بداية القرن العشرين ، ثم الى ٣٥,٠٠٠ فى عام ١٩٦٤ .. اى بواقع مجلة علمية جديدة تولد كل يوم فى المدة من ١٩٠٠ الى ١٩٦٤ .. والبقية لازالت فى الطريق الطويل .. ودعك من المجلات والصحف الاخرى التى تتداول بين عامة الشعوب ، فلا شك أنها تصل الى مئات الالوف .

كان عالم الامس البعيد معزولا عن بعضه فى مجتمعات بدائية صغيرة ، وبمرور الاف السنين تحولت المجتمعات الصغيرة الى مجتمعات اكبر واكبر ، وتطورت طرق حياتها أكثر وأكثر ، حتى صارت دولا ، الا انها كانت الى حد ما معزولة بالمقارنة مع العصر الذى نعيش فيه الان .. ويكفى ان نذكر مثلا ان القارتين الامريكيتين بقيتا معزولتين عن العالم القديم الى وقت قريب نسبيا ، ودعك من الجزر الكثيرة التى كانت تنتشر فى المحيطات الواسعة بسكانها .

انك الان تعيش وكانما العالم كله بين يديك او تحت قدميك ، وأمام عينيك ، هذا اذا أردت أن تكون على اتصال بعالمك لتعرف ما يجرى فيه .. ففى ساعات تستطيع ان تنتقل من قارة الى قارة (وقد يختصرها العلم فى المستقبل الى دقائق) .. وفى اقل من لمح البصر تستطيع ان تلتقط الاحداث التى تجرى فى كل ركن من أرضك .. ما عليك الا ان تحرك مفتاح الموجة فى جهاز صغير تحمله فى جيبك « الترانزستور » ، فاذا

الذى يتكلم فى الارجنتين ، تسمعه فى نفس اللحظة وانت متكىء على السرير .. واذا بالطائرة التى تحترق فوق الاطلنطى ، يصل خبرها اليك بعد دقائق معدودات ، واذا الذى يتحرك على مسرح لندن تراه امامك فى التليفزيون فى نفس اللحظة (عن طريق الاقمار الصناعية) .. الخ.

ان عالم اليوم قد سخر قوى الطبيعة من حوله لخدمتك، وهو بذلك يختلف عن عالم الامس الذى اعتمد على قوة عضلاته .. فبالطاقات ـ التى سيطر عليها ـ يستطيع ان يفجر الصخور ، ويزيل الجبال ، ويقيم السدود، ويولد الكهرباء ، ويحطم الذرة ، ويطلق الصواريخ .. ويكفى ان نشير هنا الى ان الطاقة المتولدة من السد العالى تساوى طاقة عضلات عشرة ملايين من الرجال الاشداء يعملون ليل نهار !

ان عالم اليوم يعتمد على علمه وعلمائه ، اكثر مما يعتمد على عدد افراده ، وعلماؤه يعتمدون على عقول من صنع ايديهم وعقولهم ، فبالعقول الالكترونية يستطيعون ان يحصلوا على نتائجهم وتقديراتهم فى دقائق معدودات ، بدلا من سنوات قد يقضونها فى اجهاد عقولهم ..وكانما يريدون ان يتفرغوا بهذه العقول الثمينة الحية الى اختراعات اعظم واجهزة اكفأ ، وعلم اعمق .. انهم يسعون الى ما فيه اسعاد هذا العالم ، ويكفى ان نذكر هنا كيف سيطر العلم على الاليكترون ، وسخره لخدمتنا ليضىء ويطهو ويغسل ويكنس ، وينقل الصوت والصورة ، ويدير المصانع ، ويصهر الحديد ، ويحرك السيارات ، ويوجه الصواريخ ، ويقود الطائرات فى جنح الظلام ، ويربط ما بين اطراف الارض ، حتى لقد اصبح

اكثر فائدة لنا من كل عفاريت الملك سليمان .

ان العالم من حولك متطور ·· ولكى يكون لك فيه قيمة، فلابد ان تتطور بتطوره ، لتلحق بركاب هذا التطور .. ومن هنا نستطيع ان نقول : كم تســـاوى انت مع مجتمعك الذى فيه تعيش .. فانت مع غيرك لبنة مــن لبناته ، واللبنات القوية الصامدة ، لابد ان تعطى اساسا وبنيانا صامدا .. وكذلك الشعوب وافرادها .

وبطبيعة الحال لا أستطيع وحدى أن أقيمك ، فقد لا اعرفك .. بل على المجتمع الذى فيه تعيش يقــع عبء هذا التقييم ، ولكن على شرط ان يكــــون مجتمعا واعيا مدركا ·· لان الادراك الســـليم ، لا يعرفه غــير الانسان ذى العقل الواعى السليم .

هل رأيت مثلا عالم القرود فى حديقة الحيوان ؟ .. هل حاولت أن تتأمل وتدرس وتستنتج ؟ .. هل اكتشــفت بينها قردا كبيرا ذا هيبة وجلال ؟ .. هل شاهدته وهو يجلس أو يمشى وكأنه صاحب العظمة الســلطان ؟ ·· فاذا سار ، افسحت له القرود الطريق ؟ ·· واذا جاءه الطعام ، لم تستطع القرود الاخرى ان تقرب طعامه ؟ ·· واذا زمجر وغضب ، ارتعدت القرود لغضـــبه ، وكأنما تحسب لغضبه الف حساب ؟!

انك لاشك ستشير اليه وتقول : هذا رئيسها .. هذا ملك القرود !

هل لمملكة القرود ادراك ليكون لها سلطان ذو هيبـــة وجلال ؟

هل للافيال فى الغابات ادراك لتختار لها قائدا محنكا يقبــودها ؟

هل للنمل وللنحل ادراك ليكون لها فى مستعمرآتها ملكة يكون الكل فى خدمتها ورعايتها والمحافظة عليها ؟ . الخ . الخ

انها على اية حال مجتمعات حيوانية وحشرية (*) لها عاداتها وتقاليدها ونظمها ، وربما تكون بعض المجتمعات الانسانية قد ورثت شيئا من نظم اجدادها واسلافها الذين سبقوهم على الارض بعشرات الملايين من السنين .. فبئس المجتمعات ، مجتمعات القرود .. مجتمعات البشر !

لو ان القرود كان لها ادراك ووعى ، لما سمحت للقرد الكبير أن يفعل بها ما يفعل . وليس للقرود كرامة .. فليفعل الكبير ما يشاء .. كذلك تكون بعض المجتمعات البشرية التى تعيش حتى اليوم .. وهنا كم تساوى أنت وما قيمتك فيها ؟

ان مجتمعات الانسان الحق ـ الانسان الذى يعرف قيمة نفسه وعقله ـ تختلف اختلافا جوهريا عن مجتمعات الحيوان والحشرات ، لأنها ـ بعقولها المدركة ـ تستطيع أن تميز بين الخير والشر .. بين الصالح والطالح .. بين الطيب والخبيث .. بين العدل والظلم .. بين الخطأ والصواب .. بين ما يجب أن يكون وبين مالا يجب أن يكون .. الخ .

بقدر وعى المجتمعات الانسانية ، وبقدر ما فيها من عقول مفكرة تستطيع أن تعبر بحكمة وادراك عما تراه صالحا أو خبيثا ، يكون قدرها وحظها فى الحياة .. فالعقول الحكيمة تقود غيرها الى حياة انسانية متطورة

(*) الحشرات بطبيعة الحال من المملكة الحيوانية ، ولهذا لزم التنوية حتى لا يظن البعض ان هذه مملكة حشرية وتلك حيوانية .

وكريمة ، والعقول الغبية ـ غير الواعية ـ تؤدى بمجتمعاتها الى الضنك والهلاك .. وربما الى الزوال !

ان قوة الشعوب اليوم لاتقاس بعدد أفرادها ، ولابجمال بيانها ، ولا بفصاحة لسانها ، ولا بقوة عضلات الرجال فيها .. بل أصبح سلاحها العقل المدرك ، والفكر الصائب والقدوة الحسنة ، والتطبيق السليم ، والوعى التام بما يدور حولها فى عالم متصارع بكل أبعاده ومعانيه .. ثم الكفاح الموجه للوصول بالانسان الى حياة تختلف تماما عن حياة الحيوان .. وهنا قيم نفسك ، وعلى هذا الاساس أيضا قيم مجتمعك .. فقيمة الفرد من قيمة مجتمعه الذى فيه يعيش .

والواقع ان الانسان والحيوان يشتركان فى امور كثيرة ، يشتركان فى غريزة الجنس ، والسعى للحصول على الطعام ، والخوف ، والحفاظ على الحياة ، وخلفة الذرية ورعايتها ، والشيخوخة والموت ... ودعك من تشابه كثير من الاجهزة الحيوية التى تسير بها حياة الانسان والحيوان .

ولكنهما يختلفان أيضا فى أمور .. فليس للحيوان حضارة .. ولا معرفة، ولا تراث يتيه به على الانسان .. كما أن الحيوان لايعرف الطموح .. ولا يدرك لماذا جاء على هذا الكوكب .. وحتى لا أظلم الحيوان ، أعود لأقول . ان هناك صنفا من الناس لا يدرك أيضا رسالته فى الحياة ولا يهمه الا ان يبحث عن طعام وشراب وفراش ومأوى ومتعة ، وقد يعجبك شكله ، وتحسده على رصيده فى البنوك .. فاذا سألت : ماذا قدم للمجتمع الذى فيه يعيش من خدمات أو أفكار ، لقيل لك كما يقول العوام أنه « نور الله فى برسيمه » .. أو ربما يكون وبالا ودمارا

على من حوله .. وثور الله فى برسيمه (الثور الحقيقى) لايفعل ذلك ، بل اننا نستفيد بلحمه وجلده .

ثم ما أعظم نظم السماء التى أرست قواعدها فى كل شىء حولنا ، فاذا بالكون العظيم — سواء فى أرض أو فى سماوات — يسير بروعة ودقة ليس لها مثيل .. وما احرانا ان نتأمل هذه النظم والنواميس ، حتى يكون لنا فيها عبرة وحتى نستطيع ان نقيم انفسنا فى العالم الذى فيه نعيش ، ونعرف أقدارنا وكم نساوى فيه .

وقبل ان نعرج على نظام من هذه النظم ، اود ان اتعرض هنا لآية لها معنى عظيم « ان تنصروا الله ينصركم » ! . فهل يحتاج الخالق سبحانه لنصرتنا ..؟!

واذا لم يكن الامر كذلك ، فماذا أراد الله بهذا مثلا ؟! أغلب الظن — والله اعلم — انه يعنى بذلك أن ننصر قوانينه ونواميسه التى وضعها لنا فى كل ما حولنا .. فاذا سرنا على هديها ، لكان معنى ذلك اننا نسير وفق نظم السماء

واذا اخترنا الطريق الآخر .. فالى الجحيم .. ليس جحيم السماء ، بل جحيم الارض .. جحيم الحياة !



علينا اذن أن نقدم نظاما واحدا كمثل — وما اكثر الأمثلة التى يضيق بها المجال هنا — وليكن ذلك من النظام الحى الذى يبنى جسمك .

فانت مثلا مجتمع التريليون خلية — أى المليون مليون!! .. وهو مجتمع ضخم عظيم ، له مرافق تخدمه ، ومراكز تسيطر عليه ، وجيوش تدافع عنه ، ومخازن لتخزن فيه ما يزيد عن حاجتك ، ليكون لك رصيد من يومك لغدك .. الخ .

ان وحدة الجماعات والدول هي الفرد .. كذلك تكون وحدة الجسم خلية .

وخلايا هذا المجتمع الحي العظيم تعرف مالها وما عليها .. فلابد ان يعمل الجميع فى تناسق وتفاهم وتعاون .. كل خلية تأخذ لتعطى ، وتعطى لتأخذ ، وتعمل لمصلحتها ولمصلحة غيرها .. فالامعاء تهضم وتجهز .. والقلب ينبض ويضخ ويوزع ، والكبد يستقبل ويحلل ويصنع ويدفع ، والرئة تنقى وتصفى وتطرد ، والكليـــة تفرز وتخلص المجتمع من سمومه ، والغدد تعزف « سيمفونية» الحياة بما تجهز من هرمونات تسيطر بها على العمليـات، والدم يحمل جيوشا من خلايا محاربة ، وخـلايا ناقلة لاكسير الحياة « الاوكسيجين » .. والكل يأخذ منه ، ويعطى له، والخلايا العصبية تقف كأجهزة رادار مستيقظة باستمرار ، لتســـتقبل الاشـارات من عالمها الداخلى والخارجى لتنقلها الى مراكز السيطرة فى المخ العظيم ، ليتخذ فيها قرارا حاسما سريعا .. وبالاختصار ، انه المجتمع الرائع الذى يعرف كل من فيه رسالته وأهميته وتخصصـــه .. فلا ترى القلب مثلا يتدخل فى عمل الرئتين ، ولا الكبد « يكوش » على عمل الطحال ، ولا الامعاء ــ أول مستقبل لعناصر الغذاء ــ تحتجز خلاصة مايدخل اليها ، ليتضخم رصيدها ، وتتكاثر خلاياها ، بل هى تعطى اكثر مما تأخذ .. وهـذه فى الواقع هى اشتراكية الحياة ، واشـــتراكية الخلايا .. بالعمـل لا بالكلام !

وهكذا ترى هذا المجتمع العظيم فى خدمة بعضـــه بعضا ، فاذا تداعى منه عضو أو مرفق ، أو اذا أصيب بدخيـل ، تخبط المجتمـع كله فى الآلام ، وأعلن حربا

لا هوادة فيها ، قد ترتفع من جرائهادرجة الحرارة،وتكون الحمى .. فاما موت ، واما حياة !

وعلى أساس هذا النظام السماوى قيموا أنفسكم .. ثم طبقوا هذا على الدول والمجتمعات ، تخرجون بنفس النتيجة ، وهكذا يحق القول الكريم « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم ، حتى يتبين لهم انه الحق » .. هذا ان تأملوا وراوا وادركوا وتعلموا .. وعرفوا كيف تسير أمور الكون والحياة .

ان أعظم كارثة يمكن أن تحل بشعب من الشعوب ، انما تأتيه من داخله .. من أفراده !

كما أن أعظم كارثة تحل بالجسم الحى ، تأتيه كذلك من داخله .. من خلاياه !

وما أشبه هذا بذاك ... كيف ذلك يكون ؟

دعنا أولا نتعرض لكارثة الاجسام الحية ، وبعدها سنعرج على الشعوب ، لترى بنفسك ان كان هناك تطابق او تشابه بين ما يحدث فى هذه وتلك ، ثم كيف يكون التقييم ، وكيف يكون العلاج .

ان أعظم كارثة يمكن أن تحل بجسم انسان ، هى اصابته بداء السرطان ، ومجرد ذكر هذا الداء اللعين ، يثير فى نفوسنا فزعا ويجعلنا نستعيذ بالله من شره ومصائبه !

والسرطان ألعن مرض عرفته البشرية حتى اليوم ، فاذا انشب اظافره فى هذا المجتمع الخلوى العظيم ، فلن يريحه منه الا الموت ، أو جراحة مبكرة تستأصله من جذوره .

أهم من ذلك : من اين ينشأ هذا الداء الخبيث ؟ من خلايا الجسم نفسه .. وقد يبدأ بخلية واحدة

أو خليتين أو عدة خلايا .. ولكن خلية واحــدة تكفى لتدمير مجتمع بأسره وكيان برمته !

فى البداية تكون جميع خلايا الجسم خلايا « عاقلة » ، اى انها تقوم بعملها الحيوى فى اتزان وتكافؤ ونظام ، متمشية بذلك مع صالح المجموع الخلوى للجسم .. أو قل انها بمثابة الفرد العاقل فى مجتمع كبير ، لاتخرج عليه ، ولا تشذ عنه ، ولا تتعالى عليه ... وقد تنقسم احيانا .. فتجعلنا ننمو ، أو لنعــوض خلايا متهتــكة نتيجة لاصابة أو جرح ، فيلتئم الجرح تبعا لذلك .. ولكن انقسامها فى كل الحالات يقع تحت سيطرة الجسم الحى .

وفجاة تفقد الخلية اتزانها وتعقلها وكأنما شيىء قد ضــغط على زنادها ، لتصبح خليــة مجنونة ، لايهمها المجتمع الذى فيــه تعيش ، فنراها تنقسم وتنقسم ، دون أن يكون للجسم عليها من ســـلطان .. فتصبح الواحدة اثنتين ، فأربع خلايا ، فثمانى ، فست عشرة خلية فألفا .. فمليونا .. فمئات الملايين ، وتتشعب هنــا وهناك بفسادها ، وتأخذ من خيرات الجسم ماتشاء ، دون أن يستطيع الحد من شراهتها ، وبهذا يضــعف الجسد ، ويتشعب السرطان ، ويقضى على الكيان .

وكذلك يكون الحال فى بعض الشعوب .. يبدأ الفساد فيها صغيراً .. من فرد واحد او عدة افراد ، فاذا لم يستطع المجتمع الواعى أن يقضى على الفساد من بدايته ، فلابد أن يستشرى ويتضخم ، حتى يضعف الشعوب ، كما يضعف السرطان الاجسام .. وقد تموت الشعوب بسرطانها .. بأفرادها الذين اساءوا الى مجتمعاتهم ، كما تموت الاجسام بهذا الداء الوبيل .. الا ان عمر

الشعوب يختلف عن عمــر الافراد .. الاولى عمــرها اجيال واجيال .. والاخرون ــ اى الافراد ــ عمرهم عشرات السنوات .

وكما يموت الافراد ، تموت الشعوب ، الا أن موت الشعوب يتمثل لنا فى اضــمحلال حضــــارتها وقوتها وصمودها وصراعها من أجل الحفاظ على كيانها ، فاذا بها تذوب وتضمحل وتجرى فى ركاب دول أكثر صمودا ، واعظم وعيا وتطورا !

علينـــا اذن أن ندرس التــــاريخ لنتعلم كيف قامت الحضارات ، ثم بادت .. كيف تقوى المجتمعات ، ثم تنهار .. كيف ترتفع الدول وكيف تنخفض .. من الذى رفعها ؟ من الذى خفضها ؟ .. من الذى أماتها ؟ .. الخ .

نعود أيضا الى الجسم الحى وسرطانه ، لنتعلم منه المزيد .. ولنبدأ هنا بالقول المأثور « اللهم احمنى من أصدقائى ، اما أعدائى ، فأنا كفيل بهم » .

ان هذا القول ينطبق ــ بطبيعة الحال ــ على مجتمعات البشر ، الا أنه ينطبق أيضا على مجتمعات خلايا أجسامنا !

أما أعداء خلايا الجسم ، فيتمثلون لنا فى قائمة طويلة من خلايا دقيقة متشردة نطلق عليها اسم الميكروبات .. وهى تحوم حولنا ليل نهار .. فى الهواء الذى نستنشقه ، وفى الماء الذى نشربه ، وفى الطعام الذى نتناوله ... الخ .

فاذا جاء الميكروب ، واستطاع أن ينفذ من خلال الخط الدفاعى الاول للجسم « الجلد أو الخلايا المبطنة للفتحات المتصلة بالعالم الخارجى كالانف والفم والزور والامعاء .. الخ » ، فانه يتكاثر بالملايين ، وهنا يظهر له خط

دفاعنا الثانى ممثلا فى خلايا محاربة تدور فى الدم باستمرار « كرات الدم البيضاء » .. والغريب أن هذه الخلايا « تنجذب » بشدة « لرائحة » الاعداء ، وكأنما تقول لهم « أنا لها .. أنا لها ! » .. واذ بمعركة خلوية ضارية تدور رحاها ، الى أن يتخلص الجسم من أعدائه .. أو لايتخلص ، كل ذلك مرهون بقوته ومقاومته .

واذا فشل الخط الدفاعى الثانى فى أداء مهمته ، يظهر له بعد أيام الخط الدفاعى الثالث ، ممثلا فى بروتينات متخصصة « الاجسام المضادة » تهاجم الميكروبات فى أماكن حساسة فتقضى عليها .. « أما اعدائى فانا كفيل بهم » .

ولا شك أننا جميعا قد تعرضنا فى سنى حياتنا الى غزو ميكروبى أيا كان صنفه أو نوعه ، ومن المؤكد أن حربا أو حروبا داخلية قد قامت ، وقد نحس بها أو لا نحس .. المهم اننا لازلنا نعيش (*)

هؤلاء اذن هم أعداء الجسم .. وهو كفيل بهم ، وغالبا مايتغلب عليهم .. الا أن خلايا الجسم اذا تغيرت ، وسلكت سبيلا آخر ملتويا ، وتحول أى منها الى خلايا سرطانية ، فانها ولاشك ستقضى عليه وعلى نفسها « اللهم احمنى من أصدقائى » !

والواقع أن جميع المخلوقات ــ عظيمها وحقيرها ــ تغير باستمرار فى كيمياء حياتها ، ومن خلال هذا التغيير ، تخرج طفرات من الخلايا ، أى تختلف عن الاصل فى صفة أو صفات .. هذا ويقدر عدد الخلايا التى تطفر أو تتغير فى جسم انسان بالغ بمليون خلية

(*) أنظر « معارك وخطوط دفاعية فى جسمك » .. للمؤلف ضمن سلسلة المكتبة الثقافية رقم ١٨٣ ــ دار الكاتب العربى ــ القاهرة .

يوميا ، وبالرغم من أن الرقم كبير ، الا أنه ضئيل اذا قورن بالتريليون خلية التي يحتويها الجسم .

ان الخطورة هنا تتركز في أمر واحد .. فقد تصبح اي من هذه الخلايا المتغيرة بؤرة لحدوث السرطان الرهيب ، الذى لانعرف بالتحديد كيف يحدث او يبدأ ، فقد تضاربت في ذلك الاراء .. الا أن هناك عوامل تؤدى الي ذلك ، ولا تهمنا هنا في موضوعنا .

أهم من ذلك ، أن جسم زعيط يتعرض لنفس العوامل التي يتعرض لها جسم الفصيح ، وقد ينشب السرطان اظافره في جسم الفصيح ، وينجو زعيط .. رغم أن خلايا هذا تطفر وتتغير ، كما تطفر وتتغير خلايا ذاك .. وربما يكون الخط الدفاعى الثالث في جسم زعيط يقظا متنمرا لما يدور فيه ، ولهذا يسارع بانتاج أجسام مضادة لتبيد هذه الخلايا الشاذة قبل أن يستفحل امرها ، فينجو زيد ، ويموت الفصيح !

ومع ذلك ، فان ماذكرته في الفقرة السابقة ليس الا افتراضا ، قد تثبت الايام صحته ، وقد تثبت خطاه .. فهناك حالات قد أشار اليها جماعة من العلماء تظهر لنا أن الجسم يعلن « حربا أهلية » في داخله ، حتى يبيد الطفرات السيئة ، قبل أن تزيد مصائبها

وكأنما صور الانتهازية تتكرر مع مجتمع الخلايا ، كما تتكرر في مجتمع الدول .. الا أن الانتهازيين والوصوليين والمدمرين في عالمنا أكثر خطورة على أوطانهم من الاعداء ، لان الاعداء معروفون ، اما هؤلاء فمستترون .. صحيح أنهم آدميون ، ولكن خطورتهم تتركز في أنهم يظهرون غير مايبطنون ، أو قد يوحون الينا انهم مصلحون وليسوا هم في الواقع الا مخربين مدمرين !

وكذلك الخلايا التى طفرت ، ونحن لانستطيع ان نحكم أنها طفرت وتغيرت ، الا بعد أن يظهر فسادها ، وربما يكون الخط الدفاعى الثالث يقظا لمثل هؤلاء ، فربما جاءت منهم المصائب الكبرى .. ولهذا يضغط على الزرار فى الوقت المناسب ، وينتج أجساما مضادة ، فتبيد هذه الطفرات الانتهازية فى عالمها . أما الخلايا الاخرى الكثيرة ، ف « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فهى لازالت خلايا عاقلة حكيمة ، تستحق النعيم المقيم !

وقد يكون خط دفاعنا الثالث بمثابة أجهزة الامن فى الاجسام الحية ، فيقضى على المسىء ، ولا شأن له بالبرىء ، وبهذا تنجو الاجسام من الكوارث التى تتعرض لها ، فى حين أن أجهزة الامن فى بعض الشعوب قد تكون لاهية عن رسالتها العظيمة ، أو قد تنكل بالبرىء ، وتترك الفاسد السىء ، حتى تظهر نتائج ذلك لكل ذى عقل رزين !

هذا اذن عن نظام السماء فى الاجسام الحية ، وذاك عن نظام الشعوب .. ولكل نتائج وعيه وصموده وحذره بما هو كائن حوله .

اذن .. فكم تساوى أنت ؟ .. وكم يساوى مجتمعك الذى فيه تعيش ؟

عليك اذن يقع عبء هذا التقييم ، وعليك أن تستوعب وتهضم ما أشرنا اليه فى نظم الاجسام .. نظم السماء .. لتعلم القول الحق « ان تنصروا الله ينصركم » .. « وان الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .. فالحق بين ... والباطل بين .

وما العلاج ؟ .. العلاج أن تبتر سرطان الاجسام فى بدايته ، وتبتر سرطان الشعوب ــ فسادها ــ فى مهده !

وصراع اليوم .. غير صراع الامس ، رغم أن هذا تطوير لذاك .. فلو أنكم تمعنتم فى كل صور الحياة التى ترونها أمامكم ، لخرجتم بنتيجة واحدة ... ذلك أن الحياة ممثلة فى كل مخلوقاتها ـ قد قامت على الدفع والتفاعل والصراع « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض » .. وما يسرى على الناس يسرى على كل المخلوقات .. وكأنما هو يريد أن يصهرها ، لتخرج المخلوقات منها كالمعدن الطيب الاصيل ، وكذلك الناس والشعوب !

لقد شهدت هذه الارض عصرا من العصور ، أطلق العلماء عليه « عصر الديناصورات » .. لانها قد سادت فيه بكل أنواعها الكثيرة ، واستمر طوفانها الغريب مايقرب من ١٣٥ مليونا من الاعوام ، ولكنها انقرضت رغم أن الطبيعة قد منحتها ضخامة فى الاجسام ، وقوة فى البناء .. ولكن لايجب أن نقيس قيمة المخلوق بضخامته ، ولا قوة الشعوب بعدد أفرادها فمن الشعوب المتواكلة ماتريد أن تكرر نفس قصة الديناصورات ، الا أن ديناصورات القرن العشرين صنف عجيب من البشر ، لايعى مايدور حوله ، ولا يدرك أن الحياة أسمى وأروع من طعام وشهوة ومتعة وشراب !

لقد ذهبت أمجاد الديناصوزات ، لانها لم تستطع أن تتصرف .. ذلك أن المخلوقات ـ بما فى ذلك الانسان طبعا ـ التى تستطيع أن تتصرف وان تتطور مع الظروف وأن تقاوم عوامل الفناء من حولها ، وأن تتحمل الاحداث والمآزق ، وأن تستخدم سلاحها الذى به قد جاءت على كوكب كل مخلوقاته متصارعة ، لأحق من غيرها بالبقاء .

ان الحياة تحب مخلوقاتها أقوياء لا ضعفاء .. ولقد

منحت كل مخلوق سلاحه الذى يستطيع أن يشق به فى الحياة طريقه .. فللميكروب الذى لاتراه العين سلاح ، وقد يقتلنا به ، وللنملة والنحلة والحيه والثعلب والذئب والاسد والانسان سلاح .. والواقع أن الاسلحة مختلفة باختلاف طبيعة الكائن الحى .

لماذا انتشرت النملة انتشارا واسعا على هذه الارض فنجدها فى الريف والحضر والمزارع والغابات وفى كل مكان فيه حياه ؟
لانها ببساطة منظمة .. كادحة .. مدخرة .. مدبرة ومع ذلك فليس لها عقل كعقولنا ، وما أكثر فوضى بعض أصحاب العقول !

من العار هنا أن أدفع زعيطا لكى يقيم نفسه بنملة .. فهو اثمن من نملة وصرصار وحمار وجمل .. بل وحمير وجمال كثيرة .. هذا لو عرف معنى الحياة ومعنى المجتمعات .. والا فعليه « بحكمة » نملة .. أو فما رايكم فى الحكيم الذى قال ينصح ابنه « يابنى — عليك بمستعمرات النمل .. ادرس منها وتعلم الحكمة » !.. وهكذا يسود النمل .

لو انك عشت فى غابة ، لرايت كيف يكون الصراع .
كما أنك لو عشت فى مجلس الامن أو فى مبنى الامم المتحدة ، لرأيت ايضا كيف تكون المناورات ويكون الصراع !

فى الاولى صراع من اجل لقمة العيش والبقاء .. وفى الثاني صراع عقول مع عقول ، ومنطق مع منطق .. وحجة بحجة ، ومع ذلك فلا منطق هناك غير منطق القوة فمن ملكها ، فعل مايريد فيمن يريد !.. والا فما رايكم ، دام فضلكم ؟!

نترك غابة مجلس الامن ، ونعود الى الادغال والغابات والبحار .

هناك دائما آكل وماكول .. القوى ياكل ، والضعيف يؤكل .. ولكن كل من أكل لابد ان يؤكل !

ففى الوقت الذى ترى فيه الاسد يقف شامخا ليزأر ، فتهتز مخلوقات الغابة فزعا ، وفى الوقت الذى يهجم فيه على ماهو اضعف منه لياكله ، تجد على ظهره ماينهكه .. تجد قرادا وبراغيث وحشرات أخرى ، قد تنقل اليه بعض الامراض .. كل هذا حتى لاتسود الاسود !

ولكى لاتسود البراغيث والحشرات ، فتقتل كل الاسود تجيء لها فى داخلها ديدان جد صغيرة ، فتنال منهـا ، وتنقص أعدادها .

وحتى لا تسود الديدان الصغيرة ، فتقتل كل الحشرات وتعود الاسود لتسود ، كان لابد لهذه الديدان من أعداء اصغر لتنال منها ، فتاتيها على هيئة حيوانات أوليـة دقيقة ذات خلية واحدة .

ولكى لاتسود الحيوانات الأولية ، فتقتل كل الديدان فتسود الحشرات ، وتقتل كل الاسود ، ياتيها ميكروب ادق ، فينال منها ، وينقص أعدادها .

وحتى لا تسود الميكروبات ، كان لها أعـداء أدق ، فيجيء ميكروب الميكروب على هيئة فيروس ، فيحد من اعدادها ، حتى لاتهلك الزرع والضرع .. الخ .

انها حلقات متتابعة من صراع قائم بين كل أحيـاء هذا الكوكب ، حتى تسير الحياة متوازنة بميكروباتهـا وديدانها وحشراتها وأسودها وانسانها .. فـلا ترى الميكروب يسود ، ولا الاسد يسود .. « وانبتنا فيها من كل شيء موزون » .. « وخلق كل شيء فقدره تقديرا »

وجاء سيد المخلوقات « الانسان » سيدا بعقله ، فوقف لاعدائه بالمرصاد ، يحارب الطفيليات والديدان والميكروبات والفيروسات والحشرات والفئران والافات . الى آخر هذه القائمة الطويلة التى أنشأ من أجلها وزارات ومصالح ومعاهد للبحوث ، عله يضعها تحت سيطرته .. وكثيرا ما قلب أمور التوازن الطبيعى نتيجة لجهله بما هو كائن حوله ، وهذا موضوع طويل لن نتعرض له هنا ولكن يكفى أن نقول : ان الطبيعة لم تترك مخلوقاتها دون ان تمنحها ماتدافع به عن نفسها ضد عدوان الانسان ، او عوامل الطبيعة الاخرى .. لهذا نرى ضراوة الميكروب فى كثرة ذريته .. او فى قدرته على تغيير شفرات حياته لينتج بها طفرات وسلالات تستطيع بها ان تقاوم العقاقير والمضادات الحيوية التى يجهزها لها الانسان .

ثم ترى الصراصير ودود القطن مثلا تموت بالملايين مع كل مبيد حشرى جديد ، ولكن القليل جدا يستطيع ان يقاوم ، ويغير فى الشفرة ، فاذا به يكتسب مناعة ، وكأنما هذه الكائنات تسخر من أسلحة الانسان .. وكأنما تقول « هل من جديد ؟! » .. « هل من مزيد ؟! »

وهل هذا يدخل ضمن موضوعنا الذى نريد به أن نقيم الانسان ؟

بكل تأكيد .. انه درس عظيم نستطيع أن نستخلصه من صور الحياة التى تدب حولنا ، نستخلصه من الميكروبات ، والحشرات !.. فاذا ألمت بها الكوارث الطبيعية أو التى يسلطها عليها الانسان ، فانها لاتقف موقف المتفرج المتواكل الذى يعيد كل أمر من أموره الى السماء .. بل نراها دائما تغير تغييرا جذريا فى طرق حياتها .. بالعمل ، لا بالكلام .. انها تتطور .. تكتسب مناعة .. لتنتج

سلالات وطفرات .. ولتمت منها الملايين والبلايين التى لم تستطع صمودا ، ولكن يكفى قلة من الصامدين المتطورين مع ظروف الحياة ، لتعطى بعد ذلك أجيالا أكثر كفاءة ، وأعظم صمودا .

اذن .. فكم تساوى انت يازعيط بالنسبة للميكروبات والحشرات التى تدوسها بالنعال ؟!

الواقع انني لا أستطيع أن ازج به وبمجتمعه ، واحط من قدره ، فأقارن بينه وبين مجتمعات الميكروبات والصراصير والديدان .. فلزعيط وللشعوب ـ يا قوم ـ اقدارها واحترامها ونظمها .. هذا ان كانت واعية لما يدور حولها ، حريصة على بقاء كيانها ، متصارعة مع كل مايحيط بها من أقدار قاسية ، والا لداستها القوى الاخرى وصعقتها .. وعندئذ لن تقف السماء معها ، لانها خالفت نواميسها وقوانينها .. قضى الامر الذى فيه تأملون !

ومع ذلك ، ورغم انني لا أريد ان اضع زعيطا فى مستوى الصراصير ، الا أن صور الصراع تتكرر ، حتى ولو اختلفت اقدار المخلوقات ، لان اساس نشأتها واحد ، ولابد ان تكون نتيجة صراعها واحدة .. فاما موت ، وأما حياه .. او حياة على هامش الحياة .. وهذا بالنسبة للانسان « سيد » المخلوقات .. لان الحمار مثلا لايدرى ان كان يعيش او لا يعيش على هامش الحياة .. رغم أن له بعض الذاكرة ، بدليل أنه يعرف صاحبه ، ويعرف الطريق الى بيت صاحبه ، وقد يثور على الاوضاع ، فيجرى وينهق وقد يرفس أو يعض من قسا عليه ، وقد يظهر احتجاجه واضرابه ، فتراه يتوقف عن المسير .. وهكذا يكون « منطق » الحمير ، ان كان للحمير منطق .. فى حين أن

بعض المجتمعات البشرية لاتثور على الاوضاع ، ولا تظهر احتجاجها ، وهؤلاء يصبحون أسلس قيادة من قيادة الخيل والبغال والحمير والجمال !.. رغم أن الجمل لطيف ، والحمار مطيع ، والكلب مخلص امين !

انها اذن قسوة الانسان التى تدفع الحيوانات الى التطاول عليه ، والنيل من كبريائه بالرفس والعض « والخربشة » والنطح والوطء بالاقدام .. أى انها تعبر عن عدم رضائها بالفعل لا بالكلام .. لانها لو تكلمت ووعيت وأدركت ، لكانت مصيبتنا معها ثقيلة !.

ومع ذلك فقد أسبغ الانسان على نفسه كل العقل والحكمة والوعى والادراك ، وقد يكون فى هذا على حق أو غير حق .. لست أدرى ، ولعلك تدرى !

كذلك يحدثنا العلماء الذين يرقبون حياة العالم الطبيعى من حولنا ، يحدثوننا عن تعاون المخلوقات الصغيرة ضد كبير أراد بها شرا .. وقد يكون هذا الكبير حيوانا ضخم الجسم ، متين البنيان .. ومع ذلك فلا يهمها ضخامته وقوته بقدر مايهمها أن تدافع عن كيانها .. عن مستعمراتها « وأوطانها » . لهذا تهاجمه أسرابا أسرابا ، وجماعات جماعات .. وقد يقع منها ضحايا كثيرون ، ولكن التضحية هنا واجب مقدس لكى يبقى لها كيانها !

وفى النهاية يقع الكبير الذى أراد بها شرا ، أو قد يهرب من الميدان ، وهكذا يكتب لها فى النهاية النصر المبين .. نصر الجماعات الحشرية ممثلة فى النحل والنمل والزنابير .. الخ على دب أو انسان أو خنزير أو فيل !

ونعم المجتمعات .. مجتمعات الحشرات !

ونعم المجتمعات .. مجتمعات البشر .. هذا ان سلكت طريق نملة ونحلة وزنبور !

والى هنا فليقيم زعيط نفسه ان شاء !



ولنترك مجتمعات البشر ومجتمعات خلايا الاجسام الحية والحشرات والميكروبات لنتعرض لصورة أخرى من الصور التي نستطيع أن نستشف من نظامها درسا قد ينفعنا في تقييم زعيط ومجتمعات زعيط .. وليكن هذا الدرس من ذرة .. مجرد ذرة لا تعيها - لدقتها - العقول ولا يتصور ضآلتها صاحب أعظم خيال .. ذلك ان بللورة صغيرة من السكر لاتزيد عن حجم رأس دبوس صغير تحتوي على أكثر من ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر١ ذرة . « اى بليون بليون » !

ومع هذه الدقة المتناهية ، الا أنها كون قائم بذاته .. ادق كون عرفه العلماء وتاهوا في أسراره رغم أن البحوث الذرية قد بدأت منذ أكثر من ثلاثة ارباع قرن من الزمان ، ومع ذلك فهي لم تنته حتى يومنا هذا !

صحيح أن العلماء قد عرفوا عن الذرة الكثير ، الا أن مالم يعرف حتى الان قد أصبح أكثر اثارة ، وأصعب منالا ، وأروع أسرارا ، ولابد من بحوث أخرى طويلة حتى تتضح الحقائق الغامضة .

ان الذرة على ضآلتها لها قوانينها ونظامها وكيانها ، وفي هذا الكيان الدقيق يسير كل شيء متوازنا متقنا ، ولكن احيانا مايختل هذا النظام الذري نتيجة لعوامل خارجية او داخلية تتسلط على الذرة ، فتجعلها تثور ، ولابد أن تفعل شيئا يعيد لها كيانها ، وعندئذ تستقر الامور من جديد .

وقد يبدو هذا الكلام غريبا .. اذ كيف تثور الذرة ؟.. وما هو دليل ثورتها او استقرارها ؟

لا شك انكم قد سمعتم عن الذرات المشعة ، والاشعاع

هنا معناه ظهور ثورة نووية داخلية تنبئنا عن عدم استقرار الامور فيها ، وكأنما هناك اضطرابات تجتاح هذا الكيان الدقيق تكتشفها اجهزة قياس الاشعاع ، وتسجل الاحداث التي تخرج منها .

ان اليورانيوم والراديوم والبلوتونيوم وغيرها من عناصر مشعة تتحمل في نوى ذراتها جسيمات اكثر من طاقتها.. ففي نواة ذرة اليورانيوم مثلا يسكن ٢٣٨ من الجسيمات النووية (٩٢ بروتونا ، ١٤٦ نيوترونا) ، وكأنما هـذه الجسيمات المكدسة في حيز لا يزيد عن جزئين اثنين من مليون بليون بليون جزء من الملليمتر المكعب قد ضاق عليها رحابها ، ولهذا فهي تسعى الى الهجرة من ضنكها فتخرج الجسيمات على هيئة اربعة .. اربعة .. ، في ثماني دفعات قد تستمر بلايين السنين ، وكأنما من خرج منها يقول « الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها » ؟!

وهكذا تحاول نواة ذرة اليورانيوم أن تحل مشكلة «تكدس السكان » في كيانها الدقيق ، في حين ان البشر ذوى العقول الكبيرة لا يستطيعون ان يحلوا مشاكل مدنهم المكدسة بسكانهم فوق ما تحتمل طاقتها ومرافقها ، وكأنما الذرة تلقننا درسا فيما يجب أن تكون عليه الامور .

والواقع أن نواة الذرة تطاق جسيماتها الزائدة ، لكي تستقر الامور في داخلها ، وبعدها تتحول الى رصاص والرصاص معدن مستقر لا ثورة فيه ولا اشعاع ، فلقد أصبح كل شيء فيه متوازنا .. وهو هدف سعت اليه الذرة دون أن تنتظر منا النصيحة ، وما أكثر النصائح التي تنطلق من افواه البشر ، وهم أولى بالنصيحة .

وهذا هو الدرس الاول الذى نستطيع أن نستخلصه من نظام ذرة .

والدرس الثانى ؟ ..

ليكن درسنا الثاني من ذرة نيتروجين .. والنيتروجين غاز خامل يكون حوالى ٧٨٪ من غلافنا الهوائى .. وفى طبقات الجو العليا يتعرض النيتروجين لرصاصات كونية دقيقة تأتيه على هيئة رذاذ منهمر من جسيمات نووية نطلق عليها اسم الاشعة الكونية ، وهى أشعة بأسها شديد واصاباتها مدمرة ، ولهذا تقف جزيئات الهواء فى مشارف الفضاء بمثابة « مظلة » كونية تتلقى عنا الضربات» فتحمى مخلوقات هذا الكوكب من تدميرها .

ولكى نتعرض لهذا الموضوع العويص بشىء من التوضيح ساعود لأنقل لكم هنا جزءا من محادثة خيالية « ولكن احداثها حقيقية » تمت بينى وبين ذرة فى مشارف الفضاء وفيها تخيلت اننى قد اصبحت ذرة تعيش مع مجتمع الذرات فى طبقات الجو العليا حيث تدور معركة رهيبة بين الاشعة الكونية وجزيئات الهواء ، ورغم أن صور الصراع هناك رهيبة وكثيرة ، الا أننى سأنقل لكم ذلك الحدث الغريب الذى دخل فيه جسيم نووى من جسيمات الاشعة الكونية الى نواة ذرة النيتروجين ، فقلب كيانها ، وحولها من حال الى حال ، وكأنما نشهد هناك صورة من صور الاحتلال والاستعمار على مستوى الذرات والجسيمات التى تبنيها (*) .

ولنبدأ الان حديثنا الذى تم بين مرافقتى الذرة وبينى وانا على هيئة ذرة دقيقة :

(*) سبق أن نشرت لى جريدة الاخبار سلسلة من هذه المقالات بعنوان رحلة الاسرار فى شهرى مايو ويونيو عام ١٩٦٨ فى عدد الجمعة وسوف نأخذ مقتطفات من هذه المقالات هنا لنقارن بين اقدار الذرات واقدار الناس .

قالت الذرة : وماذا لو دخل واحد من هذه الجسيمات المنطلقة الى نواة الذرة واستقر فى قلبها ؟

قلت : عندئذ يحدث لها ما حدث لفلسطين الحبيبة !

قالت : و « من » هى فلسطين الحبيبة هذه ؟.. انك لغريب الاطوار

قلت : آسف مرة أخرى .. فلازالت نواتى تحتفظ بذكريات حزينة من عالمى الذى منه قد أتيت .. ومع ذلك ، فلابد أن أوضح لك أمرا من أمور عالمنا ، فلاشك أن الصور تتكرر هنا كما تتكرر هناك .

كان وطننا العربى فى الماضى البعيد جسدا متكاملا متماسكا ذا قوة وبأس عظيمين ، وكان منارا لشعوب الارض كلها ، يشع عليها بحضارته وعلمه وعدله وأفكاره .. ومنذ سنوات ليست بالكثيرة تهاون ، فهان على نفسه وعلى غيره ، وحل الاستعمار بقلبه وأوطانه ، ففقد كيانه ، ثم كانت الطامة الكبرى عندما حلت فى قلب هذا الوطن الكبير دويلة يطلقون عليها اسرائيل ، ولقد تبدلت أمام أعيننا فلسطين ، فأصبحت « اسرائيل » .. لقد ضاع كيان .. وظهر كيان جديد ، تماما كما يحدث لأى ذرة هنا اذا مادخل فى قلبها غريب ، فتفقد شخصيتها التى كانت عليها ، ويظهر على أنقاضها كيان جديد ، وكأنما القصة تتكرر بين ذرات وشعوب !

قالت : كيف ذلك يكون ؟

قلت : على أن أسوق لك الدليل ، ولنرقب من حولنا الاحداث فى عالم الذرات ، وسترين بنفسك البرهان والدليل .

قالت : أو لم تكن لديكم قوة عندما دخلت اسرائيل ؟
قلت : لو كانت .. لما دخلت

قالت : ولكن .. هل يمكن أن تعيدوا الحقوق الى أهلها .. أعنى أن تتحول اسرائيل الى فلسطين ؟
قلت : بمنطق القوة ، ولاشيء غير القوة .. وقوتنا تتركز فى علم وعمل ونظام واتحاد ، وارادة وصمود .

وسادت بيننا فترة صمت أخذنا خلالها نرقب الاحداث « بعيوننا » الذرية ، وفجاة صرخت مرافقتى الذرة : وامصيبتاه ... واذرتاه !
وجاوبتها : وافلسطيناه .. واعروبتاه !

وبعد ان ترددت نداءاتنا فى الكون المحيط بنا ، هدأت « نفوسنا » الذرية قليلا ، وبدات مرافقتى الذرة تسال من جديد ..
قالت : ان اختنا الذرة التى دخل الى قلبها ذلك الجسيم الغريب ليست على مايرام .. اننى أراها وكأنما هى ثائرة على الاوضاع .. فلماذا تثور ؟
عندئذ تمنيت لو طفرت من عينى دمعة ودموع ، ولكننى لا استطيع وأنا على هيئتى الذرية ، ومع ذلك فقد عبرت عن ذلك بثورة نووية واليكترونية اجتاحت كيانى الدقيق .. ذلك أننى لازلت احتفظ بذكريات اليمة ، ولقد أثارتها مرافقتى بسؤال فى الصميم .

وعندما احسست باضطرابى قالت: هل هناك مايثيرك أو يؤلمك؟

قلت : لقد كان تعبيرك عما رأيتيه يحدث لاختك الذرة من ثورة عارمة هو الذى أثار احزانى .. فقد عجبت للذرة على دخيل تثور ، ورثيت لحال بعض شعوب على دخيل لا تثور !
قالت : أولم تخبرنى من قبل أن لكم فى عالمكم عقولا ؟.. فلماذا لا تثورون وتصبحون على الدخيل جحيما حتى يرحل ؟

قلت : لم تكن العقول وفتها واعية لما يجرى حولها ، اد لو كانت واعية لما حدث ماحدث ، وياليتها فعلت كما تفعل ذرة .. مجرد ذرة !

قالت : دعنا من مجتمعات الناس ، ولنعد الى مجتمع الذرات .. فلقد شاهدت أن الجسيم الذى دخل فى قلب أختنا الذرة قد طرد نسبة من سكانها ، فهلا أطلعتنى على سر من دخل وسر من خرج ؟

قلت : ان الذى خرج من نوع الذى دخل ، والا فبالله خبرينى، هل دخل اليهود «فلسطين» ليطردوا حجاره او صخورا ؟.. ان من طردوهم كانوا بشرا ، وكذلك عندما يدخل الجسيم النووى ، فانه يطرد جسيمات نووية كانت تسكن قلب الذرة .. هذا من صنف ذاك .

بشر يطردون بشرا من وطنهم الازلى ، وجسيمات تطرد جسيمات من وطنها النووى .. وكل هذا يحكمه منطق القوة .

قالت : ولكننى أرى من دخل ، قد قلب كيان النوى .. فهل ترى معى ما أرى ؟

قلت : ان نواة الذرة التى استعمرت بجسيم دخيل كانت ذرة نيتروجين ، ولقد حط بقلبها نيوترون ، وطرد نسبةمن سكانها «بروتونا» ، وفىغمضة عين تحولت ذرة النيتروجين الى كربون ، كما تحولت فلسطين الى اسرائيل

ونحن نعبر عن ذلك بمعادلة نووية لنقول :

نيتروجين + نيوترون « جسيم دخيل » = كربون مشع + بروتون « جسيم طريد »

وأحداث أخرى كثيرة تقلب كيان الذرات ، كما تقلب كيان الناس والشعوب .. هذه صورة وتلك أخرى .

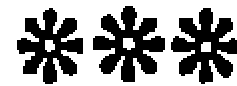
قالت بدهشة : ولكن .. لماذا لايدخل الدخيل ويعيش

مع من دخل اليهم فى سلام .. فيبقى النيتروجين نيتروجينا او بمنطق عالمك الذى منه قد أتيت : وتبقى فلسطين على حالها « فلسطين » ؟

قلت : ان ذلك لم يستقم مع « منطق الذرات » ، ان كان للذرات منطق .. فما بالك ببشر لهم عقول وأوطان ؟

أضيفى الى هذا ياذرتى أن هناك أنواعا من الحيوان والطير لا تسمح للدخلاء بأن يعيشوا فى مجالها ، وكأنما قد أصبح لها ملكيات خاصة ، وأوطان أحيانا ما تستميت فى الدفاع عنها ، وتصورى ياعزيزتى الذرة أن هذا «منطق» طير وحيوان .. فما بالك بانسان هو سيد مخلوقات هذا الكوكب الذى نقف على مشارفه ؟!

الحق اقول لك : ان الانسان اذا لم يتصرف كما يفعل الطير والحيوان ، فلا يحق لنا أن نضعه فى مرتبة أسمى من هذا أو ذاك .



ان الذرة التى « استعمرت » بجسيم أو جسيمات دخيلة لاتكف عن الثورة النووية ، ولهذا نطلق عليها اسم الذرات المشعة أو « الثائرة » وسوف تستمر الثورة فى كيانها حتى تعود الى حالة من الاستقرار والتوازن المنشود ..

لقد تحول النيتروجين الى كربون ، ولكنه كربون مشع وربما تودين معرفة السر العجيب فى هذا التحول الفجائى .. انها معادلة ، ولكنها ليست صعبة .. ان نواة ذرة النيتروجين تحتوى على بروتونات سبعة ونيوترونات سبعة ولقد دخل الى قلبها نيوترونا فأصبح سكانها خمسة عشر .. الا أن أحد السكان الاصليين قد طرد من نواته على هيئة بروتون .. فعاد السكان اربعة عشر ..

قالت مقاطعة : اذن فقد عادت الامور الى سابق

وضعها .. اعنى ان الاربعة عشر قد صاروا مرة اخرى اربعة عشر .. واحد دخل ، وواحد خرج !

قلت : ورغم ذلك ايضا فقد أصبح النيتروجين كربونا .. اذ لو كنت دقيقة فى حساباتك ، ولم تقفـــزى الى استنتاجاتك قفزا كما يفعل بعض البشر ، لتوصلت الى السر .. ومع ذلك فلابد من بيان وتوضيح .

ان الذى يحدد شخصية الذرة هو عدد بروتوناتها التى تسكن نواتها ، أما الاليكترونات التى تطوف برحابها فهى توابعها أو « دلاديلها » .. أعنى أنه اذا دخل بروتون الى النواة ، فلابد أن يتبعه اليكترون ويتخذ مدارا ، واذا خرج انبروتون : فليس « للدلدول » مكان ولا كيان .. طبقى هذا أيضا على البشر تخرجين بنفس النتيجة .

قالت بدهشة : غريبة أموركم .. وهل يسرى نفس الشىء فى عالمكم ؟

قلت بحذر : وان اختلفت الصور .. ودعك من غرائب أحاديثنا وزماننا ، فلا اريد لك أن تحملى الهموم .. هموم البشر !

قالت : انها تعجبنى !

قلت : كما تعجبنا .. سواء رضينا أو لم نرض !.. ودعينا من ذلك لنعود الى ذرتنا الثائرة .. فلقد طـــرد النيوترون ـ عندما دخل ـ بروتونا ، فتناقصت البروتونات فى ذرة النيتروجين من سبعة الى ستة ، وهبطت ، درجتها فى «كادر» العناصر تبعا لذلك درجة، فأصبحت السادسه بدلا من السابعة .. والسادس فى الكادر أو السلم هو الكربون .. الا ان الكربون (أو الفحم) الذى يتواجد فى كوكبنا على هيئة بلايين فوق بلايين من الاطنان ليس كربونا مشعا ، بل جاء متوازنا ببروتوناته ونيوتروناته .. ففى

نواة كل ذرة من ذراته ستة من البروتونات وستة من النيوترونات ومجموعهما اثنا عشر ، ولهذا نطلق عليه اسم الكربون ١٢ .

أما ذرتنا ، ذرة الكربون المشعة ، فقد نشأت بطريق « غير شرعى » نتيجة « لاستعمار » نواة النيتروجين .. ولهذا نطلق عليها اسم الكربون ١٤ « فى نواتها ستة بروتونات وثمانية نيوترونات » .. او النظير المشع للكربون غير المشع « الطبيعى » .. وما أكثر النظائر المشعة التى تخلقت على يدى الانسان فى مفاعلاته الذرية نتيجة « لضرب » نوى الذرات المستقرة المتوازنة بجسيمات ذرية تنطلق اليها على هيئة « رصاصات » دقيقة غاية الدقة .. وكأنما الانسان يحاكى ماتفعله السماء فى مشارف الفضاء

قالت : والى متى تستمر ثورة الذرات المشعة ؟

قلت : لابد من عمليات « تضحية » وتغيير جذرى فى سكان النوى .. فلقد منحتهم الطبيعة الفرصة ، واعطتهم الحلول التى بها يستطيعون أن يعيدوا الامور الى نصابها . الى توازنها !

لابد أن « يضحى » أحد النيوترونات بكيانه ، ويغير من طبيعته .. فاذا فعل ، ارتاحت الذرة : وهدات ثورتها ، واستردت كيانها .

قالت : كيف ذلك يكون ؟

قلت : ان القصة لطويلة ، ولكن يكفى ان اذكر لك أن العلماء قد اكتشفوا خروج اليكترونات من نوى الذرات المشعة ، ولقد اندهشوا لذلك ؛ لعلمهم أن الاليكترون لايمكن أن يعيش فى النواة ، ولابد ــ والحال كذلك ــ أن يخرج من صلب أحد الجسيمات النووية ، وبعد بحث طويل ، عرفوا أن واحدا من النيوترونات قد اطلق

اليكترونا ، وتحول الى بروتون ،، وبهذا تزيد البروتونات واحدا ، وتنقص النيوترونات واحدا .. وأظنك لازلت تتذكرين ان نواة الكربون المشع يسكنها ستة بروتونات وثمانية نيوترونات .. ولقد تحول احد النيوترونات الى بروتون ، وبهذا يصبح عدد البروتونات سبعة ، وعدد النيوترونات سبعة .. وهذه بالضبط هي مواصفات ذرة النيتروجين ، ولقد تأكد العلماء من هذه الحقيقة عندما اكتشفوا أن الكربون المشع يتحول الى نيتروجين مستقر ، كما بدأ عاد .. « ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » .. وهكذا استطاعت الذرة أن تغير مافي قلبها ، فتخلصت من كربها ، وهدأت ثورتها .

قالت : وارجو كذلك أن تنتهي نفس الاحداث التي سقتها الى من عالمكم ، حتى تهدأ الامور في أوطانكم .

قلت: اتقصدين «فلسطين» التي أصبحت «اسرائيل» ، ثم تعود لنا مرة اخرى «فلسطين» ، اسوة بذرة نيتروجين « أستعمرت » فتحولت الى كربون « ثائر » على الاوضاع التي حلت في قلبه ، فاذا به يعود نيتروجينا ؟

قالت : هو ذلك تماما .. ولكن على شرط ان تفعلوا ما فعلته الذرة .. فلقد سبق ان ذكرت انكم جسد عربي واحد استقبل رغما عنه هذا الكيان الغريب ، وعلى أعضاء الجسد ـ تقصد شعوبه العربية ـ أن تشارك جميعا في حشد طاقاتها حتى تتخلص مما أثقل كاهلها .. تماما مثل الذرة !

قلت : أرجو ذلك .. فهذه صورة ، وتلك أخرى ، وما أعجب الصور التي تتكرر بين ذرات وشعوب (*)

(*) انظر « مذكرات ذرة » للمؤلف ـ سلسلة اقرأ ـ سبتمبر ١٩٧١ دار المعارف بالقاهرة .

والى هنا تنتهى تلك المحادثة الخيالية بواقعها العلمى لنخرج منها بدرسنا الثانى عن نظام أدق كون عرفه العلماء

هذا اذن ما تفعله ذرة للتخلص مما حل فى نواتها ، حتى يعود لها كيانها .. وفى نوى الاشياء تتحدد عظائم الامور ، ويتقرر مصير الكيان .. أى كيان تختار !

فللذرة ــ كما سبق أن ذكرنا ــ نواة تتوسطها ، وتتحكم فى اليكتروناتها التى تطوف برحابها .

وللخلية نواة تتوسط مادتها الحية (السيتوبلازم) ، وتورث المخلوقات صفاتها وطبائعها .

وللجماعات « نواة » ، هو أحد أفرادها المتمازين ليهيمن عليها ، ويوجهها الى ما فيه مصلحتها ، لأن مصلحة المجموع تحتاج الى تضحية من يريد ان يصلح، ولأن بقاء الجماعة خير من بقاء انفرد .

وللدولة عاصمة بها هيئة قيادة تسيرها ، وعقول واعية مفكرة من المفروض أن تكون نواة قوتها ومجدها .

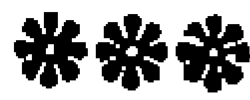
وللكواكب شمس تسيطر عليها ، لتدور حولها فى مدارات بحساب ومقدار .

وكل هذا تحكمه قوانين ، فمن احترمها وسار على هديها ، أصبح نظاما رائعا أحق من غيره بالبقاء ...

معنى هذا أيضا أن نواة الشىء هى التى توجه وتقرر وتحكم وتخطط ، ولو أصابها العطب ، لفسد كل شىء حولها ، ولفقدت الذرات والخلايا والجماعات والدول والمجموعات الشمسية ، والاجرام السماوية كيانها .. وعندئذ تحل الاضطرابات والفوضى محل النظام ، ما لم يتدارك « النوى » الامور .

والى هنا فليقيم زعيط نفسه ومجتمعه ان شاء ، وليعتبر بسلوك ذرة ، رغم أن الذرة ليس لها عقل ، ولكن

السماء قد منحتها نظاما ، وهيات لها أمورا « وارسينا فى كل سماء أمرها» .. حتى ولو كان ذلك فى ذرة .. كما أرسى فى الانسان عقلا ، وبعقله ــ نواة فكره ــ يجب أن يزن الامور .



لقد ذكرنا فيما سبق أن صور الحياة التى نعرفها اليوم لم تظهر كلها دفعة واحدة ، ولا الانسان كذلك .. بل كان من ورائها أساس له أصول ، لكى يسير التطور الى مداه ..

والتطور عملية مستمرة مع الزمان ، بمعنى أنها تحتاج الى وقت ، رغم أن الخالق يستطيع أن يسرع بالعملية ، وأن « يطبخها » ما بين يوم وليلة ، ولكنه لم يفعل .. رغم انه قادر على أن ينفذ ما يشاء فى اى وقت يشاء .

تأكيدا أنه لم « يطبخ » أمور الكون كما يفعل بعض البشر فى تصريف امورهم ، والعلماء يعرفون ذلك تماما من خلال دراساتهم الطويلة ، وكأنما أراد أن يضرب لنا الامثال ، ليرشدنا الى أن كل شىء لابد أن يسير بالاصول ، وبالقوانين، وبالاسس انقوية التى تحتاج الى وقت لكى تنشا وتبنى وتتطور ، ثم تشق فى الحياة طريقها كما يجب أن يكون .

وماذا يفيدنا ذلك فى تقييم الانسان ؟

له فائدة .. ذلك اننا لا نستطيع مثلا ان نخلق ما بين يوم وليلة من رجل القانون عالما فى الذرة .. ولا من عالم الذرة استاذا فى التشريح أو قائدا فى الجيش أو سفيرا لبلاده .. اننا لو فعلنا ذلك ، لكنا بمثابة من يطبخ عقلية الانسان فى المساء ، فاذا أصبح الصباح ، رأيناه يفهم ويصرف أمورا لم يكتسب فيها علما ولا خبرة ولا اطلاعات ولا حتى

ثقافات عامة ، ولابد ان يتبع ذلك فشل واخفاق

ان العــــلم لم يتوصل ـ حتى الان ـ الى اكتشــــاف « الرضعة السحرية » التى يرضعها الانسان مرة واحدة ، فاذا به يصبح بعدها قادرا على وزن الامور وتصريفهــا بميزان من كانت لهم خبرات وتجارب واطلاعات ودراسات هادفة .. وكل هذا يحتاج الى سنوات طويلة .. كلمــا طالت بصاحبها ، كان أكفأ ممن لا يزال فى بداية الطريق .. بمعنى أن استاذ الجامعة مثلا لم يصل الى منصبه هذا فى قفزة واحدة ، بل وصل اليه بالتدريج ، ومر بمراحل من العلم والبحث ، أوصلته الى درجته التى يستحقها .

كذلك يجب أن تكون الامور فى مرافق الدولة الاخرى .. سياسة كان ذلك ، او حكما ، او علما ، او تمثيلا .. الخ .. وهو ما ننادى به دائما من ضرورة احترام التخصص أو « وضع الرجل الصحيح ، فى المكان الصحيح .. تنفيذا لا شعارا .

فى مقال قيم بعنوان « ازمة الدبلوماسية العــــربية » للدكتور بطرس غالى (*) . يقول فيه «مما لا يخفى على احد ان الحكومات العربية منذ باكورة حياتها الدبلوماسية قد وجهت كل عنايتها للأمور الداخلية ، وجعلت لها الأولوية على الشئون الخارجية . بل انها فى مجموعها قد جعلت من التمثيل الدبلوماسى سبيلا الى التخلص من السياسيين غير المرغوب فيهم وفى وجودهم داخل البلاد ، أو طريقا للخلاص من العسكريين الخطرين ، أو مكافأة للمقربين أو المنتسبين الى بعض كبار الحاكمين ، وكل هذا دون المواءمة بين كفاية الشخص وحاجة المنصب الخطر الذى أسند اليه . كل

(*) نشر هذا المقال فى جريدة الاهرام .. العدد ٢٩٨٦٢ بتــاريخ ١٣ / ٩ / ١٩٦٨ .

هذا كان بل ما زال يجرى على الرغم من أن الدبلوماسية فى واقعها ليست الا مهنة تحتاج الى مؤهلات واستعدادات خاصة لا تقل شأنا عن مهنة الطبيب أو المهندس او الطيار » .

ثم يستطرد قائلا : « وليس من السداد ولا من الحكمة أن نجعل اختيار رجال السلك الدبلوماسي ورؤساء البعثات الدبلوماسية فى الخارج مجرد وسيلة من وسائل فض المنازعات الداخلية ، أو وسيلة من أساليب استتباب الامن الداخلى . ويظهر ضعف رجال السلك الدبلوماسى فى كثير من النواحى : (نذكر منها هنا واحدة أو اثنتين) .

١ ــ ضعف المستوى الثقافى : فمن العيوب الظاهرة فى رجال السلك الدبلوماسى انهم لا يقرأون، ولايتتبعون أمور السياسة الدولية عامة ، وأمور السياسة فى الدولة المعتمدين لديها خاصة ، ثم ضعفهم فى الثقافة العامة مما يجعلهم لا يندمجون فى المجتمعات الاجنبية ذلك الاندماج الذى يمكنهم من أداء رسالتهم على الوجه الاكمل .

٢ ــ ضعف المستوى اللغوى : اذ أن غالبية من السفراء العرب ورؤساء البعثات العربية لا يحسنون التحدث باللغات الاجنبية عامة ، ولغة الدولة المعتمدين لديها خاصة ... الخ .

ثم يختتم مقاله القيم فيقول « الدبلوماسية هى أحسن سلاح للدول النامية والدول الصغرى ، والدول العربية تنتمى الى هذا الطراز ، ومع ذلك فانها لم توجه اهتماما جديا الى السلاح الدبلوماسى ، ولم تحاول أن تستغل أصوله الجديدة ، ولا أن تتمشى مع أبعاده الجديدة ، خالطة بين الدعاية المحلية والسياسة الدولية ... بين الاتصالات العابرة ، والدراسات العلمية الرصينة .. بين

مقتضيات الاستهلاك الداخلي ، والاستهلاك الخارجي .
وسنظل نعاني من آثار التخلف الدبلوماسي ما لم نعالج ذلك بثورة علمية على تلك الاوضاع .. (انتهى) .

وهذا جزء مما نريد أن نشير اليه ، فليست العملية «طبخة» لامعنى لها ولا طعم ، بل لابد أن تهيىء لهـــا ما يناسبها من عقول لها خبرات واســعة ، ودراسات هادفة ، ونشأة في مناخ التخصص الذي سيوكل اليه العمل فيه بعد ذلك .. وهكذا لابد أن نحترم الخبرة ، وهي لا تتأتى الا بممارسة طويلة ، أي خطوة .. خطوة ، لا قفزة واسعة قد تؤدي الى الهلاك .

ولم نذهب بعيداً !.. فعلينا ان نعود الى أمر من أمور الله مع البشر ، عندما أراد أن يأخذ بأيديهم ليصدهم عن شرب الخمر .

لقد كان من الممكن أن يصدر « فرمانا » سماويا بتحريم الخمر مرة واحدة ، ولكن الله لم يفعل ، بل اراد أن تصدر احكامه ونواهيه خطوة خطوة .. لانه اعلم بنفوس البشر فاذا تهيــأت النفوس للنصيحة ، كان الامر بالتحـريم والاجتناب .
وأول ما نزل بخصوص هذا الامر كان الآية الكريمة « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » .. ولقد قيل أن هذه الآية قد نزلت في بدء تحريم الخمر ، حين قرأ أحدهم في صلاته « قل يا أيها الكافرون .. أعبد ما تعبدون » .. فنهوا عن الصلاة وهم سكارى .

ثم نزلت آية اخرى « يسألونك عن الخمر والميسر،قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس » .. وهي آية لا تحمل معنى التحريم المباشر، وان كانت اكثر صدا للذين يشربون

الخمر من الآية السابقة .

ثم نزلت آية ثالثة« أنمـــا الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » وكان فى هذا معنى التحريم القاطع .

ارأيت اذن كيف يسوس الله البشر ، رغم أنه قادر على أن يحول بينهم وبين ما يفعلون بالبطش والتنكيل والارهاب، وهو يعلم أن ليس عليه رقيب ولا حسيب ، ولكنه لم يشأ أن يفعل .

ومع أن هذا هو منطق الخالق مع من خلق ، الا اننا أحيانا لا نرى ذلك فى منطق المخلوق .. فاذا امتلك تجبر وبطش وأرهب ونكل ، وما أكثر ما يحدثنا التاريخ عن طغاة ظنوا أن الدنيا قد دانت لهم ، وزينت لهم نفوسهم أن الجماعات والشعوب ليست الا قطيعا يساق كما تساق الاغنام .. فاذا بالضنك والاذلال يتحول الى ثورة على فساد الاوضاع ، واذا بالطغاة يسقطون ويذهبون بذلتهم وحقارتهم ، ثم لا يتركون وراءهم الا عار الانسانية .. لا فخارها .

وما أنكى الثـــورات .. ثورات النفـــوس والبشر والشعوب !

اذن .. فلكل شيء تحمل وطاقة .. فاذا زاد الضنك والضغط والنكد ثار الشيء وانفجر ليرتاح من ضنكـه وكمده ونكده .. وما الثورات الا تعبير مشروع لما فى نفوس البشر وكل كيان آخر فى الكون العظيم .. الا أن الثورات تختلف باختلاف طبيعة الشيء ، كمـــا تختلف باختلاف العوامل التى تتسلط عليه .

هناك ثورات ذرات وخلايا ومخلوقات وجماعات وشعوب ورياح وبحار وكواكب وشموس .. الخ .

فثورة الذرات اشعاعات تطلقها كما سبق أن قدمنا .

وثورة الخلايا تتركز فى تغيير وراثى فى جزيئاتها لكى تتخطى العوامل الطبيعية والكيميائية والبيولوجيـــة ، وكأنما هى تريد ان تتغلب على المازق والضنك الذى وقعت فيه ، فاذا تغلبت اصبحت بالنسبة للحياة طفرة حسنة ، واذا لم تتغلب فمصيرها الموت والاندثار .

وثورة الكواكب زلازل وبراكين .. فبين الحين والحين ينتاب جوف كوكبنا اضطرابات داخلية تؤدى الى انفجار بركان هنا ، وحدوث زلزال هناك ، وبعدها يسكن كل شيء الى حين .. مثلها فى ذلك كمثـــل جوف الانسان الذى يحشر بما هو فوق طاقته ، فتثور المعدة ، وتعلن عن ذلك بقيء ، وتثور الامعاء أو تضطرب ، وتعلن عن ذلك باسهال .. هذه صورة ، وتلك اخرى .

وثورات الشموس انفجارات تحدث فى جوفها فتؤدى الى خروج كتل ضخمة من غازات ملتهبة تندفع خارجهـا بسرعة قد تصل الى ٤٠٠ كيلو متر فى الثانية ويصـــل ارتفاعها أحيانا الى أكثر من ٥٠٠ الف كيلو متر ، وبسمك يصل الى عدة آلاف من الكيلو مترات ، وقد تستمر هذه الاجنحة الملتهبة معلقة اياما واسابيع فوق جو الشمس ، ثم تعود اليها ... مثلها فى ذلك كمثل البركان الثائر الذى يلقى بحممه الى الهواء ، ثم الى الارض تعود .

واحيانا ما تتـداخل هـذه الانفجـارات فى المواصلات اللاسلكية ، وفى أجهزة الاستقبال فتؤدى الى ضعفها ، خصوصا فى ارسال الموجة القصيرة ، وكل هذا يعـود الى ما يتقبله غلافنا الهوائى من اشـــعاعات زائدة تؤدى الى حدوث خلل فى المنطقة الايونية بطبقات الجو العليا .

كذلك يحدثنا العلماء الذين يرقبون أمور السماوات من

خلال مناظيرهم الفلكية عن حدوث انفجارات رهيبة فى مجرات تحتوى على ملايين النجوم .. ولكنهم لم يعرفوا على وجه التاكيد سببا لذلك !

انها اذن ثورات الطبيعة فى كل مكان بالكون الكبير .. بداية من ذرة ضئيلة غاية الضآلة ، الى أجرام سماوية ضخمة غاية الضخامة .. ونحن جزء من هذا الكون الثائر .. وليس بدعة ــ اذن ــ أن يثور زعيط وأمثال زعيط اذا ما تعرضوا للضنك الشديد .. ولكن عليهم ان يحسنوا استخدام صمامات الامان التى وضعت لهم فى نفوسهم ، أو ما يعبر عنه البعض « بضبط النفس » . والا كانت الفوضى .

صحيح ان كل شيء فى الكون يثور ، وأن ثورته لا تظهر الا كنتيجه حتمية للتفريج عن ازمة أو ضنك يجتاح كيانه، ولكنها ــ مع ذلك ــ ثورات منظمة لها هدف ونظام وحساب ومقدار ، والا لكانت الفوضى ، والكون العظيم لا يمكن أن يقوم على فوضى .. وكذلك الناس والشعوب .

ومن حق الناس ان يثوروا اذا ما تعرضوا لضنك وكمد ونكد .. كما يثور كل شيء اذا تعرض لنفس الشيء، ولكن على شرط أن تكون ثوراتهم منظمة ولها هدف ، كأن يغيروا أوضاعا فاسدة قد تجرهم الى الهلاك ، أو كأن يعلنوها ثورة على دخيل حط فى أوطانهم ، أو ثورة اصلاح وتطوير وتطهير ... الخ .

والى هنا يستطيع زعيطنا أن يقيم نفسه ومجتمعه بما فات .. وليأخذ من الطبيعة درسا . وما أروع دروسها لقوم يفقهون ، وبعدها سيعرف ان كان يساوى فيها أو لا يساوى !!

دعنا بعد ذلك نتعرض للفحم والرمل والصخر والحجر

.. ما اكثرها وما ارخصها !

ثم علينا أن نتعرض للياقوت والماس والعقيق والزمرد والزبرجد والفيروز واللؤلؤ والتوباز والاوبال (حجران كريمان) .. ما اندرها وما اغلاها !

وهنا قد يقفز الفصيح ـ بعد ان غابت عنا تساؤلاته وطال صمته ـ فيقول :

وهل هذا يدخل ضمن موضوعنا !

وما على الفصيح الا ان ينتظر قليلاحتى نتعرض لموضوعنا، وعليه ـ بعد ذلك ـ أن يحكم لنا أو علينا .. فما أعظم التشابه بين الصخر والبشر من وجهة ما نريد أن ننفذ اليه هنا .

غريب ان ينشأ الطيب النادر وسط الخبيث الكثير ، ثم يكاد يختفي عن أعيننا وكأنه لا يريد أن يفصح لنا من أصالته وعراقته ، الا اذا بحثنا عنه ، وسعينا اليه ، واخرجناه من مكمنه ، لنستفيد به كما يجب أن تكون الافادة من كل طيب ثمين ، هذا لو أردنا فعلا أن يكون للاصيل الكريم فى حياتنا نصيب .. ولكنه لا يظهر ، فلقد طفح الكيل بالخبيث ، فحجب عنا الاصيل !

هل اقصد بذلك مجتمعات البشر ؟

ما الى هذا قصدت ، رغم انه ينطبق على البشر .. بل أعنى الاحجار الكريمة فى قلب الصخور ، أو فى باطن الارض .. « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض » .

فى الارض بلايين فوق بلايين من أطنان الفحم .. ولهذا نبيعه أو نشتريه بأرخص الاسعار .. وقد يتعرض الفحم لظروف قاسية .. فيتحول الى ماس ، والماس من الاحجار النادرة الثمينه ! والياقوت والزمرد أساسهما ألومونيوم،

او ان شئت الدقة فاوكسيد الألومونيوم ـ وشتان ما بين طبيعة هذا وطبيعة ذاك .

والفيروز خليط من بلورات فوسفات النحاس وفوسفات الالومونيوم ، وليس لهذا او ذاك قيمة ، الا اذا غيرت الظروف حالتهما ، فيكون الحجر الكريم .

والعقيق والاوبال ـ احد الاحجار الكريمة ـ من السيليكون ـ اى عنصر الرمل .. وان شئت الدقة فمن اوكسيد السيليكون .

واللؤلؤ والمرجان اساسا من الجير (كربونات الكالسيوم) .. الا أن هناك ظروفا خاصة قد خلقت من الجير هذين الحجرين الكريمين .. الخ .

وكل هذه أحجار كريمة تختلف قيمتها باختلاف صلابتها والوانها وانعكاس الاضواء عليها وصقل سطوحها وترتيب ذراتها وجزيئاتها فى تركيب بلورى رائع يأخذ بالباب كل من يحب الجمال .. حتىولو كانذلكفىفحموحجر وصخر .. فالعبرة هنا بنوع الشيء وندرته .. لا بكثرته .

والواقع ان معظم أحجارنا الكريمة .. قد نشأت من خامات رخيصة ليس لها فى عرفنا قيمة كبيرة .. ولقد كان من وراء ذلك عوامل قاسية ، وأحداث صعبة صهرتها وصقلتها ونظمتها .. وخرجت من « محنهـا » أحجارا كريمة نادرة !

كذلك يكون الحال مع البشر والمجتمعات والشعوب ، فبقدر صلابتها للكوارث والاحداث الجسام ، وبقدر ما صقلتها الظروف الصعبة ، تكون قيمتها مع منحولها .

ولكى نوضح نقول : لقد جاء على هذا الكوكب بلايين فوق بلايين من البشر ، فلم يشعر بهم أحد ، ولم يقيمهم أحد ، وكأنهم كانوا بمثابة عابرى طريق !

ووسط هذا الطوفان الهائل من الناس ، ظهرت الدرر النادرة على هيئة عقول عظيمة ذكية متفتحة .. فاثرت فيمن حولها ، وفيمن جاء بعدها بأفكارها وتعاليمها وأعمالها ، فكانت هناك حضارات وعلوم وفلسفات وأديان ومذاهب .. الخ ، وكلها لازالت (وستبقى) متلألئة وضاءة على جبين الانسانية وفى عقولها .. رغم أن أصحابها قد تحللوا واختفوا من مسرح الحياة ، ولكن الاعمال الجليلة لا تموت بموت اصحابها ، بل تصبح ملءعقولنا وسمعنا وبصرنا، وكأنما اصحابها بيننا اكثر حياةمن أحياءيتمتعون بالحياة .. حياة المرور والعبور !

لقد جاء الى هذه المنطقة العربية التى نعيش فيها الان مئات الانبياء .. (ويقال الآلاف) .. وذهبوا جميعا دون أن يتركوا لنا رسالات يمكننا ان نقيمهم بها .. وبقيت رسالات موسى وعيسى ومحمد خالدة عظيمة(*) .. وكذا بوذا لقوم آخرين !

ومع ذلك فقد كانت للديانات جذور قديمة قدم الانسان، ولكنها تطورت ــ حتى الديانات ! ــ كما يتطور كل شيء حولها .. فلقد كان اخناتون أول الموحدين (١٤٠٠ قبل الميلاد) ، رغم أنه ليس رسولا للسماء .. فترك المملكة ، وهجر الكهنة الذين كانوا يعبدون غير ما يعبد ــ ثم نرى تعاليم المسيحية تطويرا لتعاليم اليهودية ، وتعاليم الأسلام تطويرا للمسيحية واليهودية ــ أى انه كلما مر الزمان ، وتفتحت الاذهان ، أضيف الى هذا الدين أشياء وأشياء ! .. « قل كل من عند الله » .

كذلك لابد أن تتطور الاديان مع تطـــور البشر ، فان بقيت جامدة ــ أى لا تساير روح العصر ــ فقدت شيئا

(*) على هيئة توراة وانجيل وقرآن .

من روعتها وعظمتها .. ولكن الذنب هنا ليس ذنب الدين، بل ذنب الذين يطبقون تعاليم الدين !

ما اود ان نصل اليه هنا ان الرسالات العظيمةلايحملها الا نفر نادر من البشر ، قد صفت نفوسهم ، وسمت أخلاقهم ، وقويت عزيمتهم .. ثم لابد أن يكونوا صالحين لحملها صابرين على مكارهها ، صامدين لكل ما يدور حولهم من دسائس ومكر وخداع وتعذيب .. وهؤلاء نادرون ندرة الاحجار الكريمة فى وسط الصخور .. فى وسط البشر !

ثم ما اكثر ما لاقى أصحاب الافكار والعقائد والمذاهب من قسوة وعذاب وازدراء وعنت وتشريد ـ فتحملوا كل هذا بنفوس راضية ، وكأنما الازمات الجسام قد صهرتهم وحولتهم الى صنف نادر من البشر ، كما انصهرت الاحجار الرخيصة وتحولت الى زمرد وزبرجد وفيروز وياقوت .. الخ ..

كأنما التاريخ يجود على البشرية فى كل جيل من اجيالها ـ أو ربما أكثر من جيل ـ بعباقرة نادرين كندرة الماس فى مئات البلايين من أطنان الفحم .

انها اذن ندرة العباقرة الذين طوروا مفاهيم البلايين من البشر ، كما هى ندرة الاحجار الكريمة بالنسبة لبلايين البلايين من الصخور .

وقد يتساءل الفصيح : ولماذا جاء كل هذا الطوفان من البشر اذن ؟

قد يكون مجيئهم من قبيل تحصيل الحاصل .. ولكن لابد من مجيئهم .. اذ كيف تظهر الاحجار الكريمة وسط الصخور .. وما أكثر الصخور وما أرخصها ؟!

وهنا قيم نفسك يا زميط ان شئت ، فقد تكون بالنسبة

لمن حولك ماسا أو لؤلؤا أو حديدا أو صخرا ، أعنى فى القيمة ، لا فى الماديات !

هذا عن الافراد باختصار .. فمـــاذا عن الجمـاعات والشعوب ؟

ان الفرد وحدة المجتمع ووحدة الشعوب .. وتربية الفرد الصالح ، تنتج شعبا صالحا .. أقلبها على الوجه الآخر ، تخرج بنفس النتيجة .

هناك اذن شعوب صامدة ، واخرى هشة .. او ما بين ذلك تكون الشعوب !

هناك أيضا شعوب واعية واخرى لاهية .. شـــعوب متطورة وغيرها راكدة .. شـــعوب متصارعة وشـعوب متواكلة .. شعوب أعمالها أكثر من كلامها ، واخرى كلامها اكثر من أعمالها وانجازاتها .. وهذه ينطبق عليها المثـل الانجليزى «جعجعةاكثر ..صوف اقل » (*) او لحم أقل كما تريد .. أو « القط الذى يموء كثيرا ، يصطاد قليلا » .. و «ليس صيادا ماهرا كل قط يموء» !؟ (**)

ان قوة الشعوب اليوم تقاس بأفكارها وعلمها وعلمائها وتطورها الى الاحسن .. لا الى الاسوأ .. فالعلم يقود الى القوة ، ولغة القوة هى اللغة السائدة فى عالم اليوم .. وقبل اليوم ، وبعد اليوم !

ان الشعوب التى تعطى للطرب والرقص والغناء أعظم قدر من الاهتمام والامكانيات المادية والمعنوية ، لهى شعوب لاهية غير واعية ، ولابد أن تدفع ثمن لهوها وطربها فى عالم يحكمه منطق الصراع والعلم والقوة !

ومن الشعوب من وعت وقدرت علماءها ومفكريها ..

(*) والمثل الانجليزى Much cry, little wool

(**) حكمتان لانيس منصور .. فى « قالوا » .

لانها تعلم أن العقل البشرى لا يستطيع أن ينتج انتاجا له قيمة ، الا اذا يسرت له سبل الحياة الكريمة ، واحاطته بالمناخ المناسب لكى ينضج ويزدهر ويثمر .

لقد ذهبت أمجاد العضلات والفصاحة وحل محلهاصراع العقل مع العقل .. ولابد أن تسود العقول الواعية المفكرة ، لانها تمثل أعظم رمز للقوة على هذا الــكوكب .. وهى النتيجة والهدف بعد ثلاثة آلاف مليون عام من التطور .. « أفحسبتم انما خلقناكم عبثا !؟ » .

لكى تحكم على أقدار الشــعوب ، فعليك بصحافتهــا واذاعتها وأجهزة الاعلام الاخرى فيهـــا .. عليك بسير الامور فى مرافقها .. الخ ، أدرس بعقل ، واحكم بروية ، وبعدها ستعرف قيمة الشعب من القيم التى فيه تسود .

ثم عليك برؤسائك .. اختبر الجوهر دون المظهر .. وستخرج من ذلك بنتيجة .. أية نتيجة .. اذ لابد انك من المؤمنين معى بالقدوة الطيبة .. « لقد كان لـكم فى رسول الله أسوة حسنة » ، « اذا صلح الراعى ، صلحت الرعية » .. « الناس على دين ملوكهم » .. وفى هــذا الحق ، كل الحق لو كنتم تعلمون ، ولكى تتأكدوا ، فعليكم بحاضركم وماضيكم ، وأدرسوا التاريخ ، ففيه العبر !

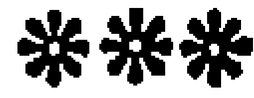
قد ترى بعد ذلك كثيرا من البشر ينصحون ، وهم أولى بالنصيحة ، ويوجهون وهم أولى بالتوجيه .. « ويقولون مالا يفعلون » .. تماما كما يقول فيهم الشاعر :

يا أيهــا الرجل المعلم غيره   هلا لنفسك كان ذا التعليما

ويقول الله فيهم عز وجل «أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » .

والان يا زعيط .. قيم نفسك ومجتمعك بمــا فات

واخبرنا : كم تساوى أنت ؟ وكم يساوى هو ؟ .. فالحق بين ، والباطل بين !



والواقع ان هذا الصنف من البشر أو الشعوب سوف يتعرض لتجارب قاسية ، ومحن قاتلة ، وكوارث جسيمة .. ولابد أن ينصهروا فيها ، سواء رضوا أو لم يرضوا .. وقد يذوبون ويختفون ، أو قد يخرجون منها كالمعدن الطيب الاصيل .. فهذه سنة الطبيعة مع كل مخلوقاتها .. فهى لم تقم على «التهريج» ، وليس للمهرجين فيها من مقام ، حتى ولو طال بهم الزمان .. كذلك لا يهمها كثرة العدد ، بقدر ما يهمها نوع هذا العدد .. ولكم فى الصراصير والديدان والميكروبات والحشرات عبرة لكل من اراد أن يعتبر .

ان المسئولية لواقعة على أولى الرأى والنهى .. على رجال الدين والاجتماع والفكر والتربية والجامعات .. لابد أن يكون هؤلاء أكثر وعيا وادراكا .. فلو انهم تدبروا بعقولهم وتجاربهم وخبراتهم نظم هذه الاكوان ، لتبينوا انها تقوم على حق ونظام وصراع ودفع وتفاعل .. ومن هنا يستطيعون أن ينشئوا أجيالا أكثر تفتحا ، واعظم وعيا ، وارقى فكرا ، واكفأ صمودا !

ان الاجيال الصغيرة كالجواهر الخام التى لا تظهر لنا أصالتها وقيمتها الا اذا وضعتها بين يدى خبير حاذق ، يعرف كيف يصقلها ويشكلها .. وكذلك تكون جواهر العقل ، فاما أن تطمس ، واما أن تصقل ، ولا يفعل هذا أو ذاك الا المهيمنون على نشأتها .. من البيت .. الى الشارع .. الى المدرسة .. الى الجامعة .. ثم الى المجتمع .. ولابد لكل هذا من قدوة حسنة .

خذ مثلا رجال الدين .. لقد أصبح كل ما يهم الغالبية العظمى منهم مسألة الجنة والنار ، وكأنما الانسان لم يأت على هذه الارض الا لكي يذهب الى جنة أو نار .. والواقع أن رسالته على كوكبه ــ بالنسبة للمجتمع الذى فيه يعيش ــ أعمق من ذلك بكثير .. وقد يسامح الله فى حقه .. ولكنه لن يسامح اذا أخطأ الفرد فى حق مجتمعه ، لان الله لن يضار بكل أخطاء البشر ، ولكن أخطاء البشر ــ خصوصا ذوى المكانة منهم ــ قد تؤدى بالمجتمع الى الهلاك .. ويكفينا ما نحن فيه من محن .. وعلى رجال الدين أن يغيروا فى أساليبهم .. أن يتطوروا ، فتتطور أفكار المجتمع تبعا لذلك ، وليدركوا قول الرسول الكريم « فضل العلم خير من فضل العبادة » .

يكفينا فعلا أن نتأمل نظام الله فى كونه .. فى الجسم الحى .. أو فى الخلية الحية .. أو فى الذرة .. مجرد ذرة .. وعندئذ سيتبين لنا انها على النظام قد قامت ، وبالقانون قد سارت .. وهكذا لابد أن نتعلم مما يجرى حولنا ونقارن ، لنعلم على أى طريق نحن سائرون .. أى هل نسير مع قوانين الكون .. مع نظام السماء .. أو هل نحن سائرون فى الطريق المضاد (حتى لو صلينا ولو صمنا) .. الذى لا يمكن أن يتمشى مع الهدف العظيم الذى من اجله قد جاء الانسان الحكيم ؟!

وهدفه أن يعمر لا ان يخرب .. ان يسعد لا أن يشقى .. ان يعمل لا ان يلهو .. ان يتطور لا ان يركد .. أن يصمد لا أن ينهار .. ان يكون قويا فى مواطن القوة ، رحيما فى مواطن الرحمة ، عادلا فى مواقف العدل ، واضيفوا بعد ذلك من الصفات الحميدة ما تشاءون .

نعود اذن الى الذين قالوا لا نساوى شيئا .. فلابد

ان من وراء ذلك اسبابا قد نكون ذكرناها أو لم نذكرها ، ولكننى أعجب واتساءل : ما الذى غير الانسان ؟ .. ما الذى حطم طموحه ؟ ما الذى جعله يحط من شأنه الى هذا القدر ؟ .. ما الذى طمس عقله ؟ .. هذا الانسان العظيم تاج المخلوقات وسيدها ؟!

ولكن على هؤلاء أن يقرأوا ويستوعبوا ما فات ، وعليهم أن يقارنوا ويقيموا .. فقد يساوون أو لا يساوون .

ان الانسان الحق هو الذى يعرف قيمة عقله ، لان العقل جوهرة لا يعرف قيمتها الا أصحاب العقول الحكيمة الواعية المتطورة ، فاذا صـــقلوها بالخبرة والتجربة والقراءة والاطلاع على كل ما يفيد هذا العقل ، ويوسع مداركه ، ويتفتح على ما هو كائن حوله .. ثم يميز عن علم بين ما يجب أن يكون ، وما لا يجب أن يكون .. الخ ، كانوا فى مرتبة الانسان الحق الذى تحافظ عليه الحياة ، وتختاره ، لانه يحافظ على انسانيته وآدميته وعقله .

واقول هنا الانسان الحق ، لان الانسان هنا صنفان : صنف يحمل من صفات الانسان شكله الظاهرى فقط ، وقد يعجبك المظهر ، فاذا أختبرت الجـــوهر ، وجدته حيوانا أصيلا ، وكأنه لا يريد أن يتخلى عن صفات أجداده واسلافه الذين سبقوه على الأرض بعشرات ومئات الملايين من السنين .

ان مثل هذا الصنف من الناس يمكن السيطرة عليه ، وبمقدورك ان تقودهم كما تقود القطيع ، حتى ولو كان فى ذلك هلاكهم .

ثم اذا أردت أن تقيمهم بمعايير الانسان الحق ، فانهم لا يساوون شيئا مذكورا ، وكأنما هم قد جاءوا عبثا وعالة على الانسانية !

وهدف الحياة انطويل ان تصقل البشرية ، لتسمو بانسانيتها وتتخلى عن بعض صفاتها الحيوانية التى ورثتها من اسلافها .. ولكن ذلك يحتاج لوقت طويل ، وقد يسرع به الانسان اذا أراد .

ان البشرية التى جاءت بعد ثلاثة آلاف مليون عام من التطور لا تزال بمثابة طفل يسير فى طريق طويل .

انه يخطىء ولابد أن يتعلم من اخطائه .

ويتعثر ويسقط .. ولكنه يقوم بعد كل عثرة ، ويقف بعد كل سقطة .

وهو لا يزال طفلا يهدد ويلوح بلعبته التى امتلكها (الاسلحة النووية) ولكنها لعبة خطيرة فى يد طفل غر لا يستطيع أن يقدر الامور بميزان العقل ، فاذا كبر عقله، فلا شك أنه سيتخلى عن لعبته القذرة ، واذا لم يفعل ، وطاش عقله الصغير ، فسوف تنصهر البشرية فى حرب نووية .. وهنا يصبح الانسان الطفل اغبى من بعوضة ونملة وصرصار .

الا اننى أتوقع أنها لن تبيد كل البشر .. فلابد أن يسير الطوفان ــ طوفان البشرية ــ حتى ولو بقلة قليلة الى هدف بعيد تريده الحياة .. وهدفها يتركز فى نمو طفلها ليصل الى درجة عظيمة من السمو الروحى والاجتماعى والاخلاقى بعد ملايين السنين .. أو أقل ، أو أكثر ، لست أدرى ، فلابد للتطور ان يأخذ مجراه ومداه لهدف جليل ، انسماء اعرف بتفاصيله !

ومع ذلك فانت تساوى المجتمع الذى تعيش فيه ، لان العيون الاخرى فى مجتمعات أخرى ترقب وتدرس وتقيم ، وقيمة الفرد من قيمة مجتمعه .

وانت تساوى عقلك وارادتك وفكرك وانسانيتك ..

وليس للحيوان من كل هذا نصيب .

وانت تساوى ما تقدم للناس ، ولكنك لا تساوى تجبرك وغطرستك عليهم ، لانك منهم ، ومصيرك مصيرهم .. عليك ان تأخذ لتعطي .. وتعطي لتأخذ ، فاذا اعطيت اكثر مما تأخذ ، كنت انسانا يتصف بصفة الانسانية الحقة ... والحيوان لا يفعل ذلك .. اللهم الا لذريته الصغار .

وانت تساوى عملك الذى يشرق على الناس فيضيء نفوسهم وحياتهم ، حتى ولو كان هذا العمل صغيرا .. ولكن لا يسعدهم كثرة الكلام والضجة والطنين، لان الاعمال العظيمة تعلن عن نفسها ، وتظهر امام الناس نتائجها « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع النــــاس فيمكث فى الارض » .

وانت تساوى مبادئك .. وليس للحيوان مبدأ .

وانت تساوى انسانيتك .. وليس كل انسان انسانا،

وانت على هذا الكوكب مبعوث السماء .. لو عرفت قيمة نفسك .

ولقد جاء الانسان ليكون انسانا حقــــا ، وبه تسعد البشرية ، لا تشقى .. بهذا قيموا انفســـكم لو كنتم منصفين ، وبعدها ستعرفون أى منقلب ستنقلبون، وهل تساوون أو لا تساوون ، وعلى أى طريق انتم سائرون ـ فالحق بين والباطل بين ، ولا يعرف هذا ويسير عليه ، او ذاك ويتجنبه ، الا الانسان الحق الذى لا يقيم بمعايير المال ، لأنه أسمى وأعظم من كنوز هذه الارض !.

هذا لو عرف قيمة نفسه .

« ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه »

المـراجـع

1. The Human Machine by Sir Adolphe Abrahams, 1956. A Pelican Book.
2. The Language of Science written by nine eminent Scientists, 1966. A Fawcett Premier Book.
3. The Science of Life by Lois and Louis Darling, 1961. Bantam Pathfinder Edition.
4. Man and his Ancestory by A.H. Brodrick, 1964. A Premier Book.
5. Introducing Science by Alan Isaacs, 1963. A Pelican Book.
6. Human Destiny by Lecomte de Nouy, 1963. A Mentor Book.
7. Modern Science and the Nature of Life by William S. Beck, 1961. A Pelican Book.
8. The Boundaries of Science by Magnus Pyke, 1963. A Pelican Book.
9. The Living Brain by W. Grey Walter, 1961. A Pelican Book.
10. The Senses of Animals and Men by Lorus and Margery Milne, 1965. A Pelican Book.
11. The Evolution of Life by F.H.T. Rhodes, 1952. A Pelican Book.
12. The Nature of the Universe by Fred Hoyle, 1963. A Pelican Book.
13. Evolution in Action by Julian Huxley, 1963. A Pelican Book.

14. Man the Peculiar Animal by R.J. Harrison, 1958. A Pelican Book.
15. Chemistry by Kenneth Hutton, 1963. A Pelican Original.
16. Realm of Measure by Isaac Asimov, 1967. A Fawcett Premier Book.
17. Man : His First Million Years by Ashley Montagu, 1958. A Mentor Book.
18. The Atom by Sir George Thomson, 1957. The Home University Library of Modern Knowledge, Oxford.
19. Work and the Brain by Y. Frolov, Foreign Language Publishing House, Moscow.
20. The Origin of Man by M. Nesturkh, 1967. Progress Publishers, Moscow.
21. Biology — A Basic Science by E.D. Heiss and R.H. Lape, 1958. Van Nostrand Company, Inc.
22. A Biology of Man by Margaret E. Hogg, 1962. Heinemann Educational Books Ltd.
23. Rocks and Minerals by Herbert S. Zim and Paul R. Shaffer, 1957. Golden Press.
24. The Scientist by Henry Margenau, David Bergamini and the Editors of Life, 1966. Life Science Library.
25. Energy by Mitchell Wilson and the Editors of Life, 1965. Life Science Library.
26. The Cell by John Pfeiffer and the Editors of Life, 1965. Life Science Library.
27. The Book of Popular Science 1958.
28. Mc Graw-Hill Encyclopedia of Science and Technology, 1960.
29. Scientific American : May, 1968.
30. Scientific American : September, 1961.
31. Relativity and Man by V. Smilga, Progress Publishers Moscow.
32. Adaptation by B. Wallace and Adrian M. SRB, 1961. Prentice-Hall Inc.

فهرس

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc; 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.



هذا الكتاب

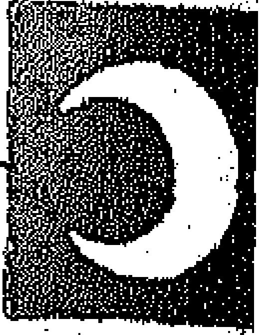
في هذه الدراسة العلمية « انت ·· كم تساوى » يقدم لنا الدكتور عبد المحسن صالح رحلة مثيرة في داخل الجسم البشرى ، وفي فصول شيقة يتناول طبيعة تكوين الانسان من حيث هو مادة فيها نظام بديع ، ومن حيث هو طاقة فيها حياة ·· ثم يقوم بتقييم المادة والطاقة بمعايير علمية جديدة ·· فهي تارة اعنف من عفاريت الملك سليمان ، وتارة اخرى تساوى تسعة احصنة أو ان طاقة المخ تكفي لاضاءة مصباح قوته ٢٥ وات ·· الى اخر هذه الامور الغريبة التى قد تبدو لنا بمثابة الغاز مثيرة ··

لكن التقييم الحقيقي للانسان لا يظهر الا من خلال تلك التجربة الكونية التى بدات على ارضنا منذ الفي مليون عام ، وفيها انصهرت حياة المخلوقات وتطورت ، لتتوج الحياة مشوارها الطويل بمخ عاقل ليدرك النظام البديع الذى قامت به كل الموجودات من اول الذرات الى البلورات الى الخلايا الى الكائنات الى الارض الى السماوات ·· والى هنا يدخل الانسان بعقله في هذه النظم ليتبين ان كان يساوى فيها او لا يساوى !·

والدكتور عبد المحسن صالح متخرج في كلية العلوم ، جامعة القاهرة ، بمرتبة الشرف ، ويشغل الآن وظيفة استاذ مساعد للميكروبيولوجيا بكلية الهندسة ، جامعة الاسكندرية ، وتتسم مؤلفاته العلمية بأسلوب ادبي ساخر ، ويعتبر واحدا من رواد عصرنا القلائل في تبسيط المادة العلمية الجامدة ، وتقديمها للقارىء غير المتخصص في جرعات بسيطة توحي بالقراءة ، وتدعونا للتأمل العميق في اسرار هذا الكون وخباياه ·

١٠ قروش

كتاب الهلال



نور على نور

٥٠٠

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهريه تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الادارة يوسف السباعي

رئيس التحرير : صبالح جودت

العدد ٢٥٠ رمضان ١٣٩١ نوفمبر ١٩٧١

No. 250 — Novembre 1971

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى: (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية .وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ ــ فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات امريكية أو ٢ جك ــ والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية ــ والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى ــ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

كتاب الهلال



رية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة
الفنان جمال قطب

أحمد فراج

نور على نور

دار الهلال

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسـول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بالاحسان الى يوم الدين • وبعد ..

فان فكرة جمع حلقات برنامج « نور على نور » الذى اتشرف بتقديمه خلال التليفزيون العربى منذ عام ١٩٦٠ فكرة قديمة ومتجددة معا ، كان أول من فكر فيها هـو السيد الدكتور محمد عبد القادر حاتم نائب رئيس الوزراء ووزير الثقافة والاعلام ،وكان صاحب فكرة البرنامج ذاته وظهرت الفكرة الى حيز الوجود فى كتاب واحد صدر فى منتصف عام ١٩٦١ يحمل اسم البرنامج ويتضمن عددا من حلقاته كانت قد تناولت بعض الجوانب فى اشتراكية الاسلام

وكان لنفاد ذلك الكتاب فور صدوره أثره فى الحاح متزايد واجه البرنامج على ضرورة طبع حلقاته أولا بأول ونشرها على أوسع نطاق ممكن مساهمة فى خدمة الثقافة الاسلامية وقضايا الفكر الاسلامى التى نعرض لها كل أسبوع ، وعلى اعتبار أن الكلمة المكتوبة تعطى بعدا آخر يضاف اليها بعد ان تكون مسموعة او مرئية فحسب •

ولقد واجهتنى دائما صعوبات عملية قد لا تجعل تنفيذ الفكرة أمرا مستحيلا ، ولكنها تحتاج الى طاقة ووقت لم تسمح بهما ظروف العمل فى الحقل الاعلامى • ولربمـا

استشعر هذه الحاجة بعض الفضلاء كما ادركتها بعض دور النشر في مصر وفي عدد من البلاد العربية الشقيقة ، فتلقيت عديدا من المكاتبات يعرب فيها اصحابها عن استعدادهم للقيام بما يحتاجه اعداد هذه الحلقات للطبع والنشر من مراجعة وتحقيق واعادة صياغة في بعض الاحيان . ولكنني كنت أدرك دائما أن أمانة الكلمة مسئولية كبيرة ، وادرك في نفس الوقت مع السادة العلماء ورجال الفكر الذين أسهموا في تقديم البرنامج لجمهوره ، أن هناك عنصرين اساسيين يحكمان الحديث باستمرار في كل موضوعات البرنامج :

العامل الاول : هو الزمن ، الذى يضطر المتحدث معه ان يختزل قضايا تحتاج الى ساعات في عرضها أو الى دراسات مستفيضة ، في دقائق محددة .

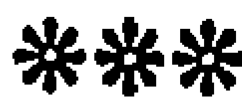
والعامل الثاني : هو الارتجال في ذلك الزمن المحدد ، وهوأمر يحدث معهألا تفي الكلمات احيانا ،وبالدقة المرتجاة، بكل المضمون الذى يستهدف طرحه ، وبشكل واف ومتكامل .

ومن هنا فان التفكير في تسجيل موضوعات البرنامج كتابة ، يقتضي ـ أمانة ـ الرجوع بأصولها الى المتحدثين ليراجعوها بانفسهم فيوضحون ما غمض ، أو يفصلون ما أجمل ، أو يضيفون ما يجعل الفكرة اكثر وضوحا حيث يصبح المجال أكثر انفساحا بالطباعة ، عما كان « على الهواء » .

ثم سنحت فرصة طيبة أتاحتها مجلة الاذاعة والتليفزيون بتنفيذ الفكرة جزئيا . وذلك بنشر حلقة واحدة في كل عدد من اعدادها الاسبوعية ، وكانما كان ذلك توزيعا للجهد وتنظيما له ، وان لم يكن في الحقيقة تخفيفا من مقتضياته ، فبدأت بانتقاء مجموعة من الحلقات أراجعها

وأضبط ما فيها من نصوص وأعود الى المتحدثين فيها فى كثير من الاحيان قدر ما أطيق ، حتى نشرت سلسلة منها لقيت فيما أظن أصداء طيبة ، عاد معها الالحاح على الفكرة الاصلية وهى تجميع الحلقات ونشرها فى سلسلة دورية تحمل اسم البرنامج ..

وادا بالاستاذ الكبير الصديق صالح جودت يتصل بى ويثير الفكرة مرة أخرى ويناقش الصعوبات ، وييسر كل السبل لبعثها من جديد فى « كتاب الهلال » وكان من تشجيعه أنه رحب بانتقاء مجموعة ممتازة مما نشر فى مجلة الاذاعة والتليفزيون وبدراسة قيمة للدكتور عبد العزيز كامل وزير الاوقاف وشئون الازهر نشرت فى الكتاب الاول للبرنامج ، فوجدتنى أزايل ترددى لاضم اليها عددا آخر من الموضوعات التى لقيت ترحيبا كبيرا من السادة المشاهدين بل وألحوا على اعادة أذاعتها ونشرها واخص منها هنا سلسلة الموضوعات التى قدمها الدكتور احمد كمال ابو المجد مستشار مصر الثقافى السابق فى واشنطن والاستاذ بالجامعة وأمين الشباب ، حول قضايا الحرية والمساواة والديمقراطية وسيادة القانون فى التصور الاسلامى .



ولم يكن من السهل على أن أتصور صدور هذا الكتاب دون أن يتضمن حلقة بذاتها تكاد تكون واحدة من انجح حلقات البرنامج ، اقول ذلك دون تحيز لانه حكم الذين شاهدوه بل وحكم الذين اشتركوا فيه من العلماء والمفكرين ، وقد بلغ من ذلك أن البرنامج تلقى من الرسائل عددا غير عادى ، فى طلب نشر هذه الحلقة ربما تلاها لنفس المتحدث . وكان من الملفت للنظر أن يطلب البعض طبعها على اسطوانات ، بل ولقد تلقى البرنامج فعلا

عرضا من احدى شركات الاسطوانات الكبرى لطبع الحلقة .. واعنى تلك التى اشترك فيها الاستاذ الدكتور المهدى ابن عبود الذى كان سفيرا للمغرب الشقيق فى الولايات المتحدة ، وهو الان يعمل طبيبا فى مدينة سلا بالمغرب .

وقد أحببت أن يكون هذا العدد من كتاب الهلال فرصة لتحقيق تلك الرغبات العزيزة والكريمة معا . مع تسليمى بأن اللقاء مع هذه الحلقة مكتوبة قد لايبلغ نفس مستوى المتعة من مشاهدة ضيفها بالقائه وأسلوب أدائه وعرضه المتميز .

***

وبعد ، فان اختيار هذه الحلقات صادف موضوعات اشترك فيها عدد معين من كبار العلماء والاساتذة ولم يصادف حلقات لغيرهم ، ولم يكن ذلك عن قصد ، أوايثارا لبعضهم على بعض ، فلكل فضل الأسهام الايجابى فى خدمة الثقافة والقضايا الاسلامية عن طريق البرنامج . وان كان فى تلك المصادفة قصور حجب بعض المفكرين عن ان يطلوا بفكرهم مسجلا على قراء كتاب الهلال ، فانها تفرض التزاما جديدا — بأعبائه التى أرجو الله العون عليها — بأن تتكرر هذه المحاولة وتجمع حلقات أخرى فى كتب أخرى، تكون اضافة الى هذا الفضل الذى تصنعه دار الهلال .

معنى آخر جدير بالتقرير هنا ونحن فى مقام التوثيق ، هو أنه اذا كان من المتعذر أن يحتفظ التليفزيون بتسجيلات كثير من البرامج التى يقدمها لمشاهديه — ومنها حلقات برنامج نور على نور التى لا يمكن الاحتفاظ منها بعدد يجاوز أصابع اليدين — فلا شك ان اصدارها ونشرها كتابة ينطوى على بعض العوض .

***

وأرجو أن يكون فى نشر هذا الكتاب استجابة جزئية

لرغبات غالية طالما تلقيناها من الكويت والاردن والسودان وليبيا والجزائر وسورية والعراق والمملكة العــــربية السعودية ،وقطر ،وهي الدول التي عرض البرنامج من خلال محطاتها التليفزيونيه أو شوهد في بعض اقاليمها ، كما أرجو أن يكون في ذلك استجابة لرغبات اخرى في امارات الخليج التي تستمع الى البرنامج عبر اذاعة القاهرة الموجهة فضلا عن رغبات غيرها في بلاد مختلفة من أولئك الــذين تشرف البرنامج بسماعهم عنه دون اســــتماعهم اليه أو مشاهدتهم له .

***

واذ تصدر هذه المجموعة مع احتفال المسلمين في مشارق الارض ومغاربها بمناسبة شهر رمضان المعظم لعام ١٣٩١ من الهجرة ، فانني ادعو الله أن تــكون بداية موفقة ، وأن يرعى الامة الاسلامية في ظلال قيم الاسلام ومبادئه ، وأن يسدد خطــاها على طـــريق الحــق والخير والنصر والازدهار .

احمد فراج

الدكتور احمد الشرباصى

الآيات السبع في سورة الفاتحة

كنت اقرأ فى تفسير المنار للعلامة الراحل الامام محمد رشيد رضا تلميذ الامام محمد عبده، وطالعت تفسير « الفاتحة » . وما ان انتهيت منه حتى أدركت أننى أنفقت ما انفقت من عمرى فى ترديدها وانا لا اعدو ان أكون كالببغاء . فكانت هذه الحلقة من برنامج « نور على نور » التى دعوت اليها فضيلة الدكتور احمد الشرباصى فى محاولة لاخراج من كان مثلى من « الببغاوية » .

احمد فراج

بسم الله الرحمن الرحيم

● « الفاتحة » هي الحزب القرآني الذي يكرره المسلم يوميا في كل ركعة من ركعات الفروض الخمسة وغيرها من الصلوات والمناسبات . وهي سورة قصيرة، كبيرة ، موجزة معجزة ، كلماتها خفيفة على اللسان ، ولكنها راجحة في الميزان ثوابا وفضلا عند الله ، وهي سبع آيات ومن اوائل السور التي نزلت في وقت مبكر من نزول القرآن حتى روى انها أول سورة نزلت كاملة . ومن شأن هذه السورة ومكانتها اننا نجد لها اسماء كثيرة وردت في كتب التفاسير وفي السنة الشريفة ، فهي أولا تسمى سورة «الفاتحة» ، جاءت شاملة وجامعة لمقاصد القرآن الكريم فهي كالبداية لما سيفسره الله من مقاصد كتابه وأغراض تنزيله ، وتسمى سورة« الصلاة» لان الصلاة لاتصح في الاسلام الا اذا قرئت فيها ، وتسمى سورة «الحمد »لانها بدأت بعد البسملة بقول الله : الحمد لله رب العالمين ، وكذلك تسمى سورة «الاساس»لانهاكالاساس الذي يجمع مقاصد القرآن .وتسمى أيضا الوافية والكافية والسبع المثاني . وتسميتها بهذه الاسماء وغيرها تدل على مكانة السورة الخفيفة الثقيلة في وزنها وفي مكانتها عند الله . لعل أهم سبب في أنها تقرأ في الصلاة دون غيرها ما ذكرناه من آنها تجمع في تركيز وايجاز المقاصد

التى فصلها القرآن بعد ذلك فى سوره المختلفة .

● ويقول الدكتور احمد الشرباصى اننا اذا جلسنا الى مائده القرآن سنجد انه يدور فى سوره وآياته على وجه التقريب حول مقاصد يمكن ان نتعرف عليها · المقصد الاول هو التوحيد ، جاء القرآن ليثبت كلمة التوحيد فى قلوب الناس ويجمعهم على هذه الكلمة فتتحقق لهم الوحدة . وفى مضمون التوحيد محاربة الوثنية والاشراك وكل ما خالف عقيدة التوحيد من مذاهب واتجاهات . المقصد الثانى هو ذلك المزج الكريم العجيب بين الوعد والوعيد ، والوعد هو التبشير بالشىء السار من ثواب ونصر . والوعيد هو التحذير والانذار بالعذاب والعقاب سواء كان ذلك فى الدنيا او عند الله فى الاخرة . المقصد الثالث هو العبادة فهو يعلمنا كيف نعبده ونصلى له ونزكى ونحج وغير ذلك من شعائر الاسلام · المقصد الرابع هو بيان الطريق الموصل الى الهداية فى الدنيا والتمتع بنعيم اللهفى الاخرة . المقصد الخامس والاخيرهو انهيقص علينا قصص السابقين على اختلاف الوانهم وانواعهم مابين مؤمنين اهتدوا بهدى الله ففازوا بنعيم الدنيا والاخرة وما بين متمردين على كلمة الله فذاقوا الشقاء فى الدنيا والاخرة ومن ضالين تائهين لم يعرفوا الطريق الى الله.

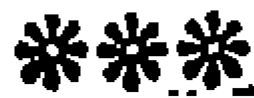
***

كيف تضم سورة الفاتحة هذه المقاصد كلها فى هذه الآيات السبع ؟

● ان التوحيد ومقصده قد اشير اليه فى قول القرآن « الحمد لله رب العالمين » وما دام الله هو المعبود بحق دون سواه ومادام هو الرب المنشىء والموجدوالمهيمن على جميع الخلق ومادامت نفس السورة تقول « اياك

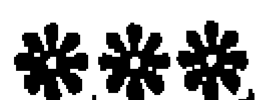
نعبد » فتخص الله بالعبادة ، تفهم أنها اشـــارت الى مقصد التوحيد إشارة موجزة ينبغى أن يلحظها الانسان . ثم يفسر القرآن هذا فيما بعد خلال سوره .

والمقصد الثاني وهو الوعد والوعيد اشـــير اليه في قوله الرحمن الرحيم فهاتان الصفتان تدلان على الرحمه وهى مخفوله الاسباب بالوعد المبشر ،والوعيدجاء كاشارة فى قوله مالك يوم الـدين ، فمن ملك يوم الدين وهـو يوم الحساب والجزاء يكون عادلا فيهما فيقضى لكـل بما يستحقه ، فمن يعمل مثقال ذره خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره . واما العباده فقد اشير اليها فى قوله اياك نعبد . واما بيان طريق الهدايه الكامله ففى قوله أهدنا الصراط المستقيم ، واما قصص الماضين ما بين مهتدين ومتمردين وضـــالين ففى قوله : صراط الدين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .



وننقل الى التفصيل . بسم الله الرحمــــن الرحيم .. اذا جاز لنـــا ان نعبر عن هده البدايه بانها براعـه الاستهلال ــ ولله المثل الاعلى ــ فان فى هذه البـداية اكثر من معنى واشاره . فما معنى بسم الله . يقول بعض المفسرين .. ابتدىء متبركا او مستعينا باسم الله .. وبعضهم يقول أن معناها ان الله تفضل فاقسم لعباده بأن كل ما يقص عليهم من سور القرآن حق لا مريه فيه ، كما يقول بعزة الله ..بحق الله ، وبعضهم يقـول : ان عادة الناس جرت اذا ارادت أن تعطى قرارا أو اتجاها او امرا ، قـوة ومكانة ، نســبته الى قـــوة لها مكانتها كما يقولون .. باسم الشعب ، باسم الامة ، باســـم هذا الجمع الكبير ، باسم الحاكم ، باسم السلطان ، فكان الله تبارك وتعالى بدأ الســـورة بسم الله ليشـعر

من سيستمع الى آيات القرآن فى هذه السـورة وغيرها ان القرآن لم ينزل معنونا باسـم نبى أو رسـول أو حاكم او ذى جاه ، انما نزل معنونا ومتوجا باسـم الله تعالي ، فهو متجرد لوجه الله وهو هاد الى صراط الله ولذلك توج فى بدايته باسم الله عز وجل و كلمه « الله » تشعرنا بتجرد الانسان للايمان بهذا الاله المعبود بحـق الذى ليس له اول وليس له آخر ، الظاهر والباطن، ثم تاتى بعد هذا .. الرحمن الرحيم ، لتذكر جميع ابناء الاسلام بأن دينهم دين تذكر للرحمة وتعبد لله بذكرها ، يردد المؤمن هاتين الصفتين فى كل ركعة ليذكر انه دين رحمة وأمن وهدوء واطمئنان . و كلمه الرحمن من كلمه الرحيم ذهب فيهما المفسرون مذاهب فى فهم معناها فهنـاك من يقول ان كلمه الرحيم تأكيد لكلمة الرحمن وهـذا ما تنزه عنه بلاغة القرآن ودقته واعجازه . هنـاك مـن يقول ان الرحمن هو المنعم بجلائل النعم اى عظيمهـا وكبيرها . والرحيم هو المنعم بدقائق النعم اى بما كانت صغيرة فى الظاهر ولكن لها قيمه فى الباطن والحقيقة . لكن هناك من يفهم هاتين الصفتين على فهم يمكن أن تتقبله نفس الانسان ، فالرحمن معناها الذى يوصل آثار نعمته ورحمته وفضله بالفعل الى عباده ، أما الرحيم فهى كلمه تدل على أن ايصـال هـذه الالـوان من الرحمـة والنعم ليس شيئا عارضا يصدق فى زمان دون زمان .. لانه ناشيء عن صفة دائمة مستمرة لله فالرحمن تدل عـلى انه يفعل الرحمة والرحيم تدل على انه يتصف بهـذه الصـفة !



● الحمد لله رب العالمين .. جاءت كلمة « الحمد » معرفة لان الحمد بجميع أنواعه وألوانه لله هو فى الحقيقة

والواقع لا يستحقه سواه حتى لو وصل للانسان فضل او نعمة اوجميل حسن على أيدى انسان فالواقع والحقيقة أن المستحق للحمد انما هو الله لان هذا الانسان الذى صنع الجميل فى الظاهر ، او وصل النعمة للانسان انما هو سبب يسره الله وسخره ليوصل هذه النعمة . والمؤمن يحمد الله بلسانه واعماله ، وغير الشاكر حاله ودلالته تدل أيضا — وان كره ولم يقر — ان الحمد لله ، لانه سبب ظاهرى ، فموجد الاسباب ومهيىء الامور كلها هو الله سبحانه . لماذا وجب الحمد لله . . لان الله رب العالمين اى انما استحقت ذات الله القدسية هذا الحمد كله دون أن يشاركه فى الحقيقة سواه لانه رب العالمين والرب صفة تدل على معنى الايجاد والانشاء والتربية ، ولاشك ان المربى يحرص على خير من يربيه ويوصل اليه كل ما يستطيع من خير لينعم به، والله تعالى على كل شيء قدير فالله رب العالمين . . أى هو المتفضل عليهم بالايجاد والتربية والتنمية والتقوية والتوجيه لكن الآية قالت : « العالمين » فما معناها . . العالمين جمع عالم ، وقال البعض انه يراد بها عالم الانسان وعالم الحيوان وعالم النبات والله هو المسيطر على كل العوالم يسخرها ويوجدها وينميها ويجعلها صالحة لاداء كل ما يطلب منها . وبعضهم يقول : ان العالمين معناها عالم الملائكة وعالم الانس وعالم الجن ، ولا يبعد هذا عن المعنى الاول فى بعض اجزائه . وهناك من يرى ان العالمين هم الموجودات كلها أى كل الخلائق التى أوجدها الله سواء فى عالم الانسان أو الحيوان او النبات او الجماد ، ولان البحث العلمي يثبت ان هناك تناسقا عجيبا بين ذرات الجمادات ولا يمكن لانسان ان يفعل هذا . وانما هو صنع الله الذى اتقن كل شيء . فالله تعالى مستحق الحمد لانه

الرب .. ورب من ؟ .. انه ليس رب جنس معـــين من الناس وانما رب الخلائق والموجودات ما علمنا وما لانعلم

***

والآية التالية هى : الرحمن الرحيم .. ونلحظ هنا ان هاتين الصفتين تتكرران بعد مجيئهما فى قوله بسم الله الرحمن الرحيم .

ويعلق الدكتور احمــد الشرباصى على هــذا الملحظ فيقول : اننا اذا نظرنا نظرة ســطحية لقال بعضنا ان هذا نوع من التكرار . وليس هذا تكرارا أو تأكيدا كما عبر بعضهم ، وانما ذكر الرحمن الرحيم مرة ثانية لاكثر من حكمة فربما يفهم بعض من لم يتدبر ان الله قداوجد الخلائق كلها ورباها ونماها لمصلحته هو ــ تعالى عن ذلك علوا كبيراً ــ أو لحاجة يحتاج اليها من هذه الخلائق، فأراد الله أن يلفت ابصارنا وبصائرنا الى انه لم يخلق الخلق لذلك وانما لهاتين الصفتين لــكى يكون لهم .. رحمن .. ويكون لهم رحيما على الدوام ، فالله قد ذكر الرحمن الرحيم مرة ثانية لينفى عن ذهن من يتوهم ان كلمة رب العالمين تفيد معنى الاحتياج كما يربى الانسان شيئا فيظهر انه محتاج اليه ولذلك عنى بتربيته . والله غنى عن العالمين وهو القائل : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمون ، ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » .

حكمة ثانية وهى ان كلمة رب العالمين قد يفهم منها كثير من النـــاس انه ما دام هو الرب الموجــد المنشىء والمسيطر اذن له صفات تتصل بمعنى القهروالجبروت، فلا يتأكد فى ذهن السامع أو القارىء معنى هذه الرحمة الشاملة بكونها صفة لله وبكونها تظهر فى صفات عمــل الرحمن الذى يوصل آثار رحمته الى النـــاس فأرادت

السورة ـ والله أعلم بمراده ـ أن تنفى عن بعض الناس أو كثير منهم أن صفة رب العالمين تفيد شيئا من معنى القهر أو الجبروت أو التسلط الذى تبدو فيه القوة ، ولا تظهر بعده الرحمة المتجلية فى كلمتى : الرحمن الرحيم

ولعل مما يمكن أن يفهم أيضا ، والله تعالى أعلم بمقاصد كتابه ، انه يكرر الرحمن والرحيم مع ذكر الرب الذى يفيد معنى المربى ، لكى يتذكر القادرون من الناس ، والذين نالوا حظهم من التربية ، والعلم والثقافة فأصبحوا صالحين لكى يكونوا مربين انهم حينما يقومون بوظيفة التربية ينبغى لهم ـ ان لم يلزمهم ـ ان يتذكروا أن الله وهو الموجد المنشىء المربى لم يستعمل هذه الصفات فى قهر وجبروت بهؤلاء الذين يربيهم وانما أخذهم بأسلوب الرحمة التى تكررت فى السورة فأفادت ان الرحمة تنساب من حمى الله عز وجل لكل مستحق لهذه الرحمة

لماذا استحق الله الحمد ؟

لانه رب العالمين .. وهل يتعارض كونه رب العالمين مع انه الرحمن الرحيم .. هل هذه صفة قهر أو جبروت لا .. الرحمن الرحيم ، واذا كان الله تعالى له الحمد ، وهو رب العالمين وهو الرحمن الرحيم فرحم عباده وهو غنى عنهم وتلطف بهم وهو غير محتاج اليهم ، فاذا جاء بعد هذا قوله : مالك يوم الدين ، كان هذا تذكيرا بأن من جحد رحمة الله ، وتنكر لنعمة الله وانكر وحدانية الله وتمرد على ربوبيته ، ينبغى له أن يتذكر ان الله تعالى مالك من ناحية الظاهر والباطن ومن ناحية الحقيقة والشكل .. يوما لابد من لقائه ، لابد ان يقف الناس جميعا فيه أمام يديه ، فقال الله مالك يوم الدين . والمالك للشىء هو المسيطر عليه المتمكن منه المتصرف فيه المدبر لشئونه ، ويوم الدين هو يوم القيامة وانما سمى

يوم القيامة يوم الدين لان كلمة الجزاء تفيد معنى الحساب والجزاء ، ولا بد من يوم كما اخبر الحق جل جلاله تعتدل فيه موازين الحق والعدل ، فاذا كانت الدنيا لا تستطيع فى بعض نواحيها ان تضبط طاقة البشر فيها كل جريمه او أن تثيب كل محسن فان هناك يوما افرده الله بالذكر واشار اليه اكثر من مرة وهو يوم الحساب الالهى الشامل الذى لايظلم احد فيه مثقال ذرة ويحاسب كل بما عمل كما قال القرآن : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك احدا » وقد يقال ان آية « مالك يوم الدين » قد توجد شيئا من الخوف عند العاصى أو المذنب ، فما شأن المؤمن حتى يسمع هذه الآية .. فنذكر بما سبق من تأكيد لمعنى الرحمن الرحيم ، فالمؤمن المطيع لله الحق ، العابد له يطمئن الى أن الله اعدل العادلين ، واما غيره فسيلقى جزاءه على ما قدمت يداه من ذنوب أو آثام .



انتقلت السورة بعد هذا انتقالا قد يبدو لنا فى الظاهر مفاجئا ، انتقلت من صيغة الاخبار الى صيغة التوجه بالخطاب الى الله ، نناجيه وندعوه .. اياك نعبد واياك نستعين .. اياك اى أنت وحدك والعبادة معناها الخضوع الكامل الذى بلغ النهاية والناشىء عن شعور القلب بأن المعبود أهل للعبادة دون سواه .. اى اياك نخصك بالعبادة دون سواك واياك نستعين نطلب منك الاعانة ، والاستعانة هى التوجه والرجاء فى طلب المساعدة والمعونة من الله .

لقد بدات الآية اولا فقالت : اياك نعبد والعبادة وان

تمثلت أولا فى فرائض كالصلاة والصوم بصفة خاصة فانها تتمثل بالمعنى العام فى كل عمل نافع يقدمه الانسان بنية طيبة ، فلا بد أن يقدم الانسان العبادة أولا بمعناها الخاص والعام ثم يجد له وجها لكى يطلب من الله ان يعينه فهو يبذل جهده وطاقته ويعمل كل ما فى وسعه وفى أثناء ذلك وفى أعقابه يقول : اللهم أعنى واجعل لى عونا على ما لم استطع وانت تستطيع لانك على كل شيء قدير ..

يقول علماء البيان العربى أن تقديم كلمة : اياك ، على .. نعبد تفيد معنى التخصيص لله فى العبادة ، كان يمكن فى أفهامنا أن تكون الآية نعبدك ونستعينك ،لكن الله أراد أن يعلمنا انه لاينبغى أن نعبد سواه ولا ينبغى أن نستعين فى الحقيقة والواقع الا به ..فقد قدم كلمة اياك ليفيد ان العبادة والاستعانة مقصورتان على الله .. ولا يفهم أحد ان الاستعانة بالله فى كل حال تتعارض مع ما دعى اليه القرآن من التعاون بين الناس لانه قال لنا : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » لان الاخذ بطريق التعاون انما هو جزء من مفهوم الاستعانة بالله .. فأنا عندما أتعاون مخلصا صادقا مع أبناء وطنى فيما هو خير لنفسى ولأمتى أكون قد نفذت مبدأ من مبادىء الحق أرشدنى اليه الله سبحانه .. هذا الارشاد جزء من الاعانة التى وجهنى الله اليها فيجب أن أستعين بمن أقدر وفى الوقت نفسه أستشعر معنى طلب ورجاء الاستعانة من الله فى كل حال وليس هناك تعارض بين هذا وذاك .

هذا على أساس ان الانسان وهو يذكر بين يدى الله انه يعبده ولا يعبد أحدا سواه ، فهو يطلب منه العون حتى فى أداء هذه العبادة لانه اذا كان قد أتيح له قدر

من الاسباب التى أعطاها الله له ، فلا شك انه يظل ــ حتى مع أداء العبادة ــ فى حاجة الى تأييد وعون من الله . ولعل هذا يفسر معنى الحديث أو الدعاء الذى كان الرســول عليه الصــلاة والسلام يتوجه به فى أعقــاب الصلاة : اللهم اعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك .

ويقول الدكتور الشرباصى : الواقع أنه من أهم الوجوه التى نحتاج فيها دائما وأبدا الى الاستعانة بالله هو أن تكون عبادتنا خالصة له كما أراد الله ، وهذا الاخلاص فى العبــادة لله يتضــمن الاخــلاص والصــدق والامانة والاستقامة والمداومة والاحسان والاتقان ، فأنا فى عبادتى سواء كانت عبادة بالمعنى الخاص او العام ينبغى دائما مع بذل كل ما أستطيع من جهد ومع التعاون مع اخوتى فى الله والوطن أن اتذكر رجاء المعونة من الله عز وجل حتى تكون عبادتى خالصة لوجه الله سبحانه وتعالى .

***

اهدنا الصراط المستقيم .. كأن الانسان هنا يشعر انه اذا كان محتاجا الى الاستعانة فهو يحتاج كذلك الى ارشاده الى الطرق التى تكون أهلا لــكى يطلب من الله الاستعانة بها وهو الاهتداء الى الصراط المستقيم لانى لا استطيع أن أعبد الله الا اذا أرشدنى الى الطريق الذى أعبده به .

والهداية هى الدلالة بلطف على ما يوصل الى المطلوب والمرتجى للانسان ، وكأن هذا اشــارة الى أن الله حين يهدينا الى الصراط المستقيم فانه يهدينا بأسلوب الرب الحكيم الرحمن الرحيم . والهداية هنا أنــواع : هناك هداية فطرية طبيعية كهداية الطفل الى الصراخ عنــدما يجوع وكاهتداء الرضيع الى ثدى امه ، وهذه هــداية يشترك فيها اغلب الاحياء ، وهناك هــداية حسية ،

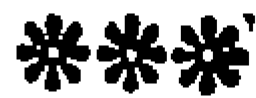
يستخدم فيها الانسان حواسه كالسمع والبصر واللمس وهذه الهداية تجعله متمكنا من ادراك طائفة من الاشياء وخصوصا الحسية .. ثم هناك هداية العقل، فالعقل الذى وهبه الله للانسان يجعله يدرك كثيرا من الاشياء المعنوية ويستطيع ان يميز بين الخير والشر وبين الحق والباطل، ولكن هداية العقل لا تمنع الانسان من الزيغ والانحراف رغم تمييزه بين الصواب والخطأ والخير والشر . وتلك الانواع الثلاثة من الهداية لا تكفى للانسان فى هذه الحياة فقد يكون ادراك الفطرة ساذجا وبسيطا وقد تخدع الحواس ، والعقل مهما كان قويا لا يستطيع أن ينفرد بالتخطيط الكامل الشامل للانسان فى دنياه واخراه ..

اذن نحن محتاجون بعد هذه الهدايات الثلاث الى هداية أعم واشمل واكمل ، وهى هداية الله . ولذلك قال القرآن اهدنا الصراط المستقيم ، الطريق المعتدل الذى لا عوج فيه ولا انحراف ولا يستطيع أحد أن يرشدنا الى هذا الصراط الموصل الى أقرب طريق وأقصرها واضمنها الا من كانت منه الهداية كلها وهو الله سبحانه وتعالى .

***

بقيت آية صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .. قد يسبق الى الذهن ان أى صراط يستطيع أن يهتدى اليه الانسان ويعقل ويفهم انه مستقيم ، يصبح عنده مستقيما ، فأراد القرآن أن يوضح لنا المراد بقوله صراط الذين أنعمت عليهم .. فالصراط اذن صراط الله الذى اتبعه من أنعم الله عليهم فى الماضى ، ولعل هذا تذكير بأن اتباع هذا الصراط الذى يهدى اليه الله ليس شيئا مستحيلا أو معجزا أو متعبا فقديما سبق المسلمين أناس اهتدوا بهدى الله فأنعم عليهم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، ولذلك أعاد الله

كلمة صراط ليفهمنا أن الصراط المقصود هو الذى اتبعه من انعم عليهم فى الماضى ، ثم هذا تذكرة أيضا بأن رسالة القرآن وان كانت الرسالة الخاتمة الجامعة الصالحة لكل زمان ومكان لا تتعارض مع ما أوصى الله الى انبيائه ورسله من قبل من مبادىء الحق والخير والعدل بل هى تتمة لها ، فالدين الالهى واحد قائم على اسلام الانسان نفسه وحسه لربه ، ولذلك لا يجوز لنا ان نقول : لماذا ارشدنا الله وبصرنا بالذين انعم الله عليهم من قبل مع ان القرآن فيه الكفاية ، انما هذا تذكير بوحدة الدين الالهى الذى يجمع كل المؤمنين منذ آدم الى أن يرث الله الارض ومن عليها تحت ظل الله ولواء دعوة الله والقرآن .



يقول الدكتور الشرباصى من هم أولئك الذين أنعم الله عليهم ، انما هم الذين أستجابوا لله وعرفوا هدايته واتبعوا صراطه فكانوا مسلمين له مؤمنين به خاضعين خضوع العبادة له وحده .

و « غير المغضوب عليهم » تشير الى الذين فعلوا ما استوجب غضب الله وعذابه ونقمته ، الذين عرفوا الحق الالهى ثم تنكروا له وخرجوا عليه وتمردوا فى وجهه ، يعرف الحقيقة الالهية ولكنه يعاند ويكابر كما كان يفعل كثير من المشركين فى عهد الرسول وكما فعل قبل ذلك اناس تمردوا على دعوة الله وحرفوا كتب الله وتنكروا للمبادىء التى جاء بها الانبياء والرسل . اما كلمة الضالين فالضلال يفيد معنى الحيرة وعدم الاهتداء الى الطريق المستقيم وهذا الضلال اما ان يكون لان الانسان لم تبلغه الدعوة ــ وهذا نوع من الضالين ــ واما أن تكون الدعوة قد وصلت اليه ولكنه لم يكلف خاطره أن يبحث فيها ويتبين صوابها وصدقها ، هذا أيضا صنف من

الضالين ، واما أن يكون قد آمن بالدعوة دون أن يقتنع بها متابعة وتقليدا .. وهذا ايضا نوع من الضلال وان كان ضرره أخف من سابقيه ، وهناك أيضا من يضلون اى انهم لا يكلفون انفسهم استمرار البحث فيصلوا الى الحقيقة .

***

والمؤمنون الذين يرددون الحزب الالهى وهى فاتحة الكتاب وأم الكتاب ، يسألون الله تعالى أن يهديهم الصراط المستقيم .. صراط الذين أنعم عليهم باهتدائهم وايمانهم وأن يجنبهم طريق المغضوب عليهم المتمردين ، وحتى أيضا طريق التائهين الحائرين ، لان الانسان لو احتار فى هذه الحياة ، لما استطاع أن ينعم بهداية الله ولعل هذا يذكرنا بقول الله لرسوله : « ووجدك ضالا فهدى » أى وجدك باحثا عن الحق فهداك اليه واصبح قلبك ثابتا ومؤمنا به » .

د . عبد العـــزيز كامل

الاســـتاذ البهى الخـولى

أنوار الرسالة الاسلامية

جولة سريعة فى حياة النبى عليه الصلاة والسلام تمثلت فيها حياة الانبياء وتمثـل فيها الخير كله . فكيف يصف هـــذا النبى الكريم نفســـه ، انه يقول : « مثلى ومثل الانبياء من قبلى ، كرجـل بنى بيتا فجمله وحسنه ، الا موضع لبنة (حجر فى زاوية من زواياه) . فكان الناس يطوفون حول البيت ، ويعجبون ويقولون : ما أجمله ، ما احسنه ، هلا وضعت هذه اللبنة . فانا اللبنة وأنا خاتم المرسلين »

فى حلقة من برنامج « نور على نور » كان الحديث عن حجرة الرسول التى عاش فيها ودفن بها جسده الشريف طولها كعرضها لا يزيد عن ستة أمتار ولـكنها تمثل طابع البساطة التى كان يحيا فيها عليه الصلاة والسلام وعنها يقول الاستاذ البهى الخولى : انها حجرة السيدة عائشة رضى الله عنها ، وهى فى الوقت نفسه مسكنه ..وهى فى بساطتها تمثل حالة الزهادة والتسامى التى كان يحياها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت مبنية من الجريد والطين ، واكسية من الشعر تشد هذا الجريد بعضه الى بعض ليؤدى وظيفة الحجرة ، أما الارتفاع فيمثله قول الحسن البصرى : لقد رأيت حجرات الرسول صلى الله عليه وسلم وأنا غلام مراهق كنت أمد يدى فالمس بها السقف .

هذه الحجرة المتواضعة كان لها من المجد والشرف ما يزرى بأفخم القصور ، فقد كان رسول الوحى الالهى جبريل يهبط عليها بأقدس رسالة وبتحيات ربنا سبحانه بكرة وعشيا لرسوله ، لم تكن قيمة الحجرة فى انها مبنية من الجريد والطين ، وانما فى انها بنيت كذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستطيع

ان يتخذ لنفسه أفخم القصور ، ولكنه صلى الله عليه وسلم كانت همته مشغولة ببناء اعلى ، وفى هذا يقول ابو امامة بعد ان هدمت تلك الحجرات : ليتهم تركوها حتى يرى الناس ما رضيه الله لرسوله ، وهو الذى كانت بيده اموال الجزيرة العربية كلها . وكان فراشه فيها يجاريها فى البساطة ، كان تارة حصيرا يؤثر فى جلده ، وتارة يكون كساء من الشعر ، ويروى انهم طووا له الكساء طيتين لينام عليه ، فاذا به لا يقوم ليلته تلك للتهجد ، فلما اكتشف انهم طووه له قال : ان لين الكساء منعنى التهجد والقيام ، وحذرهم أن يعودوا لمثل ذلك .

وكان هذا الفراش أيضا أحيانا يكون جلد حيوان محشو بالليف ، وتروى السيدة عائشة رضى الله عنها ان سيدة من الانصار رات هذا الفراش يوما فلم ترضه للرسول ، فخرجت ثم عادت بفراش محشو بالصوف ، فلما رآه الرسول قال : ما هذا يا عائشة ؟ رديه ، فوالله لو أردت لاجرى الله لى جبال الذهب والفضة .

فى طعامه ، كان طعام من عافت نفسه لذة الحياة الدنيا،لان قرة عينه كانت فى الصلاة ومعرفة الله .. كانت هى جنته وهى زاد روحه ، فلا جرم اذا استوت فى نظره مطاعم الدنيا حتى ليقول فى اللحم : سيد الطعام اللحم . ويقول فى الخل : نعم الادام الخل انه كان ادام النبيين من قبلى .

وهو هنا يزهد زهد الواجد لا زهد الفاقد ،ولقد كان له منهج كبير فى التسامى تدلنا عليه السيدة عائشة .. قلت له يا رسول الله بابى انت وامى ، هلا ترفهت بشىء مما معك ؟ فقال : يا عائشة اخوانى من النبيين صبروا على ما هو اشد واشق مما انا فيه فصبروا وظفروا من الله باعلى الدرجات واخشى ان ترفهت ان يقصر بى الترف

من منازلهم « درجاتهم » .

هذه المعانى لا نظن معها ان صاحب الحجرة عليه الصلاة والسلام كان فى معزل من المجتمع أو فى جانب التراخى ، بل ان التواضع فى حجرته هذه كان يأخذ مظاهر ايجابية قوية فى الحياة ، فلا ننسى صورته صلى الله عليه وسلم ، صورته المهيبة وقد استعد لغزوة احد .. دخـــل حجرته ولبس لامة الحرب « لباس الحرب » ، درعين وخـوذة على رأسه ، لبس المغفر وهو نسيج من الزرد يلقى على الوجه، واتخذ درقته وسيفه ثم شد وسطه بمنطقة من الجلد ،خرج من حجرته غارقا فى الحديد لا يظهر منـه الا عينـاه الشريفتان فلما رأوه اقبلوا عليه يقولون : يا رسول الله قد استكرهناك على الخروج فاصنع ما بدا لك ، فقال كلمته الرائعة : « لا ينبغى لنبى اذا لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » .

انـنا اذ نعيش معركة ضارية بيننا وبين عدونا فان واجب نسبتنا الى رسول الله صـلى الله عليه وسلم ، وواجب المعركة وحقها علينا يدعونا الى أن نستعد بما استعد به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن نلقى عدونا بمثل الزهادة والقوة الروحيـة التى لقيـه بها رسول الله ونحن نذكر قول الله تبـارك وتعالى : « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

● وننتقل من الحجرة الشريفة الى رحبات مسجد النبوة لنتعرف على المجموعة المؤمنة من صحابة الرسول التى كانت تتلقى منه وتعيش فى نور دعوته وتقبس من هديه وتتربى على تعاليم رسالته ، وينتقل الحديث الى الدكتور عبد العزيز كامل وزير الاوقاف وشئون الازهر ، فيقول :

لو تصورنا أنفسنا نعيش على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ودخلنا مسجده ورأينـا الصـحابة الذين كانوا

يعيشون معه يصلون ويصومون ويتعبدون ويجاهدون ، وحاولنا أن نوزعهم بحسب البلاد التي اتوا منها ـ وهذا اول توزيع سنقوم به ـ لأنه من أهم النواحي التي يتميز بها الرعيل الاول الذيعاش مع النبيعلية الصلاة والسلام عن اي مجموعة عاشت مع أي نبي سبقه ، فالانبياء السابقون كانوا يرسلون الى قومهم ، وأتباعهم كانوا من اهل البلاد التي يعيشون فيها ، أما هذه المجموعة التي اختارها الله تبارك وتعالى لصحبة نبيه فكانت بطبيعتها تمثل الانسانية كلها .

نأتي اولا الى قريش البطاح وهم ذروة قريش فنجد « أبا بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير » رضي الله عنهم جميعا ، وهذه مجموعة .

هل كان هناك اناس من قبائل الساحل على البحر الاحمر يعيشون معه أيضا في المدينة ؟

نجد على سبيل المثال لا الحصر ، أبا ذر الغفاري ، ونحن نعلم أن قبيلة غفار كانت تعيش في تهامة على ساحل البحر الاحمر . وكانت اليمن ايضا ممثلة ، فأبو هريرة من « دوس » أي من اليمن ، وأبو موسى الاشعري ومعاذ بن جبل أيضا جاءوا من منطقة اليمن .

بعد ذلك ننظر الى منطقة الخليج العربي والبحرين وعمان ، فسنجد منذر بن عائذ ، ومنقذ بن حيان من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام وهم من قبيلة عبد القيس من البحرين .

هل هناك من جاء من أطراف بلاد الشام ؟ نجد أيضا الصحابي فروة رضي الله عنه جاء من عمان من بلاد الشام فكان الاجزاء : الشمالي والجنوبي والشرقي والغربي والاوسط ، كل هذه الاجزاء كانت ممثلة في مجتمع النبي عليه الصلاة والسلام ، هذا على المستوى العربي .

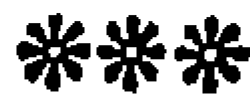
ثم نحاول أن نخرج من هـذا المستوى العربى الى المستوى العالمى لنرى الانسانية كلها ممثلة كما مثلت معه القبائل العربية ، فنجد من الحبشة بلال بن رباح فكأن قارة افريقيا كانت ممثلة ، ونأتى لصهيب فنجد انه اما كان روميا أو عاش فى بلاد الروم فمعنى ذلك ان الجزء الشمالى ايضا كان ممثلا .

فكأن الاجزاء الافريقية والاوربيـة والاسـيوية ، كل هذا العالم الـكبير كان ممثلا فى المجتمع النبوى الـكريم ونحن لا نستطيع ان نسمى هذه مدرسة نبوية ، فانها كانت جامعة نبوية شريفة تتمثل فيها كل الاقطار والاجزاء

ولكن هل توقف النبى صلى الله عليه وسلم عند حـد التلاميذ الذين يقبلون على هذه الجامعة ، أم أنه أرسـل رسله ووفوده لينشروا هذا الدين وليدعوا الناس الى الاسلام ؟ نجد بعد صلح الحديبية انه قد أرسل رسله ومندوبيه يحملون رسائل الى كبار المسئولين فى العالم فى ذلك الوقت ، أرسل الى هرقل الروم دحيـة الكلبى ، وأرسل عبد الله بن حذافة السهمى الى ملك الفرس ، وحاطب بن أبى بلتعه الى مصر ، وعمـرو بن أميـة الى النجاشى فى الحبشة ، وشـجاع بن وهب الى الحـارث الغسانى ، وأرسل الى اليمامة سـليط بن عمرو ، فكان باب هذه الجامعة مفتوحا للاقبال عليها والناس يدخلون فى دين الله أفواجا .

هذا من ناحية عالمية هذه الجامعة المحمدية ، فهل كان يقبل التلاميذ فيها من مستوى اجتماعى معين ؟ هل كانت للأغنياء وحدهم أو للفقراء وحدهم ؟ أم كانت للانسـان من حيث هو انسان كرمه الله بانسانيته ، لقـد كانت مفتوحة للانسانية كلها : اغنيائها وفقرائها ، أشرافهـا وعبيدها ، كلهم كانوا ممثلين فيها . ولنأخذ أمثلة على ذلك:

من الاشراف السادة عندنا مرة أخرى ابو بكر وعمر وعثمان من قريش ، من ولاة عمان وحكامها عبيد وجعفر، من الضعفاء بلال وياسر وصهيب وخباب ، من النساء المستضعفات سمية ولبينة وزنيرة ، ومن النساء اللاتى انحدرن من بيوت كريمة امهات المؤمنين وكثيرات ممن آمن بالنبى .



ثم نجد ان المواهب قد تفتحت فى هذه الجامعة ولم تكن محصورة فى نوع خاص من العمل فى المجتمع الاسلامى وانما شملت كل جوانب الحياة الاسلامية ، نجد منهم من ذهبت موهبته الى مرتبة القيادة الشاملة فى المجتمع مثل ابى بكر وعمر وعثمان وعلى ، ونجد مجموعة برزت مواهبها فى القيادة العسكرية مثل خالد بن الوليد ، وأبو عبيدة بن الجراح ، ونجد مجموعة برزت كحكام اقاليم يهتمون بالتعمير وباقامة العدل بين الناس مثل خالد بن سعيد فى صنعاء والمهاجر ابن أمية فى كنده والعلاء بن الحضرمى فى البحرين ، ونجد مجموعة من العلماء الربانيين الذين يجمعون بين العلم وبين عمق التقوى كما نجد فى عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، ونجد المتخصصين فى العلم مثل عبد الله بن عباس وعبد الله ابن مسعود وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر ، ونجد عبقريات النساء مثل عائشة وأم سلمة فى العلم والتعليم . ثم نجد نماذج فى الزهد والاقبال على الله والبعد عن متاع الدنيا ، كما نجد فى أبى ذر الغفارى الذى لم تظل السماء ولم تقل الارض مثله فى صدق الكلمة وقول الحق ، لا يدخر طعام يومه لغده .

فهى اذن كانت جامعة برزت فيها كل هذه المواهب وتفتحت فيها كل هذه النواحى من القيادات فى مجالات

الخلق والحكم والنواحى العسكرية وغيرها ، وبهذا أعطت الانسانية صوره من صور النبوغ الذى يصنعه العلم والايمان العميق لم تتوفر الا فى جامعة النبى عليه الصلاة والسلام وبين اصحابه .

***

● ماذا تلقى المنتمون الى هذه الجامعة النبوية من الدروس ؟ وما هى أهم الاسس التى اقام عليها الرسول صرح هذا البناء ؟ لقد كانت هناك ركائز اساسية تتمثل فى الايمان بالله الواحد ، وعقيدة البعث والجزاء ، والعمل الصالح ، وارتبطت هذه الاسس وتفاعلت فى أعماق الفرد المسلم كما رباه الرسول ، وأقام عليهــا صرح المجتمع والدولة فكيف كان السبيل الى تحقيق ذلك ؟

يقول الاستاذ البهى الخولى : ان الركائز التى اقام عليها الرسول عليه الصلاة والسلام مجتمعه المثالى كثيرة جدا ، ويجب ان يكون معلوما أن أهمهــا هو صناعة الفرد وتربيته على أساس عقيدة عبادة الله تعالى وحده وتوحيده ، والله تعالى يقول : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » فكان المسلم يعلم أول ما يعلم ان حكمة وجوده تتلخص فى ان يعبد الله تبارك وتعالى وحده ، والعبادة ليست مُجرد صيام وصـلاة وزكاة وحج ، وانما هى أبعد من ذلك ، انها تعنى التحرر التام من كل سلطان ظاهر وباطن الا سلطان الله تبارك وتعالى ، سلطان الحق والخير والعدل ، فكل سلطــان غير هذا ، يطلب الاسلام من الفرد ان يحرر نفســه منه لتخلص عبادته لله ، واشد هذه العوامل تأثيرا عـلى الفرد ويجب ان يتحرر منها هى الاهواء الباطنــة ، فحقيقة الانسان ليست اسمه ولا هيكله الظاهر أو قالب اللحم والدم وانما هى ملكات القلب التى بهـا

يتصل بالله تبارك وتعالى فإذا استولت أهواء هذه الحياة الدنيا على ملكات القلب ابادتها وصيرته شخصا لا قيمة له ، والله تعالى يقول : « أفرأيت من اتخذ الهه هواه واضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة » أى مسخت كل ملكات القلب التي بها يكون الانسان انسانا . كان عليه الصلاة والسلام يبنى الفرد على أساس التحرر الظاهر والباطن ، وبهذا التحرر وبهذا البناء استطاع عليه الصلاة والسلام ان يربى أمثال الغر الميامين من أمثال ابى بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة وأولئك الضعفاء من أمثال بلال وصهيب وغيرهم ، وكل هؤلاء كانوا اخوة بهذه الوحدة الايمانية ، ثم التفت الى المجتمع وكان من أهم ما فيه ، تحرير المرأة ، فانه قرر انسانيتها التى ظلت قرونا مضيعة وقرر اهميتها الاجتماعية واهميتها الاقتصادية بما لم تبلغه الحضارة الغربية الى اليوم ..

فالمرأة فى اوربا تفقد اهليتها على التصرف بالزواج فلا تكون لها ذمة مالية مستقلة عن زوجها ، ولابد من موافقة الزوج على تصرفاتها المالية ، ومنذ أربعة عشر قرنا لم يكن هناك أى تعقيب على تصرف اقتصادى للمرأة المسلمة .

من ذلك أيضا عناية الاسلام والرسول عليه الصلاة والسلام فى اقامة المجتمع بتنظيم القاعدة الاقتصادية على اساس نستطيع ان نسميه بالتوازن ، فلا يكون الغنى فى جانب والفقر فى جانب آخر . فالمعروف ان الصحابة المهاجرين هاجروا من مكة وتركوا فيها اموالهم وممتلكاتهم ودورهم ، وكانت الاموال والدور فى المدينة بأيدى الانصار .. فتقدم الانصار فى سخاء وكرم ومودة وعرضوا على المهاجرين ان يقاسموهم أموالهم ، فامتدروا

شاكرين وكان الواحد منهم يطلب من أخيه الانصارى ان يدله على السوق ليعمل ويتكسب ، وظل الفارق بارزا بين المستويين ، صحيح ان الفقر لم يكن هنا نتيجة ظلم من أهل المدينة وصحيح ان الانصار قدموا بأخوة وأريحيه كل ما لديهم ولكن الرسول كان ينظر الى ذلك الوضع بمحض فطرته وحسه الاجتماعى المصلح ، ان سنن المجتمعات وعمارتها لا يمكن أبدا ان تستوى او تصلح على مقتضى وجود الغنى فى ناحية والفقر فى ناحية ، فكان عليه الصلاة والسلام قلقا لذلك اشد القلق حتى واتته الفرصة حين غنم المسلمون فيئا عظيما من يهود بنى النضير وذهب الصحابة من المهاجرين والانصار لكى يوزع عليهم الفيء كالمعتاد ، ولكن الرسول كان يفكر تفكيرا آخر فعقد شبه مؤتمر بين الانصار والمهاجرين ، انهم يعرفون الموقف ويفهم الانصار بالذات موقف المهاجرين فيقول : « ان شئتم أخذت أموالكم وقسمتها بينكم وبينهم على السوية ، ثم قسمت الفيء الجديد بينكم وبينهم على السوية ، وان شئتم جعلت لكم أموالكم فى أيديكم خاصة ، وجعلت الفيء الجديد لاخوانكم المهاجرين »

فماذا قال الانصار ؟

ولننظر الى الخلق الاسلامى الرائع الفريد .

قالوا له : لا يا رسول الله ، بل تجعل الفيء الجديد لاخواننا المهاجرين ، ثم تقسم لهم من أموالنا ما تشاء .

فما كان من الوحى الا ان سجل هذا الموقف الرائع الى يوم القيامة : « والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم ، يحبون من هاجر اليهم ، ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »

تلك جوانب سريعة نحن فى حاجة الى التأسى بها في علاقتنا باخواننا المهجرين ، ولقد شهدنا بعد النكسة صورا رائعة من صور الايثار والتكريم لاخواننا من أهالى مدن القناة ‥ ولكن يبقى المثل الاعلى قائما نستشرف الوصول اليه والسعى الى تحقيق المزيد نحوه .

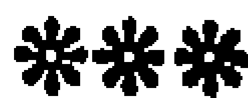
***

● أحمد فراج: كان محمدعليه الصلاة والسلام من ناحية اخرى خاتم الانبياء والمرسلين وكانت رسالته مكملة لرسالات السماء ومهيمنة عليها ، فكيف نجد فيه خصائص النبوات وكيف تجمعت فى شخصه مزايا النبوات ؟

يستهل الدكتور عبد العزيز كامل حديثه حول هذا المعنى فيحرص أولا على نسبة الفضل فيما يقول الى عالم جليل هو السيد سليمان الندوى وكان أكبر علماء الاسلام فى شبه القارة الهندية وتتلمذ على يديه عدد كبير من علمائها فى الوقت الحاضر ، ولقد أجرى السيد سليمان الندوى نوعا من الدراسة والمقارنة بين الرسالة المحمدية وبين الرسالات السابقة ، على أصحابها جميعا وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، فذكر ان الرسالة النبوية الكريمة انما تجمع هذه الرسالات جميعا ، وقد اعطى على ذلك نماذج تكاد أن توضع فى جداول .

من ذلك مثلا قوله ، حينما ننظر الى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وكل ما مر بها وهى حياة معروفة بكثير من الدقة والتفصيل الذى لا نجد له نظيرا ، ولم تعتمد على مجرد الاقوال فقط وانما اعتمدت اعتمادا رئيسيا على رصد أفعاله كلها صغيرها وكبيرها يقول : اذا ما نظرنا الى الهجرة على سبيل المثال نجد ان موسى خرج من مصر الى مدين والنبى عليه الصلاة والسلام قد خرج

من مكة الى المدينة ، واذا ما كانت لموسى مناجاة لربه فلقد كان النبي يعتكف فى غار حراء ، واذا ما كان ادريس قد رفعه الله مكانا عليا ، فان نبينا قد أكرمه الله بالاسراء والمعراج ، واذا ما كان عيسى عليه السلام قد اكرمه الله بأن ألقى عظته الشهيرة المعروفة المسماة بعظة الجبل على جبل الزيتون ، فان نبينا قد القى عظته أيضا على جبل الصفا فى أول الاسلام فقال لقريش : « أيها الناس ان الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما كنتم تعملون ، وانها لجنة أبدا أو نار أبدا ، وانكم لاول من انذر بين يدى عذاب شديد » ويدعوهم فيقول « انى رسول الله اليكم جميعا » واذا كان الانبياء السابقون كموسى مثلا قاتل المآبيين والعموريين والاموريين فلقد قاتل النبى مشركى بلاد العرب ، واذا ما كان عيسى يدعو لقومه بالهداية ، فان محمدا كان يقول : « اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون ، واذا ما كان داود قد عرف بمزاميره وبتلاوته فان النبى يتحدث عنه ربه فيقول : « أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا »



واذا ما عرف سليمان بجنده وبقوته فلقد دخل النبى مكة فى جيش كثيف قوى ، واذا ما كان يوسف قد صبر فى سجنه فان محمدا صبر فى شعب بنى هاشم على المقاطعة والبلاء والفقر والاقلال ، واذا ما كانت لموسى احكامه فالقرآن له احكامه ، واذا ما كانت لعيسى أخلاقياته فللاسلام أخلاقياته ، واذا ما كانت لداود مناجاته فلنبينا مناجاته ، ثم أخذ السيد سليمان الندوى يذكر

كل تفاصيل حياة الانبياء ويذكر ان حياة نبينا قد جمعت كل هذه الحيوات فى حياة واحدة اراد الله أن تكون البحر الذى تنصب فيه كل هذه النبوات لتكون خاتمة النبوات

ثم يبين توجيهاته الى الامة الاسلامية ، فيقول :

وانت ايها المسلم اذا كنت غنيا فاذكر نبيك حينما كان تاجرا صادقا امينا يقول الحق ويفعل الحق .

واذا ما كنت فقيرا فتذكر نبيك فى شعب بنى هاشم يصبر ثم يعمل حتى يفتح عليه .

واذا ما كنت حاكما فتذكر الرســـول فى اعماله وفى ادارته لمجتمع المسلمين فى المدينة .

واذا ما كنت رعية مغلوبا على أمرك فتذكره حين كان فى مكة يقول الحق ويفعله ويجاهد حتى نصره الله على اعدائه .

واذا ما كنت فاتحا غالبا فتذكر دخوله مكة على رأس جيشه ، ورأسه الشريف ــ من تواضعه ــ يكاد أن يمس ظهر دابته ، وفى ذلك اليوم يوم الفتح الاكبر يأكل كسرا يابسات معها خل ويقول : « نعم الادام الخل يا ام هانىء »

واذا ما أصبت بهزيمة فتذكر رسولك يوم اصيب وأصيب اصحابه فى غزوة أحد ، وهو واقف ومن حوله مصـــارع الشهداء والضحايا .

واذا ما كنت معلما فتذكر رسولك وحكمه على أصحابه وأدبه الكريم فى تعليم الناس .

واذا ما كنت تلميذا فتذكر موقف الخشوع لرسول الله وهو يتلقى القرآن الكريم الذى يتنزل عليه من عند الله تبارك وتعالى .

واذا كنت واعظا فتذكر رسولك على أعواد المنابر وهو يدعو الناس الى الخير والهدى والنور .

واذا ما نصرك الله بعد هزيمة فتذكر نصر الرسول بعد الهزيمة وكيف فتح الله عليه بعد هذا فدك خيبر وتيماء

ووادى القرى ومكة وحنين والطائف ٠

واذا ما كنت تنظم أمر مال مجتمعك فتذكر كيف تصرف فى اموال بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة وخيبر٠

واذا ما كنت يتيما فتذكر ان رسولك قد عاش يتيما وقد رباه الله تبارك وتعالى بالحرمان فأصبح بعد هـذا أبا لكل يتيم وأبا لكل فقير فى المجتمع ٠

واذآ كنت شابا فتذكر شباب رسولك وطهره ونقاءه ٠

واذا كنت زوجا فتذكر حسن معاملته لاهله ولازواجه ٠

واذا كنت أبا فاذكر كيف ربى فاطمة الزهراء على الخلق الكريم فربت بعد هذا الحسن والحسين سيدى شباب أهل الجنة ، وكيف استطاع المسلمون ان يستفيدوا من هذه المعالم الكريمة فى السيرة العطرة ٠

الدكتور احمد كمال ابو المجد

الإسلام : دستوراً

كان حديث الرأى العـــام حول الدستور الجديد وحول عدد من الموضوعات والقضايا التى تتصل به اتصالا وثيقـــا وفى مقدمتها قضايا الحرية ، والمساواة ، وسيادةالقانون ·
وأراد برنامج نور على نور أن يعـرض رأى الاسلام وتصوره لهذه الاصول ، فكثير مـن الناس يبحثون ويدرسون وينقبون ويجـررن وراء النظريات فى الشرق والغرب فى محاولة للتعرف على أرقى ما وصل اليه هؤلاء وهؤلاء فى النظر الى هــذه القضايا ، ولكنهم مع الاسف ـ والمثقفون منهم على وجه الخصوص ـ لا يحاولون النظر الى ما بين أيديهم مـن هدى الاسلام ، عقيدة وشريعة ، ومعطياته للحياة ·

وكانت هذه الحلقات الثلاث من البرنامج حول الحرية والمساواة والديمقراطية وسيادة القانون ونظرة الاسلام لها تشريعا وتطبيقا كما عرضها الدكتور احمد كمال أبو المجد ·

الحرية فى الاسلام

● أحمد فراج : نعرف ان الاسلام ليس مجرد دين يدعو الى البر والخير والتراحم وسائر الفضائل ، ولكنه يمتد ليشمل ويغطي كل جوانب الحياة .. فالاسلام عقيدة تنظم صلة الفرد بالله على طريق التوحيد ، وتنظم العبادات التى تحقق ـ بالتزامها ـ معنى العبودية والطاعة لله ، وتربى الخلق والسلوك . وكذلك ،هو شريعة تنظم صلة الفرد بالفرد وبالاسرة وبالمجتمع ، وتضع الاسس التى تقوم عليها الحياة السياسية والاجتماعيةوالاقتصادية فى المجتمع وفى الدولة الاسلامية ، وتنظم علاقات السلم والحرب الى سائر مناحى الحياة فى الحقوق والواجبات وغيرها ..

فما هى الاسس التى يقيم عليها الاسلام أركان الحياة السياسية ؟ .. وما هى هذه الاصول التى تحكم التشريع الاسلامى بصفة عامة ؟ ..

● د. كمال أبو المجد : دين الاسلام ليس دينا فحسب ينظم علاقة الانسان بربه ، وانما هو أيضا ينظم علاقة الناس بالناس .. هذه الحقيقة على بساطتها وتكرار الناس لها واقتناعهم بها ، الا أنها للأسف الشديد لا تزال قضية نظرية ، بمعنى ان أكثر المسلمين الفوا فعلا ان

يتصوروا الحياة حياتين : حياة تتعلق بالدين ، بقرآن وسنة ، وتاريخه وتراثه وفقهه وكتبه الصفراء .. وحياة أخرى تتعلق بحاضرنا ومشاكلنا وأيامنا ، والعلم ومخترعاته واللغات الاجنبية والفنون والابتكار . هذه القسمة ليست قسمة عقلية فحسب ، وانما هي للأسف الشديد قسمة نفسية ايضا . أننا اذا ألمت بنا ملمة او طرأت على حياتنا ظاهرة أو مشكلة ـ خيرا كانت أو شرا ـ انطلقنا نلتمس الحلول لها والمواقف النفسية تجاهها من أمور ومصادر لا صلة لها بالاسلام ، مع أن الطبيعي ونحن نؤمن عقليـا بأن هذا الدين ينظم الدنيا والاخرة ويقيم علاقات سوية مستقيمة بين الانسان وربه ، وبين الناس والناس .. الطبيعي أن نفتش عن الحلول فى هذا الدين ، وأن نلتمس الموقف النفسي والموقف العقلى من هدى القرآن الكريم ومن أصول الاسلام المختلفة

وهذا الذى نثيره اليوم ، وهو نظام الاسلام ومنهجه العام فى التشريع ، مدخل طبيعى لربط ما نعيش فيه من مشاكل سياسية واجتماعية ، بمصدر التقويم الاساسى فى حياتنا وتراثنا وهو الاسلام .. الدين القيم الذى جعله الله رحمة للناس وهدى . هذا الاسلام حين يعالج قضايا السياسة وقضـايا الاجتماع ، وقضايا نفس الانسـان الفرد ، وقضايا العبادة ؛ يصدر عن أصول واحدة ..

وفى خصوص التشريع بصفة خاصة فهو يصدر عن مبادىء محددة ، تدور أساسا حول الانسان .. فشرائع الاسلام ليست شيئا منفصلا عن الناس ، الناس هم محور شرائع الاسلام . « يا أيها النـاس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد » فنحن الناس نحتاج الى هـذا الدين .. نحتاج الى الخالق والخالق ليس محتاجا الينا، ومن ثم فكل ما جاء عن الله تعالى وعن الرسول صلى الله

عليه وسلم من شرائع ، يدور أساسا حول هذا الانسان ، ويناسبه بطبيعته كلها ، ما فيها من عوج وما فيهـا من استقامة ، ما فيها من ضعف وما فيها من قوة ..

ولذلك كان من الاصول التي قررها الفقهـاء وانتبه اليها المتأملون فى شريعة الاسلام ، أنها شريعة وسط ، لا تطالب الانسان بما يعلو عن مستواه فتصير شيئا خياليا يستعصى على الانسان المتوسط العادى ان يلتزم بها وأن يتحقق بها وان يطيعها ، ولكنها أيضا لا تهبط من مستواه فتقعد عن تمكينه من أداء رسالته التى اختارها الله له حين عرض الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، ولا تقعـد به عن أن يكون ، ولا تقعد بأمة المؤمنين أن يكونوا كما أراد لهم ربهم أن يكونوا أمة وسطا وجعلهم لذلك شهداء على الناس .

فالوسطية .. هذا الاعتدال .. هذا التوسـط بين الافراط والتفريط ، هذا التوسط بين الالتصاق بالطين وبالعيش وبين التحليق الى آفاق ملائكية تعلو على طبيعة الانسان ، هو اصل عام فى التشريع ، يستطيع المتأمل فى كل جزئية من جزئياته — وفى كل جانب من جوانبه — أن يجد له الشواهد ، وهو الذى يجعل هذه الشريعة نظاما ملائما للانسان « فطرة الله التى فطر الناس عليهـا ، لا تبديل لخلق الله » « آلا يعلم من خلق وهـو اللطيف الخبير » . هذه الوسطية تعبير عن ملاءمة شريعة الاسلام للناس وعن صلاحيتها .

ثم من أصول الاسلام ايضا فى التشريع ملاءمة فذة بين الحقوق والواجبات ..

أساس هذه الملاءمة أن النـاس وان كانوا يحاسبون ويقفون بين يدى الله عـز وجل أفرادا « كل نفس بمـا كسبت رهينة » « ولا تزر وازرة وزر أخرى » « وكلهم

آتية يوم القيامة فردا ، هـــذه الفردية فى التكليف وفى الحساب وفى المسئولية تتممها وتقابلها أن الناس فى هذا الكون وفى هذه الحياة ، فى حياتهم ومعيشتهم لا يعيشون أفرادا منفردين وانما يعيشون جماعات ، فالجماعة هى الوعاء الاجتماعى الذى يجرى فيه التكليف ويجرى فيه التعامل ويدور فيه كل تشريع اسلامى أو غير اسلامى ..

فشريعة الاسلام فى جوهرها شريعة اجتماعية .. ولما كان اجتماع الناس يقتضى التوفيق بين مصالحهم وحقوقهم فان من معالم التشريع الاسلامى أنه ما قرر حقا الا قرنه بواجب . وهذا الواجب فى حقيقته هو حق الاخرين فى الجماعة ، فحقك فى أن تتكلم ، لابد أن يوازنه وأن يوفق بينه وبين حق الاخرين فى أن يهدأوا ، فى أن يختاروا وأن يسمعوا أو لا يسمعوا . حقك فى أن تسير مغنيا أو صائحا أو متحدثا يتممه ويوازنه ويقيده بعض الشىء حق الاخرين فى أن يهدأوا وأن يتركوا بغير ضوضاء وغير ذلك مما سوف نعود اليه .

هذان هما الاصلان العامان ، وسطية واعتدال تلائم فطرة الناس ، وملاءمة بين الحقوق والواجبات تعبر عن التوفيق بين فردية المسئولية وجماعية المعيشة فى هذه الدنيا ..

● أحمد فراج : فى ظل الوسطية والملاءمة أو التوازن بين الحقوق والواجبات نتناول بعض الحقوق التى كفلها الاسلام .ونختار حق الحرية لما له من مكانة خاصة فى نظر الاسلام ، ونتعرف على التصور الاسلامى لهذا الحق .

● د . كمال أبو المجد : نحن فى هذا المجتمع ــ وفى هذه الفترة بالذات ــ نسلط الاضواء على الحرية ايمانا واعتقادا راسخا بانه لا نصر بغير حرية ، ولا اصلاح للمجتمع بغير حرية ، ولا تنمية لاقتصاد هذا البلد ــ وأى بلد ــ بغير

قدر معقول من الحرية .

فأين يقف الاسلام من هذا ؟..

ان سبق الاسلام فى هذا ليس سبقا عاديا .. والذى ازعمه ـ وأجد لهذا الزعم شاهدا فى أصول الاسلام ونصوصه وكتابات علمائه ـ أن الحرية فى الاسلام ـ خلافا للشرائع الوضعية ـ ليست حكما سياسيا فحسب ـ ليست جزءا من شريعة الاسلام ، وانما هى فى الحقيقة جزء من عقيدة الاسلام . فى اللحظة التى يقرر الاسلام فيها وحدانية الله ، ويطالب الافراد بألا تذل جباههم الا للخالق قيوم السموات والارض .. هو يحررهم من العبودية لاى مخلوق ولأية فكرة ولاية جماعة ..

فكأن حرية الانسان تجاه الانسان ، هى الوجه الاخر العبودية لاى مخلوق ولأية فكرة ولأية جماعة ..

العبودية ، ومشاعر الذل ، ويوجهها فى الانسان كله نحو خالقه فهو يقضى على كل بقاياها تجاه الناس . من كان عبدا لله كان حرا تجاه الناس جميعا ، ولهذا اعتبر الفقهاء والمفسرون ان من تكريم الله تعالى لانبيائه أن يصفهم بأنهم عباد لله .. «عبد الله» .. «عبدنا» .. الى آخر ما جاء فى النصوص ، اعتبروا هذا من التكريم لان من خلصت عبوديته لله تم تحرره ازاء الضغوط والقوى وازاء سائر الناس ..

فالحرية اذن ، حرية الانسان تجاه الانسان أصل فى عقيدة الاسلام قبل ان تكون أصلا فى شريعته . على أن هذه الحرية لا نريد أن نرددها هكذا شعارا وفكرة عامة ، نريد أن يكون لها معنى محددا نمسكه بأيدينا ونعرف عناصره المختلفة حتى يكون تمسكنا بها عن بينة ووعى وادراك لمكانها فى الاسلام .

ما الحرية ؟ ..

الحرية لها مستويات عديدة ، أول هذه المستويات أن يكون الانسان الفرد متحررا من الخوف ، فالخائف لا يستطيع ان يمارس اى حق واية حرية اخرى ممارسة جدية . أو ان شئتم فقولوا ان الحرية ذات وجهين ؛ وجه سلبى يتمثل فى التحرر من الخوف ، ووجوه ايجابية متعددة تتمثل فى ممارسة التعبير .. فى ممارسة الاعتقاد .. والاجتماع .. فى ممارسة حرية التملك وحريات وحقوق كثيرة اخرى . هى ايجابية ولكنها لا تظهر الا اذا استوى الانسان انسانا مكتمل البناء وزال عنه الخوف .

ومن غرائب الامور التى نتجت عن فساد منهجنا فى فهم هذا الدين وفى الوقوف نفسيا منه اننا نردد فى صلاتنا ـ واطفالنا يرددون فى مدارسهم ـ آيات أو سورة هى دستور الحرية ، وهى أساس الامن دون أن يفطن واحد منا الى هذا ، وهى قوله تعالى « لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » هذه الآيات نقرؤها هذه الايام فكأننا ما مررنا بها أبدا مع أنها تضع هذين الاصلين . لا ينقص الرجال ولا يذل الجباه الا الفقر والخوف ، الفقر الذى يهدد الكيان الحيوى ويهدد الحياة فى صميمها ، والخوف الذى يهدد الوجدان والرجولة والرأس المرفوعة فى كيانها أيضا وفى صميمها .

الانسان اذا اكتمل بنيانه العضوى بلقمة العيش التى تقيمه رجلا أو امرأة يتحرك أو تتحرك ويسعى على قدميه، ما أن يكتمل هذا الكيان حتى يستشعر الحاجة الى أن يأمن .. الى ان يأمن فى بيته ، على رزقه ، على حياته ، على حريته ، على كرامته ، على عرضه ، على ملكه . هذا المقام مقام الامن هو أول مقامات الحرية لانه ينفى عنها الضغط . بعد مقام الامن ماديا بلقمة العيش ، ومعنويا

بالامن ، يتطلع الى مزيد من الحقوق والحريات الايجابية.

أول حرية .. حريته فى نفسه ، حقه فى أن تحترم حياته ، وفى الا يعتدى على حياته ، فى الا تزهق نفسه بالباطل . وعلماء التشريع الاسلامى يعلموننا أن جميع تكاليف الشريعةترجع ــ كما يقولون ــ الىحفظ مقاصدها فى الخلق ..

ما معنى هذا ؟ .. معناه أن هذا التشريع وقد جاء لمنفعة الناس ، يحمى مصالح محدودة فى هؤلاء الناس وأول مصلحة يحميها التشريع هى مصلحة الانسان فى نفسه ، حماية النفس . وهناك قائمة طويلة من تشريعات الاسلام ومن أحكامه جاءت بها نصوص ــ كتابا وسنة ــ تستهدف كلها صيانة حق الانسان فى نفسه ، تحريم القتل « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق » رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع يعلم المؤمنين من بعده قائلا « .. ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم حرمة يومكم هذا فى شهركم هذا .. » وقدم النفس .. الدم ، لان حق الانسان فى نفسه هو الذى تتفرع منه سائر الحقوق ، وكما حماه توقية ومنعا بمنع الاعتداء عليه ، فقد منعه بعد ذلك وحماه زجرا وعقابا لكل من يعتدى عليه فشرع القصاص ..

ومن حكمته ومن ارشاده الى هذا المعنى قوله تعالى «ولكم فى القصاص حياة يا أولى الالباب» لأن هذا القصاص هو الذى يحمى حياة النفوس الاخرى بما يزجر به وبما يردع وما يصد به المعتدين عن أن يتعرضوا للحياة وللنفوس . فحماية نفس المؤمن هى أول حماية لاول حرية ولاول حق .

بعد حماية النفس نجد ما يسمى بالحريات الفردية ، وهى فى الحقيقة يفرعها العلماء المحدثون والوضعيون ،

كما يفسرها أيضا علماء التشريع الاسلامى ، الى قائمة طويلة . أول هذه الحقوق والحريات : حرية الانسان فى خصوصيته ، فى أن يترك فى بيته وأن يكون له مسكن لا يقتحمه عليه أحد . وهذه الحرية تفخر شرائع حديثة كثيرة بانها تحميها .. فنجد مثلا فى النظام القانونى الانجليزى والامريكى تعبيرا مشهورا يقولون فيه « مسكن الانسان حصنه وقلعته » لان الانسان لا يكتمل كيانه ولا يستطيع أن ينمى ملكاته ولا يستطيع أن يربى أسرته الا اذا كانت له مملكة ، هو فيها حر لايزعجه مزعج ولا يقتحمها عليه مقتحم .. هذه المملكة وهذا القصر أو القلعة هى داره ..

حرية المسكن قد حماها الاسلام حماية مركبة متكاملة، حماها من أن تقتحمها السلطة فتطرق على الناس ابوابهم قبل مطالع الفجر فتأخذ من تأخذ الى حيث لايعرف . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب يوما فقاطعه واحد من الصحابة قائلا : جيرانى يا رسول الله ، بم اخذوا ؟ فاعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمر فى خطبته فظل يقول : جيرانى بم اخذوا ؟ فلما فرغ الرسول عليه الصلاة والسلام قال : ردوا عليه جيرانه • فطرق الباب بغير حق اعتداء على حرية المسكن .. بل ان الاسلام ليحمى حرية المسكن من الازعاج العارض بأن تفاجأ وانت جالس فى بيتك تقرأ أو تنام أو تستريح أو تخلو الى زوجتك فى حديث عائلى أو تربى أطفالك أو تعلمهم ، من حقك ان تأمن من أن تقتحم عليك هذه الخلوة

ولذلك شرع الاسلام نظاما متمدينا رقيقا راقيا انسانيا اجتماعيا لحماية حرمة المسكن . وما تستطيع أن تسميه الحرية الخصوصية ، أن تكون لك خصوصية تعزل نفسك بها عن ضوضاء العالم ــ ولو لفترة محدودة ــ وذلك حيث

تقول الآية الكريمة « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها »

وتأملوا فى لفظ الاستئناس وفى دقته ورقته وتعبيره عن المعنى ، تقدمة يتهيأ بها صاحب المسكن للانتقال من خلوته الى لقاء الناس .. تمهيد يستاذن فيه ويخبر فيه أن زائرا قد وصل .. فلا يفاجأ بشخص يقتحم عليه الخلوة ..

وليس هذا فقط وانما حتى تكتمل مع الخصوصية معانى الامن ، يأمر الاسلام الطارق بأن يسلم على أهلها . ذلكم خير لكم جميعا .. لأن ماتمنحه لصاحب البيت من حق ، هو يمنحك اياه حينما تكون أنت خالدا الى الراحة خاليا الى نفسك . ثم هو يضع لهذا المسكن نظاما حتى حين لايكون صاحبه فيه « فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم » ليس من حقك الدخول فقد يكون صاحب البيت قد ترك أوراقا أو تركه بحال لايحب أن يراه عليها أحد الا باذن صريح منه . بل أكثر من هذا قد يكون صاحب البيت فى بيته ولكنه لايريد أن يراك الآن .

من آداب الاسلام التى ضيعناها وطفت عليها قيم أخرى فيها مجاملة فى غير موضعها اننا نتأذى اذا قيل لنا ان صاحب البيت ليس مستعدا الآن للقائنا ، مع أن الاسلام يقول « وان قيل لكم ارجعوا ، فارجعوا » ففضل وأعلى ورجح حق صاحب البيت فى أن يترك فى خلوته أو حاله على حق الطارق فى أن يدخل . هذه حماية مركبة لا اعرف شريعة قديمة أو حديثة تعطى حماية لحرمة المسكن تعلو عليها . هذه هى الحرية الاولى فى قائمة الحريات .

● أحمد فراج : اظن انه فى مجال التطبيق شهد هذا الحق فى حرية المسكن صورا رائعة ، منهـا ما كان من

المواطن الذى راجع الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما راى انه حدث اعتداء على حريته فى مسكنه رغم خطأ ارتكبه .

● د. كمال أبو المجد : فى الحقيقة لا يعرف كالاسلام نظام فى التسوية بين الحاكم والمحكوم ، وهذا ما قد نعود اليه فى مرحلة تالية عن سيادة القانون . اذا وضع المبدأ فهو كالسيف يلتزم به الناس جميعا ، ولا يعفى منه أحد ــ خليفة كان أو غير خليفة ــ وأنتم تعرفون سنة عمر مثلا فى هذا ، فهو كان اذا أراد أن يأمر الناس بشىء أو ينهاهم عن شىء دخل الى أهل بيته أولا وقال لهم:«أمانى سأدعو الناس الى كذا وكذا وسآمرهم بكذا وكذا أو سأنهاهم عن كذا وكذا . وانى اقسم بالله ، لا أجد أحدا منكم ترك ما أمرت الناس به أو أتى ما نهيت الناس عنه ، الا جعلته نكالا » وكما كان يطلب ذلك من أهل بيته فقد كان يطلبه من نفسه ويلزم نفسه به .

ونحن نعرف حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « من نظــر فى دار جاره فــكانما ينظر فى كوة من نار » والقاعدة عامة وعمر لم يعف نفسه منها ، والقصة التى ألمح اليها الاستاذ أحمد فراج معروفة . حينما نمى الى علمه أن شابا يتعاطى الخمر ويسرف فى المجون ، فأراد عمر أن يضبطه متلبسا بهذا الامر فتسور عليــه جدار داره وأطلع عليه وأراد أن يأخذه بهذا الذى ضبطه متلبسا به .. فما كان من الرجل الا أن قال له : يا أمير المؤمنين ، جئت بواحدة (وهى شرب الخمر) واما أنت فقــد جئت بثلاث ، يقول الله تعالى « ولا تجسسوا » وقد تجسست على ، ويقول الله تعالى « لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا .. » وأنت لم تستأذن ، ويقول الله تعالى « واتوا البيوت من ابوابها » . وقد تسورت على دارى

اى أن هناك ثلاث مخالفات : التجسس ، وعدم الاستئذان، واقتحام البيت ومفاجأة الناس من الجدر والنوافذ والمخارج . فعاد عمر الى نفسه موقنا أنه أتى بثلاث فعلا ، والخليفة لا يعفى من هذا لان حرمة المسكن فى الاسلام حرمة اساسية لان الذى لا يأمن فى نفسه أولا ثم لا يأمن فى بيته ثانيا انسان قلق عاجز عن أن يرفع قامته او أن يبنى أمته

● أحمد فراج : ماذا عن حرية الاعتقاد وحرية الرأى والتعبير ؟

● د. كمال ابو المجد : نستطيع أن نقول اذا كان للحرية عموما جانبها السلبى وهو دفع الاذى ودفع الخوف والتمتع بالامن فان حرية المسكن وحرمته هى فى الحقيقة ايضا جزء من الامن حتى ان بعض العلماء المحدثين يجمعونها هى والامن الذى تحدثنا عنه أولا ، بما يسمونه « حق الانسان فى أن يترك وحده » . نجد ذلك فى كل النظم الاوربية فى انجلترا وامريكا وغيرهما .. يتحدثون عن حق الانسان فى أن يترك وحده مع نفسه وفى مسكنه .

اذا انتقلنا بعد ذلك الى الجانب الايجابى وجدنا أولا حرية الاعتقاد .. أن يستعمل الانسان ما أودعه الله فيه من ملكات ، فان العقول ما وضعت فى الرءوس لتختزن وانما وضعت لتستعمل . ينبنى على حرية الفكر والاعتقاد حرية الناس فى أن يعبروا عن ثمرات هذا الفكر ، ويأتى بعد ذلك أمر حرية القول أو ما يسمى بحرية التعبير .

حرية الاعتقاد حماها الاسلام ، لانه ناط كل أحكامه بالاختيار ، وبالحرية .. فلا يتصور أن يطالب الانسان بأن يعتقد بشىء لا يفهمه او لا يؤمن به . ولذلك تقول الآية الكريمة « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » وحتى يتبين لنا بعد هذه الآية ومدلولها ينبغى أن نعرف

سبب نزولها ، كان لرجل من الانصار طفلان تنصرا فى الجاهلية قبل البعثة ، ثم قدما عليه بعد اسلامه فى تجارة يبيعان زيتا مع قبيلة من القبائل ، فلما رآهما امسكهما وقال : لا اتركما حتى تسلما ، فاختصموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل الرجل يقول : يا رسول الله أأدع قطعة منى تدخل النار وانا انظر ؟ فخالفه الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك وأبى أن يدعه يكرههما على الاسلام ، فقال ارسلهما (أى اتركهما) . ونزل قوله تعالى « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى »

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بعد ان انتصر على اقل تقدير ـ قادرا ان يلزم الناس هذه العقيدة وان يكرههم عليها ، ولكن اى فضيلة لمن يؤمن تحت ظلال السيف .. والله تعالى غنى عن ايمان هؤلاء المضطرين ، انما يقبل الله ايمان هذه القلوب المتفتحة والعقول المنطلقة ولذلك كان الاصل فى العقيدة وفى غيرها «لا اكراه فى الدين»

ولهذا أيضا شرعت المحاجة والمجادلة وقدمت البيانات حتى تكون سلاح المؤمنين فى تقديم العقيدة ، « وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم » لان ابراهيم ما كان يدعو الى الحنيفية بالاكراه وانما كان يدعو بهذه المحاجة « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »

ولهذا دعى الاسلام الى استعمال البرهان والدليل والى المحاجة ، واذا كانت من سنة ابرهيم فقد أمرنا أن نتاسى بالانبياء لا نفرق بين أحد من رسله .

بعد قضية الاعتقاد تأتى حرية التعبير .. حرية أن يتناقش الناس ، وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما حجر على حرية أحد من اصحابه فى أن يتكلم وأن يتناقش . واكثر من موقف خاضه الرسول عليه

الصلاة والسلام مع اصحابه واختلف الأصحاب وتناقشوا وتجادلوا .. هذا يعرض رايا ، وهذا يعرض رأيا ثانيا .. فاذا استبان الحق ومالت الجماعة الى راى ، فهنا تنظيميا يجب علينا ان ننطلق وراء هذا الراى الذى اتفقنا عليه . ولكن الجماعه لاتنطلق بغير مناقشة ولا تحجر على حرية احد فى أن يناقش ، والمواقف معروفة فى السلام وفى الغزوات وفى الاسرى ونزول الجيش فى موقف معين .. الخ

وفى كل موقف عرض للرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم يكن فيه وحى يقطع ، فالناس بشر ورجال يقولون ويجتهدون ، وأساس هذا فى افساح الاسلام المجال لحرية التعبير ما قررناه من أن الاسلام لا يعرف الا مقامين : مقام الغيب الذى يعرفه الله تعالى وينفرد به ويوحى به الى أنبيائه ، ومقام الخلق الذين أودع الله فيهم قبسا من نوره وروحا من روحه وعقلا من علمه . ولذلك كان من عادة الصحابة ومن فقههم لهذا التقسيم الثنائى أنهم كانوا اذا عرض موقف سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أهذا منزل انزلكه الله .. أم هو الراى والحرب والمكيدة ؟ ..

أهذا أمر أمرك الله به أم هو أمر تصنعه لنا أم أمر نصنعه لك ؟...

فان كان وحيا نزلوا جميعا عليه ، وان كان رأيا أو اجتهادا فهم يجتهدون كما اجتهد عليه الصلاة والسلام.

وكان هذا أيضا فقه علماء المسلمين ، كان من دأب ابى حنيفة رضى الله عنه أنه كان يقول : اذا جاءنا الامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو على العين والراس لانه ما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى . واذا جاءنا عن الصحابة الذين نزل الوحى بينهم وعاش الرسول عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم ، عاشروه وعايشوه

وصحبوه فى سلمه وحربه فى رضاه وفى سخطه فى بيته وفى سوقه ، فهم يعرفون هديه ويعايرون سنته ، فيختار أبو حنيفة بين آرائهم ولا يعدوها ، أما اذا انتهى الامر الى التابعين وتابعى التابعين فقد كان أبو حنيفة يقول « هم رجال ونحن رجال » هذه عقول ونحن عقول لا قداسة لرأى ولا عصمة لرجل . ولذلك ، اسمعك وتسمعنى ، واناقشك وتناقشنى ، يتكلم هذا وذاك لا نحجر على حرية احد فى التعبير ، هذه فلسفة الاسلام فى الحرية فى هـذا الجانب ..

● أحمد فراج : كنا نحب فى الواقع ان نتناول موضوع حرية التملك ـ بعد هـذه الحريات والحقوق ـ فى المجالات التى أشرنا اليهـا .. ولكننا نفضل أن نؤجل الحديث عن حق التملك لنتناول القيود التى يمكن أن ترد على الحقوق المشار اليها ، لان السؤال المنطقى بعـد الحديث عن تلك الحقوق والحريات هو ما اذا كانت مطلقة بمعنى هل حريتى فى المسكن بلا حدود ، وحرية الاعتقاد والتفكير والتعبير والرأى كلها حريات مطلقة ؟

● د. كمال أبوالمجد : الحقيقة ان هذا المبحث ليس نظريا .. **الدنيا تعرف مذهبين ، مذهب يسمى المذهب** الفردى ينظر الى الحقوق نظرة مطلقة ، وبصفة خاصة الى الملكية . كانوا يعلموننا قديما مثلا فى القانون الرومانى الذى هو اصل الشرائع الاوربية الحديثة كلها فيقولون « الملكية حق مطلق » .. هى حق اسـتعمال الشىء واستغلاله والتصرف المطلق فيه . ثم ظهر مذهب أو مذاهب أخرى تسمى المذاهب الجماعية تركز النظر على حقوق الجماعة وتقييد حق الفرد ، ولأمر ما ولسبب لا أدريه وقر فى اذهان كثير من الناس ـ وهمـا ـ ان الاسلام ينحاز انحيازا كاملا الى المذهب الفردى ، وانه

يقول بأن الحقوق مطلقة . وهذا غير صحيح أصلا ، الله تعالى خلق الناس شعوبا وقبائل ويعاملها على أنهـــا جماعات وهو يعلم أن كل حق أنما يمارس فى جماعة ، فلو أطلق لهدم الجماعة هدما .

والمثال الذى يكشف عن فلسفة الاسلام فى هذا مثال قديم نعرفه ، ولكننا نذكره ليكون منطلقا لفهم نظرية الاسلام فى القيود التى ترد على الحقوق وعلى الحريات . هو حديث الرسول عليه الصلاة والسلام الذى يقول فيه مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا فى سفينة ، فصار بعضهم اسفلها وبعضهم اعلاها ، فكان الذين فى اســـــفلها اذا استقوا من الماء ، مروا على من فوقهم ، فقال قائل منهم ، لو أننـــا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فلو تركوه ، هلكوا جميعا ، ولو ضربوا على يده نجوا ونجـا معهم . هـــذا معنى الحديث الذى يشير الى ان ممارسة الحقوق فى الجماعة .. الامة .. الدولة .. ترتبط بحقوق الآخرين . فأنت لا تستطيع أن تباشر حقك مباشرة مطلقة .

وهذه قضية بدهية يعبرون عنها فى الغرب بمثال طريف وبسيط ، ولكنه يكشف عن جوهر الفكرة . يقولون : ان حقك فى أن تلوح بيدك فى الهواء قائم ، ولكنه ينتهى حيث تبدأ انفى ، لان لى حقا فى الا تصيبنى يدك . وهكذا فى كل حق ، حقك فى ملكيتك مقيد بالا تؤذى جارك والا تؤذى جماعتك .. حقك فى التعبير أيضا ليس مطلقا والا لسمحنا مثلا بأن يقف واقف فى مجتمع عام ويقول : اعلنت الحرب ، ولم تعلن الحرب . أو يأتى فى دار من دور السينما أو المحاضرات أو فى المدرسة أو الجامعة فيقول : « اشتعل حريق » فيضج الناس ويخرجون ويتزاحمون ويؤذى بعضهم بعضا . فحقك فى التعبير مقيد حتما برعاية

حق الجماعة . ولكن رعاية حق الجماعة فى الاسلام أمر منضبط ، يضبطه ما نسميه مبدأ الشرعية ، مبدأ القاعدة ، مبدأ دولة القانون .

***

ان دولة الاسلام دولة تحكمها القواعد والنصوص ، حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقضى فيها بارادته . الله تعالى يقول « ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه اليمين ثم لقطعنا منه الوتين » . ويقول ان الرسول لم يات بهذه النصوص من عنده وانما هو مبلغ « ان هو الا وحى يوحى » وفى خطبة الوداع يقول الرسول عليه الصلاة والسلام « انكم والله ماتمسكون على بشىء فانى لم احل الا ما أحل الله ولم أحرم الا ما حرم الله » اذن القاعدة فى الاسلام أن الحقوق توازنها واجبات ، ونستطيع أن نطبق هذا فى حرية التعبير وحرية الامتلاك وفى سائر الحريات .

المساواة فى الاسلام

● احمد فراج : اذا انتقلنا الى قضية المساواة ، ما هو رأيكم فى المفهوم الشامل لقضية المساواة بأبعادها المختلفة ، والإخوة الانسانية التى يتميز بها الفكر الاسلامى ..

● د . كمال أبو المجد : فى الحقيقة آن فكرة المساواة من الافكار التى تبناها مع الاسلام الفكر السياسى فى ظل أنظمة وفلسفات أخرى ، ولكن فكرة الاخوة فكرة متميزة قليلا عن فكرة المساواة ، وأكثر منها تحقيقا لمعنى الارتباط الانسانى . فكرة المساواة أساسا تعنى أن يتمتع الناس بنفس الحقوق وأن يطالبوا بنفس الواجبات ، وأن يلقوا نفس المعاملة ما داموا أساسا متساوين فى الطبيعة وفى الوضع . أما فكرة الأخوة ، فهى لاتكتفى بالغاء التمييز بين الناس ، وانما هى تقيم رابطة أوثق . أنها تجعل من الافراد جسدا متماسكا اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ..

فالأخوة اذن فكرة يضيفها الاسلام الى فكرة المساواة التى تعتبر الحد الادنى فى تحقيق العدل التوزيعى بين الناس فى الحياة السياسية ، والحياة الاجتماعية . والمساواة فى الاسلام أصل أساسى وردت فيه نصوص عديدة فى كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله عليه الصلاة

والسلام وهى تنبع من تصور الاسلام للانسان ، يقول الله تعالى « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ..

فجوهر هذا النص أنه سبحانه وتعالى كرم الناس وفضلهم ، والاسلام بهذا وضع حدا لما كان يذهب اليه التفكير اليهودى من اعتبار بعض القبائل أو بعض السلالات أو بعض أصحاب الاديان جنسا متمايزا ، جنسا أعلى من سائر الناس . ويحل محل هذه الفكرة نظرية « الكائن الممتاز » نظرية الانسان الذى كرمه الله ، ولكن فى اطار هذه الانسانية العامة يستوى الناس جميعا ويلقون نفس المعاملة ..

فكرة المساواة هذه بحكم كون الناس ناسا ، يشهد لها قوله تعالى « يآيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم » . وهذا النص القرآنى يحتاج الى وقفة قصيرة، لنعرف ترتيب الاولويات فى تصور الاسلام للانسان وللحياة ..

هذا النص يتحدث عن أمرين ، عن اختلاف بين الناس شعوبا وقبائل .. يختلفون لونا ، ويختلفون عنصرا ، ويختلفون نسبة ..

ثم هو يتحدث عن عنصر يشترك فيه الناس جميعا وهو الاصل ، انهم جميعا خلقوا من ذكر وأنثى ، كان من الممكن أن يقدم الاختلاف الذى هو الامر الظاهر لنا الان ، اختلاف الألوان والاجناس والالسنة ، ثم يدعو الناس بعد ذلك الى التعارف ويذكرهم بوحدة الاصل . ولكنه حتى يستولى على الشعور وعلى الفكر بهذه الحقيقة الكبيرة — وحدة النشأة والاصل — قدم هذه النشأة فقال : « يآيها

الناس » ثم قال : « انا خلقناكم من ذكر وانثى » وليس بعد هذا الاصل مبرر للتفرقة والتمييز . ثم ذكر اختلاف الالوان على أنه شيء عارض ، بل جعل له وظيفة ايجابية ، وهى أن يتبادل الناس المنافع ، وأن يتعارفوا ، ثم انتقل بعد هذه المساواة الاصلية الى أن يذكر أن الناس وان كانوا يتفاضلون ، انما يتفاضلون على اساس موضوعى ، وهو ما سنعود اليه بعد قليل ، « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .. وهذا التذكير بوحدة النفس التى هى اســـاس المساواة ، متكرر فى نصوص قرآنية وفى نصوص السنة « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » فهذا اذن هو أصل التوحيد ، ينبع من تصور الاسلام للانسان وتشهد له نصوص فى القرآن الكريم وفى السنة قاضية بالمساواة العامة ..

● احمد فراج : هل التمايز الوحيد للفكر الاسلامى فى قضية المساواة هو ربطها بمعنى الاخوة ؟

● د. كمال أبو المجد : من المعروف ــ وهذا أمر ينبغى أن نلاحظه ــ أن كل الدساتير تقريبا تنص على هــذه المبادىء الطيبة النبيلة . الناس متساوون فى الحقــوق والواجبـــات ــ حرية العقيدة ــ حرية الرأى ــ حرية التعبير .. الخ ، ولكن الاسلام كنظام انزل من عند الله تعالى يتميز بشيء آخر ، هو قدرته العملية على تحويل النصوص والمبادىء السياسية والنظرية ، الى حقائق حية تتطور بها المجتمعات ، وتستقيم على امر هذه المبــادىء والنصوص ، ولنقارن بين كثير من المجتمعات التى تنص دساتيرها على مساواة الناس امام القانون ، وعلى انه لا تمييز بينهم بسبب الجنس أو اللغة أو الدين ، لنقارن بعض تلك المجتمعات وما كان عليه الامر فى مجتمع النبى

عليه الصلاة والسلام ومجتمع الصحابة فى تطبيق هـذا المبدأ بالذات : مبدأ المساواة .

الاسلام قرن الدعوة النظرية دائما بالتدريب العملى عليها حتى ينتقل المجتمع من الاعتقاد النظرى الى الممارسة العملية .. وذلك مصداقا لحكمة الله تعالى فى ارسال الرسل وانزال الكتب السماوية .. « ليقوم الناس بالقسط » ، هذه اللام - ليقوم - تحدد هدف الرسالات وهدف بعث الانبياء . ولذلك نجد فى الاسلام وسائل تدريبية عملية محددة لتقيم الجماعة على مبدأ المساواة

فى حياة الناس اليومية فى ظل الاسلام ، عبادات ومعاملات وأمثلة شتى على هذه التدريبات .. حرص الاسلام مثلا على صلاة الجماعة ، وعلى أن يصطف الناس صفا واحدا ، وعلى أن يجلس القادم للصلاة حيث ينتهى به المجلس .. لا حيث ترشحه مكانته الاجتماعية أو قوته أو ضعفه أو غناه أو فقره . هذا الاصطفاف فى الصلاة تأكيد متكرر معاد ، على أن الناس بين يدى الله تعالى يستوون ولا يتفاضلون الا بالتقوى .

الصوم ايضا امتناع القادر والعاجز والغنى والفقير والتزامهم بنفس العبادة بنفس المواقيت ، تأكيدا على أن النفوس واحدة ، تطالب بما يطالب به الآخرون .

الحج أيضا ، ولعله اروع صورة عملية على المساواة بين الناس تلغى فيه الفوارق ويمحى الغنى والفقر والجاه والسلطان . وهو توكيد عملي على هذه المساواة الانسانية .. واذا كان الناس يستوون بين يدى الله تعالى فان الجماعة ستعتاد ان تنظر الى الناس على أساس صفتهم الانسانية لا على أساس الصفات العرضية .

● احمد فراج : اظن انه فى مجال المساواة امام القانون

قد لا نتصور التدريب العملي بقدر ما نتصور القدوة .

● د . كمال أبو المجد : القدوة كانت دائما احدى وسائل التدريب العملى لانه حين نمارس الشعيرة أو المبدأ من عامة الناس فاثرها طيب ولكنه محدود ، ولكنها حين تكون ممارسة من مكان الصدارة ومكان التوقير والتعظيم والاقتداء من رئيس الامة ورئيس الدولة ..من حكامها ومسئوليها ، من رائد الجماعة وقائدها — ومن هم على هذا المستوى علما وقدرة وسلطة — فان تأثيرها يكون هائلا ويكون كبيرا .

ولنسمع مثلا قول عمر رضى الله عنه وهو يبحث عن مرشح للخلافة يقول : لو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا لوليته ، وهو عبد ملون . ومع ذلك يرى عمر ان قدراته وطاقاته وصلاحياته ترشحه لهذا المنصب ارتفاعا فوق حواجز اللون والفنى والجاه . أو بلال الحبشى مثلا حيث كان عمر رضى الله عنه يقول عن أبى بكر ، أبو بكر سيدنا وبلال سيدنا . فهو يقول عن أبى بكر انه سيدهم ، ويقول عن بلال أيضا انه سيدهم .. فالسيادة فى الاسلام فى مقام الذين يعملون ويقسمون الضوابط ، والمعايير الموضوعية لا تتحدد بأصل ولا بلون .. وانما تتحدد بالنسب الذى أقامه الله تعالى وهو الصلاحية الموضوعية للناس . فنفعهم للناس ، تقواهم ، صلاحيتهم .. والتقوى تعبير اسلامى عن كل عناصر الصلاحية الموضوعية .

● أحمد فراج : فى مجال المساواة أمام القانون ..

● د . كمال أبو المجد : ان المساواة أمام القانون عنصر من عناصر سيادة القانون ولكنها أيضا عنصر أساسى من عناصر المساواة ، لانه من أخطر ما يتعرض له الناس ، مما يفقدهم ثقتهم بكل الانظمة التى يعيشون فيها أن يروا فى حياتهم اليومية تمييزا فى معاملة الدولة للناس ، فى

معاملة القانون للناس ، بحيث يحس الفقير مثلا أو العاجز أو قليل الجاه بأن القانون يطبق عليه وحده ، بينما يعفى منه الاغنياء والاقوياء ، الاثر الضار لهذه الظاهره لايتوقف عند المرارة التى يشعر بها العاجز أو الضعيف .. وانما هذا الاحساس يولد فى الجماعة أسلوبا ونظـــاما كاملا للتعامل يسعى به الناس الى الافلات من القانون والى اقامة شبكات من الاتصال بالافراد ذوى الجـــاه حتى يحصلوا على درجة من الحماية مساويه لما يحصل عليه ذوو الجاه ..

الاسلام قطع دابر هذا الطريق الشيطانى حين قرر فى صراحة أن يعامل الناس أمام القانون معاملة متساويه . واخطر ما يمكن ان تقع فيه التفرقه .. التفرقة فى وقوع العقاب ، أن نشعر بأن القانون تطول يده الضعفاء وتقصر عن الاقوياء ، والسابقة فى الاسلام معروفة ، سنة عملية وقوليه للرسول عليه الصلاة والسلام وقعت حينما سرقت امرأة من بنى مخزوم فأراد بعض الصـــحابة استكثارا واشفاقا من توقيع الحد على تلك الشريفة المخزومية ، أرادوا أن يتشفعوا فيها فلجأوا الى واحـــد مـــن اقرب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه ، الى حب رسول الله أسامة بن زيد ، وأرادوا أن يتشفع عنـــد النبى ، فغضب عليه الصلاة والسلام غضبا شديدا ، وقال : يا أسامة أتشفع فى حد من حدود الله ، ثم وقف خطيبا وقال : « انما أهلك من كان قبلكم .. »

ونريد أن نقف قليلا عند كلمة أهلك ، فليس هذا هلاكا بآفة سماوية ، انما هو اضمحلال اجتماعى ، فساد وتلف سياسى يؤدى فى النهاية الى ضعف المجتمع الســـياسى « انمـــا أهلك من كان قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليـــه

الحد . والذى نفسي محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »

هذه مساواة وسيادة قانون .. يتقرر المبـــدأ ، ثم لا يعفى منه صغير أو كبير .. قريب أو بعيد .. حاكم أو محكوم ، قريب للرسول ومن أسرته وبيته وسلالته ، أو رجل من أطراف ضعاف القبائل . هذه المساواة أمام القانون تحدث اثرا نفسيا كبيرا وتؤدى الى شيوع ظاهرة الرضى والاطمئنان والتعاون مع السلطة والرضى بالقانون وحده .

امثلة اخرى ، امير المؤمنين عمر – وهو فى مقام الرئاسة والخلافة – رأى رجلا يرتكب الفاحشة فسأل عليا رضى الله عنه قائلا : يا على ، أمير المؤمنين راى رجـــلا على فاحشة فماذا يفعل ؟ فقال على : يقطع بالحق ويحسم الامر به « يأتى بأربعة شهداء أو يجلد » .

فهو فى مقام القانون وفى مقام القواعد واحد من الناس يسرى عليه مايسرى عليهم ، ويطالب أمام القانون بما يطالب به ابناؤهم واطفالهم .

امثلة أخرى : الخلاف معروف بين على كرم الله وجهه وبين يهودى من أهل الكتاب ، فيصر على أن تجـــرى التسوية بينهما فى مجلس القضاء ويستكثر على الخليفة أن ينادى عليه بكنيته (لقبـــه الذى يألف ويؤلف به) ويستكثر ذلك لانه يشكك فى عدل القاضى . وأولى بالقاضى أن يسوى بين الناس فى عدله ومجلسه ووجهـــه حتى يطمئن اصغر صغير فى الرعية الى أن القانون يعطيه من العدل ما يعطيه لأمير المؤمنين .

هذه المساواة أمام القانون هى ذروة المساواة ، وبهـا يشيع الرضى بالقانون . واذا شاع الرضى بالقانون ، شاع احترام القانون وشاع الالتزام به .

أريد بعد هذه المساواة أمام القـــــانون أن أقرر أن الاسلام يرفض كل صور التمييز بين الناس الا على اساس المعيار الموضوعى ، فهو يرفض التمييز بسبب الدين ـ او بسبب اللون ـ ويرفض التمييز كما رأينا على اساس المكانه الاجتماعية او السياسية . التفرقة بسبب الدين يرفضها الاسلام رفضا حاسـما .. ولا يكتفى بهـــذا الرفض ، وانما هو يحرص أكثر من هذا على أن يقيم نوعا من التآلف والترابط بين كل المؤمنين بالله ، بين أهل الكتاب جميعا .

وقد سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم ســبقا بعيدا من الناحية الزمنية والنوعية الى تقرير هذا المبدأ . لما دخل عليه الصلاة والسلام يثرب كان من أول ما قام به أن عهد عهدا أو عقد عقدا ـ او أقام دستورا بالمصطلح الحديث ـ اراد أن يضبط به الحياة السياسية فى دار الهجرة وأدخل فيه مع قريش قبائل أخرى وقبائل من اليهود ، واعتبرهم شركاء مع المسلمين فى هذا التآلف السياسى وفى الخضوع لهذا الدستور الواحد ، ونص على قبائل اليهود بأسمائها ، فقال ما معناه : وان يهود بنى كذا أمة مع المؤمنين يشتركون معها على قدم المســـاواة ويتحملون من الضرائب والالتزامات والحقوق والتبعات ما يتحمله المسلمون الى آخر ما ننصح بالرجوع اليه فى هذا العهد أو الدستور الذى يسجل نظر الاسلام الى ضرورة التسوية بين النـــاس بغض النظـــر عن اختلاف الاديان .

ومن الوثائق التاريخية التى تؤكد بصفة خاصة حرص الاسلام على منح المؤمنين بالمسيحية ـ وكذلك المؤمنين باليهودية ـ حرية اقامة الشعائر الدينية وأن يضمن لهم حماية كافية فى هذه الممارسة ، ما نجده فى العهد القيم

الذى كتبه عمر رضى الله عنه الى أهل ايلياء بيت المقدس ،

ونحن نسمع هذه الايام أقاويل وتزييفات كثيرة عن ائتمان المسلمين على بيت المقدس ، ونرد على ذلك لله بان تراثنا الاسلامى وتاريخنا الثابت المدون يؤكد شيئا ، ان نصوص الاسلام ومبادئه تنصف أهل الكتاب مسيحيين ويهود وتضمن لهم فى ظلال الاسلام حدا أقصى من الحرية والضمان ، فهذا عمر بن الخطاب يقـــول فى هذا العهد ، أنه أعطاهم الامان لانفسهم وأموالهم وكنائسهم وســائر ملتهم ، لاتسكن كنائسهم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صلبهم ، ولا يكرهون على دين غير دينهم ، ولا يضار احد منهم . بل يبلغ فى مجاملة مشاعر المسيحيين أن يحفظ عليهم مشاعرهم فلا يدخل عليهم ــ كما طلبوا ــ احدا من اليهود لما كان بين اليهود والمسيحيين قبيل هذا الوقت من شحناء وتنازع وخصومة .

وكل هذا ينطلق من قاعدة القرآن الكبرى « لا اكراه فى الدين » . ومن اعتقادهم فى حق الناس فى الاعتقــاد ، وحمايتهم للشعائر الدينية . وكما يرفض التفرقة بسبب الدين فهو يرفض أيضا التفرقة بسبب الجنس ، فسوى بين الرجل والمراة فى كل ما لا يتدخل فيه اختلاف الخلقة مصداقا لقوله تعالى « وليس الذكر كالأنثى » واما فى الحقوق الانسانية والحقوق الاجتماعية فالنســـاء شقائق الرجال « لهن مثل الذى عليهن بالمعروف » . كذلك قام مجتمع النبى صلى الله عليه وسلم . فالقاعدة اذن أن الاسلام يسوى بين الناس استنادا الى وحدة أصلهم ، وانه لا يقبل تمييزا لا بسبب الدين ، ولا بسبب اللون ، ولا بسبب اختــلاف الذكورة والانوثة ، الا حيث يكون لهذا الاختلاف الخلقى دخل مباشر فى الوظيفة الاجتماعية

● احمد فراج : لو اردنا أن نبحث عن المساواة فى

مجال الوظائف العامة والخدمات والمرافق .. هل نجد نفس القاعدة ؟

● د. كمال أبوالمجد : ان مبدأ المساواة فى الاسلام فى الحقيقة ، حل جميع المشاكل المتعلقة به .. لأن مبدا المساواة من المبادىء المطلقة فى الاسلام ، يسوى بين الناس أمام القانون ، وفى تمتعهم بحق تولى الوظائف العامة ، وفى استفادتهم بالمرافق والمصالح والخدمات المتنوعة التى يؤديها المجتمع لابنائه .. فبالنسبة للوظائف العامة يضع الاسلام أصلا ، وهو أن الحاكم أو المسئول أو اى مؤمن ، يأثم اذا ولى احد الناس أمرا وفى الرعية من هو أصلح منه . هذه الصلاحية تختلف من مرفق الى مرفق ومن وظيفة الى وظيفة .

وهذه قضية هامة جدا فى تطبيق مبدأ المساواة ، فان مانعنيه ، ان المتساوين يعاملون معاملة واحدة ، ولكن الناس لا يتساوون تماما فى كل المواهب ، فانت مثلا اذا اردت أن تعين مهندسا فالناس يتفاوتون فى صلاحيتهم لهذه الوظيفة ، أو اذا اردت أن تعطى معونة اجتماعية فالناس لا يتساوون فى استحقاقهم لهذه المعونة ، وانما يقضى مبدأ المساواة بأن تسوى بين المتماثلين وأن تفرق بين المختلفين .

ولذلك ، تطبيقا لهذا المبدأ حين يفاضل الاسلام مثلا بين الناس فى صلاحيتهم لامامة الصلاة ، فهو يراعى اعتبارات غير التى يراعيها فى اختيار الاصلح لامامة الناس اى لرئاسة الدولة وسياسة الرعية .. غير التى يراعيها فيمن يتولى القضاء وهكذا ، فنجد مثلا فى امامة الصلاة ، يؤم الناس أقرأهم واحفظهم للقرآن ، لان هذه الصلاحية لها دخل فى صلاحية أداء هذه العبادة أو اداء تلك الوظيفة . بالنسبة لسياسة الرعية وادارة أمور الدولة

يراعي فيمن يولى أن يكون له محبة وطاعة لدى قطاعات كبيرة من الرأى العام الى غير ذلك ، وهذا فى الحقيقة تفسير ما ذهب اليه كثير من العلماء فى العهد الاول فى اعقاب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام من اشتراط ان يكون الخليفة قرشيا .. لا لان قريشا افضل القبائل فذلك امر قد قضى عليه الاسلام حين جعل المسلمين سواسية كاسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى وانما لان قريشا فى ذلك الوقت كانت لها مكانة أدبية وسياسية يظن معها ويرجح أن تطيعها اكثر القبائل ..

وهكذا فالاسلام يسوى بين الناس اصلا فى حقهم فى أن يتولوا الوظائف العامة وان يحصلوا على خدمات الدولة، ولكنه بعد ذلك يراعى ما بينهم من اختلافات موضوعية تتعلق بالوظيفة التى يطلبهم لها أو الخدمة الاجتماعية التى يريد أن يؤديها اليهم . وهذا امر هام لان التقسيم والتصنيف والمفاضلة على اسس موضوعية ليست فى الحقيقة اخلالا بمبدأ المساواة وانما هى اعمال له ، ولقاعدة العدالة بصورة اعم واشمل وأوسع .

● احمد فراج : فى مجال المساواة فى أداء الخدمة لعلنا نجد فى مجال التطبيق صورا عديدة يشتهر عندنا منها ما قاله عمر بن الخطاب رضى الله عنه « لو عثرت دابة فى العراق أو فى الفرات ، لوجدتنى مسئولا عنها يوم القيامة ، لم امهد لها الطريق » وهذا النص يبرز قضية هامة هى أن الدولة تقوم بأداء الخدمات على مستوى واحد من العدالة والكفاءة ، لا تميز بين مكان وآخر ، بين قرية ومدينة قريبة أو بعيدة ، بل ان الانتفاع بهذه الخدمات لا يقتصر فى الدولة الاسلامية على الانسان وانما يتعداه الى الدابة التى يعتبر الخليفة نفسه مسئولا عن تعبيد

الطريق لها حتى لا يساءل فى ذلك يوم القيامة .

كذلك هناك ملاحظة اخرى بمناسبة ما ذكره الدكتور كمال أبو المجد فى شأن امكان تمـايز الناس فى مسائل الولاية أو الوظائف العامة .. فقـد يكون هناك من هو أصلح فى عمل معين عن غيره ، وقد يصلح هذا لما لا يصلح له ذاك . والمعيار فى التفاضل والصلاحيه معيار موضوعى بغض النظر عن مكانة الفرد او قربه من الحاكم ، كما يتمثل لنا ذلك عندما نرجع الى حديث لرسول الله قاله لابى ذر الغفارى نلمح خلاله أن أبا ذر تطلع الى ولاية معينة ، ورأى الرسول انه ليس لدى أبى ذر من الخصائص والمقومات اللازمة لهذه الولاية ما يجعله صالحا للترشيح لها ، فقال له « يا أبا ذر انها أمانة وانها يوم القيامة خزى وندامة ، الا من اخذها بحقها ، ووفى الذى عليه فيها » فالمساواة اذن فى مسائل الولاية أو الوظائف العامة ليست مطلقة أو حسابية .

● د . كمال أبو المجد : ولعل هذا فعلا يجمع فكرة ان التقوى التى هى أساس التفاضل ليست هى مجـرد التفاضل فى أداء العبادة ، وانما هى تفاضل موضوعى .. أى تفاضل قائم على أساس متصل بالمشكلة التى ندرسها، ان كانت عبادة ، فالأتقى بمعنى الاكثر عبـادة أو الاقرأ للقرآن وهكذا .. ويكون هو الاولى . وان كانت ولاية عامة ـ كما فى الحديث الخاص بأبى ذر ـ فمعيار الصلاحية يختلف . وفى رواية أخرى للحديث يقول له « ان فيك ضعفا » فاذن ليس هو أصلح الناس او افضلهم لهذا المنصب بالذات كما قال الاستاذ احمد فراج ، فالمسألة مرنة ولكن جوهرها أن الناس أصلا يتساوون ، وانه لايجوز التمييز بينهم بسبب اللون أو الجنس أو الدين ، وانما يجرى التصنيف والتقسيم بينهم على أسـاس

صلاحيتهم الموضوعية واستحقاقهم الثابت فى الخدمة أو الوظيفة أو المزية التى تطبق عليهم ، وهذا هو المدلول الاعم والاوسع للمساواة .

● سؤال من الجمهور : استأذن فى القاء بعض الضوء عن موقع الديموقراطية من الاسلام .. يقال ان الديموقراطية عنوان على عدالة النظام ، فما معنى هذا اللفظ فى الاسلام ؟

● د. كمال أبو المجد : أنا أريد أن أبرز شيئا .. فى الحقيقة ، هذه الاصول التى تحدثنا عنهـا وتلك التى نوشك ان نتحدث عنها بينها قدر من التداخل ، ففكرة الحرية فيها عنصر من عناصر المساواة لانك تسوى بين الناس فى ممارسة حريات وحقوق ، ونرجع اليهم باعتبار أصلهم الانسانى ، ثم فكرة الديموقراطية وما تقوم عليه مما هو معروف من مشاركة الناس جميعا فيها أيضا تسوية بينهم .. فى نشاطهم السياسى وفى مشاركتهم فى حكم أنفسهم ، الا أنه ونحن بصدد الحديث عن أمور سياسية ودستورية ، تشتغل البلاد كلها الان بالاعداد لها ، فنحن فى حاجة الى قدر كبير من الضبط ، أى نضبط حدود الفكرة التى نناقشها ثم نعرف مكانها فى الاسلام ، ونظرته اليها .

الديموقراطية كما هو واضح كلمة غير عربية .. هى كلمة من أصل يونانى تشير الى حكم الاكثرية أو حكم الشعب ، وهى بهذا تقابل وتختلف عن أنظمة أخرى يكون الحكم فيها لفرد أو جماعة أو لطائفة ، فجوهر فكرة الديموقراطية اذن ، هو مشاركة الجماعة فى حكم نفسها بنفسها ..

الاسلام يعرف هذا الاصل ولكنه يعطيه مصطلحا خاصا هو مصطلح « الشورى » ، لانه يفترض ان الجماعة حتى

ينتظم أمرها لابد أن يكون لهـا أمين ، رئيس ، راع .
والمشكلة حينئذ هى دور الجماعة فى اختيار هذا الراعى وفى مشاركته تبعات الحكم ، أى فى أن تشترك معه فى ادارة شئون الدولة . فالاسلام ينظر اليهـا اذن من زاوية الشورى . ولا تغرنكم الالفاظ ، لان التاريخ الاسلامى حين يعالج الشورى سواء فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو فى عهد الصحابة ، كان يعالج تطبيق مبدأ الشورى فى مجتمع بدائى من ناحية تركيبه الحضرى .. من ناحية تركيبه المدنى والاجتماعى . فاحيانا نرى ان الصورة التى طبق بها المبدأ فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام كانت صورة مبسطة ، فنتصور أنها شىء آخر غير الديموقراطية التى نراها هذه الايام منصوصا عليها فى الدساتير ، مقامة لها مجالس تشريعية ، تجرى لهـا عمليات انتخابية معقدة ، ولكن ينبغى ونحن فى مقـام التحليل أن نضع أيدينا على جوهر المبدأ .
ماذا صنع الاسلام بمبدأ الشورى ؟ ..

أولا : قرره كأصل عام فى نصين قرآنيين ، يصف المسلمين بأنهم « وأمرهم شورى بينهم » ثم يطلب هذا كواجب خاص على الراعى وهو رئيس الدولة فيقـول « فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر » هذه كلها اجراءات اتخاذ القرارات ، لانه يضيف بعـد ذلك « فاذا عزمت » عزما من عناصره الشورى « فتوكل على الله » ولكن اجراء اتخاذ القرار تدخل فيـه مشاورة الناس . الشورى اذن أصل من أصول النظام الاسلامى ، ولكنها شورى فى ماذا ؟ .. هى شورى فى عدة أمور ، فى مقدمتها اختيار الحاكم نفسه ، لانه بعد الرسول انتهت النبوة ، وكانت له مهمتان ، مهمة دينية هى التبليغ عن الله تبارك وتعالى ، وتعليم الامة شعائر وشرائع هذا الدين

القيم . المهمة الثانية : سياسة أمر المسلمين خصوصا بعد أن قامت لهم دولة وجماعة سياسية منظمة منذ عهد الهجرة الى المدينة المنورة ..

هذه الوظيفة الثانية ـ وهي سياسة أمر المسلمين ورعاية الدولة ـ يخلف فيها الرسول عليه الصلاة والسلام . على أن الخلافة لا تعني صورة معينة من صور الحكم ، وانما هي تعني مجرد تولي الامر بعد الرسول . والمعروف أن أبا بكر ما تولى بعد الرسول عليه السلام الا بعد محادثات ومشاورات ومناقشات في سقيفة بني ساعدة اقتنع معها الناس ـ بعد المداولة ـ بأنه لا يصلح لهذا الأمر الا شخص من قريش تدين له العرب ، ورجل يتمتع برضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وله صفات معينة تبين بعد المناقشات أنها متوافرة في أبي بكر . فكان الذي حدث في سقيفة بني ساعدة ـ وان بكر مبسطا ـ من الشورى والتداول لاختيار الأصلح ، كذلك تعاقب الامر بعد أبي بكر حتى ان الفقيه المشهور ابن تيمية ـ وهو يناقش استخلاف أبي بكر لعمر رضي الله عنهما ـ يقول : ان أبا بكر انما رشح عمر للناس وأنه كان بوسع المسلمين من بعد أبي بكر أن يختاروا رجلا غير عمر ، ولو فعلوا ذلك لكانوا ممارسين حقهم .

وهذا المعنى الجليل كان قبل الترشيح ، ولكن القرار النهائي بقي بعد ذلك لاجماعهم .. وهذا المعنى بهتت بعض معالمه ، فانتبه وردهم اليهعمر بن عبد العزيز حين استخلف لخلافة المسلمين .. فصعد المنبر ، وخلع ما في رقاب الناس له من بيعة ، وطلب اليهم أن يختاروا اختيارا جديدا مبتدأ انتباها وتنبيها الى أن هذا الأمر لا يكون الا عن رضا ، ولا يكون الا عن بيعة ، ولا يكون الا عن شورى . ولذلك كان الراجح المتعارف عليه فيالفقه

السياسي الاسلامي ان الامامة عقد يقوم على الرضى بين المرشح من ناحية وبين الامة من ناحية اخرى ، حتى اذا قضى وحكم ونفذ كان في ذلك كله مستندا الى رضى الناس . وكان الناس حقا وصدقا يحكمون انفسهم بانفسهم ، هذا ما يعبر عنه الان بانتخاب رئيس الدولة أو كبار المسئولين في الدولة .

بعد هذا اذا اختاروا حاكمهم تبدأ مهمة جديدة لهم، لان هذا الحاكم يصدر قرارات ويدير سياسة ، في أمور السلم والحرب ، الاجتماع والاقتصاد .. وكلها أمور تعود نتائجها على الرعية ، فغير معقول أن ينفرد بها .. لذلك شرع مبدأ المشاورة في ادارة أمور الدولة . رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهو المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى ـ كان كما تقول عائشة « أكثر الناس مشورة » تقول : ما كان أحد أكثر مشورة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك كان أبو بكر بعده ، كان اذا عرض له امر نظر في كتاب الله فان وجد شيئا قضى به ، وان لم يجد نظر في سنة رسول الله فان وجد شيئا قضى به وان لم يجد سالهم : أفيكم من يحفظ في هذا الامر شيئا عن نبينا ، فان وجد قضى به ، والا خرج وقال : أشيروا على أيها الناس ، فهذه الشورى في ادارة أمور الدولة وسياسة شئون الرعية هي العنصر الثاني من عناصر الشورى بعد اختيار الحاكم .

● سؤال من الجمهور : هل الشورى التى تحدثتم عنها شورى الخاصة أم شورى العامة من الناس . مثلا ام بهم المسلمين .. هل كان الرسول يستشير خاصة الصحابة أم يجمع المسلمين كلهم ويستشيرهم ، وفي الوقت الذى نعيشه اليوم هل يصح أن استشير العلماء في الامور التى تخص المسلمين أم أستشير عامة الناس حتى

فى الامور التى قد لا يفهمون فيها تماما ؟ ..

● د. كمال ابوالمجد : هذا سؤال مهم ، الشورى فى الحقيقة نوعان ، الشورى فى الامور الفنية والدينية .. وهذه لا رأى فيها الا لمن يعلم . وكما قلنا ان المساواة بين الناس لا تعنى أن يخوض كل أحد فيما لا يعرفه ، ولذلك كان الاصل « اسألوا اهل الذكر ان كنتم لاتعلمون» ولذلك ايضا كان للاجتهاد فى الاسلام شروط ، وليس كل أحد يحسن أن يفتى فى اى امر ، اما حين يتصل الامر باختيار الحاكم ، فالناس كلهم يختارون ، لان هذه المصالح تعم جميع الناس وتهمهم ، وحين يقتضى الامر تعرف رغبات الجماهير فى قضية عامة ، فهذه ايضا تستفتى فيها الجماهير ويؤخذ فيها رأى الناس جميعا ..

ولذلك كان الاسلام يعرف التمييز بين الفريقين ، أهل الحل والعقد ، وهؤلاء يشاورون فى المسائل الفنية ، واهل الشورى وهؤلاء يؤخذ رايهم فى كل امر . الان فى هذه الايام ، ايضا الامور الفنية تحتاج الى لجان متخصصة ، لذلك نجد فى الدساتير الحديثة أن هناك امورا يكتفى فيها برأى المجلس التشريعى ، وهناك أمور فنية تبت فيها لجان تنفيذية قد لا تكون منتخبة وانما هى لجان حكومية . وهناك أمور اخرى لايكتفى فيها برأى اعضاء مجلس الشعب وانما تطرح على الكافة فى استفتاء شعبى لانها تمس الناس جميعا وتحتاج الى أن يعرف الحاكم اتجاهات الرأى العام كله ..

فالجوهر أن الناس جميعا اصحاب حق فى حكم انفسهم ، ولكن هناك ثلاث درجات ، مسائل فنية خالصة يؤخذ فيها برأى الفنيين ، مسائل تشريعية يؤخذ فيها برأى ممثلى الشعب المنتخبين ، وبعض مسائل يحتاج فيها

الى معرفة رأى الكافة فيعقد لها استفتاء عام ..

روح الاسلام لا تنكر هذا ، وكما قلت لا تتوقعوا ان تجدوا فى السوابق الاسلامية كل هذه التفاصيل ، ولكن السوابق الاسلامية تؤكد وجود مسائل فنية تحتاج الى رأى أهل الفتيا ، ومسائل عامة تحتاج الى مشورة أهل الشورى . فهذا أصل يرتضيه الاسلام » وله تطبيقات ازدادت وضوحا وضبطا وتحديدا مع زيادة الحياة الاجتماعية تعقيدا وضبطا وتحديدا .

● أحمد فراج : يحضرنى هنا مثال اقطع فيه ابو بكر أرضا لبعض الناس بعد أن شاور من كان فى مجلسه ، ولم يكن فيهم عمر ، وأمرهم أن يرجعوا لعمر فان أقرهم صارت الارض لهم . فذهبوا الى عمر الذى كان مشتغلا ببعض عمله فعاد معهم الى أبى بكر وساله عما اذا كانت الارض تخصه ، فقال ابو بكر : لا . فساله عمر : فهلا استشرت ؟ قال : نعم استشرت من حولى . قال : فهل هى ملك لهم . قال : لا هى للمسلمين جميعا . فقال عمر : فهلا أوسعت المسلمين مشورة ..

● د . كمال ابو المجد : وأنا فى الحقيقة يحضرنى مثال آخر فى نفس الامر .. رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستأذن الناس فى أن يحرمهم من شيء مما يستحقونه فى توزيع الغنائم ، فاستشارهم فقالوا : نعم . فقال عليه الصلاة والسلام : « لا ، انا لم نعلم من طاب منكم نفسا ممن لم يطب ، ارجعوا الى عرفائكم » أى لم يقتنع بهذه الموافقة المجلسية وانما طلب اليهم الرجوع الى قواعدهم الانتخابية ـ اذا صح هذا التعبير ـ ليأتوا اليه برأى أعم وأشمل .

الحكم فى الاسلام

● احمد فراج : بعد الحديث عن الحريات وعن الاخوة وعن المساواة بكل جوانبها وعن الديموقراطية ، ننتقل الى سيادة القانون . ففيما يختص بسيادة القانون نود أن نعرف أولا : ماجوهر الفكرة فى نظر الاسلام ؟..

● د . كمال ابو المجد : سيادة القانون فى بساطة ، معناها أن أعمال الناس كلها فى الجماعة على اختلاف مسئولياتهم فى ادارتها وحكمها ـ ابتداء من أكبر كبير الى أصغر صغير ـ لا تكون صحيحة ، ولا جائزة ، ولا مشروعة الا بقدر اتفاقها مع القواعد العامة التى يعبر عنها بالقوانين ، والتى تعيش الجماعة كلها فى ظلها ..

فالجماعة تعتبر جماعة تعيش فى ظل سيادة القانون اذا كانت الكلمة العليا فيها لقاعدة عامة مقررة ومعلنة ويعرفها الناس ، وليست ارادة بشرية ترى شيئا اليوم وتعدل عنه غدا . هذا جوهر فكرة سيادة القانون ، وهذه الفكرة أصلها فى الاسلام واضح . الله تعالى حين أرسل رسوله محمدا عليه الصلاة والسلام ، لم يجعل من محمد النبى بارادته البشرية ـ الفردية ـ صاحب الامر والنهى فى جماعة المسلمين ، وانما جعل النبوة نفسها مقيدة بقاعدة تحكمها كما تحكم الناس ، هى نصوص القرآن الذى يوحى به وحيا الى النبى صلى الله عليه وسلم ، ولذلك

تقول الآية الكريمة : « وكذلك جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » ..

فكأن الرسول عليه الصلاة والسلام ، والجماعة المسلمة كلها اقيمت على أمر مستقيم هو قاعدة عامة نزل بها الوحى ، ولم تنزل عند ارادة فرد ، ولو كان هذا الفرد هو محمد بن عبد الله .

ونجد توكيدا لقاعدة سيادة القانون فى أول وثيقة معروفة .. هى ذلك العهد الذى كتبه النبى صلى الله عليه وسلم حينما دخل المدينة المنورة ، وعقد اتفاقا بين اهلها وقبائلها ومن أقام معهم وجاورهم من اليهود ، فانه نص على القاعدة التى يرجع اليها اذا اختلف الناس فجاء فى هذا العهد .. « وأنه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار » .. اى مشاجرة « يخاف فساده ، فان مرده الى الله عز وجل ، والى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان الله على أتقى مافى هذه الصحيفة وأدق » .. فكأنه وضع قاعدة قانونية تحكم هذه الجماعة حين تختلف فى شىء ، وهذا تطبيقا لقوله تعالى .. « فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول »

هذا الرد الى الله والرسول هو احتكام عند الأختلاف الى قاعدة تحكم الناس جميعا فى الجماعة ، والمبدأ بهذا المفهوم ليس مبدأ نظريا ، وانما له فوائد محققة ، وأنا دائما أعتقد أنه بقدر معرفتنا بوظائف المبدأ يكون تمسكنا به ..

لماذا يقف الناس وراء المبدأ الديمقراطى ؟ .. لانهم يؤمنون بانه يؤدى وظائف تنفعهم فى معيشتهم . لماذا نتمسك اليوم بسيادة القانون ؟ .. لماذا يحرص الاسلام على اعتبار سيادة القانون أصلا من الاصول الدستورية ؟ لان هذا المبدأ يؤدى وظائف لابد أن نعرفها : الوظيفة الاولى انك

وأنت تخضع لقاعدة فى كل أمورك .. على مستوى مصنعك .. على مستوى مدرستك .. على مستوى وزارتك .. على مستوى الدولة كلها ، على مستوى اى عملية تجرى فى بناء الوطن كله ، فانت تطمئن انك وجميع المشاركين فى العمل تنزلون عند قاعدة ، فتكونون جميعا بمنجاة من أهواء البشر .. لانه لا بديل لأهواء البشر الا النزول عند القاعدة

الوظيفة الثانية أنك فى حياتك اليومية والمعيشية والادارية والسياسية ، حين تعرف وجود قاعدة عامة معلنة سلفا ، فانت تستطيع أن ترتب أمورك وأن تدير شئونك وأن تجرى مصالحك على أساس هذه القاعدة التى ستحكمك اليوم وغدا الا اذا غيرت ، أما حين تختفى هذه القاعدة ، فانت لاتستطيع ان ترتب أمورك لافى معاشك ، ولا فى ادارتك ، ولا فى سياستك . فامكان الترتيب .. ترتيب الامور على أساس قاعدة معروفة هو النعمة الثانية من نعم مبدأ سيادة القانون ، ثم ان وجود القاعدة يكفل المساواة مادام المسئول فى اى قطاع من القطاعات ينزل عند حكم القاعدة ، فالناس بخير والناس باطمئنان لانه لن يميز بينهم ، يصدق هذا فى الامور السياسية وفى الامور المالية ، ولعل من تطبيقاته الهامة فى التاريخ الاسلامي مانسمعه من عمر وهو يتحدث عن تطبيق القواعد فى توزيع الاموال على الناس ، يقول عمر « والله الذى لا اله الا هو ، ما أحد الا وله فى هذا المال حق أعطيه أو منعه ، وما أحد أحق فيه من احد ، وما انا فيه الا كأحدكم ..

واسمعوا هذا .. فهذا مبدأ سيادة القانون .. « ولكنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل ، وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فالرجل

وبلاؤه فى الاسلام ، والرجل وقدمه فى الاسلام ، والرجل وغناؤه فى الاسلام ، والرجل وحاجته فى الاسلام » فعمر حين يوزع .. انما يوضح أن توزيع الاموال فى الاسلام انما لاينفرد به المسئول يجريه يمينا وشمالا ، وانما تحكمه ضوابط ، يعطى أولا أكثر الناس بلاء واجتهادا ثم يتدرج العطاء حتى يعطى صاحب الحاجة ..

هذه القواعد .. قواعد اقرها الكتاب وأقرتها السنة ، وهو مايعنيه عمر بقوله .. « ولكنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم » .. فهذا الترتيب لم يأت به عمر من نفسه ، ولم يتبع به هوى ، وانما الجماعة التى تعيش فى ظلال سيادة القانون تنزل عند حكم القاعدة فى أمور الاموال وفى غيرها .

● أحمد فراج : قلنا ان المساواة ليست مساواة حسابية وانما مساواة بين المتماثلين ، وأن هناك بعض الظروف الموضوعية التى قد تجيز نوعا من التفاوت بين الناس فى قضية المساواة .. فاذا ما أردنا ونحن نتكلم عن سيادة القانون ان نتذكر هذه القاعدة ، هل يمكن أن نتصور أن هذا التفاوت قائم ، أم هناك تطبيق عام .. هل ينسحب على سيادة القانون نفسه ؟

● د. كمال أبو المجد : ان مبدأ سيادة القانون معناه أن القاعدة تطبق على الجميع ، هذه القاعدة نفسها لاتخل بمبدأ المساواة اذا كانت تجرى تقسيما موضوعيا . ولذلك فالمثال الذى قلناه الان يؤكد امرين : الأمر الاول أن عمر وأن أى مسئول فى ظل الاسلام لايتبع ارادته وهواه ، وانما ينزل مع الناس جميعا عند حكم القاعدة .

ولذلك قال : « ولكنا على منازلنا من كتاب الله ، وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم » .. اذن

هو اتبع القاعدة .. القاعدة فى مضمونها وفى اعمالها على الناس ليست قاعدة عمياء ، تطبق أسلوبا أو معيارا حسابيا .. آليا ، ولكنها تدخل فى حسبانها الفوارق الموضوعية . فهذا العطاء لايذهب الى الناس على اساس مساواة حسابية ، وانما يدخل فى حسبانه غناء الناس للناس .. قدرتهم على النفع .. اسهامهم الفعلى فى النفع . ثم يدخل بعد ذلك فى حسبانه حاجة الناس ، لايعطى المستغنى كما يعطى المحتاج ، ولذلك بدأ بالتفاضل على أساس الجهد والعمل .. ثم وصل الى التفاضل والتمايز على أساس الحاجة . اذن هو يعمل بالقاعدة ، ولكن القاعدة قاعدة مبصرة تدخل فى حسبانها مايكون بين الناس من تفاوت ، وترتب عليه اختلافا فى المعاملة هو تأكيد لحكم القاعدة وهو نزول عند مبدأ المساواة وليس حكما

● احمد فراج : فماهو الحال فى نصوص العقوبات مثلا ؟

● د. كمال ابوالمجد : فى حالة نصوص العقوبات ـ وهذا شيء مهم جدا ـ كان التشريع فى بعض الانظمة السابقة على الاسلام يشدد العقوبة على الضعيف ويخففها على القادر ، وكان هذا شذوذا . جاء الاسلام فنقضه ، لانه يميز على أساس موضوعى مفهوم ، فالآية القرآنية التى تتحدث عن نساء النبى عليه الصلاة والسلام .. وترتب حكما مؤداه أن من تأتى منهن بفاحشة لا قدر الله ، فان لها ضعفين من العذاب لماذا ؟ لان عليها مسئولية مجسمة مضاعفة بحكم أن الوحى ينزل فى بيتها ، وان صحبتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتم وأكمل ، فلما كانت مسئوليتها أكبر ، كان عقابها أشد . هذا تقسيم موضوعى منصف وعادل ، خلاف التقسيم العكسى الذى يستغل ضعف الضعيف

ليشدد عليه العقوبة ويستعمل معه القسوة ، أنكرها الرسول صلى الله عليه وسلم حينما قال « .. انما اهلك الدين كانوا من قبلكم .. أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد » ....

● أحمد فراج : انما الاصل فى العقوبة المساواة ، فالجريمة الواحده مثلا لها عقوبة ، بغض النظر عن الاشخاص ...

● د. كمال أبو المجد : نعم ، الجريمة الواحدة لها عقوبة بغض النظر عن الاشخاص فى منازلهم .. فى ضعفهم وقوتهم .. فى جهدهم .. فى لونهم .. فى دينهم ، كل هذه الامور لا اعتبار لها فى نظر الشارع الاسلامى حين يتصل الامر باعمال القاعدة القانونية .. القاعدة الشرعية.

وتذكرون مثال عمرو بن العاص حينما ضرب ابنه ابن المصرى القبطى ، أصر عمر على أن ترد العقوبة الى ابن الامير هذا واصر على أن ياتى هذا القبطى وان يضرب ابن الاكرمين كما يقول عمر فى هذه الواقعة المعروفة

● أحمد فراج : حينما ناتى الى الضمانات التى وضعها الاسلام لتحقق سيادة القانون ، ماهى هذه الضمانات ؟

● د. كمال أبوالمجد : فى الحقيقة ان سيادة القانون فى الانظمة كلها لها ضمانات ، حراسة الناس لها ، وقيام القضاء العادل . وحراسة الناس للقاعدة فى تقديرى هى الاهم .. فكل الدساتير تنص على شىء شبيه بهذا ، ولكن الناس الدين تجرى عليهم احكام هذه الدساتير ان لم يكونوا مؤمنين بهذا المبدأ ، فلن يستطيع القضاء وحده أن يحميهم . ولهذا تحتاج الوثائق الدستورية دائما الى أن تشتمل على نوع من التربية السياسية حتى يعرف الناس قيمة المبدأ . القرآن الكريم ، والسنة النبوية حين

قررت هذه المبادىء .. ربت الناس عليها ، وعودتهم على احترامها ، وجعلت للرأى العام سلطانا كبيرا ، ولهذا نجد تشديدا دينيا كبيرا على الذين يتركون الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لانهم لايرتكبون جريمة فى حق انفسهم ، وانما يرتكبون جريمة فى حق الناس . اذا ضاع سلطان الرأى العام .. سقطت سيادة القانون ، ولكن من الناحية العملية التطبيقية يحتاج الامر الى ضابط محدد .

بالنسبة للامر الاول نجد الحديث المشهور « اذا رأيت امتى تهاب أن تقول للظالم ياظالم فقد تودع منها » .. لماذا تودع منها .. لان سيادة القانون فيها ستذهب ولن يكون لها قيام ، ولكن ننتقل بعد ذلك الى الضمان العملى التفصيلى ، وهو قيام قضاء يرد الامر الى نصابه ، كلما هم أحد فى الجماعة صغيرا أو كبيرا بانتهاك حرمة القانون ، والخروج على الدستور . ولهذا يجمع الناس — قديما وحديثا — على أن القضاء هو الضمان الفعال لتستمر الجماعة تحت ظلال القاعدة القانونية ، وفى ظلال مبدأ سيادة القانون .

ولهذا عنى الرسول صلى الله عليه وسلم منذ انتشر الاسلام على أن يرسل ولاة .. هم ولاة ومعلمون ، وهم فى نفس الوقت قضاة يفصلون فى القضايا ويعملون حكم القانون ، والواقعة معروفة حينما أرسل معاذ بن جبل الى اليمن ، أرسله لهم معلما وأرسله لهم مبلغا .. وأرسله لهم أيضا قاضيا ، وأكد هذا المعنى الأخير حينما سأله .. « يامعاذ اذا عرض لك قضاء فبم تقضى ؟ » .. قال : « بكتاب الله » .. قال فان لم تجد .. قال فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال .. « فان لم تجد » .. قال .. « أجتهد برأيى ولا آلو » .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يرضى الله ورسوله » ..

نستخرج من هذه الواقعة بان رسول الله عليه الصلاة والسلام عنى عناية خاصة بأن يكون فى الامصار قضاة يحملون ميزان العدالة فى حياد وأمانة وموضوعية وانصاف يعلو بهم صوت القانون ، ونجد ابتداء من عهد عمر أنه بدأ يخصص قضاة للأمصار ، فأرسل شريح الى الكوفة ، وشريح من أكبر القضاة المعروفين ، وأبا موسى الاشعرى وهو أيضا من كبار القضاة العدول الى البصرة ، وارسل لهم رسالة لاتزال الى يومنا هذا صالحة لان تكون دستورا للقاضى فى سلوكه الذى يتحقق به الحياد ، وفى سعة صدره وسعة أفقه التى تتحقق بها فرص الاهتداء الى الحق ، لان ماهو القضاء ، وبماذا يمتاز القضاء عن أى سلطة ؟ يمتاز القضاء بأمرين : حياد القاضى ، أى أنه لاينحاز الى هذا المدعى ولا ينحاز الى ذلك المدعى عليه . حتى ينصفه ينبغى أن يكون عادلا .. محايدا ..

الامر الثاني أن يفسح صدره لسماع ذاك الرأى وهذا الراى ، وأن يقلب الامور ويعمل الفهم حتى يأتى حكمه مؤيدا العدل والصواب ، وشدد الاسلام وشدد عمر فى هذه الرسالة التى تعتبر دستور القضاء فى حياد القاضى ليس فقط فى المسائل الموضوعية وانما حتى فى المسائل الشكلية حتى يطمئن الافراد الى أن هذا القاضى يسوى بينهم ، فجاء فى هذه الرسالة .. « وآسى بين الناس » — أى سوى بينهم — « فى عدلك ووجهك ومجلسك » فهو لايعطى واحدا فرصة حديث أكثر من الاخر ، وهو لايقبل بوجهه مبتسما على خصمه ويشيح عن الاخر ، ولا يقرب

واحدا منهم من مجلسه ويترك الاخر واقفا فى آخر القاعة مثلا ، لانك اذا ميزت فى هذه الامور المظهرية تركت عند المتقاضين شعورا بانهم ليسوا أمام محكمة عادلة ..

الامر الثالث ان القاضى ينبغى أن يكون مصونا .. ينبغى ان يكون هو نفسه آمنا ، لان القاضى الذى يهتز تحته الكرسى فان العدالة لاتهتز فى نفسه .. فان القاضى لايعنيه ، وانما تهتز فى نفس المتقاضى .. فى نفس المدعى والمدعى عليه ، ولذلك نقول باصرار ويقول الاسلام معنا بروحه .. « ان استقلال القاضى هو ضمان المتقاضى » .. وحين تعنى الدساتير ، وحين نحرص فى هذا الدستور الجديد على توكيد أن القضاة غير قابلين للعزل ، وان القضاء سلطة مستقلة .. فنحن والاسلام معنا فى هذا ، لا نفرد القضاء بامتيازات ، ولا نخص القضاة بحصانات لاشخاصهم ، انما يفعل الناس ذلك ، ويفعل الاسلام ذلك ، وفى خاطره الجمهور .. ارباب القضايا .. المتقاضون الذين يستمدون عدلا وضمانا من استقلال القاضى ومن خبرته ..

ولذلك نجد مكانة القاضى فى الاسلام كانت مكانة كبيرة ، وكانت مسئولية جسيمة ، ولذلك اشفق بعض الائمة منها على أنفسهم .. ونحن نعرف محنة أبى حنيفة حين رفض القضاء ، ونحن نعرف كيف علم قضاة المسلمين ان قاضيا فى الجنة ، وقاضيين فى النار ، من شدة هذا الامر ، وما يتطلب فيه من عدل وحياد وحزم ، وارتفاع على كل مظان للهوى والخوف ، هذه طبيعة القاضى .

- والحقيقة ان المميز ليس القاضى وانما هو المتقاضى ، فهذا اسراف فى منح الضمانات للمتقاضى ، ثم هو تميز يقابله مبالغة فى التشديد والمسئولية فى الاختيار

وفى المساءلة ، لانه لايوجد لا فى النظام الاسلامى — ولا فى غيره — منصب يعفى صاحبه من المسئولية . القاضى عليه ان يمشى ناسيف والميزان ، واذا حاد كان لدلك جزاءات مقرره ومنظمة . الحقيقة القضاء فى الاسلام سبق سبقا بعيدا ، فلم يقتصر على الصور التقليديه ، وانما انشأ صورا غريبة ، وقضى فى أمور تلفت النظر ، الاسلام عرف نظامين شبيهين بالقضاء . وهذا توكيد لانه يقصد مصالح الناس .. يعرف او عرف ماسمى بوالى الحسبة ، المحتسب ، وهو نظام ليس قضائيا من كل وجه ، ولكنه يدخل فى حديثنا عن سيادة القانون .. موظف خاص ، والى من الولاة يجوب الاسواق ، ويتفحص مرافق الدولة حتى اذا وجد خللا اتصل بولى الامر لاصلاحه ..

ومن الغريب ان هذا النظام الذى استمده الاسلام انطلاقا من فكرة « الامر بالمعروف والنهى عن المنكر » .. وحفاظا على سيادة القانون ، وحرصا على اطمئنان الناس الى ان العدالة تاخذ مجراها ، وأن عين الدولة تراقب لتبحث عن الظلم فتقاومه ، وجدنا فى عصرنا هذا نظاما عظيم الشبه بنظام والى الجسبة تاخذ به دول الشمال فى أوربا يعرف باسم «نظام الرقيب البرلمانى» اذ يعين البرلمان شخصا تكون مهمته ان يفتش وان ينطلق مراقبا الادارة حتى اذا وجد فى أعمال الموظفين والادارة خللا أو ظلما او خروجا على القانون ابلغ ذلك للبرلمان ، واتخذت سلسلة من الاجراءات نهدف الى رد الامر الى نصابه ، فنظام والى الجسبة فعلا وبالامانة التاريخية من الانظمة التى سبق بها الاسلام .. نظام القضاء الادارى

● أحمد فراج : من الغريب ان هذا النظام ازدهر فى مصر بالذات ازدهارا رائعا ونحن الان لا نكاد نعرفه .

● د. كمال أبو المجد : رغم أننا نحتاج الى مثل هذا النوع من الرقابة . نظام القضاء الادارى الذى تسلط به فكرة سيادة القانون على ادارات الدولة نفسها ، والذى ينشىء لها فى الانظمة الحديثة نظـــام مجلس الدولة ، عرف الاسلام شيئا شبيها به أو يدخل فى اطار نفس الفكرة العامة ، وهو نظام والى المظالم أو ديوان المظالم ، وجعل من وظائفه الرئيسية النظر فى شكوى العامة من العمال .. أى موظفى الدولة ، وهـــو ما نســـميه بالمصطلح الحديث .. « دعاوى الافراد ضد الموظفين العموميين »

الدكتور مهدى بن عبود

الاسلام ... ومشاكل الشباب

« ناهيكم بما ضربه الاسلام من مثل عجيب .. فانه رغم فقر الرقعة الارضية التى انطلق منها ، ورغم ضعف الوسائل العسكرية ـ أى الجيش ـ ورغم قلة عـــدده ، ورغم ضيق النطـــاق فى الثقـــافة فى ذلك الوقت فانه اجتاح فى فترة وجيزة رقعة الارض من الهند الى البحر الاطلسى كأنه اعصار ايدلوجى »

● أحمد فراج : نرجو أن يتفضل الدكتور مهدى بأن يعطينا صورة للشباب المسلم — كما يراها — فى العالم الاسلامى كله ، بحكم أسفاره ، واتصالاته ، وقراءاته العديدة ، وكيف يرى هذا الشباب الآن ..

● الدكتور مهدى بن عبود : الشباب شغل شاغل للرأى العام العالمى — لا العربى أو الاسلامى فقط — ذلك بما وقع من عواصف ثورية على أيدى الشباب فى العالم بأسره فى القارات الخمس ، فى كوريا .. بالاطاحة بحكومة سيجمان رى .. وفى الولايات المتحدة التى كانت نقطة الانطلاق لحركة الشباب المتمردة على الاجيال السابقة . فى اليابان .. فى افريقيا .. فى أسيا الوسطى مثل تركيا مثلا ، وفى أوروبا على وجه الخصوص بعد الحوادث التى وقعت فى فرنسا قبل سقوط حكومة ديجول ، وفى ايطاليا ..

والعالم كما يقال اليوم هو رقعة من الارض واحدة فى مظهرها على وجه الخصوص ، وفى بعض جوانب جوهرها . الشباب بكيفية عامة يتميز بخصال حميدة ، وخصال أخرى ينبغى اصلاحها ، الخصال الحميدة هى : الصدق فى الشعور ، والاستقلال من مؤثرات الجاه ومؤثرات المال نظرا لكونهم لايزالون فى طور التكوين .. والمستقل

من تأثير المال عليـــه وتأثير الجاه عليـــه يتمتع بفـــكر يتميز بالشجاعة والاقدام ، وحتى بالوضوح فى بعض الاحيان ٠ الشباب المسلم يتأثر بغيره ، كما أن غيره يتأثر بما يجرى خارج حدود وطنه ، لكن الخصـــال التى ينبغى اصـــلاح بعض الجـــوانب منها هى أن الشـــباب فى فترة الزمان المحدود — بين المراهقة والكهولة — ناقص الخبـــرة من ناحية ، ومن ناحية أخرى كلما كان ناقص الخبرة ٠٠ كان عنيد الفكر ٠

فمن الناحية الايجابية، الشباب صادق وفكره مستقل ٠ ومن ناحية أخرى سـلبية الشباب فى نقصـــــان اختباره وتجاربه الى أن يصل الى طور الاربعين ، وهذا شيء معقول ومنطقى ٠ الشباب فى العالم اليوم ، كما تعلمـــــون وكما سمعتم أكثر من مرة ، يمر فى هذه الحقبة من التاريخ التى نعيشها فى النصف الاخير من القرن العشرين بطور يتميز بالقلق أو ببحث الانسان عن نفسه ٠

وهذا القلق متأصل من الاجيال السابقة التى مرت عليها غطرسة بعض الاشياء فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر ، والنصف الاول من القرن العشرين ٠ الغطرســـة الاولى أو السيطرة الاولى هى الغرور ، الغرور أولا بالمال ، وثانيا بالجاه ، وثالثا بما يسمى بالعلوم (بالجمع) ، كالكيمياء والفيزياء أو العلوم الصناعية التى أدت بالانسان إلى نوع من القوة اغتر بها ، وظن ان هذه القوة وهـــذه العلوم تحل محل العرفان الذوقى الروحانى ٠٠ الذى عليه وحده يقوم أساس الشخصية البشرية ، فبما أنه وقـــع اختلاط فى الذهن البشرى خصوصا فى الغـــرب بين ما يسمى بالمعارف الصناعية والمعـــارف العرفانية ، أصبح الانسان يدور فى حلقة مفرغة ، لانه بغروره معتد بنفسه كأنه حصل على آخر مرحلة من المعرفة الانسانية ، غافلا عن

القاعدة القائلة .. « بأن فوق كل ذى علم عليم » .. وأن العلوم تطور ، منها ما يصلح نفسه ، ومنها ما يلغى ومنها ما يضاف اذا كان ايجابيا ثابتا ، وأدى به هذا الغرور الى فراغ معنوى .

وهذا الفراغ المعنوى له جانبان واضحان : الجانب الاول هو أن المسئول عنه هيأه لنفسه ، والجانب الثانى هو أنه وقع شىء من الدس المقصود من الحركة الصهيونية فى العالم ، التى آلت على نفسها أن تروج فى العالم أفكارا تقول هى بنفسها .. « نعلم بأنها خاطئة ، وبأنها مضرة » .. وأننا سنروجها فى العالم لنستأثر بالحقيقة الواحدة التى ينبغى أن يتميز بها شعب الله المختار .. ودفعوا الناس الى الفكرة العلمانية على شكل مذاهب ، الى حد أن واحدا منهم واسمه « كاذمى كوهين » فى كتاب عنوانه « الرحل » يصف فيه الجنس السامى ويركز على القسم اليهودى ، يقول بكل اعتداد بالنفس ما ترجمته حرفيا :

« ان اسم تروتسكى واسم روتشيلد يمثلان تموجات العقلية اليهودية . بين هذين المعلمين تتقمص الجماعة كلها فى القرن العشرين والحضارة كلها فى القرن العشرين . ففى هذه الحلقة المفرغة التى يخلط فيها الانسان بين المعارف الصناعية التى تصله حتى الى القمر ، وبين المعارف العرفانية التى تقوم بها شخصية الانسان الايجابية .. المطمئنة الشجاعة المملوءة بالخصال الحميدة المعنوية ،والتى تجعل من الانسان عالما بموقعه فى الوجود لا من ناحية تكريمه ولا من ناحية تواضعه ، فى هذا التخليط ، لم يترك السلف للخلف الحاضر الا الفراغ المعنوى بشهادة كاتب بلجيكى يقول فى أحد كتبه : « الانسان المعاصر لا يفكر ، أو انه لم يفكر بعد ولكنه يعلم كثيرا » .

وهنا نرى فى القسم الاول من شهادته ، الفراغ المعنوى .

نظرا للغفلة عن المعارف العرفانية ٠٠ الذوقية ٠٠ المعنوية ٠٠الروحانية ٠٠وعن المعارف الصناعية من علم الرياضيات الحسابية الى علم النبات مثلا ، فالشـــباب ورث الفراغ وتمرد ، وعندما تمرد تمزق باطنه وأصبح يشعر بالشقاء، لانه أشرك • فالجيل السابق اشرك ، فلم يترك الا الشقاء المعنوى للخلف •

ما معنى أشرك ؟ المعنى أنه بدلا من أن يركز نفسه على وحدة الحق التى يستقى منها وحدة العقل ـ ومنها وحدة الروح ووحدة النفس ـ والمســاواة بوحـدة النفس فى الحقوق والواجبات ، ووحدة الانسانية بالغـــاء العنصرية والغاء الفوارق الى غير ذلك ، اشرك ٠٠ فعوض هذه الخطة ، وهى مايسمى بالعبادة (لان لفظ عبادة بمعنى عبد اى عرف ، « ماخلقت الجن والانس الا ليعبدون » ٠٠ بمعنى الا ليعرفون بناء على الحديث القدسى القائل ٠٠ « أحببت ان اعرف ، فخلقت الخلق ليعرفونى » ٠٠) فهذه المعارف العرفانية الغيت واشركت أن خلطت ، ودخـل التخليط والتعكير فى صفو العرفان الموحد ، أولا بالمال ٠٠ فلم يعبد العجل فى أى زمان من الازمان مثلما يعبد اليوم ، أما اسمه باسم المال ٠٠ باسم النقود ، واما اسمه باســم الترويج الاقتصادى الى غير ذلك ، أو بالرايات والوطنيات ، فترى فرنسا تحارب ايطاليا جارتها على الايمن ، أو بريطانيا فى ايام نابليون ونلسون . فأصبح الناس فى شقاء اجتماعى بعد الشقاء المعنوى بالحروب والتهافت على أشياء يظنون بأنها منبع الســـعادة ، وهى فى الحقيقة ما هى الا منبع الرفاهية فقط • وشتان ما بين الرفاهية عند المريض ٠٠ والسعادة والصحة والسلامة عند الفقير ، فأصبح هـــذا الباطن ممزقا ، للاشراك . وأصبح الانسان يرى فى نفسه أنه غريب على وجه الارض او كما يقول أحد فلاسفة الغرب

« انه ملقى به على وجه الارض » .

وهذا المعنى مصور بكيفية بديعة فى قول الله تعالى .. « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء » . (أى ملقى به على وجه الارض) .. متلوف وممزق « فتخطفه الطير » .. وهنا التمزيق والشقاء الباطنى .. « أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » .. يشعر بالغربة فى هذا الوجود

.. بالاغتراب وأصبح الشباب يتمرد ويتمرد وهو فى الفراغ ، فيخرج من دور وتسلسل الى دور وتسلسل.. ومن فراغ الى فراغ ، نظرا لكونه لم يهتد الى شىء وهو آنه كما أن العلماء يقولون عن الطبيعة انها تنفر من الفراغ، كذلك القلب العرفانى الانسانى ينفر من الفراغ ، فلا بد له من عقيدة تملؤه وتسير به ، وتجعله يقلب الجبال .

فنرى اليوم بأن العالم بأسره متخلف ، منه مثلنا من هو متخلف ماديا ومعنويا ، فلا هو بمتاع الدنيا ، ولا هو بخير الآخرة ، نظراً للحساب المنتظر بعد القبر . وقسم يتمتع برفاهية الدنيا ، ولكنه فى شقاء باطن الى حد أنه قيل عن الأمم الاسكندنافية التى تعيش فى رغد ، وفيما يسمى بالديمقراطية ، وفى مساواة فى الواجبات والحقوق ، يقال عنهم .. ان أرقى الناس أشقاهم ، بكثرة الانتحار ، وكثرة الهم والغم واطفاء لهيب الهم والغم بالمسكرات ، والادمان على المسكرات ، والانسياق الى المستشفيات العقلية .

ومن أغرب ما يشاهد فى شباب اليوم التقليد الاعمى . فعندما يطول الغرب الشعور ، نطول الشعور ، وعندما يقصرون السراويل ، نقصر السراويل .. الى غير ذلك ، مما يدل على عدم النضوج وعدم التمتع والاتصاف بأفضل خصلة يتصف بها الانسان وهى استقلال العقل ، فى مقابل حرية الفكر المدسوسة فى هذه الاديان ، وهذه العقائد .

فواجبنا اليوم هو أن نرى أولا كيف هو شباب العالم الاسلامي والعربى . فيه المقلد ، وفيه المتحفظ ، وهـذا المتحفظ هو رصيد لاصلاح حال المقلد ، وانتشاله من هذا التقليد الاعمى ، فصورة الشباب الاسلامي اليوم هي صورة غير متجانسه لان ما يمزق رقعتها هو التقليد ،ومن أغرب ما يرى هو أنه اذا أخذنا الفترة التى تتراوح ما بين العشرينات حتى اليوم ، نرى أنه مرت على ما يسمى بمبدأ « الوطنيات » أو « القوميات » دس لتمزيق رقعة الامبراطورية المجرية النمساوية ، وخلق وحدات فيها ضعيفة نظرا للقوة التى كانت عند المجموع ، فكان الناس ينادون كذلك ــ على اساس ان هذا تقدم في العقل البشرى ــ بالقومية والوطنية ، فلما جاءت القمصان الحمر .. جاءت القمصان الحمر عندنا . ولما جاءت القمصان الصفر ، جاءت القمصان الصفر عندنا ، ثم كان الكتاب يقولون بأن الادب القديم يتطرق اليه الشك ، فقلنا كذلك بأن الادب القديم يتطرق اليه الشك ، الى غير ذلك . الشباب لازال يقلد ، ولو قرب سنه من سن الاربعين ، وهى سن النضوج .

ثم القسم الايجابى منه هو أن هذا الشباب ينبغى ان يفهم بأن له دوراً كبيرا يلعبه فى هذه الدنيا .

● أحمد فراج : ظهرت فى مطلع حياة الامة الاسلامية حضارة فريدة من نوعها فى تاريخ الحضارات ، والذى يهمنا أن نلتفت اليه ، ونؤكد عليه فى هذا الصدد ، هو الدور الذى قام به الشباب فى صنع هذه الحضارة . كيف يمكن أن يقوم الشباب مرة أخرى ، وهو كما قلنا فى البداية مستقبل الامة ، بالمشاركة فى صنع حضارة جديدة تقوم فيها العقيدة بهذا الدور الذى يملأ الفراغ ، والذى يشبع الخواء الروحى .

● الدكتور مهدى بن عبود: الحضارة أسلوب حياةوعيش كما أن الثقافة أسلوب تفكير • فالثقافة بالنسبة للحضارة كالروح بالنسبة للجسد ، والحضارة بالنسبة للثقافة كالمظهر بالنسبة للجوهر • الحضارة الاسلامية قامت على الرجوع الى الطبيعة الفطرية للانسان الضاغطة على العقل بالاتجاه فى طريق المعرفة •• المعرفة الصادقة •• الشاملة العالمية •• والجامعة المانعة فى نفس الوقت ، والحضارة الشاملة التى هى فى نفس الوقت الجامعة المانعة هى الحضارة التى توفرت فيها شروط الايجاب ، ونهضة الانسان واعلاء شأنه ، وبناء ما ينبغى أن يحتاج له فى هذا الوجود لا من ناحية الروح ولا من ناحية النفس ولا من ناحيةالجسم ، وهذا ثالوث يقوم‌عليه بناء الانسان‌من:

أولا : عرفان •

ثانيا : سلوك فردى •

ثالثا : سلوك مجتمع •

رابعا : تدبير سياسى من حكومة ودولة مع الفارق بينهما •

خامسا : سياسة اقتصادية •

سادسا : سياسة أخلاقية من المعاملات فى طريق الاحسان •

سابعا : نظرة الشمول للانسانية بتقديم السلم على الحرب ، والمسالمة على العدوان ، والمساعدة على الاثرة والانانية ، وجعل الناس دائما فى اطار أنهم خلقوا من نفس واحدة ، فمن قتل نفسا فكأنه قتل الناس كافة ، ومن عمل خيرا فى نفس فكأنما أسدى الخير الى الامة الانسانية بأسرها •

وأخيرا : تعلقه بالعلم الذى يرجع الى النقطة الاولى وهو العرفان الذوقى مع العلم العقلى •• وتقفل الدائرة •

هذا هو المذهب أو الايدلوجية أو المظهر والجوهر الحضارى فى نفس الوقت الذى يعلو بشأن الانسان ، ويجعله يسرع فى طريق النهضة لمن كان فى مؤخر الركب كما هى حالتنا فى مختلف أقطارنا ، هذه النهضة قامت أولا على يدى رجل وصل الى سن الاربعين ، وتعداها حتى يكتمل تكوينه السامى وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعه جيش من الشباب ، عمر على كان معروفا وعمر الصحابة فى صدر الاسلام الاول كان معروفا الى حد أن الرسول عليه الصلاة والسلام صرح به فقال .. « جئت بالحنيفية السمحاء فحالفنى الشباب ، وخالفنى الشيوخ والكهول » .. فكأنه كان هناك نوع من سوء التفاهم والتقصير ، بل كان حتى من العشيرة ليس من يخالفه فقط .. بل يعاديه ويتهجم عليه ،فنفس الشيء يقع اليوم، لان هناك تشابها فى جوهر الحضارات مع الاختلاف فى مظاهرها ، جوهر الحضارات هو قيام الحياة الانسانية فى اختلاف أنواعها الروحانى والنفسانى والجسمانى على الحق، والحق فقط ، اما جزئيا أو كليا ، وجزئيا بمعنى اتباع الاخلاق والجد والاجتهاد والبحث العلمى ، فمن كانت هجرته الى دنيا يصيبها سواء كان مسلما أو نصرانيا أو ملحدا .. أو مجوسيا .. أو كيفما كان ، فهذا الحديث يطبق عليه ، أى اتجاه الهمة .

اليوم نرى بأن هناك تشابها فى الجوهر مع الاختلاف فى المظهر ، الجوهر هو أن الانسان اليوم يعيش فى فراغ بشهادة الاوربيين أنفسهم ، يبحثون كما يقول ، « هلد » .. وتوينبى وسوروكين وكيزرلنج عن شيء جديد يكمل ما يشعرون به من نقصان .. عندهم الرفاهية والصناعة ، ولكنهم يشعرون بأن صرح المجتمع ينهار شيئا فشيئا الى حد أن « كيزرلنج » يقول : « لسنا فى حاجة الى ان ينبئنا

شبنجلر فى كتبه بأن الغرب ينهار » فهم يشعرون اليوم بنوع من الظلام . ما معنى الظلام ؟ هو طمس البصيرة رغم القوة ورغم الجاه ورغم المال .

فى ذلك الوقت .. قبل الرسول عليه الصلاة والسلام كان ظلام ، وهو قيل له .. « وما رميت اذ رميت ، ولكن الله رمى ».. لان ما أتى به معصوم عن الخطأ ، فلابد أن يتصف بشيء فوق العقل ، هو نبراس الشرع ، والشرع هو عصمة العقل من الخطأ ، ولكن العقل وحـــده معرض للخطأ فلابد له من شرع كما يقول الاصفهانى فى تفســير النشأتين ، اما ومعه جيش الشباب الذى يتصف بالخصال الايجابية وهى : أولا ، الاقدام والشجاعة .. والتشبث بالمبدأ . وثانيا ، عدم الخوف الذى يتسرب الى الانسان من ضياع المنصب وضياع المال وضياع الجاه والاولاد .

اليوم نفس الشيء ، لابد من جوهر لقيام حضارة جديدة للانسانية بأسرها ، لان الانسانية ان اختلفت فى توزيع الرفاهية بين الناس ، فانها ائتلفت فى الطبيعة المشتركة وهى الفراغ المعنوى المؤدى الى الشقاء المعنوى النفسانى ، فاذن الجوهر هو هذه الثقافة الجديدة المبنية على العقل ، وعلى ما هو فوق العقل ، لان العقل معرض للخطأ ، فينبغى فرضا ومنطقا أن نفكر فى شيء آخر هو فوق طاقاتنا ، لان الانسان فى نفس الوقت مسير ومخير ، فالقسم الذى هو مسير فيه هو جسمه من ناحية ، وهو ما فوق طاقة عقله كالحياة وكالموت .. وكنظام الكون الذى لا يمكن أن يغيره فيرد الليل نهارا ، والنهار ليلا ، ويجعل الشمس تسبق القمر ، فالعالم منظم ، وهذا فوق طاقة العقــل البشرى ، فاذن ــ فرضا ومنطقيا ــ اذا أراد الانسان أن يخرج من طور التسلسل وهذا الفراغ ، ينبغى أن يفرض وجود الوحى ، والوحى وحده ، . فنرى الفلسفات تتضــارب والمذاهب

السياسية تتطاحن وتؤول دائما الى الحروب ،والاقتصاديات افظع واشنع وكلها دائما في تغير ، لانها دائما تعمـــل تصـــميمات وتراجعها ، وترى بان قضية الربح هنـا ، وقضية التضييق هنا الى غير ذلك ينبغي أن تنفرج شيئاما .. وغير ذلك مما يطول شرحه ، فالحضارة اليوم ينبغي ان ترتكز على شيئين : الشيء الاول وهو الجوهر ،الثقافة المبنية على العقل والوحي» والشيء الثاني هو مظاهرالبناء وهو جسم هذه الثقافة ، وهو ما يسمى بالحضارة ، ولابد لها من عقل مفكر .. وجيش يتبعها من الشباب كما كان في صدر الاسلام ، لان صدر الاسلام ولو لم يكن الانسان مسلما يتخذه كنموذج تاريخي .. فترة فريدة في نوعها

يقول « جيل رومان » ـ وهو الكاتب المشهور بتمثيليته « دكتور كنوك » ـ في كتاب اسمه « المسألة رقم واحد » : ان الغرب في دمار وينهار ، وهو ينهار نظرا لفقـــدان ايدلوجية ثابتة ، لان الايدلوجيات كما يقول تنتشر .. تنطلق وتعدى ، ويقول « .. ناهيكم بما ضربه الاسلام من مثل عجيب » ، فانه برغم فقر الرقعة الارضية التي انطلق منها ، ورغم ضعف الوسائل العسكرية .. أي الجيش ، ورغم قلة عدده ورغم ضيق النطاق في الثقافة في ذلك الوقت ، والامية ورغم الوسائل الاقتصادية ، ورغم المعارضة التي واجهته من الوسائل الاقتصـــــادية الضخمة في البلدان الاخرى ـ يعني الـــروم وفارس ـ والمعارضة العسكرية العظيمة في البلدان الاخرى يقول .. « اجتاح في فترة وجيزة رقعة الارض من الهند الى البحر الاطلنتيك في مسيرة كأنه اعصار ايدلوجي .

فاليوم نفس الشيء .. يشعر المخلص ، والباحث عن الحقيقة بكل نزاهة ـ لان من اوصاف الفكر العلمي اربعة اشياء : حب الحقيقة ، والغاء الشهوات ، والنزاهـــة

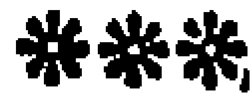
والانصاف ـ يشعر بأن العالم اليوم بحاجة ماسة الى ايدلوجية، رغم كون لفظة العقيدة هي أعمق وأثبت من هذه اللفظة التى جاءت فى اطار القرن التاسع عشر والعشرين .. الجاف من المعارف العرفانية ، والذى كان يمج كل لفظة وكل عبارة فنية تدخل في قاموس المعارف العرفانية ، فكان يعوضها بألفاظ دخيلة لا توافق ولا تفارق . وهذه الفترة التي نعيش فيها من المستحيل عقلا .. ولا نقلا ، لا بشهادة التاريخ ولا بشهادة منطق العقل ، يستحيل أن نخرج منها مالم نرجع الى الطبيعة البشرية ومتطلباتها .

الطبيعة البشرية مبنية على ثلاثة أشياء : الرغبة الملحة الروحانية للاطمئنان والنور ، فتخرج النفس فى بطن أمها، من الحياة النباتية .. الجنين .. هو كالنبات لانه يستقى حياته من أمه ولا يتحرك ، يخرج من حياته النباتية الى حياته الحيوانية كرضيع الى حياة يستأثر فيها .. ويحب التملك فيها ، ويحب السيطرة على الاشياء فيها ، ويعتدى على الطيور الضعيفة ، ويعتدى على الصبيان .. النفس الامارة .. ، ثم ينضج بعد ذلك فتكون النفس اللوامة ، ثم يرقى ويتحد العقل والقلب فيه ، فتكون النفس المطمئنة ، ويشعر فى ذلك بمرحلة أعلى من ذلك .. كلها رضى بهذا الوجود .. ونظامه وابداعه وجماله ، ومنح اليأس فيه كأنه حرام ، لان اليأس وصفه الله بأنه لا يتخذه الا القوم الكافرون والظالمون والقانتون فى نفس الوقت ، ثلاثة أشياء فيكون راضيا ، ويشعر بأنه مقبول هو فى هذا الوجود .. داخل فيه .. ليس بغريب عنه ، لا فى مكان سحيق ، فهى نفس مرضية ، ثم تصل الى نوع من الاشراق عند خواص الناس فى القدسية ، ثم تكتمل فى شخص واحد متكاملة .. عليه الصلاة والسلام .

فهذه الحضارة كما قلنا من الذوق ، لان الانسان ليس

له وقت كاف فى حياته للاحاطة بكل شيء علما ، فلابد له من الايمان ، والايمان عملية «ضروريه» كأنها القوت للمعدة •• ضرورية للمعرفة كيفما كانت أنواع المعرفة فالكيمياء تبدأ بالفرض ، والرياضيات دائما تبدأ بالمسلمات، والاخلاق تبدأ دائما بالمعتقدات ، وهو ايمان كذلك ، والنظرة الكونية الشاملة التى ترجع الى طبيعه العقل وهو فى اوله وآخره موحد ، لانه يريد ان يرى الاشياء فى معنى واحد •• فى وقت واحد •• هو الايمان ، بدونه لا يقوم صرح الوجود ••

وبدون الايمان بخالق اسمه الله ، تبقى الحياة لا معنى لها ، وندخل فى الفلسفة الوجودية الملحدة التى تقول •• « بأن هذا العالم كله هباء لا معنى له » •• ولا يدخل فى هذا النوع من التفكير الا من ألغى فكرة الايمان مسبقا ، ودخل فى مرحلة أخرى فى الفلسفة ، فكان كالرجل المقطوع القدمين ، فاذا هذه المدنية التى هى مرتقبة فى المستقبل والتى نحن فى أشد الحاجة اليها ، لان الحياة كلها جهاد ، جهاد عسكرى هو الجهاد الاصغر ، وجهاد مدنى هو الجهاد الاكبر •

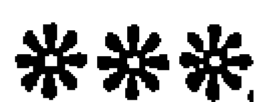


الحياة من أولها الى آخرها صراع وجهاد ، وهذا الصراع سريع •• لا ينتظر ، فلا بد له من نقطة الانطلاق وهو الإيمان •• وهو المعارف العـــرفانية ، ولابد أن تكون معصومة من الخطأ ، اذن فرض الوحى ضرورى •

بجانب هذا ينبغى فى هذه الحضارة قانون معين مخصوص مفصل لسلوك الفرد •• هو الاخلاق ، وسلوك المجتمع هو الاخلاق الاجتماعية والاعراف المقبولة والقوانين الشرعية ، ثم سياسة اقتصادية كى لا تنقلب الاوضاع ويصبح السيد مسودا والعبد سيدا ، المال خلق عبدا للناس •• لا سيدا

للناس ، خلق لكي يكون رمزاً شريفا لاشرف شيء بعد العبادة وهو العمل ، خلق ليكون نموذجا يتعامل به الناس بدلا من عرق جبينهم ، فينبغي لهذا المال أن يتصرف فيه الانسان ، لا أن يكون هذا المال يتصرف في الانسان ،

وهذه هي السياسة الاقتصادية الاسلامية،وسط ولايملكه احد ؛ فالمال لله والملك لله ، والحكم لله . ثم سياسة من حكومة ودولة ، الدولة مستخلفة ، والحكومة أمر الناس شورى بينهم بكيفية ملحة لان مبدأ الشورى أكد عليه الله سبحانه وتعالى بكيفية شديدة العنف في وقت كان القائد مصيبا كما هي العادة ، والاتباع في خطأ في غزوة احد فرغم أخطائهم نزلت الاية .. « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، أنت كبشر « واستغفر لهم » ربك ، فانه رحيم .. مستعد .. يجيب دعوة الداعي اذا دعاه ، « وشاورهم في الامر » رغم أخطائهم لتكون السنة النبوية نبراسا يتبعها الناس على مر الاجيال .



وعندما يؤكد علماؤنا على الايمان ، يقول الناس : هؤلاء تعلموا الكتب الصفراء فجاءوا يتفقهون بها على الناس . الايمان هو صرح كل شيء ، فبدونه تصبح الحياة عبثا ، ونرجع اليه في السياسة الدولية ، لان الايمان مع الشرك كأنه كفر ، والايمان مع الوحدة موافقة ومطابقة للعقل مع الواقع النفساني والروحاني ، فوحدة الله منها وحدة الروح التي نفخ فيها في سائر البشر .. لا في الشعب المختار فقط ، ومنها وحدة العقل لتشابه الافكار بين الناس ، وإلا استحال التفاهم بين الناس ، ووحدة النفس الانسانية ليقوم صرح المسئولية والواجبات ، ويكون الناس سواسية كأسنان المشط ، ويكونوا سواسية في السلم لا في

الحرب ، وأذا كانت الحرب ، فما كان حراما يصبح حلالا مثل القتل دفاعا عن النفس ، وهنا نرى أن صورة النفس الانسانية التى ما اختلفت فى أجناسها والوانها الا لتتحد في التعارف ، أمة واحدة ، وانسان واحد ، وهذه هي عظمة المذهب والايدلوجيه الاسلامية ، وهنا نرى بأنه حتى فى الاختلاف هناك تعارف « شعوبا وقبائل لتعارفوا » ثم اذا كان هناك طريق فهو فى العظمة الروحـــانية فى التقوى •

ولكن هذه السياسة كلها ، والاخلاق وسلوك الفرد والجماعة والحكومة والدولة تنهار مالم تستمر بمساعدة العلم كل يوم لان « فوق كل ذى علم عليم » •• معناها بأن العلوم تنمو دائما وتصلح نفسها بنفســها الى حـــد بأنكم الان عندما تفتحون كتابا للرياضيات •• للحساب كل واحد منا لا يستطيع أن يقرأه ، فالحساب الجديد وهو حساب المجموعات مخالف للحساب القديم الذى كنا نتعلمه فمن قبل كان من المستحيل أن تجمع بين قلمين وحذائين، فنقول أربعة ، وما هم الاربعة ؟ ولكن اليوم تجمع بين قلمين وبين حذائين فى مجموعتين صغيرتين داخل المجموعة الكبيرة بينهما ترابط يسمى « تطبيق » • فحتى العلوم تتغير ، ويصبح الانسان ليكون في هذه الايدلوجية فى هذا المذهب العظيم •• ما يســـمى « الجملة المفتوحة » فهي مفتوحة لان الناس شورى ، والامر شورى بينهم •• حرية مطلقة •• حرية في التقدم •• حرية فى التفكير •• حرية في التعلم •• حرية فى الناس بعضهم وبعض ، حرية فى أن يكون الانسان أسود وأن يكون أبيض •

***

الاسلام من رأسه الى قدميه هو مذهب الحرية ، والحرية هي الاستغناء عن كل ما زاد عن الحاجة • هذا ملخصها فى

الاسلام •• فاذن نرى بأن الجوهر هو البحث عن الحق والخضوع الى العقل لكى لا يكون الانسان منافقا ومداريا والخضوع الى الحق •• هو آسلام الوجه للحق ، واللفظة الفنية لهذا المذهب اسمها •• الاسلام •

الدكتور عبد العـزيز كامل

الشيخ محمد متولى شعراوى

من وحى الهجرة

كانت الشهور تنقضى على صاحب رسالة الحق وهو فى مهاجره بالمدينة ، فهل يترك الباطل مطمئنا فى مكة ؟ وفى جزيرة العرب ؟ وفى المجتمع الانسانى؟

لقد كان الحق والبـاطل فى حالة حرب ، وان اضطرار الرسول صلى الله عليه وسلم الى الهجرة فى سبيل الدعوة ، كان بذاته ايذانا من المشركين بقيام حالة الحرب بينهم وبين الاسلام .

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليـه وسلم لما خرج من مكة ، قال أبو بكر : « أخرجوا نبيهم انا لله وانا اليه راجعـون ، والله ليهلكن » قال ابن عباس : فنزل قول الله تعالى « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله النـاس بعضهم ببعض ، لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومسـاجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز »

محب الدين الخطيب

هل كانت الهجرة ضرورة ؟

يقول فضيلة الشيخ محمد متولي شعراوى : ان الهجرة الى المدينة كحدث تاريخى ضخم ، كانت مقرونة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، فحين بعث وارسل اليه ، كان تصديق بعثته مقرونا بانه سيهاجر ، لا ادل على ذلك من ان ورقة بن نوفل حين عرض عليه امر محمد وما يجيىء له قال : « انك لنبى هذه الامة ، وان الذى يأتيك لهو الناموس الاكبر الذى كان يأتى موسى وعيسى ، ولتكذبن ، ولتعذبن ، ولتخرجن ، ولتقاتلن ، ليتنى اكون حيا اذ يخرجك قومك . قال الرسول : أو مخرجى هم ؟ قال : ما جاء احد بمثل ماجئت به الا عودى ، وان يدركنى يومك ، انصرك نصرا يعلمه الله »

فاقتران البعثة بقوله : « لتخرجن » وقول الرسول « أو مخرجى هم ؟ » يدل على ان الهجرة كحدث خطير تتعرض له الدعوة لتؤتى آكلها كل حين، والهجرة كحدث تاريخى لا يمكن أن يكون منفصلا عما سبقه من الاحداث ولكنه كان نتيجة حتمية لما سبقه من الاحداث ، وكان أيضا مقدمة لما تبعه من الاحداث ، وارتباط البعثة المحمدية بكل احداثها ، يدل على وحدة البعثة فى كل ما يعن لها .

بداية الهجرة وكيف كان التاريخ بها

الشائع عند الناس انهم يحتفلون بالمحرم، لأن الهجرة ربما تكون وقعت فيه ، ولكن الحقيقة ان الهجرة وقعت في ليلة الثامن والعشرين من صفر ، فقد خرج الرسول صلى الله عليه وسلم مع صديقه أبي بكر الى الغار يوم الجمعة ، ومكثا الى يوم الاثنين فظلا في الغار ثلاثة أيام ، ثم سارا حتى وصلا « قباء » في يوم الاثنين الثامن من ربيع ، وظلا في قباء أربعة أيام ، ثم ذهبا الى المدينة فوصلا يوم الجمعة ، وبذلك استغرقت الهجرة اسبوعين تقريبا ، هذا هو التاريخ الزمنى لحادث الهجرة .

ولقد وقعت في غير أول شهر ، فليس من المعقول أن نلوى الناموس لنجعل الهلال يبدأ في الثامن والعشرين، فجعلوا التاريخ في العام الذى حدثت فيه الهجرة ، وظلت السنة عربية كما كانت ، بدايتها المحرم وآخرها ذو الحجة ، ويسير التوقيت مع الهلال ، ولذلك كان لابد أن نؤرخ لا لحدث الهجرة في ذاته وانما العام الذى حدثت فيه .

ولذلك قصة ، فقد عرض على عمر بن الخطاب كتاب ومحله في التاريخ شعبان . فقال عمر : أي شعبان هذا ؟ اشعبان هذا العام ؟ أم شعبان العام الذى مضى ، أم الذى يليه ؟ ضعوا للناس أمرا يعرفونه ، فوقف الناس وقالوا ماذا نصنع ؟ وقال بعضهم نؤرخ بالرومان وقال آخرون نؤرخ بالفرس .. وروى أن عليا كرم الله وجهه قال : نؤرخ بخروج محمد صلى الله عليه وسلم من دار الشرك الى دار الايمان .. فوافق عمر والصحابة على ذلك ، وكان ذلك بعد سنتين ونصف من خلافة عمر وانسحب هذا التاريخ على الماضى ، فحسبوا المدد ،

وجعلوا ذلك الحدث فى السنة الاولى للهجرة ، والآخر فى السنة الثانية .. وهكذا الى ما نحن فيه الآن .

معجزات الطريق

اذا نظرنا الى ما تخلل الهجرة من صعاب ومشقات ومن آيات ومعجزات ، قد يقف العقل منها موقف التردد فى قبولها ، فانه يجب أن يعلم الناس أن ما تخلل الهجرة من معجزات وكرامات ، انما كان من غير صنع البشر ، واذا رفعنا الاحداث الى مستوى صنع الله وقف العقل صاغرا ، فمثلا العنكبوت والحمامة والفصن ومثلا سراقه وأم معبد ، كل ذلك يكون أمرا مسلما عند المؤمن برب محمد ، وفى ذلك مصداق لقول الله : « الا تنصروه فقد نصره الله » .. الى قوله : « وأيده بجنود لم تروها » فأى شيء من هذه الإشياء يدخل فى كلمة « بجنود لم تروها » أى بمقاييسكم وبعقولكم وماديتكم

وينتقل الحديث الى الدكتور عبد العزيز كامل ، ليتناول بالتحليل كلمة ورقة بن نوفل : والله لتكذبن ، ولتؤذين ، ولتخرجن ، فيجد فى ذلك قاعدة لا تتخلف مع رسالات السماء . يبعث الرسول ، فيحدث صراع بين الحق والباطل ، بين الذين يحبون الخير والذين يحبون الشر . ولقد تعجب الرسول من كلام ورقة ، يأتيهم بخير الدنيا والآخرة فيكون جزاؤه أن يخرج من وطنه وأن يعذب ! ويبين الله ان تلك سنة لا تتخلف : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا ، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ ، الا أن نصر الله قريب » ، فاذن لابد من امتحان وفتنة ، وتجربة عميقة يمر بها الرسول ومن معه ، حتى يمحص الله هذا الايمان فيبدو معدنه نقيا صلبا ، فاذا نظرنا

الى تطبيقات هذا القانون نجدها تشمل جوانب مختلفة اذا كان الفرد ضعيفا أو مستضعفا كالارقاء ، ومس قلبه الايمان ، فآمن بالله وصدق برسوله وارتفع فوق ذل العبودية الى نور الحق ، فما يكون من سادتهم الا أن يعذبوهم العذاب الاليم .

ونحن نعرف قصة بلال ، يعذب ، ويراود عن كلمة يعيب فيها على محمد أو رب محمد فى مقابل أن يعفى من التعذيب ، فلا ينطق لسانه الا بقوله : أحد أحد ، لا أدنس لسانى بكلمة الكفر بعد أن طهره الله بكلمة الايمان ، جملة نمر عليها سريعا ولكن ينبغى أن نتوقف عندها طويلا . ان الانسان منا اذا مس بيده كوبا ساخنا احس لسع النار فيها ، واذا مشى حافى القدمين فى يوم قائظ ، أحس حرارة الارض تحت قدميه ، واذا وخزته آلة حادة أحس ألم الوخز ، مع ان هذا لا يستمر الا لحظة أو لحظات . تصوروا انسانا ملقى على الارض فى يوم شديد الحر ، ويوضع الحجر المحمى على صدره ، لا يعرف متى يرفع ذلك الحجر ، وتربط رقبته بحبل حتى لا يكاد يتنفس ، ويعطى الحبل لصبية كالشياطين يتقاذفونه ويتجاذبونه دون رحمة ، وهو لا يدرى متى ينتهى ذلك العذاب . . هل يستمر يوما ؟ أياما ؟ شهرا ؟ هو لايدرى الا انه آمن بالله ، قد خالط الايمان قلبه ، فاصبح عنده أغلى من كل شىء ، وارتفع بايمانه فوق كل مستوى من مستويات التعذيب التى يريدها قومه به

ماذا يفعل الاغنياء ؟ هذا أبو بكر يشترى بلالا ويعتقه ويشترى غيره ويعتقه . . هل كان يريد كسبا ماديا من الاسلام ؟ لقد جاءه الاسلام بذلا للمال ينفقه فى سبيل الله

وصورة أخرى ، كانوا يحاربون التاجر المسلم ويضيقون عليه أمره . .

وغير هذا كثير ..

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يمر على المعذبين ، فماذا يقول : صبرا ، لا أملك لـكم من الله شيئا ، ان موعدكم الجنة ، لم يستطع أن يرفع عنهم ما كانوا فيه من عذاب وأذى ، وانما وكل كلا منهم لايمانه . ثم هو نفسه ، كان يصلي فى جوف الـكعبة فاذا بهم يقدمون القرابين اليها ويأخذون أحشـاء الضـحايا والقرابين ويضعونها على ظهر محمد .. يخرج من بيتـه فيجـد القاذورات أمامه . يدخله ، فيقذفونه بالحجارة ، ثم يلتمسون طريقا آخر فى محاولة اغرائه بالمال أو الملك أو السيادة ، فيقول لهم : كلمة واحدة تقولونها لا أرضى عنها بديلا ، قولوا : لا اله الا الله .

ويأتونه من ناحية التحدى : انت تعلم اننا فى أرض فقيرة ، وترى هذه الجبال تحيط بمكة ، فادع ربك أن ينبت عليها خيرا وزرعا .. أن يجعلها كأرض الشام أو أرض فارس .. ويسجل الله ذلك كله : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينـا كتابا نقرؤه » فماذا تكون الاجابة : « قل : سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » ..

ذكرنا ان معجزات الهجرة يجب ان يؤمن بها من آمن بمحمد . ولكن غير من آمن بمحمد كيف يؤمن بها وهذه دعوة عامة للناس كافة .. ؟

ويجيب الشيخ محمد متولي شعراوى فيقول : أن المعجزة التى يجب أن يؤمن بها كل مؤمن بمحمد صلى

الله عليه وسلم هى القرآن الكريم ، لانه معجزة باقية عقلية . كل المعجزات الكونية تحدث مرة وتنتهى ، أما معجزة محمد فنظرا لخلود رسالته كانت معجزة عقلية حيث يستطيع كل مؤمن به أن يمسك بالمصحف ويقول : هذه معجزة محمد ومعجزة الاسلام من بعده ، أما بقية المعجزات الكونية التى حدثت له ورآها من رآها فانه يصدق بها ، أما من لم يرها فحسبه أن يصدق فى القرآن وحده معجزة له ، وان اتسع عقله لقدرة الله الذى خلق محمدا ، على خرق الناموس له ، فلعل ذلك من تثبيت المعاصرين له وليس تثبيتا لنا نحن ، فلم يعد الا خبرا يروى ، اقتنع به اذا وثقت بمن رواه ، ولكن لا تلغ عقلك . . لأن عقلك مستعمل فى القضية الاولى ، وهى الايمان بوجود اله واحد والايمان بضرورة التبليغ من رسول صادق ، صاحب معجزة تدخل العقل ، فاذا ما انتهيت الى هذا القدر يكفيك ان تعلم انه قال كذا وكذا .

التخطيط العلمى للهجرة :

ويتحدث الدكتور عبد العزيز كامل من هذا الجانب ويقدم له بكلمة عن مكان الهجرة ، فالنبى قد دعا أصحابه الى الهجرة للحبشة وقال لهم : لو خرجتم الى الحبشة فان فيها ملكا لا يظلم عنده أحد ، حتى يجعل الله لكم مخرجا مما انتم فيه . فهنا نجد الهجرة كان هدفها ان يحيا بعض المسلمين هناك بعض الوقت ، ليهاجروا من بعد ذلك الى موطن جديد ، ومن هنا يبدو فى طبيعة هذه الهجرة ، أولا انها كانت هجرة مؤقتة ، وثانيا : انها لم تكن هجرة لنشر الاسلام ، وثالثا : انها لم تكن بحثا عن منطلق جديد للاسلام .

اما فيما يتعلق بهجرة الرسول واصحابه الى المدينة

فقد شارك فيها بنفسه بينما لم يشارك فى هجرة الحبشة ، لماذا ؟ لان المدينة أو الطائف أو اى مكان فى المنطقة العربية كان يمكن أن يكون منطلقا للاسلام ، فالفرق بين الحبشة وبين الجزيرة العربية كان فرقا بين هجرة هدفها « الايواء » وهجرة هدفها « الانطلاق » وتكوين قاعدة اسلامية ينتشر منها الاسلام وهذه واحدة والنقطة الثانية هي ان النبى عليه الصلاة والسلام رتب الامر من ناحيتين :

من ناحية تامين هذه القاعدة قبل انتقاله اليها وذلك عن طريق بيعة العقبة « عاهدونى على أن تمنعونى « تدافعون » مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » وأخذ العهود عليهم كما أخذوا كلمته حينما سألوه : « هل عسيت يارسول الله ان أظفرك الله على قومك ، أن ترجع اليهم وتدعنا ؟ » قال : « انا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم ، المحيا محياكم ، والممات مماتكم » .

ثم انه بدأ يرتب لاصحابه طريق الخروج فمنهم من خرج جهارا ومنهم من خرج سرا ، فقد أحب أن يطمئن على هجرة أصحابه قبله الى ذلك الوطن الجديد . وهنا ايضا تكونت ركيزة للاسلام فى المدينة قبل ان يذهب اليها الرسول ، بل انه رتب نشر الدعوة هناك فاختار شابا مؤمنا صالحا أوفده مع الانصار هو مصعب بن عمير يعلم الناس دينهم ويدعو الى الإسلام حتى لقد اصبح فى كل بيت قلب مؤمن بالله ورسوله .

ثلاث نواح اذن رتبها الرسول : علاقة مع الانصار ، هجرة المهاجرين ، داعية مؤمن .

يأتى بعد ذلك ترتيب خروجه من مكة على أساس علمى سليم ».

يقول الدكتور عبد العزيز كامل : لقد كان الطبيعي ان يتجه الى الشمال ناحيه المدينة ، او يتجه الى الساحل ناحية الغرب ، أو يأخذ طريق نجد الى الناحيه الشرقية ولكن النبي اختار مكان غار ثور الى الجنوب الشرقي من مكة أي فى أبعد مكان يمكن أن يتصور الانسان أن يذهب اليه مهاجر الى المدينه شمالا .

نقطة ثانية فى اختيار الغار هى ان مكانه كان وعرا ، حتى ان النبى لم يصل اليه الا بعد أن دميت منه الاقدام ، وتصوروا ان أسماء بنت أبى بكر كانت تذهب كل يوم الى ذلك المكان ، وان أخاها عبد الله كان يذهب كذلك يوميا .

***

وتأتى ناحية ثالثة ، تتعلق بتوقيت الخروج ، ومن تمام الاخذ بالاسباب الا يترك شيئا للصدفة او الاحتمالات وانما يأخذ لكل شيء عدته على اساس علمى سليم ، فليترك عليا فى فراشه حتى اذا أصبح الصباح يكتشف القوم الذين حاصروا بيته ، وقد بيتوا النيه على قتله ، انه ليس فيه رسول الله ، والى جانب روعة فدائية على ، نلحظ ان اختيار شخص آخر لهذا العمل لم يكن ليكون الاختيار الاوفق ، لان تردد على ووجوده فى بيت النبوة أمر طبيعى بحكم النشأة والصلة والقرابة ولا يلفت النظر ، وكانعليه أيضا أن يرد الودائع بتكليف من رسول الله الى أصحابها ، كان النبى مطاردا ورغم انهم أحلوا دمه ، لم يكونوا قد وجدوا أحدا فى مكة اكثر امانة على ودائعهم منه ، وهو هنا فى هذا الموقف يذكر أن القوم ائتمنوه على أماناتهم فينبغى أن يردها وان يقوم اقرب الناس اليه وهو ابن عمه بذلك . يبحثون عنه ليقتلوه وهو يكلف من يبحث عن أصحاب الودائع ليردها ..

ثم ننتقل الى الغار ..

انه يحتاج الى الطعام .. فلتقم بذلك أسماء ..

وانه ليحتاج الى أن يكون على صلة بالاحداث فى مكة .. فليقم بذلك عبد الله بن ابى بكر يبقى نهاره بين القوم يسمع ما يقولون وما يدبرون ثم ياخذ طريقه الى الغار ويقدم تقريره الى رسول الله .

ولابد من تامين حركة أسماء وعبد الله ، وتغطية آثار أقدامهما فى رحلتيهما اليومية وليقم بذلك رجل متخصص .. الراعى عبد الله بن فهيره .. فيمر بأغنامه على آثار الاقدام .. الى الغار فتعفى على الآثار ويشرب الرسول وصاحبه من لبنها .

***

ولكى نتصور دقة التخطيط وحسن اختيار الرجل المناسب يمكن أن نتخيل ما كان يحدث لو ان واحدا من هؤلاء قام بعمل شخص آخر ، اذن لكان الامر قد انكشف .

وتاتى بعد ذلك عملية الترتيب لصلة الرسول بالمدينة هو يحتاج الى الرواحل وان تكون معدة ، وهذا عمل يقوم به عبد الله بن اريقط وهو يعلفها ويغذيها منذ وقت طويل ، وينتظر بها على بعد من الغار بحيث ينتظر الاشارة ، ونلاحظ انه لم يكن على دين محمد ، ولكنه كان محل ثقة أبى بكر واستحق ثقة رسول الله وكان مؤتمنا على اخطر مهمة فى تاريخ الدعوة ، وبحكم كونه راعيا فان وجوده فى تلك المنطقة لم يكن يستلفت النظر لشيء غير عادى .

واذن فالطريق الى مكة مفتوح .. والطريق الى المدينة مفتوح ..

بعد كل هذا الاعداد نجد ما تذكره كتب السيرة عن العنكبوت والحمامة والغصن المتدلى على فم الغار ونجد

كلمة أبى بكر : لو نظر احدهم الى موضع قدميه لرآنا . لقد بذل النبى أقصى الجهد وبذل أبو بكر أقصى الجهد فاستحقوا نصر الله وتأييده واصبحت تلك الاشياء البسيطة تمثل حصونا قوية تحتمى وراءها النبوة والرسالة ويحتمى مجد الانسانية ، كيف ؟ لان وراءها قوة الله .. ومن قبل ، ذلك الجهد المنظم الذى بذل فى الترتيب والتنظيم ، وهنا نفهم قول الرسول فى القرآن « لا تحزن ان الله معنا » .

***

نقطة اخيرة يضيفها الدكتور عبد العزيز كامل هى ان الرسول عندما بدأ التحرك من الغار اتجه الى الساحل غربا ، ثم الى الشمال على طريق الساحل ، وقريبا من بدر الحالية اتجه الى ناحية الجبال ولم يسلك الطريق المألوفة وكانوا يسيرون فى الليل غالبا ويستريحون نهارا فى وقت قائظ الحرارة وطريق وعر المسالك والشعاب ، وكان عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك الوقت ثلاثة وخمسين عاما .

هذه صورة للعمل العلمى المنظم الدقيق فى حدث الهجرة النبوية الشريفة ..

أ. محمد محمد ابو شسهبة

د. الحسينى عبدالمجيد هاشم

دراسة في السنة النبوية

السنة ، هى المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم ، وعندما انهارت الدولة الاسلامية قديما فى عصور المد الاستعمارى وتبددت قواها الحربية ، بقى القرآن وبقيت السنة عاصما لشعوب الامة الاسلامية من الانهيار . وتكفل الله بحفظ القرآن وبذلت الامة وعلماؤها - على وجه الخصوص - جهودا مخلصة ورائعة حتى حفظت السنة وهذبتها ونفت عنها كل زيف او تحريف حاول اعداء الاسلام ان يشوهوا به وجهها المشرق حتى وصلتنا مبرأة من كل شائبة . ولاتزال جهود علماء الاسلام قائمة الى يومنا هذا على خدمة السنة وتبسيطها ونشرها وتعميم الانتفاع بها ..

حديث عن رسول الله :

يبدأ فضيلة الدكتور محمد محمد أبو شهبة عميد كلية أصول الدين بأسيوط كلامه بحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه : « الا اننى أوتيت الكتاب ومثله معه ، الا يوشك رجل شبعان متكىء على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، الا ان ما حرم رسول الله ، مثل ما حرم الله » فالحديث وضع لنا أساس الشريعة فى قوله : « الا اننى أوتيت الكتاب ومثله معه » .. والكتاب هو القرآن ، وهو الكلام المنزل على سيدنا محمد المعجز بلفظه المتعبد بتلاوته المنقول بالتواتر المفيد للقطع واليقين المكتوب فى المصاحف من أول سورة الفاتحة الى آخر سورة الناس . الاصل الثانى هو السنة ، فما معنى السنة ؟ اى نبى أو رسول قائم بشريعة لابد أن يكون له كلام ، لابد وهو يرى وينصح الناس ويرشدهم أن يكون له كلام وأن يكون قدوة فى العمل ، وكان الرسول يحرص دائما على أن يقرن العلم بالعمل ولذلك كثيرا ما كان يقول : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » وفى حجة الوداع المشهورة التى اجتمع فيها مائة ألف صحابى أو يزيدون

قال : « يا أيها الناس خذوا عنى مناسككم فلعلى لا القاكم بعد عامى هذا » كذلك كل نبى له آداب وأخلاق . مجموعه هذه الاشياء ، الاقوال والافعال والاخلاق والاداب والسلوك وكونه يوافق بعض الصحابة فى بعض الاشياء أو لايوافقهم ، كل هذا يعرف بالسنة ، والسنه فى اللغة هى الطريقة ، حسنة كانت أو سيئة ، لكن اذا أطلقت على سنة النبى لا تنصرف الا الى السنة الحسنة والنبى يقول : من سن سنة حسنة فله ثوابها وثواب من عمل بها الى يوم القيامة ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة .

والسنة عند علماء الحديث معناها أقوال النبى وأفعاله وتقريراته ، وصفاته الخلقية والخلقية ، والاقوال ، كقوله مثلا . « المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولايحقره» والافعال نقلها لنا الصحابة فمثلا روى سيدنا على وسيدنا عثمان وغيرهما عن النبى عليه الصلاة والسلام انه توضأ فغسل يديه ثلاثا ثم تمضمض ثلاثا ثم استنشق ثلاثا ثم غسل وجهه ثلاثا ثم غسل يديه الى المرفقين ثلاثا ثم مسح راسه ثلاثا ثم غسل رجليه ثلاثا ، فهذا منقول عن النبى نقلا صحيحا ، اما التقريرات فهى ان يفعل احد من الصحابة او يقول شيئا يقره عليه النبى بالقول أو يسكت فيعتبر هذا تقريرا لانه يستحيل ان يرى النبى امرا حراما او منكرا ثم يسكت عليه .

جاء رجل الى الرسول أوفده قومه لكى يسأله فقال له : « لقد جاءنا رسولك ـ وكان النبى قد أوفد لهم رسولا ـ فزعم انك تزعم ان الله ارسلك الى الخلق كافة ، فأجابه النبى بانه صادق فيما قال لهم ، فهذا تقرير بالقول ، واما التقرير بالسكوت فمثله ما رواه ابن عمر قال : كنا على عهد رسول الله صلى الله عليه

وسلم نقول أفضل الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر ، ثم عثمان .. والنبى صلى الله عليه وسلم يسمع ولا ينكر ذلك .

أما الصفات الخلقية فتتمثل فى انه كان أبيض اللون مشربا بحمرة ، مفتول الاعضاء ، قوى البنية ، اذا مشى فكانما ياتى من مكان عال ، وكان لا يمشى مشية التمايل . أما الفضائل الخلقية فما أكثرها ، الشجاعة والعفة والامانة والصبر والجود .. فقد كان قدوة فى كل الصفات الحميدة . ونحن عندما نتحدث عن الفضيلة نذكر ما جاء عنها فى القرآن ثم نذكر ما جاء عن النبى ونضرب الامثال

وقد نقل الينا الصحابة ومن جاء بعدهم هذه السنة نقلا مستفيضا ، فما معنى الحديث ؟ الحديث فى اللغة ضد القديم ويطلق فى اللغة أيضا على قليل الكلام وكثيره ومنه قول الله : « فليأتوا بحديث مثله » فالله سبحانه أمر النبى أن يتحدى الناس اذا كانوا ينكرون معجزته بأن ياتوا بحديث مثله .. أقل حديث ، أما العلماء المحدثون فقالوا ان الحديث هو كما قلنا عن السنة سواء بسواء . وهذا ما أجمع عليه أكثر العلماء . وبعض العلماء يجعل السنة كعمل ويأخذ الحديث على أنه للأقوال فقط ، والحديث لا يطلق أبدا على غير كلام النبى ، لكن السنة يجوز أن تطلق أو تنسب لغير النبى ولكن بالتقييد فيقول بعض العلماء : «سنة العمرين» أى أبو بكر وعمر ، وقد قال النبى عليه الصلاة والسلام « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ » اى تمسكوا بها كثيرا لانها سبب الفلاح فى الدنيا وفى الآخرة ، واياكم ومحدثات الامور فان كل محدث بدعة ، وكل بدعة ضلالة .

بقى أن نشرح « الاثر » . لقد قلنا ان الحديث خاص بكلام

النبي ولا يتعداه الى غيره اما الاثر فالعلماء فسروه بانه عبارة عن أقوال الصحابة واقوال التابعين ولذلك يقولون فى الاثر عن على أو عن عمر .. الخ فاذا قال : وفى الاثر عن النبى فسيكون غرضه انه يريد بذلك الحديث بقى لفظ آخر يجده الذين يقرأون كتبا كاحياء علوم الدين وغيره فأحيانا يقولون : وفى الخبر عن رسول الله، والخبر يجعله بعض العلماء كالحديث ، ولكن الصحيح ان الخبر أعم من الحديث فهو يشمل كلام النبى وكلام الصحابة وكلام التابعين ومن جاء بعدهم من المؤرخين ، فهى تسمى أخبار ، ولذلك فالمحدثون ينظرون للمحدث نظرة أكبر من نظرتهم الى الرجل صاحب الاخبار اذ ان الاخير ليس مدققا ولا محققا . أما المحدث فهو من أهل التحقيق لان الحديث يتناول الحلال والحرام ، لكن الاخبار فى التاريخ فاذا زاد فيها او نقص فليس فى ذلك حرمة تاتى على الدين أو تنقضه مثل الحلال والحرام لانهما من الخطورة بمكان وهذا هو السر فى ان الصحابة ومن جاء بعدهم كانوا يدققون أكثر الدقة فى الحديث .

ما هى مكانة السنة من الدين ؟ :

يجيب على هذا السؤال فضيلة د . الحسينى عبد المجيد هاشم فيقول : ان القرآن قد حدد هذه المكانة حيث يقول الله تعالى : « يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا » وانزل الله وحيه وقرآنه على النبى عليه الصلاة والسلام ببيانه .. « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » فكان على رسول الله ان يبين للناس معنى القرآن الكريم وذلك ان القرآن جاء ليكون دستورا محفوظا فى الصدور .. « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .. فلا يتسع للتفصيلات الفرعية ، فجاء بأمور

جاءت بها السنة كما جاء بها القرآن . مثال ذلك قول الله : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » فجاء فى الحديث حينما عرف النبى أركان الاسلام بأنها : أن تشهد الا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، وأن تقيم الصلاة وتؤتى الزكاة .. فهذا مثال لما وافق فيه الحديث النبوى القرآن الكريم .

وقد يأتى القرآن الكريم بأمر مجمل لابد من تفصيله وبيانه بالسنة النبوية كما يحدثنا الامام الشافعى رضى الله عنه فيقول : « يقول الله تعالى ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » ويقول الله تعالى : « واتموا الحج والعمرة لله » ولكن القرآن الكريم لم يبين كيفية الصلاة وعدد ركعاتها وهيآتها ، فمن الذى يبينها ما هى الصلاة وما طريقتها وما شروطها ؟ كل ذلك يبينه الرسول الداعى الى الله باذنه ويبين بأقواله التى ينقلها عنه صحابته ويبين بأعماله فيصلى ويرونه ويقول صلوا كما رأيتمونى أصلى ، اذن لابد للقرآن الكريم من تفصيل بوحى من الله وهذا هو ما اصطلح العلماء عليه بأنه السنة النبوية .

كذلك تأتى السنة النبوية بما ليس فى القرآن الكريم ومثال ذلك ان ميراث الجدة لم يرد فى القرآن وفعلا بعد موت الرسول جاءت الجدة الى سيدنا أبى بكر الصديق تطلب نصيبها فى الميراث فقال لها : لا أجد لك فى كتاب الله نصيبا ، ولم يكن قد اطلع على الحديث ، فجاء صحابى وأخبره بفعل النبى عليه الصلاة والسلام وانه جعل لها السدس فاقر ذلك أبو بكر ونفذه ، وكذلك القاتل حينما يقتل قريبا له فجزاء الاسلام ان حرمه من التركة ، لم يرد ذلك فى القرآن الكريم ولكنه جاء فى السنة . تقديم الدين الذى على الانسان على الوصية

لم يكن فى القرآن ، ولـكنه جاء فى السـنة .

وهناك آيات فعلا يستعصي علي الانسان فهمها ولا يمكن أن يفهمها الا بالسنة ، ولذا كانت أهمية السنة فى تفسير القرآن الـكريم ، مثلا فى البخارى يقول : « باب ، ان الصفا والمروة من شعائر الله » يأتى بالحديث فيقول ان عروة روى عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها انه سألها عن معنى هذه الآية ، ما معنى « ان الصـفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » ان الانسان يفهم من الآية ان الله رفع الجناح والاثم على من لم يسع بين الصفا والمروة .

وهذا فهم يتبادر الى كل ذهن ، ولكن السنة هى التى حددت المعنى ومنهـا يمكن معرفة أسـباب النزول ، فالسيدة عائشة استطاعت ان تشرح الآية وتفهمها فقالت: ليس الامر كذلك ، لو كان الامر كذلك لقال الله : لا جناح عليه ألا يطـوف . وسبب نزول الآية ان فى أيام الجاهلية كان الناس يطوفون حول الاصنـام فى هـذه الامكنة فجاء الاسلام وحطم الاصنام وطهر القلوب وجعل العبادة لله وحده ، فتحرج الصـحابة أن يطوفوا أو يسعوا فى أماكن كانوا يطوفون فيها بالاصـنام ، فجاء القرآن لرفع هذا الحرج من نفوسهم ويقول لهم : ليس عليكم جناح : « ان الصـفا والمروة من شـعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه » أى لا اثم عليه ، « أن يطوف بهما » . واتضح للسائل المعنى كما اتضح لنا نحن ، وكذلك يعرب الامام البخارى فى كتاب التفسـير بقوله ، قال الله تعالى : « الذين آمنـوا ولم يلبسـوا ايمانهم بظلم » سأل الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له : « أينا لم يظلم يارسول الله ؟ » فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله : « ان الشرك لظلم عظيم »

فالذى يعلم الحديث يعلم ان الشرك ظلم عظيم ، والذى يعلم الحـديث يعرف مواقع القرآن الـكريم ويعرف أسباب النزول فيفهم معنى الآيات • واختصـاص السنة بالتشريع أمر اقره الرسول بل أمر دعى اليه ونفذه فعلا
ولا يمكن أبدا للقرآن أن يفسر بدون السنة • حينما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل الى اليمن قال له : يا معاذ اذا عرض لك قضاء فبماذا تقضى؟ قال : « بكتاب الله » فقال له الرسـول عليـه الصلاة والسلام : « فان لم تجد فى كتاب الله ــ أى ما يحل هذه القضـية التى عرضت لك ؟ » قال : « أقضى بسنة رســول الله » قال : « وان لم تجد ؟ » قال : « اجتهد رأيى ولا آلو » • فمعنى ذلك ان الانسان قد يجد الحل فى كتاب الله مفصلا وقد لا يجده فى كتاب الله فييمم وجهه شطر السنة النبوية يسألها فيجد الحل الذى لم يرد فى القرآن الـكريم ، فاذا عرضت مسالة ولم يجدها فى كتاب الله ولا سنة رسول الله ، يجتهـد فى الجو الاسلامى وفى حدود ما أمر الله به أو نهى عنه ، بالقياس على مسائل مماثلة عرضت فى كتاب الله أو فى السنة قدر الاستطاعة .

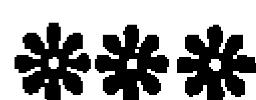
متى بدأ تدوين السنة ؟

يجيب فضيلة الشيخ محمد محمد ابو شهبة عميد كلية أصول الدين باسيوط فيقول ابتداء ، ان القرآن كان يدون جميعه عند نزوله وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو احد كتاب الوحى فيكتب الآية بين يديه • وكان الصحابة يكتبون ويحفظون وكانت النسخة الرسمية التى تكتب بين يدى الرسول محفـــوظة فى بيته فلما توفى الرسول بدأ سيدنا أبو بكر بمشورة من عمر فى جمع المفرق فى صحف على التفصيل المعروف فى جمع القرآن.

اما السنه فقدرأى النبيأن تكليف الصحابة بكتابة القرآن والسنه في آن واحد ، وفيهم أمية، أمر يشق عليهم • واكتفي بحثهم على حفظها، حتى ان هناك حديثا رواه أبو سعيد الخدرى عن النبي عليه الصلاة والسلام ، قال فيه « لا تكتبوا عنى غير القرآن ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه » واخذ بهذا كثير من الصحابة • ولكن بعضهم - ممن كان كاتبا قارئا مثل عبد الله بن عمرو بن العاص استأذن النبى فأذن له بالكتابة • وبعض الصحابة اشتكوا الى الرسول انهم ينسون فأذن لهم وكان الصحابة يدركون ان السنة هى الاصل الثانى للتشريع والمصدر الثانى للحلال والحرام فكانوا يعنون بها غاية العناية وكان الرسول يشحذ الهمم لحفظها فيقول لهم مثلا •• « نضر الله آمرءا سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع »

ومرة اخرى يقول لهم •• اللهم ارحم خلفائى •• فيقولون ومن خلفاؤك يا رسول الله فيقول هم الـــذين يروون احاديثى ويحفظونها ويعلمونها الناس •• فبعض الصحابة اذن كان يكتب السنة وكان ابو هريرة يقول : ما من أحد من اصحاب رسول الله كان اكثر حديثا منى الا ما كان من عبد الله بن عمرو بن العاص فانه كان يكتب وأنا لا اكتب • وقد يبدو هناك نوع من التعارض بين النهى عن كتابة الحديث والاذن به او التشجيع عليه • وقد رأى كثير من العلماء ان النهى كان فى أول الدعوة ثم أباح النبى ذلك فيما بعد ، وقد توفر العلم بالقراءة والكتابة وأصبح الناس يميزون بين القرآن والسنة • ولابد ان يكون الامر بالكتابة ناسخا للنهى عنها ولو نظرنا فى نصوص الاحاديث نجد ان ابا هريرة اسلم فى السنة الســـابعة لكن ابا سعيد الخدرى اسلم فى أوائل الهجرة فبينهما حوالى سبع سنوات ، ثانيا نذكر ان الرسول عندما دخل

فاتحا ومنتصراً القى خطبة على المسلمين فوقف رجل اسمه ابو شاة من اليمن ، فقال يا رسول الله اكتب لى ، أى ائذن لى ان اكتب او تكتب لى هذه الخطبة فقال رسول الله : اكتبوا لابى شاة • وفتح مكة كان فى السنة الثامنة فبينها وبين اسلام أو حديث ابى سعيد الخدرى بالنهى عن الكتابة ثمانى سنوات • فهذه الامور تدل على ان النهى لم يستمر بل نسخ •

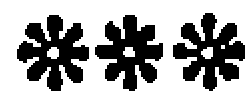


واصبح الصحابة بعد وفاة الرسول يحرصـــون على كتابة ما حفظوه من السنة • وكانوا يرتحلون ويسافرون المسافات الطويلة من أجل ان واحدا من الصــــحابة قـد سمع حديثا من رسول الله فيحرص الراوية على ان يسمعه بنفسه منه •

وكان على رأس الصحابة جابر بن عبد الله وعبد الله ابن عباس وقد بلغ الامر من ابن عباس انه كان يذهب فى يوم الريح العاصف الى بيت احد الصحابة فلا يرد ان يطرق بابه فينام به حتى الصباح ، فاذا خرج الصحابى ووجده قال يابن عم رسول الله لم لم ترسل لى وانا آتك فيقول انا أعلم ذلك ، ولكنى أنا الذى اسعى اليه لانى أريد أن احمل عنك حديث رسول الله • وقد كون الصحابة مدارس للحديث لها شيوخها ولها طلبتها •

وبعد عصر الصحابة جاء عصر التابعين الذين أقبلوا على دراسة الحديث وحفظه وكتابته أكثر من ذى قبل • وكان هناك سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وأبو يعلى وبن شهاب الزهرى وغيرهم حتى وصلنا الى نهــاية القرن الاول فرأى خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز أن الظروف تدعو الى تدوين السنة تدوينا عاما ، فكتب الى علماء الامصار بأن يجمعوا السنة « انظروا الى ما كان من

حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه فانى خفت دروس العلم وذهاب العلماء ولتجلسوا للناس حتى يعلم من لا يعلم ، ولتفشوا العلم فان العلم لا يهلك حتى يكون سرا » • فأقبل العلماء على ذلك ، فالسنة اذن بدأ تدوينها فى عهد الرسول ثم زاد فى عهد الصحابة ثم زاد فى عهد التابعين لا كما زعم المستشرقون انها تأخرت الى القرن الثالث •



المرحلة التالية فى التدوين

وينتقل الحديث الى فضيلة الشيخ الدكتور الحسينى عبد المجيد هاشم ليتحدث عن المرحلة التالية فى التدوين فيقول ان السنة جمعت ودونت بعد أن استقر الاسلوب القرآنى •• دونها عبد الله بن عمرو بن العاص وجابر ابن عبد الله • ولما جاء القرن الثانى كان طابع التدوين رسميا اى كان يأمر الحاكم فيجمع ما جمعه الافراد •ومن الطبيعى ان افراد المجتمع الاسلامى يمكنهم ان يدونوا ما قاله فرد واحد هو النبى يرون فيه سعادة دنيـــا وآخرتهم،كما أنه من السهولة أن يحفظوا هذا التراث مفرقا ومجتمعا • ولذلك فان مشكلة حفظ السنة مشكلة وهمية اخترعها اعداء الاسلام ليشككوا فى صحتها ، فالسنة جمعت فى القرن الاول بامر عمر بن عبد العزيز فى كراريس جمعها العالم الجليل بن شهاب الزهرى واعطاها الى الخليفـــة الذى وزعها الى الامصار ليرجعوا اليها. ومن الطريف ان يرسل الخليفة الى واليه على المدينة ابن حزم ليكتب له ما عند « عمرة بنت عبد الرحمن الانصارى » وهذا يدل على مكانة المرأة فى الحضارة الاسلامية ، وكيف كان الناس يتعلمون منهن السنة فالكل سواء فى ميدان العلم •

وامر عمر بن عبد العزيز وآليه على حمص ان يؤسس جاد اسلامية تخصصية فقال له اجعل للعلماء اجرا ليتفرغوا لكتاب الله والحفاظ على السنة – لا ليتكلوا او ليستريحوا– لكن ليعملوا وليدونوا أحاديث رسول الله وليحافظوا على الثروة التى انطلق نورها فى المشرق والمغرب ٠

وكان طابع التأليف جمع كل الاحاديث من غير تبويب، فحديث الصلاة قد يكون الى جانب حديث الصيام او الطلاق ، المهم ان يذكر راوى الحديث كل ما يعرف عنه حتى يرجع اليه فيما بعد فى فترة تمحيصية ، وقد كان ذلك ٠ وجاء الجيل الثانى الذى فيه الامام الجليل مالك امام دار الهجرة التقى الورع – الذى كان يأبى من صلاحه وورعه أن يركب فى المدينة لانها ضمت رفات رسول الله– فجمع كتابه وبوبه ٠

وكان اول كتاب مبوب على ابواب الفقه ٠٠ باب الطهارة ٠٠ باب الصلاة ٠٠ باب الصيام ، الى آخره غير ان كتابه لا يسمى جامعا لانه لم يجمع كل ابواب السنة ولكن له فضل السبق على البخارى ومسلم فعلمهما كيف يدونون ، وجاءا بعده فتمما ما بدأه من جوامع جمعت كل الابواب

يقول الامام الدهلوى ، وكتب الحديث من حيث الشهرة الطبقة الاولى ثلاثة كتب ، موطأ الامام مالك وصحيح الامام البخارى وصحيح مسلم بن الحجاج » ومنهج الامام مالك فى التأليف ان يأتى بالاحاديث المرفوعة الى الرسول ثم يأتى باقوال الصحابة ثم يأتى باقوال التابعين

***

طابع التدوين فى القرن الثالث

يقول الدكتور محمد ابو شهبه : الحقيقة ان القرن الثانى كان غنيا بالتأليف لكن المؤسف انه لم يصلنا الا كتاب الموطأ

وضاعت كتب كثيرة فيما اصاب المسلمين أيام التتار . في آخر القرن الثاني اتجه العلماء اتجاها آخر فالفوا شيئا اسمه المسانيد ، ومنها مسند الامام احمد وكانوا يجمعون الاحاديث بحسب الصحابة فتجمع احاديث ابو بكر ثم عمر ثم عثمان وهكذا بعد ان ينتهوا من العشرة المبشرين بالجنة

***

يأتى من يليهم فى الفضل . جمع الامام احمد مايزيد على خمسين الف حديث فى كتاب يعتبر من كنوز السنه حققه المرحوم العلامة الشيخ احمد محمد شاكر وهذبه وجعل له فهارس وطبع منه بضعة عشر جزءا . بعد ذلك جاء القرن الثالث الذهبى وظهر فيه كبار العلماء وكان لهم منهجان : المنهج الاول الا يذكر فى الكتب الا الاحاديث الصحيحة فقط وأول من بدع هذه البدعة الحسنة هو الامام البخارى وتلاه تلميذه وصاحبه مسلم وهذان الكتابان هما للاحاديث الصحيحة فقط . أما ما عداهما مثل سنن أبى داود وسنن النسائى وسنن الترمذى وسنن ابن ماجه فانها جمعت بين الصحيح والحسن والضعيف وهذه هى الكتب الستة المشهورة : البخارى ١٩٤ ـ ٢٥٦ هـ مسلم ٢٠٥ ـ ٢٦١ هـ أبو داود ٢٠٢ ـ ٢٧٥ هـ الترمذى ٢٠٩ ـ ٢٧٩ هـ النسائى ٢١٥ ـ ٣٠٣ هـ بن ماجه ٢٠٩ ـ ٢٦٣ هـ .

هؤلاء هم أصحاب الكتب الستة .. بعض المحدثين يحذف ابن ماجه ويضع بدلا منه موطأ الامام مالك لان كتابه من الجلالة بمكان وهو فى درجة الصحيحين على الاقل . ولكن العلماء الذين جعلوا ابن ماجه بين الستة لان الاحاديث الزائدة فيه عن الكتب الاخرى اكثر من الاحاديث التى انفرد بها الموطأ عن الكتب الستة . وعلى هذا فان ٩٥٪ من السنة قد فرغ من تدوينها فى القرن الثالث

وبقي ٥٪ إستدركها اهل القرن الرابع وألقرن الخامس وما تلاهما .

ماذا تم في القرنين الرابع والخامس ؟

يقول الدكتور الحسيني هاشم : بعد ان استقر تدوين السنه بالاصول الستة ، ماذا يفعل المؤلفون من مزيد س خدمة السنه .. بداوا يضمون كتابا الى كتاب او يجمعون بعض الاحاديث المتجانسة الى بعض . وقد جمعت السنة جمعا دقيقا ومنهجيا وفريدا . لابد ان بعض العلماء نظر في شروط صاحبي الصحيحين : البخاري ومسلم ، فوجد انهما اشترطا في الراوى ان يكون عدلا نقيا ضابطا ولابد أن يقابل الراوى المروى عنه لياخذ عنه مشافهة ، ولا يكون الحديث مخالفا لاى حديث اخر ولا عيب فيه . وبـ

النظر في هذه الشروط القديمة وجد ان هناك بعضا منها تتوافر له هذه الشروط فأراد ان يجمعها وان يستدرك به على الصحيح ولذا جمعها في كتاب سمى المستدرك . ولا يعاب ذلك على البخارى او مسلم لان كلا منهما لم يدع أنه جمع في كتابه كل صحيح بل ان دعواهما انهما لم يجمعا في كتابيهما الا كل صحيح . فجاء ابو عبد الله الحاكم النيسابورى وجمع المستدرك الـذى يلتحق في شروطه الامام البخارى ومسلم . ومعنى الشروط انها المقاييس التي وضعاها لمن يروى الحديث. يعني لايسمعون الحديث الا من اشخاص معينين تتوافر فيهم مثل دقه الحفظ والتقوى وما الى ذلك .

ووجدت هناك تآليف اخرى لا تأتى بجديد ، ولـكن بمنهج اخر من التأليف ، فمثلا يأتى على كتاب مثل البخارى في حديث رواه البخارى في السند المتصل عن أبى هريرة فيأتى هو لهذا الحديث بالذات بطريق اخر يعني برجال

أخرين يوصلونه الى ابى هريرة فيروى هذا الحديث بنفسه يستخرجه لنفسه . وسمى ذلك التاليف « مستخرج » وفائدته انه يقوى الحديث لانه يأتى به من أكثر من طريق بما يدل على أن الحديث صحيح .

ووجدت هناك مناهج اخرى هى مثلا جمع احاديث الاحكام ، أو شرح للنصوص ، كل ذلك فى محاولات لخدمة السنة ، حتى عصرنا هذا وجد فيه منا من سابق المستشرقين فى خدمة السنة فجعل لها فهارس تعين على كشفها كالمرحوم الباحث المحقق محمد فؤاد عبد الباقى الذى خدم فهارس القرآن والسنة فسهل على الباحثين الرجوع الى الاحاديث فى مصادرها مثل كتاب مفتاح كنوز السنة، وترجمة كتاب فنسنك . ولا نستطيع فى الواقع أن نحيط بكل الجهود التى بذلت لخدمة السنة ولكنها جهود بذلها علماء مخلصون جعلوا كتبها فى متناول ايدى المثقف العادى الذى يريد أن يتعرف على السنة النبوية المطهرة .

أحمد فراج

لمحة من اليرموك

هذه السطور من تاريخ البطولات الاسلامية نقدمها هدية الى الاخوة الرابضين على خط النار فى كل جبهة عربية يترقبون ساعة الصفر فى صبر وثقة ، وهم يقومون بين اليوم والاخر بأعمـــال بطولية مجيدة ، هى وسام شرف لا على صدورهم وحدهم وانما على كل صدر عربى . وليس القصد من هذه السطور أن تكون عملية اجترار للماضى بأمجاده وانتصاراته ، وانما ليوقنوا أن عملهم اليوم ، وعملهم فى الغد القريب ، انما هو سطور تضاف الى تاريخ حافل لامتنا ، كتبه ابناؤها عبر الاجيـــال بالجهاد والصبر والتضحية ، وروته دماء المؤمنين الاطهار ، فمنهم من قضى نحبه .. ومنهم من ينتظر ..

« سر حتى تاتى جموع المسلمين باليرموك ، وهنيئا لك ابا سليمان النية والحظـوة ؛ فاتمم يتمم الله لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتذل ، واياك ان تدل بعملك ؛ فان الله عز وجل له المن وهو ولى الجزاء »

قرا خالد بن الوليد هذه الكلمات من رسالة ابى بكر الصديق والتى امره فيها بان ياخذ نصف الجيش الاسلامى فى العراق ويتجه به الى الشام مددا للجيش هنـاك ، فاستخلف خالد على النصف الاخر المثنى بن حارثة وبدا مسيرته الى الشام وكان معه نحو عشرة آلاف جندى .

اراد خالد ان يختار طريقا ينتهى به الى مفاجاة الجيش البيزنطى ويحفظ به امن وسرية تحركاته فلم يدلوه الا على طريق يشق على الجيش ويحمله ما لا يطيق من المشقة والهول بل قيل له اياك ان تغرر بالمسلمين . وقام خـالد ليقول لمن معه « لا يختلفن هديكم ولايضعفن يقينكم واعلموا ان المعونة تاتى على قدر النية ، والاجر على قدرالحسبة ، وان المسلم لاينبغى ان يكترث بشىء يقع فيه مع معونة الله له » . وكان الراكب المنفرد يخشى على نفسـه ذلك الطريق ، ولا يسلكه الا مخاطر ، فما بالك باخطار لتهدد جيشا باكمله .

واتخذ القائد العبقري احتياطاته للمسيرة الرهيبة فعطش الابل ثم سقاها وشد أفواهها حتى لاتجتر ، وحمل عليها ماء وكلما قطع مرحلة من الطريق ذبح بعض الابل فشربت الخيل ما فى بطونها وشرب الناس ما على ظهورها وقطع صحراء العراق وبادية الشام ـ وهى جزء من الطريق يزيد على ٩٥٠ كيلومترا ـ فى اشد الظروف قسوة وحرارة . ونتجاوز الطريق سريعا الى اليرموك حيث اكتمل الجيش الاسلامى .

وتراوحت تقديرات الرواة لعدد الجيش الاسلامى ما بين ٣٦ الفا و ٤٠ الفا كان فيهم ألف صحابى ، منهم مائة يحملون وسام « بدر » بينما كان جيش الروم ٢٤٠ ألفا

واذا طرحت هذه النسبة على اى اكاديمية عسكرية واضيف اليها نوع التسليح فى كلا الجانبين لتبين دون عناء أن الجيش الاول الى فناء وابادة فالنسبة ـ حتى لو أخذنا بالتقدير الثانى لجيش المسلمين وهو ٤٠ الفا ـ تصبح ١ الى ٦ وهذا اختلال لصالح الروم، فضلا عن عدد الفرسان فى جيشهم الذى بلغ ثمانين ألفا ، أى أن القوة الضارية ذات التأثير الحاكم فى ذلك الوقت ، وكانت وحدها ضعف جيش خالد، فاذا أضفنا الى ذلك ان جيش خالد هو المهاجم فان المفروض ـ عسكريا ـ أن يكون لديه ثلاثة مهاجمين لكل مدافع وبمعنى آخر وبالحساب العسكرى كان مفروضا أن يكون جيش خالد ٧٢٠ الفا وليس أربعين الفا . والخلاصة أن النسبة الحقيقية كانت ١ الى ١٨ باعتبار خالد مهاجما . وليس الامر فى حاجة الى اكاديمية عسكرية بعد ذلك فان اى حساب مادى بسيط يستطيع ان يتنبأ بسهولة بنتيجة المعركة التى لايمكن عقلا أو ماديا أن تكون فى صالح المسلمين .

كان الخليفة الراشد ابوبكر الصديق قد عين لكل أمير

من امراء جيوشه الى الشام منطقة يكون واليا أو حاكما لها فجعل حمص لابى عبيدة الجراح ، وجعل دمشق ليزيد بن ابى سفيان ، والاردن لشرحبيل بن حسنة وفلسطين لعمرو بن العاص وعلقمة . وكان كل واحد منهم يقوم بعملياته العسكرية فى منطقة ، فاذا احتاج احدهم الى مساعدة سارع احد الامراء الى نجدته واذا ووجهوا بتجمع العدو اجتمعوا جميعا ، حتى وصل خالد اميرا من قبل الخليفة ورأى ان تكتيك الجيش البيزنطى لايصلح معه هذا الاسلوب الذى اتبعه امراء الجيوش الاسلامية فرأى أن حشد قواته كلها هو الاسلوب الامثل ومضى يشرح وجهة نظره :- ان هـذا يوم من ايام الله لاينبغى فيه الفخر ولا البغى ، اخلصوا جهادكم واريدوا الله بعملكم فان هذا يوم له مابعده ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئة وأنتم على تساند وانتشار فان ذلك لايحل ولا ينبغى .

ولعل خالدا قد رأى أن تولية الامراء على مناطق محددة تكون لهم بعد انتهاء الحرب ، أمر ربما يكون له اثر نفسى على القادة فضلا عن الجنود . والقادة هنـا هم الصفوة من الرعيل الاول الذين تخرجوا فى مدرسـة النبوة ، ومع ذلك فهو يذكر من معه بما هو أسمى وأبقى، فهو يذكرهم ويحذرهم من أن يكون للدنيـا اثر فيمـا يتطلعون اليه لان ما عند الله خير وأبقى فيقول : ان الذى أنتم فيه اشد على المسلمين مما قد غشيهم وانفع للمشركين من امدادهم ، وقد علمت ان الدنيا فرقت بينكم فالله الله ، فقد افرد كل رجل منكم ببلد من البلدان ، ان تأمير بعضكم لاينفعكم عند الله ولا عنـد خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هلموا فان هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له مابعده ، ان رددناهم اليوم

لم نزل نردهم ، وان هزمونا لم نفلح بعدها .

ويعرض القائد العبقرى ان يتولى كل امير قيادة الجيش يوما ويقترح ان تكون القيادة له فى اليوم الاول وكانوا يظنون أن المعركة ستكون طويلة وكان هو يرجو أن ينتهى منها فى أول يوم .

ونظم خالد جيشه على أساس وجود قوى رئيسية على شكل كراديس أو صفوف فقد اعتقد انها تظهر امكانيات اكبر فى نظر العدو ، وجعل أبا عبيدة على رأس منطقة القلب وعمرو بن العاص وشرحبيل فى الميمنة ويزيد على الميسرة .

وكانت الجيوش الاسلامية تعنى بالروح المعنوية وكانت هناك وظيفة « القاص » أو الخطيب الذى يقرأ القرآن على الناس ويذكرهم بالله ويحثهم على الجهاد وبذل الارواح فى سبيل الله . وقد تولاها يومذاك ، أبو سفيان بن حرب ، وذلك يشبهه مانلمسه اليوم من عناية قواتنا المسلحة بهذا الجانب ومايقوم به الوعاظ ورجال الدين من مشاركة ايجابية فى صفوف الجيش وبين وحداته .

لم يكن للمسلمين عهد بمثل ذلك الجيش الوفير العدد والعدة وما عهد العرب أن يواجهوا قوة كتلك القوة الهائلة لدولة كبرى كانت احدى أكبر قوتين فى العالم فى ذلك الوقت الروم والفرس .

ولقد أراد القائد « ماهان » أن يشن حربا نفسية على خالد وكانت لديه الامكانيات الظاهرة التى تبرر تلك الحرب ، فطلب مقابلة خالد فى عدد متماثل من أركان حربه وبعث اليه :

ان رأيت أن تخرج الى فى فرسان وأخرج اليك بمثلهم اذكرك أمرا لنا ولكم فيه صلاح وخير . واستجاب خالد ، فلما التقيا قال ماهان :

ـ قد علمت أنه ما اخرجكم من بلادكم الا غلاء السعر وضيق الامر بكم

ـ واني قد رأيت ان اعطى كل رجل منكم عشرة دنانير وراحلة تحمل حملها من الطعام والكسوة فترجعون الى بلادكم وتعيشون بين أهاليكم ، ونحن نقدم لكم هذا فى هذه المرة . فاذا كان العام القادم بعثتم الينا فبعثنا اليكم بمثله .

ـ فانا قد جئناكم ومعنا من الجيوش والعدد مالاقبل لكم به .

وهذه الكلمات من قائد الروم تبرز محاور أساسية ثلاثة استهدفها :

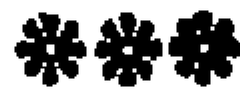
الاول : التشكيك فى الاوضاع الاقتصادية الداخلية فى الدولة الاسلامية ، وهو ينطوى ضمنا على التشكيك فى الهدف كما ينطوى على عدم ادراك الغاية التى استهدفها الجيش الاسلامى .

الثاني : محاولة اغراء هــذا الجيش « الفقير » او رشوته بمبلغ ٤٠٠ الف دينار واربعين الف بعير محملة بالطعام والكساء . مع ملاحظة أنه فى حالة القبول سيتكرر هذا العطاء فى كل عام !! ومع ملاحظة أخرى هامة أنه لاداعى لان يتجشموا مشقة الحضور فى العام التالى لان تلك « العطية » ستصلهم الى بلادهم فيما بعد .

ولاشك أن مظهر المقاتل المسلم كان مسرفا فى التواضع ولاشك أن مظهر سلاح الفرسان لديهم لم يكن من شأنه أن يثير الخوف ، ويكفى هنا أن نشير الى وصف خالد بن الوليد لفرسه قبل المعركة عندما قال : والله لوددت أن الاشقر « فرسه » براء من توجيه « أى شفى من مرضه وتعبه وكان فرسه قد حفى فى مسيره الطويل » . لاشك فى بساطة مظهر الجيش الإسلامى ولكننا نعتقد أن سمعته

مع ذلك قد طبقت الافاق ولهـذا فان كلام قائد الروم ينطوى هنا أيضا على معنى السخرية والاستهانة .

الثالث : انه مع التشكيك والاستهانة والسـخرية يأتى التهديد بالقوة و « بالجيوش والعدد التى لا قبل لكم بها » ولعله صدق فى جزء من هذه الناحية فالحق ان الجيوش والعدد التى كانت تواجه خالدا لم يكن للمسلمين بها عهد ولم يواجهوا مثلها قط .



هنالك لحظات حرجة تمر بحياة كل انسان ، ويختلف الناس فى قدرتهم على مواجهة تلك اللحظات ، فأكثرهم براعة وذكاء وسعة حيلة ، أقدرهم على التخلص من تلك اللحظات الحرجة . ولكن قلة نادرة تتميز فوق البراعة والذكاء وسعة الحيلة ، بطاقة من الايمان ودرجة من اليقين فى الله ، تجعل الشجاعة والثبات والثقة بديهة فى وجدان المؤمن ليصدر عنها فى كل شأن من شئونه فتفقد تلك اللحظات صفة « الحروجة » وتتجرد المواقف الصعبة من صفة الصعوبة أمام السليقة التى لاتعرف شيئا أكبر من الله .

ومن تلك القلة التى يندر تكرارها كان طراز خالد .

كيف كان رده على ماسمع . اننا نلمح فى اجابته محاور ثلاثة رئيسية نكاد نجد فيها مقابلة تامة حاسمة وفورية لما طرحه قائد الروم فيقول فى رده :

ـ ما أخرجنا من بلادنا جوع ولا ضيق أمر

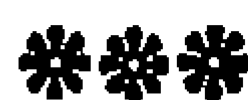
ـ ولكنا معشر العرب نشرب الدماء وقيل لنا انه ليس أطيب من دمكم فاقبلنا لنهريق دماءكم ونشربها .

ـ لقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة ويرغبون فى الاخرة كما ترغبون فى الدنيا ..

ونلحظ بوضوح :

١ ــ هناك حسم فى القضية الاولى ..
٢ ــ وفى مواجهة التشكيك والاستهانة والسخرية يلقى خالد بقنبلته التى ستحدث انفجارا نفسيا ويشيع بها الرعب فى قلب القائد وأركان حربه ، وبديهى أن العرب لم تكن تشرب الدماء ولكن الاثر النفسى تحقق على الفور فى قلوب اركان الحرب فقد مال بعضهم على بعض وقالوا ، هذا ماكنا نسمع به عن العرب من شربها الدماء

٣ ــ لم يستطع خالد أن ينكر الامكانيات البشرية والمادية الهائلة التى كانت لجيش ماهان ولكنه ركز مباشرة على اعتبار له القيمة الحاسمة من وجهة نظره فى مصير المعركة • انه يتحدث عن العقيدة التى يحارب بها المقاتل ، ونوعية ذلك المقاتل . ولا شك أن لكل مقاتل عقيدة حتى لو كانت باطلة ، فالجندى الاسرائيلى مثلا يحارب بعقيدة ، والجندى العربى يقاتل بعقيدة ، وينبغى أن يكون ايمان الجندى العربى بالحق الذى هو عليه ،أقوى من ايمان الجندى الاسرائيلى بالباطل الذى هو عليه .



من هنا نفهم لماذا تجاوز خالد بن الوليد الحديث عن العدد والعدة الى الحديث عن المقاتل .والعقيدة ، وهو يبين أن الذى يحارب ويريد أن يعيش انسان يختلف تماما عن الجندى الذى يحارب وهو يتحرق شوقا الى لقاء الله ، انه لايتعلق بشىء مما فى هذه الدنيا لان مافيها ينفد « ماعندكم ينفد وما عند الله باق » وهذه «العندية» الالهية هى هدف الجندى الذى يبذل روحه رخيصة فى سبيل الله ، ولهذا جاء قوله « جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة ويرغبون فى الاخرة كما ترغبون فى الدنيا » .

طريق المجاهدين :

ولسنا نحرص على سرد المعركة وفصولها ، ولكننا نحرص اشد الحرص أن نبرز القيم والمعانى الكبار التى فجرت طاقة الاستبسال فى قلوب المجاهدين فى كلمات ومضت فى سماء المعركة على السنة قادة الجيش الاسلامى .

ولنستمع الى أبى عبيدة بن الجراح يقول « عباد الله ، انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، ياعباد الله». ولاحظ التأكيد على معنى العبودية والخضوع لله • اصبروا فان الصبر منجاة من الكفر ومرضـاة للرب ... الزموا الصمت الا من ذكر الله عز وجل فى انفسكم ..

وننتقل الى ميمنة الجيش الاسلامى لنستمع الى معاذ بن جبل الصحابى الجليل : يا أهل القرآن يامستحفظى الكتاب وأنصار الحق والهدى والرحمة ، أن رحمة الله لاتنال وجنته لاتدخل بالامانى .. واستحيوا رحمكم الله من ربكم أن يراكم فارين من عدوكم وأنتم فى قبضته . ليس لكم من دونه ملتحد « ملجأ » ولا عز بغيره .

ويطوف عمرو بن العاص على مجموعته فيقول .. لايهولنكم جموعهم ولا عددهم فانكم لو صدقتموهم الحملة تطايروا تطايرا .

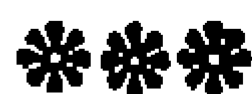
وقائد التوجيه المعنوى أبوسفيان يخطب بين صفوف المسلمين ويقول : قد والله أصبحتم بازاء عدو كثير عدده شديد عليكم حنقه والله لاينجيكم من هؤلاء القوم اليوم ، ولا تبلغوا رضوان الله غدا الا بصدق اللقاء والصبر فى المواطن المكروهة ، الا انها سنة لازمة .

وهذه الكلمة الاخيرة لابى سفيان بن حرب توضح مايستشعره المؤمنون دائما من أن للنصر سننا وقوانين

لابد من التزامها وبها وحدها يتحقق النصر . فلابد من الثبات ، ولابد من ذكر الله ، ولابد من الوحدة والتلاحم فلا تكون فرقة أو خلاف ، ولابد فوق ذلك من الصبر ، كل أولئك مرشحات النصر والغلبة « اذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا ان الله مع الصابرين»

هل خرجت كلمات القادة ابتداء من القائد الاعلى خالد ابن الوليد ، الى أبى عبيدة ، وعمرو ، ومعاذ ، وأبى سفيان وغيرهم ، عن معانى تلك الاية الكريمة التى تبين عوامل النصر ودستوره ؟

وتبدأ المعركة ثم تدور سجالا بين الفريقين ، يكر هؤلاء حينا وأولئك حينا آخر وتشتد ضراوة المعركة مع ساعاتها الاولى ويسقط القتلى والشهداء بالمئات والالوف .



دور المرأة

وتلعب المرأة دورها فى المعركة ، كان كثير من المهاجرات قد حضرن مع أزواجهن وأبنائهن وأجلسهن أبو سفيان خلف صفوف المسلمين وأمر بالحجارة فالقيت بين أيديهن ، وكان عليهن القيام بواجبهن الاول وهو مداواة الجرحى وتزويدهم بالماء والثانى هو رد الهاربين اذا حدث أن فر أحد من المعركة « لايرجع اليكن أحد من المسلمين الا رميتموه بهذه الحجارة وقلن له : من يرجوكم بعد الفرار عن الاسلام وأهله وعن النساء » بل ان القائد الاعلى نفسه يقطع الصفوف ويصل الى النساء ومعهن أبو سفيان فيلقى بتعليمات واضحة « يانساء المسلمين ايما رجل أقبل اليكن منهزما فاقتلنه » ولقد حدث فعلا أن حمل الروم على ميمنة الجيش الاسلامى حملة عنيفة حتى انكشفت طائفة من الناس .

يقول ابن كثير « ثم ركبهم من الروم امثال الجبال فزال المسلمون من الميمنة الى ناحية القلب وانكشف طائفة من الناس الى العسكر وثبت صور من المسلمين عظيم يقاتلون تحت راياتهم وانكشف زبيد ثم تنادوا فتراجعوا وحملوا على الروم وأشغلوهم عن اتباع من انكشف من الناس واستقبل النساء من انهزم من سرعان الناس يضربنهم بالخشب والحجارة . قال : فتراجع الناس الى مواقفهم » . (١)

لقد دارت فى اليرموك رحى معركة ضارية قاتل فيها الطرفان قتالا رهيبا وقدم المسلمون صورا من الايمان تفوق الحصر هنا وتفوق الوصف وكان من نداء بعضهم لبعض يومها « أين الذين يبيعون أنفسهم لله ابتغاء مرضاة الله . وأين المشتاقون الى جوار الله فى داره » . ولقد انتهت المعركة بانتصار المسلمين رغم الفوارق المادية الهائلة .

وعلى نفس الارض اليوم ومن حولها ، فوق المرتفعات وعلى السهول والوديان والاغوار وعلى ارض مصر الصامدة يقف أبناء الامة العربية استعدادا لمعركة المصير ودفاعا عن أرضهم ومقدساتهم ومستقبلهم أمام عدوان عنصرى استعمارى استهدف الارض والعرض ، والمسجد والكنيسة ، والحاضر والحضارة . ومع الضربات التى يوجهونها للعدو الصهيونى تأتى ارهاصات النصر وتلوح بشائره « ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز »

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ـ الجزء السابع ص ١١

اللواء الركن محمود شيت خطاب

عوامل النصر في الإسلام

« المباغتة من أهم مبـــادىء الحرب • والكتمان وسيلة من أهم وسائل المباغتة ، لان العدو الذى يكشف نيات من يحاربه فى وقت مبكر لابد أن يعمل بكــل طاقاته لاحبـــاط خططه • وقد كان الكتمان ولايزال وسيبقى من سجايا العربى القدير ، وفوق ذلك فهـو عند المسلم الحق دين واجب الاداء »

يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب ان عوامل النصر فى الاسلام ترتكز على دعامتين اساسيتين : أولا العقيدة ، وثانيا : الاعداد المادى . وان الاعداد المادى تنظيما وتسليحا وتجهيزا وتدريبا وقيادة لايكفى وحده للنصر مالم تصاحبه العقيدة ، والاسلحة بجميع أنواعها قديما وحديثا ماهى الا كتل من حديد ، والعامل المسيطر عليها لاستخدامها هو البشر ، والبشر بدون عقيدة لايحقق شيئا . لقد كان تاريخ الفتح الاسلامى العظيم خير شاهد على ذلك ، لقد قادتهم العقيدة قرونا طويلة الى النصر فلما ضعف المسلمون صانتهم هذه العقيدة من الانهيار .

● احمد فراج : لابد للعقيدة من قوة ولابد للقوة من عقيدة ، واذا كانت القوة المادية تعني الاستعداد المادى بكل صوره فان هناك عنصرا هاما نحتاج الى التاكيد عليه - وكان يمثل فى التاريخ الاسلامى أخطر وأهم قاعدة فى الاستعداد - وهذا العنصر هو « الكتمان والسرية » فما هو المقصود به وهل تعرض القرآن لهذا العنصر ؟

● يجيب اللواء الركن محمود شيت خطاب فيقول أن الكتمان فى المصطلحات العسكرية الحديثة معناه اخفاء المعلومات العسكرية الخاصة بقواتنا وأسلحتها وتنظيمها

وتجهيزها وقيادتها وتحركاتها ، عن العدو والصديق معا ، وعدم افشاء الاسرار العسكرية ، مهمة كانت أو غير مهمة ، كبيرة كانت او صغيرة ، لكل انسان سواء أكان هذا الانسان صديقا أم عدوا . وكتمان المعلومات العسكرية عن العدو معروف ولكن الكتمان عن الصديق يحتاج الى توضيح . فالصديق نوعان ، احدهما له علاقه بالقضايا العسكرية فهذا يجب ان يزود بالمعلومات العسكرية بالمقدار الذى يخص واجبه فقط لا زيادة ولا نقصان . ثم هناك صديق لا علاقة له بالقضايا العسكرية وهذا يجب ان نكتم عنه القضايا العسكرية حتى لو كان هذا الصديق هو العائلة التى يعيش معها الرجل العسكرى أو غير العسكرى .. زوجته .. أولاده .. اهله الاقربون .

كل هؤلاء يجب ان يكتم عنهم . وتاريخ الحروب يحدثنا ان العدو يستطيع الحصول على معلومات خطيرة من عائلات العسكريين او الذين يمتلكون الاسرار العسكرية . وهذا هو أول الاشياء التى طبقها الرسول عليه الصلاة والسلام فى حياته . والصديق قد لا يحكم الكتمان بالنسبة للخبر الذى سمعه ، وقد يكون غير مقدر لاهمية ما اطلع عليه وقد يكون محبا للتظاهر بانه عليم ببواطن الامور فيتحدث يمينا وشمالا وهذا الصديق قد يفشى الاسرار العسكرية بدون قصد متعمد . والاسرار العسكرية يجب أن تحظى بالكتمان الشديد ولا تعطى لمن يذيعها بحجة أو باخرى للعدو او للصديق على السواء .

ان من يطلع على الاسرار العسكرية بدون قصد أو حتى عن طريق الخطأ يجب أن يصونها بالكتمان لا فرق فى ذلك بين المدنيين والعسكريين ، والدرس الكبير الذى يجب أن يتعلمه العرب من النكسة هو أن يصونوا معلوماتهم العسكرية ويتحلوا بأقصى درجات الكتمان .

واذكر انني كنت فى احدى البـلاد العربية وكنت فى سيارة تنهب الارض نهبا فسمعت السائق يقول لمن فى السيارة : هنا مطار سرى . والناس لا يستنكرون هذا . وهذه الثرثرة تضر بأمن الجيش الذى هو من صـميم الشعب العربى . ان قضايا الكتمان لها نتائج حاسمة على النصر أو الاندحار والامة التى لاتتحلى بالـكتمان الشديد لاتنتصر .

من المعلوم ان المباغتة من اهم مبادىء الحرب ، والكتمان هو وسيلة من اهم وسـائل المباغتة ، لان العـدو الذى يكشف نيات من يحاربه قبل وقت مبكر لابد أن يعمل بكل طاقاته لاحباط خططه وقد كان الـكتمان ولايزال وسيبقى من سجايا العربى القدير وفوق ذلك فهو عند المسلم الحق دين واجب الاداء . فمن أمثال العـرب : أياك وأن يغلب لسانك عنقك . ومن أمثالهم ان للحيطان آذانا ومنها : صدرك أوسع لسرك .

***

وينبه القرآن الى هذه القضية بطريقة اشمل واكمل فيقول الله « واذا جاءهم امر من الامن أو الخوف اذاعوا به ، ولو ردوه الى الرسول ، والى أولى الامر منهم ، لعلمه الذين يستنبطونه منهم ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلا » وهذا الامر الالهى يرشد المسلمين ليس الى اهمية الكتمان فحسب بل الى وجوب اخبار المسئولين عن كل أمر يؤثر فى المعنويات تأثيرا على غير اساس أو تأثيرا سيئا ، ليبدوا فيه رأيهم ، ولتقوم أجهزة خاصة بتحليله ودراسته « لعلمه الذين يستنبطونه منهم » فيضعوا حدا لانتشـاره واشـاعته حتى لايتفاقم ضرره ويتوصل الذين اذاعوه الى أهدافهم من اذاعته بسهولة ويسر . ولذلك يجب أن نخبر المسئولين

بالقضايا المصيرية فورا ، ولكن ليس معنى هذا ازعاج السلطات بالقضايا الشخصية ايضا . وقد حذر الاسلام من اذاعة الاسرار العسكرية وجعل اذاعتها من شأن المنافقين وطلب الرجوع بها الى القيادة العامة كما طلب من المسلمين أن يتثبتوا من الانباء قبل الركون اليها والعمل بها ويقول الله فى كتابه العزيز « يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا .. »

والواقع أن الدروس العملية التى يستطيع المسلمون ان يتعلموها من الرسول القائد عليه الصلاة والسلام فى الكتمان أكثر من أن تعد أو تحصى • وسأقتصر على ذكر نماذج قليلة من الدروس العملية المستنبطة من غزوات الرسول حتى يعرف العسكريون والمدنيون على السواء ، ان النبى كان يعتمد أقصى درجات الكتمان فى أعماله العسكرية .

فقد بعث النبى عليه الصلاة والسلام سرية من المهاجرين قوامها اثنا عشر رجلا بقيادة عبد الله بن جحش الاسدى للقيام بواجبات استطلاعية وليس للقتال . وتوجهت تلك السرية نحو هدفها فى رجب بعد سبعة عشر شهرا من الهجرة وكان مع قائدها رسالة مكتومة أى مغلقة .. حتى القائد لايعرف ماذا فى الرسالة . وأمره الرسول صلى الله عليه وسلم الا يفتحها الا بعد يومين من مسيرة ... أعطاه اتجاها معينا ورسالة أمره الا يفتحها قبل يومين ، فاذا فتحها وفهم مافيها سارع فى تنفيذها .

● **احمد فراج : اشرتم الى ان الصديق من العسكريين لا يعرف الا بالقدر الذى يتفق مع واجبه لا اكثر ولا اقل ، وهنا نلاحظ أن**

القائد نفسه لا يعرف مضمون الرسالة وهو خارج الى هذه المهمة الاستطلاعية .. فهل هذا مبالغة ؟

● اللواء الركن محمود شيت خطاب :

ــ ليس هنا مبالغة ، ولكن الرسول أعطاه كافة المعلومات فى الرسالة وان لم يفصح عنها لان الموقف فى المدينة يومذاك كان عسيرا .. كان هناك منافقون وكان هناك يهود .. لذلك حرص الرسول الا يعرف أحد على الاطلاق شيئا من مضمون الرسالة ، وأراد أن يستوثق من عدم تسرب أى شيء عن فحواها . ثم كان مضمون الرسالة هو « اذا نظرت فى كتابى هذا فامض الى نخلة ــ بين مكة والطائف ــ فترصد بها قريشا وتعرف لنا على أخبارها » وبعد اليومين قرأ عبد الله بن جحش الرسالة وأطلع رجاله عليها وأخبرهم أن الرسول أمره الا يستكره أحدا منهم على مرافقته فقالوا لانتخلف عنك ، سمعا وطاعة لرسول الله .

***

نجد هنا أن الرسول ابتكر أسلوب الرسائل المكتومة للمحافظة على الاسرار العسكرية ولحرمان أعداء المسلمين من الحصول على المعلومات التى تفيدهم عن تحركات المسلمين وأهدافهم ، وبذلك أخفى نياتهم عن العدو والصديق . ولقد سبق المسلمون غيرهم فى ابتكار هذا الاسلوب الدقيق فى الكتمان قبل أن يستعمله الالمان فى الحرب العالمية الثانية . وربما يكون للالمان العذر فى ادعاء ابتكارهم للرسائل المكتومة لسبب أو لآخر ، ولكن ماعذرنا فى مشايعة الالمان فى ادعائهم هذا وزعمهم بانهم أول من ابتكروه . اننا نعتقد أن هذا اثر من الاستعمار الفكرى .

ـ نموذج آخر : بلغ النبى صلى الله عليه وسلم بعد شهرين من غزوة احد ان طليحة وسلمة بن خويلد يحرضان قومهما بنى أسد على غزو المدينة المنورة ونهب أموال المسلمين . وقرر الرسول ارسال دورية قتال بقوة مائة وخمسين من المهاجرين والانصار للقضاء على تلك المحاولة وكان عدد عدوهم بالالوف ، وامر الرسول صحابته أن يسيروا ليلا ويستخفوا نهارا وأمرهم أن يسيروا فى طريق غير مطروق حتى لايطلع احد على أخبارهم وبهذا الاسلوب باغتوا بنى اسد فى وقت لا يتوقعونه فحاصروهم فجأة ولم يستطع المشركون الثبات ثم ولوا الادبار تاركين أموالهم وبيوتهم وهربوا وارسل ابوسلمة قائد المسلمين مجموعتين من قوته لمطاردتهم فعادتا بالغنائم . فلو كان بنو أسد قد عرفوا بحركة مائة وخمسين مسلما لكان من السهل عليهم مواجهتهم وربما القضاء عليهم .

الدكتور عبد العزيز كامل

المجتمع المثالى في الإسلام

« ان صورة المجتمع المثالى الذى يرسمه الاسلام ليست صورة تحوى نفرا من الباذلين الذين يتصدقون علي نفر من العاجزين ٠ ولكنها صورة مجتمع يوفر لابنائه فرص العمل ويدعوهم اليها ما وسعتهم الطاقة ٠٠ ويخطط لهذا الانتاج حتي تستطيع النفس الانسانية أن تحقق خير ما فيها ٠٠ »

الاسلام والفقر :

يقول الله تعالى فى كتابه العزيز : « يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنى الحميد » فوصف الناس جميعا بأنهم فقراء اليه مهما كانت درجة غناهم.

ووصف الانسان بالطغيان فى حالة معينة نستطيع ان نقرأها فى الآية الكريمة : « ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى » .

واستعاذ النبى عليه الصلاة والسلام من الفقر ، وجعله قرين الكفر فى دعائه : « اللهم انى أعوذ بك من الكفر والفقر ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، لا اله الا أنت » .

كما استعاذ من مظاهر الضعف على تنوعها ، الضعف النفسى ، والاجتماعى ، والاقتصادى فى دعائه : « اللهم انى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » .

فكيف نستطيع أن نجمع بين معانى الآية والحديث : « الفقر — الذى هو صفة لازمة للبشر — فى الآية الاولى والفقر الذى استعاذ منه النبى صلى الله عليه وسلم وجعله قرين الكفر فى دعائه ؟

يعود بنا هـذا الجمع الى تصوير الاسـلام لموقف الانسان من هذا الـكون الذى يحيا فيه .

فالله سبحانه وتعالى جعل الانسان خليفته فى أرضه وخلق له السماوات والارض ، وفى هذا يقول : « هو الذى خلق لـكم ما فى الارض جميعا ثم اسـتوى الى السماء فسواهن سبع سـماوات وهو الذى انشـأكم. وجعل لـكم السمع والابصار والافئدة قليلا ماتشكرون»

وهذه القوى اعتبرها أمانات أو ودائع يسـتخدمها الانسان فى الخير وينفق منها فى الصالح « وانفقوا مما جعلـكم مستخلفين فيه » .

ـ والانسان مسئول عن عمله هذا : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

ويستطيع الانسان أن ينمى هذه القوى التى منحها له خالقه ، ويستطيع أيضا أن يسىء اسـتخدامها : « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » .

فهناك اذن أمران واضحان : أفراد منحهم الله فيضا من هذه القوى ، وأفراد كان نصيبهم منها محدودا .

وكل من هؤلاء وهؤلاء يستطيع أن يستفيد من هذه المنح الالهية على تنوعها .

فهل يكون ثمرة ما يحصل عليه الفرد الذى منحه الله فيضا من نعمه ، مقصورة على هذا الفرد وحده ؟ وهل يمكن اعتبار هذه الثمرات ـ فعلا ـ ملـكا خاصا له ؟

من الممكن اعتبارها ملـكا خالصا اذا كانت الادوات والقوى التى استخدمها ملـكا خالصا . ولـكننا رأينا انها عطايا الله ومنحه ، وعن طـريق هـذا المنح الالهى استطاع الفرد أن يعمل وأن ينتج الانتاج الوافر. ومن هنا يبدو حق الله فى مال الفرد ، ويبدو افتقار الفرد الى الله . انه افتقـار المخلوقات جميعـا الى خالقهـا

وموجدها ، وبه يتضح المقصــود من قوله تعــالى : « يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنى الحميد » .

فاذا ظن الانسان فى نفسه القدرة على الاستغناء عن الله كان طاغيا يدخل فيمن عنــاهم الله بقوله : « ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى » . ولم يقل الله تعالى « ان استغنى » فالطغيــان هنا حالة نفسية لا حالة اقتصادية وكذلك الفقر الى الله تعالى ، ومن الممكن أن يكون الانسان على قدر كبير من الغنى، ومع هذا يحس الافتقار الدائم الى الله تعالى ، لا يطغيــه المــال ، ولا تضطرب عيناه أمام زهرة الحياة الدنيا ، يملك المــال ولا يملــكه المال ، هذا هو الغنى الفقير ، الغنى بما عنده الفقير دائما الى ربه ، المؤمن ان هذا كله ــ فى حقيقته ــ ملك لله تعالى .

وقد يكون الانسان محدود المال ، ولــكن يظن فى نفسه الغنى، ويتخذ من هذا المال ــ رغم قلته ــ وسيلة للتجبر والسيطرة ، فهذا هو الطغيان المذموم الذى نهانا عنه الله سبحانه وتعالى .

نستطيع أن نخرج من هــذا بأن المقصــود من الآية الــكريمة : « يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله » حالة نفسية خاصة يؤمن فيها الفرد بافتقاره الدائم الى ربه وحاجته اليه ، وان الطغيان المذموم حالة نفسية أخرى يظن فيها الفرد انه يستطيع بماله أن يسيطر ويتجبر ويستغنى .

صور من الماضى :

ولقــد كان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم على هذا الاحساس الكريم بالافتقار الى الله ، وأورثهم هذا زهدا فى المال وهو فى أيديهم ، وفضلوا أن يعينوا به

محتاجا أو يطعموا به جائعا أو ينفقوه فى سبيل الله ، ونشر كلمته ، على أن يتمتعوا هم به متعة مادية فانية. كانت متعتهم الحقيقية أن يسعد الناس وأن يستظلوا بالظل الوارف ، كان مالهم وعلمهم كضوء الشمس لا يبخلون به على محتاج .

على هذا فضلوا المعيشة الخشنة ، وهم يمتلكون المال ، وآثروا غيرهم بما عندهم ، رغبة فيما عند الله وحبا لعباده .

أ - ومازلنا نذكر أبا بكرالصديق وقد حضرته الوفاة والى جواره عائشة أم المؤمنين رضي‌الله‌عنهما ، والخليفة الصالح يجيل عينيه فيما حوله ويذكر أمر الخلافة وما قام به مخلصا من أجل الدين ، ويخاطب ابنته قائلا :

يا بنية : انا ولينا أمر المسلمين فلم نأخذ لهم دينارا ولا درهما ، ولكنا أكلنا من جريش طعامهم فى بطوننا ، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا ، وانه لم يبق عندنا من فىء المسلمين قليل ولا كثير ، الا هذا العبد الحبشى وهذا البعير الناضح ، وجرد هذه القطيفة ، فاذا مت فابعثى بهن الى عمر .

ولما انتقل أبو بكر الى جوار ربه ، ذهب رسول من بيته الى عمر يقود البعير ويصحب العبد ويحمل القطيفة فبكى عمر حتى سالت دموعه على الارض ، وقال رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده ، ارفعهن يا غلام .

٢ - على هذا الاساس كانوا ينظرون الى الدنيا ويؤدون حقوق الله وحقوق العباد ، ويروى مالك بن أوس أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كان يحلف على ايمان ثلاثة ، يقول : « والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق به من أحد ، والله ما من المسلمين من أحد الا وله فى هذا المال نصيب الا عبدا

مملوكا ، ولكنا كنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالرجل وبلاؤه فى الاسلام ، والرجل وقدمه فى الاسلام ، والرجل وغناؤه فى الاسلام ، والرجل وحاجته ، والله لو بقيت لهم ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى فى مكانه » .

٣ ــ وكان عمر يقول : « انى أنزلت نفسى من هذا المال بمنزلة ولى اليتيم ، ان استغنيت استعففت ، وان احتجت استقرضت فان أيسرت قضيت » .

٤ ــ ورأى أحد أصحابه تضييقه على نفسه فقال له : « لو وسعت على نفسك فى النفقة من مال الله تعالى » فقال عمر : « مثلى ومثل هؤلاء كمثل قوم كانوا فى سفر ، فجمعوا منهم مالا فسلموه الى واحد ينفقه عليهم ، فهل يحل لذلك الرجل أن يستأثر عنهم من أموالهم ؟ .

اسرة كبيرة :

بهذه الروح السمحة يتحقق فى المجتمع معنى الاسرة الكبيرة الواحدة المتكافلة .

وبين على بن أبى طالب رضى الله عنه هذه العلاقة فى خطاب وجهه الى الاشتر النخعى واليه على مصر : « وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم ، فانهم صنفان : اما أخ لك فى الدين أو نظير لك فى الخلق ، يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل » .

١ ــ ويتابع على رضى الله عنه توجيه واليه فيقول : « الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك فى عمارة الارض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لان ذلك لا يدرك الا بالعمارة ومن طلب الخراج بغير

عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره الا قليلا » .

وبهذا وضح على رضى الله عنه ثلاثة مبادىء للحكم الصالح وهى : التنمية الاقتصادية ، ثم العدالة فى التوزيع والاخاء الانسانى . وعبر عن الاولى ، التنمية الاقتصادية ، بعمارة الارض ، وعن الثانية بأن الناس جميعا غيال على الخراج وأهله ، وأكد الاخوة الانسانية العامة فى قوله عن الناس : « أخ فى الدين أو نظير فى الخلق » .

٢ ـ ويصور النبى صلى الله عليه وسلم هذا التكافل بين أفراد المجتمع الكبير بقوله : « انا أولى بكل مؤمن من نفسه ، ومن ترك مالا فلأهله ، ومن ترك دينا أو ضياعا فالى وعلى » .

٣ ـ ويؤكد عليه الصلاة والسلام ، الروابط القوية بين افراد الاسرة الصغيرة ، وحقوق الجيران ، وحقوق الاهل ، كما يؤكد حق المجتمع الكبير كله ، فيجعل الترابط قويا ، فى كل هذه المستويات ، من مستوى الاسرة الصغيرة الى مستوى المجتمع كله ، والاحاديث فى هذا كثيرة يكفى أن نذكر منها دعوته العامة الى التراحم : « ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السماء » .

دعوة الى الانتاج :

١ ـ ويبين النبى صلى الله عليه وسلم ان اليد العليا خير من اليد السفلى ، وفى هذا حث واضح على العمل والكسب .

٢ ـ ومن قبل هذا ذكر الله تعالى قصة آل داود فى كتابه ومدح فيها العمل بقوله : « اعملوا آل داود شكرا ، وقليل من عبادى الشكور » وامتن على داود بقوله : « والنا له الحديد » .

٣ ـ فاذا كانت الارض ميدان العمل ، لتحقيق

وجودنا فيها يقتضي منا الانتاج الذى لا يعرف التوقف والجهد المتصل فى عمارتها والرقى بها . ويأتى هـــذا بطريقين واضحين :

أ ـ أن يبذل القادر ما يستطيع من جهد ثم يعود بفضل الجهد على المجتمع .

ب ـ أن يرعى المجتمع أفراده باتاحة فرصة العمل للقادر من ناحية والاخذ بيد الضعيف من ناحية اخرى، على أساس من التكافل الذى يعتبر المواطنين جميعا أبناء أسرة واحدة كبيرة .

فكيف يحرر الاسلام الفرد من مظاهر الضعف ويدفع به الى العمل والانتاج ؟

التحرر من الضعف :

أشرت فى صدر هذه الكلمة الى استعاذة النبى صلى الله عليه وسلم من مظهرين كبيرين من مظاهر الضعف : الكفر والفقر ، خلو القلب من الايمان ، وخلو الجيب من المال .

واستعاذ أيضـــا من ثمانية مظاهر للضعف جمعهـــا الحديث الثانى : « اللهم انى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » .

ويحسن أن نقف قليلا عند هذا الحديث متأملين ما فيه من دعوة قوية الى تحرير النفس من كل مظاهر الضعف .

هذا الحديث قصة متكاملة الحلقات تبدأ من الفكرة وتنتهى الى ما بعد العمل وتهيىء النفس لتقبل نتائجه والاستعداد لتبعاته .

يبدأ الحديث بالاستعاذة من الهم والحزن . .

والحزن يكون على شيء مضى ، والهم لشيء مستقبل .

والاستعاذة هنا تحرير النفس من أن يتوزعها أسى على شيء مضى أو اضطراب امام خوف مجهول مستقبل ، ونفس هذا التدعيم النفسي نستطيع أن نقراه في قوله تعالى : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا » الا تخافوا من امر مقبل ولا تحزنوا على شيء مضى .

بهذا يجمع هذا الدعاء نفس الانسان ويوجهها الى مغالبة الواقع الذي تحيا فيه وبناء المستقبل الذى تعمل من أجله مستفيدة ــ دون انطواء ــ من الماضي الذى كانت فيه .

فاذا ما تحررت النفس من الهم والحزن ورغبت فى العمل ، فقد يقعد بها الكسل مع القدرة ، أو العجز ، وهو انتفاء القدرة ، ومع ان نتيجة الامرين واحدة ــ وهى عدم الانتاج ــ الا أن السبب مختلف .. يضطرب بين الكسل والعجز ، من أجل هذا يستعيذ النبى صلى الله عليه وسلم منهما .

فلننظر الى هذه النفس وقد تحررت من الهم والحزن والعجز والكسل وأقدمت على العمل ، ما العقبات التى بقيت فى الطريق ؟

هذه العقبات قد تكون اقتصادية وقد تكون اجتماعية .. قد تكون جبنا عن مواجهة المسئولية أو بخلا بالمال فى سبيل القضية التي يؤمن بها الانسان ، الاول مظهر ضعف اجتماعى ، والثاني مظهر ضعف اقتصادى ، والاثنان يعوقان العمل ــ اى عمل .

فاذا تحرر الانسان من هذين المظهرين من مظاهر الضعف وخاطر فى العمل فهو أحد رجلين : اما منتصر يذكر فضل الله عليه ويحس افتقاره الدائم اليه ، دون طغيان .. واما أن تخونه التجربة فيضعف اقتصاديا

او اجتماعيا .. وعبر الحديث عن الاولى بقوله : «غلبة الدين » وعن الثانيه بقوله : « قهر الرجال » والمسلم يستعيذ من هذين المظهرين من مظاهر الضعف ويعاود التجربة من جديد دون هم او حزن ، ولا عجز أوكسل .

وبهذا يعطيه الحديث الشريف زادا نفسيا قويا فى كل مراحل السير ، ويعطيه الزاد فى كل تجربة جديده فاذا انتصر ذكر ربه وفضله ، واحس حق الله وحق الناس فى ثمار عمله ، وعاد الى مجتمعه يبادله الخير ويتعاون مع افراده على أساس من الاخاء الكريم .

التكامل العضوى فى بناء المجتمع :

يبدو من هذا ان الجانب الاقتصادي فى الاسلام لا يمكن فصله ـ بحال من الاحوال ـ من بقية جوانب الحياة الاسلامية ، فبين هذه الجوانب تكامل عضوى كأنها الجسد الواحد ، وفى هذا يمتاز الاسلام بأنظمته من كافة الانظمة الاخرى .

الاقتصاد فى الاسلام ليس صناعة مال ، وعملياته فى الاسلام ليست مجرد تنمية دخل واعادة توزيعه ـ انها شىء أبعد من هذا واعمق واوسع ، انها جزء من نظام اجتماعى متكامل لا يفرق بين الصلاة والزكاة ولا بين الاخلاق والاقتصاد ، الافراد فيه ليسوا آلات صماء تنتج وتعمل ويوفر لها الطعام كأنه زيت آلة ، والخدمات الطبية كأنها أعمال صيانة .

الانسان فى ظل الاسلام كائن لروحه حقوق ، ولبدنه حقوق ، ولأسرته حقوق ، ولعمله حقوق . وعليه واجبات حيال هذا كله .

كائن يتعاون مع مجتمعه دون فناء ولا قضاء على المسئولية الفردية ، ودون تضييع لحق المجتمع فى نفس الوقت .

ولننظر الى هذا التكامل فى أمر المال ، وأقصد هنا كيف يعبر الجانب الاقتصادى فى الاسلام تعبيرا صادقا عن روحه العامة ونظريته الكلية .

يقول الله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم » .

فأخذ المال هنا ـ وهو حق الله ـ عملية مادية خالصة ـ فى مظهرها ـ ولكن الآية الكريمة تربط بين هذا الاعطاء المادى البحت وبين الاساس الروحى الذى يرتكز عليه وتعتبر البذل تطهيرا للنفس وتزكية

ودعاء النبى صلى الله عليه وسلم للمؤمنين تثبيت لهم ، والدعاء أمر روحى ولكن التثبيت له نتائجه العملية التى تبدو فى تصرفات الانسان .

من أجل هذا يربط الله تعالى بين العمل وصورته ودوافعه فيقول : « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله واسع عليم » .

فاذا كان الانسان لا يملك المال فليقل الكلمة الطيبة ، وهى فى ذاتها صدقة ، كما قال النبى عليه الصلاة والسلام ، واعتبرت الآية الكريمة هذا أفضل من صدقة مادية يتبعها أذى .

بل ان الاسلام ليربط بين هذا البذل المادى والجزاء الاخروى .. بين الغيب والشهادة .. بين الدنيا والآخرة ويجعل من هذا كله بنيانا فكريا متكاملا له أبعاده المادية والروحية ، وتستطيع ان تقرأ هذا فى صدر كتاب الله : « آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما انزل اليك وماانزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

فجمع فى هذه الآيات بين الصلاة وانفاق المال ، وبين الايمان بالغيب والعمل فى الدنيا ، ووسع دائرة الايمان فشملت النبوات جميعا ، وحدد وضع المؤمن فى الكون والمجتمع .

ورحمتى وسعت كل شىء :

ومن هذه العقيدة الكلية تنبثق العلاقات الاجتماعية الكريمة مهما كانت أسماؤها .

ولنحاول دائما أن نحدد نسبتها إلى العقيدة الكبيرة ، وهي عقيدة ليست من صنع بشر ، ولكنها هدية الله لخلقه ، يهديهم بها سبيلهم ، وتعطيهم مجالا واسعا فى العمل والانتاج : « هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » ، وتدعم العلاقات بينهم على أساس من الرحمة والمحبة والايثار .

وقد مدح الله تعالى الانصار بقوله : « ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

وجعل التراحم غير قاصر على البشر وحدهم ، وانما يمتد فيشمل المخلوقات جميعا ، والنبى عليه الصلاة والسلام يقول : « ان لكم فى كل ذات كبد رطبة اجر »

مجتمع منتج :

ان صورة المجتمع المثالى الذى يرسمه الاسلام ليست صورة تحولى نفرا من الباذلين الذين يتصدقون على نفر من العاجزين ، ولكنها صورة مجتمع يوفر لابنائه فرص العمل ويدعوهم اليها ما وسعتهم الطاقة ، ويخطط لهذا الانتاج حتى تستطيع النفس الانسانية أن تحقق خير ما فيها .. فاذا عجز انسان ــ وهو فى طريق الانتاج ــ كان على المجتمع أن يحمله ويرعاه ،

دون أن يحطمه ركب الحياة المتدافع ، ويوفر له من الخدمات ما يعينه على أن يسير أول أمره ، ويتابع سيره اذا احتاج الى عون بعد ذلك ، ومن هنا يأتى وضع قطاعين رئيسيين من قطاعات الحياة فى المجتمع المثالى : الاول قطاع الخدمات ، والثانى قطاع الانتاج ، وينظمهما معا تخطيط دقيق مبنى على أساس علمى يحصر القوى ويفتح لها المجال .

والفرد فى عمله هذا كله مؤمن بفضل الله عليه واطلاعه على عمله ، وان أمر المسئولية لا يقتصر على مكافأة المجتمع أو عقوبته وانما يمتد الى جزاء اخروى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » .

وميزة هذا الايمان انه يطلق النفس الى العمل والانتاج ، ويضع فيها الرقيب العلوى الذى لا تستطيع قوة فى الارض أن تحل محله ، يمنحه الراحة الى عدل لا يخطىء ورحمة لا تزول ، ومراجعة دقيقة لكل صغيرة وكبيرة : « وان الى ربك المنتهى » ، « وان الى ربك الرجعى » .

وبعد : فهذه معالم سبيل ننظر الى مراحله ، ونحقق منها ما نستطيع ، يدعونا اليها ايمان بأنفسنا ، وبمجتمعنا وبالاخاء الانسانى - وايمان بواهب هذا كله - : « ان هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا » .

احمد فراج

الموت .. والحياة

« ان الله عز وجــــل لينعى رسوله عليه الصلاة والسلام وهو حى ، ويقرأ محمد نعى ربه له على المسلمين ويؤمهم به فى الصــلاة فى قرآن تلاه ومن معه ، ولانزال نتلوه ولن نزال الى يوم الدين ، وذلك حيث يقول الله تعالى « انك ميت وانهم ميتون ، ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » .

لكل لفظ يتردد على السنتنا ولكل كلمة ، مدلول يعبر عن معنى أو حقيقة ، وكلما ارتقى وعى الانسان واستعلن الايمان فى وجدانه ، اصبح للكلمات المعنى الذى تدل عليه بلا زيادة أو نقصان ، والحقيقة التى تمثلها ، بلا خداع للنفس عنها أو غفلة تفسدها .. وما أحوجنا ـ فى ذل الظروف ـ الى أن نربى انفسنا على قيمة الكلمة ، اى كلمة ، حتى لاتجرى الكلمات على ألسنة الناس فاقدة الحس والمعنى ، أو مجردة عن الحقيقة والواقع .

وكلمة « الموت » من بين تلك الكلمات ، نسمعها ونرددها ، وكلما اقترنت ببعيد ، لم يكن لها فى النفس وقع ، فاذا اقترنت بقريب زاد أثرها ووقعها .. وهكذا .. كلما اشتدت قربا ، حتى ليتجاوز هذا الاثر فى النفس احيانا حدود العقل ، فلا يصدق الانسان الحقيقة ، أو يتجاوز حدود الشعور .. فيفقد الاتزان .

وأقرب شىء يدلنا على ذلك صفحة الوفيات كل يوم نقرؤها ، اذا خلت ممن نعرف .. فان كلمة الموت أو قل صفحة الموت ، لاتعدو أن تكون أخبارا غير ذات قيمة ، فاذا اقترنت بمن نعرف عزيناه ، أو قريب نحزن من أجله وهكذا .. أما الموت نفسه فلا يكون له المعنى ولا يعبر

* نشرت فى ٣ أكتوبر ١٩٥٠

عن الحقيقة التى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها « كفى بالموت واعظا » .

ومن عجب ان المسلم حين يقرأ القرآن ، يجـــد فيه الحياة والموت ، يرد ذكرهما كثيرا متجاورين ، كلفظتين تدل كل منهمـــا على معنى وحقيقـــة من أكبر حقـــائق الوجود ، وأكثر العجب أن تستفرق الانسان حقيقـــة واحدة منهما هى الحياة ، وينسى ــ أو يكاد ــ الموت مع أن الله خلقهما معا ليختبر عمل الانسان . او لعله قد ركب فى طبيعته البشرية ما يجعله لا يرتاح الى الانشغال بتلك الحقيقة .

لقد ذهبت احصى فى القرآن الكريم مادة « موت » فوجدت أن كلمة الموت واشـــتقاقاتها وردت فيه مائة وخمسة وستين مرة ، وكلمة « الموت » وحدها خمسا وثلاثين مرة ، وهى تأتى فى اطار الحديث عن تلك الحقيقة الكبرى ، التى تظهر قدرة الله ، وخالقيته ، ووحدانيته ، وتفرده بالبقاء ، وترتبط بالبعث والحساب ومعان اخرى كثيرة ..

الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عمـــلا (٢ ــ الملك)

والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير (١٥٦ ــ آل عمران)

لا اله الا هو يحيى ويميت (١٥٨ ــ آل عمران)

كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة (٣٥ ــ الانبياء)

أينما تكونوا يدركم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة (٧٨ ــ النساء)

وهى كلمة على لسان كل نبى ، حتى ان عيسى عليه الصلاة والسلام عندما انطقه الله فى المهد صبيا ، اجراها

على لسانه حجة وبيانا « والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » (٧٣ - مريم) • وهذا محمد عليه الصلاة والسلام يقرأ على الدنيا قرآن ربه - وهو نفسه مقصود به « وماجعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان مت فهم الخالدون » (٣٤ - الانبياء)

بل ان الله عز وجل لينعى رسوله عليه الصلاة والسلام وهو حي ، ويقرأ محمد نعى ربه له على المسلمين ويؤمهم به فى الصلاة فى قرآن تلاه ومن معه ، ولا نزال نتلوه ولن نزال الى يوم الدين وذلك حيث يقول الله تعالى « انك ميت وانهم ميتون ، ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » (٣٠ - ٣١ الزمر)

***

ولنرجع الى سيد الاولين والاخرين واحب خلق الله على الله - عليه الصلاة والسلام - عندما أمره ربه ان ينذر عشيرته الاقربين فى أول أمر الدعوة الاسلامية ، أنه يجمع قومه ، ليلقى فيهم اول خطبة له سجلها التاريخ فماذا يقول ، انه يتحدث ايضا عن الحقيقة الكبرى وبأوضح صورة لها « ... والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما كنتم تعملون ، ولتجزون بالاحسان احسانا ، وبالسوء سوءا ، وانها لجنة ابدآ أو نار أبدا » •• هكذا ومنذ اللحظة الاولى . ثم يمضى بينهم ثلاثة عشر عاما داعيا الى الله لايكل ولا تفتر همته ، ويرفض الاغراء والتهديد والوعيد ويتحمل الابتلاء بشتى صوره وأقساها ، ويدفع عنه أبوبكر مرة عندما هموا به وهو يقول : اتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ ثم يدبرون محاولة لاغتياله عندما ايسوا من أمره ، بعد أن فكروا فى تثبيته فى الحديد .. « واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك أو

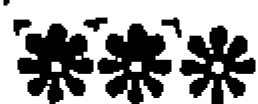
يخرجوك » ولكن الله ينجيه من غدرهم بعد اذ ظنوا أنهم قاتلوه ومفرقو دمه فى القبائل على أيدى فتيان من كل قبائلهم وبيوتهم ؛ ثم يستهل رسول الله صلى الله عليه وسلم حياته الجديدة فى المدينة المنـــورة بعد مهاجره اليها ليبدأ مرحلة جديدة من الجهاد المرير لبناء المجتمع الاسلامى ، ولحماية هذا المجتمع ، ولرفع الظلم والعدوان الذى وقع به وبالمسلمين بعد أن اذن الله له بذلك

ثم تكون سرايا وغزوات ، وتكون غزوة بدر الكبرى وانتصار المسلمين فيها ، ويبيت المشركون للثأر ويعودون فى العام التالى لمعركة أحد ، وليس هنا مجال الحديث عن المعركة .. ولكننا نريد أن نقف عند حدث سبق أن ألمحنا اليه ، عندما دارت الدائرة على المسلمين بعـــد انتصارهم أول الامر لخروج بعض المســـلمين عن طاعة الرسول القائد عليه الصلاة والسلام ، لقد أشيع بين المسلمين ان رسول الله قتل فانصرف بعضهم عن المعركة .

ولم تترك السماء هذا الموقف دون ان تسجله فى درس وبيان وهدى للناس الى يوم الدين وذلك حيث يقــول الله تعالى « وما محمـــد الا رســـول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شـــيئا وسيجزى الله الشاكرين » (١٤٤ ـ آل عمران) وأرجو أن أنقل هنـــا بتصرف يسير عن تفسير الامام الطبرى من تحقيق العالمين الجليلين المرحوم الشيخ احمد محمد شاكر والاســـتاذ محمود محمد شاكر حفظه الله ، يقول الامام ابو جعفر الطبرى فى تفسير الآية ، وما محمد الا رسول كبعض رسل الله الذين أرسلهم الى خلقه ، داعيا الى الله والى طاعته ، الذين حين انقضت آجالهم ماتوا وقبضهم الله اليه ، فمحمد انما هو كسائر رســـله الى خلقه الذين

مضوا قبله وماتوا عند انقضـــاء مدة آجالهم . ثم قال لاصحاب محمد ، معاتبا لهم على ماكان منهم من الهلع والجزع حين قيل لهم بأحد « ان محمدا قتل » ومقبحا اليهم انصراف من انصرف منهم عن عدوهم وانهــزامه عنهم : افان مات محمد ، أيها القوم ، لانقضـــــــاء مدة أجله ، أو قتله عدو انقلبتم على أعقابكم » يعنى : ارتددتم عن دينكم الذى بعث الله محمداً بالدعاء اليــــه ورجعتم عنه كفارا بالله بعد الايمان به ، وبعد ما قد وضحت لكم صحة مادعاكم محمد اليه ، وحقيقة ماجاءكم به من عند ربه « ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا » لن يوهن ذلك عزة الله ولا سلطانه ولا يدخل بذلك نقص فى ملكه ، بل هو يضر نفسه بردته ، وبنقص حظ نفسه بكفره « وسيجزى الله الشاكرين » وسيثيب الله من شكره على توفيقه وهدايته اياه لدينه ، بثبوته على ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم ان هو مات أو قتل ، واستقامته على منهاجه وتمسكه بدينه وملته بعده . »

ذلك انهم يوم احد حين أصابهم القرح والقتل تناقلوا نبأ نعى رسول الله فقال أناس « لو كان نبيا ما قتل » وقال آخرون من علية الصحابة « قاتلوا على ما قاتل عليه محمد نبيكم حتى يفتح الله لكم أو تلحقوا به » .



ذلك اختصار شديد لكثير مما قيل فى الآية الكريمة « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل » وهى عنـــاية واضحة بتسجيل وقائع بعض النفوس وما صدر منها اثر تلك الاشاعة ، ثم انتقال الى افتراض آخر هو انه حتى لو كانت حقيقة ، فما ينبغى أن تصرف المسلمين عن مواصلة الجهاد فى سبيل ما آمنوا به وما دعاهم محمد اليه .

أن الحياة لا تتوقف بموت انسان كائنا من كان حتى لو

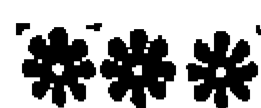
كان هذا الانسان هو محمد عليه الصلاة والسلام ، انه لم يخترع الايمان والكرامة والحق والشرف والعدل وسائر المثل العليا .. ولكنه يهديهم باذن ربه اليها جميعا ، وهو لا يهدى أحدا بنفسه « انك لا تهدى من احببت . ولكن الله يهدى من يشاء » وهو مكلف بالتبليغ فحسب « ان عليك الا البلاغ » وهو لا يملك من أمر نفسه شيئا ، ولا يعلم شيئا من غيب الله « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » وحتى أجله لا يعرف شيئا عنه وما تدرى نفس بأى أرض تموت .

***

ومرض رسول الله صلى الله عليه وسلم مرض الوفاة ، وخرج على المسلمين لينعى نفسه اليهم بنفسه . يقول ابن اسحق: حدثنى ايوب بن بشير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم — فى مرضه ذلك — خرج عاصبا رأسه حتى جلس على المنبر ، ثم كان أول ما تكلم به انه صلى على أصحاب أحد ، واستغفر لهم ، فأكثر الصلاة عليهم ، ثم قال : « ان عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وما عنده ، فاختار ما عند الله » فكان أبو بكر الصديق هو الذى فهمها وعرف ان الرسول يقصد نفسه ، فبكى وقال : « بل نحن نفديك بانفسنا وأبنائنا » فقال : على رسلك يا أبا بكر . وروى ان الرسول قال يوما فى كلامه « لو كنت متخذا من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صحبة واخاء ايمان ، حتى يجمع الله بيننا عنده » .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما اسمعه يقول : ان الله لم يقبض نبيا حتى يخيره . قالت : فلما حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم كان آخر كلمة سمعتها وهو يقول : بل الرفيق الاعلى من الجنة ، بل الرفيق الأعلى من الجنة .

ولا يستطيع الانسان أن يتخيل وقع الخبر على المسلمين، هنا فحسب، تقصر الكلمات عن بلوغ المعنى وتصوير الحقيقة، لقد كان عليه الصلاة والسلام أحب اليهم من انفسهم، آمنوا به وتحملوا معه، وجاهدوا وراءه وتأدبوا بأدبه .. وقد تكفي هنا شهادة عروة بن مسعود، عندما شاهد الرسول وسط صحابته وهو يفاوضه مندوبا عن مشركي قريش عام الحديبية فقد رجع اليهم يقول : يا معشر قريش، انى قد جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه والنجاشي فى ملكه، وانى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء ابدا .



ويشتهر فى الناس قول عمر بن الخطاب لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان رجالا من المنافقين يزعمون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفى، وان رسول الله صلى الله عليه وسلم ما مات، ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع اليهم بعد أن قيل قد مات، ووالله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات » .

وكلنا يعرف ما قاله ابو بكر، بعد وفاة الرسول وبعد ان دخل الى بيت عائشة والقى نظرة الوداع على الجثمان الطاهر لرسول الله ثم اقبل عليه فقبله ثم قال : بأبى انت وامى، أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة ابدا » ثم خرج للناس فحمد الله واثنى عليه ثم قال قولته المشهورة « ايها الناس انه من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى

لا يموت » ثم تلا الآية « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل .. »

هل توقفت الحياة ؟ ان رسول الله قد مات لا مراء فى ذلك ، والناس كأنهم لم يعلموا أن هذه الاية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ. انجيش اسامة كان يستعد للتحرك شمالا الى حدود الروم ، والقبائل العربية التى دخلت الاسلام حديثا قد ارتد أكثرها واشتعلت نار الفتنـــة ، والعدو هناك فى الشمال يترصد فرصة كهذه لينقض على هذه الدعوة التى ملأت الجزيرة العربية وهى فى طريقها الى العالم أجمع والتى توشك فى نفس الوقت أن تواجه تمزقا داخليا رهيبا هو فى ذاته الفرصة المواتية للانقضاض .

***

هل تتوقف الحياة ؟ ان أبا بكر الخليفة الاول يأمر بانفاذ بعث اسامة كما أوصى رسول الله ، ويقف أمام اتجاهات متعددة بين الصحابة الذين رأوا عدم خروج اسامة خوفا من الخطر الذى يتهدد قاعدة الاسلام ذاتها فى المدينة . ويخرج الجيش بداية للاستمرار العظيم ويحقق أهدافه ثم يعود لتبدأ حروب الردة التى عصمت الاسلام وابقت شعلته مضيئة عبر الزمان ، وحمل المسلمون لواء رسول الله من بعده وقد ترك فيهم العقيدة والمبدأ « تركت فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا ، كتاب الله » .

د . محمد عبد الرحمن بيصار

الوقت في حساب الإسلام

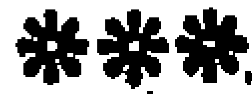
« الوقت جزء من معركتنا ضد التخلف ..
أقول انه جزء من المعركة ، وأنا أعتقد ان ايقاظ الاحساس بالوقت في وجودنا .. معركة قائمة بذاتها .. وما أحوجنا الى أن نلهب احساسنا بقيمة الوقت وأهميته ، فالشعوب المتقدمة تقطع مراحل من التطور في كل ساعة .. بل في كل دقيقة .. !

كثير من المشكلات التى يعانى منها المجتمع ، ترجع فى التحليل النهائى لها الى أسباب أخلاقية ، فكلما اتجه المرء لبحث جذور هذه المشكلات سواء ما كان منها فى الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية أو غيرها ، يجد أنها تضرب فى الارض فى تربة غير صحية لا توفر شروط الانبات السليم ومن ثم لا تكون الشجرة كما نرجو لها « أصلها ثابت وفرعها فى السماء » وانما تكون « كشجرة خبيثة أجتثت من فوق الارض مالها من قرار » . والحق انه لو كان الرصيد الذى نصدر عنه فى كافة تصرفاتنا يرتكز على مقومات أخلاقية كافية ، وملتزمة ، لانتفى كثير من اسباب الشكوى فى جوانب مختلفة من انشطة الحياة ، ولانتفت محاولات التفسير والتبرير لما نقع فيه من أخطاء حيث تبدأ المفاهيم والقيم العامة للمجتمع وللفرد تخضع بدورها للتفسيرات والتبريرات الملتوية فنجد « التوكل » مثلا يأخذ شكل « التواكل » و « العمل » يأخذ طابع « الفهلوة » ويلتبس « الصدق » بغلالة من « الرياء » وهكذا .

ولذلك فان تصحيح المفاهيم ، والالتزام الدقيق بأبعادها وحدودها الموضوعية ، يأتى فى مقدمة الشروط لنهضة سليمة ، بل يكاد يكون ضرورة حياتية لمجتمع نام لا تزيغ فيه

العقول وانما تستقيم على نظرة واعية ومستوعبة لحقائق الاشياء والقيم .

ومن اهم القيم التى يجب أن يتشبث بها مجتمعنا بل وكل المجتمعات النامية قيمة «الوقت». لقد قيل ان الوقت من ذهب ، وهو تقويم للوقت بمعيـــار مادى ذى قيمة واضحة وثمينة ، فهل يأخذ الوقت فى مفهوم الاسلام نفس القيمة أم ان النظرة اليه تعتمد معيارا آخر .

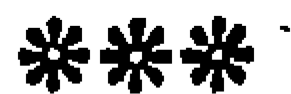


● يقول الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار : ان الوقت فى جملته وفى النظرة العـــامة اليه يعتبر وعاء للنشاط الانسانى وندرك جميعا انه لا يمكن انفصال اى عمل من أعمال الانسان عن اعتبار الوقت أو الزمن ، ولا يمكن ان نقيس أى واجهة من واجهات الوجود دون أن يكون لاعتبار الوقت دخل فى هذا المقياس . ولقد قيل ان الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك اى اننا يجب أن نستغل أوقاتنا وان نقدر كل لحظة فى كل وجه من أوجه نشاطنا فلا نضيعه ولا نستهين أو نستخف به ولا نفرط فى جزء من أجزائه دون أن ننتج او نبذل او ننجز شيئا لانفسنا او لمجتمعنا او لغيرنا من الناس ، عندئذ نشعر أن وجودنا قد اكتمـل وان الاطار العام لوجودنا وهو الزمن قد استغل على خير وجه وأكمله لصالح الانسانية . فاذا ما جئنا من وجهة النظر الاسلامية وموقف الاســـلام من الوقت نجد أول ما يواجهنا فى القرآن الكريم كقاعدة عامة .قول الله تعالى « يسألونك عن الاهلة قل هى مواقيت للناس والحج » فالمبدأ العام فى الاهلة ان تكون للتوقيت ، أن نعرف الوقت ونصنفه ونقسمه وننظمه ، ان نعرف مبدأ اىأمر ونهايته . متى يجب علينا ان نفعل كذا أو نقوم بفرض من الفرائض او نكف من كذا . اى أن الزمن لا يمكن أن يرسل هكذا دون

تصنيف ووضعه فى وحدات اعوام ، واشهر وايام وساعات ودقائق وثوان لنستطيع ان نقيس بها اعمالنا ، فاذا ما أتينا الى الناحية التطبيقية نرى ان الاسلام قد اعتبر هذا الوقت فى كل عباداته .. فى الصلاة « ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » صلوات الصبح ، والظهر والعصر وهكذا ، حتى النوافل كصلاة الضحى ، قدرت لهـا أوقات معينة ارتبطت بها العبادة لحكمة أرادها الله . ولو نظرنا الى هذه الاوقات نجد أن هناك رباطا بين هذا الوقت وبين المقصود من هذه العبادة ، ففى الفجر مثلا نجد ان هناك فارقا بين الظلام والنور وهو مبدأ خروج النور وظهوره ومبدأ الحياة اليومية للانسان وجاء فى الاثر « ما من يوم ينشق فجره الا وينادى ، يابن آدم انا خلق جديد وعلى عملك شهيد فتزود منى فانى لا أعود الى يوم القيامة » ولا شك أن خير الزاد التقوى .

وكذلك فى سائر الاوقات .. وقتت أوقات معينـــة ودخل الوقت كعنصر فى ادائها بحيث لو أديت خـــارج هذا الوقت لما كانت على الوجه الاكمـــل ولذلك اعتبروا الصلاة التى تؤدى فى وقتها أداء ، والتى تكون خارج وقتها قضاء وتسمو الاوقات الى وقت فضيلة ووقت اختيار ، ووقت جواز بكراهة ، ووقت جواز بلا كراهة ، ووقت حرمة وما الى ذلك بمعنى أن الذى ينحرف بالصلاة عن هذا الوقت المعين لا تكون صلاته على الوجه الاكمل المرموق .

هذا من ناحية الصلاة



ولقد حبب الرسول عليه الصـــلاة والســـلام فى الصلاة فى أوقات معينة فقال لن يجد النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها والقرآن الكريم نفسه ينص

على الذكر فى أوقات معينة « واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والاصال ـ وسبح بحمد ربك قبــل طلوع الشمس وقبل غروبهــا ـ وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار ـ أقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل » .. كل هذه الآيات تعطينا فكرة واضحة هى الربط بين العبادة وبين أوقات معينة اختارها الله لها .

واذا انتقلنا الى ناحية أخرى نجد ان الاسلام أعطى تقديرا خاصا للوقت فى الدعاء . روى عن أبى هريرة أن أبا بكر الصديق قال : يا رسول الله ، مرنى بكلمات أقولهن اذا أصبحت أو أمسيت . قال « قل اللهم رب كل شيء ومليكه، أشهد الا اله الا أنت ، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه ، قال قلها اذا أصبحت واذا أمسيت واذا أخذت مضجعك » فقد أمره الرسول أن يقول الدعاء اذن فى ثلاثة أوقات ، اذا أصبح .. لانه يستقبل فترة من فترات حياته الجديدة مليئة بالنشاط والخيرات،فيتجه بالدعاء والضراعة الى الله يرجو منه أن يوفقه فى هذه الفترة المقبلة ، يوفق فى أعماله فيأتى من الخير ما يرضيه ، يوفق فيما يقدم لامته ولمجتمعه من الخدمات ما يجب عليه لها وفى أن يكون مقبلا على الله وأن يكون عمله مثمرا ، كذلك يقولها اذا أمسى لماذا ، لانه يودع فترة ويستقبل أخرى وقــد يهجع فيهــا ويرجع الى الله فيلجأ اليه بالتضرع . واذا ما جاء الى مضجعه وتهيأ له أن ينفصل حسيا من هذا الوجود بالنوم يقول هـــذا الدعاء مرة أخرى .. لانه لا يدرى ان كان سيقبض الى الرفيق الاعلى وهو نائم أو سيرتبط مرة أخرى بهذا الوجود المحسوس ، وعنــدئذ أوصاه الرسول عليــه السلام بأن يقول هذه الكلمات فى هذه الأوقات الثـلاثة اعتبارا لها وارتباطا بزمنها لحـــكمة ولغرض معين اراده الرسول عليه الصلاة والسلام .

وعندما أمرنا الاسلام بأن نعمل الخير قال افعلوا الخير .. متى نفعله ؟.. فى اول حياتنا ، فى وسط عمرنا ، فى آخر عمرنا .. هل نفعله فى طفولتنا أو شبابنا أو كهولتنا ؟

لا .. ان هذا الامر المطلق آمرنا الله به أن نسارع فى الخيرات ، ادخل عنصر الزمن من جديد فى عمل الخير .. «سارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض» « والسابقون السابقون أولئك المقربون » فهو سباق .. استبقوا .. تعجلوا .. اسرعوا ما أمكن فى عمل الخير ، لا تتباطئوا لان الزمن له حساب فى هذا العمل وله حساب فى جزائكم عليه ولذلك قال « فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون » فليكن أكثركم سرعة فى عمل الخير أقربكم الى الله سبحانه . وقصة زكريا عليه السلام فى القرآن التى روتها الاية الكريمة « وزكريا اذ نادى ربه رب لا تذرنى فردا وانت خير الوارثين ، فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه » لماذا ؟ « انهم كانوا يسارعون فى الخيرات » اذن فعنصر الوقت له دخل ايضا فى الدعاء . وفى آية أخرى يقول الله عز وجل « ان الذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون .. أولئك يسارعون فى الخيرات » ليس كذلك فقط ولكن .. « وهم لها سابقون » ..

ففوق انهم يسارعون هم سابقون الى الخيرات . حتى فى حديثنا اليومى فى محاضراتنا .. فى سمرنا .. أمرنا ان نقتصد فى الكلام . لماذا ؟ لنحافظ على وقتنا حتى لا نضيعه هباء . اذا كنت أؤدى غرضى بكلمة لا اتحدث عشر كلمات، اذا كنت أؤديه فى دقيقة لا اتحدث ساعة أو أكثر لانى بذلك أكون أسرفت فى وقتى الثمين وفى مجهودى والاسراف فى الوقت شأنه شأن الاسراف فى أى شىء حيوى فى حياتنا

كالطعام والاسراف فى المال والماء وكل شيء يكون مقوما ضروريا لحياتنا ، لان الوقت كما قلنا مرتبط بوجودنا ارتباطا كليا فاذا أسرفنا فيه فقد فرطنا فى وجودنا وحياتنا.

ولذلك اذكر ان أعرابيا تكلم عند رسول الله وأطال فقال الرسول له « كم دون لسانك من حجاب ». فقال الاعرابى: شفتاى وأسنانى ، فقال الرسول « فان الله عز وجل يكره الانبعاث فى الكلام ، فنضر الله وجه امرىء أوجز فى كلامه فاقتصر على حاجته » لماذا الايجاز ؟ ليدخر وقتا يوفره لما هو انفع ويوفر جهدا بشريا . قال بعض الحكماء « كلام المرء بيان فضله ، وترجمان عقله ، فاقصره على الجميل واقتصر منه على القليل » .

وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى حديث له : « رحم الله عبدا لزم الطريقة الغراء واغتنم المهل وبادر الاجل وتزود من العمل » اغتنم المهل اى اغتنم الوقت الذى يمهل فيه ليعمل شيئا ولينجز وينتج ويشمر فلا يتركه هباء ولا يقص قصصا فارغا ، ويقضى وقته فى لعب الطاولة وما اشبه ذلك .

يلحق بهذا الامر المبادرة بالاعمال .. أمرنا أن نبادر كما امرنا ان نسارع ، ولعلى المح من هذا ان المبادرة ابلغ من المسارعة فقد أسارع ولكن لا أبادر فيجب أن انتهز اول وقت ممكن لأؤدى فيه العمل ،وفى ذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام « بادروا بالاعمال الصالحة » ويوضحه فى رواية اخرى عن أبى هريرة « بادروا بالاعمال سبعا : هل تنتظرون الا فقرا منسيا ، أو غنى مطغيا ، أو مرضا مفسدا ، أو هرما مفندا (أى مضعفا) أو موتا مجهزا ، أو الدجال ، فشر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر .. يعنى بادروا بالاعمال الصالحة فلماذا انتم منتظرون ولماذا تتراخون فى الاعمال، اسبقوا اليها وانتهزوا الفرصة

تلو الفرصة لتقوموا بها . ولذلك أيضا كان ادخال عامل الوقت فى الفوز العظيم بالدرجات العلى والنعيم المقيم .

ويروى أيضا أن الرسول صلى بأصحابه وبعد ان فرغ من الصلاة تخطى مسرعا الى احدى حجرات زوجاته ففزع الناس لاسراع الرسول بهذا الوقت ورأى الرسول بعد عودته انهم يتعجبون فقال عليه الصلاة والسلام « كنت قد خلفت فى البيت تبرا من الصدقة (ذهبا) فكرهت ان أبيته» انظر كيف أسرع ، نسى انه ترك شيئا فى البيت فبعد أن فرغ من الصلاة لم ينتظر حتى يختم صلاته ويقول التسابيح على مهل ، بل ذهب ليوزع الصدقة على الفور ، فبمجرد تذكره اراد أن يسرع ليرد الحق الى اهله حتى لا يكون محاسبا عليه .

***

● هكذا يتضح من تناول الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار الامين العام لمجمع البحوث الاسلامية أن الوقت فى نظر الاسلام شىء أثمن من الذهب وانه « الحياة » وهناك الحاح من الاسلام على قيمة الوقت فى حياة المسلم الفرد والمجتمع الاسلامى ، وهو يربى الفرد على الاحساس بهذه القيمة من خلال العبادات كلها ، أوقات الصلاة .. هناك مبتدأ لكل فرض ونهاية له وبينهما وقت يتفاوت الثواب مع التبكير أو التأخير فى أداء العبادة خلاله . الصيام له بداية ونهاية ويبطل الصوم مثلا اذا طعمت بعد الفجر بلحظة ويبطل اذا أكلت قبل الغروب بلحظة اذا تعمدت ذلك والزكاة تجب فيما تجب فيه بمواقيت محددة والحج له أشهر معلومات وهكذا .

وما أحوجنا الى أن نلهب احساسنا بقيمة الوقت واهميته ، فالشعوب المتقدمة تقطع مراحل من التطور فى كل ساعة ودقيقة وتقفز قفزات هائلة فى مضمار التقدم العلمى . وليس

واجبنا فحسب أن نعنى بقيمة الوقت بل ان نعوض مافاتنا فليس يكفى أن نسير بمعدلات التقدم التقليدية لان مسافة الخلف تحتاج الى تعويض ضخم يحتم علينا أن نسارع وأن نسابق الزمن . لقد ألفنا أن نسمع فى دواوين الحكومة عبارة « فوت بكره » أو « بعد يومين ثلاثة » أو « بعد اسبوع أو عشرة أيام » هكذا ببساطة يتمطى الزمن دون حساب وكل دقيقة لها قيمتها بل وكل ثانية .

***

وأذكر اننى ركبت قطارا من فرانكفورت فى ألمانيا الى أوترخت فى هولندا لمسافة يقطعها القطار فى سبع ساعات ونصف ، ووقع نظرى على جدول الوصول والتحرك الى ومن المحطات التى سيمر عليها ولفت نظرى انه لا يصل الى محطة أو يتحرك منها فى أجزاء منتظمة من الساعة كالربع أو الثلث أو النصف ، وانما يصل الساعة كذا والدقيقة ١٣ - ١٦ - ١٩ ويقوم الساعة كذا والدقيقة ١٤ - ١٧ - ٢١ وهكذا .. وظننت ساعتها ان أولئك الناس قد اختلت عقولهم . واحببت ان أثبت لنفسي ذلك فتسليت بمتابعة تلك المواعيد ، وأشهد ما وجدتها تخلفت ثانية واحدة فى مسافة ال ٧ الساعات والنصف ، ثم لاحظت أن كثيرا من المواعيد الرسمية تحدد بطريقة غريبة فيقولون لك مثلا : دقيقة بعد السادسة واقول لنفسى ولماذا لا تكون تمام السادسة . ويخيل الى الآن ان هذا أسلوب فى تربية الاحساس بالزمن وبقيمة الوقت نحن احوج اليه من تلك الشعوب فالوقت جزء من معركتنا ضد التخلف ومن أجل العمل والانتاج وضد عدونا . أقول انه جزء من المعركة ، وأنا أعتقد ان ايقاظ الاحساس بالوقت فى وجودنا .. معركة قائمة بذاتها ..

البهى الخولى

الخالقية

« ان القلب الذى يبدو لنا غامضـــا فى المفهوم له حواس بنص كلام الله تعالى ، بهـا يبصر ويدرك وبهـا يسمع ويفهم الحقائق ٠ واذن يكون للانسان نوعان من الحواس ، الحواس الظاهرة الخمس المعروفة ، وبهـا يواجه حقائق الكون الظـاهرة ، والحواس الباطنة وبهاندرك الحقائق الباطنةفى هذاالكون»

يقول الاستاذ البهى الخولى : اننا نسمع ونقرأ بالفعل عن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، من استجابة لله ولرسوله حققوا فيها مبادىء وقيما وصورا لبذل المال والروح، واستنزلوا انتصارات رائعة،فلايكون مناآلاالاعجاب اما تحقيق ما حققوه وما مثلوه فاننا نشاهد ان نصيبنا منه لا يعدو الاستماع بكثير ، ونحن نتساءل عن السبب فى اننا نقصر عن اللحاق بالصحابة فى هــذا المضمار ، ويبدو للاجابة على هذا السؤال اننا محتاجون الى أن نرجع قليلا الى الوراء لنسأل انفسنا ، ماذا نفعــل فى هــذا الــكون ؟ وما هى وظيفتنا ؟ ولمــاذا جئنــا الى هنا ؟ ويجب الا نتعجل فى الاجابة ، وانما نسأل الذى جاء بنا ، لو سألتنى مثلا عن فعل معين لماذا فعلته ؟.. فسوف أجيب بأننى أريد أن أحقق من المقاصــد كذا وكذا . اما اذا سألتنى تلك الاسئلة السابقة لماذا أنت هنا ، وما مهمتك فى هذه الحياة ، فهذا أمر لا يرجع فيه الى شخصى لاننى لم أصنع نفسى ، وانما يرجع فيه الى الذى خلقنى . والذى خلقنى واوجــدنى هو الذى خلق البشرية فكأننا نسأل فى الواقع ، ماذا تصنع البشرية هنا ؟ الله ســبحانه وتعــالى يقول عن هــذه الحقيقة ، ويقرر حكمة ايجاده للخلق فى قوله : « وما

خلقت الجن والانس الا ليعبدون » ، وكثيرا ما نظن ان العبادة هى أداء ركعات الصلاة والصيام وما الى ذلك من أنواع العبادة ، ولكن العبادة التى يريدها الله سبحانه فى هذا المقام ، هى أن يحرر الانسان ، ظاهرا وباطنا ، من كل عبودية غير عبوديته لله ، فلا يكون هناك اطلاقا أى سلطان على القلب أو على ظاهر الانسان وأمره وحياته لكائن من كان ، ولا يبقى فى الحياة غير سلطان الله ، سلطان الحق والخير والعدل ، أى أن مهمة الانسان ، ومهمة الانسانية التى جاء بها الله الى هذه الارض ، هى أن يقيموا فى الارض حضارة مثلى ، وعماد هذه الحضارة اقامة سلطان الله فى الارض .ومن أجل هذه المهمة التى ألقاها الله علينا .. من أجل الحضارة التى كلفنا بها ، لم يخلقنا سدى ، وانما دبر لنا أمورا ثلاثة :

الامر الاول : انه جعل لنا فى الارض خيرات وثروات ، لكى تكون عدة للانسان فى اقامة هذه الحضارة ولا ينبغى أن نتصور ان تلك الثروات للشهوة أو اللذة ، فالحديد مثلا لم يخلقه الله لنأكله أو نشربه ، وانما لان له دورا فى اقامة الحضارة التى أرادها الله

الامر الثانى : ان الانسان لكى يقيم هذه الحضارة فلا بد له من علم يعلمه ، فجعل الله لنا هذا الكون صحيفة .. كتابا مفتوحا نطلع فيه ونقرأ ونعرف ما شاء الله لنا من العلم ومن الحكمة ، التى بها أيضا ندبر ونقدر أمر الحضارة التى أرادها لنا .

الامر الثالث : ان الله جهزنا وأعدنا ، ووهب فينا المواهب والملكات والحواس ، التى نحصل بها العلم ، ونستطيع أن ندبر أمر الحضارة .

وهذه الحواس والمواهب والملكات عبر الله عنها فى

القرآن بقوله : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون » أي أخرجتم من بطون أمهاتكم لا علم لكم ، ولكي يكون لكم علم ، جهزكم بهذه الملكات ، السمع والابصار والافئدة ، فاذا حصلتم من العلم والمعرفة ما تطمئنون اليه ، أحدث ذلك فى نفوسكم شيئا من مشاعر الشكر لله ، ولذلك ختم الله الاية بقوله : «لعلكم تشكرون»

ونريد أن نتوقف عند هذه المواهب حتى نفهم أنفسنا على الاقل . وليس السمع والابصار والافئدة هي مواهب الانسان فقط ، فهناك الحواس الخمس وهى كلها وسيلة من وسائل تحصيل الانسان للعلم . تبقى الافئدة ، والفؤاد هو القلب فلماذا ذكر الله الفؤاد او القلب فى مجال تحصيل العلم ؟ الله تعالى يقول فى آية اخرى : « ولا تقف ما ليس لك به علم ، أن السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسئولا » اى ان الفؤاد ملكة او حاسة رؤية .

اننا نلاحظ ان الله قرر أن للقلب حواس سمع وبصر ، فالله يقول : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم آذان لايسمعون بها ولهم أعين لا يبصرون بها» ويقول : « فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » واذن ، فالقلب الذى يبدو لنا غامضا فى المفهوم له حواس بنص كلام الله تعالى ، بها يبصر ويدرك وبها يسمع ويفهم الحقائق . واذن ، مرة أخرى، وبنص القرآن الكريم يكون للانسان نوعان من الحواس، الحواس الظاهرة الخمس المعروفة ، وبها يواجه حقائق الكون الظاهرة ، والحواس الباطنة وبها ندرك الحقائق الباطنة فى هذا الكون . وبين قوسين نقول ان الفيلسوف الكبير ديكارت يقرر ان للانسان حواسا داخلية أو

باطنة ، وان هذه الحواس الباطنة فى مقـابل الحواس الظاهرة ، تدرك الامور المحسة فى الـكون والباطنة تدرك الحقائق الخفية فيه ، وهكذا نرى ان ما قرره ديكارت داخل فيما قرره القرآن الـكريم منذ ١٤ قرنا ، وهو معنى تطيب له نفوس المؤمنين .

***

ونعود الي الحواس الظاهرة والباطنة وما تبصره من حقائق ظاهرة أو باطنة . ما هى الحقائق الباطنة ؟ واريد ان نقف قليلا حتى نعرف أنفسنا ونعرف ما بالحياة ، فان عدم معرفتنا هو الذى جعلنا متأخرين عن صـف الصحابة ولن نسرد الحقائق الباطنة فهى كثيرة جدا ، ولـكنا سنكتفى بحقيقة واحدة هى الاولى التى يجب أن يعرفها الانسان أول ما يعرف . نحن نرى الحقائق الظاهرة بالعين فنرى لها ــ مثلا ــ لونا وطولا وعرضا وحجما .. أما الحقائق الباطنة فليس لها لون أو طول أو عرض ، وحين ينظر الانسان الى الـكون فى لحظة صمت وخلوة ، ويتفكر ويتأمل ، يجد ان هذا الكون لم يخلق نفسه ، لم يخلق من غير شىء ، هذا الـكون لا بد له من خالق خلقه . وهذه الحقيقة السهلة جـدا هى أولى الحقائق التى يجب أن نعرفها فى الـكون وهى احدى الحقائق الخفية وكذلك كل ما فى الـكون من كائنات ، الشمس تجرى مثلا فلا بد من أحد يجريها ، والذى يراد لنا أن نبصره فى هذا الـكون من الحقائق الخفية هو هذا النوع من الرؤية .. ان نبصر فى الـكون معنى الخالقية وان الـكائنات مخلوقة .

***

ونلاحظ ان القرآن الـكريم يدربنا على هذه الرؤية العقلية ــ وليست البصرية ــ فمثلا امسك كوبا من

الماء ماذا يقول الله عنه حتى يدربنا على رؤية الحقائق الخفية : « أفرأيتم المـاء الذى تشربون ؟ » .. نعم ، انه فى كوب نظيف ، فيه صفاء ، وله حجم و .. قال : لا .. انا لا أريد رؤية البصر ، وانما أريد رؤية أخرى هى : « أأنتم أنزلتموه من المزن ام نحن المنزلون ؟ » فالله يريد أن نشهد بالحاسة الباطنة معنى الخالقية فى هذا المـاء . اما أن نشرب دون أن نلحظ معنى الخالقية فيه فهذا ما لايريده . لمـاذا أبصرت عيناى حجم المـاء وكميته وصفاءه ، ولماذا لم تبصر الحاسة الباطنة هذه الحقيقة السافرة ..! أأنتم أنزلتموه .. أم نحن ؟ يريد الله أن يكون لنا نظر الى الـكون من هذا القبيل فيقول فى حالة أخرى : « أفرأيتم النار التى توقدون » نعم ، نحن نرأها ، قال : لا ، لا أريد رؤية البصر أيضا وانما أريد معنى الخالقية « أأنتم أنشأتم شـجرتها ؟ » لا « أم نحن المنشئون ؟ » انت المنشىء ، كذلك قوله : « أفرأيتم ما تحرثون ؟ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون» اى انه يريد أن نلحظ الخالقية فى كل شىء ، وهكذا نجد فى القرآن الكريم تربية واعدادا وتوجيها الى مشــاهدة الحقيقة الاولى فى الـكون وهى الخالقية والمخلوقية ، فاذا كانت العين تنظر فى الكون فترى كائنات كثيرة لا عدد لها ، فان هذه الـكائنات فى رؤية الحاسة القلبية ليس لها سوى مدلول واحد هو إنها كلها سلب مخلوق لا ايجاب له فى ذاته ، لا يوجـد كائن واحـد قد خلق نفسـه او ذرة واحدة من الذرات وانما الخالق للـكل هو الله تبـارك وتعالى .

يفزع الحسيون والملحدون من هذا المنطق ويرفضونه ويقولون ان السببية التى تقولون بها ان هى الا عادة اكتسبها عقل الانسان من تجارب الواقع ، وتجارب

الواقع هى انني اشعر بالعطش فاشرب فيكون الماء سببا فى اذهاب العطش ، تتحرك الاشجار فيكون الريح هو الذى حركها ، فالانسان فى تجاربه يتعود أن يفترن فى ذهنه السبب بالمسبب ، والسببية ليست فطرية فى ضمير الانسان وانما هى حكم عقلى مكتسب .

ونحن نقول تعالوا بنا الى طفل صغير ينظر الى السماء فى ليلة مقمرة ، ثم يفاجىء اباه أو أمه قائلا : من الذى خلق القمر ؟ ونحلل السؤال . عين الطفل أبصرت القمر ، وفى الوقت نفسه أبصرت الحاسة الداخلية فى القمر شيئا آخر ، أبصرت انه لابد لهذا القمر من صانع. كل هذا يدور فى الجهاز الفكرى فى الطفل الذى لا يدرى شيئا ، فى فطرة الله ، وعندما تنطق الفطرة انه لابد من خالق .. اذن من الذى خلقه ؟ وهذا السؤال من الطفل اما أن يكون ناشئا من تجارب ، واما أن يكون ناشئا من فطرة . فهل للطفل تلك التجارب وهو غفل من كل تجربة ، انه يستقبل الحياة وشئونها بصحيفة بيضاء ، ويبقى اذن انه سؤال نازع عن فطرة اصيلة فى ذهن الطفل، من جهاز فطرى ينظر فى الكون فيرى الخالقية والمخلوقية .

واذا دربنا هذه الحاسة الباطنة فسنرى كل الكائنات موضع صنع الله وتدبيره ، موضع الازالة والمحو والاثبات والاعادة والله هو المتصرف فيها ، فاذا أشرقت هذه الحقيقة فى باطن الانسان حتى صارت بديهية نبصرها كما نبصر ضوء الشمس ، اعتقد انه لا يبقى فى ضمائرنا ووجداننا سوى شىء واحد هو الفاعل فى الوجود ، هو صاحب الايجابية المطلقة التى لها كل شىء من الفعل فى الكون ، وهو الله تبارك وتعالى

***

● ماذا نفعل فى هذا الكون ؟

لماذا جئنا الى هنا ؟

ما هي وظيفتنا التى خلقنا من أجلها ؟

اسئلة يجيب الله عليهـــا فيقول « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » . هل خلقنا اذن لنصلى ونصوم ونقوم بسائر الشعائر التى امر بها الله . لو كان الامـر كذلك لاصبح فهمنا للعبارة فهما محدودا .. ان العبادة فى الاسلام شيء أكبر من ذلك ، فهى تنتظم الحياة كلها ، بمعنى أن الاســلام جعل الحياة محرابا واسـعا يتعبد الانسان فيه لله بكل قول وعمل فالعبادة تخرج بهـــذا المفهوم عن صور العبادة الشرعية الى آفاق أخرى رحبة وفسيحة .. ان العبادة التى يريدها الله هى أن يحرر الانسان نفسه ظاهرا وباطنا من كل عبودية غير عبودية الله حتى لا يبقى على نفسه سلطان غير سلطانه عز وجل. فالانسان هنا اذن يقيم حضارة من نوع فريد ومن أجل تحقيق ذلك أمدنا الله بأمور ثلاثة ، خلق لنـــا الثروات والخيرات ، وجعل لنا الكون صحيفة للعــلم والمعرفة ، وامدنا بالملـكات والمواهب والحـواس التى هى أدوات المعرفة . وفهمنا من القرآن ان لكل انســان نوعين من الحواس ، الاولى ظاهرة ــ كالحواس الخمس ــ والثانية باطنة يبصر بها المرء ما وراء الظاهرات والكائنات فيعرف أن الله هو خالق الظاهرات والكائنات وانه رب كل شيء ومليكه .. وفى كلمة .. يبصر طابع « الخالقية » فى هذا الكون كله .

● يقول الاستاذ البهى الخولى ، عندما يعيش الانسان فى هذا الافق الجليل ، أفق الخالقية ، بعقله وقلبه وفكره .. بالحاسة الباطنة ، فانه يتثقف بثقـافة الافق الذى يحيا فيه . نحن الان لسنا فى أفق الحسية ، وانما فى أفق علوى يسوده معنى الخالقية اى انه لا فاعل فى الكون

الا الله أما ونحن فى محيط الحس قبل أن نسمو الى مستوى الخالقية كان كلامنا عن الحس والمادة وهنا اكتسبنا أمرا جديدا باشراق الحاسة الباطنة واكتشاف الافق الجديد . هناك اذن نوعان من الثقافة ، ثقافة الحس وهي عبارة عن أنانية محضة · هي تريد ·· تأخذ .. تجمع .. أما الثقافة الروحية التى نحن فى صددها فهى ثقافة ايجابية ·· ثقافة منح ·· وعطاء وقوة ·

وحين يعيش الانسان بوجدانه وذهنه وفكره فلا يجد في الكون الا هذه الطاقات الايجابية لله تبارك وتعالى ، تكون أعصابه كلها متأثرة بخالقية الله وطاقاتها ،فلا يكون للانسان تفكير فيهذا الكون الا التفكير المتمشيمع الخالقية، ولا يرى نفسه مفارقا لمشيئة الله « وما تشاءون الا أن يشاء الله » ويصبح الانسان مظهرا لمشيئة الله تبارك وتعالى فى هذا الكون . وحين صار الصحابة رضوان الله عليهم الى هذه الخالقية التى رفعهم اليها ورباهم عليها وفهمهم اياها مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم صاروا مثلا رائعة .. طلب اليهم أن يستجيبوا لله فاستجابوا ، ظلب اليهم أن يبذلوا المال ــ والثقافة الروحية ثقافة بذل وليست ثقافة حس تدعو الى الشح والبخل ــ فكانوا أسخياء سمحاء ، طلب اليهم أن يبذلوا أرواحهم ، فبذلوها ، فأنزل الله عليهم من الانتصارات ما نعلم ·

لماذا ؟ ·· لانهم فى مجال الطاقات العلوية الالهية ، التى تمد أربابها وأصحابها بما شاء الله لهم من نصر .. لماذا كان الصحابة كذلك ولماذا لم تكن نحن كذلك .. الصحابة حين رفعهم رسول الله الى مستوى الخالقية وايقظ لهم حواسهم الباطنة ، أدركوا من حقائق الوجود الحقيقة الاولى وهى الخالقية والمخلوقية فصارت لهم

هذه الطاقات في فعل الخير وفي تحقيق المثل والقيم • اما نحن فما دمنـا في حاجز الحس ونقتصر على سـماع الموضوعات الدينية والاستمتاع بها فلا نكون في المستوى المطلوب . لقد قال الفيلسوف ديكارت أن الحواس الباطنة هي حقيقة الانسان وهي وجود الانسان . وذلك حق . فاذا لم نثر هذه الحاسة الباطنة التي هي حقيقة الانسان لكي ترى حقائق الوجود الباطنة فنحن محبوسون في حيز لا يشعر بنا أحد .

● تلك الحواس الباطنة التي يرى بها الانسان معنى الخالقية موجودة في فطرة الانسان بحكم تكوينه ، ومعنى هذا أنها كانت موجودة في الصحابة كما هي موجودة فينا أيضا ، فكيف نبرزها ونروض أنفسنا عليها ونربيها على ايقاظ رنين الحاسة التي نرى بها الخالقية والمخلوقية ؟

● يقول الاستاذ البهي :

نحن مستعدون أن نرى الخالقية ، ولكن كيف .. الواقع ان الطفل الذي ينظر الى الكون .. والى القمر ، فيقول مثلا من الذي خلق القمر .. هذا السؤال يبين أن الحاسة الباطنة عند الطفل سليمة ، وهذا الطفل خال كل الخلو من مشاغل الدنيا ومن مشاغل العلم .. من التطلعات الى جاه الدنيا وزينتها وزخرفها • وهذا الخلو جعل حاسته الباطنة سليمة ليس عليها غشاوات .. ولكن ، اتركه قليلا وانتظر الى أن يقترب من سن المراهقة واجعله يتصل بشئون الحياة ، تجد أن شئون الحس ومشاغل الحياة ظلت تظهر من محيط الحس الى أن تغطى على الحاسة الباطنة ، فاذا به يصبح مثلنا ، لايرى ولا ينظر . اذن ما هي الطريقة التي اتبعها الاسلام لعلاج هذه المشكلة .

هناك طريقتــان ، طريقة عقلية فـكرية .. وطريقة تربوية . أما الطريقة العقلية فهى المنهج الذى يحـرص فيه على ربط الانسان بحقيقة الخالقية فى الكون ويذكره دائما بما وراء الرؤية البصرية للأمور .. فكوب الماء الذى نشربه تشهده العين المجردة ، ولكن الله يريد منا أن نرى فيه شيئا وراء الماء فيقول : «أفرايتم الماء الذىتشربون؟» فاذا كانت الاجابة نعم قال هــو .. لا .. لا أريدكم أن تبصروا هذا الماء فى ذاته ولكنى اريد أن تبصروا شــيئا آخر وراءه هو « أأنتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون»

وأريد أن أقول ان الغالبية الساحقة من آيات القرآن الكريم توجه الانســـــان الى منطق الخالقية والى رؤية الخالقية . وقد جاء الاسلام فوجد القوم مشركين ، ولم يرد أن يدخل معهم فى جدل عميق حتى يبطل الشرك ونحن نعرف أن فى الانسان حاسة فطرية ترى الخالقيـة فى الكون، فلجأ الى هذه الحاســـــة يستفتيها ، كان يخــاطب فى صدورهم وفى عقولهم هذه الخاصية الفطرية التى ترى الخالقية فى الكون ، وهناك نماذج كثيرة نعرض منهــــا لنموذج واحد فهو يقول لهم « قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ، اروني ماذا خلقوا من الارض » لجأ الى سر الخالقية الذى انفرد الله سبحانه وتعالى به ، وتشهد الفطرة وتشهد الحاسة الباطنة انه هو المنفـرد بالخالقية والإيجابية وما عداه فهو سلب « .. أرونى ماذا خلقوا من الارض أم لهم شرك فى السموات » سؤال عجيب وبسيط وقوى « .. ائتونى بكتاب من قبل هذا أو اثارة من علم ان كنتم صادقين » « الاحقاف : ٤ » . بدون شك هذا السؤال الذى وجهه اليهم والى فطرتهم لن يجيبوا عليه باى جدل وانما قالوا فى موطن اخر « .. ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » وهذه الاجابة كانت عبارة عن

التسليم بما يقول القرآن الكريم .. أن هذه الالهة لا اثر لها .

ويقول لهم « يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله » .. وانظروا التحقير .. « لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب » .

فى هذا المنهج من التوجيه العقلى والفكرى الى الخالقية استطاع الاسلام أن يجعل الوثنية تنهار من اساسها ولا يبقى فى أذهان الناس الا التوحيد . ثم التفت القرآن الى الانسان لانه يريد أن يهذبه فقال « هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا » ..

أين الخالقية ؟ « انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه » وفى آية أخرى « أو لا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » وكثير غيرهذا . لذلك أقام القرآن تفكير وضمائر المؤمنين على معنى الخالقية فى المنهج الفكرى .

المنهج التربوى : هناك المنهج الثانى وهو منهج تعليمى .. منهج تربوى .. نفسانى . لقد كنا نتناول منذ قليل مشاغل الانسان ، ان المشاغل الدنيوية والاهواء .. والشهوات ، من شأنها بعد أن كانت ممتنعة عن الصبى وهو طفل ، شبت فى قلبه حتى غطت الحاسة الباطنة فأصبحت لا تبصر . وقد واجه القرآن الكريم هذا المعنى بمنهاج تربوى انسانى ، وهو أن يقى الانسان حاسته الباطنة ، موجات الاهواء وموجات الشهوات ، التى تهب عليها من قبل الحس ومن قبل رغبات الدنيا . وبما أن الحس هو بعض تكوين الانسان فهو موجود على الدوام ، وطالما كان موجودا على الدوام فانه لا يفتأ يصدر الاهواء ويصدر الشهوات . وهذه الاهواء والشهوات تهب كالعواصف والاعاصير ، وتهب كالغمام فتغشى حاسة

الانسان ، فأمر الاسلام الانسان أن يقى حاسته الباطنة موجات هذه الشهوات وهذه الاهواء وهذا هو معنى التقوى .

ذلك ان التقوى هي أن يقى الانسان هذه الحاسة الباطنة ما يجيئها من افق الحس من اهواء ومن شهوات، وبما أنها دائمة ، فان الانسان دائما يكون فى مجاهدة وفى مدافعة لهذه الاهواء والشهوات حتى تكف عن أن تؤذى حاسته الباطنة ، والمواظبة على هذه المجاهدة .. المواظبة على أن يقى الانسان نفسه الاهواء والشهوات .. هى الصبر . اذن لابد أن يقى الانسان نفسه من هذه الموجات، فاذا فعل ذلك جعل هذه الحاسة مشرقة سليمة وبالصبر والتقوى يقى الانسان حاسته الباطنة من هذا الاذى ويحقق وجوده الانساني وتصبح طاقات الخالقية تحت تصرفه ولذلك يقول الله « بلى أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة.. »

وحينئذ ، بهذا المنهاج الفكرى وهذا المنهاج التربوى النفسانى تصبح هذه العين بصيرة سليمة تبصر من الكون ما تشاء ، واذا كان الاسلام قد اعتمد على هذين المنهجين لايقاظ ما فى الصدور من حاسة باطنة فنحن يلزمنا لكى نكون مثل الصحابة ان نكون على وفق هذا النمط من الاعداد ويجب أن تساعد مناهج الاذاعة والتليفزيون والصحافة ومناهجنا فى المدارس على هذين المعنيين ، المعنى الفكرى الذى يصلنا فى الكون بمعنى الخالقية والمعنى التربوى ، وحينئذ تكون منا النماذج المشابهة للذين خرجهم الاسلام من قبل فكانوا بحق « خير أمة أخرجت للناس »



ويمضى الاستاذ البهى الخولى فى حديثه عن الانسان

حين يعيش بامكانيات المادة من حوله ولا يعرف غيرها أو حين يعيش فى أفق الخالقية ويستمد من طاقاتها الضخمة فيقول :

ان أفق الخالقية معناه سيادة مشيئة الله على الكون، ويبدو سلطان الله تبارك وتعالى للانسان فلا يمكن أن يتصور ان هناك مشيئة فى الكون غير هذه المشيئة ، ولنضرب مثلا بأنفسنا حين نحبس انفسنا فى أفق المادة ثم ندعى اننا مؤمنون احسن ايمان . الذى يحدث انني اري نفسي آكل من المادة .. التى يمثلها المال ، وغيري ايضا يعيش على المادة .. التى يمثلها المال ، اذا كانت هناك أزمات فى المعيشة ، مرضية أو بدء العام الدراسى وما يحتاجه من مصاريف أو ما الى ذلك فالذى يحل هذه الازمات هو المال ، فالمعاملات كلها قائمة على المال والناس فى آمالهم وسعيهم وتنافسهم هدفهم .. المال .

فماذا يعمل الفكر ؟ يكون كل منطق الفكر هو المال ، وكذلك منطق القلب ، ويعيش الانسان بفكره وقلبه وأعصابه بمنطق المادة ، وهذا أمر طبيعى عندما يحبس الانسان نفسه فى محيط الحواس الخمس . أما اذا عاش الانسان فى أفق الخالقية فانه سيجد دنيا غير الدنيا وآفاقا أعلى وحقائق خطيرة تمثل قوة الله ومشيئته الساحقة الجارفة التى لا يتصور معها الانسان أى مشيئة اخرى ، ويصبح هذا المعنى هو منطق الانسان فى ظاهره ، واحساسه ، ويتلبس فى وجدانه فلا يحس ان له مشيئة الا وهى نابعة من مشيئة الله : « وما تشاءون الا أن يشاء الله » ويتفاوت الناس فى حظوظهم وفى فنائهم عن أنفسهم وذوبانهم فى مشيئة الله .

ونضرب على ذلك مثلا يبرز هذا التفاوت من خلال شخصيتين عظيمتين : الاولى شخصية سيدنا اسماعيل

والثانية شخصية سيدنا موسى عليهما وعلى نبينا افضل الصلاة والسلام .

حين جاء سيدنا ابراهيم يقول لولده اسماعيل : « يابنى انى ارى فى المنام انى اذبحك فانظر ماذا ترى» ماذا كانت اجابته ؟ قال له : « يا أبت افعل ما تؤمر» وربما ظننا انه كان من المنطق أن يقول : يا ابت افعل بي ما تؤمر ، لان الكلام موجه اليه ، ولو انه قال ذلك لكان مثلا طيبا فاضلا فى الفناء عن نفسه فى مشيئة الله تبارك وتعالي مسلما أمره لمشيئة الله ، ولكنه لم يقل افعل بى بل قال : « افعل ما تؤمر » وكأن الامر لايعنيه .. كأن أباه يسأله عن شجرة أمر أن يقطعها أو شاة أمر بذبحها فيجيبه أن افعل ما تريد ، فنفس اسماعيل صارت شيئا لا يهمه وليس لها وجود وحين يقول : « افعل ما تؤمر » فهذا نهاية فى الفناء عن الذات فى مشيئة الله تبارك وتعالى .

ثم يقول بعد ذلك : « ستجدنى ان شاء الله .. من الصابرين » وهذا معنى آخر فى فناء الذبيح اسماعيل عن نفسه ، لقد تصور فضيلة « الصبر » وقد تحلى بها اناس فضلاء آخرون فتمنى أن يكون واحدا من بين أولئك الصابرين .

ثم ننتقل الى سيدنا موسى عليه السلام ، فنجده ـ فى أقل من هذه المحنة ـ يقول لعبد صالح : « هل اتبعك على أن تعلمنى مما علمت منه رشدا » فقال له : انت لا تتحمل هذه المسألة ، فقال له موسى لا : « ستجدنى ان شاء الله صابرا » ، وارجو أن نلاحظ الفرق بين قول سيدنا اسماعيل عليه السلام : « ستجدنى ان شاء الله من الصابرين » وبين قول سيدنا موسى عليه السلام :

« ستجدنى ان شاء الله .. صابرا » فاسماعيل رجا ان يكون بين الصابرين ، وموسى لمح نفسه ونظر لنفسه متحليا بفضيلة الصبر . وهذا معنى دقيق جدا ، وليس من العيب أن يقول موسى هكذا وانما على كل حال هو فرق فى المنزلة اما النتيجة فماذا كانت ؟ نقول انه كلما صدق ضمير الانسان ومواهبه وحواسه الباطنة وأفناها فى مشيئة الله تبارك وتعالى ولم يعد له مشيئة أبدا فى نفسه وهو مسترسل مع ارادة الله ، كانت منزلته الى النجاح أقرب . والنتيجة كما قررها القرآن الكريم ان سيدنا موسى عليه السلام تخلف فى المرة الاولى فقال له : « الم أقل انك لن تستطيع معى صبرا ، قال : لا تؤاخذنى بما نسيت » وأعطاه فرصة ثانية فكان حظه فيها كسابقتها وطلب فرصة أخرى قائلا : « ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى » ولم ينجح فى الفرصة الاخيرة حتى قال له العبد الصالح : « هذا فراق بينى وبينك » .

أما سيدنا اسماعيل فقد كانت النتيجة : « فلما أسلما » أى ابراهيم وابنه اسماعيل لله : « وتله للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين ، وفديناه بذبح عظيم » ونحن لا نريد أن نغض ابدا من قدر سيدنا موسى — فنحن كمسلمين نؤمن بالرسل جميعا ولا نفرق بين أحد منهم — وانما نقرر ان حظ الانسان ونجاحه هو فى تحقيق مشيئة الله فى ضميره ، وان منزلة الانسان تكون تابعة لهذا الحظ .

والناس فريقان : فريق يعيش كما عاش الصحابة ، فى نطاق الخالقية وامكانياتها العظيمة الرائعة ، وفريق يعيش فى نطاق الحس بعيدا عن الطاقات الفاعلة المساعدة

الميسرة التى تجلب له النصر وتوفر له المعونة فيكون معزولا عن الله ليس فى ضميره غير المال ، واذا انقطعت الصلة بالله نجد انه لا يلحظ فى كل تصرفاته اى وجود لله ، فاذا كان صاحب مال ، فهو لايرى فى المال الا نفسه وذاته ..

أما الله .. فلا يرد فى ذهنه ، واذا كان صاحب موهبة : خطيب ، عالم ، اقتصادى كبير ، طبيب ، مهندس ، الخ .. لايذكر الا مهارته ولا يذكر الا نفسه ، اما ان الله هو خالق هذه المواهب والملكات وهو الذى انشأه كله فلا يرد ذلك على خاطره ، وحين يصل الانسان الى هذا المستوى يكون مخذولا كل الخذلان . والله يضرب لنا مثلا بهؤلاء الاشخاص المحجوبين المعزولين المنقطعين عن الخالقية فيقول فى سورة الكهف : « واضرب لهم مثلا رجلين، جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا ، كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا ، وفجرنا خلالهما نهرا ، وكان له ثمر» فهذا الرجل وما يمتلك هو من خلق الله تبارك وتعالى .. ولكن ، هل لاحظ الرجل ذلك ؟

بالتأكيد لا ، ولكنه « قال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا » وكلمة « أنا » هى مهوى الانسان الى الخذلان ، اذن هو قال هذه الكلمة وقد نسى ما لله فى هذا المال من أثر وفضل وجود . أما الآخر فماذا كان فى ذهنه ؟ لقد كان فيه معنى الخالقية واضحا ، ومن هذا الوضوح ، يقول لصاحبه : « أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ؟ » أى انه يرتد به الى منطق الخالقية ويقول له : هذا المال الذى فى يدك انما هو من فضل الله عليك وكان من الحق عليك أن تتذكر هذا الفضل ، ليس فضل المال

فحسب وانما فضل الذى أوجدك انت وخلقك : « ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله » ويشير سبحانه الى نتيجة تلك الكلمات التى نطقها الرجل وهو فى محيط الخذلان فيقول : « واحيط بثمره ، فاصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول : يا ليتنى لم اشرك بربى احدا » .

هذا مثال لمن غره ماله ولم يشهد فى حاله مشيئة الله وقوته ، ومثال آخر لغرور الموهبة ضربه الله من قارون « ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين» أى لا تفتر ، ثم يقول له المؤمنون : « وابتغ فيما آتاك الله (أى ان المال من ايتاء آلله) الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا .. » (الآية) واذا بقارون يقول ما هذا ، كيف آتانى ومن الذى آتانى ، ان هذا كله من مجهودى ومواهبى وقوتى « .. انما أوتيته على علم عندى» قال هذه الكلمة وهو فى أفق الخذلان والخسف الهابط ، ولذلك كانت عاقبته ما أخبر الله عنه «فخسفنا به وبداره الارض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين »

وعلى الناحية الاخرى يضرب الله مثلا لرجل كان فى مستوى الخالقية ، انه يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام يعترف بالمواهب لله « ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما انى أرانى أعصر خمرا وقال الآخر انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله انا نراك من المحسنين ، قال لايأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما .. » ولقد مضى الصديق ينتهز الفرصة ليدعو الى الله الواحد الاحد ، حتى وهو

بين جدران السجن ، ويدعو من ؟ اثنـين : أحـدهما سيخرج من السجن ليصلب والآخر سيخرج من السجن ليعود الى عمله يسقى سيده الخمر ، وقبـل ذلك كله يحذرهما من أن يغترا به وبعلمـه ، فهو أن يكن قادرا على تفسير رؤيا كل منهما ، فهو قادر ايضـا على أن ينبئهما بأى طعام يصل أليهما حتى قبل وصوله ، ولكن شيئا من هذا لا يعود الى عبقريته الفذة ولا الى موهبـة من عنده وانما يقول : « .. ذلـكما مما علمنى ربى »

فماذا كان مصير يوسف فيما بعد ، وهو الذى اعترف لله بالفضل ونسـبه اليه وقرره له ، لم تكن عاقبتـه الخسف كما راينا مع قارون وانما خرج من السجن الى كرسى الوزارة « وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين ، قال اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم ، وكذلك مكنا ليوسف فى الارض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين » .

الدكتور أحمد الشرباصي

فلسفة المال في الإسلام

« انما يريد الاسلام أن يتخذ الانسان بشأن المال طريقا وسطا .. فهو يسعى ويكسبه ، وهو يمتلكه وينفق منه ، وهو يقضى به حقوقا للأهل والله والوطن ، وهو يدخر منه جانبا معقولا لغده أو لحوادث دهره ، ولكنه لا يضيع حقا من حقوقه ، ولا يؤخر واجبا من الواجبات التى تقضى به ، ولا يجمعه ويكنزه فيصير كالعابد له ... »

الاسلام الحنيف العادل يعمل بنصوصه وروحه وتشريعاته على تحقيق فلسفة فى المال انسانية اخلاقية عادلة فاضلة تجمع بين العدالة الاجتماعية والملكية الفردية ؛ وتحفظ حق الفرد .. وفى الوقت نفسه تصون حقوق المجتمع ، ويكفى للتأكد من ذلك أن القرآن الكريم يحدثنا بأن سبب الهلاك للجماعات والأمم هو أن توجد فيها طائفة منعمة مترفة ، تستبد بالخير ، وتستأثر بالمتعة ، فيقول : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

المال مال الله :

ولكى يؤكد الاسلام فى نفوس ابنائه روح العدالة الاسلامية الفاضلة أخبرهم بأن ما فى الأرض والسموات من مال أو عقار أو طاقات أو ثروة هو فى الحقيقة والواقع ملك لله ، لأنه هو خالقه وموجده ومبدعه ، ولذلك جاء فى القرآن الكريم : « قل اللهم مالك الملك » . « لله ملك السموات والارض » . « لله مافى السموات ومافى الارض » . « بيده ملكوت كل شىء » . وقد أراد القرآن بتكريره هذا المعنى فى مواطن متعددة وصور مختلفة أن يحارب فى الانسان التجبر والتكبر فلا يغتر بما فى يده من مال يملكه سواء أكان منقولا أم عقارا .

ثم أخبرنا القرآن بأن الله تعالى ـ المالك الاول والاخير لما في الكون ـ يتفضل على عباده فيهبهم من ملكه ونعمه ما يشاء ، فيقول القرآن : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير انك على كل شيء قدير » ولكنه في الوقت نفسه يخبرنا بأن امتلاك الانسان للمال انما هو امتلاك ظاهر والمال فى يده أشبه بالعارية او القرض الذى يسترد فى يوم من الايام ، وان بعد هذا اليوم أو طال عليه المدى ، والانسان خليفة عن الله فى هذا المال ، أو وكيل عنه فى تصريفه ، والوكيل يجب عليه أن يراعى فى التصرف ارادة المالك الاصلى الحقيقى ، وينفذ أوامره ، والا لم يصلح للخلافة أو الوكالة ، ولذلك يقول القرآن : « انفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ويقول : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « المال مال الله وأنا عبده » .

والقرآن يخبر الناس بأن ما خلقه الله فى الكون من نعم وخيرات ، ليس وقفا على طائفة دون طائفة ، وليس مقصورا على جماعة دون جماعة ، بل الخلق كلهم عيال الله وعباده ، والله قد خلق لهم ما فى الارض جميعا ، ولذلك يقول القرآن : « هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا » ويقول : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه » ويقول : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما » والاموال هنا هى أموال السفهاء ، ولكن الله عبر عنها بقوله : « أموالكم » للاشارة الى أن للجماعة ولاية على هذا المال تصونه بها اذا كان فى يد سفيه

وتقرير هذه الحقيقة وتأكيدها فى أكثر من موطن يجعلان الناس يعلمون أن الانتفاع بهذه النعم والخيرات

مفتح الابواب لهم جميعا ، وفيهما أيضا تحريض على السعي ودفع الى استخدام المستطاع من خيرات الارض والسماء .

والاسلام يقر الملكية ويحترمها ، ويدعو اليها ويحرض عليها ، فالقرآن يقول : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » وابتغاء المستطاع من فضل الله يتضمن الكسب والتملك ، والحديث النبوى الشريف يؤكد حرمة الملكية الصحيحة السليمة عند المسلم ، فيقول : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » .

العمل وسيلة كسب الملكية :

ونفهم من تعاليم الاسلام انه يجعل الوسيلة الاصلية الموصولة للتملك هي العمل . لان الانسان يستطيع أن يملك بطريق الارث أو الهبة أو الوصية أو العمل ، والطرق الثلاث الاولى وهي الارث والوصية والهبة هي صور للعمل المدخر أو الذى يتصرف فيه صاحبه ، ويبقى بعد ذلك العمل ، وهو الوسيلة المتكررة المألوفة فى الاكتساب والتملك .

والاسلام يحرض على السعي والعمل للكسب والانتاج والتملك فنرى الدعوة الى العمل قد تكررت وتعددت مواطن ذكرها في الكتاب المجيد وهو القائل : « هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » ويقول « ليس للانسان الا ما سعى »

ويأتى الرسول فيرشدنا أن الاكتساب عن طريق العمل هو أشرف وسائل الاكتساب والتملك فيقول « أطيب الكسب عمل الرجل بيده » ويقول « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وان نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » وذكر عمل داود فيه أشارة

الى أن العمل كان من صفة الانبياء وهم النماذج العليا للبشر ، والمؤيدون من الله بعنايته ورعايته ، فداود كان يعمل فى صناعة الدروع ويأكل من عمل يده ، وموسى عمل لشعيب ثمانى سنوات فى مقابل زواجه من ابنتـــه ومحمد خاتم المرسلين عمل راعيا ، وعمل تاجرا . وكان الرسول يقول لابنته الحبيبة الغالية « يا فاطمة بنت محمد ، اعملى فانى لا اغنى عنك من الله شيئا » . وقال « من أمسى كالا من عمل يده امسى مغفورا له » .

ولقد رأى النبى يد رجل قد تعبت من العمل ، وظهر بها أثر التعب فقال النبى « هذه يد يحبها الله ورسوله » وفى الحديث أيضاً : « ان الله يحب العبد المحترف » ، وعمر يقول انى لأرى الرجل فيعجبنى شكله فاذا قيل : لا عمل له : سقط من عينى .

العمل الطيب أساس الكسب الطيب :

ولكن الاسلام يضع قواعد للتملك الصحيح الســـليم الذى لا غبار عليه ، فيوجب على الانسان أن يكون الطريق الذى يكسب به ما يملكه طريقا مباحا مشروعا ، لا حرمة فيه ولا شبهة ، ولذلك حرم الاسلام السرقة والغش والغصب ، والربا ، والاحتـــكار ، والفحش فى الربح ، والمقامرة ، وسوء الاستغلال .

ويوجب الاسلام على المسلم أن يكون ما يكسبه مباحا حلالا طيبا ، ولذلك يحرم امتلاك الخمر والمخدر والخنزير والدم المسفوح ونحوه ، والقرآن الكريم يبيح التمتع ، ولكنه يجعله فى دائرة الحلال الطيب ولذلك يقول القرآن: « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ويقول « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم » .

ونلاحظ هنا أن القرآن الكريم قد عبر عن المال بكلمة

« الخير » اكثر من مرة ، فقال عن الانسان : « وانه لحب الخير لشديد » أى لحب المال ، وقال : « كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت ، ان ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف » اى أن ترك مالا .

والتعبير عن المال بكلمة « الخير » كأنه اشارة الى ما ينبغى أن يكون عليه المال من حل وطيب ، لانه لو كان خبيثا لكان شرا ولما كان خيرا . والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : «نعم المال الصالح للرجل الصالح » .

واذا كسب الانسان مالا حلالا وامتلكه كان عليه ان ينفق منه بلا سفه أو تبذير ، وبلا بخل أو شح ، بل ينفق بتوسط واعتدال ، لأن الله يقول : « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » ، ويقول : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » .

فلو أساء الانسان الانفاق فبذر واسرف ، وظهرت عليه علامات السفه فى التصرف والحمق فى الانفاق ، كان من واجب ولى الامر أن « يحجر » عليه ، وأن يقيم له « وصيا » يتصرف وكيلا عنه فى ماله بالحسنى والتصرف الحميد .

الالتزامات فى المال :

ومن الواجب على صاحب المال بعد هذا أن يؤدى حق الله وحق الأمة فى هذا المال ، وحق الله بعضه مفروض لازم لا مفر منه ، وهو الزكاة : « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » . وبعضه اختيارى كالصدقة والبر والاحسان ، وأما حق الأمة فهو ما يعينه ولى الأمر الشرعى من حقوق فى المال تسمى بلغة عصرنا «الضرائب» وهذه الضرائب يأخذها ولى الأمر من المالك القادر ، لينفقها فى وجوه المصلحة العامة اللازمة للأمة .

وعلى صاحب المال بعد ذلك الا يستخدم هذا المال او جزءا منه فى الاضرار بالغير ، أو فيما حرم الله ومنع فاذا فعل المالك شيئا من هذه الموبقات كان على ولى الأمر أن يضرب على يده ، وأن يقيمه على سواء السبيل رغبا او رهبا .

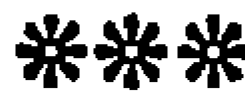
وهنا نستطيع أن نقول ان هذه الامور السابقة اذا نفذها صاحب المال كما أراد الاسلام ، كانت ملكيته الفردية محل صيانة واحترام ، كما نستطيع أن نقول انه لا يمكن أبدا أن توجد عند تنفيذ هذه المبادىء باخلاص ملكيات ضخمة مخيفة لا تحتاج الى تحديد أو مقاومة ، وبخاصة اذا تذكرنا أن هناك مجال تفتيت للثروة فى الاسلام باستمرار فالنفقة والزكاة والضريبة والاسهام فى وجوه الخير ، ثم الميراث ، هذه كلها وغيرها عوامل تتوالى او تتجمع فتقوم بعملية التفتيت للثروة من حين الى آخر .

ويجب ان نتذكر هنا أن الاسلام المصلح قد جعل الزكاة ركنا أساسيا من أركانه ، يكفر جاحده ويفسق مهمله ، فقال القرآن : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » وأمر الاسلام بالمحاربة على منعها ، ولذلك حارب أبو بكر الصديق رضى الله عنه من منعوا الزكاة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال كلمته المشهورة : « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه حتى يؤدوه » .

وقد جعل القرآن الزكاة من صفات المؤمنين الأصيلة فقال عنهم : « والذين هم للزكاة فاعلون » وجعل منعها من صفات المشركين فقال : « وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون » . وهذه الزكاة فريضة واجبة مكتوبة لازمة ، وليست بأمر اختيارى ،

ولذلك يقول عنها القرآن : « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » . فهى قدر معين تجمعه الدولة الاسلامية ، وتنفقه على مصارفها التى حددها القرآن ، فليست الزكاة منة ولا شيئا مذلا لكرامة الانسان .

ومما هو جدير بالملاحظة أن من بين مصارف الزكاة مصرفا عبر عنه القرآن بقوله : « سبيل الله » ، وسبيل الله عريضة واسعة متعددة الاغراض كثيرة الاهداف ، فهى كما يقول بعض الفقهاء لا يخرج عن معناها اى نوع من أنواع البر الخاصة والعامة ، فالمصالح العامة والمشروعات الجماعية والمصانع الحربية والمستشفيات العلاجية والمعاهد العلمية .. وما الى ذلك مما يحقق للمجتمع حاجته فى حفظ كيانه وصحته وعقله وثقافته ، كل هذه الاغراض تشملها ــ كما يقرر هذا البعض ــ كلمة « سبيل الله » !



وفريق من الناس يجهل حين يظن أن الزكاة تحرض على الفقر والكسل ، وهذا غير صحيح ، لان الاسلام يكره الفقر وينفر منه ، وفى الحديث : كاد الفقر أن يكون كفرا » وفيه : « اللهم انى أعوذ بك من الفقر » وفيه : « اللهم انى أسألك الهدى والتقى ، والعفاف والغنى » وانما تعطى الزكاة للمحتاج المحروم الذى لا يجد سعة من ذات يده ، ولا يجد فرصة للعمل أمامه .

واذا كان الاسلام يكره الفقر ويحاربه ، فانه فى الوقت نفسه يكره كنز المال بلا موجب ، ونحن نقرأ فى القرآن الكريم هذا الوعيد الأليم : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم

وظهورهم هـذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

وانما يريد الاسلام أن يتخذ الانسان بشأن المال طريقا وسطا ، فهو يسعى ويكسبه ، وهو يمتلكه وينفق منه ، وهو يقضى به حقوقا للأهل والله والوطن ، وهو يدخر منه جانبا معقولا لغده أو لحوادث دهره ، ولكنه لايضيع حقا من حقوقه ، ولا يؤخر واجبا من الواجبات التى تقضى به ، ولا يجمعه ويكنزه فيصير كالعابد له ، ولكنه يعتدل ويتوسط ، والرسول يقول : « ما أحسن القصد (أى الاعتدال) فى الغنى ، وما أحسن القصد فى الفقر ، وما أحسن القصد فى العبادة » .

ولقد رأى النبى رجلا مترفا متخما ، قد امتد بطنه أمامه من ترفه وجشعه فأشار النبى الى بطن هذا الرجل وقال له « لو كان هذا فى غير هذا المكان لكان خيرا لك » . وهذا تعريض نبوى عميق الدلالة . وكأنه يريد أن يقول له : لقد أسرفت على نفسك ، حتى جاوزت حدك ، ولو أن ما جاوز الحد أعطيته لمحتاج اليه محروم منه لكان ذلك العمل خيرا لك فى عاجلك وآجلك .

وفى الحديث أن النبى قال أيضا : « ليؤتين يوم القيامة بالعظيم الأكول الشروب فلا يزن عند الله جناح بعوضة » والمراد بهذا طبعا من يسرف ويتخم ، ويترك أخاه فى حاجة الى الضرورى من القوت .

والمال عند صاحبه له حق الانتفاع به فى الوجوه المشروعة ، ولكن الاسلام لا يبيح له الاسراف فيه ، ولذلك يقول القرآن « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » ويقول : « ولا تبذر تبذيرا ، ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا » .

ونلاحظ أن النبى صلى الله عليه وسلم بدأ فى تكوين مجتمعه المثالى الفاضل ، وذلك عندما رأى أن المهاجرين قد تركوا خلفهم أوطانهم وديارهم وعقارهم وممتلكاتهم ، وأخرجوا بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، وانتقلوا الى المدينة لا يملكون من حطام الدنيا شيئا ، بينما اخوتهم الأنصار ـ وهم أهل المدينة ـ كانوا حينئذ مستقرين فى أملاكهم ودورهم وعقارهم ، فاذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يشرع فى ايجاد توازن بين الذين لا يملكون والذين يملكون . ويقيم هذا التوازن على أساس «الأخوة الايمانية» أو « الأخوة الدينية » الموجودة بين المهاجرين والانصار ، بمقتضى قول الله تبارك وتعالى : « انما المؤمنون اخوة » وقوله : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا » وقوله : « وان هذه امتكم امة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

وآخى الرسول بين المهاجر والأنصارى ، وصار كل اخوين من هؤلاء المؤمنين يتعاونان ويتناصران ، ويشتركان فى السراء ، ويتضامنان فى البأساء ، واذا مات أحدهما ورثه الاخر ، كأنه اخ له من ابيه وامه . ولم يأخذ الانصار هذا التكييف الاجتماعى على أنه واجب كلفهم الاسلام به ، ولا على أنه أمر من الرسول يخضعون له فحسب ، بل أخذوه على أنه شيء حبيب الى نفوسهم ، يرضى كريم مشاعرهم ونبيل عواطفهم ، فكان الأنصارى يأتى الى اخيه المهاجر ، ويقول له : هذا نصف مالى . وهذا نصف عقارى ، وهذا نصف متاعى ، فناصفني فيما أملك ، بل وصل الأمر ببعضهم أن قال لأخيه المهاجر : لى زوجتان ، وليست لك زوجة . فانا أطلق لك احداهما ، وتنتظر حتى تستوفى عدتها ، ثم تتزوجها بعد ذلك :

فشكر له أخوه المهاجر هذا السخاء ، وفضل على ذلك ان يذهب الى السوق ليتاجر فيكسب فينفق مما آتاه الله .

***

ومعنى هذا أن المهاجرين لم ينتهزوها فرصة للسطو على أموال الانصار ، أو لاستغلال تطوعهم وتبرعهم ، وسخائهم ووفائهم ، بل اكتفوا من اخوتهم الانصار بما يدفع عنهم الاخطار والاضرار ، وانطلقوا فى ميادين السعى والانتاج يعملون ويكسبون ويقتنون ، حتى ساوى الكثير منهم فى ماله وعقاره اخوة له من الانصار ، بل كان من المهاجرين بعض الاغنيــاء الذين زادوا فى ثروتهم على اخوانهم الانصار . وذلك بفضل الصبر والدأب ومواصلة العمل .

وقد زكى القرآن الكريم هذا الصنيع الكريم الحميد من الانصار الذين آووا ونصروا ، وســـاعدوا وآزروا ، وأدوا حقوق الأخوة الاسلامية كأحسن ما يكون الأداء ، فقال : « والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مماأوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

كما ان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكتف من جانبه باقامة هذه « المؤاخاة » بين الانصار والمهاجرين مقام أخوة الصلب والقرابة ، وقد كان يعلم أن بعض مستلزمات هذه الأخوة كالتوارث مثلا ، لا بد أن يرجع الى مجراه الطبيعى . وهو أن يكون الميراث للعصبات والأقارب الحقيقيين وذوى الأرحام ، ولذلك أقدم على اصلاح اسـلامى عادل .. أقام به التـــوازن بين فريق المهاجرين والانصار ، فما أن ساق الله تبارك وتعالى

اليه بعض الغنائم التى جاءت بلا قتال ولا نزال ، حتى وزع هذه الغنائم على المهاجرين الذين لا يملكون ، واشرك معهم رجلين من الأنصار كانا فقيرين ومحتاجين الى المعاونة والمساعدة . وبتوزيع هذه الغنائم على المهاجرين اقتربوا فى مستواهم المادى والاقتصادى من اخوتهم الانصار ، وانطلق الجميع الى رحاب الحياة المكافحة العاملة يبنون مجتمعهم الجديد على دعائم من الأخوة والمساواة والمحبة والتعاون وبذل غاية المجهود .

وقد عبر القرآن الكريم عن الحكمة البليغة الدقيقة العميقة فى اختصاص المهاجرين بهذه الغنائم بقوله فى شأن المال : « كى لا يكون دولة بين الاغنياء منكم » اى كان ذلك الاجراء حتى لا يصبح المال — وهو عصب الحياة — متداولا بين الأغنياء وحدهم . فيؤدى هذا الى تكوين طبقة ممتلئة تمثل « الرأسمالية » بينما يوجد معها آخرون يمثلون « العدمية » .

ولو حدث هذا لتصارع الفريقان ، ولحاول كل منهما أن يعصف بالآخر ، وأما حين يصبح المال متداولا بين أفراد الأمة كلها ، فان هذا يؤدى الى عدالة اجتماعية من جهة ، والى انطلاق فى العمل والانتاج من جهة ثانية ، لأن المال عنصر أساسى فى تهيئة العمل ، والى سيادة المحبة بين الجميع من جهة ثالثة ، ويجب الا ننسى أن الاسلام يحرص دائما على توطيد دعائم هذه المحبة بين اتباعه فى شتى قطاعات المجتمع ومتعدد انحاء الحياة ، وحسبنا هنا قول الرسول عليه الصلاة والسلام « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وقوله : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وان يحب المرء لا يحبه

الا لله ، وان يكره ان يعود الى الكفر كما يكره ان يقذف فى النار » .

***

وقد جاءت عن النبى صلى الله عليه وسلم طائفة من الاحاديث نلمس فيها فلسفة الاسلام الاقتصادية الانسانية الأخلاقية المؤمنة واضحة جلية ، ومنها هذه الأحاديث :

« من كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له ، ومن كان عنده فضل ظهر (ما يركب) فليعد به على من لا ظهر له . قال راوى الحديث : « فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصناف المال ما ذكر ، حتى رأينا انه لا حق لاحد منا فى الفضل » .

« ما آمن بى من بات شبعان ، وجاره جائع الى جانبه ، وهو يعلم » .

« أيما أهل عرصة (أى حى أو محلة) أصبح فيهم جائع فقد برئت منهم ذمة الله » .

« المسلم أخ المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن تركه يجوع ويعرى ، وهو قادر على اطعامه وكسوته ، فقد أسلمه » .

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

« مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » .

« من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام ثلاثة فليذهب برابع » .

« ان الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم ، بقدر الذى يسع فقراءهم ، ولن يجهد الفقراء اذا جاعوا الا

بما يصنع أغنياؤهم ، ألا وان الله يحاسبهم حسابا شديدا ، ويعذبهم عذابا أليما » .

« ان الأشعرين كانوا اذا أرملوا فى غزو (نقص تموينهم) أو قل طعام عيالهم ، جمعوا ما لديهم من طعام فى ثوب واحد ، فاقتسموه فيما بينهم بالسوية فهم منى وأنا منهم » .

وقد صح عن أبى عبيدة بن الجراح وثلاثمائة من الصحابة أن زادهم فنى فامرهم أبو عبيدة فجمعوا أزوادهم فى مزودين ، وجعل يقوتهم اياها على السواء .

وقال الامام على بن أبى طالب : « ان الله سبحانه فرض فى أموال الاغنياء أقوات الفقراء ، فما جاع فقير الا بما متع به غنى ، والله سائلهم عن ذلك » . وفى هذا القول العلوى رمز دقيق واشارة بليغة الى أن الأغنياء يحتالون غالبا لكى يحوزوا أكثر مما يحتاجون أو أكثر مما يستحقون ، ويكون ذلك فى العادة على حساب حاجات الفقراء وحقوقهم . ولقد تحدث المنفلوطى فى بعض فصوله الأدبية عن زيارته لمريض بالتخمة ، وزيارته بعد ذلك رجلا مريضا من الجوع ، فقال لو أن الغنى المتخم اعطى الفقير الجائع ما زاد عن الحاجة لارتفع المرض عنهما معا، ولانعدمت شكوى الغنى من التخمة وشكوى الفقير من الحرمان ! ..

ويقول الامام ابن حزم : « فرض على الأغنياء فى كل بلد أن يقوموا بفقرائها . ويجبرهم السلطان على ذلك ، ان لم تقم الزكوات بهم ، ولا فى سائر أموال المسلمين ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لا بد منه ، ومن اللباس فى الشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة » .

وهذه العبارة من ابن حزم تشير الى أن المجتمع

الاسلامي عليه أن يضمن للفرد مستوى لائقا من المعيشة لا ينحدر عنه ، فعلى هذا المجتمع أن يضمن لكل فرد ضرورات الطعام والكساء والمسكن . وهذا هو الهدف الأساسي لنظام الضمان الجماعي في العصور الحديثة ، وبذلك نستطيع أن نقول ان الاسلام كان أسبق من غيره في تقرير هذا الضمان الجماعي .

والاسلام حين يدعو القادرين الى اعطاء المحروم العاجز ما يحتاج اليه ، يبيح للضيف أن يأخذ حق ضيافته اذا منعه القادرون هذا الحق ، دون أن يسرف أو يزيد على الحق في هذا الأخذ ، ويستدل الفقهاء على هذا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أيما ضيف نزل بقوم فاصبح الضيف محروما فله أن يأخذ بقدر قراه (ضيافته) ولا حرج عليه » .

***

ولو استعرضنا تاريخ الاعلام من ائمة المسلمين وقادتهم لوجدنا روح المثالية الاسلامية واضحة عندهم بارزة في حياتهم ، فهذا عمر بن الخطاب يقول بنزعته الانسانية البادية : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت لرددت فضول الاغنياء على الفقراء » .

وكان عمر اذا رأى رجلا في مجزرة اللحم يشتري لحم يومين متتابعين ضربه بدرته وقال له : « هلا طويت بطنك لجارك وابن عمك » ؟. ولقد رأى عمر جابر بن عبد الله أسرف يوما في شراء اللحم فأنبه على ذلك .

وهذا عمر بن عبد العزيز يتولى الخلافة فيثور ثورة اقتصادية رائعة ، فهو يتنازل عن املاكه التي ورثها عن أبيه ، ويمزق الوثائق التي تثبت له ملكية هذه الأملاك ، وهو يسترد كل ما أخذه أفراد أسرته قبل خلافته ، ويمزق وثائقها كذلك ويضم الجميع الى بيت المال ،

ولا يقبل فى ذلك شفاعة قريب او قريبة . ولقد كان عبد الملك بن مروان أهدى الى عبد العزيز بن مروان (والد عمر) أرضا فى بلدة حلوان ، وكانت هذه الارض مأخوذة من رجل مصرى ، فرفع الرجل أمره الى القاضى فحكم برد الارض الى صاحبها ، واراد عمر أن يعجم عود القاضى فطالب بما انفقته أسرته على هذه الارض فرد القاضى قائلا : لقد أكلتم من غلتها بقدر هذا .

فسر عمر من هذا الجواب وقال : وهل القضاء الا هذا ، والله لو حكمت بغير هذا لعزلتك .

***

من هذا العرض السريع نفهم ان فلسفة الاسلام الاقتصادية الهية انسانية اخلاقية ملتزمة لا تشتط ولا تقصر ، بل تقيم الناس على صراط مستقيم ، لأن مصباحها هو القرآن الهادى الى أقوم طريق : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم »

د . محمــــود قاسم
د . يحيى هــــويدى
د . مصطفى الشكعة
د . عبد الصبور شاهين

المسلمون والحضارة الانسانية

عندما نتحدث عن الحضارة العربيـــة الاسلامية وآثارها على الحضارة العــالمية والاوربية بصفة خاصة فليس القصد أن نخدر أنفسنا برؤيا من رؤى الماضى نستعذب بها الهروب من الواقع المتخلف للعالم الاسلامى اليوم ، وانما الهدف هو مزيد من معرفتنا لانفسنا والثقة بها ، لننطلق بهذا الزاد من المعرفة والثقة فى محاولة لربط الحاضر بالماضى ، ولنمضى الى المستقبل بكل اليقين على أننا قادرون من جديد على الاسهام الايجابى والخلاق ، بمعطيات الاســلام السامية فى صنع حضارة جديدة ، لا تقوم عــلى الاستعلاء بالقوة ، أو التمايز بالعنصر ، أو اشــاعة الدمار بالبشرية ، وانما تقوم على التسامح والحب والخير والرحمة للانسان فى كل مكان ومن أى انتماء

يتحدث الدكتور عبد الصبور شاهين عن الحضارات القديمة السابقة على الاسلام ، فيشير اولا الى طبيعتها من حيث النشأة والنمو والازدهار والافـــول وكيف تغرب فى مكان لتشرق فى مكان اخر وكيف بدأت فى الاماكن السهلة ذات الخصب كما اشرقت فى الصين وامتدت الى آسيا الصغرى والى فلسطين ، وكيف نشأت حضارة على ضفاف النيل يمتد تاريخها الى سبعة الاف سنة وحضارة اليونان التى تأثرت بحضارة مصر القديمة ونقلت عنها كما تأثرت بحضارة الاشوريين . ثم تحدث عن حضارة الرومان وحضارة فارس وقال ان تلك الحضارات كانت تقوم على اساس ان هناك مجموعة من القيم وكانوا يحسون انهم لابد ان يعيشوا فى ظل تلك القيم ويتمسكوا بها . وعندما تتحلل الروابط ويحسون اما بالرفاهية الزائدة التى تغنيهم عن القيم واما بالافلاس فى الانتفاع بها تبدأ شمس الحضارة تميل الى الغسق والافول ، ليس من اجل ان تختفى من الارض وانما لتبدأ فى الاشراق فى مكان اخر يكون لديه استعداد أكثر للانتفاع بالضوء والنور ولانتاج وابداع الحضارة على اساس من العلم .

لابد اذن من وجود قوانين نسميها فى المفهوم الاسلامى « سنن » من يتبعها ويسير على أساسها يوفر الشروط التى يمكن ان تقوم على مقتضاها ووفقا لها حضارة من الحضارات

ولعل أقترابا اكثر الى الفترة السابقة على الاسلام مباشرة يعطى صورة اوضح ٠

ويتحدث الدكتور مصطفى الشكعة عن النظم التى كانت سائدة فى أماكن متفرقة قبل ظهور الاسلام فيشير الى ارهاصات تنبىء بأن شريعة سامية تتخذ طريقها الى هذا الكوكب بعد أن طغت عليه المادية ٠ ونحن نعرف أن الدعوة الاسلامية ظهرت فى الجزيرة العربية التى كانت محاطة بحضارتين عريقتين ، الحضارة الفارسية الساسانية التى عمرت فى الارض لاكثر من ثلاثمائة عام ، والحضـــــارة الرومانية التى عمرت لعدة قرون ٠ ولو قد كانت حياة الفرد مصونة وحاجاته متوفرة فى ظلهما لكان الامر يختلف.

فلو نظرنا الى فارس لوجدنا بداية الافول فى الحضارة الساسانية فلم تكن للانسان كرامة وكان الحاكم بأمره شاهنشاه او ملك الملوك يتمتع بما كان يسمى الحق الالهى ٠٠ فلابد ان يتميز على الناس جميعا وكان المجتمع ينقسم الى عدة طبقات : رجال الدين، ورجال الجيش ،والموظفين ــ وهم قلة ــ وهؤلاء هم السادة ٠٠ وبقية الشعب بطوائفه كانوا يسمون بالعوام وكان الانسان لا يأمن على نفسه أو ماله أو عرضه والتحمت الدولة فى حروب متطاولة مع دولة الروم ٠ والحـــروب اذا طالت فانها تثخن الدول بالجراح ويكون من السهل – اذا لم تكن دولة متماسكة يؤمن ابناؤها بها ــ أن يكون مصيرها الى التداعى والزوال وهذا ما حدث بالدولة الساسانية .. فالفرد لم يكن يؤمن بدولة وحقوقه غير مصونة وأمواله غير محافظ عليها ٠٠

وبذلك كان من الممكن أن ينجح الفتح الاسلامى فى اكتساح تلك الدولة الكبيرة فى معركة القادسية ٠ ونفس الشىء حدث فى معركة نهاوند بعد ذلك ببضع سنين ٠ وأذا ما انتقلنا الى الحضارة الرومانية نجد ان حالة الانسان كانت

اقل سوءاً ، لانهم كانوا أهل كتاب وكانوا يدينون بدين كريم هو المسيحية ولكن كانت العبودية فى الدولة الرومانية اشد واعتى منها في دولة الاكاسرة فلم يكن يتولى السيادة غير القلة من القواد ورجال الدين وبقية الشعب كالسائمة ونظام العبيد الذى ابتدعته الدولة الرومانية من ابشع الانظمة التى ابتدعت في ظل حضارة من الحضارات .. الظلم الاجتماعى الذى كان يقع على رعايا تلك الدولة فى مصر والشام كان من ابشع أنواع الظلم فى مراحل التاريخ المختلفة ولذلك نحن نعرف ان سكان بلاد الشام ومصر ارسلوا الى المسلمين يستنجدون بهم ، واذن كان لابد ان يتقدم الفتح الاسلامى لكى تحل العدالة والمساواة محل الظلم والتمييز .

ثم يشير د . الشكعه الى امارة الغساسنة وامارة المناذرة وما تمثلانه من حائطين بين العرب فى جزيرتهم وبين الاكاسرة والروم، وما كان بين الامارتين من تناطح وحروب

تلك الصورة لتلك المجتمعات التى كان يعيش فيها الفرد حول مقر الدعوة الاسلامية فى قلب الجزيرة العربية كانت لا شك تنبىء بقرب انهيار هاتين الحضارتين العريقتين فى كل من بلاد الاكاسرة وبلاد الروم .

● **ما هى المقومات والخصائص التى ميزت الاسلام والمسلمين بحيث اتاحت الفرصة لذلك الانطلاق والانتشار الذى قد يبدو غريبا فى سرعته ؟**

الحقيقة كما يقول الدكتور عبد الصبور شاهين ان «مشروع الحضارة» الاسلامية لم يكن مجرد احساس بأن قوما جاء دورهم فى النهضة فيجب أن ينهضوا والزمن كفيل

بذلك • ولكن الاقدار خططت في هذا لتهدى الى الارض نموذجا لصنع الحضارة ولابداعها فى صورة مشروع ، هذا المشروع بدأه الرسول عليه الصلاة والسلام بداية طبيعية • مشروع بناء يريد أن يقوم فماذا يمكن أن يعتمد عليه من عناصر البيئة ؟ الناس •• لا شـــك أنهم قوام المشروع • فالفرد العربى اختاره الله لانه كان يتميز بميزة قد تبدو غريبة . لقد قيل ان العرب كانوا معزولين ولكن هذه العزلة كانت ميزة حيث صانت لغتهم فلم تختلط بالفاظ كثيرة من اللغات السائدة والمعاصرة فيما عــــدا القليل جدا من الكلمات ، كما انها صانت النفس العربية فلم تفسدها عادات الرفاهية والفساد •

لم يكن العربى قدمرت عليه اطوار الحضارة المستهلكة التى تبتذل شخصيته أو تمتهنها وانما كان فطريا أو أقرب مايكون الى الفطرة فى احساسه بفضائله الشخصية ولا يدين الا لما يصدر عن ذاته وينبعث من نفسه ، وكانوا يعيشون كافراد اكثر مما يعيشون جماعة فالعربى كان يتمتـــع بفضائل فردية وليست جماعية ، وحين أتى الاسلام ليبنى على هذه النفس فقد اراد ان يضعها فى الاطار الذى يتناسب مع المشروع الجديد للحضارة الذى يريد أمة انسانية ولا يريد فرداً فلابد ان يكون الفرد ويصاغ على الاستعداد للاندماج فى الامة •

ويتحدث الدكتور عبدالصبور عن قوة الجماعة وتأثيرها فى تعميق هذا الاحساس بالجماعة التى عليها ســيقوم المجتمع ومنه تنبثق الحضارة السماوية المهداة الى الارض ولابد من قيم تقوم عليها تربية الفرد وأول ما اصطدم به صاحب المشروع هو الشرك وجاءت الوحدانية ولم يكن الاسلام يهدم دون أن يعطى البديل بل ربما كانت عملية البناء قائمة قبل أن يهدم الفرد ما فى نفسه من العقائد

السخيفة التافهة ، ولقد أحس بعظمة التوحيد وما اضفاه عليه من قوة ذاتية •

وحين ربى الفرد على التوحيد وهو آهم ما جاء يدعو اليه الرسول احس انه لا سلطان لاحد عليه من المخلوقات وانه خاضع نقط لله عز وجل فأحس بالعزة بفضل هذه العقيدة الجديدة وهى العقيدة التى جعلت بلالا فى أشد حالات السطوة والسلطان على بدنه المعذب يقول : احد احد فهــو أحساس بالتفوق حتى على العذاب. بل ان الرسول مر على بعض المعذبين واذا باحدهم يقول له يا رسول الله الا تدعو لنا •• الا تستنصر لنا ؟ فما يكون منه الا ان يقول « انه كان من قبلكم يؤتى بالرجل منهم ، فيوضع المنشار على فرق رأسه فيشقها نصفين ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليظهرن الله هذا الامر ، حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخشى الا الله او الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون » أى ان من مقتضيات الايمان بالله الواحد ان تتحمل فى سبيله ما يقع لك •

ثم نجد احساسهم بمعنى الامة ، ان الخطاب لهم دائما: « ان هذه امتكم امة واحدة » •• فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة •• انه يفترض في وجودهم هذه الصــورة الموحدة لكى تعيش الفكرة بهم فى حالة اجتماعهم «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا »

● كيف انتقلت الحضارة وهل للاديان علاقة بهذه الحضارة ؟

يجيب الدكتور مصطفى الشكعه فيقول، ان الحضارات القديمة فى مجموعها كانت تعتمــد على المادية اكثر من اعتمادها على الروحية وهذا هو الفرق الذى كنا سنصل اليه بين الحضارة الاسلامية والحضارات التى انتهت •

والحضارة الاسلامية هى لون جديد وفريد لانها ارتبطت بقيم سماوية عليا ولذلك قدر لها ان تسود لفترة طويلة حتى حينما انحسر المد عن المسلمين لما تركوا دينهم ، هذه الحضارة انطلقت الى اوربا بحيث نستطيع ان نقول ان الحضارة التى يعيشها الاوربيون ـ أو الغربيون ـ فى مختلف الميادين الفكرية والفلسفية والاجتماعية والفيزايائية والطبية والرياضية .. كلها حضارة اسلامية فى جذورها ابتكرها علماء مسلمون خلص وعاشوا فى ظلالها يبشرون بها ويضيفون اليها الكثير ثم ترجمت كتبهم التى تعرف باسمائهم الى اللاتينية وترجمت الى اللغات الانجليزية والفرنسية وغيرها وأريد أن انتهى الى ان الحضارة الاسلامية تمتاز عن غيرها بارتباطها الوثيق بقيم عليا .

● هل كان للحضارات الاخرى تاثير على الحضارة الاسلامية

.. لقد ذكر بعض المستشرقين أن الحضارة الاسلامية تاثرت بحضارات اخرى فهل هذا صحيح ؟ .

نحن قوم غير متعصبين ، الدعوة الاسلامية انتشرت انتشارا ليس له نظير فى التاريخ الحديث او القديم .وهذه الرحلة الطويلة دخلت معها اجناس كثيرة فى الاسلام والناس تختلف حضارتهم وقيمهم ومعلوماتهم ما فى ذلك شك ولقد حدث ، ما يمكن ان نسميه بلغة العصر ، تبادل الخبرات بين الاقوام المتعددين وبين الامم العديدة التى دخلت الاسلام ، وفى عهد المأمون انشىء بيت سمى بيت الحكمة ، وكانت تترجم الاثار الفكرية من كل مكان . وانتفع المسلمون الذين يبحثون عن العلم بالمعرفة أينما وجدت . والاسلام يحض على اقتناء المعرفة والبحث عنها ولا يعيب المسلمين أن يتعلموا من غيرهم .

ولقد انتفعت الحضارة الاسلامية بخير ما سبقها ولكنها اصبحت حضارة مبتكرة ولا أقول خلاقة لان الخلق لله وحده ، وهى حضارة مبتكرة فى مختلف الميادين ، فى الميدان الادبى اصبح هناك ادب اسلامى واصبحت الامة الاسلامية أمة كاتبة وكان العرب امة غير كاتبة ثم فى ميدان الفكر والفلسفة ظهر عندنا كثير من الفلاسفة العرب مثل الكندى والفلاسفة المسلمين كالفارابى وأضافوا أشياء كثيرة فى الفلسفة ، وفى ميدان الرياضيات ابتكرنا الصفر وهو شىء خطير ان يبتكر المسلمون فى عالم الاعداد ، الصفر الذى قلب الفكر الرياضى رأسا على عقب ، وابتكروا علما جديدا هو الجبر، وحتى الكلمة نفسهاكلمة عربية ، فى الفلك أضافوا سمتا جديدا للشمس والمسلمون هم الذين توصلوا الى هذا السمت على يد العالم الفلكي المسلم الكبير البتانى وهو نفس السمت الذى وصل به الامريكيون والروس الى القمر ، والبتانى يعد واحدا من احسن عشرين فلكيا فى تاريخ العالم فى الوقت الحديث

وفى تاريخ الطب نجد نفس الشىء فنجد الرازى لاول مرة يكتب كتابا فى طب الاطفال ، المسلمون هم الذين ابتكروا فكرةالمستشفى ،فهى لم تكن معروفة. فالمستشفى بطرازه ووظيفته ونظامه ورعاية المريض كل ذلك نظام أسلامى .اذن الحضارة الاسلامية استفادتمن حضارات اخرى ولكنها اضافت وابتكرت وابدعت ولم تغفل القيم الانسانية ولا القيم الروحية وبذلك ادته النفع الكثير لعالمنا الانسانى قديمه ومعاصره

***

● احمد فراج : كيف كانت ركيزة العرب الى كل التقدم الحضارى الذى احدثه العرب والمسلمون ؟

● يقول الدكتور يحيى هويدى ،ان موضوع دراسةالعلم

هو المادة والكون والانسان ، وموضوع دراسة الدين أيضا هو المادة والكون والانسان ، لكن الدين يقوم بدراسة الكون والانسان من حيث دلالتهما على الخالق ، أما العلم فلا يقيد نفسه بهذا الهدف ، لكن ليس فيه وليس فى التجارب التى يقوم بها العلماء ولا النتائج التى وصل اليها العلم ويصل وسيصل ما يتعارض أبدا مع الهدف الذى يهدف اليه الدين . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية نجد أن دراسة الدين للكون والانسان دراسة كلية ، أما دراسة العلم لهما فهى تتسم بالطابع الجزئى ، العلم يهتم بجزئيات المادة والكون والانسان ، ومن هذه الناحية نستطيع أن نعتبر العلم جزءا من الدين ، وهذه المواءمة بين رسالة العلم ورسالة الدين تمثل أساسا هاما وركيزة جوهرية فى اسس الثقافة الاسلامية بوجه عام .

ولقد وجد المسلمون فى القرآن الكريم ، كثيرا من الشواهد والبينات على هذه المواءمة ، فالوحى كما نعلم بدأ بأمر وجهه الله سبحانه الى النبى عليه الصلاةوالسلام بالقراءة : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » بل ان الله ليقسم بالقلم : « ن ، والقلم وما يسطرون » بل لقد جعل أولى العلم شهداء على قضية التوحيد والكون معه نفسه : « شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولو العلم قائما بالقسط » والقرآن زاخر بالآيات التى تمجد العلم والعلماء : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » و « قل رب زدنى علما » ، « انما يخشى الله من عباده العلماء » .. والقرآن زاخر أيضا بالآيات التى تحض على النظر والتفكير والتأمل فى آيات الكون : « وفى الارض ايات للموقنين ، وفى انفسكم أفلا تبصرون » .. « سنريهم آياتنا فى الافاق وفى انفسهم

حتى يتبين لهم انه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » ، وهذه الايات التى تحض على النظـــر والتفكير والتدبر وتحكيم واعمال العقل الانســـانى ، لا تتعارض أبدا مع آيات أخرى تحض على الايمان بالغيب : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين » والغيب هو ما فوق عالم الشهادة والحس ، وقد يدل ذلك أيضا على هذا الجزء من عالم الشهادة الذى لم يصل اليه العلم بعد ، وقد يدل كذلك على هذا الجزء الذى توصل اليه العلم فى صورة ما ، لكن هذا لا يمنع أن يقدم مستقبل العلم صورا أخرى لهذا الجزء .

الغيب مفهوما على هذا النحو لا يتعارض ابدا مع العلم ومع الايمان بالعقل الانسانى ، والاسلام قد حرص كـل الحرص وحرصت الثقافة الاسلامية ايضا على أن تحض على الايمان بهذين معا بالعقل وبالغيب .. لماذا ؟ لتبعث الطمأنينة فى نفس الانسان . الانسان امام ألغاز الـكون ومعمياته قد يصاب بالهلع ويعتقد انه لا قبل له أبدا بحل ألغاز هذا الكون ومن ثم يسلك فى الحياة مسلكا مأسويا ، وهذا ما حاولت الثقافة اليونانية ان تقدمه له فصورته بأنه الشخص المضيع الغريب ـ من الغربة والاغتراب ـ الذى لا قبل له بحل كل تلك الالغـــاز ، ومن ثم فعـليه بالمأساة التى تقدم له الدواء عن ضياعه ولوعته .

والثقافة الاسلامية اذا قورنت بها نجد انها قـــدمت بالفعل اساسا هاما من اسس الحضارة . اعنى قضـــية الايمان بالغيب والعقل معا وعدم تعارضهما والمواءمة بين رسالة الايمان والدين وبين رسالة العقل من ناحية اخرى هذه الاسس هى التى حفزت المسلمين وأبناء الحضـارة

لاسلامية جميعا ، من غير المسلمين أيضا ، لأن الحضارة
لاسلامية قد أظلت بظلها المسلمين والنصارى واليهود
المجوس ، هي التي دفعت ابناء هذه الحضارة الى أن
نهلوا من منهل الثقافات المعروفة في ذلك الحين وهي
لثقافات اليونانية والفارسية والهندية ــ وعلى رأسها
جميعا الثقافة الهندية ، والثقافة اليونانية كانت هي
لسائدة في غرب آسيا وفي مصر ، في دولتين عظيمتين :
لدولة البيزنطية والدولة الفارسية بعد أن غزاها
الاسكندر . واستمرت هذه الثقافة سائدة في الدولة
الساسانية آخر دولة عظمى حكمت ايران قبل الفتح العربي

ومن هذا يتضح ان الثقافة الاسلامية قدمت أسسا
عامة ساعدت على اكتشاف أبنائها للعلم من كل سبيل
ومن كل بلد دون تفرقة بين حضارة وحضارة ، بين شرق
وغرب ، بين دين ودين ، وكان هدفها في هذا أن تثرى
ثقافة الامم .

● احمد فراج : فهم المسلمون اذن القرآن ودعوته
للعلم واحترامه للعقل ولم ينشأ ذلك التناقض بين الايمان
بالغيب والايمان بالعقل وسلطانه والدور الذي يستطيع
أن يستخدمه به الانسان للوصول الى التقدم وسائر
فروع المعرفة وكان ذلك الانفتاح والاقبال على العلم ،
فكيف كانت ملامح ذلك الاهتمام من جانب المسلمين بالعلم
وتحصيله ؟

● يتحدث الدكتور محمود قاسم عن هذا الجانب
فيؤكد أولا على نقطة جوهرية في خصائص المسلمين
والعرب فالعلم لا يمكن أن يثمر الا اذا كانت هناك حرية
فكر ، والعرب بطبيعتهم احرار لا تقيدهم قيود بيزنطية
ولا تقاليد دولة الفرس ، والاسلام في جوهره دعوة الى
الحرية ، لانه يطالب الانسان ان يخلص العبودية لله

وحده، ومتى أخلص العبودية لله وحده فهو حر ، فهذه الحرية فى طباع العرب ، وهذه الدعوة الى حرية الفكر فى الاسلام وضحت فى القرآن منذ اياته الاولى .

وطبق الرسول ذلك عمليا عندما طلب الى اسرى بدر ان يفدوا انفسهم بتعليم كل واحد منهم عشرة من صبيان المسلمين ، ثم هذا الحرص نجده من اول الامر على كتابة القرآن مع بقائه فى الصدور ، ثم ان هذه الامة انطلقت بحريتها وبعبوديتها لله وحده واستطاعت ان تحقق فى فترة قصيرة ما لم تحققه أمة فى التاريخ . وليس من العجيب أن نجد اندفاعا من العرب الى تحصيل العلوم فى جميع مظاهرها ، لقد طلب من المسلمين أن يطلبوا العلم، والامبراطورية الاسلامية ــ اذا جاز هذا التعبير ــ امتدت فى فترة وجيزة من المحيط الى الهند والصين .

وكان من الطبيعى ان يصحب هذا التقدم الاجتماعى تقدم علمي . بعد الفتح الاسلامى وجدنا بلادا غير مدينة الاسكندرية ، تشتغل بالعلم مثل انطاكية حيث كان الامويون يحكمون فى دمشق ، والاسلام لم يعرف التعصب ولا العنصرية ولذلك شجع على الدراسة والعرب لهم ميزة هامة جدا وهى انهم يريدون دراسة الاشياء الواقعية ويريدون ان يطبقوا العلم من اجل العمل اى انهم لا يريدون دراسة العلم من أجل المعرفة ، لان الله كرم الانسان وأراد منه ان يسخر الكون ولا يمكن تسخيره الا عن طريق المعرفة ، فمن الطبيعى ان يسارع الخلفاء الى تشجيع العلم ، فمثلا عمر بن عبد العزيز كان يشجع العلماء ويساعدهم . استمرت مدرسة انطاكية تخدم العلم وخاصة التطبيقى كالطب والفلك .. الخ وكانت تستعين بعلوم اليونان ، ولكن يجب الا ننسى انه ليس هناك علم يسمى يونانى مثلا لان اليونان قبل ذلك

أخذوا العلم عن المصريين ومن الشرقيين ، أخذوا عنهم الرياضة والفلك وبعد ذلك تقدموا بها ولكن المسحة الغالبة عليهم كانت الادب والفن والماساة ، بعد ذلك استمرت مدرسة انطاكية مائة واربعين سنة . عندما انتقل الملك من بنى أمية الى بنى العباس وجدنا ان العلم يرحل مع الدولة فوجدنا مدينة حران ومدينة جنديسابور التى نجد فيها اختلاطا بين الثقافات الفارسية والهندية واليونانية.

ونجد ان التشجيع يبدأ بطورة واضحة ، بينما حين بدا العلم العربى يدخل أوربا لا نجد ذلك التشجيع . مثلا الخليفة المنصور وهو ثانى خلفاء بنى العباس طلب الى بعض الاساتذة وعلماء الطب أن ياتوا الى بغداد ومنهم الطبيب « بن بختيوشع » وأسرته نصرانية استطاعت أن تبنى مجدا عظيما فى بغداد لمدة ثلاثمائة عام . طبعا فى ذلك العصر كانت الحرف وقفا على الأبناء وكان فيها اسرارها فكل صاحب مهنة يعلم ابناءه أسرارها ويقال ان بختيوشع هذا وصل دخله فى حياته الى ما يعادل ٥ر٣ مليون جنيه استرلينى ، هذا فى أيام الدولة العباسية ، وعندما جاء هارون الرشيد انشأ مستشفى فى بغداد وشجع الحركة العلمية وحركة الترجمة . ونلاحظ ان المترجمين كانوا من غير المسلمين . ولم يكن لدى المسلمين تعصب لانهم قوم عمليون يريدون أن يطلعوا على الثقافات . وأصبحت الترجمة « موضة » فالخليفة يشجع عليها ويعطى الأموال ويبعث الوكلاء الى بيزنطة عاصمة الروم . ووكلاء الخليفة نفسه يذهبون لشراء المخطوطات واذا بالاعيان والأمراء يحذون حذو الخليفة فيشجعون المترجمين وهكذا .

ثم جاء المأمون الى بغداد بعد أن كان فى خراسان واستخدم بعض المترجمين مثل يحيى بن ماسويه وحنين بن اسحق ، وكانوا يترجمون الطب كما نقلوا الفلك والرياضة عن الهند

وانتشت المدارس الطبية فكان فى بغداد عدة مدارس ومستشفيات وكانت لعلاج جميع المرضى مسلمين أو غير مسلمين ، وكان العلاج بالمجان مع العناية التامة ولكل مستشفى رئيس ، وهكذا .. لقد ارتحل العلم من الاسكندرية الى انطاكية الى حران الى بغداد ، ولقد كان هناك المتخصصون فى الترجمة كما كان هناك المشغولون بالتاليف والابتكار ، كما رأينا بعد ذلك ابن سينا والرازى وعبد اللطيف البغدادى وغيرهم .

● ويطرح موضوع تشجيع العلم والترجمة تساؤلا فى أذهان البعض ، هل كانت الحركة العلمية عند العرب تقوم فحسب على الترجمة والانفتاح على « علوم الأوائل » كما كانت تسمى ، وبمعنى آخر هل كان دور العرب مجرد عملية نقل وترجمة اثار الحضارات القديمة لوضعها بين أيدى اوربا فحسب ، وهل كان المسلمون مجرد « جسر » عبرت عليه الثقافة القديمة ولم يكن لهم قدرة على الابتكار؟

هذا ما يجيب عليه د . يحيى هويدى فيوضح أولا أن نقل ثقافة شعب من الشعوب ليس عيبا وانما العيب هو أن يصد الشعب نفسه عن الانتفاع والافادة من الثقافة ايا كانت لاعتبارات دينية أو عنصرية ، هذا هو العيب الذى سجلته وتسجله الانسانية على حضارات أخرى غير الحضارة الاسلامية . أما الحضارة الاسلامية وأساسها القرآن لقد عارضت تلك الاعتبارات ولم تقم لها وزنا

ويقدم لنا « الكندى » الفيلسوف العربى مثلا فيقول ينبغى الا نستحى من استحسان الحق واقتنائه وان اتى من الاجناس القاصية عنا والامم المباينة لنا ، فانه لا شىء اولى بطلب الحق من الحق .. والثقافة الاسلامية اتجهت منذ نشأتها هذا الاتجاه العالمى وهذا من أهم مميزاتها ، ولكن ليس معنى انفتاحها انها اكتفت بأن كانت همزة

وصل بين الثقافة اليونانية والثقافة الغربية ويهمنى ان اقدم هنا عدة ملاحظات ، فالثقافة العربية الاسلامية قامت على استيعاب الثقافات الاخرى ، ومعنى الاســـتيعاب هو الهضم والتمثيل والاضافة ، فاضافت لها الجديد والامثلة على ذلك كثيرة ، واشير هنا الى قضية الترجمة التى ذكرها الدكتور قاسم، فابن اسحق المترجم كان يعرف السريانية لغة الكنيسة الشرقيةالتى ترجماليها كثيرا من كتب اليونان ولكن ابن اسحق لم يكتف بالنقل بل رجع الى الاصول اليونانية نفسها ولذلك جاءت الكتب العربية اكثر دقة فى الترجمة من اليونانية من الترجمـــات السريانية وشهادة المستشرقين فى هذا لا تقبل الشك فالمستشرق (ادوارد براون) فى كتابه الطب العربى يقول « ان العرب كانوا فى نقل التراث اليونانى الى العربية اكثر دقة من الاوربيين فى نقل التراث العربى الى اللاتينية فى العصور الوسطى» ذلكان الغرب اكتفى بالنقل من العربيةالى اللاتينية، ولم يكن الامرعند العرب مجردترجمة بلكان فيه اضافات اصيلة وجوهرية، فاقدم كتابفى طبالعيون هو الذىجمعه والفه حنين بن اسحق وهو عشر مقالات فى العين ولم يكن مجرد ترجمة وانما كان تقديما لطب العين بطريقة خاصة اصبح الكتاب معها يمثل مرجعا هاما من مراجع الطب العربى فى القرن الوسطى .

● يزعم البعض ممن لم يستطيعوا انكار اثر الحضارةالاسلامية ان الفضل فيها يرجع الى العلماء الذين دخلوا الاسلام ولم يكونوا من العرب الخلص ، متوهمين أن ذلك يجردها من الاصـــالة والذاتية . فما ردنا على هذا الزعم ؟

● يتحدثالدكتور . محمود قاسمعميد كلية دارالعلومعن هذا الجانب فيقول ان هذه المسألة ترجع الى العصور

الوسطى وعلى التحديد اواخر القرن الحادى عشر واوائل القرن الثانى عشر . ويجب الا ننسى اننا لا يمكن ان نفصل العرب عن الاسلام والحضارة الاسلامية ، فهما مزيج متكامل . والجو الحضارى العربى الاسلامى ممتزج كل الامتزاج . ولقد قامت حملة تشويه الحضارة الاسلامية منذ العصور الوسطى وساهم فيها اليهود مساهمة كبيرة جدا اثناء نقل تراث العرب الى اوربا لانهم كانوا تجار علم ومال وكانوا يجيدون العربية لأنهم كانوا يعيشون بين العرب وكانوا كذلك أهل خبث ودهاء ولقد ظل ذلك شأنهم حتى ساءت أحوال العالم الاسلامى فى القرن ١٩ ولذلك نجد من أشهر المستشرقين يهوديا اسمه مون يقول أن العرب شوهوا العلم ولم يأتوا بشيء جديد . وهو يضع العرب والمسلمين فى سلة واحدة . والواقع انه فى القرن ١٧ كان العلم العربى والفكر العربى يغزوان اوربا بشدة ، وكانت أوربا تقاوم على عكس ما رأينا خلفاء المسلمين الذين كانوا يشجعون على معرفة الثقافات الاخرى وهو موقف مختلف تماما . ولقد وضع المسلمون الاسس لحركة علمية شاملة وظلت أوربا من القرن ١٢ الى القرن ١٧ تقاوم العلم العربى والفكر الاسلامى . فاذا رجعنا الى القرن ١٩ نجد مون هذا والمستشرق ارنست رينان ـ وكان الاخير يجيد العربية واللغات السامية ـ نجد رينان مثلا يتهم العرب بأنه ليست لديهم اصالة وأن الشعوب الاخرى هى التى ساهمت فى حضارتهم وهذا غير سليم فنحن نجد ان ابن الهيثم وابن خلدون وعبد اللطيف البغدادى وابن رشد وابن باجه وابن صهيب وابن عربى وهو متصوف وغيرهم كثيرون ، فمثلا نجد ان عند ابن عربى آراء أستطيع أن أقول انها توجد فى الفلسفات الحديثة ولكنه مطموس لا يعرف عنه احد شيئا

فما هي حكاية رينان بالضبط ؟ ..

لقد كان يقول أن العقلية العربية بعقلية جامدة وليس لها أى اصالة .. والسبب ـ في رأيه ـ ان العرب يهتمون بالجزئيات وقوم لديهم خيال ، وطبعا هو يريد ان يزكى اليونان لأن اوربا حريصة على ان تنكر فضل العرب لأن واحدا من كبار علمائهم يقول « ان العصور الوسطى هى سبة في جبين اوربا » والعصور الوسطى بدأت عندهم فى القرن السابع الميلادى ، والقرن السابع هو مهبط الاسلام ، فهذه السبة يريدون ان يمسحوها بأى طريقة .

اما اليونان فقد قال عنهم رينان انهم عباقرة وعندهم الكليات ـ أى المعانى العامة ولقد رد عليه السيد جمال الدين الافغانى باعث النهضة الاسلامية ، وناقش معه مسألة العقلية السامية والعقلية الالية .

ونحن نعلم من ناحية اخرى أن الاستشراق كان يسير دائما مع الاستعمار بهدف تحطيم معنويات الشعوب الاسلامية والعربية ومحو خصائصها لأنه بذلك يستطيع ان يستغلها الى الابد . ولست أريد ان اردعلى رينان بالقضايا العامة والكليات وانما اتبع معه المنهج العربى وانا أسلم بأن العرب لديهم بالفعل الاهتمام بالجزئيات والاهتمام بالخيال ، وعندما ندرس المنهج العلمى ـ وهو منهج عربى ـ نجد أنه لا يقوم الا على اساس الاشياء الجزئية والخيال ولذلك نجد مثلا روجر بيكون فى القرن ١٦ أراد ان يحرر اوربا من التفكير اليونانى فاخبرهم عن وجود مناهج وطرق علمية عظيمة جدا :

المنهج الاول هو منهج اليونان اذا كان مطابقا للواقع ، وطبعا المنهج اليونانى عبارة عن قضايا فضفاضة وعامة جدا ولكنها غير مطابقة للواقع .

والمنهج الثانى هو راى رجال القانون اذا كان

مطابقا للعقل ، ثم انتقـــل نقلة سريعـــة وقال ، اما المنهج العلمى الصحيح فهو المنهج التجريبى الذى يقوم على ملاحظة الجزئيات واستخدام الرياضة .

فاذا رجعنا الى من كان يستخدم ملاحظة الجزئيـــات والرياضة نجدهم العرب ، فمثلا البغدادى يرفض كل ما يكذبه الحس لانه لا يمكن أن يكون معقولا .من ناحية الخيال ، فلاحظ ان اى انسان مخترع لا يمكن ان يخترع من العقل، فلا بد أن تكون هناك مادة أولية وعناصر كثيرة ثم يفكر في طريقة تركيبها،ولقد ضمت حضارتنا الاسلامية أصحاب الابداع والاختراع .

ولقد قرأت شيئا عجيبا عند ابن عربى ، بحثا عجيبا فى الخيال، ووجدت عنده نصوصا تشبه نصوص نيوتن . يقول ابن عربى : أن الشخص تأتى له الفكرة كلمـــح البصر ، كاشراق ، وهذا يسمى الخيال المجمل ، بعد ذلك تأتى التفاصيل ـ وهى الجزئيات التى يعيبها علينا رينان ـ وكل تفصيل يضع نفسه فى هذه الفكرة الاجمالية . فمـــاذا يقول نيوتن ؟ انه يقول اذا كانت بحوثى قد أدت الى بعض النتائج المفيدة فذلك لاننى أجعل موضوع البحث نصب عينى دائما ، ثم انتظر حتى تسطع الاشعة الاولى التى هى الخيال المجمل ، ثم يزيد الضوء شيئا فشيئا حتى يصبح مفعما كاملا وهى التفاصيل . ونستطيع أن نقارن بين العبارتين .

مثال اخر لابن عربى ايضا يدل على الايمان بفـــكرة القوانين العلمية ، فيقول أن النـــاس تعجب بأعمـــال السحرة والشعوذة مع أن أعظم اعجاب يجب أن يوجه الى القوانين التى وضعها الله فى الكـــون . وانظـــر بعد هذا الى هنرى بوانكاريه يقول هناك شعوب مازالت تعيش فى معجزات مستمرة ، أى الشـــعوب البدائية ،

عندما نحضر لها « فوتوغرافية » مثلا تعتقد أن فيها عفريتا أو شيطانا ، لكن الشـــعوب المتحضرة هي التي ترى أن قوانين هذا الكون هي المعجزة الكبرى . ونحن نعرف أن ابن عربي عاش في القرن الثالث عشر، وهنرى بوانكارية في القرن العشرين .

والخلاصة ان المنهج التجريبي لم يدخل أوربا الا ابتداء من القرن الثالث عشر بل وحورب كثيرا حتى بدأ يتنفس وعندما عرفوا قيمته أخذوه وخدعنا ـ نحن أصحاب المنهج ـ في منهج ارسطو .

● **فما هو اذن هذا المنهج العربي العلمي بشيء من التفصيل ؟**

● يجيب د . يحيى هويدى وكيل كلية الاداب بجامعة القاهرة فيقول : المنهج العلمي هو المنهج التجريبي القائم على الملاحظة وعلى التجربة والذى ينتهي من اســتقراء الظواهر الى استخلاص القانون العلمي العام .. القانون العلمي هو تفسير علمي للظواهر وهذا المنهج عرفه العرب وابتدعوه عن طريق ايمانهم بالحس والمشاهدة وعرفوه ايضا عن طريق الاستعانة بالالات والاجهزة باعتبار انها أدوات مساعدة لتقوية الحواس ففي فن الطب نجـد طبيبـا مثـل « ابن النفيس » كان يقيم علمـه على التشريح .. تشريح الجثة ، وذلك في الوقت الذى كانت فيه أوربا تعتقـد ان هذا التشريح رجس من عمـل الشيطان ، وانه لا يمكن ان يتفق مـع كرامة الجسم الانسانى . وثابت أن أول عملية تشريح تمت في أوربا أجريت في باريس سنة ١٤٧٨ بعـد وفاة ابـن النفيس بمائتي عام تقريبا .

جابر بن حيان مثلا عالم الكيمياء المشهور كان يعتمد في دراسته لعلم الكيمياء على التجربة والملاحظة وكان يعد الاجهزة بنفسه . وكذلك ابن الهيثم في تجاربه على الضوء

وانتشاره وانعكاساته ، كان يصنع الآلات بنفسه ويجهزها ليثبت تجاربه . لقد اصبح علم الكيمياء على يد العلماء العرب علما تجريبيا محضـــا لا علم أسرار . والعرب بطبيعتهم كانوا يتجهون بتفكيرهم الى التجربة والواقع من الناحية العلمية . وفى الناحية الفقهية كانوا أيضـــا يتجهون الى العمل النافع الذى ينفع المجتمع العصرى.

والعقليات العربية كانت تتجه دائما الى العلم النافع الذى ينفع الانسانية والمجتمع اما الفكرى النظرى فكانوا لا يحفلون به كثيرا . فى الطب مثلا كان الفحص الطبى عند الطبيب المشهور ابن سينا يقوم كما يقوم اليوم على تشخيص المرض فيبدأ بالاستماع الى المريض ولا يكتفى بذلك بل يسأله عن أسرته وعما اذا كان قد أصاب احد افراد الاسرة مرض أم لا ثم يتعقب افراد الاسرة وامراضهم ثم ينتهى بعد ذلك الى تحليل البول وجســـس النبض

ويكفى ان نعلم ان كتاب «القانون» لابن سينا طبع فى الثلاثين سنة الاخيرة من القرن الخامس عشر ، خمس عشرة مرة وطبع فى القرن السادس عشر ، عشرين مرة ، وظل يدرس فى القرن السابع عشر فى جامعات فرنسا وجامعة بوانكاريه بالذات حتى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا ، فالعرب اقاموا دراساتهم الطبية على نفس الأسس التى نشاهدها الان . طبيب مثل ابن عباس يقول ان جس النبض هو رسول لا يكذب وله كلمات كثيرة فى دقة التحليل الطبى .. كلمات يأخذها الاطبـــاء الآن على انها قضايا مسلمة . الجراحة وفنها توصل اليها أبو القاسم وتوصل اليها بمعداتها وأجهزتها الكثيرة، وقدم اليونانى فى كتابه رسومات متعددة لادوات الجراحة يكاد من يطلع عليها ان يعقد مشابهات كثيرة بينها وبين أدوات الجراحة التى نشاهدها الان فى حجرات العمليات .

ووصل العرب فى نظام المستشفيات الى انظمة دقيقة جدا فكان عندهم نوعان من المستشفيات: الثابتة والمتنقلة والاولى عندما كان يدخلها المريض كان لا بد أن يخلع ملابسه ويسلمها ونقـوده الى أمين المستشفى ويلبس ملابس المستشفى ثم يستمر فيها يعالج بالمجان ويقدم له الطعام ثم لا يخرج منها الا معافى ، ودليل العافية أن يأكل دجاجة ورغيفا كما يقول المؤرخون ، وعندما يقوى على أكل الدجاجة والرغيف يغادر المستشفى ويمنح قدرا من المال ليواجه به احتياجاته حتى لا يضطر الى العمل مباشرة . كل هذه الانظمة كانت تتبع فى دقة متناهية فى العصور الوسطى عصر النـور والحضارة الاسلامية ، فى الوقت الذى كانت فيه أوربا غارقة فى الظلام .

صفحة

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

هذا الكتاب

من اجل الخدمات التى تقدمها الاذاعة المرئية - في بلادنا الندوات الدينية الشائقة التى يترقبها المشاهدون والمشاهدات اكثر من عشر سنوات - بعد ظهر أيام الجمعة من كل أسبو برنامج « نور على نور » .. اذ يتابعون فيها آراء نخبة من ك العلماء ورجال الفكر الاسلامى البارزين ، فى الموضوعات الهامة ترتبط بحياتهم وحياة ابنائهم وبناتهم . كما يقفون من خلال المنا التي يعرضها البرنامج على الكثير مما يدق على الفهم - او . فيه الآراء - من خفايا الجوانب الدينية والروحية ..

وقد كان من اهم أسباب نجاح هذا البرنامج ، أن تولى تقـ والاشراف عليه محدث لبق عامر القلب بالايمان واسع الاطلاع ما الذهن ترتاح النفس الى حديثه ، يحسن اختيـــار الموضوعات يثيرها للنقاش والمناسبات التى تثار فيها ، فضلا عن توفيقه فى اخ المفكرين ورجال الدين المتفقهين فى هذه الموضوعات .

وقد تمنى كثيرون - فى مصر وسورية وليبيا والسودان والم العربية السعودية والجزائر وغيرها من البلدان العربية والاسلامية ان تظهر هذه الحلقات فى كتب ، حفاظا على هـــذا الزاد الرو والبحوث الرصينة الجادة والدراسات الدينية القيمة . وحتى يستف بها ويفيد منها الذين فاتهم الاستماع اليها ومشاهدتها . وتحقيقا لم الرغبات ينشر « كتاب الهلال » مجموعة مختارة من حلقات هـــ البرنامج ، فى هذا الشهر المبارك الذى يحتفل فيه المسلمون من مشا الارض الى مغاربها بشهر رمضان المعظم .

١٢ قرشا